حياة بنى إسرائيل فى مصر
بين حقائق الدين ومصادر التاريخ

هشام سرايا



حياة بنى إسرائيل فى مصر
بين حقائق الدين ومصادر التاريخ

هشام سرايا


دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سرايا، هشام.
حياة بنى إسرائيل فى مصر بين حقائق الدين ومصادر التاريخ / هشام سرايا. – ط ١. – القاهرة: مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع، ٢٠١٠.
عدد الصفحات : ٦٦٠ صفحة.
المقـــــاس : ١٧ × ٢٤ سم.
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٢٠ ١٥٧٤.
١ – اليهود فى مصر.
أ – العنوان.

٣٠١,٤٥٢٩٦٠٦٢

رقم الإيداع ١٦٧٦٥ / ٢٠١٠
ISBN 978 - 977 - 320 - 157 - 4

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م

الناشر: مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع
مؤسسة الأهرام – شارع الجلاء – القاهرة
تليفون: ٢٧٧٠٣٤٤٥ – ٢٥٧٨١١٠٣
البريد الالكترونى: actp@ahram.org.eg

الإخراج الفنى: محمد عبد الله فه·
تصميم الغلاف: محمد محسن

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾

«طه»

إهداء

إلى أول من أضاء لى الطريق..
فى قريتنا قريبا من موقع الأحداث، حكى لى قبل أن أقرأ أى كتاب قصص الأنبياء فى تسلسل جذاب.. نقيا من كثير من الأساطير والخرافات.. وغير قليل من التأثيرات التراثية اليهودية التى تغاير منهج الرواية الإلهية.
إلى ذلك الفلاح فى شرق الدلتا الذى كان أول من ربط فى عقلى بين القصة الدينية وزمانها ومكانها والملوك المعاصرين لها. ودفعنى للبحث عن الحقيقة بين كتب الدين والتاريخ.
إلى روح والدى السيد سرايا - رحمه الله.

هشام سرايا

الفهرس

مقدمة

«وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)» [طه].

فى تلك الليلة كان القدر الإلهى على موعد جرى الإعداد والترتيب لحدوثه منذ زمن. وفى اليوم المحدد حل على الموقع المختار فى الوادى المقدس راعى غنم عبرانى، كان هو ذلك الشخص الذى اختاره الله تعالى وأعده لمواجهة أعتى ملوك الأرض وأكثرهم أوتاداً، فاصطنعه سبحانه ليحمل رسالته لإحداث التغييرات التى أرادها ورتبها للأرض فى ذلك الزمان.

الموقع فى جنوب سيناء قريباً من خليج البحر الشرقى الذى يفصل حدود مصر عن أرض مَدْين، كان نهار ذلك اليوم شديد البرودة، وتحيط بأرجاء المكان جبال شاهقة تُطاول قمتها عنان السماء وتتخللها السحب الكثيفة التى حجبت الشمس، فلا يتبين السائر أوقات النهار أو جهات المكان، أشجار ونباتات صحراوية تناثرت فى وديان الجبال وعلى سفوحها، لم يعبر اليوم من بشر على تلك البقعة سوى ذلك الشيخ الراعى الذى ساقته أقداره متوكئاً على عصاه إلى حيث المكان والزمان المحددين، معه زوجه وولديه وحمارين يحملان الراعى وأهله وغنمات له. تقول كتب التراث إنها كانت سوداً حساناً، تناثرت فى الوادى وعلى تدرجات الجبال تقتات من نباتات الصحراء، حاول الراعى استطلاع المكان وفجأة تنبه أنه ضل طريقه، وقد كان صاحب علم واسع ودراية، يعرف جغرافية الأرض واستخدام الفلك فى الاهتداء وتحديد الاتجاهات، فظل طوال هذا النهار يأمل أن يهتدى إلى الطريق على اتجاه الشمس، لكنه لم ير لها بصيص ضوء، حجبتها السحب الكثيفة عن الظهور، وبدأ الليل يتسرب، وأخذ البرد والظلام يشتدان شيئاً فشيئاً، حاول الراعى جاهداً أن يورى زناده ليشعل ناراً فلم يور شيئاً، اشتد به القلق على زوجه وولديه، وكان ينتظر دخول الليل ليحدد اتجاهاته على النجوم، لكن ما زالت السحب الكثيفة تقف حائلاً بينه وبينها، وازداد قلقه وبدأ يتسرب إليه اليأس أن يجد هُدى إلى طريقه فى تلك الليلة.

جلس الراعى العبرانى يتأمل ما حوله، باحثاً فى أرجاء المكان عن أية علامات أو إشارات يمكن أن يستخدمها لكى يهتدى إلى طريقه دون جدوى، لم يكن حوله سوى ظلام كثيف يكتنف الجبال الشاهقة، قدح زناد فكره باحثاً فى كل ما سبق أن حصَّله من علوم وحكمة لكى تساعده على النجاة، لكن الأمر لم يكن أحسن حالاً من محاولاته إيراء زنده

لإشعال الحطب. وفى وسط هذا الظلام الحالك والجبال الشاهقة والبرودة القاسية رأى ناراً فطلب من أهله أن يمكثوا، وذهب فى اتجاه النار يستطلع الأمر، لقد حانت الآن ساعة موسى مع القدر، وحتى تلك اللحظة لم يدر بخلده أن حياته سارت وفق تخطيط إلهى محكم منذ مولده وحتى تحقق اللقاء مع الله.

ولد موسى فى مصر لعائلة تنتمى إلى قبيلة إسرائيلية تعيش فى شرق البلاد منذ أن استقر الأجداد فى زمن يوسف ويعقوب - عليهما السلام - وفى زمن ميلاده كانت الأوامر قد صدرت من فرعون هذا العصر، باستباحة دماء ذكور أطفال بنى إسرائيل، وعندما خافت عليه أمه استجابت لوحى السماء وألقته فى النهر، فحمله إلى بيت هذا الفرعون الظالم، وانتُشل من النهر ورأته امرأة فرعون وتعلَّقت به، وعاش فى كنف البلاط الملكى وتربى تربية الأمراء، تعلم فى مدارس المعابد والتحق بأعرق جامعة على الأرض، فآتاه الله علماً واسعاً ثم حُكماً فى أقوى وأعظم دولة فى العالم وفى أزهى عصورها وقت أن كانت تبسط نفوذها على مساحات شاسعة من العالم القديم، لكن فرضت الظروف على موسى أو كان ذلك قدره، أن يخرج هارباً من مصر إلى أرض مَدْين، وهناك تزوج وعاش سنوات من عمره يعمل فى الرعى، ولقد خرج بأهله متنقلاً بين مراعى الصحراء، واليوم حلَّ بهذا الوادى وحتى لحظة أن رأى ناراً لم يكن يتوقع هذا التغيير العظيم القادم فى حياته.

ارتجت الجبال الشاهقة بصوت الله العظيم وهو يكلِّم موسى «**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾** » [**سورة طه**]، ذكَّره الحق بفضله عليه وعلى أمه وما صنعه معه لإعداده حتى حان لقاء الله لتكليفه بالرسالة، يقول تعالى: «**فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾**» [**طه**].

إن أى عبارات مهما كان بديع بلاغتها وقوة تأثيرها ودقة استخدام ألفاظها للدلالة على الحدث - سوى القرآن الكريم - لن تستطيع أن توفى هذا المشهد حقه.

ما هو القدر الذى عناه الله سبحانه وتعالى؟

- أهو قدر موسى الذى اعتقد أنه ضل الطريق ثم اهتدى إليه من أوسع أبوابه؟
- أم قدر بنى إسرائيل الذين يعيشون فى مصر - وكانوا آنذاك يعذَّبون ويسخَّرون فى أشق الأعمال - وحان موعد خلاصهم؟
- أم قدر فرعون الطاغية وحاشيته وجنوده؟
- أم هو قدر مصر حاضرة العالم والقوة العظمى فى العالم القديم؟

إنه بالقطع كان قدر هؤلاء جميعاً، أعد الله تعالى له منذ أن دخل بنو إسرائيل مصر وأسكنهم يوسف فى أرض جاسان فى شرق الدلتا فى ظروف تاريخية، كانت فيها مصر مهيأة لاستقبالهم وكانوا أفراداً قليلين، لكنهم اليوم وبعد بضعة قرون صاروا شعباً يمكن أن يبلغ

تعداده عدة آلاف، كما تغيرت ظروف مصر التاريخية التى استقبلتهم فيها وأصبح وضعهم بالغ السوء، فاستُعبد رجالهم، واستبيحت نساؤهم، ولم تعد تجدى قوة لخلاصهم، وكانوا فى انتظار رجل الله القادم لإنقاذهم والرحيل.

وكان جبروت الحضارة المصرية يبسط نفوذه فى أنحاء الأرض تحت سيادة وهيمنة المعابد الوثنية التى نسب لآلهتها الفضل فى تكوين صرح الإمبراطورية العظمى، وحصل كهنتها على امتيازات هائلة من أموال وأراضى الشعب المصرى، وجزَى الشعوب الأجنبية، نستطيع بلغة العصر أن نقول إن تلك المعابد كانت السلطة الرقابية الوحيدة على أعمال السلطة السياسية، هى التى تراقب الفرعون ورجال الحكم، وهم يطلبون منها باسم الإله مباركتهم وتأييدهم، ويحرصون فى كل أعمالهم وغزواتهم على تأكيد أنها باسم الإله ورعايته ولأجله، كان الموقف يقتضى قوة عليا تزيح هذا الصرح الشامخ الذى أقيم على أساس فاسد.

« اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣)» [طه].

وأيضاً حملت الرسالة خلاص بنى إسرائيل من عذابهم والرحيل بهم إلى أرض الميعاد.

«فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧)» [طه].

تلك هى قصة هذا الكتاب، وسوف نقدمها من البداية، من يوم بدأ الإعداد لقدر الله منذ أن دخل بنو إسرائيل مصر.

ويهدف هذا البحث فى الأساس إلى تحديد الزمان الذى دارت فيه أحداث القصة الدينية وأشخاص الرواية التى تحكيها الكتب المقدسة: التوراة والقرآن، ويأتى على رأسهم فرعون موسى.

■ ■ ■

لقد شغلنى هذا الموضوع فترة طويلة استغرقت سنوات طويلة من حياتى، وكان أكثر ما أثار اهتمامى فى القصة الدينية تحديد المكان وجغرافية الوقائع والانتقالات والزمان التاريخى للأحداث وأشخاص القصة، ولعل هذا الاهتمام كان أحد أهم دوافعى للقراءة فى تاريخ مصر الفرعونى والشرق القديم بحثاً عن آثار الرواية الدينية بين سطور التاريخ. وتطور الأمر معى، وشكّل لدى اهتماماً بالتاريخ بوجه عام، وقادنى فى مرحلة تالية إلى دراسة تاريخ مصر القديمة بكلية الآثار جامعة القاهرة، وكان ذلك فى بداية سنوات عملى بالنيابة العامة، وبعد أن أنهيت دراستى بكلية الآثار كان موضوع القصص الدينية لأنبياء بنى إسرائيل الذين ارتبطوا وعاصروا مصر الفرعونية قد أصبح فى رؤيتى أكثر عمقاً فى اتجاه أحداث التاريخ، وبدأت أستشعر فعلاً العديد من أوجه الارتباط، ولم أكف عن القراءة فى هذا الموضوع فى المجالين -

الدينى والتاريخى - وأيقنت أنه من المحتم ضرورة الربط بين الرواية الدينية وبين الأحداث التاريخية للوصول إلى نتائج صحيحة، وتشكلت فى عقيدتى ركائز البحث ودعائمه الأساسية. وعلى ضوء مصادر التاريخ تبيَّن أن القصة الدينية - خاصة فى رواية القرآن الكريم - تحوى - بخلاف الوقائع العامة للقصة - كثيراً من التفصيلات الدقيقة، وأن استخدام الألفاظ المحددة ووصف الأماكن والأشخاص التى وردت ضمن الأحداث وإن جاء ذلك بأسلوب غير مباشر فإنه احتوى على كثير من المعلومات، وفى الاتجاه المقابل فإن كثيراً من الأحداث التاريخية الغامضة تجد تفسيرها المناسب والمنطقى فى الرواية الدينية.

ورغم تزايد المؤلفات والدراسات الأكاديمية سواء فى الشرق أو الغرب عن تاريخ بنى إسرائيل وواقعة دخولهم إلى مصر ثم خروجهم منها، فإن الملاحظ فى معظمها التأثر برواية العهد القديم، ومن ثم التركيز على الربط بينها وبين تاريخ مصر المستمد من مصادره التاريخية، والذى بدأت تتضح معالمه فى القرن التاسع عشر بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية، ثم كشف حقائقه بشكل واضح فى القرن العشرين، وأيضاً تاريخ فلسطين والشرق القديم.

والمتأمل لما خرجوا به من نتائج يتضح له مدى تأثرهم وتقيّدهم بالرواية التوراتية، مع تطويع المعلومات التاريخية لتتفق معها. وفى جانب آخر ظهرت آراء ترفض الرواية الدينية على النحو الذى يقدمه المفسرون؛ بزعم تناقضها وعدم تصورها وفقاً لأحداث التاريخ أو بحجة عدم ظهور أية آثار تؤيد حدوثها وفقاً للصورة الدينية، أيضاً فإن الدراسات التى التزمت بالقصة الدينية وحاولت الوصول إلى نتائج تتفق مع التاريخ تباينت فيها الآراء واختلفت اختلافاً واضحاً فى تحديد زمان الرواية الدينية، وبالتالى أشخاصها.

ولقد حكى القرآن الكريم قصص أنبياء إسرائيل، وهذا الكتاب العظيم هو معجزة الله إلى رسوله ونبيه محمد عليه الصلاة والسلام من حيث لفظه وفحواه، وقد تعهد الله بحفظه دون تحريف أو تبديل، وهذا التعهد الإلهى يعنى أنه وإلى أبد الدهر كتاب إلهى خالص « **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** (٤٢)» [**فصلت**]. وقد نزل هذا الكتاب للعظة والعبرة وتعليم البشرية، وهدايتهم ولم يتجه فى الأساس إلى تأريخ الأحداث أو تحديد الأشخاص.

لكن بعد قراءة أحداث التاريخ سنقدم فى هذا البحث رؤيتنا فى تكامل حقائق الدين مع مصادر التاريخ، وسوف نكشف بصورة واضحة - لاشك فيها - أن للقصة الدينية مظاهر كثيرة فى أحداث التاريخ، وأنه إذا لم تكن رواية القرآن قد اتجهت بشكل مباشر إلى تحديد الزمان والأشخاص، فإن تلك الوقائع العامة قد وضعت قواعد محددة تحكم إطار البحث،

وحملت روايتها ألفاظاً وعبارات وصفات وخصائص ومعلومات دقيقة تؤدى إلى استخلاص واستنتاج كثير من الحقائق والنتائج التى سوف تقودنا إلى تحديد الزمان التاريخى وأشخاص الرواية الدينية.

■■■

وعندما شرعت فى إعداد هذه الدراسة بدأت بتدوين ملاحظاتى وظللت لعدة سنوات أنتظر الفرصة المناسبة لأبدأ العمل فى هذا الكتاب، لكن ظروف عملى بالنيابة العامة والقضاء لم تمنحنى الوقت الكافى، إلى أن تمكنت فى الفترة الأخيرة من انتهاز توافر بعض الوقت لإنجاز هذا الكتاب.

وقد كان مقرراً عندما بدأت أن يكون عنوان البحث «قصة موسى وفرعون بين حقائق الدين ومصادر التاريخ»، لكن أثناء كتابة الفصل الخاص بمراحل حياة بنى إسرائيل السابقة على ميلاد موسى فى مصر، تطور الموقف، وتبين أن إثبات مراحل هذا الوجود فى تاريخ مصر استغرق مساحة تناسب تقديم كثير من الأدلة والمعلومات التى توافرت من خلال الربط بين الرواية الدينية والأحداث التاريخية والتى دعَّمت إثبات وتقسيم المراحل، كما كشفت مراحل حياتهم عن ارتباط وثيق بملوك مصر المعاصرين وتاريخ الشرق فى تلك الفترة، وانتهى الأمر إلى أن الدراسة أصبحت فى الجانب الأكبر منها تشمل مراحل هذا الوجود منذ دخول مصر، وحتى الخروج مع موسى، وبالتالى أصبحت قصة موسى وفرعون جزءاً من الدراسة، وتغير عنوان الكتاب ليصير «حياة بنى إسرائيل فى مصر بين حقائق الدين ومصادر التاريخ».

ولا أخفى على القارئ أننى فى تقديم تلك الدراسة قد تأثرت بأسلوب كتابة الأحكام القضائية، الذى يعتمد على عرض وقائع الدعوى ثم استخلاص النتائج والأدلة منها، لذلك سأقوم بداية بعرض الوقائع التى تتحصل من اتجاهين: الأحداث التاريخية والرواية الدينية، وأرتكز عليها فى إرساء الثوابت الأساسية المقيدة لإطار البحث، وتحديد نقطة البداية فى مصر، والنطاق الزمنى لامتداد الأحداث، وأسانيد الربط بين الدين والتاريخ، أما فى المرحلة التالية فإنه استناداً إلى هذا العرض، وفى إطار من الالتزام بالثوابت ونطاق البحث، سأستخلص الأدلة على المراحل الزمنية للأحداث الدينية، وتحديد الملوك والأشخاص المعاصرين لتلك المراحل، وفى النهاية أوضح المقصود بقضية ميراث الأرض فى القصة الدينية. وعلى ذلك فإن أبواب هذا الكتاب سوف تسير على النحو التالى:

فصل تمهيدى: المصادر الأساسية للبحث: القرآن، التوراة، المصادر التاريخية.

الباب الأول: مسرح الأحداث فى مصر ودورة الحضارة المصرية وعلاقاتها بالشرق القديم.

الباب الثانى: وقائع القصة الدينية لبنى إسرائيل، وتشمل عصور الآباء الأوائل - موسى

عليه السلام - بنو إسرائيل بعد موسى وحتى سقوط مملكتى إسرائيل ويهوذا.

الباب الثالث: النتائج المستخلصة من الدراسة الدينية والتاريخية.

البـاب الرابع: المراحل الزمنية لحياة بنى إسرائيل فى مصر منذ الدخول وحتى الخروج.

الباب الخامس: فرعون موسى: ويتناول الأدلة على تحديد شخصية فرعون المعاصر لحياة موسى - عليه السلام - والشخصيات الدينية الأخرى التى أشارت إليها قصة القرآن الكريم (هامان - امرأة فرعون - مؤمن آل فرعون فى سورة غافر)

فصل ختامى: يتناول إيضاح المقصود بقضية ميراث الأرض وأرض الميعاد فى القصة الدينية.

وأطلب عفو القارىء إن وجد أحياناً بعض الإطالة أو تصور وجود تكرار، فهذا أمر اقتضاه إثبات الرأى والتدليل عليه من أكثر من مصدر، وأيضاً الرجوع إلى الوقائع التاريخية والدينية وإعادة استخدامها لإثبات الزمان التاريخى وأشخاص القصة، وقد أردت كثيراً أن أشرك القارئ معى فى استخلاص الدليل من الوقائع، كما احتاج الأمر فى بعض الحالات استخدام الدليل القرآنى الواحد لإثبات أكثر من واقعة تاريخية، فحتم ذلك إعادة الاستشهاد بالآيات القرآنية فى جميع تلك الحالات.

وختاماً، أرجو من الله العلىّ القدير أن أكون قد وفقت سواء فى عرض الوقائع أم إثبات وجهة النظر فيما انتهى إليه هذا الكتاب من رأى فى تحديد زمان وأشخاص القصة الدينية.

مصادر البحث

ظلت آثار الحضارة المصرية مدفونة فى الرمال عدة قرون، ومعه اكتنف تاريخها الغموض لفترات طويلة، وظل واقعاً تحت تأثير أسفار العهد القديم، والمعلومات المتوارثة عن الكتّاب القدماء، وما سجله رحالة اليونان والرومان الذين زاروا مصر فى الماضى وكتبوا وصفاً لها وشيئاً من تاريخها، وكان طبيعياً فى ظل غياب المصادر التاريخية، أن تزدهر رواية العهد القديم للقصص والأحداث الدينية المرتبطة بمصر أو التى وقعت على أرضها.

وفى القرن السابع الميلادى، أنزل الله - سبحانه وتعالى - القرآن الكريم، الكتاب المقدس للمسلمين، لفظاً وفحوى، وتعهد بحفظه ليكون معجزة خالدة لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام، قاصداً به - فى المقام الأول - تعليم الناس أمور دينهم وهدايتهم من الضلال إلى الإيمان، وقص الله فى كتابه الكريم قصص الأنبياء والرسل، للعبرة والعظة، فوردت دون تأريخ للأحداث أو تسمية للأشخاص المعاصرين، ولذلك اعتمد المفسرون القدامى للقرآن الكريم – وجاراهم المحدثون – على تكملة الأحداث التاريخية من روايات العهد القديم أو من المعلومات المتوارثة عن القدماء، غير المعلومة النشأة والمصدر. ولما كانت دراستنا تقتصر على الأنبياء المرتبطين بتاريخ بنى إسرائيل، ودخولهم مصر ثم خروجهم منها، فإنه قد تبين أن ما اتجه إليه المفسرون وإن كان صائباً فى بعضه، إلا أنه دفع بهم فى كثير من الأحيان إلى عرض روايات غير منطقية أو مبالغ فى تصويرها، حقيقة أنهم أدركوا ذلك فى معظمه، واجتهدوا فى الرد عليه إما بالنفى أو التشكيك. ولكن مع غياب أى مصادر تاريخية أخرى فلم يكن من الأمر بد من قبولها فى البعض الآخر، رغم ما قد يكون عليها من مثالب، ويتضح ذلك كثيراً فى مطالعة التفاسير القديمة، فنجد ابن كثير يضطر إلى ترديد عبارات مثل:

«وعند أهل الكتاب».

«وعند غير واحد من السلف».

«وقد ذكر كثير من المفسرين».

«زعم بعض الناس».

«قال علماء التفسير».

«ذكر السُّدِّى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة».

وكثيراً ما يعلق عليها ابن كثير منكراً إياها واصفاً لها بعبارات مثل:

«إن فيها مجازفات كثيرة باطلة».

«يدل العقل والنقل على خلافها».

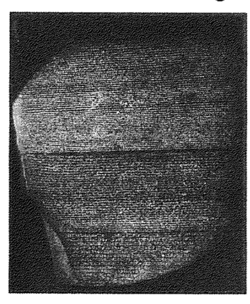
«كل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها».

«فى إسناده نظر».

«كل هذا من وضع جُهّال بنى إسرائيل؛ فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم، ولا تمييز لهم بين صحيحها وباطلها».

ومن المؤسف أن نجد كثيراً من تلك الأساطير قد استقر فى التراث الإسلامى كمتممات للقصص القرآنية التى نزلت بغرض الهداية والعظة وليس تأريخ الأحداث.

ومع بداية القرن التاسع عشر حانت اللحظة التاريخية لمعرفة التاريخ المصرى القديم، عندما عثر علماء الحملة الفرنسية - الذين اصطحبهم نابليون معه فى غزو مصر - على حجر رشيد، والمسجل عليه مرسوم ملكى كتبه بطليموس الخامس (سنة ١٩٦ ق.م) بالخطوط الثلاثة: الهيروغليفية، والديموطيقية، والإغريقية. وتمكن عالم الآثار الفرنسى جاك فرانسوا شامبليون – فى الفترة من ١٨٢٢م، وحتى وافته المنية عام ١٨٣٢م – من فك رموز اللغة الهيروغليفية، وجاء بعده علماء آخرون أخذوا فى تطبيق نتائج دراساته على النقوش المصرية القديمة، وتمكنوا من تغطية حقبة طويلة من تاريخ مصر القديم. ومع نهاية القرن التاسع عشر ترسخ علم المصريات، كما شهدت هذه الفترة اكتشافات ضخمة ومهمة، وعاد التاريخ القديم ليبرز من زوايا النسيان، وخلال القرن العشرين اتسعت دائرة الاكتشافات، وتعددت وتوافرت الوسائل التى تسهل دراسة التاريخ، وزاد عدد الباحثين والخبراء فى أعمال الحفر، وأمكن لعلماء المصريات أن يكتشفوا الكثير من أحوال مصر القديمة فى مختلف المجالات، وتعاقبت فصول التاريخ لتغطى آلاف السنين، هى عمر الحضارة الفرعونية.



حجر رشيد

وفى فترة موازية لكشف اللغة المصرية أمكن للعلماء أيضاً حل رموز اللغة المسمارية لشعب آسيا، وبمقارنتها باللغة الهيروغليفية، أصبح من الميسور التعرف على حضارات الشرق القديم المعاصرة، ولم تعد كتابات الكتب المقدسة فى عزلة عن التاريخ، الذى كان قد انقطع السند بالنسبة له لدهور طويلة، بل أصبحت مكملة ومساندة لما حققه المؤرخون فى هذا المجال، الأمر الذى أكد حقيقة وجود تلك الحضارات.

بيد أن اكتشاف التاريخ لم يفرش لنا طريق الحقيقة بالورود، فقد أكدت قراءة نصوص التاريخ تلك الحقيقة المهمة والثابتة والمستمرة خلال العصور، وهى أن الملوك والحكام وذوى

الجاه والسلطان هم الذين يكتبون أعمالهم، وأنهم يهتمون فقط بتسجيل انتصاراتهم وفتوحاتهم وبطولاتهم، ولا يسجلون أو يشيرون من قريب أو بعيد لهزائمهم أو اندحارهم، بل إنهم فى أحايين كثيرة يحولون هزائمهم إلى انتصارات، ويصورون انسحابهم على أنه فتوحات. وعلى الجانب الآخر نبحث عن حياة السواد الأعظم من الشعب بين سطور التاريخ وأنقاض الآثار. وهذه الحقيقة التاريخية لم تختص بها حضارة دون أخرى، بل ظلت سمة مميزة لجميع الأمم والشعوب، ولم يسلم منها التاريخ المصرى، ورغم أن الظروف قد هيأت لتلك الأمة أن تظل الدولة الأعظم وسيدة الشرق القديم معظم فترات حضارتها التى قاربت ثلاثين قرناً من الزمان، فإن ذلك لم يمنع بعض الملوك من إخفاء حقائق عن الشعب، أو إضفاء انتصارات لأنفسهم لم تحدث، إما إنكاراً لهزائم، أو تشبهاً بملوك عظام سابقين، أو ستراً لفشل وضعف.

وحرص ملوك مصر أيضاً على هدم وتخريب آثار أعدائهم محواً لذكرياتهم المؤلمة، ولعدم تخليدهم كما فعلوا مع فترة حكم الهكسوس، ومع آثار عهد أخناتون، فهدموا عاصمته فى العمارنة، وظلوا يطلقون عليه فى العصور التالية «مارق آخت آتون».

ولا يوجد فى المصادر التاريخية لمصر القديمة ما يشير تحديداً إلى دخول النبى يوسف وقومه إلى مصر؛ لأن ذلك قد حدث - كما سوف نعرض - أثناء حكم الغزاة الهكسوس، وهى الفترة التى حرص المصريون - بعد أن طردوهم - على محوها من تاريخ بلادهم، فعملوا على تدمير آثارهم وتخريبها، ولم تعثر الحفائر على قبر يوسف، وقد كان نائباً لملك مصر ووزيراً على خزانتها. وذكرت رواية العهد القديم أن الإسرائيليين نقلوا مومياء يوسف من قبره، وأخذوها معهم عند خروجهم من مصر، وقد أكدت المصادر التاريخية وجود قوم باسم العبرانيين أو العابيرو على أرض مصر.

وأما قصة موسى وفرعون التى انتهت بخروج بنى إسرائيل من مصر وهزيمة فرعون وموته وإبادة جيشه، فكان طبيعياً ألا تتحدث عنها المصادر التاريخية المصرية، وعرفنا وقائعها من المصادر الدينية: التوراة والقرآن دون تحديد للزمان أو أسماء الأشخاص، غير أنها - كما سوف تثبت فصول هذا الكتاب - تتكامل مع المصادر التاريخية، ويقدمان معاً الملحمة الكاملة لتفاصيل أحداث القصة وتحديد الزمان والأشخاص.

وعلى هذا فإن مصادر دراستنا تعتمد على:

الرواية الدينية: القرآن والتوراة.

المصادر التاريخية: الآثار، وكتابات الرحالة القدماء.

أولاً: القرآن الكريم

إن القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة إلى رسوله ونبيه محمد عليه الصلاة

والسلام، من حيث لفظه وفحواه وتأثيره الدائم ومفعوله المستمر فى كل زمان ومكان. وقد اشتملت تلك المعجزة على منهج الدعوة، فتعهد الله بحفظه من التحريف أو التبديل: «**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)**»[**الحجر**] تعهد إلهى بمناعة كتابه ضد أى شكل من أشكال الباطل، ليظل المنهج محروساً بالمعجزة، وتظل المعجزة فى المنهج، ويبقى لأبد الدهر كتاباً إلهياً خالصاً «**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢)**» [**فصلت**].

وينبنى على ذلك نتيجة قاطعة هى أن كل ما ورد فى القرآن صحيح، ودقيق، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل والتغيير وانقطاع السند؛ لأن الله لم يتكفل بحفظ الكتب السابقة، بل وكَلَها إلى حفظ الناس: «**وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ(٤٤)**» [**المائدة**].

وعلى الرغم من مزايا القرآن الكريم - كمصدر تاريخى - من حيث الثقة التامة فى دقة وصحة المعلومات المستمدة منه، فإن حكمة الله وغايته من كتابه الحكيم لم تتجه بشكل مباشر إلى اعتباره كتاب تاريخ، فهو لا يؤرخ الأحداث، ولا يسمى الأشخاص، وإنما أنزله الله ليهدى به الناس من الضلال إلى الإيمان، ويعلمهم أركان دينهم، وغاياته ومقاصده. وإذ قص الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قصص الأنبياء والمرسلين فذلك لأنهم خير خلق الله وصفوته، وأراد بها تثبيت فؤاد نبيه وإخباره أنه ما من نبى جاء بمثل رسالته إلا ولاقى من قومه العداء والإنكار، فيكون فى ذلك تسرية لنفسه صلى الله عليه وسلم، ويكون فيها أيضاً العبرة والعظة للأمة الإسلامية على مر العصور والدهور.

وقد اشترك القرآن الكريم مع العهد القديم فى عرض قصص أنبياء إسرائيل، ورغم تزايد المؤلفات والدراسات فى الغرب عن تاريخ بنى إسرائيل وواقعة دخولهم مصر وخروجهم منها، فقد لوحظ أن الدارسين والمؤرخين كانوا يعتمدون فقط على رواية العهد القديم، مع الربط بينها وبين ما كشفت عنه دراسة المصادر التاريخية المتمثلة فى آثار مصر والشرق القديم، والتى بدأت تتضح معالمها فى القرن التاسع عشر الميلادى. والدارس الفاحص للنتائج التى انتهوا إليها تتضح له محاولاتهم الدائبة لتطويع المعلومات التاريخية المستمدة من تلك المصادر لتأكيد روايات العهد القديم. وقد أهمل هؤلاء الباحثون الرواية القرآنية؛ وذلك - قطعاً - لأنهم لا يؤمنون به، ولكن الأمر الذى تجدر ملاحظته أيضاً أن القرآن كان محلاً لدراسة المستشرقين وعدد من الباحثين فى تاريخ الشرق القديم، إلا أنهم نظروا إليه باعتباره كتاباً مستمداً من العهد القديم ومكرراً له. فإذا كان منقولاً منه فما الداعى لاعتماده كمصدر تاريخى منفصل عن الأصل الموجود؟ ومن ادعى حسن الظن برواية القرآن واعتمده كمصدر تاريخى فإنه للأسف تعامل معه بذات المستوى الذى تعامل به مع رواية العهد القديم، والتى.

هى فى رأيهم وحكمهم أنفسهم عليها - يشوبها تناقض، وصيغت من الكهنة قديماً فى فترات متأخرة عن أحداثها، فخضع من صاغوها لتأثيرات ثقافات الحضارات التى عاصروها وعايشوها، وكانت لهم رغبات وأهواء فحاولوا تأكيد أنها من عند الرب، فحرّفوا وغيروا فى كلام الله، وبالتالى لم تعد التوراة - فى رأى العلماء الآن - هى نفس الكتاب الذى أنزله الله على موسى فى جبل سيناء، بل وصل الأمر ببعضهم إلى اعتبار أحداثها قصصاً أسطورية مستمدة من أدب وقصص وتاريخ حضارات العالم القديم، وهذا الأمر لا يمكن قبوله بالنسبة للقرآن الكريم. فالباحث الذى لا يؤمن بالقرآن ككتاب سماوى وبكل ما يفرضه هذا الإيمان، فخيراً فعل إن كان قد نحاه جانباً عن بحثه حتى لا يكون القرآن عرضة لإخضاع قصصه الدينية ووقائع بعض من أحداثها للتأويل أو النفى أو الاستبعاد.

وطائفة أخرى من الباحثين الشرقيين - لأنهم يدركون تبعات ما يفرضه عليهم الإيمان، وفى ذات الوقت وقعوا تحت تأثيرات الثقافة الغربية فى مجال البحث التاريخى - حاولت تفسير وتطويع قصص القرآن مع أحداث التاريخ بأسلوب يخالف سير الأحداث الدينية والمقصود منها، فوجدنا من ينكر غرق فرعون وموته وهلاك جيشه، لاستحالة حدوث ذلك من قبائل ضعيفة قليلة، وقدموا تفسيرات أخرى. أو من يرى أن خروج بنى إسرائيل من مصر ودخولهم فلسطين لم يكن سوى هجرات قبائل متسللة على فترات طويلة وليس وفقاً للتصوير الدينى لها، أو يحاولون تصوير معجزات الأنبياء على أنها ظواهر طبيعية تصادف وقوعها؛ رغم كونها من العوامل المؤثرة فى القصة الدينية، فهى القوة التى يمنحها الله لأنبيائه لتأكيد نبوتهم وإثبات أنهم مبعوثون من الله تعالى الذى يمدهم بسلطان وقوة لتساعدهم على أداء رسالتهم. وكان نتيجة هذا التفكير من المؤرخين أنهم يعرضون الأحداث والنتائج التى ترتبت على حدوث المعجزة الإلهية باعتبارها سرداً تاريخياً للوقائع مجردة من سبب حدوثها، وهى المعجزة، وعلى أقصى تقدير فهى ظاهرة طبيعية تم استغلالها، وذلك تأثراً منهم بالثقافة الغربية التى ترفض القوة الغيبية، وتتهم رجال الدين بأنهم يسبغون على أنبيائهم صفات خارجة عن البشر، وأن ذلك وإن كان مقبولاً فى عصر الأساطير والخرافات، فإنه لم يعد كذلك فى عصر البحث العلمى وتأصيل الأحداث، التى توجب تفسيرها طبقاً للمجريات العادية لسير الأمور وردها إلى الطبيعة البشرية حتى تكون مقبولة كحدث تاريخى، وإلا يتم التعامل معها كأساطير مصدرها الأدب الشعبى. ومنهم - للأسف - من تحايل لإنكار وقائع دينية مشتركة بين القرآن والتوراة، باستغلال التعريض بها فى رواية العهد القديم، بعيداً عن القرآن الكريم - متوهماً أنه بذلك يجنب نفسه سوء عمله - متجاهلاً تصويرهما المشترك للحدث أو المعجزة.

ومع ذلك يوجد عدد من الباحثين الشرقيين اعتمدوا القرآن الكريم فى بحوثهم كمصدر تاريخى، إلا أن النتائج التى وصلوا إليها جاءت فى ظل فروض ووقائع كانت خاضعة تحت

تأثيرات انتهاجهم تفاسير السلف، والتى استقرت كتراث ثقافى لدى المحدثين، وتعاد طباعتها فى أنحاء العالم الإسلامى باعتبارها من كتب التراث المهمة فى التفسير. وكما ذكرنا فإن هذه الكتب رغم قيمتها العالية فى تفسير القرآن الكريم؛ فإنها فى سبيل تفصيل أو إيضاح أو تتميم بعض وقائع قصص الأنبياء التى يحكيها القرآن - خصوصاً أنبياء بنى إسرائيل، أو لإضفاء المظاهر التاريخية وليس الدينية على تلك الوقائع - اعتمدت على روايات العهد القديم - رغم نقدها لها كثيراً، أو المعلومات المتوارثة عن الكتّاب القدماء، أو قدموا تفسيرات لبعض الوقائع من عقولهم أخضعوا فيها الحياة المصرية لمنهج القياس مع معارفهم وخبراتهم عن ثقافات الأمم الأخرى وطبائع الملوك المستبدين فيها أو قصص الأنبياء الآخرين مع شعوبهم. وقد أثبتت الدراسات الحديثة لتاريخ مصر عدم دقة هذا القياس لانفراد الثقافة المصرية بخصائص فريدة ميَّزتها عن الشعوب الأخرى، وأدت بالتالى إلى اختلاف تجربة موسى في مصر عن تجارب باقى الأنبياء مع شعوبهم، كما سوف توضح فصول هذا الكتاب.

إن الاعتماد على القرآن الكريم - كمصدر تاريخى - يستتبع قطعاً وبكل الاقتناع والتأكيد الإيمان بأنه موحى به من الله - سبحانه - وأنه تدخل بقدرته للمحافظة عليه من التغيير أو الإضافة أو الحذف، وأن هذا التعهد الإلهى بحفظ القرآن العظيم يعنى يقيناً أن النص الذي بين أيدينا الآن هو نفس النص القرآنى الذى أوحى به إلى النبى محمد صلي الله عليه وسلم، وعلى ذلك فإن كل ما حمله هذا الكتاب صحيح ودقيق.

وتقودنا نتيجة انعدام وجود أى معلومات خاطئة فى القرآن إلى أن ما قد يبدو أحياناً من تناقض ظاهرى فى الأحداث؛ فإنه ناتج عن إهمال ربط جميع الآيات القرآنية وتفسيرها بشكل موضوعى، أو يرجع إلى سوء فهم تبين حديثاً أن سببه عدم إدراك البيئة والثقافة والحياة المصرية السائدة - آنذاك، والتى أدخر الله تعالى إدراكها وفهمها للناس فى هذا العصر لإثبات معجزته الخالدة على مر الدهور؛ ذلك أنه بعد اكتشاف التاريخ القديم أثبتت الدراسات الحديثة ليس اتفاق القصة القرآنية مع تلك الدراسات فحسب، ولكن مدى دقة الكتاب الكريم فى اختيار اللفظ للتعبير عن الحدث أو العصر الذى وقع فيه، أو لإدراك المعنى المتكامل لحقيقة أمر القصة، وسوف ندرك بيقين كيف أن القرآن العظيم أعاد تقديم نفسه مرة ثانية فى العصر الحديث كعطاء متجدد لكل عقل ولكل زمن؛ طبقاً لطبيعته الخالدة التى تؤكد دائماً أنه كتاب كل العصور، وله فى كل دهر دليل من الدهر على إعجازه، وقد أثبتت الدراسات الأثرية الحديثة أنه مستقل تماماً عن جميع أشكال الموروثات التراثية السابقة على نزوله، وقدمت بذلك دراسات الآثار رداً حديثاً على كل من يتهم القرآن بأنه كلام بشر، وردت أيضاً على اتهام قديم ردده اليهود والكفار للنبى محمد صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرناً بأنه لم يكن يتلقى وحياً من الله وإنما هو عِلم من رجل غير عربى له علم بالتوراة والإنجيل، يضاف إلى رد الله سبحانه وتعالى عليهم أن:

«لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)» [النحل].

إن الآثار المستخرجة من باطن الأرض بعد قرون طويلة ترد - بعد فك طلاسمها وقراءة لغاتها القديمة - على المستشرقين والمؤرخين الأجانب الذين استمروا كالسلف ينظرون إلى القرآن على أنه مشتق من العهد القديم، وليس سوى نسخة محوَّرة منه، مؤكدة لهم إعجازه وأنه وحى من السماء، وتردد نقوش التاريخ قول الله تعالى: «تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)» [هود].

وتقدم فصول هذا الكتاب الأسانيد المستمدة من القرآن الكريم، والتى اعتمدنا عليها واتخذناها سياجاً لباقى المصادر الأخرى لتحقيق وإثبات وجود القصة الدينية خلال حقبتها التاريخية، وتحديد الزمان والأشخاص فى مراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر، وفى قصة موسى وفرعون حتى الخروج من مصر.

ثانياً: التوراة

التعريف

ثانى المصادر فى البحث هو التوراة. وأصل الكلمة آرامى «تورة» تعنى الهداية والإرشاد وتعنى فى أصل اللغة ينبوعاً، ثم أطلقت على الشريعة أو التعاليم الدينية، وقد اعتمد اليهود تسعة وثلاثين سفراً، أطلق عليها اسم «العهد القديم» تمييزاً لها عما اعتمده المسيحيون من أسفارهم «الإنجيل» والتى أطلقوا عليها اسم «العهد الجديد» ويطلق على أسفار العهدين اسم «الكتاب المقدس».

ويطلق على الأسفار الخمسة الأولى إطلاقاً حقيقياً اسم التوراة، أو كتب موسى؛ لأنها فى أصلها التى أنزلها الله على موسى، وكتبها بنفسه، وانتهت بوفاته.

وهذه الأسفار الخمسة هى:

١. سفر التكوين: ويحكى قصة خلق السموات والأرض ثم خلق آدم، وقصص نوح «عليه السلام» والطوفان، وإبراهيم «عليه السلام» وأولاده ويعقوب، وينتهى بقصة يوسف حتى وفاته ودفنه فى مصر.

٢. سفر الخروج: ويحكى تاريخ بنى إسرائيل فى مصر، وميلاد وبعث موسى وقصة الخروج من مصر وسنوات التيه.

٣. سفر اللاويين: نسبة إلى لاوى بن يعقوب سبط موسى وهارون عليهما السلام، ونسب هذا السفر إلى اللاويين؛ لأنهم كانوا سَدَنة الهيكل وحفظة الشريعة، ويدور حول شئون العبادات، والوصايا والأحكام، والطقوس والأعياد.

٤. سفر العدد: يدور معظمه حول تقسيم بنى إسرائيل، وبيان تعداد أسباطهم وجيوشهم

وأموالهم وذكورهم، بجانب بعض الأحكام التى تتعلق بالعبادات والمعاملات.

٥. سفر التثنية: سمى التثنية لأنه يعيد ذكر التعاليم التى تلقاها موسى عن ربه وأمره بتبليغها إلى بنى إسرائيل، ويتضمن في معظمه أحكام الشريعة الخاصة بالسياسة والحروب والاقتصاد والمعاملات والعبادات.

وأما الأربعة والثلاثون سفراً الباقية فمنسوبة إلى أشخاص كتبوها بعد موسى عليه السلام، ويطلق عليها - تجاوزاً مع الأسفار الخمسة السابقة - اسم التوراة. والأسفار فى جملتها صبغتها دينية إلا أن منها ما يغلب عليه الطابع التاريخى، كأسفار التكوين والخروج ويشوع والقضاة وأخبار الأيام وعزرا ونحميا، ومنها ما يهتم بالجانب التشريعى والأخلاقى والتوجيهى.

حكم القرآن على التوراة:

ولغرض اعتماد التوراة - كمصدر تاريخى - فيما روته من قصص تاريخية يثور التساؤل: هل الأسفار الخمسة المقدسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام هى نفسها التوراة التى أنزلها الله عليه فى جبل سيناء؟

بداية نذكر أن القرآن الكريم قد نزل متمماً لشريعة الله ومصدقاً للكتب السماوية السابقة عليه: «**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** (٣)» [آل عمران].

وبعد نزول المسيحية تسلمت التوراة ونقلتها إلى من اعتنقوها وكان الإيمان به جزءاً من الإيمان بها، وقد جاء فى الإنجيل على لسان المسيح عليه السلام «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» [إنجيل متى - الإصحاح الخامس «١٧»]. ويؤكد القرآن ذلك فيقول عن عيسى بن مريم: «**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** (٤٨)»[آل عمران] وأيضاً قال الله تعالى:«**وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** (٤٦)»[المائدة].

ويؤكد القرآن الكريم الحجية والحماية الدينية لشريعة التوراة: «**كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ**(٤٣)»[المائدة].

-**قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ** (٩١)»[الأنعام].

-**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ**(٦٨)»[المائدة].

« **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**(٤٤)»[المائدة].

وكما أكد القرآن الكريم فى محكم آياته أن التوراة هى كتاب الله ووحى السماء إلى موسى فقد أخبرنا أيضاً أن اليهود امتدت أيديهم الأثيمة إلى التوراة الأصلية بالتحريف والتبديل والتغيير وإخفاء الحقيقة، وأعيد صياغتها بمنهج بشرى لأغراض وأهواء من

كتبوها، ثم ادعوا أنه كلام الله.

يقول الله تعالى: «**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)**»[البقرة].

«**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)** » [آل عمران].

«**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)**» [آل عمران].

«**قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا(٩١)**» [الأنعام].

«**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥)**» [المائدة].

وهذه الحقائق التى أكدها القرآن قبل أربعة عشر قرناً توصل إليها العلماء والمؤرخون حديثاً، وصدر العديد من الدراسات فى مظاهر تحريف العهد القديم، بعد أن ظلت الشعوب الغربية لفترات طويلة تنظر إليه على أنه كلام الرب، وكان يعتبر التاريخ الحقيقى لدين أمة بنى إسرائيل. ولأن التوراة مقدسة لدى المسيحيين، ذات قدسية الإنجيل فقد استقرت فى نفوسهم المعلومات التاريخية عن قصص خلق الكون والأنبياء وتاريخ بنى إسرائيل طبقاً لما ورد فى العهد القديم وبالذات الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى.

انقطاع السند فى كتابة العهد القديم

أكدت - أيضاً - الدراسات الحديثة انقطاع السند فى كتابة التوراة، وأن الأسفار الخمسة المقدسة ليس لها سند متصل إلى موسى - عليه السلام - واستندوا إلى سفر التثنية الذى يوجد فيه ما يدل دلالة قاطعة على أنها كتبت بعد وفاة موسى بزمن طويل، فجاء فى الإصحاح الرابع والثلاثين:

«فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب .. ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» (٦:٥).

«وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات، ولم تَكِل عينه ولا ذهبت نضارته» (٧).

وأيضاً يتأكد مرور زمن على كتابة التوراة بعد وفاة موسى من عبارة «ولم يقم بَعْدُ نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجهاً لوجه» (١٠).

كما أن النسخة الوحيدة من التوراة التى تلقاها موسى عن ربه فى جبل سيناء سبق أن فقدت أكثر من مرة قبل إعادتها؛ فيذكر العهد القديم أن موسى بعد أن كتب هذه الأوامر سلمها إلى اللاويين لحفظها فى تابوت العهد:

«فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة فى كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب ليكون إلهكم هناك شاهداً عليكم» [سفر التثنية - الإصحاح الحادى والثلاثون: ٣٦:٣٤].

وفى الإصحاح الرابع من سفر صموئيل الأول يذكر العهد القديم أنه أثناء الحرب بين إسرائيل وفلسطين، انكسر إسرائيل وكانت الضربة عظيمة جداً وأخذ الفلسطينيون تابوت عهد الرب الذى توجد فيه نسخة التوراة الوحيدة، وظلت لديهم سبعة أشهر قبل أن يعيدوها إليهم بسبب سقوط إلههم «داجون» أمام التابوت وما أصابهم من أضرار بسبب احتفاظهم به.

كما فقد التابوت مرة أخرى وأخيرة إثر سقوط دولة يهوذا على يد القائد البابلى «نبوخذ نصر»، فقد اقتحم الغزاة مدينة أورشليم عاصمة الدولة وأشعلوا فيها النيران، وأحرقوا معبد سليمان بكل محتوياته؛ بما فى ذلك التابوت الذى يحفظ توراة موسى الأصلية.

وقد ظهر للباحثين من ملاحظة اللغة والأساليب التى كتبت أسفار العهد القديم وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، والبيئات الاجتماعية والسياسية التى تنعكس فيها، أنها كتبت فى عصور لاحقة لعصر موسى بعدة قرون، وبأيادى كهنة متعددين، بدأت فى الغالب حوالى القرن السادس ق . م، واستغرق كتابة التوراة وبقية أسفار العهد القديم ما يقرب من ألف عام.

العنصرية فى العهد القديم

لو تتبعنا النص التوراتى فى العهد القديم لن نلاحظ فى الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى أى ذكر لليهودية، أو شيئًا اسمه يهودى، لقد دخلت اليهودية على ديانة موسى فى عصور تالية، وبعد وفاته عليه السلام بزمن طويل، فلم تكن اليهودية موجودة قبل السبى البابلى الذى حدث لدويلة يهوذا فى القرن السادس قبل الميلاد، فقد حدث بعدها أن نسب الشعب إلى الدولة اليهوذية، وعرفت اليهودية، ومنذ ذلك الحين اصطبغت بتقاليد جديدة.

ويتفق الدارسون على أن هذا التحول نشأ على يد الكاهنين عزرا ونحميا، فى سفر عزرا يذكر اليهود لأول مرة: «ليعلم الملك أن اليهود الذين صعدوا من عندك قد أتوا إلى أورشليم» [سفر عزرا - الإصحاح الرابع - ١٢].

ثم يتكرر ذكر اليهود فى سفرى عزرا ونحميا، على نحو يظهر منه أنها صارت اسم ديانة شعب إسرائيل بعد السبى البابلى.

وقد صاحب هذا التغيير تحول آخر فى أصول وجوهر ولب ومقاصد العقيدة، فقد عرفت العنصرية التى تحكمت فى صياغة العهد القديم وصبغته بتقاليدها، وغالباً أن غرض الكهنة

من اختراعها كان حماية القلة الأخيرة الباقية من بنى إسرائيل من سبطى يهوذا وبنيامين اللذين كانا يكونان دويلة يهوذا التى سقطت على يد البابليين، وقد سبقها بقرنين إبادة دولة إسرائيل على يد الآشوريين، وكانت تضم الأسباط العشرة الأخرى، وتشتتوا فى الشرق القديم واختلطوا بالأمم، وكثيراً منهم تركوا دينهم وعبدوا آلهة الشعوب التى يعيشون بينهم، فخشى كهنة يهوذا وهم فى السبى البابلى من تكرار ما حدث سابقاً وأن يضيع بنو إسرائيل تماماً بين شعوب الأرض، فلم يجدوا سبيلاً - من وجهة نظرهم - لحمايتهم وحفظهم ومنعهم من مخالطة الشعوب والزواج منهم وعبادة آلهتهم والاندماج فى مجتمعاتهم سوى أن يضمِّنوا توراتهم العنصرية العرقية؛ التى قصرت الدين فيهم والرب عليهم دون سائر شعوب الأرض ونسبت ذلك القول لإلههم وأنبيائهم.

إن القرآن الكريم يذكر أن رسالة الأنبياء جميعاً واحدة، وأن دين الإسلام الذين دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم هو فى أصوله وجوهره، الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء السابقين وانتسب إليه أتباعهم، وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحمل هذا المعنى فيقول تعالى:
«شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (١٣)» [الشورى].

ويقول أيضاً: «**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)» [آل عمران].**

وآيات أخرى فى القرآن صرحت بأن الإسلام اسم ملة كل الأنبياء، فنوح قال لقومه: **«فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)» [يونس].**

ويقول تعالى عن إبراهيم وبنيه وأحفاده: «**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)» [البقرة].**

وموسى قال لقومه: «**يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)» [يونس].**

والحواريون قالوا لعيسى عليه السلام: «**آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)» [آل عمران].**

غير أن كهنة إسرائيل فى عصور لاحقة غيروا شريعة موسى، وبعد اتخاذهم مسمى اليهودية لديانتهم أدخلوا عليها سمات غيرت فى أصولها ومبادئها إلى حد يخالف أصل العقيدة. وكان أبرز هذه السمات العنصرية المغلقة؛ فقصروا أنبياءهم على بنى إسرائيل وأنكروا عليهم تبليغ الدعوة للشعوب التى عاشوا فى أوطانها. واتخذ العهد القديم منهج وجود

مكانة خاصة لبنى إسرائيل، فالله أنعم عليهم بالدين وحدهم دون سائر البشر، وهم أبناؤه الأثيرون إلى قلبه، وأن العالم ما خلق إلا من أجل بنى إسرائيل، وامتزج الدين ببنى إسرائيل كمجموعة عرقية، وأصبح بنو إسرائيل شعب الله المختار، ورددتها التوراة دائماً، فما من ركن فيه إلا ينضح بهذه الفكرة، وكل أحكامهم تأسست على ذلك، فمعاملاتهم مع أنفسهم تختلف كلية عن تعاملهم مع غير الإسرائيلي:

«لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذى على وجه الأرض» (سفر التثنية ـ الإصحاح السابع:٦).

هذا النهج الإسرائيلى الدخيل كان له تأثيره فى قصة العهد القديم لدعوة موسى فى مصر فنجده يصر دائماً على تصوير الله على أنه رب بنى إسرائيل وليس رب فرعون، ولم يكن موسى مهتماً بدعوة فرعون للإيمان؛ لأنه ليس رب فرعون ولكن «إله العبرانيين». ويتكرر هذا التحديد العرقى لهوية الرب بانتظام فى العهد القديم. وبعكس هذه النظرية يؤكد القرآن العظيم دعوة موسى فى مصر وطلبه من فرعون اعتناق الدين الجديد، ويخبرنا بإسلام فئة من المصريين، وقد كان منهم السحرة ومؤمن من آل فرعون، كما أكد القرآن ذلك أيضاً فى دعوة يوسف فى مصر.

النتيجة

ما ننتهى إليه من جميع الملاحظات السابقة، هو أن رواية العهد القديم ـ كمصدر تاريخى ـ لا يمكن للباحث التسليم بها كحقائق ثابتة صحيحة، وفى الوقت ذاته لا يمكن استبعادها من مجال البحث فهى ذات أهمية كبيرة وفعالة فى أحداث القصة؛ ذلك أن من صاغوها فى العصور التالية لاشك كانت لديهم بعض أصول مكتوبة وتراث تاريخى متداول نقلوا منه، فهى تحوى تاريخاً معاصراً للأحداث إلا أنه ـ للأسف ـ حمل رغبات وأهواء من كتبوه، ولهذا فإن اعتمادنا على رواية العهد القديم سوف يكون محاطاً بضمانتين: القرآن ومصادر التاريخ.

فسوف نأخذ بالأحداث التى تتفق مع رواية القرآن الكريم أو تكون المصادر التاريخية (الآثار) قد جاءت مؤيدة لها أو متفقة مع سير الأحداث فيها.

ثالثاً: المصادر التاريخية

يعتمد المؤرخون فى دراسة تاريخ مصر وحضارتها على المصادر الثلاثة الآتية:

١ـ الآثار المصرية:

سواء ما هو مسجل على جدران المعابد والمقابر ولوحات القبور والتوابيت أو بقايا المساكن، أو على أوراق البردى، أو أى نوع من أنواع الآثار الأخرى الصغيرة والكبيرة، وتشمل أيضاً ما كتبه المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى.

وتعتبر الآثار المصرية هى المصدر الأكبر والأهم فى كتابة تاريخ مصر، مع الأخذ فى الاعتبار أن المصريين القدماء لم تكن فلسفتهم للتاريخ بالمعنى الذى نفهمه الآن، فتسجيلهم لانتصاراتهم وأعمالهم فى الدنيا كان بغرض تخليدهم فى العالم الآخر، ومنذ الأسرة الأولى وحتى نهاية العصور الفرعونية نرى آثاراً سجلت عليها أعمال الملوك، ووثائق بتأريخهم ومنها أثبات بأسماء الملوك مرتبة ترتيباً زمنياً، وصلت الدقة فى بعضها إلى أن تذكر مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم. وبفضل تطور أساليب البحث والتقدم التقنى توفر فيض من المعلومات المتنوعة، واستفاد الباحثون من المصادر المتعددة والمتنوعة، وتحقق تقدم ملاحظ فى دراسة الآثار المصرية، وبفضل قائمة المعارف المتراكمة، وتقدم أساليب التقنية أمكن تحديد الترتيب الزمنى للحضارة الفرعونية فى دقة متزايدة، وأن نعود بالحد الزمنى لأصول الحضارة إلى عصر ما قبل الفراعنة.

ومن أهم المصادر المصرية عن أسماء الملوك وترتيبهم وتاريخهم:

● تاريخ مانيتون: مانيتون هذا كان كاهناً مصرياً، وهو واحد من أعاظم المتعلمين فى الكليات الكهنوتية، وعاش فى معبد سبينتوس فى مدينة سمنود فى محافظة الغربية، فى بداية القرن الثالث ق . م، فى عصر البطالمة، وفى الغالب أنه كانت له علاقة بمعبد هليوبوليس فى عين شمس، حيث أقدم جامعة علمية فى العالم. وكان مانيتون يعرف بجانب الهيروغليفية اللغة الإغريقية أيضاً، وألف الكتب التى شهرته بهذه اللغة، نسبت إليه الأخبار المتوارثة أنه مؤلف ثمانية كتب أشهرها «تاريخ مصر» الذى استقى مصادره من المعابد ومكاتب الحكومة، ولسوء الحظ فإن تاريخ مانيتون الأصلى فقد فى حريق مكتبة الإسكندرية، ولم يعثر حتى الآن على أى نسخة منه، ومعلوماتنا عنه مصدرها بعض مقتطفات نقلها المؤرخون القدامى فى كتبهم مثل يوسيفوس اليهودى فى القرن الأول الميلادى، وما كتبه الكتاب المسيحيون مثل يوليوس أفريكانوس فى حوالى سنة ٢٢٠م، ويوسيبوس سنة ٣٢٠م، وآخر أثر لكتاب مانيتون ظهر فى كتاب «تاريخ العالم منذ الخليقة حتى ديوكليتيان» الذى وضعه جورج سينكلوس فى حوالى سنة ٨٠٠م.

ونعرف من النقل عن مانيتون أن التاريخ الذى كتبه اشتمل على قوائم بالملوك بحسب ترتيب ارتقائهم العرش، ويرجع إليه الفضل فى تقسيم التاريخ المصرى إلى الأسرات، الذى أخذ به المؤرخون المحدثون، ويرى البعض أن هذا التقسيم ربما كان متداولاً بين المصريين أنفسهم قبل مانيتون، وعلى الرغم من جميع الأخطاء التى حدثت فى النقل عن مانيتون، أو فى تقديرات مانيتون نفسها، فإن ما وصل إلينا من تاريخه يعد من أهم المصادر لتاريخ مصر.

● حجر بالرمو: كان قائماً فى أحد معابد منف، كتب عليه أسماء جميع من حكموا مصر منذ

ما قبل الأسرة الأولى وحتى اسم الملك «نفر إر كارع» من الأسرة الخامسة ومدة حكم كل منهم مقسماً إلى سنوات وأهم ما حدث فى كل سنة.

● بردية تورين: عثر عليها فى منف، ونقلت لمتحف تورين بإيطاليا، كتبت فى عهد الأسرة التاسعة عشرة، وتحتوى على أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك، وتحت كل اسم عدد سنوات حكمه تبدأ منذ ما قبل الأسرات وتستمر حتى ملوك الهكسوس، وتنتهى بأسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة.

● ثبت الكرنك: أقامه تحوتمس الثالث فى معبد الكرنك، وحالياً فى متحف اللوفر، ويحوى مجموعة مختارة عددها ٦١ ملكاً من الأسرة الرابعة إلى الثامنة عشرة.

● ثبت أبيدوس: على أحد جدران معبد الملك سيتى الأول فى أبيدوس، نرى رمسيس الثانى واقفاً يقدم القرابين لملوك مختارين عددهم ستة وسبعون ملكاً، ابتداء من الأسرة الأولى حتى الأسرة التاسعة عشرة.

● ثبت سقارة: عثر عليه فى مقبرة الكاهن «تنرى» فى سقارة، وقد عاش فى أيام رمسيس الثانى وعليه أسماء ثمانية وخمسين ملكاً يبدءون بالملك «مر - بى - با» سادس ملوك الأسرة الأولى، وينتهون برمسيس الثانى. وفسر الباحثون محتوى الثبت بأنهم الملوك الذين كانت لهم صلة بمدينة منف.

● آثار الملوك: وتشمل الآثار المختلفة التى أقامها الملوك: المعابد، القصور، الأهرامات، المقابر، المسلات، اللوحات. وهى معظم وأهم المصادر التاريخية المصرية بما تحويه من معلومات عن حياة الملوك وتعاقبهم وحروبهم وصلاتهم بالعالم الخارجى.

● آثار كبار رجال الدولة والأفراد: سجل المصريون فى جميع عصور حضارتهم على جدران المقابر فى جميع أرجاء مصر مناظر الحياة اليومية، ومناظر تتعلق بشعوب البلاد الأجنبية، والحروب التى شاركوا فيها، وكتب بعض الأفراد عن تاريخ حياتهم، مما ساعد فى معرفة تتابع بعض الملوك فى العصور المختلفة. وظهر فى العصر المتأخر عند عدد من الأفراد كتابة أنسابهم وهو ما يمكن تسميته بنصوص الأنساب، وأهمها ما سجله الكاهن «عنخف - إن - سخمت» كاهن الإله بتاح وزوجته الإلهة سخمت فى الأسرة الثانية والعشرين عام ٧٥٠ ق.م، كتب على لوح من الحجر الجيرى نسباً طويلاً لعائلته رجع فيه بأجداده إلى الأسرة الحادية عشرة حوالى عام ٢١٠٠ ق . م، أى حوالى ١٣٥٠ سنة، وذكر فيه ستين جداً له، وقد ثبت صحة وجود الكثيرين منهم من مصادر أخرى، ومن ميزاته أنه يذكر بعض أسماء ملوك الهكسوس ولم يحذف عصر العمارنة.

● الآثار الصغيرة: توجد ملايين من الآثار الصغيرة مثل اللوحات، الحُلى، الأوانى، الأدوات المنزلية، أدوات الصناع والحرفيين والتمائم، والتعاويذ، أوراق البردى، وآلاف من المقابر من

جميع العصور، وتعتبر جميعاً مصادر مهمة لدراسة تاريخ مصر.

٢ـ المصادر الأجنبية:

ثانى المصادر التاريخة هو ما نجده فى المصادر الأجنبية المعاصرة لفترات من الحضارة المصرية، مثل حضارات بلاد ما بين النهرين، وسوريا وفلسطين: الآشورية والفينيقية والكنعانية ومملكتى يهوذا وإسرائيل، ودولة الحيثيين، ومملكة عيلام فى بلاد فارس، وأهمية هذه المصادر تأتى فى مقارنة ما كتبه كل طرف عن الغزوات العسكرية وتحديد حجم الاتصالات والتجارة والتعامل مع الدول الأجنبية المعاصرة.

٣ـ ما كتبه رحالة اليونان والرومان الذين زاروا مصر:

ويتمثل هذا النبع المهم فى مؤلفات قدماء الإغريق من الرحالة والمؤرخين وأولهم هيرودوت الذى زار مصر حوالى سنة ٤٥٠ ق . م، أثناء الاحتلال الفارسى وألف كتاباً عن مصر، يعتبر كنزاً من المعلومات لعلماء الآثار، ذلك أنه تنقل فى أرجاء مصر ووجه اهتمامه إلى التركيب الجيولوجى لمصر، والمظاهر الجغرافية، ووصف النيل، والريف، والدلتا، والعادات المصرية، والمعتقدات الدينية، وروى تاريخ مصر كما سمعه من الكهنة، وعدد الملوك الذين حكموا مصر بداية من مينا.

كما زار مصر وكتب عنها ديودور الصقّلى وإسترابون وبطليموس عالم الجغرافيا فى عهد البطالمة.

ونقل عدد من الكتاب عن مانيتون، وكتب عن مصر أيضاً عدد من الكتاب والمؤرخين الرومان.

وكثير من هؤلاء الرحالة والكتاب تحرى الصدق فيما ذكر أنه رآه، إلا أن كثيرين أيضاً غيرهم أساءوا فهم ما رأوه، أو نقلوا عن غيرهم ولم يمكنهم تعليل أو تفسير ما رأوه أو سمعوه، وبعضهم زار مصر أيام ضعفها وبعد سقوط حضارتها، ولم يعرفوا اللغة المصرية، فاعتمدوا على ما نقل إليهم من مرافقيهم، وتأثروا بعادات بلادهم وديانتها، أو بمصالح بلادهم مع مصر آنذاك، ولذا فإن المؤرخين والباحثين يقبلون المعلومات المستمدة من تلك المصادر بحيطة وحذر.

الباب الأول

مسرح الأحداث ودورة الحضارة المصرية وعلاقاتها بالشرق القديم

الفصل الأول

مسرح الأحداث

الفصل الثانى

دورة الحضارة المصرية وعلاقاتها بالشرق القديم

أهمية إلقاء الضوء على الحضارة المصرية القديمة

إن مضمون الدراسة التى يشملها البحث، محتوى هذا الكتاب والنتائج التى ينتهى إليها، يعتمد فى الأساس على الحقائق التى قدمتها الرواية الدينية ابتداء من دخول بنى إسرائيل مصر ثم قصة موسى وفرعون وحتى الخروج إلى فلسطين، وذلك على ضوء من أحداث التاريخ التى كشفت عنها مصادره، وأهمها قراءة الآثار، وللأسباب التى ذكرناها سابقاً فى الفصل الخاص بمصادر البحث، فقد اعتمدنا القرآن الكريم مصدراً أساسياً وأيضاً سياجاً حامياً، وضوءاً هادياً للمصادر الدينية والتاريخية الأخرى.

فبعد أن ظلت القصة الدينية تعيش قرونا طويلة بمعزل عن الأحداث التاريخية، التى لم تتكشف إلا فى العصر الحديث أمكن بعد فك طلاسم اللغة قراءة التاريخ، وعرفنا أسماء ملوك مصر وأعمالهم وأزمانهم، ونظام الدولة والحكم، وفترات القوة والضعف، وعرفنا ثقافات الشعب وعقائده وتراثه وقيمه، وثقافات العمران والغزو والاستبداد، ومن ثم أصبح بالإمكان دراسة القصة الدينية على ضوء من تلك المعارف.

ولقد امتدت الحضارة المصرية الفرعونية نحو ثلاثة آلاف عام من عمر الزمان، وقدمت فيها للعالم والتاريخ أعظم وأطول تجربة لاستمرارية حضارة قومية على هذا الكون منذ أن هبط الإنسان على الأرض تحققت بفضل عوامل عدة؛ أهمها السمات الخاصة التى اكتسبها الشعب منذ نشأته الأولى، وتضافرت مع عناصر ومقومات البيئة، وأهمها النهر والمناخ مع الموقع الجغرافى فحققوا لها مجتمعين الرخاء الاقتصادى والازدهار، ومنحوا حضارتها مزايا الاستقرار والتماسك والأصالة مع التطور، وأيضاً المحافظة على القيم، والتقاليد والعادات، والتمسك بالتراث والفضائل، ورسوخ العقيدة، واحترام الحاكم، والحرص على تحقيق العدالة من خلال قوانين ثابتة ومستقرة، فكانت تلك العوامل جميعها هى مقومات استمرار حضارة قوية مزدهرة.

وتكمن أهمية تقديم موجز عن حضارة مصر القديمة بالنسبة لدراستنا فى النقاط الآتية:

أولا: إن مصر هى مسرح أحداث تلك القصة، على أرضها كان ميلاد موسى ثم نشأته، ومن ثقافتها أخذ علمه وحكمته، وعلى أحد جبالها الشرقية فى سيناء، كان موعده مع القدر، حينما كلمه الله تعالى وبعثه رسولاً لهداية فرعون وأهل مصر، ومنها بدأ رحلته لإنقاذ بنى إسرائيل من السخرة والتعذيب، والخروج بهم إلى أرض الميعاد، كانت مصر هى البيئة التى دارت عليها الأحداث التى سجلها القرآن الكريم، ومن قبل الكتاب المقدس، وقد حملت الرواية الدينية تصويراً واقعياً ودقيقاً ومطابقاً لجميع الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى اكتنفت الحياة على تلك البيئة. ومن ثم ترتبط الدراسة الدينية بالدراسة التاريخية، ولا يمكن استخراج نتائج أو أدلة من إحداهما بمعزل عن الأخرى، فالقصة الدينية تهدف إلى العظة والعبرة والهداية، ومصادر التاريخ المصرى التى اكتشفت حتى الآن تخلو من ذكر أى أحداث عن الأنبياء الذين عاشوا على أرض مصر أو زاروها، ولا

توجد ثمة أدلة صريحة ومباشرة من مصادر تاريخية عن حياة بنى إسرائيل فى مصر منذ الدخول وحتى الخروج، ومن ثم فإن التحليل والاستنتاج واستخراج الأدلة لتحديد الفترة الزمنية وأشخاص الأحداث سوف يعتمد على الربط بين القصة الدينية والمعلومات التاريخية، ويكون لازماً تقديم هذا العرض التاريخى بداية لاستثارة ذهن القارئ غير المتخصص، الذى لم يدرس تاريخ مصر نحو الملوك والأشخاص البارزين الذين عاشوا وحكموا فى الأسرات المصرية الفرعونية ليدرك بعد ذلك أهمية تحديد أشخاص القصة الدينية من بين تلك الشخصيات التاريخية، وأيضاً ليتحقق لديه القدر الكافى من القناعة التاريخية التى تمكنه من إدراك تحقيق المطابقة بين المصدرين - الدينى والتاريخى - ومناقشة النتائج والأدلة فى موضوع البحث.

ثانيا: إن الامتداد الطويل لتاريخ الحضارة المصرية ابتداء من العام ٣١٥٠ق.م، تاريخ قيام الدولة المصرية الموحدة، وحتى العام ٣٣٢ق.م تاريخ سقوط آخر أسرات الحكم المصرى وانتهاء عصر الملوك الفراعنة، يفرض ضرورة عرض القدر اللازم من تاريخ تلك الحضارة بما يكفى لمناقشة الخصائص التاريخية للمساحات الزمنية الممتدة لمطابقتها على وقائع القصة الدينية واستخراج النتائج والأدلة فى هذا البحث الذى يهدف فى الأساس إلى وضع القصة الدينية فى الحقبة الزمنية من تاريخ مصر التى دارت فيها أحداثها، وتحديد أشخاصها، وباعتبار أن تحديد الفترة الزمنية سوف يستند على معطيات دينية وأخرى تاريخية، لذا فإن الدراسة سوف تقتضى - مرحلياً - حصر النطاق الزمنى للأحداث منذ دخول بنى إسرائيل مصر وحتى خروجهم منها بوضعه داخل المساحة الزمنية المناسبة ضمن مراحل التاريخ المصرى واستبعاد الفترات المستحيلة للأسباب الدينية أو التاريخية، وصولاً إلى تحديد الزمان والأشخاص فى وقائع القصة الدينية على مدار مراحلها خلال تلك الفترة.

ثالثا: إن أحداث التاريخ المصرى القديم تفسر كثيراً من آيات القرآن الكريم. وتوضح العديد من الوقائع فى قصة موسى وفرعون التى تبدو غامضة أو متناقضة، وقد حاول المفسرون القدامى وجاراهم المحدثون تفسيرها قياساً على ثقافات وعادات وأخلاق الأمم والشعوب القديمة الأخرى دون إدراك للطبيعة المختلفة للتراث الثقافى المصرى المتراكم منذ عصور موغلة القدم، فجانبهم الصواب.

ومن جانب آخر فإن القصة الدينية سوف تفسر دورة الحضارة المصرية، وتوضح سبب انكسارها المفاجئ عند مرحلة معينة من تاريخها، كانت مصر قبلها فى قمة عنفوانها وازدهارها الاقتصادى، وتملك أقوى مؤسسة عسكرية فى العالم، وهو الأمر الذى ما زال يقف أمامه المؤرخون حائرين ليتساءلوا: ما الذى حدث؟ دون تقديم تفسير منطقى، يبرر فشل المحاولات الجاهدة لملوك مصر - بعد ذلك -بكل الطرق الخروج بها من محنتها، لتدخل بعدها منحدراً عميقاً انتهى بسقوط دولتها الفرعونية.

هذه الدورة الحضارية المصرية سوف تفسر قدرية بعث موسى وتتكامل مع الرواية الدينية التى انتهت باندحار فرعون الأقوى والأعظم بين جميع ملوك العالم القديم وغرقه مع جميع جيشه وإبادة

المؤسسة العسكرية لمصر، لتبرر الأحداث التاريخية التالية لهذا الحدث، وتقدم بذلك التفسير المنطقى لها، وسوف نعتمد عليها أيضاً فى شرح قضية الميراث وأرض الميعاد التى أوردها القرآن الكريم، حسبما ستوضحه فصول هذا الكتاب.

رابعاً: تعكس دراسة النظام الدينى والتراث الأدبى ومظاهر التنشئة الأخلاقية والسلوكية المتأصلة والثابتة فى الحضارة المصرية القديمة منذ عصر ما قبل الأسرات وانتهاء بالحكم البطلمى لمصر، ما يمكن اعتباره تفسيراً منطقياً لانعدام الصراع بين شعب مصر وبين الأنبياء وفقا لما تصوره قصة يوسف وقصة موسى فى القرآن الكريم، فقد كان يوسف وزيراً نبياً ومصلحاً اقتصادياً، واستطاع بعلمه وحكمته تلاقيا مع تراث شعب قديم أن ينظم أمور الدولة ويبلغ رسالة السماء. كما أن صراع موسى ضد فرعون وحاشيته لم يكن سوى صراع سياسى بين موسى القادم إلى مصر بأمر الله لإبلاغ رسالة السماء، وبين نفوذ فرعون وحاشيته، لم يدخل الشعب طرفاً فيه، بل على العكس فإن فصول هذه الدراسة سوف تكشف أن المصريين أحبوا موسى وأخلصوا له وآزره وبنى إسرائيل كثير منهم على فرعون وبلاطه، وهو ما يمكن رده فى جانب كبير منه إلى ما كشفت عنه نصوص المصريين وآدابهم، والتى يمكن أن نستخلص منها أن المصادر الأولى لعقائدهم تأثرت بالديانات السماوية الواحدة فى جوهرها، والتى تدعو جميعاً إلى التحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق والعدل والإحسان، الأمر الذى نستنتج منه - بيقين - أن نشأتها الأولى قد استندت إلى عقيدة إلهية صحيحة، وتتجلى مظاهر اتصال السند فيما اتسمت به الديانة المصرية فى مختلف مراحل حضارتها بالخصائص الآتية:

١- ميل المفكرين المصريين فى مختلف العصور إلى فكرة الوحدانية - رغم تعدد الآلهة - ويظهر ذلك فى كثير من النصوص التى عثرنا عليها، وأيضاً نجد أن الاعتراف بوحدة الإله الخالق قائمة فى مذهبى عين شمس ومنف القديمين لتفسير نشأة الوجود؛ فقد رد أصحاب كل مذهب منهما الوجود بطبيعته وناسه وكائناته إلى خالق واحد دعوه فى عين شمس باسم «آتوم» بمعنى الأتمّ المتناهى، ودعوه فى منف باسم «بتاح» بمعنى الصانع أو الفتاح أو الخلاق.

٢- الإيمان بالبعث والخلود واستئناف الحياة بعد الممات وتكريمهم للروح.

٣- الإيمان بحساب الإنسان على أفعاله بعد الموت، القائم على فكرة الثواب والعقاب، ووزن الحسنات والسيئات بميزان دقيق، بعدها يتحدد مصيره فى العالم الآخر، فإما إلى جنات الخلد ذات البرك والغُدران والزروع، وإما إلى جحيم تتنوع فيه صور الحرمان والفزع، وأذى الوحوش والحيات والنيران.

لجميع هذه الأسباب يقتضى الأمر فى مجال هذا البحث إلقاء الضوء على الحضارة المصرية القديمة، وسوف نركز فيها على الجانب الذى سوف نستخدمه فى دراستنا، والمتمثل فى مواقع الأحداث والتسلسل التاريخى للأسرات الحاكمة، ودورة الحضارة بين القوة والضعف، والعلاقات المصرية - الآسيوية.

الفصل الأول
مسرح الأحداث
الأرض والنهر والشعب

فى قلب العالم القديم، وبالتحديد فى منطقة المركز داخل دائرة التقاء قاراته، عندما تطل ثلاثتها على البحر المتوسط، حيث تنتهى سواحل أفريقيا الشمالية وتلاقى ساحل أقصى غرب آسيا، مواجهة شواطئ أوروبا الجنوبية، على خط التقسيم التاريخى بين الشرق والغرب، فى تلك الأرض اختار الله هذا الموقع العبقرى لتكون مصر، كياناً جغرافياً متكاملاً، يقع فى الركن الشمالى الشرقى لقارة أفريقيا، وجزء منه فى قارة آسيا فى أقصى طرفها الغربى.

تمتد أرض مصر شمالاً بطول ١١٨١ كيلومتراً على شاطئ البحر المتوسط، وتمتد شرقاً بمحاذاة الساحل الغربى للبحر الأحمر، وبين خليجيه العقبة والسويس تقع شبه جزيرة سيناء، البوابة الشمالية، وتشكل الجزء الآسيوى من دولة مصر، وفى الشرق الشمالى قبل أن نخطو إلى سيناء يقع مجمع البحرين، البحر الأحمر والبحر المتوسط، يكادان يلتقيان، بل تؤكد البحيرات المترامية التى تفصلهما أنهما كانا ملتقيان.

وضع حكام مصر فى عصورها القديمة العلامات المحددة لحدودها، وحافظوا عليها طوال عصور حضارتها، منذ أن وضع الملك مينا أساس الدولة الموحدة، وساعد على حماية وحدة الدولة السياسية، ما حباه الله لها من حدود طبيعية حامية مانعة، ولم تعدم مصر وحدة أراضيها سوى فترة قصيرة من تاريخها الطويل، حين سقطت فريسة للهكسوس فى أول غزو أجنبى، استمر لمدة قاربت على القرن ونصف القرن، وخرجت مصر من هذه المحنة، وقد استوعبت الدرس، فانطلق ملوكها بعدها شمالاً وجنوباً، وتأسست أول إمبراطورية فى تاريخ الشرق القديم، تمتد من تخوم الأناضول شمالاً حتى الشلال الخامس من النيل بعد نباتا وجبل برقل جنوباً.

وقد دعت هذه الحدود الإمبراطورية بعض المؤرخين إلى القول بعدم وجود تحديد قاطع للحدود السياسية لمصر القديمة، لامتدادها فى بعض الفترات التاريخية بسبب محاولات ملوكها المحاربين جعلها أوسع. ونحن من جانبنا لا نؤيد هذا الرأى، ونرى أن مصر ظلت طوال عصور تاريخها تحتفظ بإستراتيجية ثابتة لأرضها تقوم على حتمية الحدود المصرية، ولم يختلط لديها الأمر، وظل دائماً الفرق واضحاً بين الأرض المصرية الحتمية وبين الأراضى الأجنبية الخاضعة لها، فقط أدرك حكام مصر - بعد درس الهكسوس - إستراتيجية التوسع الإمبراطورى التى تستند على أن تأمين وحماية حدودها السياسية تبدأ من خارج أرضها بفرض سيطرتها على العالم الخارجى؛ خصوصاً جيرانها الذين يطمعون فى خيراتها، بعد أن تعلموا أن الهجرات غير المشروعة تجر بعدها الاحتلال.

ويؤكد الإستراتيجية المصرية للأرض الحتمية أن أحمس بطل التحرير فى حرب الهكسوس لم يضع راية الجهاد إلا بعد نهاية الحدود المصرية فى مدينة «شاروحين» جنوب غزة الحالية، وإذ تحقق له طرد الأعداء والنصر بعدها عاد بجيشه إلى العاصمة، ولو كان يعلم أن حدود مصر تنتهى قبل ذلك لوقف عندها، ولو كان يعلم أن حدود مصر تمتد بعدها لاستمر بجيشه، فلم يكن يوجد ما يحول بينه وبين الاستمرار من الناحية العسكرية، إلا أن الوقت لم يكن مهيأ بعد لتنفيذ إستراتيجية الإمبراطورية قبل إعادة بناء الدولة من الداخل.

وأيضاً عندما تقلصت الإمبراطورية جزءاً فجزءاً، حتى استقرت عند حدودها السياسية، فى نهاية الدولة الحديثة، لم يشعر ملوك مصر وشعبها بذات الشعور الضخم بالألم والمهانة أو المسئولية التاريخية تجاه استعادة تلك الأرض – مثلما حدث فى غزو الهكسوس – ذلك أنهم – إستراتيجياً – لم يعتبروها أرضاً مصرية محتلة.

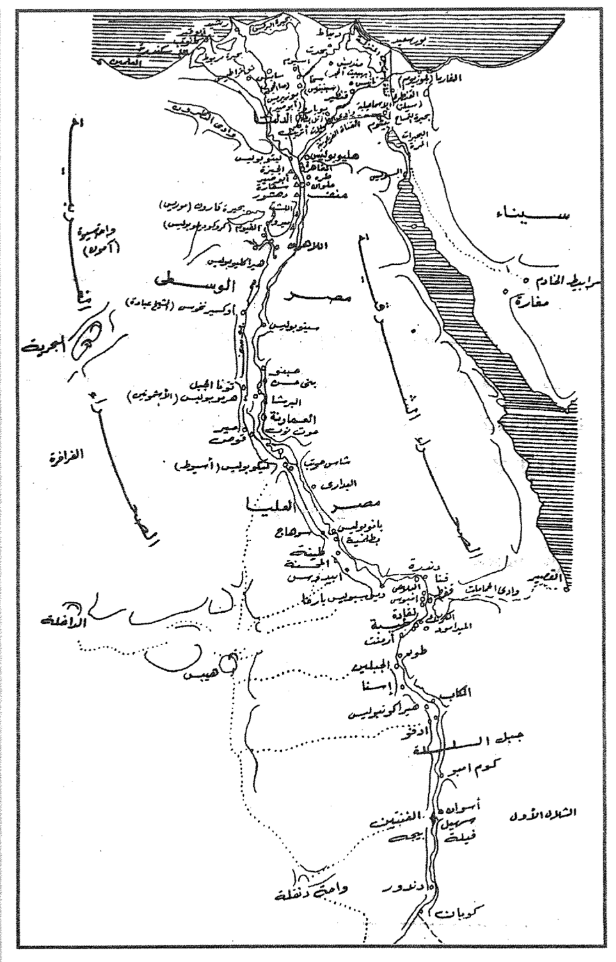
وفى هذا العصر الحديث، ظل درس التاريخ مستمراً، عندما أدركت إسرائيل طبيعة الشخصية المصرية وحتمية إستراتيجية الأرض، فسارعت بالاتفاق مع مصر وانسحبت من سيناء بعد احتلالها الذى حدث فى عام ١٩٦٧م، ليقينها بأن مصر – بأى حال أو تحت أى ظروف – لن تتنازل عن حتمية أرضها، ولن تتخلى عن حدودها. ولن تهدأ أو تستقر، أو يتهاون شعبها مع حكامها وجزء من أرضها تحت الاحتلال.

نهر النيل

فى وسط أرض مصر من الجنوب إلى الشمال، يمتد نهر النيل، شريان الحياة الرئيسى، أطول أنهار الدنيا وسبب الحياة لمصر، جعلها بيئة نهرية فيضية، وحق قول المصريين الذى سجله «هيرودوت» بأن مصر هبة النيل، فبدونه لا كيان لها، ليس فقط من حيث مائه، وإنما أيضاً من حيث تربته، كما علمهم النهر الإحصاء، والهندسة، والحساب، وإنشاء المقاييس، ومشاريع الرى، وتقدير الضرائب؛ وسهَّل المواصلات، وأدى إلى ارتباط السكان وتعاونهم؛ وكان له الدور الرئيسى فى تطور النظام الإدارى، وتطور التشريعات واستقرار وسمو النظام القضائى.

يمتد النيل فى شريط ضيق طويل بطول وادى النيل يعرف فى الجنوب باسم مصر العليا أو الوجه القبلى، ويتراوح عرض الزراعات به ميلين واثنى عشر ميلاً (٣,٢٥ : ١٩,٥كم) وهو محصور بين مرتفعات وعرة والصحراوين الشرقية والغربية، وعند منطقة اتصال الوادى بالدلتا تقع منطقة القاهرة، العاصمة الحالية، والتى تبعد نحو ١٤ ميلاً (٢٢,٥كم) شمال مدينة منف الواقعة على الضفة الغربية لنهر النيل، وكانت عاصمة فعلية لمصر خلال فترات طويلة من عصورها.

وعلى الضفة الشرقية لنهر النيل تقع مدينة هليوبوليس أو «أون» (عين شمس) مدينة رع إله الشمس، ومن هذه المنطقة ينقسم النيل إلى عدة أفرع تتفرع منها قنوات تغذى الأراضى الزراعية



نهر النيل والأفرع القديمة والمدن المصرية

وحقول الدلتا، تلك الأفرع لم يتبق منها الآن سوى فرعى رشيد غرباً ودمياط شرقاً، فكان «النهر الغربى» - كما أسماه الفراعنة - يجرى على حدود الدلتا من الغرب ويصب فى البحر المتوسط عند بلدة «كانوب» القريبة من مدينة الإسكندرية الحالية، وكانت منطقة خصبة تزدهر فيها حدائق الكروم، وتشتهر بصناعة النبيذ.

وفى منتصف الدلتا كان نهر النيل يجرى ويصل إلى مدينة «نب نثر» (سمنود الحالية)، ثم يميل هذا الفرع الرئيسى غرباً وشمالاً فيمر عبر بوتو القديمة قبل أن يصب فى البحر، بينما أحد أفرعه الثانوية وهو واحد من الفرعين الرئيسيين فى الوقت الحالى، كان يطلق عليه اسم «مياه آمون»، وكان يجرى شمالاً وشرقاً عبر «سما بحدت» (مدينة آمون) وهى قرية البلامون الحالية، حتى يصل إلى البحر.

الفرع البيلوزى

فى تاريخ أحداث قصتنا كان هذا الفرع أحد الأفرع الرئيسية للنيل يجرى فى أقصى الشمال - اختفت معالمه تقريباً الآن، فيما عدا آثار تشغلها بعض القنوات (البحر الشبينى والخليلى وترعة أبو الأخضر ثم بحر فاقوس وترعة السماعنة ومصرف بحر البقر) - كان هذا الفرع فى ذلك الوقت يطلق عليه اسم «مياه رع»، ويتفرع عن مجرى النيل الأساسى أمام هليوبوليس - مدينة رع إله الشمس - ثم يتحول إلى الاتجاه الشمالى الشرقى، وعند اقترابه من مدينة تل بسطة يعود فيتحول شرقاً، ويمر بوادى طميلات حتى يصل إلى البحيرات المرة، يعقبه المجرى الرئيسى للنيل حتى وسط سيناء وشمالها، وكان الجزء الرئيسى من مياه رع يتجاوز تل بسطة ليروى منطقة غنية خصبة، وهى الأرض التى ذكرت فى التوراة باسم «أرض جوشن» التى منحها يوسف لقومه بنى إسرائيل بعد استقدامهم إلى مصر، وعاشوا عليها حتى الخروج وهى تبعد ٢٠ ميلاً تقريباً (حوالى ٣٢كم) من تل بسطة فى اتجاه الشمال، وكان المجرى يحيط بالحد الغربى لميناء أفاريس المهم، والتى كانت العاصمة الإدارية لذلك الإقليم والمركز التجارى الرئيسى للتجارة الوافدة عبر وادى طميلات سواء من الجنوب أم من كنعان، وفى أفاريس كانت تسمى مياه رع باسم (مياه أفاريس)، وبعد أن تتجاوزها تجرى فى الاتجاه الشمالى الشرقى.

وقد كان يفصل سيناء عن وادى النيل حاجز من البحيرات يمتد بين خليج السويس جنوباً والبحر المتوسط شمالاً (يماثل قناة السويس حالياً) ففى الجنوب تمتد مياه البحر الأحمر لتتصل بالبحيرات المرة، والمنطقة الممتدة بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح عند الإسماعيلية منطقة مستنقعات، ينمو فيها البوص وتمتد بحيرة التمساح شمالاً ثم بحيرة البلاح التى تمتد لتصل إلى الحدود الجنوبية لمنطقة القنطرة، ومن الشمال كانت بحيرة المنزلة تمتد لتصل إلى حدود منطقة

القنطرة، وعند هذا الموقع كان يمر الفرع البيلوزى بين شمال القنطرة وبحيرة المنزلة، وعند نهايته يصب فى البحر المتوسط بالقرب من سينو التى أسماها اليونانيون البلوزيوم، وكانت تقع على ضفتى فرع النيل البيلوزى، وموقعها الحالى تل الفرما (٣٠كم شرق بورسعيد)، ومدينة بالوظة الحالية تشمل جزءاً من بقايا المدينة القديمة واسمها تحريف للاسم القديم.

وقد وصف سترابون الجغرافى شرق الدلتا، وجاء فى وصفه بأن المنطقة تنبسط فيها بحيرات ومستنقعات يتصل بعضها ببعض، حيث القرى الغزيرة.

وكان ميلاد موسى فى مدينة أفاريس على الفرع البيلوزى من النيل فى منطقة وادى الطميلات (أرض جوشن) وحمله ذلك النهر إلى بيت فرعون.

وإلى الشمال من أفاريس أنشأ رمسيس الثانى مدينة «بى رعمسيس»، وشمال هذه المدينة كان يخرج فرع آخر من الفرع البيلوزى عند «دفنة» (أدفينا) يسمى «نهر حورس» التى تسميها التوراة «مياه شيحور» يتجه شرقاً ويمر على قلعة كبيرة تسمى «ثارو» (موقع تل الحبوة حالياً ٣كم شرق قناة السويس إلى الشمال الشرقى من مدينة القنطرة شرق)، وكانت هذه القلعة أو المدينة العسكرية هى البوابة الشرقية لمصر أقام فيها الملك «حورمحب» معسكراً إرهابياً لقتل وتعذيب أتباع ديانة التوحيد الباقين من عهد أخناتون، وأشهر من تولى رئاستها «بارعمس» الوزير وقائد جيوش حور محب، والذى أصبح بعد ذلك ملكاً على مصر باسم رمسيس الأول، وموقع هذه القلعة هو بداية طريق حورس الشهير الذى يربط بين مصر وفلسطين، ونقطة انطلاق الجيوش المصرية فى جميع حملاتها إلى آسيا وأول النقاط العسكرية على الطريق. وفى المساحة المحصورة بين النيل ووادى طميلات وبين البحيرات المرة يمتد مسطح صحراوى مستطيل فى مواجهة سيناء، كانت طريق موسى عندما خرج هارباً من مصر إلى «مدين» بعد قتل الرجل المصرى، وعندما جاء إليها نبياً مبعوثاً من رب العالمين، وشهدت أيضاً بداية رحلة خروج بنى إسرائيل من مصر قبل عبور البحر.

وفى المساحة الممتدة بين هليوبوليس وأفاريس توجد أرض خصبة شاسعة تسمى «أرض رع» كانت الموطن الأصلى لأسرة الرعامسة، الأسرة التاسعة عشرة التى حكمت مصر فى القرن الثالث عشر ق.م. ولن نسبق الأحداث إذ ننوه الآن أنه فى هذا العصر كانت تلك المنطقة جزءاً مهماً من موقع أحداث قصة موسى وفرعون.

وعلى نهر النيل كانت تزدهر المدائن المصرية الكثيرة والشهيرة فى الدلتا، وفى جنوب منف تمر قناة تصل النيل بمدينة الفيوم الشهيرة ببحيرتها الكبيرة والتى كانت عذبة المياه، وظلت كذلك إلى ما قبل قرون قليلة، وقد بنى رمسيس الثانى قصراً للحريم الملكى عند مدخل الفيوم لكى يستخدمه كاستراحة للتريُّض، وإنتاج السلع الريفية للقصر الملكى.

وفى الجنوب يقع على امتداد ضفتى النهر العديد من مدائن مصر ومعابد الآلهة

الكبرى والأراضى الزراعية.

شعب مصر

من الصعب أن نحدد نقطة البدء لعملية الاستيطان، غير أن المتفق عليه أن تعمير الصحارى بدأ عقب انتهاء العصر الحجرى القديم الأوسط، أى منذ حوالى ما بين (٩٠) ألف سنة إلى (١٢٠) ألف سنة، ولا يمكن القول أو حتى افتراض وجود أصل مشترك للسكان الأوائل.

لقد انتشرت حضارات ما قبل التاريخ فى أنحاء مختلفة من مصر؛ فى مناطق قريبة من القاهرة، وفى الدلتا والصعيد والصحارى، ويمكن إيجاز نتائج الدراسات الأثرية المقارنة بين تلك الحضارات ثم بينها وبين الحضارات الأخرى سواء فى الشرق القديم والجزيرة العربية أو حضارات أفريقيا، وأيضاً من نتائج الأبحاث الأنثولوجية والأنثروبولوجية والتحليلات البالينولوجية نخلص إلى نتيجة مؤداها، أنه خلال مسيرة طويلة من العصور التاريخية تكون شعب مصر من قبائل وأقوام زحفت إلى هذا الوطن تدريجياً، منهم من أقبل من الشرق والشمال، ومنهم من جاء من الجنوب.

ومن المعتقد الآن أن أصل الشعب المصرى يرجع إلى قبائل حامية زحفت إلى مصر من شرقى أفريقيا ثم اندمجت مع عناصر سامية زحفت على مصر فى شكل هجرات متتالية عن طريق سيناء وشرق الدلتا، وامتزجت هذه السلالات الحامية بالسامية، وأدت إلى ظهور الشعب الموحد الذى أوجد مصر التاريخية. وكان سكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات من جنس البحر المتوسط مع بعض الاختلافات بين سكان الشمال والجنوب، اختفت بالتدريج خلال العصر الفرعونى.

وخلال العصور الفرعونية ورد على مصر كثير من الهجرات، كانت منها عناصر سامية من الشرق وعناصر حامية كالليبيين والنوبيين، وأخرى مختلفة كالإغريق وسكان جزر البحر المتوسط، غير أن جميع تلك الهجرات لم تغير التكوين العام للشعب المصرى، وإنما أضافت إليه الكثير من المميزات الجنسية. واشترك الجميع داخل هذا الكل المتجانس الذى يعتبر أبرز صفات الحضارة المصرية الذى اكتسبته بفضل امتدادها الزمنى غير المألوف، وأعطاها مكانة خاصة فى تاريخ البشرية.

العنصرية المصرية

عرف المصريون النزعة العنصرية. وتكشف آثار الملوك والأفراد عن نظرتهم المتعالية إلى الأجانب، أو ما يمكن اعتباره نوعا من الشعور المتنامى بالذات لدى المصريين القدماء تجاه الشعوب الأخرى، فقد كانوا يعتقدون أنهم الشعب الوحيد المتمدن فى العالم، ويسمون أنفسهم الناس أو

الرجال تمييزاً لهم عن جيرانهم من الشعوب الأخرى الذين كانوا يزدرونهم ويطلقون على رؤسائهم لقب «وغد». وتذكر التوراة أن المصريين كانوا يعتبرون العبرانيين رجساً، ويصف كاتب مصرى إحدى فترات الضعف مستنكراً اختلال حالة البلاد بقوله: «الأجانب أصبحوا ناساً»!

غير أن العنصرية المصرية قد اختلفت تماماً عن أى عنصرية ظهرت لدى الشعوب الأخرى، ومنها العنصرية الإسرائيلية - التى أشرنا إليها - ذلك أن المصرية إحساس بالذات إقليمى وجغرافى قبل أن يكون جنسياً، فلم يكن الشعور المصرى بالتفرد والرفعة يرجع لانتمائهم إلى جنس بشرى رفيع، وإنما هو شعور يحمله كل من يعيش فى هذا الوطن الرائع وينتمى إليه، وبعد حين من دخول الأجانب، واستقرارهم كانوا يعدون - لاحقاً - مصريين، ولم يتحول هذا الشعور إلى نظرية عنصرية تستند إلى الانتماء العرقى أو إلى كراهية للأجانب.

اسم الدولة

الاسم الشائع الذى أخذته الدولة هو مصر، وذكره الكتاب المقدس فى كثير من المواضع، وذكره القرآن الكريم فى خمسة مواضع:

«اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ (٦١)» [البقرة].

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)» [يونس].

«وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ (٢١)» [يوسف].

«وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)» [يوسف].

«وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي.. (٥١)» [الزخرف].

وينسب اسم مصر إلى (مصرايم) بن حام بن نوح، كما ارتبط فى اللغات السامية القديمة بمترادفات تدل على معانى الحد والحاجز والمكان الحصين، وأيضاً البلد المتمدن.

واسم إيجبت الشائع فى اللغات اللاتينية منذ أيام اليونان، فيحتمل أنه اشتق من اسم (كفتوريم) من أولاد مصرايم، وهو جد القفطيين الذين صعدوا مصر العليا، وأنشأوا مدينة قفط، المسماة باللغة المصرية (جبتو Gebtyw). ويوجد رأى بأن هذا الاسم تحرف عن اسم (آجبة) بمعنى أرض الفيضان، ومن هذا الاسم اشتق لفظ «القبط» الذى يشير إلى المصريين، فالقبطى هو المصرى.

وسمى المصريون القدماء أرضهم باسم «كمت» بمعنى السمراء أو السوداء وصفاً لخصوبة تربتها الطينية.

ووصفوها أيضاً بـ «تاوى» بمعنى الأرضين، إشارة إلى الوجهين البحرى والقبلى.

وأيضاً (تامرى) بمعنى أرض الفيضان أو البلد المحبوب.

الفصل الثانى

دورة الحضارة المصرية وعلاقاتها بالشرق القديم

أولاً: من التأسيس والازدهار إلى الاحتلال والتحرير
الأسرات من الأولى إلى السابعة عشرة (٣١٥٠ - ١٥٥٠ ق.م)

١- تأسيس الدولة (العصر العتيق) الأسرتان الأولى والثانية (٣١٥٠: ٢٧٠٠ق.م)

بعد كفاح طويل وصراع مرير بين الشمال والجنوب - يستدل عليهما من مصادر عدة - تمكن الملك مينا حاكم الإقليم الجنوبى من توحيد قطرى مصر؛ مؤسساً بذلك الأسرة الأولى المصرية، ومسجلاً اسمه كأول ملوك الدولة المصرية الموحدة. وقد أسس مدينة منف فى موقع متوسط بين الوجهين لتكون العاصمة الرئيسية للدولة، وظلت كذلك فترات طويلة من تاريخها، وعاصمة فعلية طوال عصور تاريخها، وتشكل الأسرتان الأولى والثانية مجموعة واحدة هى بداية العصور التاريخية، وقارب حكمهما زهاء خمسة قرون، اكتملت خلالها الملامح الأساسية للحضارة المصرية؛ فتوطد النظام الإدارى بعد الاتحاد، وساد الأمن والاستقرار، واتخذت الكتابة التصويرية (الهيروغليفية) الشكل المعروفة به، وظهرت العمارة الملكية الجميلة، وتطورت الفنون والمصنوعات. وينسب إلى عهد الملك «جر» فى الأسرة الثانية الاهتداء إلى التقويم الشمسى.

ويستدل من الآثار على وجود علاقات تجارية مع سوريا وفلسطين، واتصالات بين مصر وبلاد ما بين النهرين. ثم حدثت فتنة واضطرابات، وتدهورت الأحوال فى أواخر عهد الأسرة الثانية، نجح آخر ملوكها «خع سخم» ثم «خع سخموى» فى القضاء عليها وتأديب المتآمرين من سكان الوجه البحرى، وحفظا للبلاد وحدتها.

٢- الدولة القديمة: (٢٧٠٠-٢٢٠٠ق.م)... من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة

يطلق على هذا العصر عصر بناة الأهرام نسبة إلى مقابر ملوكها الهرمية التى ميزت هذا العصر، واستقرت عاصمة الدولة فى منف، التى شكلت مع هليوبوليس المدينتين الرئيسيتين، وقد ظلتا طوال عصور التاريخ تتمتعان بمكانة زاهرة وشهرة عظيمة فى دول الشرق القديم.

فى بداية الأسرة الثالثة، بنى الملك زوسر - أول ملوكها - مجموعته المعمارية التى يتوسطها هرمه فى سقارة. وصاحب الفضل فى تصميمها هو وزيره ومستشاره المهندس العظيم «إيمحوتب» الذى حمل فى عهده ألقاباً كثيرة، وكان أول من استخدم الحجر على نطاق واسع فى البناء محل الآجُر، وبفضل علمه وحكمته احتفظت أجيال المصريين بذكراه، وظل واحداً من أبرز الشخصيات طوال العصور التاريخية فى مصر القديمة.

كانت الدولة القديمة زهرة كاملة فى تاريخ الحضارة الفرعونية، وتاريخ تلك الحقبة مبسوط أمامنا فى الأهرامات الشامخة لملوك الأسرة الرابعة فى دهشور والجيزة (سنفرو وخوفو وخفرع ومنكاورع)، وأهرامات ومعابد الشمس لملوك الأسرة الخامسة فى منطقتى أبوصير وأبوغراب شمال سقارة.

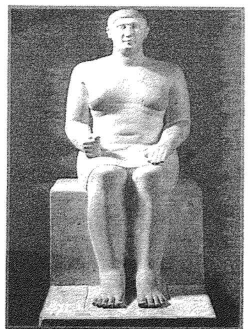
تميز عصر الدولة القديمة بالجلال والنظام والهدوء وجمال فن العمارة، ويعتبر هرم خوفو أصدق تعبير على مر الأجيال عن عظمة الدولة القديمة، كما وصل فن النحت قمته فى عهد الملك خفرع صاحب التمثال العملاق لأبى الهول أمام هرمه.



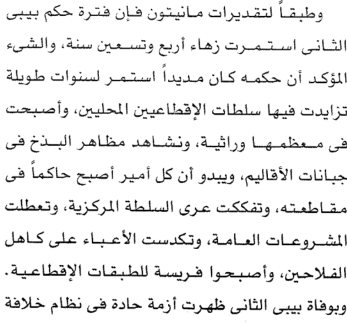
إيمحوتب رائد العمارة المصرية

تدل ضخامة العمارة وكثافة الآثار فى منطقة منف وفخامتها، وضآلة المقابر فى الأقاليم على قوة ملكية، مركزية، بيروقراطية، تشمخ على مدن وقرى ريفية من الأكواخ الطينية المتواضعة.

وفى نهاية الدولة القديمة، فى عصر الأسرة السادسة تكونت إقطاعيات فى البلاد، وبدأت تشكل قدراً من التهديد للسلطة المركزية، وعند نهايات تلك الأسرة تولى عرش مصر الطفل «بيبى الثانى»، فى السادسة من عمره، وكانت أمه وصية عليه، وأصبح خاله الأمير «زاو» وزيرا له، وصاحب النفوذ الأول فى البلاد.



حميونو مهندس الهرم الأكبر



وطبقاً لتقديرات مانيتون فإن فترة حكم بيبى الثانى استمرت زهاء أربع وتسعين سنة، والشىء المؤكد أن حكمه كان مديداً استمر لسنوات طويلة تزايدت فيها سلطات الإقطاعيين المحليين، وأصبحت فى معظمها وراثية، ونشاهد مظاهر البذخ فى جبانات الأقاليم، ويبدو أن كل أمير أصبح حاكماً فى مقاطعته، وتفككت عرى السلطة المركزية، وتعطلت المشروعات العامة، وتكدست الأعباء على كاهل الفلاحين، وأصبحوا فريسة للطبقات الإقطاعية.

وبوفاة بيبى الثانى ظهرت أزمة حادة فى نظام خلافة العرش، وكانت حالة مصر قد وصلت إلى الحضيض وطفح الكيل بالشعب، فلم يجد طريقاً غير الثورة والانتقام، وثار الفلاح الصابر وانهارت الحكومة المركزية، ودخلت مصر عصراً مظلماً فى تاريخها.

٣- عصر الانتقال الأول: (٢٢٠٠-٢٠٤٠ق.م)... من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة

يطلق عصر الانتقال على المائة وستين سنة التى تفصل بين الدولة القديمة وبين الدولة الوسطى، والتى اجتاحت فيها البلاد ثورة الشعب. والمصادر التاريخية عن تلك الثورة الاجتماعية ووصف ما حدث فى البلاد تنحصر فى برديتين: أيبور ونفرتى. ورواية مانيتون عن أحوال الأسرة السابعة، تعكس اضطراب المصادر التى استقى منها معلوماته؛ إذ يقول للتدليل على مدى سوء الحالة التى وصلت إليها البلاد: إن مصر قد حكمها «سبعون ملكاً فى سبعين يوماً»، وتشير المصادر الأخرى إلى حكم العصابات، وتوقف الزراعة والتجارة واستغلال المناجم، ونهب المخازن والمكاتب الحكومية، والقصور وحرقها. وتصف صور الاستيلاء والنهب وانتهاك المقابر الملكية والمعابد، وهجوم البدو والآسيويين على الدلتا، حالة الوجه البحرى الذى أصبح تحت رحمة عصابات البدو. وفى مصر الوسطى والصعيد استقل حاكم كل منطقة بها، وحاول كل منهم أن يفرض سلطانه على باقى الأقاليم، وادعى كل منهم الملك لنفسه واستمرت الحروب بينهم، وتسببت فى القتل والتخريب ونهب الأموال وشل الحياة العامة، وبخلاف الأسرة السابعة الصورية التى صورها مانيتون، فإن القوائم الملكية تصل بملوك الأسرة الثامنة إلى ثمانية عشر ملكاً، ويستمر الغموض التاريخى لتلك الفترة أيضاً. ونعرف من برديات القوائم الملكية، والتاريخ المنقول عن مانيتون وجود الأسرتين التاسعة والعاشرة فى أهناسيا، ويستدل أحياناً على صحة بعض ما ورد فى تلك المصادر من قليل من الآثار المتناثرة فى أنحاء مصر لتلك الفترة.

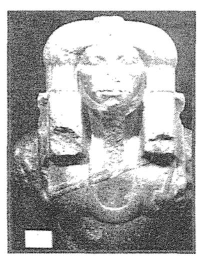

الملك منتوحوتب الثانى
أعاد وحدة مصر

وإذا كانت تلك الثورة الاجتماعية قد دكت عرش السلطة وقضت على الحكومة المركزية القوية، وعرضت البلاد للخراب والدمار، وخطر هجوم البدو وقبائل الآسيويين، إلا أن مصر خرجت من تلك التجربة القاسية وقد أدركت قيمة الإنسان وحقوقه ومعنى الأخلاق، وتجلى ذلك فى أدب الحكمة والقصص الأدبية التى وصلت إلينا من ذلك العصر.

٤- الدولة الوسطى: (٢٠٤٠-١٧٨٥ق.م)... الأسرتان الحادية عشر والثانية عشرة

بعد أن كانت الأمور فى البلاد تدعو إلى اليأس، ووصلت إلى حالة من التقهقر جعلها أشبه بالوضع الذى كانت عليه قبل ألف سنة، حين كانت منقسمة إلى مملكتين، كرر التاريخ نفسه، ووثب ملوك طيبة على الوجه البحرى بقيادة «منتوحوتب الثانى» الذى أعاد وحدة البلاد إلى ما كانت عليه، ودحر آخر ملوك الأسرة العاشرة الشمالية، وأخيراً

نودى به ملكاً على مصر القطرين، وفيما بعد قدر أهل طيبة جهود منتوحوتب الثانى، واعتبروه بطلاً ولقبوه بالملك مينا الثانى، وموحد القطرين الثانى. وقد استغرقت جهوده لإقرار السلام سنوات طويلة، ونقل العاصمة إلى طيبة فى جنوب مصر. وفى نهاية الأسرة الحادية عشرة انتقلت السلطة بطريقة غامضة إلى الوزير أمنمحات الذى أسس الأسرة الثانية عشرة العتيدة، والتى اشتهر ملوكها بالحزم والكفاءة، وحققوا الأمن ونشروا السلام، ووصلت مصر فى عهدهم إلى حالة من الرخاء الاقتصادى لم تصلها من قبل؛ بفضل العناية بالرى والتوسع فى المشروعات الزراعية. كما اهتمت تلك الأسرة بالمشاريع العمرانية، وأسس أمنمحات الأول عاصمة جديدة جنوب منف سماها «أثت تاوى» (القابضة على القطرين)، واهتموا بسياسة البلاد الدفاعية، وأقاموا تحصينات قوية على مشارف المملكة، واهتموا بتنظيم استغلال المناجم، وأعادوا تنظيم الإدارة، وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد الشرق القديم.



أمنمحات الثالث حاكماً وكاهناً

وسجل التاريخ - بحق - لتلك الأسرة أن عصرها كان أزهى عصور مصر من حيث الرخاء الاقتصادى واعتبروا أحد ملوكها، وهو أمنمحات الثالث من أعظم الفراعنة فى تاريخ مصر كلها.

وانتهى حكم الأسرة الثانية عشرة فجأة إبان حكم آخر ملكاتها «سوبك نفرو» ويقف المؤرخون حائرين عن أسباب انحدار مصر مرة أخرى إلى عصر من أظلم عصور تاريخها.

٥- عصر الانتقال الثانى والاحتلال: (١٧٨٥ : ١٥٥٠ق.م)

ينقسم هذا العصر الذى قارب على القرنين والنصف قرن إلى فترتين:

الأولى: الأسرتان الثالثة عشر والرابعة عشر

الثانية: غزو الهكسوس

تبدأ الفترة الأولى بوفاة الملكة سوبك نفرو، آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة حوالى عام ١٧٨٥ق.م، وتنتهى مع بدء دولة الهكسوس حوال عام ١٦٧٥ق.م، ولا تتعدى المعلومات التاريخية عن تلك الفترة سوى الأسماء الواردة فى القوائم الملكية للأسرة الثالثة عشرة التى تزيد أسماء ملوكها على خمسين ملكاً وتعطى بعض الوثائق انطباعاً مبدئياً بوجود تواصل واستمرارية بين تلك الأسرة والأسرة الثانية عشرة، وتركز نشاط هؤلاء الملوك الصوريين فى طيبة مع استمرار عاصمة البلاد فى «أثت تاوى» وفى النصف الأول من حكم تلك الأسرة احتفظت مصر بقدر من السلطة كان كافياً للإبقاء على هيبتها فى الداخل

وقوتها فى الخارج.

أما الأسرة الرابعة عشرة، فقد قامت فى الوجه البحرى معاصرة للأسرة الثالثة عشرة، وكان مقر حكمهم فى مدينة «سخا» فى غرب الدلتا، وعاصرت أيضاً أسرة الهكسوس التى قفزت إلى مسرح الأحداث وأقامت عاصمتها فى أواريس (الختاعنة فى شرق الدلتا).

الهكسوس: الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة

فى تلك الفترة من الضعف والانقسام بدأ دخول الهكسوس مصر بزحف شعوبهم تدريجياً على شمال البلاد فى موجات استغرقت قرابة خمسين سنة، وتركزت إقامتهم فى منطقة شرق الدلتا وشمال هليوبوليس، وفى العام ١٦٧٥ق.م، توج زحفهم بتأسيس أول ملوكهم ساليتس – الأسرة الخامسة عشرة – وأعلن أواريس فى شرق الدلتا عاصمة لهم، وبسطوا نفوذهم على الدلتا ومصر الوسطى. وقد صورهم مانيتون والتقاليد المصرية الوطنية كبرابرة قساة لا يعرفون الدين ويحرقون المدن ويهدمون المعابد. وجعل لهم أسرتين.

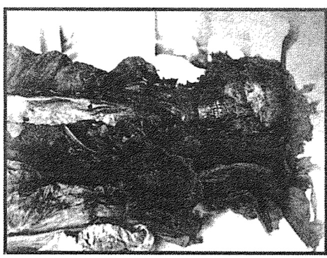
وأصبحت مصر فى تلك الفترة مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

– الدلتا ومصر الوسطى: تحت حكم الهكسوس.

– مصر العليا: فى البداية فرض الهكسوس نفوذهم عليها وأجبروهم على دفع الجزية، ثم فقدوا السيطرة عليها، وأصبحت تتمتع باستقلال تام تحت حكم الأسرة السابعة عشرة الوطنية.

– بلاد النوبة وكوش: حررت نفسها وحكمت بواسطة ملك كوش.

وقاد الكفاح ضد الهكسوس ملوك الأسرة السابعة عشرة الطِّيبية، بقيادة «سقنن رع» الذى تكشف آثار الجروح التى تحملها مومياؤه أنه مات مِيتة عنيفة تؤكد ما حدث من مجابهة ضد الهكسوس. واستكمل كفاحه ابنه كامس الذى حقق انتصارات تخطت مصر الوسطى وجزءاً من الدلتا، ولا نعرف كيف انتهت أيامه، ونرى فجأة البطل الثالث فى حرب التحرير الملك الشاب أحمس أخو كامس الذى تسلم منه راية الجهاد ولم يضعها إلا على حدود مصر فى شاروحين جنوب غزة بعد أن اطمأن إلى هزيمة أعدائه وطردهم خارج الدولة. وبعدها وجه اهتمامه إلى إعادة تنظيم بلاده من الداخل وأعاد لمصر حدودها الجنوبية التى كانت عليها فى عهد الأسرة الثانية عشرة، ووضع الأساس الثابت الذى قام عليه صرح



مومياء سقنن رع.. تكشف آثار الجروح عن الصراع المرير لطرد الهكسوس

الإمبراطورية القادم ليبدأ عصراً جديداً من أعظم عصور الحضارة المصرية.

هذا ما كان من شأن الاحتلال والتحرير، وإذا كان قد جلى عن مصر من الغزاة: الحكام والعسكر، فإن السنوات القادمة فى تاريخ مصر سوف تثبت أنه كان قد استوطن فى مناطق نفوذهم فى الدلتا وشرق مصر كثير من المهاجرين الآسيويين الذين انتقلوا خلال حكم الهكسوس، واستمرت حياتهم بعد التحرير وسوف يكون لهم تأثير خطير قادم فى صنع الأحداث فى مصر والشرق القديم.

ثانياً: من قمة الإمبراطورية إلى بداية الاضمحلال
عصر الدولة الحديثة - الأسرات من الثامنة عشرة إلى العشرين (١٥٥٠ - ١٠٦٩ ق.م)

كان سقوط مصر فريسة للهكسوس محنة قاسية، فقد كان هذا أول غزو أجنبى تتعرض له مصر فى عصرها القديم، سيطروا فيه على المنطقة الشمالية ووصلوا حتى مصر الوسطى، وأسسوا لهم عاصمة شرق البلاد، قريبة من مناطق هجرتهم وحدود مصر الشمالية الشرقية، واستمر وجودهم مدة قاربت القرن ونصف القرن.

كانت تلك الفترة جملة اعتراضية وغريبة وغير مفسرة فى تاريخ مصر، ونرى فيها تدبيراً إلهياً محكماً؛ حيث شاءت الأقدار أن تفقد مصر قوتها ثم استقلالها لأجل أن تتهيأ الظروف التاريخية المناسبة لتنزح إليها قبيلة الإيمان آل يعقوب ويدخلوا مصر آمنين ويستقروا على أرضها غانمين سالمين - وسوف نقدم الأدلة التى تؤكد هذا التعاصر فى فصل لاحق - وأصبح فى مصر الوثنية نبيان: يعقوب ويوسف لنشر عقيدة التوحيد، وقد حكم يوسف فى مصر وأسكن قومه فى أخصب أراضيها. وهو ما كان يمكن أن يحدث فى ظل الملكيات الفرعونية العنصرية القوية، ويظل التخطيط الإلهى مستمراً حتى يحين موعد موسى مع القدر عند قمة سطوة الحضارة المصرية فى عصرها الإمبراطورى.

بعد غزو الهكسوس تعلم المصريون الدرس، فعلمتهم المحنة أن حماية دولتهم تبدأ من خارج حدودها، فانطلقوا بعد تحقيق استقرار المملكة من الداخل، نحو الشمال ونحو الجنوب، لتبدأ الدورة القومية فى التوسع المصرى فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ولا تكتفى بإمارات الشام، بل يستمر المد المصرى شمالاً ليعبر نهر الفرات ويصل إلى تخوم الأناضول، وتسيطر مصر على كل سواحل وجزر شرق البحر المتوسط، وفى الجنوب وصلت السيطرة والحكم المصرى إلى الشلال الخامس من النيل بعد نباتا وجبل برقل.

وتأسست أول إمبراطورية فى تاريخ الدنيا، لتصبح مصر وتظل نحو أربعة قرون تالية القوة الكبرى فى العالم القديم، بفضل قوتها الضاربة وحضارتها المتطورة فى آن واحد.

وقد شهدت هذه الحقبة التاريخية تطورات مهمة فى حياة بنى إسرائيل فى مصر، فقد تحول أمنهم واستقرارهم إلى تعذيب وجحيم، وفى هذه الظروف كان ميلاد موسى عليه السلام فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، وكانت بعثته وصراعه ضد فرعون وخروجه ببنى إسرائيل فى الأسرة التاسعة عشرة، وحدث دخول الإسرائيليين إلى فلسطين بعد انتهاء سنوات التيه فى زمن الأسرة العشرين.

وهذا التعاصر سوف تثبته الأدلة الدينية والتاريخية فى الفصول المقبلة من هذا الكتاب.

ومن ثم فسوف نلقى الضوء على تلك الحقبة بشىء من التفصيل النسبى مع إيضاح لحروب مصر فى آسيا، لما لذلك من أهمية سوف نعتمد عليها فى وضع ثوابت البحث، وتحديد النطاق الزمنى للأحداث، وتحديد الأدلة على الفترة التاريخية لميلاد موسى وتاريخ الخروج وفرعون المعاصر.

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٠ - ١٢٩٥ق.م)



رأس مومياء أحمس الأول فارس التحرير ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة

وضع مانيتون، أحمس الأول فارس معركة التحرير وبطل الاستقلال على رأس تلك الأسرة، رغم أنه كان شقيقاً لكامس وابنا لسقنن رع من ملوك الأسرة السابعة عشرة، ويبدو أن هذا التقسيم استمده مانيتون من قدماء المصريين أنفسهم الذين اعتبروا أحمس بداية لعصر جديد.

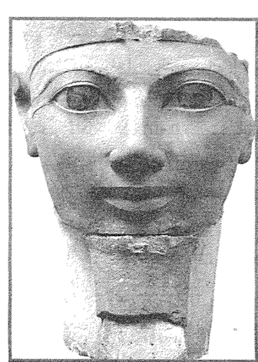
بعد أن عاد أحمس من الحرب وطرد الهكسوس، شرع فى إعادة تنظيم البلاد بعد فتحها، فأعاد تنظيم الجهاز الإدارى واختار الأعيان المحليين الذين ساندوا حرب التحرير، وكلفهم بشغل المناصب المهمة، ونظم الرى والضرائب، وأعاد فتح المحاجر، واهتم بالأنشطة الاقتصادية، واستأنف المصريون تشييد العمائر الدينية والجنائزية بأساليب تقنية رفيعة المستوى. وبعد أن دانت البلاد لأحمس واطمأن إلى أحوالها الداخلية، قام فى العام الثانى والعشرين من حكمه بمهاجمة كنعان «خورو» (فلسطين) واجتاح جنوب فينيقيا قاصداً من ذلك تأمين عدم ارتداد الهكسوس، وتأكيد قوة مصر الضاربة، وقد واصل ابنه أمنحوتب الأول (١٥٢٥ - ١٥٠٤ق.م) أعماله، فاهتم بالإنشاء والتعمير، والتقدم الاقتصادى، والفنون، وزيادة رخاء البلاد، وعم السلام طوال فترة حكمه، وفى المجال الخارجى هاجم سوريا، ووصل إلى مشارف نهر الفرات، واهتم بتثبيت أقدام مصر فى النوبة. وبعد الاستقرار الداخلى كان مقدراً لمصر أن تبدأ فى المرحلة التالية خطوات تشييد صرح الإمبراطورية.

فقد حكم بعده ابنه تحوتمس الأول (١٥٠٤ - ١٤٩٢)، وكان رجلاً مكتملاً تجاوز الأربعين من عمره، وهو الذى خطا الخطوة الأولى فى تشييد صرح الإمبراطورية، فمد حدود مصر الجنوبية إلى قرب الشلال الرابع فى آخر دنقلة عند جبل برقل، ثم انطلق ناحية الشام عاقداً العزم على تنفيذ المرحلة التالية من سياسة أسرته، وهى السيطرة على أبواب التجارة ومداخل الهجرات فى شمال سوريا وقرب نهر الخابور، والفرات، وسار بجيشه فى سرعة غريبة ودون معارضة حتى بلغ أرض نهرينا فى منطقة الميتان، ثم عبر نهر الفرات، وأرسى على ضفته الشرقية نصباً حدد به حدود دولته الجديدة، التى امتدت على حد تعبير نصوص عهده من «قرن الأرض فى الجنوب إلى أطرف

المياه المعكوسة فى الشمال» (أى من جبل برقل والشلال الرابع حتى أطراف مياه الفرات)، وقد كانت هذه الحروب أول محاولة حقيقية فى تاريخ مصر لإرساء السيادة المصرية على آسيا.

وتولى بعده تحوتمس الثانى (١٤٩٢ - ١٤٧٩ق.م)، وكان ابناً من زوجة ثانوية لتحوتمس الأول (ذات أصل غير ملكى)، فلم تلد الأميرة أحمس، الزوجة الرئيسية ذات الأصل الملكى ولداً ذكراً، ولكى يثبت شرعيته للحكم تزوج من الأميرة حتشبسوت - بنت الأميرة أحمس - أخته غير الشقيقة والوريثة الشرعية، ورغم ما شاب مدة حكمه من خلاف وصراع مع زوجته ذات الشخصية والصفات القوية التى ورثتها عن أسرتها، فقد تمكن تحوتمس الثانى من دعم ما كسبته مصر من نفوذ فشن حملتين عسكريتين، الأولى فى النوبة لسحق ثورة فى كوش، والأخرى فى جنوب فلسطين ضد البدو (الشاسو)، ثم استمر زحفه حتى وصل إلى فلسطين وبلاد نهارين. وتؤكد نصوص عهده استمرار السيادة المصرية فى آسيا، وحضور رسلهم حاملين الجزية.

وقد مات تحوتمس الثانى مبكراً تاركاً عرش الإمبراطورية لابنه الطفل تحوتمس الثالث، ولم يكن ابنا لحتشبسوت الزوجة الملكية، وإنما من زوجة ثانوية أخرى تدعى «إيزيس» وبسبب وجود هذا الفراغ فى السلطة قامت حتشبسوت - الوصية على العرش - بالقبض على السلطة، وتوجت نفسها «ملكاً» من (١٤٧٩ - ١٤٥٨ق.م) واتخذت لنفسها جميع الألقاب الملكية، ومن الناحية الرسمية أصبح تحوتمس الثالث شريكاً لها فى الحكم. وقد تميز حكمها بالسلم، ولم تقم بأى حملات حربية، واشتهرت برحلتها البحرية التجارية التى أرسلتها إلى بلاد بونت وسجلتها على جدران معبدها فى الدير البحرى غرب الأقصر، وأرسلت حملة أخرى لتوطيد الأمن فى منطقة كوش الجنوبية، وقد استغل حكام الولايات الآسيوية سياسة حتشبسوت السلمية والصراع السياسى بينها وبين تحوتمس الثالث وأعلنوا الثورة على حكم مصر، وبدأ بعضهم فى الاستقلال بولاياتهم.



حتشبسوت

وداخليا سجلت محاربتها وقضاءها على طائفة من الآسيويين، ووصفتهم بأنهم من أعوان وبقايا الهكسوس الغزاة، ونسبت إليهم تخريب المعابد وعداوة الآلهة المصرية.

تحوتمس الثالث (١٤٥٨ - ١٤٢٥ق.م)

أعظم الفراعنة المحاربين فى تاريخ الحضارة المصرية، قائد حربى من الطراز الأول، يتحلى

بشجاعة نادرة، صاحب إستراتيجية متميزة فى التخطيط للمعارك وتنفيذها، استخدم أساليب جديدة فى فن القتال، وأيضاً امتاز فى إدارة المستعمرات بعد الانتصار.

عندما انفرد بحكم مصر كان شاباً فتياً مفعماً بالحيوية والنشاط والآمال الكبيرة، وسواء كان هذا الانتقال قد تحقق له بشكل سلمى بعد وفاة عمته وزوجة والدة حتشبسوت أم أنه استطاع بعد أن اشتد عوده أن يقضى عليها ومن كان يواليها، فإنه أنكر حكمها، فعلى الرغم من أنه حكم منفرداً حوالى ثلاثة وثلاثين عاماً، غير أن نصوص عهده وسجل حولياته اعتبرت أن فترة حكمه تبدأ بعد وفاة والده، لذلك فإن مدة حكمه الرسمية طبقاً لسجلاته تبلغ أربعة وخمسين عاماً.

اختلفت فترة حكمه وسياسته الخارجية عن سابقته تماماً، فقد كانت مستعمرات مصر فى سوريا انتهت تقريباً إما بالاستقلال عن مصر أو بالانضمام والتحالف مع الدولة الميتانية تلك القوة الصاعدة فى أفق غرب آسيا فى ذلك الوقت، وقد قامت إمبراطوريتهم على أنقاض إمبراطورية «حمورابى»، وبلغت أوج ازدهارها فى القرن الخامس عشر ق.م. ويقع قلب هذه الإمبراطورية فى المنطقة المحصورة بين دجلة والفرات جنوب جبل «طوروس» وتمتد لتشمل سوريا وشمال العراق (منطقة كردستان) ثم تصل إلى أرض فلسطين، وقد سماها المصريون «نهرين»، أى أرض النهر وأغلب أمرائها من أصل آرى، وأغلب معبوداتهم هندية. وما لبث تحوتمس – بعد أن انفرد بالعرش – حتى جهز نفسه لتوطيد النفوذ المصرى المتدهور فى آسيا، وقاد جيشه بنفسه فى سلسلة متواصلة من الحملات العسكرية إلى آسيا بلغت سبع عشرة حملة قوية ناجحة، نفذ فيها سياسته، وبسط نفوذه على فلسطين منذ أولى حملاته، الأمر الذى مكنه بعد ذلك من الاستيلاء على سوريا وفينيقيا، وتمكن من طرد الميتانيين والقضاء على وجودهم فى هذه المناطق، وإلى ما بعد نهر الفرات، واسترد لمصر سيطرتها الكاملة على كل الأراضى التى كان جده تحوتمس الأول قد استولى عليها. وفرض السيادة المصرية على غرب آسيا، كما قام بعدة حملات أخرى إلى جنوب مصر وفرض سيادته عليها. وامتدت رقعة إمبراطوريته من أقصى الفرات شمالاً إلى نبتا فى الجنوب، وأصبحت مصر فى عهده وإلى عدة قرون تالية القوة العظمى الأولى فى العالم القديم، وسارع ملوك الدول القوية المعاصرة، بابل وآشور وخيتا «الحيثيين» إلى خطب ود مصر، وكسب



تحوتمس الثالث.. إرساء الإمبراطورية المصرية

رضاها، وأرسلوا مبعوثيهم إلى الفرعون لتوطيد علاقاتهم الدبلوماسية مع مصر.

سجل تحوتمس الثالث حملاته العسكرية تفصيلاً فى «الحوليات» التى نقشها فى معبد آمون رع بالكرنك. وتساعدنا تقارير الحرب المدونة على معرفة الإمارات والدويلات التى حاربها ودانت لسلطانه ونفوذه.

وقد استطاع العلماء أن يتعرفوا على الكثير من أسماء الممالك والدويلات، التى استولى عليها تحوتمس الثالث، وأهمها مناطق فلسطين، ومنها المناطق الجبلية فى داخل فلسطين بالقرب من أشدود و«شويكة» وهى تقع شمال نابلس، و«يوحم» فى أحد سفوح الكرمل، ومناطق أخرى على المنحدر الشمالى لجبل الكرمل، وأهمها (وادى قيشون) وسهول فلسطين، وأهم مدنها (مجدو)، ومدن شرق نهر العاصى، وبلدة «نجب» جنوبى فلسطين. وأخضع مناطق تقع فى السهول الرملية (عكا) و(رأس الناقورة) وسهول شارونا، وممر مَجِدّو، وسهل يسرين، وبيت شان (بيسان)، ودمشق، وقادش، وسهل حلب، والسواحل الفينيقية. وقد عثر على الكثير من الآثار المصرية فى معظم تلك المناطق، وكذلك أخضع مملكة ميتانى.

ويلاحظ أن تقارير الحرب لم تذكر شيئاً عن سكان شرق الأردن؛ لأنها كانت مناطق غابات كثيفة، ويستوطنها بدو رحل ليس لهم جيوش منظمة وقد سماهم المصريون «الشاسو».

التنظيم الإدارى لتحوتمس الثالث وأسلوب إدارة المستعمرات

فضلاً عن كفاءته العسكرية الفذة، فقد كان تحوتمس الثالث أيضاً رجل سياسة وإدارة من الطراز النادر، وأحد القادة القلائل الذين يندر فى دراسة التاريخ - سواء فى مصر أم فى العالم - أن نجد من اجتمعت فيه كل تلك العناصر، والتى أهَّلته لأن يضع دولته فى المكانة البارزة كأقوى وأعظم الحضارات التى قامت فى الشرق القديم.

وتتجلى إنجازاته الإدارية، فى النظام الإدارى واختيار الأشخاص داخل الدولة الذى مكنه من قيادة حملاته العسكرية بنفسه إلى الشمال والجنوب مع تحقيق الأمن والاستقرار والرخاء للشعب فى الداخل.

وتظهر براعته وحكمته فى التنظيم السياسى والإدارى الذى اتبعه فى إدارة مستعمراته، مما مكنه من إحكام قبضته عليها وضمان ولائها له، فقد اهتم باختيار حكام ذوى كفاءة لحكم الأقاليم من عواصمها. ووضع نظاماً للإشراف على المستعمرات الآسيوية بتعيين حكام مصريين لهذه الأراضى الشمالية للإشراف على توابع الفرعون من هؤلاء الحكام المحليين - الذى فى الغالب يكون قد اصطحب أبناءهم ليربيهم مع الأمراء المصريين فى مصر - وتركز الحكام المصريون فى ثلاث ولايات:

كنعان (فلسطين) وكانت مدينة غزة هى مركز الإدارة العسكرية والسياسية، وأيضاً مركزاً لتجمعات مبعوثى تحوتمس الثالث. والولاية الثانية أوبى (جنوب سوريا للداخل) ومركزها سيميرا

غرب دمشق، ثم ولاية آمورو (سواحل سوريا) على الساحل الفينيقى، هذا بالإضافة إلى المدن الفينيقية من صور إلى أوجاريت (رأس الشمرة الحالية).

وقد جنت مصر ثمار حكم تحوتمس الثالث، والتى تجلت صورها فى العمران الهائل بطول البلاد من أقصى الشمال حتى نباتا بجوار الشلال الرابع فى السودان.

وقد اعتبره المؤرخون - بحق - الصورة الكلاسيكية للفرعون الإمبريالى، الغازى، الفاتح، وراعى الشعب، وحامى العدالة، ومحقق الأمن والاستقرار والنظام والرفاهية لجماهير الشعب.

ولم يقدر الله لمصر أن يتكرر أمثال هذا القائد الذى تجتمع فيه العسكرية مع السياسة، والشجاعة مع الحكمة، وسوف ندرك هذا المعنى عند الحديث عن رمسيس الثانى الذى كانت مصر قد وصلت فى عهده إلى أقصى درجات الرفاهية والترف، واعتبر نموذجاً لشخصية «الفرعون» القياسية، غير أنه بسبب ما اجتمع له فى شخصيته من صلف وغرور وجنون عظمة، فقد جر مصر إلى هاوية سحيقة ورغم محاولات ملوكها المتكررة والحثيثة للنهوض بها والعودة إلى سابق عهدها فإن ذلك لم يحدث حتى انتهت حضارتها.

وعودة إلى تحوتمس الثالث، فإن آخر ما نعده من أعماله العظيمة هو تربيته وتنشئته للفرعون القادم، ابنه أمنحوتب الثانى.

أمنحوتب الثانى (١٤٢٥-١٣٩٧ق.م)

ورث عن أبيه الكثير من الخصال، تدرب على الرماية والفروسية والتجديف منذ نعومة أظافره فأصبح رياضياً عظيماً، وجندياً شجاعاً، كان يتفاخر ويتباهى معتزاً بفروسيته وشجاعته وقوته، فرح به والده وهو يراه أميراً حديث السن، يجيد ضروب الرياضة، وفنون القتال، مغرماً بجياده، ماهراً فى تدريباتها، متغاضياً عن شهوات الجسم، محباً للشجاعة، وقال فى قلبه: «إنه هو الذى سيكون سيد البلاد قاطبة»، تكشف مومياؤه عن صدق النصوص فى وصفه، فقد كان طويل القامة، ممشوق القوام، قوى الساعد. أشركه معه والده فى الحكم قبل وفاته بسنتين، وعندما مات والده كان فى الثامنة عشرة من عمره، ووجد حوله رجال أبيه، وجيشاً قوياً تمرس على فنون القتال، ومدرسة عسكرية يتخرج فيها كل عام جنود مدربون، مقبلون على الحياة العسكرية فخورون بها، والخزائن ملأى، والبلاد آمنة.

تسجل نصوص أمنحوتب الثانى أنه قام بثلاث حملات إلى الشام، الأولى حدثت فى العام الثالث من حكمه، وجاءت نتيجة للثورة التى حاولت بلاد «نهرين» القيام بها فى أعقاب انتقال السلطة إلى الفرعون الجديد، وانتهت هذه الحملة بسقوط «قادش»، فى سوريا، دون أن تحسم الأوضاع، مما ترتب عليه ضرورة القيام بحملتين أخريين قصد فيهما ضرب دولة «الميتانى» باعتبارها الخطر الحقيقى، والتى كانت تسعى إلى مد سلطانها فى مناطق نفوذها القديمة، فكانت حملتا العام السابع

ثم العام التاسع من حكمه.

فيذكر فى حملة العام السابع أنه زحف على بلاد «رتنو» ليخضع الأمراء الذين شقوا عصا الطاعة، واسترد المدن والمناطق التى سيطروا عليها وأسر أمراءها وأبناءهم ونساءهم، وجلب منها العبيد والمحظيات من النساء، واستولى منها على غنائم من الجياد والعربات المجهزة، وسجلت نصوص تلك الحملة إخضاعه لفلسطين والساحل الفينيقى وقادش ومدن سورية.

أما الحملة الثالثة فى العام التاسع فيذكر عنها أمنحوتب الثانى: أنه قد جاءته الأخبار بقيام ثورة فى شمالى فلسطين، فسار بجيشه وداهم القرى والمدن وأسر الأمراء الذين شقوا عصا الطاعة ومعهم زوجاتهم وأتباعهم وأشراف المدن بخلاف الرجال والجنود، واستولى على الممتلكات والعربات الحربية بكل معداتها والخيل والماشية، ونَصَّب الأمراء الموالين له.

وتذكر نصوص أمنحوتب الثانى أن أعداد الأسرى فى حملته هذه الأخيرة إلى فلسطين الذين ساقهم إلى منف من الأمراء والعظماء والرجال والجنود والنساء من كل السلالات تبلغ نحو تسعين ألف أسير، بخلاف ستين عربة من الفضة والذهب، وأكثر من ألف عربة ملونة بمعداتها.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى وجود مبالغة كبيرة فى أعداد الأسرى وتشككوا فى حقيقتها. ومن ناحيتى لا أشاركهم هذا الرأى، وأثق فى أرقام نصوص أمنحوتب الثانى، وأرى أن تصرفه يتفق ومنطق القياس التاريخى، ويخضع لاعتبارات ظروف عصره، فقد كان يمكنه لو أراد أن ينسب لنفسه بطولات زائفة وانتصارات وهمية أن يتبع الأسلوب الشائع ويسجل أعداداً لعشرات الألوف من القتلى والصرعى، ليخدع بها شعبه، أما تسجيل هذا العدد الهائل من الأسرى - المفروض أنه تم اقتيادهم ومصاحبتهم للجيش وهو قادم بعد النصر - ونشرها وشهرها على جدران المعابد أمام الشعب والكهنة والقادة والجنود، فهو أمر لا يستقيم إن لم يكن صحيحاً، ويعتبر من قبيل الكذب المفضوح، والخداع الأحمق، وهذا يضع الملك فى حالة ضعف لا تتفق مع صفاته المعروفة، فضلاً عن عدم حاجته إليه. ويمكن أن نعتبر أيضاً أن تصرف أمنحوتب الثانى بالأسر والتهجير إلى مصر يكشف عن الحكمة وبُعد النظر، أكثر مما يظهر من بطولة وشجاعة كان موضعها ميدان القتال؛ ذلك أن نقله للأسرى من الأمراء والعظماء ومعهم زوجاتهم وأولادهم يعد بمثابة تهجير لهم وإعادة توطين داخل مملكته، فيأمن بذلك ثوراتهم ومؤامراتهم فى مناطق سلطانهم ونفوذهم. ولاشك أن هذا الأسلوب قد تعلمه من والده وزاد عليه ضماناً لاستقرار إمبراطوريته. وأما نقله للرجال والجنود والعبيد فهو للاستفادة بهم فى مصر بضمهم إلى الجيش، أو تشغيلهم فى الأعمال المختلفة، والنهضة العمرانية الشاملة فى أنحاء البلاد، وأيضاً لإهداء العبيد والمحظيات إلى كبار رجال الدولة وقادة جيشه، كنوع من توزيع الغنائم لمكافأتهم وضماناً لولائهم، ولتوزيع الأرقّاء والأسرى للعمل فى المعابد والمزارع والمحاجر والمناجم. وتؤكد نصوص الدولة الحديثة ضخامة حجم ما تم توزيعه من أسرى بتلك الجهات، وانضمام الأسرى إلى صفوف الحرفيين من الأيدى العاملة الأجنبية الوافدة

للإقامة والعمل فى مصر.

وأخيرا فإن ما اعتبره المؤرخون مبالغة من أمنحوتب الثانى، فإننا نذكر أنه بسياسته تلك كان أسبق من حكام آشور عندما سقطت إسرائيل سنة ٧٢٢ق.م - بعد أمنحوتب الثانى بنحو سبعمائة عام - وقيام الملك الآشورى «سرجون الثانى» بتهجير سكانها وجلب سكان جدد، فيما أطلق عليه تاريخياً «السبى الأشورى».

وكان أسبق أيضاً من «نبوخذ نصر» عاهل بابل عند سقوط أورشليم ونهاية دولة يهوذا سنة ٥٨٧ق.م، وحدوث السبى البابلى، عندما قام بإبعاد الرجال وأسرهم - قرابة ثلاثين ألفاً - معظمهم من أورشليم من العائلة المالكة والطبقات الحاكمة وكبار الرجال والوزراء و الكهنة والجنود والصناع والحرفيين.

وهذا التصرف أيضاً لجأ إليه بطليموس الأول الذى حكم مصر بعد انتهاء دولة الفراعنة، عندما سيطر على أورشليم، بعد أن أعلن اليهود عصيانهم له، وساق منهم إلى مصر أكثر من مائة ألف أسير.

الأسرى العابيرو

بقيت نقطة أخيرة تحتاج إلى مناقشة فى حروب أمنحوتب الثانى، فنعلم من نصوصه أنه قد أخضع كل السلالات التى كانت تقطن فى فلسطين خلال حملته - فى العام التاسع من حكمه - وذكرها كلها من الجنوب إلى الشمال، ويلفت النظر من بين هذه السلالات، ما ذكره من أنه كان فى عداد الأسرى ٣٦٠٠ من «العابيرو»، وهذه الطائفة قد جاء ذكرها بعد ذلك فى خطابات «تل العمارنة» باسم «الخابيرو» أو العبرانيين.

وقد حاول بعض العلماء أن يعتبر جماعة العبرانيين هذه، هم الإسرائيليون الذين دخلوا أرض كنعان بعد الخروج من مصر وانقضاء سنوات التيه فى صحراء سيناء، واستدلوا لتأييد رأيهم بذكر شعب إسرائيل على لوح للملك مرنبتاح - من الأسرة ١٩ - مؤرخ فى السنة الخامسة من حكمه، ورأوا أن ذلك يدل على أن إسرائيل كانت قائمة هناك فى هذا الوقت، وأن خروجهم - بالتالى - يكون قد تم منذ فترة سابقة كافية لانقضاء سنوات التيه.

وهذا الرأى يستحيل قبوله لأسباب كثيرة سوف نوضحها فى الفصول المقبلة؛ وأهمها حروب رمسيس الثانى فى آسيا، والتى حدثت بعد ذلك - فى الأسرة ١٩ - وأكدت عدم قيام أى دويلات أو دخول أى من سلالات بنى إسرائيل لأرض كنعان حتى انتهاء عهده.

أما عن تعبير العبرانيين، فقد ارتبط هذا اللقب بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - وآله منذ هجرته من العراق إلى أرض كنعان، ثم انسحبت هذه الصفة على نسل إبراهيم من بعده، والطائفة التى هاجرت منهم إلى مصر فهم آل يعقوب فقط. أما باقى أبناء إبراهيم فقد استمرت إقامتهم فى أرض كنعان وأراضى أخرى قريبة منها مثل مَدّين، وهو الأمر الذى يعنى استمرار لقب العبرانيين

لهم، وقد وردت إشارات إليهم فى القصة الأدبية التى تصور الاستيلاء على مدينة جوبى (يافا الحالية)، وظهر اسم العبرانيين أيضاً فى عهد تحوتمس الثالث كعمال فى بساتين الكروم على جدران مقبرتى الكاهن الثانى لآمون «پو إم رع»، وأنتف الرسول الكبير للملك، وهؤلاء العبرانيون إما من أحفاد الإسرائيليين أبناء يعقوب الذين هاجروا إلى مصر، أو أحفاد أبناء إبراهيم الذين استوطنوا أرض كنعان وما جاورها، والذين جُلبوا إلى مصر كأسرى فى حروب تحوتمس الثالث.

كان إبراهيم الخليل - عليه السلام - أول من وصف بلفظ عبرانى، ودُعى به فى التوراة، واختلفت الآراء فى سبب هذا الوصف، وقد اتصف بهذا اللقب أيضاً طائفة من أقوام كانوا فى الأصل من الأمم البدوية الصحراوية ،الأمر الذى جعل وصف عبرى أو عبرانى مرادفاً لكلمة بدوى، أى تدل على ساكن الصحراء أو البادية.

وأيا ما كان الأمر، فإن كلمة عبرى أو عبرانى تقابلها عند الفراعنة كلمة «عابيرو»، وعند البابليين «خابيرو»، وهم الذين جاء ذكرهم فى رسائل العمارنة، وكما ذكرنا فإن لقب «العبرانى» الذى أطلق على إبراهيم الخليل - عليه السلام - أصبح لقباً لسلالته الذين أقاموا فى منطقة أرض كنعان (فلسطين). أو الذين هاجروا منها إلى الأراضى القريبة منها. وكذلك استعمل لبنى إسرائيل الذين هاجروا إلى مصر وهم سيدنا يعقوب والأسباط الاثنا عشر، ومن ثم فإن هذه الصفة حملها أبناء وأحفاد إبراهيم المقيمون فى فلسطين وما جاورها وأحفاد إبراهيم فى مصر.

ونعلم من التوراة ومن المصادر العربية أن إبراهيم عليه السلام تزوج بأربع سيدات: السيدة سارة، وكان له منها إسحاق عليه السلام؛ والسيدة هاجر المصرية، وكان له منها إسماعيل عليه السلام؛ والسيدة قطورة بنت يقطن من الكنعانيين، ورزق منها بستة أبناء: زمران، ويقشان، ومدان، ومديان، ويشباق، وشوحا؛ وتزوج من السيدة حجور - من العرب - وهى الزوجة الرابعة له ورزق منها بخمسة بنين، هم : كيسان، وشورخ، وأميم، ولوطان، ونافس.

ونعلم أيضاً من ذات المصادر أن إسحاق - عليه السلام - قد تزوج من «رفقة» حفيدة ناحور (أخى إبراهيم) ورزق منها بولدين عيسو ويعقوب، كما تزوج إسماعيل عليه السلام من زوجة، تذهب التوراة إلى أن أمه أخذتها له من أرض مصر، وكان له اثنا عشر ولداً وبنتاً واحدة. وقد تزوج يعقوب عليه السلام بأربع زوجات وأنجب منهن الأسباط الاثنى عشر الذين هاجروا إلى مصر، وابنته «دينة» التى تزوجت «شكيم بن حمور الحوى».

أما عيسو فقد تزوج واستوطن أرض «سعير» (سلسلة جبال ممتدة من الجهة الشرقية من وادى عربة من البحر الميت إلى خليج العقبة) وتذكر التوراة أنه كان عظيماً فى حياته، يحيط به الحرس، وأن مملكة آدوم المترامية الأطراف كانت فى قبضته، وأن حياته كانت ناجحة، وقد ذهب إلى ديار عمه إسماعيل، وتزوج من ابنته على نسائه.

وإذ كنا لا نعلم شيئاً سواء من المصادر الدينية أم العربية أم التاريخية عن بقية أبناء وأحفاد

إبراهيم من العبرانيين، إلا أنه ولا شك، كانت لهم ذرية كبيرة، وتنسب أرض مَدْين إلى أحد أبناء إبراهيم - عليه السلام - من السيدة قطورة، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم سيدنا شعيب، «**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**(٨٥)» [**الأعراف**].

وتنسب بعض المصادر الدينية سيدنا أيوب عليه السلام كأحد أحفاد عيسو بن إسحاق وكان موطنه بلاد أدوم فى جبل سعير.

خلاصة القول فى هذا الموضوع: إن العبرانيين - وجاء منها لفظ العابيرو أو الخابيرو - هم كل أبناء إبراهيم عليه السلام، أول من اكتسب تلك الصفة، ونسبت إليه - أيا كان سببها أو مصدرها - وقد عاش هؤلاء وتزاوجوا واختلطوا بأمم غيرهم، وتكاثروا وتناسلوا وانتشروا فى الأرض، ومنهم من بقى على التوحيد دين الإسلام، ديانة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون - عليهم السلام - ومنهم من اعتنق الوثنية، ديانة من خالطوهم من باقى شعوب المنطقة، فهذا اللقب أصبح ميراثاً للأبناء والأحفاد الذين جمعتهم صفات وخصائص اجتماعية واحدة، وهاجروا وعاشوا سواء فى فلسطين أم الأردن أم مدين أم سعير أم مصر. وإن كان بعض الأحفاد منهم لم يتصف بتلك الصفة، فلم يثبت من أى مصادر دينية أو تاريخية أن إسماعيل عليه السلام أو ذريته قد اتخذوا هذه الصفة بعد أن استقروا فى مكة.

ولاحقاً أصبح وصف العبرانيين أو العابيرو أو الخابيرو - الذى تدل المصادر التاريخية الآسيوية والمصرية على وجوده - يطلق على طائفة من القوم تجمع بينهم صفات واحدة مشتركة، فانسحبت هذه التسمية على الأمم البدوية الصحراوية التى لا تستقر فى مكان، وكانت اسماً لقبائل بدوية ممن كانوا يقطنون شرق الأردن، وأطلقت كلمة الخابيرو على الجنود الرحل الذين يستأجرهم قادة الجيوش لقاء أجر، أو طمعاً فى الغنائم، ويظهر العابيرو فى النصوص المصرية كأسرى آسيويين يستخدمون فى المحاجر، والأعمال الدنيا. وباختصار أصبح اللقب يمثل أيضاً اصطلاحاً شاملاً أطلق على المنبوذين أو العصابات التى لا تنسب إلى أية مجموعة جنسية محددة، ويرجع زمن ظهور اسمهم فى التاريخ فى الوثائق المسمارية والمصرية إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد. ومن ثم فإن لفظ العبرانيين - لا يمكن تاريخياً - أن يقتصر على بنى إسرائيل الذين هاجروا إلى مصر، وإنما يمتد ليشمل كثيرين غيرهم، سواء من أبناء وأحفاد إبراهيم عليه السلام أو أقوام أخرى من البدو الرحل أو غيرهم ممن جمعتهم صفات مشتركة، وسبب ربط المؤرخين بين الإسرائيليين وبين العبرانيين هو تأثرهم - بلا شك - بالكتاب المقدس، التاريخ المسجل لبنى إسرائيل.

تحوتمس الرابع (١٣٩٧ : ١٣٨٧ ق.م)

ابن أمنحوتب الثانى، أمه الملكة «تاعا» بنت تحوتمس الثالث، لقبت بالأم الملكية والزوجة الملكية. يستدل من عدة مصادر أنه لم يكن الابن الأكبر لأمنحوتب الثانى، وأن وصوله إلى الحكم جاء نتيجة

مؤامرة أسفرت عن اغتيال جمع من أشقائه الأكبر سناً، وسوف نرجئ حديثنا عنها إلى الفصل الخاص بالفترة السابقة على ميلاد موسى - عليه السلام - ضمن مراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر؛ لأن وصوله إلى الحكم يشكل فى تقديرنا البدايات الأولى التى قادت إلى ثورة إخناتون الدينية التى نادت بعقيدة التوحيد، وترى دراستنا فى هذا البحث أن مصدرها عقيدة بنى إسرائيل التى دخلت مصر فى زمن يوسف عليه السلام، وأن سقوط إخناتون كان السبب المباشر فى حدوث التحول فى حياة بنى إسرائيل وبداية مرحلة تعذيبهم وقتل أطفالهم فى الفترة المعاصرة لميلاد موسى، التى تحدث عنها الكتاب المقدس والقرآن الكريم.

وعودة إلى تحوتمس الرابع، فإنه كان آخر الملوك المحاربين فى تلك الأسرة، حافظ على الإمبراطورية التى أقامها جده تحوتمس الثالث، وهو أيضاً آخر من ذهب منهم مقاتلاً على رأس الجيش إلى آسيا، سجلت نصوصه أنه أخمد الثورات التى قامت فى «نهرين» وعاد عن طريق لبنان، وبعد وصوله إلى طيبة أسس مستعمرة للأسرى الذين أحضرهم من «جازر» بفلسطين.

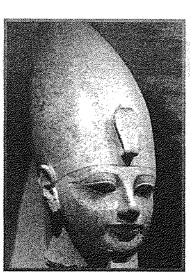
وعند وفاته ترك الإمبراطورية المصرية بحدودها التى تمتد من الفرات شمالاً إلى الشلال الخامس جنوباً يخيم على ربوعها السلام والأمن.

عاجلته المنية وهو فى نضرة الشباب ومقتبل العمر، يقول الأطباء الذين فحصوا مومياءه، أن وفاته حدثت وهو دون الثلاثين عاماً ويؤكد ذلك دراسة حساب سنوات عمره عند وفاة والده، وتاريخ توليه العرش، ومدة حكمه التى بلغت عشر سنوات، .

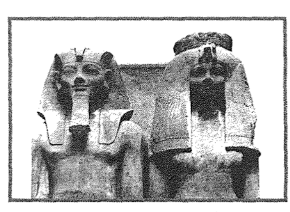
وقد وضعت هذه الوفاة المبكرة لتحوتمس الرابع المؤرخين فى مشكلة عند تحديد نسبة بنوة أمنحوتب الثالث إليه؛ لأن أمنحوتب حين خلفه على العرش تزوج فى السنة الثانية من حكمه بالملكة «تى»، الأمر الذى لم يعقلوا معه أن يكون له ابن فى سن الزواج عند وفاة الأب فى هذه السن المبكرة. لذا اعتقد البعض أن أمنحوتب الثالث ربما كان أخاه. غير أن المصادر الأثرية جاءت مؤكدة أنه ابن لتحوتمس الرابع.

أمنحوتب الثالث (١٣٨٧ - ١٣٤٩ق.م)

ولد فى طيبة، أمه تدعى «موت إم أويا» إحدى محظيات تحوتمس الرابع، وقد ظن بعض المؤرخين - خطأ - أنها الأميرة الميتانية ابنة الملك «أرتاتاما الأول» التى تزوجها أثناء حكمه، لكن تبين أن تلك كانت زوجة أخرى غيرها، ولأن أمه لم تكن من دم ملكى، لهذا احتاج أمنحوتب الثالث - ليبرر ارتقاءه عرش البلاد - إلى ادعاء حجة يظهر بها أمام الشعب أنه من دم إلهى خالص، مما دعاه إلى تمثيل ولادته على جدران معهد الأقصر، فى منظر يصور


أمنحوتب الثالث

أمه «موت إم أويا» وهى تجتمع بالإله أمون وقد تمثل بشراً فى صورة تحوتمس الرابع وتحمل منه وتلد ذكراً أطلق عليه أمنحوتب. فاتبع بذلك نفس الحيلة التى احتالها والده من قبل وصورها فى لوحة الحلم - المقامة بين قدمى تمثال أبوالهول - ليبرر بها مؤامرته التى أوصلته إلى العرش، واتبعتها أيضاً حتشبسوت من قبل، والإسكندر من بعد. وبالأحرى يمكن القول: إن من خطط لتلك الحيلة كانوا هم الأوصياء على أمنحوتب الثالث من الكهنة ورجال بلاطه، ذلك أنه جلس على عرش مصر والإمبراطورية وهو فى الثانية عشرة من عمره، وتولت أمه - بمعاونة رجال زوجها الراحل -- الوصاية على العرش، وفى العام الثانى من حكمه تزوج الملك من «تى» التى لا تنتمى إلى العائلة المالكة، وكان تأثيرها حاسماً على مستقبل تلك الأسرة. أبوها كاهن يدعى «يويا» أحد أعيان مدينة أخميم، ويظهر من عدة اتجاهات أنه كان لهذه الأسرة ارتباط وثيق بمعبد عين شمس، وكان «عانن بن يويا» من كبار كهنته، وأيضاً كان يويا ضابطاً بسلاح المركبات الحربية، ومشرفاً على خيول الملك، وزوجته أم تى تدعى «تويا»، وقد شاركت زوجها دوره السياسى البارز الذى مهد الطريق لابنهما الثانى «آى» شقيق «تى» ليكون واحدا من كبار رجال الدولة، بل أهم رجال البلاط، وتمكن - فيما بعد - أن يعتلى عرش مصر ويصبح أحد ملوك تلك الأسرة، وهذا الظهور المصاحب لبداية عهد أمنحوتب الثالث دعا بعض المؤرخين إلى افتراض أن أسرة يويا من أقرباء الملكة الأم «موت إم أويا»، وأنه بالتالى من أخوال أمنحوتب الثالث. وفى تقديرى أن ذلك يزيد على درجة الافتراض ويصل إلى مرحلة الاستنتاج اليقينى. وسوف تربط متتالية الأحداث بين هذا الظهور وبين المؤامرة التى رفعت تحوتمس الرابع إلى كرسى الحكم ونعتبره سبباً رئيساً قاد لتلك المؤامرة التى استمرت خيوطها فى أرجاء البلاط الملكى حتى حققت ثورة إخناتون الدينية، حسبما سوف نوضح فى الفصل الخاص بمراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر فى الفترة السابقة على ميلاد موسى.



أمنحوتب الثالث والملكة تى

أنجب أمنحوتب الثالث من «تى» عدداً من الأبناء والبنات: الأول يدعى تحوتمس، توفى قبل اعتلائه العرش، ونسبته إلى «تى» أمر محل شك فى تقديرنا، أما الثانى فقد كان أمنحوتب الرابع الذى تولى العرش وأطلق على نفسه اسم إخناتون، والثالث سمنخ كارع، وأنجب أمنحوتب أيضاً أربع بنات.

دخلت مصر فى عهد أمنحوتب الثالث مرحلة جديدة من حياتها ساد فيها السلام، وكانت فى قمة مجدها، وكثر مجىء الأجانب رجالاً ونساءً إليها، واتخذوا منها مكاناً لإقامتهم، وأصبح المجتمع المصرى مجتمعاً عالمياً. ويتضح من رسائل هذا العصر أن الملكة «تى» كان لها تأثير كبير فى توجيه

سياسة مصر الخارجية والاتصال بملوك العالم الخارجي، ولم يذهب الملك في أي حملة عسكرية إلى آسيا، الأمر الذى كان له أثره السلبي على الإمبراطورية في نهاية حكمه وخلال حكم ابنه أمنحوتب الرابع (إخناتون).

مصادر سياسة مصر الخارجية لهذه الفترة تتمثل فى رسائل العمارنة، وهى مجموعة كبيرة من اللوحات الصغيرة عثر عليها عام ١٨٨٧م، على مقربة من القصر الملكى فى تل العمارنة عاصمة إخناتون، دونت عليها نصوص مسمارية، وتضم المراسلات التى تبادلها الملكان أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (إخناتون) مع ملوك الشرق الأدنى، ومن المصادر أيضاً محفوظات «بوغاز كاى» عاصمة الحيثيين، والحوليات الآشورية البابلية.

وتكشف لنا تلك المصادر عن بداية ظهور الحيثيين كقوة صاعدة، فقد حدث قرب نهاية حكم أمنحوتب الثالث ومع بداية حكم أمنحوتب الرابع أن اعتلى الأمير «شوبيلوليوماش» عرش خيتا، وخصص سنوات حكمه الأولى لإقرار السلام فى الأناضول، ثم توجه إلى سوريا الشمالية فاستولى على حلب، وجعل من لبنان حدود الحيثيين الجنوبية.

وعندما ضعفت الإدارة المصرية الخارجية فى بلاد الشام هددت قبائل الخابيرو (العابيرو) البدوية الأمن وسبل التجارة، وتوالت صرخات الاستغاثة من الأمراء الموالين لأمنحوتب، إلا أنها اصطدمت بكل الإهمال واللامبالاة. وأعمى الملك عن تبين حقيقة الأوضاع ما وصله من رسائل أخرى عكسية تحمل عبارات النفاق والتضليل من أمراء كنعان ومن الخابيرو الذين أسرفوا فى إظهار الود والطاعة لمصر والفرعون مع إضمار الحقد والشر لهما، كما استمر الفرعون يتلقى رسائل التكريم من أمراء بابل والميتان وبعض أمراء آسيا الصغرى.

بعيداً عن سياسة مصر الخارجية، يعتبر أمنحوتب الثالث أعظم من عرفتهم مصر فى مجال التشييد والبناء؛ فقد أقام العمائر فى طول البلاد وعرضها، وعلى صعيد آخر عاش حياته مستمتعاً بين زوجاته وجواريه، وتزوج أميرات من ميتانى وبابل وآشور، وأرسل إليه حكام المدن السورية مع الجزية كل عام عشرات من الفتيات الجميلات، وكان يأمر بطلبهن، وانقلبت حياته إلى حفلات، وأغرق نفسه فى الملذات، وعلى نفس المنوال اتجهت الحياة الاجتماعية إلى الدعة والاستمتاع، وساعد على ذلك أسيرات الحروب، وانتشرت حفلات الطرب والرقص، ونشأت فى طيبة مشارب الجعة وفيها المغنيات والراقصات المحترفات، وبدأ يرتادها مختلف طبقات الشعب.

وأصبح أمنحوتب الثالث فى أواخر أيامه مهدماً واهناً، معتل الصحة بسبب إفراطه فى الملذات، ولم تسعفه الإنشاءات الضخمة التى نفذها للآلهة فى الكرنك وغيرها على شفائه من المرض الذى أصابه، ولا الستمائة تمثال التى خص بها الإلهة «سخمت سيدة آشر» ربة الشفاء والإبراء، ولا تمثال «عشتارت» إلهة «نينوى» صاحبة القدرة على الشفاء الذى أرسله له حموه «توشراتا» أمير ميتانى، ومات فى العام التاسع والثلاثين من حكمه. وكان قد أشرك ابنه معه فى الحكم فى آخر أيامه،

وتكشف مومياؤه أنها لشخص فى الخمسين من عمره، قضى نحبه بسبب المرض.

أمنحوتب الرابع (إخناتون) (١٣٤٩-١٣٣٣ق.م)


إخناتون


نفرتيتى

ابن أمنحوتب الثالث، أمه الملكة «تى» تلك المرأة ذات الشخصية القوية، التى جاءت من صفوف الشعب وأصبحت السيدة الأولى فى قصر زوجها، المزدحم بالنساء والجوارى. تسجل الوثائق أن «تى» كان لها تأثير قوى فى شئون الدولة الداخلية وعلاقاتها بمستعمراتها وسياستها الخارجية، وكان لها اتصال خاص بجيران مصر من حكام العالم القديم، وقد امتد تأثيرها إلى حياة ابنها أمنحوتب الرابع.

تمت مراسم تتويج الفرعون أمنحوتب الرابع فى معبد آمون رع بالكرنك، ثم تزوج من ابنة خاله «نفرتيتى» وهى ابنة «آى» و«تى الثانية» أى أنها حفيدة يويا وتويا. ويعتقد كثير من المؤرخين أن زواج أمنحوتب الرابع من نفرتيتى جاء نتيجة قصة حب جمعت بينهما فى سنوات الصبا، لكن الربط بين كثير من الأحداث السابقة واللاحقة التى أدت جميعها إلى إعلان الآتونية يطرح سؤالاً فى غاية الأهمية، ربما يكمن فى إجابته كثير من الخفايا التى كان لها دور فى صنع أحداث قصتنا، وهو هل وقع هذا القران تصادفاً وخالصاً لإرادة الملك أم كان نتيجة تخطيط سياسى محكم بتدبير آى والد العروس وتحت تأثير الملكة الأم «تى» استكمالاً لمسلسل من المؤامرات المدبرة، كانت هى نفسها إحدى حلقاته السابقة، عندما زوجتها قريبتها «موت إم أويا» من ابنها الملك الصبى أمنحوتب الثالث ذو الثلاثة عشر ربيعاً؟ سوف نرجئ البحث عن تصورنا للإجابة إلى جزء قادم من هذا الكتاب للارتباط الوثيق بين هذه الفترة والظروف التاريخية التى كانت تمر بها مصر فى الفترة السابقة على ميلاد موسى والتى أحدثت التحول فى حياة بنى إسرائيل.

تصور التماثيل والنقوش إخناتون بملامح خالية من أى معايير للجمال، فتظهره نحيلاً نحيف الوجه، ذا سحنة طويلة ضيقة، مستدير الرأس، ومتدلى الفك، وكتفيه منحدرين وضيقين، وشفتيه كبيرتين، وردفيه مكتنزتين. وعلى العكس من ذلك تماماً تأتى ملامح نفرتيتى ذات الجمال والانسجام، والخطوط الرائعة المتناسقة والرقبة الطويلة التى تضفى عليها روعة وجمالاً، وتجسد كل هذه المعانى آثار عديدة أهمها تمثالها الشهير بمتحف برلين.

أما عن سياسة الفرعون فى الحكم وإدارة البلاد، فإنه على الرغم من أن كل الظواهر والأحداث تدل على أن إخناتون افتقر إلى المواهب الدبلوماسية والقدرات العسكرية والسياسية التى ميزت أسلافه من ملوك هذه الأسرة ومكنتهم من طرد الغزاة وحماية مصر وترسيخ مكانتها كقوة عالمية، وتكوين أول وأقوى إمبراطورية فى العالم القديم، فإنه أحدث زلزالاً رهيباً فى التاريخ المصرى

قوّض به أركان عقائدها الراسخة منذ الأزل، وهدم الفلسفة التى استندت إليها عصوراً طويلة واستمدت منها حياتها اليومية وثقافة عمرانها وعمارتها وأسباب غزواتها وفتوحاتها. وبعد أن كان كل شىء يتم فى مصر باسم الآلهة ولأجل الآلهة - واختصت المعابد بأعظم الثروات، وأوقف لأجلها أجود الأراضى، وتكدست فى مخازنها الغلال والأموال، ووصل نفوذ كهنتها إلى حد عظيم وخطير - إذا بإخناتون يصدر فى العام السادس من حكمه فرماناً يزيح الإله آمون رع عن عرشه ويضع بدلاً منه الإله الواحد آتون، ويوقف عبادة جميع الآلهة المصرية المستقرة فى معابدها منذ آلاف السنين، وأعلن أن آتون الإله الواحد هو إله كل العالم ولا شريك له، ولن يعبد بعد اليوم إلهاً غيره فى أنحاء البلاد، وأقام له معابد جديدة خاصة له، وبدأ مشروعاً ضخماً لتحطيم تماثيل الآلهة ومحو أسمائها؛ لأن الإله الأحد إله خفى لا يصوّر ولا يجسّد، ولا يقبل الشريك، ورمز له تدليلاً على قوته ووجوده الشامل بصورة قرص الشمس التى ترسل آشعتها للكون وتتدلى منها أيادٍ ترمز إلى الخيرات التى يمنحها الله للعالم.

كان خطيراً وغريباً على خط سير الحضارة المصرية أن يعلن الفرعون قيام هذه الثورة الدينية التى قلبت إستراتيجية البلاد وفلسفتها وثقافتها - التى تراكمت منذ ما قبل التاريخ - رأساً على عقب، والأكثر غرابة واحتياجا إلى بحث وتأصيل وربط بين الأحداث لتفسيره هو: كيف استطاع إخناتون حديث العهد والخبرة الذى لم يتجاوز العقد الثانى من عمره وهو فى هذه المرحلة المبكرة أن يمتلك القوة الشجاعة والجرأة لتغيير المسار الدينى التاريخى لمصر وإنكار قدرات آمون رع وسائر الآلهة، وتحريم عبادتها ومصادرة أموالها وأراضيها لصالح الدولة؟ ومن أين جاء بهذا الفكر الفلسفى الراقى الذى يستند أساسه إلى عقيدة التوحيد التى نزلت بها الكتب السماوية؟

لم يكن إخناتون نبياً؛ لأنه كانت لديانته إرهاصات سابقة على وجوده حاولت أن تفلت وتعلن عن نفسها، ولم يكن أحمقَ أو مجنوناً؛ لأن ديانته اتصفت بكل معانى الحكمة والسمو والرقى التى نزلت بها رسالات السماء وحملها الأنبياء لشعوبهم فى الأرض، وتؤكد أناشيد ديانته أن مصدرها المباشر يمتد إلى عقيدة سماوية.

أنشد إخناتون والمؤمنون لهذا الإله الواحد:

«أنت تطلع ببهاء فى أفق السماء،
يا آتون الحى، يا بداية الحياة،
عندما تبزغ فى الأفق الشرقى،
تملأ البلاد بجمالك.
أنت عظيم، متلألئ، وعال فوق كل بلد،
وتحيط بآشعتك الأراضى كلها التى خلقتها».

«أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء،

إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنسانا»

«ما أعظم أعمالك التى عملتها،

إنها خافية على الناس.

أيها الإله الأوحد الذى لا شبيه له،

لقد خلقت الدنيا كما شئت،

عندما كنت وحدك،

الناس والماشية والوحوش الضارية،

وكل ما على الأرض يسعى على قدميه،

وكل ما يرتفع (فى السماء) يطير بجناحيه،

فى بلاد سوريا والنوبة، وأرض مصر،

تضع كل شىء فى مكانه،

إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه،

ويحصل كل شخص على طعامه، وسنوات حياته مقدرة له.

يختلف الناس فى لغاتهم،

كما يختلفون أيضاً فى طبائعهم،

ويختلف لون جلودهم عن بعضهم البعض،

لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية».

«أنت الذى يعطى الحياة (أيضاً) لكل البلاد الأجنبية البعيدة،

لأنك خلقت نيلاً فى السماء،

لينزل لأجلهم ويحدث أمواجاً فوق الجبال،

مثل أمواج البحر،

لتروى حقولهم التى فى قراهم.

ما أجمل أعمالك يارب الأبدية».

أغلق إخناتون معابد آمون، ومحا اسمه، ومحا اسم والده أمنحوتب؛ لأن فى تركيبته اسم آمون، وأرسل حملات فى أنحاء البلاد لتقوم بذلك أيضاً فى آلهة جميع المعابد، كما غير اسمه من أمنحوتب «آمون راض» إلى إخناتون ومعناها «الفعال من أجل آتون»، وبنى عاصمته الجديدة باسم «آخت آتون» (مشرق آتون) ووضع أساسها وخطط حدودها فى العام الرابع من حكمه. وانتقل إليها فى العام السادس، وهو موقع يبعد نحو عشرة كيلومترات إلى الجنوب من ملوى فى محافظة المنيا على البر الشرقى من النيل، وتمتد نحو خمسة وعشرين كيلومتراً، وتقع فى حضن جبال شامخة، وهاجر مع إخناتون زوجته نفرتيتى، وكانت من أشد المتحمسين للدين الجديد، والمشجعين عليه وبالغ

البعض بالقول بأنها ربما كانت القوة الكامنة وراء الحركة كلها، كما هاجر مع الفرعون عدد كبير من رجال البلاط والحاشية وموظفى الدولة، واعتنق الجميع الدين الجديد، وإن كان واقع الحال، وما آل إليه الأمر بعد إخناتون قد كشف أن بعض من هاجر معه كانوا من المنافقين الطامعين المتطلعين إلى مناصب ومكاسب.

وقد ظلت حياة إخناتون ونفرتيتى هادئة بين بناتهما الصغيرات، يعيشون جميعاً فى سعادة تسجلها نقوش عاصمة التوحيد، يمارسون شعائر عقيدتهم ويذهبون لمعبد المدينة يتعبدون للإله الواحد، إلى أن سجلت آثار العاصمة (تل العمارنة حالياً) زيارة الملكة «تى» لابنها فى العام الثانى عشر من حكمه، ويبدو أن الأمور فى مصر كانت وصلت إلى مرحلة خطيرة من الاضطراب والغليان بسبب ثورة الكهنة، وأشراف العهد السابق الذين أزيحوا عن مواقعهم لصالح أتباع الآتونية الجدد، وأيضاً بسبب تدهور الأحوال فى المستعمرات المصرية، وأرادت «تى» صاحبة النفوذ والاحترام بين جميع الأطراف رأب الصدع واتخاذ خطوات سريعة نحو إصلاح الوضع المتدهور، والذى بات ينذر بعواقب وخيمة ضد ابنها وأتباعه، ونزلت «تى» ضيفة كريمة على ابنها، واحتفل بها وزارت معبد آتون، وصورت وهى تتعبد له. ولا تسجل نقوش الآثار على وجه اليقين ما حدث فى هذه الزيارة، وإنما تسجل عددا من المظاهر يستدل منها على بداية الشقاق بين إخناتون ونفرتيتى، وهو ما فسره المؤرخون بأن الملكة الأم «تى» نجحت أو كادت فى إقناع ابنها بالتحول عن الدين الجديد، أو على الأقل مهادنة الكهنة، وفتح المعابد المغلقة، ورد أملاكها ونفوذها القديم، إلا أن نفرتيتى المخلصة لعقيدتها وإيمانها بالتوحيد أنكرت هذه المحاولات وقاومتها بشدة، وتسبب ذلك فى حدوث فجوة بينها وبين إخناتون، وانتقلت للعيش فى بيت آخر جميل فى ضاحية فى جنوب المدينة اسمه «حات آتون» (قصر آتون)، بينما بقى إخناتون فى القصر الملكى مع ابنته الكبرى «مريت آتون» وجعل منها السيدة الأولى فى القصر.

ومن ناحيتنا لا نؤيد الدراسات التى استنتجت تراجع إخناتون عن عقيدته أو مهادنة الكهنة، ونرى من جميع الظروف التى صاحبت تلك الفترة - شديدة الغموض - أن المؤامرات التى دبرت ضد الدين الجديد جعلت الأخطار تحيط بإخناتون ونفرتيتى والعائلة المالكة من كل جانب، وربما رضخ لنصيحة والدته بأن يشرك شقيقه «سمنخ كارع» أو يتنازل له عن الحكم ليترك له التفاوض مع الكهنة، وهو الأمر الذى لم تقبله نفرتيتى المتمسكة بعقيدتها والرافضة لأى تنازل للكهنة أو عودة الآلهة. ومن الصعب تقييم هذا البرهان أو استنتاج تحديد مواقف جميع الأطراف، أو وضع تسلسل للأحداث التى أطاحت بإخناتون بعد فترة وجيزة من وفاة أمه «تى»، ويظل أمر الانفصال بين الملك وزوجته غامضاً مثيراً للجدل، وهل كانت وراءه أسباب تتعلق بتنازل إخناتون عن مبادئه، أو أنه بسبب رفض الزوجة لموقف الملكة الأم واقتراحاتها؟ أياً ما كان الأمر فإن نفرتيتى لم تغادر المدينة حتى وفاتها، وخصص لها مدفن فى جبانة المدينة.

ويشتد الغموض حول السنوات الثلاث الأخيرة من حكم إخناتون، وهل ماتت نفرتيتى قبله أم عاشت بعده لتدبر المكائد لخليفته «سمنخ كارع» كما ترى بعض الدراسات، أم أنها - كما يرى «نيقولا جريمال» فى دراسة حديثة - عاشت فى عزلة حتى وفاتها فى العام الرابع عشر على ما يبدو.

أما عن الحالة الداخلية لمصر فى عهد إخناتون فقد وقعت البلاد فريسة الاضطهادات المعادية لآمون التى تظهر فى حالة تهشيم وكشط أسماء الآلهة وإزالتها فى المعابد والمنشآت - وهو ذات المصير الذى واجهته ديانة إخناتون بعد عدة سنوات تالية - وأدى ذلك إلى حدوث انقسامات داخلية، وتعرض إخناتون لمحاولات للتخلص منه فى العمارنة، ولا يستبعد أن تكون حياته قد انتهت باغتياله.

وبشأن المستعمرات المصرية فقد تفاقمت واستشرت الأزمات الخارجية بشكل مكثف نتيجة لسلبية الملك، وواجهت دولة الميتانى - حليفة مصر - ثورات فى القصر الملكى، وعادت مقاطعتا كنعان وجنوب سوريا إلى التمرد، وتجاهلتا دفع الجزية، إلا أن الخطر الأكبر على مصر تمثل فى صحوة مملكة الحيثيين (خيتا الكبرى) موقع تركيا الحالية، فقد تمكن الملك الطموح «شوبيلو ليوماش الأول» من اجتياح غرب سوريا حتى وصل إلى مدينة قادش الحيوية، التى كانت حصناً للقوات المصرية - الميتانية، واحتلت دولة آشور جزءاً من الدولة الميتانية حليفة مصر، وتوسعت مملكة أمورو فى وسط سوريا، وبسطت سيادتها على الساحل الفينيقى، وفى النهاية استسلمت لسيطرة الحيثيين.

وتدل المراسلات الخارجية على أن بساط النفوذ المصرى فى آسيا سُحب تدريجياً. ويوجد شخص اسمه «دودو» دخل خادماً فى القصر الملكى ولم يلبث أن صار صاحب الأمر والنهى، وكثيراً ما ورد اسمه فى رسائل الأمراء الآسيويين باسم «دود»، وقد كانوا يخشونه ويعملون له حساباً عظيماً، ويتوددون إليه ويستعينون بنفوذه للوصول إلى أغراضهم، وإخفاء الحقيقة عن الملك، ولهذا الشخص مقبرة فى تل العمارنة.

ولم يكن الأمر أحسن حالاً فى الجنوب، إذ أدى انشغال الملك بالدين الجديد، وغياب الجيوش المصرية إلى تشجيع روح العصيان.

وكانت نهاية إخناتون فى العمارنة، ودفن هو ونفرتيتى بها، ولم يعثر على مومياء أى منهما؛ فقد دمرت العمارنة تدميراً هائلاً.

سمنخ كارع (١٣٣٥-١٣٣٣ق.م)

كما أن السنوات الأخيرة من حكم إخناتون يكتنفها الغموض، فإن السنوات التى أعقبت وفاته لا تقل غموضاً. وقد ثار جدل عن الروابط التى جمعته بالوريثين بعده على العرش «سمنخ كارع»، و«توت عنخ آمون».

يعتقد إلى حد كبير أن سمنخ كارع ابنا لأمنحوتب الثالث والملكة «تى» أى أنه الشقيق الأصغر

لإخناتون، وقد تزوج من ابنته الكبرى «مريت آتون»، وتبوأ عرش البلاد مشاركة مع إخناتون باسم «نفر نفرو آتون سمنخ كارع»، وتتوسط فترة حكمه عهدى كل من إخناتون وتوت عنخ آمون، وربما استمر حكمه ثلاث سنوات، وكما ذكرنا فإن أمر هذه الفترة غامضاً، فهل اقتصر حكمه للبلاد على مجرد مشاركته فى الحكم مع إخناتون، أم أنه حكم البلاد بمفرده لعدة أشهر بعد وفاة شقيقه؟ يرى الدارسون أنه يصعب القطع برأى فى هذا الموضوع بسبب الافتقار إلى المعلومات، وما نعرفه عنه متناقض، فله آثار تدل على وجود علاقات مع أتباع ديانة آتون، وأدلة أخرى تؤكد أنه عاد إلى طيبة. وقد عثر على طبعة خاتم على إناء مؤرخ بالسنة السابعة عشرة من عهد إخناتون، مما يزكى أمر المشاركة فى الحكم. وفى ظروف تاريخية ما زالت غامضة مات سمنخ كارع، واختفى اسم زوجته أيضاً، وكان موته أو اغتياله فى طيبة، أو ربما نقل رفاته إليها من العمارنة فى عهد توت عنخ آمون؛ فقد عثر على مومياته فى مقبرة وادى الملوك مع رفات مومياوات أخرى من بينها رفات الملكة «تى»، ويكشف فحص جثمانه أنه توفى عن عمر يناهز العشرين.

توت عنخ آمون (١٣٣٣ - ١٣٢٤ق.م)



توت عنخ آمون

خلف سمنخ كارع على عرش مصر وهو فى التاسعة من عمره، وكان يدعى «توت عنخ آتون»، ويعنى الصورة الحية لآتون، وتزوج من الأميرة «عنخس – إن – با آتون» بنت إخناتون ونفرتيتى.

وقد ثار جدل كبير بين الدارسين حول صلته بإخناتون، ورأى البعض أنه ابن لأمنحوتب الثالث وتى أى شقيق لإخناتون، ولما كان هذا الرأى يستلزم أن تمتد حياة أمنحوتب الثالث إلى ما بعد منتصف مدة حكم إخناتون لنصل إلى تاريخ إنجاب الملك «توت» لهذا حاول أصحاب هذا الرأى تفسير بعض نقوش العمارنة على نحو يؤدى إلى وجود مشاركة فى الحكم حتى هذا التاريخ، أو تنازل أمنحوتب الثالث عن العرش نتيجة ضعف صحته إلى إخناتون.

وقد نشر البروفيسور «جون هاريس» تقريراً عالمياً أثبت به أنه بعد دراسة عديد من الأدلة والشواهد الأثرية المأخوذة من آثار العمارنة ثبت أن توت عنخ آمون ابن لإخناتون من زوجة ثانوية تدعى كيا، وقد انجبت منه أيضا ابنتين آخريين، كما عثر فى منطقة الأشمونين على كثير من أحجار العمارنة تحمل نقوشا لاسم كيا، وعدة مناظر متماثلة بدون أسماء تمثل ملكاً يضع على رأسه تاجاً بملامح إخناتون وسيدة تضع باروكة شعر بملامح كيا وطفل صغير ذكر.

ومن المؤكد أن هذا المنظر العائلى المتكرر يمثل إخناتون وكيا وأن هذا الطفل ابنهما توت عنخ. والافتراض المنطقى الذى نؤيده أن كيا قد ماتت وابنها ما زال طفلاًصغيراً، ذلك أنه بعد

ولادته غادر العمارنة إلى المقر الملكى فى منف، وقد عثر فى جبانة سقارة عام ١٩٩٦م على مقبرة مرضعته السيدة «مايا» ضمن عدة مقابر ترجع إلى العصر الآتونى.



السيدة كيا

وأخيرا أكدت نتائج الأبحاث التى أعلنها الدكتور زاهى حواس، الأمين العام للمجلس الأعلى للاثار بالقاهرة فى ١٧ فبراير ٢٠١٠، أن نتيجة تحليل الحمض النووى DNA أثبت أن توت عنخ آمون ابن لإخناتون، ثم أضاف - لاحقا فى مقال بجريدة الأهرام بتاريخ ٢٠١٠/٧/١٧ - أن مومياء المرأة الشابة الموجودة فى المقبرة التى عثر فيها على مومياء الملكة «تى» هى فى الحقيقة مومياء أم الملك توت عنخ آمون، وأنها ابنة الملك أمنحوتب الثالث والملكة «تى»، الأمر الذى يؤكد أن إخناتون قد تزوج من أخته، ولا يمكن إلى الآن تحديد اسمها.

فترة حكم توت عنخ آمون

هجر - مرغماً -عاصمة التوحيد «آخت آتون» إلى عاصمة الدولة طيبة، حاملاً اسماً جديداً هو «توت عنخ آمون»، ويعنى «الصورة الحية لآمون» إله طيبة الأكبر، والإله الرسمى السابق للدولة قبل أن يلغيه إخناتون وينزله من عرشه، وأيضاً غيرت زوجته اسمها إلى «غنخس - إن - با آمون».

وليس المفروض قطعاً أن نستنتج من هذا الانتقال إلى طيبة، والتغيير إلى آمون أن الزوجين الطفلين قد ارتدا عن عقيدة التوحيد، وشرعا فى تغيير ما أفسده إخناتون ونفرتيتى، وإنما التفسير المنطقى الذى تؤكده كثير من الظواهر أن الفرعون الصغير كان أداة فى يد قوة أكبر تحركه، لقد نجح نفوذ الكهنة فى إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، وانتهت الدعوة إلى عبادة آتون رسمياً، ربما تكون قد ظلت فى القلوب كامنة خافية لا يجرؤ المؤمنون على البوح بها، ولا شك كان منهم هذا الملك وزوجته، ولعلهما شاركا المؤمنين حزنهم على المصير المحتوم الذى انتهت إليه عبادة آتون، الإله الواحد الحى، وأخفيا دموعهما وهما يشاهدان تخريب معابد العمارنة وهدم قبورها والفتك بمومياواتها، وتدمير المدينة التى شهدت طفولتهما، وأيام مرحهما وسعادتهما، وانتهى حلم الطفولة الجميل بإعلان المكان بأكمله مكاناً نجساً.

كان الوصى على العرش أثناء حكم «توت عنخ آمون» هو الأب المقدس «آى» الذى هدى وسدد خطاه، ومن المؤكد أنه صاحب مرسوم إحياء العبادات السابقة الذى نسبه للملك، وأسهب فيه الحديث عن الأوضاع المؤسفة التى تردت فيها البلاد بسبب ضلال أمنحوتب الرابع، ووضع هذا المرسوم فى معبد آمون رع بالكرنك أسفل الصرح الثالث، وكان «آى» وراء الإجراءات التى أعلنها الملك، وأعاد بها الأوضاع إلى سابق عهدها.

رضخ الملك لاشتراطات الكهنة، وأكره على أن يدعى فى لوحته إلى آمون أنه يفعل لأجله المشاريع

التى يحبها والأعمال المفيدة التى تخدمه، وأُجبِر على إصدار عدد من القرارات بتعيين الكهنة المرتلين فى المعابد من وجهاء الدولة، وتعويض المعابد المصرية عما أصابها من خراب، ومضاعفة ثروات المعابد إلى عدة أمثال ما كانت تملكه.

ومات «توت عنخ آمون» عن عمر يناهز التاسعة عشرة، وكشف فحص موميائه عن شاب فى شرخ الشباب، يشبه إلى حد كبير إخناتون وسمنخ كارع، ومثلهما ذو رأس كبيرة ومسطحة، وتبين وجود جرح فى منطقة الأذن اليسرى، وبعض الكسور بعظمة الفخذ اليسرى، وهذه الإصابات مع وفاة الملك فى هذه السن الصغيرة دون أن ينجب ذرية، ومع وجود جنينين مولودين ميتين، عثر عليهما بمقبرته داخل تابوتين صغيرين من الخشب المذهب، أحاطت وفاته بالغموض. واستدعت وضع تفسيرات كثيرة للرد على التساؤلات عما إذا كانت وفاته نتيجة مؤامرة تعرض لها من «آى» وزير الملك المتوفى، و«حور محب» قائد الجيش واللذين خلفا توت عنخ آمون فى حكم مصر؟ وهل الجنينان المدفونان معه – واللذان يبدوان أنهما لأنثيين – كانتا طفلتين له و«عنخس إن با آمون» التى لم يعثر على موميائها، ونعرف من المصادر الحيثية أنها بعد وفاة زوجها أرسلت كتاباً إلى «شوبيلو ليوماش» ملك الحيثيين ورجته أن يرسل أحد أبنائه ليكون زوجاً لها ويصبح فرعون مصر، فتشكك فى بداية الأمر، لكنه بعد أن أرسل رسولاً تأكد منها على صدق طلبها، أرسل ابنه الأمير «زنانزاخ» غير أنه لم يصل أبداً إلى مصر، فقد دبرت مؤامرة أو ربما كان الأمر منذ بدايته مؤامرة، وتم اغتيال الأمير فى الطريق بطريقة غامضة، وفشل حلم «خيتا» فى ضم مصر عن طريق المصاهرة، وتولد عن هذا الأمر شر كبير بين الدولتين، واستمرت بينهما العداوة ٧٥ سنة، ولم تنته إلا فى عهد رمسيس الثانى.

وقد أثبتت نتائج الدراسات العلمية لفريق من المتخصصين التى أجراها أخيرا المجلس الأعلى للآثار أن نتائج الأشعة المقطعية قد أكدت أن الملك توت عنخ آمون – ١٩ عاما – كان يتمتع برعاية وصحة جيدة خلال حياته ولم يعان من سوء تغذية أو أمراض مزمنة فى مراحل طفولته، وأن وفاته لم تكن بسبب قتله أو موته مسموماً، وإنما يرجح أنه أصيب بشرخ فى الجمجمة، وجرح عميق، وكسر فى الركبة إثر سقوطه من عربته الملكية، وتبين أن كسور عظمة الفخذ اليسرى حدثت قبل الوفاة بوقت قليل، وأنها لم تكن سبباً مباشراً فى إحداث الوفاة، إلا أنهم رجحوا أن تلوث الكسر كان السبب فى وفاته.

وفى هذا المقام تجدر الإشارة إلى أن «آى» كان يحمل منذ سنوات سابقة لقب قائد الخيول الملكية، وسبق أن وفر لابنته الملكة نفرتيتى وبناتها الأميرات خير وسائل تعلم الفروسية والتدريب على قيادة العربات الخفيفة التى تجرها الخيول، وكان يقدم لهن للاستمتاع والنزهة أفضل الخيول وأحسن العربات.

ومن خلال المعلومات المتقدمة يبرز على سطح الأحداث تساؤل مهم يثيره الشك فى ظروف وفاة الملك الصغير واعتلاء «آى» العرش، وهو إذا لم تكن الإصابات التى أظهرها فحص مومياء الملك توت حدثت نتيجة اعتداء مباشر وقع عليه بقصد قتله، فهل يمكن أن يكون قد تعرض لمؤامرة مدبرة

أحكم التخطيط لها بتحريض من هذا الرجل العجوز «آى» مستغلاً فى تنفيذها رجاله الأوفياء وخبراته القديمة والطويلة المتوارثة فى قيادة سلاح العربات والخيول الملكية؟ سوف نرجئ البحث والتحقيق فى هذا الموضوع إلى مرحلة مقبلة مرتبطة بها فى هذا الكتاب. عموماً لقد وضعت وفاة توت عنخ آمون النهاية لسلالة أحمس.

آى(١٣٢٤ - ١٣٢١ق.م)

لم يكن من سلالة أحمس، أبوه «يويا» كاهن الإله «مين» فى مدينة أخميم وأمه «تويا» وصيفة القصور الملكية، اللذان لعبا دوراً بارزاً فى السياسة المصرية، أهّلا به ابنهما «آى» للمناصب التى وصل إليها. وهو شقيق الملكة «تى» زوجة أمنحوتب الثالث التى تركت بصماتها على شئون البلاد بشخصيتها القوية وعمرها المديد، وهو خال الملك أمنحوتب الرابع (إخناتون)، وهو والد نفرتيتى زوجة إخناتون وأختها «موت نجمت» التى تزوجت حور محب خليفة «آى» على عرش مصر، وكان «آى» متزوجاً من «تى» الثانية وصور بصحبتها فى مقبرته.

تولى عرش مصر فى سن كبيرة، وقبلها كان وزيراً ووصياً على الملك توت عنخ آمون، وصور فى مقبرته وهو يقوم بأداء شعيرة فتح فم مومياء الملك، وهذا الطقس الجنائزى كان يضطلع به – حسب التقاليد المتوارثة – ابن المتوفى، أى وريث العرش.

يعتقد المؤرخون أنه تزوج من حفيدته (ابنة نفرتيتى) الأميرة «عنخس إن با آمون» أرملة توت عنخ آمون بغرض أن تدعم جلوسه وأحقيته فى عرش مصر، ولم يتحقق أمر هذا الزواج إلا على أثر واحد (خاتم عليه اسميهما معاً) وخلاف ذلك نجد دائماً «آى» مصوراً على الآثار مع زوجته «تى» الثانية بوصفها ملكة، ويظل أمر زواجه من «عنخس إن با آمون» غامضاً ومن باب الافتراضات لضياع كل أثر لتلك الأميرة بعد وفاة توت عنخ آمون.

ما زالت المعلومات التى وصلتنا عن «آى» عاجزة عن تحديد شخصيته وصفاته أو تصنيفه كرجل طيب مخلص أم شرير قاتل ومتآمر، وربما أن صفة الغموض قد لازمته أيضاً خلال حياته وليست ناتجة فقط عن نقص المعلومات عنه؛ فقد كان أحد نبلاء العمارنة المخلصين، حمل لقب «المشرف على كل خيول جلالته» واعتنق ديانة التوحيد ويعد من أكبر أنصارها، وصور وهو يتعبد للإله آتون، وبنى لنفسه مقبرة فى العمارنة، وبعد وفاة إخناتون قام بدور المخطط والمنفذ للعودة إلى آمون، فوقف إلى جانب سمنخ كارع، وكان له دور فى تولية توت عنخ آمون العرش، وانتقاله إلى طيبة. وبصفته الوصى على عرشه ووزيره اضطلع بإدارة شئون الحكم خلال عهده، ثم تقدم جنازة توت عنخ آمون بملابس الفرعون.

ومن السهل أن يدرك الدارس للتاريخ من خلال الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة أن يد «آى» كان لها دور كبير فى تحريك الأحداث، إلا أننا نعجز عن تحديد طبيعة هذا الدور، وهل كان

تخطيطاً وتدبيراً لأغراض تآمرية ولمصلحته الشخصية، أم أنها لعبة التوازنات السياسية بقصد استقرار الأمور فى مصر؟

- هل كان مخلصاً يعمل لصالح عائلة الحكم وجاداً وصادقاً فى إنقاذها من محنتها وتدعيم حكمها وتثبيت عرشها؟ أم كان السبب فى القضاء عليها وإنهاء وجودها إلى الأبد لاستئصال العرش لنفسه؟

- هل اغتال توت عنخ آمون؟ هل كان له دور فى اختفاء أرملته بعد اغتيال الأمير الحيثى؟

- أم أنه كان مجرد أداة فى يد آخرين، قد يكونون مثلاً قادة الجيش أو مجمع الكهنة لاستعادة نفوذهم القديم؟ أم أنه داهية خطير أقنعهم بذلك فى حين أنه كان يعمل لحساب نفسه؟

- ما علاقته بقائد الجيش حور محب؟ هل حدث بينهما اتفاق وتعاون وتخطيط مشترك لصالح مصر، أم أنهما كانا داهيتين استغل كل منهما الآخر فى صراع خفى حاول كل فيه خداع صاحبه حتى يستقر له الأمر منفرداً؟

- هل وصل «آى» ذو الأصل المجهول إلى عرش مصر بتدبير ومعاونة حور محب وقادة الجيش؟

- وهل وصل حور محب ذو الأصل الشعبى المتواضع بعد ذلك إلى العرش على حساب «آى»، وبعد أن استنفد غرضه انتقم منه وأزاحه؟

- أم أن حور محب اكتشف فى النهاية مؤامرات «آى» وحقيقته فتخلص منه؟

- هل كان «آى» ابن يويا وتويا من أصول غير مصرية، تمصرت؟

- هل كان يعمل لحساب طرف آخر لم يكشف عنه التاريخ بعد؟

- هل كان يهدف إلى تقويض أركان الحكم وإضعاف مصر؟

- هل يمكن أن تكون له علاقة بفلول الهكسوس التى خرجت من مصر، أو أى جماعات أخرى من تلك التى ارتبطت بها وتحدثت عنها حتشبسوت فى نقوشها؟

- ما صلته بعقيدة التوحيد، وقد كانت ابنته نفرتيتى من أشد أنصارها والمتمسكين بها حتى آخر رمق من حياتها؟

- ما صلته ومن قبل والديه «يويا»، و«تويا» بالمنعطف التاريخى الذى دخلته مصر منذ عهد أمنحوتب الثالث والذى كان من نتائجه التغييرات الداخلية فى رجال الحكم والبلاط، والتى أدت إلى الثورة الدينية، وأيضاً ضعف وتقويض النفوذ المصرى فى فلسطين وباقى مستعمراتها فى آسيا، وهل كانت وراء ذلك مؤامرات دبرت لتهيئة انتقال سلطة الحكم داخل العائلة المالكة لصالح أشخاص بذاتهم؟

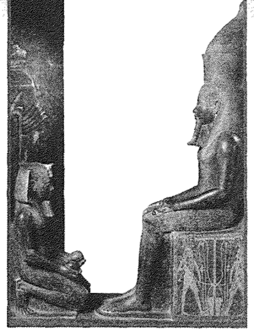
وقد حكم «آى» مدة ثلاث سنوات وغالباً مات فى العام الرابع من حكمه، وأيضاً من الصعب أن نعرف كيف انتهت حياته، وإنما يستنتج من آثار حورمحب أن أمراً ما حدث بينهما - ما زال غامضاً- إنما يؤكده أن حورمحب بعد توليه العرش محا اسم «آى» من على آثاره، وأنكر عهده واعتلاءه لعرش مصر واستولى على معبده.

دفن «آى» فى وادى الملوك، ويكتمل غموض حياة ذلك الرجل الذى سجل التاريخ له اعتناق

الآتونية، ثم ساعد فى الارتداد عنها والعودة إلى «آمون رع» إله طيبة بشىء غريب وهو أن نعثر فى مقبرته على النسخة الفريدة الكاملة لنشيد المعبود آتون.

وبشأن التساؤلات التى أثيرت حول «آى» والغموض الذى أحاط حياته، فقد كانت للمؤرخين فى هذا المجال بحوث ودراسات كثيرة، استفاضت فى محاولات لوضع تصورات وتفسيرات مناسبة لهذه الفترة من حكم مصر، وتضاربت وتوزعت الآراء فى اتجاهات شتى، وسوف يكون لنا حديث آخر مقبل فى هذا الكتاب لإثبات ارتباط هذه المرحلة التاريخية بحقائق الرواية الدينية، وبعد تحديد الثوابت الدينية والتاريخية لمجال الدراسة، سوف نعرض تصورنا لتفسير هذه الأمور جميعها فى الفصل الخاص بمراحل حياة بنى إسرائيل، فى الفترة السابقة مباشرة على ميلاد موسى.

حورمحب (١٣٢١ - ١٢٩٥ق.م)


حور محب راكعاً أمام الإله آمون

لم يكن ينتمى إلى السلالة الملكية المنحدرة من أحمس، خرج من صفوف الشعب، وانخرط فى الجيش وأصبح القائد الأعلى للجيوش المصرية. تدل ملابسات الحوادث أنه أزاح «آى» عن العرش باستخدام القوة فى ظروف تاريخية ما زالت غامضة، ويزكى هذا الاعتقاد أسباب كثيرة، أهمها أنه تجاهل عهد سلفه واغتصب آثاره ومحا اسمه ولم يعترف به كملك للبلاد، ويبدو أنه تخلص من «آى» بتدبير محكم ومؤامرة دنيئة، قاصداً أن تظهر الأمور كأنه لم يكن له يد فيها؛ ذلك أنه تزوج يوم توليه العرش من ابنته «موت نجمت»، وكان قد تجاوز الأربعين من عمره ولم يعرف عنه أنه تزوج قبل ذلك، وكانت الأميرة موت نجمت هى الأخرى فى سن كبيرة، وربما كانت تكبره، ولا يعرف لهذه الأميرة أيضاً زواج سابق، ويعتبره المؤرخون زواجاً سياسياً لتدعيم شرعية جلوسه على العرش باعتبارها إحدى أميرات البيت المالك، وعلينا أن نتذكر جيداً أن «موت نجمت» هى شقيقة نفرتيتى، وسبق أن هاجرت وعاشت معها ومع عائلة إخناتون فى العمارنة، واعتنقت معهم ديانة التوحيد، ولا شك أنها كانت مثل شقيقتها وأفراد تلك العائلة من المتحمسين المدافعين عن عقيدتهم ولعل وجود هذه الأميرة يفسر لنا أمر العثور على النسخة الوحيدة الكاملة التى وصلت إلينا من أنشودة المعبود آتون إله التوحيد فى قبر والدها «آى»، والمفروض أنه خلال فترة حكمه كان قد ارتد عن الآتونية وأصبح يحكم باسم آمون رع إله طيبة، فلماذا إذن كان حرصه على مباركة آتون له فى حياته الأبدية؟

نشأ حورمحب فى مقاطعة مصرية بين أفراد الشعب، وخلافاً لما كان متبعاً وشائعاً فى مصر

القديمة فى آثار الملوك وكبار رجال الدولة وأعيان القوم، أغفل الحديث فى آثاره كلها عن ذكر والديه مما يدل على وَضاعَة أصله، وأيضاً تجاهل أن يذكر كيفية وصوله إلى الحكم - الذى لم يكن من حقه - سوى أن الإله المحلى «حور» رب مقاطعته وموطن عائلته «حات نسوت» (الكوم الأحمر فى محافظة المنيا) هو الذى قاده ليمنحه العرش، الأمر الذى يكشف عن مؤامرة غير أخلاقية أخفاها؛ لأنها لا تصلح للإشادة أو الفخر، وبصرف النظر عن هذا الجانب فقد حملت مصادر التاريخ أن هذا الفرعون نجح فى إصلاح أحوال البلاد، وأن همه الأول اتجه إلى رفع شأن مصر والحفاظ على وحدتها واستقرارها، فأصدر قوانين صارمة وضعت حداً للخلل الأمنى والفوضى الإدارية التى مرت بها البلاد نتيجة انشغال إخناتون وجهازه الإدارى بأمر الدين الجديد، واهتم بالإصلاح الإدارى واستطاع تحقيق الأمن والرخاء وتقوية الجيش الذى كان قد بدأ فى إعادة تنظيمه وتعبئته منذ أن كان قائداً له، وقضى على ثورة قامت فى النوبة، وبعد أن رتب أموره فى الداخل قام بحملة إلى سوريا أسفرت عن عودة مستعمرات قديمة للحظيرة المصرية، غير أن هذه الحملة لا تصنفه كأحد الفراعنة المحاربين، فلم يقصد منها سوى تأكيد قوة مصر واستقرار الأمور على الحدود.

من آثاره نوجز صفاته فى أنه كان مغرماً منذ صدر شبابه بالأدب، وتحصيل العلم. صقلته تجارب الحياة، وأكسبته خبرة وهمة، تمتع بنظر ثاقب نفذ به إلى كل كبيرة وصغيرة فى الدولة، اكتسب من نشأته بين الشعب أن أصبح ملماً بكل رغباته وميوله، وانصهر فى بوتقته فوقف بنفسه على أحواله ومتطلباته، ووجه همه للإصلاحات الداخلية التى وضعته فى مصاف الفراعنة العظام.

استطاع بذكائه وصفاته واتصاله بالجماهير وخبرته وقيادته للجيش فترة طويلة من حياته أن يقبض على زمام الأمور، وحافظ على نفسه من التورط فى أمور العقيدة والدين، فسجل له التاريخ أنه القائد الذى استطاع أن يجارى إخناتون ويكسب ثقته فى ظل الديانة الآتونية، ويقف مع سمنخ كارع، وينتقل بتوت عنخ آمون من التوحيد إلى الوثنية، ويأتى بآى إلى عرش مصر، وفى النهاية أزاحه وجلس على كرسى الحكم، وأنكر وجود هؤلاء الملوك جميعاً. وتؤكد الظروف والملابسات والأحداث المتتالية أنه ربما شارك وكان الأداة التى نفذت المؤامرات التى أطاحت بهم وأدت إلى اختفائهم فى غموض متعمد؛ ذلك أنه ما إن انتهت حفلات التتويج واطمأن إلى أن مقاليد الحكم أصبحت فى قبضة يده حتى أصدر أوامره بتطهير البلاد من أعوان إخناتون، وأشرف على تنفيذها، وقام جنوده بمحو أسماء هذا الملك المارق وخلفائه الثلاثة من آثار البلاد، ووضعوا بدلاً منهم اسم حورمحب، كما أنكر حكمهم فى السجلات الرسمية وقوائم الملوك، وجعل عهده يبدأ بعد أمنحوتب الثالث، واستمر على هذه السياسة أتباعه من ملوك الأسرة التاسعة عشرة.

ويقودنا الغموض التاريخى بشأن انتقال الحكم من آى إلى حورمحب، وثأر هذا الفرعون الأخير من سابقيه وإنكار حكمهم وانتقامه البشع من أعوان إخناتون وأتباع الآتونية إلى العودة إلى السيدة زوجته «موت نجمت» لمعرفة موقفها من تلك الأحداث ومدى علمها بمسئولية زوجها عما أصاب

والدها، وهل كانت راضية راغبة فى الزواج من حورمحب أم أنها أكرهت عليه، وأخضعت له خضوعاً بعد فراق الأهل والأحبة؟ وهل ارتدت الملكة عن عقيدتها التى آمنت بها سنوات طويلة من عمرها، و شاهدت شقيقتها نفرتيتى تضحى بحياتها وسعادتها من أجل الدفاع عنها، ولاقت وأسرتها الاضطهاد والعذاب بسببها، وربما ماتت وزوجها إخناتون فى سبيلها؟

وهل كانت «موت نجمت» خلال حياتها مع زوجها فرعون مصر راضية عن أفعاله فى سبيل إعادة الأوضاع الدينية إلى ما كانت عليه؟ وغير مبالية ببطشه وتعذيبه وانتقامه من المؤمنين بالتوحيد؟ وهل كانت راضية عنه وهو يعيد آمون زعيماً على الآلهة؟ ماذا كان موقفها وهى ترى فرعون وجنوده يهدمون «آخت آتون» ويجمعون المؤمنين ويضعونهم فى سجن «ثارو» الكبير ويعذبونهم ويقتلونهم ويستعبدونهم؟

هل كانت تلك المرأة رافضة لجميع هذه الأفعال وغُلَّت يدها ولم يكن لها حول ولا قوة ولم تملك أن تمنع فرعون عن طغيانه وفساده وتمسكت فى قلبها بعقيدتها وإيمانها بالله ودعاء ربها أن ينجيها منه ومن عمله؟

هل يمكن أن تهدينا كل هذه التساؤلات إلى أن تكون تلك الملكة هى امرأة فرعون الذى نقل القرآن الكريم دعاءها: «**إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)**» [**التحريم**].

سوف يكون لنا حديث آخر فى هذا الشأن فى موضع قادم عند تحديد أدلتنا على فرعون الذى تربى موسى - عليه السلام - فى بيته.

وعودة إلى حورمحب، فإنه بعد أن استقرت له الأمور فى الدولة فقد كانت المشكلة التى أهمته أنه لم يترك وريثاً للعرش، فلم يكن له ولد يرثه، وعندما جاوز الستين من عمره شغله أمر استقرار الحكم فى مصر، فاختار رفيق سلاحه وزيره رمسيس، وأعلنه نائباً للملك فى الجنوب والشمال ثم «الأمير الوراثى على كل البلاد» محدداً بذلك أنه المرشح الوحيد لوراثة العرش.

وبعد حكم دام سبعاً وعشرين سنة مات حورمحب ودفن فى المقبرة التى شيدها فى وادى الملوك، وليس فى المقبرة التى شيدها لنفسه فى منف أيام توت عنخ آمون.

الأسرة التاسعة عشرة (١٢٩٥ - ١١٨٨ق.م)

أسرة عسكرية عريقة، موطنها الأصلى يقع فى شرق الدلتا ضمن «قطاع رع» الذى يضم الأراض الخصبة الشاسعة الممتدة بين هليوبوليس وأفاريس، كانت منطلق القوافل إلى أرض كنعان، وفى ذلك الوقت كانت تلك المنطقة تزخر بالأجانب، التجار السوريون يعبرون هذه المنطقة بحراً حتى منف، أو يصلون إليها براً من سيناء فى قوافل تستخدم الحمير فى النقل، وكانت أفاريس (صان الحجر) قد أصبحت منطقة شبه دولية اعتادت على تعدد الألسنة واللهجات فى شوارعها وأسواقها، وعلى مقربة من تلك المنطقة «أرض جوشن» موطن استقرار آل يعقوب (إسرائيل).

أول ملوك تلك الأسرة - رمسيس الأول (١٢٩٥ - ١٢٩٤ق.م)

رجل عسكرى خرج من صفوف الشعب، من أسرة ذات جذور عسكرية، فوالده كان يدعى سيتى (رجل الإله ست) التحق بالجيش فى عهد أمنحوتب الثالث وترقى فى المناصب فى عهد خلفائه حتى وصل إلى رتبة (قائد فصائل) ثم ألحق ابنه «بارعمس» بالسلك العسكرى، الذى تدرج بدوره فى المناصب فى عهد «حورمحب»، فعين (قائد فصائل) مثل أبيه، ثم رقى إلى (قائد خيول) ثم (قائد للعربات الحربية) أرقى أسلحة الجيش، وصار مؤهلاً «لحمل الحقيبة الدبلوماسية» للفرعون، وتنقل بين العواصم المختلفة، وبحكم وظيفته تردد بصفة دائمة على ساحة البلاط الرسمى فى منف، ووطد علاقته بالوزراء والفرعون الذى كان خارجاً من صفوف الجيش، فوقف على خبرات «بارعمس» وصفاته المتميزة، فساعده على النجاح والتقدم، وأعلى من شأنه ومنحه أعلى رتبة فى الجيش وعينه قائداً لقلعة «ثارو» الحدودية، فجعله بذلك مسئولا عن حماية الحدود مع كنعان وحراسة سواحل الدلتا، وكانت هذه القلعة مركزاً لتجميع المؤمنين بالتوحيد أتباع إخناتون وتعذيبهم وقتلهم فى عهد حورمحب. ثم عين حورمحب القائد «بارعمس» وزيراً، فنائباً للملك، ثم أعلن أنه الأمير الوراثى على كل البلاد.

اعتلى «بارعمس» العرش بهدوء تحت اسم «رمسيس الأول» مؤسساً الأسرة ١٩، وأدرك أن عهده بداية حقبة جديدة من تاريخ مصر، كان طاعناً فى السن، فكان إلى جواره الابن «سيتى» قائداً عسكرياً متميزاً، والحفيد رمسيس صبياً متطلعاً، وضع ثلاثتهم على التوالى نصب أعينهم استعادة أمجاد الإمبراطورية بعد أن ترك لهم «حورمحب» البيت المصرى مرتباً من الداخل.

تشبه رمسيس الأول بالملك أحمس واتخذ ألقابه، حكم سنتين كان بجانبه دائماً الأمير سيتى، خططا معاً لبناء مشروع بهو أساطين ضخم للإله آمون فى الكرنك، وأرسل سيتى فى حملة إلى كنعان لجس النبض. وقد دفن رمسيس الأول فى وادى الملوك قريباً من مثوى رئيسه السابق وصديقه «حورمحب».

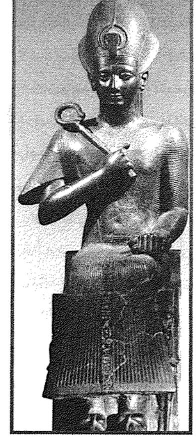
سيتى الأول (١٢٩٤ - ١٢٧٩ق.م)

جلس على العرش خلفاً لأبيه، وربما أن رمسيس الأول قد أشركه معه رسمياً فى الحكم تأكيداً لوراثته عرش مصر، كما شغل فى حياة والده منصب الوزير والقائد العام المسئول عن السياسة الخارجية. وبعد انفراده بالسلطة اتخذ من ملوك الأسرة الثامنة عشرة العظام مثلاً وقدوة، فوضع فى اعتباره تحقيق هدف مزدوج: أن يحقق الفتوحات والانتصارات ويعيد أمجاد الإمبراطورية، وأن ينشر المنشآت والعمائر فى أنحاء مصر.

سيتى الأول

صور نفسه فى معبده الجنائزى بأبيدوس واقفاً فى صحبة ابنه وخليفته «رمسيس الثانى» متعبداً أمام الخراطيش الملكية لمن سبقوه من فراعين مصر لقائمة تضم ٧٦ اسماً، تبدأ بالملك مينا وتنتهى عند سيتى الأول، واضعاً أسس كتابة التاريخ الرسمى للأسرة الثامنة عشرة، ويلاحظ أنه استبعد منهم من قائمة الملوك «حتشبسوت» وجميع ملوك عصر العمارنة الأربعة: أمنحوتب الرابع (إخناتون)، سمنخ كارع، توت عنخ آمون، آى، وسوف يعاد استخدام هذه القائمة كما هى، حتى عهد رمسيس الثالث، لكن بعد إضافة الملوك الجدد تباعاً.

بالإضافة إلى المجال العمرانى والاهتمام بمعابد الآلهة، فقد كانت أهم منجزات عهده فى مجال السياسة الخارجية؛ إذ اتجه إلى آسيا منذ السنة الأولى من حكمه بثلاثة فيالق، واستعادت القوات المصرية كنعان وسوريا بالكامل ونصف الساحل الجنوبى لفينيقيا (لبنان)، ثم قام بحملتين أخريين فوصل إلى قادش، واقتطع مقاطعة أمورو من يد الحيثيين قبل أن يوقع معاهدة سلام مع الملك «مواتالى» اعترفت فيها خيتا «الحيثيون» بحقوق مصر المشروعة وسيادتها على ممتلكاتها فى كنعان (فلسطين) وحتى مرافئ جنوب فينيقيا، وفى المقابل تنازل سيتى الأول عن قادش وآمورو إلى الحيثيين، وتعهد بالكف عن الاعتداء عليهما أو المطالبة بهما.


رمسيس الثانى

رمسيس الثانى (١٢٧٩-١٢١٣ق.م)

رمسيس الثانى – بإجماع المؤرخين – هو أشهر فراعنة مصر، وأحد رموز حضارتها، فرض اسمه وشخصيته على العالم قديماً وحديثاً، عشق الدعاية والإعلان والتفاخر، فعاش ملء السمع والبصر، حكم مصر ستة وستين عاماً، بلغت شهرته عنان السماء، ففاقت شهرة غيره من الفراعنة، رغم أنه لم يكن أكثرهم عطاء أو حكمة أو إدارة. زخرت مصر فى عهده بالعمائر التى أقامها فى كل ربوع النيل، وشمل نشاطه جميع بلاد الشرق الأدنى، وترك آثاراً تمثّل معلماً بارزاً على المواجهات العنيفة التى احتدمت بين حضارات الشرق القديم، وسجل أمجاده لشعبه للعصور التالية، فأصبح ما نعرفه عن عصره لا تضاهيه معارفنا عن غيره من عصور مصر القديمة.

نشأته وأثرها على تكوين شخصيته

كان ميلاده فى موطن أسرته فى شرق الدلتا، فى عهد حورمحب حين كان جده «بارعمسس» قائداً للجيوش ونائباً للملك، ووالده «سيتى» أحد القادة العسكريين البارزين، والدته – زوجة سيتى –

تسمى تويا، وهى ابنة قائد كبير بسلاح العربات الحربية، كان رمسيس صبياً صغيراً دون العاشرة عندما تولى جده عرش مصر. وبعد أن انفرد أبوه سيتى بالحكم غرس فيه مظاهر العزة والكرامة والتباهى، ومنحه اللقب الفخرى الضخم «القائد العام للقوات المسلحة»، وظل رمسيس يفاخر بهذا اللقب طوال عمره، ولما شب الأمير واشتد عوده بدأ والده يعده للمستقبل، فأخذه بالحزم والجدية، وكعادة أسرته حرص على تنشئته عسكرياً، ثم منحه اللقب العظيم «ابن الملك الأكبر، ونائبه على عرش جب»، وهو لقب يعنى أن الأمير أصبح الوريث الملكى، وأشركه معه فى الحروب الخارجية والمهام التفتيشية والإدارية، وقد اعتز رمسيس الثانى بذلك كثيراً، وفى خطاب له ألقاه بعد سنوات من انفراده بالحكم أشار بفخر إلى مظاهر تكريم والده له.

خاض رمسيس مع والده حروب آسيا التى استعادت فيها مصر مستعمراتها القديمة، ولم يستسغ ما فعله أبوه وأصابته غُصَّة من تخلى مصر عن حقوقها فى قادش وآمورو، خصوصاً أنه كان قد شارك فى غزوهما، وأسرَّها فى نفسه لحين تولى العرش. وشارك أباه فى حملات تأمين حدود الدلتا ضد القبائل الليبية، وفى العشرينيات من عمره صار مؤهلاً لمباشرة بعض الحروب بنفسه، فخرج على رأس حملة تأديبية إلى النوبة، ويكشف حرصه على اصطحاب ولديه - آمون حرونمف (٥ سنوات) وخع إم واست (٤سنوات) لمرافقته فى تلك الحملة - عن ميراث عسكرى متأصل، وحرص واضح من تلك الأسرة الملكية الجديدة على تدعيم وجودها وإزالة أية بادرة من الشك فى قدرتها على الاستمرار، وذلك بإعداد أبنائهم للقيادة والحكم. وقاد رمسيس أيضاً هجوماً لصد قراصنة البحر (الشرادنة) عندما حاولوا أن يغيروا على الدلتا، وأسر منهم عدداً كبيراً تم تجنيدهم فى الجيش المصرى.

وقد كان لهذه التربية والإعداد أثر كبير فى تكوين شخصية رمسيس الثانى، وتوجيه اهتماماته، فنشأ معتزاً بنفسه، عاشقاً للفخر والتفاخر، عسكرياً مدرباً فى أمور الحرب، ممارساً للشئون السياسية والإدارية، مهتماً بالبناء والتعمير، حريصاً على اختيار قواده ووزرائه ورجال بلاطه، والإغداق عليهم وتكريمهم لضمان ولائهم وإخلاصهم.

رمسيس الثانى على عرش مصر

أصبح رمسيس الثانى ملكاً مطلقاً قبل أن يتم الخامسة والعشرين من عمره، وفضلاً عما توفر له من أسباب الإعداد والتدريب على القيادة والحكم، فتدل شواهد الأحوال من تماثيله وصوره وموميائه على أن الله قد حباه - أيضاً - ببنيان قوى، مع جمال الصورة، فقد كان رشيقاً، طويل القامة، ممشوق القوام، فى ملامحه أَنَفة وشموخ، لم تؤثر الشيخوخة فى تشويه ملامحه، أو القضاء على مظهره البطولى ودلائل نشاطه. وجمال هيئته، دلت الأبحاث التى أجريت على شعر رأسه أنه ما زال ناعم الملمس، حريرى، أملس، وبعد تمشيطه بدا متموجاً تموجاً طبيعياً تنتهى أطرافه فى

هيئة بوكلات عريضة الشكل انسيابية متناسقة.

فى العام الأول من حكمه وضع حجر الأساس لمقره الجديد مدينة «بى رعمسيس» فى شرق الدلتا، وأقر بنفسه تخطيطها ليجعلها تنافس فى روعتها الحضارتين العتيدتين منف وطيبة. ثم اتجه بقوة عاقداً العزم على أن يسترد لمصر كل مستعمراتها السابقة فى آسيا، فوضع مخططاً للسيطرة على الساحل، ثم استعادة مستعمرة آمورو وبعدها قادش، ومنها إلى قلب سوريا الشمالى حتى حلب متحدياً الإمبراطورية الحيثية، وقد صورت نصوص رمسيس الثانى على جدران معابده المختلفة تفاصيل حروبه فى فلسطين وسوريا خلال السنوات العشر الأولى من حكمه، والتى سوف نوجزها بالقدر الذى سوف نعتمد عليه فى دراستنا لتحديد ثوابت البحث والنطاق الزمنى للأحداث.

حروبه فى آسيا

– فى العام الرابع من حكمه – ١٢٧٥ق.م – قام بحملته الأولى إلى سوريا، وفى ذلك الوقت كانت كنعان (فلسطين) خاضعة لمصر، فوصل الجيش المصرى سريعاً إلى الأراضى الساحلية بفينيقيا الجنوبية (لبنان) وأحكم قبضة مصر على الساحل الفينيقى من صور إلى جبيل ثم تجاوزها شمالاً – متبعاً خطة تحوتمس الثالث بتأمين طرق مواصلاته على موانئ الساحل – ومن هذا الارتكاز توغل فى العمق جهة الشرق، وهاجم دولة أمورو واستولى عليها خلال شهرين، ووقف على أبواب قادش. وأقام لوحات تسجل انتصاره فى جبيل وفى بيروت على نهر الكلب وفى صور.

– فى العام الخامس – ربيع ١٢٧٤ق.م – انطلق جيش الفرعون رمسيس من «بى رعمسيس» عاصمة البلاد الجديدة بعد أن قسم جيشه إلى أربع فرق بأسماء كبار الآلهة، ووضع تخطيطه أن يقود بنفسه الجزء الأساسى من الجيش عن طريق البر، وتسلك القوات المعاونة (المدد) طريق الساحل الفينيقى، ثم تتجه شرقاً لتلتحم بالقوات الرئيسية فى نفس يوم وصولها. واصطحب الفرعون فى معيته بعض أولاده وأحد الوزراء وعدداً من حريمه وحرسه الخاص. ووصل الجيش المصرى أرض كنعان وعبرها بسرعة إلى جبل الجليل، ثم واصلوا سيرهم حتى منابع نهر الأردن، فيما وراء بحيرة «الحولة»، واخترقوا وادى البقاع شرقى لبنان، واتجهوا صوب «كوميدى»، وأخيرا وصل الجيش المصرى إلى قادش التى قدر لها من جديد أن تصبح الأرض التى احتدمت فوقها المواجهة بين المصريين وبين الحيثيين، ودارت رحى المعركة التى جعلتها دعاية رمسيس الثانى أشهر معارك تاريخ الشرق الأدنى القديم، وظل يعتبرها أعظم المآثر الحربية التى وقعت فى عهده وسجل وقائعها مراراً وتكراراً على جدران معابده المختلفة، بالإضافة إلى عدد من النسخ المدونة على لفافات البردى، وبلغ عدد ما وصلنا من الروايات المصرية لمعركة قادش حوالى ثلاث عشرة رواية، هذا غير نسخة حيثية وحيدة.

وسجلت التقارير المصرية عن تلك المعركة أن القوت الحيثية حُشِدت من ست عشرة مقاطعة

ومملكة حليفة غير القوات الحيثية نفسها، ونستخلص من هذه المصادر أن هذا الجيش كان يمتلك عدة ضخمة من عربات القتال ومن المقاتلين المدربين، وربما كان أكبر جيش حشدته الإمبراطورية الحيثية فى تاريخها كله.

ورغم أن المصادر المصرية لم تقدم عدد الجيش المصرى الذى كان دائما يعتبر سراً من الأسرار، فلم يسبق أن عثر فى أية وثيقة بقيت لنا على عدد الجنود فى أية معركة حربية كبيرة، فإن الاستعدادات الحربية تؤكد أنه لم يكن أقل من جيش خيتا، وقدّره بعض الدارسين بنحو عشرين ألف مقاتل.

ووفق التصوير المصرى للمعركة، فقد استطاع المصريون انتزاع النصر بصعوبة شديدة من بين براثن كارثة محدقة حدثت بسبب خطأ بالغ وقع فيه جهاز الاستخبارات العسكرية المصرية فى تحديد تمركز جيش الحيثيين وحلفائه، فقد اعتمدوا على معلومات مضللة أفادتهم بأن الجيش فى حلب على بعد مائتى ميل، وإذا بهم يفاجأون - بعد القبض على جاسوسين - أنهم معسكرون خلف قادش لا يفصلهم عنهم سوى ميلين، وكان الفرعون الشاب قد تعجل فى الوصول إلى قادش على رأس فرقة آمون، أما الفرق الأخرى فكانت منتشرة على بعد عدة أميال وتتجمع تدريجياً وسرعان ما أرسل رسالة عاجلة لاستعجال فرقة بتاح المتأخرة «أسرعوا بالزحف سيدكم الفرعون يقف فى المعركة وحيداً».

بيد أنه وعلى حين غرة، حلت الكارثة وظهرت عربات الحيثيين فى هجوم مفاجئ مخادع مخطط، أدى إلى إحداث انقسام فى الجيش المصرى، وتشتت شمله، واندفعت عربات تحالف الحيثيين وطوقت المعسكر المصرى، وبدا واضحاً أن هزيمة الفرعون محققة لا محالة، وأن أحلامه تتبدد أمام جيش القوات المتحالفة جيدة التنظيم.

وقد صورت مصادر رمسيس الثانى القتال الشرس فى هذا الوقت العصيب، بأن الفرعون لم تذهله المفاجأة وتصرف بثبات ورباطة جأش، وإذ حاول تجميع جنوده الفارين دون جدوى، فمن ثم قفز إلى عربته الحربية، وعبثاً حاول حامل درعه إثناءه عن القتال، والفرار وإياه إلا أنه ثبت فى ميدان المعركة وقاتل الأعداء بمفرده - مستغيثاً بوالده الإله آمون - وأوسع جيش الحيثيين ضرباً وتقتيلاً، وبفضل شجاعته انقلبت الكرة عليهم فشتت شملهم، وأصبح هو المسيطر على الموقف وأجبرهم على الهروب، والقفز خوفاً فى نهر العاصى سابحين إلى الضفة الأخرى طلباً للنجاة.

غير أن حقيقة الأمر أن المدد والنجدة وصلت سريعاً من ساحل آمورو من إحدى فرق الجيش، وصفتها النصوص المصرية بأنهم «جنود الفرعون الشباب (نعرن)». ويبدو أنهم الفرقة التى أخذت الطريق الساحلى، أو إحدى الفرق المصرية المتمركزة فى المستعمرات الآسيوية، وقد وصلت على تعبئة رائعة والتحمت فى القتال على الفور، وألفت عربات الحيثيين نفسها بين المدد الذى يهاجم جناحها الأيسر، ورمسيس والقلة التى معه تهاجم بضراوة جناحها الأيمن، فتقهقرت نحو الجنوب

مبتعدة عن المصريين حتى تعيد تنظيم صفوفها، لكنهم لم يتمكنوا؛ لأن الجيش المصرى لم يعطهم الفرصة، وانقض عليهم ودفعهم للخلف حتى بلغوا شاطئ نهر العاصى وانسحبوا.

ثم فى صباح اليوم التالى دار قتال عنيف بين الفريقين الجريحين، لم يسفر عن نتيجة حاسمة لأى منهما، فلم يستطع الحيثيون رد المصريين على أعقابهم، كما وجد المصريون أنه ليست بهم طاقة لقهر قوات تحالف الحيثيين، ولم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على قادش، فانفصل الجيشان ترقباً لحساب الموقف.

وفى اليوم التالى بعث «مواتالى» ملك الحيثيين إلى رمسيس الثانى وحياه على بسالته وعرض عليه الصلح، ويجدر أن نتذكر فى هذا المقام أن هذا الملك العاقل كان هو ذات الملك الذى حقق السلام مع سيتى الأول - منذ خمسة عشر عاماً مضت - على أساس اعتراف الطرفين بالأمر الواقع، واحتفاظ الحيثيين بآمورو وقادش.

وتذكر نصوص رمسيس أنه جمع مستشاريه وعرض عليهم مقترحات الحيثيين بالصلح فوافقوا «وقالوا فى نفس واحد: السلام شىء عظيم، يعلو على كل شىء يامولانا الملك»، لكن رمسيس المكابر كان ما زال عند موقفه منذ أيام أبيه، ولم يستسغ أن يقر السلام على أساس خروج قادش وآمورو من سيطرة المصريين، فرفض توقيع معاهدة الصلح، وقبل وقف القتال، وعاد بجيشه إلى مصر لالتقاط الأنفاس تحسباً لوقت آخر.

وبعد رحيل رمسيس إلى مصر، أحكم «مواتالى» سيطرته على قادش، ثم تحرك غرباً وأخضع أمورو وعزل حاكمها وأحل محله آخر موالياً له، ثم اتجه جنوباً مهدداً المستعمرات المصرية فى سوريا فاحتل دمشق ومستعمرة «أوبى» المصرية.

حملة العام السابع (صيف ١٢٧٢ق.م):

بعد أن عاد رمسيس من حملته السابقة، اهتم بإعادة تنظيم جيشه الجريح، وأحدث عددا من التغييرات، واهتم بإصلاح الأخطاء التى كشفت عنها معركة قادش، وقد أدى انسحاب رمسيس من قادش وآمورو وخروج «أوبى» من سيطرة المصريين، دون رد فعل تال وسريع إلى تغاضى حكام كنعان عن دفع الجزية للجباة المصريين، كما تجرأت قبائل البدو (الشاسو) وبدأت تغير على أرض كنعان، وحدث تطور خطير آخر تمثل فى ظهور ممالك فتية أهما مملكتان حديثتان رفضتا السيادة المصرية ودارتا فى فلك الحيثيين هما:

١- مملكة «مؤاب» شرق البحر الميت، وينسب المؤابيون - طبقاً لرواية التوراة - إلى مؤاب بن لوط ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما السلام، لذلك فهم من الشعوب العبرانية، وعاصمتها «دبيون» (ذبيان الحالية على بعد ثلاثة أميال شمال نهر أرنون).

٢- مملكة آدوم: شرق البحر الميت إلى الجنوب من مملكة «مؤاب» - وطبقاً لرواية التوراة - فإن

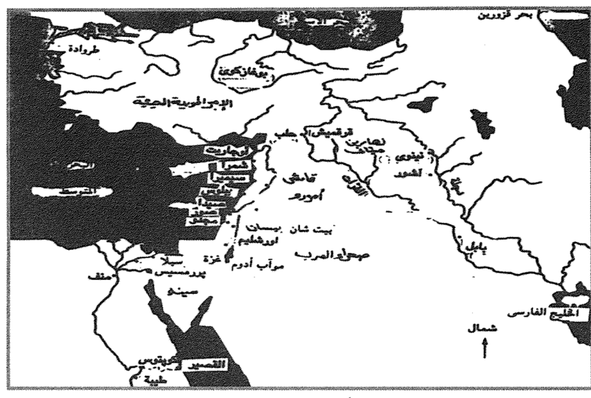
آدوم هو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم – وهو شقيق يعقوب -- وكانت «سالع» عاصمة أدوم، ثم تغير اسمها إلى «البتراء» وتقع إلى الشرق من و ادى عربة فى منتصف المسافة تقريباً بين رأس خليج العقبة والبحر الميت والاسم العربى للبتراء هو «الرقيم» واسمها الحديث «وادى موسى».

وفى صيف العام السابع من حكمه استعد رمسيس لمواجهة هذه الاضطرابات فى المستعمرات المصرية، فقام بحملته إلى فلسطين فوصل غزة سريعاً، وقسم قواته إلى جيشين قاصداً أن يشن هجوماً دائرياً يحيط بكل أرض كنعان، وقاد الجيش الأول ابنه الأكبر «آمون حر خبش إف» فطارد الشاسو فى صحراء النقب، حتى طردهم ناحية الشرق خارج حدود كنعان كلية، ثم اتجه ناحية البحر الميت، واستولى على«آدوم» واخترق مملكة «مؤاب»، وفى الوقت ذاته كان رمسيس الثانى يكمل اتجاه الدائرة الآخر عبر جبل كنعان، فزحف على أورشليم (القدس) ثم اتجه إلى الأردن، وتجاوز مدينة «أريحا» ووصل إلى الحد الشمالى للبحر الميت، واتجه جنوباً واستولى على «مؤاب» وضرب مدينة «دبيون»، ثم التحمت قواته مع جيش الأمير «آمون حرخبش إف».

وبهذا تكون كنعان (فلسطين) قد أخضعت تماماً، وقضى على جميع حركات التمرد، وعادت للسيطرة المصرية. وبعدها صعد الجيش المصرى كاملاً إلى دمشق ثم «كوميدى» واسترد مستعمرة «أوبى» للسيادة المصرية. وعاد الجيش المصرى منتصرا ظافراً فى تلك الحملة.

– ما بين العامين الثامن والتاسع من حكم رمسيس (ربيع ١٢٧١ق.م) قام بحملة عسكرية أخرى إلى آسيا، دعم فيها مراكزه فى كنعان وعبر جبال الجليل، واحتل ميناء عكا ثم زحف على طول الساحل الفينيقى مثبتاً ومؤكداً حقوقه فى المدن والموانئ: صور وصيدا وبيروت وجبيل وأولازا وأرقاتا وسيميرا، وإزاء عدم وجود أى رد فعل من الحيثيين، واصل الجيش المصرى تقدمه وفرض الحصار على «آمورو»، و«قادش» وتوغل فى الشرق إلى الداخل ناحية وادى نهر العاصى، وافتتح مدينة «دابور» الواقعة على حدود أرض آمورو الشمالية وأقيم تمثال لرمسيس الثانى بها؛ مؤكداً خضوعها وامتلاكه لها. وبعد ذلك احتل مدينة «تونيب» المستقلة، واستطاع بذلك أن يعزل قادش وآمورو عن الاتصال بالحيثيين وحكامهم فى حلب أو بلاد خيتا، وهى أراضٍ لم تصل إليها القوات المصرية منذ مائة وعشرين عاماً.

أما عن السبب فى صمت الحيثيين فيرجع إلى حدوث أزمة داخلية على وراثة العرش بعد وفاة ملكهم «مواتالى»، وأيضاً بسبب التهديدات الخارجية لإمبراطورية الحيثيين من الدولة الآشورية. والغريب فى الأمر أن رمسيس الثانى بعد هذا الانتصار لم يدعم سيطرته وإحكام قبضته على المناطق السورية المحتلة، وإثر عودته بجيشه إلى مصر قام الحيثيون بتهديد وتحريض المدن المحتلة مثل أوبى ودابور على إبعاد المفوضين المصريين، والعودة إلى حظيرة الحيثيين، ولم يدم الاحتلال المصرى لتلك المراكز سوى فترة قصيرة.



الشرق الأدنى فى عهد رمسيس الثانى

– وبسبب أخطاء رمسيس الثانى وفشله فى تنظيم إدارة المستعمرات بعد الاحتلال، عاد على رأس حملة جديدة فى السنة العاشرة (١٢٧٠ق.م) واجتاز الأراضى الفينيقية وأقام نصباً تذكارياً عند نهر الكلب، و استرد «دابور»، إلا أنه – كالمعتاد فى حروبه – مع انعدام التخطيط العسكرى والإدارى للمستعمرات، فما أن عاد رمسيس حتى ارتد السوريون إلى الحظيرة الحيثية.

وعند هذا الحد من العناد والإصرار أدرك رمسيس الثانى أخيراً عجزه عن إخضاع شمال سوريا كله حتى نهر الفرات وطوروس، فأوقف حملاته إليها مكتفياً بسيطرة مصر على مستعمراتها التقليدية فى فلسطين والساحل الفينيقى والمناطق السورية الجنوبية.

– فى العام الثامن عشر قام رمسيس بحملة لسحق تمرد أمراء «مؤاب» و«آدوم» وإحكام سيطرته على كنعان، وأقام نصباً تذكارياً «فى بيت شان».

السلام

وعن العلاقات المصرية الحيثية بعد ذلك، فقد انتهى صراع السلطة فى الإمبراطورية الحيثية بوصول الملك «هاتوسيل الثالث» إلى العرش – وهو شقيق الملك السابق (مواتالى) – بعد أن تغلب على غريمه «أورحى تيشوب» ابن أخيه الملك السابق، الذى اضطر إلى الفرار لاجئاً سياسياً محتمياً بمصر، ووجد رمسيس الثانى نفسه مضطراً للترحيب بإمبراطور خيتا المخلوع ابن «مواتالى» عدوه اللدود فى معركة قادش، وكان ذلك فى حدود السنة الثامنة عشرة من حكمه. ورفض رمسيس طلب «هاتوسيل» تسليم الأمير اللاجئ، الأمر الذى اعتبره «هاتوسيل» تهديداً ليس له معنى إلا الحرب،

وتلبدت الغيوم، واستعدت الجيوش، غير أنه حدث تطور مفاجئ لم يكن متوقعاً، وجرت بين الدولتين مصر وخيتا مفاوضات لا نعلم عن تفاصيلها شيئاً، واستمر الأخذ والرد نحو عامين قضاها مبعوثو الدولتين فى بحث التفاصيل ثم توصلا فى نهايتها إلى الاتفاق على بنود لمعاهدة سلام، سلم بمقتضاها رمسيس الثانى فى العام الحادى والعشرين من حكمه بذات النتيجة التى انتهى إليها والده منذ أكثر من ثلاثين عاماً، فقبل الصلح، ووقع مع «هاتوسيل الثالث» ملك الحيثيين على معاهدة السلام، منهياً عهد الحروب، بادئاً عهداً جديداً للسلام والمصاهرة مع الحيثيين استمر إلى نهاية حكمه، وضاعت منه إلى الأبد قادش وآمورو، وفى المقابل وقع الحيثيون على التسليم بالممتلكات المصرية الأخرى فى سوريا وفلسطين والموانئ الفينيقية وعلى السماح للمبعوثين المصريين بالمرور شمالاً حتى «أوجاريت» فى أقصى شمال ساحل سوريا، ووضعت بنود المعاهدة الأسس القوية لسلام دائم، ولم تتعرض بالمرة لأى انتهاك وحتى نهاية حكم رمسيس لم يجد ما يدعوه إلى الخروج فى غزوات حربية إلى ممتلكاته فى آسيا.

ونعمت البلاد بالسلام والهدوء، وخضعت المستعمرات المصرية لسيادة السلطة الحاكمة المصرية، فى ظل سياسة الديبلوماسية بين القوتين العظميين مصر وخيتا، والتى دعمها رمسيس الثانى بالزواج من أميرتين حيثيتين، فتزوج من الأولى فى العام الرابع والثلاثين من حكمه، وأقيمت الأفراح احتفالاً بهذا الحدث السعيد، وتخلدت ذكراه فى نقوش خاصة على جدران المعابد الكبرى، وفى الأربعينيات من حكمه تزوج من أميرة حيثية أخرى، واستقبل أصهاره فى البلاط الملكى فى «بى رعمسيس». ونظراً لاتساع الإمبراطورية المصرية فى عهد رمسيس الثانى، والتى أصبحت تمتد من سوريا شمالاً حتى الشلال الخامس جنوباً (جبل برقل «نباتا» فى السودان)، فقد تخلى عن طيبة عاصمة البلاد، واتخذ من مدينته الجديدة «بى رعمسيس» عاصمة نظراً لموقعها فى شرق الدلتا، الأقرب إلى ملكه فى آسيا، فضلاً عن أنها مسقط رأس عائلته، وموقعها الحالى بلدة قنتير عند تل الضبعة بالقرب من فاقوس فى محافظة الشرقية، وضمت إليها موقع مدينة أواريس القديمة عاصمة الهكسوس.

البناء والتعمير

اهتم رمسيس بالبناء فشيد مدناً جديدة، وقد أزال كل أثر بقى من مرحلة إخناتون فى العمارنة، فدمرت مدينة «آخت آتون» تدميرًا كبيرًا، ونقلت أحجارها بغرض إعادة بناء وتوسيع مدينة «هرموبوليس» (الأشمونين) على البر الغربى المقابل من النيل.

وأقام العديد من القصور والمعابد والمقاصير والأساطين والتماثيل والمسلات، ووصل نشاطه فى مجال المعمار إلى حدود غير معهودة من قبل، شملت كل أنحاء مصر: فى المدن والقرى وحتى المناطق الصحراوية البعيدة، وتفوق فى هذا المجال على جميع الفراعنة السابقين واللاحقين فى تاريخ مصر كله. وكما اهتم رمسيس بالانتشار فقد أحب أيضاً الضخامة فى تنفيذ أعماله المعمارية.

ويشهد ما بقى من آثاره حتى اليوم أنها لرجل تملكه الغرور وجنون العظمة، وأشهرها معبد أبوسمبل، ومعبده الجنائزى (الرامسيوم) ومعبد أبيدوس، وإضافاته فى معبدى الكرنك والأقصر، وتماثيله العملاقة ومقبرته فى وادى الملوك.. وكثيراً جداً غيرها، وكان رمسيس دائماً متعجلاً نافذ الصبر حتى تنتهى مبانيه فى أسرع وقت ممكن، واستمرت هذه العجلة معه حتى أيامه الأخيرة، لذلك فإن إنشاءاته الضخمة جاءت فى الغالب بمستوى فى التنفيذ أقل مما عرفناه فى أعمال الملوك السابقة، كذلك فإن فنانيه لسرعة تنفيذ نقوشه لجأوا إلى الحفر البارز العميق بدلاً من الحفر المنخفض الرشيق الذى يحتاج للصبر والوقت. فجاءت فى الغالب خالية من الجمال ودون المستوى المعهود، وإذا كان ذلك شأن الناحية الجمالية، فإن الموضوعات التى سجلتها نقوشه تكشف مدى السطحية والتفاهة فى وصف المعارك المسجلة وتضخيمها بطريقة دعائية مفرطة، لمجرد إضفاء البطولة على دور رمسيس وشخصه بشكل مبالغ فيه.

عائلته

تزوج رمسيس الثانى فى حياته المديدة إحدى عشرة زوجة رسمية غير المحظيات والجوارى، وبدأ استمتاعه بالنساء وهو أمير فى مرحلة مبكرة من عمره، وعندما أتم العشرين كان له عدد وافر من الأبناء، وقد أنجب خلال حياته عدداً كبيراً من الأبناء والبنات، تحقق الدارسون من عدد من المصادر أنه زاد على المائة، ووصل به بعضهم إلى نحو ١٨٠ ابناً وبنتاً.

أشهر زوجاته الرسميات نفرتارى وإيزيس نفرت، تزوجهما قبل تتويجه، وكانتا ضمن مجموعة النساء (جمال القصر) اللائى أهداهن إليه والده سيتى الأول، ولا توجد أية معلومات متوافرة عن أصل هاتين الفتاتين أو نشأتهما، ولا تحمل أى منهما فى ألقابها ما يدل على نبل الأصل أو الانتماء العائلى الرفيع، مما يؤكد أنهما من عامة الشعب، وقد ذكر عنهما أنهما أحضرتا من حريم القصر، ويظهر من آثار رمسيس أن نفرتارى التى كانت تتمتع بالرقة والرشاقة والجمال، كانت لها المكانة الأولى فى القصر، وأنها أحب زوجاته إلى قلبه، أقام لها التماثيل بجوار تماثيله فى معابد مصر، وظلت نفرتارى الملكة الرسمية أمام المجتمع وفى المحافل والأعياد الدينية حتى وفاتها، وكان آخر ظهور لها فى العام ٢٤ من حكم رمسيس أثناء تفقد الأعمال فى معبدى أبوسمبل فى النوبة قبيل افتتاحهما.

أما إيزيس نفرت فلم تظهر فى المناسبات العامة وعاشت متوارية دون دليل على سبب ذلك حتى وفاتها تقريباً فى العام ٣٤ من حكم رمسيس. ونفرتارى هى أم لكل من «آمون حرخبش إف» ابن الملك الأول وأول ولى للعهد، و«ست حرخبش إف» ثانى ولى للعهد و«مرى آتوم»، وقد توفى الثلاثة فى حياة والدهم، وإيزيس نفرت هى أم لكل من «رعمسيس» ثالث ولى للعهد، و«خع إم واست»، الأمير المفكر والعالم ذائع الصيت ورابع ولى للعهد، وقد توفيا فى حياة والدهما «ومرنبتاح» الابن الثالث عشر فى ترتيب أبناء الملك، وخامس ولى للعهد والذى آل إليه عرش مصر بعد وفاة رمسيس.

كما تزوج رمسيس الثانى من عدد من بناته قد يصل إلى أربعة منهن الأميرة «بنت عنات» الابنة البكر لإيزيس نفرت، و«مريت آمون» كبرى أميرات زوجته نفرتارى وأنجب منهن عدداً من أبنائه.

وتجدر الإشارة فى هذا السلوك من زواج المحارم الذى تأباه الطبيعة البشرية وتحرمه الأديان والقيم الأخلاقية أن ملوك مصر - وليس الشعب - عرفوا زواج الملك بأخته، لأسباب تتعلق بالمحافظة على الدم الملكى، أما الزواج بين الأب وابنته - على حد معلوماتى - فلا أجد صوراً أخرى له فى مصر القديمة سابقة أو لاحقة - خلاف رمسيس الثانى - وقد اعتقد أحياناً بعض المؤرخين بحدوثه فى حالات قليلة من الملوك ثم تبين خطأ تلك الدراسات، وحاول بعض الدارسين رده أو بالأحرى تبريره لرمسيس بأسباب دينية تجعله مسموحاً به فى مستوى الدائرة الإلهية.

كما تزوج رمسيس من أميرتين من دولة خيتا وأميرة بابلية وأميرة سورية.

أواخر عهده

عاش رمسيس الثانى أعوام حياته التى شارفت على التسعين عاماً نشيطاً صحيحاً متنقلاً بين قصوره فى «بى رعمسيس» ومنف والفيوم وطيبة (يكشف العلماء الذين قاموا بفحص موميائه أنه ربما توفى فى الخامسة والثمانين من عمره)، وظل يحتفل حتى العام الأخير من حكمه بيوبيل تجديد شباب الملك بما يتضمنه من أساليب سحرية وإجراءات طقسية طويلة معقدة.


رأس مومياء رمسيس الثانى

حكم مصر حكماً انفرادياً مطلقاً، وفى الثلاثين سنة الأخيرة من حكمه ألّه نفسه، بكل ما فى هذه الكلمة من معان، وبكل مظاهر العظمة والجلال، وطلب من شعبه وحاشيته أن يعبدوه، وساوى نفسه بإله الشمس «رع» وأضاف لألقابه الرسمية لقب «الإله».

ورغم أن السلام قد عم - فى ذلك الوقت - ولم يعد للملك أعداء ظاهرون ولا حروب تستنزف موارده، وأحوال الدولة مستقرة، الأمر الذى كان يبشر بأن تجنى مصر ثمار السلام والاستقرار، وخيرات أرضها وفيض نهرها، فإننا نفاجأ فى النصف الثانى من حكم رمسيس الثانى أو على وجه الدقة فى العقدين الأخيرين من حكمه بحدوث أمور غريبة وأشياء غير واضحة، فقد سادت البلاد ظروف سيئة، لم تسجل أخبار عصره طبيعتها، لكننا نستطيع أن نستدل على التدهور الذى أصاب مصر من عدد من المظاهر نرصدها فى الآتى:

١- ضعف الحركة العمرانية بدرجة واضحة وانحطاط الفن والعمارة، وآثار رمسيس الحقيقية فى تلك الفترة الأخيرة قليلة بدرجة تلفت النظر، وهو أمر لم نعهده فى ذلك الملك الذى عشق ذاته وتملكه جنون العظمة، وشغف بالعمائر والتماثيل وإقامة المدن الزاهرة والمعابد الفخمة، فنجد أنه لم

يعد يملك الإمكانات التى تمكنه من ممارسة هوايته، فبدأ يسرق آثار أسلافه وينسبها لنفسه، وقد تبعه فى هذه السنة خلفاؤه التاليون.

٢- رغم الكثرة العددية الهائلة لأبناء وبنات رمسيس الذين سجلتهم آثاره، فإن الموت حصد الكثير منهم فى حياته، ولم يبق إلا قليل منهم ليعيش فى عصر مرينتاح الذى خلفه على العرش، وأحفاده الذين تم ذكرهم قليلون جداً، ولم تستمر أسرة رمسيس الثانى بعد وفاته أكثر من جيل واحد، وبعد وفاة مرنبتاح لم يكن موجوداً من تلك الأسرة ليحكم مصر سوى عدد من الملوك السطحيين التافهين، وبانتهاء القرن الثالث عشر قبل الميلاد (بعد سنوات قليلة من وفاة رمسيس عام ١٢١٣) انقطعت سلالته تماماً، وتولت أسرة جديدة حكم مصر.

٣- أمكن رصد رسالة تحمل عبارات غريبة وغامضة فى أخريات أيام رمسيس الثانى، أرسلت إلى الأميرة إيزيس نفرت الثانية من اثنتين من وصيفاتها كانتا قد سافرتا من «بى رعمسيس» إلى منف، فبعد أن وجهتا لها عبارات السلام والتحية ودعوات الآلهة قالتا: «وبعد، نحن اليوم أحياء، لكن لا ندرى ما يتمخض عنه الغد... نرجو أن يعيدنا الإله بتاح سالمتين حتى نراك!... نحن فى منتهى الشوق إليك» ويمكن أن يستشف من عبارات تلك الرسالة أن البلد يعيش ظروفاً ما سيئة، أو أن وباء خطيراً تفشى أدى إلى هلاك كثير من الناس وتسبب فى جزع وخوف هاتين الفتاتين إلى الدرجة التى أصبحتا لا تعرفان إن كانتا سوف تعيشان إلى الغد أم لا، وتدعوان الإله بتاح أن يعيدهما سالمتين ليتمكنا من رؤية الأميرة.

٤- تكشف آثار مرنبتاح - خليفة رمسيس الثانى - عن الأوضاع بالغة السوء التى كانت عليها مصر، خصوصا المنطقة الشمالية، فى بدء ولايته، واستمرت لعدة سنوات تالية، الأمر الذى يدل على أنه ورث عن والده دولة متهاوية لا تملك من زمام أمرها شيئاً، وصلت إلى حد احتلال الليبيين وحلفائهم من شعوب البحر للمنطقة الغربية من مصر، وأصبحوا على أبواب منف والعاصمة، وبقيت مصر مكتوفة الأيدى - دون حراك - لا تستطيع الدفاع عن نفسها، أو رد الزحف الليبى لمدة خمس سنوات من حكم مرنبتاح، فأين كانت أقوى جيوش العالم؟ وأين ذهبت أموال الإمبراطورية العظمى؟

توفى رمسيس الثانى بعد حكم حافل طويل، هو من أطول ما عرفته مصر، وكانت وفاته فى عاصمته «بى رعمسيس» عام ١٢١٣ق.م، وفى الشمال أجريت طقوس تحنيط جثمانه، وبعد انقضاء السبعين يوماً مدة التحنيط حمله الأسطول الملكى النهرى ليدفن فى مقبرته فى وادى الملوك بالبر الغربى لمدينة الأقصر، وبوفاته تنطوى صفحة مهمة من تاريخ مصر، وصلت فيها إلى أوج قوتها العسكرية وازدهارها ورخائها الاقتصادى، وبانتهاء حياته أو قبل ذلك انقضى العصر الذهبى للدولة الحديثة وراحت حضارة مصر تترنح قبل أن تتجرف إلى الهاوية السحيقة.

أحوال مصر بعد رمسيس الثانى

كانت نهاية حكم رمسيس الثانى نقطة فاصلة فى تاريخ مصر بين عصر وعصر، فبعد أن كانت

مصر شعلة من النشاط الفياض، وحاضرة العالم القديم، لا نعرف ما الذى حدث فجأة، وبصورة لم تكن متوقعة فى هذه الفترة التاريخية المزدهرة، وما دور رمسيس فى ذلك؟ فقد تفاقمت الأوضاع بشكل سريع، واستشرى الضعف والفساد، وتدهورت الدولة، وضاعت المستعمرات المصرية فى آسيا ثم فى الجنوب، وداخلياً ضعفت المواهب وتدهورت الأخلاق، وذهبت الحكمة والبصيرة، وقد حاول بعض الملوك قدر طاقتهم وقف طوفان التدهور فى بعض الفترات للمحافظة على سلامة مصر واستقلالها وبذلوا جهداً كبيرا لكى تنهض وتعاود ريادتها وقيادتها وأيام مجدها، إلا أن محاولاتهم كانت بائسة مبتسرة، فردية متحطمة، عرفت فيها مصر الاعتماد على المرتزقة من الجنود المحاربين، فلم يكتب لها النجاح، ولم تصمد أمام التهديدات الخارجية التى كانت أقوى، لكن لأن الحضارة المصرية كانت قوية الأساس، وتستند فى بنيانها على قيم راسخة ومحترمة تراكمت منذ ماض قديم سحيق، بالإضافة إلى ما اجتمع لها من عوامل حماية جغرافية وطبيعية، لهذا لم تنهر حضارتها سريعاً، ودخلت مرحلة تاريخية قاربت على الألف عام ظلت فيها تترنح بين النزول ومحاولات الصعود حتى فقدت مقاومتها وسقطت الحضارة الفرعونية. ورغم أن الدارسين يؤرخون لبداية الاضمحلال وسقوط الحضارة بعد انتهاء عصر الدولة الحديثة باعتبار أن عندها أصبح منحنى الانحدار سريعاً وجارفاً ومؤدياً لا محالة إلى تلك النتيجة، فإننا فى واقع الأمر ندرك أن بدايته الحقيقية حدثت قبل انتهاء حكم رمسيس الثانى، وأنه كان الفرعون الذى وضع بذور الحصاد شديد الألم والمرارة الذى جنته مصر من بعده، حسبما توضح الفترة التالية من تاريخها.

مرنبتاح ونهاية الأسرة التاسعة عشرة

تولى مرنبتاح عرش مصر نحو عشر سنوات (١٢١٣ - ١٢٠٤ ق.م)، وكان شيخاً فى أواخر الستينيات من عمره، وأبقى على «بى رعمسيس» عاصمة لمصر. وظل يتمتع فى آسيا بنتائج المعاهدة التى عقدها والده رمسيس الثانى مع الحيثيين منذ نحو خمسة عقود، وظلت الحدود بين الإمبراطوريتين مستقرة عند خط الحدود الذى يمتد من دمشق إلى بيبلوس واحتفظت مصر بمستعمراتها فى سوريا وفلسطين وساحل لبنان، وحافظ على صداقته مع الحيثيين وأمدهم بالقمح عندما أصابتهم المجاعة.

مرنبتاح

تسجل مصادر عصره أن مصر قد تعرضت لهجوم من الليبيين وحلفائهم من شعوب البحر قادم من حدودها الغربية فى شكل موجات متسلة تحاول أن تجد لها طريقاً للاستيطان، وقد واكب ذلك الزحف تمرد آخر فى كوش جنوب مصر، وحتى العام الرابع من حكم مرنبتاح كان الهجوم الليبى

المشترك قد تمكن من المنطقة الغربية لمصر، قبل أن يتمكن من حشد قواته لمواجهتهم فى نهاية العام الخامس من حكمه، وينتصر عليهم ويقتل منهم أعدادا كثيرة يأسر أعداداً أخرى، واستولى على أسلحتهم وماشيتهم، ثم سحق تمرد الجنوب.

ونعرف من لوحة مرنبتاح الشهيرة باسم «لوحة إسرائيل» - المؤرخة بالعام الخامس من حكمه - أنه ربما يكون قد ذهب إلى آسيا أو أرسل جيشاً ما بين العامين الثانى والخامس من حكمه. وإذا صحت واقعة حربه فى آسيا فإنها تكون المرة الأولى منذ انتهاء حروب رمسيس الثانى التى مضى عليها أكثر من خمسين عاماً. يذكر النص أن حملته كانت إلى الممتلكات المصرية فى سوريا الجنوبية وكنعان، وأخمد ثورة فى جازر وعسقلان وجنوب فلسطين وفى «ينوعام» شمال كنعان، والجديد فى هذا النص هو ذكر اسم «شعب إسرائيل» فى عبارة ترجمها علماء الآثار بأوجه متقاربة نتخير منها «إسرائيل قد مُحِى وبذرته لا وجود لها»، والبذرة هنا بمعنى النسل أو الخلف، وهذا المعنى له أمثلة سابقة ولاحقة فى التاريخ المصرى؛ فقد تكرر استخدام هذا التعبير فى نصوص مصرية للتعبير عن النصر التام على الأعداء، وفسر كثير من علماء الآثار هذه العبارة بما يستفاد منه أن الإسرائيليين كان لهم وجود فى فلسطين فى ذلك التاريخ بما يعنى خروجهم من مصر فى وقت سابق.

واعتقد آخرون بسبب وجود اسم إسرائيل على لوحة انتصاراته، أن الخروج حدث فى عهده، وسوف تخضع هذه الآراء للتحقيق التاريخى فى فصل قادم من كتابنا عند مناقشة خروج بنى إسرائيل من مصر.

ويجدر فى تاريخ هذا الملك أن نشير إلى أنه ثبت من سجل تاريخى مؤرخ فى السنة الثالثة من حكمه، تبادل الوفود والرسائل الديبلوماسية بين مصر وكنعان منقولة من مكتب الخارجية فى مدينة «بى رعمسيس» الذى كان يديره أمين سر مرينتاح الشخصى.

بعد وفاة مرنبتاح واجهت مصر أزمة غير متوقعة فى ولاية العرش، واحتدم صراع بين أفراد الجيل اللاحق من العائلة المالكة، وساد الغموض السنوات الخمس عشرة الأخيرة من الأسرة التاسعة عشرة، وتحكم شخص أجنبى يدعى «باى» فى حكم مصر، وكان يشغل وظيفة حامل أختام، ثم منصب الكاتب الملكى فى خدمة الملك سيتى الثانى، ثم وصل إلى وظيفة المشرف على كل الخزانة، وبلغت مكانته فى البلاط الملكى مستوى رفيعاً استطاع عن طريقه أن يجهز لنفسه مقبرة فى وادى الملوك، وسجلت بردية هاريس(١) من عهد رمسيس الثالث الأحوال السيئة التى كانت عندما أسس مع والده، ست نخت الأسرة العشرين ووصف الاضطرابات التى سادت فى تلك الفترة، وتحكم هذا الأجنبى فى إدارة البلاد.

وانتهت الأسرة التاسعة عشرة بوصول الملكة «تاوسرت» إلى حكم مصر، وكانت إحدى ثلاث زوجات للملك «سيتى الثانى»، وبعد وفاته أصبحت وصية على الأمير «رمسيس سى بتاح» ابن زوجها من ملكة أخرى، الذى أصبح ملكاً وغيّر اسمه إلى «مرنبتاح سى بتاح» ومات بعد أن حكم ست

سنوات دون أن يترك وريثاً. لذلك أمسكت تاوسرت بالحكم وقد غرر بها باى السورى، وهى التى مكنته وعينته مشرفاً على كل الخزانة، ودام حكمها سنتين وبوفاتها عام ١١٨٨ ق.م انقطعت ذرية رمسيس الثانى، وتولت أسرة جديدة عرش الفراعنة.

الأسرة العشرون (١١٨٨-١٠٧٦ق.م)

انتقل حكم مصر إلى أول ملوك تلك الأسرة «ست نخت» (١١٨٨ - ١١٨٦ق.م)، وأصله مجهول، وضعه مانيتون على رأس أسرة جديدة، ونظراً لإعجاب فراعنة هذه الأسرة وتقديرهم للرائد رمسيس الثانى، اعتقد بعض الدارسين أن ست نخت ربما كان أحد الأمراء المتقدمين فى السن من البيت المالك القديم الذى جمع الناس وخَلَّص البلاد مما آلت إليه، ولم يدم حكمه طويلاً. كان ابنه رمسيس الثالث الرأس المدبر والمنفذ للإصلاحات التى قام بها، ويصف رمسيس الثالث فى بردية هاريس الحالة المحزنة التى كانت عليها البلاد عند ولاية والده، فيذكر أن مصر تم غزوها من الخارج، وظل الناس عدة سنوات دون حاكم عليهم، ومرت سنوات اضمحلال كان الرجل فيها يذبح جاره، وتمكن سورى من تنصيب نفسه ملكاً على مصر، فنهب الممتلكات وأهمل المعابد، حتى جاء والده ست نخت وأنقذ البلاد مما كانت فيه.

حكم رمسيس الثالث بعد والده ٣٢ عاماً (١١٨٦ - ١١٥٤ق.م) واتخذ من رمسيس الثانى نموذجاً ومثلاً أعلى قلده وتشبّه به، وتسجل المصادر التاريخية أنه آخر الفراعنة المحاربين فى الدولة الحديثة، فى وقت كان الزمن قد تبدل، وأصبح الموقف يحتم على مصر أن تغير سياستها من الهجوم إلى الدفاع، ومن المبادرة إلى المحاذرة.

فى العام الخامس من حكمه واجه هجوماً ليبياً على مصر من الغرب، وهو ذات الخطر الذى واجه مرنبتاح منذ ستة وعشرين عاماً، ويرى أغلب الدارسين أن هذا الهجوم - مثل سابقه - كان يضم مع الليبيين تحالفاً من الشعوب الهندأوروبية (شعوب البحر) فى تكرار لمحاولاتهم السابقة لاستيطان الشرق، وكانت هزيمتهم أمام مرنبتاح قد نجحت فى إيقاف محاولاتهم للاستيلاء على مصر من ليبيا لوقت غير قصير، إلى أن انتهزوا فترة الضعف نتيجة الصراع على السلطة فى نهاية الأسرة ١٩، واستأنفوا محاولاتهم السابقة بمحالفة الليبيين أيضاً. ولم يتنبهوا إلى أن فترة الضعف كانت قد انتهت ووصل إلى الحكم فرعون قوى طموح استطاع أن يدافع عن مصر، وقاد الجيش لهزيمة التحالف المعتدى وردهم، وباءت محاولتهم



رأس مومياء رمسيس الثالث

بالفشل. وسمح رمسيس الثالث لبعض القبائل الليبية أن تعيش على الحدود الغربية، كما أخذ من بينهم أسرى كثيرين ووَزَّعهم على الحصون المختلفة لاستخدامهم فى الجيش المصرى.

وطبقاً لإستراتيجية مصر الدفاعية، وجد رمسيس الثالث نفسه فى العام الثامن من حكمه مضطراً لمواجهة قوة هائلة من شعوب البحر قادمة هذه المرة من ناحية الشرق، ذلك أنه فى وقت معاصر لبداية حكم رمسيس الثالث كان الشرق القديم قد أصبح مسرحاً لتغييرات جذرية مهمة، فقد كانت هجرات الشعوب الهندأوروبية (شعوب البحر) أخذت عدة اتجاهات فى دول الشرق فاجتاحت بلاد خيتا (دولة الحيثيين) وبلاد قدى (بين آسيا الصغرى وشمال سوريا)، واحتلت كيليكيا وقبرص، واستولت على مدينة قرقميش على الفرات، وتمكنت من القضاء على دولة الحيثيين، حليفة مصر منذ عهد رمسيس الثانى، ونزلوا فى شمال سوريا (إحدى مناطق نفوذ الحيثيين وفقاً للمعاهدة المبرمة مع رمسيس الثانى)، ووصلت تلك الشعوب حتى حدود فلسطين. ومن ناحية أخرى فإن قوات شعوب البحر التى انهزمت فى غرب مصر فى حملة العام الخامس - وفى إصرار منهم على دخول مصر - اتجهت بعد فشلها إلى الشرق، واتحدت مع باقى حلفائها من شعوب البحر الذين اجتاحوا آسيا، وتكونت تلك القوة الكبيرة القادمة فى موجات من الهجرات العظيمة، بعضهم بطريق البر ومعهم نساؤهم وأطفالهم على عربات تجرها الثيران، والبعض الآخر على سفن حربية، وقد استطاعت حاميات مصر فى فلسطين أن توقف الزحف البرى، لذلك تسللوا إلى الدلتا فى سفنهم عبر مصبات النيل الشرقية، فالتقى بهم رمسيس الثالث فى معركة بحرية فى العام الثامن من حكمه، وحطم أسطول الغزاة أمام شواطئ الدلتا، كما توجه بجيشه وواجه الجيش البرى الكبير لشعوب البحر فى بلاد زاهى فى آسيا ومزق جيشهم وانتصر عليهم. وكان أهم نتائج هذا الانتصار هو إنقاذ مصر من خطر مؤكد لم يكن يقل عن الخطر الذى تعرضت له عند غزو الهكسوس. والملاحظة المهمة فى حروب العام الثامن من حكم رمسيس الثالث (١١٧٨ق.م) - والتى سوف نعتمد عليها كأحد الأدلة فى تحديد الفترة الزمنية لخروج بنى إسرائيل من مصر - هى ظهور شعب البلستى (الفلسطينيون) على مسرح التاريخ فى أول ظهور لهم ضمن تحالف شعوب البحر.

كما تسجل نصوص رمسيس الثالث حملة أخرى إلى آسيا فى العام الحادى عشر من حكمه. ونصوص هذه الحملة مبالغ فيها، ومما يشكك فى صحتها أن بعضاً من نصوصها منقول من الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وسجل فى قائمة البلاد التى فتحها أقواماً اختفت فى زمن سابق على حكمه.

وقد كانت حروب رمسيس الثالث سواء حملة العام الثامن أم حملة العام الحادى عشر هى آخر عهد لمصر فى آسيا، فلم تسجل نصوص مصرية بعد هذا التاريخ أى وجود لها فى مناطق مستعمراتها، وأصبح النفوذ المصرى فيها أثراً بعد عين، وقد كشفت الحفائر التى قام بها الأثريون فى «بيسان» بفلسطين وجود تمثال لرمسيس الثالث، مما يزكى استمرار السيادة على هذه المنطقة

حتى آخر عهد لحروبه فى فلسطين.

قضى رمسيس الثالث السنوات الباقية من حكمه فى هدوء وسلام، وانتهت حياته نتيجة مؤامرة دبرتها فى حريم القصر إحدى زوجاته الثانويات، ليعتلى ابنها عرش البلاد. لكن قبض على المتآمرين، ووصلتنا العديد من النسخ الأصلية من البرديات التى تحكى وقائع محاكمة المتآمرين.

حكم مصر بعد رمسيس الثالث الفراعنة الذين اتخذوا نفس الاسم إعجابا وتيمناً برائدهم رمسيس الثانى ابتداء من رمسيس الرابع حتى رمسيس الحادى عشر، واستمر حكمهم نحو ٨٠ عاماً، كانت جميعها أياماً سوداء فى تاريخ مصر، انتشرت فيها الأزمات الاقتصادية وأعمال السلب والنهب والسرقات واضطراب الأمور، وانتشرت الرشاوى بين رجال الدولة والكهنة. وتسجل الآثار المصرية مظاهر هذا الانحطاط فى كل مرافق الدولة، وبعد أن تقلص نفوذ مصر وزال سلطانها من سوريا وفلسطين فى النصف الثانى من حكم رمسيس الثالث، امتد الانهيار فى عهد خلفائه، وأخذ نفوذ مصر وسلطانها ينحصران تدريجياً داخل حدود الوادى، فكان رمسيس السادس آخر ملوك الدولة الحديثة الذين عثر على اسمهم مسجلاً فى سيناء، ثم جاء دور النوبة وكان رمسيس العاشر آخر ملك ثبت سيطرته على النوبة حتى «عنيبة» على أقل تقدير. ولا يمكن تفسير العثور على بعض الجعارين التى تحمل ألقاب رمسيس الرابع فى فلسطين، أو العثور على اسم رمسيس التاسع فى مدينة «جازر» فى فلسطين على أنه استمرار لنفوذ مصرى، وإنما هى من أعمال التبادل التجارى، أو أى وسيلة أخرى من وسائل الانتقال سواء تمت فى عصرهما أو فى أى عصر تال.

وفى نهاية هذا العصر كانت مدينة بى رعمسيس التى كانت زاهرة تعيش آخر أيامها قبل تفكيك أحجارها لتستخدم فى تشييد مدينة تانيس، على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الشمال، وبلغ عدد الكتل الحجرية التى سحبها البناءون من الكثرة إلى الحد الذى التبس الأمر على الأثريين فظنوا أن تانيس هى «بى رعمسيس» نفسها.

ثالثا: من الاضمحلال إلى سقوط الحضارة الفرعونية
الأسرات من الحادية والعشرين إلى الثلاثين (١٠٧٦ - ٣٣٢ق.م)

الاضمحلال والانقسام - الأسرات من الحادية والعشرين إلى نهاية الرابعة والعشرين (١٠٧٦ - ٧١٥ق.م)

بعد انتهاء عصر الرعامسة، ومع قيام الأسرة الواحدة والعشرين (١٠٧٦ - ٩٤٥ق.م) أدت حالة الضعف التى كانت عليها مصر إلى انقسامها إلى مملكتين، فقد تمكن الملك الذى ذكره مانيتون باسم «سمندس» من تتويج نفسه حاكماً على الوجه البحرى ومصر الوسطى، وكانت قاعدة ملكه فى «منف»، وعاصمته تانيس موطن أسرته فى شرق الدلتا، وتقع على بعد أميال قليلة شمال «بى رعمسيس» التى أخذت فى التدهور والانحطاط. واستمد هذا الملك ذو الأصول المجهولة شرعيته فى الحكم من زواجه من إحدى بنات رمسيس الحادى عشر. وفى الجنوب أعلن «حريحور» كبير كهنة آمون نفسه ملكاً للوجه القبلى فى العاصمة طيبة، لتقوم حكومة دينية تعتمد على الثراء القديم لكهنة آمون والسيادة الدينية، وفى ظل هذا الانقسام لم يكن من المنتظر أن تتحقق أى إنجازات، وأصيبت مصر بالركود التام فى ظل المملكتين، وزادت أعمال سلب ونهب المقابر وخرجت عن سيطرة الحكومتين، ومن الغريب أن الحكومتين ارتضيتا هذا الوضع من الانقسام، ويبدو أنه كان بينهما نوع من التفاهم، لذلك لم تحدث أى خلافات تذكر.

وفى العام (١٠٤٠ - ١٠٣٩ق.م) تحققت وحدة البلاد على يد الملك الثالث فى الأسرة الشمالية (بسوسينس الأول) وتوطدت روابطه بكهنة آمون، وأكد انتسابه إلى طيبة وزوج ابنته إلى كبير الكهنة «من خبر رع»، كما تولى هو نفسه وخلفاؤه من بعده منصب كبير كهنة آمون فى تانيس.

ومن أبرز شخصيات هذه الأسرة الملك «سى آمون» (٩٧٠ق.م) الذى اتفق مع كهنة آمون على جمع رفات الملوك ومن بينها رفات رمسيس الثانى وأخفوها داخل مقابر جماعية سرية تسهل حراستها.

ولم تصلنا أى وثائقّ مصرية عن السياسة الخارجية لملوك الأسرة ٢١، لذلك فإن مصدرنا الوحيد عنها الكتاب المقدس (التوراة)، ونستطيع أن نتبين من هذا المصدر عودة العلاقات المصرية الفلسطينية، لكن هذه المرة كان الوضع مختلفاً، إذ كانت توجد دولة إسرائيلية مستقلة عن السلطان المصرى، تؤكد الدراسات التاريخية تزامنها مع الأسرة ٢١ فى الفترة الممتدة من عهد الفرعون «بسوسينس الأول» حتى منتصف عهد الفرعون «سى آمون» والتى تبدأ بتحالف أسباط إسرائيل بزعامة داود عليه السلام وتكوين مملكة أورشليم بعد الصراع والمعارك ضد

البلستى (الفلسطينيين)، وتذكر التوراة فرار الأمير «حداد» وريث عرش مملكة آدوم إلى مصر وترحيب ملك مصر به (على الأرجح بسوسينس الأول) حتى عودته إلى مملكته بعد وفاة داود.

وعندما اعتلى الملك سليمان العرش خلفاً لوالده داود فإنه ارتبط بعلاقات طيبة مع البلاط المصرى وتزوج من أميرة مصرية (على الأرجح ابنة الفرعون سى آمون) الذى هاجم مدينة «جازر» جنوب فلسطين وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين وأعطاها هدية أو مهراً لابنته (سفر الملوك الأول: الإصحاح التاسع ـ الآية ١٦).

ويمكن أن يفسر النقش الذى عثر عليه فى تانيس مصوراً مشهد الملك «سى آمون» وهو يضرب الأعداء بفأس الحرب على أنه المقصود بقصة الكتاب المقدس.

الليبيون

اختتم «بسوسينس الثانى» قائمة ملوك الأسرة الحادية والعشرين فى تانيس، وعند وفاته (٩٤٥ق.م) انتقلت السلطة إلى الملك القوى «شاشانق الأول» مؤسساً الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ – ٧٧٣ق.م)، وهذه الأسرة ذات أصل ليبى فهى تنتمى إلى قبيلة «الماشواش» التى استقرت منذ زمن (مائة وخمسين عاماً تقريباً) فى إحدى واحات الصحراء الغربية، ثم نزحت إلى إهناسيا (قرب الفيوم) وعبدوا الآلهة المصرية ومارسوا عاداتهم وتكلموا اللغة المصرية، ووصل نفوذهم إلى «بوباستس» (تل بسطة فى محافظة الشرقية)، ومن هذا الموطن خرج شاشانق، وكان صاحب مال وجاه ونفوذ، وقبل أن يرتقى عرش البلاد كان قد أصبح القائد العام للقوات المسلحة ومستشار الملك بسوسينس الثانى، وتزوج ابنته «ماعت كارع» الوريثة الشرعية للعرش، فانتسب بذلك إلى الأسرة المالكة السابقة متبعاً فى هذا الصدد التقاليد الكهنوتية القديمة، وبفضل هذه المصاهرة ونفوذه الكبير لم يجد صعوبة فى الاستيلاء على السلطة. لكن كهنة آمون فى طيبة لم ينسوا الأصل الأجنبى لتلك الأسرة. وفى رفض قاطع للاعتراف بسلطانه، أصروا على الإشارة إليه باسم: كبير زعماء «الماشواش» وورد اسمه مجرداً من الألقاب الملكية، ثم حدث الصدام بينه وبين الكهنة، واضطرهم الملك إلى الفرار إلى السودان، واستقروا فى مدينة «نبتا» حتى أسسوا أسرة ملكية هناك.

أما شاشانق مؤسس الأسرة، فقد شرع فور اعتلائه العرش فى إعادة الوحدة إلى البلاد وتقوية مركزها. وبعد إخضاع طيبة لسيطرته أسند إلى ابنه «إيويوت» مناصب كبير كهنة آمون والقائد العام للقوات المسلحة وحاكم الوجه القبلى، وأسند المناصب الدينية والعسكرية والإدارية المهمة فى الدولة لأبنائه وأتباعه من زعماء القبائل المتحالفة.

ومن الأحداث المهمة فى دراستنا قيام شاشانق الأول بغزو سوريا وفلسطين فى العام

٩٢٥ق.م، قبل وفاته بسنة واحدة، وقد عاد من غزوته منتصراً ظافراً غانماً، فى صحوة غابت عن مصر منذ زمن طويل.

وتكمن أهمية هذا الحدث فى موضوع دراستنا عن حياة بنى إسرائيل فى مصر وقصة موسى وفرعون أنها تعتبر أول نقطة التقاء تحققت - حتى الآن - بين رواية الكتاب المقدس، ومصادر التاريخ المصرى. الأمر الذى سوف نعتمد عليه كنقطة ارتكاز مهمة فى تحديد النطاق الزمنى للبحث فى الفصول المقبلة.

وقبل هذه الحملة نعرف من التوراة أن سليمان عليه السلام حكم وقتاً طويلاً على عرش إسرائيل واستعان بفنانين ومهندسين مصريين فى بناء هيكله فى أورشليم، إلا أن هذه الصلة الطيبة لم تمنع شاشانق ملك مصر أن يرحب بعدو لسليمان هو يربعام من سبط أفرايم، الذى كان يرى نفسه أحق بمملكة إسرائيل، وظل الملك المصرى مستضيفاً يربعام طوال حياة الملك سليمان (الملوك الأول: الإصحاح ١١ ـ الآية ٤٠)، فلما مات عام ٩٣٠ق.م، عاد يربعام إلى أنصاره فى فلسطين وحدث صراع بينه وبين «رحبعام» بن سليمان، وبفضل تأييد مصر ومناصرتها ليربعام استطاع تأسيس مملكة إسرائيل من عشرة أسباط لبنى إسرائيل، وجعل عاصمتها السامرة، وانفصلت عن مملكة يهوذا التى تبعها سبطان وعلى رأسها رحبعام بن سليمان وعاصمتها أورشليم، وجمع فيها كل أموال داود وسليمان من الذهب والفضة والنفائس الأخرى. ولم يكن يعلم أنه يكدسها لصاحب النصيب فيها شاشانق لتكون المصائب التى أتت عليه جميعها من مصر.

وإذا كنا قد علمنا أخبار الحملة العسكرية لشاشانق الأول إلى فلسطين من رواية التوراة ومن المصادر التاريخية المصرية، إلا أن أيهما لم يكشف عن السبب الذى جعل ملك مصر يهاجم دولتى إسرائيل ويهوذا، فهل حدث ذلك لرواسب تاريخية أم أغراض توسعية ظلت مصر تنتهز الفرصة لتحقيقها، وحان وقتها نتيجة الصحوة التى تحققت فى عهد هذا الملك، وبعد أن وطد سلطته واستطاع توحيد البلاد وتخلص من نفوذ كهنة آمون، ألقى بنظره نحو الشرق لاستعادة مجد مصر؟ وهل يعنى قيامه بتلك الحملة أن مظاهر الود والصداقة واستضافته ليربعام ثم تأييده ومناصرته فى تكوين مملكة إسرائيل لم تكن سوى تخطيط سياسى مرحلى لإخفاء نياته الحقيقية، حتى يتمكن من تحقيق أطماعه المستقبلة؟ هل كان هو المدبر والمخطط لتقسيم المملكتين يهوذا وإسرائيل لتشتيت قواهما وإضعافهما ونهب أموالهما؟

أعتقد جازماً أن هذا الملك ذا الأصول الليبية لم يكن يهدف إلى استعادة نفوذ مصر، ولا فرض سيطرتها على تلك المناطق، أو استرداد مملكتها البائدة، ولا استعادة أمجاد الأجداد فى سوريا وفلسطين، وإنما كانت حملته إحدى غزوات السلب والنهب التى ورثها عن أجداده من

قبيلة الماشواش التى ينتمى إليها، يؤكد ذلك أنه عاد دون أن يحرص على توطيد دعائم انتصاره أو بسط نفوذه، ولم يترك حاميات مثلما فعل الملوك الفاتحون من الأسرة الثامنة عشرة. وإنما اكتفى من انتصاره بسلب الغنائم وتكديس الأموال.

- انطلق شاشانق من غزة متوغلاً فى أعماق صحراء النقب لتسقط بين يديه النقاط المحصنة فى يهوذا ويستولى على أورشليم - وتذكر التوراة «أنه فى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شىء وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان» (سفر الملوك الأول: الإصحاح الرابع عشر الآيتان ٢٥، ٢٦) ونعرف من سفر أخبار الأيام الثانى الإصحاح التاسع أن وزن الذهب الذى جاء سليمان فى سنة واحدة بلغ ستمائة وستاً وستين وزنة ذهباً، فضلاً عن الذهب والفضة اللذين جاءا من الملوك والولاة والتجار، وأن عدد التروس التى صنعها سليمان بلغت مائتى ترس من ذهب مطرق. خص الترس الواحد ستمائة شاقل من الذهب المطرق، وثلاثمائة مجن من ذهب مطرق، خص المجن الواحد ثلاثمائة شاقل من الذهب وعمل كرسياً عظيماً من عاج وغشاه بذهب خالص، وله درجات وموطئ من ذهب، وجميع أوانى شرب الملك من الذهب. فكانت كل هذه الثروات من غنائم شاشانق.

وبعد أورشليم توجه شاشانق إلى مملكة إسرائيل فاضطر يربعام - حليفه السابق - إلى الفرار إلى الأردن بعد أن أدرك الهدف من سياسة شاشانق معه عندما ظلله بحمايته، ولكن بعد فوات الأوان، وواصلت القوة العسكرية المصرية تقدمها حتى «بيت شان» (بيسان) وتوقف زحف المصريين عند «مجدو»، حيث أقام شاشانق لوحاً تذكارياً، ثم عبر جبل الكرمل متجهاً إلى الجنوب وعاد إلى غزة عن طريق عسقلان.

وبعد عودة شاشانق من حملته المظفرة، استغل الثروة العظيمة التى حصل عليها فى إقامة مبان كثيرة؛ أهمها قاعته العظيمة فى معبد أمون رع بالكرنك والصرح العظيم الذى بناه أمام هذه القاعة، ويعد أعظم صرح فى مصر على الإطلاق. وعلى سطح الجدار الخارجى للبوابة الواقعة جنوبى الفناء أمام الصرح، صور انتصاراته فى فلسطين.

كما أشار أيضاً إلى هذا النصر على «لوح النصر» الذى أقامه فى بهو الاحتفالات على مقربة من حوليات تحوتمس الثالث. ولم يمهله القدر لكى ينقش جدار الصرح الذى بناه أمام قاعته العظيمة فى الكرنك.

هذه المصادر المصرية حفظت لنا الكثير عن حملة شاشانق الذى ظهر فى منظر فوق رؤوس الأسرى الذين يمثلون أهالى مائة وست وخمسين مدينة فى فلسطين، والتى تقع على الحدود الجنوبية لأرض يهوذا وشمال الجليل، ومن بينها نجد أسماء مدن عديدة معروفة فى الكتاب المقدس. ومن بين هذه الأسماء «حقل إبراهيم» ويمثل أول ذكر تاريخى لإبراهيم عليه

السلام، ويلاحظ فى قوائمه مناطق أدوم ويهوذا، ويقوم الملك فى هذه المناظر بتقديم الأسرى إلى آمون.

وما زالت أعمدة «بوابة باستت» التى أقامها شاشانق بالكرنك تحمل آثار ثقوب المسامير التى كانت تستخدم لتثبيت صفائح الذهب أو الفضة فى الأحجار.

وتأكيداً لرواية التوراة، فقد ترك «أوسركون الأول» الذى حكم بعد والده شاشانق قائمة بالهبات الضخمة التى خصصها للكهنة خلال السنوات الأولى من حكمه، وتتكون فى معظمها من أوان وكئوس من الذهب أو الفضة بآلاف الأوزان، من التى استولى عليها والده من معبد سليمان بالقدس.

ولم تستمر الصحوة المصرية كثيراً، فلم يكن لدى خلفاء شاشانق شيئاً من حزمه أو حكمته، فتدهورت الأحوال وحان وقت الاضمحلال.

ومن أهم نتائج التمزق والانحدار - التى تجدر الإشارة إليها - فى هذه الفترة اندلاع الحرب الأهلية بشراسة فى العام الخامس من حكم تكلوت الثانى (٨٥٠ - ٨٢٥ق.م) سادس ملوك الأسرة ٢٢، المسجلة فى حوليات «أوسركون الثالث» بالكرنك، وتذكرنا بأحلك أيام عصر الانتقال الأول، واستمر هذا النزاع نحو عشر سنوات، دون سبب واضح، وانتهى بعقد مصالحة فى طيبة. لم تكن سوى مجرد هدنة، فبعد أقل من سنتين استأنف أهل طيبة كفاحهم. وفقد ملوك تلك الأسرة السيطرة على الوجه القبلى.

ومع ازدياد مظاهر الفوضى والاضطراب، قامت الأسرة الثالثة والعشرين قبل أن تنتهى الأسرة الثانية والعشرون، وكانتا متعاصرتين، ولم يكن الشقاق هذه المرة مصدره طيبة، وإنما البيت المالك ذاته، فقد قام الأمير «بدى باست» فى العام الثامن من حكم الملك شاشانق الثالث (٨١٨ق.م) ونصب نفسه ملكاً، وأسس الأسرة الجديدة فى «ليونتوبوليس» بشرق الدلتا، لتنقسم الدلتا، واعترف كهنة آمون فى طيبة بالفرعون الجديد.

وكان مواكباً لهذا الاضمحلال بزوغ نجم دولة آشور القوية فى الأفق السورى، ووجدت مصر نفسها مضطرة لاعتبارات تاريخها وموقعها وإمكاناتها الاقتصادية، أن تخوض الصراع ضد الغزاة الأقوياء، الذين كانت عيونهم على مصر يسعون إلى احتلالها إما طمعاً فى رخائها وخيراتها أو إشباعاً لطموحاتهم السياسية، أو لأسباب تتعلق بموازين القوى العالمية والسيطرة على مقادير الشرق، وقد تهيأت أطماعهم وسمحت لهم بمد نظرهم ناحية مصر -سيدة الشرق وحاضرة العالم القديم - بعد أن قدرت الظروف لها فى هذه المرحلة أن تصبح مجرد دولة عادية على خريطة العالم، منهكة بالانقسامات الداخلية فى وسط المجتمع الدولى الذى يموج بصراع الحضارات، والمتغيرات الدولية غير المستقرة وتحكمه موازين القوة.

وقد حتمت الظروف على مصر بعد أن فقدت قدرتها العسكرية والهجومية أن تغير

سياساتها الخارجية وإستراتيجيتها الدفاعية مرة أخرى، فبعد أن كان الموقف قد فرض عليها سابقاً فى حروب الملك مرنبتاح ثم رمسيس الثالث أن تغير سياستها من الهجوم إلى الدفاع ومن المبادرة إلى المحاذرة، نجدها فى هذه المرحلة تعتمد سياسة جديدة تقوم على عقد التحالفات، ومساندة قوتها بقوى خارجية أخرى، بدأتها بالتحالف مع الممالك السورية والفلسطينية، لتشكل جميعها قوة تحمى مصر من أطماع آشور، وسوف نلاحظ فى المرحلة التاريخية المقبلة أن سياسة التحالفات واستمداد المساندة والعون من القوى الخارجية - بالإضافة إلى تجنيد المرتزقة - أصبحت إستراتيجية حتَّمتها على مصر عوامل الضعف والاضمحلال.

وبذلك انتقلت مصر إلى مرحلة تاريخية أسوأ من السابقة، وإن لم تكن الأسوأ على الإطلاق، إلا أنها كانت قد أخذت طريقها فى الانحدار السريع إليها.

وقبل نهاية الأسرتين المتعاصرتين ظهرت فى الشمال فى الدلتا أسرات محلية صغيرة، وأصبح فى مصر كثير من الفراعنة، وحدث التمزق والانهيار. وكان أحد أهم هؤلاء أمير مدينة سايس (صا الحجر) فى غرب الدلتا ويسمى «تف نخت» من أصل ليبى، الذى أسس الأسرة الرابعة والعشرين، وفى محاولة لإعادة وحدة البلاد تمكن من إخضاع غرب الدلتا ونصف مناطق وسط الدلتا لسلطانه، ثم انضمت إليه عدة ممالك فى وحدة ظاهرية، وأصبحت قوات الدلتا تحت قيادته، وعندما سار إلى الجنوب اصطدم بالملك «بعنخى» سليل الكهنة الذين كانوا قد رفضوا الاعتراف بشاشانق وفروا إلى نباتا فى السودان (منذ نحو مائتى عام)، وكان بعنخى قادماً بدوره لتخليص مصر من التمزق والفوضى الليبية، وانتهى الصراع بانتصار جيش الجنوب (عام ٧٤٧ق.م). وأسس بعنخى الأسرة الخامسة والعشرين، وسرد معاركه فى المرسوم الذى سجله على سطح لوح شامخ فى معبد آمون بجبل البركل، يؤكد فيه سلطته على الوجهين القبلى والبحرى، وأنه الفرعون المصرى الحاكم دون منازع.

الأسرتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون (٧١٥ - ٥٢٥ق.م)

الغزو الآشورى

فى سياسة غريبة لبعنخى بعد أن نجح فى فرض سيطرته الشاملة والتامة على مصر - إذا صحت رواية لوح النصر - فقد قرر العودة إلى نباتا وأن يحكم من خلال التقسيم السياسى للبلاد، وحدد الخطوط العريضة لسياسته على سطح لوح آخر عثر عليه أيضاً فى جبل البركل، لذلك لم يفقد «تف نخت» سلطته فى مناطق غرب الدلتا، بل امتدت حتى منف. واستمر حكمه ثمانى سنوات، وخلفه ابنه «باك إن رنف» أو «بكوريس» - طبقاً لمانيتون -

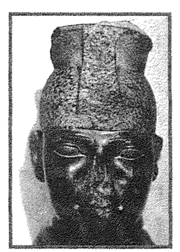
وفرض سلطته على شمال البلاد بأسرها (٧٢٠ - ٧١٥ق.م).

وفى عام ٧١٦ق.م، توفى بعنخى بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة، ودفن فى نباتا، واعتلى أخوه «شباكا» عرش البلاد. وقرر أن يباشر شئون الحكم من العاصمة القديمة، فوصل إلى منف عام ٧١٥، أى فى السنة الثانية من حكمه وأنهى حكم «باك إن رنف» وفرض سيطرته الكاملة على الشمال.

ومع قيام هذه الأسرة كانت آشور قد أحكمت سيطرتها على دول الشرق، فضمت إليها سوريا وفينيقيا، واستولت على السامرة عاصمة إسرائيل فى العام (٧٢٢/٧٢١ق.م) فى عهد ملكها شالمناصر الخامس. ودفعت لها الجزية شعوب أخرى من بينها العرب الذين ظهروا لأول مرة على مسرح التاريخ. ثم أخذ الخطر الآشورى يقترب من مصر. فهاجموا الأردن فى العام ٧١٦ق.م، ووصلوا إلى الحدود المصرية.

واتخذ شباكا موقفاً حيادياً، وربما يكون قد توصل إلى اتفاق دبلوماسى مع آشور.

لكن خلفاءه فى عدم تقدير لميزان القوة، واتباعاً لسياسة الاشتراك فى تحالفات لمواجهة الأخطار الخارجية، تحالفوا مع الفلسطينيين ومملكة يهوذا للتصدى للتهديد الآشورى، وانتهز «شبتاكا» بن بعنخى الذى حكم بعد شباكا انشغال آشور فى معارك ضد مملكة «أورارتو» (أرمينيا) فى وسط جبال زاجروس، واستجاب لطلب المساعدة الذى تقدم به «حزقيا» ملك يهوذا، وأرسل له حملة عسكرية بقيادة أخيه «طهرقا»، لكن «سنحريب» ملك آشور ضرب حصاره حول أورشليم، فاستسلم حزقيا، ونرى صورة مصر فى تلك الفترة فى الخطاب الذى وجهه سنحريب إلى حزقيا طالباً استسلامه، يقول فيه: «والآن على من اتكلت حتى عصيت على. فالآن هوذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة، على مصر التى إذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفة وثقبتها، هكذا هو فرعون مصر لجميع المتكلين عليه» (الملوك الثانى: الإصحاح ١٨ ـ الآيات ١٩:٢١).



الملك طهرقا بن بعنخى
ملامح نوبية

وعندما سار سنحريب لمهاجمة جيش مصر، تفشى وباء الطاعون فى الجيش الآشورى، فعاد سنحريب بفلول الجيش إلى بلاده تاركاً أورشليم. ومات بعد ذلك مقتولاً بيد أبنائه، وخلفه ابنه «أسرحدون»، ولم يكن من بين المتآمرين فانتقم لوالده، وبعد أن حل مشاكله الداخلية، ووطد دعائم ملكه مع جيرانه، تفرغ لمصر وجاء إليها غازياً فى عهد الملك «طهرقا» الذى تولى الحكم بعد وفاة شبتاكا عام (٦٩٠ق.م)، ودخل أسرحدون عن طريق وادى الطميلات، بمساعدة بدو صحراء سيناء، ووصل إلى منف واستولى عليها، وأسر ولى العهد والعديد من أفراد البيت المالك.

وانسحب طهرقا إلى الجنوب، ولم يتعد حكم الآشوريين حدود الدلتا، واعترف حكام الأقاليم بسيادة ملك آشور ودفعوا له الجزية. لكن بعد سنوات قليلة من عودة الغزاة تمكن طهرقا من استرداد ملكه. فاستولى على منف، وهزم الحامية الآشورية، وعندما جاء أسرحدون بجيشه لإخضاع مصر مات فى الطريق فرجع الجيش إلى بلاده.

بعد وفاة «أسرحدون» انقسمت مملكته. وخلفه على عرش مملكة نينوى ابنه «آشوربانيبال» وعلى عرش بابل ابنه الثانى «شمش شوم أوكين»، وقام آشوربانيبال بغزو مصر بقسوة، واعتقل وأعدم زعماء سايس ومنديس وبلوزيوم، وأسر البعض الآخر إلى نينوى حيث انتظرهم ذات المصير، وأبقى على حياة «نكاو الأول» ملك سايس فثبته فى مملكته، وأقام ابنه «بسماتيك الأول» حاكماً لإقليم أتريب. أما طهرقا فقد استطاع الفرار إلى موطن أسرته الأصلى فى نباتا بالنوبة.

وبعد وفاة طهرقا حاول ابن عمه «تانوت آمون» الذى خلفه على عرش نباتا أن يسترد حكم مصر، فقام بحملة وصلت إلى طيبة، ثم سار فى النهر إلى منف فاستولى عليها، وقتل نكاو الأول أثناء المعارك، لكن مرة أخرى أرسل آشور بانيبال جيشه إلى مصر عام (٦٦٤/٦٦٣ق.م،) وأعاد الاستيلاء على منف، واضطر تانوت آمون إلى الانسحاب إلى طيبة، وطارده الغزاة ففر هارباً إلى نباتا فى الجنوب.

ودخل الآشوريون طيبة واجتاحوها اجتياحاً، وتعرضت عاصمة الإمبراطورية القديمة ومعقل آمون إله الدولة الأكبر للسلب والنهب والحرق بصورة لم يسبق لها مثيل، وعاث فيها الغزاة فساداً، وسطوا على الكنوز التى تراكمت فى المعابد على امتداد قرون طويلة، و انهارت أسطورة حرمة معابد فرعون تحت ضربات معاول الآشوريين الذين بثوا الرعب على ضفاف وادى النيل، وكانوا أول غزو أجنبى لمصر بعد ألف سنة من غزو الهكسوس، وأول غزو يصل إلى طيبة فى جنوب مصر.

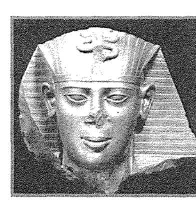
عهد الآشوريون إلى بسماتيك الأول (سليل تف نخت مؤسسة الأسرة ٢٤) بإدارة البلاد عام ٦٦٤ق.م، بصفته الملك الوحيد بشرط أن يحول دون حدوث ثورات داخلية. فأسس الأسرة السادسة والعشرين، وحكم من العاصمة منف، ولم تتم له السيطرة التامة على الشمال إلا فى العام الثامن من حكمه (٦٥٧ق.م) ثم اعترفت به طيبة فى العام التالى. وعادت الوحدة للبلاد.

ومن الغريب أن بسماتيك الأول الذى كان يدين بعرشه للآشوريين وتعتمد قواته على المرتزقة الأجانب، وأهمهم الإغريق الذين اختارهم ليصبحوا صفوة قواته، اشتهر كبطل قومى وموحد للبلاد، وقد دام حكمه أربعاً وخمسين سنة. وأقام العديد من الحاميات عند الحدود الغربية والشرقية وفى الجنوب، وكانت قوات هذه الحاميات تضم المرتزقة النوبيين والليبيين والفينيقيين والسوريين، وفتح الباب أمام إنشاء مستعمرات للإغريق والكاريين بل اليهود الذين

قذفت بهم الفتوحات الآشورية إلى مصر، وأسسوا فى إلفنتين (فى أسوان) مستعمرة ذات شأن، وفى عهده انفتحت مصر على العالم الخارجى والمؤثرات الخارجية فى مختلف المجالات.

وقبل أن ينتهى حكم بسماتيك الأول، كانت الإمبراطورية الآشورية قد دخلت مرحلة صراع على السلطة وانقسامات داخلية، ثم جاءت وفاة آشور بانيبال إيذانا ببدء الانهيار، ولم تحل المساعدة التى قدمتها مصر دون هزيمة الآشوريين واقتسام مملكتها بين البابليين والفرس وسقطت نينوى العاصمة عام ٦١٢ق.م، ومات بسماتيك الأول عام ٦١٠ق.م، واستفاد خليفته نخاو الثانى من الفراغ الذى خلفه اختفاء الآشوريين فى سوريا وفلسطين، فاستولى على فلسطين وهزم «يوشيا» ملك يهوذا فى مجدو وقتله، وخلفه ابنه «يهو أخاز» وبعد ثلاثة أشهر عزله نخاو، وتمكن جنوده من أسره، وبعثوا به إلى مصر، وعين مكانه أخوه «يهواقيم» الذى قبل الخضوع، ودفعت أورشليم الجزية لمصر، كما خضعت سوريا لمصر لمدة أربع سنوات.

وبلغت الإمبراطورية البابلية ذروة مجدها فى عهد «نبوخذ نصر الثانى» وفى عهده سقطت مملكة أورشليم عام ٥٨٧ق.م، وانتقم منهم نبوخذ نصر الثانى انتقاماً عنيفاً. وقد حاول المصريون فى عهد الملك «واح أب رع» (إبريس) أن يقدموا يد العون لأورشليم، لكن جيشه انهزم.


الملك أحمس الثانى «أمازيس»

ودخلت مصر حالة جديدة من الاضطرابات الداخلية، ووقعت بين المرتزقة الإغريق وبين المصريين مصادمات عنيفة انقلبت إلى حرب أهلية بين القوات الوطنية وبين المرتزقة الإغريق والكاريين، ونصب المصريون أحمس الثانى ملكاً على مصر فى عام ٥٧٠ق.م، وقد دارت حرب بينه وبين إبريس الذى كان يسانده جنود المرتزقة، ولقى الأخير حتفه أثناء المعركة، ونقل أحمس الثانى رفاته إلى سايس ودفنه، وانتهز نبوخذ نصر هذه الاضطرابات وحاول أن يغزو مصر عام ٥٦٨ق.م، لكن أحمس استطاع أن يوقف تقدمه، وعقد معه معاهدة سلام.

حكم أحمس الثانى (أمازيس) نحو ٤٣ عاماً، وكان دمث الخلق، مرحاً، ذا لباقة ويحسن مقابلة الناس، ويحب مجالس الأصدقاء، ترك سيرة عطرة، وتحدث عنه هيرودوت كثيراً، ومكنته تلك الصفات من أن يكسب حب المصريين ويهدئ ثورتهم ضد اليونانيين، وأرضى شعور الوطنيين من رجال الجيش بأن أحلهم محل اليونانيين فى الحاميات التى على الحدود وحل مشاكل التجار المصريين، وفى الوقت ذاته أرضى اليونانيين بفضل سياسته بإلغاء العديد من مراكز تجمع الأجانب المنتشرة فى شمال البلاد، وجمعهم فى مدينة «نوقراتيس» (قريبة من الإسكندرية الحالية)، فأحالوها إلى مدينة يونانية، وأقاموا فيها معابدهم وأسواقهم، وقد

أصبحت سريعاً مركزا اقتصادياً وتجارياً مهماً، وازدهرت هذه المنطقة واتسعت وأسهمت فى رخاء البلاد. كما حقق أحمس انتصاراً عسكرياً على جزيرة قبرص. واستخدم أسطوله فى التجارة مع دول البحر المتوسط، واستطاع اكتساب الحلفاء للتصدى لقوة الفرس المتعاظمة. لكن هذا الاستقرار والازدهار الاقتصادى الذى حققه أحمس الثانى خلال فترة حكمه لم يحل دون وقوع القدر المحتوم، فقد أصبح الفرس فى عهد ملكهم قورش سادة آسيا الصغرى، وأخذوا طريقهم لإعادة تأسيس إمبراطورية أقوى وأعظم من تلك التى أسسها الآشوريون قبلهم.

وتوفى أحمس الثانى فى عام ٥٢٦ق.م، وخلفه بسماتيك الثالث. وكان قمبيز الثانى بن قورش قد ارتقى عرش الفرس، وزحف على مصر فى جيش كبير عام ٥٢٥ق.م، وعاونه أحد القادة اليونانيين الخائنين من جيش أحمس فى رسم الخطة ودله على مواطن الضعف فى استحكامات البلاد، وسحق جيش الغزاة جيش المصريين والمرتزقة اليونانيين عند بلوزيوم شرق مصر. وارتد الملك بسماتيك الثالث مع فلول من تبقى من قوات إلى منف التى كانت آخر قلاع المقاومة قبل أن تسقط. وعبثاً حاول الملك المقاومة وإثارة الشعور ضد الغزاة حتى وقع فى الأسر، وأرسل إلى سوسة عاصمة الفرس مكبلاً بالأغلال. وانتهت تلك الأسرة، وخضعت مصر لحكم الفرس.

سقوط الحضارة الفرعونية - الأسرات من السابعة والعشرين حتى الثلاثين (٥٢٥ - ٣٣٢ق.م)

الاحتلال الفارسى

حوَّل الفرس مصر إلى ولاية فارسية، واعتبر أباطرة الفرس أنفسهم فراعنة، وعاونهم فى مصر أفراد الجالية اليهودية فى إلفنتين، فقد استقبلتهم استقبالاً حاراً، كما رحبت بهم شريحة من المجتمع من بعض العناصر الأرستقراطية المصرية الذين كان كل حرصهم هو حماية مصالحهم الخاصة، فأصبحوا على أتم استعداد لمعاونة الغزاة فى إدارة البلاد، فظهروا إلى جانب المحتلين، وعملوا لحسابهم لخداع الشعب بأن الإدارة ما زالت وطنية فى ظل وهم كان يغذيه ثبات بعض المظاهر الاجتماعية، وأبرز مثال على هؤلاء الموظفين الكبار نذكر «أوجا - حر - رسنت) كاهن سايس، والطبيب وقائد الأسطول فى عهد كل من أحمس الثانى وبسماتيك الثالث، الذى لم يخجل وهو يدوِّن على تمثاله (المحفوظ الآن بمتحف الفاتيكان) كيف عاون قمبيز فى مصر ومكنه من الظهور بمظهر فرعون مصر يقول:

«وصل إلى مصر قمبيز ملك سائر البلاد الأجنبية، ووقف إلى جانبه جميع الأجانب فى سائر البلاد الأجنبية، وعندما استولى على أرض مصر نزلوا بها، وأصبح ملكاً عظيماً وملكاً على سائر البلاد الأجنبية، وعيننى صاحب الجلالة فى منصب كبير الأطباء، وسمح لى جلالته

بالإقامة إلى جانبه كرفيق وصديق، وأناط بى مسئولية الإشراف على القصر واختيار ألقابه وعلى الأخص اسمه كملك الوجهين القبلى والبحرى».

وإذا كان تمثال كاهن سايس قد حفظ مسلكه المشين مع الفرس، فإن الظواهر تؤكد أن هذا المسلك قد انتهجه موظفون كبار آخرون غيره من هؤلاء الذين اختفت لديهم جذوة الشعور الوطنى بسبب عوامل كثيرة ساعدت عليها.

ويذكر هيرودوت الإغريقى الذى زار مصر فترة الاحتلال الفارسى (بعد بداية دخولهم بحوالى خمسة وسبعين عاماً) أن سلوك قمبيز كان شديد الهمجية وغاية فى الوحشية، ويجدر بالذكر أن هيرودوت كان يعتمد على ما يسمعه من روايات الكهنة فى المعابد، أو ينقل جوهر الدعاية الوطنية المتداولة لدى الشعب.

ومن هيرودوت ومصادر أخرى نعرف أن قمبيز بعد أن استولى على طيبة أعد جيشين: قاد أولهما بنفسه للاستيلاء على النوبة، وبلاد كوش (موطن الذهب)، وأرسل الآخر للاستيلاء على الواحات. وعندما وصل الجيش الأول إلى «مروى» أصيب بهزيمة كبيرة على يد ملوك «نباتا» الذين التقوا بهذا الجيش بعد أن كان التعب والجوع والخوف قد نالوا منه. أما الجيش الثانى فقد هلك بأكمله، وهم فى الطريق إلى واحة سيوة، ودفن تحت رمال الصحراء الغربية. ويذكر هيرودوت أن كهنة آمون فى سيوة قالوا له: إنه حدث فى اليوم الرابع بعد أن ترك الجيش واحة الخارجة أن قامت زوبعة رملية شديدة ردمتهم تحتها.

وقد استمر الاحتلال الفارسى على يد خلفاء قمبيز، ونعرف من حوليات ذلك الموظف الخائن كاهن سايس أن «دارا بن قمبيز» قد اعتمد عليه واستدعاه إلى فارس (وربما يكون قد أجبر على الفرار - بعض الوقت - بسبب ثورة الشعب أو بعض الوطنيين ضده) ويذكر أنه أشار على الملك بعدة أشياء أمر بتنفيذها، يقول:

«أمرنى صاحب الجلالة داريوس (النطق اليونانى لاسمه) ملك الوجهين القبلى والبحرى - فليحيا إلى الأبد - بالعودة إلى مصر لإعادة مؤسسة بيت الحياة (...) إلى سابق عهدها بعد أن ضربت. وكان صاحب الجلالة فى غضون ذلك فى عيلام. وهو الملك الأعظم على البلدان الأجنبية والعاهل الكبير على مصر وكان البرابرة قد نقلونى من بلد ليحطوا بى فى بلد آخر. وانتهى بى آخر المطاف إلى مصر كما أمر به سيد القطرين. ونفذت كل ما أمرنى به صاحب الجلالة، ودبرت ما يلزم بيت الحياة من طلبة وكلهم أبناء علية القوم. ولم يكن من بينهم أحد من أبناء عامة الناس. ووضعتهم تحت إشراف العلماء».

ونلاحظ فى حديثه حنقه المتعمد على عامة الناس، الذى يستدل منه على كراهية متبادلة بينه وبين طائفة من الشعب تمثل الشعور الوطنى وترفض مسلكه المتعاون مع المحتلين.

ومرة أخرى تتدخل السياسة الخارجية لتغير مصير وادى النيل، فقد هزم الإغريق الفرس

فى معركة (ماراثون) عام ٤٩٠ق.م، مما شجع المصريين على الثورة العاتية، وكان اليهود فى إلفنتين وغيرها من المدن المصرية يعاونون الفرس ضد نضال المصريين، ولم تهدأ الأمور حتى أصبحت الثورة عامة واتخذت شكل حرب مستمرة انتهت بتحرير مصر.

الاستقلال المؤقت

كان قائد الثورة هو (أميرتايوس) الذى أصبح ملكاً على البلاد بعد طرد الفرس. وهو المؤسس والملك الوحيد للأسرة الثامنة والعشرين (٤٠٤ - ٣٩٨ق.م)، وكان مقرها مدينة سايس (صا الحجر)، وقد اعترفت مصر كلها بسيادته، وكان أفراد الطائفة اليهودية فى إلفنتين هم آخر من اعترف به، ورفق المصريون بهم وتركوهم يعيشون حيث كانوا، رغم عدائهم للثورة ومساندتهم للفرس.

ثم انتقل الحكم فى مصر إلى الأسرة التاسعة والعشرين التى حكمت عشرين عاماً (٣٩٨-٣٧٨ق.م) من مدينة مندس (تمى الأمديد)، ومؤسسها «نفرتيس الأول»، وربما كان أحد القادة العسكريين من زملاء أميرتايوس فى حرب التحرير، وقد تحالف مع الإسبرطيين ضد الفرس.

الأسرة الأخيرة

انتهت الأسرة التاسعة والعشرون باستيلاء «نخت نبف» (نختنبو الأول) على الحكم، فى الغالب أنه أمير ينتسب إلى فرع ثانوى من البيت المالك، وأسس الأسرة الثلاثين فى سبنيتوس (سمنود حالياً)، وبعد أن تمكن من بسط سيطرته على طول البلاد، كان عليه أن يواجه خطر الفرس الذين رفضوا أن يتعاملوا مع مصر كدولة ذات سيادة، واعتبروها ولاية متمردة، وفى عام ٣٧٣ق.م، وجدت مصر نفسها أمام غزو فارسى جديد قوامه أكثر من مائتى ألف مقاتل تمكنوا من اختراق الحصون والحاميات الشمالية، ولم ينقذ البلاد من هذا الخطر إلا فيضان النهر الذى حول أراضى الدلتا إلى مستنقعات شاسعة، فأجبر هذا الجيش على التقهقر والعودة إلى آسيا.

ونعمت مصر بالهدوء عدة سنوات ظهرت آثاره فى النشاط المعمارى الذى شمل أنحاء البلاد. وقبل انتهاء سنوات حكم «نختنبو الأول» أشرك معه فى الحكم ابنه «جد حر»، الذى يبدو أنه كان طموحاً وذا نظر بعيد، ويدرك الخطر الذى يهدد مصر، ذلك أنه ما إن انفرد بالحكم عام ٣٦٢ق.م، حتى بدأ من فوره يعد العدة، ويأخذ استعداداته لمواجهة الفرس، فعاون الولايات السورية الثائرة ضد الحكم الفارسى، وقام بحملة عسكرية إلى سوريا وفلسطين بمساعدة اثنين من المحاربين القدماء الإسبرطيين. واستعداداً للحرب اتخذ تدابير صارمة لجمع الضرائب، وألغى امتيازات كهنة سايس الأثرياء، واستولى على جميع ما فى المعابد من

معادن نفيسة ليصك منها عملة لدفع رواتب الجنود المرتزقة الإغريق، وأعد جيشاً ضخماً، وأسطولاً قوياً يزيد على مائتى سفينة كبيرة. وترك أخاه «جاهيبيمو» نائباً عنه فى حكم مصر، وسار بجيشه عام ٣٦٠ق.م، إلى آسيا قاصداً مهاجمة الفرس، واثقاً من النصر، عاقداً العزم على تأمين مصر واستعادة ممتلكاتها فى فلسطين وسوريا، واصطحب معه ابن أخيه (الذى عرف فيما بعد بالملك نختنبو الثانى) وعهد إليه بقيادة المرتزقة من الجيش، وكادت الحملة أن تنجح، وتعود لمصر قوتها وسيادتها القديمة بين دول الشرق لولا تآمر أخيه (جاهيبيمو) الذى استغل الاستياء العام الذى عم البلاد نتيجة فرض الضرائب، وأعلن ابنه نختنبو ملكاً وأرسل إليه سراً وهو مع الجيش يطلب منه العودة، فعاد الأمير الشاب ومعه الجنود المرتزقة، وجزء كبير من الجنود المصريين الذين تحول ولاؤهم إليه فى الحال. وفشلت آخر محاولة غزو يقوم بها فرعون مصرى فى تاريخها القديم، ولم يصمد الملك «جد حر» أمام هذه الخيانة فكان وقعها ثقيلاً عليه، واتخذ قراراً غريباً بأن يلتجىء إلى ملك الفرس.

فى بداية حكم نختنبو الثانى استطاع بمساعدة الإسبرطيين أن يجهض تمرداً قام به أحد سلالة الأسرة التاسعة والعشرين. ودام حكمه ثمانية عشر عاماً. شيد ورمم الكثير من المعابد وقام بإنجازات معمارية كبيرة.

لكن الذى لم يدركه الفرعون الأخير أن الإمبراطورية الفارسية كانت تتطور تطوراً سريعاً، واستطاعت أن تفرض سيطرتها من جديد على آسيا الصغرى، ولم يعد ينقصها سوى إعادة فتح مصر التى كانت آثار حملتها الأولى الفاشلة ما زالت ماثلة فى الأذهان. وعندما واتت نختنبو الثانى فرصة أخيرة ليكفر عن خطيئته بأن يتزعم اتحاداً مكوناً من تحالف الأقاليم الثائرة ضد الفرس، فلم يفعل واكتفى بإمداد صيدا بأربعة آلاف من المرتزقة الإغريق، وانطلقت قوات الملك الفارسى «أرتاكسركسيس الثالث»، ورغم استبسال أهالى صيدا فإن الفرس تمكنوا من دخولها وتخريبها، وبلغ عدد الضحايا أربعين ألف قتيل، مما دفع المدن الفينيقية الأخرى إلى الاستسلام.

وزحف الفرس على مصر فى فصل الخريف لتجنب الفيضان، فى جيش ضخم يزيد على ثلاثمائة ألف جندى وأسطول من ثلاثمائة سفينة، وتوزع الجيش الفارسى فى عدد من الفرق هاجمت المدن المصرية من البر والبحر، وكانوا على دراية تامة بالتحصينات والطرق، ولقى نختنبو الثانى - الذى لم يكن مستعداً للمواجهة - الجزاء الرادع لخيانته، ولم تصمد قواته المائة ألف (كان منهم أربعون ألفا من المرتزقة الإغريق والليبيين)، وانهزم أمام جيش الغزاة، واضطر الملك إلى التقهقر من بلوزيوم والدلتا، والانسحاب إلى منف، وهناك أيقن بعدم جدوى المقاومة وفر هارباً صوب الجنوب فى عام ٣٤٣ق.م، واضعاً نهاية الحضارة الفرعونية. وقد وصلتنا وثيقة من إدفو مؤرخة بالعام الثامن عشر من حكمه، مما يدل على أنه تمكن من

الإفلات لمدة عامين ظل خلالها ملكاً فى المنفى لاجئاً لدى أمراء النوبة السفلى.

كان نختنبو الثانى آخر ملوك مصر فى حضارتها الفرعونية، صنع ووضع نهاية استقلالها، لتفقد إرادتها الحرة ويرتبط مصيرها من الآن فصاعداً بمصير المحتل، ولم تستطع المقاومة الوطنية التى استمرت نحو عشر سنوات مدة الاحتلال الفارسى أن تغير من الأمر شيئاً، ولم يتمكن أبداً «خباشا» زعيم الثوار الذى أعلن نفسه ملكاً من أن يصل إلى عرش مصر.

بعد الفراعنة

فى عام ٣٣٤ق.م، عبر الإسكندر المقدونى مضيق الدردنيل وهزم الولايات الفارسية، وفى خريف العام التالى دخل مصر دون معارك ورحب به المصريون بصفته محرر البلاد من الاحتلال الفارسى، واعترف به المصريون وكهنة آمون ملكاً على مصر عام ٣٣٢ق.م، ورغم المناداة به خليفة للفراعنة فالحقيقة أن العصر الفرعونى انتهى إلى الأبد.

وبعد وفاة الإسكندر أصبحت مصر فى حوزة القائد المقدونى بطليموس، الذى أعلن نفسه ملكاً على مصر باسم بطليموس الأول وأسس أسرة البطالمة التى استمرت تحكم مصر حتى انتهى حكمها فى عهد الملكة الشهيرة كليوباترا بوقوع مصر فى أيدى الرومان سنة ٣٠ق.م، لتصبح مصر مجرد ولاية رومانية، وفى عهد الرومان دخلت الديانة المسيحية مصر واستمرت كذلك حتى كان الفتح العربى ودخول الإسلام مصر سنة ٦٤١م.

الباب الثانى

بنو إسرائيل

الفصل الأول

الاباء الأوائل

الفصل الثانى

موسى

الفصل الثالث

بنو إسرائيل بعد موسى

تقديم:

يعتمد هذا الجزء من الدراسة على المصادر الدينية: التوراة والقرآن الكريم.

والتوراة بصياغتها الحالية امتدت إليها أيادى كهنة إسرائيل على مدار عدة عصور متعاقبة بعد وفاة موسى ولذلك فهى تستند فى الأساس على أصول دينية قديمة من تراث الأنبياء، صحف إبراهيم وتاريخ ورسالات إسحاق ويعقوب ويوسف، وما حمله الكهنة من الكتاب الذى أنزله الله على موسى فى جبل الطور فى سيناء (التوراة الأصلية)، وباقى أسفار العهد القديم الذى يضم الكتب التى نزلت على أنبياء إسرائيل بعد موسى، إلا أنه وكما يجمع الدارسون المعاصرون فإن التوراة التى نزلت على موسى وباقى أسفار العهد القديم ليست هى الكتاب المقدس كتاب الله الكريم سواء إلى موسى أم أنبياء إسرائيل، وإنما تعرضت فى القرون التالية للتحريف والتغيير والتبديل بسبب عوامل شتى، والذين أعادوا كتابتها هم كهنة ما بعد السبى فخضعوا لرغباتهم البشرية، وجمعوا توراة موسى التى فقدت فى الحروب من التقاليد الشعبية التى تنقل شفوياً من الذاكرة وكانت الطريق الوحيد لتداول الأفكار، فتغير كثير من الأحداث واختلطت أو اكتسبت فيضاً من خيال أصحابها، وأيضاً تأثروا بثقافات شعوب متعددة، إلا أنها ورغم ذلك ظلت تستند على محور أساسى يتمثل فى أنها فى الأصل كتاب سماوى، ومن ثم فإنها ليست أساطير وليست منبتة الصلة عن الحقيقة، وعلى ذلك فإنه يمكن الاعتماد عليها كمصدر بشرط ألا تخالف القرآن أو الوقائع التاريخية الثابتة والمحددة التاريخ ومنطق الأحداث، وأيضاً تجريدها من التطاول على الأنبياء ومن مظاهر العنصرية العرقية التى تتنزه عقيدة السماء عن حملها.

والقرآن الكريم أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، معجزة خالدة يحمل رسالة الإسلام، وعندما حكى قصص الأنبياء لم يكن بقصد تأريخ أحداث حياتهم وإنما لأغراض أخرى دينية تضمنها قوله تعالى فى سورة هود: «**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)**»، [**هود**] وأيضاً للعبرة والعظة لمن وهبه الله عقلاً يفكر ويتدبر: «**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ(١١١)**» [**يوسف**] ولنعرف قدرة الله على المعجزات والخوارق ويبشر المؤمنين ويحذر الكافرين، ولأن القصة فى القرآن تخضع لأغراض دينية، لذلك فإن أحداث الرواية الدينية لا تهتم بالزمن التاريخى أو أسماء الشخصيات المعاصرة، وتعرض فى كل موضع بالقدر الذى يكفى لتحقيق الغرض الدينى دون تحديد لزمن وقوعها، فقصة إبراهيم تكررت فى نحو عشرين موضعاً، وقصة موسى فى حوالى ثلاثين موضعاً، وهى أغنى قصص الأنبياء فى

القرآن عرضاً، وفى كل مرة عرض تخدم الرواية غرضاً دينياً وتؤكد فى الوقت ذاته إعجاز القرآن الكريم فى استعراض بلاغى رائع فى أسلوب القصة وإضافة الأحداث دون أى اختلاف مع التفاصيل السابقة، وفى عصرنا الحديث وبعد قراءة التاريخ القديم يستمر الإعجاز فى اتفاق التصوير القرآنى مع الحقائق التاريخية المعاصرة لزمن الرواية حتى فى أدق التفاصيل التى لم يكن يعلمها النبى محمد صلى الله عليه وسلم أو أى من معاصريه.

وسوف يقتصر عرضنا فى هذا الباب على تقديم القصة الدينية لتاريخ بنى إسرائيل القديم كما وردت فى المصادر الدينية، مع التركيز على بعض الأحداث واستنتاج عدد من النقاط التى سوف تكون لها أهمية فى الاعتماد عليها فى جزء قادم من الدراسة عند تحديد الزمان التاريخى لحياة بنى إسرائيل فى مصر، وأشخاص القصة المعاصرين لحياة نبى الله موسى عليه السلام. واستناداً إلى هذا العرض، مع القدر الذى قدمناه فى الباب السابق لدورة الحضارة المصرية وعلاقاتها بالشرق القديم سوف يمكن تحديد الثوابت الأساسية التى يرتكز عليها إطار البحث ثم تحديد النطاق الزمنى للأحداث، وهو الأمر الذى سوف نعتمد عليه ويقودنا إلى تحديد الزمان التاريخى وأشخاص القصة الدينية.

الفصل الأول
الآباء الأوائل

الأصل: إبراهيم عليه السلام

بنو إسرائيل هم أبناء نبى الله يعقوب، وجدهم هو إبراهيم عليه السلام. ودون أن نخوض فى الجدل التاريخى حول الموطن الأصلى لإبراهيم، وأصل تسمية العبرانى التى حملها وسلالته من بعده، فإننا نكتفى بأرجح الآراء، وهى أن إبراهيم ينتمى إلى إحدى القبائل التى هاجرت من الجزيرة العربية مع غالبية الهجرات البشرية التى جاءت إلى أرض الهلال الخصيب، فمنذ أكثر من عشرة آلاف عام كانت الجزيرة العربية منطقة خضراء تزخر بالأنهار ومصادر المياه، وتكثر فيها الزراعات والأشجار، وقد عاشت فى الجزيرة العربية حضارات قديمة سبقت حضارات نهر النيل وبلاد النهرين، وحديثاً التقطت الأقمار الصناعية صوراً لشبكة ضخمة من المجارى المائية المدفونة تحت رمال الصحراء فى جنوب الجزيرة العربية فى منطقة الربع الخالى، وهى المنطقة التى عاش فيها قوم عاد الذين بعث الله فيهم نبى الله هوداً، وقد جاء فى القرآن الكريم أنهم كانوا ذوى حضارة كبيرة، فلما عتوا على أمر ربهم وعصوا رسوله وكذبوه، أحل الله بهم نقمته فى الدنيا بأن أمسك عنهم المطر ومصادر المياه حتى جهدوا، ورغم ذلك استمروا على إنكارهم لدعوة هود التى تبين لهم أنه لا ينجيهم من العذاب سوى العودة لطريق الله، وازدادوا عتواً وطغياناً فأرسل الله عليهم الريح العقيم، وسلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فأهلكهم وأبادهم، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية، ونجّى الله هوداً ومن معه برحمته.

وعن حضارتهم يقول الله تعالى: «**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)**» [**الفجر**] ويقول فى سورة الشعراء لقوم عاد: «**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)**». [**الشعراء**].

وبعد أن جفت عيون الماء وروافده فى الجنوب تعرضت المنطقة العربية تدريجياً وعلى مدى آلاف السنين للجفاف والتصحر فهاجرت القبائل العربية شمالاً، واستوطنوا بلاد النهرين، وكان منهم الكنعانيون والآراميون والأكاديون.

وينسب إبراهيم إلى «عابر» وهى إحدى القبائل العربية التى عاشت فى جنوب الجزيرة العربية وهاجرت إلى الشمال، وتذكر التوراة أن «عابر» هو الجد الأكبر لإبراهيم. والأرجح أن

هذا الاسم هو مصدر كلمة «عابيرو» المصرية و«خابيرو» الأكادية، ومنها أخذ إبراهيم لقب العبرانى. وأما الرأى بأن لفظ العبرانى يرجع إلى عبور إبراهيم نهر الفرات فى هجرته أو أنها استخدمت للدلالة على موطنه الأصلى عبر النهر فلا يتفق مع اشتراك شعوب أخرى كثيرة فى هذا المعنى.

وإذا كان لقب العبرانيين أو العبريين قد اقتصر فى العصور التالية للتعبير عن شعب إسرائيل دون غيرهم من نسل إبراهيم، فقد كان ذلك بسبب أن التوراة تراثهم المقدس قد استخدمت هذا اللقب للتعبير عن بنى إسرائيل فحفظته لهم، بينما غيرهم من نسل إبراهيم والذين اشتركوا معهم فى ميراث هذا اللقب لم يتركوا أو لم يصلنا عنهم تراث مكتوب، ولم تشر إليهم سوى المصادر المصرية التى ذكرت أقواماً تعيش فى بلدان مصر والشرق باسم «العابيرو» وذكرتهم المصادر الأكادية والبابلية باسم «الخابيرو».

كان ميلاد إبراهيم فى مدينة «أور» الكلدانية وهى أرض بابل، وفى صباه وشبابه رفض عبادة الأصنام، ودخل فى صراع دينى ضد والده وقومه، وبعد أن بلغ رشده آتاه الله العلم والنبوة، وبذل جهداً كبيراً فى هداية قومه، وحاول أن يقنعهم بترك عبادة الأصنام، وأن يعبدوا الله رب العالمين، ولكنهم جافوه ورفضوا دعوته.

حطم لهم أصنامهم، وسخر منهم عندما ترك أكبرهم حجماً واتهمه بارتكاب الفعل وتحداهم أن ينطق ويدافع عن نفسه. وحاور قومه وجادلهم كثيراً وذكّرهم بأمر الأمم السابقة، وأخلص لهم النصيحة واستحث فيهم ملكة العقل والتفكير لإدراك وجود الله، ولكنهم أصروا على ضلالهم. وقرروا التخلص منه بأن يحرِّقوه، إلا أن الله بآية منه نجَّاه من النار، وبعدها كانت هجرته مع لوط الذى أصبح نبياً فى الهجرة.

يقول الله تعالى:«**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ**

وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)»[الأنبياء].

بعد أن تبين لإبراهيم عداوة قومه ورفضهم الإيمان وإرادتهم الشر به تبرأ من أبيه وترك قومه وهاجر بدينه ومعه زوجته سارة ولوطاً ابن أخيه واتجهوا للإقامة فى أرض كنعان (فلسطين) ماراً بحاران (شمال العراق على نهر الفرات) «**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)**»[العنكبوت].

وتذكر التوراة أنه أثناء إقامة إبراهيم ولوط فى كنعان حدث جوع شديد فى الأرض، فصعد مع زوجته سارة ولوط إلى مصر، وأصابا فيها خيراً كثيراً عادا به إلى كنعان، وتزوج إبراهيم من هاجر المصرية، وبعد العودة من مصر أقام إبراهيم فى كنعان، وانتقل لوط شرقاً إلى أرض سدوم فى دائرة الأردن، وليس لذلك الانفصال أى تفسير سوى أنه كان بغرض نشر الدعوة إلى عبادة الله رسالة الإسلام الذى بعث الله به جميع أنبيائه. وإن كانت التوراة تذكر سبباً لا يليق بنبى الله وهو أن انفصالهما حدث بناء على طلب إبراهيم تفادياً لحدوث مخاصمة بينهما لأسباب معيشية نشأت عن كثرة أملاكهما فى مكان واحد فلم تحتملهما الأرض أن يسكنا معاً، وقال له إبراهيم «أليست كل الأرض أمامك. اعتزل عنى. إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن ذهبت يميناً فأنا شمالاً» [سفر التكوين. ١٤ ـ ٩].

أنجب إبراهيم من هاجر إسماعيل عليه السلام وهو أكبر أولاده، وأسكنه مع أمه فى مكة بالجزيرة العربية، وأنجب من سارة إسحاق عليه السلام وعاش فى أرض كنعان موطن هجرة أبيه.

واتخذ إبراهيم زوجة ثالثة بعد وفاة سارة اسمها قطورة من الكنعانيين فى رأى ومن العرب فى رأى آخر، ورزق منها ستة أبناء: زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا (سفر التكوين: ٢٥ ـ ١، ٢). وتذكر المصادر العربية (الطبرى وابن كثير وابن الأثير وابن سعد) أن إبراهيم اتخذ زوجة رابعة اسمها حجور أو حجون، ورزق منها خمسة بنين: كيسان وشورخ وأميم ولوطان ونافس.

وقد اختلفت قصة إبراهيم فى القرآن الكريم عن رواية التوراة فى تفاصيل مهمة نتخير منها للتدليل على العنصرية وتأثير النزعة البشرية فى صياغة التوراة، النواحى التالية:

١ـ يذكر القرآن الكريم أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً، وفى مواضع كثيرة استفاض القرآن فى بيان دعوة إبراهيم قومه إلى الإيمان بالله وجهاده فى هذا الأمر «**وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17)**»[العنكبوت].

فى حين أن أمر الدعوة لا يعنى التوراة من قريب أو بعيد، ولم تشر إليها بأية إشارة يستفاد منها أن إبراهيم رسول بعثه الله لهداية الناس بل على العكس يبدو حرص الكاتب على تجنيب إبراهيم عن هذه المهمة، فلا شأن له بأمر الناس، كل الذى اهتمت به التوراة فى قصة إبراهيم فى سفر التكوين هو تفاصيل الحياة الخاصة لإبراهيم باعتباره جد شعب إسرائيل ومباركة الرب له، وهجرته إلى أرض كنعان ووعد الرب له بأن يجعله ونسله أمة عظيمة ويعطيهم تلك الأرض، ويستمر حرص الكاتب على منح الرب الوعود والبركة لنسل إبراهيم، ثم يقصرها فى نسل ابنه إسحاق، ونستعرض بعضاً من تلك النصوص فى سفر التكوين:

«فأجعلك أمة عظيمة وأباركك».

«لنسلك أعطى هذه الأرض» (كنعان) (من الإصحاح الثانى عشر).

«وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه. ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً؛ لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض. حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضاً يعد. قم امش فى الأرض طولها وعرضها لأنى لك أعطيها» (من الإصحاح الثالث عشر).

وقال الرب لإبرام «انظر إلى السماء وعدّ النجوم إن استطعت أن تعدها وقال هكذا يكون نسلك».

«فقال لإبرام: اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم. فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها، وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة، وأما أنت فتمضى إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة. وفى الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا».

«فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (من الإصحاح الخامس عشر).

ظهر الرب لإبرام وقال له «فهو ذا عهدى معك وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم. لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً. وملوك يخرجون منك. وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً. وأكون إلههم. وقال الله لإبراهيم. وأما أنت فتحفظ عهدى. أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر».

ثم ينتقل عهد الرب من نسل إبراهيم وينحصر فى نسل إسحاق فقط «وقال الله لإبراهيم سارای امرأتك لا تدعو اسمها سارای بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً. أباركها فتكون أمماً. وملوك، وشعوب منها يكونون».

«وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدى معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلده لك سارة» (من الإصحاح السابع عشر).

وهكذا فإن كل غاية التوراة من إبراهيم هو الإعداد للنسل القادم والذى سوف يقتصر فى المستقبل على نسل يعقوب بن إسحاق، وهم شعب إسرائيل دون غيرهم من نسل إبراهيم، فالرب يرفض أن يقيم العهد لإسماعيل ويقيمه مع إسحاق الذى سوف تلده سارة. وفى الإصحاح الحادى والعشرين تطلب سارة من إبراهيم أن يطرد الجارية هاجر وابنها إسماعيل، لأن ابن الجارية لا يرث مع ابنها إسحاق، وعندما قبُح هذا الكلام فى عينى إبراهيم لسبب ابنه تأتى المفاجأة بأن الرب أيضاً يؤيده ويطلب من إبراهيم تنفيذه «فقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك» [الإصحاح الحادى والعشرون ٩ - ١٣].

أى عنصرية وأى بشرية دنيا أكثر من ذلك تصل لأن تجعل الرب عنصرياً يسير فى فلك الشعب القادم بنى إسرائيل، ويستمر هكذا فى فصول التوراة التالية، يقتصر اهتمام الرب على نسل إبراهيم، وهم فقط الذين يوعدون ويرثون الأرض وعهد الله بالختان لذكورهم فقط، ثم يتقلص الوعد الإلهى فى إسحاق فقط ومن إسحاق ينتقل إلى يعقوب (إسرائيل)، ثم إلى بنيه الاثنى عشر الذين خرج منهم شعب إسرائيل، وعندهم يستقر وعد الأرض لهم دون سواهم.

من قصة إبراهيم فى سفر التكوين يبدأ إصرار العهد القديم على تصوير الله على أنه رب بنى إسرائيل، ولهذا لم يكن إبراهيم - بحسب المنهج التوراتى - رسولاً لدعوة كل الناس، ووفقاً لهذا التصوير العنصرى العرقى سوف يكون جميع أنبياء إسرائيل فإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى تنكر التوراة عليهم جميعاً رسالتهم لشعوب الأرض التى بعثوا إليها، فكما أن الرب إلههم وحدهم (أسرلة الرب) فإن الدين أيضاً دين بنى إسرائيل كمجموعة عرقية مختارة (أسرلة الدين)، فالرب يبارك إبراهيم جدهم ثم تنتقل البركة والعهد الإلهى إلى إسحاق وحده دون باقى أبناء إبراهيم، ولا مانع من ترضية إبراهيم بأن ابنه الآخر سوف نجعله أمة كبيرة، ومع إسحاق تتكرر البركة وعهد الرب إلى يعقوب دون شقيقه الأكبر ولا مانع أيضاً من ذات الترضية.

٢. اسم والد إبراهيم فى القرآن الكريم «آزر» وكان كافراً«**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤)**» [**الأنعام**].

فى حين أن اسمه فى العهد القديم «تارح» ولم يذكر شيئاً عند كفره واضطهاده وتهديده

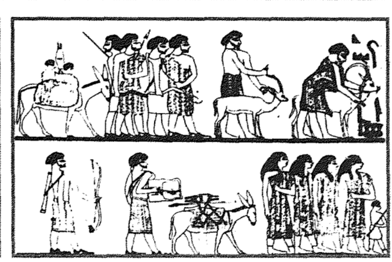
لإبراهيم، بل تنسب التوراة إلى تارح هذا أمر الهجرة من أور الكلدانيين، وأنه أخذ معه إبراهيم وزوجته سارة ولوطاً ابن ابنه «فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك ... ومات تارح فى حاران» (سفر التكوين: الإصحاح الحادى عشر ٣١ . ٣٢) وبعد وفاته أكمل إبراهيم الهجرة إلى كنعان.

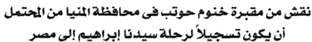
وتوجد دراسات عديدة فى تفسير أيهما اسم والد إبراهيم؟ والذى أستطيع أن أؤكده من القرآن الكريم هو أن إبراهيم قبل هجرته تبرأ من والده، وكانت هجرته إلى الله بعد أن أيقن أن أحداً من قومه لن يؤمن بدعوته، ومن ثم فإن القول بأن هجرته بدأت مع والده أمر مستبعد تماماً لقول الله تعالى:«**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** (١١٤)»[**التوبة**]. وكانت هجرة لوط مع إبراهيم إلى ربه بسبب إيمانه، وإذا صحت رواية التوراة فى أمر هجرة من يدعى تارح مع إبراهيم، فربما كان شخصاً آخر من عائلته غير والده من الذين آمنوا به ومات فى حاران، وقد تكون قرابته بإبراهيم أو سارة امرأته، واعتبره كتبة العهد القديم والداً لإبراهيم، وبذلك جنبوا أنفسهم الحديث عن والده الحقيقى الكافر العاصى باعتباره جدهم ولارتباط علاقته بإبراهيم بأمر دعوة إبراهيم لقومه للإيمان، وهذا أمر لا شأن للتوراة به خارج نطاق بنى إسرائيل.

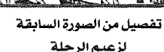
٣. لم تذكر التوراة شيئاً عن تحطيم إبراهيم لأصنام قومه ومحاولتهم إحراقه بسبب ذلك الفعل ونجاته بمعجزة إلهية، وتفسير ذلك هو ارتباط هذه الأفعال بأمر الدعوة والرسالة الشاملة لجميع القوم، وهو ما تنكره التوراة.

٤. إن إبراهيم عليه السلام الذى قال عنه الله تبارك وتعالى: «**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** (١٢٥)»[**النساء**]، واجتمع له فى القرآن الكريم كل الصفات الطيبة، وقال عنه الله تعالى: «**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ** (٣٧)» [**النجم**]، لم يمانع كتبة العهد القديم فى تفكير بشرى متدن يرفع الماديات فوق مستوى القيم، أن يجعلوه يستغل جمال زوجته فى الحصول على المال «وحدث جوع فى الأرض. فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع فى الأرض كان شديداً. وحدث لمّا قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المظهر. فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلوننى ويستبقونك. قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك.

فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً. ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأخذت المرأة إلى بيت فرعون. فصنع إلى إبرام خيراً بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال» (سفر التكوين - الإصحاح الثانى عشر ١٠ : ١٦).




نقش من مقبرة خنوم حوتب فى محافظة المنيا من المحتمل
أن يكون تسجيلاً لرحلة سيدنا إبراهيم إلى مصر


تفصيل من الصورة السابقة
لزعيم الرحلة

حقيقة أن التوراة جعلت الرب ينجى سارة، ولكن الموقف الذى وضع كاتب التوراة إبراهيم فيه لا يتفق وصفات الأنبياء، وحقيقة الأمر فى الغالب، أن رحلة إبراهيم إلى مصر كانت لها صورة مغايرة ومختلفة تماماً عن الصياغة التوراتية. وقد حفظت المصادر المصرية فى مقابر بنى حسن بمحافظة المنيا نقشاً من مقبرة «خنوم حوتب الثانى» حاكم منطقة «منعات خوفو» يصور مجموعة من الآسيويين ذوى الملامح السامية وفدوا على خنوم حوتب من كنعان، يبلغ عددهم سبعة وثلاثين شخصاً من شباب وشيوخ ونساء وأطفال يرتدون ملابس ثمينة ملونة بألوان زاهية تصور نوع المدنية المنتشرة فى بلاد ما بين النهرين، ويتقدمهم من المنظر رئيسهم وهو شيخ يدعى «أبشا» ويحمل لقب «حقا خاست» ومعناها حاكم البلاد الأجنبية، جالبين معهم الكحل ويقدم رئيسهم غزالاً أليفاً، وهذا المنظر مؤرخ بالعام السادس من حكم «سنوسرت الثانى» والذى يوافق العام ١٨٨٩ ق . م، وقد كان دخول بنى إسرائيل مصر فى عهد حكم ملوك الهكسوس تالياً لهذا التاريخ بما يزيد على قرنين من الزمان، على النحو الذى سوف نقدمه فى أدلتنا فى الفصول القادمة. ومن ثم فإن هذه الفترة من حكم «سنوسرت الثانى» يتفق أن تكون معاصرة لحياة إبراهيم عليه السلام ورحلته إلى مصر، والتى كانت سابقة على تاريخ إنجاب جميع أولاده.

وإذا ما وضعنا إلى جانب ذلك زعامة إبراهيم وشهرته فى بلاد النهرين وفلسطين، وبعثه رسولاً يدعو للإيمان بالله ووجود أتباع له بما يؤهله لأن يحمل لقب «حقا خاست» ولأن يهتم به «خنوم حوتب» حاكم المنطقة ويستقبله ويسجل هذا الحدث فى مقبرته، فإذا أضيف أيضاً اتفاق ملامح الجنس والصفات واعتبار أن المجموعة التى معه تضم امرأته سارة ولوطا وأسرته وعدداً من أتباعه المؤمنين فإننا نتفق مع الباحثين الذين اعتبروا هذا المنظر تسجيلاً لزيارة إبراهيم نبى الله إلى مصر، وعموماً فإن لم يكن ذلك فإن إبراهيم ومرافقيه ـ مثل هؤلاء القوم ـ

لاقوا فى رحلتهم فى الفترة المعاصرة كل ترحيب، ولم يحدث ما تخيله كاتب التوراة.

٥. فى تصوير القرآن الكريم لزيارة الملائكة لإبراهيم على صورة بشرية لإبلاغه أنهم مرسلون من الله لتدمير قوم لوط وليبشروه أيضاً بميلاد إسحاق، ذكر أنهم لم يأكلوا من الطعام الذى قدمه لهم، ولذلك فإنه أوجس منهم خيفة:«**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)** » [هود].

فى حين أن رواية العهد القديم بصياغتها البشرية فات عليها أن الملائكة لا يأكلون وجعلتهم يأكلون الطعام الذى قدمه لهم إبراهيم (التكوين ـ الإصحاح الثامن عشر ٦ ـ ٨) وتكرر الأمر مع لوط أيضاً وأكلوا الطعام الذى قدمه (التكوين ـ الإصحاح التاسع عشر ـ ٣).

٦ـ تجعل التوراة إبراهيم رجلاً عنصرياً فعندما تقدمت به السن يستدعى عبده كبير بيته ويقول له: «أستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم. بل إلى أرضى وإلى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحاق» (التكوين ـ الإصحاح الرابع والعشرون ١ ـ ٣) ومع ذلك حذر إبراهيم عبده أن يأخذ معه إسحاق فى تلك الرحلة.

ونلاحظ تأكيد تلك العنصرية مع إسحاق بالذات؛ لأنه سيكون والد يعقوب الذى سيكون أباً لشعب إسرائيل. على الرغم من أن إبراهيم نفسه إلى جانب سارة جدة بنى إسرائيل اتخذ لنفسه زوجة مصرية وزوجة من كنعان وزوجة من العرب، ولكن ذلك لا يهم طالما أنه تم استبعاد نسل إبراهيم من ميراث الوعد عدا نسل سارة التى أخذت العهد لإسحاق الذى تلده. ليستمر منذ ذلك العهد اعتبار الإسرائيليين أمومة الطفل وليس أبوته هى العامل الأساسى فى تحديد انتمائه إلى بنى إسرائيل.

ويثار تساؤل مهم، لماذا يرفض العهد القديم بنات الكنعانيين ويفضل بنات موطن إبراهيم ما بين النهرين؟ تكمن الإجابة عن هذا التساؤل فيما سوف يحدث بعد نحو سبعة قرون من هذا التاريخ عندما يدور الصراع على أرض فلسطين بين الكنعانيين وبين بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر. فالذى يكتب بهذا النهج العنصرى كان يعلم أنهم أعداء، وبالتالى يرفض بإلحاح مصاهرتهم، رغم أنهم كانوا كراماً ورحبوا بوجود إبراهيم بينهم.

٧ـ تجعل التوراة إسحاق الابن الذى اختبر الله إبراهيم فيه وأمره بذبحه، ثم فداه بكبش، فى حين أن مفهوم نصوص القرآن وحديث محمد صلى الله عليه وسلم أنه إسماعيل. ومن الغريب أن التوراة تعبر عن إسحاق فى هذا الاختبار بأنه الابن الوحيد (التكوين ـ الإصحاح الثانى والعشرون) رغم أن إسماعيل هو الابن البكر.

إسحاق

ذكر القرآن الكريم نبي الله إسحاق بمناسبة تبشير الله تعالى ووهبه إياه لإبراهيم:

«وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)» [الصافات] .

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)» [إبراهيم] .

«وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا . . . .(٨٤) »[الأنعام] .

«وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ . . . .(٢٧)»[العنكبوت] .

وإسحاق هو ابن سارة، ولدته وهى عجوز وكانت عقيماً، وبشرتها به الملائكة - رسل الله إلى إبراهيم - وتذكر رواية العهد القديم أن إبراهيم أرسل عبده إلى حاران فى «فدان آرام» واختار زوجة لابنه هى «رفقة» حفيدة ناحور أخى إبراهيم، وقد تأخر حملها ثم رزق منها بابنين توأم: عيسو ونزل من بطنها أولاً، فصار هو الابن البكر ثم أعقبه يعقوب.

وقد اتخذ عيسو واسمه أيضاً أدوم زوجتين من بنات الحيثيين، وتذكر التوراة أن والدته قد حزنت لذلك كثيراً «وقالت رفقة لإسحاق مللت حياتى من أجل بنات حث. إن كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حث مثل هؤلاء من بنات الأرض فلماذا لى حياة» (سفر التكوين - الإصحاح السابع والعشرون - ٤٦) وبعد أن رأى عيسو أن بنات كنعان شريرات فى عينى إسحاق أبيه، اتخذ بنت عمه إسماعيل ابن إبراهيم زوجة ثالثة.

وقد سكن عيسو فى جبل سعير وأسس مملكة أدوم.

يعقوب

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم واسمه «إسرائيل» وتعنى «عبد الله» بشر الله به جده إبراهيم وأباه إسحاق وجعله نبياً. تذكر التوراة فى مغالطة تاريخية أن يعقوب - بمساعدة أمه رفقة التى كانت تحبه أكثر من شقيقه عيسو - استغل كبر سن والده إسحاق وضعف بصره، وكذب عليه وادعى له أنه عيسو ابنه البكر، واستطاع بتلك الخدعة أن يظفر بحق البكورية، وفاز ببركة أبيه ودعواته المستجابة، وعندما اكتشف إسحاق تلك الخدعة، كان أمر حرمان عيسو ونسله من البركة قد خرج من يده، فارتعد ارتعاداً عظيماً. وكذلك عيسو عندما علم بمكر أخيه صرخ صرخة عظيمة ومُرة جداً، وطلب من أبيه أن يعطيه بركته أيضاً، فقال له: إن أخاك أخذ بركتك فماذا أصنع لك يا بنى؟ فرفع عيسو صوته وبكى عندما علم أنه لم تبق له: بركة، وحقد على يعقوب وقرر أن يقتله، وعلمت أمه رفقة بذلك فطلبت من يعقوب أن يهرب عند خاله لابان فى حاران حتى يهدأ غضب شقيقه، وينسى ما صنعه به. (سفر التكوين - الإصحاح السابع والعشرون).

وبذات النهج العنصرى لصياغة التوراة يدعو إسحاق ابنه يعقوب ويباركه ويوصيه أن لا يأخذ زوجة من بنات كنعان، وأن يذهب إلى أرض الأجداد فى فدان آرام ويأخذ لنفسه زوجة

من بنات خاله لابان ويدعو له «والله القدير يباركك ويجعلك مثمراً ويكثرك فتكون جمهوراً من الشعوب ويعطيك بركة إبراهيم لك ولنسلك معك. لترث أرض غربتك التى أعطاها الله لإبراهيم» (التكوين - الإصحاح الثامن والعشرون ١ - ٤).

واستمراراً للوعد الإلهى الذى بدأه كهنة العهد القديم منذ الحديث عن إبراهيم يخرج يعقوب من بئر سبع متجهاً نحو حاران واضطجع فى مكان للمبيت «ورأى حلماً وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء. وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهو ذا الرب واقفاً عليها فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق. الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك. ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً. ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض. لأنى لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به.

فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقاً إن الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم. وخاف وقال ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء. وبكّر يعقوب فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقام عموداً وصب زيتاً على رأسه. ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل» (التكوين - الإصحاح الثامن والعشرون - ١٢ - ١٩) (بيت إيل بمعنى بيت الله وتقع شمال أورشليم القدس بحوالى ١٢ ميلاً).

وأقام يعقوب في حاران وخطب راحيل ابنة خاله لابان الصغرى «حسنة الصورة وحسنة المنظر» «وخدم يعقوب براحيل سبع سنين، كانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها» ولما كملت أيام خدمته وطلب من خاله امرأته ليدخل عليها خدعه وقدم له فى المساء أختها الكبرى «ليئة» وكانت قبيحة المنظر ضعيفة العينين، فدخل عليها وفى الصباح اكتشف الخدعة وعندما واجه خاله اعتذر له بأنه لا يجوز للصغيرة أن تتزوج قبل البكر، وطلب منه أن يخدمه سبع سنين أخرى ويعطيه راحيل ففعل يعقوب هكذا، وتزوجها وجمع بين الأختين، كما دخل يعقوب بجاريتى زوجتيه بلهة وزلفة.

«ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها» وولدت له راؤبين، بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون، وولدت بنتاً دعت اسمها دينة. ورزق يعقوب من بلهة جارية راحيل باثنين هما: دان ونفتالى. ورزق من زلفة جارية ليئة باثنين هما: جاد وأشير، وبعد سنوات طويلة أنجبت راحيل التى كانت عاقراً: يوسف وبنيامين.

وهكذا رزق يعقوب من زوجاته الأربع باثنى عشر ابناً هم أسباط إسرائيل الاثنى عشر، ومن ذرياتهم من بعدهم تكون شعب إسرائيل، وبنتاً واحدة، كان ميلادهم جميعاً أثناء إقامة يعقوب فى حاران عدا بنيامين فكانت ولادته بعد عودته إلى فلسطين.

وبعد أن عاد يعقوب من حاران استقبله شقيقه عيسو بترحيب عظيم، وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فى حبرون فى فلسطين، وعندما أسلم إسحاق روحه دفنه ابناه عيسو ويعقوب،

واستمرت إقامة يعقوب فى أرض هجرة جده وأبيه، وكان يوسف هو أحب أبنائه إليه، وحزن لفقده حزناً عظيماً، ولم ييأس من عودته، والتقاه بعد أن أصبح شيخاً عجوزاً، عندما أرسل يوسف واستدعاه هو وجميع إخوته وكل أفراد أسرة يعقوب ليسكنوا فى مصر.

وإذا كانت قصة يعقوب فى العهد القديم تحمل بعض الجوانب التى تجافى المنطق السليم لسيرة الأنبياء، وتبعد عن أن تكون منسوبة إلى ذلك النبى الكريم، فقد قصدنا من الإشارة إلى بعض منها إظهار التفكير العنصرى، ومنطق الصياغة البشرية، ويهمنا فى القصة اتفاق القرآن الكريم مع التوراة فى أبناء يعقوب الاثنى عشر الذين خرج منهم شعب إسرائيل، وهجرة آل يعقوب من فلسطين إلى مصر واستقرارهم بها.

وقد ختم القرآن الكريم قصة يعقوب قبل أن يسلم الروح، بأصدق تعبير يمكن أن يدحض كل الأباطيل التى نسبها إليه كهنة العهد القديم.

يقول الله تعالى:«**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)**»[البقرة].

وقد كانت وفاة يعقوب فى مصر وتقول التوراة إن يوسف أمر الأطباء بتحنيطه، وبعد أن اكتملت أيام التحنيط أربعون يوماً صعد مع إخوته وجمع من حاشية الملك وشيوخ مصر ودفنوا يعقوب فى كنعان إلى جوار إبراهيم وإسحاق.

يوسف

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، أنبياء الله عليهم جميعاً السلام. كان يوسف أحب إخوته إلى أبيه، ورث عن أمه راحيل ملاحة الهيئة وجمال الوجه وحسن المنظر. رأى وهو غلام لم يبلغ الحلم رؤيا منامية قصها على والده يعقوب فانشرح لها صدره، وعلم منها أن الله اصطفاه دون إخوته ليتم عليه نعمة النبوة التى أتمها من قبل عليه وعلى والديه. وطلب من ابنه ألا يقصها على إخوته كيلا يكيدوا له.

يقول الله تعالى:«**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)**» [يوسف].

ولكن إخوة يوسف يضمرون له الشر ويحقدون عليه، لأنه وأخاه بنيامين أحب منهم إلى قلب أبيهم، فيعقدون عزمهم ويتفقون فيما بينهم على التخلص من يوسف، وبعد ضغط وإلحاح استطاعوا أن يقنعوا والدهم يعقوب أن يرسل معهم يوسف ليرتع ويلعب وهم يرعون مواشيهم، وتعهدوا برعايته والمحافظة عليه، ولما ذهبوا بيوسف قذفوا به فى بئر ماء، وعادوا فى المساء إلى والدهم يبكون وأخبروه أن الذئب أكله منهم وهم يستبقون وقدموا له قميص يوسف ملطخاً بدم كذب، ولم يصدقهم يعقوب وعلم أن

نفوسهم سوّلت لهم أمراً، وقال صبراً جميلاً والله المستعان.

يقول الله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)» [يوسف].

وقد أوحى الله إلى يوسف وهم يلقونه فى الجب بأنه سوف ينجيه، وأنه سوف يأتى يوم يخبر إخوته بما فعلوه معه وهم لا يعرفونه، فأصبح مطمئناً، وبينما هو كذلك، جاءت قافلة كانت متجهة إلى مصر والتقطوه من البئر وأخذوه معهم رقيقاً وباعوه بثمن بخس لعزيز مصر، الذى طلب من زوجته أن تكرم مثواه عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولداً لهم، وكان ذلك بداية الخير ليوسف، فآتاه الله فى أرض مصر حكماً وعلماً وعلمه تأويل الأحاديث.

يقول الله تعالى: «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)» [يوسف].

وتذكر رواية التوراه أن قافلة من الإسماعيليين التقطت يوسف من البئر وباعته فى مصر لرجل يدعى «فوطيفار» رئيس الشرطة، وكان يوسف ناجحاً فى بيت سيده المصرى، الذى أوكل إليه كل أمور بيته.

ويمكن لنا أن نستخلص من قول الله تعالى أنه آتى يوسف الحكم والعلم، أن سيده المصرى قد ساعده على تعلم القراءة والكتابة وتحصيل العلوم والمعارف فى مدارس المعابد المصرية، خصوصاً وأنه كان يهدف منذ شرائه أن يتخذه ولداً له، فأكرمه وعامله بذات المستوى وبمثل ما يلاقيه أبناء الطبقات الراقية والمتوسطة من موظفى الدولة ورجال الدين الذين يحرصون على تعليم أولادهم فى المدارس والمعاهد المنتشرة تحت إشراف المعابد.

بلغ يوسف مرحلة الشباب فى بيت عزيز مصر، وبالإضافة إلى ما منحه الله له من الجمال وحسن المنظر آتاه أيضاً الحكمة والعلم وحسن الخلق، وفوق ذلك كله الإيمان بالله الواحد. وكما كان يوسف

وهو غلام ضحية لحب والده له وتعرض لكيد إخوته به، فقد تعرض فى هذه المرحلة العمرية لمحنة أخرى جديدة بدت وكأنه يصبح هذه المرة ضحية لجماله وحسن أخلاقه وإيمانه، ولكنها كانت اختباراً من الله، تحلى فيها بالصدق والصبر والإيمان، فنجاه الله وبالإضافة إلى شرف النبوة والرسالة أعطاه حكماً ومنصباً رفيعاً فى أرض مصر.

كانت المحنة التى تعرض لها يوسف فى صدر شبابه هى شغف امرأة العزيز بحبه ومراودته عن نفسه، إلا أنه استعصم وتمسك بالله، فكادت له أمام زوجها الذى أدرك صدق يوسف فكذبها ونهرها على كيدها وسوء سلوكها فزادها ذلك إصراراً على أن يبادلها يوسف رغباتها وإلا تنتهى به إلى السجن، فكان السجن أحب إلى يوسف من الاستجابة إلى رغباتها الآثمة.

ويقص الله علينا تلك المحنة فى صياغة إعجازية تصل إلى قمة أداء البيان فى إظهار النوازع المختلفة فى النفس البشرية يقول تعالى: **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)** [يوسف].

كان دخول يوسف السجن - طبقاً لرواية القرآن الكريم - بتدبير من امرأة العزيز لعدم استجابة يوسف لرغباتها.

لم يصرح القرآن الكريم هذه المرة بطبيعة الصراع الذى دار بين المرأة ويوسف بعد يوم دعوة النساء، أو السبب المباشر الذى أدى بالزوج أن يتحول عن موقفه تجاه يوسف ويدخله السجن رغم تأكده من براءته، لسابق علمه برغبات زوجته المرفوضة من يوسف.

غير أن آيات القرآن تفصح أن جهاد يوسف لم يعد يقتصر على المرأة التى هو فى بيتها، وإنما جميع النسوة اللائى حضرن دعوتها، فلم تُخفِ عنهن امرأة العزيز حبها ورغبتها الجامحة فى معاشرة يوسف، كما لم تخف عنهن إغراءها له ومراودته عن نفسه، ورفضه لها، وصرحت لهن بأنها

لن تكبح جماح رغبتها، وأنها سوف تستمر فى دعوته لمعاشرتها حتى يستجيب لها أو تسجنه ليكون من الصاغرين، وتؤكد صياغة الآيات القرآنية التالية مشاركة النسوة لها فى رغباتها ودعوتهن ليوسف وكيدهن له. ويمكن أن نتوقع هنا أن النسوة قد اتفق تدبيرهن على معاونة صديقتهن امرأة العزيز فى إرضاخ يوسف لرغباتها، وفى ذات الوقت إشباع رغباتهن منه، بأن تبذل كل منهن محاولاتها لإيقاع يوسف فى شباكها اعتقاداً منهن بأن رفض يوسف لامرأة العزيز قد يكون مبرراً بخوفه من سيده عزيز مصر أو تقديراً لإكرامه له وعطفه عليه. وبالطبع كانت هذه الفكرة تلاقى هوى امرأة العزيز، فاستغلت كون يوسف عبداً فقدمته إليهن لترويضه، آملة أن يعود إليها ملطخاً بعارهن فيصبح بعدها فريسة سهلة لنزوتها. وكان على يوسف أن يخوض جهاد نفس ضد إغرائهن ورغباتهن فاستعصم وتمسك بحبل الله، وهنا تتحول دعوتهن له إلى تهديد ووعيد بما انتوته سيدته أن تسجنه، فقال لربه إن السجن أحب إليه، ودعاه أن يصرف عنه كيدهن فاستجاب الله له، وأصبح موقف يوسف وخلقه العظيم حديث النسوة، ومن الآيات التى لم يسبق لهن عهد بها، ولذلك فإن حديث القرآن جاء بصيغة جمع النسوة، ومشاركتهن فى الكيد ليوسف «**السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن**»، «**فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن**» وفى نهاية المؤامرة «**ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين**» ويأتى مؤكداً لمشاركة النسوة مع امرأة العزيز ما ذكرته آيات القرآن الكريم عند ظهور براءة يوسف من إصراره على الملك من مراجعة النسوة اللائى كدن له «**فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)**»[يوسف].

وبعد انتهاء النسوة على أنه لا أمل فى ترويض يوسف واتفاقهن على سجنه، لم يتبق إلا تنفيذ التدبير الذى ترك أمره لامرأة العزيز. ويمكن أن نعتمد فى تحديد السبب المباشر لسجنه على رواية التوراة التى تأتى منطقية ومكملة لقصة قميص يوسف الذى قُدَّ من دبر وكان سبباً فى براءته، لم تذكر رواية التوراة تلك الحادثة، وإنما تروى تفصيلاً آخر مفاده: أن المرأة طلبت من يوسف أن يضطجع معها فرفض، وقال لها كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟! وأنها استمرت تكلمه يوماً فيوماً فلم يسمع لها إلى أن جاء يوم لم يكن إنسان معهما فى البيت «فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معى، فترك ثوبه فى يدها وهرب وخرج إلى خارج، وكان لما رأت أنه ترك ثوبه فى يدها وهرب إلى خارج، أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا، قد جاء إلينا برجل عبرانى ليداعبنا دخل إلى ليضطجع معى فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع أنى رفعت صوتى وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج.

فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته، فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة: دخل إلى العبد العبرانى الذى جئت به إلينا ليداعبنى، وكان لما رفعت صوتى وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب إلى

خارج» [سفر التكوين - الإصحاح التاسع والثلاثون ١٨:٧].

إذن نستنتج أن سلوك المرأة الشائن ومكرها بالصياح العلنى السافر شكلا السبب المباشر الذى أغضب الزوج - عزيز مصر - وجعله فى موقف حرج، فاضطر لوضع يوسف فى السجن. ويمكن لنا أن نتصور أن المرأة بعد فشلها فى إدخال حيلتها السابقة على زوجها بسبب لم تتنبه إليه وهو أن قميص يوسف قُدَّ من دبر، فقد دبرت أمرها هذه المرة بأن تحصل على قميص يوسف كاملاً سواء بالوسيلة التى ذكرتها التوراة أم بوسيلة أخرى، ثم اتهمت يوسف بما اتهمته به، وبالطبع لا يمكن أن نتصور أن الزوج قد دخل عليه ذلك الكيد المفضوح - بسبب معلوماته السابقة عن سلوك زوجته - وإنما الأمر هذه المرة يختلف، ففى السابقة لم يتعد نطاق العلم بالواقعة المرأة ويوسف والزوج الذى ألفته لدى الباب، والشاهد الذى كان من أهل الزوجة، وانتهت بأن طلب الزوج من يوسف أن يكتم الأمر ولا يحدث به أحداً، ومن الزوجة أن تستغفر ذنبها «**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)**» [يوسف].

أما الآن وقد تسرب الأمر وانتشرت الشائعات فى المدينة بشغف امرأة العزيز بالعبد العبرانى، وصار القيل والقال ووقفت المرأة - هذه المرة - أمام الخدم وأهل الدار صارخة مولولة وهى تلوِّح بقميص يوسف الذى اقتنصته منه تتهمه فى عرضها والنيل من شرفها فقد تخطت كل الحواجز، وتعدت باتهامها نطاق حكم زوجها عليها، والذى تعلم موقفه منها ورأيه فى يوسف، فأحرجته بمكرها قاصدة أن تمنع عليه اتخاذ أى موقف فى صالح يوسف، فأخرجت الأمر من يده، ولم يعد لائقاً أو سائغاً أن يتركه فى بيته، أو ينكر على امرأته اتهامها، ولم يجد أمامه مفر غير وضع يوسف فى السجن - وهو واثق من براءته - إلى حين أن تهدأ الأمور، وينسى الناس فى المدينة الأمر، ولكن يبدو أن القدر لم يمهله، ومات العزيز بعد فترة وجيزة من سجن يوسف فلم يخرجه، ذلك أننا فى باقى القصة لا نجد أى أثر لوجود العزيز فى حضرة الملك عند ظهور براءة يوسف أثناء مناقشته للشهود: امرأة العزيز ونسوة المدينة.

لم يحزن يوسف لسجنه وانتهز فرصة وجوده بالسجن ليقوم بالدعوة إلى الله، فدعا المسجونين معه إلى نبذ الشرك بالله وترك عبادة الأصنام المتعددة الأسماء والإيمان بالآخرة والله الواحد وكسب يوسف حب السَّجان والمسجونين، وتذكر التوراة أن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفاً، وجعل نعمة له فى عينى رئيس بيت السجن، فدفع إلى يوسف جميع الأسرى بالسجن وجعله المتصرف بشأنهم. ويذكر القرآن أن المسجونين رأوا يوسف من المحسنين، وأنه أخلص لهم الدعوة والنصيحة.

دخل معه السجن فتيان أحدهما رئيس سقاة الملك، والثانى رئيس الخبازين بالقصر الملكى رأى كل منهما رؤيا منامية، الساقى رأى أنه فى بستان كرم يعصر خمراً، ورأى الخباز أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل منه الطير، فسّرها يوسف للساقى بأنه سوف ينجو ويعود إلى مهنته ساقياً للملك، أما الخباز فسوف يصلب وتأكل الطير من رأسه، وأوصى يوسف الساقى أن يذكره لدى الملك لرفع الظلم عنه،

ولكن بعد أن صدق تفسير يوسف أنسى الشيطان الساقى أن يذكر للملك ما أوصاه به، فلبث يوسف فى سجنه بضع سنوات، حتى حدث أن رأى الملك فى منامه أن سبع بقرات سمان تخرج من نهر النيل وخلفها سبع بقرات هزيلة، فأكلت البقرات الهزيلة البقرات السمان، ورأى سبع سنابل ممتلئة تأكلها سبع أخرى يابسة، وطلب الملك من العلماء والحكماء تفسير رؤياه فلم يستطع أحد منهم، وقالوا أضغاث أحلام، وهنا فقط تذكر الساقى يوسف وذهب إليه فى سجنه يسأله، فأخبره أن تفسير رؤيا الملك أن مصر ستمر عليها سبع سنوات رخاء وازدهاراً تكثر فيها غلات الأرض تتبعها سبع سنين عجاف، وأن على المصريين أن يدخروا من سنوات الرخاء لسنين الجفاف، ويأتى بعد ذلك عام من الرخاء يغاث فيه الناس من شدتهم.

أرسل الملك فى استدعاء يوسف فرفض أن يخرج من سجنه إلا بعد تحقيق واقعة اتهامه بسؤال النسوة اللائى تسببن فى سجنه لإثبات براءته، وحقق الملك طلبه وظهرت الحقيقة كاملة وأكدت النسوة أنهن ما عَلِمن عليه أى سوء، واعترفت امرأة العزيز أنه كان صادقاً وأنها فعلاً راودته عن نفسه، وتابت إلى الله الغفور الرحيم.

اقتنع الملك بحكمة يوسف وعلمه وحسن تفكيره وتدبيره للأمور، وطلب منه أن يعاونه في إدارة شئون الحكم فى البلاد، فطلب يوسف من الملك أن يجعله مسئولاً عن ثروات مصر. تذكر التوراة أن الملك جعل يوسف فى المنصب التالى له وكان فى الثلاثين من عمره، وتزوج من «إسنات بنت فوطى فارع» كاهن أون، وأنجب منها ابنين هما منسى وإفرايم وذلك قبل أن تأتى سنين الجفاف.

يقول الله تعالى: «**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾**» [**يوسف**].

وقد حدث - بعد أن تمكن يوسف فى أرض مصر وصار مسئولاً عن أموال الدولة وغلال الزرع - أن جاء إخوة يوسف إلى مصر خلال سنوات الجفاف، لشراء قمح فعرفهم ولم يعرفونه.

وتعرض آيات القرآن الكريم تفاصيل هذه القصة منذ حضور إخوته إليه - دون بنيامين - وكيد يوسف لهم لحملهم على استقدام شقيقه، وقد رفض يعقوب أن يسمح لهم به إلا بعد أن عقدوا معه ميثاقاً غليظاً أن يرجعوا به إليه، ولكن بعد أن وصل بنيامين إلى مصر مع إخوته فى رحلتهم الثانية، أبلغه يوسف أنه أخوه ثم دبر أمره لاتهامه بسرقة صواع الملك ليكون جزاؤه المنع من السفر واحتجازه لدى العزيز عقاباً على فعله، وعبثاً ذهبت محاولات إخوة يوسف لإقناعه أن يتركه ويأخذ أحدهم مكانه. وكان وقع فراق بنيامين أليماً على يعقوب، وتذكر يوسف أيضاً، واشتد عليه الأمر، وابيضت عيناه من الحزن، وطلب من بنيه أن يرجعوا إلى مصر يتحسسوا أمر يوسف وأخيه، وتنتهى القصة فى مصر بأخبار يوسف لمن عادوا برسالة يعقوب من إخوته بحقيقة أمره وما حدث معه بعد غدرهم به، وكيف أن

الله مَنَّ عليه جزاء صبره، فاعترفوا بخطئهم وتابوا إلى الله. واستقدم يوسف والده يعقوب وإخوته جميعاً وأفراد أسرهم للإقامة فى مصر. وتحققت رؤيا يوسف، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً، واستجاب الله تعالى لتوبة إخوة يوسف وغفر لهم ذنبهم.

يقول تعالى: «قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)» [يوسف].

وتذكر التوراة أن يوسف أسكن قومه بنى إسرائيل وأعطاهم ملكاً فى أفضل أرض مصر فى أرض جاسان (شرق الدلتا)، وأنهم عاشوا فيها وأثمروا وكثروا جداً.

ملاحظات على قصة يوسف

١- اتفقت قصة يوسف فى القرآن الكريم مع رواية العهد القديم فى العناصر الأساسية لحركة يوسف وآل إسرائيل. فقد اتفقت الروايتان على كيد إخوة يوسف له وتخلصهم منه بإلقائه فى جب فى فلسطين. ثم التقاطه وبيعه لعزيز مصر، ورفضه معاشرة زوجة هذا المسئول، وكيدها به وإلقائه فى السجن، ثم خروجه من سجنه بعد سنوات خروجاً كريماً، وإعجاب ملك مصر به، وتعيين يوسف وزيراً فى مصر مسئولاً عن خزائنها وأموالها، وحضور إخوته من فلسطين إلى مصر لشراء طعام، وتعرّف يوسف عليهم، وأخيراً استقدام والده وإخوته وأهلهم أجمعين ليسكنوا - آمنين - فى مصر.

وإن كان يوجد اختلاف بين الروايتين فى العناصر الفرعية لواقعات حياة يوسف إلا أنها لا تخل بالأساسيات السابقة المتفق عليها، وهو اختلاف طبيعى ناتج عن طبيعة الفرق بين المصدرين: التصوير الإلهى الذى تعهد الله بحفظه على مر العصور، والتصوير المدون المنقول من مصادر متعددة ومتداولة على مدار أجيال متعاقبة.

ومن أوجه الاختلاف التى تجدر الإشارة إليها، ما ذكرته التوراة أن «راحيل» زوجة يعقوب وأم يوسف تعثرت أثناء ولادتها بنيامين وماتت ودفنت فى بيت لحم، فى حين أن رواية القرآن الكريم تذكر أنها كانت مع آل إسرائيل عند دخولهم مصر.

«فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا (١٠٠)» [يوسف].

ومن الغريب أن قصة التوراة بعد أن ذكرت وفاة راحيل ودفنها فى بيت لحم [سفر التكوين - الإصحاح الخامس والثلاثون ١٩] عادت وذكرت أن يوسف عندما قص على أبيه أنه حلم أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له، وبسبب الخوف عليه من حقد إخوته «انتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذى حلمت، هل نأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض» [التكوين: الإصحاح السابع والثلاثون ١٠]، وعند تعديد التوراة لأسماء آل إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر لم تذكر أياً من أسماء زوجات يعقوب الأخريات، ولم تسبق ذلك أى إشارة عن وفاتهم.

٢- استمراراً للأيديولوجية العنصرية فى صياغة التوراة، وإصرارها على أن الرب هو رب إسرائيل، والأنبياء لشعبهم والدين لهم دون شعوب الأرض، لم تشر الرواية التوراتية إلى دعوة يوسف فى مصر، ولم تذكر موقف زوجة يوسف «إسنات بنت فوطى فارع» من الإيمان برب إسرائيل بعد زواجها؛ خصوصاً وأن والدها كان الكاهن الأكبر لمعبد أون، أحد أشهر المعابد الوثنية فى مصر منذ فجر التاريخ (معبد الإله رع).

٣- تذكر التوراة أن يوسف اشترى من المصريين كل حقول مصر لفرعون، وعند الغلة يعطون خمساً لفرعون والأربعة أجزاء لهم بذاراً للحقل وطعاماً لبيوتهم، إلا أن أرض الكهنة ظلت لهم لم يشترها؛ إذ كانت فريضة لهم من قبل فرعون.

٤- استخدم القرآن الكريم عند الحديث عن حاكم مصر المعاصر ليوسف لقب «ملك» وليس «فرعون» أما فى قصة موسى فتغير الأمر واستخدم القرآن كثيراً لقب فرعون، فى حين أن رواية العهد القديم استخدمت لقب فرعون عدة مرات للدلالة على حاكم مصر فى قصة يوسف، وسوف نوضح التفسير والدلالات على ذلك عند تحديد تاريخ دخول بنى إسرائيل مصر.

٥- أشارت رواية التوراة إلى أن يوسف أسكن قومه فى أرض جاسان فى شرق دلتا مصر، وهذا المكان كما يتضح من الرواية قريب من مقر إقامة يوسف وملك مصر فى العاصمة المصرية، فضلاً عن أنه أقرب الأراضى الخصبة الصالحة للزراعة والرعى إلى فلسطين.

٦- تشير التوراة أن مصر فى ذلك العصر كانت تستخدم العجلات (المركبات) كوسيلة تنقل للملوك وكبار القوم والجيش، وأن يوسف أرسل هذه المركبات لاستقدام والده وآل إسرائيل من فلسطين، كما خرج بها مع إخوته وجيش كبير لدفن يعقوب فى فلسطين.

٧- ولاية يوسف هذا المنصب المهم فى أرض مصر، والذى يعتبر التالى لمنصب الملك، يتناقض مع التفكير العنصرى لسدنة الحكم فى مصر، واحتقار المصريين للأجانب. وهو أمر يحتاج إلى تفسير سوف نعود إليه عند تقديم الأدلة على أن دخول بنى إسرائيل مصر حدث فى عهد الهكسوس.

٨- أكد القرآن الكريم أن يوسف كان رسولاً مبعوثاً من الله سبحانه وتعالى إلى شعب مصر، وجاء ذلك على لسان مؤمن آل فرعون فى سورة غافر: «**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾**».

الفصل الثانى

موسى

الأحوال السياسية لمصر المعاصرة لميلاد موسى

نبى الله موسى - عليه السلام - من سبط اللاويين من بنى إسرائيل الذين نزلوا مصر فى زمن يوسف، كان ميلاده فى شرق الدلتا فى أرض جوشن (جاسان) التى منحها يوسف للأسباط، وعاش عليها بنو إسرائيل أثناء حياتهم فى مصر.

تذكر التوراة أنه فى الفترة التى سبقت ميلاد موسى وعاصرت ميلاده كانت الأحوال قد تغيرت عن العصر الذى كان يعيش فيه يوسف. وتحولت حياة بنى إسرائيل من الرخاء والازدهار إلى العبودية القاسية فى كل الأعمال، وصاروا مضطهدين يعانون من الذل والسخرة والتعذيب، وبررت التوراة هذا الاضطهاد بأن ملك مصر الجديد كان يخشى بنى إسرائيل الذين أصبحوا شعباً كثيراً وعظيماً ولم يعد يأمن جانبهم من أن ينضموا إلى أعداء مصر فى حالة نشوب حرب، تقول التوراة : «ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم» (سفر الخروج - الإصحاح الأول - ٨:١١).

وأيضاً تدهور الحال ببنى إسرائيل إلى ما هو أقسى من العبودية، فقد صدرت أوامر من فرعون بقتل أولادهم واستحياء بناتهم.

تقول التوراة فى تصوير هذه الحالة:

«وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات اللتين اسم إحداهما شفرة واسم الأخرى فوعة. وقال حينما تولِّدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسى. إن كان ابنا فاقتلاه وإن كان بنتاً فتحيا. ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا كما كلمهما ملك مصر. بل استحيتا الأولاد. فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما: لماذا فعلتما هذا الأمر واستحييتما الأولاد. فقالت القابلتان لفرعون: إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات. فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة. فأحسن الله إلى القابلتين ونما الشعب وكثر جداً. وكان إذ خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتاً. ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه فى النهر. لكن كل بنت تستحيونها» (سفر الخروج - الإصحاح الأول ١٥ - ٢٢).

وفى هذه الأثناء الصادر فيها أوامر بقتل أولاد بنى إسرائيل كان ميلاد موسى. تذكر التوراة أن أمه خبأته ثلاثة أشهر ولم يمكنها أن تخبئه أكثر من ذلك. فوضعته فى سفط من البردى فى

النهر لتلتقطه ابنة الفرعون وتتخذه ابناً لها. ويتربى موسى فى قصر ملك مصر.

وفى مجال التعليق على قصة التوراة فى سيرة موسى، يلاحظ أن بنى إسرائيل قد أصبحوا شعباً - وإن كان شعباً صغيراً - وقد سجلوا بعضاً من أحداثهم التى رصدت من مسافة قريبة لا تتعدى حدودهم المكانية، وأغفلوا البعد الخارجى الذى يمتد إلى نطاق الدولة، هذا غير العنصرية التى أضيفت إلى تراثهم التاريخى والدينى فى العصور اللاحقة.

فقد اهتمت هذه المصادر التى رصدت تاريخ بنى إسرائيل قبل نزول التوراة، بتسجيل المظاهر المعاصرة أو الحوادث التى جرت عليهم بما تمثله فى حياتهم من فرح أو حزن، سعادة أو شقاء، رخاء أو استعباد، دون أن تقدم تفسيراً للظروف السياسية المعاصرة التى أفرزت تلك المظاهر، وما أدت إليه من نتائج، والتى كان أبرزها انتهاء العصر الذهبى لهم فى مصر، ودخولهم نفق الاضطهاد المظلم.

وعندما أتيح لكهنة إسرائيل - بعد سنوات طويلة من وفاة موسى - إعادة كتابة التوراة، فقد أرادوا أن يجعلوها أيضاً كتاباً لتاريخهم، فلملموا تراثهم القديم مع ما تبقى من أوراق أو أقوال متداولة من توراة موسى، فوجدوا فى تراث الأجداد هذا الرصد لمظاهر معيشتهم وأحداث من حياتهم دون تحديد أسبابها، ومن ثم وضعوا لها تفسيرات تتفق مع رغباتهم أو ثقافتهم المعاصرة، وربما فعلوا ذلك بغرض أن يجعلوا للمظاهر المعلومة لديهم سبباً يبررها، وهذا أمر ليس بجديد أو مستغرب فى كتابة التاريخ أو التحليل السياسى، فعله هيرودوت عندما زار مصر وكتب عن تاريخها وكثيرون غيره وتكرر وما زال يتكرر.

كان التراث المسجل أو الأقوال الشعبية المتداولة لبنى إسرائيل تحمل المظاهر الآتية:

- حياة يوسف فى مصر وتعيينه فى منصب نائب الملك، واستقدام أبيه وإخوته ومنحهم مساحات من الأراضى الخصبة، وتعيينهم فى وظائف رؤساء مواشى القصر.
- فى الفترة المعاصرة لميلاد موسى، الإسرائيليون مستعبدون ويعملون بنظام السخرة فى كل الأعمال، ولم تعد لهم ممتلكات.
- الأولاد الذكور يقتلون والأسرات الإسرائيلية تخبئ أولادها.
- قصة منقولة متداولة وربما ورقة تراثية مهمة تسجل أن قابلتى العبرانيات شفرة وفوعة (ويلاحظ هنا أن الأسماء معلومة ومحددة) لديهما أوامر بقتل الأطفال الذكور حينما تولِّدان العبرانيات ولكنهما خافتا الله، ولم تنفذا الأوامر ومن ثم صدرت الأوامر إلى جهات أخرى بالتنفيذ، تذكر القصة أن الأمر صدر لكل الشعب، وهذا التعبير قد يعنى من الناحية القانونية أن قتل الذكور العبرانيين لم يعد جريمة جنائية معاقباً عليها، الأمر الذى يجعلهم هدفاً لكل من يريد استعبادهم وتسخيرهم.
- أم موسى تخاف عليه فتخبئه ثلاثة شهور، ثم تضعه فى سفط من البردى وتلقيه فى نهر

النيل ليذهب إلى بيت فرعون.

ولم يجد الكهنة فى مصادرهم التراثية التأصيل السياسى الذى يبرر تلك الحوادث ويقدم تفسيراً لها، وكان الأمر الطبيعى فى كتابة التاريخ أن تكون هناك إجابة عن سبب التغيير الذى طرأ على حياة بنى إسرائيل فى مصر، فالتحول بلا شك كان غريباً، ولا يمكن أن يجتازه الكاتب دون توضيح لسببه، ما الذى حدث بعد أكثر من ثلاثة قرون على إقامة بنى إسرائيل فى مصر استدعى الانتقام منهم بهذه الصورة العنيفة؟

فكانت الإجابة التى أرادها أو تخيلها كاتب التوراة، أن ملك مصر خاف من بنى إسرائيل لأنهم أصبحوا شعباً أكثر وأعظم من المصريين، ويخشى إذا حدثت حرب أن ينضموا إلى الأعداء ويحاربون معهم ضد مصر، ويصعدون من الأرض. واستناداً إلى هذا الاعتقاد بدأت حملة الاضطهاد والسُّخرة وقتل الأطفال.

تحليل سياسى أو تاريخى يعبر عن وجهة نظر الكاتب، ولكنه بالتأكيد يقدم تفسيراً غير صحيح، ولا يتفق خياله مع المعطيات والمعلومات التاريخية الحقيقية سواء عن مصر أو بنى إسرائيل؛ لأنه لم يحدث أبداً أن شعب إسرائيل فى هذا الوقت أو أى وقت آخر كانوا أكثر أو أعظم من المصريين، ولم تكن تلك الحفنة من الناس هى التى يمكن أن تخشاها مصر عسكرياً أو سياسياً، فى وقت كانت فيه هى الدولة الأعظم والأقوى فى العالم القديم، وأمر وجود بنى إسرائيل أو انتقالهم فى مصر لا يمكن بذاته أن يكون محلاً لقلق المصريين الذين تمتد دولتهم من سوريا شمالاً حتى السودان جنوباً، وقد عبر القرآن الكريم عن نظرة المصريين إليهم فجاء على لسان فرعون «**إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** (٥٤)» [**الشعراء**].

وفى هذه الأيام وعند كتابة تاريخ بنى إسرائيل فإن هذه المشكلة لم تحل، ومازال قائماً ضرورة تحديد سبب هذا التحول وتقديم تفسير تاريخى مقبول لانتقام الحكام المصريين من بنى إسرائيل الذى وصل إلى درجة قتل أطفالهم الذكور واستعبادهم هذه العبودية القاسية، وهو أمر غير معهود فى أخلاق المصريين فى التاريخ القديم مع الأجانب الذين انتقلوا أو عاشوا بمصر.

فإذا كان التفسير التوراتى مرفوضاً تاريخياً، فما حقيقة الأسباب التى نتجت عنها تلك المظاهر؟

بداية لا يمكن إنكار الاضطهاد والتعذيب والقتل الذى جعل أم موسى تخاف على طفلها وتلقيه فى النهر؛ لأن القرآن الكريم أكد تلك الحقائق.

بيد أنه يجب أن يسبق هذا السؤال سؤال آخر لا يقل أهمية عنه، وهو لماذا لم تنصهر تلك القبيلة العبرانية فى المجتمع المصرى الواسع الممتد والأقوى اقتصادياً ومدنياً ؟ لماذا لم يتأثروا بثقافة الشعب ويتمصروا وينتهى الأمر معهم كغيرهم من القبائل والشعوب المهاجرة الذين دخلوا مصر وعاشوا فيها، ومثل مئات الألوف من أسرى الحروب الذين نقلهم الملوك المصريون من آسيا

إلى مصر؟

إن بنى إسرائيل الذين دخلوا مصر - بحسب التوراة - «كانت جميع النفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفساً» وهم من البدو أدنى طبقات المجتمعات القديمة حضارة، قدموا فقراء للبحث عن الطعام، وشاء القدر الإلهى أن يكون أخوهم فى هذا الوقت قد أصبح نائب ملك مصر، فأسكنهم الأرض الخصبة، وأعطاهم المال الوفير ومنحهم الوظائف الرفيعة، وعاش بينهم عمراً طويلاً، فدعم وجودهم وساعدهم فى مصر، ثم كانت المدة الزمنية منذ دخولهم وحتى ميلاد موسى تقارب الثلاثة قرون ونصف قرن، وهى مدة طويلة عاش خلالها أجيالهم ينعمون فى دولة غنية، منفتحة على كل أنحاء العالم المعاصر، وتزخر بكل مظاهر الحرية الدينية فى أقاليم الدولة المختلفة والازدهار الاقتصادى، وفى وسط شعب متمدن راق يؤمن بسيادته وتقدمه وتحضره على جميع شعوب العالم، وجميع هذه العوامل مكتملة كان المفروض أن تؤدى حتماً إلى انصهار تلك القبيلة البدوية فى هذه الحضارة المتقدمة، هذا ما تؤكده الدراسات الاجتماعية والتجارب التاريخية لانتقال الشعوب، ولكن ذلك لم يحدث مع بنى إسرائيل.

ويظل مطروحاً على بساط البحث التاريخى هذان السؤالان:

- لماذا لم تذب القبيلة البدوية الإسرائيلية وتنصهر داخل الحضارة المصرية المتقدمة؟
- ما الأسباب التى دعت مصر أن تغير أخلاقها وتحول سلطة الحكم إلى الاضطهاد والانتقام من بنى إسرائيل فى الفترة المعاصرة لميلاد موسى؟

من الأهمية بمكان قبل أن نجيب عن هذين السؤالين أن نعرض ما ذكره القرآن الكريم فى وصف الأحوال السياسية التى كانت تمر بها مصر فى الفترة المعاصرة لميلاد موسى، ومظاهر الانتقام، فربما نجد الإجابة المناسبة على ضوء مصادر التاريخ التى اكتشفت وفُكّت طلاسمها فى العصر الحديث.

يقول الله تعالى: «**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)**» [القصص].

وقد خضع تفسير القرآن الكريم فى قصة موسى وفرعون مثل قصص أنبياء بنى إسرائيل فى كتب التفسير القديمة والحديثة، فى مواضع كثيرة، لتأثير الرواية التوراتية والتراث المنقول عن الإسرائيليات، ونتيجة لهذا التأثير اتفق المفسرون - السلف والمعاصرون - واستقر فى الأذهان على مر العصور أن الطائفة المستضعفة المقصودة هم شعب بنى إسرائيل، وهم سلالة نبى الله

يعقوب الذين كانوا يعيشون فى مصر.

وهذا التفسير ـ فى رأينا ـ محل نظر، ذلك أن رواية العهد القديم ـ التى بين أيدينا الآن ـ والتراث الإسرائيلى اللذين كتبهما الكهنة فى عصور تالية بعدة قرون لعهد موسى لم يكن يعنيهما أبداً ـ كما أوضحنا سابقاً ـ سوى شعب إسرائيل، ولذلك وعلى مدار كتابهم حرصوا دائماً على تأكيد مبدأ «أسرلة الدين» (Israelization of Religion) الذى يعنى عدم إمكانية الفصل بين الدين وبنى إسرائيل كمجموعة عرقية، ووصلت أيضاً إلى حد «أسرلة الرب» نفسه (Israelization of the Lord) وذلك بإصرار العهد القديم على تصوير الله على أنه رب بنى إسرائيل، وليس رب المصريين أو رب فرعون، وبحسب العهد القديم لم يكن أى من يوسف أو موسى له أى شأن بدعوة المصريين أوفرعون وهدايتهم للإيمان بالله؛ لأنه ليس رب العالمين ولكن «إله العبرانيين» وتكرر هذا التحديد العرقى لهوية الرب بانتظام فى العهد القديم.

وهذا الاعتقاد أو الخداع الكبير هو قطعاً عكس القرآن العظيم الذى أكد لنا أن يوسف وموسى نبياً الله بعثا لأجل المصريين ولدعوتهم للإيمان بالله الواحد، وأنهما عليهما السلام أتما رسالتهما على خير وجه، ودخل بدعوتهما فى الإسلام ـ يقيناً ـ أعداد من المصريين.

والنتيجة التى يؤدى إليها هذا النظر هى أن المؤمنين من المصريين الذين اعتنقوا الدين الجديد قد اشتركوا فى عقيدة واحدة واندمجوا مع المجموعة المؤمنة من بنى إسرائيل أبناء يعقوب ـ الذين كان الله قد تاب عليهم ـ وهؤلاء ـ بلا شك ـ كانوا على دراية بأمور دينهم الصحيحة كما تعلموها ونقلت إليهم من أنبيائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، ولم يكن الدين قد دخلت عليه بعد العنصرية العرقية، بل جمع بينهم الإيمان ووحَّدهم، فنشأت طائفة جديدة هى مجموعة المسلمين، تضم أبناء يعقوب (بنى إسرائيل) والمصريين الذين أسلموا، وعاش بينهم هذا الدين وتوارثته أجيال المؤمنين من المصريين والإسرائيليين. ومخالفة هذا النظر لا تتفق مع ما أكده القرآن من دعوة يوسف فى مصر، وتنكر إيمان المصريين به على الرغم من حياة يوسف الطويلة وعميقة التأثير بين المصريين.

وتشهد رواية القرآن بعدم وجود صراع بين يوسف والمصريين من أجل الدعوة أثناء رسالته وولايته فى مصر ـ مثلما حدث وذكره القرآن لغيره من الأنبياء مع قومهم ـ الأمر الذى يمكن أن نستدل منه أن دعوة يوسف ـ عليه السلام ـ نجحت فى بعض مناطق مصر، وهى بيئة – بحسب أفكار عقائدية قديمة، وإيمانها بالبعث والخلود والحساب فى العالم الآخر – مهيأة وجدانياً لتقبل العقيدة السماوية، ويصبح من المفترض ـ عقلاً ومنطقاً ـ أنه دخل فى عقيدة التوحيد بدعوة يوسف أعداد لا بأس بها من الشعب من المنطقة الشمالية لمصر التى كانت تخضع لسيطرة الحكام الهكسوس فى عهد يوسف ـ طبقاً لأدلة قادمة ـ والذى يمكن ترتيبه استنتاجاً على ذلك أن منطقة شرق الدلتا حيث عاش يعقوب ويوسف نبيا الله والأسباط أصبحت قبلة للمؤمنين، ومقراً

لدعاة الدين الجديد، وظلت تحتفظ بهذه المكانة بعد وفاتهم، باعتبارها المنطقة التى استمر يعيش فيها ورثة الأنبياء من بنى إسرائيل، ويأتى طبيعياً أن يكون هؤلاء الدعاة محلاً لاحترام وتقدير المسلمين المصريين، ومرجعاً لهم فى أمور دينهم، وأن ينظروا إليهم باعتبارهم السلالة الكريمة للأنبياء، وأئمة الدعوة، وسدنة بيت النبوة، ويقودنا هذا الاستنتاج مع التصوير القرآنى للظروف التاريخية فى ميلاد موسى إلى استمرار هذا الوضع قائماً حتى كان ميلاده الكريم عليه السلام فى هذا المكان، الذى أصبح قبلة للمؤمنين ومقراً للدعوة منذ زمن يوسف يتوافد عليه جمهور المسلمين من شمال الدلتا وأنحاء مصر ليلتقوا مع فقهاء دينهم العالمين بصحف إبراهيم ورسالات إسحاق ويعقوب ويوسف.

ونعرف أنه بعد طرد الهكسوس والاستقلال، اتخذ حكام مصر منذ بداية تأسيس الأسرة الثامنة عشرة مدينة طيبة فى الجنوب عاصمة للدولة، وتركز اهتمامهم فى إزالة آثار الاحتلال والتنظيم الإدارى والعمران الداخلى. وكانت عقائد المصريين ـ آنذاك ـ تقوم على نظام تعدد الآلهة المنتشرة فى أقاليم الدولة، كما وفد كثير من الأجانب على مصر وأقاموا معابد لآلهتهم خاصة فى المدن الشمالية، ولهذا يأتى طبيعياً أن لا يتنبه حكام مصر إلى خطورة عقيدة التوحيد الوافدة، وربما تعاملوا معها على أنه لا شىء يضير إن كان هؤلاء القوم قد اتخذوا لهم إلهاً خفياً لا يمثَّل، كما لباقى الأقوام آلهتهم.

وعلى النحو الذى ذكرناه سابقاً فى تاريخ مصر، وسوف نوضح فى الفصول القادمة أدلة التعاصر الزمنى، فقد حدث قبل نهاية الأسرة الثامنة عشرة أن ديانة التوحيد وصلت إلى سلطة العرش فى الدولة، وفرضت على البلاد وصدرت الأوامر فعلاً فى عهد إخناتون بإلغاء العبادات الوثنية ومصادرة ثروات المعابد، ولكن سرعان ما حدث – نتيجة لعدة مؤامرات محكمة دبرت بالاشتراك بين الكهنة والجيش أن نجح تحالف الشر فى إسقاط إخناتون والقضاء على الخطر الذى هدد نفوذهم وثرواتهم، وبعد أن وصل قادة الجيش إلى سلطة الحكم وعادت للكهنة معابدهم ومناصبهم وأموالهم كانوا قد تنبهوا تماماً إلى خطورة أتباع ديانة التوحيد عليهم، فهم وحدهم دون غيرهم من أتباع العقائد والديانات المتعددة، والآلهة والآلهات سواء المصرية أم الآسيوية شمالاً وجنوباً لا تقبل عقيدتهم التعدد وترفض وجود شريك ينازع إلههم الواحد، فوجهوا حربهم وانتقامهم ضد طائفة المسلمين، وقد صاحب هذا الانتقام انتقال إدارة الحكم من طيبة العاصمة الرسمية فى الجنوب إلى شرق الدلتا منطقة تمركز المؤمنين وقبلة دين التوحيد ومقر الدعاة، وهناك تركز وتمركز الاضطهاد والتنكيل والتعذيب ضد القوة الأساسية التى حركت وساندت ثورة التوحيد فى مصر، ولم تكن طائفة المؤمنين هم بنو إسرائيل وحدهم، بل كان معهم جموع من المصريين، عقدت قوى الشر ـ فرعون وجنوده وكهنته ـ عزمها على القضاء عليهم قضاءً مبرماً انتقاماً منهم، حتى لا تقوم لهم قائمة مرة أخرى، فكانت حرب إبادة وتطهير.

وعلى هذا تدل آيات القرآن الكريم، فالطائفة المستضعفة التى يتحدث عنها الله تعالى هم من أهل مصر «**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④**» [القصص]، فالأرض تنصرف إلى مصر التى يحكمها فرعون والضمائر فى (أهلها)، (طائفة منهم)، (أبناءهم)، (نساءهم) جميعها تعود إلى أهل تلك الأرض المصريين، وبالمقارنة فإنه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم عندما يريد الله تعالى أن يقصر حديثه على بنى إسرائيل فإنه يذكرهم بصفتهم، فإذا جاء الأمر هذه المرة على نحو مختلف فيترتب بالتالى أن يكون المقصود هو المعنى الواضح الذى تعبر عنه دلالات الألفاظ وليس أى شىء آخر، ولكن ارتباط ميلاد موسى بأمر هذه الطائفة يؤدى إلى استنتاج أن بنى إسرائيل الذين يعيشون فى مصر قد ارتبطوا بهذه الطائفة المستضعفة من المصريين واستحق على الجميع عقاب واحد من الفرعون. ومن ثم يجب أن نبحث عن الظروف التاريخية فى مصر التى أدت إلى هذا الموقف الذى وحد بين طائفة من المصريين مع بنى إسرائيل ووضعهم أمام فرعون وجنوده فى خندق واحد.

وبهذا يقودنا التخلص من تأثير الإسرائيليات، مع ربط القصة الدينية بالوقائع التاريخية المعاصرة إلى تفسير جديد لآيات ميلاد موسى فى سورة القصص، يستند على أن دين التوحيد قد جمع ووحد طوائف من أجناس تعيش فى مصر، سواء من أهلها المصريين الذين آمنوا به، أم الوافدين من شعب إسرائيل، أحفاد يعقوب الذين أتوا مصر مسلمين فى عهد الهكسوس وعاشوا آمنين وربما غيرهم من الأجانب أو المهاجرين أو المجلوبين أسرى واعتنقوا جميعاً الدين الجديد، واستمرت حياتهم وأجيالهم التالية خلال ثلاثة قرون ونصف القرن منذ دخول دين التوحيد وحتى ميلاد موسى، وقد ارتبطت معيشتهم وأرزاقهم بتلك الأرض، فعبر عنهم القرآن العظيم باعتبار أنهم جميعاً من أهلها شأنهم شأن الطائفة الأعم من المصريين.

وهذا التفسير - كما سنتناوله لاحقاً فى فصل قضية الميراث - سوف يفسر بدوره قول الله تعالى: «**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥**» [القصص]. ذلك أنه اعتماداً على هذا المنطق فى التفسير سوف ينصرف الوعد الإلهى إلى جموع المسلمين وليس لبنى إسرائيل؛ لأنه لم يحدث فى أى عصر - ولن يحدث بإذن الله - أن كانت مصر ميراثاً لبنى إسرائيل، أو يتمكن لهم فى أرضها.

والملاحظة الجديرة بالتنويه؛ أنه على الرغم من أن القرآن الكريم قد تناول قصة موسى مع فرعون فى مواضع كثيرة ومتعددة فإن هذه الآيات الأولى من سورة القصص - سالفة البيان - هى الوحيدة التى تناولت الإشارة إلى الأحوال السياسية فى مصر قبل ميلاد موسى، وأظهرت وجود انقسام داخلى فى المجتمع، وانتقام فرعون من الطائفة المستضعفة وقتل أولادهم. أما الآيات

الأخرى فإنها تتناول حياة موسى فى مراحل: مهده وبلوغ أشده وهروبه إلى مدين ثم بعثته وأمر الله له بالعودة إلى مصر وصراعه مع فرعون انتهاء بالخروج ثم رحلة ما بعد الخروج.

ولا يتناقض التفسير الذى قدمناه للمقصود بالطائفة المستضعفة فى مصر قبل ميلاد موسى مع ما ذكره القرآن فى آيات أخرى عن بنى إسرائيل تقصدهم خاصة، مثل قوله سبحانه: «**وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)** [**الأعراف**]. وقوله تعالى على لسان موسى لقومه: «**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)**» [إبراهيم].

فى هذه الآيات كان حديث الله تعالى لبنى إسرائيل أو على لسان موسى ليذكرهم بنعمه عليهم ويحثهم على طاعة الله والاستجابة لما أمرهم به، فالحديث الآن لهم خاصة وهم قسم من طائفة المؤمنين الذين تعرضوا لسوء العذاب وقتل الأطفال واستباحة النساء، والله سبحانه يذكرهم بفضله عليهم فى موقف خاص بهم بعد الخروج من مصر، ولم يكن معهم فيه المصريون، وإذا كان علماء التراث - وتابعهم المحدثون - قد ظلوا يعتبرون فى تفسير القرآن أن آيات المضطهدين من بنى إسرائيل توضيح وتحديد لطائفة المستضعفين فى الأرض الواردة فى سورة القصص على الرغم من انصراف عبارات النص القرآنى فيها إلى أهل مصر، فإنه بعد أن كشفت المصادر التاريخية (الآثار) عن تلك المساحة الواسعة والحجم الهائل من الاضطهاد والتعذيب والتنكيل بأتباع ديانة التوحيد فى مصر، وهدم عاصمتهم وتشريدهم واختفائهم جملة بعد سقوط الآتونية والتى حدثت - حسبما سنفصل لاحقاً - فى توقيت زمنى تال لعصر يوسف وقبيل ميلاد موسى، فإننا بذلك نرى أن هذه المصادر تؤكد أن التفسير الصحيح للمقصود بطائفة المستضعفين فى الأرض، هم جماعة المسلمين فى مصر، ولم يكن بنو إسرائيل سوى جزء منهم شاركوهم محنتهم وبلاءهم.

وعودة الآن إلى التساؤلات السابقة المثارة، فإنه بعد هذا العرض، يمكن الإجابة عن أول السؤالين: بأن بنى إسرائيل لم يندمجوا وتنتهى قوميتهم داخل الحضارة المصرية الأشمل والأقوى بسبب عقيدتهم التي تقوم على الإيمان بالله الواحد، فى وسط مجتمع وثنى يقوم على تعدد الآلهة، فقد ظلت فيهم وصية جدهم يعقوب: «**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)**» [**البقرة**]. ولذلك لم يتأثروا بالمجتمع الأقوى حضارياً، وإنما يمكن القول أنهم بعقيدتهم قد أثروا فيه ونشروا بين المصريين ديانة التوحيد التى تركها فيهم آباؤهم.

وأما سبب تحول سلطة الحكم فى مصر واضطهاد بنى إسرائيل فإن ذلك يرجع إلى نشر عقيدة التوحيد التى تغلغلت فى المجتمع تدريجياً حتى وصلت إلى تهديد نظام الحكم ونفوذ

الكهنة وثروات المعابد، وعند القضاء على ما اعتبر فى ذلك العهد فتنة كبرى زلزلت النظام والشعائر، فقد كان طبيعياً أن ينتهى الأمر إلى اكتشاف جذور الفتنة ومعرفة قيادتها وحملة لواء الدعوة وتحديد قبلة هذا الدين الذى كاد أن يقوِّض آلهة الدولة الأزلية ويقضى على تراثها وثقافتها ويسلب أموالها، ومن ثم كان الانتقال إليهم فى شرق الدلتا ومصادرة ممتلكاتهم والاستيلاء على أراضيهم وإنشاء عاصمة جديدة عليها، واستعبادهم والقضاء على دينهم وقتل أطفالهم واستباحة نسائهم.

وقد سبق أن أشرنا فى تاريخ مصر إلى تلك المرحلة التاريخية فى نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة، وسوف يكون لتلك الأحداث تفصيل خاص عند تحديد الفترات التاريخية لحياة بنى إسرائيل فى مصر.

وفى قصة ميلاد موسى ذكر المفسرون كثيراً من الأساطير - دون سند - عن سبب قتل الأطفال الذكور؛ من أشهرها رؤيا فرعون التى فسرها الكهنة بأن غلاماً يولد من بنى إسرائيل يكون سبب هلاك أهل مصر، وأيضاً تفسير نجاة هارون شقيق موسى الأكبر المولود قبله بعامين بسبب شكوى المصريين لفرعون من قلة بنى إسرائيل عمال السخرة، فأمر أن يكون قتل الأبناء عاماً بعد عام، وولد هارون فى عام المسامحة، أما موسى فكانت ولادته فى عام قتلهم.

وهذه التفسيرات وكثير غيرها طرحت فى قصة موسى وهى تخرج عن مجال الواقعية، وتدخل فى نطاق الأساطير أو الأدب الشعبى الذى يعتمد على الثقافة الشخصية لمؤلفها، وجميع هذه الروايات أو المبررات سطحية التفكير والتى لا تستند لمصدر سوف ننحيها جانباً فى مجال دراستنا.

وبشأن توجيه القتل إلى الذكور، ونجاة هارون، فنفسره بأن هذا القتل لم يكن عملية منظمة، بحيث يمكن أن نخضعه لقانون قد صدر، بأن كل طفل ذكر يولد لبنى إسرائيل يقتل، وإنما الأمر فى حقيقته كان اضطهاداً بكل صوره، ضد أتباع ديانة التوحيد بما يشمله من قتل وتعذيب وسخرة وتشريد وسجن، والهدف النهائى هو القضاء على هذا الدين إما بقتل أتباعه، أو إجبارهم على الارتداد، وكان جزءاً من إخضاعهم هو قتل أطفالهم، ولأن بنى إسرائيل هم جذور تلك المشكلة كان طبيعياً أن يصيبهم الجانب الأكبر من التنكيل، ولا يمنع الأمر أن تكون صحفهم ونبوءات أنبيائهم قد أشارت إلى نبى يبعث فيهم ويخرجهم من مصر إلى أرض الميعاد، وشاع هذا الأمر وانتشر فى مصر، ووصل إلى أسماع فرعون وجنوده، ولذلك وجهوا انتقامهم إلى أطفالهم الذكور للقضاء عليهم، ويمكن أيضاً أن تكون إحدى مراحل الانتقام من بنى إسرائيل قامت على أن تكون حرب إبادة، وبعد أن ضعفت شوكتهم وخارت عزيمتهم اكتفى فرعون وزبانيته بتسخيرهم فى أشق الأعمال المضنية.

وأما نجاة هارون فتجد تفسيرها فى قصة التوراة، التى تذكر - بكل خير - امتناع قابلتى

العبرانيات عن تنفيذ أوامر قتل الأطفال الذكور، وهما تولّدان النساء العبرانيات بسبب خوفهما من الله، وتكون نجاة هارون - المولود قبل موسى - جاءت بفضل رحمة وإنسانية بعض القائمين على تنفيذ الأوامر مثل القابلتين شفرة وفوعة، والتى تدل قصتهما على أنهما كانتا من المؤمنين وتخفيان إيمانهما، ولكن النهج العنصرى الذى ينكر الإيمان على غير بنى إسرائيل لم يذكر ذلك للقابلتين.

وقد اختلفت حالة موسى عن حالة هارون فيما ذكرته بقية القصة من أن فرعون أسند مهمة القتل إلى جهات أخرى، حيث أمرهم بطرح الأولاد فى النهر، أى أن الأمر خرج عن نطاق القابلتين المؤمنتين، ولهذا خافت أم موسى على ابنها واستجابت لوحى الله بإلقائه فى النهر.

ولا أتفق مع الدارسين الذين ينكرون قصة «شفرة وفوعة»، على سند منهم أنه لا يستقيم أن يصل الأمر بملك مصر، الدولة العظمى أن يكون تنفيذ أوامره عن طريق اتفاق مع القابلتين، أو أن يدور بينهما من الأساس هذا الحوار الذى سجلته رواية التوراة. وهذا الأمر مردود عليه، بأن تلك الحالة قد سجلها تراث بنى إسرائيل طبقاً لما تحدثتا به إليهم القابلتان، وكانتا تعنيان إبلاغهم بأوامر فرعون، ولا يعنى هذا أنهما تحدثتا مع شخص الفرعون مباشرة، وإنما نقلت إليهما الأوامر عن طريق جنوده أو موظفيه، فالأمر الفرعونى هو القتل، وانتقلت الأوامر من كل الجهات التابعة له، وكانت القابلتان إحدى وسائل التنفيذ. ويكون مضمون الحديث الذى قصده كاتب بنى إسرائيل هو أن أمر القتل صادر من ملك مصر ذاته، ومن ثم فإننا نؤيد صحة قصة التوراة من وجود القابلتين وفعلهما الحسن، أما التفاصيل الدقيقة فإنها صياغة بشرية تختلف وفقاً لتفسير الكاتب ورؤيته الشخصية لسير الأحداث.

تربية موسى فى بيت الفرعون

بعد أن استجابت أم موسى إلى وحى الله سبحانه بأن تضع ابنها فى تابوت وتقذفه فى نهر النيل، ألقاه النهر على الساحل أمام بيت الفرعون، والتقطه آل فرعون ووصل إلى امرأته التى سعدت به وتمنت أن يجعله الله قرة عين لها ولفرعون زوجها، وطلبت منه ألا يقتله وأن يتخذوه ولداً لهما، واستجاب لها الفرعون.

وقد خافت أم موسى على ولدها فأرسلت أخته لتتقصى مكانه، فتبينت انتهاءه إلى بيت الملك، واستطاعت أن تقترب من مكان وجوده، وعلمت من الموجودين بالبيت بوجود مشكلة للطفل بسبب امتناعه عن المرضعات، فوعدتهم بأن تدلهم على سيدة يمكنها إرضاعه وأحضرت لهم أمه، ليتحقق وعد الله لها برده إليها.

ونعرض آيات القرآن الكريم التى تناولت تربية موسى فى بيت فرعون، ثم نعقب عليها ببعض الملاحظات المهمة:

يقول تعالى: «**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)**» [القصص].

ويقول تعالى: «**إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ... (٤٠)**» [طه].

ونستخلص من الآيات السابقة الملاحظات الآتية، والتى سوف نعتمد عليها لاحقاً فى تحديد الإطار الزمنى وأشخاص القصة الدينية:

١ـ استخدم القرآن الكريم لفظ فرعون للدلالة على ملك مصر فى عهد موسى، فى حين أنه استخدم لفظ ملك وليس فرعون فى قصة يوسف، والتوراة استخدمت لفظ فرعون فى القصتين.

٢ـ فرعون الذى ذهب موسى إلى بيته وتربى فيه هو عدو الله وعدو موسى الذى جعل أهل مصر شيعاً واستضعف طائفة منهم وذبح أبناءهم.

٣ـ ألقى الله على الطفل موسى محبة من عنده فى بيت الفرعون، ولم يستثن الله سبحانه أى شخص من الشعور بتلك المحبة لموسى «**يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)**» [طه] ،وهذا يعنى قطعاً أن فرعون عدو الله وعدو قوم موسى قد أحب الطفل فور أن رآه، هكذا أراد الله فلا راد لمشيئته، وهذا ما قصده الله سبحانه من الربط مباشرة بين العداوة وإلقاء المحبة، وهذه المحبة التى ألقاها الله تجاه موسى ليشعر بها كل من يراه فى بيت الملك كانت هى البديل الذى منحه الله له عن حنان أمه وعائلته، لينشأ سوياً ويعيش فى أمان، وهذا يفسر قوله تعالى: «**ولتصنع على عينى**»، وأيضاً عندما تمنت امرأة فرعون من زوجها أن يجعل موسى قرة عين لها وله؛ فقد استجاب لها بسبب هذا الشعور بالمحبة الذى ألقاه الله على كل من يشاهد الطفل، ولهذا فإننا لا نتفق مع كتب التفسير التى تنكر هذا الشعور على فرعون، ومن ذلك قول ابن كثير فى تفسيره: إن امرأة الفرعون عندما وقع نظرها على الطفل موسى أحبته حباً شديداً جداً وأن فرعون أمر بذبحه فدفعته عنه، وقالت «**قرت عين لى ولك**» فقال لها: أمَّا لك فنعم وأما لى فلا، فهذا التفسير أو بمعنى أصح الافتراض الشخصى المنعدم السند أو المصدر فإنه يخالف صريح قصد الآية الكريمة.

٤ـ قول امرأة فرعون لزوجها «**لا تقتلوه**» يعنى وقوفهم على أصله وعلمهم أنه من تلك الطائفة التى يُقتل أبناؤها، وهذا يتفق أيضاً مع قصة التوراة من أن ابنة الفرعون التى التقطته بمجرد أن

فتحت السفط قالت هذا من أولاد العبرانيين.

٥- قول امرأة فرعون لزوجها: «عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑨»[القصص] يكشف عن وجود مشكلة لديهما فى الإنجاب، وأن الله قد حرم فرعون من أن يكون له وريث للعرش يخلفه على حكم مصر. وهذا يفسر تعبير «**لا يشعرون**» التى تنصرف بالضرورة إلى مؤسسة الحكم ورجال الدولة. ولا نتفق مع التفسير الذى يذهب أن هذا التعبير يعنى فرعون وقومه الذين لا يدرون ماذا يريد الله بهم من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده، ذلك أن العبارة فى الآية الكريمة مستمرة على لسان امرأة فرعون وتأتى توضيحاً لغرضها من سبب الاحتفاظ بالطفل وهو أن ينفعهما أو يتخذاه ولداً واقتران هذه الحالة بأن لا يشعر القوم بذلك.

٦- نجحت أخت موسى فى أن تصل - دون مجهود - إلى بيت الفرعون وتقصت مكان أخيها عن جنب وهم لا يشعرون، بل أكثر من ذلك تمكنت من الوصول إلى أهل البيت وحاشية الفرعون وتحاورت معهم بشأن الطفل وعلمت منهم المشكلة التى تواجههم واقترحت أن تحلها لهم، وهذا يوضح أن القصر أو المنزل الذى اتخذه فرعون مكاناً لإقامته فى تلك المنطقة فى هذه الفترة كان قريباً من الشعب، بل من مناطق سكن العبرانيين، ودون حراسة، ويسهل للناس مراقبة ما يدور فيه ويمكن لبعضهم الاقتراب منه أو الوصول إليه، كما فعلت أخت موسى.

٧- ذكرت قصة القرآن أن امرأة فرعون هى التى التقطت موسى من النهر واتخذته ابناً لها، فى حين أن رواية التوراة تذكر أنها ابنته.

٨- كانت امرأة فرعون مؤمنة بالله من قبل ميلاد موسى وعلى هذا يدل حديث القرآن الكريم عنها، ويؤيد هذا أيضاً قوله تعالى: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑪»[التحريم].

وتكشف هذه الآية عن رفضها لجميع أفعال فرعون والقوم الظالمين، والتى بدأت قبل ميلاد موسى، ولهذا لا نتفق مع التفاسير التى تذهب إلى أن وضع الله للإيمان فى قلبها لم يحدث إلا بعد أن رأت موسى، بل إنه سبحانه قد اختار له سيدة مؤمنة لتربيه.

خروج موسى من مصر والإقامة فى مدين

لم تذكر رواية التوراة أية معلومات عن حياة موسى فى بيت الفرعون، ويذكر القرآن الكريم عنه أنه «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ⑭» [القصص] والذى نستخلصه من ذلك القول أن موسى تعلم فى بيت الفرعون ونهل من معارف المصريين وعلومهم على مختلف مستوياتها وفروعها، وأعده الله سبحانه وتعالى لرسالة النبوة فى مصر التى اختاره لها وبشر بها أمه حين كان فى المهد، ويدل قوله تعالى: «**آتيناه حكماً**» أنه غالباً بعد أن أنهى دراسته تهيأ له فى مصر منصب مرموق فى الدولة.

هذا ما ذكره القرآن عن الفترة من طفولة موسى إلى بلوغه مرحلة النضج والشباب والاستواء، وفى هذه الآونة ينتقل القرآن إلى مرحلة جديدة تكشف عن خروج موسى من البلاط الملكى، دونما أية معلومات مباشرة عن الظروف المعاصرة التى تبين علاقة موسى بالمصريين أو علاقته بقومه بنى إسرائيل، أو علاقته فى تلك المرحلة بفرعون الذى تربى فى بيته والسيدة الكريمة امرأة فرعون التى اتخذته ابناً لها، ومتى أصبح يعلم بعائلته الحقيقية أمه وأخته وأخيه هارون، وهل جرى بينه وبينهم أى اتصال فى المرحلة السابقة على خروجه إلى مدين؟

نعود ونُذكر أن القرآن ليس كتاب تاريخ ولا يهتم بتفاصيل السيرة الذاتية، وإنما له أهداف أخرى تختلف عن ذلك القصد، ولكن سوف نحاول أن نستخلص هذه المعلومات من عبارات القرآن الكريم.

يذكر القرآن مباشرة الحادثة التى كانت سبباً فى هروب موسى من مصر، يقول الله تعالى:

«وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)» [**القصص**]، مضمون رواية القرآن الكريم أن موسى خرج من بيته يتجول فى المدينة، والمقصود المدينة المصرية التى تقع على فرع النيل البيلوزى فى شرق الدلتا القريبة من المنطقة التى يعيش فيها بنو إسرائيل والمقام عليها بيت الفرعون الذى كان يعيش فيه، وفى إحدى مناطق المدينة التى كانت خالية فى هذا التوقيت من المارة شاهد موسى مشاجرة بين رجلين يصفهما القرآن بأن أحدهما من شيعته والآخر من عدوه (تذكر التوراة أنه رأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته) وعلى حسب رواية القرآن فإن الرجل الذى من شيعة موسى استغاثه لينصره على عدوه، فتدخل موسى محاولاً منع الرجل العدو من ضرب الرجل الذى من شيعته، ولكن الأمر تطور وتجاوز قصد موسى وجاء على صورة لم يكن يرغبها أو يتوقعها، ذلك أنه ما إن دفع الرجل العدو بقبضة يده حتى فوجئ به يسقط مقضياً عليه. يذكر الله تعالى وهو خير الشاهدين وأصدق القائلين أن فعل موسى لم يتعد أن «وكزه» ومهما كانت قوة موسى فإن هذا الفعل لا يمكن أن يؤدى بذاته إلى قتل الرجل، ولكن مشيئة الله التى ترتب أقدار موسى منذ مهده جعلت هذه الوكزة تقضى عليه وتنهى حياته، ليبدأ موسى مرحلة أخرى من حياته مقدرة له، وطبقاً لشهادة

الله تعالى فإن فعل موسى بحسب المعايير الجنائية الحديثة لا يشكل جريمة معاقباً عليها، فلا يمكن اعتباره قتلاً عمدياً، لأن نية إزهاق الروح لم تتوافر لديه، وليس قتل خطأ؛ لأن من شروط هذا القتل أن يحدث بسبب رعونة الجانى أو إهماله أو عدم احترازه وتبصره للأمور، وهذا أيضاً لم يتوافر فى حق موسى الذى كان يقصد زجر الرجل المصرى ودفعه لمنعه من الاستمرار فى ضرب الرجل الإسرائيلى، فاتخذ سلوك الشخص المعتاد فى فض المشاجرات ومنع الاعتداء على الغير، كما لا يمكن تكييف الواقعة بأنها ضرب أفضى إلى موت الرجل؛ لأن ذلك ينفيه أن موسى لم يأت أفعال ضرب واعتداء بذاته، وإنما قصد دفع ومنع المصرى من مواصلة ضرب الإسرائيلى، فاتخذ رد فعل يتناسب مع استعمال حق الدفاع الشرعى عن الغير بل إن ما أتاه من فعل «وكزه» يعد أبسط استعمال للقوة اللازمة من أجل دفع الاعتداء فى هذه الحالة، إذاً لو توافر فى عصر موسى الكشف عن طريق الطب الشرعى لجاءت النتيجة بأن الوفاة طبيعية، ولسبب غير جنائى، ولصدر الحكم ببراءة موسى، ولكن حتى موسى لم يدرك براءته وظن أن فعله كان سبباً فى موت الرجل، وقال: «**هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾**»[**القصص**]. وندم على ظلمه لنفسه واستغفر ربه فغفر له ـ باعتبار نيته ـ وعزم ألا يعود لهذا الفعل.

وأما عن تصوير رواية التوراة لذلك الحادث فقد عرضته طبقاً للصورة الظاهرة منه، وبشهادة بشرية أدانت موسى عن أشد صوره الجنائية وهى جريمة القتل العمدى، تقول الرواية «وحدث فى تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر فى أثقالهم فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته، فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أنه ليس أحد فقتل المصرى وطمره فى الرمل [سفر الخروج ـ الإصحاح الثانى ١١ ـ ١٢]، وبالطبع فإن قصة التوراة لا تحمل أى ندم أو استغفار أو إحساس بذنب أو أى فعل خاطئ نتيجة قتل المصرى.

وعودة إلى حديث القرآن فى هذه الواقعة، فقد وصف أحد الرجلين بأنه من شيعة موسى والآخر عدوه، ولفظ من شيعته يشير إلى أنه إما واحد من المؤمنين الذين يعرفهم موسى أو من قومه بنى إسرائيل الطبقة المسخرة آنذاك والتى تخضع للاستغلال وتفتقد إلى الحماية، ويغلب أنه كان من بنى إسرائيل، ذلك أنه لأسباب سنذكرها عند التحديد الزمنى لتلك الفترة، فإن مصر كانت قد تجاوزت المرحلة الزمنية للانتقام من المصريين أتباع عقيدة التوحيد التى عاصرت ميلاد موسى، وإن كانت قد استمرت أعمال السخرة لبنى إسرائيل ومعاملتهم كالعبيد وأسرى الحروب، كما ذكرت رواية التوراة بأنه من العبرانيين، وأما استخدام القرآن لفظ «العدو» للرجل الآخر يعنى أن المقصود أحد المصريين الكافرين والذين لهم باع فى اضطهاد بنى إسرائيل فهو «عدو» لأنه من غير دين موسى ويضطهد قومه؛ لأنه لا يمكن أن يقصد القرآن العظيم أنه لمجرد أن موسى من بنى إسرائيل فيكون «عدواً» لكل مصرى، فبعد أن وصفه الله تعالى بقوله «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾**» [**القصص**]. فلن يكون بالرجل الجاهل الذى

يتعصب تعصباً أعمى ضد طائفة من الناس لانتمائها العرقى، ويعتبر رجلاً لا يعرفه من قبل عدو له لمجرد أنه مصرى من غير قومه.

ويكمل القرآن القصة بأن موسى أصبح فى اليوم التالى خائفاً يترقب الأمور فى المدينة، ويتحسس الأخبار عن فعله، فإذا به يفاجأ بنفس الرجل الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس فى حالة شجار مع شخص آخر وصفه القرآن أيضاً بأنه عدو لهما، مما يعنى أنه كافر من الطائفة التى تضطهد بنى إسرائيل، ومرة أخرى استصرخ الإسرائيلى موسى لإغاثته ولينصره على المصرى، إلا أن موسى الذى كان قد ندم واستغفر ربه وعزم على ألا يعود لفعله لام الرجل الإسرائيلى وعنفه على كثرة شره ومخاصمته للناس، وقال له فى ضجر: **«إنك لغوى مبين»** ولكن يذكر القرآن أنه حدث بعد ذلك أن موسى أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما فقال له **«يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)»[القصص]**. وهذا الانتقال الفجائى فى الرواية القرآنية أمر لا يغيب عن الإدراك، وكان محلاً لكثير من الاستنتاجات والتفسيرات فى كتب التفسير، ويقتضينا الأمر استنتاج تصور تطور الأحداث التى أدت إلى تحول موسى من لوم الإسرائيلى وزجره إلى حالة عكسية، وهى إرادة البطش بالمصرى، ويكون التصور المنطقى الذى تقتضيه عبارات النص أنه بمجرد قول موسى للإسرائيلى فور استغاثته به «**إنك لغوى مبين**» التى تحمل معنى اللوم والتعنيف على تكرار الشجار وتكشف - لا بد - عن أمر ما سابق فإن هذا اقتضى - حتماً - أن يتطرق الحديث الغاضب إلى ما حدث من إغوائه بالأمس ودفعه إلى ارتكاب عمل من أعمال الشيطان والجرم الذى ترتب عليه، وكيف أنه اليوم بسلوكه العدوانى يريد أن يدفعه لذات الفعل، وقد ترتب على ذلك كرد فعل من الرجل الإسرائيلى بمجرد أن زجره موسى أنه اندفع دون تبصر فى الدفاع عن نفسه مبرراً خصومته مع المصرى بالأمس، بأنه هو الذى اعتدى عليه، ثم تطرق الحوار إلى سبب شجاره اليوم، والغالب أن سبب الخصومتين أمر واحد، ولا يستبعد أيضاً أن المصرى الثانى كان يعتقد - لأسباب لديه - أن ذلك الإسرائيلى له علاقة باختفاء قريبه المصرى الأول منذ الأمس، أو أنه جاء عالماً بقتله ويساوره الشك بأن هذا الإسرائيلى هو الفاعل للجريمة بسبب خصومة بينهما - أو تهديد سابق - وجاء إليه متوعداً يريد أن يتحقق من ذلك أو ينتقم من الإسرائيلى، وإذا به يكتشف من الحوار بين موسى والإسرائيلى حقيقة ما حدث بالأمس، هذا احتمال. وهناك احتمال آخر بأن الإسرائيلى نجاه بنفسه من اتهام المصرى له كفاً لمواصلة اعتدائه عليه بعد أن رفض موسى نجدته أن يكون قد صرح بأن موسى هو الذى قتل المصرى الآخر وليس هو، وهنا تغير الأمر وحدث التحول المفاجئ بعد أن علم هذا المصرى العدو أن موسى هو القاتل وهدده بالإبلاغ عنه وأرغى وأزبد فى الكيل لموسى، ولعله أمسك بتلابيبه كى لا يفلت قاصداً تسليمه للشرطة، فتحول موسى إليه يريد أن يبطش به بسبب هجومه عليه وتقييده له وألفاظه ضده، وإذ غلبه موسى

وتمكن منه، أدرك الرجل المصرى بأس موسى وقوته وعجز عن مقاومته، فتغير أسلوبه من القوة والتهديد إلى الضعف واللين فى الحديث، وكان قد استشعر من حديث موسى للإسرائيلى عبارات اللوم على إغوائه وندمه على ما فعله فاستغل هذا الشعور عند موسى وقال له: «**أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ** (١٩)»[**القصص**]. وما أن سمع موسى تلك العبارة من المصرى حتى تذكر ندمه وتوبته فتوقف عن اندفاعه وغضبه وتركه لحاله، ومن فوره أسرع الرجل المصرى وتوجه إلى القوم - ويغلب أنهم أهل القتيل أو الشرطة - وأبلغهم أن موسى هو القاتل، فتآمروا عليه وانتووا الشر ضده، فجاء رجل مصرى من طائفة المؤمنين يعرف موسى ويحبه، كان حاضراً اجتماعهم ساعياً إلى موسى قبلهم وأبلغه نبأ القوم ونصحه مخلصاً بالهرب من مصر، فخرج موسى خائفاً يترقب الناس حوله، سالكاً طريق جنوب سيناء الصحراوى قاصداً مدين.

وفى مدين عاش موسى حياة جديدة، فقد تزوج وأقام لدى حماه الذى استأجره للعمل لديه عشر سنوات مقابل أن ينكحه ابنته، واستمرت حياة موسى هناك فترة من الزمن حتى بعثه، ويقص الله تعالى ذلك فى الآيات التالية:

«**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** (٢٢) **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** (٢٣) **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** (٢٤) **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** (٢٥) **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** (٢٦) **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** (٢٧) **قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** (٢٨)» [**القصص**].

تذكر التوراة أن اسم زوجة موسى صفورة، وولدت ابنين الأول: اسمه جرشوم، والثانى: إليعازار، وأنه حين عاد إلى مصر أخذ معه زوجته وبنيه.

ملاحظات على المرحلة السابقة من حياة موسى

١ـ يوحى السرد القصصى سواء من القرآن أو التوراة أن موسى فى تاريخ حادثة قتل المصرى التى أدت إلى هروبه، لم يعد فى نظر الشعب ابناً لفرعون، ولم يكن قادماً لتوه من البلاط الملكى، ذلك أنه لا يمكن لإسرائيلى، عبرانى، عبد من عمال السخرة المضطهدين أن يستغيث ويستصرخ ابن الفرعون لنجدته، لقد تغير الأمر منذ زمن سابق، وانتهت فى المدينة قصة موسى ابن الفرعون، وكان طرفا القتال وأهل المدينة يعلمون أن هذا موسى العبرانى، ولهذا استغاثه

الإسرائيلى، وجاء إليه الرجل الصالح يسعى ليحذره من القوم المتآمرين وينصحه بالهرب. لقد كان يعلم إذن أن موسى لا سند له ولا قوة سوى هذا الطريق، لم يعد موسى أميراً مصرياً، سليل فرعون والبيت الحاكم، لقد افتقد الحماية، كان خائفاً وهرب دون تفكير. ويحسم الموقف قول الله تعالى: «**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** (٢١)»[**القصص**].

٢ـ تجعل التوراة مشاجرة اليوم التالى التى رآها موسى بين رجلين عبرانيين يتخاصمان، وتجعل هروب موسى خوفاً من فرعون نفسه الذى سمع بالأمر فتقول فى ذلك: «ثم خرج فى اليوم الثانى، وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟ فقال: من جعلك رئيساً وقاضياً علينا؟ أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى. فخاف موسى وقال: حقاً قد عرف الأمر، فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى، فهرب موسى من وجه فرعون وسكن فى أرض مديان». [سفر الخروج ـ الإصحاح الثانى ـ ١٣:١٥].

وهذا الاختلاف عن القرآن الكريم فى النقاط الفرعية يعبر عن تصور وتفسير كاتب التوراة الذى يستمد معلوماته من مصادر بشرية منقولة، وبصفة عامة فإن معلومات التوراة ـ وبمعنى أدق الكهنة الذين كتبوها ـ عن حياة بنى إسرائيل فى الفترة منذ وفاة يوسف وحتى ميلاد موسى تكاد تكون منعدمة، والمعلومات عن طفولة موسى وحتى بعثه قليلة وإجمالية وتكشف أنها من مصادر منقولة.

٣ـ لم تتحقق أمنية امرأة الفرعون من تبنى موسى ليكون ابناً لها وللفرعون دون أن يشعر القوم بأمرهم، إلا أن الظروف التى صاحبت ذلك مفتقدة فى القصة الدينية، فلا حديث عن سبب خروج موسى من بيت الفرعون، وفى أى مرحلة من عمره حدث هذا، ومن أعلمه بأمر أهله من بنى إسرائيل، وهو ما لم يكن يعلمه سوى أم موسى وأخته؟ يغلب أن امرأة الفرعون كانت قد فارقت الحياة؛ لأنه لا حديث عنها فى هذه المرحلة.

٤ـ كان موسى قبل خروجه من مصر إلى مدين قد عرف أسرته الحقيقية، وأصبح على علاقة وثيقة بهم، وشاركهم إيمانهم بالله الواحد، ويتأكد لنا إيمانه بالله من ندمه واستغفاره لربه بعد قتل المصرى وقوله الذى سجله رب العالمين: «**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** (١٦) **قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ** (١٧)»[**القصص**]، ويكشف عن علمه بأهله أن الله تعالى عندما بعثه إلى آل فرعون طلب أن يشد أزره بأخيه هارون؛ لأنه أفصح منه لساناً، ودعاه أن يجعله معيناً وردءاً ووزيراً ليساعده ويعينه على أداء رسالته.

٥ـ لم يخرج موسى من مصر هائماً على وجهه كيفما تحطه الأرض بل اختار طريق الشرق قاصداً مدين بعينها، ويدل حديث الله تعالى أنه حدد طريقه وكان يعرف إلى أين يتجه «**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** (٢٢)» [**القصص**]، وهذا يوضح أن صلة بنى إسرائيل خلال حياتهم فى مصر لم تنقطع مع أهلهم وعشيرتهم وأبناء عمومتهم من آل إبراهيم

فى شرق مصر، ومنهم أهل مدين، التى تنسب إلى مديان، وهو أحد أبناء إبراهيم من زوجته قطور. وقد أرسل الله إليهم من نسل إبراهيم شعيباً نبياً، فآمنت به طائفة منهم، ولم تؤمن به طائفة أخرى، وانتقم الله من الطائفة الكافرة ونجى المؤمنين **«وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤)»** [هود].

فكان اختيار موسى لمدين اختياراً مقصوداً آملاً أن يجد فيها سواء السبيل، ربما لما يعلمه من وجود مؤمنين بالله بها، وللغة قومها التى يتقنها وتحدث بها مع الفتاتين وأبيهما فور وصوله إليها.

(تذهب كثير من كتب التفسير - دون سند - إلى أن النبى شعيب هو والد زوجة موسى، وهذا بيقين ليس صحيحاً؛ لأن القرآن لم يذكر ذلك له، وإنما فقط وصفه بأنه شيخاً كبيراً من الصالحين، والتوراة تقول: إن اسمه «يثرون» ووصفته بأنه كاهن مديان).

البعث

بعد أن أتم موسى الأجل الذى قطعه عليه حماه للعمل عنده مقابل أن يزوجه ابنته، خرج بأهله مستقلاً فى حياته، واشتغل بالرعى متنقلاً من مكان إلى مكان حيث الماء والكلأ، وتذهب التقاليد اليهودية والمسيحية إلى أن موسى أقام فى مدين أربعين عاماً، وحاولت بعض الكتابات الإسلامية أن تنسب إلى القرآن أنه حدد إقامة موسى فى مدين بمدة الأجل الذى قضاه أجيراً لدى حماه سواء ثمانى سنوات أم عشر سنوات، وأنه فور انقضائها خرج من عنده متجهاً إلى مصر، وهذا غير صحيح، لأن ما قطعت به قصة القرآن أن تلك المدة كانت هى مدة استئجاره وإقامته لدى حماه، وهذا لا يعنى أنه خرج بأهله بعدها مباشرة متجهاً إلى مصر، بل أرى أن مجمل آيات القرآن الكريم التى تقص نبأ بعث موسى تؤكد أنه لم يكن فى نيته العودة إلى مصر، لقد كان خروجه من مصر هجرة ونجاة بنفسه من القوم الظالمين، وتتأكد لنا نية عدم العودة لدى موسى من حديثه إلى الله تعالى ـ على جبل الطور فى جنوب سيناء ليلة البعث، فقد أمره ـ سبحانه ـ أن يذهب إلى فرعون طاغية مصر، وكان موسى صريحاً مع ربه، فذكر له كل الأسباب التى تجعل مهمته صعبة وتمنعه من العودة وتؤيد استنتاج نية عدم العودة إلى مصر، وذلك فى قوله لربه: **«قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣)»** [القصص] وقوله **«وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤)»** [الشعراء]، ولكن الله تعالى أبلغ رسوله الكريم أنه أعطاه معجزة يستعين بها واستجاب لطلبه بأن يرسل معه أخاه هارون ليشد أزره ويساعده فى رسالته، وفى رد إلهى قاطع غيَّر من نية موسى وقطع هجرته فى مدين، جاء أمر الله تعالى حاسماً مطمئناً **«قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)»** [الشعراء].

وتكشف إحدى آيات القرآن الكريم عن طول المدة التى قضاها موسى فى مدين،و كان ذلك عندما سأله ربه **«وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا . . .(١٨)»** [طه] إذن لقد

تجاوز موسى مرحلة الشباب واستواء العمر « **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴿٢٦﴾ »[**القصص**]، وأصبح شيخاً يحتاج إلى عصا يستند عليها، وحاش لله أن يكون حديثه مع ربه من لغو الكلام، كما أن الدراسات التاريخية التى سوف نستند إليها لاحقاً سوف تؤيد صحة رواية التوراة فى أن موسى عند خروجه ببنى إسرائيل من مصر كان عمره قد جاوز الثمانين.

ويخبرنا الله تعالى فى القرآن الكريم أن بعث موسى كان فوق جبل الطور فى سيناء فى ليلة حالكة الظلام شديدة البرودة، ضل فيها ومعه أهله الطريق وهو يبحث عن مكان لرعى غنمه، كلمه الله عز وجل فوق الجبل.

وتلك آيات الله تعالى التى تقص علينا بعث موسى.

● فى سور القصص:

« **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾** ».

● وفى سورة طه:

« **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا**

(٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦)».

● وفى سورة الشعراء:

«وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)» .

● وفى سورة النمل:

«إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢)» .

يتضح من الآيات السابقة أن الرسالة التى كلف بها الله تعالى نبيه موسى مكونة من شقين هما:

١. أن يذهب إلى فرعون الطاغية ويدعوه وقومه إلى الإيمان بالله الواحد وإقامة الصلاة والإيمان بيوم القيامة.

٢. أن يرسل معه بنى إسرائيل ولا يعذبهم.

وقد صارح موسى ربه بصعوبة المهمة التى كلفه بها للأسباب الآتية:

١. أنه قتل منهم نفساً ويخاف أن يقتلوه.

٢. أن فرعون طاغية جبار وسوف يفرط عليه ويطغى ويكذبه.

٣. كان يخشى من عقدة فى لسانه قد تسبب ضيق صدره فلا ينطلق لسانه، تذكر التوراة أن موسى قال للرب: «أنا ثقيل الفم واللسان» [الخروج ـ الإصحاح الرابع ـ١٠].

ولكن الله سبحانه طمأنه أنه سوف يكون معه ومنحه الأدوات والسند والقوة التى يستعين بهما فى رسالته وهى:

١. معجزتا العصا التى تتحول إلى ثعبان ضخم، وأن يسلك يده فى جيبه فتخرج بيضاء مضيئة من غير سوء.

٢. استجاب الله لطلب موسى بأن يرسل معه أخاه هارون ليساعده فى رسالته، وأن يحلل عقدة من لسانه ليفقه قوله.

٣. وعده الله بأن يجعل له ولأخيه سلطاناً فلا يصل إليهما أعداؤهما، ويكون هو ومن

معه هم الغالبون.

٤ـ أن تكون لهما آيات كبرى أخرى فى مصر (تسع آيات بينات).

وبالطبع لا يمكن تفسير صراحة موسى مع ربه بصعوبة ظروفه وثقل مهمته على أنها اعتذار عن تأديتها، ولكنها كانت دعاء من موسى لربه بأن يشرح له صدره وييسر له أمره ويحلل عقدة من لسانه ليفقه قوله وليرسل الله معه أخيه هارون ليشدد به أزره ويشركه معه فى أمره، وقد استجاب الله لدعائه وأيده بسلطان من عنده.

وبالإضافة إلى ما تقدم فإنه يمكن أن نستخلص من آيات بعث موسى فى قصة القرآن الكريم المعلومات الآتية:

١ـ خلال فترة وجود موسى فى مدين لم تنقطع صلته بأهله وقومه فى مصر، فيكشف حديثه إلى الله سبحانه عن معلومات كافية عن أخيه هارون، فيعرف أنه ما زال حياً، فصيح اللسان، بليغ البيان، وعلى درجة عظيمة من التقوى والإيمان تؤهله لترشيحه للنبوة، واثقاً من استحقاقه لتكليف الله تعالى له، كما يعلم أحوال قومه وطغيان فرعون عليهم.

٢ـ أن فترة قتل الفرعون للأطفال الذكور من بنى إسرائيل لم تتعد تلك الأعوام التى سبقت وتزامنت مع ميلاد موسى، إذ لو كانت قد استمرت لكان شعب إسرائيل قد انتهى إلى فناء من مصر فى تاريخ بعث موسى إما بالقتل وانقطاع الذرية، أو الفرار والهجرة من مصر والتشتيت فى بقاع الأرض، أما الظروف التى كانوا عليها فى تلك الفترة، فهى أنهم معذبون بسبب السخرة فى أعمال فرعون:«فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ(٤٧)» [طه].

وتأتى رواية التوراة بمعلومات عن حياة بنى إسرائيل فى مصر أثناء حياة موسى فى مدين أرى أنها قد توضح تلك الحقيقة، وسوف تخضع للبحث عند حديثنا عن تحديد المراحل الزمنية لحياة بنى إسرائيل فى مصر، تقول التوراة: «وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات، وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية. فسمع الله أنينهم» [الخروج ـ الإصحاح الثانى ٢٣ ـ ٢٤].

وفى حديث الله إلى موسى لبعثه إلى مصر تذكر التوراة:

«فقال الرب إنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. إنى علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض» [الخروج ـ الإصحاح الثالث ٧ ـ ٨].

وإذا كانت قصة القرآن لم تذكر صراحة أمر وفاة فرعون المعاصر لفترة الميلاد الذى تربى موسى فى بيته، واستخدم القرآن لفظ فرعون للدلالة على ملك مصر، فإن هذا لا يعنى على الإطلاق أن القصة فى القرآن مستمرة لشخص فرعون واحد بذاته، ويمكن للعين الفاحصة أن تدرك أن الصورة القرآنية لبنى إسرائيل فى فترة ميلاد موسى تختلف عنها بعد البعث، وسوف

يكون لنا حديث قادم فى هذه الدراسة فى بيان أوجه هذا الاختلاف عند تحديد الأدلة على شخص فرعون المعاصر لموسى.

الدعوة فى مصر

عاد موسى إلى مصر نبياً حاملاً رسالة الله وتكليفه ـ سبحانه ـ والتقى هارون أخاه، وكما أوضحنا فإن آيات القرآن الكريم تؤكد أن رسالتهما مكونة من شقين:

الأول: دعوة فرعون وملأه والمصريين إلى الإيمان.

والثانى: أن يخرجا ببنى إسرائيل إلى فلسطين.

وكانت المعجزة التى أيد الله بها موسى من جنس ما برع فيه علماء مصر وكهنتها، ونوضح ذلك.

رسالة موسى

تقصر التوراة رسالة موسى على الخروج ببنى إسرائيل من مصر إلى أرض الميعاد كنعان (فلسطين) «فقال الرب إنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. إنى علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة. إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً. إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. والآن هو ذا صراخ بنى إسرائيل قد أتى إلىّ ورأيت أيضاً الضيقة التى يضايقهم بها المصريون. فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر» [سفر الخروج ـ الإصحاح الثالث ٧ـ١٠].

ويتكرر بعد ذلك كثيراً وحتى خروج بنى إسرائيل فى الإصحاح الرابع عشر ما يؤكد هذه المهمة فقط، ووفقاً للنهج العنصرى لا شىء على الإطلاق عن دعوة فرعون أو المصريين، أو الإشارة إلى إيمان أى منهم، ونلاحظ ذلك فى التالى:

- «وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبى ليعبدوا لى فى البرية» [الخروج ـ الإصحاح الخامس ـ ١].
- «ثم كلم الرب موسى قائلاً: ادخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بنى إسرائيل من أرضه» [الخروج ـ الإصحاح السادس ١٠ـ١١].
- «قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبى ليعبدونى» [الخروج الإصحاح الثامن ـ ١].

أما رسالة موسى الكاملة وهى دعوة فرعون والمصريين إلى الإيمان بالله الواحد، وهدايتهم إلى الإسلام، وأيضاً إنقاذ بنى إسرائيل من التعذيب والخروج بهم من مصر إلى فلسطين. فقد

أكدها القرآن الكريم فى العديد من السور على النحو التالى:

● فى سورة القصص:

«فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)».

● فى سورة الشعراء:

- «فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)».

- «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)».

● فى سورة طه:

«اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)».

● فى سورة الأعراف:

- «ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)».

- «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)».

- «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤)» .

● فى سورة يونس:

«ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)».

● فى سورة غافر:

«وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)» .

● فى سورة الزخرف:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠)».

● فى سورة الدخان:

«وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩)» .

● فى سورة المزمل:

«إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦)» .

● فى سورة النازعات:

«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)» .

توضح جميع الآيات السابقة أن نبى الله موسى بعث إلى مصر، وكانت رسالته دعوة القوم جميعاً - مصريين وإسرائيليين - إلى الإيمان، وعلى هذا تعامل معه المصريون، وكانوا يعلمون أنه معنى بهم، كما أنه معنى ببنى إسرائيل «لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤)» [الأعراف].

المعجزة

كانت المعجزات التى أيَّد الله بها موسى لتمكنه من أداء رسالته فى مواجهة فرعون وقومه هى العصا التى تتحول إلى ثعبان، واليد التى تخرج بيضاء من غير سوء، ثم آيات الله الأخرى فى الأرض والطبيعة على مدار السنوات التى مكثها موسى داعياً فى مصر، وهى جميعها معجزات ترتبط بالسحر، وبتحديد أوضح كان مقصوداً بها مواجهة السحر والسحرة، وهم طبقة العلماء فى مصر لاختبارهم أمامها، وتعجيزهم، وصولاً لإثبات وجود قوة خارقة تحركها، أقوى من علمهم، فتدحض معتقداتهم المرتبطة بقوة السحر لديهم، ليعرفوا أن القوة الأكبر هى الله الواحد، الذى يدعو له موسى، ولهذا كانت المعجزة من جنس ما اشتهر به علماء مصر وكهنتها.

فقد ارتبطت حضارة مصر الفرعونية بالسحر منذ عصور ما قبل التاريخ بسبب ارتباطه ارتباطاً وثيقاً بجميع مظاهر الديانة المصرية، فلم تكن أدوات الديانة المصرية أو مظاهرها تستطيع أن تؤدى أغراضها أو وظائفها بغير السحر، فالتماثيل بأنواعها: تماثيل الأشخاص، وتماثيل الآلهة، وتماثيل الأوشابتى (تماثيل الخدم) والتماثيل الحافظة فى الحياة الأخروية، والنقوش، كل هذه الأشياء تخصص لها حجرات فى مقبرة المتوفى تحوى الكثير من التجهيزات السحرية، وأيضاً التمائم والتعاويذ التى تلف مع الأربطة الكتانية للمتوفى، والتحنيط والنصوص الجنائزية، والأثاث الجنائزى، ونماذج الطعام التى توضع فى المقبرة، وقوائم الأطعمة التى تنقش، لن تكون لها فائدة، ولن تؤدى غرضها فى العالم الآخر بغير الطقوس السحرية، ولكى يبعث المتوفى وينعم فى عالم الخلود كانت تجرى له قبل دفنه طقسة فتح الفم، وهى أحد الطقوس المهمة التى تجرى على تماثيل الميت ومومياثه، فتحفظ على الميت بطريقة سحرية سمعه وبصره، وفتح فمه ليتناول الطعام، وباختصار: حيويته ونشاطه في الأبدية، ومن ثم ارتبطت وظائف الكهانة بالسحر، ولم يكن السحر فى المجتمع المصرى أمراً هامشياً يمكن أن يمارسه أى شخص، فهو يختلف عن عالم المشعوذين. ولم يكن هناك سحرة متخصصون، بل كان أحد العلوم والمعارف المهمة التى تدرس فى معاهد المعابد، ولا يصل إلى هذه الدرجة إلا الكتبة المثقفون ثقافة عالية، ومن ثم أصبحت المعرفة به قاصرة على أقلية هم هؤلاء الذين يصلون إلى تلك الدرجة الراقية فى سلك العلماء، حقيقة أنه مع تطور الاستعانة بالسحر مع مرور الزمن ظهرت فئة من السحرة المحترفين بشكل تدريجى، إلا أنه بشكل عام ارتبطت درجة الساحر فى كهنوت المعابد، بهؤلاء الذين يؤهلهم علمهم، وسنوات خدمتهم الكهنوتية للترقى إلى الدرجات العليا فى سلك الكهنوت.

وعبارة «حريوتب» التى تعنى ساحراً تترجم حرفياً بمعنى «متصدر الجميع»، أى على رأسهم وهى: (hry-tp : chief-chiefain) وتعنى الرئيس أو الزعيم.

وهى غالباً ترتبط بلقب «خرى حبت» بمعنى الكاهن المرتل أو مقيم الشعائر، وتعنى تحديداً المكلف بقراءة النص الشعائرى فى المعابد.

ولما كان السحر بالنسبة للمصريين علماً مستمداً من الكتب والمعرفة، بل هو أرقى الدرجات العلمية، فإن ولوج هذا العالم كان قاصراً على قلة، هم فى الغالب كبار كهنة المعابد الذين يؤدون الوظائف الدينية، وأهم شعائرها تلك الطقوس السحرية، ولهذا السبب فإن الدين والسحر ارتبطا ببعضهما ارتباطاً تاماً. ومن خلال أحد النصوص السحرية نجد فى عنوان إحدى الفقرات المكتوبة باللون الأحمر أن القاعدة الأولى فى تراتيل السحر: ألا تصرح بها لأى إنسان من العامة، إنها أحد أسرار بيت الحياة (أعلى درجات المؤسسة العلمية وكان يتم فيه نسخ وحفظ النصوص السحرية). ومن خلال نصوص كثيرة يتدعم الرأى بعدم وجود تمييز قاطع بين الساحر والكاهن وكثيراً الطبيب، وعادة يحمل الواحد منهم الكثير من الألقاب، وعدداً من الوظائف المهمة، وأهمها

بالطبع وظائف الكهنوت، وكان هؤلاء على درجة رفيعة من الثقافة، ويملكون زمام معارف واسعة المدى فى العديد من المجالات، وبالإضافة إلى استخدام السحر فى وظائف الدين كان له دور جوهرى فى حماية مصر، وذاع صيت السحرة المصريين بين الشعوب المجاورة، وأسهب الرحالة القدماء فى الحديث عن براعتهم، وكان السحر فى مصر يمارس على نطاق واسع، وفى جميع قطاعات المجتمع، بدءاً من المعابد وقصور الفراعنة، وحتى أكواخ الفلاحين والصيادين البسطاء، وتشهد على ذلك التمائم الكثيرة والحيوانات المحنطة لأغراض سحرية، المنتشرة فى المواقع الأثرية، واعتقدوا أن أدوات السحر وضعها الخالق بين يدى الإنسان من أجل حمايته، وعبر عن ذلك الحكيم «مرى كارع» فى تعاليمه «لقد خلق السحر من أجلهم حتى يبعد عنهم نوائب الدهر» واستعان الكهنة والأطباء بالسحر «الأبيض» الواقى من أجل الوقاية والتأمين والحماية والشفاء والدفاع ضد أى اعتداء ظاهر أو خفى، كما استلزم الأمر استخدام السحر «الأسود» من أجل اتقاء أى خطر، والتأكيد من مساندة القوى الخفية للحصول على ما عجزوا عنه، أو إلحاق الأذى بشخص ما، أو محوه من الوجود.

وعلى مدار آلاف السنين تركت مصر فى الأدب الشعبى وتاريخ الملوك السابقين العديد من القصص والأساطير عن حكايات السحر والسحرة التى؛ أكدت اشتهارها وذيوع صيتها فى هذا المجال، وتكررت فيها صورة الساحر كثيراً، وقصت العديد من المغامرات التى وقعت فى حقب أكثر قدماً ونسبت إليهم أعمال مثل: إعادة الحياة، تغيير مظاهر الطبيعة، إحداث الفوضى الكونية.

من العبارات التى يملك الساحر أو الكاهن توجيهها إلى الآلهة من أجل إرغامها على التصرف أو الإسراع بعمل معين، والتى تكررت وتحمل تهديداً كونياً بتغيير أو دمار العالم عبارات مثل:

«لن تبقى سماء ولن تبقى أرض».

«تنفجر الفوضى فى سماء الشمال».

«الشمس لن تشرق أبداً».

«حابى الفيضان لن يرتفع أبداً».

«إن لم تطيعونى فسوف يحترق القرص الشمسى، ويعم الظلام على العالم كله».

ولذلك رسخ فى اعتقاد الشعب أن الساحر يستطيع إتيان أفعال الأساطير، أو إحداث التهديد والفوضى فى الطبيعة والكون.

ومن أهمية السحر والقائمين على أمره فى حياة المصريين نستطيع أن ندرك أهمية دور المعجزة التى أيد الله بها موسى فى دعوته.

فلم تكن معجزة موسى سحراً وإنما آية تحركها قوة خارقة، يحسبها سحراً، مَن رسخت فى معتقداتهم أساطير الماضى واستقر لديهم من الثقافة والعادات والدين أن للسحر أثراً فى

حمايتهم فى الدنيا، وبعثهم ونعيمهم أو شقائهم فى الآخرة، ولكن هؤلاء العارفين بالحقيقة الذين درسوا السحر ويعرفون حيله ويدركون أقصى المستطاع فى تدبيره، نعم أنهم تركوا الخيال يذهب كل مذهب فى القصص والأساطير والمعتقدات تحقيقاً لمصالحهم الخاصة، إلا أنهم أمام الحقيقة لا يملكون إلا أن يخروا ساجدين أمام آية الله.

قصد الله بمعجزته أن تزلزل كيانهم وتحطم معتقداتهم التى رسخت فيهم منذ فجر تاريخهم، وكما كانت دعوة موسى تسير في اتجاهين كانت معجزته أيضاً تبغى تحقيق هدفين: الأول: مواجهة طائفة العلماء والكهنة القائمين على أمر الدين والعلم فى المجتمع المصرى لإثبات آية الله أمامهم. الثانى: أن تقوض أركان الدين الوثنى وتلغى أدواته ومظاهره التى استقرت منذ آلاف السنين.

ويتحقق ذلك من إفشال وهزيمة القائمين على أمره، والذين يمارسون طقوسه السحرية بدعوى أنه ينفعهم فى حياتهم وآخرتهم، وعندما يتحقق هذا العجز يبدأ التفكير ثم يتجه الإدراك الحقيقى نحو صدق الرسالة التى جاء بها هذا الرجل الذى يقول إنه رسول من رب العالمين، فيعرفون أن البعث والخلود بإرادة الله الواحد، والنعيم والجنة فى الآخرة من إيمان الناس بالله دون حاجة لوسطاء أو طقوس أو تماثيل أو تمائم أو تعاويذ أو قرابين. فعلاقة الإنسان بربه تحكمها معان مختلفة تماماً.

نعرف القصة وتأثير المعجزة من آيات الله تعالى فى القرآن الكريم الآتية:

● فى سورة الشعراء:

«قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)» .

● وفى سورة طه:

«وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧)

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾» .

● وفى سورة الأعراف:

«قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن

الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)» .

- وفى سورة يونس بعد أن جاء موسى بآياته أمام فرعون وقومه:

«وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)» .

الصورة التى نستخلصها من مجمل آيات القرآن الكريم أن موسى بعد أن رجع إلى مصر، ذهب مع أخيه هارون إلى فرعون ورجال بلاطه، وأبلغا جميع القوم أنهمارسولا رب العالمين، ودعوهم إلى الإيمان بالله، وطلبا أن يسمح فرعون بخروج بنى إسرائيل معهما من مصر إلى الأرض التى جاءوا منها فى زمن يوسف، ولكن فرعون سخر من موسى ورفض الدعوة، ومنذ البداية اتهم موسى بالجنون والسحر، كما رفض خروج بنى إسرائيل من مصر. وتدل عباراته وقومه إلى موسى على أنهم رفضوا فكرة اعتبار بنى إسرائيل أجانب عن مصر:

- «**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)** [الشعراء] .
- «**يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)** [الشعراء] .
- «**قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧)** [طه] .
- «**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا... (٦٣)**» [طه] .
- «**إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا... (١٢٣)**» [الأعراف] .

ويمكن أن نستخلص من عبارة التوراة نفس الفكرة أيضاً «فقال لهما ملك مصر: لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب من أعماله» [الخروج ـ الإصحاح الخامس ٤] .

عندما رفض فرعون دعوة موسى كان رده عليه أنه معه آية من رب العالمين، فسأله فرعون عن طبيعة الله الذى يدعو له، فشرح له موسى، فسأل فرعون مستنكراً عن أمر القرون الأولى التى ظلت على عبادة الأصنام كى يأتى موسى اليوم منكراً عبادتهم، قالباً العقيدة والثقافة المصرية رأساً على عقب، فأجابه موسى أن علمها عند الله فى كتاب لا يضل ولا ينسى، سأله فرعون أن يأتى بآيته إن كان من الصادقين، فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين. جاء رد فعل فرعون وحاشيته على الفور مستنداً على الثقافة المصرية، أن هذا ساحر عليم، وأجمعوا رأيهم أن يرجئه وأخاه ليوم محدد، ويستدعوا السحرة العالمين من

مختلف المدائن المصرية، وصفتهم التوراة بأنهم الحكماء والسحرة وعرافو مصر. ومن المصادر التاريخية، نعرف أن السحرة هم كبار الكهنة فى المعابد المصرية، والكتبة العلماء الحاصلون على أعلى درجات العلم من المؤسسة العلمية، بيت الحياة.

وقعت بين موسى والسحرة المباراة السحرية - التى قصها القرآن الكريم - وكانت فى ساعة نهار فى يوم عيد عظيم أمام حشد كبير. ولقد اشتهرت فى تاريخ مصر مهرجانات السحر وقصتها الحكايات الشعبية عن القدماء، ومن تلك القصص القديمة نستطيع أن ندرك مدى الاهتمام الذى كان عليه جمع الحضور فى ذلك اليوم، كان السحرة المصريون واثقين من أنفسهم، وطلبوا مكافآتهم من فرعون إن كانوا هم الغالبين، وقال لهم فرعون: نعم، وسوف تكونون أيضاً من المقربين. وألقوا عصيهم وحبالهم فسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وخيل للناس من سحرهم أنها ثعابين تسعى، فأوجس ذلك فى نفس موسى خيفة، ولكن الله أوحى إليه ألا تخف وألق عصاك، فألقاها فإذا هى ثعبان مبين يلقف ما صنعه السحرة.

كانت هذه اللحظة نقطة فاصلة فى تاريخ الحضارة المصرية بين الباطل القديم والحق الذى ظهر، عبر عنها القرآن الكريم «**فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١١٨)» [**الأعراف**] ،بدأت الدورة الجديدة للحضارة المصرية بعد هذا التاريخ، نستطيع أن نؤرخ لبداية السقوط منذ هذا اليوم، أدرك السحرة من الكهنة والعلماء والحكماء حقيقة فعل موسى وألقوا ساجدين، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.

طار عقل الفرعون أمام القوم، وهو الذى يؤلّه ذاته ويدعى أنه ربهم الأعلى، لقد انكشف كذبه وبهتانه وانهزم هزيمة نكراء، وهؤلاء الذين استدعاهم لنصرته إذا بهم يشاركون فى هزيمته وينصرون موسى، ويشهدون بصدقه وكذب فرعون.

ثم جاءت آيات الله الأخرى التى صنعها موسى فى مصر متتالية مؤكدة رسالته، وانقسم إزاءها القوم بين من اعتبرها فعل ساحر عليم، وبين من اقتنع بأنها رسالة إلهية وآمن برب موسى وهارون.

وقد أخذ رد فعل فرعون أمام قومه الصور الآتية:

١- احتمى بملكه العظيم وذكر قومه بقوته وثراء أرضه، وسخر من موسى سخرية شديدة، ووجه إليه إهانات بالغة وازدرى أمامهم وضعه المهين الفقير، وانتقص هذا اللعين من قدر رسول الله، كما استغل عقدة لسانه، وعايره بأنه لا يكاد يُبين كلامه، وتحداه - هذا الجاهل - بأنه إذا كان صادقاً ومؤيداً من الله فلماذا لا يؤتيه ربه مالاً وذهباً مثلما يملك فرعون، أو يرسل معه ملائكة تؤيده.

«**وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ** (٥١) **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ** (٥٢) **فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ**

الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)» [الزخرف].

٢ـ توعد السحرة بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأن يصلبهم أجمعين فى جذوع النخل.

٣ـ صرخ فى الحاضرين من الملأ أنه الإله، وطلب من وزيره هامان أن يوقد له على الطين، ليبنى له صرحاً عالياً يطاول عنان السماء، ليرقى عليه إلى إله موسى ويكشف لهم كذبه.

٤ـ توعد بقتل أبناء قوم موسى واستباحة نسائهم وإذلالهم، **«قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)» [الأعراف]**، وأيضاً هدد بقتل أبناء جميع الذين آمنوا معه.

« فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ...(٢٥)» [غافر].

٥ـ هدد وتوعد أنه سوف يقتل موسى مخافة أن يبدل دينهم وليمنع فساده فى الأرض.

«وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)» [غافر].

ومن مجمل العرض المتقدم من آيات القرآن الكريم عن دعوة موسى فى مصر، نستخلص عدداً من الملاحظات، ومن خلالها نقدم تفسيراً لبعض تلك الآيات بالقدر الذى يفيد الدراسة فى موضوع هذا البحث نطرحها فى الموضوعات التالية:

أولاً:سنوات الدعوة

نستنتج من آيات الله تعالى فى القرآن الكريم أن موسى لبث داعياً لرسالته فى مصر سنين، لم يحدد القرآن عددها، وإنما نستطيع أن ندرك امتدادها الزمنى من المظاهر المصاحبة لها، فقد وقعت خلالها معجزات موسى على مدار عدة سنوات، ونستدل على ذلك على النحو التالى:

يقول تعالى:

«وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ... (١٣٠)» [الأعراف] .

«فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ... (١٣٣)» [الأعراف].

وقد كان كل ابتلاء يستمر فترة زمنية، يتبعه التجاء فرعون وقومه إلى موسى لرفع الرجز لتستمر بعدها مساحة زمنية أخرى تنعم فيها الدولة بالاستقرار، وهكذا **«فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)» [الأعراف].**

إذاً، إن سنوات الآيات التى صاحبت الدعوة، لم تكن ابتلاءات فقط، وإنما اختلفت بين الشر ثم الخير، الضراء ثم السراء، فترة سيئة تتبعها أخرى حسنة. ويذكر الله تعالى عدد آياته إلى موسى فى سورة الإسراء **«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (١٠١)»** فإذا لاحظنا أنه كان من بين تلك الآيات نقص الثمرات وهى تعنى فى الطبيعة منذ فجر التاريخ سنوات الجفاف والجدب التى

يقل فيها النيل عن الحد الذى يكفى لإرواء الأرض وهو ما يستغرق سنة نيلية (فيضية) وفى الغالب يستمر عدة أعوام تالية، وفى هذه الحالة تستنفد مدخرات المخازن، ويتحقق بعدها البلاء الشديد. وكان من بينها أيضاً الطوفان، وهو فيضان النهر إلى حد إغراق الأرض وعدم القدرة على السيطرة عليه حتى هلاك الزرع، وهو ما يستغرق أيضاً عاماً نيلياً أو أكثر. فإن تلك المظاهر، ومعها باقى الآيات الأخرى، وما نعلمه أن كل ابتلاء كان يتبعه استقرار وتحسن الأحوال، ليعطى الله مهلة كافية للكافرين للتدبر وإحكام العقل واختيار طريق الصواب، ثم يحين أجل الآية التالية، فإن ذلك يوضح الاستمرار الزمنى.

ومن مظاهر الامتداد الزمنى أيضاً تمادى فرعون فى إيذاء بنى إسرائيل «**قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ... (١٢٩)**» [**الأعراف**]، وقد طلب منهم موسى أن يستعينوا بالله ويصبروا وأن العاقبة للمتقين.

ومن مظاهره أيضاً: وحى الله لموسى وأخيه أن يتخذا لقومهما بيوتاً ويجعلوها مقصداً لهم للعبادة وإقامة شعائر الدين، وهو ما يحمل معنى الإقامة المستمرة والمستقرة.

هذه المظاهر جميعها، تجعلنا نستطيع أن نؤكد أن السنوات التى مكثها موسى داعياً فى مصر، لم تكن مرحلة إعداد واستعداد لرحيل بنى إسرائيل فقط، وإنما أرادها الله أن تكون مرحلة كافية لتؤتى الدعوة ثمارها، ويصل الإيمان إلى قلوب الناس، ويمكن تقدير السنوات منذ عودة موسى وحتى خروجه مع بنى إسرائيل بأنها ـ فى الغالب ـ زادت على عشر سنوات.

وعلى نهج مختلف، فإن التوراة ـ التى بين أيدينا الآن ـ فى سفر الخروج فى الإصحاح من السابع إلى الرابع عشر ـ وانطلاقاً من العقيدة التى تقصر الرسالة على الخروج ببنى إسرائيل تجعل عودة موسى وحديثه إلى فرعون وهو فى سن الثمانين، وفى ذات السنة كان خروجه مع بنى إسرائيل، وترتيباً على ذلك تعرض التوراة آيات موسى ومعجزاته أمام فرعون فى مصر فى صور سريعة متلاحقة، فمنذ أن نزل مصر، التقى هارون وشيوخ إسرائيل، وأبلغهم بكلام الرب، ووضع الآيات أمامهم فآمن شعب إسرائيل، ثم توجه موسى وهارون إلى فرعون ودخلا عليه بخدعة هى أن يطلق شعب إسرائيل ليعبدوا الرب إله العبرانيين فى البرية، وأتيا عجيبتهما وهى طرح العصا التى تصير ثعباناً أمامه وأمام عبيده، ومن فوره دعا فرعون الحكماء والسحرة وعرافى مصر لمواجهتهما، وينتصر موسى وهارون عليهم فيشتد قلب فرعون، ثم تتوالى آيات موسى فى مصر على النحو التالى:

فى الصباح يذهب موسى للقاء فرعون أمام النهر، ويكرر عليه طلبه بخروج بنى إسرائيل فيرفض فيرفع موسى عصاه ويضرب الماء فى النهر أمام فرعون وعبيده، فتحول كل الماء الذى فى النهر دماً، ومات السمك وأنتن النهر.

وبعد أن كملت سبعة أيام، يكرر موسى طلبه ثم يضرب جميع تخوم مصر بالضفادع، فيدعو

فرعون موسى وهارون ويطلب منهما أن يصليا إلى الرب ليرفع الضفادع عن مصر، وبعد أن يحصل الفرج، يغلظ قلبه ولا يسمح لبنى إسرائيل بالخروج.

وتلى ذلك أن مد موسى وهارون العصا وضربا تراب الأرض فصار البعوض على الناس والبهائم فى جميع أرض مصر، ولم يستطع العرافون إخراج البعوض وقالوا لفرعون: هذا أصبع الله، ولكن أيضاً اشتد قلب فرعون.

وفى الصباح. وحسب أمر الرب. يبكر موسى ويقف أمام فرعون ويكرر عليه طلبه بخروج شعبه فيرفض، فيطلق عليه وعلى شعبه الذبان، فامتلأت به بيوتهم وكل الأرض ضربت من الذبان الذى أصاب كل أرض مصر عدا أرض جاسان حيث يقيم بنو إسرائيل.

وأيضاً يستجيب موسى وهارون لطلب فرعون ويصليان للرب ولكن فرعون يغلظ قلبه ولا يطلق الشعب.

وتستمر الآيات وتأتى يد الرب على جميع مواشى المصريين الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم، ويميز الرب فلا تموت مواشى إسرائيل وتموت مواشى المصريين.

ثم يذر موسى وهارون رماد الأتون نحو السماء فصار غباراً على كل أرض مصر، وأصاب الناس والبهائم بالدمامل.

وتلى ذلك أن أمطر الله برداً عظيماً جداً لم يكن مثله فى مصر منذ يوم تأسيسها، فضرب البرد والرعد جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم، وكسر جميع شجر الحقل، إلا أرض جاسان حيث بنى إسرائيل فلم يكن فيها برد.

تقول التوراة إن الكتان والشعير ضُربا لأن الشعير كان مسبلاً والكتان مبذراً، وأما الحنطة والقطانى فلم تضرب لأنها كانت متأخرة.

وبعد أن استجاب الرب لموسى وانقطع البرد والرعد والمطر اشتد قلب الفرعون ولم يطلق بنى إسرائيل.

فكانت الآية التالية أن مد موسى عصاه على أرض مصر فجلب الرب ريحاً شرقية استمرت كل النهار وكل الليل، وفى الصباح حملت الريح الجراد، وحل فى جميع التخوم وغطى كل الأرض حتى أظلمت وأكل الفضلة السالمة الباقية من البرد. ولم يبق شيئاً أخضر.

وقال أهل مصر لفرعون: إلى متى يكون هذا لنا فخاً؟ أطلقهم ليعبدوا الرب إلههم ألم تعلم بعد أن مصر قد خربت؟ فيدعو فرعون موسى وهارون ويعترف بخطئه إلى الرب إلههما وإليهما، ويطلب الصفح ورفع البلاء، فيخرج موسى ويصلى للرب فيأتى بريح غربية تحمل الجراد وتطرحه إلى بحر سوف. ولم تبق جرادة واحدة فى كل تخوم مصر ولكن يشدد الرب قلب فرعون ولا يطلق بنى إسرائيل.

ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر، حتى يُلْمَسُ الظلام،

فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه. ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور فى مساكنهم.

ويدعو فرعون موسى ويقول له: اذهبوا اعبدوا الرب غير أن غنمكم وبقركم تبقى، فيعترض موسى؛ لأنهم سوف يحتاجون معهم لذبائح تقدم أضاحى للرب، ويقول لفرعون: «فتذهب مواشينا أيضاً معنا. لا يبقى ظلف» فيغضب فرعون ويطرد موسى ويقول له: اذهب عنى، لا أريد أن أرى وجهك بعد اليوم، وإنك يوم أن ترى وجهى تموت، فقال له موسى نِعِمَّا قلت: أنا لا أعود أرى وجهك أيضاً.

وعلى إثر ذلك تذكر التوراة أنه حدث بعد هذا اللقاء الآية الأخيرة وكانت ليلة الخروج من مصر وهى موت كل بكر:

«فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم فى مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت، فدعا موسى وهارون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو إسرائيل جميعاً. واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم، خذوا غنمكم أيضاً وبقركم كما تكلمتم واذهبوا. وباركونى أيضاً. وألح المصريون على الشعب ليطلقوهم عاجلاً من الأرض. لأنهم قالوا جميعنا أموات» [الخروج - الإصحاح الثانى عشر - الآيات من ٢٩:٣٣].

وفى مجال التعليق على رواية التوراة، فإننا نلاحظ بداية التناقض الغريب الذى وقع فيه الكهنة الذين أعادوا كتابتها، وهو أنه على الرغم من أن الخروج تم بعلم فرعون وطلبه بعد تلك الآية الأخيرة، فإنه لما أخبر أن الشعب قد هرب تغير قلبه وندم وشد مركبته، وأخذ جيشه وانطلق خلفهم.

وأما عن طبيعة الآيات التى حدثت فى مصر فإننا لا نرى خلافاً جوهرياً بينها وبين القرآن الكريم، خصوصاً وأن القرآن استخدم تعبير «**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات** (١٣٠)»[**الأعراف**]. وهو ما يستوعب الآيات التى وردت فى رواية التوراة، باعتبار أن السنين السيئة (الجدوب والقحوط) ونقص الثمرات يمكن أن تحدث من النوائب المختلفة.

أما الآية الأخيرة التى ذكرتها التوراة وهى موت كل بكر فى الأرض، فإننا - بيقين - نستبعدها من آيات الله لعدد من الاعتبارات وهى: أن القرآن لم يذكرها، ولأنه كان بين المصريين من دخل فى الإيمان وأصبح شأنهم شأن بنى إسرائيل الذين استثنتهم التوراة من النوائب. ولأن الله تعالى فى آياته مع من سبق من الأنبياء - وأيضاً حدث مع موسى إذ أغرق فرعون وجيشه - عندما ينزل الموت الجماعى انتقاماً من قوم على أفعالهم، فإنه سبحانه كان يجعل له سبباً يحدثه من الطبيعة أو غيرها، وهو ما بينه لنا الله تعالى فى جميع الحالات مع الأنبياء الذين حدث لقومهم

ذلك وذكرها القرآن. وأخيراً حاش لله أن ننسب إليه تخير الأبكار دونما تبرير مقبول يفسره، وقد شمل مع الإنسان البهائم، إلا أننا مع ذلك نرى أن ما ذكرته التوراة كان رصداً شخصياً لمظاهر ونتائج الكوارث التى عاصرت سنوات الدعوة، والتى أدت بطبيعة الحال إلى هلاك الكثير من الناس ومن الحيوانات، وليس بالضرورة أن يكون الموتى أبكاراً، وكان أن تعاصر مع هذا الهلاك وفاة الابن البكر للملك، ولى عهده، وقت أن كانت آيات الله تتوالى فى الأرض، فاستغل الخيال الشعبى مظاهر الحزن ومناحات الموت وعدوها آية ضمن الآيات، ورأى كهنة التوراة بعد موسى بمئات السنين أن يجعلوها موتاً لكل الأبكار، وليس بكر فرعون فقط فى تصوير درامى يتفق مع ثقافتهم التى أولت اهتماماً كبيراً منذ فجر تاريخهم بالبكورية، وصلت بهم إلى درجة تقديس أحقية الابن البكر فى ميراث البركة والنبوة من أنبيائهم، قاصدين بذلك ختم الآيات بانتقام عنيف يضرب كل بيت فى مصر، ويتخير خيارهم، فى تلك الليلة الأخيرة قبل حدوث الخروج، أهم أحداث تاريخهم، والذى انتهى بموت فرعون وجيشه غرقاً.

وأما بشأن التلاحق الزمنى السريع فى العرض التوراتى لأحداث آيات موسى، فإن الله تعالى فى القرآن الكريم أوضح الحقيقة، وبيّن أنها استغرقت عدة سنوات، وهذا الإيضاح الإلهى يأتى متفقاً مع حكمة الله تعالى من تزويد أنبيائه بالبراهين والآيات، التى تصاحب بعثتهم لتؤيدهم وتصدقهم، والطابع الذى يجمع بينها هو مخاطبة العقل والتفكير، لكى تقنع العقل، ويصل إلى حقيقة أنها ليست من صنع النبى وهو ليس سوى بشر مثلهم، وإنما تكون دليلاً قاطعاً على وجود المبدع والخالق الذى يدعو إليه النبى. وإذا كان علماء الإسلام قد فرقوا بين المعجزة العقلية التى تقنع العقل وتدفعه إلى التفكير والوصول إلى الحقائق بتعقل وروية ومثالها القرآن الكريم، وبين المعجزة الحسية التى تفحم العقل وتضطره إلى التسليم وتكون لإقناع من لم يقتنع بتفكيره، وصنفوا آيات الله إلى موسى على أنها كانت من نوع المعجزات الحسية - فإنى - ومع التسليم بصحة التمييز بين نوعى الإعجاز. لا أتفق معهم على تصنيف آيات موسى كمعجزات حسية مفحمة للعقل، دافعة له إلى التسليم دون تفكير؛ ذلك أن معجزة موسى كانت من نفس نوع العلم الذى برع فيه المصريون، واختص بدراسته وممارسته صفوة علمائهم وحكمائهم، وآيات الله لنبيه فى مصر تشابهت مع ما يحدث ويصيب حياتهم بين آن وآخر، وتتعرض لها الأرض التى يعيشون عليها، أو النهر الذى تعتمد عليه حياتهم أو الطبيعة المحيطة بهم، حتى وإن جاءت بدرجة أشد جسامة من المعتاد، وقد استغرق حدوث هذه الآيات عدداً من السنوات كانت كافية للتدبر والتأمل والتفكير. ومن ثم، فإن الله لم يأت بها مجموعة سريعة متتالية من المعجزات الحسية، ولم يبعث موسى ساحراً يمسك عصا يضرب بها الأرض فتصير خراباً ويضرب النهر فيصير دماً، لم يقصد الله إلغاء عقولهم ومخاطبة شعورهم ووجدانهم واقتيادهم إلى التسليم حتماً، وإنما كانت آياته ـ سبحانه ـ تخضع للمنهج الإلهى الذى يخاطب العقل والتفكير، وها هم القوم الذين لم

يعقلوا يتحدون موسى فى عناد وإصرار «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)» [الأعراف]. وفرعون أيضاً لا يعقل الآيات ولا يؤمن ويقول للملأ متحدياً: «فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)» [الزخرف].

وحتى بنى إسرائيل منهم من قال لموسى «لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً(٥٥)» [البقرة].

فهؤلاء جميعاً لم تفحمهم الآيات أو تقنعهم، وأيضاً لم يعقلها تفكيرهم، وظل فرعون وملؤه يعتقدون أن موسى ساحر، وتوهموا أنهم بخداعهم يأخذون موسى على قدر عقله حتى يرفع عنهم النوائب التى يحدثها بسحره:

«وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩)» [الزخرف]. إذ لو صدق قولهم لآمنوا، فكان القوم الكافرون مع موسى شأنهم شأن المشركين مع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الذى جاء لهم بمعجزة القرآن الكريم وتحداهم الله به، ولكنهم طلبوا بعض المعجزات الحسية الفورية ووقفوا إيمانهم عليها، فقال لهم: ما أنا إلا بشر رسول، وهذا ما تذكره الآيات الكريمة: «قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)» [الإسراء].

وهكذا شأن سائر الأنبياء جميعاً يعجزون بقدرتهم عن الإتيان بمثل المعجزات التى وقعت على أيديهم، إنما يأتون بها بقوة الله الذى أرسلهم. والفرق بين معجزة وأخرى أنها تكون لكل نبى من جنس ما برع فيه قومه ليكون للتحدى معنى، ويأتى الإدراك والاقتناع من هؤلاء الذين هم أهله، وتقام الحجة على الجاهلين المكذبين.

وقد تأثر الكهنة الذين كتبوا التوراة بذات التفكير البشرى الذى يريد المعجزة حسية مفحمة فجعلوا آيات موسى سريعة متتالية تبدأ أمام فرعون والقوم لحظة أن يضرب موسى أو هارون العصا وتنتهى لحظة أن يدعو موسى ربه.

ولكن الله سبحانه يقدم الصورة الحقيقية فى القرآن الكريم ويوضح لنا أنها آيات استمرت زمناً، وكانت تخاطب عقولهم وتستحث تفكيرهم لأنها من جنس علومهم ومعارفهم، أو تتشابه مع طبيعة أرضهم وبيئتهم.

ثانياً: نتيجة الدعوة

كان أول من آمن بموسى فى مصر بعد مباراة السحر هم السحرة الذين نافسوه، ذلك أنهم

أدركوا أن ما جاء به موسى ليس سحراً فصدقوا رسالته وسلموا له، وسجدوا لرب العالمين، وهؤلاء المفترض أنهم كبار كهنة المعابد وخيرة علماء وحكماء مصر، ولذلك فإن انتصار موسى وإيمان السحرة لا بد وأنه قد أحدث رد فعل عظيم بين المصريين، وإذ تبعته آيات الله البينات الأخرى التى أعطاها لموسى، فانقسم القوم ودخل مقتنعا بعض المصريين فى الإسلام، وآخرون كثيرون خافوا أن يعلنوا عن إيمانهم حتى لا يغضب عليهم فرعون وحاشيته، وهؤلاء على الأقل انصرفوا عن الديانات الوثنية، خاصة فى المنطقة الشمالية التى شهدت المباراة السحرية، والتى كانت قريبة من حياة موسى فى مصر، يقول الله تعالى:

«فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)» [يونس].

وسيراً على ما سلف إيضاحه فى رسالة موسى ودعوته فى مصر، فإنه من الخطأ والظلم مجاراة النهج التفسيرى السائد الذى يعتبر أن بنى إسرائيل وحدهم هم المقصودون بقوم موسى، والذى آراه تفسيراً للآيات الكريمة السابقة، أن القوم المؤمنين الذين يعنيهم قول الله - تعالى - ينصرف إلى جميع القوم سواء المصريين أم بنى إسرائيل، بل إن حكم تلك الآيات يعنى فى الأغلب المصريين منهم، ونستند فى ذلك على الآتى:

١ - أن القرآن الكريم استخدم دائماً لفظ «قوم» مع شعب كل نبى بعث فيهم، ولن يكون موسى استثناء من ذلك بسبب انتمائه العرقى إلى طائفة بنى إسرائيل التى تعيش فى مصر، فيكون هؤلاء فقط هم قومه دون باقى شعب الأرض التى شهدت ميلاده وتربى وعاش عليها سنوات من عمره، وعاش عليها قبله أجداده، وبعث على أرضها ولأجل قومها، والأكثر دلالة على ذلك المعنى المقصود، أن القرآن الكريم استخدم لفظ «قوم لوط» وتكرر ذلك لهم عدة مرات رغم أنهم ليسوا شعبه، ولم تكن أرضهم وطنه فهو الذى انتقل إليهم لهدايتهم، ولم يهتدوا.

٢ - أشارت الآيات السابقة إلى عدم إيمان الجزء الأكبر من القوم خوفاً من فرعون، وهذا ينطبق فى الغالب على المصريين أكثر من بنى إسرائيل، لأن الإسرائيليين كانوا فعلاً يعيشون فى حالة خوف تهدد حياتهم بسبب التعذيب والاضطهاد والسخرة التى كانت تمارس عليهم، وجاء موسى لخلاصهم منها، ولم يكن يوجد ما هو أسوأ من الوضع الذى كانوا عليه سواء قبل أن يأتيهم موسى أم بعد أن جاء إليهم، هذا فضلاً عن أن موسى جاء للخروج بهم من مصر، فهم أتباعه، وأعلنها موسى وهارون صراحة لفرعون **«إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ (٤٧)»** [طه]، فأصبح بنو إسرائيل جميعاً بموجب هذا الإعلان محسوبين على موسى الذى

يمثلهم أمام فرعون ويتحدث باسمهم وأعلن رغبتهم فى الخروج من مصر، ومن ثم لا يتفق منطقياً أن يكونوا هم المقصودين بالطائفة التى تخشى الإيمان خوفاً من فرعون، وإلا أنكر الخائفون منهم تمثيل موسى لهم.

٣ـ من المفترض أن بنى إسرائيل الذين يعنيهم موسى ويسعى للخروج بهم جميعاً من المؤمنين، فلا يستقيم أن يكونوا هم المقصودين بالقوم الذين استثناهم الله تعالى من الإيمان خوفاً من فرعون؛ ذلك أن التعذيب والسُّخرة قرينتان على إيمانهم، ورفضهم المجتمع المصرى الوثنى. وقد أوضحنا سابقاً أن بداية الاضطهاد فى حياتهم حدثت فى الفترة التى سبقت ميلاد موسى بعد أن انكشف دورهم فى نشر عقيدة التوحيد فى مصر، تلك الدعوة التى أحدثت فتنة طائفية وصدعت أركان العقيدة المصرية القديمة. وقد واكب القضاء عليها قبل نهاية الأسرة الثامنة عشرة دخول شعب إسرائيل حظيرة العبودية، ولاقوا كل أصناف التنكيل والتعذيب، ولكن من اندمج منهم فى المجتمع المصرى واعتنق دياناتهم أو على الأقل لم يعاد آلهتهم فإنه أصبح منهم منذ زمن، وصار شأنهم شأن أمثالهم من طوائف المجتمع، ومنهم العمال والأجراء المصريون الذين يشتغلون فى أعمال الفرعون لقاء أجر مناسب وليس بالسخرة أو التعذيب، أو يتمتعون بجميع الحقوق فى اختيار أعمالهم وصناعتهم، وقدم الله تعالى مثالاً لتلك الحالة، قارون الذى كان من بنى إسرائيل وخرج عنهم، وآتاه الله أموالاً وثراءً عظيماً، ولكنه أفسد فى الأرض، وكان يتفاخر بأنه أوتى أمواله بسبب علمه، وقد خسف الله به وبداره الأرض جزاء فساده، وعن ذلك يقول الله تعالى:

«**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)**» [**سورة القصص**]، وتزخر النصوص المصرية خصوصاً فى تلك الفترة ببيان المعاملة الطيبة والكريمة للعمال المصريين واهتمام الملوك بأحوالهم وظروفهم المعيشية، وأيضاً تقدم النصوص نماذج من قصص نجاح المهاجرين فى مصر، وأبداً لم يكن التعذيب لبنى إسرائيل لأسباب عرقية، فقد سبقه لهم حياة رخاء ونعيم حتى بعد يوسف، ومن عهد الفرعون رمسيس الثانى نفسه نجد أشخاصاً من أصول سورية أو كنعانية حظوا بمناصب رفيعة القدر، ومن هؤلاء «عشا حب سد» مبعوث الملك بكافة البلاد الأجنبية، والقائد العسكرى الأعلى «أورحيا» وابنه «يوبا»، ومن أقدم القائمين بخدمة الفرعون عهداً رئيس الرسامين بمعبد الكرنك واسمه «ديديا» وكان جده الأكبر «بيدو بعل» قد وفد من كنعان إلى مصر، منذ أجيال بعيدة، فهؤلاء جميعاً وغيرهم مثلهم مثل قارون، رحب بهم البلاط الملكى ومنحهم المال الوفير والحياة الكريمة دون تمييز عرقى.

فإذا تبين أن بنى إسرائيل الذين حضر موسى لأجل إنقاذهم من التعذيب هم فعلاً من المؤمنين بدليل السخرة والاضطهاد؛ ورغبة الله تعالى السابقة على ميلاد موسى فى أن يمن

عليهم ويجعلهم الوارثين، فإن تعبير **«ذرية من قومه»** الذى تقصده الآيات السابقة يعنى هؤلاء الجدد الذين دعاهم موسى بعد عودته إلى مصر.

٤- تذكر الآيات أن الله تعالى أوحى لموسى وهارون أن يتخذا للقوم المؤمنين بيوتاً ويجعلوها مقصداً ومقراً لاجتماعهم لعبادة الله وأداء الصلاة، وباعتبار أن بنى إسرائيل كانوا يقيمون أصلاً فى مصر وفيها بيوتهم. وكانت عودة موسى وأحد شقى رسالته هى إنقاذهم من التعذيب والخروج بهم من مصر، ومن ثم فإنه لا يوجد موجب لأن يكون هذا الأمر الإلهى موجهاً لهم أو يقصدهم بصفة أساسية، فهم لهم بيوتهم وغير ذلك، فإنهم فى مرحلة الاستعداد والتأهب والسعى للخلاص وحزم أمتعتهم وترك بيوتهم والخروج وليس الاستقرار، إذاً فإن المقصودين فى هذه الآية هم المؤمنون من شعب مصر الذين لن يشملهم الخروج، فجاء وحى الله بأن يتخدوا لهم بيوت تقوى وإيمان جديدة بعيدة عن المجتمع الوثنى ومعابد الآلهة المنتشرة فى أحيائهم، لتكون لهم مساجد ودور عبادة يجتمعون فيها ليعلمهم موسى وهارون أمور دينهم قبل أن يرحل بنو إسرائيل، وليمارسوا فيها عباداتهم وشعائر دينهم وصلاتهم بعيداً عن معابد المصريين وفتنة المجتمع الكافر.

٥- قول الله تعالى الذى جاء على لسان السحرة **«إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾»** [**الشعراء**]، يكشف أنهم ليسوا آخر المؤمنين، أو على الأقل توقعهم الذى غالباً صادف محله بأن آخرين بعدهم سيدخلون فى الإيمان.

ومما تقدم يثبت أنه كان بين المصريين من آمن لموسى، خلافاً لما تعتقده بعض من كتب التفسير التى تقصر ذلك على بنى إسرائيل.

وبالإضافة إلى إيمان السحرة - صفوة علماء وحكماء مصر - والطائفة من المصريين التى آمنت، فقد كان من النتائج المهمة للدعوة أيضاً أنه قد دخل فى الإيمان شخص مصرى على قدر كبير من النفوذ والأهمية من البيت الملكى من آل فرعون، قصَّ الله تعالى علينا قصته فى سورة غافر فى القرآن الكريم، ويتضح من العرض القرآنى أن هذا الشخص كان صاحب علم ورؤية وعلى دراية بالتاريخ، ذا فكر ثاقب ورأى حكيم مستنير، وبالتالى فليس لدينا من شك أن هذا الشخص كان من طائفة الدارسين المتعلمين، وأن إيمانه قد استند على يقين وإدراك لحقيقة آية الله معجزة موسى يقول الله تعالى:

«وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾»[غافر].

ومن حديث القرآن عنه لن يكون استنتاجاً إذا قررنا أنه آمن مع السحرة يوم الزينة، بل إن ذلك يأتى استخلاصاً من قول الله تعالى - على لسان هذا الرجل **«أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ**

اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ»، وقد كان هذا الحديث إلى ملأ من الناس فى مجلس الفرعون، وهذا يقودنا إلى التعرف على أن مستوى علمه قد أهله لإدراك ما أدركه السحرة بما يدل على أنه كان واحداً من العارفين بالسحر وحقيقته وأحد العلماء والحكماء، غير أنه فضل أن يكتم إيمانه، ولم يكن ذلك خوفاً من فرعون، فحديث الله عنه يؤكد أنه فى قوله كان قوياً وصريحاً وجريئاً فى تعبيره المبطن عن إيمانه فلم يكن أضعف من السحرة أو أقل إيماناً، وإذا كان رد فعله الفورى اختلف عنهم، فذلك لأنه كان عاقلاً حصيفاً وأخفى إيمانه لأن الحكمة والموقف الراهن اقتضيا ذلك لأسباب عديدة، منها وضعه الاجتماعى، وصفته فى البلاط والجهاز الإدارى للدولة وصلة القربى القوية التى تربطه بفرعون، فجعله ذلك يتدبر الأمر ويتريَّث فى إعلان إيمانه؛ لأنه أدرك أنه ليس مناسباً له شخصياً أن يأخذ نفس موقف السحرة - أهل العلم والحكمة - الذين استدعاهم فرعون - واثقاً - لنصرته على هذا الرجل - موسى - الذى تحداه بجرأة، فإذا بهم ينهزمون أمامه ويخذلون الفرعون ولا يكتفون بذلك بل يعلنون انتصار خصمه بإيمانهم الفورى به؛ فتسببوا فى إحراجه أمام جمع غفير من حاشيته وكبار قومه، ومن ثم فرضت الظروف على الرجل المؤمن – إما احتراماً للفرعون أو حباً له أو اعتباراً لأواصر العلاقة التى تربطه به – أن يتريث فى إعلان إيمانه وألا يندفع ويشارك السحرة فى هزيمة الفرعون، وارتأى أن من الخير أن يسدى له النصيحة، فقد كان يؤمّل أن يهتدى وأن يشرح الله صدره للإيمان.

وأخيراً أدرك الرجل المؤمن بحكمته أنه يجب أن يتخذ موقفاً لحماية نبيى الله موسى وهارون والمؤمنين من غضب وبطش فرعون، فحديثه القوى والجرىء أمام فرعون، وحواره مع القوم يكشف فضلاً عن علمه أيضاً حظوته ونفوذه ووضعه المميز لدى الملك ورجال الدولة، فقد كان يتكلم دون خوف أو نفاق، وفى أكثر من موقف كاد رأيه أن يكون - بل كان فعلاً - دعوة صريحة إلى الدين الجديد، وتدرج حديثه بين اللوم والتذكير والإنذار، وكان فى خطابه أشبه ما يكون بلغة الرسل والأنبياء فى مناهجهم ورسالاتهم، يقول الله تعالى: «**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)**» إلى آخر ما جاء بشأنه فى سورة غافر.

إذن لقد أراد هذا الرجل أن يكون له دور فى مساندة دعوة موسى وحمايته وأتباعه، ونرى من جانبنا أن الله فعلاً قد جعله سبباً لتحقيق تلك الحماية، تصديقاً لوعده بأن يجعل له ولأخيه سلطاناً ضد أعدائهما، وأن يكون ومن معه هم الغالبين. وكان هذا على النحو الذى سوف نوضحه فى الملاحظة التالية.

وسوف يكون لنا حديث فى جزء قادم من هذه الدراسة لتحديد شخصية مؤمن آل فرعون فى تاريخ مصر.

ثالثاً: فرعون لم يقتل السحرة ولم ينفذ أياً من تهديداته

فى آيات القرآن الكريم توعد فرعون السحرة بالقتل، وهدد بقتل أبناء قوم موسى، وأيضاً أبناء جميع الذين آمنوا معه، بل هدد بقتل موسى مخافة أن يبدل دينهم وليمنع فساده فى الأرض.

وقد استقرت كتب التفسير والدراسات الإسلامية القديمة والحديثة أن فرعون قتل السحرة وقتل أبناء قوم موسى ويمكن أن نستخلص من مجمل كتاباتهم أنهم يستندون فى ذلك إلى الآتى:

١. الوعيد والتهديدات التى ذكرها القرآن الكريم منسوبة إلى فرعون. باعتبار أنه يملك القوة والسلطان لتنفيذها والتى عبر عنها بقوله **«إنا فوقهم قاهرون»**.

٢. قول السحرة لفرعون: «**وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** (١٢٦)» [**الأعراف**].

وقولهم: «**وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** (٧٢) **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** (٧٣) **إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ** (٧٤) **وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ** (٧٥) **جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ** (٧٦)» [**طه**].

وأيضاً بعد تهديد فرعون لهم بالصلب «**قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ** (٥٠) **إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ** (٥١)» [**الشعراء**].

٣. قول قوم موسى له «**أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**» ويفسر ابن كثير هذا القول بأنه قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك، وبعد مجيئك إلينا، وكان رد موسى عليهم «**قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** (١٢٩)» [**الأعراف**].

والذى أراه: أن فرعون كما أنه لم يستطع أن يقتل موسى وهارون، فهو لذات الأسباب لم يتمكن من تنفيذ تهديده بقتل السحرة أو قتل أبناء قوم موسى وأبناء الذين آمنوا معه، ولم يكن رد السحرة على تهديده لهم إلا ندماً وتوبة ودعاء إلى الله بأن يغفر لهم ما كانوا عليه من ضلال، وقد أظهر الله تعالى الحالة الإيمانية التى صاروا إليها ودرجة إيمانهم، إيضاحاً للفرق بين ما كانوا عليه وما آلوا إليه بعد إسلامهم الذى جعلهم لا يخشون فرعون، وردوا على تهديده لهم وفقاً للصورة التى وردت فى آيات القرآن الكريم. ولكن ليس معنى ذلك أن فرعون نفذ وعيده أو أياً من تهديداته. ونستند فى تأييد رأينا للآتى:

١. سابقة وعد الله تعالى لموسى بأن يجعل له ولأخيه سلطاناً يحميهما ومن اتبعهما من وصول أعدائهم إليهم، وذلك فى قوله تعالى: «**قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** (٣٥)» [**القصص**]، «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** (٢٣)» [**غافر**]، والذى نراه من تفسير لهذه الآيات أن هذا السلطان أمر غير

معجزة موسى والتسع آيات البينات التى كانت له فى أرض مصر.

لقد أيد الله تعالى موسى وهارون بهذا السلطان المبين لكى يمنع عنهما أى مكروه يمكن أن ينال منهما بسبب رسالتهما، أو يصيب من اتبعهما بسبب إيمانهم، وليس ذلك فقط بل يكونون هم الغالبين. وهذه الآية الكريمة قالها الله تعالى لموسى حين كلَّمه فوق جبل الطور، وبعثه إلى مصر لما أبدى موسى مخاوفه من فرعون وقومه فطمأنه الله بتأكيد أن أعداءهم لن يصلوا إليهما، وأن هذه الحماية الإلهية تشمل أيضاً من يتبعهما.

وفى تأكيد آخر لحماية الله، عندما أبدى موسى خوفه من طغيان فرعون عليه وأخيه فيرد عليه سبحانه «**لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** (٤٦)» [طه].

وأيضاً فى نفى الله تعالى لمخاوف موسى «**قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ** (١٥)» [**الشعراء**].

فإذا كان ذلك هو عهد الله مع موسى فلن يكون له سبحانه أن يخذله فى أول مواجهة مع فرعون ومع أول المؤمنين به بهذه الصورة البشعة، التي هدد بها فرعون السحرة. وهى قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وقتلهم صلباً، والتى من شأنها أن توجد حالة من الرعب والفزع والإحباط لكل من تسوِّل له نفسه الإيمان، إن المعنى الذى تؤدى إليه الآية الكريمة السابقة أن سلطان الله الذى حفظ موسى وهارون من بطش الطغاة قد امتد أيضا ليشمل جميع المؤمنين.

٢- لم يذكر الله تعالى فى القرآن الكريم أن فرعون قتل السحرة فى أى مرة من المرات التى تحدث فيها القرآن عن تهديد فرعون لهم بعد إيمانهم، وجميع الآيات فى مختلف السور التى قصت إيمان السحرة وحملت غضب فرعون عليهم جاءت بعبارات التهديد والوعيد، وبصيغة المستقبل، ولم يحدث إطلاقاً فى أى منها أن وردت عبارة أو إشارة يستدل منها على تنفيذ القتل أو الصلب، تماماً مثلما كان الأمر مع التهديد بقتل موسى وهارون الذى لم يحدث.

وعلينا أن نلاحظ ذلك فى قول الله تعالى فى السور الآتية:

● فى سورة الشعراء:

«**قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)**» .

● وفى سورة طه:

«**قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢)**».

● وفى سورة الأعراف:

«**قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥)**» [**الأعراف**].

من الواضح أن انتصار موسى وإيمان السحرة مثل تحدياً خطيراً للفرعون العجوز ألجم عقول جموع الحاضرين وعقد ألسنتهم، وجعل الفرعون متخبطاً مصدوماً وهو يرى سلطانه يتهاوى، وهو الذى يعشق الجاه والسلطان وحب الذات، ويقول أنا ربكم الأعلى، فلم يعرف كيف يتصرف وجاء رد فعله الغاضب أقرب إلى الهذيان، واختلطت عبارات الغضب مع التهديد والوعيد والسخرية، فتهديده للسحرة لا يختلف عن قوله لجموع الحضور: «**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي**» وقوله لوزيره «**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ (٣٨)**» [**القصص**].

ولو كان فرعون قتل السحرة أو أبناء قوم موسى خلال فترة الدعوة، فإن الله ـ تعالى ـ كان سيشير إلى ذلك إما صراحة أو ضمناً مثلما فعل سبحانه ـ فى وصف فترة ميلاد موسى عندما ذكر أن فرعون كان يقتل أطفال طائفة من أهل مصر « **وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ (٤)**» [**القصص**]، وقوله تعالى: «**وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)** » [**الأعراف**]، فإن ذلك يعود على تلك الفترة الأولى التى سبقت وتزامنت مع ميلاد موسى.

فى المثال السابق استخدمت قصة القرآن صيغة الماضى أو المضارع قاصدة تأكيد حدوث الفعل، وهو ما لم يحدث فى أى مرة من آيات تهديد السحرة، وإذا كان ـ سبحانه ـ لم ينف تنفيذ تهديد قتل السحرة بعبارة صريحة، فلأن هذا الأمر يؤدى إلى فهمه وإدراكه ارتباط لزوم ذلك بسابقة الوعد الإلهى لموسى بحماية المؤمنين بالإضافة إلى آيات إبطال كيد الكافرين.

ويوجد العديد من الأمثلة فى قصص القرآن الكريم، وباستعراضها تتضح إمكانية التمييز بين ما ذكره الله تعالى حدثاً قد وقع منسوباً لأشخاص، أو ورد على سبيل آخر كالعظة والعبرة أو التهديد والوعيد؛ فى قصص الأنبياء وقصة أهل الكهف وذو القرنين وغيرها فى مواضع مختلفة ونتخير للتدليل على قصدنا الأمثلة الآتية:

- يقول الله تعالى:

«**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً (٦٧)**» [**البقرة**] ثم لتأكيد حدوث الفعل يكمل القرآن فى موضع تالٍ «**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)**» [**البقرة**].

- ويقول الله تعالى فى وصف انتقام قد وقع:

«**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ**

بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)» [البروج].

● وعن خوف بنى إسرائيل من القوم الجبارين وإحجامهم عن دخول الأرض المقدسة، واستحقاق عقاب الله عليهم، يقول تعالى:

«قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ... (٢٦)» [المائدة].

بما يعنى لزوماً تأكيد دخولهم بعد أربعين سنة.

وأيضاً فى مواضع أخرى مختلفة فى القرآن الكريم ورد ما يؤكد دخول بنى إسرائيل الأرض المقدسة وقيام مملكة لهم عليها.

● ويضرب الله تعالى مثلاً للعظة والاعتبار فى حوار بين رجلين مختلفين:

«إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)».

لو وقف الأمر عند هذا الحد لكان مجرد تحذير ووعيد، ولكن تأتى الآية التالية مؤكدة حدوث أحد الضررين **«وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢)» [الكهف].**

هذا ما نتبينه فى الأمثلة السابقة، أما فى آيات السحرة فلا نتبين سوى التهديد والوعيد، ولو وقع تنفيذ القتل لأخبرنا به الله تعالى فى أى من المواضع التى تناولت قصة السحرة.

٣. نفى الله تعالى فى القرآن الكريم فى قول صريح تنفيذ تدبير الكافرين بقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى **«وما كيد الكافرين إلا فى ضلال»** وقد جاء هذا النفى تالياً لتأكيد سابق من الله تعالى أنه أرسل موسى بآياته وسلطان مبين، فأوجد بذلك علاقة سببية رابطة بين سلطانه - سبحانه - وبين إبطال كيد الكافرين.

فيقول تعالى:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥)» [غافر].

وكما ربط الله تعالى فى الآيات السابقة بين سلطانه وبين إبطال كيد فرعون وقومه، والذى ينصرف هنا إلى فشل تدبير قتل أبناء المؤمنين تماماً ربط فى الآيتين التاليتين عليهم بين تدبير فرعون لقتل موسى ثم استعاذة موسى بالله، فكانت سبباً فى نجاته، فيقول تعالى:

«وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)» [غافر].

٤. الموضع والعرض القرآنى لقصة مؤمن آل فرعون فى سورة غافر يؤكد أن الله تعالى قد جعله سبباً لإنفاذ سلطانه ولإبطال تنفيذ تهديد فرعون وقومه، وتدبيرهم الساعى

لقتل موسى وهارون والسحرة المؤمنين وأبناء الذين آمنوا، فقد ذكر الله تعالى قصته تالية مباشرة لآيات كيد فرعون التى أوضحناها فى الملاحظة السابقة، وهذا الربط فى الموضع مع أسلوب العرض يقطع بأن هذا الرجل المؤمن الذى كان صوت العقل فى مجلس الفرعون، لم تنبع أهميته فقط من مجرد كونه يمت بصلة القربى للفرعون، بل إنه فضلاً عما يكشف عنه العرض القرآنى من تمتعه بعلم وحكمة ورأى مستنير فقد كان رجلاً تنفيذياً فى الدولة قوى الحجة، عظيم الشأن ذا رأى مسموع لا يقاطع فى حديثه ولا يصادر رأيه، فلم يستطع أى من الحضور - غير فرعون - مقاطعته أو الاعتراض على قوله، رغم جرأته وصراحته، حتى مقاطعة فرعون له لم تحمل أى تهديد لشخصه أو سخرية منه، وإنما كانت مجرد عبارات جوفاء قصد بها حفظ ماء وجهه أمام قومه، ولم يأبه لها المؤمن واستمر فى حديثه، الأمر الذى نستنتج منه مدى اطمئنانه إلى رد فعل الملك تجاهه وثقته فى حب فرعون وتقديره له وثقة فرعون فى إخلاصه، وأن إخفاء إيمانه كان بسبب هذه الأواصر والعلاقة الشخصية وليس بسبب الخوف أو الخداع. وبسبب هذه العوامل الذاتية والأواصر القوية التى يتمتع بها الرجل المؤمن لدى فرعون استطاع أن يدافع عن موسى ودعوته رغم الغضب الهادر الذى اندفع من فرعون، لقد كان واثقاً أن فرعون لن يشك فى حديثه ولن تتزعزع ثقته فى إخلاصه له، وأنه سوف يأخذ رأيه على محمل النصيحة الصادقة الصادرة من شخص يحب الفرعون مخلصاً فى حمايته، صادقاً فى عدم تعريضه للخطر، ولا ينال من اعتبارات حسن نية فرعون وثقته فى شخص قريبه المؤمن عدم اقتناعه فى نهاية الأمر بنصيحته والتى أوضحها قول الله تعالى: «**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)**» [غافر].

ذلك أنه رغم هذا الاعتراض من فرعون لحديث المؤمن فإنه لم يأبه بقول الفرعون واسترسل فى نصيحته:

«**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)**» [غافر].

ومع هذه العبارة الأخيرة التى تعنى فرعون وأمثاله يقطع الفرعون حديث المؤمن ليس نهراً له أو احتداداً عليه أو سخرية منه، وإنما محاولاً فى حماقة إثبات كبريائه المتهاوى بعد توالى آيات موسى، فيسخر من دعوته باستهزاء خاوٍ يعلم استحالته يوجهه إلى وزيره، يذكره الله

تعالى فى قوله:

«وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ......(٣٧)» [غافر].

ثم يذكر الله تعالى تبدد كيد فرعون فى قول آراه ينصرف إلى تأكيد فشل جميع تدبيراته ونسف جميع تهديداته ضد موسى والمؤمنين:

«وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧)».

ثم يخبرنا الله تعالى فى الآيات التالية أن الرجل المؤمن - منحياً تُرهَات فرعون ورافضاً تطاوله وغروره - استمر ناصحاً للقوم:

«وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)» [غافر].

ويسترسل المؤمن على النحو الذى يقصه الله تعالى فى سورة غافر عارضاً أسبابه للنجاة والفوز فى الآخرة.

هذه القوة والجرأة اللتان أوضحهما العرض الإلهى لموقف الرجل المؤمن واستخلاصات العرض على النحو المتقدم تجعلنا موقنين أن صوت العقل الصادر منه قد انتصر، وأنه أمكنه إقناع فرعون بإيقاف تنفيذ قراراته المندفعة:

فلم يقتل موسى أو هارون.

ولم يقتل أبناء قوم موسى أو الذين آمنوا معه.

ولم يقتل السحرة صلباً كما توعد.

وإذا لم تكن الأسباب التى استعملها فى تحقيق ذلك الإقناع هى أسباب النجاة والفوز فى الآخرة التى لم تجد طريقها إلى قلب الفرعون، فقد كانت هناك أسباب سياسية أخرى غالباً كانت هى طريقه فى الوصول إلى عقله.

٥- من الناحية السياسية كان الأمر سوف يكون صعباً ومهيناً لفرعون مصر وزعيم الإمبراطورية لو أقدم على قتل السحرة ثم ترك موسى وهارون يعيشان بعدها فى مصر عدة سنوات، بل أيضاً يمارسان دعوتهما ويؤديان مع المؤمنين شعائر دينهم، ويتخذون بيوت المؤمنين دوراً للعبادة - كما يخبرنا الله تعالى - كان الموقف سوف يبدو أمام الشعب أن الفرعون قتل السحرة المصريين، وخاف من **«كبيرهم الذى علمهم السحر»** وتركه وأخاه وشأنهما يدعوان لدينهما فى مصر.

هذا فضلاً عن أن هؤلاء السحرة هم حكماء وعلماء مصر، وكبار كهنة المعابد ولهم نفوذ كبير وأتباع وأعوان فى المدن والمعابد، وكان قتلهم ولا شك سوف يحدث رد فعل داخلى عنيف وانقساماً فى قطاع عريض من الطوائف المؤثرة فى الشعب فى مدائن مصر المختلفة.

لهذه الأسباب، مع رغبة الرجل المؤمن الذى كان واحداً منهم، فإن إيقاف تنفيذ تهديد قتل السحرة يكون منطقياً.

٦- لم تذكر التوراة شيئاً عن قتل السحرة وهو أمر لو حدث ما كان كتبة التوراة ليضيعونه دون ذكر. وقد يرى البعض أن مبرر هذا التجاهل هو أن التوراة لم تذكر أيضاً إيمان السحرة لموسى، ومن ثم استتبع ذلك عدم الإشارة لقتلهم لانعدام السبب. وذلك مردود بأن النهج العنصرى الذى يقصر الدعوة والرسالة على بنى إسرائيل اقتضى عدم الإشارة إلى إيمان السحرة برب موسى الذى هو فى رأيهم رب إسرائيل فقط، أما قتل السحرة فلو كان قد حدث وفقاً للصورة التى هدد بها فرعون، فإن كهنة إسرائيل ما كانوا ليتركوا ذلك دون استغلال بتصويره على أن فرعون قد انتقم منهم بعد هزيمتهم وابتلاع عصا موسى - التى صارت ثعباناً - لعصيِّهم والتى ذكرتها التوراة.

ويلاحظ أن التوراة قد أشارت من طرف خفى إلى إيمان السحرة، عندما ذكرت أن فرعون كان يستعين بهم لإبطال آيات الله فى الأرض التى تحدثها عصا موسى، وعندما فشلوا فى ذلك قالوا له إن: «هذا أصبع الله» [سفرالخروج - الإصحاح الثامن - الآية ١٩].

وأيضاً لم تذكر التوراة شيئاً عن قتل أبناء بنى إسرائيل بعد عودة موسى إلى مصر، وهو أيضاً أمر لو حدث لكانت التوراة قد ذكرته.

ويتبقى فى النهاية ما ذكره القرآن من قول قوم موسى له «**أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا... (١٢٩)**» [الأعراف] وقد فصلت التوراة ذلك فى سفر الخروج - الإصحاح الخامس من أن فرعون بعد أن طلب منه موسى وهارون خروج بنى إسرائيل أمر بازدياد أعمال السخرة ضدهم:

«وقال فرعون هو ذا الآن شعب الأرض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم..

فأمر فرعون فى ذلك اليوم مسخرى الشعب ومدبريه قائلاً: لا تعودوا تعطون الشعب تبناً لصنع اللبن كأمس وأول من أمس. ليذهبوا هم ويجمعوا تبناً لأنفسهم. ومقدار اللبن الذى كانوا يصنعونه أمس وأول أمس تجعلون عليهم. لا تنقصوا منه فإنهم متكاسلون لذلك يصرخون قائلين: نذهب ونذبح لإلهنا. ليثقل العمل على القوم حتى يشتغلوا ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب» [الآيات من ٥ : ٩] وقد اشتكى مدبرو بنى إسرائيل إلى موسى وهارون وقالوا لهما: لقد أعطيتما سيفاً فى أيدى فرعون والمصريين ليقتلوهم، فرجع موسى إلى ربه ودعاه ليخلص شعبه؛ لأنه منذ أرسل إليهم وقد زادت الإساءة إليهم.

هذا ما ذكرته التوراة فقط من إيذاء لبنى إسرائيل بعد عودة موسى، وأراه متفقاً مع قصة القرآن الكريم بعد إيضاح رأينا بشأن تهديدات فرعون.

رابعاً: اختلاف الظروف السياسية بين فترة الميلاد وفترة الدعوة

نستخلص مما تقدم وعلى النحو الذى أوضحناه فى تفسيرنا لآيات القرآن الكريم عن فترة الميلاد ثم الدعوة فى مصر، وكذلك من عرض قصة التوراة فيهما، أن السنوات التى سبقت ميلاد موسى وصاحبت مهده قد شهدت مرحلة تاريخية كانت تمر بها مصر، أفرزت وجود طائفة مستضعفة تأخذ خطاً مغايراً لسياسة وعقيدة جهاز الحكم، وقد دفعت رغبات الانتقام - وأيضاً الخوف من أتباع تلك العقيدة - بملك مصر وجنوده وأجهزته التنفيذية إلى التنكيل بهؤلاء الأفراد والنيل منهم، إما لإجبارهم على الارتداد عن عقيدتهم وأفكارهم أو لإبادتهم والخلاص منهم، ومن ثم تعرضت هذه الطائفة المستضعفة للإيذاء والتعذيب الذى كان أبشع صوره قتل أولادهم الذكور، وقد اشتملت هذه الطائفة معهم بنى إسرائيل الذين أُجبروا أيضاً على السخرة فى أعمال الإنشاءات لفرعون، الأمر الذى نستخلص ترتيباً عليه أن أراضيهم التى كانت لهم منذ عهد يوسف قد صودرت لصالح الدولة. وقد سبق فى تفسيرنا لآيات فترة الميلاد أن ربطنا بين التقسيم الطائفى الذى أشار إليه القرآن الكريم «**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** (٤)» [**القصص**]، وبين ما كشفت عنه المصادر التاريخية (الآثار) من الظروف السياسية التى سادت مصر قبل انتهاء الأسرة الثامنة عشرة بعد القضاء على حكومة التوحيد، والذى تبعه التنكيل بأتباعهم والقضاء عليهم وتخريب مدنهم وديارهم، ونستند فى الربط بين الحدثين، وتحديد أن المقصود بحدث القرآن الكريم هو ذات هذا الحدث التاريخى إلى الأسباب الآتية:

١. وجود بنى إسرائيل - الذين تقوم عقيدتهم على التوحيد - ضمن الطائفة المستضعفة التى ذكرها القرآن الكريم، وهو ما يزكى استخلاص ارتباطهم بأتباع عقيدة التوحيد التى قامت فى مصر.

٢. الاتفاق فى جوهر المعانى والنصوص الدينية بين عقيدة التوحيد المصرية وبين عدد من آيات التوراة، وصل إلى حد كبير من التشابه بل التطابق أحياناً. مما يزكى استنتاج اتحاد المصدر.

٣. اتفاق ظروف الاضطهاد والتعذيب لأتباع هذه الطائفة المستمد من المصادر الدينية (القرآن والتوراة) مع المصادر التاريخية (الآثار).

٤. التوافق الزمنى والمكانى، والذى سنوضحه تفصيلاً فى الفصول اللاحقة.

هذا عن ظروف مصر السياسية فى فترة الميلاد، أما فترة الدعوة، فإنه بعد مرور نحو ستة عقود كانت العوامل التى أدت إلى وجود التقسيم الطائفى قد زالت وانتهى معها قتل الأبناء، وتوارى المؤمنون أتباع عقيدة التوحيد وكتموا إيمانهم فى صدورهم خوفاً من البطش والتعذيب، والدليل على ذلك هو تهديد فرعون مجدداً بقتل أبناء الذين آمنوا لموسى، وهو أمر لا يكون له

معنى إذا كان الفعل مازال مستمراً، فضلاً عن استحالة الاستمرار الزمنى لتنفيذ قتل الأطفال طوال هذه المدة؛ لأن النتيجة المنطقية التى تترتب عليه هى إما الرضوخ والاستسلام أو الإبادة والتصفية أو الهجرة والفرار من الأرض.

إذاً يبقى فقط من صور التعذيب فى تلك الفترة استغلال بنى إسرائيل فى أعمال السخرة لفرعون. وربما كان السبب فى استمرار هذه الحالة هو الحاجة المتزايدة لهم كأيد عاملة فى أعمال البناء والتعمير المنتشرة فى أرجاء مصر، وحاجة هؤلاء القوم لقوت يومهم بعد مصادرة ممتلكاتهم وانعدام مصادر الدخل لهم.

خامساً: موسى يمارس دعوته فى مصر جهراً

بدأ موسى دعوته فى مصر من قصر الفرعون تنفيذاً لأمر الله تعالى «**فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧)**» [طه].

وقوله تعالى: «**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)**» [الشعراء]، وذهب موسى إلى فرعون وفى قوة وثبات وصراحة وحضور ملأ من قومه أبلغه رسالته:

«**وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)**» [الأعراف].

ورغم رفض فرعون لدعوة موسى وتهديداته ضده والمؤمنين فإن موسى مكث رسولاً فى مصر عدة سنوات، أوضحنا أنها فى الأغلب تزيد على العشر مؤدياً خلالها مع هارون لرسالته، داعياً القوم إلى الإيمان علانية، وآمن له عدد من المصريين، وتنفيذاً لأمر الله اتخذوا لهم بيوتاً وجعلوها قبلة لعبادة الله وأداء الصلاة، والاجتماع بالرسولين لتعلم دينهم يقول تعالى:

«**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)**» [يونس].

ولا يعقل أن يتجه تفكيرنا أن هذا الأمر كان يمكن أن يتم سراً بعد شهرة موسى وذيوع صيته وتحديه الفرعون فى محفل عام فى يوم عيد قومى، ثم إنزال الآيات البينات التى تمثلت فى النوائب التى أصابت جميع أنحاء مصر، إذن كانت دعوة موسى وهارون وأداء شعائر المؤمنين تتم بعلم فرعون وتحت بصر ومراقبة رجاله، وعلى مسمع ومرأى من جميع المصريين وفى قلب المجتمع الوثنى، وعلى مقربة من معابد الآلهة المصرية المنتشرة فى العاصمة وأنحاء المدن المختلفة.

وهذا أمر بلا شك غريب إذا قارناه مع كثير من قصص الأنبياء التى ذكرها الله تعالى لنا

خصوصاً موقف قومهم الرافض والمناهض لهم والذى وصل كثيراً إلى حد إحداث الأذى بهم، وقد كانت بعثهم فى مدن أو قرى محدودة وصغيرة ولا يمكن مقارنتها بالدولة المصرية العتيدة والقوية والمتعددة الأقاليم.

ولكن فى الحقيقة إن الدارس للتاريخ المصرى يعلم أن هذه الدعوة العلانية وحرية إقامة المعابد تتفق مع طبيعة المصريين وثقافتهم الدينية منذ القدم، فقد نشأوا على تعدد الآلهة وحرية العقيدة فى أقاليم الدولة، ولم يحدث فى حياتهم ما يعرف بصراع الأديان أو الآلهة، وسوف نلاحظ أن ما حدث مع موسى حدث من قبل مع يوسف الذى خلت دعوته من الصراع والعنف. ولم يصطدم بكهنة المعابد أو المصريين.

ولم تكن الحرب ضد إخناتون وأتباع عقيدة التوحيد صراعاً دينياً ضد هذا المذهب فى ذاته، وإنما كانت فى حقيقتها صراعاً سياسياً واقتصادياً لاستعادة نفوذ الكهنة المسلوب. وممتلكات المعابد وأموالها التى صادرها إخناتون، ولو كانت دعوته قد اقتصرت على اتباعه للعقيدة التى يراها دون أن يمس نفوذ الكهنة وأموالهم، لكانوا قد تركوه حراً وشأنه مع أتباعه فى مدينتهم.

وأيضاً لم يكن الخطر الذى يهدد فرعون من دعوة موسى هو العقيدة التى يدعو لها، لم يكن ذلك ما يخشاه، فقد كانت المدن المصرية الشمالية زاخرة بالآسيويين الذين توطنوا بها ويعبدون آلهة غير آلهة المصريين، ولم يرفض المصريون سواء الحكومة أم الشعب وجودهم، أو ينكروا عليهم دياناتهم، فقد تركوهم يمارسون بحرية كاملة شعائرهم وسمحوا لهم بإقامة معابدهم وتماثيل آلهتهم فى وسط المدن المصرية، وكانت لهم أحياء خاصة بهم.

الذى أراه استنتاجاً من جميع الظروف السابقة، أن مبعث خطورة موسى التى رفضها فرعون تكمن فى الشق الثانى من رسالته وهو الخروج ببنى إسرائيل من مصر ليس - كما يرى كثير من الدارسين - بسبب حاجته إليهم فى أعمال السخرة، وإنما لأن خروجهم قد ارتبط بدعوتهم العلانية التى يرددونها منذ زمن، وهى العودة إلى كنعان موطن الأجداد وأرض الميعاد لإقامة دولة لهم عليها، وتلك بلا شك قضية جوهرية ومصيرية بالنسبة لمصر؛ لأن هذه الأرض فى ذلك الوقت كانت أرضاً مصرية منذ زمن، وأهم المستعمرات لحماية الحدود الشمالية لمصر، ولهذا رفض فرعون خروجهم وظل لآخر وقت مصراً على منعهم رغم ما أصاب مصر من نوائب كان يعتقد أن السبب وراءها السحر الأسود الذى يفعله موسى. أما أمر عبادتهم وعقيدتهم واتخاذهم مساجد أو معابد، فهو شأن لا يعنى فرعون فى كثير أو قليل طالما أنه يتم داخل مصر وتحت بصره مثلهم فى ذلك مثل الآسيويين، علماً بأن حديث فرعون إلى موسى يدل على أنه لم ينكر على بنى إسرائيل

مصريتهم، وهذا ما يفسر لنا أن موسى مارس دعوته فى مصر جهراً ولعدة سنوات فى عصرها الإمبراطورى، وفى ظل فرعون الطاغية ذى السلطان والنفوذ دون أن يتعرض له هو وأتباعه أحد، أو ينكر عليهم ذلك أو يمنعوهم من ممارسة شعائر دينهم. وأما الخوف من فرعون والذى ذكره الله - تعالى - سبباً في عدم إيمان كثير من قوم موسى «**فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ** (٨٣)» [يونس]، فلم يكن ذلك مرجعه إيمانهم بعقيدة أخرى غير ديانات المصريين، وإنما بسبب اتباعهم ومصاحبتهم لموسى عدو فرعون اللدود، والذى يراه ساحراً مفترياً يتحداه بأفعاله ويريد أن يسلب جزءاً من دولته.

رحلة الخروج

بعد السنوات التى قضاها موسى داعياً فى مصر، ورغم معجزات الله التى صاحبت رسالته، استمر فرعون مصراً على عناده، رافضاً للإيمان، رافضاً لخروج بنى إسرائيل، واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق، فدعا موسى ربه أن هؤلاء قوم مجرمون، فجاءه وحى الله بأن يخرج مع أتباعه ليلاً من مصر، فخرجوا فى اتجاه الشرق، آخذين طريقهم إلى فلسطين.

بلغ فرعون نبأ خروجهم، وكان رد فعله عنيفاً، ذلك أنه رغم معلوماته أن هؤلاء شرذمة قليلون، وأن فعلهم لا يعدو سوى أن يكون حالة تمرد وعصيان لم تكن تحتاج وفقاً للمقاييس المعتادة فى العسكرية المصرية للحالات التى تماثلها حجماً، غير فرقة من الجيش تخرج لتأديبهم وردعهم وإعادتهم، بيد أن الأمر أخذ حجماً أكبر بكثير من المواجهة المتوقعة فى حملة تأديب، فقد أعلن فرعون التعبئة العامة، وقرر أن يقود الجيش بنفسه وهو أمر لا يحدث - فى الغالب - سوى فى الحملات العسكرية خارج الحدود للغزو والفتح أو تأمين الإمبراطورية.

حشد فرعون جيش مصر بكامل قوته وعتاده، الجيش الذى يحمى أكبر وأقوى إمبراطورية قامت فى العالم القديم، أقوى جيوش العالم - آنذاك - وخرج يطلب موسى وأتباعه، وكانت النتيجة التى لا تدخل ضمن أى حسابات، بل لا يتوقعها أى خيال هى إبادة هذا الجيش عن بكرة أبيه، لتكون آخر آيات الله لموسى فى مصر، هى غرق فرعون وجنوده وتحطم القوة العسكرية لمصر الفرعونية.

وهذا الأمر جعل كثيراً من الدارسين - للأسف - ينظرون إلى القصة الدينية لموضوع الخروج بعين الحيطة والحذر بل الشك أحياناً، ورأوا أن خلفها صورة مغايرة، وأنها إذا كانت حقيقة تاريخية فإنها تخص بنى إسرائيل فقط، ولهذا لم يولها المصريون اهتماماً يذكر، فلم يأت عنها حديث أو إشارة يمكن أن يستدل منه على حدوثها فى تاريخهم، وأن تصويرها بهذه الصورة

الأسطورية ليست إلا انعكاساً لضوء حوادث حقيقية وقعت على صورة ما ـ ولكنها وصلت إلينا مشوهة!! وحاول البعض أن يسلك خطاً وسطاً كى لا ينكر الرواية الدينية، فرأى أن قصة الخروج فى حقيقتها كانت فراراً لبنى إسرائيل من أرض جوشن بسبب السخرة والاضطهاد، ولم يهتم بها المصريون كثيراً وجعل منها شعب إسرائيل أسطورة تاريخية، ويوجد من قال صراحة إن غرق فرعون فى البحر خرافة لا أساس لها من الصحة! وأيضاً انتهى البعض إلى أن قصة الخروج خرافية من الأساس!!

وننحى جميع هذه الآراء جانباً، ذلك أننا نعتمد على المصدر الأساسى فى استخلاص الحقيقة وهو القرآن الكريم ـ وما يتفق معه أو لا يناقضه من رواية التوراة ـ وهو الذى يتكفل بالرد عليها ـ قصدنا ـ فقط من الإشارة إلى هذه الآراء إلى أن الدارسين الأجانب للتاريخ المصرى ـ وسايرهم بعض من المصريين ـ لم يستوعبوا مدى رد الفعل لسلطة الحكم فى مصر إزاء هروب بنى إسرائيل ـ وفقاً للقصة الدينية ـ ولم يقتنعوا بوجود سبب يبرره، ولم يتخيلوا إمكان حدوث قصة غرق فرعون وجنوده على هذه الصورة الأسطورية، ولكن تلك هى الحقيقة التى أخبرنا بها الله سبحانه وتعالى واضحة لا تحتمل تأويلاً على أى وجه آخر.

كان خبر الخروج مفاجئاً لفرعون، ولم يكن جنوده فى حالة تأهب واستعداد، فأرسل يستدعيهم من جميع مدائن مصر، وحشد جيشاً عظيماً خرج على رأسه يطلب موسى وأتباعه. وإن كنا لا نعلم الأسباب التى قدمها لقواده لتبرير الحرب بقيادته، وعلى هذا النحو من الاستعداد، وهل كانت الأوامر الصادرة لهم إبادة المتمردين أم مجرد تأديبهم وردهم، فإن الذى نعلم أن ما حدث فعلاً أن فرعون أخذ قرار الحرب ونفذه على وجه السرعة، حقاً أن الله تعالى قال إن معلومات فرعون عن بنى إسرائيل أنهم شرذمة قليلون، ومن ثم فإن الأمر لم يكن يستدعى التعبئة العامة وخروج فرعون بنفسه لقيادة الجيش. يخبرنا الله تعالى أن السبب الرئيسى لقرار فرعون لم يستند على أسباب عسكرية، وإنما كان السبب نفسياً محضاً، وهو أنه قد أصيب بحالة غيظ شديد اتخذ على إثرها قراره. ومن الصور القرآنية لشخصية فرعون نستطيع أن نلتمس الأسباب التى أوصلته إلى تلك الحالة، فلا شك أنه تذكر ما اعتبره قرارات رادعة سابقة أصدرها فى حينه، قبل أن تستفحل عليه النوائب، حين أمر بقتل موسى وهارون والسحرة وأبناء الذين آمنوا، وكيف أنه أجبر على التنازل عن تنفيذها رضوخاً للأسباب والمبررات الواهية والمستسلمة التى ساقها له قريبه الرجل المؤمن، ثم ها هى الأحداث قد جاءت لتثبت أنه فى تفكيره كان قائداً وأن قراراته كانت صائبة، وأنه أخطأ حين تهاون واستسلم لغير رأيه، وقطعاً فإن الحسرة والغيظ بلغا منتهاهما معه عندما تذكر أنه يومها قال لقريبه وللقوم: «**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)**» [غافر].

نستطيع أن نتخيل صورة فرعون حين بلغه نبأ هروب قوم موسى والألم والندم يعتصرانه

على مـا يراه تهاوناً، وهو يجول بخاطره كل مـا فعله موسى - زعيم بنى إسـرائيل - من بلاء ومصائب فى الأرض، وكيف أنه وهو ملك مصر - الذى يسترضيه ويخطب وده ملوك وقادة العالم - اضطر لأن يخادع هذا الساحر ويهادنه، ويقدم له وعوداً كاذبة، ليستجديه كى يرفع المصائب التى أحدثها بسحره الأسود فى مصر.

لقد هز موسى عرشه، وزلزل ملكه، وأضعف سلطانه، وهزمه عدة مرات.

لماذا تركه ليفعل كل ما فعل؟

لماذا لم يقتله؟

هل يمكن فى النهاية أن ينجح موسى فى الهرب مع قومه ليقيم لهم - بسحره - وطناً شرق مصر على أرض، هى جزء من إمبراطوريته التى أسسها أجداده وحافظ عليها، وهل يصبح هذا الساحر ملكاً عليها؟ لا شك أنه كان فى حالة هستيرية من الندم والغيظ دفعته دفعاً للانتقام ومطاردة موسى، وأفقدته أى مجال للمناقشة أو إعمال رأى غير أمره **«وما أمر فرعون برشيد»**.

خرج فرعون بمركبته الحربية على رأس الجيش المجهز بجميع معدات القتال، والمركبات التى تجرها أجود الخيول ويقودها الفرسان المدربون، وسرعان ما شاهد الجيش المصرى جماعة موسى، خاف أصحاب موسى العزل من السلاح وصرخوا رعباً:

- سيدركنا فرعون.

- قال لهم موسى: كلا إن الله معنا وسيهدينا.

وضرب بعصاه البحر فانفلق نصفين وانشق عن طريق، وتقدم موسى مع قومه حتى عبروا البحر، ووصل فرعون مع جيشه، ووقف أمام البحر وشاهد المعجزة، ولكن الغيظ وشهوة الانتقام دفعاه إلى التقدم، وفى منتصف الطريق انطبقت الأمواج وغرق فرعون وجيشه، وقبل أن يدركه الغرق يعلن إيمانه بالله، ولكن فى وقت لم تعد تنفع فيه التوبة.

ونعرض القصة الدينية للخروج فى القرآن الكريم وفى التوراة، ونستخلص عدداً من الملاحظات المتعلقة بموضوع البحث.

القرآن الكريم

يقول الله تعالى:

● فى سورة الشعراء:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي

إسْرَائيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧)» .

● وفى سورة طه:

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)» .

● وفي سورة الدخان:

«فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)» .

● وفى سورة يونس:

«وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)».

● وفى سورة الأعراف:

«فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)» .

● وفى سورة الزخرف:

«فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ (٥٦)».

التوراة

وأما عن قصة الخروج فى العهد القديم، فقد ذكرنا سابقاً أنها ربطت بين ليلة الخروج وموت كل بكر فى أرض مصر، وناقشنا ذلك وقدمنا مبررات رفضه.

وتذكر التوراة فى الخروج أن الرب قال لموسى: «تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهباً، وأعطى الرب نعمة

للشعب فى عيون المصريين. وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً فى أرض مصر فى عيون عبيد فرعون وعيون الشعب» [سفر الخروج ـ الإصحاح الحادى عشر ـ الآيات ٢ ـ ٣].

ثم تذكر:

«فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم. وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين.

فارتحل بنو إسرائيل من «رعمسيس» إلى «سكوت» نحو ست مائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد.

وصعد معهم لفيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواش وافرة جداً. وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر خبز ملة فطيراً إذ كان لم يختمر. لأنهم طُردوا من مصر. ولم يقدروا أن يتأخروا فلم يصنعوا لأنفسهم زاداً.

وأما إقامة بنو إسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربع مائة وثلاثين سنة. وكان عند نهاية أربعمائة وثلاثين سنة فى ذلك اليوم عينه أن جميع أجناد الرب خرجت من أرض مصر. هى ليلة تُحفظ للرب لإخراجه إياهم من أرض مصر. هذه الليلة هى للرب. تحفظ من جميع بنى إسرائيل فى أجيالهم». [سفر الخروج ـ الإصحاح الثانى عشر ـ الآيات من ٢٤ ـ ٤٢].

وتذكر التوراة:

«وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة. لأن الله قال لئلاً يندم الشعب إذ رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر. فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف. وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر. وأخذ موسى عظام يوسف معه لأنه كان قد استحلف بنى إسرائيل بحلف قائلاً: إن الله سيفتقدكم فتصعدون عظامى من هنا معكم» [سفر الخروج ـ الإصحاح الثالث عشر ـ الآيات ١٧ ـ ١٩].

وتصف التوراة فى سفر الخروج ـ الإصحاح الرابع عشر عبور بنى إسرائيل البحر، وغرق فرعون وجيشه، وفى هذا الوصف:

«فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب. فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا. فشد مركبته وأخذ قومه معه. وأخذ ست مائة مركبة منتخبة. وسائر مركبات مصر وجنوداً مركبية على جميعها. وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بنى إسرائيل، وبنو إسرائيل خارجون بيد رفيعة. فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروث أمام بعل صفون.

فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم. ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب. وقالوا لموسى: هل لأنه ليست قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر. أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين. لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية. فقال موسى للشعب لا تخافوا. قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم. فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضاً إلى الأبد. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون.

فقال الرب لموسى: مالك تصرخ إلىَّ، قل لبنى إسرائيل أن يرحلوا، وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه. فيدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة وها أنا أشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم فأتمجد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه فيعرف المصريون أنى أنا الرب».

«ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم. جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر. وكان فى هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين فى عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين. وخلع بَكَر (عجلات) مركباتهم حتى ساقوها بثقلة. فقال المصريون: نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصريين عنهم.

فقال الرب لموسى: مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة، والمصريون هاربون إلى لقائه. فدفع الرب المصريين فى وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر. لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم.

فخلَّص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعه الرب بالمصريين، فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى».

وجاء فى ترنيمة بنى إسرائيل تمجيد للرب فى الإصحاح الخامس عشر: «مركبات فرعون وجيشه ألقاهما فى البحر. فغرق أفضل جنوده المركبية فى بحر سوف. تغطيهم اللجج» [الآية ٤].

الملاحظات على رحلة الخروج

١. عدد بنى إسرائيل

ذكرت التوراة أن عدد الرجال من بنى إسرائيل عدا الأولاد الذين خرجوا من مصر بلغ ست مائة ألف ماش. ويتفق الباحثون - عن حق - فى أن هذا العدد كبير جداً. ولا يمكن أن يكون صحيحاً لرجال بنى إسرائيل، ذلك أنه يجعل عدد شعب إسرائيل من الرجال والإناث والأطفال الذين خرجوا من مصر ما بين مليونين ونصف المليون إلى ثلاثة ملايين. وفضلاً عن استحالة الهجرة الجماعية لهذه الجموع، فإنه أيضاً من غير الممكن توفيق هذا العدد مع ادعاء العهد القديم بأن إقامة بنى إسرائيل فى مصر دامت ٤٣٠ سنة. وأن عدد رجالهم عند دخولهم مصر كان سبعين رجلاً فقط، وأيضاً فإن الصحراء ما بين مصر وفلسطين لا يمكن أن تكون قد أعالت هذه الملايين من البشر فضلاً عن ماشيتهم الكثيرة جداً - كما يدعى العهد القديم -.

ولم تقدم الصحراء أى دليل من علم الآثار يؤيد حدوث هجرة هذه الجموع التى قد تقارب ثلث عدد سكان مصر فى ذلك الوقت (يقدر بترى عددهم فى عصر الرعامسة بحوالى ١٠-١٢ مليوناً).

وأخيراً يأتى مؤكداً لرأى الدارسين أن القرآن الكريم اعتمد معلومات فرعون ولم ينفها فى وصفه لبنى إسرائيل بأنهم «شرذمة قليلون».

ومما هو جدير بالذكر أن المفسرين المسلمين قد نقلوا معلومات العهد القديم عن عدد بنى إسرائيل وقرروا أنهم كانوا جمعاً عظيماً على الرغم من أن القرآن الكريم يشير بوضوح إلى قلة عددهم.

ورغم اتفاقنا مع رأى أغلب الدارسين فى عدم صحة رواية العهد القديم لعدد رجال بنى إسرائيل فإننا مع ذلك نرى أن الرقم المذكور كان صدى لتعداد حقيقى أمر به موسى بغرض إحصاء الرجال الذين معه قبل أن تبدأ رحلة الخروج، ومن ثم فإن هذا العدد صحيح، ولكنه يمثل فى حقيقته تعداد الرجال فى جموع المؤمنين سواء من المصريين أم من بنى إسرائيل؛ لأن المقدر - فرضاً - أن يكون أمر الله بالجهاد والمشاركة فى بداية رحلة الخروج شمل جميع القادرين من المؤمنين، ولهذا فإن الرجال المؤمنين من المصريين أو كثيراً منهم صاحبوا نبى الله وبنى إسرائيل فى هذه المرحلة بغرض مؤازرتهم والدفاع عنهم والجهاد معهم ضد أى اعتداء يقع عليهم من فرعون وجنوده، وبعد حدوث معجزة الخروج وهلاك فرعون وجيشه، عادوا إلى بيوتهم، وهم مطمئنون على سلامة رسولهم وإخوانهم المؤمنين من بنى إسرائيل فى طريق رحلتهم، وأيضاً لأن ساحة الوطن قد تهيأت لهم لنشر رسالة موسى ومقاومة الوثنية، والحديث فى أوساط الشعب عما شاهدوه من معجزة الخروج بعد أن أصبحت مصر خالية من قوى الشر والطغيان والمؤسسة العسكرية التى تحميها.

ونستدل على تأييد رأينا من آيات القرآن الكريم.

أولاً: فى قول الله تعالى «**فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)**» [الشعراء].

فهذه الآيات وإن كانت تبين وصف فرعون لبنى إسرائيل بأنهم مجموعة صغيرة لا تقارن بجيشه الضخم بيد أن الله - تعالى - يضيف إلى حالة غيظ فرعون منهم وجود سبب آخر لديه يبرر خروجه بقيادة هذا الجيش لقتالهم، وهو خوفه من وجود تجمع آخر يؤيدهم ويؤازرهم، وأن المعلومات لديه أنهم قد ينضمون إلى بنى إسرائيل، ويأتى هذا المعنى فى قوله «وإنا لجميع حاذرون»، بياناً قرآنياً فى عبارة موجزة بليغة ولكنها أيضاً واضحة وصريحة، وتؤكد أن فرعون كان يعلم بوجود جماعة أخرى مناصرة لبنى إسرائيل، الأمر الذى اقتضى أن يكون على حذر ليس من بنى إسرائيل المعدومى الحيلة، القليلى العدد «شرذمة قليلون»، سبب غيظه، وإنما من جميع المؤمنين، ولا مجال أن يكون هؤلاء سوى المصريين الذين آمنوا لموسى؛ لأنه كان يعيش بينهم ولم يخرج إلى أى مكان آخر منذ بدأ دعوته فيهم، وقد فرضت عليهم عقيدتهم الجهاد مع نبيهم وإخوانهم المؤمنين المضطهدين من بنى إسرائيل.

ويوجد من فسر هذه الإشارة بأن المقصود بتجمع الحلفاء الآخرين الذين يخشاهم فرعون هم المزيد من الساميين خارج مصر، الذين قد يجمعهم موسى لمحاربة المصريين، وهذا القول يناقضه وصف القرآن لقومه بأنهم «شرذمة» والتى تستخدم للإشارة إلى المجموعة الصغيرة الذين ليس لهم نفوذ أو أعوان يدعمون مركزهم، وأيضاً لا يستقيم هذا التفسير فى ظل امتداد سطوة فرعون إلى خارج حدود مصر، وسيطرته الكاملة على أراضى فلسطين وسوريا، والتى يدين أمراؤها له بالولاء الكامل، والمعلومات بشأنها لا تؤدى إلى أى احتمال بحدوث تحالف بل العكس هو الصحيح، خصوصاً وأن شعب إسرائيل كان فى طريقه إلى فلسطين لمحاربة سكانها وإقامة دولتهم عليها.

ثانياً: وأيضاً نجد تأييداً لرأينا من مصاحبة جمع من المؤمنين لموسى مع بنى إسرائيل فى بداية الرحلة فى مجمل آيات القرآن التى عرضت قصة الخروج والتى يتبين منها أن وحى الله لموسى بالخروج ليلاً جاء للعباد المؤمنين دون تخصيص، أما التجاوز والسير بعد عبور البحر فكان لبنى إسرائيل.

يقول الله تعالى:

- فى سورة الشعراء:

«**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢)**».

وأيضاً:

«فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾» .

وأيضاً:

«وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾» .

● وفى سورة طه:

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ ﴿٧٧﴾».

● وفى سورة الدخان:

«فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾» .

فى جميع الآيات السابقة يستخدم القرآن الكريم تعبيرات:

«عبادى»، «أصحاب موسى»، «موسى ومن معه أجمعين» دونما إشارة تقصُر هذا الجهاد على بنى إسرائيل، فى حين أنه عندما ذكر القرآن بنى إسرائيل فى قصة الخروج فقد جاء ذلك مرتبطاً معهم باستخدام فعل التجاوز.

يقول تعالى:

● فى سورة يونس:

«وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ... ﴿٩٠﴾».

● وفى سورة الأعراف:

«وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ ... ﴿١٣٨﴾» .

بل إننا إذ تأملنا العرض القرآنى فى سورة طه، يتبين أنه بعد أن ذكر الله تعالى فى الآية (٧٧) إن إسراء موسى كان بعباده، نجد أن الآيات التالية التى تعرض باقى مراحل الرحلة تشير إلى قوم إسرائيل فقط.

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾». وتستمر الآيات قاصدة بنى إسرائيل حتى قوله تعالى: «قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾» [طه] .

ومن ثم تقودنا مقارنة استخدام التعبيرات فى آيات الخروج إلى تفسير إجمالى لها مؤداه: أن وحى الله لموسى بالخروج كان لجميع عباده المؤمنين، وعندما تراءى الجمعان كان أصحاب موسى جميعهم معه، وأن عبور البحر والنجاة كانت لموسى ومن معه أجمعين، أما التجاوز واستكمال الرحلة بعد تلك المرحلة فكان لبنى إسرائيل مع موسى، بعد عودة المؤمنين المصريين.

فقد أراد الله تعالى أن يكون أمره بالجهاد فى المرحلة الأولى للخروج موجهاً للمؤمنين جميعهم لاختبار عقيدتهم، وتكون معجزته على مرأى ومشهد منهم جميعاً، لكى يتعظ بها

ويتحدث عنها القاصى والدانى ويرويها المؤمنون المصريون العائدون لقومهم، فيعرف شعب مصر كيف كانت نهاية فرعون - الذى كان يزعم أنه ربهم الأعلى - وجنوده أجمعين.

وهذه الحقائق جميعها كان طبيعياً أن تتجاهلها رواية العهد القديم، استمراراً للنهج العنصرى العرقى الذى يصر على أن الله هو رب موسى ورب بنى إسرائيل، ومن ثم فلا مجال عندهم لإيمان المصريين، لأن الدعوى غير معنية بآخرين غيرهم. وكان طبيعياً أيضاً أن يراعوا عند إجراء تعداد لقبائل بنى إسرائيل فى السنة الثانية للخروج فى سفر العدد، أن يأتى متفقاً مع تعداد الخروج.

٢. لم يسلب بنو إسرائيل أموال المصريين

تنسب التوراة إلى موسى نبى الله - عليه السلام - أنه تنفيذاً لأمر من ربه طلب من رجال ونساء بنى إسرائيل أن يخدعوا المصريين ويستعيروا منهم - قبل خروجهم - ذهباً وفضة وثياباً، ففعلوا ما أمرهم به - ليلة الخروج - وسلبوا المصريين أشياءهم وهربوا بها.

وحاش لله ما ينسبه إليه بنو إسرائيل وإلى نبيه الكريم.

ومع ذلك فإننا نرى أيضاً أن تلك القصة المزعومة كانت صدى لقصة أخرى حقيقية قبل أن تعاد صياغتها فى نهج عنصرى. فكما كان وحى الله لموسى بأن يخرج المؤمنون معه جميعاً جهاداً بأنفسهم فى سبيل الله، كان وحى الله لنبيه أيضاً بأن يحرضهم على الجهاد بأموالهم لنصرة إخوانهم من بنى إسرائيل فى رحلتهم وهم فى طريقهم لإقامة وطن لهم، فقدموا رجالاً ونساء، طواعية وعن طيب خاطر، الذهب والفضة والثياب والغنم والبقر والمواشى الوافرة جداً التى ذكرها العهد القديم.

إنها صورة أخرى مشابهة من قصة المهاجرين والأنصار التى تكررت لاحقاً مع النبى محمد عليه الصلاة والسلام، قصة المؤمنين فى كل زمان ومكان.

حتى الكتبة العنصريين للتوراة ومع إنكارهم لإيمان المصريين ذكروا لهم - بخير - أنهم قدموا أشياءهم لبنى إسرائيل طواعية ورضاء منهم وبدافع من حبهم لهم، وأيضاً لأن كثير من شعب مصر، بل ومن حاشية قصر الفرعون كانوا يحبون موسى جداً ويعتبرونه رجلاً عظيماً فى أرض مصر «وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين. وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً فى أرض مصر فى عيون عبيد فرعون وعيون الشعب [سفر الخروج - الإصحاح الحادى عشر - ٣، وأيضاً الإصحاح الثانى عشر - ٢٦].

ووصف رواية العهد القديم لهبات المصريين بأنها إعارة، ووصفهم لفعل بنى إسرائيل بأنه سلب لأموالهم، لا يتفق مع ما تذكره القصة من أن طلبهم لأموال المصريين قد جاء على عجل وهم يستعدون للرحيل الذى جاءهم أمره قبل أن يختمر عجينهم ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم، وأيضاً مع وصف صعودهم فى أعداد كثيرة جداً ومعهم لفيف كثير أيضاً من غنم

وبقر ومواش وافرة جداً، فهذه الصورة للخروج الجماعى من مصر فى هذا المجتمع لا يمكن إخفاؤها أو أن تتم سراً بدون علم جيرانهم المصريين. هذا فضلاً عن أن الإعارة بهذا الشكل الواسع لن تكون إلا بين طبقات متساوية من جيران أو أصدقاء، وقد كان بنو إسرائيل من العبيد وعمال السخرة، وهذا المستوى الاجتماعى البالغ التدنى لا يرقى إلى طبقة المصريين التى تملك الذهب والفضة وتتزين بها، فلا يستقيم القول بأن العبيد طلبوا من سادتهم إعارتهم أغلى أموالهم (أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً)، وإنما المقبول والمنطقى أن الإيمان قد وحد بين الطائفتين، فقدم المصريون المؤمنون ذوى اليسار والقدرة أموالهم لإخوانهم المهاجرين من بنى إسرائيل تبرعاً خالصاً لوجه الله تعالى واستجابة لطلب رسول الله منهم، بغرض إعانتهم فى رحلتهم وإعداد أنفسهم لدخول أرض الميعاد.

ويبقى فى هذا الشأن أن القرآن الكريم قد وصف هذه الأموال بأنها أوزاراً، وذلك فى رد بنى إسرائيل على موسى بسبب غضبه عليهم بعد صناعة العجل «**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)**» [**سورة طه**]

وقد يحمل هذا على الاعتقاد بأن ذلك يعنى أن المقصود بها ذنوباً بما يتفق مع رواية التوراة أنها متحصلة من استيلاء وسرقة، ولكن ذلك فى رأينا مردود بأن أوزاراً فى أصل اللغة تعنى أثقالاً وتبعات، فيقال: وضعت الحرب أوزارها، أى: انقضى أمرها وخفت أثقالها فلم يبق قتال، وإنما يستخدم هذا اللفظ للدلالة على الذنوب للتعبير عن أنها حمل يثقل الظهر، ولكنها أيضاً تستخدم فى غير ذلك القصد مثل: توزر أى صار وزيراً، وأستوزره أى: جعله وزيراً، لتدل على المهام والتبعات التى يحملها صاحب هذا المنصب، وعلى ذلك فإن قول الله تعالى فى وصف هذه الأموال « **حملنا أوزاراً من زينة القوم**» جاء للتعبير أولاً: عن كثرة الأموال التي قدمت إليهم من المؤمنين المصريين، وثانياً: أنها لم تقدم كهدايا شخصية أو لزينة القوم، وإنما هى أموال قدمت لاستخدامها فى أعباء الرحلة والإعداد والاستعداد لدخول الأرض والقتال إن اقتضى الأمر ذلك، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها أثقالاً تحمل تبعات على عاتقهم، ولكنهم استغلوها فى غير قصدها، فتحولت إلي ذنوب وآثام، وكانت سببا فى غضب الله ورسوله عليهم، فكانت البداية أنها أثقالاً وتبعات وتحولت معهم فى النهاية إلى ذنوب وآثام.

ولهذا فإن الأموال التى قدمها المصريون لم تكن إعارة سلبها منهم الإسرائيليون، وإنما جهاد من المؤمنين بأموالهم فى سبيل الله، وإذا كان موسى قد اندفع إلى حرقها ثم نسفها فى اليم نسفاً، فإن ذلك كان بسبب غضبه الشديد من فعلهم.

٣. رفات يوسف لم تخرج من مصر

تذكر التوراة أن موسى أخذ معه وهو خارج من مصر عظام يوسف، لأنه كان قد استحلف

بنى إسرائيل أن يفعلوا ذلك.

وإذا كان القول بنقل جثمان يعقوب ودفنه فى فلسطين مقبولاً، فإنا لا نراه كذلك مع يوسف، ذلك أن يعقوب جاء من فلسطين إلى مصر وهو شيخ كبير طاعن فى السن، وهذا ما تذكره أحداث قصة يوسف فى القرآن الكريم، واحتمال أن يكون قد تجاوز المائة (فى سفر الخروج أن عمره يوم دخل مصر كان مائة وثلاثين سنة)، وما كان ليقبل فى هذه المرحلة العمرية الهجرة إلى مصر إلا ليجتمع شمله مع يوسف بعد طول رجاء ونفس لم تيأس من روح الله فى رؤيته، وأيضاً ليعيش سنواته الباقية بين أولاده بعد أن جمع الله شملهم، وتابوا، وتحابوا، ليرعوه، وليساعدهم على الاستقرار فى أرض هجرتهم، ويذكرهم حتى وفاته بالتمسك بدين آبائهم، الإسلام. بيد أن مشاعره الإنسانية غلبت عليه فأوصى إلى يوسف وإخوته أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق - وتجد رغبته - بلا شك - مبررها فى حنينه الإنسانى للأرض التى عاش، وبعث نبياً عليها، ولأجل أن يدفن إلى جوار نبيا الله، ولعل ما دفعه إلى إبداء رغبته هو ما علمه من وجود فن التحنيط فى مصر، وتقدم وسائل النقل بها، بما يمكن من نقل جثمانه دون إيذاء له أو مشقة زائدة لمرافقيه، وإلا لكانت رغبته قد تحولت إلى أن يطلب منهم أن يسمحوا له بالعودة إلى وطنه ليقضى به أيامه الأخيرة، ويدفن مع أبويه.

وتذكر التوراة أن الذى حدث فعلاً أنه بعد وفاة يعقوب، أمر يوسف الأطباء بتحنيطه، وبعد أن كمل له أربعون يوماً وهى أيام المحنطين، وبكى عليه المصريون سبعين يوماً صعد يوسف وإخوته ومعهم حاشية كبيرة من شيوخ أرض مصر فى موكب كثير جداً استخدموا فى سفرهم المركبات التى تجرها الخيول ويقودها الفرسان، ودفنوا يعقوب فى مغارة حقل المكفيلة التى اشتراها إبراهيم فى كنعان.

وقياساً على هذا التصوير واعتبارات أخرى نرى أن القول بنقل عظام يوسف مع بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر بعد وفاته بأكثر من ثلاثة قرون غير صحيح من عدة وجوه:

أولا: أن يوسف - وقد كان نائباً لملك مصر - لو رغب حقاً فى أن يدفن مع آبائه فى كنعان لأوصى بذلك ولديه منسى وأفرايم وقومه - كما فعل يعقوب - ولخرج جثمانه فى موكب مهيب بين أهله وشعبه معززاً مكرماً على مركبات تجرها الخيول ويقودها الفرسان، فلم تكن توجد أى أسباب أو ظروف قاهرة يخشاها أو تمنع خروجه وتلجؤه إلى التأجيل واستحلاف بنى إسرائيل أن يفعلوا ذلك مستقبلاً، وفى ظروف لا يعلمها ولا تليق بتكريم بدنه كنبىّ.

وثانياً: أن يوسف عليه السلام نبياً كريماً آتاه الله حكماً وعلماً، وما كان له أن يستأثر لنفسه بميزة لن يتمكن قومه من تحقيقها لأنفسهم، وهو يعلم - لا شك - أن إبداء تلك الرغبة التى تفتقد إلى سبب دينى قد تنزل فى نفوسهم أثراً، أو تثير لديهم تساؤلات عن علاقة رغبته بالأرض المقدسة، أرض الميعاد، خصوصاً وأن يوسف هو الذى استقدمهم منها إلى مصر.

وثالثاً: كما افتقدت هذه الرغبة الأساس الدينى فإنها أيضاً تفتقد أى مبررات دنيوية، فالله سبحانه وتعالى حث عباده على الانتقال والهجرة، واختار ليوسف مصر وآتاه الله فيها علماً وحكماً وسلطاناً وجاها ونفوذاً، وتزوج منها وأنجب ولديه على أرضها، وكانت بعثته لدعوة أهلها ومكث بينهم سنين وأحبه الشعب والحكام، وكان طبيعياً أن يبادل الأرض والناس شعورهم واستقدم قومه لينعموا فى عزها وخيرها، وليس من عاش حياة العز والرخاء كمن عاش حياة الذل والاستعباد. فلا يتفق منطقياً أن تكون تلك رغبته.

ورابعاً: كيف يمكن ليوسف أن يستحلف قوماً ما زالوا فى علم الغيب، وفى ظروف خافية لا يعلم عنها شيئاً.

تذكر التوراة فى نهاية سفر التكوين أن يوسف بعد أن مات حنطوه. ووضع فى تابوت واستقر فى مصر.

وأخيراً: يمكن أن يقال إن تلك لم تكن رغبة يوسف، ولكن بنى إسرائيل اعتقدوا أن فى نقله تكريماً لنبيهم فأخذوا رفاته معهم، ونسبوا إليه تلك الرغبة، وهو قول ننزه موسى نبى الله عن فعله لما ينطوى عليه من إيذاء وإهانة لبدن النبى الكريم إضافة إلى افتقاره إلى أى مبررات دينية أو دنيوية. يؤكدها أن موسى نفسه مات فى سنوات التيه قبل دخول الأرض المقدسة، ودفن حيث مات. ولم يوص قومه بنقله، وقبلها مات أخوه ـ نبى الله هارون ـ وشقيقته مريم، ودفنا كلاهما حيث ماتا.

وتنتهى بنا هذه الاعتبارات إلى أن أرض مصر ما زالت تضم بدن النبى الكريم يوسف عليه السلام، كما تضم أيضاً أبدان ولديه وزوجته وأسباط بنى إسرائيل جميعاً الذين عاشوا وماتوا فى شرق الدلتا.

٤ـ مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر

تذكر التوراة أن مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر كانت أربعمائة وثلاثين سنة.

وهذا التحديد يتعارض ويتناقض مع تواريخ أخرى وردت فى العهد القديم، أهمها التعارض مع أعمار سلالة موسى حتى يعقوب، والتى تجعل مجموع أعمار ثلاثة أجيال فقط هم: لاوى بن يعقوب ثم قهات ثم عمرام والد موسى ٤٠٧ سنوات، فى محاولة خاطئة وغير مقبولة لتحقيق توفيق تاريخى بين سنوات حياتهم ومدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر ٤٣٠ سنة.

والتناقض الآخر هو ما ورد بأن بناء الملك سليمان لبيت الرب كان فى السنة الأربعمائة والثمانين لتاريخ الخروج، ذلك أن إضافة هذا التقدير إلى تقدير حساب الإقامة يجعل تاريخ دخول بنى إسرائيل مصر وأيضاً خروجهم فى فترات مستحيلة تاريخياً.

وهذا ما جعل الكثير من الدارسين يرفضون تواريخ العهد القديم فى حساب تلك الفترات

ويختلفون بالنسبة لوضع تقديرات مناسبة لها.

وسوف نرجئ دراستنا فى تحديد تلك السنوات مع الجزء القادم من الدراسة الخاص بتحديد الفترة الزمنية لإقامة بنى إسرائيل فى مصر. وإن كان يجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أن تحديد التوراة لمدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر جاء دقيقاً بدرجة رائعة بسبب اتفاقه التام مع الأحداث الزمنية فى تاريخ مصر فى عصر الدولة الحديثة حسبما أمدتنا به المصادر التاريخية. وهو الأمر الذى نستنتج منه أن تسجيلها عندهم قد اعتمد على مصادر تاريخية مصرية مدونة لتاريخ دخول بنى إسرائيل مصر باعتبار أنها قد ارتبطت بزمن ولاية يوسف ومنح أرض جاسان لهم.

أما تقديرات أعمار الأجيال وتحديد تاريخ بناء سليمان بيت الرب فقد اعتمد كاتبها أو كاتبوها على معلومات شخصية خاطئة. وسوف نناقش أسباب عدم صحتها عند تحديد الفترات الزمنية.

٥- إبادة الجيش المصرى

اتفقت رواية التوراة مع رواية القرآن على غرق فرعون وجميع الجيش المصرى.

فى القرآن: «**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾**» [**الزخرف**].

فى التوراة: «فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم البحر. لم يبق منهم ولا واحد» [الخروج. الإصحاح الرابع عشر - ٢٨].

٦- نجاة فرعون ببدنه

فى صورة رائعة للإعجاز الغيبى. ادخر الله تعالى لناس العصر الحديث فهمها وتفسيرها. يقدم القرآن العظيم نفسه كمعجزة سماوية متجددة لكل عقل ولكل زمن بالإخبار عن واقعة غيبية لم يكن يعلمها النبى محمد عليه الصلاة والسلام، أو أى من معاصريه، ولم تذكر رواية العهد القديم أو أى من المصادر التراثية الأخرى عنها شيئاً، وهى أن الله تعالى أنجى فرعون ببدنه ليكون آية مجسدة للناس على مر الزمان، فيقص الله تعالى لرسوله الكريم ما حدث بعد أن غرق فرعون ومات:

«**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾**» [**يونس**]، وهذا الوصف الإلهى لم يتكشف وجوده إلا بعد العثور على كثير من المومياوات الملكية قبل سنوات من بداية القرن العشرين، وقبلها بسنوات كان فك رموز اللغة المصرية القديمة وقراءة تاريخها. ولم يدرك المفسرون من السلف قصد الآية واقترحوا لها تفسيرات لم تحقق معناها، كان منها أن الله تعالى رفع فرعون على وجه الماء، أو قذفه على اليابسة ليتحقق

بنو إسرائيل من هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه، وبذلك قصروا بيان القدرة فى تعبير **«لمن خلفك»** على بنى إسرائيل، ولم يدرك العلماء القدامى بأن قصد الله الحقيقى بالخلف هم هؤلاء الأقوام الذين يأتون فى العصور التالية بعد فرعون، واعتقدوا أن اللفظ ينصرف إلى بنى إسرائيل الذين تركوا فرعون خلفهم. والرد على ذلك بأن الأمر لم يكن يستدعى ظهور جثة فرعون لتأكيد هلاكه؛ لأن ذلك سوف يتحقق أيضاً ويظهر تأثير قدرة الله عليه حتى لو اختفت جثته مع الهالكين من الجيش، وخصوصاً عندما يجلس ملك جديد على عرش مصر.

إن الآية القرآنية دليل على نجاة فرعون ببدنه وحفظه وتحنيطه، وأن مومياءه لا تزال باقية إلى يومنا هذا، وستظل هكذا إلى أن يشاء الله ممدودة مجسدة ملامحه فى لحظات ندمه تروى لكل من يراها فى المتحف المصرى من شعوب العالم فى هذا الزمان قصته، إنها آية على قدرة الله وإعجاز القرآن، وإن كان كثير من الناس عنها غافلين.

٧. معجزة طريق البحر والظواهر الطبيعية

طبقاً للقرآن الكريم فإن معجزة انفلاق البحر عن طريق، حدثت بصورة واضحة لا ريب فيها وهى أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى: **«أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٦٦﴾» [الشعراء].**

وفى التوراة: أن الرب أمر موسى أن يرفع عصاه ويمد يده على البحر ويشقه، فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة وشدد الله قلوب المصريين حتى دخلوا وراءهم.

وفى هذا تتفق رواية التوراة مع رواية القرآن، بيد أن التوراة تعود فتضيف أن موسى حين مد يده على البحر أجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل وتبعهم المصريون. [سفر الخروج ـ الإصحاح الرابع عشر ـ من ١٦:٢٢]

وقد أرجعت بعض الآراء تفسير نشأة الطريق الذى عبر عليه موسى وقومه فى وسط البحر إلى حدوث واحدة من الظواهر الطبيعية المتكررة فى البيئة البحرية المصرية، وهى إما هبوب الريح الشرقية، أو بسبب تيارات المد والجزر باعتبار أن تلك الظواهر معروفة فى السواحل البحرية وبحيرات مصر، فالتيارات المدية والجزرية ـ مثلاً ـ تحدث بصفة منتظمة على ساحل البحر الأحمر، وبالنسبة للبحيرات فإن كانت تيارات المد والجزر غير منتظمة بها، إلا أنها تتأثر بدرجة عظيمة باتجاه الريح وتتعرى الشواطئ إذا دام هبوب الرياح فى اتجاه واحد مدة طويلة، ولا يزال حتى الآن يلاحظ بوضوح ذلك التأثر فى بحيرتى المنزلة والبرلس، فالطريق من بلطيم حتى برج البرلس يغطى بالماء عند ما يهب الهواء غرباً، ثم يصبح جافاً عندما يهب الهواء شرقاً، ويمكن للإنسان أن يسير عليه بالسيارة.

ورفضت آراء أخرى بإصرار شديد الربط بين نشأة طريق البحر وحدوث أى من الظواهر الطبيعية لاعتقادهم أن هذا الاتجاه يناقض صريح نص القرآن من أن البحر انفلق بضربة عصا موسى.

ومن جانبنا نرفض تماماً الآراء التى حاولت رد حدث عبور البحر على أى وجه يخالف صريح النص القرآنى، كما نرفض تحميل حدوث المعجزة كلياً أو جزئياً على أى من الظواهر الطبيعية سواء الريح الشرقية أم تيارات المد والجزر، وأيضاً لا نجارى الآراء التى جاهدت لتأويل شكل حدوث المعجزة وجعلها تحدث على صورة يمكن أن تستند إلى قوانين الحتمية والسببية بقصد تمريرها فى عقول من لا يعقلون حدوثها من عصا النبى.

ومع ذلك فإننا نسلم بأن الله تعالى أجرى الرياح الشرقية الشديدة - على النحو الذى أضافت رواية التوراة وقوعه مع المعجزة - ولا نرى أى تناقض فى ذلك مع الصورة القرآنية والتوراتية أيضاً، فقد جعل سبحانه الرياح مصاحبة لحدوث معجزة انفلاق البحر بعصا موسى ثم عبور المؤمنين على الطريق اليابسة فى وسط البحر، وذلك تحقيقاً لاعتبارات فى غاية الأهمية:

أولاً: أن الله سخر الرياح التى أجراها سبباً لتجفيف الطريق الذى أوجده وسط الماء، لجعله يابساً سهلاً لعبور المؤمنين ثم مرور الآخرين خلفهم إلى حين اللحظة الحاسمة لغرقهم.

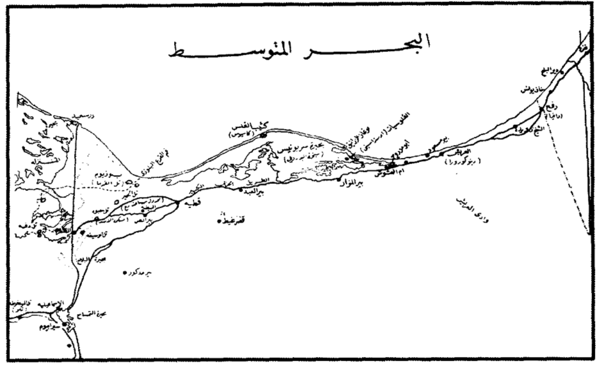
وثانياً: أن الله سبحانه الذى يخاطب العقل دائماً، وجعل التفكير فريضة، أراد لمعجزته هذه المرة أيضاً أن تكون عقلية، وليست حسية مفحمة لعقول الكافرين، فلم يكن فرعون وجنوده واقفين شهوداً على الانفلاق العظيم للبحر فور ضربة عصا موسى، فهذا الإدراك - لو حصل - لا يحتمل كرد فعل له إلا أحد أمرين: إما الإيمان والتسليم بدعوة النبى الذى قدم برهاناً على تأييده من قوة عليا تحميه وتنصره، أو الارتداد على أعقابهم خوفاً على حياتهم من فعل الساحر العليم الذى يملك إحداث معجزات كونية مدمرة، ومن ثم يملك القدرة على إهلاكهم، وحتى لو أراد فرعون أن يتقدم لما وجد أحداً من جيشه ليستجيب له. فليست هذه المرة كسابقتها من المعجزات التى حدثت فى مصر، ففى المرات السابقة كان الخطر يحمل إنذاراً ووعيداً. ولم يكن موجهاً إلى حياتهم فى الحال واللحظة، بل كان الوقت متاحاً للخداع وتدارك الأمر باستجداء موسى لرفع ما يظنونه سحراً أسود، أما تلك المرة فإنها الحرب، فقد خرجوا لقتله فإما أن يقتلوه أو يقتلهم. والقرار الآن لحظى لا يحتمل تأخيراً أو وقتاً للتفكير ولهذا فإنه يصبح محتماً لكل من شاهد المعجزة وهى تحدث وأدركها بحواسه أن تكون مفحمة لعقله مؤدية به إلى اختيار أحد السبيلين للنجاة إما الإيمان أو الهروب.

غير أن الموقف الذى حدث لم يكن على تلك الصورة فقد كان حضور فرعون وجنوده تالياً لضربة عصا موسى ووقوع المعجزة، فوقفوا أمام الساحل وشاهدوا البحر نصفين على الجانبين، وفى وسطه طريقاً يابساً ممتداً، والعاصفة الشرقية شديدة أزاحت أمامها أمواج البحر، صورة ولو فى جانب منها

تتفق مع ما تسببه الظواهر الطبيعية التى يتكرر حدوثها فى بيئتهم الساحلية، فكثيراً ما شاهدوا الرياح الشرقية تزيح مساحات من مياه البحر أمامها، وعندما تسكن أو تأتى الرياح الغربية تعود المياه فتغطى البحر. كما توارث سكان البيئات الساحلية عبر الأجيال أنه عندما تنحسر مياه البحر (الجزر) فإن (المد) آت لا ريب، خبرات بيئية قديمة، ولذلك كان عليهم تبصر الموقف وإدراك ما يحدث، وكان الوقت ليلاً - حسب رواية التوراة - والجيش كبيراً وأعداد العربات الحربية والخيول كثيرة، فعكس عوامل لعدم الإدراك الكامل، فأسلم الجنود عقولهم للفرعون وقادة الجيش الذين تعين عليهم اتخاذ القرار - ولا شك - أنهم استدعوا خبراتهم السابقة وتجاربهم مع موسى فى سنوات الدعوة فى مصر، ولكن تغلب عليهم عنادهم، ورفضت عقولهم صورة المعجزة الإلهية الواضحة أمام أبصارهم وانتهى تفسيرهم لما يحدث إلى ذات التفكير الذى انتهجه الكثير من الدارسين فى العصر الحديث، وردوا عناصر المعجزة القائمة إلى الظواهر الطبيعية وقوانين الحتمية والسببية، وكان قرار فرعون لجنوده أن أسرعوا مع الريح، هلموا قبل أن تعود المياه مع المد، ولا يمنع أبداً أن يكون قد أعلن فى جنوده أن الإله آمون يساعدهم وأنه أجرى الرياح لأجلهم، وخلق لهم طريقاً يابساً فى البحر ليمكنهم من مطاردة أعدائهم وحصارهم وإبادتهم، ويقينى أنهم أسرعوا غير مدركين، وعند مرحلة معينة تبين لهم أن الطريق اليابسة تمتد أكثر مما هو معتاد أن يكون بسبب الظواهر الطبيعية، وعندما أدركوا أن الأمر مختلف، دفعهم الخوف إلى الإسراع أكثر لاجتياز القلق والهواجس والعبور إلى الضفة الأخرى خلف موسى وقومه، حتى كان قدر الله عند نقطة فاصلة، عاد البحر وغطى الطريق، وعندها كان محالاً عليهم العودة أوالعبور فغرقوا أجمعين.

ولهذا كانت المعجزة عقلية، واختلطت ولو جزئياً مع ظواهر من البيئة الساحلية المصرية، ولم يدركها فرعون وقومه فى الوقت المناسب.

وثالثاً: أن حدوث الريح العاصفة الشديدة مصاحب لحدوث المعجزة مع بداية خلق الطريق اليابسة واستمرارها مع عبور القوم المؤمنين ثم الآخرين، يؤدى إلى تنبيه الحواس لإدراك فعل الله بما تحدثه من مشاعر الرهبة والخشوع والخوف، هى أشبه بالموسيقى التصويرية المصاحبة لأكثر مشاهد الرواية تأثيراً، إنه مشهد النهاية فى قصة الخروج من مصر. إن موسى لم يكن ساحراً مد عصاه فغافل القوم وفرد طريقاً، ولكنها معجزة إلهية، مشهد خارق للطبيعة، صنعه خالق الكون العظيم فعرضه رهيباً، عظيماً، فأحدث له مؤثرات صوتية قوية، ردد الفضاء صداها فى الجمع العظيم، بريح عاصفة مدوية استمرت طوال الليل، ومع انتهاء المؤمنين من عبور البحر، عند انفلاق أول ضوء للفجر، تخفُت الريح تدريجياً، ليسمع موسى وحى الله «**وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)**» [**الدخان**] ومع سكون العاصفة تعود المياه على الطريق، وتنطبق الأمواج على فرعون وجيشه، ويعرض الخالق المشهد الأخير فى عبور مصر، ويرى قوم موسى المصريين أمواتاً على شاطئ البحر، فخاف الشعب وآمنوا بالرب ونبيه موسى.



خريطة توضح موقع الخروج وبحيرة العبور وطريق حورس ، الطريق الرئيسى إلى فلسطين ، فى شمال سيناء، الذى تجنب موسى وقومه السير فيه

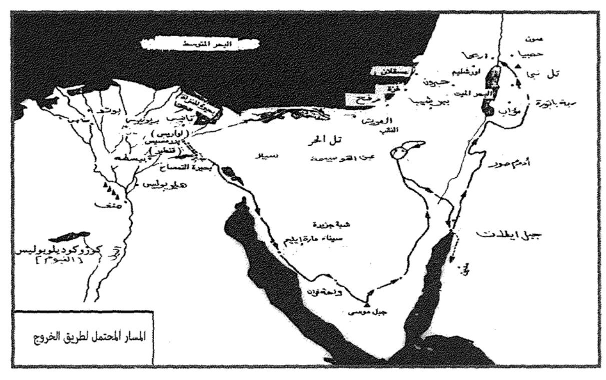
٨ـ طريق الخروج

يذكر القرآن الكريم أن رحلة الخروج كانت فى اتجاه الشرق «**فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ** (٦٠)» [الشعراء] وتحدد التوراة توقيت بداية الرحلة، وتقدم تفصيلاً لطريق الخروج من مصر ثم مسار الرحلة فى سيناء وحتى دخول فلسطين.

وقد ثار جدل طويل بين العلماء حول تحديد بحر العبور، واختلفت أهم الآراء بين: ـ خليج السويس فى البحر الأحمر ـ بحيرة المنزلة ـ بحيرة البردويل «بحر سربونين» ـ إحدى البحيرات الواقعة ما بين خليج السويس وبين البحر المتوسط.

وفى الواقع أن توقيت الرحلة الذى ذكرته التوراة، والمعلومات الطوبوغرافية عن شرق الدلتا، والمعلومات الأثرية الحديثة لأسماء المدن والأماكن التى ذكرتها التوراة وتحديد مواقعها، وبعض التفاصيل الصغيرة الأخرى التى جاء ذكرها فى سياق الرواية والتى كشفت الحفائر والبحوث عن وجودها، تأتى جميعاً مؤكدة لصحة رواية التوراة، ومحددة لطريق الخروج من مصر ومسار الرحلة فى سيناء كما جاءت فى سفر الخروج ابتداء من الإصحاح الثانى عشر، وسفر العدد فى الإصحاحين (٣٣ ـ ٣٤).

تذكر التوراة أن الرحلة بدأت فى شهر أبيب (سفر الخروج ـ ١٣ـ ٤) ارتحلوا فى اليوم الخامس عشر من الشهر الأول غد اليوم الذى أصبح عيد الفصح ـ (سفر العدد ٣٣ ـ ٢) وهذا التوقيت الذى يوافق شهر إبريل يكون بعد الفيضان حينما ينخفض منسوب النيل وتكون كل الحياض جافة ويستطيع موسى وقومه ومعهم قطعانهم عبور



طريق الخروج من بى رعمسيس إلى أريحا عبر جنوب سيناء

الترع والمصارف التى تعترض طريقهم دون قوارب، وهو أمر كان من الصعب تحقيقه فى وقت الفيضان.

وطبقاً للتوراة فى تحديد طريق الخروج من مصر، فإنهم ارتحلوا من رعمسيس ونزلوا فى سكوت، ثم ارتحلوا من سكوت ونزلوا فى إيتام التى فى طرف البرية، ثم ارتحلوا من إيتام ورجعوا على فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل زيفون. وعند هذا الموقع كانت معجزة العبور فى وسط البحر.

وحتى نستطيع التعرف على خط سير موسى فى رحلة الخروج نلقى الضوء على الوضع الجغرافى، وما كشفت عنه الحفائر الأثرية لتلك المنطقة من شرق مصر وشبه جزيرة سيناء فى هذه الحقبة الزمنية.

● مدينة رعمسيس التى بدأوا رحلتهم منها هى «بى رعمسيس» التى وجدت بقاياها فى «قنتير» الحالية وهى تلك العاصمة الزاهرة التى أقامها رمسيس الثانى فى بداية حكمه وأخذت اسمه، وجعل نواتها مدينة «أفاريس» القديمة التى كانت يوماً ما العاصمة المصرية للهكسوس «أواريس» (حت وعت) وتقع على مسافة ١٢ كم شمال مدينة فاقوس الحالية فى شرق الدلتا، وكانت أواريس مقر إقامة يوسف حينما كان وزيراً فى ظل حكم الهكسوس.

وكانت أفاريس تقع فى جنوب «بى رعمسيس» وكان مقاما منطقة مخازن ومصانع تقف حداً فاصلاً كبيراً بين المدينة الجديدة وبين أفاريس القديمة، حيث الطبقة العاملة الفقيرة يسكنون جنوباً فى بيوت متواضعة.

● وفى شرق مصر تقع شبه جزيرة سيناء يفصلها عن وادى النيل حاجزاً من المياه يمتد بين خليج السويس جنوباً والبحر المتوسط شمالاً ـ موقع قناة السويس حالياً ـ ففى الجنوب يمتد خليج السويس ليتصل بالبحيرات المرة، وكانت المنطقة الممتدة بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح عند الإسماعيلية منطقة مستنقعات ينمو فيها البوص، وكانت بحيرة التمساح تمتد شمالاً لتصل إلى الحدود الجنوبية لمنطقة القنطرة (جنوب بورسعيد الحالية) وفى الشمال كانت بحيرة المنزلة المتصلة بالبحر المتوسط تمتد لتصل إلى حدود منطقة القنطرة.

● وكان يمر فى المنطقة الشرقية من الوادى أحد الأفرع الرئيسية لنهر النيل، هو الفرع البيلوزى وقد ظل صالحاً للملاحة إلى داخل الدلتا حتى استخدمه الإسكندر الأكبر عام ٣٣٣ ق . م، فى دخول مصر (اختفت معالمه تقريباً الآن فيما عدا بعض الآثار لقنوات منها بحر فاقوس ومصرف بحر البقر).

وقد أطلق المصريون على هذا الفرع اسم «مياه رع» وكان بداية تفرعه عن مجرى النيل الأساسى أمام هليوبوليس (عين شمس) «أون» مدينة الإله رع، ثم يتحول إلى الاتجاه الشمالى الشرقى ويصل إلى مدينة «بى رعمسيس» وكان يروى المنطقة الغنية الخصبة، أرض جاسان «جوشن» (فى هذا الموقع كان ميلاد موسى وحمله النهر إلى قصر الفرعون) ثم يتجه الفرع البيلوزى إلى شمال سيناء ماراً بين شمال القنطرة وبحيرة المنزلة، وعند نهايته يصب فى البحر المتوسط بالقرب من «سينو» التى أسماها اليونانيون «البلوزيوم» وتقع على ضفتى فرع النيل البيلوزى وموقعها الحالى «تل الفرما» (٣٠ كم شرق بورسعيد) وتشغل مدينة بالوظة الحالية جزء، من بقايا المدينة القديمة التى أخذت اسمها.

● وإلى الشمال من مدينة «بى رعمسيس» كان يخرج فرع آخر من الفرع البيلوزى عند «دفنة» (إدفينا) يسمى «نهر حورس» الذى يسميه التوراة «مياه شيحور» يتجه شرقاً حتى بلده «ثارو» (٣ كم شرق قناة السويس ـ شمال شرق مدينة القنطرة).

● كما حفر المصريون قناة ما بين الفرع البيلوزى للنهر شمالاً وبحيرة التمساح جنوباً، فأصبحت المنطقة معزولة عن الدلتا، إلا عبر جسر أقاموه فوق هذه القناة، وقد صورت فى نقش على جدران معبد الكرنك ضمن تصوير لرحلة العودة للملك سيتى الأول (الأسرة ١٩) عبر طريق حورس القديم، ويعتقد أن تسمية المنطقة بالقنطرة مستوحاة من أصل القنطرة القديمة.

● وكان الطريق البرى الذى يصل بين مصر وفلسطين يسمى «طريق حورس» ويبدأ عند هذا الجسر المؤدى إلى «ثارو»، ويخترق الجزء الشمالى من سيناء بمحاذاة البحر المتوسط حتى يصل إلى غزة، وهذا هو الطريق الحربى القديم الذى دخل الهكسوس منه مصر، ثم عبره أحمس بجيشه يحاربهم ويطاردهم حتى طردهم خارج حدود مصر، ثم خرجت منه الجيوش

المصرية بقيادة ملوكهم المحاربين العظماء فى عصر الدولة الحديثة لإقامة صرح الإمبراطورية فى كنعان وسوريا وحتى بلاد ما بين النهرين.

وقد مكنت نتائج الحفائر والمسح الأثرى من أن تصف بدقة سير طريق حورس ويبلغ طوله ١٤٠ ميلاً (٢٢٥كيلومتراً) وبنيت الحصون المصرية على كثير من أجزائه وبخاصة فى المناطق الإستراتيجية المهمة لتكون مراكز للجنود المكلفين بحراسة الطريق، ومخازن لما تحتاجه الجيوش، وأمكن تحديد المستوطنات القائمة على الطريق، وظهرت مواقع صناعية، ويمكن أن تبلغ المحطات على طول الطريق إحدى عشرة قلعة أو نقطة حراسة ونحو تسع آبار أو خزانات مياه.

● وفى غرب سيناء كان شاطئا النيل هما الطريقين البريين المؤديين إلى الشرق سواء من «بى رعمسيس» أم غيرها من المدن حتى بلوغ الجسر، بداية الطريق إلى فلسطين.

● ومن خلال المصور الذى وضعه سيتى الأول لطريق حملاته إلى فلسطين تظهر بلدة «ثارو» وقد جعل مكانها على مجرى فيه تماسيح ليبرهن أنها عند نهاية الملاحة النيلية، كما وضع المصور «مجدول» قبل بلدة ثارو كأول بلدة مصرية على الطريق المؤدى إلى فلسطين، ولم يضعها على مجرى ماء قابل للملاحة مثل «ثارو» وتقع عند نهاية وادى الطميلات، وقد جعل الأثرى بترى من «تل الهر» المكان المحتمل لموقعها، ولهذا فإن القلعة العربية التى على هذا الموقع الآن لا بد أنها أقيمت على مبنى قديم من هذا النوع يسمى بالعربية «مجدل» أو «برج» وسوف نرى أن مجدول هذه هى القلعة التى كانت تعترض ناحية الشمال فى طريق موسى وقومه، وقبلها مباشرة كان عبورهم البحر فى طريقهم إلى فلسطين.

● وكانت أولى نقاط طريق حورس هى قلعة «ثارو» - حسب نقوش الكرنك - أقيمت عند الجسر - فى موقع تل الحبوة على مسافة ٣ كم شرق قناة السويس إلى الشمال الشرقى من مدينة القنطرة - هى أكبر القلاع القديمة أو المدن المحصنة فى شمال سيناء، بلغت أطوال أسوارها ٨٠٠ متر طولاً × ٣٥٠ متراً عرضاً، مبنية بالطوب اللبن ومدعمة بالأبراج، والأسوار مزودجة ذات جدارين: الأول بسمك ١٨٠سم، والثانى بسمك ٤ أمتار، وبين الجدارين مسافة فارغة ٩أمتار، ولهذه القلعة الكبيرة بوابة واحدة فقط فى منتصف السور الغربى فى اتجاه مصر والدلتا، مقابلة للجسر.

ويقع القصر الملكى والإدارة العسكرية داخل أسوار القلعة أو هذه المدينة المحصنة.

ويحمل بنو إسرائيل لهذه القلعة تحديداً ذكريات مؤلمة لحياتهم فى مصر، فقد تحولت يوماً ما إلى معتقل رهيب أثناء حكم حور محب (آخر ملوك الأسرة ١٨) فبعد القضاء على إخناتون وملوك العمارنة أرسل إليها أتباع ثورة التوحيد الدينية من المصريين وبنى إسرائيل، وجرت لهم داخل أسوارها أبشع جرائم القتل والتعذيب، عندما كان «بارعمس» قائداً للجيش وحاكماً

عسكرياً لمنطقة القنطرة، وكان مقر القيادة داخل حصن «ثارو» وهو ذلك الرجل الذى أصبح رمسيس الأول مؤسس الأسرة ١٩، وجد رمسيس الثانى.

ومن هذا الوصف يتضح أن موسى لو رغب أن يسلك بقومه أقصر الطرق وأيسرها إلى فلسطين، فإنه كان يتعين عليهم أن يسيروا بمحاذاة الشاطئ الأيمن للفرع البيلوزى (مياه رع) من «بى رعمسيس» إلى اتجاه الشمال، ثم ينحرفوا شرقاً عند (دفنه) مع فرع (نهر حورس) المتجه إلى «ثارو» ثم عبور الجسر ويأخذوا طريق حورس إلى فلسطين.

تقول التوراة، إن بنى إسرائيل لم يأخذوا طريق فلسطين على الرغم من قربها؛ لأن موسى كان يخشى أن يتبعه الفرعون وجنوده، ومن الوصف المتقدم للطريق والتحصينات المقامة عليه نستطيع أن ندرك أن السير فى هذه الطريق كان بعيداً عن خطة موسى الذى خرج من مصر قاصداً غزو فلسطين أهم المستعمرات المصرية، وقاطعاً بذلك الطريق بينها وبين مستعمراتها الأخرى فى آسيا، لهذا أخذ موسى اتجاه الصحراء شرقاً إلى «سكوت» بدلاً منه، ومن الغريب أن نعلم من إحدى الوثائق القديمة أن تلك كانت الطريق التى يتمكن الفارون من العدالة والهاربون من القصور الملكية من اتخاذها. ولا بد أن موسى كان يعلمها منذ حادثة هروبه الأول عندما قتل المصرى فى صدر شبابه.

● خرج القوم ليلاً من «بى رعمسيس»، وبعد مسيرة يوم واحد تقريباً كانت «سكوت» هى المحطة الأولى التى قضوا فيها ليلتهم، وموقعها الحالى «تل المسخوطة» فى المنطقة المجاورة للصالحية، ضمن وادى الطميلات، وهى مسافة تبعد نحو خمسة عشر كم شرق «بى رعمسيس».

ومن الحفائر ومن وثائق البردى نعرف أنها أرض متاخمة للصحراء وفيها قلعة تدعى «ختم سكوت»، ومستنقعات عرفت باسم «بتوم مرنبتاح» وهى حالياً بحيرة «مهيشر»، ومستنقعات «سعدة» و«أكياد».

● وفى اليوم الثانى ارتحلوا من «سكوت» فى اتجاه الشرق ونزلوا «إيتام» التى فى طرف البرية وهى تقع على حافة الصحراء، وهى فى الأغلب كلمة مصرية تعنى القلعة مثل مجدول، وقد تكون قلعة قديمة كانت مقامة فى «سيلا» أقدم من القلعتين اللتين تم الكشف عنهما فى العصر الرومانى والعصر البطلمى فى تل أبوصيفى على بعد ٣ كم شرق قناة السويس. وربما تكون بلدة أخذت اسمها من الصحراء التى تقع ضمنها وتمتد إلى الشرق منها «برية إيتام»، تلك التى دخلها موسى وقومه بعد عبور البحر ومكثوا فيها ثلاثة أيام بعد العبور [سفر العدد ٣٣ ـ ٨] وذكرت باسم «برية شور» فى سفر الخروج [١٥ ـ ٢٢].

● وبعد قضاء الليلة الثانية فى «إيتام» ـ وبأمر من الرب لموسى غيروا طريقهم فى اليوم الثالث ورجعوا ونزلوا أمام فم الحيروث بين مجدول والبحر أمام بعل زيفون قبالة البحر،

وتعبير الرجوع يعنى العودة فى اتجاه طريق فلسطين.

فم الحيروث: عبارة تعنى «فم حورس» وهو الإله المحلى لبلدة «ثارو»، وفم حورس تعنى مصب فرع «مياه حور» والتى تنتهى فى ثارو.

مجدول: كلمة سامية تعنى قلعة، وهى غالباً قلعة حدودية مصرية، وطبقاً لمصور سيتى الأول فإنها تقع قبل بلدة «ثارو» على أول الطريق المؤدية إلى فلسطين.

بعل زيفون: كان الإله الرئيس لبلدة «دفنه»، ويمكن أن يكون الإله الرئيسى فى البلاد المجاورة، وتقع «سيلا» و«تل دفنة» على نفس خط العرض شرق ـ غرب.

● وإذا تحدد هذا المكان الذى يقع قبل فم الحيروث (مصب نهر حورس) بين مجدول والبحر أمام بعل زيفون، حيث أدرك فرعون بجيشه موسى وقومه، فإنه بالتالى يكون بحر سوف «يم سوف» الذى شهد معجزة العبور هو أحد البحيرات التى تقع بين خليج السويس والبحر المتوسط.

وكلمة «يم» لا تزال فى اللغة العربية، ومن معناها الماء وأما كلمة «سوفى» فمعناها بالمصرية القديمة (البردى) ودخلت فى المتون العربية والعبرية بمعنى (البوص) وهو نبات يكثر وجوده فى المياه الضحلة المالحة، واستخدمه المصريون فى إقامة الأكواخ، واستمرت هذه العادة إلى العصر الحديث، وإلى عهد قريب كان مصيف رأس البر فى دمياط يعتمد على العشش المقامة من نبات البوص، وذلك لسهولة تخلل هواء البحر لسيقانه، ولا يزال يستخدمه الفلاحون فى إقامة أكواخ لهم فى الأرض الزراعية، يستريحون فيها أثناء عملهم أو يتركون بها ماشيتهم، وهو يختلف عن نبات البردى الذى يسمى الآن (سمّار) وينمو عادة فى المياه العذبة نسبياً، ويصنع منه الورق والحصير.

وكان البوص ـ ولا يزال ـ يكثر فى بحيرة المنزلة، والتى أطلق المصريون القدماء عليها «بحيرة حورس» وكانت تمتد لتصل إلى حدود منطقة القنطرة (بين البحيرة والقنطرة يمر الفرع البيلوزى) وإلى الجنوب الشرقى منها تقع بحيرة البلاح، ولم يكن لها منفذ إلى البحر ومياهها مالحة. وكانت توجد بينها وبين بحيرة المنزلة منطقة مستنقعات (جففت بعد قناة السويس ومنعت مياه النيل عن المستنقعات الواقعة شرقاً) وذكرت وثائق قديمة أن البوص كان يجلب من هذه البحيرات بالإضافة إلى الجزء الجنوبى من بحيرة المنزلة والمستنقعات، ولهذا أطلق بنو إسرائيل على هذه البحيرات «يام سوف» أو «يم البوص» فى تأكيد آخر أن منطقة البحيرات هى المقصودة ببحر العبور فى رواية التوراة.

ويذكر أن ترجمة خاطئة قديمة للتوراة وضعت بدلاً من عبارة «يام سوف» (بحر سوف) عبارة بحر القلزم أو البحر الأحمر وكان ذلك التغيير ذا أثر فى انتشار الترجمة الخطأ واعتباره لاحقاً بحر العبور، ويبلغ عرض خليج السويس حوالى ثلاثين كيلو متراً، مما يبرهن

على أن اختراقه فى ليلة واحدة مستحيل.

ويمكن من العرض السابق تحديد موقف موسى وقومه كالتالى:

فى إيتام فى طرف الصحراء تغير الاتجاه الشرقى للرحلة إلى السير فى اتجاه الشمال موازياً لغرب البحيرات (غرب قناة السويس حالياً) وهو انحراف يؤدى إلى طريق فلسطين (طريق حورس) وعندما أدركهم فرعون بجيشه أصبح القوم فى مأزق حرج، فقد كان يام سوف (بحيرة البوص) على يمينهم وحصن مجدول بما فيه من حامية عسكرية أمامهم من جهة الشمال، وعلى اليسار مستنقعات فرع النيل البيلوزى وخلفهم الفرعون وجنوده، وهنا فى هذا الموقع جاء وحى الله لموسى أن «**اضرب بعصاك البحر**» فكانت معجزة العبور فى اليوم الرابع للخروج.

ووفق هذا التحديد فإن يام سوف يقع على نفس خط عرض تانيس، وامتداده بحيرة البلاح المواجهة لقنتير.

ويجدر الإيضاح بأن تسمية بحر البوص لا يمكن أن تؤدى إلى ما اعتقده البعض من أن البحيرة المقصودة ذات مياه ضحلة قليلة العمق، ذلك أنها عند موقع مصب فرع من النيل، وتقع ضمن بحيرات مترامية عميقة تشغل مساحات واسعة ممتدة ومتصلة إما بالبحر المتوسط أو البحر الأحمر، ويزيد عرضها على عدة كيلومترات وما زالت البحيرات الممتدة فى منطقة قناة السويس تؤكد ذلك، ومن ثم فإن معجزة غرق فرعون وجيشه على النحو الذى صوره القرآن الكريم ورواية التوراة يكون متصوراً من تلك البحيرات.

● بعد عبور البحر قضى موسى وقومه ثلاثة أيام فى «صحراء شور» ومن المحتمل أنها صحراء أخذت اسمها من بحيرة حور «شيحور» وقد كان الإله حور هو الإله المحلى لبلدة «ثارو» والمقاطعة التى تقع فيها «ثارو» تسمى «مسن» وكان حور يسمى فى هذه المنطقة سيد «مسن»، وفى فقرة أخرى من التوراة ذكرت باسم «برية إيتام» [سفر العدد ٣٣ - ٨].

وهذه البيداء هى الأرض الصحراوية التى على حدود الدلتا الشرقية، وكانت تسمى قديماً عند المصريين «إدوم» ويسكنها «الشاسو» وهم البدو.

● وأما مسار الرحلة بعد العبور فيمكن إيجازه وفقاً للقصة الدينية من القرآن والتوراة فى أن موسى سار ببنى إسرائيل قادماً من الجانب الشرقى لخليج السويس إلى جنوب سيناء، حيث أرسل الله عليهم المن والسلوى، وفجَّر لهم عيون الماء طعاماً وشراباً لهم، وكان موسى آخذاً اتجاه مدين؛ تلك المنطقة التى عاش فيها فترة من الزمن ويعرفها جيداً، وتقع فى الصحراء العربية على الجانب الشرقى لخليج العقبة، وفى طريقهم أقاموا فى جبل طور سيناء، وهو المعروف فى التوراة باسم جبل حوريب أو جبل سيناء أو جبل الله. وتذكر التوراة أن يثرون حم موسى - كاهن مدين - جاء إليه فى جبل الله وأحضر معه صفورة امرأة موسى وابنيه جرشوم واليعازر، وهو ما يستفاد منه أن زوجة موسى وابنيه كانوا قد عادوا إلى مدين أثناء

فترة دعوة موسى فى مصر، وتضيف التوراة أن حماه شاهد الجهد الذى يبذله فى قضائه للشعب، وقدم له النصيحة باختيار رؤساء للشعب لينظروا فى القضايا الفرعية، ويبقى هو المرجع الأعلى لأمور الدين والعقيدة، وأن موسى اتبع نصيحته.

وأثناء وجود موسى فى جنوب سيناء صعد إلى جبل طور سيناء للقاء الله، حيث تلقى أحكام الدين والوصايا، ونزلت التوراة على موسى.

يقول الله تعالى:

«وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)» [الأعراف].

● وبعد جنوب سيناء أخذت الرحلة مسارها على الجانب الغربى لخليج العقبة (المقابل لمدين).

وبإلقاء الضوء على خريطة المنطقة فى تلك الحقبة يتبين أنه كانت تقع إلى الشمال من مدين عند النهاية من خليج العقبة مملكة أدوم وإلى الشمال منها شرق البحر الميت تقع مملكة مؤاب، وإلى الشمال منها شرق نهر الأردن مملكة الأموريين ومملكة عمون، وكانت هذه الممالك خاضعة للتاج الفرعونى، وتقع جميعها شرق كنعان (فلسطين) وموقعها حالياً فى الأردن.

ويأتى وصف التوراة متفقاً مع الوضع الجغرافى للمنطقة نذكر منها بعض المراحل:

- أقام الشعب فى قادش وماتت مريم ودفنت هناك.

- أرسل موسى رسلاً من قادش إلى ملك أدوم وأبلغه بظروف خروجهم من مصر. وأنهم حالياً فى مدينة قادش فى طرف تخوم أدوم وطلب المرور فى أرضه. فرفض ملك أدوم.

- فارتحل بنو إسرائيل من قادش وأتوا إلى جبل هود على تخم أرض أدوم. وهناك مات هارون [العدد ـ ٢٠].

ويمكن تحديد موقع مدينة قادش طبقاً لرواية التوراة أنها عند طرف برية صين غرب وادى العربة على بعد ٥٠ ميلاً جنوب بئر سبع. (تقول عالمة الآثار الفرنسية كريستيان ديروش نوبلكور إنها كادس فى جنوب النقب).

- واضطر الإسرائيليون أن يسلكوا طريقاً شاقاً فى البرية بعيداً عن أدوم، وتجولوا فى مناطق متعددة شرق البحر الميت (بحر لوط) ونهر الأردن، محتكين بالقبائل الساكنة هناك والرافضة وجودهم ثم وصلوا إلى «مؤاب» شمال أدوم.

- وطلب بنو إسرائيل من سيحون ملك الأموريين المرور فى أرضه فلم يسمح لهم، وجمع قومه وخرج للقائهم، وتمكن الإسرائيليون من مواجهته، واستطاعوا الإقامة فى أرض الأموريين [العدد ـ ٢١].

- ومنها تمكنوا من الرحيل والوصول إلى عربات مؤاب فى الأردن مقابل أريحا [العدد٢٢ ـ ١]. وتلك كانت نقطة النهاية فى الرحلة قبل دخول فلسطين.

سنوات التيه

استغرقت رحلة خروج بنى إسرائيل من مصر، وحتى دخول أول مدينة فى فلسطين مدة أربعين سنة، وكان ذلك عقاباً من الله سبحانه على عصيانهم لموسى، وقد بدأوا عصيانهم بعد عبور البحر عندما طلبوا من موسى أن يصنع لهم إلهاً وثنياً تشبهاً بقوم مروا بهم فى سيناء. يقول الله تعالى:

«وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)» [سورة الأعراف].

وأيضاً عندما صعد موسى إلى جبل سيناء لميقات ربه، ومكث فيه أربعين ليلة، خلف فى بنى إسرائيل شقيقه نبى الله هارون، وأثناءها تمكن شخص منهم يدعى السامرى من أن يضلهم، وصنع لهم من حليهم الذهبية التى خرجوا بها من مصر عجلاً جسداً، بأسلوب صناعة يجعله يصدر صوتاً كالخوار، وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى وعبدته بنو إسرائيل، وفى هذا يقول الله تعالى:

«وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣)» [الأعراف].

ولما رجع موسى أخذ هذا العجل وحرقه ثم نسفه فى اليم نسفاً، وقد تاب بنو إسرائيل عن فعلهم فتاب الله عليهم، يقول تعالى:

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا

أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)» [البقرة].

وأخيراً حان وقت عقاب الله عندما طلب موسى من بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها، ولكنهم بسبب المعلومات التى وصلت إليهم عن بأس وقوة وبطش أهلها، ومناعة مدنهم خافوا وأحجموا عن القتال، عدا رجلين منهم نصحوا القوم بالاستعانة بالله، ووعدوهم بالغلبة إن كانوا مؤمنين، ولكنهم أصروا على رفضهم، فحرّم الله عليهم الأرض المقدسة، أربعين سنة يتيهون خلالها فى الأرض حتى ينتهى جميع الجيل الذى خرج مع موسى من مصر.

وتتفق مجمل رواية العهد القديم مع القرآن الكريم فى شأن عصيان بنى إسرائيل لموسى منذ خروجهم من مصر، وعقاب الله لهم.

فتذكر قصة عبادتهم للعجل في سفر الخروج ـ الإصحاح الثانى والثلاثين غير أنها ـ حاش لله ـ تنسب خطيئة السامرى إلى نبى الله هارون، فتقول الرواية: إن الشعب لما رأى أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمعوا على هارون وطلبوا منه أن يصنع لهم آلهة تسير أمامهم لأنهم لا يعلمون ما الذى أصاب موسى هذا الرجل الذى أصعدهم من أرض مصر، ثم تزعم الرواية أن هارون نزع عنهم حليهم وصورها بالإزميل عجلاً مسبوكاً وبنى مذبحاً أمامه. وبكر الشعب في الغد للاحتفال بإلههم.

ولكن الرب أبلغ موسى على الجبل بما فعله قومه وقال له اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك وصنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له، وذبحوا له، وهدد الرب بأن يفنيهم، فتضرع موسى إليه ألا يفعل لكى لا يقول المصريون إن الرب أخرجهم ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض.

وانصرف موسى ونزل الجبل ومعه لوحان مكتوبان من الله يحتويان على كتاب الله وتعاليمه لهم. ولما وصل إليهم سمع غناء الشعب وشاهدهم يرقصون للعجل، فحمى غضبه وطرح اللوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل، ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه وذراه على وجه الماء. وغضب على هارون والشعب غضباً شديداً وطلب منهم أن يتوبوا إلى الله.

وتذكر التوراة هنا فى مبالغة غير متصورة أنهم صاروا يقتلون أنفسهم تكفيراً عن ذنبهم، حتى وقع منهم نحو ثلاثة آلاف رجل.

وأن موسى رجع إلى الرب ودعاه أن يغفر خطيئتهم، فاستجاب له.

ثم تذكر التوراة قصة عصيان بنى إسرائيل لموسى فى أمر دخول كنعان وإحجامهم عن ذلك خوفاً وجبناً من قتال أهلها أولى البأس والقوة، وقد كان نتيجته وقوع عقاب الله بالتيه عليهم، فتحكى فى سفر العدد ـ الإصحاحين الثالث عشر والرابع عشر، أنه بعد رحيلهم من جنوب

سيناء إلى برية فاران، أرسل موسى ـ بناء على طلب الرب ـ اثنى عشر رجلاً هم رؤساء أسباط بنى إسرائيل ليتجسسوا فى أرض كنعان، وذكرت أسماءهم جميعاً.

وحدد موسى مهمتهم بأن ينظروا الأرض ويعرفوا أحوالها ومدى خصوبتها وغناها، وأحوال الشعب الساكن فيها ومدى قوتهم وكثافتهم العددية، ويعرفوا مدنهم، وهل يسكنون مخيمات أم حصوناً.

وقد صعد الرجال وتجسسوا الأرض من برية صين إلى رحوب في مدخل حماة (أرض فلسطين من شرق سيناء حتى حدود سوريا) واستغرقت مهمتهم أربعين يوماً ورجعوا ومعهم عينات من خير الأرض عنب ورمان وتين، وأتوا إلى موسى وهارون، وكل جماعة بنى إسرائيل وقادش فى برية فاران وأروهم ثمر الأرض وأخبروهم أنها حقاً أرض تفيض لبناً وعسلاً غير أن مدنها حصينة عظيمة جداً وجميع الشعب الساكن فيها من الرجال الأشداء، الجبابرة، الأقوياء، العمالقة، طوال القامة، وانتهى رأيهم ـ عدا رجلين منهم ـ إلى عدم قدرة بنى إسرائيل إلى الصعود إلى كنعان، وقتال شعبها لأنهم أشد منهم، واختصاراً قالوا: «كنا فى أعيننا كالجراد وهكذا كنا فى أعينهم».

أما الرجلان الآخران: كالب بن يفنه رئيس سبط يهوذا، ويشوع بن نون رئيس سبط أفرايم فكان رأيهما أن يطيعوا نبيهم موسى، وأن يصمموا على دخول الأرض المقدسة وبشّراهم بالنصر إذا هم اعتمدوا على الله تعالى وأخلصوا النية للجهاد. ولكن بنى إسرائيل خافوا، ورفضوا، وتذمروا على موسى وهارون، وصرخوا، وبكوا، وندبوا حظهم وتمنوا إن كانوا قد ماتوا فى مصر أو فى الصحراء، وأن هذا أفضل عندهم من القتال والسقوط بالسيف لتصير نساؤهم وأطفالهم غنيمة، وتمنوا العودة إلى مصر، بل إن بعضهم اقترح أن يقيموا رئيساً عليهم يرجع بهم إلى مصر.

وحزن موسى وهارون حزناً عظيماً، وتضرع موسى إلى الله أن يصفح عن ذنبهم، كما سبق وأن غفر لهم منذ خرجوا من مصر، فقال الرب لموسى قد صفحت حسب قولك ولكن هذه الجماعة الشريرة من بنى إسرائيل الذين تذمروا على الله تسقط جثثهم جميعاً فى هذه الصحراء من ابن عشرين سنة فصاعداً لن يدخلوا الأرض المقدسة ماعدا كالب بن يفنه ويشوع بن نون، وأما أطفالهم الذين خافوا عليهم أن يصبحوا غنيمة فإنهم سيدخلون ويعرفون الأرض التى احتقرها آباؤهم، ولكنهم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة يحملون فيها فجور آباءهم حتى تفنى جثثهم كعدد الأيام التى تجسسوا فيها الأرض أربعين يوماً، للسنة يوم، يحملون فيها ذنوبهم.

وعندما أبلغ موسى الشعب بعقاب الرب حزنوا جداً وبكوا وقد حاولوا العدول عن خطئهم، غير أن موسى حذرهم بألا يتجاوزوا قول الرب لئلا ينهزموا أمام أعدائهم؛ لأن الله لن يكون

معهم ولن ينجحوا.

ويحكى القرآن الكريم بأسلوبه البليغ قصة عقاب بنى إسرائيل فى سورة المائدة فيقول تعالى:

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)».

ومؤدى آيات الله السابقة وقصة التوراة أن تقييد التحريم وسنوات التيه استغرق مدة أربعين سنة، وهى فترة تناسب انقضاء حياة جيل البالغين من القوم الفاسقين قبل دخول فلسطين.

قصص أخرى فى حياة موسى

تبقى فى حياة موسى قصص أخرى لم نتطرق إليها لأنها تخرج عن نطاق البحث، منها قصة بقرة بنى إسرائيل التى أمرهم الله بذبحها، وقصة قارون، وأمور كثيرة أخرى حدثت بين موسى وبنى إسرائيل فى رحلة الخروج واستمرت حتى وفاة موسى.

ونشير هنا إلى قصة موسى مع العبد الصالح الذى آتاه الله من لدنه رحمة وعلماً، وقد وردت فى سورة الكهف فى الآيات من (٦٠ : ٨٢)، ولم يذكر القرآن اسمه، وتذكره كتب التراث الإسلامى باسم «الخضر» وقد أخبر الله موسى بأمره فذهب إليه مصطحباً فتاه (يوشع بن نون) والتقاه عند موقع ملتقى البحرين، وطلب منه موسى أن يصاحبه ليعلمه من علمه الذى آتاه الله، فقال العبد الصالح لموسى: إنك لن تستطيع معى صبراً، فكيف تصبر على ما لا تعلمه ولم يخبرك الله بأمره؟

فأجابه موسى: ستجدنى إن شاء الله صابراً مطيعاً لأمرك. وهنا اشترط عليه العبد الصالح أن لا يسأله عن شىء يفعله حتى يحدِّثه بأمره، وانطلق موسى معه فى طريقه.

وأتى الرجل أمام موسى ثلاثة أفعال غريبة تحمل فى ظاهرها ذنوباً عظيمة أو تخرج عن نطاق المألوف من السلوك السوى للبشر، استنكرها موسى بشدة عليه، رغم سابقة وعده بالصبر والطاعة:

● خرق الرجل السفينة التى ركباها، واستنكر موسى فعله واعتبره أمراً عظيماً منكراً يؤدى إلى غرق ركابها.

● قتل طفلاً بغير ذنب واعتبر موسى ذلك شيئاً منكراً فظيعاً جداً.

● أقام جداراً على وشك الهدم لأهل قرية مرا بها، وكان أهلها قد رفضوا ضيافتهما

وإطعامهما، فاستنكر موسى عليه أن يفعل لهم ذلك بدون أجر.

وعند هذا الحد اكتفى العبد الصالح من صحبة موسى وأخبره بالأسباب الغيبية وراء أفعاله والتى أتاها بأمر من الله، لتتضح أمام موسى الحكمة الإلهية وراء كل فعل منها.

ونترك القرآن الكريم يحكى ما قاله العبد الصالح لموسى:

«قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)» [**الكهف**].

وبصرف النظر عن الموعظة الدينية والحكمة التى يمكن استخلاصها من تلك القصة، ونحيل فيها إلى مؤلفات متخصصة، فإننا نستخلص منها جوانب تاريخية، تساعد على إثراء موضوع البحث.

أولاً: حدثت هذه القصة فى فترة نبوة موسى وأداء رسالته والإشارة إلى مجمع البحرين والربط بينه وبين إقامة موسى فى شرق الدلتا يؤدى إلى أن المكان المقصود هو التقاء أحد فروع النيل الشرقية بمياه البحر المتوسط أو إحدى البحيرات الشمالية، ولعل الإشارة القرآنية فى القصة إلى صفة أهل القرية التى انطلق إليها موسى والعبد الصالح والذين أبوا ضيافتهما تقودنا إلى مدينة دمياط الحالية، وما زال ينسب إلى أهلها صفة الحرص الشديد على المال، وهى تقع على فرع دمياط قبيل انتهائه إلى البحر المتوسط عند مدينة رأس البر الحالية، وربما تكون هى مجمع البحرين والمكان الذى انطلق منه موسى والعبد الصالح فى اتجاه مواقع أحداث القصة.

والاستخلاص التاريخى لحدوث القصة شرق مصر يقودنا إلى نتيجة أخرى تتفق مع الظروف الاجتماعية والسياسية القائمة - آنذاك - وهى أنه رغم المواجهة العنيفة والعصيبة التى وقعت ما بين موسى والفرعون منذ الأيام الأولى لنزوله مصر، وما وقع من أحداث تالية أثرت على مركز الفرعون، فإن موسى لم يكن ممنوعاً من ممارسة حياته على الوجه المعتاد، فكما كان حراً فى تبليغ رسالته وإقامة شعائرها على النحو الذى أوضحناه سابقاً، فإنه أيضاً كان يملك حرية الانتقال والتجول والسفر فى أرجاء مصر دون قيود أو مراقبة من رجال فرعون، خلال سنوات الدعوة السابقة على الخروج.

ثانياً: أشارت القصة القرآنية إلى وجود مؤمنين فى مصر، مثل ذلك العبد المؤمن الذى فاق درجات الأنبياء.

«فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)» [**الكهف**].

وهؤلاء المساكين الذين يعملون فى البحر ويحبهم الله، والأبوين المؤمنين اللذين أراد الله أن يبدلهما غلاماً صالحاً، والغلامين اليتيمين اللذين أكرمهما الله جزاء لأبيهما الصالح.

فالقصة ذخرت بطائفة من المؤمنين، الأمر الذى يستدل منه على وجود مد إسلامى انتشر فى أرض مصر منذ زمن دعوة يوسف، وخصوصاً فى المنطقة الشرقية، وهو ما أكدته أيضاً ثورة التوحيد التى قضى عليها نفوذ الكهنة، والتى يستدل من بعض مظاهرها أن بدايتها خرجت من معبد أون فى عين شمس.

تبقى قصة أخيرة فى حياة موسى تجدر الإشارة إليها وهى احتمال زواجه من امرأة كوشية من جنوب مصر، وقد أشارت إليها التوراة فى سفر العدد - الإصحاح الثانى عشر، ونسبت فيها إلى مريم وهارون التقوُّل على موسى بسبب هذه المرأة، وأن الله عاقبهما على ذلك، وجاءت القصة مبهمة وغير واضحة القصد أو المعنى، وأيضاً لا يمكن نسبة هذا التقول على نبى الله من شقيقيه؛ فهارون نبى، وحاش الله أن يصدر عنه ذلك، ومريم - شقيقة موسى - وتعرف حياته الشخصية، وأيضاً لم توضح القصة إن كان هذا التقول - إذا كان قد صدر من أى شخص - بسبب اتخاذ موسى لتلك المرأة سريَّة أو جارية، أو لسبب زواجه من امرأة ليست من إسرائيل، رغم سابقة زواجه من مدين وهو ما أقرت به التوراة - وقد يرجع ذلك إلى أصولها السامية، بسبب انتماء شعب مدين إلى إبراهيم عليه السلام. أما تلك المرأة الكوشيه فجاء ذكرها فى قصة عابرة. ولم تكن مقصودة بذاتها. ولم تتكرر الإشارة إليها. وقصد من كتبها تأكيد براءة موسى وعقاب من تناوله بسلوك شائن... ومع ذلك لم ينف الكاتب اتخاذ موسى للمرأة الكوشية. تقول التوراة: «وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها؛ لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية» وعموما فإن الزواج من أجنبيات خارج بنى إسرائيل أمر لم يكن يغفره كتبة التوراة رغم تكراره كثيراً، إلا أن الذى يزيد الطين بلة فى هذه الحالة، هو أن التوراة تعتبر «حام» جد الكوشيين.

وفاة موسى

عاش موسى عمراً مديداً تجعله التوراة مائة وعشرين سنة. وهذا التحديد محل نظر، ذلك أن التوراة تذكر أن عمر موسى فى يوم الخروج كان ثمانين عاماً، وقد أرادت بذلك أن تستمر حياته إلى آخر سنوات التيه قاصدة أن يريه الله بعينه الأرض المقدسة، فتذكر فى سفر التثنية الإصحاح الرابع والثلاثين أن موسى صعد من عربات مؤاب إلى جبل نبو قبالة مدينة أريحا فأراه الرب جميع الأرض وقال له هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن أعطيها لنسلهم. قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هنا لا تعبره. فمات هناك موسى ودفن فى أرض مؤاب. ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم. وكان ابن مائة وعشرين سنة ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته. وتجعل التوراة وفاة هارون قبل موسى فى نفس العام. ودفن فى جبل هود، وكان عمره

مائة وثلاثاً وعشرين سنة. وقبل ذلك فى الإصحاح الحادى والثلاثين من سفر التثنية تذكر التوراة فى الآية الأولى «فذهب موسى وكلم بهذه الكلمات جميع إسرائيل وقال لهم: أنا اليوم ابن مائة وعشرين سنة» ثم تعود التوراة وتكمل فى الآيات من (٩:١١) «وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بنى لاوى حاملى تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل. وأمرهم موسى قائلاً فى نهاية السبع سنين فى ميعاد سنة الإبراء فى عيد المظال، حينما يجىء جميع إسرائيل لكى يظهروا أمام الرب إلهك فى المكان الذى يختاره تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل فى مسامعهم».

ومضمون ما تقدم إنه إذا كان موسى قد عاش إلى نهاية سنة الإبراء من التيه فإن عمره يوم مات يكون مائة وسبعاً وعشرين وليس مائة وعشرين.

وعموماً فإن التوراة قد جعلت عمر موسى يوم عاد من مدين ثمانين عاماً، وجعلت خروجه من مصر فى ذات السن، وقد رأينا أن ذلك ليس صحيحاً؛ لأن موسى مكث فى مصر سنين عدداً يدعو لرسالته.

والذى نراه فى شأن عمر موسى أنه يوم خرج من مصر ذاهباً إلى مدين كان قد تخطى سن الشباب، وصار رجلاً ناضجاً، يقول القرآن «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا... (١٤)**» [**القصص**].

وكان موسى يعتبر أن حياته فى مدين هجرة، ويدل حواره مع الله فى ليلة البعث أنه لم يكن ينوى العودة إلى مصر، فقد ذكر لربه كل الأسباب التى تمنعه من العودة، وتذكر التقاليد اليهودية والمسيحية أن موسى أقام فى مدين أربعين عاماً، وهو قول قد يقترب من الحقيقة، ونذكر هنا أن موسى فى تاريخ البعث كان شيخاً، سأله ربه «**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)**» [**طه**] ولم يكن حديثه إلى الله من لغو الكلام بل حقيقة.

وإذا كانت حياته فى مصر بعد البعث تزيد على عقد من الزمان على النحو الذى يتفق مع الأحداث التى مرت واستغرقت سنين، ومن ثم فإن عمر موسى يوم خرج من مصر يكون قد تجاوز الثمانين عاماً، وسوف نرى أن ذلك يتفق مع الأحداث التاريخية عندما نتكلم عن زمن حدوثها.

أما حياة موسى فى التية فليس بالضرورة أن يكون قد أكمل جميع سنواتها لكى يريه الله الأرض المقدسة، وقد رأينا أنه يوم أرسل رجاله لاستطلاع الأرض فإنه كان يقف فعلاً قريباً من حدودها.

والذى أراه أن موسى مات فى سنوات التيه، بعد الخروج من رحلة سيناء، فقد أخذ شعبه ووقف على أبواب فلسطين الشرقية من ناحية الأردن فى انتظار سنة الإبراء من التيه. دون إمكان تحديد سنة معينة لوفاته عليه السلام.

الفصل الثالث
بنو إسرائيل بعد موسى

أولا: يشوع بن نون ودخول فلسطين

كان اسمه يوشع ودعاه موسى يشوع، وهو من سبط أفرايم بن يوسف، لم يكن إسرائيلياً خالصاً، فجدته زوجة يوسف عليه السلام هى المصرية إسنات بنت فوطى فارع، كاهن أون.

يحمل السفر السادس من العهد القديم اسمه، وهو ليس ضمن الأسفار الخمسة للتوراة التى نزلت على موسى فى جبل سيناء. ويروى هذا السفر قصة دخول الإسرائيليين الأرض المقدسة بقيادة يشوع.

وقد حفظ الكهنة - كتبة العهد القديم - ليشوع جميل صنعه باعتباره البطل القومى الذى عبر بشعب إسرائيل إلى أرض الميعاد وقاد حروب النصر محققاً أهم نقلة حضارية فى تاريخهم، فجعلوه نبياً، وسعياً لتحقيق مساواته مع موسى، منحوه معجزات جاءت تقليداً أعمى، وصوراً مكررة من آيات الله لموسى، فذكروا له فى السفر الذى يحمل اسمه، أن الرب كلّمه - مثل موسى - وعهد إليه أن يعبر نهر الأردن مع شعب إسرائيل إلى الأرض التى وعد بها أجداده، وأخبره أنه سوف يعظمه فى أعين جميع إسرائيل لكى يعلموا أنه سيكون معه كما كان مع موسى. وأجرى الله على يديه معجزات كان منها انفلاق مياه نهر الأردن له عن طريق يابسة ممهدة عبرها مع شعب إسرائيل لدخول الأرض المقدسة - كما فعل لموسى فى بحر سوف للخروج من مصر - وأرسل إليه - فى حروب الفتح - رئيس جند الرب، وقال له - مثل موسى - اخلع نعلك من رجلك؛ لأن المكان الذى أنت واقف عليه مقدس. ففعل يشوع كذلك. ووقفت له الشمس فى كبد السماء، ولم تعجل للغروب يوماً كاملاً، حتى انتصر الشعب فى الحرب على أعدائه.

وقد تأثر كثير من فقهاء التراث الإسلامى - وجاراهم عدد من المحدثين - بالنهج الإسرائيلى فى اعتبار يشوع نبياً، وهو أمر ننكره عليه - بيقين - لأن الأدلة الدينية تنفيه، فقد ذكره القرآن الكريم فى أكثر من موضع مجرداً من ذلك الشرف، ودون أن يذكر اسمه، فوصفه الله تعالى فى سورة الكهف - فى آيات مصاحبته لموسى فى لقاء العبد الصالح - بأنه فتى موسى: «**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ**»، «**فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ**»، وقال الله تعالى فى وصفه هو وآخر (كالب بن يفنه) فى سورة المائدة: «**قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا**(٢٣)»، وفى آيات دخول الأرض بعد الإبراء من التيه - والتى سيأتى حديثنا عنها فى هذا الموضوع - لم يأت القرآن بأية إشارة عن مخاطبة نبى أو وجود نبى بعد موسى مباشرة، وإنما شمل القول جميع

بنى إسرائيل، وإذا قارنّا ذلك بحديث الله عن لوط - قبل بعثته - عندما هاجر مع عمه إبراهيم عليهما السلام - لوضح القصد وأدركنا الفرق بين التعبيرين، فقد ذكر الله لوطاً باسمه وساواه فى الحديث مع إبراهيم نبى الله.

يقول الله تعالى عن لوط قبل أن يبعث نبياً:

« فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) » [العنكبوت].

« وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) » [الأنبياء].

وفى حديث القرآن عن النبى صموئيل ذكره بلقب النبى وليس أى وصف آخر.

يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ... (٢٤٦) ».

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا (٢٤٧) ».

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ... (٢٤٨) ».

ولا يجب أن يؤدى بنا ما تقدم إلى أى انتقاص من قدر يشوع بن نون، فهو صاحب موسى فى سنوات دعوته، واعتمد موسى عليه كثيراً، وكان له نعم الرفيق، ووصفه الله تعالى بأنه يخاف أنعم الله عليه، قصدنا فقط توضيح الرأى فى أمر نبوته؛ لأنها لو صدقت فإن المجال كان متاحاً لأن يذكره الله بصفته فى عدة مواضع كان فاعلاً فيها، وأهمها فتح فلسطين، وقد كان قائده.

وعن دخول بنى إسرائيل الأرض المقدسة، بعد موت موسى وانتهاء سنوات التيه، فإنه كان قد هلك منهم ذلك الجيل الذى تربى على الذل والعبودية، وخذل موسى ، ونشأ جيل آخر على الخشونة وحياة البداوة، وعرفوا قضية شعبهم والوعد الإلهى، وعاشوا سنوات حياتهم فى انتظار الإبراء لتحقيق الهدف الذى أحجم آباؤهم عن تحقيقه فحرمهم الله منه أربعين سنة، ولا أتفق مع رواية العهد القديم بفناء جميع البالغين من ابن عشرين سنة فصاعداً - ماعدا يشوع بن نون وكالب بن يفنه - فى سنوات التيه، وإنما الصحيح أن الأغلب منهم قد مات، ومن عاش أصبح كهلاً، ويكون الرجال الذين حاربوا مع يشوع هم من كانوا أطفالاً أو صبية وقت الخروج من مصر، أو الذين ولدوا فى سنوات التيه؛ لأن عقاب الله - حسب القرآن - كان فرض سنوات التيه، دون حتم الوفاة خلالها.

ويحكى سفر يشوع عن حروب دخول الإسرائيليين كنعان، أنه عندما حان الميعاد الذى طال انتظاره وجاء أمر الرب بعبور نهر الأردن. طلب يشوع من الشعب الاستعداد، وجاءت الإجابة بالسمع والطاعة.

وقبل أن يبدأ المعركة أرسل جاسوسين سراً لاستطلاع الأمر فى «أريحا». فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب، واضطجعا هناك، وعلم ملك أريحا بأمرهما، فأرسل فى

طلبهما من بيت راحاب، وقد أبلغها رسل الملك بحقيقة أمر الرجلين الجاسوسين، بيد أنها أخفتهما بين عيدان الكتان على سطح منزلها، وادعت للرسل أنهما جاءا إليها ثم انصرفا ولم تعلم من أين هما ولا وجهتهما. وحالما انصرف الرسل سعيا فى القبض عليهما، صعدت إليهما، وأرشدتهما على طريق للهرب، ومن الغريب أن حديثها مع الجاسوسين يكشف عن علمها وإيمانها بقضية بنى إسرائيل، وثقتها فى أن الوعد الإلهى لهم بالأرض سوف يتحقق لأن الرب هو الذى أعطاهم الأرض، وأبلغتهما أن جميع السكان فى حالة رعب من توقع دخول شعب إسرائيل، وأنهم يعلمون أن الرب يبّس مياه بحر سوف لأجل خروجهم من مصر، ويعلمون ما عملوه بملوك الأردن، واستحلفتهما بالرب، الله، إلههم الذى فى السماء من فوق وعلى الأرض من تحت، أن يعطوا لها الأمان عند دخولهم، مقابل المعروف الذى صنعته لهم، ويستحيوا أهل بيتها: أباها وأمها وكل إخوانها وأخواتها وكل مالهم، فوعداها بذلك طالما لم ترشد عنهما حتى يعودا لقومهما.

ويحكى سفر يشوع أنه عبر ببنى إسرائيل نهر الأردن إلى الغرب، وكانت «أريحا» (أقدم مدن فلسطين) هى أول مدينة فى طريقهم، فعملوا الفصح فى عربات أريحا، وأكلوا من غلة الأرض فى الغد، وانقطع المنُّ عند أكلهم من الأرض، ولم يكن بعد لبنى إسرائيل مَنٌّ. فأكلوا من محصول كنعان فى تلك السنة.



فلسطين فى عصر دخول بنى إسرائيل

ويقدم العهد القديم صورة وحشية للحروب ندر أن يعرفها التاريخ، يجسد فيها أبشع صور الدمار والهمجية، وحرق البلاد، وتخريب الديار، دون هدف أو إستراتيجية عسكرية سوى الانتقام والتنكيل، فيكشف بها أيضاً عن حماقة وغباوة لجند يحرقون ويدمرون ويخربون بعد أن فتحوا الأرض ودانت لهم، والمفروض أنهم جاءوا ليسكنوها ويعمروها وينعموا بخيراتها وأنعامها، فإذا

بهم يهدمونها بعد أن ملكوها.

كما تعرض القصة صوراً مبالغاً فيها لوقائع القتل الذى يهدف إلى الإبادة الجماعية واستئصال سكان الأرض، فتجعل الدم أنهاراً والقتلى بعشرات الآلاف، وهذا التصوير يقدم ظاهرة لم يعرفها تاريخ الحروب - وبلا شك - يفتقر إلى الواقعية والصدق، وليس له تفسير سوى أن كاتب الأحداث عمد إلى تصوير هذا الفناء اعتقاداً منه أنه بذلك يحافظ لبنى إسرائيل على نقاء العنصر وعدم اختلاطهم بأجناس أخرى، وهو الهاجس الذى كان مسيطراً على العصر الذى أعيد فيه تدوين توراة موسى وإضافة الأسفار اللاحقة إليها.

وتستمر المبالغة واللا منطق أيضاً فى تصوير المعارك ودك الحصون واقتحام الأسوار، وصلب الأمراء بعد قتلهم ثم رجمهم، ويمكن أن يستدل من هذه المبالغة فى التصوير أن رواة الأحداث الذين كتبوا التوراة فى مرحلة السبى البابلى فى القرن السادس ق.م، أرادوا فى هذه المرحلة من الانكسار أن يجعلوا لبنى إسرائيل أهمية تاريخية، ويكسبوا تاريخهم بطولات عسكرية تعوضهم عن مراحل الذل والاستعباد والتشرد فى حياتهم، فاستعاروا أخباراً من حروب الممالك المعاصرة والتى أسهمت فى انكسارهم (الآشوريين والبابليين)، فامتزجت الأخبار المنقولة مع آلام الذل الدفين فى صدورهم، فقدموا مثلاً واضحاً لثقافة الحقد ورغبة الانتقام، الذى نشأ معهم منذ سنوات الاستعباد والسخرة فى مصر، وتغذى فى الصحراء على الجفاف والشقاء والتشرد فى سنوات العقاب الإلهى بالتيه، وحينما وقفوا سنوات على الضفة الشرقية للنهر ينظرون بحقد أسود مسموم على السكان الآمنين المستقرين ينتظرون يوماً يعبرون فيه إليهم، فصور الكاتب عبورهم كانقضاض الجياع المكلومين وجعلهم ينتقمون من كل شىء طالته أياديهم الإنسان والحيوان والديار.

وتفصل رواية العهد القديم هذه الصور فى حروب يشوع فتحكى أنه بعد أن تمكن بنو إسرائيل من ضرب حصون مدينة «أريحا» وسقطت أسوارها أمامهم، قال يشوع للشعب إن المدينة وكل ما فيها محرم للرب، فجمعوا كل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد لتكون قدساً للرب، وتدخل فى خزانة الرب، ثم قتلوا بحد السيف كل من فى المدينة من رجل أو امرأة أو طفل أو شيخ حتى البقر والغنم والحمير قتلوها. ثم أرسل يشوع الرجلين الجاسوسين فأخرجا راحاب الزانية وأباها وأمها وأختها وكل مالها، وكل عشائرها وتركوهم خارج المدينة مع بنى إسرائيل. ثم أحرقوا مدينة «أريحا» بالنار بكل ما فيها، وعاشت راحاب وأسرتها وسط إسرائيل إلى اليوم لأنها خبأت رسل يشوع إلى «أريحا».

وبعد ذلك حلف يشوع: ملعون أمام الرب الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة «أريحا».

ثم كانت المدينة الثانية التى زحف إليها بنو إسرائيل هى مدينة «عاى» (بين نابلس والقدس من ناحية الشرق)، وبعد أن دخلوها - عن طريق خدعة - حرقوها بالنار، وجعلها يشوع تلاً

أبدياً خراباً، ثم قتلوا جميع سكانها، فكان جميع الذين سقطوا بحد السيف من الرجال والنساء اثنى عشر ألفاً، وأمسكوا ملك «عاى» حياً وقادوه إلى يشوع، فقتله وصلب جثته على الخشبة إلى وقت المساء، وعند الغروب أنزلوا جثته وطرحوها عند باب المدينة، وأقاموا عليها رجمة حجارة عظيمة، ونهبوا البهائم والغنائم لأنفسهم.

وتستمر مسيرة الفتح فى العهد القديم، فيستولى الإسرائيليون على جبعون (ثمانية أميال إلى الشمال الغربى من أورشليم وتعرف الآن باسم الجيب).

ثم حارب يشوع تحالف جيوش الأموريين، وهم ملوك أورشليم (القدس)، حبرون (مدينة الخليل ١٩ ميلاً جنوب غرب أورشليم)، يرموث (اليرموك)، لخيش (تل الدوير)، عجلون (تل الحسى، ١٦ ميلاً شمال شرق غزة)، وضربهم ضربة عظيمة فى جبعون وطردهم، وبينما هم هاربون، وعند منحدر رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء، فكان الذين ماتوا بالحجارة أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف، وحدث فى هذا اليوم أن وقفت الشمس فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل، وحارب الرب عن إسرائيل!!

وقد هرب ملوك الأموريين من المعركة واختبأوا فى مغارة، وعلم يشوع بمكانهم فأمر بأن يدحرجوا عليهم حجارة عظيمة وأوقف عليهم حراساً، وبعد أن أنهوا المعركة وفنوا أعداءهم عادوا واقتحموا المغارة، وأخرجوا الملوك الخمسة وقادوهم إلى يشوع، فدعا كل رجال إسرائيل، وقال لقواد رجال الحرب تقدموا وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك، وبعد أن فعلوا بهم ذلك، قتلهم يشوع وصلبهم على خمس خشبات من الصباح إلى المساء، وعند غروب الشمس أنزلوهم وطرحوهم فى المغارة التى اختبأوا فيها وسدوها بحجارة كبيرة.

ثم توجه يشوع بجيشه فضرب مدنهم وجميع المدن الأخرى التى تعاونت معهم وأخذوها جميعاً وقتلوا ملوكهم، وحرم يشو ع حياة كل نفس بها، فلم يبقوا بها شارداً «كما أمر الرب إله إسرائيل» (يشوع - الإصحاح العاشر).

ويذكر سفر يشوع الأراضى التى خضعت لبنى إسرائيل وملوك الأرض الذين ضربهم، ويحددهم بخلاف الممالك التى تقع فى أقصى الشمال بعدد واحد وثلاثين ملكاً، اتبع معهم ذات الأسلوب وهو القتل والحرق وتخريب الديار ولم ينج من أيديهم إلا من فر من وجوههم. ومن الغريب أن الرواة لم يخجلوا من أن ينسبوا كل هذه الأفعال الظالمة والوحشية فى الانتقام لقول الله وإرادته، بل معاونتهم عليها.

وبعد ذلك قسم يشوع الأراضى التى خضعت لبنى إسرائيل وأعطاها لأسباط إسرائيل ميراثاً حسب فرقهم.

ورغم كل أفعال القتل والإبادة ومحاولات إنهاء السكان الأصليين، الذى زعمته رواية العهد القديم. فإنها لم تنكر وجود حالات عديدة عاش أهلها فى وسط إسرائيل ومن هؤلاء:

● سكان جبعون الذين جعلهم يشوع محتطبى حطب ومستقى ماء للجماعة ولمذبح الرب، فلم يقتلوهم وعاشوا بينهم (سفر يشوع - الإصحاح التاسع).

● العناقيون الذين فروا وبقوا فى غزة وجت وأشدود. (سفر يشوع - الإصحاح الحادى عشر -٢٢).

● ولم يطرد بنو إسرائيل الجشوريين والمعكيين، فسكن الجشورى والمعكى فى وسط إسرائيل. (يشوع -١٣-١٣).

● واليبوسيون الساكنون فى أورشليم، لم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم، (يشوع: ١٥ - ٦٣).

● ولم يطردوا الكنعانين الساكنين فى جازر، فسكن الكنعانيون فى وسط أفرايم، وكانوا عبيداً تحت الجزية، (يشوع:١٦-١٠).

● ولم يقدر بنو منسى أن يملكوا المدن التى أوقفتها القرعة لهم؛ لأن الكنعانيين كانوا يسكنون تلك الأرض، وتشدد بنو إسرائيل عليهم واستطاعوا أن يجعلوهم تحت الجزية، ولم يتمكنوا من طردهم، (يشوع:١٧-١٢، ١٣).

وسكان آخرون كثيرون من الكنعانيين عاشوا فى وسط المدن التى قسمت لبنى إسرائيل، ويأتى سفر القضاة بتفاصيل أكثر وضوحا فيها.

ولم يجد كاتب العهد القديم حلاً لهذه المشكلة التى تهدد العنصرية الإسرائيلية - من وجهة نظره - سوى أن يضمن وصية يشوع التحذير الشديد منها، وبين لهم فيها أسباب وقاية أنفسهم، فتذكر الرواية أن يشوع بعد أن شاخ دعا جميع شيوخ إسرائيل ورؤساءه وقضاته وعرفاءه، وقال لهم إن الأيام قد تقدمت به، وذكرهم بكل ما عمله الرب إلههم بجميع أولئك الشعوب من أجلهم، وأن هؤلاء الشعوب الباقين بينهم، فإن الرب إلههم هو الذى يفنيهم من أمامهم ويطردهم فيتملكون أرضهم، وأوصاهم مشدداً بأن يحفظوا تعاليم موسى ولا يدخلوا هؤلاء الشعوب معهم ولا يذكروا اسم آلهتهم، ولا يحلفوا بها، ولا يعبدونها (يشوع-٢٣).

ثم أوصاهم محذراً «ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب أولئك الباقين معكم وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم إليكم، فاعلموا يقيناً أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم فيكونون لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم وشوكاً فى أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التى أعطاكم إياها الرب إلهكم» [يشوع:٢٣-الآيتان١٢، ١٣].

وفى أخريات أيام يشوع وبعد انتهاء حروبه يذكر العهد القديم أنه قد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك، ومنها الأرض الباقية فى كل دائرة الفلسطينيين، وأراض أخرى كثيرة مع الكنعانيين [يشوع:١٣- من١ : ٦].

وفى سفر يشوع أنه مات وعمره مائة وعشر سنين (يشوع:٢٤-٢٩).

وبسبب المبالغة فى التصوير والجنوح عن منطق التاريخ اعتقد كثير من الدارسين أن كتاب يشوع لا يمثل أى حقيقة تاريخية، وأنه يحتوى على قصة أدبية من صنع خيال كتبة بنى إسرائيل، الذين قاموا بصياغة التوراة فى العصور التالية، وأن أسطورتهم لغزو كنعان ظلت حقيقة تاريخية بسبب انعدام أى مصادر أخرى، حتى ظهرت الحفائر الأثرية مؤكدة عدم صحة أحداثها، ومن ذلك:

١- أن مدينة «أريحا» التى ذكر سفر يشوع أنهم أسقطوا أسوارها وقتلوا سكانها، فقد ظهر من الحفائر أن تلك المدينة القديمة كان يسكنها قبائل سامية جاءت من الجزيرة العربية، وكانت لها أسوار عالية يبلغ ارتفاعها حوالى مترين، تحرسها أبراج للمراقبة ارتفاعها تسعة أمتار، وتعد من أقدم الحصون التى عثر عليها، وكشفت الحفائر أن هذه الأسوار حطمت ثم أعيد بناؤها مرات عدة فى الأزمنة القديمة، كانت الأخيرة خلال القرن السادس عشر ق.م، أى قبل ثلاثة قرون من عصر يشوع، عندما حطم ملوك مصر الذين طردوا الهكسوس حصونهم فى كنعان بما فى ذلك أسوار «أريحا». وأقاموا الإمبراطورية المصرية ما بين النيل والفرات أيام الأسرة الثامنة عشرة، ولم يتم بناؤها بعد ذلك، وظلت أطلال «أريحا» مهجورة لا يسكنها أحد، ولم يعد استخدامها للسكن إلا منذ القرن ١٢ ق.م، وهو ما يعنى أن «أريحا» لم يكن لها أسوار، ولم تكن مسكونة فى عصر يشوع.

٢- أظهرت الحفائر أن مدينة «عاى» تحطمت فى عصور قديمة جداً قبل يشوع، ولم تسكن مرة أخرى، إلا منذ القرن ١٢ق.م، حينما أخذت قرية صغيرة تنمو فى هذا الموقع.

٣- النتائج فى كل المواقع الأخرى جاءت مؤكدة لنفس النتيجة، فإما أنها كانت غير مأهولة بالسكان فى القرن ١٣ ق.م، أو أن تدميرها لم يتم إلا مع وصول القبائل الفلسطينية إلى الساحل فى القرن ١٢ ق.م.

٤- إن مدينة «حاصور» التى وردت ضمن المدن التى احتلها يشوع، هى إحدى كبرى مدن الجليل وتأخذ موقعاً إستراتيجياً يسيطر على تفرعات رئيسية وتتصل بطريق حورس فى شمال سيناء، وتربط مصر بسوريا وآسيا الصغرى، وتؤكد المصادر المصرية أنها ظلت تحت النفوذ المصرى - على الأقل - حتى عصر رمسيس الثالث فى أوائل القرن ١٢ ق.م.

٥- إن المصادر التاريخية المصرية تؤكد أن فترة القرن الثالث عشر ق.م، التى حددوها لدخول بنى إسرائيل «فلسطين»، كان رمسيس الثانى يجلس على عرش مصر (٦٦ عاماً) وكانت كنعان بأكملها خاضعة للسلطة المصرية، وكانت لمصر حاميات عسكرية مرابطة فى بعض المدن هناك مثل «تل الحصن»، و«تل الفرح»، و«القدس».

٦- إن الساحل الكنعانى تعرض فى القرن ١٢ ق.م، لموجة من الهجمات التى أدت إلى دمار المدن، جاءت عن طريق البحر المتوسط على يد الفلسطينيين، وهم من شعوب البحر الذين

تمكنوا بعد ذلك من القضاء على النفوذ المصرى فى كنعان فى نهاية ذلك القرن، وقد أظهرت نتائج الحفائر أن أرض كنعان ظلت خاضعة للسلطات المصرية حتى عصر الملك رمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م)، وقد أقام هذا الملك معبداً لآمون فى كنعان.

٧- ثبت من الحفائر أن غزو بنى إسرائيل للممالك الكنعانية فى القرن ١٣ ق.م، ليس له دليل يؤكده، وبالتنقيب فى بعض الأماكن الجبلية خارج نطاق ممالك المدن القديمة التى قام بمعظمها باحثون إسرائيليون عثروا على عدد كبير من القرى التى لم تكن لها أسوار، وتبين أن عدد هذه القرى ازداد خلال القرن ١٢ ق.م، وكان سكانها يزرعون الأرض ويرعون الماشية.

وللأسباب السابقة استند الباحثون إلى أن بنى إسرائيل منذ خروجهم من سيناء - فى بداية القرن ١٣ ق.م - ظلوا حوالى قرناً من الزمان يقيمون فى منطقة سعير الجبلية الوعرة جنوب البحر الميت، وأن دخولهم كنعان جاء على شكل تسلل قامت به أجزاء متفرقة من القبائل وعلى فترات ومراحل متباعدة، وعاشوا فى المناطق المهجورة والجبلية البعيدة عن ممالك المدن، فى حين كان الفلسطينيون - الغزاة الجدد - يبنون المدن المحصنة على طول الساحل الغربى.

وفى مجال التعقيب على العرض المتقدم نلاحظ أن الباحثين استندوا لإنكار رواية العهد القديم فى دخول كنعان بمعارك حربية بعد سنوات التيه، إلى الأدلة التاريخية - التى حرصنا على عرضها - وتقوم جميعها على ما ثبت من نتائج الحفائر لآثار تلك الحقبة، والتاريخ السياسى المعاصر، والتى تنكر فى جميعها أن يكون دخول بنى إسرائيل فلسطين قد تم فى القرن الثالث عشر ق.م، وهذه حقيقة تاريخية مؤكدة. سوف تثبتها الأدلة التى استندنا إليها وسنذكرها عند تحديد الزمن التاريخى للأحداث فى الفصول المقبلة، والتى أكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن خروج بنى إسرائيل من مصر قد تم فى نهاية القرن الثالث عشر ق.م. وبحساب سنوات التيه، وإضافة المدة الزمنية الكافية لدخول الأرض سواء حروباً فى بعضها أم سلماً فى بعضها الآخر، وحتى اكتمال الاستقرار النسبى لهم فى بعض أماكن فلسطين، فإن توقيت الدخول يكون معاصراً للنصف الثانى من القرن الثانى عشر ق.م ، وهو الأمر الذى يؤدى - على عكس ما استند إليه الباحثون - إلى أن نتائج الحفائر التى أجريت فى فلسطين تأتى مؤكدة لرواية العهد القديم بشأن دخول الإسرائيليين إليها بعد خروجهم من مصر وانقضاء سنوات التيه، وفى عهد يشوع بن نون.

وبشأن المغالاة والمبالغة فى تصوير معارك النصر، فقد كان ذلك من الأمور التى تكررت على مر عصور التاريخ قديماً وحديثاً، وإذا كانت رواية العهد القديم قد انفردت عن غيرها بجنوح فى تصوير إبادة السكان، واللامنطق فى إهلاك الحرث والنسل وأفعال الحريق غير المبرر، وأيضاً إضفاء معجزات إلهية على المعارك، فإن ذلك كان يرجع لعدة أسباب لعل أهمها :

- أن العصر الذى كتبت فيه التوراة كان تالياً لعهد موسى بعدة قرون، وكان مرحلة انكسار

وتشتت لبنى إسرائيل، حرص خلاله الكهنة على التركيز على الروابط العنصرية، وربطها بجوهر الدين (أسرلة الدين)، وأدخلوا فى اعتقاد الشعب أن إبادة الأجناس الأخرى كان سلوك أنبيائهم وزعمائهم، وأن الحفاظ على نقاء العنصر هو نهج موسى ويشوع، وكان ذلك بدافع حرصهم على عدم اندماج شعب إسرائيل مع أصحاب الديانات الوثنية، أو عبادة آلهة الشعوب المعاصرة.

- جعل يشوع نبياً يتمتع بالحماية الإلهية باعتباره الفاتح والقائد الذى حقق حلمهم، ونفذ وعد الله لهم، فأضفوا على تاريخه معجزات، وجعلوا فتوحاته تتم بقول الله ومعاونته.

- إضفاء بطولات على تاريخهم، وانتصارات عسكرية تعوضهم عن حالات الانكسار والهزيمة والإذلال، سواء التى كانوا يمرون بها، أم التى عاشها أجدادهم فى الماضى.

وإذا كان كتبة التوراة قد بالغوا فى حجم المعارك، وانتصارات يشوع، إلا أن الحقيقة اتضحت بعد ذلك من عدة مصادر:

أولاً: من خلال ما كتبوه عن نتائج الاستيطان والتى كشفت عن ضآلة المساحات من أراضى كنعان التى تمكنوا من دخولها.

ثانياً: لم تنكر روايتهم أن حياة شعب إسرائيل فى المدن والمناطق التى استقروا فيها كانت إلى جانب سكان كنعان.

ثالثا: مما كشفت عنه الحفائر فى فلسطين من أن المدن التى تمكنوا من الاستقرار فيها فى بداية دخولهم كانت غير آهلة بالسكان، أو كانت إقامتهم فى المناطق الجبلية التى يتناثر فوقها مجموعات سكانية متفرقة، ثم شهدت فى توقيت معاصر لدخولهم تزايداً واضحاً فى أعداد القرى التى يعتمد أهلها على الزراعة والرعى.

وهذه المظاهر وإن كانت تنفى الانتصارات الرادعة، بالصورة التى يقدمها العهد القديم بما تحمله من إبادة وتدمير وحرق، إلا أنها تؤكد حدوث دخول بنى إسرائيل بعض أراضى فلسطين بعد الإبراء من التيه.

ومن تلك المظاهر سواء التى وردت فى العهد القديم أم التى كشفت عنها الحفائر يمكن أن يستدل أن دخولهم كنعان بدأ بأعمال تجسس وفرت لهم معلومات عن المناطق التى يمكنهم اختراقها بالإمكانات المتاحة لديهم، وفى هذا الصدد يجب أن نتذكر أن هذا الشعب كان يعيش فى حالة استعداد واستنفار لهذا اليوم منذ أربعين سنة، بما يعنى حتماً ولزوماً أنهم كانوا على قدر من العسكرية والتسليح والتدريب تكفى لمواجهة تلك الممالك الصغيرة، التى كانت لا تزال حتى سنوات قليلة سابقة تخضع للنفوذ المصرى، ولم تكن مؤهلة للقتال أو الدفاع عن نفسها، وتعتمد على حماية الدولة المصرية أو حامياتها فى فلسطين للدفاع عنها من هجوم الممالك الأخرى، بل حتى لصد إغارات البدو عليهم، والمصادر التاريخية المصرية زاخرة برسائل

الاستغاثة وطلب النجدة من أمراء المستعمرات المصرية، أو تسجيل خروج ملوك مصر لصد هذه الهجمات وحماية ممتلكاتها.

وقد كان دخول الإسرائيليين فلسطين تالياً بسنوات قليلة لانتهاء النفوذ المصرى بها، الذى تقلص وتلاشى حتى انتهى تماماً بعد أن دخلت مرحلة ضعف وانهيار.

وتزامن ذلك أيضاً مع ضعف الدولة الآشورية، وانتهاء دولة الحيثيين على أيدى شعوب البحر، فأصبحت ساحة فلسطين خالية لعشرات من الإمارات أو الممالك الصغيرة، والتى أورد سفر يشوع أسماء أعداد كثيرة منها، وبعد خروج مصر، اعتبرت كلٌ منها نفسها مملكة مستقلة.

وكانت أقوى الممالك التى قامت مملكة البلست (الفلسطينيون) من شعوب البحر القادمين من جزر البحر المتوسط، وخاضوا معارك كثيرة ضد مصر فى عصر رمسيس الثالث، وانتهزوا بدورهم ضعف الدولة المصرية، واستوطنوا منطقة الساحل الغربى لفلسطين فى توقيت سابق بسنوات قليلة على دخول الإسرائيليين، الذين دخلوا من الشرق فى عصر يشوع، ثم لمدة طويلة تالية، لم يقترب الإسرائيليون من منطقة نفوذ الفلسطينيين.

وقد أتاحت جميع تلك العوامل السابقة ظروفاً تاريخية مناسبة، بل رائعة، لدخول بنى إسرائيل فلسطين، وعلى ضوء المعلومات التى وفرتها لهم وسائل التجسس، للواقع القائم - آنذاك - يمكن استنتاج أن ذلك قد تم على شكل موجات تسللت بداية إلى المناطق أو المدن التى تعرضت لنكسات عسكرية قديمة جعلتها غير مأهولة نسبياً بالسكان، وتفتقر إلى التحصينات الكافية لحمايتها (أريحا، عاى)، أو المناطق الضعيفة عسكرياً وتحتاج إلى حماية (جبعون) أو المواقع الجبلية غير المنيعة والمتناثرة السكان، وإن كان ذلك - حتماً - لم يخل من حدوث مواجهات مع سكان تلك المناطق أو جيرانهم الذين يخشون امتداد نفوذهم (تحالف ملوك الأموريين). ومع محاولات التوسع والامتداد إلى مناطق أخرى، أدى ذلك إلى حدوث مواجهات وحروب مع كثير من الممالك الصغيرة الموجودة وجميعها - كما أوضحنا - ذات إمكانات عسكرية محدودة، ومعظمها لم تكن مؤهلة بالقدر الكافى للدفاع عن نفسها، وبالتالى فإن القبائل الإسرائيلية لم تكن فى وضع يقل عن أى منها من حيث امتلاك القدر المناسب من الإمكانات سواء الاقتصادية أم العسكرية أم عدد المقاتلين أم نوعية التسليح. وقد كان بنو إسرائيل يملكون إمكانات اقتصادية لا بأس بها، وكان من أسباب تأخر خروجهم من مصر إصرارهم على الخروج بمواشيهم وأموالهم، التى - ولا شك - نمت وتضاعفت فى سنوات الرعى ما بين سيناء وممالك الأردن. ونرى لهذه الأسباب، أنه ليس من الإنصاف أن يجرد المؤرخون شعب إسرائيل من إمكانات مواجهة الممالك الكنعانية الضعيفة القائمة آنذاك والخارجة لتوها من تحت سيطرة النفوذ المصرى، فقد كانوا جميعاً فى ظروف وأحوال

متشابهة، إن لم يكن الإسرائيليون أكثر تفوقاً من كثير منهم - بل لا بد أنهم فعلاً كانوا كذلك - بسبب الإمكانات الاقتصادية، والاستعداد النفسى والعسكرى والتعبئة المعنوية والبدنية التى فرضتها عليهم سنوات الخشونة والشقاء فى الجبال والصحارى.

دخول الأرض المقدسة فى القرآن الكريم

يأتى القرآن الكريم مؤكداً دخول بنى إسرائيل فلسطين بعد الإبراء من سنوات التيه، وموضحاً أنه كان دخولاً ظالماً متجاوزاً يناقض عهد الله معهم ووصية موسى لهم، وهو الأمر الذى قد يقودنا إلى ارتكابهم أفعال انتقامية ظالمة غير مبررة ضد من كانوا فى موقف أضعف منهم أو ضد السكان الآمنين المستقرين العزل من أدوات القتال - وحسب روايتهم - فإن أياديهم قد تلوثت بقتل النساء والأطفال والشيوخ، حتى الحيوانات أيضاً لم تسلم منهم.

ونلاحظ عند الحديث عن آيات القرآن الكريم التى تحكى أمر الله لبنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وجود آيات فى سورة البقرة تشابهت إلى حد كبير فى المعنى واللفظ مع آيات أخرى فى سورة الأعراف. وقد ذهبت كتب التفسير القديمة والحديثة إلى أن التفسير فيهما واحد وأن المقصود فى آيات السورتين هو الدخول الذى حدث بقيادة يشوع. ومن ذلك الرأى تفسير ابن كثير، وتفسير فضيلة الإمام الأكبر د. محمد سيد طنطاوى لآيات سورة البقرة فى كتاب «بنو إسرائيل فى القرآن والسنة»، وكثير غيرها من كتب التفسير.

ولأسباب سأوضحها بعد عرض الآيات الكريمة، أرى أن القصد فيهما مختلف، ذلك أن آيات سورة البقرة تتصرف إلى أمر الله لهم بالدخول فى حياة موسى والذى نكلوا عنه، فى حين أن آيات سورة الأعراف هى التى تنصرف إلى الدخول الذى حدث فى عهد يشوع والذى تعدوا وظلموا فيه.

يقول الله تعالى فى سورة البقرة: **«وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)» [البقرة].**

ويقول تعالى عنهم فى سورة الأعراف:

«وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)» [الأعراف].

وسند تفسيرنا بانصراف قصد الله تعالى فى أمره لهم بدخول القرية فى سورة البقرة إلى فترة حياة موسى، أن تلك الآيات جاءت فى سياق عرض نعم الله عليهم والتى بدأت فى الآية

(٤٨) واستمرت طبقاً للتسلسل الزمنى لحدوثها إلى الآية (٦٠) على النحو التالى:

- نعمة تفضيلهم على العالمين.
- نعمة إنجائهم من فرعون.
- نعمة فرق البحر بهم وغرق عدوهم.
- نعمة عفو الله عنهم بعد عبادتهم للعجل.
- نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم.
- نعمة بعثهم من بعد موتهم بعد أن أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون؛ إذ طلبوا من موسى أن يروا الله جهرة.
- نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم.
- نعمة تمكينهم من دخول الأرض المقدسة.
- نعمة إغاثتهم بالماء فى الصحراء.

ونلاحظ من تسلسل العرض القرآنى المعاصرة الزمنية لحدوث نعم الله منذ إنجائهم من آل فرعون، وحتى إغاثتهم بالماء فى الصحراء لفترة حياة موسى، والآية السابقة مباشرة على أمر الله بدخول القرية هى آية تظليلهم بالغمام وإنزال المنَّ والسلوى عليهم، والذى استمر معاصراً لرحلتهم فى الصحراء مع موسى، والآية اللاحقة عليها مباشرة هى آية استسقاء موسى لقومه وانفجار اثنتى عشرة عيناً لمشربهم، وفى إطار هذا التسلسل لنعم الله التى عاصرت أحداثها حياة موسى. والذى يكاد يكون فى ترتيب زمنى - باستثناء نعمة التظليل بالغمام والمن والسلوى، فقد ظلت مواكبة لمراحل الرحلة أثناء فترة التيه - فمن ثم فإن التفسير لا يستوعب قطع هذا التسلسل وصرف آية أمر دخول الأرض إلى عهد يشوع، وإنما الصحيح استمراراً لترتيب حدوث نعم الله لهم على هذا الوضع فى سورة البقرة أن يكون أمر الله فى هذا الموضع حدث بعد خروجهم أثناء رحلتهم عندما طلب منهم موسى تنفيذ أمر الله بدخول الأرض المقدسة طائعين ساجدين شاكرين لله طالبين مغفرته، ولكنهم بدلوا قول الله لهم بسبب خوفهم وجبنهم ونكولهم، فعاقبهم الله على ظلمهم وعصيانهم أمر نبيهم برجز من السماء. وتجد آيات سورة البقرة تفسيرها وإيضاحها فى قول الله تعالى فى سورة المائدة: «**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)**» [المائدة].

وتأتى آيات التوراة لتفصل الرجز الذى نزل عليهم من السماء، والذى حدث تالياً لنكولهم

عن دخول الأرض، بأنه كان ابتلاء الشعب بوباء أهلك آلافاً منهم، ولم يتوقف إلا بعد أن استجاب الله لموسى. (سفر العدد - الإصحاح ١٦ الآيات من ٤١ : ٥٠). وفى طريقهم عندما عادوا لمعصية الله، واتجهوا إلى ممارسة رذيلة الزنا مع بنات مؤاب، وقبول دعوتهن للأكل من ذبائح آلهتهن والسجود لآلهتهن أصابهم الله بوباء آخر حصد آلافاً منهم (سفر العدد - الإصحاح:٢٥).

وطبقاً لتسلسل التوراة أيضاً فقد جاء استسقاء موسى لقومه فى برية صين (سفر العدد - الإصحاح العشرون) تالياً لرفضهم دخول فلسطين، بما يتفق مع تسلسل نعم الله الذى استندنا لترتيبه زمنياً فى آيات سورة البقرة.

كما يؤيد تفسيرنا أن الله تعالى استخدم الفعل «**ادخلوا**» فى آية سورة البقرة وآية سورة المائدة بما يفيد أنه أمر سابق على حدوث الدخول فعلا، فى حين أن الآيات المشابهة فى سورة الأعراف تستخدم الفعل «**اسكنوا**» بمعنى الاستقرار بسلام وسكينة، وهو يأتى بعد حدوث الدخول فعلاً والذى حدث بقيادة يشوع. وقد كان وعد الله لهم بأن يدخلهم الأرض المقدسة التى تفيض لبناً وعسلاً - حسب قولهم- ليسكنوها ويأكلوا من خيراتها أكلاً هنيئاً ذا سعة، وينعموا بعد سنوات الحرمان والشقاء، على أن يدخلوها ساجدين شكراً لله على ما أنعم به عليهم من فتح الأرض، متوسلين إليه سبحانه وتعالى بأن يحط عنهم ذنوبهم، ومقابل هذا الاعتراف بفضل الله ينتظرهم وعد آخر من الله بأن يغفر ذنوبهم ويكفر عن سيئاتهم، ويزيد المحسنين خيراً، لكنهم جحدوا نعم الله وبدلوا قوله، وخالفوا أوامره، ودخلوا الأرض جبارين ظالمين سفاكين للدماء، فعاقبهم الله مرة أخرى بأن أنزل عليهم جزاء ظلمهم عذاباً من عنده، فجعلهم لا يهنأون بالأرض التى دخلوها وعاشوا قبائل متفرقة، فى حروب دائمة مع سكان كنعان ومع القبائل الفلسطينية التى هاجرت من البحر فى زمن معاصر لدخولهم، ومروا بنكبات كثيرة، ولم يتمكنوا من إقامة دولة واحدة حتى عهد داود وسليمان، حسبما سوف تأتى به سنواتهم المقبلة.

ويمكن أن نلاحظ أيضاً انتهاء آيتى أمر الدخول فى سورة البقرة بعبارة «**بما كانوا يفسقون**»، وهو أكثر دلالة على ممارسة الفحشاء التى أقدم عليها شعب إسرائيل مع بنات مؤاب فى حياة موسى بعد نكولهم عن دخول فلسطين، فى حين أن آيتى سورة الأعراف انتهت بعبارة «**بما كانوا يظلمون**»، وهى أكثر دلالة على التجاوز فى الحرب وسفك دماء المسالمين العزل والأطفال والنساء والشيوخ والحرق بعد دخول الأرض المقدسة.

وقد جاءت الآيات متشابهة فى السورتين رغم الفاصل الزمنى فى أحداثهما، واختلاف نوع المعصية بياناً من الله سبحانه على إصرار هؤلاء القوم على تبديل قول الله لهم وارتكاب المعاصى فى كل وقت وأينما حلوا بأرض.

ثانيا: عصر القضاة

لم يتمكن يشوع من تكوين مملكة سياسية موحدة فى كنعان، ووزع الأراضى التى تمكنوا من إخضاعها أو دخولها على أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر.

ولكى تتضح الصورة كاملة فإن أرض كنعان تمثل المنطقة الممتدة من صحراء النقب وشمال سيناء جنوباً، إلى مرتفعات الجولان السورية وجنوب لبنان شمالاً، ومن نهر الأردن والبحر الميت شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً،

وكانت أكبر جماعة تعيش عليها هى جماعة الكنعانيين الذين سميت البلاد باسمهم، وكان هناك شعوب أخرى تشاركهم هذه الأرض مثل الآموريين والمؤابيين والأراميين واليبوسيين والمديانيين والعموريين والفرزيين وفلول الحيثيين. وكانت هناك أقوام كنعانية تعيش فى فينيقيا (لبنان) وسوريا. ومعظم هؤلاء الأقوام من أصل عربى سامى يرجع فى جذوره إلى الجزيرة العربية، ولم تكن كنعان فى ذلك التاريخ تعتبر وحدة سياسية واحدة، فهى تنقسم إلى عشرات من ممالك المدن والأقاليم المتفرقة، وكانت تخضع للنفوذ المصرى الذى بدأ يتقلص ويتلاشى حتى انتهى تماماً بعد سنوات قليلة من بداية القرن الثانى عشر ق.م، فأصبحت كل مملكة أو إقليم تعتبر نفسها مملكة مستقلة.

وقبل دخول بنى إسرائيل كان قد وصل الفلسطينيون - وهم من شعوب البحر التى تنتمى إلى جزر البحر المتوسط - واستوطنوا منطقة السهل الساحلى وسرعان ما اندمجوا واختلطوا مع الأقوام الكنعانية، وفى مرحلة تالية اتجهوا إلى ضم صحراء النقب فى الجنوب وجبال البحر الميت فى الشرق، وعند هذه المرحلة حدث اصطدامهم بالقبائل الإسرائيلية التى استقر بها المقام فى الهضاب الشرقية دون تحصينات أو تنظيم.

وكان يشوع فى حياته هو الذى يجمع القبائل الإسرائيلية باعتباره القائد ورجل موسى الذى عبر بهم إلى الأرض المقدسة. وبعد موت يشوع تفرقت وحدة بنى إسرائيل الذين خرجوا

من مصر، فلم يضع يشوع لهم تنظيماً سياسياً يجمعهم، واضطروا إلى الاختلاط مع سكان كنعان، بل إن الأمر وصل إلى أنهم عبدوا آلهتهم، وفى ظل هذه الأزمات كان لا بد من قيادة أو سلطة سياسية أو دينية تجمع شعب إسرائيل، وتحاول تخليصهم من الضلال وردهم إلى الصواب وأيضاً حمايتهم من أعدائهم، وتنبه لذلك عدد من الزعماء المحليين لبنى إسرائيل كانوا جميعاً من المحاربين الأشداء فأخذوا على عاتقهم الدفاع عن الكيان المهدد وهم الذين يسمون فى التاريخ الإسرائيلى القضاة.

ويبدأ عصر القضاة بموت يشوع بن نون، وهم ليسوا قضاة فقط، بمعنى التشريع الدينى وتولى أمر القضاء، وإنما هم طبقة من زعماء المحاربين الذين حاولوا قيادة بنى إسرائيل، وكانت سلطتهم محدودة من حيث المدى والمدة، فهى أشبه بسلطة زعماء النظام البدوى، ولم يستطع أى واحد منهم أن يبسط سلطانه على جميع بنى إسرائيل، فكل واحد من هؤلاء الحكام أو الشيوخ كان يتسلم قيادة مجموعة واحدة، وتزامن منهم أكثر من واحد فى وقت واحد، وأحياناً تكون مدة قيادته مرتبطة بالتهديد المباشر الذى تمر به المجموعة، فإذا ما كتب له النصر لم يحتفظ بتلك القيادة.

ويقدم «سفر القضاة» فى العهد القديم تفصيلاً واضحاً وصريحاً لحالة بنى إسرائيل بعد موت يشوع، نتخير بعض المواضع منه لبيان أوضاعهم فى تلك المرحلة الزمنية:

«وعبد الشعب الرب كل أيام يشوع وكل أيام الشيوخ الذين طالت أيامهم بعد يشوع الذين رأوا كل عمل الرب العظيم الذى عمل لإسرائيل، ومات يشوع... وكل ذلك الجيل أيضاً انضم إلى آبائه وقام بعدهم جيل آخر لم يعرف الرب ولا العمل الذى عمل لإسرائيل.

وفعل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم، وسجدوا لها وأغاظوا الرب، وتركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت. فحمى غضب الرب على إسرائيل فدفعهم بأيدى ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم حولهم، ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام أعدائهم. حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر كما تكلم الرب، وكما أقسم الرب لهم.

فضاق بهم الأمر جداً. وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم».

«وحينما أقام الرب لهم قضاة كان الرب مع القاضى وخلصهم من يد أعدائهم كل أيام القاضى؛ لأن الرب ندم من أجل أنينهم بسبب مضايقيهم وزاحميهم. وعند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة خرى ليعبدوها ويسجدوا لها. لم يكفوا عن أفعالهم وطريقهم القاسية. فحمى غضب الرب على إسرائيل، وقال من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدى الذى أوصيت به آباءهم ولم يسمعوا لصوتى. فأنا أيضاً لا أعود أطرد إنساناً من أمامهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته لكى أمتحن بهم إسرائيل». [سفر

القضاة الإصحاح الثانى].

«فسكن بنو إسرائيل فى وسط الكنعانيين والحيثيين والآموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا آلهتهم، فعمل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والسوارى» (القضاة - الإصحاح* الثالث ٥ : ٨).

ويذكر سفر القضاة أنه لأجل أفعالهم باعهم الرب ليد الأمم الأخرى، ولم يكن يخلصهم سوى قيام القضاة عليهم، فتستريح الأرض مدة حياتهم، ثم يعودون لارتكاب الشر مرة أخرى وهكذا، وأحياناً مرَّت فترات دون قيام قضاة بينهم، «لم يكن ملك فى إسرائيل، وكان كل واحد يعمل ما يحسن فى عينيه».

ويقدم العهد القديم تفصيلاً بأسماء نحو خمسة عشر قاضياً قاموا فى قبائل بنى إسرائيل وسطر سيرتهم وأحوالهم وحروبهم، والمدة الزمنية لكل منهم. وبصفة عامة يستدل منه أن عصرهم كان من العهود السيئة لبنى إسرائيل، ففيه انتشرت بينهم الرذائل والمنكرات، إذ عبدوا الأصنام وقتلوا المصلحين، وفشا فيهم الزنا، وتعرضو ا لنكبات وغارات، وغزتهم ممالك أخرى. وقد حاول القضاة ما استطاعوا إنقاذهم من تلك الفتن، لكن كان الأمر أقوى من قدراتهم المحدودة بسبب انعدام السلطة المركزية الموحدة، والجهاز الإدارى والتنفيذى المنظم والرادع، وحياتهم على شكل قبائل متفرقة لا يصل إليها جميعها نفوذ القاضى القائم، وتأثرهم بسلوكيات المجتمعات المخالطة لهم.

وفى ذلك العهد حدثت حرب أهلية طاحنة بين بنى بنيامين وباقى قبائل إسرائيل حصدت الآلاف، وعند مرحلة كاد فيها بنو بنيامين أن يهلكوا وينتهى سبط من إسرائيل، عاد بنو إسرائيل وندموا على بنيامين أخيهم، وبكوا بكاء عظيما، وأرسلت الجماعة وكلمت بنى بنيامين واستدعتهم إلى الصلح. (سفر القضاة - الإصحاحان العشرون والحادى والعشرون)

وقد حدثت أولى المعارك الكبيرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين فى آخر أيام «عالى» الكاهن الذى كان قاضياً لإسرائيل فى «شيلوه» لمدة ٤٠ سنة.

وقد كان الإسرائيليون يدركون مدى قوة الفلسطينيين الذين أقاموا مملكة موحدة على الساحل ويملكون جيشاً قوياً، ولهم الكلمة العليا فى كنعان، بفضل تفوقهم فى السلاح، والذى يرجع إلى براعتهم فى صناعة الحديد، وصنع الأسلحة، فكانوا يستعملون العجلات الحربية والتروس الضخمة المستديرة والسيوف العظيمة والرماح القوية، ركانت مواجهة هذه القوة أكبر من إمكانات القبائل الإسرائيلية المتفرقة فى منطقة الجبال الشرقية، ويعتمدون على الأسلحة التقليدية التى تمكنهم فقط من الدفاع عن أنفسهم أو مواجهة الممالك الأخرى الصغيرة والمنتشرة حولهم، لذلك فإنهم ومنذ أن حلوا بهذه الأرض كانوا يخشون الفلسطينيين، ولم

يحاولوا الاقتراب من مناطق نفوذهم.

وبالتأكيد فإن زمام المبادرة لهذه المعركة بدأ من الفلسطينيين، ووقعت المعركة فى بلدة «أفيق» (مكانها الآن تل المخمر، قرب رأس العين، وتبعد ١٥ كيلومتراً شرق حيفا)، وتقع فى شمال المناطق الإسرائيلية فى مكان موات للهرب إلى جبال وسط فلسطين التى ترتفع شرق أفيق، وتؤدى إلى المنطقة التى يشغلها سبطا أفرايم وبنيامين. وفى الاشتباك الذى وقع فى الجولة الأولى من المعركة حدث ما كان يخشى منه الإسرائيليون؛ ذلك أنهم انكسروا أمام عدوهم والذى قتل منهم أعداداً كثيرة فانسحبوا، وفكر شيوخهم أن النصر لن يتحقق لهم إلا عن طريق عون إلهى، فأحضروا من معبد «شيلوه» تابوت عهد الرب الذى يحوى الكتاب المقدس ووصايا الرب التى نزلت على موسى فى جبل سيناء، أملاً فى أن يؤدى وجود التابوت بينهم فى المعركة إلى تحالف القبائل الإسرائيلية وشد أزرهم، ويحدث فى نفوسهم تأثيراً معنوياً قوياً، ويؤيدهم الله بالنصر، وحدث فعلاً أنه عند دخول التابوت أرض المعركة هتف جميع بنى إسرائيل هتافاً عظيماً ارتجت له الأرض. لكن هذا التصرف جاء برد فعل عكسى، ذلك أنه أرعب الفلسطينيين فتشددوا جداً وحاربوا بضراوة عظيمة، وانتهت المعركة بانتصار كبير لهم، وانكسر الإسرائيليون وهربوا، وكانت الضربة عظيمة جداً عليهم، فسقط منهم ثلاثون ألف رجل، وقتل فى المعركة ابنا الكاهن «عالى»، وأخذ الفلسطينيون منهم تابوت الله، وعندما وصل إلى الكاهن «عالى» خبر مقتل ابنيه، والاستيلاء على تابوت الله سقط ومات فى الحال، وكان عمره ثمان وتسعين سنة (صموئيل الأول - الإصحاح الرابع).

وفى تأكيد من الفلسطينيين لفرض سيادتهم دمروا معبد «شيلوه»، وهو المعبد الرئيسى الذى كان يحفظ التابوت ويجمع القبائل الرئيسية جميعاً، وأقاموا ثكنات عسكرية فى المناطق الإسرائيلية، ونزعوا سلاح إسرائيل، ومنعوهم من صناعة الأسلحة، بل أكثر من ذلك تحرم عليهم إقامة أى صناعة معدنية، ولم يعد يوجد صانع فى كل أرض إسرائيل، حتى الآلات الزراعية السلمية كان يجب عليهم أن يطلبوا ما يحتاجونه منها من الفلسطينيين. (صموئيل الأول - الإصحاح الثالث عشر من ١٩ : ٢٢).

القاضى النبى صموئيل

بعد وفاة الكاهن «عالى» كان صموئيل هو آخر قضاة بنى إسرائيل قبل قيام الملكية. وصموئيل من سبط أفرايم بن يوسف، كانت أمه وتدعى «حنة» عاقراً، وكان لأبيه أولاد من زوجة أخرى، فصلّت «حنة» إلى الله وبكت بكاء ليعطيها ابناً ونذرت أن تعطيه للرب كل أيام حياته فوهبها صموئيل، وفى صباه قدمته إلى الكاهن «عالى» ليخدم الرب فى معبد «شيلوه»، وكان بنو «عالى» الكاهن يرتكبون الموبقات والمفاسد ويحصلون على رشاوى من الشعب

ويضاجعون نساء إسرائيل الذاهبات إلى المعبد، ولم يسمعوا لنصيحة أبيهم بترك خطاياهم والصلاة، أما الصبى صموئيل فتزايد نمواً وصلاحاً لدى الرب والناس أيضاً، فكان أن دعاه الله، وبعثه نبياً لبنى إسرائيل، وأخبر «عالى» برؤية الله له، فقال له: إن الرب يعمل ما يحسن فى عينيه. وعرف فى جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع أن صموئيل أصبح نبياً للرب.

وبعد وفاة الكاهن «عالى» أصبح صموئيل قاضياً لإسرائيل، وقد تولى الأمر وإسرائيل منكسرة بسبب الهزيمة من الفلسطينيين، وفقدانهم تابوت الله، فذهب يدعو فى كل أنحاء القبائل، ويصلى إلى الله ليخلصهم من يد الفلسطينيين وأتت دعوة صموئيل ثمارها، فاستجاب الله له، وقاد النبى رجال إسرائيل لمحاربة الفلسطينيين فأعانه الله، تقول التوراة:

«فذل الفلسطينيون ولم يعودوا بعد للدخول فى تخم إسرائيل، وكانت يد الرب على الفلسطينيين كل أيام صموئيل، والمدن التى أخذها الفلسطينيون من إسرائيل رجعت إلى إسرائيل من عقرون إلى جت، واستخلص إسرائيل تخومها من يد الفلسطينيين. وكان صلح بين إسرائيل والأموريين». (صموئيل الأول - الإصحاح السابع ١٣، ١٤).

وأقصى ما يمكن أن يفيده هذا القول هو أن الفلسطينيين بعد أن أحكموا سيطرتهم على القوة الإسرائيلية، وقلموا قدراتها العسكرية، وكبحوا جماحها ورغبتها فى التوسع ومد الاستيطان، فإنهم لم تتعد أطماعهم هذا الحد وتركوهم يعيشون شأنهم فى ذلك شأن الممالك الصغيرة، والشعوب الأخرى التى تعيش على أرض كنعان، حسبما تؤكده الأحداث التالية.

ثالثاً: عصر الملكية الإسرائيلية... (شاؤل - داود - سليمان)

كانت هزيمة إسرائيل من الفلسطينيين من أهم العوامل التى دعت إلى ضرورة قيام مملكة إسرائيلية موحدة تجمع القبائل الإسرائيلية المتفرقة تحت لواء واحد، وقد كانوا يعيشون بين أقوام يحكمون بملوك ولم يكفوا عن الإغارة على حدود إسرائيل. وقد رأينا كيف أن القضاة الذين قاموا بينهم لم يكن واحد منهم بقادر على أن يبسط سلطانه على كل بنى إسرائيل، وإنما كان يتولى ليواجه ضائقة، فإذا ما انتهت تنتهى مهمته، فيما عدا حالات قليلة، استمر فيها عملهم، وقد مرت فترات لم يكن فيها قضاة للشعب.

وعندما تقدم صموئيل فى العمر، وإزاء التهديد الخارجى، والاضطراب الداخلى، بدأت فكرة الملكية تتبلور بين شيوخ إسرائيل، فعقدوا اجتماعهم، واتفقوا، ثم جاءوا إلى صموئيل فى مقر إقامته فى «الرامة» وطلبوا منه أن يجعل عليهم ملكاً كسائر الشعوب.

فى البداية ساء الأمر فى عينى صموئيل، وصلى إلى الرب، ثم جاءه أمر الله، أن اسمع لصوت الشعب، وملك عليهم ملكاً. (صموئيل الأول - الإصحاح الثامن).

١- شاؤل(طالوت)

استجاب صموئيل لطلب الشعب واختار شاؤل (طالوت فى القرآن الكريم)، فكان أول ملك على بنى إسرائيل، ويصف الإصحاح التاسع من سفر صموئيل أسباب اختيار شاؤل ملكاً، فيذكر أنه كان شاباً حسناً، ولم يكن رجل فى بنى إسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق أطول من كل الشعب، وفى حقيقة الأمر فإنه كان اختيار الله «والرب كشف أذن صموئيل قبل مجىء شاؤل بيوم قائلاً غداً فى مثل الآن أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين، فامسحه رئيساً لشعبى إسرائيل فيخلص شعبى من يد الفلسطينيين لأن نظرت إلى شعبى لأن صراخهم قد جاء إلى. فلما رأى صموئيل شاؤل أجابه الرب هو ذا الرجل الذى كلمتك عنه. هذا يضبط شعبى» (صموئيل الأول - الإصحاح التاسع - ١٥ : ١٨).

كان شاؤل من سبط بنيامين، أصغر قبائل بنى إسرائيل وهى إحدى قبائل الجنوب، الذين ظلوا متمسكين بحياة البداوة والرعى، من أسرة فقيرة يعيش فى خيمة فى بلدة «جبعة»، (حاليا تل الفول ٧كم شمال القدس)، ولم يقبله القوم ملكاً إلا بعد أن أخبرهم صموئيل بأن الله هو الذى اصطفاه عليهم.

كان أول عمل قام به شاؤل - قبل تتويجه ملكاً - هو زحفه بالجيش على العمونيين الذين كانوا قد فرضوا نفوذهم على «يابيش جلعاد» وهى الأرض التى تقيم فيها قبيلة منسى، وأحرز شاؤل نصراً باهراً وخلص يابيش.

وبعد هذه المعركة دعا صموئيل الشعب إلى «الجلجال»، وتم تتويج شاؤل ملكاً على إسرائيل، وتنازل صموئيل عن وظيفته كقاض، لتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ إسرائيل كدولة.

حكم شاؤل كشيخ بدوى من شيوخ القبائل البدوية، واستمر يعيش من عمله فى حقله الخاص، ولم يتخذ لنفسه قصراً أو بلاطاً أو حاشية، وسريعاً شرع بمساعدة ابنه يوناثان، فى توحيد القبائل تحت زعامته لمحاربة الفلسطينيين، ونجح فى تجميع عدد من رجال إسرائيل فى الجلجال، وكان رد فعل الفلسطينيين ثم رد الفعل المعاكس - حسبما يذكره العهد القديم - «وتجمع الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل. ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس، وشعب كالرمل الذى على شاطئ البحر فى الكثرة. وصعدوا ونزلوا فى مخماس شرقى بيت آون. ولما رأى رجال إسرائيل أنهم فى ضنك. لأن الشعب تضايق اختبأ الشعب فى المغارات والغياض والصخور والصروح والآبار، وبعض العبرانيين عبروا الأردن إلى أرض جاد وجلعاد. وكان شاؤل بعد فى الجلجال وكل الشعب ارتعد وراءه» (صموئيل الأول - الإصحاح الثالث عشر ٥ : ٧).

ومما زاد الطين بلة أن الرجال الذين بقوا للقتال مع شاؤل لم يكن معهم سلاح؛ لأن الفلسطينيين سبق وأن جردوا الإسرائيليين من أسلحتهم ومنعوهم من صنع أسلحة بعد هزيمتهم فى «أفيق».

ورغم كل هذه الظروف السيئة يذكر العهد القديم أن يوناثان بدأ الضربة الأولى ضد الفلسطينيين وقتل منهم عشرين رجلاً، وأن بعض الرجال الذين هربوا عادوا إلى شاؤل وأنهم تمكنوا من ضرب الفلسطينيين.

وحسب رواية العهد القديم حارب شاؤل جميع أعدائه حواليه مؤاب وبنى عمون وأدوم وملوك صوبة والفلسطينيين وحيثما توجه غلب. كما ضرب مدينة عماليق. (صموئيل الأول - الإصحاح الرابع عشر).

وفى تصرف غريب يحكى العهد القديم أن النبى صموئيل طلب من شاؤل أن يضرب عماليق ولا يعف عن أى منهم بل يقتل الكل رجلاً وامرأة وطفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً. جملاً وحماراً. فذهب شاؤل بجيش كبير وضرب عماليق، وأمسك «أجاج» ملك عماليق حياً وأعدم جميع الشعب بحد السيف. وعفا شاؤل عن أجاج، وعن خيار الحيوانات بقصد أن يقدمها قرباناً للرب، وأعدموا كل الأملاك المحتقرة والمهزولة. ونتيجة لهذا التصرف أخبر الرب صموئيل أنه ندم على أن جعل شاؤل ملكاً، لأنه لم يقم كلامه، قاصداً عفوه عن ملك عماليق وترك الحيوانات، فبكر صموئيل للقاء شاؤل وأبلغه بغضب الرب عليه، كما صب صموئيل غضبه على شاؤل، وبشّره بتمزق مملكة إسرائيل عنه وأن الله يعطيها لمن هو خير منه. «وقال صموئيل قدموا إلى أجاج ملك عماليق. فذهب إليه أجاج فرحاً. وقال أجاج حقاً قد زالت مرارة الموت. فقال صموئيل كما أثكل سيفك النساء كذلك تثكل أمك بين النساء. فقطع صموئيل أجاج أمام الرب فى الجلجال. وذهب صموئيل إلى الرامة. أما شاؤل فصعد إلى بيته فى جبعة شاؤل. ولم يعد صموئيل لرؤية شاؤل إلى يوم موته لأن صموئيل ناح على شاؤل والرب ندم لأنه ملك شاؤل على إسرائيل» [صموئيل الأول - الإصحاح الخامس عشر ٣٢ : ٣٥].

وقطعاً فإن هذه القصة مختلقة فليست هذه أخلاق نبى ولا هذه الوصايا البشعة قول الله. لكن المثير للغرابة والاشمئزاز كيف أن الكاهن الذى كتب هذا الدنس تجرأ على الله ونبى الله بهذه الصورة، وكيف اعتقد أنه قد يوجد من يمكن أن يقتنع بصحتها؟

ويحكى القرآن الكريم بأسلوبه البليغ ما كان من شأن بنى إسرائيل مع هذا النبى الكريم وقصة اختياره طالوت ملكاً عليهم بما يكفل للنبى والملك قدرهما واحترامهما وطاعتهما لله وحسن الاختيار، وتأييد ملكه بآية إلهية وهى رد تابوت الله الذى يحمل رسالة موسى وهارون، والذى سلبه منهم الأعداء، لتقر به نفوس بنى إسرائيل.

يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)» [البقرة].

ونأخذ من هذه الآيات:

١- أن الخروج من الديار الذى تذكره الآية الكريمة يوضح إحدى أهم نتائج الهزيمة من الفلسطينيين فى معركة «أفيق».

٢- أن سبب اختيار طالوت ملكاً أنه أكثر علماً وأقوى جسماً، وقد أشارت التوراة إلى هيئته الجسمانية فقط.

٣- كانت آية ملك طالوت هو رد التابوت الذى يحوى الكتب المقدسة التى تركها آل موسى وآل هارون. وكان التابوت قد فقد منهم فى معركة «أفيق»، وقد ذكرت التوراة أن الفلسطينيين كانوا قد أعادوا التابوت بأنفسهم إلى الإسرائيليين بعد أن أصابهم شر كبير وانتقام من الله فى أنفسهم ومعابدهم بسبب وجود التابوت معهم. وقد ظل فى بلادهم سبعة أشهر. (صموئيل الأول - الإصحاحان الخامس والسادس).

ثم عاد كتبة التوراة وذكروا فى بداية الإصحاح السابع أن مدة فقد التوراة طالت وكانت عشرين سنة.

وقد جاءت الآية الكريمة فى القرآن الكريم لتكشف أن تابوت الله قد ظل فى حوزة الفلسطينيين منذ انتصارهم فى «أفيق» وحتى أعاده الله بمعجزة إلهية فى بداية ملك طالوت.

٤- استخدام القرآن الكريم لتعبير «بقية مما ترك آل موسى وآل هارون» قد يعنى أن التابوت كان يحوى أيضاً صحف إبراهيم وتاريخ إسحاق ويعقوب ويوسف، بالإضافة إلى التوراة ووصايا موسى.

نهاية شاؤل (طالوت)

جمع الفلسطينيون قواتهم فى أفيق - مرة أخرى - لمحاربة الإسرائيليين، وتقدموا نحو الشمال عن طريق السهل الساحلى إلى سهل يزرعيل، عند سفح جبل جلبوع، حيث نزل الإسرائيليون ونجح الفلسطينيون فى أن يمنعوا شاؤل من أن يجمع قواته كلها، ويستدل من عدة مظاهر فى العهد القديم أن شاؤل كان يائساً من النصر قبل أن يبدأ القتال.

ودارت المعركة على جبل جلبوع، وانتهت سريعاً بهزيمة ساحقة للإسرائيليين، وتصور

التوراة نهاية شاؤل وبنيه وآثار الهزيمة كالتالى:

«وحارب الفلسطينيون إسرائيل فهرب رجال إسرائيل من أمام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبل جلبوع. فشد الفلسطينيون وراء شاؤل وبنيه وضرب الفلسطينيون «يوناثان» و«أبيناداب» و«ملكيشوع» أبناء شاؤل. واشتدت الحرب على شاؤل فأصابه الرماة فانجرح جداً. فقال شاؤل لحامل سلاحه استل سيفك واطعنى به لئلا يأتى هؤلاء الغلف ويطعنونى ويقبحونى. فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جداً. فأخذ شاؤل السيف وسقط عليه. ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاؤل سقط هو أيضاً على سيفه ومات معه. فمات شاؤل وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله فى ذلك اليوم معاً. ولما رأى رجال إسرائيل الذين فى عبر الوادى والذين فى عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شاؤل وبنيه قد ماتوا تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينييون وسكنوا بها» [صموئيل الأول - الإصحاح الحادى والثلاثون من ١ :٧].

ثم تكمل التوراة أن الفلسطينيين مثلوا بجثة شاؤل، وصلبوا جسده على سور بيت شان (بيسان)، وأن سكان من يابيش جلعاد الإسرائيليين تسللوا ليلاً، وأخذوا جثة شاؤل وبنيه وجاءوا بهم إلى «يابيش» وأحرقوهم ودفنوا عظامهم هناك.

وفى عهد داود نسبت إليه التوراة أنه أخذ عظام شاؤل ويوناثان والمصلوبين معه ودفنوها فى أرض بنيامين فى قبر قيس أبيه. (صموئيل الثانى - الإصحاح الحادى والعشرون - ١٢ : ١٤).

وليس بالضرورة أن تكون قصة انتحار شاؤل، ثم حامل سلاحه، صحيحة على النحو الذى صورته التوراة ويمكن أن يكون قد قتل فى المعركة، ورأى من كتب نهايته أو من روى قصة مصرعه فى الحرب ألا يجعلها على يد الفلسطينيين فصورها على هذا النحو.

وتجدر هنا الإشارة أن الذين كتبوا العهد القديم وقعوا فى تناقض ربما كان سببه تعدد الروايات، ذلك أنهم فى سفر صموئيل الثانى - الإصحاح الأول، يحكى رجل عماليقى لداود أنه شاهد شاؤل فى المعركة يتوكؤ على رمحه والمركبات والفرسان وراءه، فدعا هذا العماليقى أن يقتله لأنه قد اعتراه الدوار فقتله وأخذ الإكليل الذى على رأسه والسوار الذى على ذراعه، فأمر داود بقتل هذا الرجل، ورثا داود شاؤل ويوناثان ابنه بقصيدة حزينة عبر فيها عن عميق حبه لهما وحزنه على وفاتهما.

وعموماً فإن تفاصيل حياة شاؤل فى التوراة بعد ظهور داود فى حياته يشوبها كثير من المزاعم، والتحامل عليه، ويعكس الهوى اليهوذى لصالح منافسه وخليفته داود، والانحياز ضد الحكم الملكى، وتأكيد نفوذ صموئيل النبى عليه أثناء حكمه، ولم نشأ أن نتعرض لكثير من قصص ذلك الصراع لخروجها عن مجال البحث ولجنوحها كثيراً إلى خيال الأساطير أو

الحكايات الشعبية.

ومن المناسب أن نشير إلى أنه تم اكتشاف بقايا قلعة لشاؤل فى تل الفول، تبعد ثلاثة أميال إلى الشمال من القدس، وبواسطة الفخار الذى وجد أمكن تأريخ عصر شاؤل (١٠٢٠ - ١٠٠٠ق.م).

٢- داود

«أنت تأت إلى بسيف وبرمح وبترس، وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيرتهم. هذا اليوم يحبسك الرب فى يدى فأقتلك».

«فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل. وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلص الرب لأن الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا».(صموئيل الأول - الإصحاح السابع عشر ٤٥ : ٤٧).

بهذه الكلمات وخمسة أحجار ومقلاع تمكن الغلام الأشقر الجميل داود من قتل المبارز العملاق جالوت جبار فلسطين. وكانت هذه الواقعة بداية طريقه ليرتفع فوق عرش إسرائيل.

وتحكى التوراة فى هذه القصة أن الفلسطينيين جمعوا جيوشهم للحرب فاجتمعوا فى «سوكوه» بأرض يهوذا. واجتمع شاؤل ورجال إسرائيل ونزلوا فى البطم، واصطفوا للحرب للقاء الفلسطينيين. وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل ويواجههم الإسرائيليون على جبل آخر والوادى بينهم، ثم خرج مبارز عملاق من جيوش الفلسطينيين اسمه «جليات» (جالوت فى القرآن الكريم) مرتدياً لباس الحرب ويحمل أدوات القتال وحامل ترسه يمشى قدامه، وتحدى الإسرائيليين أن يختاروا رجلاً لمنازلته، ولما سمع شاؤل وجميع إسرائيل كلام الفلسطينى ارتاعوا وخافوا جداً.

وتذكر التوراة أن الفلسطينى ظل على هذه الحال يتقدم ويقف صباحاً ومساء أربعين يوماً، ولم يجد من يتقدم لمنازلته.

وكان داود غلاماً صغيراً، تصفه التوراة بأنه أشقر حلو العينين حسن المنظر يجيد الضرب بالعود، وهو من سبط يهوذا وجدته لأبيه امرأة مؤابية اسمها راعوث، وكان يرعى الغنم لأبيه فى بيت لحم، وقد أتى وسمع كلام الفلسطينى وقرر أن يقتله ويزيل العار عن إسرائيل، فأخذ عصاه وانتخب له خمسة أحجار ملس من الوادى وجعلها فى جرابه ومقلاعه بيده وتقدم نحو الفلسطينى، ولما نظر الفلسطينى ورأى داود استحقره ولعن إلهه، فتحداه داود باسم الرب وأسرع وركض وأخذ حجراً من جرابه ورماه بالمقلاع، فأصاب الفلسطينى فى جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض، فركض داود وأخذ سيف الفلسطينى وقطع به رأسه. فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا، فقام رجال إسرائيل ويهوذا وهتفوا ولحقوا

الفلسطينيين وأسقطوا منهم قتلى وأخذوا غنائم، وأخذ داود رأس الفلسطينى وأتى به إلى أورشليم. (صموئيل الأول - الإصحاح السابع عشر).

ويجدر أن نشير أننا فى عرض القصة السابقة حاولنا أن ننقيها من كثير من الخيال الشعبى الذى أحاط بها ووصل بها إلى درجة الأساطير، وباستثناء مدة الأربعين يوماً التى ظل جالوت واقفاً فيها، فإننا - على النحو الذى عرضناه - نتفق مع حدوث تلك الواقعة؛ لأن القرآن الكريم قد أكد حدوثها ولم يكن بطلها داود بمفرده، وإنما شاركه الانتصار فئة قليلة من بنى إسرائيل كانت لا تزال خلف طالوت، دخلوا المعركة وهم يظنون أنهم سوف يلاقون وجه الله فهزموا أعداءهم بإذن الله.

يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

«فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)» .

وتذكر التوراة أن داود بعد قتله لجالوت ملأ أعين الناس وعقولهم فأحبوه وتقربوا منه، وزوّجه شاؤل ابنته واستخدمه فى بعض أموره وجعله على رجال الحرب فحسن عمله، وربطت بين داود وبين يوناثان بن شاؤل صداقة قوية، والغريب أن الرواية بعد ذلك تضيف أن داود اضطر لأن يهاجر إلى أرض الفلسطينيين بسبب النزاع الذى وقع بينه وبين شاؤل، وهى تلك الفترة التى كثف فيها الفلسطينييون غاراتهم على الإسرائيليين، والتى انتهت بقتل شاؤل وثلاثة من أبنائه، وهزيمة الإسرائيليين فى معركة جبل جلبوع.

وقد ذكرنا سابقاً مع شاؤل أننا نستبعد حكايات نزاعه مع داود؛ لأن تصوير العهد القديم لها يميل إلى الخيالات والحكايات الشعبية، فضلاً عن أنها لا تليق بالنبى الكريم داود، ولا بطالوت ذلك الرجل الذى قال عنه الله - تعالى - إنه اصطفاه على قومه وزاده بسطة فى العلم والجسم.

والذى يتفق مع القرآن الكريم وأحداث التاريخ أنه بعد موت شاؤل، تولى داود ملك بنى إسرائيل، وفى ذلك تحكى التوراة أنه فى حوار بينه وبين الله - بعد موت شاؤل - سأل الرب أن يعود إلى وطنه، فقال له اصعد إلى حبرون، وهذا الحوار مع الرب يفيد إقرار التوراة له بالنبوة قبل توليه الملك، وقد صعد داود والرجال الذين معه إلى حبرون، وأتى رجال يهوذا

ونصبوا داود ملكاً على بيت يهوذا، وكان عمره ثلاثين سنة، فحكم فى حبرون على بيت يهوذا فقط لمدة سبع سنين، وستة أشهر، وفى هذا الوقت تمكن رئيس جيش شاؤل - الذى كان قد فر من معركة جبل جلبوع - من أن يجعل «إيشبوشث بن شاؤل» ملكاً على إسرائيل (صموئيل الثانى - الإصحاح الثانى).

وتمر مرحلة صراع بين داود وبين بيت شاؤل تنتهى بقتل «إيشبوشث» غدراً، فى بيته وهو مضطجع على سريره، - دون علم داود وعلى غير رغبته - وعندما قدم الرجلان اللذان قتلاه رأسه لداود، غضب من فعلهما، وأمر بقتلهما. ودفن رأس «إيشبوشث» فى حبرون «صموئيل الثانى - الإصحاح الرابع).

وبعد أن أصبحت إسرائيل بدون ملك، جاء جميع شيوخ أسباط إسرائيل، إلى حبرون ونصبوا داود ملكاً على جميع إسرائيل، ونقل عاصمة ملكه إلى أورشليم وحكم منها ثلاثاً وثلاثين سنة، فكانت مدة جميع ملكه أربعين سنة، يقول الله تعالى فى القرآن الكريم:

«**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** (٢٠)» [ص]، فقد أعطاه الله المُلك القوى، والنبوة وكمال العلم وإتقان العمل ورجاحة الرأى.

فكان داود خلال فترة حكمه محارباً، واستطاع تحقيق انتصارات على الفلسطينيين والمؤابيين والعمونين والآراميين والأدوميين.

كما استطاع داود أن يخلص قومه من طغيان الفلسطينيين عليهم وحقق لهم الاستقلال التام، وأقام دولة لإسرائيل على مساحة كبيرة من أرض كنعان، ذهبت التوراة إلى أنها كانت تمتد من دان فى الشمال (حاليا تل القاضى وتقع عند سفح جبل حرمون حيث منابع نهر الأردن) إلى بئر سبع الحالية فى الجنوب، ولم تشر التوراة إلى حدود إسرائيل من الغرب إلى الشرق. إلا أنه يستفاد من روايات التوراة عن علاقات داود بجيرانه وحروبه مع الفلسطينيين أن دولة داود لم تمتد إلى أى موقع فى مناطق الفلسطينيين الساحلية، ولا فى الجليل بشمال فلسطين بخلاف موقع صغير عند تل القاضى، ولا فى صحراء النقب فى الجنوب. أى أن دولته لم تشمل جميع فلسطين.

وعن حياته الشخصية تذكر التوراة أن داود اتخذ لنفسه سرارى ونساء من أورشليم بعد مجيئه من حبرون فولد له بنون وبنات.

ونسب كتبة التوراة أموراً شائنة لداود فى حياته، وأيضاً لبعض أبنائه - وحاش لله أن تصدر من نبى كريم - ونتخير هنا قصة زواج داود من «بثشبع بنت أليعام» امرأة «أوريا» الحثى، ذلك أن تصوير التوراة لها وصل إلى حد اتهام داود بارتكاب جرائم الزنا والغدر والتحريض على القتل، ثم جاء القرآن الكريم واضعاً الحدود الحقيقية لها.

تقول التوراة: إن داود أرسل يوآب - قائد الجيش - وعبيده وجميع إسرائيل لمحاربة بنى

عمون، وبقى فى أورشليم «وكان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثى. فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنى حبلى. فأرسل داود إلى يوآب يقول: أرسل إلى أوريا الحثى. فأرسل يوآب أوريا إلى داود. فأتى أوريا فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا انزل إلى بيتك واغسل رجليك. فخرج أوريا من بيت الملك، ونام على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته»، كان قصد داود من استدعاء الرجل من جبهة القتال أن يعاشر امرأته فيخدع ويظن أن حبلها كان منه، لكن الرجل رفض النوم مع امرأته وقال لداود: «إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام وسيدى يوآب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتى إلى بيتى لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتى. وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر» فأعاد داود الرجل إلى ميدان القتال وكتب مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا «وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت»، وهذا ما حدث ومات أوريا الحثى، ونتيجة لهذا التصرف سقط بعض جيش داود أيضاً «ولما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا - رجلها - ندبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابناً، أما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب». (صموئيل الثانى الإصحاح الحادى عشر).

ثم عاقبه الله بوفاة هذا الابن، وعادت هذه المرأة - بحسب قصة التوراة - وأنجبت له سليمان الذى خلفه فى الملك. وعن فعل داود يقول الله تعالى فى القرآن الكريم:

«وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)» [ص].

ومن قول الله تعالى نستطيع أن نتبين أن رواية العهد القديم قد جاوزت الحدود فيما نسبته إلى نبى الله داود، وإن كانت واقعة زواجه من هذه المرأة ربما حدثت، دون أن نقف على تفاصيل ما كان من أمر - أراد الله تعالى ستره - ولن يتعد الأمر أن يكون داود أخذها أو طلبها لنفسه، وكانت مرتبطة برجل آخر طلبها للزواج، فانسحب - على غير رغبة - حياء واحتراماً لسيده الملك، وربما أن الرجل لاحقاً، ذهب مع الجيش إلى ميدان القتال، وقتل فى

المعركة فوصم داود بتدبير ذلك له، وقد جاءت آيات القرآن الكريم كاشفة أن داود ارتكب فعلاً جار فيه على حق آخر - دون إثم أو فاحشة - ثم أدرك ذلك وندم واستغفر ربه فغفر له.

ويقول الله تعالى عنه:

«يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)» [ص].

ولقد أنزل الله تعالى على داود الزابور ويسميه العهد القديم المزامير، وقال عنه الله تعالى:

«وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)» [الأنبياء]

وفى عهد داود، ظهرت أول إشارة عن السياسة المصرية، منذ خروج بنى إسرائيل، فيما ذكره العهد القديم من فرار الأمير «حداد» وريث عرش مملكة أدوم إلى مصر بعد انتصار داود، وترحيب ملك مصر (على الأرجح بسوسينس الأول من الأسرة٢١) به، حتى عودته إلى مملكته بعد وفاة داود.

وبعد أن مات داود، دفن فى أورشليم «القدس» وكان قد أطلق عليها بيت داود.

٣- سليمان بن داود

جلس سليمان على عرش أبيه ولم يكن أكبر أبنائه، وكان ذلك بناء على رغبة داود فى حياته، فعندما قاربت أيام وفاته دعا الكهنة وسادة القوم وأعلن لهم سليمان ملكاً، وطلب منهم أن يضربوا البوق فى المملكة ويقولوا للشعب ليحيا الملك سليمان. ونجد تفسير ذلك الاختيار فى قول الله تعالى:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥)» [النمل].

ولم يكن سليمان عبرانياً خالصاً كما لم يكن أبوه وأجداده من قبل، فقد كانت بتشبع حثية وهداها الله تعالى إلى دين التوحيد الإسلام، ربما بزواجها من أبيه داود أو قبل ذلك، فصارت زوج نبى وأم نبى، وهذا يفسر قول سليمان كما ذكره القرآن الكريم **«وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ(١٩)»** [النمل].

بحسب رواية التوراة بدأ سليمان بتثبيت ملكه فتخلص من أعدائه الذين كانو يحيكون الدسائس والمؤامرات وأحدثوا الفتن الداخلية فى أواخر أيام أبيه، وكان من بين أقطابها أخوه أدونيا وأبياثار الكاهن ويؤاب قائد جيش أبيه وشمعى بن جبرا البنيامينى فقتلهم جميعاً، ثم عمل على توطيد إدارة الحكم واستقراره فعين اثنى عشر محافظاً إدارياً، حاول فى تحديد اختصاصهم أن يتخلص من التقسيم القبلى، وكان يهدف من وراء ذلك إضعاف النزعة الانفصالية بينهم، وأن يؤلف منهم شعباً واحداً ويوحدهم مع الأمم الأخرى التى تعيش بينهم،

إلا أن الأيام سوف تثبت أن محاولته لم تنجح.

وإذا كان داود محارباً شديد البأس، وخاض حروباً لتحقيق الاستقلال وإقامة الدولة، فإن عهد سليمان تميز بالسلم، واتجه بمشاريعه نحو التجارة والصناعة واستخراج المعادن، وبنى بمساعدة صديقه حيرام - ملك صور - أسطولاً من السفن للتجارة فى البحر الأحمر، وكانت قاعدته ميناء إيلات، واحتفظ بحقوقه على طريق القوافل وأصبحت مملكته نقطة وصل بين آسيا وأفريقيا وبلاد اليونان، ومع ذلك فقد أدرك جيداً أن حماية المملكة يستند على ضرورة تكوين جيش قوى للدفاع عنها، فتنسب إليه المصادر التاريخية إدخال العربات الحربية فى جيش إسرائيل وجعل هذا السلاح القوة العسكرية الرئيسية فى الجيش، وطبقاً للتوراة فإن سليمان كان يملك نحو أربعة آلاف حصان، وألفاً وأربعمائة مركبة وأعد اثنى عشر ألف فارس وزَّعهم فى مدن المملكة وأورشليم (سفر الملوك الأول - الاصحاح العاشر ٢٦:٢٩)، وكانت المراكب والخيل تجلب من مصر وآسيا الصغرى، وأقام سليمان مبانى الثكنات العسكرية الخاصة بالعجلات الحربية وإسطبلات للخيول فى مدن المملكة، وبلغ عدد العاملين فيها أربعين ألفا، وقد اكتشفت بعثات الحفائر بقايا لحظائر العربات (تسع الواحدة ١٥٠ عربة) والإسطبلات (يسع الواحد ٤٥٠ حصاناً)، وذلك فى مدن مجدو وأورشليم وبيت شان وحاصور، وإذا كان لا يمكن تحديد تاريخها على وجه اليقين فإن أكثر الدراسات بالنسبة لمجدو تضعها فى عهد الملك سليمان.

وتذكر التوراة أن سليمان قد بسط نفوذه على جميع ممالك كنعان من النهر (نهر الأردن فى الشرق) إلى أرض فلسطين (المنطقة الساحلية فى الغرب)، وتمتد حتى حدود مصر، ومن دان شمالاً إلى بئر سبع جنوباً. (الملوك الأول - الإصحاح الرابع ٢١ : ٢٥).

وأن هذه المملكة وصلت فى عهده ذروة فائقة من المجد والأبهة، وبلغت مستوى هائلا من الترف فى المعيشة، تقول التوراة: «وكان يهوذا وإسرائيل كثيرين كالرمل الذى على البحر فى الكثرة. يأكلون ويشربون ويفرحون» (الملوك الأول - الإصحاح الرابع - ٢٠).

ومن جانبنا نميل إلى صدق رواية التوراة فى تحديد نفوذ مملكة سليمان وثراء عهده، ونرى أن ذلك قد تحقق له ليس فقط بسبب قدراته العسكرية وتطوير سلاحه، وضعف الفلسطينيين فى ذلك العهد وخضوعهم لسليمان إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى حكمة نبى الله وعلمه، وقد أكدهما القرآن الكريم فى عدة مواضع، وذاعت حكمته فى دول الشرق، وقالت التوراة عنه إن الله أعطاه حكمة وفهماً كثيراً جداً ورحبة قلب، وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل حكمة مصر. وكان أحكم من جميع الناس. وصل صيته إلى جميع الأمم حواليه. وكان يتكلم فى كل شيء، وتأتى الشعوب جميعاً إليه ليسمعوا حكمته. (الملوك الأول - الإصحاح الرابع ٢٩ - ٣٤).

وإذا كانت التوراة ذات النهج العنصرى - قصرت حديثها على نشر سليمان الحكمة والعلم لشعوب الأمم حوله، دون أن تتطرق إلى رسالته كنبى مرسل من الله لجميع الناس، فإن الذى أراه يقيناً أن هذا النبى الحكيم لم يكن مقيداً بعنصرية الدين وأسرلة الرب، التى دخلت على بنى إسرائيل فى العصور التالية. لهذا فإنه لم يكن يحكم أو يعمل لشأن شعب إسرائيل فقط، وإنما وفقا لمنهج النبوة الذى أرسله الله به، فقد اتجهت حكمته لإعلاء كلمة الله ونشر رسالة الإسلام وهى دين التوحيد الذى نزل على جميع أنبياء الله، فكان سليمان - عليه السلام - يدعو الممالك حوله وشعوب الأرض إلى الإسلام، ومن ثم فإن تلك الانتصارات التى تحققت له، واتساع مملكته، وبسط نفوذه على الممالك حوله تحققت فى المقام الأول بفضل نجاح سليمان فى نشر رسالة السماء واقتناع الشعوب بدعوته وحكمته. ويأتى القرآن الكريم مؤكداً تلك الدعوة ونجاحها فى قصة ملكة سبأ التى كانت تعبد وقومها الشمس، ودعاها سليمان للدخول فى الإسلام فآمنت هى وجميع قومها.

يقول الله تعالى عنها فى سورة النمل:

«قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)».

ودون أن ندخل فى تفاصيل القصة - كما وردت فى القرآن الكريم - ونتركها مع كثير غيرها من حياة سليمان لكثير من الكتب المتخصصة فى هذا الشأن - فإننا نقتصر منها على تقديم ما يثرى الدراسة فى البحث موضوع الكتاب، فقد انتهت قصة ملكة سبأ بخروجها مع قومها من الضلال والظلم إلى دين الإسلام الذى دعاها إليه سليمان.

« قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) » [النمل].

وطبقاً لمنهج النبوة، وعلاقات سليمان الدولية الواسعة مع جميع ممالك الشرق، وقياساً على ما اتبعه مع ملكة سبأ نستطيع أن نستدل على ما كان من أمر سليمان، مع الأخذ فى الاعتبار أنه قبل أن يكون ملكاً، فإنه كان رسولاً نبياً مكلفاً من الله سبحانه برسالة اختاره لها، وهو أعلم حيث يضع رسالته، ويقيناً أنه أداها على خير وجه، ومن تلك الملاحظة يجب أن تتبع دراسة فترة حكم سليمان عليه السلام ليس فقط وفقاً لمعايير واعتبارات الملوك السياسية والدولية، وإنما أيضاً لاعتبارات وفروض الرسالات السماوية، كما اتبعها رسل الله من قبل ومن بعد، ولعل هذا ما يفسر أن مملكة إسرائيل القديمة لم تقم لها قائمة، ولم يكتب لها شأن إلا فى عهود الأنبياء.

فبعد الخروج من مصر مع موسى عليه السلام، بدأت الإطلالة الأولى فى جمع الشمل مع النبى صموئيل عندما اختار بأمر الله طالوت ملكاً، فوضع الأساس الأول لنشأة الدولة، ولم يتحقق لها القيام والاستقرار إلا فى عهدى داود وسليمان نبيى الله، بسبب المنهج الذى قام

على أسس سماوية، تساوى بين جميع البشر، ومن تعاليم هذا المنهج خرج سليمان بنظام حكمه عن المجتمع القبلى العنصرى، وامتدت رسالته لتشمل كل الأرض، وجميع الناس حولهم دون تمييز، وعلم شعبه قانون الله، والنظام والتمسك بالأخلاق والفضائل، وأقنعهم بنبذ الشقاق والحرب والخوف من الآخرين والالتفات إلى الصناعة والسلم. وعمل على تقوية أواصر الصداقة وحسن الجوار والتبادل الاقتصادى مع الممالك المحيطة، وشجع الاختلاط والتزاوج والتعامل مع الشعوب الأخرى، دون تفرقة أو تمييز بسبب الأصل أو العنصر. وبعد انقضاء عصر الرسالة عاد المنهج البشرى، فضاعت الدولة والمملكة.

ولم يغفر هؤلاء أصحاب المنهج البشرى القائم على عنصرية الأصل، لنبيى الله داود وسليمان، خروجهما عن الخط العنصرى، ورفضهما مبدأ أسرلة الدين، وإقامتهما علاقات مع شعوب الأرض والامتزاج بهم والتزاوج منهم، فوصموهما بشائن الأمور والخروج عن طاعة الله.

وفى العام الرابع من حكم سليمان بدأ فى إقامة بيت كبير للرب فى أورشليم (هيكل سليمان) وأكمل بناءه فى سبع سنين، ونقل إليه تابوت عهد الرب، وكان بداخله لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى فى جبل سيناء، كما نقل خيمة الاجتماع التى كانت لموسى، وتم ذلك فى احتفال كبير حضره جميع شيوخ إسرائيل (الملوك الأول - الإصحاحان السادس والثامن)، وبنى سليمان قصراً كبيراً لإقامته وزوجاته، وأقام أسواراً حول أورشليم وحاصور ومجدو وجازر، واستعان فى أعمال البناء وجلب مواد البناء فى جميع منشآته بجيرانه من الفلسطينيين والمصريين. وتذكر التوراة أن سليمان ارتبط بعلاقات طيبة مع البلاط المصرى وتزوج من بنت فرعون، وأتى بها إلى مدينة داود (أورشليم) وأقام لها بيتاً (الملوك الأول - الإصحاح الثالث)، وأن فرعون ملك مصر صعد وهاجم مدينة جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين فيها وأعطاها هدية أو مهراً لابنته امرأة سليمان (الملوك الأول - الإصحاح التاسع آية ١٦)، وعلى الأرجح أن فرعون الذى قصدته رواية التوراة هو الملك «سى آمون» من الأسرة (٢١) المصرية، ويمكن أن يفسر النقش الذى عثر عليه فى تانيس يصور «سى آمون» وهو يضرب الأعداء بفأس الحرب على أنه المقصود بقصة الكتاب المقدس.

وتذكر رواية التوراة أن «الملك سليمان أحب نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات و حثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبعمائة من النساءوالسيدات وثلاثمائة من السرارى، فأمالت نساؤه قلبه»[الملوك الأول - الإصحاح الحادى عشر ١:٣].

وقطعاً فإن عدد هؤلاء النساء يحمل مبالغة كبيرة، كما ليس صحيحاً ما تزعمه التوراة من أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، لكن الذى نراه صحيحاً أن سليمان قد ارتبط بعلاقات

المصاهرة مع جيرانه من شعوب الأمم بغرض أن يرقى بتفكير شعبه، ويخرجهم من نطاق القبلية العنصرية، وينشر فيهم روح التسامح والمودة والتقارب والامتزاج مع هؤلاء الشعوب، وأيضاً لغرض نشر رسالته السماوية وعقيدة التوحيد عن طريق هذا الارتباط.

ولم يأت استنكار واستهجان الكهنة كتبة التوراة لفعل سليمان إلا فى العصور التالية، وأثناء فترة زمنية انتشر فيها اختلاط شعب إسرائيل بالشعوب الوثنية ومصاهرتهم، وعبادة آلهتهم، فزعم الكهنة للشعب أن الله يرفض أى اختلاط أو تمازج أو تصاهر مع الشعوب الأخرى ونسبوها، كما أوضحنا سابقاً لتعاليم موسى ثم يشوع، وعندما جاء الدور على داود دنسوا زواجه من الحثية ووصموه بأبشع التهم قبل أن يقرروا بعقاب الله له ويمنحوه مغفرته. غير أنهم لم يغفروا لسليمان زيجاته من الأجنبيات فادعو عليه أن نساءه أملن قلبه.

تقول التوراة:

«وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه»، وتزعم أن سليمان بنى معابد للآلهة الوثنية لأجل نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن، ولم يحفظ ما أوصى به الرب فغضب عليه، وتكمل التوراة أن الله توعده بسبب أفعاله «من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك إلا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها، على أنى لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطاً واحداً لابنك لأجل داود ولأجل أورشليم التى اخترتها. (الملوك الأول - الإصحاح الحادى عشر من ٤ : ١٣).

وتضيف التوراة إلى مصاعب سليمان بسبب غضب الرب أنه أقام خصماً لسليمان هو الأمير «حداد» الأدومى الذى كان قد هرب هو ورجال أبيه إلى مصر فراراً من يؤاب قائد جيش داود عندما ضربوا أدوم وأقاموا بها. وقد تزوج الأمير حداد أخت امرأة فرعون مصر، وعاد حداد ورجاله بعد وفاة داود ويؤاب رئيس الجيش.

وخصماً آخر هو رزون بن ألياداع، الذى كان قد فر من وجه داود وجمع إليه رجالاً، والتجأ إلى دمشق وأقام فيها فصار خصماً لإسرائيل كل أيام سليمان.

وأيضاً يربعام بن ناباط من سبط أفرايم، وصفته التوراة بأنه جبار بأس، أقامه سليمان على كل أعمال بيت يوسف، ثم اختلف مع سليمان ورأى أنه أحق بمملكة إسرائيل، وطلب سليمان قتله فهرب إلى مصر، واستضافه شيشق (شاشانق) ملك مصر، وظل بها إلى وفاة سليمان (الملوك الأول - الإصحاح ١١- آية٤٠).

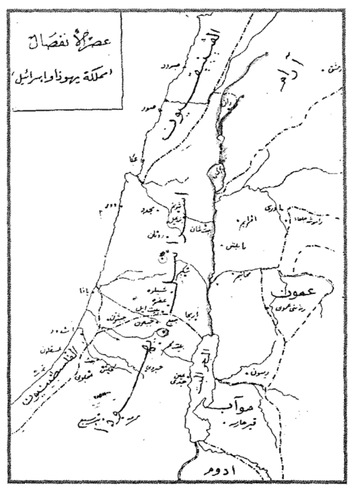
وتأتى آيات القرآن العظيم لتنزه سليمان عليه السلام من كل هذه الأخطاء والاختلاقات،

فقد أثنى عليه الله -سبحانه وتعالى - فى سبع سور مباركة ورد اسمه فيها سبع عشرة مرة، تبين منزلته الرفيعة عند الله وحكمته وعلمه، ومعجزاته عليه السلام كنبى مرسل، وتفضيل الله له. ولم يكن الله ليعاقبه كما يدعى كهنة التوراة، فوجود أعداء للنبى من الأمور المعتادة فى كل زمان، وانقسام المملكة أمر ينسب لخلفائه، واستغله الكهنة ضد سليمان تحقيقاً لغرضهم.

وقد حكم سليمان أربعين سنة، ثم اضطجع مع آبائه ودفن فى أورشليم، واستدلالاً من مصادر التاريخ المصرى، فقد كانت وفاته فى العام ٩٣٠ق.م.

رابعا: انقسام المملكة... مملكتا إسرائيل ويهوذا

كان من المقرر أن يجلس رحبعام بن سليمان على عرش أبيه، وقد تم ذلك له فعلاً، غير أنه حدث أن اجتمعت قبائل مملكة إسرائيل فى «شكيم» (نابلس وتبعد ٦ أميال إلى الشمال الغربى من السامرة، ٣١ ميلاً شمال القدس)، وتذكر التوراة أن الاجتماع كان بقصد تنصيب رحبعام ملكاً وفقاً لشروطهم، لذلك فإنهم أرسلوا واستدعوا يربعام بن نباط الأفرايمى - الذى كان قد فر من سليمان إلى مصر - فحضر معهم، وطلبوا من رحبعام فى هذا الاجتماع أن يخفف من الأعباء التى فرضها عليهم سليمان. فطلب منهم مهلة ثلاثة أيام ليعطيهم الجواب، وعندما استشار شيوخ الدولة من رجال أبيه سليمان نصحوه بأنه إذا استجاب للشعب، وكان صالحاً نحوهم، وكلمهم كلاماً حسناً، يكونون له عبيداً، ولما استشار الأحداث الذين نشأوا معه نصحوه بأن يغلظ للشعب - وبتعبير التوراة -يجيبهم أن خنصره أغلظ من متنى أبيه، وأنه سوف يزيد عليهم، فأخذ بكلامهم، وترك مشورة الشيوخ، وأجاب الشعب بقساوة، تحكى التوراة أنه قال لهم: «أبى أثقل نيركم وأنا أزيد على نيركم، أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب»، وهنا حدثت الفتنة عندما رأت إسرائيل أن الملك لم يسمع لهم، واضطربت الأمور وأعلنت القبائل الشمالية انفصالها عن بيت



داود (أورشليم)، واضطر رحبعام إلى الهروب فى عربته سريعاً إلى أورشليم. وحكم فيها على سبطى يهوذا وبنيامين فقط. [الملوك الأول- الإصحاح الثانى عشر].

هذا ما ذكرته التوراة كسبب لانقسام المملكة، لكن الحقيقة أن يربعام عاد من مصر بعد وفاة سليمان حاملاً معه دعم وتأييد سلطة الحكم فى مصر، فاجتمع مع أنصاره فى فلسطين واستطاع بمساعدة مصر ومناصرتها له أن يستقل بمملكة إسرائيل الشمالية ويحكم على عشرة أسباط من بنى إسرائيل لتقسم المملكة التى أقامها داود وسليمان إلى مملكتين هما:

١- مملكة إسرائيل فى الشمال وتضم عشرة أسباط من إسرائيل، ويتزعمها يربعام بن نباط من سبط أفرايم ويدعمه ويسانده شاشانق الأول مؤسسة الأسرة ٢٢ المصرية، وبدأت العاصمة فى «شكيم» ثم «ترصة» ثم «السامرة».

٢- مملكة يهوذا فى الجنوب وعاصمتها أورشليم، وتضم سبطى يهوذا وبنيامين، بزعامة رحبعام بن سليمان، ولم يكن - شأنه شأن أبيه وجده - إسرائيلياً خالصاً وإنما من أم عربية عمونية اسمها «نعمة».

وهكذا نشأت المملكتان على عداء مستحكم وخصام دائم بينهما راح يكبر مع الأيام ويتعاظم حدة وشراسة.

وكانت إسرائيل غنية، ذات اقتصاد قوى يعتمد على زراعة الحبوب؛ خصوصاً القمح والأشجار المثمرة مثل الزيتون والكروم والفواكه نظرا لكثرة سهولها وخصوبة أرضها ووفرة مياهها.

أما يهوذا فكانت ذات طبيعة صحراوية جدباء، واقتصاد يقوم على رعى الأغنام وتربية الماشية، وحياتهم أقرب إلى البدو، غير أننا نعرف من سفر أخبار الأيام الثانى - الإصحاح التاسع أن خزائن بيت الرب فى أورشليم، وخزائن بيت الملك سليمان كانت مكدسة بكميات هائلة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والنفائس التى جلبها سليمان أو جاءت له هدايا من جميع ملوك الشرق. وبعد تقسيم المملكة أصبحت كل هذه الثروات - إلى حين - من نصيب مملكة يهوذا.

وتلتقى قصة الكتاب المقدس مع مصادر التاريخ المصرى فى أول لقاء متيقن - حتى الآن - فى العام ٩٢٥ق.م، الذى وافق العام الخامس من حكم رحبعام، عندما كشف شاشانق الأول - ملك مصر - عن وجهه الحقيقى، وغرضه من استضافة يربعام ومناصرته، وهاجم فلسطين فى صحوة عسكرية غابت عن مصر منذ زمن بعيد، لتكشف غزوته بعد عودته أنه لم يحقق منها أى أهداف سوى السلب والنهب، فبعد أن اجتاز غزة توجه إلى مملكة يهوذا وسقطت بين يديه المدن الحصينة، ودخل أورشليم واستولى على جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شىء، وبعد أورشليم توجه شاشانق إلى مملكة إسرائيل، فاضطر يربعام حليفه

السابق إلى الفرار إلى الأردن، ثم وصلت القوة المصرية إلى «بيت شان» (بيسان) وتوقف زحفها عند مجدو، وعادت الحملة المظفرة محملة بغنائم كثيرة جداً، وهى الأموال التى جمعها سليمان خلال سنوات حكمه وظفر بها شاشانق، ولكن لم يمهله القدر لاستغلالها فمات بعد سنة واحدة من حملته، وظهرت آثار الثروة على الملوك التاليين له فى تلك الأسرة.

بعد عودة شاشانق عادت الأمور فى المملكتين كما كانت، واستمرت الحروب بين رحبعام ويربعام، وكانت الحروب والمنازعات بينهما ظاهرة أساسية فى تاريخ المملكتين معظم أيام قيامهما، وكانت كل واحدة منهما تستعين بدولة أو دول أخرى لمساعدتها على الثانية، وانتشرت المفاسد فى الدولتين انتشاراً كبيراً، ودعمتها الفتن الداخلية فى كثير من العهود خصوصاً مملكة إسرائيل، وازداد الشقاق بين الدولتين، الأمر الذى أدى إلى ضعف المملكتين، وكانت النتيجة تغلب الغزاة عليهما وسقوطهما فى النهاية.

واستناداً إلى رواية العهد القديم، وما كشفت عنه المصادر التاريخية المعاصرة، فقد سارت الأمور فى المملكتين وحتى سقوطهما كالتالى:

١- مملكة إسرائيل

كانت تمثل أكثرية الأسباط، وهى أوسع مساحة من دولة يهوذا، وقد تعددت الانقلابات فى دولة إسرائيل وأدى ذلك إلى سفك الدماء كثيراً، وإبادة أسر مالكة فى سبيل الحكم، وبسبب الفتن انتقل الحكم بين أسرات مختلفة، كما تغيرت العاصمة، فقد جعل يربعام عاصمة ملكه «شكيم» (نابلس)، وفى عهد بعشا بن أخيا ثالث الملوك جعل العاصمة «ترصة»، ثم انتقلت فى السنة السادسة من حكم عمرى - سادس ملوكها - إلى السامرة، وتعاقب على مملكة إسرائيل تسعة عشر ملكاً، وعمرت نحو قرنين من الزمان، قبل أن تسقط فى يد الآشوريين. وهؤلاء هم ملوك إسرائيل وأهم أحداثها:

١- يربعام الأول: حكم فى شكيم اثنتين وعشرين سنة، ومن خلال مصادر تاريخية فى تحديد وفاة الملك سليمان فإنه يمكن تحديد بداية حكمه فى العام ٩٣٠ق.م.

٢- ناداب بن يربعام: حكم سنتين، وقتله بعشا بن أخيا من سبط يساكر، وسلب من أسرته الحكم.

٣- بعشا بن أخيا: حكم أربع وعشرين سنة، ونقل العاصمة إلى ترصة، وفى بداية حكمه ضرب كل بيت يربعام حتى أفناهم، وكانت كل أيام حكمه حرباً مع مملكة يهوذا.

٤- أبلة بن بعشا: حكم سنتين وقتله زمرى رئيس سلاح المركبات.

٥- زمرى: حكم سبعة أيام، وقتل كل بيت الملك السابق وأوليائه وأصحابه، وعندما علم عمرى قائد الجيش بجريمته صعد وحاصر العاصمة ترصة، ولما رأى زمرى أن المدينة قد

أخذت، وأنه هالك لا محالة دخل قصر الملك وأحرقه على نفسه ومات.

٦- عمرى: حكم اثنتى عشرة سنة، منها ست سنوات فى العاصمة ترصة، ثم أسس عاصمة جديدة فى جبل السامرة، وقد عرفت إسرائيل فى الوثائق الآشورية «بأرض عمرى» حتى بعد سقوط أسرته، وكان ملك إسرائيل بالنسبة لهم هو «ابن عمرى».

٧- أخاب بن عمرى: حكم اثنتين وعشرين سنة، وتزوج إيزابيل ابنة ملك صور، إحدى المدن الفينيقية وكانت ذات شخصية قوية، ودفعته إلى عبادة الأوثان. وكان عصره مليئاً بالأحداث والصراع مع جيرانه. وعقد صلحاً ومصاهرة مع دولة يهوذا، فزوج ابنته من يهورام ولى عهد يهوذا.

٨- أخزيا بن أخاب: حكم سنتين، تحكمت فيها أمه إيزابيل فى إدارة الأمور.

٩- يهورام بن أخاب: ملك بعد أخيه أخزيا وحكم اثنتى عشرة سنة، وفى عهده أصيبت البلاد بقحط شديد وانتشرت المجاعة، انقلب عليه أحد قادة الجيش، ويدعى ياهو بن يهوشافاط وقتله وأمه إيزابيل وأفراد أسرته وسلب الحكم.

١٠- ياهو بن يهو شافاط: حكم ثمانٍ وعشرين سنة. تذكر التوراة أنه أحد قادة الجيش، وأن النبى اليشع (من أنبياء بنى إسرائيل) أرسل إليه من يبشره بأن الله قد مسحه ملكاً على إسرائيل لينتقم من بيت أخاب ومن إيزابيل الذين عبدوا الآلهة الوثنية. فقتل الملك يهورام وأمه الفينيقية إيزابيل، وقتل جميع أسرة الملك أخاب، ثم قتل جميع عبدة الآلهة الوثنية وكسر تماثيلهم وهدم معبدهم (سفر الملوك الثانى - الإصحاح العاشر).

١١- يهو أحاز بن ياهو: حكم سبع عشرة سنة.

١٢- يهواش بن يهو أحاز: حكم ست عشرة سنة.

١٣- يربعام الثانى بن يهواش: حكم إحدى وأربعين سنة، فى عهده استردت إسرائيل بعضاً من أقاليمها المسلوبة ومرت بفترة قوة ورخاء.

١٤- زكريا بن يربعام: حكم ستة أشهر وقتله شلوم بن يابيش، منهياً حكم أسرة ياهو.

١٥- شلوم بن يابيش: حكم شهراً واحداً وقتله مناحيم بن جادى.

١٦- مناحيم بن جادى: حكم عشر سنين، ولم يستطع توطيد عرشه بدون عون من الخارج، فرضخ لآشور، ودفع لهم الجزية استرضاء واستجداء لمعونتهم على حماية عرشه. (الملوك الثانى - ١٥ - ١٩ : ٢٠).

١٧- فقحيا بن مناحيم: حكم سنتين، وقتله فقح بن رمليا وهو فى قصره ومعه خمسين رجلاً من رجاله.

١٨- فقح بن رمليا: حكم عشرين سنة. وفى عهده بدأ الغزو الآشورى لمناطق سوريا وفلسطين. وقتله هوشع بن إيلة.

١٩- هوشع بن إيلة: حكم تسع سنوات. وفى عهده صعد «تيجلات بلاصر» الثالث ملك آشور عليه، وفرض عليه الجزية، وعندما حاول هوشع العصيان والتحالف مع مصر ضد آشور كانت نهاية مملكة إسرائيل (الملوك الثانى - ١٧ - ١: ٦).

نهاية إسرائيل

فى أواخر أيام تلك المملكة كان قد أصبح للآشوريين اليد العليا فى شئون المنطقة، فى عهد ملكهم «تيجلات بلاصر الثالث»، وتحركت تلك القوة الطامعة الطاغية وضمت سوريا إليها، وأخضعت فينيقيا وحظرت عليها إقامة أى علاقات تجارية مع الفلسطينيين ومع مصر، وسحق الآشوريون تحالفاً ضم غزة وعسقلان وفلسطين (البلستى) والأردن، ثم غزا تيجلات بلاصر الثالث إسرائيل واجتاح أراضيها، وخضع له هوشع آخر ملوكها، الذى أقر بتبعيته، وأصبح يحكم فى السامرة من قبل الملك الآشورى، ويدين لهم بالولاء، ويدفع لهم الجزية صاغراً.

وفى العام السادس من حكم هوشع، انتهز وفاة الملك الآشورى تيجلات بلاصر الثالث، وأعلن العصيان والثورة ضد آشور وامتنع عن دفع الجزية، وأجرى اتصالات للتحالف مع ملك مصر الذى تطلق عليه التوراة «سو» وفى الغالب أنه اختصار لاسم «أوسركون» الرابع آخر ملوك الأسرة ٢٢ المصرية، التى كانت تحكم من مدينة «تانيس» (بوباستس) فترة تمزق المملكة المصرية.

ونتيجة لهذه المؤامرة تحرك الملك الآشورى «شالمناصر الخامس» بعد أن خلف أباه عام ٧٢٦ق.م، وهاجم السامرة، وبعد حصار دام ثلاث سنوات، تم الاستيلاء عليها، ووقع هوشع ملك إسرائيل فى الأسر وأودع فى السجن، وكان ذلك فى أخريات السنة التاسعة من حكمه فى تاريخ أقصاه عام ٧٢٤ق.م.

وبعد أن اكتمل للملك الآشورى الاستيلاء على السامرة وسقوط إسرائيل عام ٧٢٢ق.م، سبى بنى إسرائيل وأجلاهم عن مدنهم وأسكنهم فيما وراء الفرات فى الشمال الأقصى لبلاد النهرين (حلاج ووادى الخابور ونهر جوزان وفى مدن مادى)، وأتى ملك آشور بقوم من مدن أخرى تابعة لآشور وأسكنهم فى السامرة ومدن إسرائيل.

ولم يدم حكم شالمناصر الخامس كثيراً، فقد أطاح به أحد أبناء فرع آخر داخل العائلة هو الملك سرجون الثانى الذى نسب لنفسه فى حولياته حصار السامرة، ونقل ٢٧٢٩٠ مواطناً من سكانها، والاستيلاء على خمسين عربة من السلاح الملكى ملأها بسكان، وأحل بالمدينة مواطنين جدد من بلدان أخرى كان قد استولى عليها.

وأيا ما كان الأمر فى شأن الملك الذى حدث السبى فى عهده، فقد كانت تلك نهاية المملكة الشمالية، وسبيت إسرائيل من أرضها إلى آشور وأزيلت من فلسطين، ولم تقم لها قائمة بعد

ذلك فى التاريخ القديم، وبحسب تعبير العهد القديم «نحى الرب إسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء فسبى إسرائيل من أرضه إلى آشور إلى هذا اليوم» [الملوك الثانى - الإصحاح السابع عشر-٢٢].

مملكة يهوذا

هى المملكة الجنوبية، عاصمتها أورشليم، يحدها من الشرق البحر الميت، ومن الغرب إقليم البلستى (الفلسطينيون) الممتد على السهل الساحلى للبحر المتوسط، وتضم الأراضى الصحراوية والمنطقة الجبلية المحيطة بأورشليم المحصنة، وتتكون من سبطى يهوذا وبنيامين، تعاقب عليها عشرون ملكاً وانحصر الحكم فى ذرية الملك سليمان - عليه السلام - واستمر حكمها زهاء ثلاثة قرون ونصف قرن حتى سقطت على يد البابليين.

وهؤلاء هم ملوك يهوذا وأهم أحداثها:

١- رحبعام بن سليمان: حكم سبع عشرة سنة فى أورشليم، بدأ حكمه معاصراً ليربعام بعد انقسام المملكة إثر وفاة سليمان عليه السلام فى العام ٩٣٠ق.م.

٢- أبيام بن رحبعام: وحكم ثلاث سنوات.

٣- آسا بن أبيام: حكم إحدى وأربعين سنة، وكان قلبه مخلصاً مع الله، نزع جميع الأصنام من الأرض.

٤- يهو شافاط بن آسا: حكم خمساً وعشرين سنة، وكان كأبيه قلبه مخلصاً مع الله. وحارب الوثنية، وكانت علاقته ودية مع مملكة إسرائيل، وزوج ابنه ولى العهد يهورام من ابنة أخاب وإيزابيل.

٥- يهورام: حكم بعد أبيه، وملك ثمانى سنوات، ظهرت آثار مصاهرته لإيزابيل، فقد أثبتت ابنتها «عثليا» أنها مثل أمها، فكانت ذات تأثير قوى، فأدخل الملك عبادة «البعل» فى يهوذا وجعل منه ديانة رسمية، وقتل يهورام إخوته الستة وبعض النبلاء، وربما أن التنافس على العرش كان سبب هذه المجزرة، وفى عهده هاجم الفلسطينيون والعرب يهوذا، وسلبوا أموال الملك وسبوا بنيه وبناته ولم يبق له ابن إلا يهو أحاز أصغر بنيه. وبعد كل هذا أصيب بمرض فى أمعائه، وتفاقم مرضه ومات بسببه «وذهب غير مأسوف عليه ودفنوه فى مدينة داود (القدس)، لكن ليس فى قبور الملوك». (أخبار الأيام الثانى - الإصحاح الحادى والعشرون).

٦- أخزيا: لم يتجاوز حكمه سنة واحدة، وهو ابن يهورام من زوجته «عثليا» ابنة أخاب ملك إسرائيل وزوجته إيزابيل، لذلك كان على صلات ودية بخاله يهورام ملك إسرائيل، وقد قتله رجال ياهو فى إسرائيل.

٧- عثليا زوجة يهورام: عندما علمت بقتل ابنها أخزيا قامت وأبادت جميع النسل الملكى من بيت يهوذا، وأعلنت نفسها ملكة على يهوذا، وحكمت ست سنوات. وعبدت «البعل» وجعلت

منه ديانة رسمية فى يهوذا، وانتهى حكمها بثورة من الجيش والشعب والكهنة ضد العبادة الوثنية وقتلوها، وهدموا المعبد الوثنى وحطموا التماثيل وقتلوا كاهن البعل.

٨- يهو آش بن أخزيا: حكم أربعين سنة، كانت أخته قد خبأته وهو طفل أثناء المؤامرة التى حدثت فى القصر، وجلس على كرسى المملكة بإرادة الشعب والكهنة، وارتد عن طريق الصواب فى آخر أيامه بعد وفاة الكاهن يهويا داع الذى أجلسه على العرش، ولم يذكر معروف يهويا داع معه، وقتل ابنه روح الله زكريا؛ لأنه طالبه بألا يتعدى وصايا الرب، فأمر رجاله فرجموه بالحجارة فى بيت الرب، وعند موته قال لهم زكريا: «الرب ينظر ويطالب».

وفى خلال السنة صعد الآراميون وضربوا يهوذا وأورشليم وأهلكوا رؤساء الشعب وسلبوا أموال الدولة. وانتهت حياة الملك باغتياله بيد اثنين من عبيده، ودفنوه فى مدينة داود ولم يدفن فى مقابر الملوك. (أخبار الأيام الثانى - الإصحاح الرابع والعشرون).

٩- أمصيا بن يهوآش: حكم تسعاً وعشرين سنة، بدأ حكمه بالانتقام من الجناة الذين قتلوا والده، انتصر على الأدوميين، ونجح فى الاستيلاء على سالع (البتراء) وحارب يهوآش ملك إسرائيل وانهزم منه، وحدثت فتنة فى نهاية عهده، وقتله متآمرون (أخبار الأيام الثانى-٢٥).

١٠ عزيا بن أمصيا: حكم اثنتين وخمسين سنة وكان قلبه مخلصا مع الله. حارب الفلسطينيين، وتجدد النزاع بين يهوذا والعرب (أخبار الأيام الثانى-٢٦).

١١- يوثام بن عزيا: حكم ست عشرة سنة، وكان قلبه مخلصاً مع الله، دعم حصون أورشليم، وشيد القلاع والأبراج فى الغابات، وبنى مدناً فى جبل يهوذا، حارب العمونيين وانتصر عليهم. (أخبار الأيام الثانى - ٢٧).

١٢- أحاز بن يوثام: حكم ست عشرة سنة، لم يكن صالحاً مع الله، عبد الآلهة الوثنية، تقول التوراة إنه أحرق بنيه بالنار قرباناً للآلهة حسب رجاسات الأمم الوثنية. حارب الآراميين وانهزم منهم، وحاربه فقح بن رمليا ملك إسرائيل وضربه ضربة عظيمة وقتل الآلاف من سكان يهوذا، وسبوا النساء والبنين وسلبوا غنائم وافرة إلى السامرة، وجاء الأدوميون وضربوا يهوذا، واقتحم الفلسطينيون مدن السواحل وجنوبى يهوذا، وأخذوا بيت شمس وأيلون وجديروت وسوكو وقراها، وتمنه وقراها وحمزو وقراها وسكنوا هناك. ولم يجد بداً من أن يرسل إلى ملوك آشور لكى يساعدوه وقدم لهم الجزية لحمايته. فى عهده أسقط الآشوريون مملكة إسرائيل (أخبار الأيام الثانى - الإصحاح الثامن والعشرون).

١٣- حزقيا بن أحاز: حكم تسعاً وعشرين سنة، كان مصلحاً دينياً فتح أبواب بيت الرب ورممها، أحضر الكهنة اللاويين للقيام بأعمال القداسة فى بيت الرب، وأرسل فى استدعاء جميع إسرائيل وكتب رسائل إلى أفرايم ومنسى ليأتوا إلى بيت الرب فى أورشليم للاحتفال بالفصح «فذهب السعاة بالرسائل من يد الملك ورؤسائه فى جميع إسرائيل ويهوذا، وحسب

وصية الملك كانوا يقولون يابنى إسرائيل ارجعوا إلى الرب إله إبراهيم وإسحاق وإسرائيل، فيرجع إلى الناجين الباقين لكم من يد ملوك آشور» (أخبار الأيام الثانى: ٣٠ -٦)، وكان البعض يهزأ من هؤلاء السعاة، إلا أن الدعوة أتت ثمارها مع قوم من أشير ومنسى وزبولون واجتمع فى أورشليم شعب كثير جداً لعمل عيد الفصح، وقاموا وأزالوا المذابح الوثنية من أورشليم، وعملوا عيداً كبيراً للرب لمدة سبعة أيام، وكان فرحاً عظيم فى أورشليم لم يحدث منذ أيام سليمان بن داود ملك إسرائيل، وكان من نتيجة هذا الاحتفال أن كثيراً من بنى إسرائيل الحاضرين عندما عادوا إلى مدنهم هدموا المعابد والمذابح الوثنية، وعملوا كما هو مكتوب فى شريعة الرب، ويتضح من قصة التوراة بشأن ما كان من أمر حزقيا واستدعاء بنى إسرائيل إلى أورشليم، أن السبى الآشورى والتهجير لم يشتت جميع القوم، وإنما فى الغالب انصب على السامرة وتهجير الرؤساء والقادة، وأكثر عناصر السكان أهمية وتأثيراً، وربما النبلاء والأغنياء والصناع.

وعن العلاقة بين مملكة يهوذا والقوة الآشورية الساحقة المسيطرة - آنذاك - فقد كان حزقيا ملك يهوذا رجلاً حذراً ويعلم تماماً أن تلك القوة أصبحت تقف الآن على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال من أورشليم، وأن أى تصرف غير حذر منه سوف يكلفه عرشه إلى الأبد، وبقيت الأمور على حالها حتى مات «سرجون الثانى» وخلفه ولده سنحريب فى عام ٧٠٤ق.م، وكانت الدولة الآشورية قد دخلت فى مشاكل عديدة أهمها دخولها معارك ضد مملكة «أورارتو» (أرمينيا) فى وسط جبال زاجروس، ومواجهة البابليين القوة الصاعدة الجديدة، والآراميين، والكلدانيين والعيلاميين، والتمرد العام فى الشام فى المناطق السورية والفلسطينية والتى كانت مصر تؤيدهم. كان الأمر بوجه عام يشكل ثورة وتمرداً امتد وانتشر سريعاً بين الولايات الخاضعة لآشور.

انتهز حزقيا هذه الظروف وتخلى عن حذره السابق تجاه آشور، واستقبل بعثة ملك بابل التى حضرت إليه تحمل السلام والهدايا وعقد تحالفاً معهم وأراهم كل خزائنه وكل نفائس المملكة ومخازن الأسلحة. وفى هذا تقول التوراة: إنه بعد تلك الزيارة تنبأ له أشعيا النبى الذى كان يعيش فى عهده بأنه سيأتى يوم تسقط يهوذا فى يد بابل وتحمل كل هذه النفائس إلى قصر ملك بابل (الملوك الثانى - ٢٠ -١٢: ١٩)، كما دخل حزقيا فى تحالف يضم فينيقيا وفلسطين ومؤاب وأدوم وعمون والقبائل العربية فى شمال الجزيرة العربية. ومعهم جميعاً كانت مصر، الأمر الذى أصبح يشكل عصياناً على ملك آشور، فتحرك الجيش الآشورى لغزو فلسطين، وأثناء إخضاع المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى استعان حزقيا بملك مصر «شبتاكا بن بعنخى» الذى استجاب وأرسل له حملة عسكرية بقيادة أخيه «طهرقا»، لكن سنحريب ملك آشور استطاع أن يخترق مملكة يهوذا واحتل عدداً كبيراً من مدنها المسوَّرة وعدداً من المدن الصغرى، ثم ضرب حصاره حول أورشليم، ولم يكن أمام حزقيا إلا الخضوع

لسنحريب، وفى هذا تقول التوراة «وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور إلى «لاخيش» يقول: قد أخطأت. ارجع عنى ومهما جعلت على حملته» (الملوك الثانى: ١٨ - ١٤) ففرض عليه جزية كبيرة دفعها حزقيا صاغراً من الأموال الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك، وأرسل سنحريب إليه خطاباً ساخراً منه بسبب اتكاله على مصر، واصفاً لها بأنها مثل العصا المرضوضة التى إذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفه وثقبتها.

وعندما سار سنحريب لمهاجمة جيش مصر، تفشى وباء الطاعون فى الجيش الآشورى، وفتك بالجيش فتكاً عظيماً، تقول التوراة فى مبالغة غير متصورة «وكان فى تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مائة ألف وخمسة وثمانين ألفاً، أصبحوا جميعاً جثثاً ميتة» [الملوك الثانى: ١٩ - ٣٥].

فعاد سنحريب بفلول الجيش إلى نينوى عاصمة ملكه، ومات بعد ذلك مقتولاً بيد أبنائه وخلفه ابنه «أسرحدون».

وتسجل حوليات سنحريب أنه استولى على جميع مدن يهوذا، وترك حزقيا سجيناً فى أورشليم مقر ملكه كطير فى قفص، وحاصره بأكوام من التراب، ووزع مدن مملكته على ملوك الممالك التابعين له. ويقول فى ذلك: «هكذا اختزلت بلاده ومع ذلك زدت الجزية التى يجب دفعها لى بوصفى سيدا له».

واستمر حزقيا تابعا لآشور طوال المدة الباقية من حكمه.

١٤- منسى بن حزقيا: حكم خمساً وخمسين سنة لم يكن مثل والده تقياً صالحاً، فعمل الشر فى حق الرب، وعبد الأصنام والكواكب وأقام معابد ومذابح للآلهة الوثنية، وفى عهده ظلت يهوذا على ولائها لآشور.

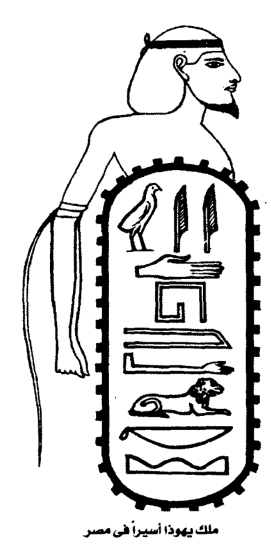
١٥- آمون بن منسى: حكم سنتين، وسار مثل والده فى طريق الوثنية. فعبد الأصنام وسجد لها. قتله عبيده فى مؤامرة لم يتضح سببها.

١٦ - يوشيا بن آمون: حكم طفلاً ابن ثمانى سنين، واستمر حكمه إحدى وثلاثين سنة، وكان صالحاً تقياً مؤمناً سار فى جميع طريق داود، وحطم الأصنام وجميع المعابد الوثنية، ومنع السحرة والعرافين، وأقام شعائر الدين حسب كلام سفر الشريعة الذى نزل على موسى، والذى وجده فى بيت الرب، وفى عهده كانت الإمبراطورية الآشورية قد دخلت مرحلة صراع على السلطة وانقسامات داخلية، ثم جاءت وفاة الملك الآشورى «آشور بانيبال» إيذانا ببدء الانهيار، وانتهى الأمر إلى سقوط «نينوى» العاصمة الآشورية واقتسام مملكتها بين البابليين والميديين (الفرس) عام ٦١٢ق.م، واستفاد نخاو الثانى أحد ملوك الأسرة ٢٦، المصرية من الفراغ الذى خلفه اختفاء الآشوريين فى سوريا وفلسطين، واستغل وجود حملة مصرية كانت قد توجهت لمساعدة الآشوريين ولم تنجح، فوجه حملته للاستيلاء على فلسطين ٦٠٨ق.م، وألحق الهزيمة

بيوشيا - ملك يهوذا - الذى حاول قطع طريق مجدو أمامه، فقتله هناك، وحمله جنوده ميتاً ودفنوه فى أورشليم، وحزن عليه شعبه كثيراً (أخبار الأيام الثانى ٣٤، ٣٥).

١٧- يهو أحاز بن يوشيا: حكم ثلاثة أشهر فقط، ثم عزله نخاو، وتمكن جنوده من اقتياده أسيراً إلى مصر، ومات هناك.

١٨- يهويا قيم بن يوشيا: عينه نخاو ملكاً ليهوذا مكان شقيقه بعد أن قبل الخضوع ودفع الجزية لمصر، وحكم إحدى عشرة سنة.



ملك يهوذا أسيراً فى مصر

وقد اعتبرت الدولة البابلية الصاعدة نفسها وريثة لعرش الإمبراطورية الآشورية، بعد أن اكتفى الفرس بمرتفعات عيلام كغنيمة حرب، ومن ثم أرسل الملك البابلى «نابو بولاصر» - الذى أسقط نينوى - ابنه نبوخذ نصر لاستعادة السيطرة على سوريا وفلسطين وردع الملك المصرى «نخاو» الذى كان مزهواً بانتصاراته، وأمر بتسجيلها على صخور وادى الكلب إلى جانب انتصارات رمسيس الثانى، والتقت قوات «بنوخذ نصر» بالمصريين فى موقعة قرقميش عام ٦٠٥ق.م، ونجحت فى صد زحفهم، واضطر بنوخذ نصر أن يعود إلى مدينة بابل بسبب وفاة والده الملك «نابو بولاصر» وارتقى عرش بلاده فى سبتمبر عام ٦٠٥ ق.م. وبعد تأمين سلطته عاد فى العام التالى، وفرض سلطانه على ممالك سوريا وفلسطين ومن بينها أورشليم، وأجبرهم على دفع الجزية، وخضع «يهويا قيم» لنفوذ بابل ثلاث سنوات فقط ثم تمرد عليهم، وفى تلك الفترة لم يكن لمصر أى نفوذ خارج حدودها بسبب السيطرة البابلية على ممالك الشام حتى نهر الفرات، وتعرضت يهوذا لهجوم من عدة ممالك مجاورة. ومات «يهوياقيم» قبل أن يصل نبوخذ نصر لردعه.

١٩- يهويا كين بن يهويا قيم: حكم فى نهاية عام ٥٩٨ ق.م وكان عمره ثمانية عشر عاماً، وبعد ثلاثة أشهر وعدة أيام من حكمه جاء إليه نبوخذ نصر فى مارس ٥٩٧ق.م، فخرج إليه «يهويا كين» مستسلماً دون مقاومة ومعه رجاله وأهل بيته فتم أسرهم جميعاً، واستولى ملك بابل على خزائن المعبد وخزائن مقر الملك، وسبى رجال الجيش وكبار رجال الدولة والصناع نحو عشرة آلاف رجل مسبى، بخلاف أسرهم، وتم تهجيرهم إلى بابل مع ملكهم «يهويا كين»،

وأمه ونساء الملك وأهل بيته، تقول التوراة: إنه سبى كل أورشليم ولم يبق إلا مساكين شعب الأرض (الملوك الثانى - ٢٤ - ٢٠:٨).

ويطلق على هذا النفى اسم السبى البابلى الأول، وقد عاش «يهويا كين» أسيراً فى بابل ما يقرب من أربعين عاماً، وظل محتفظاً بلقبه الرسمى حتى عام ٥٩٢ق.م، كما تدل على ذلك نقوش اكتشفت فى قصر «نبوخذ نصر»، وأختام أخرى.

٢٠- صدقيا: قبل أن يعود ملك بابل إلى بلاده عين صدقيا ملكاً على أورشليم، خاضعاً راضخاً للدولة البابلية، وقد ذكرت رواية للتوراة أنه عم الملك السابق (الملوك الثانى - ٢٤ - ١٧)، وفى رواية أخرى أنه أخوه (أخبار الأيام الثانى -٣٦-١٠)، وقد حكم أحد عشر عاماً، ولم يكن قلبه مخلصاً مع الله، وارتكب الشر.

وكما حدث مع هوشع -آخر ملوك إسرائيل - عندما تحالف مع مصر وأعلن العصيان على آشور فوضع لذلك نهاية دولته، فقد أعاد التاريخ نفسه، وأيضاً بتشجيع وتحريض من مصر تمرد صدقيا على بابل، وكان نتيجته سقوط أورشليم ونهاية مملكة يهوذا.

نهاية يهوذا

إذا كانت نهاية مملكة إسرائيل قد جاءت على يد الآشوريين، فإن نهاية مملكة يهوذا جاءت على يد البابليين.

فكان نتيجة تمرد «صدقيا» أن جيوش نبوخذ نصر الثانى، عادت لمهاجمة أورشليم. وضربت الحصار حولها لمدة سنتين. وحاول المصريون فى عهد الملك «واح إب رع» (إبريس عند الإغريق) أن يقدموا يد العون لأورشليم، لكنهم انهزموا واضطروا إلى الانسحاب، وفى شهر أغسطس عام ٥٨٧ق.م، سقطت أورشليم وفر صدقيا إلى الشرق عبر برية يهوذا، وقبض عليه وهو يعبر وادى الأردن قرب أريحا، واقتيد أسيرا إلى «نبوخذ نصر» فى مقر قيادة الجيش فى «ربلة» على نهر العاصى، وجاء انتقام نبوخذ غاية فى القسوة، حيث أجبر صدقيا على مشاهدة تنفيذ الإعدام فى أولاده، ثم فقأ عينه بخنجره فكان قتّل أولاده هو آخر منظر يراه. ثم قيد مُسلسلاً فى الأغلال إلى بابل، حيث مات هناك بعد فترة قصيرة، أما ما حدث لأورشليم بعد سقوطها فإن الغزاة قد نهبوها نهباً، وأشعلوا فيها النيران وأحرقوا قصر الملك وقصور المدينة، ومعبد سليمان بكل محتوياته بما فى ذلك التابوت الذى يحفظ توراة موسى، وكتب إسرائيل المقدسة، وقتلوا عدداً كبيرا من سكانها، وسبى الذين بقوا من القتل إلى بابل، وقدر الباحثون عددهم ما بين أربعين ألفاً إلى خمسين ألفاً (السبى البابلى الثانى)، وهكذا انتهت دولة يهوذا وأدمجت فى التنظيم الإدارى للإمبراطورية البابلية، ضمن ممالك فلسطين ومدن إسرائيل السابقة التى خضعت لبابل بعد انتهاء الدولة الآشورية.

وقد أبقى الملك البابلى السكان المزارعين فى أعمالهم ومعهم أسرهم وعدد آخر من

السكان الفقراء وعين وكيلاً عليهم من أهل يهوذا - ليس من العائلة المالكة - لإدارة شئونهم، وحدد مقره فى المصفاة - وليس فى أورشليم - وتبعد عنها خمسة أميال إلى الشمال الشرقى. ولما جاء إلى الحاكم الجديد عدد من رؤساء الجيش السابقين الذين نجوا قال لهم: «لا تخافوا أن تخدموا الكلدانيين. اسكنوا فى الأرض وأخدموا ملك بابل فيحسن إليكم»، لكن الذى حدث أنه قد جاء للحاكم البابلى شخص من النسل الملكى السابق ومعه عشرة رجال وقتلوه مع كل اليهود الذى كانوا معه والكلدانيين ورجال الحرب الذين وجدوا هناك.

وتقول التوراة إنه بعد هذا الحادث قام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين» [الملوك الثانى - ٢٥] [إرميا -٤٠ : ٤٣].

لم تدم الإمبراطورية البابلية الجديدة طويلاً، فقد أخذت طريقها إلى الانهيار السريع بعد موت نبوخذ نصر الثانى عام ٥٦٢ق.م، حتى سقطت بابل على يد قورش ملك الفرس فى نهاية عام ٥٣٩ ق.م ليصبح الفرس فى عهده سادة آسيا الصغرى ثم أخذوا طريقهم لإعادة تأسيس إمبراطورية أقوى وأعظم من الآشورية والبابلية، وفى السنوات الأولى من حكم قورش للإمبراطورية البابلية أصدر أمراً ملكياً سمح فيه لليهود المنفيين بالعودة إلى أورشليم إن رغبوا فى ذلك. وقد عادت أعداد كثيرة منهم، لكن جالية كبيرة أخرى فضلت البقاء فى بابل بعد أن ارتبطت مصالحهم بها وامتدت أصولهم فيها.

كما نشأت جالية يهودية كبيرة فى مصر كان أهم مراكزها جزيرة إلفنتين فى أسوان، وفى مرحلة متأخرة من عصر الأسرات انتشرت فى عدة أنحاء من مصر.

وهكذا فإنه مع بداية الحكم الفارسى، يكون شعب إسرائيل قد أصبح موزعاً فى البلاد الآتية:

- مناطق السبى الآشورى فيما وراء الفرات فى الشمال الأقصى لبلاد النهرين.
- منطقة السبى البابلى فى بابل.
- الجالية اليهودية فى مصر.
- بنو إسرائيل الذين بقوا فى فلسطين وسط الشعوب التى عاشت تحت الحكم البابلى والآخرون الذين انضموا إليهم بعد العودة من السبى البابلى.

الباب الثالث

نتائج من الدراسة الدينية والتاريخية

الفصل الأول

الركائز الأساسية للبحث

الفصل الثانى

تاريخ دخول بنى إسرائيل مصر

الفصل الثالث

النطاق الزمنى للبحث

الفصل الرابع

الربط بين الرواية الدينية والأحداث التاريخية

بعد عرض الأحداث التاريخية والرواية الدينية، وقبل أن نبدأ رحلة تحديد الزمان التاريخى لمراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر، والأشخاص فى قصة موسى وفرعون، من خلال الحقائق التى قدمتها المصادر الدينية، والمعلومات التى توافرت من المصادر التاريخية، يمكن أن نستخلص المحددات والثوابت والروابط التى تحكم إطار البحث، وتهدينا إلى استخلاص النتائج النهائية فى تحديد الزمان والأشخاص، وتتمثل فى النواحى الآتية:

- تحديد الركائز الأساسية، التى سوف تعتبر ثوابت فى هذا البحث.
- تقديم الأدلة التى تحدد تاريخ دخول بنى إسرائيل مصر.
- استخدام هذا التاريخ والثوابت فى تحديد النطاق الزمنى لأحداث حياة بنى إسرائيل فى مصر.
- أسانيد الدراسة فى الربط بين الرواية الدينية والأحداث التاريخية والاستدلال على المظاهر والنواحى التى تؤيد هذا الربط.

الفصل الأول
الركائز الأساسية للبحث

تضع الرواية الدينية وأيضاً المعلومات الثابتة من المصادر التاريخية عدداً من الركائز الأساسية تحكم إطار البحث وتستند عليها الدراسة؛ بما يمكن معه اعتبارها ثوابت أو قيوداً لا يمكن التنازل عن أى منها ونحن بصدد استخلاص النتائج اليقينية لتحديد زمان وأشخاص القصة الدينية، ولهذا الاعتبار سوف نعتمد عليها فى الآتى:

- حصر النطاق الزمنى وتحديد إطار البحث.
- تقييم ووزن جميع الآراء المطروحة والدراسات السابقة فى هذا المجال.
- تحديد ووزن الأدلة التى سوف نستند إليها فى تحديد زمان وأشخاص القصة الدينية.

وتلك الركائز هى:

من المصادر الدينية:

١- حقيقة دخول بنى إسرائيل مصر وإقامتهم بها حتى الخروج منها مع موسى عليه السلام.

٢- حقيقة غرق فرعون وإبادة جميع الجيش المصرى فى رحلة الخروج.

٣- حقيقة قضاء فترة التيه.

٤- حقيقة دخول بنى إسرائيل فلسطين بعد سنوات التيه.

ومن المصادر التاريخية:

٥- الحقبة التاريخية لوجود وانتهاء الحكم المصرى لفلسطين.

أولاً: دخول بنى إسرائيل وإقامتهم فى مصر حتى الخروج مع موسى

تثبت حقيقة دخول بنى إسرائيل، أبناء يعقوب مصر، فى القصة الدينية من القرآن الكريم والتوراة. فتقص علينا سورة يوسف أن يوسف بن يعقوب، دخل مصر غلاماً بعد أن عثرت عليه قافلة سيارة، وبيع عبداً فى مصر، ثم مكّنه الله فى أرضها، فأصبح وزيراً وتولى خزائن الدولة. وبعد أن التقى إخوته وتعرف إليهم وعرفوه طلب منهم أن يرجعوا إلى أرض كنعان ويأتوا بوالده وجميع أهلهم للحياة فى مصر. وكانت تلك نقطة البداية فى أحداث القصة، يقول الله تعالى إن يوسف قال لإخوته:

«اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)» [يوسف].

وفى تأكيد دخولهم مصر يقول تعالى:

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) » [يوسف].

ومن نصوص التوراة فى تأكيد ذلك:

يقول يوسف لإخوته:

«أسرعوا واصعدوا إلى أبى وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف. قد جعلنى الله سيداً لكل مصر. انزل إلىّ. لا تقف. فتسكن فى أرض جاسان وتكون قريباً منى أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل مالك» (سفر التكوين - الإصحاح ٤٥ - ٩، ١٠).

وأيضاً:

«وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم فى العجلات التى أرسل فرعون لحمله. وأخذوا مواشيهم ومقتناهم الذى اقتنوا فى أرض كنعان وجاءوا إلى مصر. يعقوب وكل نسله معه. بنوه وبنو بنيه معه وبناته وبنات بنيه وكل نسله جاء بهم معه إلى مصر».

«جميع النفوس ليعقوب التى أتت إلى مصر الخارجة من صلبه ماعدا نساء بنى يعقوب جميع النفوس ست وستون نفساً. وابنا يوسف اللذان ولدا فى مصر نفسان جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون». (التكوين - ٤٦ - ٥ : ٧، ٢٦، ٢٧).

«وسكن إسرائيل فى أرض مصر فى أرض جاسان. وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً».
(التكوين: ٤٧ - ٢٧).

وبعد أن استقر المقام لبنى إسرائيل فى مصر أكرم يوسف إخوته، ومنحهم أرضاً لإقامتهم ومعيشتهم من أجود وأخصب الأراضى، وعينهم فى وظائف رؤساء مواشى الملك، فوضع الأساس لاستقرارهم، وهيأ عوامل الحياة السعيدة الهانئة لهم ولأجيالهم من بعدهم، فاستمرت إقامتهم. ومات يعقوب ويوسف وإخوته على أرضها، وعاش عليها أبناؤهم وأحفادهم حتى كان الخروج مع موسى على النحو السابق تفصيله فى حياة موسى فى القصة الدينية.

وتذكر التوراة أن مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر بلغت أربعمائة وثلاثين سنة. وإذا كانت قصة دخول بنى إسرائيل مصر حقيقة مؤكدة تحكيها الروايتان - القرآنية والتوراتية - وينطلق منها مجال البحث، فإن المدة التى حددتها التوراة لبقائهم ليست على ذات القدر من الثبوت الذى يكفى لاعتبارها حقيقة نعتمد عليها فى بناء الهيكل الزمنى لأحداث القصة، خصوصا أن تلك المدة تتعارض منطقياً وتاريخياً مع تواريخ أخرى وردت فى التوراة أيضاً، أهمها أعمار سلالة موسى، وبناء الملك سليمان لبيت الرب فى أورشليم، ومع ذلك فإننا لن ننكر تماماً مدة التوراة لإقامتهم، إنما سوف نعتبره افتراضاً قائماً نتقصى صحته، أو خيطاً فى الأحداث نحاول أن نتعرف على بدايته ونهايته على ضوء ما سوف تقدمه لنا حقائق دينية أخرى أو معلومات المصادر التاريخية، ومن ذلك أنه حدث خلال هذه الفترة ميلاد موسى فى ظروف تاريخية كانت تمر بها مصر، أدت إلى انتقام فرعون من طائفة من أهلها كان من بينهم بنو إسرائيل، فكان يعذبهم ويذبِّح أبناءهم، وفى نهاية هذه المدة حدث الخروج مع موسى وهارون كما ترويه روايتا القرآن والتوراة.

ثانياً: غرق فرعون وإبادة الجيش المصرى

إن موت فرعون، وإبادة الجيش المصرى كاملاً، غرقاً فى اليم وهم يطاردون موسى وقومه، حقيقة دينية أكدها القرآن الكريم فى العديد من سوره، ولا تحتمل تأويلاً على أى وجه آخر، فجميع الآيات التى تحكى قصة عبور موسى وقومه تسير فى تأكيد هذه الحقيقة.

يقول الله تعالى:

«وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦)» [الشعراء].

« فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠)» [الذاريات].

«وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)» [الدخان].

«فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ (١٣٦)» [الأعراف].

«وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)» [يونس].

« فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦)» [الزخرف].

آيات واضحة، متساندة، متكاملة، تأتى مؤكدة لتلك النتيجة. فقط دون أى احتمالات أخرى.

وقد اتفقت رواية التوراة مع آيات القرآن الكريم فى تأكيد تلك الحقيقة التاريخية، فتقول فى ذلك: «فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم البحر. لم يبق منهم ولا واحد». [الخروج - الإصحاح الرابع عشر - ٢٨].

واستناداً إلى تلك الحقيقة، فإن أى دراسات تحاول أن تنال منها بتأويل أو تفسير ينتهى إلى نتيجة تخالف صريح الآيات وقصد الله تعالى فهى باطلة وغير صحيحة، باعتبار أن كل ما ورد فى القرآن صحيح ودقيق، وأن الآيات المعنية واضحة فى دلالتها. وللأسف فإن الباحثين الذين خلصوا إلى واقعات لسير الأحداث أو انتهوا إلى آراء ونتائج تخالف تلك الحقيقة الدينية كثيرون، سواء فى الغرب أم الشرق، ونتخير واحدة من تلك الدراسات، وهى رأى د. سليم حسن فى موسوعته مصر القديمة- الجزء السابع. قصة خروج بنى إسرائيل من مصر ويقول فى ذلك:

(أما موضوع غرق فرعون فهو أمر قد فهم خطأ على حسب ما جاء فى الكتب السماوية، والواقع أنه لا يمكن لإنسان أن يتصور غرق فرعون وعربته ومن معه فى ماء ضحضاح لا يزيد عمقه على قدمين أو ثلاثة، بل المعقول أن خيل الفرعون وعرباته قد ساخت فى الأوحال وسقط بعض ركابها مغشياً عليه، وهذا يفسر ما جاء فى سفر الخروج - ١٤ - ٢٥: «وخلع

دواليب المراكب فساقوها بمشقة»، ومما سبق نعلم أن خرافة غرق فرعون فى البحر الأحمر وموته لا أساس لها من الصحة، وقد جاء كل ذلك الخلط من ترجمة «يام سوف» بالبحر الأحمر أو بحر القلزم ، هذا فضلاً عن أن ما جاء فى القرآن الكريم لا يشعر بأن الفرعون الذى عاصر موسى قد غرق ومات، بل العكس نجاه الله ليكون آية للناس، والتعبير «**فاليوم ننجيك ببدنك**» تعادل التعبير العامى «خلص بجلده»).

وهذا الرأى الذى انتهى إليه الدكتور سليم حسن يستند - بلا شك - إلى تأويل مخالف لصريح النص، ويهدم التفسير الواضح للآيات الكريمة السابقة بغرض تدعيم ما ارتآه من استحالة تصور غرق فرعون وهلاك جيشه فى ماء البحيرات الشرقية.

والرد على هذا الرأى وغيره من الآراء الأخرى الكثيرة التى تسير فى ذات الاتجاه، هو أن حقائق القرآن الكريم وإن كانت تسمح بإعمال قواعد التفسير الصحيحة والمنطقية لإيضاحها وتبيانها، فإنها لا تخضع لأغراض تطويعها على معايير الاستناد العقلى ، ولا تبحث على ضوء المعلومات المتوافرة لدينا، كما لا تقاس بمنطق الجواز أو الاستحالة وفقاً للموازين البشرية، فإذا قال الله تعالى إن فرعون غرق وهلك هو وجنوده أجمعين فى اليم، فتلك حقيقة صحيحة ودقيقة، ولا نملك إزاءها تأويلاً أو تفسيراً على أى وجه مخالف بغية تطويع الآيات لتتفق مع معلوماتنا التاريخية من كون فرعون وجنوده قوة هائلة، وموسى وقومه قلة ضعيفة، أو لإثبات أن الماء أو المكان المعلوم لدينا للعبور لا يستوعب حدوث هذا الهلاك تحت أى سبب.

إن قول الله تعالى - يقيناً - قد وقع وفقاً لتصويره سبحانه، حتى ولو كنا نعتقد تماماً فى صحة معلوماتنا عن الظروف والعوامل التاريخية؛ لأن تلك هى الإرادة الإلهية التى شاءت للقلة الضعيفة أن تهزم القوة الهائلة، وأيضاً بالنسبة لبحيرة العبور فإنه حتى ولو كانت المعلومات التاريخية لخط سير الرحلة انتهت إلى التصوير الذى يراها ماءً ضحضاحاً بعمق قليل، فإننا يجب أن نسلم بحقيقة ما قاله الله تعالى، ومع ذلك فإن هذه المعلومة ليست صحيحة على الإطلاق؛ لأن البحيرة الشرقية التى حدث العبور منها تقع ضمن البحيرات المترامية والعميقة الممتدة ما بين البحر الأحمر والبحر المتوسط، وعرضها يزيد على عدة كيلومترات، وتقع عند مصب لأحد أفرع النيل القديمة «مياه حور» ومن خلال المصور القديم الذى وضعه «سيتى الأول» أظهر هذه المنطقة مجرى مائياً تسبح فيه التماسيح ليبرهن أنها عند نهاية الملاحة النيلية، ثم ما الذى يجعلنا نتوغل فى أعماق الزمن لدحض معلومة الماء الضحضاح، إن بحيرة العبور هى إحدى البحيرات التى تضم حالياً بحيرات البلاح والتمساح، والبحيرات المرة، وتمر عبرها الآن السفن العملاقة والناقلات الضخمة وهى تجتاز طريق قناة السويس بين البحرين. ومن تلك المعلومات يتضح أن العبور حدث فى بحيرة ذات مساحة كبيرة وأعماق بعيدة تتفق وبلاغة التصوير الإلهى فى وصف هول المعجزة، وحدوث الدمار وفقاً للرواية القرآنية، فإذا كانت لحظة الهلاك قد

أدركت فرعون وجيشه بعد أن جاوزا فى البحر مسافة امتدت شرقاً حتى عمق كان قد استحال فيه التراجع أو محاولة الفرار، فيكون من السهل أن ندرك بذلك أن الكل صار يحاول أن يبحث لنفسه عن سبيل للنجاة دون جدوى، وأنه أعقب المباغتة الإلهية تزاحم وتدافع وتضارب آلاف الجنود المذعورين فى وسط مئات المركبات الحربية وأدوات القتال التى تكدست فى وسط البحر مع خيول الجيش المهتاجة، وحدوث الغرق تحت ظلام الليل الدامس، فصارت جميعها عوامل اجتمعت على سد ثغرات النجاة، ورتبت استحالة الفرار من قضاء الله، فحدث الهلاك وغرق فرعون وجميع الجيش وتحطمت مركباته وآلاته وهلكت جياده.

وأيضا فإن قول الله تعالى: إن نجاة فرعون ببدنه سوف تكون لمن يخلفه آية لا تحتمل معنى حياته، فهى واضحة فى تأكيد وفاته وأنه أصبح بدناً بلا روح، جثة هامدة سوف يراها من يأتى من أقوام بعد عصره، فتكون لهم آية وعظة وعبرة، فقول الله يكشف عن قصده سبحانه، الذى لم يتضح للناس إلا فى عصرنا الحديث من إنجائه لفرعون ببدنه بعد غرقه ليحنط كعادة الفراعنة ويحفظ بدنه محنطاً ليراه الناس الذين سوف يأتون بعد عصره.

وحقيقة غرق فرعون وهلاك الجيش المصرى، تنبنى عليها فى مجال البحث التاريخى نتائج فى غاية الأهمية هى:

أولاً: أن فرعون انتهت حياته مع الخروج، ومن ثم فإن الخروج لا بد وأن يقع عند نهاية حكم ملك وبداية حكم ملك جديد، وبالتالى فإن أى دراسة تضع تاريخ الخروج خلال الفترة الزمنية لحكم أى من الملوك هى دراسة خاطئة ومستبعدة من مجال البحث.

ثانياً: إن هذا الإعجاز الإلهى لغرق فرعون والإبادة الكاملة لجيش مصر وهلاك عتاده ومعداته ومركباته وجياده على الصورة التى وقعت، وقد جاء بعد حياة حافلة لموسى فى مصر ذاع فيها صيته، وانتشرت بين الناس دعوته، ورددت الأنباء أخباره ومعجزاته، وكان له بين القوم أتباع، فمن ثم فالمعجزة الإلهية فى حدوث هذا الهلاك حتماً لم تنته بوقوعها، وإنما تردد صداها قوياً، وأصبحت حديث مصر والشرق كله، ولا شك أنها أحدثت دوياً عنيفاً فى أنحاء البلاد، وكان لها رد فعل هائل فى أوساط المصريين، وعاشت مع معجزات موسى السابقة فى عقولهم سنوات طويلة، وأحدثت أثراً فى عقائدهم ونظرتهم إلى الآلهة الوثنية على الأخص فى شرق الدلتا وشمال مصر.

ويقيناً أيضاً أن هذا الهلاك العظيم قد رتب نتائج خطيرة ضد السلطة ونظام الحكم استمرت آثارها وظهرت فى الحقبة التاريخية التالية، وسوف نلاحظ بعد تحديد زمان القصة الدينية أن حادث الخروج - بمصر- كان بداية النهاية لعصر مصر الإمبراطورية، وبعده زال عنها لقب الدولة الأعظم فى العالم القديم، وإذا كانت الوثائق والسجلات المصرية القديمة قد تجاهلت تسجيل هذا الحدث الهائل، فلم يكن ذلك كما يرى معظم الدارسين لانعدام أهميته

فى تاريخ مصر، أو أنه لم يكن - حسب رأيهم - سوى هروب مجموعة من الأفراد طاردتهم فيه تجريدة صغيرة من جيش مصر، وإنما لأن تسجيل الأحداث يأتى لتخليد ذكرى الملوك، وتمجيد أعمالهم، وقد تعمد الملوك والكهنة ورثة النظام الغريق حجب معجزة الله لموسى وإخفاءها باعتبارها هزيمة للنظام وآلهته الوثنية، ومع ذلك فسوف نتبين أنه خرج من بين تلك الوثائق ما يكشف عن انفلات الأمر وحدوث الثورة والانقلاب على النظام القائم، ونستدل من هذه المصادر أن كثيراً من أهل الشمال أفاقوا من وهم تقديس الآلهة، وضربوا عرض الحائط بالتقاليد الكهنوتية القديمة وتعاليم الكهنة، ورفضوا استحواذ المعابد على ثروات البلاد، فاستغلوا انعدام الجيش وضعف السلطة وتدهور الوضع الأمنى، وأحدثوا تخريباً فى مؤسسات الدولة والمعابد، وتمكنوا من الاستيلاء على ثروات المعابد والكهنة والنبلاء، وتكشف الوثائق عن عدم قدرة سلطة الحكم على الدفاع عن الدولة بشكل تام أو إقرار الأمن، واستمر ذلك عدة سنوات، وهو الأمر الذى سوف نوضحه تفصيلا عند طرح أدلتنا على فرعون الخروج.

ثالثاً: إن إبادة الجيش المصرى عن بكرة أبيه وهلاك جميع فرسانه المدربين وجياده ومركباته الحربية وأسلحته، فضلاً عن آثاره المباشرة فى الانهيار السريع لسلطة الدولة، فقد تبعه انعدام الروح القتالية لدى الشعب الذى أصبح كثير منه رافضاً لقيادته وخداع الكهنة لهم، وفاقدا الثقة فى آلهتهم الوثنية وقدرتها على نصرته وحمايته، وافتقد الشعب روح الولاء لحكامه، وانطفأت لديه جذوة الوطنية، وحب العسكرية وحماس الجندية القديم، ورغبة التدريب، والانخراط فى الجيش، وأدى ذلك مع الآثار المباشرة الأخرى لهلاك الجيش، إلى دخول مصر ذلك المنعطف التاريخى الجديد، الذى يختلف جذرياً عن عصورها الأولى منذ تأسيس المملكة الموحدة وصولاً إلى عصر الدولة الحديثة، الذى شهد قيام الإمبراطورية، فقد أعقب هذا العصر - دون تدرج طبيعى - مرحلة ضعف وانهيار لم يكن متوقعاً، ولم يكن لذلك أسباب تاريخية واضحة تبرره، حتى فى فترات إفاقتها المؤقتة، كانت مصر قد عرفت الاعتماد على المرتزقة الأجانب، فى تكوين جيشها النظامى، ودبت الخلافات والانقسامات والصراعات فى أجزاء المملكة وتعارك الشمال والجنوب، كما انقسم الشمال فى كثير من الفترات إلى عدة ممالك منفصلة ومتصارعة، وفقدت مصر القدرة على حماية نفسها ودخلها الغزاة ووصلوا إلى طيبة جنوباً، وعاثوا فى البلاد تدميراً، وذاقت مصر مرارة الهزيمة، فهزمها الآشوريون ثم البابليون ثم الفرس الذين أنهوا عصر الحكام المصريين، وأخيرا خضعوا للإغريق الذين انتصروا لهم من الفرس.

ثالثا: قضاء فترة التيه

خرج بنو إسرائيل من مصر متجهين إلى فلسطين، وعلى الحدود الشرقية لسيناء وقفوا وأرسل موسى رؤساء أسباط بنى إسرائيل اثنى عشر رجلاً لتقصّى الأمر فى كنعان، وعادوا

بمعلومات مفادها أن الأرض يسكنها قوم جبارون ذوو بأس شديد وقوة، وانتهى رأيهم - عدا اثنين منهم: كالب بن يفنه ويشوع بن نون- إلى أنه لا طاقة لبنى إسرائيل بهم وأقنعوا قومهم بذلك، وعندما استنهض موسى رجاله لدخول الأرض والقتال خافوا ورفضوا وكان ردهم النهائى على موسى رافضاً قاسياً متحدياً، فاستحقوا عقاب الله بتحريم الأرض عليهم أربعين سنة تكون سنوات تيه لهم، وقد تأكدت تلك الحقيقة التاريخية فيما أخبرنا به الله تعالى فى سورة المائدة:

« يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)».

والتيه الذى قصده الله تعالى ليس ذلك المعنى المباشر بأنهم ضلوا طريقهم إلى الأرض، وإنما هو معنى شامل ينصرف إلى عدم الاستقرار وانعدام الأمان، ورفضهم من سكان الأراضى التى يمرون بها، وفقدان قدرتهم على دخول فلسطين مقصدهم بعد الخروج وأرض هجرتهم، فقد عاشوا سنوات على الضفة الشرقية لنهر الأردن ينظرون إلى الأرض المقدسة دون استطاعة دخولها حتى الإبراء من التيه بعد انتهاء سنوات العقاب.

وقد اتفقت رواية التوراة مع القرآن الكريم فى عقاب الله تعالى لبنى إسرائيل بتحريم دخول الأرض المقدسة عليهم حتى يهلك جميع الجيل الذى رفض الدخول والقتال، ثم يدخلها أبناؤهم، لكن الرب قضى عليهم بأن يكونوا رعاة فى القفر أربعين سنة يحملون فيها فجور آبائهم. (سفر العدد - الإصحاح الرابع عشر - ٣٠ : ٣٤).

والنتيجة التى تبنى على هذه الحقيقة التاريخية هو أن البحث التاريخى يجب أن يضع فاصلاً زمنياً بين خروج بنى إسرائيل من مصر، ودخول فلسطين، وألا يتوقع دخولهم قبل مرور أربعين سنة، وبعدها يحدث الانتشار تدريجيا فى أنحاء واسعة حتى قيام الدولة فى عهد داود وسليمان. وأى نتيجة لا تضع فى اعتبارها هذا الفاصل الزمنى فهى - يقيناً - خاطئة وغير صحيحة.

رابعاً: دخول بنى إسرائيل فلسطين بعد سنوات التيه

إن مفهوم قول الله تعالى بتحريم الأرض المقدسة على بنى إسرائيل أربعين سنة يتيهون فى الأرض، هو أنه بعد انقضاء مدة العقاب يحدث الإبراء ويدخلون الأرض. وهؤلاء الذين حاولوا

أن يفسروا الآية بجعل التحريم أبدياً. وأن يفصلوا بينه وبين سنوات التيه، فإنهم حملوا الآية أكثر من قصدها، وأيضاً هؤلاء الذين رأوا أن دخولهم لم يكن فى حرب ضد أهل البلاد، وإنما فى محاولات فردية قامت بها بعض القبائل للتسلل إلى المناطق الفلسطينية، وأنه استمر سلمياً وتدريجياً خلال سنوات عديدة فى مناطق الأطراف والمواقع الجبلية قبل أن يبدأ الصراع بينهم وبين المدن الكنعانية، فإن هؤلاء أيضاً قد جانبهم الصواب.

وإذا كانت رواية العهد القديم التى عرضناها فى تاريخ بنى إسرائيل بعد موسى، حكت فى مبالغة غير متصورة وغير منطقية ومتناقضة قصة هذا الصراع، الأمر الذى دعا كثيراً من الدارسين إلى اعتباره أساطير شعبية ورفضها، فإن رواية العهد القديم ذاتها وهى فى مجال التقييم النهائى واستعراض نتائج الصراع عادت ووضعت الأمور فى نصابها الصحيح، وقدمت صورة أقرب إلى الحقيقة عن حياة قبائل إسرائيل وسط الشعوب والممالك الفلسطينية على النحو الذى عرضناه فى قصة يشوع والقضاة وعصر المملكة.

ثم جاء القرآن الكريم ليؤكد لنا الحقيقة التاريخية فى شأن دخول بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة بعد انتهاء سنوات التيه، وأن الأمر لم يخل من الصراع والقتال لفرض وجودهم بدءاً من عهد يشوع مرورا بعصر القضاة حتى قيام مملكة داود وسليمان، وقد سبق وأن عرضنا رواية القرآن الكريم فى قصة بنى إسرائيل بعد موسى، ونتخير منها الآن الآيات التى تؤكد وقوع تلك الحقيقة التاريخية، وقتال بنى إسرائيل من أجلها.

فى عهد يشوع وبعد انقضاء سنوات التيه يقول الله تعالى:

«وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)» [الأعراف].

وعن مرحلة نهاية عصر القضاة وبداية المملكة يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ... (٢٤٧)» .

وتشير هذه الآيات إلى الحرب التى وقعت بين بنى إسرائيل والفلسطينيين وهزيمة الإسرائيليين فى معركة أفيق فى نهاية عصر القضاة، ثم قتالهم مع النبى صموئيل لاسترداد المواقع التى استولى عليها الفلسطينيون.

وفى عصر أول ملوكهم طالوت يقول الله تعالى:

«فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ

فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ... (٢٥١)» [البقرة].

ثم حملت آيات أخرى كثيرة واضحة الدلالة أشرنا إليها سابقاً ما يؤكد قيام مملكة كبيرة لداود وسليمان فى فلسطين، وأنه كان لسليمان جنود وفرسان وجياد كثيرة وجيش قوى وأموال وفيرة.

كما جاءت المصادر التاريخية - بعد ذلك - مؤكدة وجود المملكة الإسرائيلية وانقسامها ثم حدوث السبى الآشورى ثم السبى البابلى.

والنتيجة التى تبنى على تلك الحقيقة انتاريخية هى أن البحث التاريخى يجب أن يضع فى اعتباره يقيناً أن بنى إسرائيل بعد أن خرجوا من مصرأصبح لهم - بعد أربعين سنة - وجود فى فلسطين قام وسط الشعوب الأخرى، وقد أخذ وجودهم تطوره الطبيعى، فكان فى البداية ضعيفاً مشتتاً وشهد صراعاً مع ممالك أخرى ضعيفة، ثم تجمعوا وقوى أمرهم وتوحدوا فى مملكة واحدة، صارعت فى بدايتها من أجل فرض وجودها والتوسع حتى استقر لها الأمر، لكنهم أبداً لم يطردوا أو يقضوا على الشعوب الأخرى، ثم اختلفوا فانقسمت مملكتهم إلى قسمين، تصارعا فيما بينهما، وفى النهاية زال ملكهم على يد ممالك أخرى أقوى، وكالعادة دائماً تبقى الشعوب فى الأرض، حتى ولو كان ذلك ضد رغبة الغزاة، وسرعان ما يقبل الطرفان الأمر الواقع، الشعوب تذعن لحكامها من أجل العيش والبقاء، ويقبل الغزاة وجودهم لإنهاء الصراع وتدعيم ملكهم، ويظل دائماً القول بإبادة أجناس لأجل حياة أجناس أخرى محض خيال لم يتحقق أبداً.

خامسا: وجود وانتهاء النفوذ المصرى فى فلسطين

لإيضاح هذه الركيزة المهمة فى دراستنا نوجز من الجزء الذى قدمناه عن تاريخ مصر فى عصر الدولة الحديثة، أنها بعد أن تحررت من الهكسوس واستقرت أحوالها الداخلية، انطلقت جحافل قواتها فى عصر ملوك الأسرة الثامنة عشرة العظام نحو الشمال ونحو الجنوب لتبدأ تأسيس الإمبراطورية فى القرن الخامس عشر ق.م، وكانت حروب تحوتمس الأول (١٥٠٤ - ١٤٩٢ق.م) فى آسيا، أول محاولة حقيقية فى تاريخ مصر لإرساء سيادتها فى فلسطين وشمال سوريا وعبر نهر الفرات، وفى عهد تحوتمس الثالث (١٤٥٧ - ١٤٢٥ق.م) أعظم الملوك المحاربين فى تاريخ الحضارات القديمة قام بسبع عشرة حملة

قوية ناجحة إلى الشام، ومنذ حملاته الأولى كان قد نفذ سياسته وبسط نفوذه على فلسطين وانطلق منها إلى سوريا وفينيقيا (لبنان) ثم امتدت رقعة إمبراطوريته إلى أقصى الفرات شمالاً فارضاً السيادة المصرية على مناطق غرب آسيا، واستمرت حملاته للقضاء على المؤامرات والثورات وتدعيم النفوذ المصرى، وتجلت براعته فى التنظيم السياسى والإدارى الذى اتبعه فى إدارة مستعمراته، واضعاً به الأساس لخلفائه لإحكام قبضة مصر على مناطق نفوذها وضمان خضوع حكامها وولائهم لها، فأقام مراكز عسكرية أساسية وعين عليها حكاماً مصريين، ثم اختار حكاماً ذوى كفاءة موالين لمصر لحكم الأقاليم تحت إشراف ورقابة المراكز العسكرية، واصطحب أبناء حكام الأقاليم ليربيهم مع الأمراء المصريين فى مصر.

وفى عهد ابنه أمنحتب الثانى (١٤٢٥ - ١٣٩٧ق.م) قمع كل محاولات التمرد والتعدى واستمرت السيطرة المصرية كاملة على مناطق نفوذها، ثم حافظ ابنه تحوتمس الرابع (١٣٩٧ - ١٣٨٧ق.م) على الإمبراطورية بذات الحدود التى أقامها جده والتى تمتد من الفرات شمالاً إلى الشلال الخامس فى السودان جنوباً.

وفى عهد الملوك الخمسة التاليين: أمنحتب الثالث، إخناتون، سمنخ كارع، توت عنخ آمون، آى (فى الفترة الممتدة من ١٣٨٧ : ١٣٢١ق.م) تعرضت السياسة الخارجية المصرية لمحنة بسبب ظروف داخلية، أدت إلى ضعف السيطرة المصرية على المستعمرات بسبب إهمال مواجهة الثورات وحالات التمرد والتعدى عليها، كما ظهرت الدولة الحيثية كقوة صاعدة، واستولت على شمال سوريا ولبنان، بيد أنه فى ظل جميع تلك الظروف استمرت فلسطين خاضعة لمصر دون رقابة أو تدعيم نفوذ.

وفى عهد حور محب (١٣٢١ - ١٢٩٥ق.م) آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة قام بحملة إلى سوريا بعد أن رتب أموره الداخلية واستعاد لمصر بعض مناطق نفوذها.

وعندما جاء ملوك الأسرة التاسعة عشرة وضعوا نصب أعينهم استعادة الممتلكات المصرية كاملة فى آسيا فتمكن سيتى الأول (١٢٩٤ - ١٢٧٩ق.م) من استعادة كنعان (فلسطين) كاملة وجنوب سوريا ونصف الساحل الجنوبى لفينيقيا (لبنان) وجاهد لاستعادة أمورو وقادش فى سوريا، لكن كان الحيثيون قد أصبحوا قوة كبرى ففرضوا على سيتى توقيع معاهدة سلام اعترفت فيها الدولة الحيثية بالسيادة المصرية كاملة على فلسطين ومرافئ جنوب فينيقيا وتنازل لهم سيتى الأول عن قادش وآمورو.

ولم يكن رمسيس الثانى (١٢٧٩ - ١٢١٣ق.م) راضياً عن معاهدة والده مع الحيثيين، وجاهد كثيراً لكى يسترد قادش وآمورو من الحيثيين. وفى العام الخامس من حكمه دار بينهما قتال شرس فى معركة قادش لم يسفر عن نتيجة حاسمة، وفى صلف وعناد رفض عرض

الصلح والسلام الذى تقدم له به ملك الحيثيين، لكن بعد سنوات من الصراع اضطر أن يقبل السلام فى العام الحادى والعشرين من حكمه بذات الشروط التى كانت مع والده. وبذلك فإن فلسطين وجنوب سوريا والموانئ الفينيقية ظلت ضمن مناطق النفوذ الخاضعة لمصر طوال حكم رمسيس الثانى. واستمر هذا الوضع قائماً فى عهد ابنه مرنبتاح (١٢١٣ - ١٢٠٤ق.م) الذى قام بحملة إلى فلسطين ذكر فيها أنه أخمد عدة ثورات فى المدن الفلسطينية. وجاء ذكر اسم إسرائيل لأول مرة فى التاريخ المصرى. وإن كان ذلك لا يعنى - حسبما سوف نوضحه فى فصل تال - أنه كان لهم وجود هناك فى عهده.

وفى الأسرة العشرون كان رمسيس الثالث (١١٨٦ - ١١٥٤ق.م) آخر الملوك المحاربين الذى ذهب جيشه إلى مناطق النفوذ المصرى فى فلسطين وسوريا فسجلت نصوصه حملة فى العام الثامن من حكمه (١١٧٨ق.م)، كما عثر على بردية (بردية هاريس) التى سجلت أنه أقام معبداً لآمون فى كنعان. وعثر على تمثال له فى بيسان فى فلسطين.

وكانت حروب رمسيس الثالث آخر عهد لمصر بمستعمراتها فى فلسطين وفى آسيا بشكل عام، مما يمكن معه التأكيد تاريخياً على أنه فى النصف الثانى من عهده لم يكن لمصر أى علاقة بفلسطين، وقد شهدت تلك الفترة من حكمه اضطراباً فى أمور الدولة وقامت مؤامرات فى القصر استهدفت حياة الملك نفسه. وتفشى سوء الإدارة، وعدم الاستقرار، ثم جاءت الفترة التالية فى عهد خلفائه لتبتلى البلاد بفيضانات منخفضة ونقص فى الغلة، وسوء فى الإدارة واختلاسات ونهب وسرقة واضطراب أمور الدولة وانحطاط فى جميع المرافق، وتولى الحكم فى مصر فى تلك الفترة ملوك ضعاف، أو أن الظروف الاقتصادية فرضت عليهم قلة الحيلة، وفى خضم هذه الفوضى وذلك السوء تبخرت تماماً مستعمرات مصر فى فلسطين وسوريا، ولم تكن مصر مؤهلة لإرسال أى حملات عسكرية أو مواجهة أى تمرد أو تعد على مناطق نفوذها التقليدية.

والنتيجة التى يمكن أن نستخلصها من تلك المعلومات التى تقدمها المصادر التاريخية أنه كان من المستحيل على الإسرائيليين دخول فلسطين فى عهد هؤلاء الفراعنة الأقوياء الذين أقاموا صرح الإمبراطورية المصرية فى آسيا، أو الذين حافظوا عليها وحاربوا من أجلها، كما أن النصوص المصرية الكثيرة والمتعددة لم تسجل أى وجود لهم فى فلسطين فى عهودهم - باستثناء وثيقة مرنبتاح والتى سنتعرض لشرحها تفصيلاً فى أدلتنا على فرعون الخروج.

ولم يصبح مسرح التاريخ مهيئاً لقبول الإسرائيليين فى فلسطين إلا فى النصف الثانى من حكم رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين المصرية.

الفصل الثانى
تاريخ دخول بنى إسرائيل مصر

وضعنا أولى الركائز الأساسية فى البحث الحقيقة الدينية، دخول بنى إسرائيل وإقامتهم فى مصر حتى بعث نبى الله موسى والخروج بهم، وباعتبار أن تاريخ ذلك الدخول يعتبر نقطة البداية فى الأحداث التاريخية لحياة بنى إسرائيل فى مصر، وقصة موسى وفرعون، فإن الأمر يستلزم تحديد الزمن التاريخى لتلك البداية فى تاريخ مصر القديمة، لإمكان تتبع توالى الأحداث إلى نهاية إقامتهم وتحديد تاريخ الخروج.

وأيضاً من الثوابت الأساسية التى نرتكز عليها فى تحديد إطار البحث، وحصر النطاق الزمنى له، الوجود المصرى الإمبراطورى القوى الراسخ فى فلسطين، الذى بدأ فى النصف الأول من حكم الأسرة الثامنة عشرة، واستمر بصفة أساسية ومؤكدة إلى منتصف حكم رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين، وحتى فى فترة ضعف النفوذ المصرى فى آسيا الممتد من عهد أمنحوتب الثالث إلى نهاية عهد «آى»، فإن فلسطين تحديداً لم تخرج عن نطاق الممتلكات المصرية، وأوضحت رسائل حكام الولايات الخاضعة سواء التى حملت عبارات الإخلاص والولاء أم تلك التى حملت النفاق والخداع، أن هؤلاء الحكام ظلوا خاضعين لمصر ويعترفون بسيادتها، ويمكن بذلك أن نحدد فترة استمرار النفوذ المصرى على فلسطين ابتداء من بداية حملات تحوتمس الثالث فى العام الأول من انفراده بالحكم ١٤٥٧ق.م، حتى حملة العام الثامن من حكم رمسيس الثالث فى العام ١١٧٨ق.م.

وخلال تلك الفترة كانت النصوص المصرية واضحة فى تحديد المدن الفلسطينية التى تغزوها، والمعارك التى دارت هناك والشعوب والقبائل التى تتحرك على أرضها أو التى تتعدى عليها، ولم يتبين منها أى وجود لشعب إسرائيل بينهم على النحو الذى صورته القصة الدينية لروايتى القرآن الكريم والتوراة، وبعد انتهاء تلك الفترة دخلت العلاقات المصرية الفلسطينية فى مرحلة سُبات. وانعدمت الحملات العسكرية إليها.

ثم كانت أول حملة عسكرية مصرية إلى فلسطين بعد هذا التاريخ بحوالى قرنين ونصف القرن فى بداية حكم الأسرة الـ ٢٢ المصرية، وآنذاك كان هناك وجود إسرائيلى وصل إلى مرحلة الانقسام إلى مملكتى يهوذا وإسرائيل، وهو الأمر الذى يعنى أنه قد سبق تلك المرحلة مراحل التيه، ثم دخول فلسطين، وقيام دويلات القبائل فى عصر القضاة، ثم قيام المملكة. ومع استحالة دخولهم فلسطين إلا فى النصف الثانى من عهد رمسيس الثالث وتحديداً بعد التاريخ ١١٧٨ق.م، وبالرجوع إلى الوراء مدة أربعين سنة سابقة على هذا التاريخ هى فترة التيه – وهى

أيضاً أحد ثوابت البحث - فإننا نصل إلى فترة حكم رمسيس الثانى - ومع صعوبة تصور حكم يوسف فى مصر - على النحو الذى فصلته القصة الدينية - لأسباب قومية فى عهد أى من ملوك الأسرتين الثامنة عشرة، والتاسعة عشرة، واستهداء بالمدة الزمنية التى ذكرتها التوراة لبقائهم فى مصر ٤٣٠ سنة، والعودة إلى الماضى مرة أخرى من زمن رمسيس الثانى، فإننا نجد أن تلك الفترة هى عهد ملوك الهكسوس الذين دخلوا مصر على وجه التقريب عام ١٧٣٠ق.م، وكان ذلك بداية ظهور الأجانب فى الدلتا وتأسيس عاصمتهم فى مدينة أواريس (أفاريس) فى الشمال الشرقى من الدلتا، واستمر وجودهم فى مصر حتى عام ١٥٥٠ق.م. ولقد بدأ دخول الهكسوس - فى فترة ضعف - بزحف شعوبهم تدريجياً على شمال البلاد فى موجات استغرقت حوالى خمسين سنة، وتوج هذا الزحف باستيلائهم على الحكم والسيطرة على مصر - عدا الجزء الجنوبى - فى العام ١٦٧٥ق.م، فى عهد ملك يدعى ساليتس - حسب رواية مانيتون - هو مؤسس أسرة الهكسوس وحكم قرابة واحد وعشرين عاماً وتبعه عدد من الملوك وأشهر ملوكهم:

يعقوب حار، ومن المرجح أن حكمه دام ثمانية عشر عاماً، وخلفه خيان، وحكم حوالى خمسين عاماً، وخلفه أبوفيس الأول وامتد حكمه أربعين سنة (جدول تورين) وقرب نهاية عهده بدأ الصراع المكشوف مع طيبة، وكان معاصراً من حكام الجنوب للملك تاعا الأول ثم سقنن رع (تاعا الثانى) وكامس.

وأثناء حروب كامس تولى الحكم أبوفيس الثانى. والترتيب الزمنى لآخر ملكين من ملوك الهكسوس يشوبه شىء من الاضطراب، ويتفق حكمهما مع حكم أحمس الذى قاد حروب التحرير وطرد الهكسوس. ولا توفر المصادر المتاحة أدنى معلومات عن آخر أيام الهكسوس.

وتنتهى معظم الدراسات الجادة إلى أن دخول بنى إسرائيل مصر قد حدث فى عصر الهكسوس.

ومن المثير أن كتابات بعض العلماء السلفيين من العرب المسلمين تذكر أن ملك مصر فى عهد يوسف كان من ملوك العرب الذين حكموا مصر فى ذلك الوقت، وأنه كان يدعى الريان بن الوليد، ومن السهل تقريب اسم الريان باسم الملك خيان، وإن كان يصعب تحديد المصادر التى استقت منها المصادر العربية الإسلامية تلك المعلومة، إلا أن ما يجعلنا نقف أمامها باهتمام فى هذه الحالة، هو توصل تلك المصادر - عن حق - إلى وجود حكام أجانب لمصر فى ذلك العهد، وهو أمر لم يشر إليه العهد القديم (التوراة) فلا يمكن القول إنه مصدره، بل على العكس فإن التوراة جعلت ملك مصر فى عهد يوسف من الفراعنة ومنحته لقبهم، ويظل مصدر الكتابات العربية مجهولاً، والجدير بالتأمل أيضاً أن المصدر جعل الحكام الأجانب لمصر من العرب، وقد انتهت أوثق الدراسات التاريخية الحديثة إلى أن أصل الهكسوس من عرب

الجزيرة العربية الذين نزحوا إلى الشمال والغرب فى موجات الجفاف التى حلت بهم.

وسوف نرى فى دراستنا أن البناء التاريخى لعناصر البحث بجميع ركائزه الدينية والتاريخية يكتمل بحتمية أن يكون دخول بنى إسرائيل مصر قد حدث فى عهد الهكسوس، كما يتفق ذلك مع تحديد التوراة بأن إقامتهم فى مصر استمرت ٤٣٠ سنة.

ويساند هذه النتيجة فى تحديد تاريخ دخولهم فى زمن الهكسوس أدلة كثيرة نوضحها على النحو التالى:

الأول: أن القرآن الكريم - فى إعجاز لغوى يتفق مع أدق الأمور التاريخية التى كشفت عنها الآثار فى العصر الحديث، ولم تكن معلومة للرسول الكريم وصحابته قبل أربعة عشر قرناً - استخدم فى سورة يوسف للدلالة على حاكم مصر الذى عاصره لقب «ملك» وليس «فرعون»، يقول تعالى:

«وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)» [يوسف].

«وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)» [يوسف].

«وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)» [يوسف].

هذا فى حين أن القرآن الكريم لقب الحاكم الذى عاصر موسى بلقب «فرعون» فى جميع السور التى تناولت قصة نبى الله موسى مع فرعون.

يقول تعالى:

« نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ(٤)» [القصص].

«اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤)» [طه] .

«إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦)» [المزمل].

«وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ...(١٢٧)» [الأعراف].

إلى آخر الآيات الكثيرة التى ذكرت ذلك اللقب لفرعون موسى. وهذا التعبير القرآنى الإعجازى الذى يميز بين لقب حاكم مصر فى عهد يوسف عن عهد موسى يؤكد أن يوسف عليه السلام قد وصل إلى مصر فى عصر لم يكن يحكم فيه الملوك المصريون الذين اتخذوا لقب فرعون، والذى بدأ يستعمل للدلالة على شخص الملك فى عصر الأسرة الثامنة عشرة،

مما يدل على أن يوسف عاش قبل هذا العصر، وبالتالى فهو عصر الهكسوس الذى كان يحكم مصر فيه ملوك أجانب.

وهذه الإشارة الإعجازية للقرآن العظيم ضمن إشارات أخرى كثيرة أرادها الله - الذى أوحى القرآن لنبيه الكريم لفظاً وفحوى - لجذب الانتباه للتدبر فى آياته على مر العصور، والرد بها على التهم الغربية ومحاولات المستشرقين لوصف القرآن بأنه مشتق من العهد القديم، أو أنه ليس سوى نسخة محوَّرة عنه، إذ فى مقابل هذه الصياغة الإلهية للقرآن الكريم، نجد العهد القديم الذى أعاد الكهنة صياغته فى عصور تالية لنزوله على موسى يستخدمون لقب «فرعون» للدلالة على ملك مصر المعاصر ليوسف فى عدة مواضع فى سفر التكوين، ابتداء من نهاية الإصحاح السابع والثلاثين حتى الإصحاح الخمسين، ومن ذلك «وبارك يعقوب فرعون وخرج من لدن فرعون. فأسكن يوسف أباه وإخوته. وأعطاهم ملكاً فى أرض مصر فى أفضل الأرض فى أرض رعمسيس، كما أمر فرعون» [التكوين: ٤٧ - ١٠: ١١].

وتفسير ذلك أن الكهنة الذين كتبوا التوراة، استخدموا لفظ الفرعون؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه لقب حاكم مصر فى عهد موسى وفى العهود التالية، ولهذا جعلوه أيضاً لحاكم مصر فى عهد يوسف لاعتقادهم الخاطئ بأن هذا لقب ملك مصر فى مختلف عصورها. تماماً كما أخطأوا حين أطلقوا على الأرض التى أسكن فيها يوسف أجدادهم. ومنحهم فيها ملكاً أنها أرض «رعمسيس» رغم أنها لم تتخذ هذا الاسم إلا بعد هذا التاريخ بأكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن فى عهد رمسيس الثانى .

وتجدر الإشارة فى هذا الموضع أيضاً إلى أن كتبة التوراة قد أخطأوا بنفس الأسلوب فى وصفهم العبرانيين فى عهد يوسف بأنهم رجس عند المصريين «وقال قدموا طعاماً فقدموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عنده وحدهم لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين». [سفر التكوين: ٤٣ - ٣١ : ٣٢].

والحديث هنا عن يوسف عندما دعا إخوته وطلب أن يقدموا لهم طعاماً، على الرغم من أن المصريين فى ذلك التاريخ كان يخضعون لاحتلال الهكسوس، وكان الحكام وسادة القوم ومنهم أخوهم يوسف عليه السلام من الأجانب، ويوسف ذاته من أصل عبرانى، ولم يكن مناسباً وقتها وصفهم بأنهم رجس وهم إخوة نائب ملك مصر، إلا أنهم أعطوا لأجدادهم ذات الصفة التى وصمهم بها المصريون عندما أصبحوا عبيداً بعد ذلك العصر فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، فى عهد الملك الذى ذكرت التوراة أنه لم يكن يعرف يوسف، وهو عهد السخرة والتعذيب، والذى استمر حتى خروجهم من مصر.

وعودة إلى الإعجاز القرآنى فى استخدام اللفظ نجده يكتمل فى سورة يوسف بوصف

وظيفته بأنها «عزيز» مصر، والتى كانت تعنى نائب الملك أو الوزير.

يقول تعالى فى سورة يوسف:

«قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا(٧٨)».

«فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ . . .(٨٨)» .

فى حين أنه فى قصة موسى فى القرآن نجد نائب الملك أو الوزير يأخذ لقب «هامان» والذى حسبما سوف نوضح لاحقاً ارتبط باسم آمون كبير الآلهة الوثنية فى عصر الدولة الحديثة التى بدأ حكمها بعد طرد الهكسوس، ومقر عبادته نشأت فى طيبة وتلك المدينة لم يصل إليها حكم الهكسوس.

وتلك الإشارات الإلهية التى تضمنها القرآن الكريم فى سورة يوسف تقدم سنداً بأن أحداثها دارت فى غير زمن الملوك الفراعنة، وسابق على عصر الدولة الحديثة، ولم يدخل مصر غزاة قبل هذا العصر سوى الهكسوس، الأمر الذى يدعم أدلة أن دخول بنى إسرائيل مصر كان فى عهدهم.

الثانى: أنه لم يكن ممكناً ليوسف ذلك الأجنبى العبرانى البدوى أن يحكم فى مصر الحرة، ذات النظرة العنصرية والنعرة المتعالية على الأجانب، إلى الدرجة التى كانوا يعتقدون معها أنهم الشعب الوحيد المتمدن فى العالم، ويسمون أنفسهم الناس أو الرجال تمييزا لهم عن جيرانهم من الليبيين والأفريقيين والآسيويين الذين كانوا يزدرونهم ويطلقون على رؤسائهم لقب «وغد»، وفى إحدى فترات الضعف والاضطرابات يقول كاتب مصرى مستنكراً حالة البلاد «الأجانب أصبحوا ناساً!!».

وكثير من مصادر التاريخ المصرى خلال فترات عصوره المتعاقبة مليئة بالنصوص التى تؤكد هذا التعالى للذات المصرية واحتقارهم للأجانب، وبطبيعة الحال لم يكن يستقيم مع واقع التاريخ المصرى، وفى ظل هذه النظرة للأجانب أن يتولى يوسف هذا المنصب الرفيع الذى يصل به إلى مرتبة الرجل الثانى فى الدولة، فى ظل حكم أى من الأسرات الفرعونية، وأحياناً كان للأجانب وضع أو نفوذ داخل القصور الملكية، لكن ذلك غالباً ما يحدث خلف الأستار دون أن تكون لهم مناصب رسمية رفيعة، ومن ثم فإن ولاية يوسف فى مصر لا يمكن أن تكون أمراً مقبولاً إلا فى زمن حكم الملوك الأجانب «الحقاوخاسوت» أو الهكسوس، والذين وصمهم المصريون احتقاراً لهم بوصف الرعاة.

الثالث: أن قصة يوسف التى وردت فى التوراة تشير إلى أن يوسف أسكن قومه فى أرض «جاسان»، وفى أكثر من موضع عبرت عنها بأرض «رعمسيس»، وهذه التسمية – كما ذكرنا

سابقا - أطلقت لاحقاً فى عصر رمسيس الثانى على ذات الأرض التى اتخذها الهكسوس عاصمة لملكهم «حت وعرت» (أواريس أو أفاريس) بعد أن أضاف إليها رمسيس الثانى المساحات الواقعة إلى الشمال منها (قنتير الحالية)، كما تشير أحداث القصة فى التوراة إلى أن يوسف كان يعيش فى منطقة قريبة من أرض جاسان (جوشن) التى أسكن فيها قومه، وأن قصر الملك كان فى تلك المنطقة أيضاً، كما عين يوسف بعض إخوته رؤساء لمواشى الملك، وهذه الأمور لا تتفق بحال من الأحوال سوى أن تكون عاصمة مصر، وإقامة الملك فى هذه المنطقة فى شرق الدلتا، فلا تتفق هذه الصورة مثلاً مع وجود العاصمة فى طيبة (جنوب مصر) فى عصر الأسرة الثامنة عشرة المصرية. وهذا الوجود فى شرق الدلتا أمر كان بدايته مع حكم الهكسوس، حيث كانت أواريس عاصمتهم، ثم فى عصر الرعامسة، حيث أصبحت «بى رعمسيس» عاصمتهم فى المنطقة التى ضمت أواريس والأرض الواقعة إلى الشمال منها، وحيث إنه يستحيل تاريخياً أن يكون دخول بنى إسرائيل مصر فى عصر الرعامسة، ومن ثم فإن دخولهم كان زمن الهكسوس.

الرابع: إشارة التوراة فى أكثر من موضع إلى استخدام العجلات (المركبات) فى مصر كوسيلة لتنقل الملوك وكبار القوم وفى الجيش، فقد ورد فى سفر التكوين الإصحاح الحادى والأربعين أن ملك مصر أركب يوسف مركبته الثانية، وفى الإصحاح الخامس والأربعين أن يوسف أرسل عجلات من أرض مصر حملت أباه وإخوته ونساءهم وأولادهم، ثم خرج لاستقبالهم فى مركبته، وفى الإصحاح الخمسين بعد وفاة نبى الله يعقوب، صعد بيت يوسف وإخوته ومعهم جيش كثير باستخدام المركبات، لدفنه فى أرض كنعان.

وقد أكدت المصادر التاريخية أن مصر عرفت العجلات التى تجرها خيول مع دخول الهكسوس مصر، سواء لاستخدامها فى الحرب أم المناسبات الرسمية، وهو أمر بلا شك كان يمكن أن يكون غريباً على كاتب التوراة، بما لا يدركه عقله لتسجيله إن لم يكن تصويراً لواقع، فى هذا الوقت الذى كان العالم فيه يعتمد على الدواب فى التنقل. وهو الأمر الذى يناسب أن يكون دخول بنى إسرائيل فى فترة حكم الهكسوس.

الخامس: إن عدم ورود أى إشارة فى الآثار المصرية على وجود يوسف، وعدم العثور على مقبرته، رغم أنه شغل منصب الوزير أو نائب الملك، تدعم أنه عاش فى عصر الهكسوس بالذات، الذى يعتبر أكثر فترات التاريخ المصرى غموضاً، ورغم المحاولات الجاهدة للبعثات الأثرية منذ القرن التاسع عشر، التى أعملت حفائرها فى المواقع التى كانت يوماً ما مسرحاً للأحداث، إلا أنها لم تصل إلى ثمة تحديد يقينى قاطع يربط الرواية الدينية بالأحداث

التاريخية، أو يكشف آثار حياة بنى إسرائيل فى أرض جاسان بصفة عامة، والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن المصريين بعد أن تم لهم طرد الهكسوس دمروا كل آثارهم وما يشير إليهم أو يذكرهم بوجودهم فى مصر، وها هو ذا الملك «كامس» فى حربه ضد الهكسوس تسجل نصوصه «لقد خابت آمالك أيها الخاسئ الذى اعتاد أن يقول أنا السيد ولا مثيل لى، أما (عاصمتك) فسوف أمحوها، ولن أجعل أحداً يعثر لها على أثر، وسوف أدمر قرى (شعبك) وأحرق ديارهم حتى تصبح تلالاً حمراً إلى الأبد، جزاءً وفاقاً على ما ألحقوه بمصر من دمار». وبعد أن خلفه شقيقه أحمس فى حرب التحرير أتم جهوده، وهاجم الهكسوس فى عاصمتهم أفاريس ودمرها وأجلاهم عن مصر، وبعد الجلاء عمل معظم الملوك المصريين فى عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة على محو كل آثارهم.

السادس: إن دخول بنى إسرائيل مصر فى عهد الهكسوس يجعل الرواية الدينية متوافقة ومتسقة مع الأحداث التاريخية التالية المستمدة من الدراسات الأثرية. ومن ذلك قيام ديانة التوحيد «الآتونية» فى عهد إخناتون، والتى تتطابق أحكامها وتعاليمها مع الديانات السماوية، والتفاف المصريين فى شمال ووسط مصر حول دعوته، بما يرتب منطقياً أن يكون مصدر عقيدة التوحيد فى تلك المناطق المصرية هو دعوة يوسف فى مصر التى ذكرها القرآن الكريم، ويدعم اتحادهم مع بنى إسرائيل فى الإيمان بدين الإسلام، القائم على التوحيد، والذى بعث الله تعالى به الأنبياء جميعاً، قبل أن تدخل العنصرية على صياغة العهد القديم من كهنة إسرائيل – بعد موسى بأكثر من سبعة قرون – لأسباب قد يكون أهمها حمايتهم من الوثنية التى كانت منتشرة فى العالم آنذاك.

أيضاً معاصرة ميلاد موسى لفترة الاضطهاد والقتل والتعذيب لبنى إسرائيل، التى ترويها المصادر الدينية، يحقق اتفاقاً تاريخياً، وتزامناً واضحاً مع قيام «حور محب» بالتنكيل والقتل والتعذيب لأتباع إخناتون الذى أسموه «المارق»، و«مجرم أخيتاتون». كما أنه ليس من قبيل المصادفة أن يترك حور محب طيبة – عاصمة الدولة – فى جنوب مصر، ويفضل الإقامة فى شرق الدلتا ويختار نائبه وساعده الأيمن أحد أبناء تلك المنطقة «بارعمس» الذى أصبح رمسيس الأول بعد ذلك، وهو أحد قادة المنطقة الشرقية، وعينه حور محب قائداً لقلعة «ثارو» الحدودية، وجمع فيها أتباع ديانة التوحيد لتسخيرهم واستعبادهم والتنكيل بهم، ويدعم استنتاجنا فى اتحادهم مع بنى إسرائيل وجود مجموعة باسم «العابيرو» سخرها حور محب فى أعمال كثيرة، أهمها مشاريع البناء؛ وكان منها توسيع معبد الإله ست بأفاريس، وسوف نجد عند الحديث عن فرعون المعاصر لميلاد موسى أن القرآن الكريم يحمل إشارات تؤكد استنتاج كونه حور محب.

ويكتمل تسلسل الأحداث زمنياً فى قصة موسى من تطابق صفات وخصائص وأفعال الفرعون الذى أرسل إليه، كما رواها القرآن الكريم، وقدمتها أحداث التوراة، على النحو الذى يشير فى كليهما - بيقين - بعد المقارنة ودراسة مصادر التاريخ الأثرية إلى كونه رمسيس الثانى، وهو ما سوف نعرضه تفصيلاً فى فصل بيان الأدلة على فرعون الخروج.

ووفقاً لهذا التصور الذى يضع الخروج فى نهاية عصر رمسيس الثانى (١٢١٣ق.م) ومع اعتبار الفترة التى قدرتها التوراة لإقامة بنى إسرائيل فى مصر والتى نراها متسقة مع الدراسة التاريخية للأسباب التى أوجزناها وسوف نفصلها لاحقاً فى موضوعات هذا البحث، فإنه يمكن مبدئياً فى هذه المرحلة - ودون جزم حتى تنتهى فصول هذا البحث - تقدير سنة دخولهم فى أغلب الاحتمالات وفقاً للحساب التالى:

العام ١٢١٣ق.م، نهاية حكم رمسيس الثانى+٤٣٠ سنة، مدة إقامة بنى إسرائيل السابقة على الخروج= يوافق العام ١٦٤٣ق.م، ونكون فى عهد الملك يعقوب حار من ملوك الهكسوس، والذى حكم نحو ١٨ عاماً، غالباً فى الفترة من (١٦٥٠ : ١٦٣٢ق.م)، وبذلك تكون ولاية يوسف عليه السلام - الذى عاش عمراً مديداً - قد عاصرت فترة من حكم الملك يعقوب حار، وعصر الملك خيان، وربما تكون وفاته فى بداية عصر الملك أبوفيس الأول. وإذا استكملنا التسلسل التاريخى بعد رمسيس الثانى يكون:

العام ١٢١٣ق.م نهاية حكم رمسيس الثانى - ٤٠ سنة فترة تيه بنى إسرائيل نزولاً بعد تاريخ الخروج = يوافق العام ١١٧٣ق.م، الذى يعاصر حكم رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين، وفى فترة تالية لانتهاء حروبه، ومرور بضع سنوات على تاريخ آخر غزوة لمصر إلى مستعمراتها فى فلسطين، والتى كانت أحوالها المعاصرة مهيأة تماماً لدخول بنى إسرائيل.

ونخلص من جميع تلك الأدلة إلى دقة تحديد تاريخ دخول بنى إسرائيل مصر فى عصر حكم ملوك الهكسوس.

الفصل الثالث
النطاق الزمنى للبحث

كانت مصر هى مسرح أحداث تلك القصة، شهدت دخول يوسف وبعثه وولايته، كما شهدت ميلاد موسى، وبعثه نبياً فى عصر أحد الفراعنة الطغاة العتاة، ومنذ قيام الدولة المصرية الموحدة سنة ٣١٥٠ق.م، وحتى سقوط حكم الأسرات الفرعونية سنة ٣٣٢ق.م، امتدت تلك الحضارة ثمانية وعشرين قرناً من الزمان.

ومع تطور الاكتشافات الأثرية وضخامتها وتطور أساليب البحث وبفضل التقدم التقنى، قدمت الآثار فيضاً من المعلومات عن تاريخ مصر، وأمكن تحديد الترتيب الزمنى لحضارة مصر فى دقة متزايدة وتحديد ترتيب الملوك وتواريخ حكمهم وأعمالهم ومعاصريهم من حكام الدول الأجنبية، ورغم هذا الفيض من المعلومات لم تقدم المصادر التاريخية، أو الحفائر التى أجريت فى موقع الأحداث أى معلومات تؤيد الرواية الدينية، فظلت الكتب المقدسة هى مصدرنا الأساسى فى دخول بنى إسرائيل مصر وولاية يوسف وميلاد موسى، وقصته مع فرعون انتهاء بالخروج. ولقد عاش بنو إسرائيل (أبناء يعقوب) فى شرق الدلتا، وعاصر دخولهم حكم الهكسوس لمصر، وهى الفترة التى تعرضت للتدمير والتخريب والإزالة من تاريخ مصر بعد التحرير. ورغم محاولات الأثريين وأعمال الحفر والتقيب فى الجزء الشرقى من الدلتا التى كانت تأمل فى العثور على بقايا العبريين، فإن الأمل قد تبدد وصار ضعيفاً فى العثور على دليل يؤكد الاستيطان الجماعى لآل إسرائيل فى تلك المنطقة فى تاريخ معين. بيد أنه توجد إشارات من مصادر أثرية لأسماء عبرية، أو ما يؤكد وجود جماعات من العمال العبرانيين عاشت فى مصر فى فترة تالية لزمن الهكسوس، كما أن قصة موسى مع فرعون انتهت بهزيمة فرعون وإبادته مع قواده وجميع جيشه بغرقهم فى اليم، فكان طبيعياً ومتفقاً مع التقاليد التاريخية ألا يسجل ورثة النظام المهزوم تلك الهزيمة أو يشيرون إليها من قريب أو بعيد. وتخبرنا الكتب المقدسة أن موسى وقومه خرجوا متوجهين إلى فلسطين ، الأرض التى وعدهم الله لإقامة دولتهم.

وسجلت الآثار لأول مرة فى التاريخ المصرى اسم إسرائيل على لوحة للفرعون مرنبتاح بن رمسيس الثانى، أقامها فى العام الخامس من حكمه لتسجيل عدة انتصارات له، وجاء بها عبارة «إسرائيل قد محى وبذرته لا وجود لها، وأصبحت خارو (فلسطين وسوريا) أرملة لمصر»، واعتقد المؤرخون أن هذا الاكتشاف هو أول تحقيق تاريخى لرواية المصادر الدينية، خاصة أن اللوحة ربطت بين إبادة إسرائيل والحملة التى قام بها جيش مرنبتاح إلى فلسطين، بما يؤكد وجود علاقة تسير جغرافياً فى ذات اتجاه المعلومة الدينية.

لكن هذا الاكتشاف إذا كان قد اتفق مع الحقيقة الدينية فى اتجاه طريق الخروج إلى فلسطين،

فإنه قد تعارض وتناقض مع ثوابت دينية وتاريخية أخرى؛ ذلك أن وجود شعب إسرائيل فى فلسطين فى العام الخامس من حكم مرنبتاح - إذا صحت حملته - يجعل خروجهم من مصر سابقاً على ذلك التاريخ بأكثر من أربعين سنة هى فترة التيه، ولا يمكن القول بأن خروجهم حدث خلال عهد رمسيس الثانى الذى حكم ٦٦ عاماً؛ لأن فرعون الخروج غرق ومات وهو يطاردهم، كما لا يمكن القول إن خروجهم قد حدث فى عهد ملك قبل رمسيس الثانى؛ لأن حروب رمسيس الثانى فى فلسطين ومعاهدته مع الحيثيين وخضوع فلسطين لمصر طوال عهده جميعها تؤكد استحالة وجودهم فى فلسطين فى فترة حكمه، كما يثبت من مصادر تاريخية من عهد مرنبتاح تبادل الوفود والرسائل الدبلوماسية بين مصر وكنعان، وأيضاً باقى النص المسجل على لوحة إسرائيل يؤكد عدم قيام أى كيان لإسرائيل فى فلسطين، وهو ما يناقض الحقيقة الدينية من أن الإسرائيليين بعد دخولهم فلسطين صار لهم وجود وكيان استمر وتوسع وتزايد، وبعد مرنبتاح جاءت حروب رمسيس الثالث فى فلسطين لتؤكد مرة أخرى عدم وجود بنى إسرائيل حتى العام الثامن من حكمه.

ولهذه الأسباب فإن لوحة مرنبتاح جعلت العلماء يختلفون فى تقديم تفسير للمقصود بعبارته فيها عن إسرائيل، وجاءت الآراء بشأنها متناقضة، متباينة، ضاربة عرض الحائط بالثوابت الدينية والتاريخية، وسوف نتعرض لذلك لاحقاً.

خلاصة القول عندى، إن لوحة إسرائيل لا تعتبر لقاء تاريخياً يجمع بين الرواية الدينية والمصادر التاريخية عند زمن معين معلوم فى الاتجاهين دينياً وتاريخياً، فهى وحدها ليست نقطة ارتكاز، ولا تقدم معلومات تحدد الموقع الجغرافى أو الزمنى لشعب إسرائيل الذى يعاصر العام الخامس من حكم مرنبتاح.

وإذا كانت الدراسات تضع دخول بنى إسرائيل مصر فى زمن الهكسوس، فإنه يصبح علينا أن نترقب حدوث اللقاء الذى يجمع الرواية الدينية مع المصادر التاريخية بعد دخولهم. وأهمية هذا اللقاء فى تقديرى أنه سوف يتحقق عند كشفه حالة تعاصر زمنى بين الأحداث الدينية- التى جاءت دون تحديد لزمن وقوعها - وبين الأحداث التاريخية - التى صارت على نحو دقيق معلومة الزمن والتاريخ - فيتحدد به تاريخ معين لحدوث واقعة دينية، فتهدينا وتكشف لنا ما إذا كانت الثوابت الدينية والتاريخية التى اعتمدنا عليها قد سارت بنا فى الطريق الصحيح حتى هذه النقطة المعلومة، أم أن الأحداث قد شابها الاضطراب والاختلاف، فإذا كان الاتجاه صحيحاً وواضحاً، فإن هذا اللقاء سوف يعتبر نقطة ارتكاز فى حصر نطاق البحث خلال مرحلة زمنية معينة.

ووفقاً للمصادر الدينية التى أكدت وجود كيان لبنى إسرائيل فى فلسطين بعد الإبراء من التيه، تزايد مع الزمن وضم مساحات من الأراضى وأصبح مملكة، فيكون من غير المعقول ألا يحدث لقاء أو صدام بين هذا الوجود وبين مصر، التى ارتبطت أحداثها ارتباطاً وثيقاً مع فلسطين منذ عصر الدولة الحديثة وحتى نهاية تاريخها، باستثناء الفترة الزمنية التالية مباشرة لزوال نفوذها فى آسيا.

ومن ثم يصبح لزاماً علينا لدقة النتائج وتأكيدها أن نبحث عن اللقاء الذى يحقق التعاصر الزمنى بين قصة الدين وأحداث التاريخ.

أوضحنا أنه بالبحث فى آثار الهكسوس لم يعثر الأثريون على أى دليل يؤكد استيطان بنى إسرائيل لمناطق فى شرق الدلتا. فقط عثر على آثار لأسماء عبرية أو ما يؤكد وجود عمال من العبرانيين عاشوا فى مصر بعد زمن الهكسوس.

● فى عصر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٠ - ١٢٩٥ق.م) اكتمل لمصر طرد الهكسوس، وخرجت الجيوش المصرية لتكوين الإمبراطورية ابتداء من عهد الفرعون تحوتمس الأول، ووصلت إلى أقصى مداها فى عهد تحوتمس الثالث من الفرات شمالاً إلى نبتا جنوب مصر، وانتهى عصر هذه الأسرة ونفوذ مصر قائم على ممتلكاتها، ولم يكن هناك قطعاً أى وجود لكيان إسرائيلى فى أى من مناطق فلسطين، كان يوجد قوم يطلق عليهم العابيرو أو الخابيرو، وبينا أن هؤلاء قد يكونون من قوم إبراهيم عليه السلام أو شعب آخر اتصف بذات صفاتهم والذين انتشروا فى أماكن متفرقة فى فلسطين أو الأردن أو منطقة مدين شرق خليج العقبة.

● وفى عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٢٩٥ - ١١٨٨ق.م) خرجت قوات سيتى الأول بفيالق ثلاثة وهاجم كنعان وجنوب سوريا، وأخضع فلسطين بالكامل للسيادة المصرية حتى وادى شمال الأردن، وأقام نصباً تذكارياً فى «بيت شان» (بيسان)، واحتل الجليل وساحل فينيقيا الجنوبى، وأخضع «ينعوم» فى شمال كنعان تماماً، وهزم الخابيرو فى جبل اليرموك، واستعاد سوريا بالكامل، قبل أن يوقع معاهدة مع الحيثيين لاقتسام الممتلكات فى آسيا.

كما سجلت نصوص رمسيس الثانى حروبه فى آسيا ومواجهته جميع محاولات التمرد من حكام كنعان والممالك القائمة مؤاب وأدوم وقبائل الشاسو الذين طردهم ودفعهم نحو الشرق خارج حدود فلسطين كلية، وقد استطاع فى أولى حملاته مع ابنه الأمير «آمون حرخبش إف» أن يطوقا فلسطين كلٌ فى اتجاه، ثم التحم الجيشان فى وادى أرنون فى الأردن، بعد أن أخضعاجميع المدن الفلسطينية وأكدا نفوذ مصر فيها. وفى حملة ثانية قضى على آخر جيوب المقاومة فى شمال كنعان وسيطر على الخارجين فى تلال الجليل، واحتل الموانئ الساحلية حتى نهاية الساحل الفينيقى (لبنان)، وحاول رمسيس جاهداً استرداد قادش وأمورو فى سوريا من الحيثيين، واستمر الشد والجذب بينهما، ولم يجد بداً فى النهاية من التسليم بالأمر الواقع وانتهى إلى ذات النتيجة التى انتهى إليها والده، لكن كان ذلك فى العام الحادى والعشرين من حكمه. ووقع معاهدة سلام رسمية مع هاتوسيل الثالث منهياً عهد الحروب وبدأ عهد سلام استمر إلى نهاية حكمه.

واستمر ابنه مرنبتاح خلال عهده يتمتع فى آسيا بنتائج المعاهدة التى عقدها والده مع الحيثيين.

وبالتالى فإنه خلال حكم هذه الأسرة استمر النفوذ المصرى على ممتلكاتها قائماً طبقاً للمعاهدة السياسية التى أبرمت بين الإمبراطوريتين مصر وخيتا، منذ عهد الفرعون سيتى الأول، وتأكدت

وتوثقت فى السنة ٢١ من عهد الفرعون رمسيس الثانى، وبموجبها تنازلت مصر عن قادش وأمورو لخيتا واحتفظت بممتلكاتها التى تبدأ عند خط الحدود الذى يمتد من دمشق فى سوريا حتى بيبلوس (على الساحل الفينيقى)، أى أن مملكة مصر فى آسيا كانت تضم جنوب سوريا والساحل الفينيقى وكل أرض فلسطين. وسمحت المعاهدة للمبعوثين المصريين بالمرور شمالاً فى منطقة نفوذ الحيثيين حتى أوجاريت فى شمال سوريا.

ولم يثبت حتى انتهاء عصر هذه الأسرة قيام أى كيان إسرائيلى فى فلسطين، ولا تكشف لوحة إسرائيل فى عصر مرنبتاح عن قيام أى كيان لهم، بل على العكس فإنها تؤكد عدم وجوده.

● وفى عصر الأسرة العشرين (١١٨٨ - ١٠٦٩ق.م) تقلص النفوذ المصرى تدريجياً حتى زال من سوريا وفلسطين، وتسجل المصادر التاريخية رمسيس الثالث كآخر الفراعنة المحاربين فى الدولة الحديثة، كانت حملته إلى فلسطين لمواجهة شعوب البحر - فى العام الثامن من حكمه (١١٧٨ق.م) - هى آخر حملة إلى آسيا فى تاريخ تلك الدولة، ولم يثبت حتى هذا التاريخ قيام أى كيان أو دويلات يمكن نسبتها إلى بنى إسرائيل. وفى عهده سجل التاريخ ظهور اسم أقوام «البلست» (الفلسطينيين) كقوم من شعوب البحر الذين استوطنوا كنعان، وكان ذلك لأول مرة فى التاريخ وحاربهم ومنعهم من دخول مصر فى حملة العام الثامن.

● فى عصر الأسرة الحادية والعشرين (١٠٦٩ - ٩٤٥ق.م) بدأت تطل من جديد العلاقات المصرية - الفلسطينية، ومصدرنا عنها الكتاب المقدس، وفى هذه المرة كان الوضع مختلفاً، فكانت توجد دولة إسرائيلية مستقلة عن النفوذ المصرى، فسجل العهد القديم علاقات مصرية - إسرائيلية فى عهد الملك داود والملك سليمان. ولم تزودنا المصادر التاريخية المصرية بأية وثائق عنها، إلا أنها وفقاً لأحدث الدراسات تتزامن مع ملوك الأسرة الحادية والعشرين فى الفترة الممتدة منذ نهاية عهد الفرعون «بسوسينس الأول» (١٠٣٩ - ٩٩٣ق.م) حتى منتصف عهد الفرعون «سى آمون» (٩٧٨ - ٩٥٩ق.م) وتبدأ بعد تحالف الأسباط بزعامة داود وتكوين مملكة أورشليم، ودارت المعارك ضد البلستى ولم تتدخل مصر فى هذه الصراعات بطريقة مباشرة، إلا أنه بعد أن أرسل داود قائده «يو آب» ليؤدب «أدوم»، فر أميرها «حداد» ولجأ إلى مصر ومعه عدد من رجاله فرحب به ملك مصر وهو على الأرجح «بسوسينس الأول» فأنزله فى قصر خاص وأقطعه ورجاله أرضاً وزوَّجه من أميرة مصرية كانت أختاً لزوجته. ونشأ ابنه «جنويث» فى بلاط الفرعون، وبعد وفاة داود عاد حداد إلى مملكته.

ونعرف أيضاً من التوراة أنه عندما اعتلى سليمان العرش خلفاً لداود، فإنه ارتبط بعلاقات طيبة مع البلاط المصرى وتزوج من أميرة مصرية (على الأرجح ابنه الفرعون سى أمون). وتذكر قصة التوراة أن الملك المصرى هاجم جنوبى كنعان واستولى على مدينة «جازر» وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين فيها، وأعطاها هدية أو مهراً لابنته عند زواجها (الملوك الأول: ٩ - ١٦).

وفى هذه الحالة يمكن أن يفسر النقش الذى عثر عليه فى تانيس يصور مشهد الملك «سى آمون» وهو يضرب الأعداء بفأس الحرب على أنه المقصود بقصة الكتاب المقدس.

وحكم سليمان وقتاً طويلاً واستعان بفنانين ومهندسين مصريين فى بناء هيكله فى أورشليم.

● فى عصر الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ – ٧٤٥ق.م) لم تمنع الصلات الطيبة التى ربطت بين سليمان وملوك مصر من أن يرحب أول ملوك تلك الأسرة شاشانق الأول (٩٤٥ – ٩٢٤ق.م) بعدو للملك سليمان هو «يربعام» من سبط أفرايم، الذى كان يرى نفسه أحق بمملكة إسرائيل؛ فيذكر العهد القديم أن ملك مصر ظل يستضيف «يربعام» طوال حياة الملك سليمان، (الملوك الأول: ١٤ – ٢٥). وبعد وفاته عاد يربعام إلى أنصاره فى فلسطين، وحدث الانشقاق بين «يربعام» وبين «رحبعام بن سليمان» وتبع يربعام عشرة أسباط، ونجح بسبب تأييد مصر ومناصرتها له فى تأسيس مملكة إسرائيل، وتبع رحبعام سبطان وأسس مملكة يهوذا وكانت أورشليم هى عاصمته.

لقاء القصة الدينية مع المصادر التاريخية

حتى التاريخ السابق من عهد شاشانق الأول، كان الكتاب المقدس هو المصدر الذى زودنا بأخبار العلاقات مع مصر بعد عودة اتصالها بأحداث فلسطين، وكان شاشانق هو أول فرعون مصرى يأتى ذكر اسمه واضحاً فى رواية التوراة، وأخيراً حانت اللحظة التاريخية التى انتظرناها طويلاً منذ دخول بنى إسرائيل مصر، مرورًا بصراع موسى مع فرعون والخروج، ثم مرحلة ما بعد الخروج. وشاءت الأقدار أن تقدم الآثار نصوصاً تتفق مع أحداث القصة الدينية، فى أول لقاء يتحقق – حتى الآن – بين الدين والتاريخ، وذلك بغض النظر عن النقش الذى عثر عليه فى تانيس المنسوب إلى الملك «سى آمون» وهو يذبح الأعداء، إذ لم يمكن تحديد سببه على وجه قاطع، أما الاتفاق الذى تحقق بصورة واضحة ومؤكدة فكان عن أحداث العام قبل الأخير من حكم شاشانق الأول.

فقد سجلت التوراة أنه «فى السنة الخامسة للملك رحبعام، صعد شيشق – ملك مصر – إلى أورشليم. وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شىء وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان» (الملوك الأول: ١٤ – ٢٥، ٢٦).

ونعرف من سفر (أخبار الأيام الثانى – الإصحاح التاسع) كميات الذهب والفضة التى جاء بها سليمان إلى أورشليم.

وفى المقابل سجلت المصادر التاريخية المصرية حملة شاشانق الأول ومهاجمة مدن فلسطين فى العام ٩٢٥ق.م، ولم تفصح المصادر عن أسباب تلك الحملة التى قام بها ملك مصر رغم مظاهر الود والصداقة، واستضافته ليربعام ثم تأييده ومناصرته حتى تم له تأسيس مملكة إسرائيل، لكن المؤكد أن هذا الملك ذا الأصول الليبية لم يكن يهدف إلى إعادة نفوذ مصر أو استرداد أملاكها القديمة، وإنما كانت غزوته بقصد السلب والنهب. ذلك السلوك الذى ورثه عن أجداده من قبيلة الماشواش

التي ينتمى إليها، وقد كان معاصراً فترة طويلة من حكمه للملك سليمان، الذى ملأت سيرته وعلاقاته أصداء العالم القديم، واختزن ملك مصر معلوماته عن ثروات سليمان وخزائنه المكدسة بالذهب والفضة، وعندما حانت له الفرصة خرج غازياً، واكتفى من معركته بسلب الغنائم ولم يهتم بتوطيد نفوذه بعد الانتصار، فعادت الأمور كما كانت.

تذكر مصادر شاشانق أنه بعد أن انطلق من غزة توغل فى صحراء النقب، وسقطت بين يديه النقاط المحصنة فى يهوذا واستولى على أورشليم، وبعدها توجه إلى إسرائيل، فاضطر يربعام إلى الفرار إلى الأردن، ولعله وقتها أدرك الهدف من سياسة شاشانق معه عندما ظلله بحمايته وساعده على الانفصال عن مملكة يهوذا، لكن بعد فوات الأوان، ولحقت بملك مصر قوة عسكرية، واصلت تقدمها حتى «بيت شان» (بيسان)، وتوقف زحف المصريين عند «مجدو»، حيث أقام شاشانق لوحاً تذكارياً، ثم عبر جبل الكرمل متجهاً إلى الجنوب، وعاد إلى غزة عن طريق عسقلان.

وبعد عودة شاشانق من حملته، استغل الثروة العظيمة التى حصل عليها فى إقامة مبان كثيرة، وفى معبد الكرنك أقام قاعة عظيمة وأعظم صرح فى مصر على الإطلاق، وأمامه صوّر انتصاراته فى فلسطين. وقدمت النصوص سجلاً بأسماء البلاد التى دانت له بالطاعة. ومات شاشانق فى العام التالى لحملته، وظهرت آثار الثروة الضخمة التى استولى عليها على تصرفات خلفائه من بعده.

وبهذا يصبح العام ٩٢٥ ق.م ذا أهمية خاصة فى دراستنا، باعتبار أحداثه تمثل اللقاء الأول الذى تحقق - حتى الآن - بين الدين والتاريخ، أما جميع ما سبق من أحداث فإنها مستمدة - دون تأريخ زمنى - من الكتب المقدسة، وعلى هذا الاعتبار سوف نرتكز على هذا العام لتحديد نطاق زمنى لمجال البحث لتحقيق الفترة الزمنية فى تاريخ مصر التى عاصرت حياة بنى إسرائيل من الدخول إلى الخروج.

تحديد النطاق الزمنى

إذا اعتبرنا أن نقطة البداية فى البحث خلال عمر الحضارة المصرية سوف تبدأ من تاريخ دخول آل يعقوب مصر، والذى تؤدى الأدلة القوية إلى وضعه فى عصر الهكسوس، فإنه مع ذلك يظل مفتقداً لتحديد سنة الدخول على وجه التحديد واليقين، بسبب افتقاد المصدر التاريخى، وإذا كنا قد وضعنا استنتاج كون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج باعتبار الأدلة التى سوف نستند إليها فى جزء مقبل من الدراسة، وافترضنا صحة تقدير التوراة لإقامة بنى إسرائيل فى مصر (٤٣٠ سنة)، وبناء عليه وضعنا العام ١٦٤٣ ق.م تاريخاً لدخول آل يعقوب مصر. فإن هذا سوف يظل تقديرا افتراضياً لحين انتهاء الأدلة كاملة.

هذا عن نقطة البداية، أما نقطة النهاية فى البحث التى سوف نعتمد عليها كنقطة ارتكاز فهى تاريخ حملة شاشانق الأول إلى فلسطين فى العام ٩٢٥ق.م، الذى وافق العام الخامس من حكم رحبعام

بن سليمان ملك يهوذا، ويربعام الأول ملك إسرائيل، وهذا التحديد يقينى وليس افتراضياً؛ لأنه يستند إلى مصدر دينى ومصدر تاريخى، وأول نتيجة سوف تبنى عليه هى أن وفاة الملك سليمان وانقسام مملكة إسرائيل حدثت فى العام ٩٣٠ق.م؛ لأنها حدثت قبل خمس سنوات من حملة شاشانق.

وعودة إلى الماضى قبل هذا التاريخ لنبحث فى السنوات السابقة عن بداية التاريخ المحتمل لحدوث الخروج، بحيث يكون من المستحيل حدوثه قبله، فإننا نعتمد فى هذا التحديد على أحد الثوابت التاريخية التى قدمناها فى ركائز البحث، وهى آخر تاريخ للسيطرة المصرية على فلسطين (كنعان). وقد سجلت المصادر المصرية حملة العام الثامن من حكم رمسيس الثالث (١١٧٨ق.م) كآخر حملة إلى فلسطين، فضلاً عن مظاهر أثرية أخرى تؤكد نفوذه هناك، وقبل هذا العام وفى عهد الملوك السابقين كان النفوذ المصرى بها كاملاً وواضحاً ومسيطرا . وبعد هذا العام دخلت مصر فى النصف الثانى من حكم رمسيس الثالث، والملوك التاليين حتى رمسيس الحادى عشر فى مرحلة مشاكل وانهيار وضعف، وفقدت مصر تماماً أى نفوذ لها فى فلسطين، وانعدمت حملاتها العسكرية إليها، ومن ثم أصبح مسرح فلسطين مفتوحاً لصراع الممالك الصغيرة المتعددة، ودخول الغزاة إليها، على الصورة التى تجسدها أسفار العهد القديم: يشوع، القضاة، صموئيل الأول والثانى، الملوك الأول والثانى. وارتكازاً على تلك الظروف التاريخية السابقة واللاحقة على العام (١١٧٨ق.م) واستناداً إلى انتهاء مملكة سليمان فى العام ٩٣٠ق.م، والفترة التى تفصلها تبلغ القرنين والنصف قرن، وتناسب جداً الفترات التاريخية لحكم يشوع والقضاة وفترة المملكة الموحدة حسبما سوف نوضحه - لاحقا - فى عرض أدلة فرعون موسى.

ومن هذا المنطلق وتأسيساً على تلك الظروف والعوامل التاريخية المناسبة، فإن دخول الإسرائيليين فلسطين، وقيام دويلات الأسباط، لا بد وأن يكون تالياً لتاريخ حملة العام الثامن من حكم رمسيس الثالث (١١٧٨ق.م)، وإلا كان قد واجه هذا الوجود واصطدم معه؛ خصوصاً أن خروجهم من مصر كان مدوياً وعنيفاً ومزلزلاً، ولن يكونوا أبداً بالقوم الذين يمكن لرمسيس الثالث أن يتجاهل وجودهم.

وكما أن النصوص المصرية لم تسجل بعد هذا التاريخ أى اتصالات أو علاقات مع فلسطين، فإنه وفى المقابل جاءت نصوص التوراة أيضاً خالية من إثبات أى وجود لمصر فى تاريخ دخول يشوع مع بنى إسرائيل إلى فلسطين وطوال عصر القضاة، ولم تبدأ العلاقات المصرية تطل إلا ابتداء من عهد داود عندما استضافت عدوه حداد، ثم وضحت فى عهد سليمان ورحبعام - كما سبق - وإذ كنا قد ارتكزنا على العام (١١٧٨ق.م)، واعتبرنا أن دخول بنى إسرائيل فلسطين لن يكون مناسباً - بل مستحيلاً - إلا فى تاريخ تال لهذا التاريخ، ولأن خروج بنى إسرائيل من مصر لم يستتبعه دخولهم فلسطين، بل قضوا فترة تيه فى الصحراء أربعين سنة، وتلك - كما قدمنا - من الثوابت الدينية التى ليست محل شك أو تأويل أو تفسير، وبحسبان أن ساحة فلسطين قد أصبحت مهيأة لدخولهم بعد

هذا التاريخ الذى يمكن أن يكون قد حدث بعد عام أو عدة أعوام، فإننا سوف نعود إلى الوراء أربعين عاماً من تلك النقطة لنتعرف على مسرح الأحداث فى مصر فى ذلك التاريخ فيكون العام:

١١٧٨ق.م + ٤٠ سنة = ١٢١٨ ق.م، فى عصر الأسرة ١٩، ويوافق عهد رمسيس الثانى الذى حكم ٦٦ عاماً، وقبيل انتهائه فى العام ١٢١٣ق.م، بخمسة أعوام.

وهذا العام - قطعاً - ليس تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر، لأن الخروج قد صاحبه غرق فرعون وموته، فلا يمكن بحال أن يحدث خلال حكم أى من الفراعنة، فتاريخه كان نهاية لحكم ملك وبداية لحكم ملك جديد، وذلك من الثوابت الدينية.

كما توجد استحالة فى أن يكون الخروج قد حدث قبل عهد رمسيس الثانى، فذلك تنفيه تماماً حروبه، وخضوع فلسطين لمصر فى عهده خضوعاً تاماً وواضحاً وموثقاً بمعاهدة مع الإمبراطورية الحيثية، وأيضاً ثبوت استمرار هذا الخضوع بعد عهده وحتى السنوات العشر الأولى من حكم رمسيس الثالث، أى نحو خمسة وثلاثين عاماً بعد عهد رمسيس الثانى.

إذن، فإن الذى يهمنا فى العام ١٢١٨ق.م، أن تاريخ خروج بنى إسرائيل يصبح ممكناً ومفترضاً بعد هذا العام وليس قبله، بشرط أن يكون التاريخ نهاية حكم ملك وبداية حكم آخر، وأيضاً أن تكون الفترة مناسبة لمرور مساحة من الزمن تتفق وانقضاء فترة التيه وعهود يشوع والقضاة والمملكة حتى وفاة سليمان سنة ٩٣٠ق.م، ووفقاً لهذه الركائز يصبح رمسيس الثانى - الذى انتهى حكمه فى العام ١٢١٣ق.م - هو أول قائمة الفراعنة المرشحين لأن يكون فرعون الخروج باعتبار أنه قد صار محتملا وجائزاً، طبقا للحقائق الدينية والمصادر التاريخية أن يحدث الخروج فى نهاية حكمه، وبالتأكيد ليس قبل ذلك.

ومن العرض السابق فإن الدراسة والبحث فى تحديد زمان إقامة بنى إسرائيل فى مصر والشخصيات التاريخية فى قصة موسى وفرعون؛ يجب أن تخضع للنطاق الزمنى الذى يتمثل فى المراحل التالية:

أولاً: دخول بنى إسرائيل مصر فى عهد الهكسوس.

ثانياً: أن الخروج لم يحدث قبل عصر رمسيس الثانى وحتى العام الأخير من حكمه الذى استمر من (١٢٧٩ إلى ١٢١٣ق.م).

ثالثا: ينتهى النطاق الزمنى بوفاة الملك سليمان فى نهاية عصر المملكة الموحدة سنة ٩٣٠ق.م.

ومن ثم فإن نطاق البحث لتحديد تاريخ الخروج والمساحة الزمنية الممتدة حتى وفاة الملك سليمان تكون:

١٢١٣ق.م (وفاة رمسيس الثانى) - ٩٣٠ق.م (وفاة سليمان عليه السلام) = ٢٨٣ سنة، ومراحلها الزمنية طبقاً للقصة الدينية تشمل: فترة التيه، عصر يشوع، عصر القضاة، عصر المملكة الموحدة (شاؤل - داود - سليمان).

الفصل الرابع
الربط بين الرواية الدينية والأحداث التاريخية

عرضنا سابقاً وقدمنا الأدلة الدينية والتاريخية على أن دخول بنى إسرائيل مصر قد حدث فى القرن السابع عشر ق.م، تالياً بسنوات لغزو الهكسوس، وباستثناء فترة حياة يوسف فى مصر ثم حكمه فيها واستدعاء قومه الذين أسكنهم فى أرض جاسان فى شرق الدلتا، فإن التوراة لم تذكر شيئاً عن الحياة السياسية والاجتماعية لقبائل إسرائيل فى مصر حتى زمن ميلاد موسى.

وأيضاً فإن قصة آل إسرائيل فى سورة يوسف انتهت مع دخولهم مصر.

ونستطيع أن نستنتج أن سنوات حياة يوسف بينهم كانت لهم أعوام أمان ورخاء واستقرار وحصانة وحياة سعادة ورغد ونمو وانتشار اقتصادى واجتماعى، ويأتى مؤيداً هذا الاستنتاج قول الله تعالى: «**وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)**» [**يوسف**]

وفى التوراة: قال فرعون ليوسف: «أرض مصر قدامك. فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك.. وإن علمت أنه يوجد بينهم ذو قدرة فاجعلهم رؤساء مواشى على التى لى».

«وسكن إسرائيل فى أرض مصر فى أرض جاسان. وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً» [التكوين - الإصحاح ٤٧ - ٥ ، ٦، ٢٧] .

وبعد وفاة يوسف التى انتهى بها سفر التكوين، فإن التوراة لم تتحدث عنهم مطلقاً، وغابت أحداثهم، حتى حان موعد ميلاد موسى، ومن ثم فإننا لا نعرف من التوراة مدى اندماجهم وتمازجهم فى وسط المجتمع المصرى، أو قبول المصريين لوجودهم ورضائهم عن امتيازاتهم، وبصفة عامة لا نعرف الأحداث التاريخية لحياتهم فى الفترة ما بين الدخول وميلاد موسى. ويزداد الأمر بشأنهم غموضاً بعد وفاة يوسف، ولم يبدأ حديث التوراة عن شأن بنى إسرائيل فى مصر - بعد يوسف - إلا قبيل ميلاد موسى مع بداية سفر الخروج، عندما ذكرت القصة أن ميلاد موسى كان معاصراً لقيام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، ونسبت إليه أنه كان يستعبد بنى إسرائيل ويسخرهم فى أشق الأعمال ويقتل أطفالهم، وتحكى الرواية قصة ميلاد موسى ونجاته فى هذه الظروف، وتربيته فى بيت ملك مصر، ثم تعود الأحداث وتنقطع مرة أخرى، ولا يعود العرض إلا بعد أن يصبح موسى شاباً وخرج ليرى أحوال قومه، فيقتل المصرى ويهرب إلى مدين، وتستمر أحداث القصة فى التوراة حتى يعود موسى ويخرج ببنى إسرائيل من مصر، ونعرف من قصة موسى أن الفترة التاريخية السابقة مباشرة والمعاصرة لميلاده وحتى الخروج كانت كلها مرحلة تعذيب واضطهاد وقتل للأطفال وإذلال واستعباد لشعب إسرائيل، وأنه قد انتهت تماماً سنوات أمانهم ورخائهم ولم يعد لهم نفوذ وصاروا عبيداً وعمال سخرة.

أيضاً فإن القصص القرآنية، التى نعرف أن الهدف منها فى الأساس هو العظة والعبرة وهداية الناس، وبيان عقيدة الله القائمة منذ بداية الخلق على دعوة التوحيد، لذلك فإنها تركز فى الجانب الأكبر منها على سير الأنبياء، وما كان من أمرهم مع قومهم، وتتقطع أحداث القصة بانتهاء حياة النبى ورسالته فى قومه، وهكذا مع كل نبى يحكى الله تعالى لنا قصته فى القرآن الكريم، فحكى سبحانه قصة نبى الله يوسف فى مصر منذ دخلها غلاماً عبداً، وبيع بها حتى أكرمه الله ورفعه ليحكم فيها، واستقدم قومه ليدخلوا جميعاً مصر آمنين مغفوراً لهم، كما عرض القرآن صورة نبى الله يعقوب عندما حضرته الوفاة فى مصر واستدعى بنيه وأوصاهم بالتمسك بدين آبائهم بعد موته، وبيّن القرآن أنهم أجابوه بأنهم سوف يظلوا مسلمين مؤمنين بعقيدة التوحيد التى أنزلها الله على جميع أنبيائه، ثم تنعدم أخبار بنى إسرائيل فى القصة القرآنية حتى يأتى زمن ميلاد نبى الله موسى فعرفنا أخبارهم وما ألم بهم من نوائب من أحداث حياتهم المتزامنة مع قصة موسى - عليه السلام - منذ ميلاده وحتى الخروج من مصر.

ونخرج مما تقدم أن المعلومات عن حياة بنى إسرائيل فى مصر فى القصة الدينية فى التوراة والقرآن تأتى على النحو التالى:

- فى زمن يوسف: معلومات غير مباشرة بمناسبة الحديث عن يوسف.
- بعد يوسف وحتى ميلاد موسى: المعلومات منعدمة تماماً.
- منذ فترة ميلاد موسى وحتى الخروج: عرضت القصة الدينية كثيراً من التفاصيل والمعلومات عن حياتهم بمناسبة الحديث عن قصة موسى، والتى ارتبطت فى معظمها بحياة بنى إسرائيل.

بيد أننا سوف نحاول فى الفصول المقبلة فى هذا البحث أن نتعرف على ظروف حياة بنى إسرائيل فى مصر خلال مراحل وجودهم، وسوف يمكن أن نستخلص أحداث حياتهم فى المراحل التاريخية الغامضة أو التى انعدمت فيها المعلومات عنهم، وذلك بالربط بين القصة الدينية وبين كثير جداً من الأحداث التاريخية للفترة المعاصرة، والتى أصبحنا نعرف أنها التالية لحكم الهكسوس فى مصر.

وبداية وقبل أن نسلك طريق البحث عن المرحلة الغامضة فإننا نستنتج، بل الأدق نستهدى من آيات القرآن الكريم على دليل مهم سوف يصاحبنا خلال مراحل رحلتنا مع بنى إسرائيل حتى ميلاد موسى؛ لأننا نعرف منه أنهم - فى الأغلب الأعم - قد ظلوا أوفياء لعهدهم الذى قطعوه لأبيهم يعقوب، وظلوا متمسكين بدينهم، بل إنهم اكملوا رسالة يوسف فى نشر الإسلام، وظلت عقيدة التوحيد قائمة فيهم، كما انتشرت دعوتهم بين المصريين فى المنطقة التى عاشوا واستقروا فيها، وأيضاً فى الأقاليم القريبة منها، وعلى وجه التحديد - كما سوف يتبين من مصادر تاريخية - فإن هذا المد الدينى قد انتشر فى كثير من المناطق التى كانت خاضعة لنفوذ

الهكسوس فى مصر.

أما الدليل القرآنى الذى نستند إليه فى تأييد استنتاجنا على وفاء بنى إسرائيل واستمرارهم على الإيمان مخلصين لعقيدة التوحيد فى بداية حياتهم فى مصر، الأمر الذى كان له تأثير ظل ممتداً حتى زمن موسى عليه السلام، فهو ما ذكره الله تعالى عنهم فى القرآن الكريم فى المواضع التالية:

١- أن الله تعالى رغم ما كان من شأن أبناء يعقوب مع أخيهم يوسف ومكرهم به ومؤامرتهم عليه، فإنه سبحانه قبل توبتهم الصادقة وغفر لهم ذنبهم. وعن ذلك يقول الله تعالى فى سورة يوسف:

«قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)» .

وأيضا:

« قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)» .

والنتيجة التى يؤدى إليها قول الله تعالى؛ هى أن توبتهم كانت توبة صادقة مخلصة قبلها - سبحانه - وغفر لهم بها جميع ذنوبهم، ولم يذكر بعد ذلك أنهم ظلموا أنفسهم أو نقضوا عهدهم، وقبول الله العالم بالغيوب والقلوب لتوبتهم وعفوه عنهم، وذكره - تعالى - تلك الصورة الحسنة عنهم لعباده فى القرآن الكريم ينفى بالتأكيد خروجهم عن هذه الدرجة الربانية العالية ووفاتهم وهم عليها.

٢- يقول الله تعالى فى شأن بنى إسرائيل فى وصية يعقوب فى سورة البقرة:

«وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)».

فهذا الحديث الإلهى عنهم يذكرهم فى صورة إيجابية حسنة تؤكد صلاحهم وفهمهم، واستجابتهم، ويجمعهم على الإيمان والطاعة مع آبائهم أنبياء الله، وقول الله تعالى ينفى عنهم أية جوانب سلبية يمكن أن تشير إلى نقضهم لعهد الله بعد يعقوب، الأمر الذى نستنتج منه مرة أخرى استمرار هذه الحالة الإيمانية معهم ونقلها لأجيالهم.

٣- أن الله تعالى ساوى بين أسباط إسرائيل وبين الأنبياء فى قوله تعالى:

«قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)» [البقرة].

وقوله تعالى:

«أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ

أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) » [البقرة].

وأيضاً فى قوله تعالى:

«قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)» [آل عمران].

وهذه الآيات واضحة فى بيان رفعة قدر أسباط إسرائيل عند الله بعد توبتهم التى ارتبطت مع تاريخ هجرتهم إلى مصر، وتدل على كرم منزلتهم وعظم درجتهم إلى قدر وضعهم الله به مع الأنبياء.

والنتيجة التى تؤدى إليها جميع الآيات السابقة أنهم فى مصر كانوا البيئة الطيبة والسلف الصالح وآل بيت النبوة الذين حملوا مع يوسف نشر العقيدة وتبليغ الدعوة للمصريين وتثبيت دعائمها فى أركان المجتمع الذى يؤمن بتعدد الآلهة الوثنية منذ عصوره القديمة، فقاموا بنفس الدور الذى قام به صحابة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، فكان إخوة يوسف هم أيضاً صحابته، وتأهلوا بحكم انتسابهم ليوسف ويعقوب لأن يصبحوا القادة والقدوة وأورثوا عقيدتهم لأجيالهم (فى الأغلب الأعم ومع وجود الاستثناء دائماً) كما اهتدى بهم وتعلم منهم من آمنوا بدعوة يوسف ودخلوا فى عقيدة التوحيد من المصريين.

والهدف الذى نقصده من إبراز هذه البيئة الطيبة الصالحة المؤمنة برسالات السماء - بشهادة الله تعالى - هو أنها التى مهدت طريق الإيمان للأجيال المقبلة، وحافظت على استمرار عقيدة إسرائيل فى وسط مجتمع وثنى قديم، وذلك يلقى ضوءاً فى غاية الأهمية، علينا أن نتبيَّنه ونستوعبه ونختزنه فى عقولنا خلال مراحل البحث؛ لأنه وبعد الاستناد إلى المصادر التاريخية وقراءة أحداث تلك الفترة والمعاصرة للحقبة التاريخية الغامضة والقاحلة فى حياة بنى إسرائيل، فإن هذه الشهادة الإلهية يمكن أن تهدينا إلى كشف وتفسير حقائق أخرى وكثير من الأحداث التاريخية التى كان منطقياً وطبيعياً أن تترتب على هذا الأساس الطيب المتين الراسخ الإيمان وتحدث نتيجة لتأثيراته، وهذه الحقائق الأخرى، ولحسن الحظ فى دراستنا ليست افتراضاً محضاً أو استخلاصاً فقط من أحداث التاريخ، بل إنها مؤيدة أيضاً بشهادة الله تعالى، كما واكبتها وعاصرتها أحداث مهمة فى التاريخ المصرى القديم عرفناها من المصادر التاريخية وظلت دوماً تحتاج إلى تفسير يوضح أسبابها والعوامل التى أدت إليها، وكثير من الكتب والأبحاث زاخرة بدراسات المؤرخين بشأنها إلا أنها فى أغلبها وأهمها كانت تحاول أن تستمد من جذور الديانات المصرية القديمة أسباباً لإيضاحها وتحديد نشأتها، أو ترجعها إلى طائفة من المصلحين فى القوم.

ونوجز أثر الشهادة الإلهية بإيمان الأسباط وعظم قدرهم عند الله سبحانه وتعالى، وتأثيرها المتوقع الذى نستخلصه على الحقائق الدينية والأحداث التاريخية التي نقصدها وهى التالية:

١- إن المناخ الطيب والبيئة الإيمانية الناشئة عن رسالة يوسف وعقيدة إخوته بنى يعقوب فى مصر تكشف وتفسر السبب فى استمرار الظاهرة الإيمانية ووجود عقيدة التوحيد بعد انتهاء عصرهم إلى نحو ثلاثة قرون تالية حتى جاء عصر ميلاد موسى، فهذه العقيدة كانت بداية الطريق إلى الحالة السياسية التى كانت عليها مصر فى تلك الآونة، والتى أوضح الله لنا حقيقة وجودها فى سورة القصص فى قوله تعالى:

« **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)** » .

وقد سبق أن أوضحنا فى قصة موسى أن الطائفة المستضعفة التى يقصدها الله تعالى هى طائفة المؤمنين، بدليل رغبته تعالى فى أن ينصرهم ويمكّن لهم فى الأرض، وهو ما تؤدى إليه الآيتان التاليتان: « **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)** ».

وتؤدى باقى الآيات من خوف أم موسى على طفلها الرضيع ووضعه فى سلة وإلقائه فى النهر وآيات أخرى فى القرآن الكريم - سبق أن أشرنا إليها فى قصة موسى - إلى أن بنى إسرائيل كانوا ضمن تلك الطائفة فى هذه الفترة.

والربط بين هاتين الحقيقتين اللتين يكشف عنهما القرآن الكريم يؤكد أن المد والانتشار الدينى لدعوة يوسف فى مصر لم ينقطع حتى ميلاد موسى، ويكون منطقياً أن نتوقع أن الطائفة المؤمنة المستضعفة فى هذا العصر فى مصر ليست سوى إفراز طيب ناتج من تأثيرات الدعوى التى استمرت موجودة وباقية رغم الوثنية الطاغية والراسخة وتعدد الآلهة فى مصر القديمة.

٢- إذا كنا قد حددنا دخول يوسف وقومه مصر فى عهد الهكسوس، ولم تصل إلينا قصة يوسف أو أمر ولايته فى مصر من أى مصادر تاريخية؛ لأنها كانت فى عصر الغزاة الذين هدم ملوك مصر بعد التحرير آثارهم، وأيضاً كانت فى شرق الدلتا حيث الزحف العمرانى الهائل على المناطق الأثرية، لكننا عرفنا حكم يوسف وملكه ورسالته إلى المصريين من المصادر الدينية، كما كشفت ذات المصادر عن حقيقة مهمة أخرى هى استمرار الانتشار والمد الدينى حتى جاء ميلاد موسى الذى تزامن مع فترة اضطهاد وتعذيب وقتل لطائفة المؤمنين من المصريين وبنى إسرائيل.

فإذا كانت الحقيقة الدينية السابقة مؤكدة بقول الله تعالى، ثم جاءت المصادر التاريخية المكتشفة فى العصر الحديث وعرفنا منها بعد فك رموز اللغة القديمة أنها تحمل لنا مرور مصر بمرحلة سياسية متشابهة، بل إنها متطابقة تماماً مع تلك الحقيقة الدينية فى فترة معاصرة ومناسبة تاريخياً لظهور موسى، فالأمر إذن يستوجب ضرورة الربط بين الروايتين الدينية والتاريخية. فتذكر مصادر التاريخ أنه بعد تحرير مصر من حكم الهكسوس بقرنين من الزمان انطلقت على يد الملك إخناتون ثورة دينية كبرى أعلنت عقيدة التوحيد الديانة الرسمية لمصر، وأن

«آتون» هو الإله الواحد الأحد، لا يجسد ولا يرى، وهو إله لكل الكون وليس المصريين فقط، وهو وحده الذى خلق ويتحكم فى كل شىء على ظهر الأرض، الإنسان والحيوان وكل دابة، والشمس والهواء والنهر والبحر، وينزل الماء من السماء أو يجريه فى النهر فينبت الزرع، ويعاقب بين النهار والليل، وليس هناك فرق بين المصْرى والأجنبى إلا بتقوى الله، وكلها أمور غريبة وجديدة على العقيدة المصرية القديمة.

هذا وقد أجمع الدارسون على التشابه الواضح بين أناشيد إخناتون الدينية التى تعتبر الكتاب المقدس لديانته وبين الكتب المقدسة الإسرائيلية، والتى تصل إلى حد التطابق فى بعض المواقع - على نحو ما سوف نوضحه فى موضع قادم - وباعتبار أن إخناتون كان سابقاً على موسى، فقد دعا هذا البعض إلى القول بتأثر التراث الدينى الإسرائيلى بدعوة إخناتون. وردنا على هذا القول: إن هذا التراث فى الأصل إلهى، سماوى، باعتبار أن أصل العقيدة الإلهية الصحيحة واحد يقوم على التوحيد ورد جميع ما فى الكون إلى الخالق الواحد، وقبل نزول التوراة على موسى أخبرنا الله تعالى فى القرآن الكريم أنه كانت توجد صحف إبراهيم، ومن ثم فإنها كانت بالتالى الكتاب الإلهى المعتمد للدعوة مع رسالات إسحاق ويعقوب ويوسف، ولم يكن قد شابها حتى هذا التاريخ أى دعاوى عنصرية، وكانت ما زالت تستند على تعاليمها الصحيحة بأن الإيمان ورسالة الله لجميع خلق الله فى الكون وليس لفئة فقط، ومن ثم نكون على حق إذا استنتجنا أن صحف إبراهيم ورسالات الأنبياء التى دخلت مصر مع دعوة يوسف ونشرها مع أسباط إسرائيل، واستمرت حتى ميلاد موسى هى الأصل الذى استقت منه عقيدة إخناتون أفكارها، وهى نفسها التراث الدينى للكتب المقدسة الإسرائيلية، ولا أكون متجاوزا إذا اعتبرت أن أناشيد إخناتون ما هى إلا ترجمة أو صور تعبيرية من صحف إبراهيم ورسالات الأنبياء السابقة بعد أن اصطبغت بالثقافة المصرية.

وعودة إلى ديانة إخناتون والنتائج التى ترتبت عليها، فإن تلك الدعوة أدت إلى دخول مصر مرحلة عنيفة من الصراع الدينى بسبب العداء بين الدين الجديد وآلهة مصر، وهو أمر لم تكن تعرفه فى عهودها القديمة السابقة؛ ذلك أنه على الرغم من تعدد الآلهة الوثنية فى أقاليم الدولة واختلاف مريديها وأشكالها وشعائرها، فإن هذا التعدد كان يتم فى نطاق من المواءمة واقتسام الثروات فى ظل نظام دينى يقوم على الاعتراف بالآلهة الأخرى واحترام شعائرها ومقدساتها، ولم يكن يسمح بالاختلاف بين الآلهة أو الصراع بينها، وكانت توجد عائلات إلهية، وفى أحيان كثيرة كان يتم الاندماج والتكامل بين إله وآخر، أما فى ظل عقيدة التوحيد، فقد رفض إخناتون جميع أشكال الوثنية واعتبرها شركاً بالله الواحد، ولم يكن المجال متاحاً فى ديانته لوجود آلهة أخرى، فأصدر أوامره بإغلاق المعابد الوثنية فى أنحاء الدولة ومصادرة ممتلكاتها، وتشويه وتحطيم الأصنام ومحو أسماء الآلهة، وما أن

أعلن إخناتون حربه على الوثنية حتى بدأ الصراع بين القوتين، ودبرت ضده سلسلة من المؤامرات ما زالت تفاصيلها غامضة إلى حد كبير.

وخلاصة القول بشأنها: أنها انتهت بانتصار قوى الشر وهزيمة العقيدة الجديدة وتوارت إلى حين فى صدور أتباعها، واختفى إخناتون وأسرته وأتباعه، وتحطمت عاصمة التوحيد «آخت آتون» (العمارنة فى محافظة المنيا) التى أعلن منها ديانته، وأسفرت ساحة التاريخ فى النهاية عن ظهور الرجل القوى القائد «حور محب» الذى خرج من صفوف الشعب وانخرط فى الجيش، وكان أحد رجال إخناتون وهاجر معه إلى العمارنة، ثم أهَّلته قدرته لأن يصبح القائد العام للقوات المسلحة، ونستدل من الأحداث التاريخية المتتالية بعد إخناتون أن هذا الرجل كان شريكاً فى المؤامرات مع كهنة الوثنية لإسقاط إخناتون والدين الجديد، كما حدث فى ظل وجوده قائداً للجيش القضاء على أسرة إخناتون الواحد تلو الآخر، واستطاع فى ظروف ما زالت غامضة أن ينتزع الحكم من الملك «آى»، ويجلس على عرش مصر، رغم أنه لم يكن ينتمى إلى السلالة الملكية المنحدرة من أحمس.

وباعتلاء حور محب سلطة الحكم، استطاع مع وزيره «بارعمس» - الذى أصبح فيما بعد الملك رمسيس الأول - أن يبطش بطشاً شديداً باتباع عقيدة التوحيد؛ فأدخلهم معسكرات للتعذيب والقتل، وأعاد آمون ملكاً على الآلهة، وأوزوريس ملكاً على آلهة العالم السفلى، وعالج الأمور الداخلية بحزم شديد، وأعاد الاستقرار لسلطة الحكم فى الدولة، وللمعابد ممتلكاتها.

تلك هى الحالة السياسية التى كانت عليها مصر فى عهد الملك حور محب، والتى تؤهله عن جدارة مع أسباب أخرى كثيرة - سوف يتاح المجال لعرضها - لأن نستخلص أنه الفرعون الذى استضعف طائفة المؤمنين وانتقم منهم، وحق فى شأنه قول الله تعالى:

« إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)» [القصص].

٣- إذا كنا قد أوضحنا أن عقيدة التوحيد لم تنقطع من مصر منذ دعوة يوسف وحتى ميلاد موسى، وذلك فى المناطق التى كانت تخضع لنفوذ الهكسوس، وذكرنا الأسباب الدينية التى نستند إليها فى استمرار هذا الانتشار والمد الدينى، والتى تؤكد حدوثه، فإنه فى المقابل وعلى الصعيد التاريخى الذى سجلته الآثار المكتشفة سوف نعثر على العديد من الأدلة والدلائل التى تؤيد وجود هذا الانتشار الدينى لعقيدة التوحيد، مروراً بعصر حتشبسوت إلى تحوتمس الرابع ثم أمنحتب الثالث، ولم يكن إعلان إخناتون (أمنحتب الرابع) لعقيدته أمراً فجائياً، بل سبقته مظاهر واضحة تبشر بقرب حدوثه، وهو الأمر الذى سوف نوضحه تفصيلاً خلال مراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر.

الباب الرابع

المراحل التاريخية لحياة بنى إسرائيل فى مصر

الفصل الأول:

عصر رسالة يوسف ـ عليه السلام ـ والانتشار الإسلامى

الفصل الثانى:

المؤامرات الإسرائيلية

الفصل الثالث:

المرحلة الأخيرة.. عصر الانتقام والاستعباد

تقديم:

عاش بنو إسرائيل بعد دخولهم مصر فى أمان ورخاء وسعادة. وقبل أن يولد موسى تقول الرواية الدينية إن الظروف كانت قد تغيرت معهم، وانقلبت حياتهم إلى شقاء واضطراب وتعاسة، وما بين الحالين، النعيم والتعذيب، مرت بهم مراحل تاريخية، وسبق أن ذكرنا أن الفترة التاريخية لحياتهم ما بين يوسف وموسى غامضة تماماً؛ لأن القصة الدينية لم تتحدث عنها، بيّد أننا من خلال الربط بين الرواية الدينية المعلومة وما يمكن البناء عليها من نتائج متوقعة، وبين الأحداث التاريخية المعاصرة لوجودهم فى مصر، سوف نحاول استجلاء غموض تلك المرحلة حتى نصل إلى عصر ميلاد موسى الذى وقع أثناء مرحلة التعذيب والاضطهاد واستمر معهم حتى الخروج من مصر.

وباعتبار ما انتهينا إليه اتفاقاً مع معظم الدراسات التاريخية، من أن دخول بنى إسرائيل مصر حدث فى زمن حكم ملوك الهكسوس، فإنه على صعيد المصادر التاريخية فى ذات الفترة المعاصرة لحياتهم بعد أن تحررت مصر من هذا الغزو الأجنبى، فقد كانت الدولة منذ القدم وثنية تعبد آلهة متعددة، أصبح زعيمهم بعد التحرير «آمون» ومقره الرئيسى مدينة طيبة، فى جنوب مصر، وفى منتصف القرن الرابع عشر ق. م بعد قرنين من التحرير، أعلن فرعون مصر أمنحوتب الرابع (إخناتون) عقيدة التوحيد الديانة الرسمية للدولة، ولكن هذه العقيدة تسببت فى سقوطه واختفت معه دعوته على النطاق الرسمى للدولة، وبعد سنوات قليلة من وفاته الغامضة لحق به سريعاً باقى أفراد أسرته ومن حكموا بعده فى ظروف لا تقل غموضاً، وفى نهاية الأسرة الـ ١٨، حكم حورمحب وبطش مع وزيره بارعمس (رمسيس الأول) بالمؤمنين بالتوحيد، بطش جبارين عتاة، وقضى على آثار الدين الجديد وقهره فى صدور أتباعه، وترشح أدلتنا ميلاد موسى فى هذه المرحلة التاريخية الأخيرة، على النحو الذى سوف نفصله لاحقاً فى عرض أدلة فرعون الميلاد.

وما بين دعوة يوسف وميلاد موسى، مرت مصر بعدد من المراحل السياسية المختلفة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالمراحل الزمنية لوجود بنى إسرائيل المعاصر لتلك الفترة، كما دبرت العديد من المؤامرات التى لا يمكن للدارس الفاحص أن يعتبرها مجرد حوادث فردية غير مرتبطة، أو أن وقوعها حدث مصادفة فى هذا الوقت دون قصد أو ترتيب، كما ظهرت شخصيات ارتبطت بتلك الأحداث، لم يعرف لها أصول أو جذور فى المجتمع؛ لأنهم وإن تفاخروا فى نقوشهم بمناصبهم الرفيعة وألقابهم وأعمالهم، فقد تعمدوا ألا يذكروا شيئاً عن أنسابهم وأصول عائلاتهم، خلافاً لعادة النبلاء والأشراف المصريين. فقال عنهم بعض المؤرخين - دون سند - إنهم من أصول أجنبية، والرأى الآخر الراجح أنهم مصريون خرجوا من عامة الشعب، وارتبط وجود هذه الشخصيات بتأثيرها القوى والواضح على أسرة الحكم، وكانوا مسئولين عن القرارات التى حددت اتجاهات السياسة المصرية داخلياً وخارجياً فى تلك الفترة، وإذا كانت المصادر التاريخية قد سجلت الأعمال منسوبة إلى الملوك فكانوا هم أبطال الأحداث، أو كشفت الدراسات الموقف السلبى تجاه حماية المستعمرات الآسيوية واتهمت الملوك بالتخاذل وحملتهم المسئولية عن ضياعها، فإننا من خلال تقديم هذه المراحل سوف

نبحث عن الدور الحقيقى الغامض والأهداف الخفية لهؤلاء الأشخاص، والتى سوف تثبت أنهم كانوا القوى السياسية التى وقفت خلف قرارات الملوك، وأيضاً تسببت فى المواقف السلبية المتخاذلة تجاه المستعمرات؛ بقصد أن توجه الأحداث وتصنع الظروف التى تخدم مصالحها فى هذا التوقيت، وسوف نسترشد فى بحثنا بالدراستين ـ الدينية والتاريخية ـ مع التزام بالحقائق الدينية والأحداث التاريخية التى استخلصناها كركائز للبحث، وأيضاً من خلال الربط الذى يقتضيه تتابع الأحداث وتسلسل الوقائع والتى جاءت على نحو يؤكد وحدة التخطيط ومركزيته ويؤدى إلى وحدة البناء التاريخى بعد اكتمال الأحداث التى تعاقبت على مصر فى مختلف هذه المراحل، وتؤيده النتائج التى ترتبت عليها.

إنها محاولة لإعادة كتابة أهم عصور مصر القديمة؛ عصر الهكسوس وعصر الدولة الحديثة على ضوء من الحقائق الدينية التى ثبت أنها كانت معاصرة لتلك الفترة.

ويقع المجال التاريخى لمساحة تلك الدراسة فى الفترة ما بين دخول بنى إسرائيل مصر والخروج منها، وتذكر التوراة أن إقامة بنى إسرائيل فى مصر بلغت ٤٣٠ سنة، وإذا اعتبرنا ـ مرحلياً ـ أن هذه المدة صحيحة ـ بل دقيقة ـ وذلك لأسباب سوف تكتمل مع نهاية فصول هذا الكتاب، واتجهنا فى المقابل إلى صعيد المصادر التاريخية، سوف نجد أن حكم الملوك الهكسوس استمر نحو ١٣٠ عاماً انتهت بتحرير مصر وقيام الأسرة الـ ١٨ فى عهد أحمس عام (١٥٥٠ ق . م)، وانتهت هذه الأسرة بنهاية حكم حورمحب فى العام (١٢٩٥ ق . م)، أى بلغت مدة حكمها نحو ٢٥٥ عاماً، فإذا أضيف إلى هذه المدة حكم ملوك الهكسوس تكون المدة الزمنية (٢٥٥ + ١٣٠= ٣٨٥) عاماً، الأمر الذى يعنى أن حياة بنى إسرائيل فى مصر امتدت خلال عهد الأسرة الثامنة عشرة كاملة، واستمر هذا الوجود فترة زمنية فى الأسرة التاسعة عشرة، فإذا أضفنا إلى المدة الزمنية السابقة المدة التالية إلى نهاية حكم رمسيس الثانى عام (١٢١٣ ق . م)، باعتباره أول الفراعنة المرشحين ـ طبقاً للنطاق الزمنى وركائز البحث ـ ليكون فرعون الخروج – وتبلغ هذه الفترة ٨٢ عاماً – فيكون حساب المدة الزمنية كاملاً منذ بداية حكم الهكسوس حتى هذا التاريخ (٣٨٥ + ٨٢= ٤٦٧) عاماً، ونصل بذلك إلى مساحة زمنية تتفق مع رواية التوراة، ويكون دخول بنى إسرائيل مصر تالياً لبداية حكم ملوك الهكسوس ببضعة عقود.

وسوف تكون هذه الفترة هى مجالنا الزمنى فى عرض المراحل التاريخية لحياة بنى إسرائيل فى مصر، وسوف نقسمها ـ بحسب الأحداث ـ إلى المراحل التالية:

المرحلة الأولى: عصر رسالة يوسف ـ عليه السلام ـ والانتشار الإسلامى والذى استمر حتى مواجهة حتشبسوت لهم ووضع حد لهذه الفترة.

المرحلة الثانية: فترة المؤامرات الإسرائيلية للحفاظ على كيانهم وتحقيق أهدافهم والتى استمرت حتى اكتشاف حور محب لحقيقة أمرهم وأهدافهم المعادية للدولة.

المرحلة الثالثة: عصر التعذيب والاضطهاد الذى استمر حتى الخروج من مصر.

ونعرض أحداث هذه المراحل فى الفصول التالية.

الفصل الأول
عصر رسالة يوسف ـ عليه السلام ـ والانتشار الإسلامى

بعث الله تعالى يوسف رسولاً لهداية المصريين، وكانت بعثته سابقة على دخول آل إسرائيل مصر، وبداية يجب أن ننفض عن عقولنا العنصرية وأسرلة الدين التى قيدتنا بها صياغة التوراة قروناً طويلة، فوضعت يوسف ضمن أنبياء إسرائيل وقصرته عليهم، إن يوسف عليه السلام من بنى إسرائيل، ولكنه لم يكن رسولاً مبعوثاً لهداية إخوته أو قومه من آل إسرائيل الذين كان فيهم نبى الله يعقوب وغفر لهم بدعوته، ودخلوا مصر جميعاً آمنين مؤمنين مغفوراً لهم بقوله تعالى: «**قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)**» [يوسف] وقد ظل فيهم يعقوب ودعوته وقبل أن يسلم الروح باركهم وأوصاهم بالتمسك بميثاق الله وعاهدوه على الإسلام، تلك هى قبيلة الإيمان التى دخلت مصر، واتخذتها مستقراً ووطناً إلى حين يأذن الله لها بالرحيل، عاش بينهم نبيان ـ يعقوب ويوسف ـ عليهما السلام.

أما يوسف ـ عليه السلام ـ فتمكيناً له من أداء رسالته فى مصر دولة العلم والحضارة الزاهرة فى العالم القديم، فقد آتاه الله حكماً وعلماً، وكما زود الله أنبياءه بمعجزات تساعدهم على أداء رسالتهم فإنه مكن ليوسف فى مصر.

يقول تعالى:

«**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)**» [يوسف] فالله-سبحانه - حينما اصطفاه لأداء رسالته زوّده بالوسائل التى تساعده عليها فآتاه مع النبوة ملكاً فى الأرض التى كانت قد عرفت نظام الدولة منذ عهد قديم، ومن ثم فقد كان هذا أمراً ضرورياً له فى ظل ظروف المجتمع المصرى ليمنحه من أسباب القوة ما يمكنه من مواجهة الوثنية المصرية القديمة، فبعد أن أخرجه الله من سجنه جعله على خزائن مصر - أغنى أمم العالم آنذاك - ليكون سلطانه أقوى من نفوذ الكهنة وثراء معابدهم، ويكون متحكماً فى توزيع الثروات، وباعتبار العلم والحكمة اللذين وهبهما الله له استطاع يوسف أن يتدبر ويتعقل وينفذ إلى قلوب الناس كما نفذ إلى قلب ملك مصر.

وقد أكد الله تعالى فى القرآن الكريم أن يوسف كان رسولاً مبعوثاً إلى المصريين، وجاء ذلك على لسان مؤمن آل فرعون الذى عاش فى عهد موسى، فيقول تعالى فى سورة غافر:

«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤)».

وقطعاً فإن يوسف عليه السلام اجتهد فى أداء رسالته - شأنه فى ذلك شأن أنبياء الله جميعاً - فأداها على خير وجه، ولم تذهب دعوته كلها هباء أو سدى فى ظل شعب ارتكزت عقائده فى جذورها القديمة على ذات المقومات الأساسية للرسالات السماوية، وهى الإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والثواب والعقاب والخلود إما فى جنات النعيم أو هول الجحيم. ولا يجب أن نفهم حديث مؤمن آل فرعون عن شك القوم فى دعوة يوسف وتمنيهم عدم بعث رسول آخر بعده، على أنه ينصرف إلى جميع المصريين؛ ذلك أن حديث الرجل المؤمن كان يدور مع الكهنة وحاشية فرعون المعادين لموسى، فانصرف القصد فى حديثه إلى أجدادهم كهنة المعابد أو هؤلاء الذين كانوا على شاكلتهم فى عهد يوسف.

ويمكن أن نستدل على نجاح دعوة يوسف فى مصر، ودخول أعداد فى الإسلام بعدد من المظاهر:

١- نهج القرآن فى الحديث عن ملك مصر يؤدى إلى استنتاج أنه آمن بصدق يوسف ودعوته، فقد استوثق من براءته واقتنع بحديثه وعلمه وحكمته حتى قبل أن يتحقق من صدق تفسيره لرؤياه، ويقدم القرآن الدليل على أن يوسف قد نفذ إلى قلب الملك، كما أجرى الله تعالى على يد الملك خيراً كثيراً ليوسف، لقد توثقت الصلات بينهما، وأعجب الملك وانبهر بشخص يوسف منذ لحظة أن تكلم إليه، وحديث القرآن الكريم عن الملك يتجه فى منحى إيجابى، فلا يتفق أن يمنح الحق تلك الصفات الكريمة لرجل ما زال مستمراً على الكفر.

يقول الله تعالى:

«وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)» [يوسف].

ويمكن أن نستنتج أن الحديث الذى تكلم به يوسف إلى الملك، وجعله يستقر فى قلبه (مكين أمين) والذى ارتبط بحسن تفسيره للرؤيا وأفصح عن علمه وحكمته فإنه قطعاً لن يخرج عن نفس المضمون، أو على الأقل اشتمل على ما سبق أن قال وهو يدعو صاحبى سجنه من بضع سنوات للإيمان **«ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ**

لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾» [يوسف].

تلك هى حقيقة ومصدر علم يوسف الذى جعله ينفذ إلى قلب ملك مصر، وما كان ليوسف أن يترك هذا الموقف يمر دون أن يذكر فضل الله عليه ويبلغ رسالته بالصيغة التى تناسب وقوفه فى حضرة هذا المجلس الملكى، ولما كان حديث القرآن ينحى إلى عدل الملك من إنصافه ليوسف، كما يؤكد حسن تفكيره وفطنته وصدق حدسه وانشراح قلبه ليوسف وثقته المطلقة فى علمه وحكمته، ويتضح ذلك من تسليم أمره إليه، واستجابته الفورية بوضعه فى المنصب الذى رشح نفسه له «**اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم**» وقد حدث ذلك دونما سابق عهد معه سوى حديث الرؤيا وتحقيق وقائع مكيدة النساء التى ساقت يوسف إلى السجن. وإذا كانت اعتبارات النبوة تفرض على يوسف إبلاغ رسالة الله إلى الملك، فإن من شرّفه الله بتلك الصفات لا بد أن يكون قد استجاب وآمن، ونلاحظ أنه رغم العنصرية التى اتصفت بها التوراة بعد إعادة صياغتها من الكهنة فإنها أشارت إلى مباركة يعقوب للملك مما يساند استنتاج إيمانه بالله ورسالة يعقوب ويوسف، فتقول التوراة «ثم أدخل يوسف يعقوب آباه وأوقفه أمام فرعون وبارك يعقوب فرعون» [التكوين ـ ٤٧ ـ ٧].

وإذا توصلنا إلى أن ملك مصر قد آمن، فلا شك أنه دخل بإيمانه فى هذا الدين كثير من حاشيته وجنوده والشعب أيضاً.

٢ـ تذكر التوراة أن آل إسرائيل قد عاشوا فى سلام وأمان، وخير كثير فترة حياة يوسف، بل وبعد وفاته لم تذكر التوراة تعرضهم لسوء حتى جاء زمن قام فيه ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، وأيضاً القرآن الكريم يؤكد هذا الأمن والأمان الذى صاحب دخولهم مصر «**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾» [يوسف]**. وهذا الوصف سواء فى القرآن أم التوراة يقدم دليلاً على انعدام الصراع الدينى فى دعوة يوسف، ذلك الصراع الذى صاحب دعوة معظم الأنبياء الذين حكى القرآن الكريم قصصهم، كما يلاحظ أن تعبير القرآن الذى جاء على لسان مؤمن آل فرعون والذى وصف به موقف المصريين تجاه دعوة يوسف «**فمازلتم فى شك مما جاءكم به**» يفيد أنها مرحلة تعبر عن التأرجح بين الشك واليقين دون رفض أو صراع.

وقد عاش يوسف عمراً مديداً تصل به التوراة إلى مائة وعشر سنين، واستمرت دعوته فى حياته، وحملها من بعده أبناء الأسباط تنفيذاً لوصية يعقوب فيهم، وحتى يكونوا جديرين بالشهادة الطيبة التى قالها الحق سبحانه وتعالى عنهم، ومن ثم أصبحوا شيوخ هذا الدين وفقهاءه ومرجعياته للمصريين الذين دخلوا فى عقيدة التوحيد وتركوا عبادة الآلهة المتعددة القديمة. ومن الطبيعى أن نستنتج بحكم هذه السنوات من الدعوة، فى ظل الأمان والاستقرار، مع حكمة يوسف وعلمه، وحكمه فى مصر، والثقافة المصرية الممهدة أصلاً لتقبل مبادئ تلك

العقيدة، أن تكون كلها عوامل ملائمة للانتشار والمد الإسلامي في مناطق نفوذ يوسف في شرق وشمال الدلتا التي تشمل مدناً مصرية مهمة مثل أفاريس وتانيس وعين شمس، ومنف العاصمة القديمة، وتمتد حتى مدينة القوصية في محافظة المنيا آخر حدود منطقة حكم الهكسوس.

وفي هذا المقام يجب أن نقارن بين تلك الدعوة ودعوة إخناتون التالية لها، والتي لم يكتب لها النجاح على المستوى الرسمي وهوت سريعاً، فإن ذلك كان بسبب المكائد والمؤامرات ضده؛ لأنه جرد الكهنة من نفوذهم الديني والاقتصادي عندما أغلق المعابد وصادر ممتلكاتها، وهو أمر قطعاً لم يلجأ إليه يوسف وزير المالية، وأيضاً لم يحرض عليه ملك مصر. وفي هذا تذكر التوراة أنه في زمن الجفاف وبعد ولاية يوسف فإنه اشترى كل أرض مصر لفرعون، إذ باع المصريون؛ كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون، وذلك مقابل أنه عند الغلة يعطون خُمساً لفرعون، والأربعة أجزاء الأخرى تكون لهم بذاراً للحقل وطعاماً لهم ولأسرهم، إلا أن أرض الكهنة لم يشترها، إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون، وصار هذا التصرف فرضاً على أرض مصر بعد ذلك لفرعون الخمس إلا أن أرض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون. [سفر التكوين - الإصحاح ٤٧ - ٢٠:٢٦].

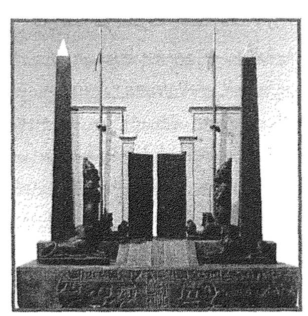
كان هذا هو تصرف يوسف، فقد وازن بين اعتبارات كثيرة لكي ينجح في أداء رسالته السماوية في وسط مجتمع تضرب الوثنية جذورها فيه منذ القدم، فلم يستغل وظيفته التنفيذية ويسارع بتجريد المعابد المصرية من أراضيها وممتلكاتها وإنما تركها لهم، ثم تسللت دعوته برفق بين الناس حتى انصرفوا من أنفسهم عن تلك المعابد، أو دخل كهنة بعض المعابد في دين يوسف باعتبار أن مخصصات وثروات وأراضي المعابد سوف يؤول ميراثها إلى الدين الجديد، وهكذا تدريجياً إما تحولت المعابد الوثنية إلى معابد لأداء الشعائر الإسلامية، ونشر عقيدة التوحيد، أو أغلقت أبوابها وصارت خراباً لا يرتادها الناس، وتكررت هذه الصورة في كثير من المعابد في المدن المصرية في الشمال، وحتى مصر الوسطى، وهذا لا يعني اختفاء المعابد الوثنية وإنما سارت الأمور جنباً إلى جنب في حرية تامة للجميع في ممارسة عقائدهم، وسوف يأتي نص مهم من عصر حتشبسوت يؤيد هذا الاستنتاج.

٣. تذكر التوراة أن يوسف تزوج من «أسنات بنت فوطي فارع» كاهن أون (معبد عين شمس) وأنها ولدت ليوسف ابنين، ويؤدي بنا هذا الاعتبار إلى الاستنتاج الأقرب للمنطق والذي ترشحه طبائع الأمور واعتبارات النبوة والحكمة، وهو أن زوجته وحماه كاهن المعبد وأسرة هذا الكاهن قد دخلوا في العقيدة التي يدعو إليها يوسف، باعتبار أنه نبي يبلغ رسالة الله، ومع ما نعلمه من حكمة يوسف وعلمه، وما نعرفه من السير الذاتية لأنبياء الله جميعاً من تبليغ رسالتهم للكافة ويبدءون بالأقرب إليهم، وقد هدانا التصوير القرآني إلى استنتاج إيمان ملك مصر بعد

اقتناعه بحكمة يوسف، فلا يتفق أنه لا يمكنه ذلك مع زوجه وأهلها، أو تكون قد استمرت على وثنيتها بعد أن أصبحت زوجة نبى واماً لسبطين من أسباط إسرائيل: أفرايم ومنسى اللذان باركهما يعقوب مع الأسباط.

وأميل إلى إدراك أن يكون اختيار يوسف لزوجه قد جاء نابعاً من اقتناعه بأهمية هذا الاختيار فى توطيد حكمه ونشر رسالته، وأنه ربما حدث تالياً لدخولها وأسرتها فى عقيدته.

ويقودنا هذا الاستنتاج إلى أنه بعد إيمان ملك مصر ثم كاهن أكبر المعابد المصرية، معبد أون فى هليوبوليس القديم قدم الحضارة المصرية، الذى تأسس قبل بداية حكم الأسرات، أن يكون هذا المعبد قد تحول إلى الإسلام، عقيدة التوحيد، وبعد أن كان معبداً للإله رع، إله الشمس، صار معبداً للإله الواحد، الذى لا يرى ولا يجسد ولكن ندركه من آياته، وهو الذى يرسل أشعة الشمس ليصنع الحياة على الأرض، وقد ساعدت هذه القوة الإيمانية الجديدة التى تحظى بالاحترام داخل المجتمع المصرى فى نشر دعوة يوسف التى لا تسمح بتعدد الآلهة وتتنافى مع وثنية المعابد، وما كان يمكن تقبلها فى إزالة الموروثات الوثنية دون صدام مع المجتمع الكهنوتى إلا مع مساندة تلك القوة الإيمانية من كهنة عين شمس بعد أن اعتنقوا الدين الجديد، وآمنوا بيوسف نبياً ورسولاً من الله الواحد، ونجد تأييداً لرأينا فى:


نموذج لمعبد هليوبوليس

● نص من عهد حتشبسوت عثر عليه فى اصطبل عنتر فى المنيا (موضوع دراستنا فى أسباب انتهاء تلك المرحلة) كتبته بعد تحرير مصر بأكثر من سبعين سنة، ينعى المعابد التى تخربت منذ زمن حكم الهكسوس والقبائل الجائلة بينهم، ويشير بشكل واضح إلى انقطاع شعائر الإله رع التى أرسيت منذ الزمن الأزلى فى معبده فى قصر «الفنكس» فى عين شمس على يد الغزاة حتى جاءت وأعادتها.

● أنه بعد نحو قرنين ونصف قرن من التاريخ المفترض لحدوث هذا التحول فى معبد عين شمس، انطلقت منه الشرارة الأولى التى أشعلت عقيدة التوحيد فى تاريخ الحضارة المكتوب، وتخرج فى هذا المعبد إخناتون الذى أعلن أن التوحيد هو الديانة الرسمية للدولة، وجعل المؤرخون يعتقدون أنه الرائد الذى سبق الرسالات السماوية، ولكن الحقيقة أن هذا المعبد الذى تربى فيه «إخناتون» كان المنبع الذى نهل منه أفكاره وأسهم فى تكوين عقيدته، ويؤكد ذلك وجود محاولات سابقة عليه لتقديم آتون فى صورته الجديدة، وظواهر أخرى كثيرة

- سوف نشير إليها فى المرحلة التالية - تكشف عن تأثر عقيدة إخناتون بمذهب معبد أون فى مظاهرها التى قدمت به نفسها للشعب بعد أن تسللت بأسلوب جديد فى محاولة لإخفاء حقيقتها بعد حملة حتشبسوت الانتقامية.

خلاصة ما يمكن أن ننتهى إليه؛ أن الإسلام - وهو الإيمان بالله الواحد -قد دخل مصر على يد يوسف عليه السلام، وكان له أتباع ومعابد تقام فيها شعائره فى شرق الدلتا وفى الشمال، وامتد إلى مصر الوسطى وهى معاقل نفوذ الهكسوس، ولم يصل إلى الجنوب الذى كان خاضعاً لملوك مصر والذين ظلوا على ديانتهم القديمة ولم تصل إليهم تأثيرات الدين الجديد.

وبعد سقوط حكم الهكسوس على يد الملك أحمس، تعامل ملوك مصر بعد التحرير مع القبائل الوافدة التى استمرت تعيش فى مصر، ومنهم بنو إسرائيل على أنهم أصبحوا جزءاً من نسيج المجتمع المصرى فى تلك المنطقة شأنهم فى ذلك شأن الكثير من الهجرات الآسيوية التى دخلت مصر واندمجت وتمازجت ضمن المجتمع، غير أن بنى إسرائيل اختلفوا عنهم فى أن حياتهم استمرت وهم على عقيدتهم التى توارثوها عن آبائهم ومعهم من دخل فى دين الإسلام من المصريين ليتوارثه منهم أيضاً أبناؤهم، واستمر هذا الدين حياً منتشراً إلى جانب العبادات الوثنية القديمة دون صراع، بذات الأسلوب الذى وضعه يوسف فى التعامل مع الديانات الأخرى، ومع استمرار الإيمان يكون طبيعياً أن يصبح بنو إسرائيل أحفاد الأسباط - بيت النبوة - هم رجال هذا الدين بحكم أنهم يحملون صحف الأنبياء وتعاليم الدين وشعائره، وبالتبعية يقع على عاتقهم نشر الدعوة وريادتها للحفاظ على دينهم وأن يعتمد عليهم أفراد الشعب المؤمنون، وأصبحت العاصمة «أفاريس» هى قبلة هذا الدين ووجهة المؤمنين يحجون إليها لمعرفة شئون عقيدتهم وأمور دينهم، واستمرت هكذا ردحاً من الزمن حتى حدث الاصطدام الأول مع ملوك طيبة فى عهد حتشبسوت، والذى انتهت بسببه هذه المرحلة.

خريطة توضح المدن المصرية.. امتد حكم الهكسوس حتى مدينة القوصية فى مصر الوسطى

المواجهة بين الدين الجديد وسلطة الحكم فى عهد حتشبسوت

تحررت مصر من حكم الهكسوس على يد الملك أحمس، وبدأ عهد الأسرة الـ ١٨ عام (١٥٥٠ ق . م) وبعد سبعين عاماً ونيف من التحرير، جلست الملكة حتشبسوت على العرش عام (١٤٧٩ ق . م) واستمر حكمها ٢٢ عاماً، فإذا أضفنا إلى هذه المدة التالية للتحرير مدة رسالة يوسف أثناء حكم الهكسوس، وفترة الدعوة السابقة على التحرير، فإننا نصل إلى مساحة زمنية تزيد على القرن ونصف القرن، هى زمان مرحلة الدعوة وانتشار عقيدة التوحيد فى شمال مصر، والتى امتدت حتى مصر الوسطى واتخذت من أفاريس عاصمة الهكسوس مركزاً لها، وقد بينا كيف أنه كان طبيعياً أن يؤدى هذا الانتشار ومع تزايد أعداد المؤمنين تدريجياً إلى إغلاق الكثير من معابد الآلهة القديمة أو إهمالها بانصراف الناس عنها أو تتعطل شعائرها الوثنية القديمة وتتحول إلى معابد لأداء شعائر التوحيد بعد تجريدها من تماثيل الآلهة والأدوات الطقسية الوثنية.

ومن حسن الحظ فى دراستنا أنه عثر على وثيقة من عهد حتشبسوت تقدم معلومات تاريخية فى غاية الأهمية عن تلك النتائج، فهى أولاً: تؤيد الاستنتاج الذى قدمناه عن الانتشار الإسلامى فى شرق وشمال مصر، والذى امتد حتى مصر الوسطى، وثانياً: توضح بداية الاصطدام الذى حدث بين أصحاب عقيدة التوحيد، أتباع ملة يعقوب ويوسف ـ عليهما السلام ـ سواء من الإسرائيليين أو المصريين وبين سلطة الحكم فى طيبة بعد التحرير.

على مقربة من بنى حسن فى محافظة المنيا، يوجد معبد «سبيوس أرتميدوس» ويطلق عليه «اصطبل عنتر» أقامته حتشبسوت فى أيام حكمها للإلهة «بخت» (تمثل فى صورة لبؤة) ونقش على واجهة الصخر فوق المدخل ذى العمد متن طويل تعدد فيه ما فعلته لهذا المعبد، وما قامت به من الأعمال الصالحات للآلهة، وكيف أنها أعادت بناء المعابد التى هشمها الهكسوس الغزاة ومعهم القبائل التى كانت جائلة بينهم.

وهذا النص الذى تركته حتشبسوت يكشف الكثير عن حالة المعابد المصرية فى مناطق نفوذ الهكسوس فى العهد الذى تلى طردهم من البلاد وظل مستمراً حتى سنوات حكمها، إذ إنه على الرغم مما قام به أسلافها من ملوك الأسرة الـ ١٨، من أعمال التعمير والإصلاح فإنهم فى البداية وجهوا اهتمامهم لمعابد آمون فى طيبة عاصمة الدولة بزعم أنه إله التحرير والنصر، وكذا آلهة الجنوب، وانشغلوا فى إعادة بناء المنشآت الحكومية وإرساء هياكل الدولة وتدعيمها عسكرياً وإدارياً وتأمين حدودها من الاعتداءات الخارجية فى عهدى تحوتمس الأول والثانى، ولذلك فإنه وبعد أن انتهت حتشبسوت من بناء معبدها الجنائزى فى الدير البحرى، اكتشفت قبل أن تنتهى سنوات حكمها أن كثيراً من المعابد التى طالها حكم الهكسوس كان لا يزال مخرباً تخريباً تاماً، وقد نهب ما كان بها من أدوات لإقامة الشعائر الدينية، ولم يبق منها شئ، حتى إن معبد «القوصية» وهى آخر بلدة فى مصر الوسطى وصل إليها حكم الهكسوس، قد وجدته مخرباً، وأن

الأرض التهمت معبدها المجيد، وأصبح سقفه مرتعاً تلعب عليه الأطفال، فاهتمت حتشبسوت بأن تقيم معبد الإلهة «بخت» فنحتت لها معبداً فى الصخر يقاوم الدهر، وقامت بتجديد أعياد الآلهة التى كانت فى هذا الإقليم.

وتحدثت أيضاً فى هذا النص عن الأعمال الأخرى التى قامت بها لصالح المعابد والآلهة، فتذكر أنها قامت بإصلاح معابد فى مناطق غير تلك المنطقة كان قد ضربها الهكسوس، واهتمت بتحديث طرق المواصلات إليها، ويذكر النص فضلها على المعابد، وتقول فى ذلك: «كل إله قد صنع جسمه من ذهب «عامو» وأعيادهم قد خلدت فى أفواه الناس، ودورة العيد كلها تحدث فى وقتها المعتاد، وذلك بالتمسك بالقواعد التى وضعتها بشدة، والشعائر لإقامتها على حسب ما عمله (إله الشمس) فى الزمن الأزلى».

وتشير عبارات النص بوضوح إلى أنه قبل عهدها كانت شعائر المعابد المعتادة وأعياد الآلهة قد انقطعت ولم تعد تمارس حتى أعادتها. أيضاً أشار النص إلى تأكيد إعادة التمسك بالقواعد والشعائر القديمة لإله الشمس طبقاً لما كانت عليه منذ القدم؛ بما يمكن أن يؤيد الاستنتاج الذى استخلصناه فى دعوة يوسف من أن هذا المعبد المهم كان قد تحول منذ زمن يوسف إلى معبد إسلامى يستند على عقيدة التوحيد، وأبطل رجال الدين القائمون عليه شعائره الوثنية القديمة التى أرسيت - على حد تعبير النص - فى الزمن الأزلى، كما وردت أيضاً فى النص عبارات تشير إلى أن انقطاع شعائر الإله «رع» فى قصر الفنكس فى عين شمس، كان له أثر سىء على باقى الآلهة وعلى أبدية حياة الملك، وعن ذلك يقول النص: «قلب جلالة ملك الوجه القبلى والبحرى (تقصد نفسها أى حتشبسوت وكانت تستخدم ألقاب الرجال) آخذ فى التفكير فى طاعة من نطق بتبريك شجرة «آشد» (أى شجرة اللبخ) إلى الأبد أى الإله «آمون» رب ملايين السنين، ولقد عظمت الصدق الذى يحبه» وتقصد فى هذه الجملة الإشارة إلى أسطورة قديمة تقول إن إله الشمس كتب بالنيابة عن نفسه اسم الملك على أوراق شجرة «آشد» الكريمة التى كانت فى قصر «الفنكس» فى عين شمس، وبذلك تضمن له ملايين السنين للأعياد الثلاثينية، وكان يعتقد أن هذا قد عمل للإله «رع» نفسه فى بادئ الأمر لأجل خلوده، الأمر الذى يمكن أن يقال إنه افتتح مهرجان هذه الشجرة، ويستمر النص (إله الوجود «خبرى» الذى برأ كل كائن، والذى قدر «رع» وجوده عندما ذرأ الأقطار) وفى هذه العبارات إشارة واضحة إلى أن إحدى الشعائر الوثنية القديمة التى كانت تمارس فى معبد أون (عين شمس) وتنسب للإله «رع» لأجل الحفاظ على خلود الملك، كانت قد انقطعت منذ عهد الهكسوس والقبائل التى كانت تعيش بينهم حتى جاءت حتشبسوت وأعادت إحياءها.

ثم تذكر عن معبد القوصية: (معبد سيدة «القوصية» الذى كان قد صار إلى الخراب، قد التهمت الأرض محرابه العظيم، وأصبحت الأطفال ترقص على سقفه، وإلهة الثعبان أصبحت لا

تخيف، والوضعيون اعتبروا ... بمثابة انحراف، وأعيادها المقررة لم يحتفل بها، وإنى قد قدستها وأعدت بناءها، وصنعت صورتها المقدسة من الذهب لتحفظ مدينتها فى قارب الموكب الأرضى. أما الإلهة «بخت» العظيمة التى كانت ترود الوديان فى وسط الشرق والتى... الطرق التى غمرتها مياه المطر، إذا لم يكن هناك كاهن لصب الماء، فقد جعلت معبدها جديراً... لأجل تاسوعها، وأبوابه من خشب السنط المطعم بالنحاس لأجل أن يكون... فى الوقت المناسب).

ثم يذكر النص بعض الآلهة ممن عنيت الملكة بمعابدها وقربانها، الأمر الذى يوضح حجم التخريب والانصراف الهائل منذ زمن عن معابد الآلهة، ويكشف عن انتشار عقيدة أخرى ترفض عبادة الآلهة القديمة، ومن عبارات النص التى توضح أن انصراف الناس عن المعابد قد حدث منذ زمن طويل إلى درجة أن الناس أصبحوا جاهلين بتلك الديانات وشعائرها، قولها: (والذى كان يدخل وجهاً لوجه قائد التاسوع المقدس هو الإله «آمون» كان جاهلاً به، ولم يكن هناك واحد على علم تام ببيته، ذلك أن والد الإله كان معدماً).

ويستمر النص فى تعداد فضلها وأعمالها للآلهة، وتفخيم أمجادها، وعملها على زيادة القرابين، وتجديد الأعياد وإحياء الشعائر، مع التأكيد فى النص بأن كل ذلك كان غير معروف قبلها.

وتنهى النص بخطاب توجهه إلى جميع الشعب تقول فيه: (اسمعوا أنتم أيها المواطنون، ويا عامة الشعب مهما كان عددكم، لقد أنجزت هذه الأشياء بتدبير قلبى، لقد قوّيت ما تداعى، ولقد رتقت ما تمزّق، وذلك منذ أن كان الآسيويون فى «أواريس» الشمال ومعهم قبائل جائلة بينهم، هادمين ما كان قائماً، وقد حكموا بدون رع، وأنه لم يكن يعمل حسب الأمر الإلهى حتى جاء عهد عظمتى، وإنى ثابت المكانة على عروش «رع» ولقد تنبأ بى لعهد مستقبل لأنى ولدت فاتحاً، والآن قد أتيت بوصفى وحيدة «حور» أقذف النار على أعدائى، ولقد نفيت ما تلعنه الآلهة، والأرض قد محت طابع أقدامهم، وهذه كانت القاعدة التى سار على هديها والد آبائى، الذى جاء فى أوقاته المحددة، وهو الإله «رع» ولن يحدث قط تخريب ما أمر به «آمون» وأن أمرى سيبقى ثابتاً كالجبال، وسيضىء قرص الشمس، ويرسل الأشعة على ألقاب شخصى الفاخر، وسيحلق صقرى فوق العلم الملكى إلى الأبدية).

وبالإضافة إلى أهمية هذا النص فى تأييد نتائج الدراسة، فإنه يمكن أيضاً أن نستخلص منه عدداً من الملاحظات المهمة نجملها فى الآتى:

١ـ تظهر أهمية الربط بين الدراسة الدينية وبين دراسة المصادر التاريخية بصورة واضحة فى هذا النص، فعندما تقول الرواية الدينية إن الله تعالى قد أرسل يوسف نبياً وكانت رسالته ـ عليه السلام ـ دعوة المصريين إلى الإيمان بالله الواحد، وترك آلهتهم التى لا تنفع ولا تضر، وأنه

استدعى إلى مصر قومه، قبيلة من المؤمنين بالله، وفيهم أبوهم نبى الله يعقوب - عليه السلام - الذى أوصاهم قبل وفاته بالتمسك بالإسلام ديناً، وأنهم عاهدوه - بعد أن تاب الله عليهم وغفر لهم - أن يظلوا متمسكين، بعده، بدينهم ودين آبائهم، ثم يأتى هذا النص التاريخى من عهد الملكة حتشبسوت ليؤكد أنه فى ذات النطاق الزمنى (منذ حكم الآسيويين فى أواريس حتى عهد حتشبسوت) وعلى ذات المساحة الجغرافية (مناطق حكم الهكسوس) قد خربت المعابد الوثنية وأهملت شعائرها، وسلبت أدواتها، وانقطعت أعيادها، وصارت أطلالاً خراباً يلعب عليها الصبية، ولم يعد الناس المعاصرون لها يذكرون آلهتها، حتى ذلك الإله الأكبر آمون كانوا جاهلين به، فإن النتيجة المستخلصة هى؛ أن الروايتين - الدينية والتاريخية - تسيران فى اتجاه واحد، وأن المظاهر التى تحدثُنا عنها حتشبسوت ليست إلا دليلاً يؤكد انتشار عقيدة التوحيد بين الناس الذين يعيشون على الأرض التى امتد إليها نطاق حكم يوسف ودعوته فى مصر.

٢- إن مظاهر التخريب والإهمال التى يصفها نص حتشبسوت لا يمكن أن ينسب التسبب فى حدوثها - بأية حال من الأحوال - إلى هيئة حكومية أو سلطة وثنية، بمعنى أنه لا يجب أن نستنتج من ذلك النص أو حتى نعتقد أن القصد منه ربما ينصرف إلى أن ملوك الهكسوس قد أصدروا أوامرهم بإغلاق وتخريب معابد الآلهة المصرية ليحلوا محلها آلهتهم؛ لأنه من المعروف والشائع تاريخياً أن الديانات الوثنية التى تعرف تعدد الآلهة لا يضيرها إطلاقاً وجود آلهة أخرى إلى جانبها، ولهذا لم يكن من نتائج الغزو أو يعرف عن الغزاة قديماً التضييق على الشعوب فى عباداتهم المستقرة والمنتشرة؛ فقد كان المصريون يسمحون للمهاجرين السوريين بإقامة معابد لآلهتهم فى مصر قبل ذلك التاريخ وبعده، كما كان المصريون يقيمون معابد للآلهة المصرية فى المدن الآسيوية، وتدل المصادر أن الشعوب بل الملوك أحياناً عرفوا تقديس واحترام الآلهة الأجنبية والتبرك بها، فليس بشىء جديد فى ظل العقائد الوثنية وجود آلهة متعددين، بل الجديد عندهم والعجيب هو الإله الواحد الذى لا يقبل الآلهة الأخرى، ولا يمكن أن يكون لها وجود مع وجوده، يقول الله تعالى عن الكافرين إنهم عجبوا من دعوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وأنكروها بقولهم: «أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾» [ص].

إن الإهمال والتخريب اللذين أصابا المعابد كان أمراً نابعاً من عقيدة الشعب الجديدة، وقد دعته لأن ينصرف عنها، وينكر آلهتها، ويبطل شعائرها وأعيادها، وأدى ذلك مع مرور الزمن إلى أنها أصبحت أطلالاً يجهل أبناؤهم وأحفادهم آلهتها وما كان يحدث فيها من طقوس. وهذه الأمور طبقاً لنظرية الديانات السابقة لا يستقيم حدوثها إلا فى ظل عقيدة التوحيد، الأمر الذى يستتبع بالضرورة أن يكون السبب الوحيد الذى يمكن أن يؤدى إلى تخريب المعابد وهجرانها رغم ما كانت تملكه من أوقاف وثراء اقتصادى - هو اعتناق كثير من سكان تلك المناطق لتلك العقيدة التى لا تسمح بوجود آلهة أخرى معها، ولم تكن لذلك علاقة بحكم الهكسوس، وإلا كان الشعب

قد عاد إلى سابق عهده بعد التحرير، خصوصاً أن الوثنية وتعدد الآلهة كانت هى ذات عقيدة ملوك التحرير، وإذا كان نص حتشبسوت ينسب هذه الأعمال إلى العهد الذى كان يحكم فيه الآسيويون فى «أواريس»، فإن المؤرخين الذين يسلِّمون بقصدها اللفظى، ويلقون بالمسئولية المباشرة فى إهمال المعابد إلى ملوك الهكسوس يكون قد جانبهم الصواب؛ لأن الأمر فى حقيقته لا يعدو سوى معاصرة زمنية بين بدء حدوث تلك الظاهرة مع حكم الغزاة الذى جاء متزامناً مع رسالة يوسف فى مصر؛ لأن العقيدة الصادقة النابعة عن اقتناع وإيمان لا ينجح الحكام فى تغييرها. وفى عصرنا الحديث لم يفلح الاستعمار فى حمل الشعوب على إنكار عقيدتهم، ولم تنجح الشيوعية فى إجبار شعوبها على ترك دينهم، وما أن اختفى ذلك المذهب، الذى ينكر الأديان، حتى عادت أجراس الكنائس تدق، وارتفع الأذان فى المساجد، وامتلأت بالمؤمنين، أما بعد خروج الهكسوس بأكثر من سبعين عاماً، فقد استمرت الحال على ما هى عليه، حتى جاءت حتشبسوت وسجلت صورة صادقة عن أحوال المعابد، لا تستقيم ولا تصح إلا فى ظل عقيدة واحدة، ألا وهى ذلك الدين الذى يقوم على أن إله الكون واحد لكل زمان ومكان لا شريك له، كما تدل على أن هؤلاء الناس الذين آمنوا به كانت عقيدتهم صادقة، نابعة من قلوبهم فلم يغيروها حتى بعد أن زالت الظروف السياسية التى نشأت فيها.

٣- بعد تحرير مصر من الهكسوس بأكثر من سبعين سنة تقول حتشبسوت إن ذلك التداعى والتمزق حدث «منذ أن كان الآسيويون فى «أواريس» الشمال ومعهم قبائل جائلة بينهم»، أما وقد حدث التحرير وخرج الغزاة من مصر، فماذا يمكن أن يكون المقصود بتعبير «القبائل الجائلة»؟

وأهمية هذا التساؤل أن حتشبسوت تتحدث عن قبائل أجنبية كان دخولهم مصر معاصراً أو مرتبطاً بحكم الهكسوس، وكان لا يزال لهم وجود وتأثير فى الحياة الدينية فى مصر حتى عهدها. ومن المعروف أن الغزاة كانوا قد خرجوا أو بمعنى أدق كان قد تم طردهم من مصر، أما الأجانب الذين تسللوا أو دخلوا فى عهدهم واستمروا يعيشون فى مصر، فذلك لأن حياتهم وأرزاقهم ارتبطت بهذه الأرض، واختاروا مصر وطناً ومستقراً لهم، وعلى مدار فترات تاريخ مصر القديم لم يكن للأجانب الذى يدخلون مصر للتجارة أو الارتزاق تأثير فى نظامها، ولا يتدخلون فى عقائد شعبها، ولا شأن لهم بالإله «رع» أو غيره من آلهة المصريين، وكم مرت فترات تاريخية شهدت توافد قبائل أو عمالة أجنبية، ولم يكن يعنيها أمر الديانة المصرية فى شىء، أو تحاول التغيير فيها أو تتعرض لها بسوء أو تعترض عليها.

ولكن الصورة التى يقدمها نص حتشبسوت للقبائل الجائلة التى ارتبطت بحكم الهكسوس مغايرة لسلوك الأجانب فى مصر؛ لأنهم على الرغم من نجاتهم فى حرب التحرير واستمرار وجودهم حتى عهد حتشبسوت فقد كان من المفروض أن يجنحوا للسلم ويحافظوا على وجودهم ويحترموا عادات وتقاليد وعقائد المصريين، أما هؤلاء الذين يتحدث عنهم

نص حتشبسوت فإنهم لم يحترموا العقائد السائدة القديمة فى الدولة، بل الغريب ـ بحسب النص ـ أنهم كان لهم شأن دينى وتأثير مكّنهم من هدم ما كان قائماً، واستمروا حتى بعد طرد الغزاة لحقبة زمنية طويلة وعلى مساحة جغرافية ممتدة من شمال مصر حتى محافظة المنيا فى مصر الوسطى.

ولما كنا نعرف من الرواية الدينية أن بنى إسرائيل كانوا من تلك القبائل التى دخلت مصر فى عصر الهكسوس وبمباركة حكامها ومساعدتهم، ولم يخرجوا معهم فى حرب التحرير، وكان خروجهم بعد ذلك بعدة قرون، فهو الأمر الذى يأتى متفقاً مع نص حتشبسوت الذى سجل وجود «القبائل الجائلة» حتى عهد «عظمتها» فقد وصفتهم بأنهم (هادمين ما كان قائماً وقد حكموا بدون رع، وأنه لم يعمل حسب الأمر الإلهى حتى عهد عظمتى) وبذلك يتفق النص التاريخى مع الرواية الدينية ويضيف الأحداث التالية لها، ويؤكد أن «القبائل الجائلة» المقصودة هى قبائل كان دخولها مصر مرتبطاً بحكم الهكسوس، واستمرت حياتهم بعد خروجهم. وتظهر الصورة بشكل أكثر وضوحاً عندما يصفهم النص بأنهم أصحاب عقيدة مختلفة عن عقيدة الدولة؛ ذلك أنهم لا يعترفون بالإله رع ولا الآلهة المصرية، إذن فإن الأمر ينصرف إلى قبائل من المؤمنين بالتوحيد (لأنهم لو كانوا وثنيين لأقاموا معابد لآلهتهم إلى جوار معابد الآلهة المصرية دون هدم أو تخريب)، وليس ذلك فقط بل إنهم يتمتعون بنفوذ دينى مكنهم من خلع الإله رع عن مكانته، فانعدمت قيمته ولم تعد له صفة، واستجاب لحكمهم الشعب فى مناطق نفوذهم، ولم يعد يعمل بشعائر هذا الإله أو أوامر كهنته.

وهذه المظاهر جميعها تنطبق تماماً على شعب إسرائيل المؤمنين الذين حملوا لواء الدعوة والتشريع الدينى فى المجتمع الإسلامى بعد يوسف، ويتأكد من ذلك أن «القبائل الجائلة» التى كانت تقصدها حتشبسوت فى نصها هم قبائل إسرائيل، الذين أسقطوا «الإله رع» عن سلطانه فى معبد أون فى عين شمس، وألغوا شعائره (هدموا ما كان قائماً وحكموا بدون رع) وجعلوا منه معبداً لإقامة شعائر التوحيد، وقاموا على أمر كهانته، وآلت لهم ثرواته القديمة وأمواله.

٤ـ يقول نص حتشبسوت إنها واجهت وحاربت تلك القبائل المرتبطة بالهكسوس التى كانت لا تزال فى مصر حتى عهدها (والآن لقد أتيت بوصفى وحيدة «حور» أقذف النار على أعدائى، ولقد نفيت ما تلعنه الآلهة، والأرض قد محت طابع أقدامهم). ورغم ما يحمله النص من إشارات على القضاء على هؤلاء الأعداء ونفيهم ومحوهم من الأرض، فإننا نجزم بأن تلك من عبارات المبالغة والاقتباس التى نسبتها لها دعاية وزيرها ومهندس عمارتها «سنموت»، فبعد أن أتم لها تصميم وتنفيذ بناء معبدها الجنائزى الرائع فى الدير البحرى غرب طيبة، فقد كلفته فى أواخر أيامه بإصلاح المعابد المخربة منذ عهد الهكسوس وإقامة بعض المبانى خارج طيبة. ويستفاد مما سجله فى فاتحة هذا النص أن غرض الملكة الأساسى من إقامة هذه المبانى وتنفيذ تلك الإصلاحات أن تكون دعاية لها، إذ يقول: (لقد أقامت هذا الأثر الدائم لتثبيت اسمها العظيم بقوة مثل السماء حتى

تستطيع أن تنقش بمهارة فى تواريخ سيادتها على ذلك الإقليم) ؛ لأنه إذا كانت حتشبسوت قد استشعرت خطراً من وجود تلك القبائل ـ العزل من السلاح ـ التى تحدثت عنهم أو كان هذا العمل من أولويات تثبيت نظام حكمها وحماية الدولة، لكانت قد بدأت عهدها بمواجهتهم والقضاء عليهم، وكانت مصر تملك القوة العسكرية التى تمكنها من ذلك، أما وقد تركت تلك المواجهة إلى مرحلة تالية بعد أن تفرغ من أعمال أخرى وجدت أنها أكثر أهمية، فذلك يدل على أن بناء معبدها فى الدير البحرى كان عندها ذا أولوية تفوق إصلاح المعابد وطرد القبائل المتسببة فى خرابها، وقد ضمت معها إصلاح الطرق البرية، مما يكشف أن هذا العمل لم يكن حربياً لحماية نظام الدولة وإنما مجرد إصلاح داخلى، الأمر الذى يؤكد ضعف الخطر الذى يمثله وجود تلك القبائل فى تهديد أمن مصر أو استقلالها فى تاريخ حكمها، وعدم امتلاكهم لأية مقومات قتالية، هذا فضلاً عن أن ما وصل إلينا من معلومات عن حتشبسوت يدل على أن شخصيتها كانت بعيدة عن العنف، ولم يكن حب سفك الدماء من طباعها، فلم تكن من الملوك المحاربين، ولم يكن من بين الرجال المعاونين لها رجال حرب، وإنما هم كهنة ورجال إدارة، وقد اتبعت سياسة سلمية طوال حكمها ازدادت فيها موارد البلاد وخيراتها، والحملة الكبيرة التى أرسلتها إلى بلاد بونت كانت حملة سلمية تجارية، وتميز عهدها بالرخاء، وكان تنميتها لثروة البلاد هى أكبر هدية قدمتها لخلفها القائد العسكرى «تحوتمس الثالث»؛ حيث هيأت له الفرصة لتكوين أول إمبراطورية فى التاريخ، واحتلال مكانة سامية لم يسبقه إليها عاهل فى الشرق القديم.

إذاً فإن الذى يمكن أن نستخلصه من عبارات حتشبسوت بشأن مواجهة القبائل أو القيادات الدينية، أنها قامت بنفيهم إلى أماكن أخرى بعيدة عن أواريس أو المعابد التى قامت بإصلاحها أو مصادرة ممتلكاتهم وإقصائهم عن كهانة معبد عين شمس والمعابد الأخرى التى اتخذوها لهم، وأعادت الآلهة المصرية القديمة إلى تلك المعابد أو الأخرى المخربة، وقامت بتجديد شعائرها وأعيادها، وربما أن انتقام حتشبسوت كان بداية تحول بعض من بنى إسرائيل إلى السخرة واستغلالهم فى الأعمال الملكية وأعمال المعابد، وقد يوضح ذلك أن أول ظهور لاسم العبرانيين كعمال فى مصر، كان فى عهد «تحوتمس الثالث» فظهروا كعمال فى بساتين الكروم على جدران مقبرتى الكاهن الثانى لآمون (بو إم رع) و(أنتف) الرسول الكبير للملك.

٥ـ ذكرت حتشبسوت فى نصها أسماء العديد من الآلهة المصرية التى فعلت ذلك لأجلهم مثل: حور، بخت، رع، آمون، تحوت، خنوم، حكت، مين... إلخ، الأمر الذى يؤكد أن التخريب والإهمال فى المعابد قبل عهدها كان موجهاً ضد الآلهة الوثنية فى مناطق حكم الهكسوس بصفة عامة ودون تمييز.

٦ـ استنتاج وصول عقيدة التوحيد إلى محافظة المنيا فى مصر الوسطى، قد يفسر أسباب اختيار «إخناتون» منطقة العمارنة، عاصمة له، يعلن منها عقيدته الجديدة، فى مرحلة قادمة.

الفصل الثانى
المؤامرات الإسرائيلية

كانت حملة حتشبسوت ضد من وصفتهم بالقبائل الجائلة التى دخلت مصر مع الهكسوس، واستمرت تعيش فيها بعد رحيلهم. ونسبت إليهم تخريب المعابد وتغييب آلهتها، هى أول مواجهة تحدث بين ملوك مصر بعد التحرير وبين القبائل الإسرائيلية، التى كانت لا تزال تحتفظ برباطها القومى الواحد، ولم تندمج ولم تنصهر فى كيان المجتمع المصرى. وبعد أن أصبح معروفاً لسلطة الحكم والكهنة ارتباطهم القديم بالغزاة الآسيويين الذين كانوا يحكمون فى «أواريس» وأن دخول المصريين فى عقيدتهم كان السبب المباشر فى هجران المعابد وتعطيل شعائرها الأزلية فى المناطق التى خضعت لنفوذ الهكسوس، فإن هذا يعنى تصنيف تلك القبائل كأذناب للغزاة وأجانب محتقرين وأعداء للدولة والآلهة المصرية - ولا شك - فإنه يأتى طبيعياً أن يترتب على ذلك أن تدور الدائرة عليهم وتتغير الحال معهم، وأن تكون تلك المواجهة قد شكلت نقطة البداية فى انقلاب الأمور ضدهم ولكن تأتى مظاهر عديدة وأحداث متلاحقة زمنياً مترابطة ترتبت كل منها على سابقتها لتؤكد أن شيوخ إسرائيل قد أدركوا الخطر المحدق الذى بات يهدد كيانهم بل وجودهم فى مصر، وعرفوا أن مكمن هذا الخطر يأتى من استمرار إظهار عقيدتهم التى ترفض الآلهة المصرية، وأيضاً استمرار ظهور شخصيتهم القومية التى تقوم على انتمائهم القبلى كاثنى عشر سبطاً تنتهى إلى يعقوب (إسرائيل) والتى استمر تمسكهم بها مواكباً لمراحل حياتهم فى مصر، واستند استمرارها الزمنى إلى سببين رئيسيين:

الأول: وجودهم منذ البداية فى وسط دولة وثنية قديمة تقوم عقائدها على مبدأ تعدد الآلهة، فحرصوا على الاحتفاظ بقوميتهم والاعتزاز والتمسك بأصلهم الكريم باعتبارهم آل بيت النبوة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف؛ وذلك حماية لعقيدتهم من التفرق والضياع فى وسط هذا المجتمع الواسع الكبير.

الثانى: ما حمله تراثهم لهم من أنهم سيعودون إلى موطن هجرة أجدادهم، أرض الميعاد فلسطين، فلم يندمجوا أو يتمازجوا أو يتفرقوا فى أرض هجرتهم، وعاشوا مرتبطين ينتظرون الرحيل، واعتبروا دائماً أن وجودهم فى مصر مؤقت.

وإن كان هذا لا يمنع وجود الاستثناء كأى مجتمع، فلا شك وجد بينهم من تخلى عن قوميته وثقافته وتراثه، واختار مصر وطناً ومستقراً، واندمج فيها وتمازج مع شعبها، وانتقل فى أرضها، وهؤلاء أصبحوا مصريين مع تعاقب الأجيال.

ويمكن القول: إن حملة «حتشبسوت» - التى جاءت فى فترة متأخرة من حكمها - وإن كانت

قد أسفرت عن تشتيت أعداد من بنى إسرائيل من بعض أماكن وجودهم، ومصادرة ممتلكات كثيرة منهم، وأعادت ثروات المعابد القديمة لها، وجردتهم من سلطانهم الدينى فى المعابد التى كانت قد حولت شعائرها إلى التوحيد، وأدت إلى استغلال البعض منهم كعمال فى أعمال الملك والمعابد، إلا أنها بصفة عامة لم تؤد إلى إبادتهم أو اختفاء قوميتهم ولم تفرقهم من مناطق انتشارهم التقليدية فى شرق وشمال البلاد، كما أنها لم تشمل الشعب جملة ولم تجردهم تماماً من ثرواتهم.

عموماً، فإنهم إزاء الخطر الذى داهمهم ونبه السلطات إليهم، بات متعيناً عليهم فى ظل المستجدات المطروحة، والحالة السيئة التى آلت إليها حياتهم، إعادة ترتيب أوضاعهم وتحديد أهدافهم المستقبلية، وقد شاءت الظروف أن تمنحهم فترة كافية للتفكير والتدبير ثم إعادة النهوض؛ ذلك أن مصر دخلت فى مرحلة تاريخية أدت بها إلى توجيه طاقاتها إلى ما هو أكبر وأخطر من تلك القبائل الجائلة، فقد دخلت حتشبسوت فى صراع داخلى على السلطة قبل انتهاء حكمها، وبعدها مباشرة جاء عصر الانتصارات العسكرية، وملاحم الأبطال، والفتوحات الكبرى، وخرجت جيوش «تحوتمس الثالث» لإقامة صرح الإمبراطورية، ثم خلفه «أمنحوتب الثانى» الذى استمر على ذات النهج العسكرى لأبيه، فانشغلت سلطة الحكم عنهم، خصوصاً وقد اعتبر أن مواجهة حتشبسوت لهم كانت كافية لردعهم وتحرير المعابد منهم وإصلاح ما تدمر. وبمرور السنوات ومع تعاظم الدولة المصرية، واتساع مساحة الإمبراطورية تضاءل الاهتمام بهم، وتلاشى خطرهم الظاهر، وساعد على هذا أن حروب «تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى» جلبت معها آلافاً من الأسرى الآسيويين الذين دخلوا سوق العمالة فى مصر كعبيد، فاختلطوا مع قبائل إسرائيل، وكان البعض منهم قد أصبحوا أيضاً عمالاً تسميهم النصوص المصرية العمال العبرانيين، وتوارت عقيدة التوحيد فى قلوب المؤمنين خوفاً من بطش واضطهاد سلطة الحكم بعد أن أصبح معروفاً معاداة أصحاب تلك العقيدة للآلهة المصرية، هذا فضلاً عن أنهم كانوا قد استوعبوا الدرس وأدركوا أنه لن يكون فى صالحهم إظهار وضعهم القبلى المرتبط، فآثروا الاندماج - ظاهرياً - فى المجتمع المصرى للحفاظ على وجودهم، ولإمكان تحقيق أهدافهم، وأهمها استعادة المال والنفوذ، وتدل بعض الشواهد التاريخية القادمة فى أحداث تلك المرحلة أن كهنتهم نجحوا فعلاً فى العودة وإعادة السيطرة على معبد عين شمس، ولكن فى ظل وجود الآلهة الوثنية، وإقامة شعائر الإله «رع» مع إخفاء عقيدة التوحيد التى ظلت كامنة تنتظر الفرصة لانطلاقها، وتكرر أيضاً قبولهم أو سعيهم لوظائف الكهنوت فى معابد وثنية أخرى، ونجاحهم فى تحقيق ذلك. وقد ندرك أن السبب الدافع إلى ذلك أنها بخلاف ما تمنحه من نفوذ دينى وسيطرة، فإنها تعتبر أيضاً مؤسسات اقتصادية بسبب ما تملكه من أوقاف وأموال، وقد ساعدهم على هذا الاختراق مايلى:

١. وجود شريحة كبيرة من المؤمنين المصريين الذين يشاركونهم الولاء الدينى وذات المصير، فعاونوهم على الوجود فى المعابد المصرية بالوضع الجديد، مع إخفاء عقيدتهم الحقيقية.

٢. انتشارهم الاقتصادى الواسع والسابق الذى تحقق لهم منذ عهد يوسف بسبب الأراضى الزراعية الخصبة والمراعى الجيدة التى منحت لهم وتوارثوها، والنفوذ الوظيفى القديم الذى وضعهم فيه - ولا شك أن أجيالهم توارثته - ثم سيطرتهم على المعابد التى تحولت شعائرها للتوحيد مع أموالها وممتلكاتها، واستمرار ذلك فترة طويلة قبل أن تداهمهم حملة حتشبسوت.

٣. إن القصد من حملة حتشبسوت اتجه إلى إصلاح المعابد، ومن ثم فإن أثرها اقتصر على نطاق وجودها وضرب هؤلاء الذين تسببوا فى خرابها أو استولوا على أموالها وهيمنوا على أداء الشعائر فيها، ونجا منها الذين كانوا قد اتجهوا للعمل فى النشاط الزراعى أو الصناعى أو التجارى. وقد يكون جديراً أن نتذكر هنا أن قارون كان من قوم موسى، ونجح فى تكوين صرح اقتصادى هائل فى ظل أسوأ مراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر، ولا يمنع أبداً أن تكون هذه الصورة قد تكررت فى مختلف عهودهم وبدرجات متفاوتة.

٤. امتلاكهم للنفوذ والمال، والتراث الدينى، واقتداؤهم بيوسف، مع سيطرتهم على بعض المعابد فترة طويلة؛ خصوصاً معبد عين شمس بمدرسته العريقة ومكتبته الضخمة. لا شك كان لجميع تلك العوامل أثر كبير فى مساعدة الكثير من أجيالهم على الدراسة فى مدارس المعابد، والحصول على درجات علمية، وإعداد رجال قادرين على الانخراط فى السلك الإدارى الوظيفى أو العسكرى فى الدولة، أو الكهنوتى فى المعابد فى ظل التخطيط الإستراتيجى القادم.

وإذا كان هذا ما نتوقعه من ظروف بنى إسرائيل فى مصر بعد تصدى حتشبسوت لهم، فإنه فى المقابل وعلى صعيد المصادر التاريخية، نستدل من نتائج الأحداث أنها أخذت اتجاهاً سار فى صالحهم تماماً فترة من الزمن، فقد كشفت تلك المصادر عن أن مصر شهدت فى النصف الثانى من حكم الأسرة الثامنة عشرة تغييراً حاداً فى سياستها، فكان تحوتمس الرابع آخر فراعنتها المحاربين، وبعده توقفت حملاتها الحربية ودخلت البلاد فى مرحلة استرخاء تام غير مبرر وغير منطقى مقارنة بالمرحلة السابقة، ثم أعلن إخناتون ثورته الدينية التى اعتبرها المؤرخون انقلاباً على العقائد الدينية المتوارثة منذ آلاف السنين، وحسبوه الرائد والقائد والفيلسوف لها وهو تكييف طبيعى فى ظل الجهل بالحقائق الدينية التى ثبت أسبقيتها المباشرة لأحداث تلك الثورة، وسوف تكشف متتالية الأحداث وترابطها أنه كان خلف ذلك التغيير تدبير محكم، وأنه جاء نتيجة لمؤامرات تم التخطيط لها وكان يحركها وظهر مصاحباً لأحداثها عدد من الشخصيات مجهولة الأصل والنسب، الأمر الذى دعا معظم المؤرخين إلى الاعتقاد بأنهم من أصول أجنبية أو من عامة الشعب.

ونستند إلى الظروف والمعطيات التى سقناها عن بنى إسرائيل، وكذا الأحداث التاريخية التى أعقبت مداهمة حتشبسوت لهم، والنتائج التى ترتبت عليها فى أن نقدم افتراضاً جديداً يطرح نفسه وسط كل هذه العوامل؛ هو أن هؤلاء القوم كانوا هم العقل المدبر الذى خطط لتلك المؤامرات، وهم الأيدى الخفية وراء الأحداث المتصاعدة، وهم الذين قدموا تلك الشخصيات مجهولة الأصل التى ظهرت على مسرح التاريخ فى تلك الفترة، وتحكمت فى أسرة الحكم، بل إنها نجحت فعلاً وواقعاً فى اعتلاء عرش مصر.

وقبل أن نستعرض هذه المؤامرات تفصيلاً، فإننا نستند فى إثبات افتراضنا فى صلة بنى إسرائيل بأحداث تلك المؤامرات فى هذه الفترة التاريخية إلى ثلاثة أسباب رئيسية هى:

السبب الأول: النظر إلى نتائج الأحداث ومقارنتها مع الأهداف الإستراتيجية المتوقعة لبنى إسرائيل فى تلك المرحلة وصولاً إلى تحديد مدى استفادتهم من المؤامرات التى دبرت.

ولتحديد الأهداف أولاً، ثم مقارنتها بالنتائج سوف تقودنا الظروف التى أصابت قبائل إسرائيل بعد حملة حتشبسوت إلى أن تخطيطهم الذى اعتمد على إخفاء عقيدتهم والاندماج ظاهرياً فى المجتمع والتسلل إلى كهنوت المعابد لاستغلال نفوذها الدينى والاقتصادى، اتجه إلى تحقيق أهدافهم التى يمكن توقعها فى ثلاثة محاور أساسية هى:

١ـ محاولة إعادة الوضع السابق من حيث الانتشار الدينى لعقيدة إسرائيل، دين التوحيد، وامتلاك زمام القيادة الدينية لهم.

٢ـ استرداد أموالهم التى سلبتها منهم حتشبسوت، وصادرتها لصالح معابد الآلهة المصرية، واستعادة تحكمهم فى أموال وأوقاف المعابد.

٣ـ إستراتيجية العودة إلى فلسطين، الأرض الموعودة والملاذ الأخير الذى ينتظرهم وكانت ـ آنذاك ـ قد أصبحت مستعمرة مصرية.

وبالنظر إلى تلك المحاور، وعلى ضوء الأحداث التاريخية التالية، بعد أن ثبت التعاصر الزمنى مع القصة الدينية، سوف نتبين أن أهدافهم قد تحققت فعلاً ولكن ما تحقق لهم جاء بدرجة فاقت كل خيال، فمن الصعب أن نتصور أنه كان ضمن أهدافهم الوصول إلى القصر الملكى فى عصر مصر الإمبراطورية وتوجيه دفة سياستها، أو أن ذلك جاء نتيجة خطة تم إعدادها مسبقاً، وإنما الأغلب أن الفرصة سنحت لهم لتحقيقها فانتهزوها، ودبروا أمرهم لاستغلالها، يؤكد ذلك أن نهاية طريقهم إلى النجاح جاءت غير محسوبة وتجاوزت قدراتهم، فقد اكتشفت مؤامراتهم وتحطمت أهدافهم وقادهم طموحهم ومعهم من اتبعهم من المؤمنين المصريين إلى معسكرات القتل والتعذيب، وبعدها عاشوا حياة السخرة والاضطهاد ولم ينقذهم من هذا الكرب العظيم سوى الخلاص الإلهى عندما حان موعد موسى مع القدر الذى أعده الله له، فأنجاهم تدبير الله وليس تدبيرهم.

وعودة إلى أهدافهم، فإننا ندرك من الأحداث التى مرت بها مصر فى النصف الثانى من حكم الأسرة الثامنة عشرة وبعد سلسلة من المؤامرات ـ التى سوف نوضحها ـ أنها انتهت إلى تحقيق النتائج الآتية:

١ـ إعلان إخناتون عقيدة التوحيد، الديانة الرسمية للدولة، وآتون هو الإله الواحد الأحد، وإغلاق جميع المعابد الوثنية فى مصر.

٢ـ مصادرة أموال وممتلكات المعابد المصرية لصالح الدولة والدين الجديد.

٣ـ تدهور النفوذ المصرى فى فلسطين، وبأسلوب تآمرى تم حجب الأوضاع السياسية التى تحدث هناك عن فرعون، وانقطعت الحملات المصرية إلى آسيا، ونلاحظ الإهمال واللامبالاة التَّاميْن من جانب ملوك مصر لرسائل الاستغاثة وطلب النجدة من الأمراء الموالين لهم فى فلسطين، ويكشف تجاهل هذه الرسائل عن حقيقة المؤامرات التى كانت تدبر لمنع وصول الحقيقة إلى الملك من رجال بلاطه الذين هيمنوا وسيطروا على سلطة الحكم، ويجسد هذه الحقيقة آخر رسائل الاستغاثة التى جاءت تقول لملك مصر «والآن فإن مدينتك .. تبكى ودموعها تسيل ولا ناصر لنا، لقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نتلق رداً منه».

أما **السبب الثانى:** الذى نستند إليه فى تأكيد علاقة بنى إسرائيل بأحداث النصف الثانى من حكم الأسرة الثامنة عشرة، هو ذلك التشابه التام الذى لاحظه المؤرخون بين دعوة إخناتون وبين ديانة العبرانيين، الأمر الذى نستنتج منه حتمية تسلسل الأحداث منذ عهد يوسف وصولاً إلى هذه اللحظة التاريخية، وكان المؤرخ الأمريكى «جيمس هنرى برستد» أكثر المتحمسين لتأكيد هذا التشابه، وفى كتابة «فجر الضمير» خرج من دراسته بعد المقارنة بين الديانتين إلى أن ذلك لا يمكن أن يكون بسبب توارد الخواطر بحال من الأحوال، وانتهى إلى تأكيد أن أصل المزمور ١٠٤ من مزامير داود هو نشيد «إخناتون» الذى حمل نفس مبادئ دعوته، واستخدم نفس المعانى والصور التعبيرية لتأكيد وحدانية الخالق المدبر لكل شىء فى الكون.

كما لاحظ برستد أيضاً ـ وبحق ـ العلاقة القوية بين حركة إخناتون وبين الوثائق اللاهوتية الهليوبوليسية (معبد عين شمس)، وأوضحت دراسته كيف أن التعاليم الإخناتونية كانت منجذبة بكليتها نحو المذهب الشمسى، وأن إخناتون قد اعتنق المذهب الشمسى فى هليوبوليس بكل جوارحه واتخذه سنداً له فى دعوته، وجعل سيطرة مملكة الشمس القديمة للقيم الخلقية تمتد إلى حدودها العالمية المنطقية، ونطق إخناتون بالتوحيد الذى كان منطوياً فى ثنايا تعاليم كهنة هليوبوليس نطقاً لا إبهام فيه ولا خفاء، وهو الأمر الذى يسير ويتفق وأيضاً يؤكد افتراضنا بتحول معبد عين شمس (هليوبوليس) إلى معبد إسلامى منذ عهد يوسف ـ عليه السلام ـ حتى جاء انتقام حتشبسوت التى أعادت الآلهة المجسدة، وأقامت الشعائر القديمة

لها، وأنه إذا كان قد تحول ظاهرياً فى المرحلة التالية إلى معبد وثنى، فإنه كمنت خلفه القوى التى أشعلت شرارة التوحيد، وألغت تعدد الآلهة فى مصر فى عهد إخناتون.

وقد أيدت أغلب دراسات الباحثين ـ العربية والأجنبية ـ عن ديانة إخناتون النتائج التى انتهى إليها «برستد» إلا أنها فى معظمها خلصت أو اعتقدت بأستاذية إخناتون لدعوة موسى، وأن الديانة العبرانية، وتعاليم التوراة والكتب المقدسة لبنى إسرائيل قد تأثرت بدعوة إخناتون التى سبقت رسالة موسى عليه السلام، ورد معظمهم قيام هذه العقيدة وتعاليمها وفلسفتها إلى الفكر المتقد لإخناتون، وبلغ الإعجاب ببعض الباحثين فى هذا العصر إلى تمجيد إخناتون تمجيداً كاد يرفعه إلى درجة الأنبياء؛ لأن هذا الرجل العظيم استطاع فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية أن يكتب ما كتب ويدعو إلى وحدانية الخالق سابقاً بذلك الأديان السماوية التى جاءت تالية له، واعتبره البعض فيلسوفاً ومفكراً من خير فلاسفة ومفكرى العالم القديم، آمن عن عقيدة راسخة بالمحبة والإخاء بين الناس، وأرجعوا إهماله للحرب والدفاع عن ممتلكات مصر فى آسيا إلى كراهيته للقتل والتخريب.

ولكن الحقيقة التى نعرفها من دراسة الأديان أن شريعة موسى كانت كغيرها من شرائع الله التى سبقتها أو لحقتها، تدعو الناس إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبودية له والخضوع لأحكامه، فتلك هى الرسالة التى من أجلها بعث الله الأنبياء والرسل وأمرهم بدعوة الناس إليها فى كل زمان ومكان.

ولهذا فإن تعاليم إخناتون إذا كانت قد سبقت دعوة موسى فإنها لم تسبق الأديان السماوية، فجميع الرسل الذين سبقوا موسى حملوا نفس رسالته، وهى دعوة قومهم إلى توحيد الله سبحانه ويحكى القرآن الكريم «**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾**» [الأنبياء] .

والدعوة إلى عبادة الله الواحد حكاها القرآن بصيغة واحدة على لسان عدد من رسله وهم ينصحون أقوامهم، فجاءت واحدة على لسان نوح وهود وصالح وإبراهيم ويعقوب وإسحاق ويوسف وموسى وعيسى وصولاً إلى آخر الأنبياء محمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

وفى بيان وحدة الشريعة التى نزلت على ملة الإسلام فى رسالة الأنبياء جميعاً يقول الله تعالى فى سورة البقرة: «**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾**».

وقد دخل هذا الدين الذى يدعو إلى التوحيد وإخلاص العبودية لله بدعوة يوسف إلى

مصر، وظل قائماً ومستمراً فيها بوجود أسباط إسرائيل ثم توارث لأبنائهم ومعهم من دخل فى الدين من المصريين، وأوضحنا من دراسة نص حتشبسوت أن معناه لا ينهض ولا يستقيم إلا مع عقيدة التوحيد التى لا تشرك مع الله آلهة أخرى، وإزاء هذا التسلسل الزمنى الذى ثبتت معاصرته لتلك الفترة من تاريخ مصر، تكون العقيدة الدينية لإخناتون قد حملت نفس تعاليم وجوهر ذلك الدين الذى أنزله الله على يوسف وكلفه بدعوة المصريين إليه، وليست أناشيد «إخناتون» فى التوحيد وتراتيله فى تمجيد إله الكون سوى عبارات من صحف إبراهيم ورسالات الأنبياء السابقة، والتى حملها يعقوب وأسباط إسرائيل معهم إلى مصر وظلت قائمة ومنتشرة بينهم فى مناطق وجودهم وعلموها للمصريين المؤمنين، واستمرت حتى سنوات إخناتون (مدة تقارب الثلاثة قرون). وبذلك تحقق لنا الوثائق التاريخية المتمثلة فى نصوص إخناتون لحظة من لحظات اللقاء بين الدراستين، الدينية والتاريخية، وتأتى موضحة لنتائج دعوة يوسف فى مصر، التى قصَّها الله تعالى لنا فى القرآن الكريم فى قوله سبحانه:

«يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) [يوسف] والتى جاءت أيضاً على لسان مؤمن آل فرعون المعاصر لموسى وهو يذكر قومه بدعوة يوسف فيهم من قبل فى قول الله تعالى:« **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤)**» [غافر].

وإذ تتضح العلاقة الوثيقة بين عقيدة إخناتون (التى سبقت دعوة موسى) وبين الدين الذى جاء به يوسف، فمن ثم تصبح العلاقة أيضاً وثيقة بين إخناتون وبين قبائل إسرائيل التى كانت تعيش فى مصر، سدنة هذا الدين ودعاته، بيت النبوة، أحفاد أنبياء الله، والذين - بشهادة القرآن - لم ينفصم عنهم الدين وظل فيهم حتى ميلاد موسى، وتصبح الصورة الآن أكثر وضوحاً فى أن هؤلاء القوم كانوا هم الذين وقفوا خلف إخناتون وقدموا له تعاليم ومبادئ دعوته، ودفعوه إلى إعلانها، وساندوه فى مراحلها المختلفة، ويصبح متفقاً مع سير الأحداث وغير مجافياً للحقيقة قولنا: إن معبد عين شمس قد أصبح قلعة من قلاع الإسلام منذ أن صاهر يوسف كبير كهنته، واستمر كذلك حتى انطلقت منه شرارة التوحيد التى أضاءت مصر فى عهد إخناتون، وكما تكشف نصوص إخناتون تأثرها بالديانات السماوية فإنها أيضاً اصطبغت وتأثرت بتراث عين شمس (هليوبوليس) فأخذت منه ما يوضح ويدعم العقيدة الجديدة دون أن تخرج عن تعاليم الديانات السماوية، وبذلك نرد على جميع الذين اعتقدوا بتفرد رسالة إخناتون وقالوا بأستاذيته لموسى، وظنوا أنه كان سابقاً بفكره الديانات السماوية، ذلك أن دعوته لم تكن سوى صورة من عقيدة التوحيد التى دخلت مصر قبل عهده بنحو ثلاثة

قرون فى زمن يوسف عليه السلام، وبعده جاءت شريعة موسى بذات العقيدة وداعية إلى نفس الجوهر والمبادىء والتعاليم التى حملتها رسالات الأنبياء السابقة، ونزلت توراته بذات الدعوة التى حملتها صحف إبراهيم ورسالة يوسف فى مصر، ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم إن موسى قال لقومه: «**وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)**» [**يونس**]، وننتهى إلى أن المؤرخين إذ كانوا قد لاحظوا -بحق- التشابه القوى بين دعوة إخناتون وبين الكتب المقدسة لبنى إسرائيل فذلك لأن مصدر كليهما رسالة السماء، والتى تعلمها إخناتون من بنى إسرائيل الذين كانوا لايزالون يعيشون فى مصر حتى عهده، بل سنعرف من تسلسل أحداث المؤامرات أنه عاش بينهم فى شرق الدلتا فترة صباه، وربما كانت ولادته فى القصر الملكى فى مدينة «ثارو» على الحافة الشرقية للدلتا فى بداية سيناء، وتلقى دراسته وتعليمه على يد أخواله كهنة هليوبوليس.

وأما **السبب الثالث** الذى يدعونا إلى تأكيد علاقة بنى إسرائيل بالأحداث التى وقعت فى مصر فى النصف الثانى للأسرة الثامنة عشرة ووقوفهم خلف دعوة إخناتون هو اتفاق الوقائع ـ الدينية والتاريخية ـ على أحداث التعذيب فى تلك الفترة وتحديد القرآن أنه وقع على طائفة المؤمنين، فتقول التوراة إنه بعد عهد يوسف (الذى أثبتت الدراسات أن دخوله ودعوته كانا معاصرين لحكم الهكسوس) قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فجعل على بنى إسرائيل رؤساء تسخير أذلوهم بالأثقال، واستعبدوهم بالعنف، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية، وأمر بقتل المواليد الذكور منهم، وإذا كانت التوراة فى صورتها العنصرية قصرت اهتمامها على ما حدث لشعب إسرائيل فقط، فإن القرآن الكريم حكى حقيقة ما كان فى هذا الأمر، وعرض صورة الموقف موضحاً سببه فى قوله تعالى: «**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)**» [**القصص**]. ويأتى هذا الوصف الذى تقدمه القصة الدينية متفقاً مع المصادر التاريخية عن الفترة التى شهدت القضاء على الآتونية واضطهاد أتباعها، وقد أكدنا فى دراستنا عن تاريخ بنى إسرائيل أن تلك الطائفة هم المصريون الذين آمنوا بعقيدة التوحيد أتباع إخناتون، وكان معهم بنو إسرائيل بعد اكتشاف أنهم القوة الكامنة خلف هذا الدين، والذين انتقم منهم جميعاً «حور محب» بدون تمييز بين المصريين المؤمنين أو الإسرائيليين لإجبارهم على الارتداد عن دينهم أو الخلاص منهم، واستدللنا على إيمانهم، وأنه كان السبب فيما حدث لهم من رغبة الله تعالى فى نصرتهم وأن يجعلهم الوارثين للأرض، كما يظهر لنا من هذه الشهادة القرآنية أن عقيدة إخناتون وأتباعه المؤمنين كانت صادقة وخالصة لوجه الله تعالى ونقية من مظاهر الوثنية، وقد كان ميلاد موسى تالياً لتلك

الفترة التى أعقبت نهاية إخناتون وعاصرت تصفية أتباعه، وكان يقتل فيها أبناء المؤمنين كأحد أنواع الاضطهاد والتعذيب التى وقعت عليهم.

■ ■ ■

وبعدما تقدم نعرض مؤامرات بنى إسرائيل فى مصر التى اتضحت لنا من الدراسة التاريخية على النحو التالى:

المؤامرة الأولى

تنصيب تحوتمس الرابع على عرش مصر

رأينا - فيما سبق - أن أهم نتائج حملة حتشبسوت تمثلت فى عودة المعابد الشمالية المصرية إلى حظيرة الوثنية، وممارسة شعائرها القديمة، ونبهت سلطة الحكم إلى خطر بنى إسرائيل وإلى صلتهم القديمة بالغزاة الهكسوس، وجرت الكثير منهم إلى العبودية والسخرة بعد الرفاهية والرخاء، وهددت بقوة وجودهم فى مصر، وكان يمكن أن تؤدى بهم إلى نفس جزاء الغزاة، بيد أن ما أنقذهم بعدها، ومنحهم الفرصة لتدبير أمرهم، ولم شتاتهم، ثم إعادة النهوض كان ظروف الصراع الداخلى التى مرت بها حتشبسوت، وبعدها تجاوزتهم المرحلة السياسية، فقد انطلقت مصر لتحقق طموحات أهم وأكبر، وأيضاً اعتبر أن ما لحقهم كان كافياً لردعهم، ومع سياستهم الجديدة التى لجأوا فيها إلى الاندماج الظاهرى فى المجتمع ومحاولة التمصر بهدف اختراق مؤسسات الدولة الدينية والإدارية، وباتباع أساليب الحيطة والحذر والتخطيط والتآمر، أخذ شيوخهم طريقهم لتحقيق أهدافهم.

وبعد مرور أكثر من نصف قرن على نكبة حتشبسوت ضدهم، كانت فترة كافية لتحقق لبنى إسرائيل نسيان الحكام لعدائهم للآلهة، وصلتهم القديمة بالغزاة، وساعدهم أيضاً أن وجودهم فى مصر كان قد تجاوز القرنين، وأن آخرين منهم كانوا قد اندمجوا وتمازجوا منذ زمن فى المجتمع، فتمكن رؤساؤهم وشيوخهم من قيادتهم بنجاح إلى تنفيذ سياستى التمصر واختراق مؤسسات الدولة، وفى هذا الوقت أتاحت لهم الظروف تنفيذ أول مخططاتهم التآمرية فى سبيل تحقيق أهدافهم. وسوف نستدل من شواهد تاريخية كثيرة أن بداية مؤامراتهم كانت تمكين تحوتمس الرابع من الوصول إلى عرش الإمبراطورية، رغم أنه لم يكن ولى العهد الذى يجب أن يئول إليه الحكم بعد وفاة أبيه أمنحوتب الثانى.

وبداية الأمور، وقبل الخوض فى تفاصيل المؤامرة، سوف نلاحظ أن التاريخ رصد فعلاً أن عهد تحوتمس الرابع كان حلقة فاصلة بين عهدين، فيدل ما لدينا من معلومات أنه اتجه نفس الوجهة العسكرية لأبيه وجده، وأيضاً ظهرت فى عهده علامات واتجاهات الفكر الدينى لعقيدة التوحيد، وتمجيد الإله آتون باعتباره الإله المتحكم فى كوكب الشمس، الأمر الذى اعتبره

المؤرخون تبشيراً بالإصلاح الدينى الذى قاده إخناتون، وبعد تحوتمس دخلت مصر مرحلة جديدة مختلفة تماماً عن السابقة.

وقبل عرض أسانيدنا على اتهام بنى إسرائيل بتنفيذ المؤامرة التى قادت تحوتمس الرابع إلى الحكم، نقدم الأدلة التاريخية التى تثبت أن هذا التنصيب جاء نتيجة مؤامرة مدبرة، ولم يكن وراثة طبيعية لعرش والده، وهذه النتيجة لا شك فيها، وتستخلص من المصادر التالية:

١ـ عثر فى قبر «حقر نحح» مربى تحوتمس الرابع، فى طيبة على منظر مثل فيه «تحوتمس» الصبى جالساً مع إخوة آخرين عديدين على حجر مربيهم، ولكن أسماءهم ـ ما عدا اسم الأمير تحوتمس ـ قد مُحيت عمداً فيما بعد، وانتهت دراسات المؤرخين لذلك النص بأنه كان لتحوتمس الرابع إخوة يتراوح عددهم ما بين خمسة إلى سبعة من أبيه أمنحوتب الثانى، وأن تعمد محو أسمائهم وعدم ذكرهم فى أى مكان آخر، يكشف عن الخلاف العائلى الذى دب فى العائلة بعد موت والدهم، والجريمة التى وقعت لإخفائهم أو لإبادتهم، وأن تحوتمس لم يكن الأخ الأكبر منهم صاحب الولاية فى وراثة العرش.

٢ـ يأتى مؤكداً للنتيجة السابقة لوحات أخرى (ثلاث لوحات) عثر عليها حول معبد أبو الهول فى الجيزة، مُثِّل على كل منها أمير يقدم قرباناً لتمثال أبو الهول ولتمثال الملك، وفى لوحتين منهما يتبين أن الملك المقدم إليه القربان هو أمنحوتب الثانى، وفى الثلاث لوحات قد محى عمداً اسم الأمير بدقة وعناية، بحيث لم تمس الكلمات التى مع الاسم أو الرموز المقدسة، ونفهم من ذلك أن الشخص الذى قام بهذا العمل كان حاقداً على أصحاب هذه اللوحات وليس على الفرعون أو الإله، ومن ثم فإنه لا ينسب إلى رجال إخناتون الذين قاموا ـ فى عهده ـ بمحو أسماء الآلهة الوثنية، ويلفت النظر أن محو الاسم لم يكن قاصراً على الاسم البارز الذى يتبع الصورة وإنما تخطاه أيضاً إلى الاسم الذى فى صلب متن اللوحة نفسها، غير أنه فى لوحتين غفل الشخص الذى قام بالمحو، فترك الاسم سليماً فى مكانين فعرفنا من ذلك أن اسم الأمير هو «آمن إم إبت» وكان الاسم مكتوباً فى بعضها داخل خراطيش، وكان يحمل ألقاباً تعد من أعظم ألقاب الدولة وأرفعها، وهذا يدل على أنه كان ولى العهد صاحب الحق فى وراثة العرش.

٣ـ لوحة الحلم: وهى اللوحة الجرانيتية الشهيرة التى أقامها تحوتمس الرابع بين قدمى تمثال «أبوالهول» فى الجيزة، فى العام الأول من حكمه، والتى حفظت لنا قصة الحيلة التى برر بها اغتصابه للعرش، وأرجع فيها ذلك إلى إرادة إلهية لا مفر منها، وأن كل ما فعله كان تنفيذاً لنبوءة إله الشمس أعظم الآلهة المصرية قوة وسلطاناً وعدلاً، فيذكر بطل القصة فى لوحته أنه


لوحة الحلم

وقت أن كان أميراً خرج للصيد فى صحراء منف، وإذ خلد للراحة فى وقت الظهيرة فى ظلال الإله العظيم «أبوالهول» فغشاه النعاس (فرأى جلالته إلهه المبجل يتكلم بفمه كما يتكلم والد مع ابنه، وناداه فى المنام قائلاً: تأمل يا بنى «تحوتمس» إنى والدك «حور إم آخت خبرى رع آتوم» (اسم أبو الهول فى الدولة الحديثة) إنى سأهبك مملكتى على الأرض وأقيمك على رأس الأحياء، وستضع التاج الأبيض والتاج الأحمر على عرش الإله «جب» الوراثى (إله الأرض وأحد أعضاء تاسوع الآلهة فى هليوبوليس، وكان يعتقد أنه حكم مصر يوماً فى بداية حكم الأسرة الإلهية ثم خلفه ابنه أوزير)، وستكون الأرض ملكك طولاً وعرضاً، وكل ما تنيره عين رب الكون وطعام الأرضين سيكون ملكك وجزية كل الأقطار ملكاً لك)، وطلب منه عندما يتحقق له ذلك إزاحة رمال الصحراء التى غطته وزحفت عليه، وسببت له الآلام فى كل أوصاله، وتكاد تخنقه، وتجعله لا يستطيع التنفس، وأحلت الخراب بجسده، ويذكر تحوتمس أنه فهم كلمات الإله ووضعها فى قلبه، وبعد أن تحققت النبوءة الإلهية ووهبه الإله حكم مصر، نفذ وصيته وأمر برفع الرمال عن جسمه.

وهذا الأسلوب لمحاولة تبرير جلوس تحوتمس على العرش لم يكن جديداً، فقد سبقته إليه حتشبسوت، عندما سجلت لقومها على معبد الدير البحرى بُنُوَّتها لآمون تبريراً لاغتصابها العرش من تحوتمس الثالث. ولو كان تحوتمس الرابع هو الأمير الشرعى صاحب الحق فى العرش لما احتاج إلى هذا التبرير، أو بمعنى أدق لما فكر له الذين ساعدوه وقادوه إلى حكم مصر فى تأليف هذه الحيلة، وإنما لأنه مغتصب لجأوا إلى هذا الأسلوب، فلم يكن أكبر أبناء أبيه، ولذا فكروا له فى هذه الخدعة، لتكون مبرراً سائغاً لأية مؤامرات أو جرائم ارتكبت فى سبيل اغتصابه العرش، وتقضى على أية معارضة أو تشكيك فى أحقيته فى الحكم الذى جاء برغبة الإله الأعظم، وأكثر الآلهة عدلاً، فلا راد لهذه المنحة الإلهية، ويكون القضاء على كل من وقف فى طريقها إرادة إلهية لا مفر منها.

٤- وخاتمة المصادر التى تؤكد وجود مؤامرة فى وصول تحوتمس الرابع إلى الحكم والقضاء على الوريث الشرعى ومعه جمع من أشقائه، هو ما كشف عنه من بقايا تمثال للملكة الأم «تاعا» فى معبد زوجها «أمنحوتب الثانى»، وتدل نصوصه أنه كان بعد وفاته، ويبدو أنها قد أهدته إليه فى ذكراه، ونجد بين الكلمات عاطفة من الحزن والأحاسيس الإنسانية الجياشة التى تتضرع فيها الملكة للإله ليخلصها من أحزانها وآلامها، وتكشف أنها تمر بظروف عصيبة، وتتمنى لو كان زوجها بجوارها ليحميها ويبعد عنها تلك الحالة السيئة التى تمر بها، ولا تفسير لذلك سوى أن تكون حالتها مرتبطة بالظروف الغامضة التى أوصلت تحوتمس الرابع إلى الحكم، وكانت السبب فى القضاء على شقيقه الأمير الشرعى وأشقائه الآخرين، فنقرأ فى القطعتين اللتين عثر عليهما من هذا التمثال «مقصياً عنى -

ليته يبعد حزنى... تاعا، وليت الإله المحلى يكون حامياً لى، وليت زوجى يكون أمامى، وليته يبعد عنى...» ولنا الآن أن نتخيل كيف تتمنى الملكة ذلك، وتصف نفسها بأنها مقصياً عنها، وهى أم ملك مصر، إلا إذا كان السبب فى إصابتها بذلك الحزن، وتلك اللوعة هو فجيعتها فى أولادها، وأن إقصاءها ـ رغم ما هى فيه من ألم ـ ربما كان أحد توابع المؤامرة أو استدعتها ظروف خلافها مع ابنها الملك الذى من المحتمل أن تكون قد اتهمته، فلم يعد لها حول ولا قوة سوى أن تستدعى حماية إلهها، وتتحسر على أيام زوجها الملك الراحل وتتمنى لو أنه كان موجوداً ليحميها.

وبعد عرض الأدلة التى تؤكد وجود مؤامرة خلف تنصيب تحوتمس الرابع حكم مصر، نعود إلى رأينا فى اتهام شيوخ إسرائيل بارتكابها، ونقرر أن هذا الرأى قد يبدو غريباً وجديداً، فماذا يمكن أن تكون علاقة بنى إسرائيل بتحوتمس الرابع؟ وما أهميته لهم؟ وماذا تحقق لهم منه؟ إنه أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة التى حررت مصر ثم قادتها إلى الفتوحات الخارجية، وكان آخر الملوك المحاربين فى تلك الأسرة، وحافظ على الإمبراطورية بحدودها التى أقامها جده تحوتمس الثالث، وهو آخر من ذهب منهم على رأس الجيش إلى آسيا، وعندما عاد قدم القرابين للآلهة فى معبد آمون بالكرنك، تأكيداً منه لفضلها فى تحقيق انتصاراته، والصورة على هذا النحو غير واضحة فى بيان أهمية تحوتمس الرابع لهم، ولا تظهر ما يمكن أن يكون قد حققه لهم من مغانم ـ خلال حياته القصيرة ـ لتبرر صنيعهم معه.

ولكن الحقيقة ليست كذلك؛ لأنه على ضوء ما ثبت من معاصرة الأحداث التاريخية لتلك الحقبة مع القصة الدينية التى بدأت منذ عهد يوسف فى فترة سابقة على تحوتمس الرابع، واستمرت حتى خروج بنى إسرائيل مع موسى فى فترة لاحقة، ومن الربط بين الأحداث فى القصتين يمكن استخلاص عدد من الحقائق التى تؤدى إلى إثبات اتهامهم وصلتهم المباشرة بأحداث تولية تحوتمس الرابع.

وفى سبيلنا إلى حصر أدلة هذا الاتهام نعرض الآتى:

أولاً: نذكِّر بالأسباب الرئيسية السابقة التى قدمناها لإثبات افتراضنا بتدخل بنى إسرائيل وصلتهم بأحداث النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة، والتى استندنا فيها بوجه عام على مجمل تاريخ وحوادث تلك الفترة، والتى صبت أحداثها نحو تحقيق أهدافهم أو تلاحظ فيها ارتباط ديانة إخناتون بتراثهم الدينى أو اتفقت فيها أحداث التاريخ مع رواية الكتب المقدسة بشأن اضطهاد المؤمنين.

ثانياً: نضيف إلى الأسباب العامة السابقة، وفى مجال حصر الأدلة الخاصة على اتهامهم بتنفيذ مؤامرة اغتصاب تحوتمس الرابع للحكم، وارتكاب الجرائم التى أدت إلى تحقيق هذه النتيجة، ولكى نقرب هذا الاتهام إلى الاستيعاب نشير إلى أن الدراسات التى اتفقت على أن

تحوتمس الرابع جاء إلى الحكم نتيجة مؤامرة، فإنها أكدت أيضاً أن أتباع دين الشمس كانوا هم الذين ساندوه، ودليلهم على ذلك أنه بدأ عهده بإعلان انتسابه إلى رب الشمس، وأنهم قدموا له المبرر الشرعى لاغتصاب الحكم بادعاء أن رب الشمس تراءى له فى رؤياه وعهد إليه بعرشه، ولما كنا قد توصلنا فى دراستنا السابقة إلى إثبات الصلة بين بنى إسرائيل وبين معبد هليوبوليس (أتباع دين الشمس)، وأوضحنا أسانيدنا على سابقة تحوله إلى معبد لعقيدة التوحيد فى مصر منذ عهد يوسف، إلا أنهم بعد مواجهة حتشبسوت مزجوا بين التعاليم الهليوبوليسية القديمة وبين العقيدة الجديدة فى محاولة للاندماج من أجل الاستمرار، فإننا ومن خلال إثبات تحقق هذه الصلة نمسك بأول خيوط الاتهام الذى سوف يقودنا إلى الحقيقة، ومع ملابسات أخرى سوف نكتشف لماذا كان تحوتمس الرابع بالذات؟

ثالثاً: نستخلص الدليل الرئيسى فى اتهام بنى إسرائيل وإثبات صلتهم بتلك المؤامرة من النتيجة التى انتهت إليها دراستنا السابقة والتى ثبت منها - لأسباب دينية وتاريخية - تحقق قيام العلاقة الوثيقة بين الديانة التى نادى بها إخناتون وبين دعوة يوسف التى استمرت فى مصر، وكان دعاتها وسدنتها والقائمون على أمر كهانتها قبائل إسرائيل التى كانت لا تزال تعيش فى مصر، وإذ نستند - أيضاً - إلى ما سلف وأن حددناه من الأهداف الإستراتيجية المستتجة لبنى إسرائيل بعد حملة حتشبسوت ضدهم، والتى رأينا أنها تحققت بإعلان إخناتون عقيدة التوحيد الديانة الرسمية، وآتون الإله الواحد الأحد للدولة، وإغلاق المعابد الوثنية ومصادرة ممتلكاتها، ومن الربط بين ذلك وبين ما حملته لنا المصادر التاريخية من أدلة تثبت أن البدايات الأولى لذلك التغيير فى العقيدة، والتبشير بآتون إلهاً ترجع إلى عهد تحوتمس الرابع، يتأكد لنا أن هذا الفرعون كان الدرجة الأولى التى صعد عليها هؤلاء القوم إلى القمة التى تحققت عندها أقصى أمانيهم، وربما أنهم سعوا إلى تحقيق الخطوة الأخيرة فى عهده، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، لأسباب قد ترجع إلى الملك تحوتمس الرابع الذى لم يكن على استعداد لمواجهة الكهنة أو إحداث فتنة فى الدولة أو لعدم إيمانه بفكرة وحدانية آتون، أو لأسباب أخرى جعلتهم يكتفون معه بما تحقق لهم، وعموماً فإن فترة حكم تحوتمس الرابع كانت قصيرة، المهم أن الذى نستخلصه من ذلك الربط، أن هؤلاء الذين ساعدوا إخناتون وقدموا له أركان عقيدته كانوا هم أنفسهم الذين سبق أن ساعدوا تحوتمس الرابع وقادوه إلى اغتصاب العرش من أشقائه.

وقد أدرك أستاذنا المؤرخ الراحل الدكتور عبدالعزيز صالح فى كتابة «الشرق الأدنى القديم» - فصل عقائد الدنيا والآخرة فى مصر القديمة - حقائق التغيير التى طرأت فى أواسط عصر الأسرة الثامنة عشرة، وبدايات التحول الدينى السابقة على إخناتون، وكان تفسيره لها أن صدور بعض المؤمنين - فى تلك الفترة - ضاقت بتعدد المعبودات، وتمنوا لو اهتدوا إلى التعبير عن ربهم باسم واحد، والرمز إلى آيات قدرته برمز واحد، وإعلان وحدانيته صريحة واضحة، ووصفهم



تحوتمس الرابع شاباً على عرش مصر
بجوار أمه الملكة تاعا

الدكتور صالح بالمجددين، ورأى أنهم عندما أرادوا أن يبدأوا بتحديد اسم معبودهم وتحديد رمزه، فأوحى الحذر عليهم أن يربطوا بين الجديد الذى يودونه وبين القديم الذى تعوّده أغلب معاصريهم، فبشروا باسم «آتون» وهو اسم قديم اتجه به أسلافهم منذ الدولة الوسطى وجهتين: وجهة لفظية يدل فيها على معنى كوكب الشمس، ووجهة أخرى لاهوتية يدل فيها على الإله المتحكم فى هذا الكوكب، وأن هؤلاء المجددون رأوا فى اسم آتون ما يفى بغرضهم للتعبير عن اسم ربهم ورمزه، وأنه لا يقلل من جلال ربهم المطلق أن يرمزوا إليه بآية الشمس كبرى آياته، فما من شك فى أن من يتحكم فى كوكبها وينظم مسيرته قادر على أن يدبر أمور المخلوقات كلها، ويضيف الدكتور صالح، أن هذه الدعوة سلكت سبيلها فى حذر، وتقبلها الكهان بمرونتهم التقليدية، وفى عهد الفرعون تحوتمس الرابع كانت هذه الدعوة قد تصدرت فكر أتباع دين الشمس القديم الذين تعبدوا ربها بأسماء: رع، وخبرى، وآتوم، ورع حر آختى، وقد بدأ عهده بإعلان انتسابه إلى رب الشمس، وادعى أنه تراءى له فى رؤياه وعهد إليه بعرشه وأوصاه بأن يرعى شئونه، ثم أرهصوا بالرمز الجديد لمعبودهم وصوروه على هيئة قرص مجنح تتدلى له يدان بشريتان تحيطان اسم الفرعون ورسمه بالحماية والرعاية، ثم شجعت هذه القصة أتباع الشمس أنصار آتون، فزجوا بدعوتهم فى صفوف الجيش، وأطلقوا على بعض سراياه «سرية بهاء آتون» والسرية اللألاءة كآتون» وتقدموا باسم آتون بين يدى الفرعون، وبشروه بأنه «إذا خرج للحرب يتقدمه آتون استطاع أن ينسف الجبال ويدمر البلاد حتى يرضخ أهلها كافة لسيطرة آتون».

وقد اتفق كثير من الدارسين على أن التغيير الدينى الذى طرأ فى أواسط عصر الأسرة الثامنة عشرة، بدأت أول مظاهره تطل فى عهد الفرعون تحوتمس الرابع، ولكنها لم تصل إلى حد الإعلان الكامل عن وحدانية الإله، أو إلغاء جميع العقائد الأخرى. وإذا كنا نتفق مع الدراسات الكثيرة التى ترى أن ثورة إخناتون الدينية بدت مظاهرها فى عهد تحوتمس الرابع حسبما يدل عليه عدد من البراهين الدينية والفنية تبارت فى إثبات هذه الحقيقة، ولكنا نرى أن جذورها تضرب بأعراقها إلى عهد أبعد من ذلك؛ لأن مصدرها دعوة يوسف، وقد كان نقش حتشبسوت فى إصطبل عنتر أول المصادر التاريخية التى حملت إشارات على وجود عقيدة دينية ترفض تعدد المعبودات - على النحو الذى أوضحناه فى دراستنا لذلك النص - وقد أرجعت تاريخها إلى زمن الغزاة الآسيويين الذين حكموا فى «أواريس» وعزت استمرار وجودها حتى عهدها إلى وجود القبائل الجائلة التى دخلت معهم، واستمرت تعيش فى مصر، وكانت السبب فى

تخريب معابد الآلهة وهجرانها، ومن ثم، إذا كان الدارسون قد رصدوا -بحق - وجود مظاهر التغيير فى العقيدة فى آثار عهد تحوتمس الرابع، فإنها - وبحق أيضاً - ذات جذور قديمة وتستند إلى دعوة سماوية ـ وبكل تقدير لأستاذنا عالم الآثار الجليل الدكتور عبدالعزيز صالح ـ فإننا فى مجال مناقشة ما ارتآه عندما رصد البدايات التاريخية لهذه الظاهرة الفكرية من وصفه للمؤمنين أتباعها بالمجددين، معتقداً أنهم رواد التغيير، وتبريره لهذا الاتجاه الدينى لديهم بضيق صدورهم من تعدد المعبودات ورغبتهم فى التعبير عن ربهم باسم واحد، والرمز إلى آياته وقدراته برمز واحد، فإننا نرد على ذلك التفسير بأن الناس لا يضيقون ذرعاً بعقائدهم المتوارثة فجأة، وتاريخ الأديان يذكر لنا أن العكس كان هو الصحيح، فدأب القوم أنهم يتمسكون بدين الآباء والأجداد، أما الرفض الخارج عن القاعدة فهو منحى الأنبياء الذين عصمهم الله ـ تعالى ـ وهذا إبراهيم ومحمد ـ عليهما صلوات الله وسلامه ـ عندما أنكرا عبادة الأصنام واهتديا إلى حتمية وجود خالق واحد للكون فإنهما خرجا للبحث عن الحقيقة، ويحكى الله تعالى عن إبراهيم أنه بعد أن أجهده البحث والتفكير عن الخالق قال: « **لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(٧٧)** » [**الأنعام**]. ولهذا أدركت رحمة الله الناس بوعده أنه لن يعذب قوماً حتى يبعث فيهم رسولاً.

وقد احتاج الأنبياء دائماً إلى بذل مجهود شاق ومضن لإقناع قومهم ـ فى كل زمان ومكان ـ بترك عباداتهم الوثنية المتوارثة والإيمان بوحدانية الخالق، ويحكى الله تعالى فى قصص الأنبياء فى القرآن الكريم أن أقوامهم كانوا ـ فى الأغلب ـ يقابلون دعوتهم بالرفض والاستهجان وإعلان تمسكهم بالقديم الموروث، وابتداء من قوم نوح يقول تعالى:

«**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا(٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)**» [نوح].

ثم يخبرنا سبحانه أنهم تمسكوا بأصنامهم فى قوله تعالى: «**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)**» [نوح].

وعن آل فرعون فى مصر يقول تعالى:

«**فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦)**» [**القصص**].

وانتهاءً باستنكار الكافرين لدعوة آخر الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: «**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)**» [ص].

والصحوة الدينية المصرية التى طرأت فى النصف الثانى للأسرة الثامنة عشرة لم تختلف عن هذه القاعدة، فلم يرفض المصريون بعد آلاف السنين آلهتهم المتعددة مع إشراقة صباح جديد، ولم يهتدوا إلى الحق فجأة، ولم يعرفوا وجود الإله الواحد للكون من ذاتهم، وإنما كان لتلك العقيدة ـ التى سجلت المصادر التاريخية حدوثها ـ مصدر نبعت منه ثم انتشرت واستمرت، وحكت لنا عنها المصادر

الدينية، أنها رسالة يوسف، تطل علينا هذه المرة من مصادر عهد تحوتمس الرابع، وعلى نحو قريب من مظاهرها التى خرجت بها فى عهد إخناتون، وأما الحذر فى الإعلان، والربط بين الجديد والقديم مع التبشير بآتون فكان راجعاً ـ حسبما أشرنا ـ إلى تدبير شيوخ إسرائيل ـ القائمين على كهانة معبد هليوبوليس ـ الذى أعقب تجاربهم بعد مواجهة حتشبسوت، واستند إلى الخوف والحذر وتوقع مواجهة كهنة الوثنية وعلى رأسهم آمون زعيم الآلهة المصرية آنذاك.

وينتهى بنا هذا الدليل إلى أنه إذا كانت قمة طموحات بنى إسرائيل قد تحققت بإعلان التوحيد فى عهد إخناتون، ومن ثم فإن رصد مظاهر سابقة عليه يشير إلى وجود محاولات تسير فى حذر وترقب لإحداث التغيير، فإذا كان مصدر دعوة إخناتون – حسبما انتهينا – هم المؤمنين بدعوة يوسف الموجودة والمستمرة فى مصر، فإن ذلك يعنى أنه كان وراء التبشير الحذر الذى رصدت مظاهره فى عهد تحوتمس الرابع نفس المصدر الذى أشعل شرارة التوحيد، وربما كانت المحاولة الأولى لإعلان سيادة آتون ووحدانيته، والتى لم يقدر لها أن تنجح إلا فى عهد إخناتون، وبالتالى يكون هؤلاء القوم هم أصحاب المصلحة فى قيادة تحوتمس الرابع إلى اغتصاب العرش من أشقائه، والاستيلاء على الحكم ليحقق لهم أهدافهم أو يمهد الطريق إليها، ويجدر أن نشير إلى أن نسبة هذه المؤامرة إلى بنى إسرائيل سوف يضع حلاً منطقياً لمشكلة تاريخية أثارت جدلاً واسعا، ويميط اللثام عن لغز ظل غامضاً، ذلك أنه رغم اتفاق الدارسين على أن تحوتمس الرابع لم يكن ولى العهد، بل كان من بين إخوته الذكور أكثر من واحد أقرب إلى الملك منه، ومن ثم فإنه اغتصب هذا الحق، وتكاد تنطق المصادر التاريخية بأنه وصل إلى الحكم بعد سلسلة دموية من الاغتيالات، ولأن الضحايا كانوا زمرة من أشقائه (يمكن أن يكون عددهم ما بين خمسة إلى سبعة) ولأن الفعل كان عنيفاً حقاً، وغير مسبوق داخل الأسرات الحاكمة فى مصر القديمة، فى فترات ازدهار حضارتها، فإنه كان من الصعب على البحث أن يتصور أنه قصد أن يشق طريقه إلى الحكم بارتكاب تلك المجزرة البشعة غير الأخلاقية، ولذلك فإن أغلب الدراسات لم يمكنها أن تنسب اتهامات إليه بقتل إخوته، واكتفت بالقول: إن الحكم آل إليه ـ على ما يظن ـ فى أعقاب الوفاة المبكرة لأخيه الأكبر الذى كان من المفترض أن يرث العرش، ولكن هذا القول لا يفسر ما حملته المصادر التاريخية من اختفاء أشقائه وتعمد محو أسمائهم من الوجود ـ والتى عرضناها فى أدلة المؤامرة ـ ولهذا فإن اتهام بنى إسرائيل بارتكابها قد يضع تفسيراً للبشاعة والدموية فى التنفيذ، ويقدم المبرر لجسامتها؛ خصوصاً إذا ما وقفنا على حجم ما حققته لهم من نجاح نحو تحقيق أهدافهم. وفى هذا المقام ينبغى القول: إن أمر اشتراك تحوتمس الرابع فى ارتكاب تلك الجرائم سواء بالتحريض أم الاتفاق أم المساعدة ما زال يحتاج إلى دليل يؤكده، وقد كان عمره وقتها دون العشرين عاماً، وربما فى الثامنة عشرة أو أقل، وأعتقد شخصياً أنه غرر به عند تقدير الآثار المتوقعة عنها، أو أنها تمت دون علمه أو إرادته، يمكن أن يكون قد اكتشف أبعاد تلك المؤامرة بعد اعتلائه الحكم، أو وقف فى مرحلة تالية على أن قتل أشقائه وقع عمداً وأنه كان السبيل لاقتياده إلى العرش، وعلم وقتها حقيقة نيات من

ساعدوه، وبعد أن كان قد قطع معهم شوطاً - بعد ولايته - فى سبيل تحقيق أهدافهم، عاد وتدارك أمره ورفض الخضوع لرغباتهم، وانطلق مقتفياً أثر أبيه وجده فى بسط سلطان مصر وسيادتها العالمية على مناطق نفوذها، ولهذا فإنى أعتقد أن تحوتمس الرابع ذاته أصبح الهدف التالى لبنى إسرائيل بعد أن كشفت فترة حكمه - التى لم تبلغ عشر سنوات - أنه لن يكون الملك الذى يمكن استغلاله للوصول إلى غاية مخططهم، فاكتفوا منه بالفرص التى تحققت، وبعد أن فتح لهم الباب الملكى الذى نفذوا من إلى البيت الحاكم تخلصوا منه، وهو دون الثلاثين من عمره، ثم استغلوا ولى عهده الطفل أمنحوتب الثالث وانطلقوا لاستكمال خطتهم فى سلسلة متتالية من المؤامرات اتجهت جميعها نحو تحقيق محاور أهدافهم.

ويبقى السؤال المهم: لماذا كان تحوتمس الرابع بالذات؟

ونترك مصادر التاريخ تقدم ما عندها، ثم نحاول تحليل الأحداث لاستخلاص الإجابة.


موت إم أويا

«موت إم أويا»

تبدأ القصة حينما كان الأمير الشاب تحوتمس يعيش فى منف مع باقى إخوته ولى العهد والأمراء أبناء الملك أمنحوتب الثانى، فقد جرت العادة منذ عهد تحوتمس الأول على أن يقضى الأمراء فترة تربيتهم وتنشئتهم فى منف العاصمة القديمة وكبرى المدن المصرية، والتى ظلت العاصمة الإدارية، والمقر المفضل للملوك، وبنوا فيها الكثير من القصور، واحتفظوا بحريمهم فيها، وفى هذه المدينة العتيدة والجميلة، وفى الصحراء الشاسعة القريبة منها تجول الأمير تحوتمس، وانتقل مستخدماً عربته الحربية بينها وبين باقى المدن الشمالية، العامرة الزاخرة التى تموج بمختلف أجناس العالم القديم، وكغيره من الأمراء خرج كثيراً للهو والنزهة والصيد، وقد حدث فى سنوات مراهقته أنه التقى الفتاة الجميلة «موت إم أويا» فأحبها وتعلق بها قلبه، ولا نستطيع أن نعرف ظروف اللقاء الذى جمعه بتلك المحظية ذات الأصل المجهول، وهل كان تعارفه وانجذابه إليها تخطيطاً مدبراً وكانت اختياراً مقصوداً له، وكان هناك من قادها عمداً إلى طريقه، أم أن الأمر تم مصادفة والتقاها الأمير فى مناسبة فهام بها واختارها عشيقة له، ثم استغل هذه العلاقة هؤلاء الذين وجدوا فيها فرصتهم لتحقيق أغراضهم.

نستدل من المصادر التاريخية أن الأمير تحوتمس عندما أقام علاقته مع هذه الفتاة كان فى نحو السادسة عشرة عاماً من عمره، وأنجب منها أول أطفاله أمنحوتب قبل أن يتولى الحكم، وبعد أن أصبح ملكاً كان الطبيعى والمألوف - سواء قبل هذا العهد أم بعده - أن تصبح

هذه الفتاة التى خرجت من عامة الشعب إحدى بنات القصر أو مجرد محظية للملك أو على أقصى تقدير تضم إلى زوجاته الثانويات، ولكن الذى حدث أنه أعقب الانقلاب الذى قاد تحوتمس الرابع إلى العرش انقلاب آخر على الشرعية والتقاليد الملكية المتوارثة، التى كانت تحتم أن تكون الزوجة الرئيسية للملك من دم ملكى نقى لتصبح الملكة الشرعية التى تنجب وريث العرش، فقد جعل تحوتمس «موت إم أويا» زوجته الرئيسية فى القصر، وبالتالى أصبح ابنها ولى العهد وفرعون مصر القادم «أمنحوتب الثالث».

وكان يعتقد أن «موت إم أويا» هى الأميرة الميتانية ابنة الملك «أرتاتاما الأول» التى طلبها منه تحوتمس الرابع وتزوجها خلال فترة حكمه، وأعطاها اسماً مصرياً، ومعنى اسمها «الإلهة موت فى السفينة المقدسة». لكن أثبتت الدراسات أن هذا الاعتقاد خاطئ، وأن الأميرة الميتانية التى تزوجها هى زوجة ثانوية أخرى غيرها، ويأتى الدليل على ذلك من أن تحوتمس الرابع قد حكم أقل من عشر سنوات (يذكر مانيتون أن مدة حكمه تسعة أعوام وثمانية أشهر) وكان ابنه أمنحوتب الثالث فى الثانية عشرة من عمره عندما اعتلى العرش، ثم تزوج فى العام الثانى من حكمه، الأمر الذى يعنى أن تحوتمس أنجبه من «موت إم أويا» قبل ولايته الحكم، أما الأميرة الميتانية فقد تزوجها خلال مدة حكمه، فلا يمكن بذلك أن تكون هى «موت إم أويا» أم أمنحوتب.

وكان يمكن أن يكون زواج تحوتمس الرابع من محظيته «موت إم أويا» مجرد قصة حب عادية تكررت كثيراً قديماً وحديثاً لأمير شاب هام عشقاً بفتاة بسيطة من عامة الشعب، وانتهى حبهما بالزواج، ولكن النتائج التى يمكن استخلاصها من المصادر التاريخية والتى جاءت مترتبة على هذا الزواج بعد أن دخلت «موت إم أويا» القصر الملكى، هو أمر يلقى بظلال كثيفة من الشك على هذه الفتاة مجهولة الأصل، وغالباً أن أصلها لم يكن مجالاً للذكر أو الفخر، وربما يكون فى إظهاره نبش فى ماض أليم أهيل عليه الرماد منذ عهد حتشبسوت وكان متعمداً إخفاؤه، ومن مجمل الوقائع نستطيع أن نتكشف أنها لم تكن وحدها، وإنما كان خلفها من يساعدها ويرتب الأحداث المتتالية، أو أنها كانت مجرد أداة استخدمت لتنفيذ خطط تآمرية، ولكى نستطيع أن ندرك صحة هذه الاستنتاجات نستعرض شريط الأحداث حسبما قدمتها المصادر التاريخية، ابتداء من ظهور «موت إم أويا» وحتى إعلان الآتونية فى عهد إخناتون والتى سوف يتبين منها أنه لا يمكن للمصادفة أن تؤدى هذا الدور بمفردها، أو أن تكون هذه الأحداث المتتالية قد وقعت دون ربط مركزى يدير حركتها ويرتب تواليها على هذا النحو.

فتقول المصادر التاريخية دون تدخل منا:

١ـ إن تحوتمس الرابع عاش الفترة السابقة على ولايته الحكم فى منف، وفى هذه الفترة ارتبط بعلاقة مع موت إم أويا وهى فتاة من العامة، فلم يسجل لها أصل أو نفوذ أو وضع اجتماعى، وأنجب منها «أمنحوتب الثالث» وكان ذلك فى نحو (١٤٠٠ ق . م)، أى قبل اعتلائه

الحكم بنحو عامين أو ثلاثة.

٢ـ فى العام (١٣٩٧ ق . م) يصل تحوتمس الرابع إلى الحكم، رغم أنه لم يكن ولى العهد الشرعى. وكان ذلك نتيجة مؤامرة مدبرة ساعده عليها كهنة إله الشمس وأطاحت بولى العهد الشرعى «أمن إم إبت»، واختفى مع باقى أشقائه (قد يصل عددهم إلى نحو سبعة)، وقدم كهنة الشمس للملك الغاصب السند الشرعى للجريمة واغتصاب الحكم (لوحة الحلم).

٣ـ «موت إم أويا» خلافاً للشرعية الدينية والتقاليد الملكية الراسخة والمتوارثة تصبح الزوجة الرئيسية للملك ويصبح ابنها «أمنحوتب الثالث» ولياً للعهد، ولأن أمه لم تكن من دم ملكى نقى فاستدعى الأمر لتبرير ارتقائه حكم البلاد إلى الاحتيال فى إيجاد حجة ترفعه إلى عرش الحكم أمام أعين الشعب، فصورت ولادة «أمنحوتب الثالث» على جدران معبد الأقصر، ونرى فى المنظر «موت إم أويا» تجتمع بالإله آمون وتحمل منه الملك أمنحوتب الثالث، وبهذه الطريقة الملفقة أصبح الفرعون ابناً للإله ومن دم إلهى خالص.

٤ـ بدأت أول محاولة لنشر مذهب عبادة آتون فى عهد تحوتمس الرابع، بصورة قريبة من صورتها التى خرجت بها فى عهد إخناتون، فلم يكن الإله يصور على أية صورة من الصور، وإنما رمزوا إليه بنفس الرمز الذى اتخذه إخناتون، وهو تصوير الشمس على هيئة قرص مجنح مرسلاً أشعته تتدلى منها يدان بشريتان تحيطان اسم الفرعون ورسمه بالحماية والرعاية، ولم تصل الآتونية فى عهده إلى مرحلة التوحيد الكامل، كما ينسب إلى تحوتمس الرابع أنه كان أول فرعون يثور على سلطان كهنة آمون، فقد انتزع من يدهم وظيفة رئيس كهنة القطرين، وقلدها لأحد قواده الذين يثق فيهم.

٥ـ عاجلت المنية تحوتمس الرابع وهو فى نضرة الشباب ومقتبل العمر، فقد كان دون الثلاثين من عمره، بل إن الأطباء الذين فحصوا عظامه قالوا إنها لشاب فى السادسة والعشرين من العمر، ولأن ابنه أمنحوتب الثالث حين خلفه كان فى الثانية عشرة من عمره، وتزوج من «تى» فى العام الثانى، فإن بعض المؤرخين ارتكازاً على نتائج ذلك الفحص الطبى اعتقدوا أنه أخوه وليس ابنه؛ لأنه لا يعقل أن يكون له ابن أهل للزواج فى هذا الوقت، غير أن المصادر الأثرية الآتية:

- نقوش عثر عليها فى مدينة الكاب.
- نقوش فى مقبرة حورمحب.
- أحد خطابات تل العمارنة.
- نقوش ومناظر الولادة الإلهية لأمنحوتب الثالث على جدران معبد الأقصر.

جاءت جميعها مؤكدة أنه ابن لتحوتمس الرابع.

٦ـ تولى أمنحوتب الثالث عرش البلاد صبياً فى الثانية عشرة من عمره، فتولت أمه الوصاية

على العرش، وفى العام الثانى من حكمه على أكثر تقدير تزوج من «تى» التى لا تنتمى إلى العائلة المالكة، وذكرت النصوص صراحة أنها من عامة الشعب واسم والدها «يويا» واسم والدتها «تويا».

٧ـ مرة أخرى تصبح «تى» التى لا تحمل الدم الملكى هى الزوجة الرئيسية وتأخذ لقب الزوجة الملكية العظيمة، ويسجل التاريخ لهذه الفتاة أنها كانت أعظم نساء التاريخ المصرى ذكاء وقوة عزيمة، وكان نفوذها عظيماً وتأثيرها قوياً فى الداخل والخارج، وظلت صاحبة المكانة الممتازة وحتى وهى فى شيخوختها وبعد وفاة زوجها فى عهد ابنها إخناتون، ونسب إليها كثيراً تسيير أمور الدولة، وكاتبها أحياناً أمراء الدول الأجنبية على هذا الأساس.

٨ «يويا» والد «تى» يتقلد الكثير من المناصب الدينية والإدارية، ويمنح ألقاباً عظيمة، ويصبح له تأثير ونفوذ كبيرين فى الدولة، ويلعب دوراً سياسياً بارزاً بصحبه زوجته «تويا»، ويمهد الطريق أمام ابنه «آى» والذى سوف يخلف «توت عنخ أمون» فى أصعب الظروف، فعينه مشرفاً على خيول الملك، كما عين ابنه الثانى «عانن» القادم من معبد عين شمس فى منصب الكاهن الثانى للإله آمون فى طيبة و«كبير الرائين» فى معبد الإله رع بالكرنك.

٩ـ استمرت الديانة الآتونية فى عهد أمنحوتب الثالث الذى اتخذ لنفسه منهجاً وسطاً بين آمون وآتون، فحابى آمون وكهنته الأقوياء، وقد رأينا أنه استند فى ولايته العرش على بنوته له وبناء على أمره، وأغدق العطايا على معابده وكهنتها، وساير فى الوقت نفسه دعوة آتون وسمح بعبادته جهرة فى طيبة، وأطلق اسمه على بعض أركان قصره ومحتوياته، وكانت تسابيح هذا الدين تقترب من التوحيد حتى تكاد تبلغه، ولكن دون انقطاع عن التعددية الوثنية، ويلاحظ أنه اهتم اهتماماً خاصاً بمدينة هليوبوليس (عين شمس) وجدد معابدها.

١٠ـ حكم أمنحوتب الثالث نحو ٣٨ عاماً (الفترة من ١٣٨٧- ١٣٤٩ ق . م) لم يخرج خلالها إلى آسيا فى حملة واحدة، وأفرط فى الملذات والشراب، وعاش يستمتع بالحياة الباذخة بين قصوره وزوجاته والمئات من جواريه، واتجهت الحياة الاجتماعية فى مصر نحو الدَّعة والاستمتاع بالحياة وانتشرت فى العاصمة طيبة حفلات الطرب والرقص ومشارب الخمر وفيها المغنيات والراقصات المحترفات، وفى أواخر أيام أمنحوتب الثالث كان يبدو فى صورة شخص مهدَّم معتل الصحة بالرغم من أنه كان دون الخمسين بسبب إفراطه فى ملذاته، وتركزت السلطة فى يد زوجته «تى» والقليل من الموظفين.

١١ـ أكبر أبناء أمنحوتب الثالث وولى عهده الأمير «تحوتمس»، وكان كبيراً لكهنة بتاح، وإقامته فى منف، مات فى ظروف غامضة فى حياة أبيه، ودفن فى سقارة.

١٢ـ أمنحوتب الرابع (إخناتون فيما بعد) الابن الثانى لأمنحوتب الثالث أصبح ولياً للعهد، ولدته أمه الملكة «تى» بعد أكثر من عشرين عاماً على زواجها، وكانت ولادته فى القصر الصيفى فى شرق مصر، ولم يغادر هذا القصر فى مرحلة طفولته، ثم أرسلته أمه ليتم تعليمه

عند أخيها الأكبر «عانن» الذى كان يقيم فى مدينة عين شمس ومن كبار كهنتها، بخلاف التقاليد التى كان تسير على أن يتم تعليم الأمير فى مدرسة منف مع أولاد النبلاء، ثم تزوج إخناتون من نفرتيتى ابنة خاله «آى» وأمها «تى» الثانية، أى أنها حفيدة يويا وتويا.

وقد وصل إخناتون إلى طيبة عندما بلغ ١٦ عاماً، وأقام داخل القصر الملكى الذى بناه أبوه فى «ملقاطة» على الضفة الغربية للأقصر، وفى الفترة الأخيرة من حكم والده أشركه معه فى الحكم، وتمت مراسم التتويج فى الكرنك.

١٣. أعلن إخناتون عقيدة التوحيد فى نحو العام الخامس أو السادس من حكمه، وأعلن آتون الإله الواحد الأحد للدولة، وانتقل مع زوجته نفرتيتى وجم غفير من الأشراف وكبار رجال الدولة إلى عاصمة البلاد الجديدة «آخت آتون» (العمارنة)، وأصدر أوامره بإغلاق المعابد الوثنية ومحو أسمائها، وعلى رأسها معابد آمون، ومحا لفظ الآلهة بصيغة الجمع فى كل المعابد حتى لا ينصرف الذهن إلا إلى الله الواحد.

التفسير والاستدلال التاريخى

يقول «نيقولا جريمال» أستاذ المصريات بالسوربون، ومدير المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة فى كتابه «تاريخ مصر القديمة» إن بعض المؤرخين قد افترضوا أن «يويا» الذى كان ضابطاً بسلاح المركبات الحربية، ومشرفاً على خيول الملك كان من أقرباء الملكة الأم «موت إم أويا» ويتبنى نيقولا جريمال هذه الوجهة ويرى بالتالى أنه كان من أخوال أمنحوتب الثالث.

وفى تقديرى، وترتيباً على تسلسل الوقائع والأحداث بعد حكم تحوتمس الرابع، فإن هذه القرابة تتجاوز مرحلة الافتراض وتدخل فى حيز الاستنتاج اليقينى، وتقدم تفسيراً لتوالى الحوادث وتوجيهها على النحو السابق، بل إنها تقودنا إلى إدراك أن «يويا» كان أول رئيس لغرفة العمليات المركزية التى أدارت حركة التخطيط والمؤامرات قبل أن يسلم قيادتها بعده لأولاده تى وآى وعانن. وقد استطاعت هذه الأسرة أن تحكم مصر فعلياً وأن تدير دفة الأمور فى البلاد وأن توجه سياستها الداخلية والخارجية بدهاء ومكر وحرص عظيم طبقاً لظروف المواءمة والملاءمة المناسبة لتنفيذ إستراتيجية تحقيق الأهداف، واستمر وجود هذه الأسرة على مدار السنوات من (١٣٩٧ إلى ١٣٢١ ق . م)، ستة وسبعين عاماً، بدأت مع حكم تحوتمس الرابع واستمرت خلال عهود خلفائه التاليين أمنحوتب الثالث، إخناتون، سمنخ كارع، توت عنخ آمون، قبل أن يتولى آى بنفسه عرش مصر رسمياً فى نهاية تلك الفترة.

واستنتاج وجود القرابة بين «موت إم أويا» وبين أسرة «يويا» يأتى استخلاصاً من قرارها المتعجل - بصفتها الوصية على العرش - بتزويج ابنها الفرعون الصبى «أمنحوتب الثالث» إثر توليه الحكم وهو فى الثانية عشرة من عمره بالفتاة «تى» ابنة «يويا»، فإذا ربطنا بين هذا

الزواج وسرعة إتمامه على هذه الصورة وبين الأحداث التى سبقته، ثم الأحداث التالية فى تاريخ مصر التى ترتبت عليه سوف تتضح حقيقة الصلة والارتباط ومركزية التنفيذ بين المؤامرة الأولى وبين سلسلة المؤامرات المتتالية، والتى استمرت وانتهت بانتهاء حكم «آى» بن «يويا» (سنة ١٣٢١ ق. م).

بدأت عندما ارتبط الأمير المراهق «تحوتمس الرابع» بعلاقة ـ فى الغالب أن بدايتها كانت غير شرعية ـ بالفتاة مجهولة الأصل «موت إم أويا» وأثمرت هذه العلاقة عن الطفل «أمنحوتب الثالث» وآنذاك كان الأمير تحوتمس يعيش فى منف مع إخوته، وقبل أن ينهى سنوات عقده الثانى (كان عمره أقل من ثمانية عشر عاماً) صعد ليعتلى عرش مصر غدراً واغتصاباً من الوريث الشرعى، بل أكثر من واحد غير ولى العهد من إخوته الآخرين كانوا أقرب إلى الملك منه، واختفى الأشقاء جميعاً فى جريمة أو عدة جرائم مدبرة.

ويجدر أن نذكر هنا، أننا لافتقاد الدليل، اضطررنا أن نغض النظر عن شكوك قد ساورتنا فى وفاة الأب الملك «أمنحوتب الثانى» نفسه فى ذلك التوقيت وتلك الظروف، وهو الذى عاش متمتعاً بالصحة والعافية، قوى البنيان، عازفاً عن شهوات الجسد، محباً للرياضة البدنية، شغوفاً بالرماية والتجديف، وقضى نحبه وهو فى نحو الثالثة والأربعين من عمره، ورأينا أنه قد يكون من المناسب تجاهل هذه الظروف التى تقتصر على بنيانه وصحته ومعاصرة وفاته لارتباط ابنه تحوتمس بموت أم أويا وولادة الطفل أمنحوتب، وربما أيضاً أن يكون قد عاصر فى أيامه الأخيرة إبادة أبنائه ـ غير تحوتمس ـ واعتبرنا أن جميع هذه المظاهر تظل مجرد شبهات لا يرقى منها دليل كافٍ على اشتمال دائرة المؤامرة على التخلص منه شخصياً، إذ ربما أن الدافع لتنفيذ الجريمة لم يبدأ إلا بمناسبة وفاته.

وعودة إلى المؤامرة وأدلة اتصال خيوطها بالأحداث التالية لها فإنه:

● حيث حملت المصادر التاريخية ما يثبت أنه كان وراء تدبيرها كهنة عين شمس الذين خرجوا هذه المرة بتعاليم جديدة امتزجت مع المبادئ الهليوبوليسية القديمة وقدموا الإله آتون إلى جانب الصور الإلهية القديمة.

● وحيث حملت المصادر أيضاً ما يثبت استمرار تسللهم وفرض نفوذهم وهيمنتهم ومحاولاتهم المستمرة للدفع بالإله آتون والتسبيح بفضائله وإرساء العقيدة الجديدة فى نفوس الشعب، حتى تمكنوا تماماً فى العام الخامس من عهد إخناتون من إعلان آتون إلهاً واحداً للدولة، وتجريد جميع المعابد المصرية من ممتلكاتها لصالح القيادة الجديدة.

● وحيث حملت المصادر التاريخية ما يثبت أن السياسة الخارجية المصرية ـ بعد وفاة تحوتمس الرابع ـ أخذت منعطفاً عكسياً قوامه الإهمال واللامبالاة، وإضعاف قبضة مصر على مستعمراتها فى سوريا وفلسطين.

● وحيث حملت المصادر أيضاً ما يكشف أنه قد صاحب هذه السياسة الجديدة تحلل القوة العسكرية المصرية، وانفراط عقدها القومى، وتركز قيادتها المركزية فى يد الأصهار الجدد أقارب الزوجات الفاتنات على التوالى «موت إم أويا، تى، نفرتيتى» اللائى اشتركن جميعاً فى أنهن خرجن من صفوف العامة، وحملت كل منهن لقب الزوجة الرئيسية للملك.

فإننا نستدل من كل ما تقدم من مظاهر على استمرار الرابط بين القيادة التى وضعت تحوتمس الرابع على العرش وبين هؤلاء المتحكمين فى السلطة القائمين خلف «موت إم أويا» الوصية على عرش «أمنحوتب الثالث» بعد وفاة زوجها فى ريعان شبابه، ثم خلف ومع الملكة «تى» فى عهد «أمنحوتب الثالث» ثم فى عهد خلفه «إخناتون» وزوجه «نفرتيتى».

ويخطئ من يتوهم أن الأمير تحوتمس فى هذه السن الصغيرة هو الذى قاد أو خطط مؤامرة وصوله إلى الحكم قاضياً على أشقائه ومضحياً بهم وبانتمائه العائلى ونفوذه الذى يستمدُّه من الملكية القوية لأعظم أسرات التاريخ المصرى القديم فى كل عصوره. ويخطئ من يتوهم أن «موت إم أويا» تلك العشيقة المجهولة هى التى حكمت أو قادت أو دبرت أمور المملكة المصرية ومستعمراتها فى آسيا بصفتها الوصية على عرش الفرعون الفتى «أمنحوتب الثالث» ولعدة أعوام كان فيها مجرداً من نفوذ أسرته الملكية العريقة، بعد أن قطعت مؤامرة الكهنة دابرهم، ليظهر على مسرح التاريخ ابتداء من ذلك العهد أسماء أصحاب النفوذ من أقارب الزوجات.

إن تحوتمس الرابع، لم ينفذ أو يخطط أو يقود مؤامرة وصوله إلى الحكم؛ لأنها من ناحية ذات أبعاد تفوق إمكانياته وقدرات عمره الصغير؛ خصوصاً وأن تنفيذها تجرد من الاعتماد على وسائل وإمكانات عائلته الملكية، ومن ناحية أخرى فإنها مغامرة لا تؤمن عواقبها بسبب احتمالات غدر معاونيه به - كما غدروا بإخوته - بعد أن يصبح معهم وحيداً مجرداً من عائلته وأنصاره فى البيت الحاكم - وهو ما حدث معه فعلاً - ولهذا فإن الغالب أن هذه المؤامرة فُرضت عليه ونفذت لصالحه، ولم يكن اختياره هدفاً فيها دون باقى أشقائه إلا بسبب علاقته بالفتاة «موت إم أويا» وتحديداً بغرض أن يصبح ابنها «أمنحوتب الثالث» فرعوناً لمصر، الأمر الذى نستنتج منه أن تلك المحظية ترتبط ارتباطاً وثيقاً ومباشراً بكهنة عين شمس الذين قادوا المؤامرة ونفذوها لغرض فى نفس «آل يعقوب».

وحيث أثبتنا سابقاً وقدمنا أدلتنا على ارتباط معبد عين شمس بالقبائل الإسرائيلية التى تعيش فى مصر، وانتهينا إلى أن الآية الساطعة على ذلك أن غاية مؤامراتهم كان فرض المذهب الهليوبوليسى، والذى اكتشفنا أنه لم يكن ذلك المذهب القديم الذى نشأ فى معبدهم وكانت تعرفه مصر فى عصورها القديمة والوسطى، والذى توهمت حتشبسوت أنها أعادته وأعادت شعائره الأزلية، وإنما صورة مختلفة ترتكز على عقيدة جديدة تقول إن إله الكون واحد، وترفض تعدد الآلهة، وتأخذ فقط من المذهب القديم بعض الصور والمعانى التعبيرية وبما لا يخرج عن جوهر العقيدة الجديدة.


نقش يمثل موت إم أويا تجتمع بالإله آمون لتحدث الولادة الإلهية لأمنحوتب الثالث

على أرض ثابتة، نستطيع أن نستدل من جميع تلك الظروف، أن «موت إم أويا» هذه التى لم يعرف لها أصل أو قوم، واعتقد المؤرخون أنها أجنبية أو من عامة الشعب، فإنها فى حقيقة الأمر تنتمى إلى بنى إسرائيل، الذين دخلوا مصر مع الهكسوس، وارتبطوا بهم بسبب ولاية يوسف منصباً مهماً فى عصرهم، استمر يشغله مدة طويلة من حياته، منح قومه خلالها مزايا ونفوذاً، وعاشوا بعده يتمتعون فى هذا الخير، حتى جاءت حتشبسوت واضطهدتهم بسبب عقيدتهم التى تكره الآلهة المصرية، وفضحت صلتهم القديمة بالغزاة الأجانب، وصنفتهم السلطة كأعداء لمصر، ولهذا فإن صناع المؤامرة الذين قدموا «موت إم أويا» محوًا عنها كل عار يمكن أن يضعف من قبولها كأم لفرعون مصر القادم، فلم يذكر لها أب أو جد أو أرض أو قوم، فقط إنها «موت إم أويا» وكفى، وحتى هذا ليس اسمها الحقيقى وإنما هو اسم تم اختياره لها، وتعمدوا فى اختياره ـ حبكاً للخدعة ـ أن ينسبوه لإله الجنوب وزعيم الآلهة المصرية، فاسم «موت» هو اسم الإلهة زوجة «آمون»، وقد رأينا أن مدبرى الجريمة قد مثلوا «موت إم أويا» فى منظر على جدران معبد الأقصر تجتمع بالإله آمون وتحمل منه الملك «أمنحوتب الثالث»، وذلك جرياً على عادة الثالوث فى المعابد المصرية، أى أن الإله يجتمع بالإلهة زوجته التى معه فى المعبد، وينجبان ذكراً يكون الابن وثالث الآلهة، وبهذه الطريقة الملفقة كمم مدبرو المؤامرة أفواه من يدعى من الكهنة أو رجال الدولة أو الشعب عدم استحقاق «أمنحوتب الثالث» للعرش بسبب أمه التى لا تحمل الدم الملكى؛ لأن ابنها وريث العرش يحمل دماً إلهياً خالصاً لانتسابه مباشرة إلى آمون، وكانت هذه القصة هى السبب فى اختيار اسم «موت» لها، أما اسمها الحقيقى فيمكن أن نعرفه من نقش على لوحة يقص فيها تحوتمس الرابع انتصاره على بلاد «كوش» وخلفه تقف ملكة تلقب بالبنت الملكية والأخت الملكية والزوجة الملكية ويقرأ اسمها «عرات»، وهى المرة الوحيدة التى ذكر فيها اسمها، واعتقد البعض أنها زوجة أخرى لتحوتمس، ولكن وجود هذه الألقاب مع اسمها يجعل الاحتمال الأكبر أنها «موت إم أويا»، الزوجة الرئيسية، مقارنة مع الملك «تى» الزوجة الرئيسية لابنها «أمنحوتب الثالث»، وكانت هى الأخرى قادمة من الشعب وحملت لقب «الزوجة الملكية العظيمة».

إذاً لم يكن وصول تحوتمس الرابع إلى الحكم هو غاية المؤامرة، وإنما كان وسيلة عبر عليها بنو إسرائيل نحو أهدافهم الرئيسية ونذكر أنها:

- فرض العقيدة الإسرائيلية وانتزاع النفوذ والسيادة الدينية.

- أموال وأوقاف المعابد.
- إعداد فلسطين للهجرة وسلب السيادة المصرية عنها.

وبعد أن جلس تحوتمس الرابع على عرش مصر، تحققت لهم خطوة قوية وثابتة نحو تحقيق أهدافهم، فقد أصبح لهم وجود داخل القصر الملكى يتمثل فى زوجته الإسرائيلية «موت إم أويا» الزوجة الرئيسية للملك، وطفلها منه «أمنحوتب الثالث»، واستكملت المؤامرة أركانها بالتغلب على الوضع الاجتماعى للأم الذى يعوق جلوس ابنها على العرش، بعد إعلان انتسابه للإله «آمون». وفى حذر تسللت العقيدة الآتونية إلى جانب العبادات الأخرى، وصدرت بعض القرارات التى تحد من سلطان كهنة آمون، ولكن بعد فترة وجيزة استطاع الملك تحوتمس الرابع أن يدعم نفوذه ويزيد من قوته، فقد تمثل خطى أبيه وجده، ونجح فى توطيد سلطان مصر فى أنحاء الإمبراطورية شمالاً وجنوباً، ودعم علاقات مصر الخارجية بزواجه من أميرة ميتانية الأصل، وإن كانت «موت إم أويا» هى زوجته الرئيسية وأم وريث العرش إلا أنه اتخذ زوجات أخريات، وأصبح له عديد من الأبناء والبنات، ويسترعى الانتباه أنه أطلق على أحد أبنائه اسم شقيقه الأكبر ولى العهد الشرعى السابق «آمن إم إبت» وعلى إحدى بناته اسم أمه «تاعا» الأمر الذى قد يكشف عن صحة حكمنا ببراءته، ويعطى لمحة خاطفة عن أن قلبه لم يكن يحمل حقداً تجاه إخوته أو أسرته. والذى أعتقده أن تحوتمس لم يدرك خطورة «موت إم أويا» أو يعرف أنها صنيعة كهنة عين شمس، وأداة لصالحهم، وتعامل معها على أنها زوجة مصرية خالصة، صادقة الحب والوفاء، تقف بجانبه وتساعده كملك لمصر حريص على أمته ووطنه. ولا نستبعد أن تكون «موت إم أويا» فى فترة ما من حياتها مع زوجها خلال الاثنى عشر عاماً التى غمرها فيها بحبه، قد بادلته مشاعره الصادقة، وشاركته همومه ومشاكل وطنه وشعبه، وأصبح زوجها أقرب إليها من أقاربها الذين أرادوا منها أن تكون أداة لهم فى القصر الملكى، ولكن يحتمل أيضاً أن الأمر أخذ صورة عكسية، وأدرك تحوتمس - بعد حين - أن الأمور داخل القصر تُحرك من الخارج فى اتجاه تحقيق أهداف معينة، أو لصالح فئة من الناس، وأن يكون قد حرص على إعداد ابنه ولى العهد وتنشئته لينهج خطى أجداده الملوك العظام فى تلك الأسرة.

أياً ما كانت العلاقة بين الملك وزوجته الرئيسية داخل القصر الملكى، فإنه عند مرحلة معينة، كان قد مر نحو عشر سنوات على المؤامرة الأولى التى قادت تحوتمس إلى الحكم، عندها أدرك شيوخ إسرائيل أن الزمن لم يعد فى صالحهم، وبات واضحاً أن ذلك يرجع لسببين رئيسيين:

أولهما: أن الملك قد اشتد عوده وترعرع وقويت شوكته، ووطد أركان دولته فى الداخل والخارج، ودعم علاقاته بتحالفات مع حكام الدول الأجنبية القوية، ووسع من دائرة نفوذه، وأكثر من أتباعه ومعاونيه، وأعاد تنمية وتقوية أسرة الحكم، وصار له من عدة زوجات اثنا عشر ابناً وبنتاً، وينتهج خطى ملوك أسرته العظام، وفضلاً عن ذلك فإنه لم يعد يرجى منه أن يقدم لهم أكثر مما تحقق.

وثانيهما: أن ولى العهد «أمنحوتب الثالث» الابن الذى أنجبته ابنتهم «موت إم أويا» - هدفهم

الأساسى وأملهم المنتظر - قد بلغ عامه الثانى عشر، أخضر العود سهل الاقتياد والتشكيل، ويتجه إعداد البيت الحاكم له نحو تربيته وتنشئته عسكرياً وبدنياً وغرس روح الوطنية والفروسية فيه، كعادة الأمراء والنبلاء فى تلك الأسرة.

ولهذا فإن عوامل الزمن تسير ضد رغبتهم، ولم تعد مأمونة العواقب، وأن مرور الوقت أكثر من هذا سوف يجهض مؤامرتهم ويذهب بجهودهم السابقة سدى، وفى هذا التوقيت كان قرار قيادة التآمر فى «هليوبوليس» بزعامة «يويا» بأنه قد تحتم الآن جلوس ولى العهد على العرش تحت وصاية الأم «موت إم أويا».

مسئولية المؤامرات عن التغيير فى السياسة المصرية

إن دراسة المصادر التاريخية لا تقدم أسباباً واضحة أو منطقية تفسر التغيير الجذرى الذى طرأ على السياسة المصرية فى النصف الثانى من حكم الأسرة الثامنة عشرة، والذى تمثلت أهم مظاهره فى انهيار مجد مصر الخارجى، كما تخللت هذه الفترة الثورة الدينية التى أعلنت التوحيد عقيدة رسمية لمصر، فقد حدث التغيير فى ظل ظروف لا تساعد على توقعه سواء على المستوى الإقليمى أم الدولى، فآنذاك كانت مصر تملك القوى العسكرية والاقتصادية والإدارية، وكافة مقومات السيادة العالمية، وهو الأمر الذى يوضح أن اتجاه السياسة المصرية الطارئ لم يكن لعوامل تقتضيها إستراتيجية الدولة، وأيضاً لم يفرض عليها من قوى خارجية، وتكشف الأحداث التى صاحبت بدايته واستمرت معه أنه كان اختياراً متعمداً ومفروضاً من الداخل بعد أن تهيأت الظروف لمصلحة الطائفة التى فرضته، وأيضاً يستدل من الأحداث أنه دبر بحيث يظهر سلمياً، ومنسوباً إلى إرادة سلطة الحكم، فلم يصاحبه عنف أو ثورات، إذا استثنينا مرحلة الصراع الدينى بين كهنة الوثنية وأتباع عقيدة التوحيد، ولهذا نسب المؤرخون المسئولية عن إحداث التغيير إلى ملوك تلك الفترة، ولكن الحقيقة أن هذا التحول واستمراره ارتبط بوجود أشخاص معينين أفرزتهم فترة حكم «تحوتمس الرابع» ثم ظروف وفاته فى سن مبكرة وتولى ابنه «أمنحوتب الثالث» العرش صبياً بوصاية والدته.

وإخضاع هذه الفترة للتحقيق التاريخى مع ربط أحداثها بالحقائق التى حملتها المصادر الدينية سوف يثبت أنه كان وراء هذا التغيير وتوجيه دفة الحكم فى مختلف مراحله نفس الأشخاص الذين اقتادوا تحوتمس الرابع لاغتصاب العرش، كهنة عين شمس «الآتونيين» فقهاء التوحيد، ثم اقتضى الأمر لتطويع النظام لمصلحتهم تنفيذ سلسلة أخرى من المؤامرات المتتالية، أكملوا بها مؤامرتهم الأولى، واستطاع تخطيطهم أن يقودهم إلى تحقيق أهدافهم بإعلان التوحيد عقيدة لمصر، ومصادرة أموال وأوقاف الكهنوت لصالح معابد آتون، وإضعاف قبضة مصر الخارجية.

ارتباط بداية التغيير مع ظهور أسرة يويا

كانت فترة حكم تحوتمس الرابع حلقة فاصلة بين عهدين للأسرة الثامنة عشرة، فقد امتازت

هذه الأسرة منذ قيامها بأنها أسرة عسكرية، قام ملوكها الأوائل بتحرير مصر من الهكسوس، والقضاء على فلولهم، ثم اتجه ملوكها الفاتحون إلى خارج حدود الدولة شمالاً وجنوباً فأحدثوا الانتصارات الساحقة، والفتوحات الشاسعة، وجعلوا هيبة مصر والفزع منها يدب فى قلوب ممالك الشرق القديم التى أخذت جميعها تدين لمصر بالطاعة والولاء، وأقيمت الحاميات المصرية فى المدن المهمة لتكون مراكز إستراتيجية يرأسها الحكام العسكريون لإدارة شئون المستعمرات منها، وليجلب جنودها خيرات تلك البلاد إلى مصر. وعلى الصعيد الداخلى أعلى الملوك من قدر المعابد ومنحوها الكثير من الأموال والأراضى وجزية البلاد الأجنبية، ورفعوا من شأن كهنتها، وعلى رأسهم كهنة آمون زعيم الآلهة المصرية، وردوا إليها الفضل فى القضاء على الغزاة ثم تحقيق انتصاراتهم وفتوحاتهم الخارجية.

وشأنهم شأن ملوك مصر منذ أقدم العصور حافظوا على الدم الإلهى يجرى فى عروق أسرتهم، فانحصرت وراثة العرش فى دائرة البذرة الفرعونية النقية التى كانت على حسب الأساطير تنحدر من ظهر الإله «رع» أول من حكم مصر.

وأطلت بداية التغيير فى حياة الأسرة الـ ١٨ فى عهد الفرعون تحوتمس الرابع، الذى وصل إلى الحكم نتيجة مؤامرة، فقد رأينا أنه خرج على التقاليد الملكية، وجعل زوجته الرئيسية من خارج دائرة الأسرة الملكية، ونصب ابنه منها ولياً لعهد الدولة، وتحايلوا على ذلك بإعلان انتسابه للإله آمون، وأيضاً بدأت فى عهده بشائر مظاهر التغيير الدينى الرسمى بالاتجاه إلى الآتونية التى نبعت من معبد عين شمس، كما سجل له أنه كان أول من أصدر قرارات للحد من سلطان كهنة آمون وهيمنته على القطرين.

ثم أعقب وفاة تحوتمس الرابع مباشرة، دخول مصر مرحلة جديدة واضحة التغيير فى حياة تلك الأسرة العسكرية، فقد أغمد الفراعنة سيوفهم، وسرحت الجيوش، واستشرى الانحلال فى النفوس، وانتشرت الملاهى ومراتع الرقص والخمر، ودبت الرخاوة فى أرواح الرجال، وذهبت عنهم روح البطولة وحب الفتح والعسكرية. ولا مجال فى رأيى لقبول التفسير الذى يعتقده معظم المؤرخين برد هذه الحالة إلى ما أحرزه الملوك الفاتحون - قبل هذا العهد - فى حملاتهم العسكرية من تهيئة الأحوال الخارجية وإخضاعهم للممالك المجاورة وإضعافها، وإلى بحبوحة الأموال والخيرات التى تغدق على مصر من الخارج، الأمر الذى رأوا أنه مكن لمصر أن تظل حاملة لواء السيادة دون حاجة إلى حروب، وجعل الفراعنة يكتفون بما تحقق مع عقد التحالفات والمصاهرات مع الملوك الأجانب. فهذا التفسير تناقضه تماماً رسائل الاستغاثة المتتالية التى كانت تصل من الأمراء الموالين لمصر فى الخارج يصرخون فى طلب النجدة ـ دون حراك ـ بل إخفاء متعمد لها من حاشية القصر عن الفرعونين أمنحوتب الثالث وإخناتون.

لقد أصبحت مصر متهاونة فى المحافظة على مستعمراتها، ولم يعد يُحفل بحقوقها، وكأن

الفرعون لم تعد له جيوش، وتدريجياً بدأ يتهاوى ماضى مصر المجيد، وتتلاشى هيبتها، وتنحسر ممتلكاتها حتى اقتصرت على بعض الإمارات فى فلسطين.

وينسب المؤرخون المسئولية فى إحداث هذا التغيير إلى الفرعون «أمنحوتب الثالث» الذى حكم بعد أبيه «تحوتمس الرابع» وعاش مستمتعاً بشهواته غارقاً فى ملذاته بين الخمر والنساء، نهماً فى طلب المزيد من الحسناوات الأجنبيات من الملوك حلفاء مصر، حتى أنهك الإسراف صحته، وضعفت قوته، وفى أيامه الأخيرة صوره الفنانون كهلاً ضعيفاً، تبدو على ملامحه معاناة آلام المرض، وقضى نحبه فى الخمسين من عمره، وحكم ٣٨ عاماً لم يذهب خلالها فى حملة واحدة إلى آسيا، وأما شهرته العظيمة فتحسب على أعماله الفنية والمعمارية الرائعة.

وأرى أن تحميل المسئولية برمتها على عاتق «أمنحوتب الثالث» أمر يحتاج إلى إعادة نظر وتحقيق تاريخى، حقاً إنه بدأ حكمه صبياً تحت وصاية والدته «موت إم أويا» ولكن بعد أن بلغ رشده، فما الأسباب الحقيقية أو المبرر المقبول لأن تسلك مصر القوية فى عصرها الإمبراطورى هذا المنحدر الجارف المفاجئ، الذى سرعان ما ظهرت آثاره الخارجية الوخيمة، وفقدت مستعمراتها وهيبتها ونفوذها، وأهدرت ما حققه لها ملوكها العظام فى سنوات الكفاح والنضال؟ فعلاً كان الأمر غريباً، ولم يكن متصوراً حدوثه فى هذا التوقيت، فقد كانت مصر فى أوج إشعاعها الحضارى وذروة قوتها، وهى بلا منازع القوة الكبرى فى العالم، سمعتها عالمية وهيبتها مدوّية، ولم يكن ظهور بعض الممالك الصاعدة فى آسيا، ونجاحها فى السيطرة على مواقع ممتلكات مصرية سوى استغلال لموقف مصر المتخاذل فى حماية مناطق نفوذها، وأيضاً لم تكن توجد مشاكل وانقسامات داخلية ظاهرة تقوّض طموحها، وتدل العمائر العظيمة والرائعة التى أقامها «أمنحوتب الثالث» وحياة كبار رجال الدولة أن البلاد كانت تعيش فى ثراء عريض وتملك إمكانيات اقتصادية هائلة.

إن الذى يمكن أن نستنتجه من هذا الانتكاس المفاجئ فى القوة العسكرية المصرية، التى كانت أبرز ما يميز هذه الأسرة، ومن تهاونها اللامنطقى وغير المبرر فى حماية ممتلكاتها الخارجية والحفاظ عليها، هو أن سياسة البلاط المصرى أخذت خطاً جديداً مغايراً، وبعد أن رفضنا تفسيرات المؤرخين السابقة فى تبرير هذا الاتجاه، فإن دراسة الأحداث وترتيبها على ضوء الظروف التى ارتبطت بجلوس «أمنحوتب الثالث» على العرش، وما أفرزته من ظهور قوى سياسية جديدة فرضت وجودها فترة امتدت من الزمن، يقودنا إلى مساحة من التفكير تسمح باستخلاص أن هذا الخط السياسى المغاير، الذى لا يحقق مصلحة الدولة كان متعمداً ومفروضاً فى هذه المرحلة، ويفصح بجلاء عن عدم وطنية القائمين عليه، وأن مصر لم تعد تفكر لنفسها، لقد أحكم المتآمرون شراكهم، وتسلم زمام القيادة فى الدولة كهنة عين شمس (الآتونيون) الذين انتزعوا العرش لتحوتمس الرابع، ثم نجحوا فى استغلال مؤامرتهم وخطوّا بثبات وقوة نحو تحقيق أهدافهم: المال والنفوذ السياسى والدينى، وإضعاف السيطرة المصرية على مناطق نفوذها فى آسيا، وكان طريقهم إليها بإضعاف الجذوة الوطنية والروح العسكرية لدى

الحكام والشعب، وأيضاً ضغط الإنفاق العسكرى والذى ينعكس عليهم إيجابياً، وقد استمر هذا الخط السياسى طوال عهود «أمنحوتب الثالث» وخلفائه التالين، ولم تتخلص منه مصر إلا بانتهاء حكم الملك «آى» وقيام حور محب على العرش سنة (١٣٢١ ق . م).

وتتضح حقيقة ما نرمى إليه من قصد فى تحديد المسئولية عما أصاب مصر فى تلك الفترة من ملاحظة تاريخية مهمة، وهى أنه كما كشفت المصادر عن أن مرحلة التغيير الحاد فى السياسة المصرية جاءت مواكبة للفترة التالية لوفاة الفرعون «تحوتمس الرابع» - أو اغتياله كما نعتقد - وبدأت مع جلوس «أمنحوتب الثالث» على العرش، فإنه قد ارتبط أيضاً بذات الفترة بزوغ نجم أسرة «يويا» الآتونية الهليوبوليسية، الإسرائيلية، على النحو الذى سوف نقدم أدلتنا عليه ونثبته فى هذا الجزء من البحث.

ولقد ظهرت هذه الأسرة بقوة على مسرح التاريخ إثر اقتران ابنة يويا بالملك الجديد فى العام الثانى من حكمه، ولعدة عقود استمرت سيطرة هذه العائلة على مقاليد وتوجهات الأسرة الحاكمة فى مصر، حتى استطاع العجوز «آى بن يويا» أن يصل إلى حكم الدولة فعلاً بعد الملك الشاب «توت عنخ آمون»، الذى قضى نحبه فى ظروف غامضة قبل أن يكمل سنوات العقد الثانى من عمره، وانتهت بوفاته سلالة الملوك المنحدرين من مؤسس الأسرة الـ ١٨ الملك أحمس.

أسرة «يويا»

بدأ ظهور «يويا» وتقلده المناصب الرسمية المهمة فى الدولة فى عهد تحوتمس الرابع (١٣٩٧ ق . م) واستمر نفوذه وأسرته وتأثيرهم القوى فى شئون الحكم ممتداً طوال عهود فراعنة مصر على التوالى:

أمنحوتب الثالث (١٣٨٧ ق . م).

إخناتون (١٣٤٩ ق . م).

سمنخ كارع (١٣٣٥ ق . م).

توت عنخ آمون (١٣٣٣ ق . م).

وأخيراً تولى «آى بن يويا» نفسه الحكم (١٣٢٤ ق . م)، وبعد وفاته انتهى عصر ونفوذ هذه الأسرة، وقامت دولة «حور محب» (١٣٢١ ق . م)، وبدأت مرحلة اضطهاد وتعذيب المؤمنين.

ويتضح بذلك أن تأثير ونفوذ عائلة «يويا» امتد على ساحة التاريخ نحو ستة وسبعين عاماً خلال النصف الثانى لحكم الأسرة الثامنة عشرة، ويمكن تقسيم هذه العائلة خلال فترة نفوذها إلى جيلين:

الجيل الأول: تمثل فى «يويا» رأس العائلة وزوجته «تويا» وأبنائهما «تى» و«آى» و«عانن»، وكانت أبرز تأثيرات هذا الجيل فى عهود «تحوتمس الرابع»، «أمنحوتب الثالث»، «إخناتون».

الجيل الثانى: قاده «آى» الذى عاصر الجيلين، وعاش حتى تخطى السبعين من عمره، وزوجته «تى» الثانية، وابنتيهما «نفرتيتى» و«موت نجمت»، وفى هذه المرحلة الثانية كان «آى» قد أصبح صهراً للملك إخناتون، وامتدت هذه الفترة من عهد إخناتون إلى نهاية حكم «آى».

وقد ماتت نفرتيتى ربما فى نهاية عهد إخناتون أو بعده بفترة قصيرة، وأحداث هذه الفترة

غامضة إلى حد كبير، وبعد وفاة «آى» انتهى عصر عائلة «يويا» ولم يكن باقياً سوى «موت نجمت» التى تزوجها قائد الجيش «حور محب» مع بداية حكمه، ويقول المؤرخون إنه تزوجها لتكون محللاً يبرر له ارتقاء عرش مصر باعتبارها ابنة الملك السابق، ولكنه بعد أن استقر له الحكم، محا اسم والدها مع باقى ملوك العمارنة من الحوليات والقوائم الرسمية، ووصفهم بالملحدين المارقين، وعاشت معه «موت نجمت» بعد انتهاء نفوذ عائلتها وحيدة مغلوبة على أمرها متمسكة بدينها، وانعدمت حيلتها فى أن توقفه عن قتل وتعذيب المؤمنين، ولم تملك له دفعاً إلا دعاء ربها «**نجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين**».

وقد جاء أول إعلان قدم «يويا» إلى شعب مصر فى التذكارات الملكية التى نقشت على جعران صدر من صور عدة بمناسبة الاحتفال بزواج الملك «أمنحوتب الثالث»، يقول نصه: «يعيش الملك «أمنحوتب الثالث» معطى الحياة (مع ألقابه كاملة) والزوجة الملكية العظيمة «تى» العائشة، واسم والدها «يويا»، واسم والدتها «تويا»، وهى زوجة ملك عظيم تمتد حدوده الجنوبية حتى «كاراى» (شمال السودان)، وحدوده الشمالية حتى «نهرين» (العراق)». وغالباً أن هذا النص سجل أيضاً على مصادر إعلان أخرى فى أنحاء القطر.

ورغم أن هذا الزواج كان خارجاً على التقاليد الفرعونية التى تحتم أن تكون الزوجة الملكية من دم ملكى نقى، وإن كان هذا تكراراً لنفس ما فعله الملك الأب «تحوتمس الرابع» فإن هذا النص التذكارى والإعلان عن زواج الملك على هذه الصورة يكشف عن جرأة غير معهودة، وتحدٍّ يسترعى الانتباه بسبب الخروج عن القواعد، وهدم الشرعية والتقاليد المرعية فى اختيار الزوجة الملكية الرئيسية، حتى دون تقديم مبرر يسنده، وكأن ما فعله تحوتمس الرابع من قبل أصبح الآن قاعدة معتادة، فلم يبال الملك أو يخش من الكهنة أو الشعب، وكان صريحاً فى تحديد نسب زوجته الشعبى، ولما كان الملك صغير السن إلى الحد الذى لا يدرك معه عواقب فعله أو مدى تأثيره فى المجتمع الذى اعتاد منذ عهوده القديمة على احترام العقائد والعادات المستقرة، وكانت أمه الوصية على عرشه تنتمى إلى ذات الفصيل الخارج عن القواعد، ولهذا فإن الحقيقة أن رغبة التحدى والقوة فى إعلانه كانتا إرادة آخرين، وهم هؤلاء القادمون إلى السلطة خلف الفرعون الصغير، الذين عقدوا العزم على التغيير وإزاحة موروثات العقائد من العرف والتقاليد المبنية على تراث دينى، وكانت بدايتهم إعلان المجتمع شماله وجنوبه، أن الزوجة الملكية العظيمة تدعى «تى» وأنها خرجت من عامة الشعب وتفخر بانتمائها إلى أسرتها.

وفى مجال المقارنة نشير إلى ملاحظة أن «موت إم أويا» زوجة «تحوتمس الرابع» أخفت أصلها فلم نعرف أى معلومات عن أسرتها، أما الملكة «تى» فقد نسبت إلى والديها وأعلنت ذلك للشعب، الأمر الذى يذكرنا بالاستنتاج الذى استخلصناه من الأحداث، وهو أن «موت إم أويا» كانت مجردة من الوضع الاجتماعى الذى يمكن أن تفخر به، وأنها كانت صنيعة الكهنة الذين استغلوا وقوع الأمير تحوتمس فى شراكها، فجعلوها أداة لتحقيق أغراضهم، وكان وجودها مرحلة انتقالية قادت إلى زعيم التآمر الكاهن

«يويا» واستدللنا على سيطرة «يويا» على «موت إم أويا» من الأحداث المباشرة التى أعقبت وفاة «تحوتمس الرابع»، فقد سارعت بصفتها الوصية على عرش ابنها الملك أمنحوتب الثالث (١٣ عاماً) بتزويجه من الفتاة الصغيرة «تى» (١١ عاماً) ابنة «يويا»، ثم اختفت بعدها أو انتهى دورها لتتجمع مقاليد السلطة والحكم فى يد الملكة الجديدة وأسرتها، ولهذا السبب افترض البعض وجود صلة القرابة بين الملكة الأم «موت إم أويا» وبين «يويا»، وأنه بالتالى من أخوال «أمنحوتب الثالث»، ونلاحظ أن هذا الرجل «يويا» تماماً مثل «موت إم أويا» لم يذكر أى معلومات عن عائلته أو موطنه، فلا نعرف شيئاً عن أبيه أو أجداده أو قومه، وتبدأ أهميته من شخصه والألقاب والوظائف التى حصل عليها، مجرداً من ماضيه، الأمر الذى يكشف إما عن وضاعة أصله فى نظر المصريين، أو انتماء أجنبى محتقر يحمل ذكريات مؤلمة أو ماض مشين، ولهذا كان حرصه الواضح على إخفاء أية أمور قد تشوِّه صورته أمام المجتمع أو تعوق طموحه.

أما الملكة «تى» فلم تخفِ نسبها وتفاخرت بوالديه؛ لأن والدها «يويا» كان قد أخذ مكانه ضمن الطبقة العليا للمجتمع، وأصبح رجلاً مهماً فى الدولة، يجمع بين الوظائف العسكرية والدينية، فقد بدأ مرحلة الصعود والترقى، وحصد الألقاب الرفيعة مع بداية عهد «تحوتمس الرابع» سواء بسبب دوره فى رفعه إلى العرش، أم بفضل «موت إم أويا»، أما الشرف العظيم والشأن الرفيع والنفوذ الكبير فقد حصل عليه «يويا» بعد أن أصبح صهراً للملك «أمنحوتب الثالث» وحمل لقب «الوالد المقدس لسيد الأرضين»، ومنذ هذا التاريخ شرعت هذه الأسرة بقوة وسرعة فى توطيد دعائم أركانها فى جنبات المجتمع المصرى والقصر الحاكم.

وسوف نسبق تقديم أدلتنا على الهوية الإسرائيلية لأسرة «يويا» وتفصيل المؤامرات التى ارتبطت بوجودهم بعرض السيرة الشخصية لأعضاء الأسرة الذين أبرزهم التاريخ، ومن خلالها نستطيع أن نستدل على أهمية ونفوذ هذه الأسرة، ونقف على دورها فى تحديد اتجاهات السياسة المصرية، والتحكم فى المقاليد الإدارية والاقتصادية فى تلك الفترة، استخلاصاً من المصادر التاريخية أو استدلالاً من ترتيب الأحداث.



يويا

١ـ «يويا» المؤسس

كان ضابطاً بسلاح المركبات الحربية ومشرفاً على الخيول الملكية، ثم أصبح كاهناً للإله «مين» فى معبد أخميم وهو واحد من أهم المعابد وأغناها فى مصر، وفى الغالب أنه نال شرف هذا اللقب فى عهد تحوتمس الرابع، بعد أن بدأ مرحلة التصعيد السياسى، وكان يشغل هذه الوظيفة عندما تزوجت ابنته «تى» من «أمنحوتب الثالث»، وبعد هذا الزواج أصبح له نفوذ كبير وشأن عظيم، ونستدل على أهميته وقربه من الفرعون

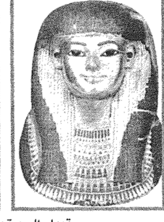
وعلى الوظائف المهمة التى تقلدها من الألقاب التى حصل عليها وسجلها لنفسه، وهى: قائد الفرسان وكان يعتبر أهم أسلحة الجيش المصرى، والسمير المخلص لفرعون، والسمير الأول بين السمّار، وفم الوجه القبلى، وأذنا ملك الوجه البحرى، ووالد الإله، والممدوح من الإله الطيب، والممدوح كثيراً فى بيت الفرعون وعين رب الأرضين، رب «آبو».

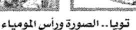
ويظهر حرصه على الوظائف التى تجمع بين الأهمية الاقتصادية والنفوذ الدينى أو الإدارى منذ أن تقلد منصب الكاهن الأكبر لمعبد أخميم وافر الثراء، ثم يتجلى هذا الحرص لديه بوضوح فى عهد أمنحوتب الثالث، عندما أصبح مسئولاً عن معظم خزائن مصر، فحصل على وظيفة «حامل خاتم الوجه البحرى» وكانت وظيفة حامل الختم الملكى من أهم الوظائف التى تنظر فى الأمور الإدارية، وتزويد القصر بكل ما يحتاجه، والإشراف على ملء الخزانة الملكية وصوامع القصر، وتنظيم التعدين وإحصاء البعثات التجارية لملء خزانة كل من الفرعون والحكومة، ومن اختصاصه أيضاً تثقيف وتهذيب أمراء القصر، ومن الوظائف ذات القيمة الاقتصادية العظيمة التى حصل عليها «يويا» أيضاً «المشرف على أوقاف آمون» و«المشرف على ثيران آمون»، وسبب هذه الأهمية أن سلطان «آمون» آنذاك كان قد وصل إلى قمة سطوته، فقد نسب لهذا الإله الفضل فى حرب التحرير، وتوسيع رقعة الدولة فى آسيا والنوبة، ومركز عبادته فى طيبة هو عاصمة الدولة ومقر الفراعنة، وهو زعيم آلهة مصر، وملك الآلهة فى الكرنك، وأقيمت لأجله معابد فى طول البلاد وعرضها، ولقد ازدادت المنح والأراضى الموقوفة على معابد آمون، وتجاوزت مخصصاته غيرها من مخصصات الآلهة الأخرى، وأوقف على معابده الكثير من الأراضى الخصبة، التى يقوم على زراعتها جمع كبير من العبيد الذين جىء بهم من البلاد المقهورة، وأسرى الحروب، وكانت لآمون مزارع للكروم وحدائق ومراع وقطعان من الماشية، وتكدست فى مخازن معابده الحبوب والغلات المختلفة، ويمتلك أساطيل من المراكب تبحر فى موانئ البحر المتوسط وشواطئ البحر الأحمر، وكان كبار كهنة آمون والمشرفون على ضياعه يستولون على جزء كبير من دخول دور العبادة التى تأتى من الضياع وغيرها، وكانوا يمتلكون قصوراً وضياعاً، وقد مهد يويا لأبنائه ليرثوا وظائفه وألقابه من بعده.

ترشح أدلتنا أن يويا كان زعيم المتآمرين الذين دبروا ورفعوا تحوتمس الرابع إلى الحكم اغتصاباً، بعد أن تخلصوا من ولى العهد الشرعى وإخوته الآخرين، وهو ـ فى تقديرى ـ الرأس المدبر للأحداث التالية التى وضعت نهاية لهذا الملك فى ريعان شبابه، وقادت ابنه «أمنحوتب الثالث» صبياً إلى العرش، وحددت اتجاهات السياسة المصرية فى تلك الفترة.

مات فى عهد «أمنحوتب الثالث»، ودفن مع زوجته «تويا» فى قبر أعد لهما فى وادى الملوك الذى كان مقصوراً على دفن الفراعنة.

٢. «تويا» الزوجة والكاهنة المغنية





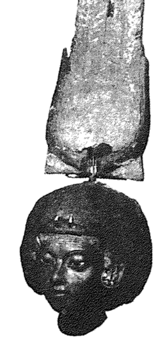
تويا.. الصورة ورأس المومياء

زوج «يويا» كانت المشرفة على الملابس في البلاط الملكى ووصيفة فى القصر فى عهد «تحوتمس الرابع»، وأعتقد أن اختيارها فى هذا المكان كان راجعاً إلى تدبير «يويا» لتكون عينه فى القصر وأداته لإحكام سيطرته على الزوجة الملكية «موت إم أويا»، وربما أن هذا الوجود يعضد أيضاً استنتاج صلة القرابة بين عائلة يويا والزوجة الملكية.

وحملت «تويا» أيضاً لقب الكاهنة العظيمة المغنية للإله آمون، وبعد زواج ابنتها من الملك أمنحوتب الثالث أخذت لقب الأم الملكية لزوج الملك العظيمة.

وتجدر الإشارة إلى أن النساء كان لهن دور فى الأنشطة المعبدية. ففى كل معابد مصر القديمة كانت بعض زوجات الموظفين تعملن كمنشدات للآلهة، ويصاحبن الخدمات اليومية التى تؤدى للآلهة فى المعابد بالموسيقى والغناء، ويصدحن بالأناشيد الدينية بمصاحبة الآلات الموسيقية، وكن مسئولات عن إعداد باقات الزهور الطقسية، وكانت زوجة كبير الكهنة تقوم بدور «كبيرة الكاهنات» ولقبها فى الغالب هو «كبيرة المنشدات» أو «الكاهنة العظيمة المغنية للإله» وقد كانت الخدمات والاحتفالات فى المعابد يؤديها حشد كبير من الكهنة والخدم وتمولها مخصصات الآلهة من الأوقاف الضخمة والمراعى ومصايد الأسماك والطيور، وأيضاً المخصصات الأخرى الخاصة بهيئة المعبد.

٣. الملكة «تى» الحاكمة الفعلية للدولة



ابنة «يويا» و«تويا» الزوجة الرئيسية للملك «أمنحوتب الثالث» دفعت بمكانة الزوجة إلى مركز الصدارة باعتبارها زوجة الملك العظمى لتحل محل الملكة الأم فى العصور السابقة، شاركت زوجها كطرف مكمل له، وكانت تظهر بجواره فى كل المحافل الرسمية، وصورت معه على جوانب أشهر تماثيله، وفى تقليد جديد يدل على قوة تأثيرها، نحت لها تماثيل ضخمة مثل الملك، ولها آثار عديدة منتشرة فى أنحاء مصر حتى النوبة، وفى آسيا وجزر البحر المتوسط، سجلت المصادر عنها الكثير، ونستطيع أن نعرف أنها كانت أعظم نساء التاريخ المصرى ذكاء وقوة وعزيمة، وكان نفوذها كبيراً وتأثيرها قوياً داخل مصر وخارجها، فقد كانت صاحبة الرأى والمشورة والقيادة، ويظهر من سجلات الحكومة المصرية

والمراسلات السياسية للشئون المصرية الخارجية خلال عهد الملك أمنحوتب الثالث ثم إخناتون، أن حكام الدول الأجنبية كانوا يدركون نفوذها ومكانتها العظيمة وخاطبوها على هذا الأساس، ونسب إليها كثيراً تسيير أمور الدولة، وأسهمت بنصيب كبير فى رسم سياسة البلاد الخارجية، وكانت خير سند لوالدها فى تدبيره، فعاونته على امتلاك النفوذ والمال، وتحقيق خطته فى إضعاف قبضة مصر الخارجية، وتسريح الجيش، وتحلل الحياة الاجتماعية، وخلخلة التزمُّت الدينى القديم، وتهيئة الأجواء لأسس العقيدة الجديدة، وأيضاً ساعدت شقيقيها «آى» و«عانن» على تولى المناصب المهمة وأكملت معهما رسالة «يويا» بعد وفاته.

أتهمها بجدارة بأنها بتحريض «يويا» ومساعدته كانت المسئولة عن إقصاء زوجها عن شئون الحكم، فتعمدت إحاطته ببطانة السوء الذين اختارهم «يويا» ضمن موظفى القصر لمجالسته وإغوائه، فعاش الملك حياة الترف والاستهتار بين زوجاته وجواريه، ومجالس اللهو والخمر، والتى هوت بصحته سريعاً، وترك لها وأسرتها منذ البداية إدارة أمور الدولة، ويمكن أن نربط بين هذا التحلل الذى انتقل سريعاً إلى المجتمع تقليداً لفرعون الذى استخف بكل التقاليد، وأيضاً إخفاء حقيقة أمر المستعمرات المصرية وما يجرى هناك من اندحار وانحسار، مع ما لوحظ فى هذا العهد من أنه أصبح للكثيرين من الأجانب وأصحاب الأسماء السامية أو الذين لم يكونوا من دم مصرى خالص، وظائف مهمة ورأى مسموع فى البلاط الملكى ودواوين الحكومة، وهو أمر بلا شك تتحمل مسئوليته المباشرة الملكة «تى» العضو التنفيذى فى مجلس التآمر الذى تزعمه «يويا» ثم خلفه عليه «آى». ونعرف أحياناً من سير كبار رجال الدولة احترامهم وتوقيرهم لها واعتزازهم بها؛ وصفها أحد الكهنة فى بردية بقوله: «عندما تتكلم تخرج من شفتيها لآلئ الحكمة المقدسة» وقد ظهر للمؤرخين علاقة «تى» المباشرة باختيار كبار الموظفين ورجال البلاط الملكى، وفسروا ذلك بأن الملكة كانت واقعة تحت تأثير كهنة «رع»، فاهتمت ومعها معظم رجال البلاط بعقيدة آتون بتغييراتها الجديدة والمتطورة لديانة الشمس القديمة، والتى قوبلت بالمقاومة والرفض من كهنة آمون، واعتبروها نتاجاً عن الاختلاط بالأجانب.

ولما كانت للأسماء دلالتها، فإننا نلاحظ أن كلمة «آتون» استخدمت بكثرة فى عهد أمنحوتب الثالث، ونشارك المؤرخين الذين استدلوا على علاقة «تى» بالإله «آتون» من الاسم الذى اختارته لقاربها الملكى (تحن آتون) «أتون يسطع»، وكانت تتنزه عليه فى البحيرة الصناعية الرائعة التى أقامها لها زوجها «أمنحوتب الثالث»، وهو الأمر الذى يدعم الدلائل والظواهر التى تربط هذه الأسرة بالمذهب الجديد، الذى ظهرت تباشيره الأولى فى عهد تحوتمس الرابع، وبقيت فى عهد «أمنحوتب الثالث»، وانطلقت فى عهد إخناتون.

أنجبت «تى» لأمنحوتب الثالث عدداً من البنات، وبعد أكثر من عقدين على زواجها

أنجبت «أمنحوتب» الذى أصبح ولياً للعهد، وقد عرفه التاريخ باسم إخناتون الذى تسمَّى به بعد ولايته العرش، ثم أنجبت «سمنخ كارع» الذى خلف شقيقه أو شاركه الحكم.

وأسهمت «تى» فى تعليم وتنشئة ابنها «أمنحوتب» فأرسلته فى طفولته ليعيش ويتربى مع أسرتها فى أحضان عقيدة آتون، فتلقن أسس العقيدة الجديدة من أخواله فى معبد هليوبوليس، وانجذب منذ صغره إلى تيارات الدين الهليوبوليسى فى صورته الخالصة التى تقوم على التوحيد، وكان خاله «عانن» من كبار كهنة المعبد، وأقام معه فى مدينة عين شمس (هليوبوليس) مخالفاً بذلك التقاليد التى كانت تقضى بأن يتم تعليم الأمير فى مدرسة منف مع أولاد النبلاء.

وفى ظل هذه النشأة تهيأت الظروف للأمير أمنحوتب (إخناتون) لأن يختار الفاتنة «نفرتيتى» ابنة خاله «آى» زوجة له، والتى عاشت نفس الظروف وشاركته انجذابه إلى العقيدة الجديدة.

ولا شك أنه كان للملكة «تى» الرأى الأساسى فى إشراك ابنها فى الحكم مع أبيه المتدهور صحياً فى السنوات الأخيرة من حكمه.

وبعد وفاة أمنحوتب الثالث، فرضت «تى» وصايتها على ابنها الملك الصغير (١٦ عاماً) ذى النفس الحساسة المرهفة، والذى لم يكن له أية اهتمامات سياسية، فسيرت دفة البلاد فى السنوات الأولى من حكمه، وخلال هذه الفترة لم تمانعه من الدعوة لآتون، فبدأ التبشير به على حذر، وشيد معبداً ضخماً باسم «آتون» فى رحاب الكرنك معقل آمون، وأعلن أن العبادة ينبغى أن تتجه إلى الإله «آتون الحى». وعندما جهر إخناتون بعقيدته فى نحو العام الخامس من حكمه، وأعلن التوحيد خالصاً لآتون إلهاً واحداً لا شريك له، وهاجر بأهله وأتباعه إلى عاصمته الجديدة «آخت آتون» (العمارنة فى محافظة المنيا) بقيت الملكة «تى» فى العاصمة القديمة طيبة تحمى ظهره من غدر كهنة «آمون» الذين أضمروا له العداء وجافوه، وسارت الأمور بينهما من سيئ إلى أسوأ، فكان عليها تهيئة الأوضاع وخداع هؤلاء الكهنة الثائرين ومهادنتهم حتى تستقر العقيدة ويتدعم موقف ابنها ويكثر أتباعه ويقوى نفوذه.

ولم يكن إخناتون يعرف الخداع والمناورة، ولم يرث عن أمه إمكانيات الدهاء والمكر وفنون التآمر، فقد غلبت عليه عقيدته وحبه لدينه، فلم يحسب المخاطر، ولم يقدِّر الموقف بدقة وحمل على مجمع الآلهة بعد فترة وجيزة، وأغلق معابدها، وسرح كهنتها ووضع يده على كل مخصصاتها وأوقافها، وضم ممتلكات الكهنوت إلى معابد آتون وأملاك التاج، فتصاعد شر الكهنة وقرروا التخلص منه، وأدركت الملكة «تى» خطورة الموقف، فانتقلت إلى ابنها فى «آخت آتون» فى العام الثانى عشر من حكمه، حاملة فى جعبتها بعض التدابير لإنقاذ الموقف المنهار، ويقول المؤرخون إنها حاولت أن تثنيه عن عقيدته، وتقنعه بمهادنة الكهنة وفتح معابد الآلهة ورد أموالها أو التنازل

عن الحكم لأخيه «سمنخ كارع» ولما حاول أن يرضيها ويرضخ لنصيحتها حدث شقاق بينه وبين زوجته «نفرتيتى» التى ظلت مخلصة لعقيدتها وأنكرت على الملكة «تى» تدخلها، وتركت القصر الملكى لزوجها وحماتها، وانتقلت لتعيش فى بيت آخر فى إحدى ضواحى المدينة.

واستقر مقام «تى» إلى جوار ابنها، وماتت ودفنت فى «آخت آتون» (العمارنة)، وفيما بعد نقل «توت عنخ آمون» مومياءها لتدفن هى ومومياء ابنها «سمنخ كارع» فى وادى الملوك غرب طيبة.



آى بن يويا

٤. «آى» من الجندية إلى عرش مصر

ابن «يويا» و«تويا» شقيق الملكة «تى» فى بداية حياته، كان جندياً، ثم شغل وظائف كبيرة فى سلاح المشاة وفى سلاح المركبات الحربية، تعلم الكثير من أبيه الذى أعده ليخلفه فى مناصبه وفى قيادة التآمر، ومهد له ليلعب دوراً سياسياً بارزاً، وبمعاونة الملكة «تى» اجتمع له المال والنفوذ، وبعد أن تزوجت ابنته «نفرتيتى» من الأمير أمنحوتب الرابع (إخناتون)، ابن عمتها «تى» أصبح «آى» على رأس الجيش، وأيضاً حمل ألقاباً إدارية ووظائف كهنوتية مهمة، ولقِّب بلقب «الأب المقدس». وقد اشتهر «آى» بمعرفته طبائع الناس، ومهارته فى سياسة الدولة، ومثل «تى» كان ذكياً لبقاً. اطمأن إليه إخناتون وقرّبه إليه، وهاجر معه إلى العمارنة، وكان من أشد المتحمسين للعقيدة الآتونية، وقبره الذى أعده لنفسه فى العمارنة، ولم يدفن فيه، نقش على جداره الغربى نشيد «آتون العظيم»، وهو على درجة كبيرة من الكمال والجمال الموجود فى اللغة، ويختلف فى بعض التفاصيل عن غيره من نصوص مديح «آتون» فى مقابر كبار الموظفين من عهد «إخناتون» وهى القصيدة التى تحوى نصوصاً فيها شبه كبيرة بالمزمور ١٠٤ من مزامير داود.

وفى نصوص العمارنة حمل لقب «المشرف على كل خيول جلالته» فى مكان والده «يويا» وعين قائداً للحرس الملكى لإخناتون، وقد أنشأ فرقة عسكرية كان عدد أبناء الجاليات الأجنبية فيها يفوق عدد المصريين، ووضع حول إخناتون بطانة سيئة عميلة ضربت حجاباً كثيفاً بينه وبين الحقائق المؤلمة التى كانت تمر بها إمبراطوريته العظيمة فى آسيا، كان على رأسهم شخص يدعى «دودو» من أصل آسيوى لعب دوراً مشيناً مع أمراء آسيا مما أدى إلى سقوط الإمبراطورية المصرية.

وبعد سقوط الآتونية، سجلت المصادر أن «آى» ارتد عن عقيدته ورضخ للكهنة وناصر

الآلهة المصرية، وساند «سمنخ كارع»، وساعد «توت عنخ آمون» على تولى العرش، وكان وصياً عليه فترة حكمه، ووقف خلف المرسوم الذى أصدره برد أوقاف ومخصصات الآلهة، التى كان إخناتون قد صادرها، خصوصاً زعيمهم آمون، واستنكر فى المرسوم الفترة العصيبة التى أهملت فيها طقوس المعبودات.

فى ظروف غامضة استطاع «آى» أن يحكم مصر، وتشير أصابع الاتهام إلى أنه تخلص من «توت عنخ آمون»، ومثل والده كانت له علاقة بأخميم فترك فى معبدها مقصورة عليها نص طويل.

وعموماً فإن أحداث حياته فيها كثير من الغموض سواء الفترة السابقة على ولايته العرش، وكيف آل إليه وهو لا ينتمى إلى الأسرة المالكة، أو مدى حقيقة زواجه من أرملة «توت عنخ آمون» لتدعيم أحقيته فى الملك، وأيضاً أحداث فترة حكمه، وحقيقة علاقته بحور محب قائد الجيش، ذلك الرجل الذى خلفه على عرش الدولة، وتزوج ابنته، ثم محا اسمه مع ملوك العمارنة من تاريخ مصر، وأرّخ بداية حكمه من وفاة «أمنحوتب الثالث» ويبدو أن هذا الغموض ليس سببه الوحيد، اختفاء المصادر، وإنما كان صفة لازمت «آى» خلال حياته أيضاً.

مات «آى» ودفن فى وادى الملوك، وعثر فى مقبرته على نسخة كاملة لنشيد المعبود آتون، الأمر الذى يفصح عن عقيدته التى لم تتغير، وحرصه على حماية الإله الواحد له وهو فى دار الحق، وقد سبق لنا الحديث عن فترة حكمه ضمن تاريخ مصر.

٥. «تى» الثانية منبع الإيمان

زوجة «آى» وأم «نفرتيتى» و«موت نجمت» صورت مع زوجها فى مقبرته، لا توجد معلومات كثيرة عنها، لعدم اشتراكها فى الأحداث السياسية، ولم تحمل المصادر ألقاب لها تشير إلى أنها انخرطت ضمن سيدات الكهنوت فى المعابد، أعتقد أن هذه السيدة كانت تحمل الجانب العقائدى الخالص لديانة التوحيد، وتتحلى بصفات الإيمان والتقوى الخالصين لوجه الله تعالى، ولم يكن لها شأن بالدسائس والمؤامرات، ولم تدنس إيمانها بالأغراض السياسية، ونستدل على هذه الصورة الطيبة لها مما حملته لنا المصادر من معلومات تشير إلى أن ابنتيها تحلّتا بهذه الصفات.

فإذا كانت هذه العائلة هى المصدر الذى حمل ميراث عقيدة التوحيد ونقلها إلى إخناتون، غير أن ظروف مصر اضطرتها غالباً إلى استخدام لعبة السياسة وأساليب التحايل لإخفاء عقيدتها والتسلل بها من خلال العقائد السائدة لأسباب كثيرة، إلا أن نفرتيتى

تى الثانية
زوجة آى

اختلفت فى كثير من صفاتها عن باقى أفراد أسرتها، فلم تكن تملك مميزات الشخصية التآمرية أو صفات القيادة والدهاء مثل عمتها «تى» ووالدها «آى»، وخلال مراحل حياتها كانت دائماً ذات إيمان قوى وإخلاص لعقيدتها دون أية أغراض أخرى، رغم أن ذلك حرمها من استقرارها العائلى فى نهاية حياتها، وربما كلفها حياتها.

وكذلك أيضاً كانت السيدة الفاضلة «موت نجمت»، وسوف نقدم فى فصل خاص الأدلة الدينية والتاريخية التى تثبت أنها امرأة فرعون المؤمنة، التى تحكى القصة الدينية أنها عاشت مرحلة قتل وتعذيب المؤمنين، وتبنت موسى بعد انتشاله من النهر، وربَّته على الإيمان بالله وعقيدة التوحيد.

هذه الصفات هى التى قادتنا إلى أن الأم «تى» الثانية كانت هى المنبع الذى نهلت منه الابنتان فضائلهما الطيبة وإيمانهما القوى الخالص من أية أغراض سوى وجه الله تعالى، فى وسط الأجواء الملبدة بالمؤامرات والمصالح والتوازنات والتنازلات.

٦. «عانن» كاهن عين شمس

ابن يويا» و«تويا»، شقيق «تى» و«آى» بدأ كاهناً فى عين شمس، وفى عهد «أمنحوتب الثالث» أصبح كبير كهنته. وهذا يقودنا إلى الدليل على أن البدايات الأولى لهذه العائلة، كانت فى معبد عين شمس، وأن ارتباطها بإله التوحيد «آتون» جاء إليها متوارثاً من أجيال سابقة وتحديداً منذ دخلت هذه العقيدة مصر فى عهد النبى يوسف، ونتذكر هنا أن معبد «عين شمس» كان واحداً من المعابد التى خضعت لحملة حتشبسوت «الإصلاحية» بغرض إرجاعه لأداء طقوسه وشعائره «الأزلية» التى كانت تمارس فى سابق عهده قبل دخول الغزاة، وقد استدللنا من مظاهر عدة أن كهنته المؤمنين استطاعوا بعد حتشبسوت العودة إلى المعبد بأداء جديد مزجوا فيه بين رع إله هليوبوليس القديم وآتون إله التوحيد، وأخفوا فى صدورهم عقيدة التوحيد الخالصة كما نزلت على آبائهم، أنبياء إسرائيل، حتى سنحت لهم الفرصة فى عهد الكاهن «يويا» لتنصيب «تحوتمس الرابع» على عرش مصر بعد زواجه من قريبتهم «موت إم أويا»، وهى المؤامرة التى نشارك المؤرخين نسبتها إلى كهنة عين شمس، ورأينا أنها كانت بداية انطلاقهم نحو تحقيق أهدافهم، وفى عهده وعهد خليفته «أمنحوتب الثالث» نجحوا فى مد نفوذهم إلى طيبة، عاصمة الدولة والمقر الرسمى للفراعنة، فحصلوا على مناصب فى معابد الجنوب الغنية مكنتهم من السيطرة على أوقافها وممتلكاتها

عانن بن يويا

الشاسعة، ورأينا سيطرة «يويا» على معبد أخميم، وأوقاف ومواشى «آمون»، وأيضاً فى عهد «تى» و«أمنحوتب الثالث» أصبح «عانن» يشغل الوظائف الكهنوتية الآتية:

● كبير الرائين فى معبد عين شمس، وهى تأتى على رأس هيئة المعبد، وتعادل وظيفة كبير الكهنة فى معبد آمون، وهو الذى يمثل الفرعون ويرأس القداس فى المناسبات الكبرى، ويختاره الفرعون، وكان يشرف على الأعمال الإدارية والمالية للمعبد، وإدارة أملاك المعبد، وأعمال الإنشاءات.

● الكاهن الثانى للإله آمون، ويلى كبير الكهنة مباشرة فى الدرجة الكهنوتية، وكانت له اختصاصات إدارية ومالية كبيرة، بالإضافة إلى الطقوس الدينية ورئاسة الشعائر.

● الكاهن الأعظم لمدينة «أرمنت» وهى موطن الإله «منتو» إله الحرب، وكان هذا الإله مقدساً أيضاً فى طيبة وما حولها، ويجدر بالذكر أن نقوش عهد إخناتون تدل على أنه أقام معبداً لآتون فى أرمنت فى الوقت الذى أقام فيه معبد آتون فى الكرنك، قبل أن ينقل عاصمة ملكه إلى العمارنة، وكان يسمى «أفق آتون فى أرمنت».

وقد ذكر اسم «عانن» على عدة آثار؛ من بينها تابوت والدته «تويا»، ولقب بالكاهن الثانى للإله آمون، وحمل نفس اللقب على تمثال موجود الآن بمتحف «تورين»، وحصل أيضاً على الوظيفة المهمة التى كانت لوالده «حامل خاتم الوجه البحرى» ومن ألقابه كذلك السمير الوحيد، والكاهن «سم» فى «إيون الجنوبية».

وقد ذكرنا سابقاً أن قبول الوظائف الكهنوتية فى معابد الآلهة المختلفة من كهنة عين شمس الذين يعتنقون فى صدورهم عقيدة التوحيد إنما كان لأسباب سياسية بغرض امتلاك المال والنفوذ سعياً وراء تحقيق أهدافهم.

وقد عاش إخناتون صباه مع خاله «عانن» فى عين شمس، وكان يقوم على تربيته كهنة المعبد الذين ملأوا فكره بعقيدة التوحيد، واعتنق على يديهم هذا الدين فى صورته الخالصة كما نزلت على يوسف وأنبياء إسرائيل، فآمن به إيماناً قوياً راسخاً وقرَّ فى قلبه ازدراء التعددية، وتحريم تمثيل الإله أو تصويره، وبعد أن تولى الحكم كان مهيأ لإحداث انقلاب دينى على عقائد المصريين الراسخة منذ آلاف السنين.

وكما جاء وجود «عانن» فى عين شمس ليكشف لنا أصل هذه العائلة وعلاقتها بالتوحيد، فإنه كشف أيضاً المصدر الذى حمل منه إخناتون ديانته، ونقلها إلى جموع المصريين.

إن انتساب «عانن» إلى هليوبوليس يمثل حلقة مهمة كانت ضرورية لربط سلسلة أحداث بنى إسرائيل فى مصر، والتى تبدأ المعلومات فيها من المصدر الدينى الذى يحكى رسالة يوسف ونشر عقيدة التوحيد فى مصر، ويشير إلى دراسته وتعلمه فى معابدها، خصوصاً معبد عين شمس ومصاهرته كبير كهنته، ثم تمر هذه السلسلة من خلال المصادر التاريخية عندما واجهت حتشبسوت المعابد التى تحولت عن الوثنية فى زمن الغزاة وأعادتها إلى سابق عهدها، ومن بينها معبد عين

شمس، ثم حدوث تغييرات فى مذهب عين شمس القديم تمزج بين رع وآتون، وتحمل بشائر العقيدة الجديدة، وقيادة كهنة عين شمس لمؤامرة تنصيب تحوتمس الرابع على عرش مصر، وظهور بشائر الآتونية فى عهده، حتى نصل إلى مرحلة تعليم وتلقين إخناتون ذلك المذهب فى معبد عين شمس وإعداده وتهيئته لإعلان عقيدة التوحيد ديانة لمصر، وأخيراً ينتهى هذا التسلسل بحقيقة دينية أخرى تحكى عن قتل وتعذيب المؤمنين المصريين والإسرائيليين فى عهد فرعون المعاصر لتلك الفترة، واستمرار هذا الإيذاء حتى بعث موسى ليقود رحلة إنقاذ قومه والخروج بهم من مصر، وقد اتفقت الحقيقة الدينية بشأن التعذيب مع المصادر التاريخية التى بيّنت أن اضطهاد وإيذاء المؤمنين الذين اعتنقوا التوحيد بدأ مع عهد «حور محب»، واستمر إلى فترة حكم رمسيس الثانى، ووصفتهم النصوص بالمارقين أتباع «مجرم أخيتاتون».

٧. «نفرتيتى» الإيمان والجمال

الملكة نفرتيتى

حفيدة «يويا» و«تويا» وابنة «آى» و«تى» الثانية، زوجة إخناتون وابنة خاله، انجذبت معه منذ طفولتها إلى عقيدة التوحيد، واشتركا معاً فى إعلانها ديانة رسمية لمصر، وعاشت حياتها مخلصة لدينها، صورتها الفنون فى تماثيل ونقوش جميلة كثيرة منذ بداية حياتها الزوجية، واشتهرت نفرتيتى بجمالها الفائق وملامحها المتناسقة. عرضها الفن الرسمى فى مشاهد عائلية كثيرة مع زوجها وبناتها وأفراد من أسرتها أو مع حاشيتها وعامة الشعب، ولأول مرة يصور الفن الحياة الخاصة للعائلة المالكة وأفراد الأسرة فى جرأة وطبيعية، وتعبير عن العواطف دون قيود وببساطة فى التعبير وتخلص من المبالغة، أنجبت لإخناتون ست بنات، وعاش أفراد العائلة جميعاً فى حب ووئام يؤدون الشعائر مع أفراد شعبهم للإله الواحد «آتون» فى عاصمته الجديدة، ولكن تعكر صفوهم وحزنوا كثيراً لوفاة ابنتهم «ماكت آتون» فى العام الثانى عشر من الحكم.

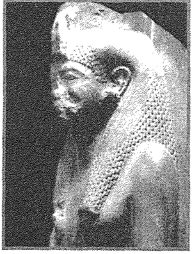
لعبت نفرتيتى دوراً كبيراً مع زوجها فى نشر عقيدة التوحيد، ودفعته إلى اتخاذ كثير من المواقف لنصرة هذا الدين، وإلغاء العبادات الأخرى وضم ممتلكاتها إلى أملاك الدولة، ثم أخذ الدور الذى لعبته يتراجع بعد العام الثانى عشر من الحكم، إثر زيارة الملكة «تى» للعاصمة الجديدة.

يرى البعض أنها ربما انفصلت عن زوجها، والرأى الراجح أن يكون سبب ذلك أن الملك اقتنع بنصائح أمه وأخذ موقفاً متراجعاً عن عقيدته، وقبل تقديم تنازلات لإرضاء الكهنة.

وعموماً فإن حياة نفرتيتى فى أيامها الأخيرة، أيضاً مثل إخناتون غامضة إلى حد كبير، والاحتمال الأكثر تصوراً أنها لم تغادر مدينة «أخيتاتون» وعاشت فى عزلة حتى وفاتها فى

العام الرابع عشر من حكم زوجها، أو بعده بفترة قليلة، وقد خُصص لها مدفن فى جبانة المدينة، ولم يعثر على موميائها.

٨ - «موت نجمت» وحيدة فى عصر التعذيب والاضطهاد



الملكة موت نجمت

حفيدة «يويا» و«تويا» وابنة «آى» و«تى» الثانية، أخت نفرتيتى من المؤمنين بعقيدة التوحيد. هاجرت مع إخناتون ونفرتيتى إلى عاصمة التوحيد، صورت فى نقوش العمارنة مع أفراد العائلة المالكة، وكانت تشرف على تربية بنات أختها فى القصر.

عادت إلى طيبة مع «توت عنخ آمون» وأبيها «آى» بعد سقوط العمارنة، وبعد وفاة والدها الفرعون «آى» كانت هى الوحيدة الباقية من أسرتها، وأيضاً كانت الأسرة الفرعونية الحاكمة قد انتهت، وتزوجها «حور محب» قائد الجيش الذى جلس على عرش مصر وارتبط زواجه بها بإعلان توليه الحكم، وشاهدت فى حياتها معه انتقامه من المؤمنين، وإبادته للعمارنة ومحوه لاسم والدها مع إخناتون وتوت عنخ آمون، وتدمير أو سرقة آثارهم، وإنكارهم من تاريخ الدولة، ونعتهم بأبشع الألفاظ والصفات، وسوف نثبت فى فصل لاحق أنها امرأة فرعون المعاصر لميلاد موسى.

وبعد، إذا كان هؤلاء السابقون هم الأفراد المباشرون الذين ينتسبون إلى عائلة «يويا»، فإنه يمكن القول إنه ينتسب إلى هذه العائلة أيضاً من ناحية الأم الملوك الذين حكموا مصر فى النصف الثانى للأسرة الثامنة عشرة وأولادهم من الأمراء والأميرات ابتداء من «أمنحوتب الثالث» الذى تضع الأدلة والدته «موت إم أويا» كأحد أقارب «يويا»، ثم إخناتون و«سمنخ كارع» و«توت عنخ آمون»، وجميعهم كان «يويا» جدهم من ناحية الأم «تى».

الهوية الإسرائيلية لعائلة «يويا»

استدللنا على الهوية الإسرائيلية «لموت إم أويا» بداية من أصلها المجهول المتعمد وعلاقتها بكهنة عين شمس التى كشف عنها الارتباط الزمنى الوثيق بين اقترانها بالأمير تحوتمس الرابع وإنجابها ولداً منه مع اقتياده إلى اغتصاب حكم مصر، وهى المؤامرة التى دبرها له كهنة هذا المعبد، وبحسبان أنه المعبد الذى خرجت منه عقيدة التوحيد الآتونية فى صورتها التى بشر بها «تحوتمس الرابع» وظهرت ملامحها الأولى فى عهده، ثم قدمها وأعلنها إخناتون، والتى أثبتت دراستنا قيام التسلسل التاريخى بينها وبين رسالة يوسف فى مصر، وقد جاء مسانداً لهذا الاستنتاج ما أظهرته الأحداث التالية من أن «موت إم أويا»

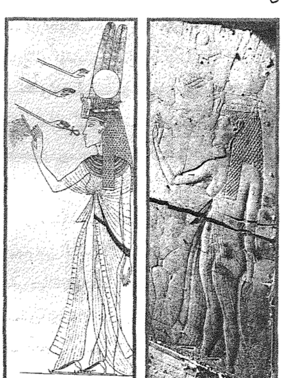
كانت الحلقة الأساسية التى ربطت قيادات العقيدة الآتونية بالقصر الحاكم ليستمر وجودهم وتسللهم الحذر، وسيطرتهم حتى إعلان التوحيد (عقيدة إسرائيل) الديانة الرسمية لمصر فى عهد إخناتون، ثم جاء القرآن الكريم وأعلن مسئولية بنى إسرائيل عن نشر هذه الديانة فى مصر، وذكر أنها كانت السبب فى الاضطهاد والتعذيب اللذين وقعا عليهم، ومعهم المصريون الذين اتبعوهم، ويحكى الكتاب الكريم فى أول سورة القصص أن ذلك حدث فى عهد الملك الذى حكم مصر وجعل أهلها شيعاً، وقد عاصر ذلك ميلاد موسى، ومن هذا التسلسل الذى كانت بدايته «موت إم أويا» قام استنتاجنا على أنها كانت صنيعة كهنة هليوبوليس؛ حيث تكمن عقيدة التوحيد، وبالأحرى فإنهم شيوخ إسرائيل القائمون على أمر هذه العقيدة واستمرار وجودها فى مصر منذ عهد يوسف، وإذ ثبت هذا الدور وتلك الصفة «لموت إم أويا» فإنه لهذا كان يجب قبل أن تختفى وينتهى دورها أن تسلم الراية ليظهر على مسرح التاريخ فى المرحلة التالية قادة المؤامرة الذين بات عليهم تحقيق أهدافها، ولم يكن هؤلاء سوى عائلة «يويا» الذين دخلوا القصر الحاكم خلف فتاتهم الصغيرة «تى» بعد أن تزوجت الملك الصغير «أمنحوتب الثالث». وبدأ معهم عهد جديد.

ولقد أيدنا تحقق القرابة التى افترضها المؤرخون بين «موت إم أويا» وبين «يويا» من الظروف التاريخية التى أوضحناها سابقاً، وأهمها السرعة فى إتمام زواج ابنها الملك من ابنة «يويا» وجعلها الزوجة الرئيسية، وإعلان ذلك فى احتفال كبير للشعب والكهنة، ولم يكن الملك الفتى فى سن مناسبة لإدراك أهمية التقاليد الملكية وارتباطها بالعقائد الدينية المتوارثة، أو حتى ليعى اختيار الزوجة التى يراها جديرة من وجهة نظره بهذا المنصب الملكى الرفيع، ومن ثم فإن هذا الزواج كان بعيداً كل البعد عن قصة الحب التى حاول المؤرخون إضفاءها عليه، فلم يكن أمام الفرعون الصغير سوى الرضوخ لرغبات أمه، وربما نصيحتها الشديدة له حفاظاً على حياته، فقد كانت تعلم جيداً الأبعاد الحقيقية التى قادتها إلى القصر، وظروف الصراع الدموى التى رفعت زوجها إلى العرش، وتدرك يقيناً أن ابنها الأمير أمنحوتب أصبح الهدف التالى، وقد تم الترتيب والإعداد منذ سنوات فى معبد هليوبوليس لاستغلاله، وحان موعد التنفيذ، وبات ضرورياً أن يتم زواجه من «تى» وإلا ترتبت على الساحة أمور خطيرة تدرك جيداً عواقبها.

وعموماً سواء أكانت الأم الوصية على العرش قد رحبت بهذا النسب وباركته، أم أنها رضخت للقوى التى فرضته، فإنها زفت ابنها إلى ابنتهم فى احتفال عظيم، وسلمتهم حكم الإمبراطورية ومفاتيح الخزانة والصوامع الملكية، وقبل كل ذلك ابنها لتربيته وصناعته كما يرغبون.

وإذا لم تكن المصادر التاريخية قد جزمت على وجه اليقين ـ حتى الآن ـ بدرجة القرابة بين

«موت إم أويا» وبين «يويا» فإن المتحقق من المظاهر التى صاحبت الأحداث أن «موت إم أويا» إن لم تكن تنتمى مباشرة إلى أسرة يويا»، فإنها من ذات المجتمع أو القبيلة، وربما كانت واحدة من حسناوات إسرائيل اللائى دُفعن إلى سباق الفوز بولى العهد أو أحد الأمراء أبناء الملك «أمنحوتب الثانى»، وفازت هذه الحسناء فى سباق الجميلات بقلب الأمير تحوتمس، فأصبحت الهدف والركيزة الأساسية فى مؤامرة الكهنة، وقادت عشيقها الصغير إلى العرش، وقادها إلى قصر الحكم، وسواء أدرك الفرعون أم لم يدرك، فإنها باتت عميلة وأداة لشيوخ إسرائيل فى تحقيق أهدافهم وتوجيه تاريخ مصر فترة من الزمن.



الملكة تى تتعبد إلى الإله آتون

ونستطيع أن نستدل على الهوية الإسرائيلية لعائلة «يويا» من دليل أساسى، وعدد آخر من الدلائل والقرائن القوية التى تساعد فى تحديد هذا الانتماء

ويتمثل الدليل الرئيسى الذى يقطع فى تحديد هذه الهوية فيما ثبت يقيناً من المصادر التاريخية - حسبما أسلفنا من إيضاح - من وجود علاقة قوية واضحة بين هذه العائلة وديانة التوحيد التى تؤمن بآتون إلهاً واحداً للكون، وهى العقيدة التى أعلنها إخناتون الديانة الرسمية الوحيدة لمصر، واتخذ من «آتون» إلهاً واحداً للدولة، وقد أثبتنا فى دراستنا السابقة أنها تماماً ذات الديانة التى حملها أنبياء إسرائيل، ودخلت مصر مع رسالة يوسف ونشرها مع الأسباط أبناء يعقوب، وحملها بعدهم بنو إسرائيل الذين عاشوا فى مصر لتستمر بهم الدعوة وينتشر ذلك الدين فى شمال وشرق مصر، واستخلاصاً من هذه الظروف، ومن رواية القرآن الكريم التى أكدت أنه كان يعيش فى مصر مؤمنون قبل ميلاد موسى، فقد قام لدينا السند على التسلسل التاريخى والارتباط بين الأحداث الدينية فى مصر منذ دعوة يوسف وحتى إعلان ديانة إخناتون، وقد كانت عائلة «يويا» هى حلقة الربط الأخيرة فى هذه السلسلة. ويدعم هذا الدليل المظاهر الآتية:

● ما ثبت لدينا من علاقة هذه العائلة بمعبد عين شمس، ذلك المعبد الذى ارتبط بيوسف عليه السلام - منذ أن درس وتعلم فيه ثم صاهر كبير كهنته، وقد سجلت المصادر تصدى حتشبسوت له لخروجه عن أداء شعائر «رع»، ثم عاد كهنته إليه من أجل المال والنفوذ، وبالتخطيط والتدبير غرسوا عقيدتهم بين شعائر «رع» القديمة فى أسلوب وصفه المؤرخون

بالتغييرات الجديدة والمتطورة، ولكنها فى الحقيقة كانت فترة كمون حذر من أجل الانطلاق، حتى سنحت الفرصة وخرجت من هذا المعبد عقيدة التوحيد «الآتونية».

● وقد ثبت أيضاً أن هذه العائلة كانت وراء التبشير بالآتونية التى ظهرت فى عهد «تحوتمس الرابع» أو أن ذلك ارتبط بهم بشكل ما، بدليل وضوح علاقتهم وارتباطهم بهذا الإله من خلال عدة مظاهر رصدت فى عهد ابنه «أمنحوتب الثالث». ويلاحظ أن كثيراً من الدراسات تربط بين «آتون» إله التوحيد المصرى وبين «أدون» إله إسرائيل الواحد، والذى كان يعبد أيضاً فى مناطق من سوريا بمعنى «الرب» أو «السيد». ويجدر بنا أن نتذكر هنا أن أبناء وأحفاد سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ غير يعقوب وأسباط إسرائيل استمرت حياتهم فى تلك المناطق.

● وثبت أيضاً أن هذه العائلة كانت المصدر الذى انتقلت منه عقيدة التوحيد إلى إخناتون، فقد عاش بينهم طفولته وصباه، وقاموا بتعليمه وتربيته، والتحق أثناء وجوده معهم بمعبد هليوبوليس، حيث تم تلقينه تلك الديانة بصورتها الخالصة المجردة من أية طقوس وثنية، وتهيأ على يد خاله وكهنة المعبد لإعلان عقيدته.

وإذ يتكشف لنا من هذا الدليل أن عقيدة التوحيد (الآتونية) التى ثبتت ليويا وأبنائه، آلت إليهم من الأجداد أنبياء إسرائيل، ومن ثم فإنهم كانوا نفراً من الجيل الذى ورث التركة وأخذوا على عاتقهم مسئولية رسالة يوسف ودعوته التى بدأت فى مصر من شرق الدلتا ومعبد عين شمس، وحملوا مسئولية المؤمنين بهذا الدين، وأيضاً إنقاذ شعب إسرائيل وجمعه والحفاظ عليه حتى يأذن الله ويصعدهم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، حسبما يحفظ تراثهم لهم فى وصية يعقوب (سفر التكوين ـ ٣٨ ـ ٣٠) ووصية يوسف (التكوين – ٥٠ – ٢٤).

إذن، فإنه فى تلك الفترة كانت عائلة «يويا» تمثل قيادة بنى إسرائيل الذين عهد إليهم بتحقيق الأهداف التى رصدتها دراستنا السابقة باعتبارها تخدم وتحقق مصالح بنى إسرائيل فى المرحلة التالية لحملة حتشبسوت الانتقامية منهم، بحسبان أنهم المقصودون. فى نص إصطبل عنتر ـ بالقبائل الآسيوية أذناب الغزاة الذين دخلوا مصر معهم، واستمرت تعيش فيها وتخرِّب معابدها.

وقد سجل التاريخ أنه بعد وصول هذه العائلة إلى قصر الحكم وسيطرتهم على الفرعون الحاكم، فإنهم سرعان ما شرعوا فى تنفيذ خطتهم، ورصدت المصادر فعلاً مسئوليتهم ونجاحهم فى تحقيق الأهداف التالية:

أولاً: سيطرتهم على أموال وأوقاف المعابد الغنية فى شمال وجنوب مصر، والاستئثار بالمناصب المهمة، التى تتحكم فى خزانة الدولة وأموال وضياع الفراعنة، ووضعوا أقاربهم

والموالين لهم فى وظائف القصر والدولة ودواوين الحكومة والجيش والحرس الملكى.

ثانياً: إضعاف قبضة مصر على مستعمراتها فى الخارج، وحصر زمام الاتصالات الخارجية فى يدهم أو مواليهم، وتهيئة الساحة الفلسطينية للهجرة الإسرائيلية ولقيام وطن لهم عليها، ونلاحظ أنه على الرغم من انحسار المستعمرات المصرية فى آسيا، فإن فلسطين لم تخرج عن نطاق ملكية مصر وظلت علاقتهم بها قائمة من خلال مواليهم.

ثالثاً: مسئوليتهم عن إعلان التوحيد عقيدة إسرائيل الدين الرسمى والوحيد لمصر فى عهد إخناتون.

وإذ ثبتت مسئوليتهم عن تحقيق هذه الخطة ذات الأبعاد الثلاثية، وإذا ربطنا ذلك مع انتمائهم الدينى الذى قدم عقيدة التوحيد (ديانة إسرائيل) إلى مصر، فإننا وعلى أرض ثابتة نستخلص أن «يويا» كان امتداداً لقبائل إسرائيل، بنى يعقوب الذين دخلوا مصر فى عهد الهكسوس، وخرجوا مع سيدنا موسى عليه السلام.

أما الدلائل والقرائن الأخرى التى تؤيد الهوية الإسرائيلية لعائلة «يويا» فيمكن أن نستدل عليها فى المظاهر الآتية:

● الاقتداء بسيدنا يوسف عليه السلام، ونستطيع أن نرصد ذلك من ثلاثة مظاهر:

الأول: اختيار نفس الوضع الوظيفى الذى كان ليوسف فى مصر.

فيخبرنا القرآن الكريم أن الملك جعل يوسف مسئولاً عن خزائن مصر، ومكّن الله ليوسف فى الأرض.

وتقول التوراة: إن الملك قال ليوسف: «أنت تكون على بيتى وعلى فمك يقبل جميع شعبى ... انظر قد جعلتك على كل أرض مصر .. فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر». (التكوين . ٤١ ـ ٣٧:٤٤).

وقد أظهرت لنا المصادر التاريخية حرص «يويا» الذى أورثه لأبنائه فى أن يكون لهم نفس الوضع الوظيفى الذى كان ليوسف فى مصر، وظهر ذلك فى استئثارهم بوظائف المال وخزانة الدولة، ومناصب القيادة التى مكنت لهم فى الوجهين البحرى والقبلى.

الثانى: حرص «يويا» وبعده «آى» حرصاً شديداً على أن يضم كل منهما إلى اسمه لقب «والد الملك» ولا يزال علماء الآثار عاجزين عن تفسير معنى هذا اللقب أو معرفة كنه هذه الوظيفة ومنشأها.

ولأن هذا اللقب لم يعرف من قبل ولم توجد وظيفة بهذا الوصف لغيرهما، فقد رأى بعض علماء الآثار أنه ربما يجد تفسيره فى أن «يويا» كان والد «تى» زوجة «أمنحوتب الثالث» وكان «آى» والد «نفرتيتى» زوجة إخناتون، فيمكن أن يعنى هذا اللقب «صهر الملك» أى والد زوجته، فأخذ «يويا» لقب «إيت نتر إن نب تاوى» (الوالد المقدس لسيد الأرض) أى «أبا الفرعون» وأخذ

«آى» لقب «والد الملك آى» ولقب الأب الإلهى «إيت نتر».

والغريب أن رواية التوراة أعطت هذا اللقب ليوسف، فتحكى أنه بعد أن كشف لإخوته عن حقيقته قال لهم: «أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه إلى مصر .. لا تتأسفوا ولا تغتاظوا .. فقد أرسلنى الله قدامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض .. فالآن ليس أنتم أرسلتمونى إلى هنا بل الله .. وهو قد جعلنى أبا لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر» (التكوين ـ ٤٥ ـ ٤:٨).

ووجود أصل هذا اللقب ليوسف يفسر حرص «يويا» و«آى» على التمسك به، الذى وصل لدرجة أن «آى» بعد أن أصبح ملكاً فعلياً على البلاد، وحمل لقب «فرعون» قمة ألقاب الدولة، ظل حريصاً على هذا اللقب ووضعه فى طغرائه الملكى هكذا: والد الملك «آى».

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الآراء التى لاحظت هذا التشابه اعتقدت أن «يويا» هو نفسه يوسف.

الثالث: تظهر التوراة فى عدة مواضع اهتمام يوسف بالمركبات الحربية، ذلك السلاح الذى دخل مصر مع الهكسوس، وتذكر فى ذلك:

- أن الملك تقديراً ليوسف أهداه مركبته الثانية عندما نصبه نائباً له.
- وأن يوسف تكريماً منه لوالده وأهله، أرسل مع إخوته عجلات كثيرة حملتهم من فلسطين إلى مصر.
- وأنه شد مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه عند وصوله إلى جاسان.
- وأنه صعد فى موكب يضم مركبات وفرسان وجيشاً كثيراً جداً إلى فلسطين ليدفن أباه ومعه عبيد فرعون وشيوخ أرض مصر وأهله وإخوته.

ثم يتضح من المصادر التاريخية استمرار هذا الحرص لدى «يويا» و«آى» فقد بدأ كل منهما ضابطاً بسلاح المركبات الحربية، وكانت العجلات تابعة للمشاة فى البداية ولم يتم تنظيمها فى سلاح مستقل، إلا فى أيام أمنحوتب الثالث الذى عهد إلى «يويا» بقيادة السلاح الجديد فى وظيفة قائد الفرسان، وهى نفس الوظيفة التى رقى إليها «آى» فى عهد إخناتون.

وفى الغالب أن مهام وظيفة هذا السلاح قد تم توارثها فى هذه الأسرة منذ عهد يوسف، وقد كانت من المهام الشاقة التى تحتاج إلى خبرات خاصة سواء فى تربية الخيول وتدريبها أو إعداد السائقين وفرسان المركبات وتدريبهم، أو صناعة المركبات.

وقد أكدت الأبحاث أن هذا السلاح عرفته مصر من الهكسوس، واستخدم بكثرة بعد تحرير مصر منهم، واستخدموا له الخيول التى تركها الهكسوس وراءهم وصنعوا لها العجلات الحربية التى استعملوها فى مطاردة فلول الهكسوس، وتكوين الإمبراطورية،

وكان طبيعياً أن يستعين المصريون فى تكوين هذا السلاح واستخدامه بأصحاب الخبرة الذين لهم دراية بأموره، ونذكر أنه كان بين الأسباط من عينهم يوسف رؤساء مواشى الملك، ومن ثم فإنهم أشرفوا على تربية وتدريب الجياد، وانتقلت إلى أجيالهم خبراته وفنونه.

وفى مجال استعراض الدلائل والقرائن على الهوية الإسرائيلية لعائلة «يويا» نذكر أيضاً:

● اكتشف عالم الآثار الإنجليزى (تيودور ديفز) عام (١٩٠٥) مقبرة «يويا وتويا» فى وادى الملوك، وكانت تتكون من غرفة واحدة. ورغم حياة «يويا» الطويلة فإن مقبرته كانت بدون نقوش دينية على الجدران، الأمر الذى يكشف عن عدم إيمانه بهذه النصوص التى كان المصريون يعتقدون أنها تساعد المتوفى فى العالم الآخر، وأنه يؤمن بعقيدة أخرى لا يدخل فى حسابها تلك المتون، ولذلك لم يهتم فى حياته بنقش مقبرته، ولا يغير من هذا الاعتقاد وجود مومياته وزوجته وبعض الأثاث الجنائزى الفاخر فى قبرهما، فمثل هذه الأمور تتم بعد الوفاة، ويقوم بها الآخرون، واقتضاها فى هذا الحين دواعى الحذر خصوصاً من كهنة آمون، فلم تكن عقيدة التوحيد قد أعلنت، ويجدر الذكر أن التوراة تقول إن يعقوب ويوسف قد تم تحنيطهما جرياً على عادة المصريين فى ذلك الوقت.

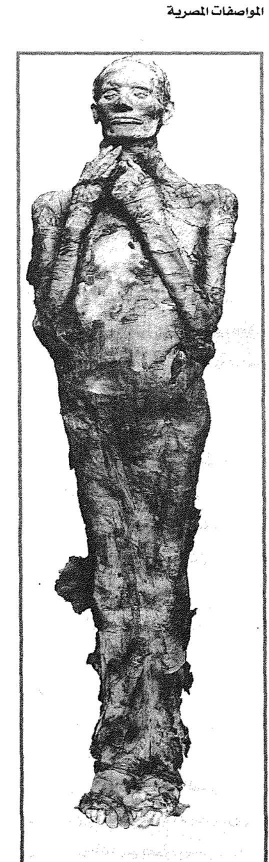
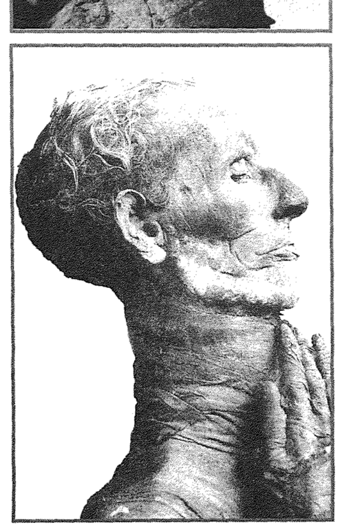
● إن اسم يويا لم يكن له معنى فى اللغة المصرية القديمة، واختلف الكتبة المصريون فى طريقة كتابته، الأمر الذى يدعم أن صاحبه كان أجنبياً، ولا ينسب هذا الاسم لأى من الآلهة المصرية، وإنما هو مشتق من الجذور الأصلية السامية العامة للإله الذى يكتب بالأسماء: «يا» و«يو» و«ياه» و«ياهو» و«يهوه» وترتبط بعشرات من أسماء الأشخاص والمواقع الجغرافية، وكانت تلك المصطلحات شائعة بالنسبة للشعوب السامية، لهذا فإنه يمكن نسبة هذا الاسم إلى «يهوه» إله العبرانيين، وفى هذا الانتساب يقترب الاسمان «يويا ويوسف» وأيضاً يوحنا، يونان (يونس)، يوشع، يواقيم، يهوذا من الأسماء العبرية، وأيضاً كان اسم أم موسى «يوكابد» وهو ما يعنى «مجديو» أى «مجد الله».

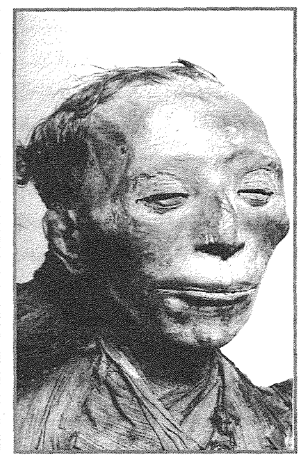
تقول التوراة: «وقال الله لموسى هكذا تقول لبنى إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلنى إليكم هذا اسمى إلى الأبد» (الخروج: الإصحاح الثالث-١٥).

● أثار «إليون سميث» المشرح الذى قام بفحص مومياء «يويا» مسألة كونه ليس مصرياً وفقاً للمواصفات الجسدية للمصريين، وكذلك الأنف المعقوف، والشكل العام للجمجمة، والتى يتضح منهما أنه من أصل سامى.

ثلاث صور تبرز ملامح وجه مومياء يويا ويلاحظ فيها الأنف المعقوف والشكل العام للجمجمة، والمواصفات الجسدية التى تكشف ملامحه السامية، وتوضح مدى الاختلاف عن المواصفات المصرية



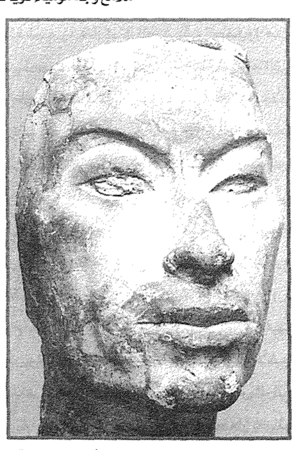




ملامح وجه مومياء تويا تبرز أيضا نفس المواصفات



تمثال نفرتيتى - نفس ملامح والدها آى



قناع تمثالى يرى كثير من الدارسين أنه يمثل شكل آى بن يويا، ويظهر عليه بوضوح ملامح الوجه القريبة من وجه يويا

تسلسل المؤامرات حتى سقوط الملك «آى»

إن قراءة التاريخ لا تعتمد فقط على نقل الوقائع أو الصور المباشرة التى سجلتها المصادر، وإنما يحتاج الأمر غالباً إلى تحليل الحوادث، وإعمال قواعد الاستدلال والاستنتاج لاستخلاص القصة المتكاملة، والأسباب الدافعة إليها والنتائج المتحققة منها بقدر الإمكان، دون تجاوز أو خروج عن قواعد التفسير المنطقى وفقاً لظروف الأحداث مجتمعة فى نطاق المرحلة الزمنية وأشخاصها، وإذا أغفل المؤرخ ذلك أو عجز عنه تظل القصة التاريخية فى حالات كثيرة ناقصة، مشوهة، مبتورة، ويمكن أن نطلق على هذه العملية المتكاملة تعبير التحقيق التاريخى، وهو ما استعملناه كثيراً فى الأجزاء السابقة من البحث، ولكن تعمدنا الإشارة إليه فى هذا الجزء باعتبار أننا سوف نستند بصفة أساسية إلى قراءة التاريخ وفقاً لهذا التصوير، وهو أمر اقتضاه المجرى الطبيعى لسير الأحداث وترتيبها.

ووفقاً لهذا التحقيق التاريخى أيدنا أن تحوتمس الرابع جاء إلى الحكم نتيجة مؤامرة دبرها ونفذها كهنة عين شمس ضد السلطة الشرعية، ولم يكن ذلك بتحريض الأمير الصغير أو من أجل عيونه، ولم يكن صراع سلطات وإنما فعلوا ذلك بتخطيطهم الذاتى ولمصلحتهم المباشرة على النحو الذى فصلناه سابقاً، وأوضحنا أن الأهداف الكاملة منها لم تتحقق لهم إلا فى عهد إخناتون.

ولكننا لم نقبل فكرة ضلوع تحوتمس أو قيادته لمجموعة الكهنة الذين دبروا ونفذوا هذه المؤامرة بالبشاعة والدموية التى تمت بها، واستندنا فى ذلك إلى صغر سنه وقلة خبرته التى يعجز معهما عن هذا التخطيط، فقد كان عمره ما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، ولأن الآثار الناجمة عنها اقتضت قتل جميع أشقائه، ربما بلغ عددهم سبعة، وهو أمر أصعب مما يتحمله عقله أو يتقبله تفكيره حتى ولو كان الثمن عرش الإمبراطورية، فضلاً عن أن تصور تورط تحوتمس الرابع فى هذه الجريمة يجعل منها سابقة جديدة ينفيها القياس التاريخى على الأسرات الحاكمة فى مصر القديمة، ولأن طبيعة المؤامرة انعدم فيها إمكانية الاستعانة بنفوذ أسرته الحاكمة أو جيش الدولة، وأخيراً فإنه لا يؤمن غدر الكهنة الذين ساعدوه بعد أن يصبح وحيداً معهم، وهو ما حدث له فعلاً بعد أقل من عقد من الزمان.

ولقد سلمنا باتهام كهنة عين شمس بارتكاب هذه المؤامرة استناداً إلى الأدلة التى قدمها الكهنة أنفسهم لتبرير اغتصاب هذا الملك لعرش والده، أما الدليل الأكثر وضوحاً والأشد تأييداً فى نسبة هذا الاتهام إليهم، فقد ظهر لنا بعد الجريمة خلال عصرى تحوتمس الرابع وأمنحوتب الثالث من النتائج التى تحققت لهم، سواء من المظاهر التى خرجت تحمل بشائر الآتونية، والتى وصفها المؤرخون بأنها مذهب جديد متطور عن مذهب عين شمس القديم، أو من خلال سيطرة كهنتهم على سلطات الدولة الإدارية والعسكرية والخارجية والمالية، والذى

مثلته بوضوح عائلة «يويا» ومواليهم، ومعهم استمر وجود المذهب الآتونى، كما وضحت علاقتهم الأساسية به، واستمر تسللهم وهيمنتهم وتوسيع محيطهم حتى جاء إخناتون، وفى عهده بزغت شمس الحقيقة كاملة، وإذا بنا نكتشف أخيراً الصورة الحقيقية لهذا المذهب والذى تمثل فى عقيدة دينية تقوم على التوحيد الخالص ووجود إله واحد لهذا الكون، وترفض إطلاقاً وجود آلهة أخرى إلى جانبه، وتمنع تصويره أو تجسيده على أية صورة، فهو إله خفى لا يرى، وأدركنا أخيراً أن مذهب عين شمس الذى وصفه المؤرخون بالمتجدد والمتطور لم يكن سوى أسلوب للتحايل والخداع بغرض التسلل بالعقيدة الجديدة وتحيُّن إعلانها فى الوقت المناسب، ولم تأخذ من مذهب عين شمس القديم سوى بعض الصور والمعانى التعبيرية التى لا تخل بجوهر عقيدة التوحيد.

وبذلك كشفت الأحداث أن إعلان التوحيد لم يحدث فجأة، ولم يأت فقط نتيجة الفكر المتقد لإخناتون ذلك الفتى الذى حكم مصر وهو فى منتصف العقد الثانى من عمره، وإنما استغرق ذلك مرحلة زمنية بدأت منذ تنصيب تحوتمس الرابع الحكم عام (١٣٩٧ ق.م)، واستمرت حتى العام الخامس أو السادس من حكم إخناتون خمسين عاماً ونيفاً من الإعداد والترتيب، وسبق نهايتها تعليم وتربية وتلقين إخناتون تلك العقيدة فى هليوبوليس، وهو أمر كان يستحيل تنفيذه فى ظل ظروف النشأة والتربية التى كان عليها إعداد الأمراء فى أيام الملوك العسكريين فى تلك الأسرة، وقد كانوا يجلون آلهة الدولة ويعتقدون بفضلها عليهم، وعلى دربهم سارت حاشيتهم والمشرفون على تربية الأمراء، ومن ثم فقد ساعد على هذا الإعداد لإخناتون الظروف الشخصية التى أحيطت بنشأة وحياة والده «أمنحوتب الثالث»، ودفع والدته «تى» له، بل يمكن القول بصفة عامة، إنه سبق إعلان الثورة الدينية فى مصر، وإلغاء العقائد الدينية الراسخة منذ القدم، وإغلاق معابدها، تهيئة ظروف أخرى كثيرة لمصلحة كهنة الآتونية، لم يكن فى الإمكان إتاحتها بدون السيطرة على الفرعون وتوجيه نظام الحكم وإدارة الدولة، وهو ما فعلوه مع «أمنحوتب الثالث» عندما أحكموا سيطرتهم عليه بمجرد أن آل إليه الحكم صبياً فى الثانية عشرة من عمره، ونفذوا من خلاله إلى أجهزة الدولة وخزانتها وأموال وأراضى المعابد الغنية، وارتبط ذلك بعائلة «يويا» إثر زواج الملك من ابنتهم «تى»، ومرت السنوات ثم فضحت الأحداث التالية أنهم شيوخ الآتونية التى بشر بها تحوتمس الرابع، وأن علاقتهم وثيقة بمعبد عين شمس، الجامعة التى درس فيها يوسف، والتحق بها إخناتون طفلاً ودرس فيها وتخرج منها تحت إشراف خاله وأستاذه «عانن بن يويا»، ثم توجه بعدها إلى طيبة حاملاً عقيدته وأفكاره مستلهماً خطى جده لأمه نبى الله يوسف، ومدركاً أنه سوف يصبح ملك مصر، الأمر الذى سوف يساعده على نشر رسالته بما يملكه من حق إصدار القرارات التى تلغى العبادات الوثنية وتعلن سيادة الإله الواحد فى ظل حماية أجهزة الدولة التى تخضع لأوامره، وكان فى انتظاره فى طيبة خاله وصهره «آى» ووالدته «تى» وأعلن

عقيدته فى وجودهما ومباركتهما.

والفاحص لتلك الأحداث يستطيع أن يستدل أنها توالت تدريجياً، وسارت فى الاتجاه الذى يحقق الأهداف الأخيرة، وما كان يمكن أن تتحقق لو لم يتم الترتيب والتخطيط لها بهذه الطريقة، أما وأن الأمور سارت محققة لإرادات من صنعوا أحداثها فى البداية (تنصيب تحوتمس الرابع) ومؤدية إلى النتائج المستهدفة (المال والنفوذ، الآتونية، إضعاف مصر خارجياً) فإن الأمر يحتاج إلى وقفة وتدقيق وتبصر للأحداث، خصوصاً إذا ما تبين أنه سبق أن صاحب تحقق تلك النتائج وقوع حوادث أو تغيير فى الأشخاص يخدم مصالحهم، ويساعد على تحقيق أهدافهم، وربما أن وقوعها لم يكن متوقعاً حدوثه فى هذا الوقت، وبدون وقوعها ما كانت تتحقق أهدافهم على النحو الذى انتهت إليه.

فإذا كانت مؤامرة اغتصاب تحوتمس الرابع للحكم قد نسبها المؤرخون ـ بحق ـ إلى كهنة عين شمس والذى تبين لنا أنهم أنفسهم كهنة الآتونية، والتى ثبت بعد حين أنها ليست سوى عقيدة التوحيد، ديانة بنى إسرائيل التى نشرها يوسف فى المناطق الشمالية عندما كان يعيش فى مصر، وقد أثبتت دراستنا انتماء هؤلاء الكهنة إلى بنى إسرائيل ولأسباب واضحة جعلنا قيادتها التنفيذية ـ فى هذه المرحلة ـ فى عائلة «يويا» ذات الجذور الإسرائيلية، فإننا من خلال العرض السابق نكون قد مهدنا مسرح التاريخ لرصد سلسلة المؤامرات الأخرى التى نستخلصها من الأحداث وننسبها إلى بنى إسرائيل، ونحصر مسئوليتها المباشرة فى عائلة «يويا» باعتبارهم قادتها وشيوخها ـ آنذاك ـ وسوف نتبين أنه بدونها لم تكن لتتحقق لهم أية أهداف من مؤامرة تنصيب تحوتمس الرابع اغتصاباً لعرش والده، ولكانت جهودهم فيها قد ذهبت سدى.

وفى مجال هذا البحث نتوقف أمام ملاحظة يجدر أن نشير إليها خاصة بأعمار ملوك مصر وسنوات حكمهم فى فترة المؤامرات والتى سارت فى أرجح الآراء على النحو التالى:

- تحوتمس الرابع: تولى الحكم ما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمره، ومات بعد أقل من عشر سنوات.
- أمنحوتب الثالث: تولى الحكم فى الثانية عشرة من عمره، وإن كان قد حكم ٣٨ عاماً، إلا أن القيادة والإدارة تركزت فى يد الملكة «تى» وعائلتها، وشهدت هذه الفترة الممتدة سيطرتهم وهيمنتهم واتساع نفوذهم وتعيين أتباعهم وتوسيع محيطهم.
- إخناتون: تولى الحكم فى السادسة عشرة من عمره، ويقول بعض المؤرخين إنه كان فى الرابعة عشرة، ومات أو اختفى فى نحو الثلاثين من عمره أو أقل.
- سمنخ كارع: حكم نحو عامين مشاركة مع إخناتون أو بعد وفاته وربما اختفائه، ومات دون العشرين.
- توت عنخ آمون: حكم فى التاسعة من عمره، ومات فى التاسعة عشرة.

● آى: زعيم التآمر بعد يويا وتى، حكم بعد القضاء على العائلة الحاكمة وكان فى أخريات العقد السابع من عمره.

والآن بعد إيضاح جميع ما تقدم يمكن أن نرصد من الأحداث المؤامرات الإسرائيلية وأسانيدنا فى اتهامهم على النحو التالى:

اغتيال تحوتمس الرابع


رأس مومياء تحوتمس الرابع

لم تذكر المصادر التاريخية أن تحوتمس الرابع مات مقتولاً، ولكن نستطيع أن نستدل على ذلك من عدة مظاهر يأتى على رأسها، أنه قضى نحبه وهو فى مقتبل العمر وريعان الشباب، فكان فى نحو الثامنة والعشرين من عمره، وترك ابنه ولى العهد أمنحوتب الثالث الذى كان فى الثانية عشرة من عمره، وتزوج من «تى» بعد أقل من عام على ولايته العرش خلفاً لوالده، ولهذا اعتقد البعض أنه أخوه وليس ابنه، ولكن المصادر - حسبما أسلفنا - أكدت أنه ابنه.

وثانى الأدلة؛ ينطلق من الآثار التى ترتبت على هذه الوفاة المبكرة للملك، وهنا نعود إلى الاستنتاج السابق الذى رتبته أحداث تلك الفترة، واستخلصنا منها أن اختيار كهنة عين شمس لتحوتمس الرابع لتنصيبه ملكاً اغتصاباً من الوريث الشرعى، جاء بسبب علاقته العاطفية وارتباطه بـ «موت إم أويا» الإسرائيلية وإنجابه منها «أمنحوتب»، والذى حدث فى تاريخ سابق على ولايته الحكم، وعلى هذا تأسس افتراضنا بقرابة هذه الزوجة للكهنة، وهو ما تأيد بدليل قوى آخر تال هو ارتباط المصاهرة السريع الذى جاء قبل موعده الطبيعى بزواج الطفلين؛ ابنها الملك الجديد «أمنحوتب» بابنة «يويا» مجهولة الأصل القادمة من العامة، والذى أخذت به لقب الملكة والزوجة الرئيسية للملك، وهو أمر لم يكن مقدراً أن يكون من قبل سوى للأميرات أفراد العائلة الحاكمة، وحسناً فعل المتآمرون من استدعاء التعجيل فى هذا التوقيت قبل فوات الأوان ليرتب للأم الوصية على العرش اتخاذ القرارات التى تراها فى صالح الملك والملكة، وما كان يمكن أن تسير الأمور تماماً على هذا النحو، ويتم هذا الزواج الخارج عن التقاليد والتراث الدينى مع جملة الآثار أو المؤامرات الأخرى التى ترتبت عليه لو استمرت حياة تحوتمس، وهو الأمر الذى يعد دافعاً قوياً وينهض بذاته دليلاً على التجاء كهنة الآتونية - قادة بنى إسرائيل - إلى التخلص من تحوتمس الرابع فى هذا التوقيت ليضعوا على عرش الإمبراطورية ابنه الصغير «أمنحوتب» الذى ينتمى إليهم برابطة القربى من ناحية أمه، ثم يوثقون صلتهم به برباط قوى آخر هو مصاهرته منذ بداية

حكمه وهو فى هذا العمر الصغير لفرض وصايتهم عليه وتوجيهه وقيادة الدولة من خلاله، وفعلاً كشفت الأحداث أن عهد «أمنحوتب الثالث» حقق لهم الكثير من الأسباب التى قادتهم بسرعة وثبات نحو تحقيق أهدافهم.

وثالث أدلتنا، يعتمد على أن تحوتمس الرابع نفسه جاء إلى الحكم نتيجة مؤامرة دموية راح ضحيتها عدد من أشقائه، وربما تكون قد حصدتهم جميعاً، واستخلصنا أنه لم يكن أحد أضلاع المؤامرة وليس فاعلاً فيها، ومن ثم كان وجوده على العرش مرتبطاً بتدبير كهنة عين شمس ولأجل تنفيذ أهدافهم، وقد تبينا أنه تحقق لهم فى عهده التبشير بإلههم آتون وإضفاء الأهمية والنفوذ عليه، ولكنه لم يصل إلى حد الإعلان الكامل عن وحدانيته إلا فى مرحلة تالية، ويتضح من ذلك أن عهد «تحوتمس» وإن كان قد حقق لهم مزايا واعتبر نقطة انطلاق فإنه لم يحقق كامل آمالهم، وهذا يعكس الدافع على الأمل البعيد المستهدف، ويكشف عن أن اقتياد «تحوتمس» إلى الحكم تحول إلى هدف مرحلى مؤقت، ويدلل على مواصلة الجناة تدبيرهم واستكمال تخطيطهم لتحقيق الأهداف التى نفذوا لأجلها مؤامرتهم الأولى.

ويدعم الأدلة السابقة المظاهر التى جاءت تالية لاعتلاء «تحوتمس الرابع» العرش، فى البداية كان الملك صغيراً ووحيداً بعد أن جردته المؤامرة من عائلته، والتف حوله المتآمرون وتمكنوا من تحقيق بعض النفوذ لمصلحتهم، ولكن سرعان ما أدرك الفرعون حقائق الأمور وخرج عن طوْع إرادتهم وأخذ طريقه لإحكام قبضته على زمام الحكم وتقوية عائلته وإعادة السيطرة على المستعمرات المصرية، وإعادة التوازن بين الآلهة واحترامها جميعاً، ووضع الإله آتون فى صفوف الآلهة المصرية على الصورة المطورة التى خرج بها من معبد عين شمس، وتم تقديمه بها وليس أكثر من ذلك، وهى مرحلة لا ترضى طموح الكهنة.

وبعد أن أدرك الجناة أن الأحداث تسير فى اتجاهات مغايرة لا تنتهى إلى تحقيق أهدافهم، فمن ثم يصبح اتجاه التفكير إلى نفس أسلوب التآمر الذى بدأوا به جريمتهم الأولى أمراً متوقعاً، خاصة إذا تبين فعلاً أن الآثار التى ترتبت وضعتهم فى حالة أفضل بكثير، وكما كان وجود تحوتمس الرابع بداية لظهور المتآمرين، فقد كان انتهاء عهده بداية مرحلة جديدة تحقق لهم فيها السيادة والنفوذ والانطلاق السريع نحو تحقيق أهداف عظمى، وما كان ذلك ممكناً إذا استمرت حياة تحوتمس الرابع بعد أن كان قد أخذ نهج أبيه وجده وسار على دربهما متقلداً خطاهما.

وفعلاً رتبت جريمة التخلص من تحوتمس الرابع للمتآمرين مجموعة من النتائج المهمة، أو بمعنى أدق سلسلة من المؤامرات الأخرى المستهدفة نرصدها من المصادر أو نستخلصها من الأحداث على النحو التالى:

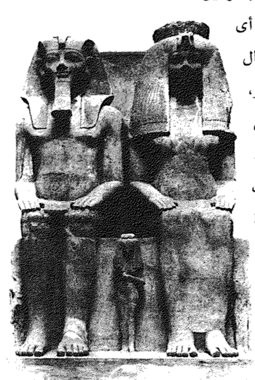

أمنحوتب الثالث طفلاً
على عرش مصر

● السيطرة الكاملة على الفرعون «أمنحوتب الثالث» بعد أن تسلموه من أمه الوصية على عرشه، وهو بعد صبى صغير ليتزوج من «تى بنت يويا» ومنذ بداية عهده أحكموا قبضتهم عليه فتعمدوا إبعاده عن المجالات العسكرية وعن التدريب على فنون الحرب والقتال أو الاهتمام بالفتح والغزو، وهى الأمور التى كان يحرص الفراعنة وكبار رجال الدولة على غرسها فى الأمراء والنبلاء، واستعاض عنها القائمون عليه والمتولون تربيته بتوجيهه إلى الصيد، واكتفوا به بديلاً للتعبير عن شجاعته، فنسبوا إليه بطولات وهمية فى صيد الأسود والثيران البرية لإرضاء غروره فى مرحلة صباه وصدر شبابه، وطيلة السنوات العشر الأولى من حكمه وجد فى لقب الصياد الماهر عوضاً عن لقب الفاتح العظيم، وخلال هذه السنوات ثم بعدها وطوال حكمه قاده المتآمرون إلى حياة الدعة والمتعة فأحب مجالس اللهو والخمر، وعشق النساء الجميلات وانصرف إلى معاشرتهن بدون اعتدال، وكان ولهاً بهن ملهوفاً على طلبهن، وتُحدثنا وثائق الخارجية المصرية أن هذا الملك تزوج بأخت ملك «متنى» فى شمال سوريا ثم طلب أختها الأخرى، واستقدم مع الأولى ثلاثمائة وسبع عشرة من حسناوات بلاد النهرين، وأرسل رسولاً إلى «مليكيلى» أمير «جازر» التابعة لمصر يطلب منه أن يرسل إليه أربعين من العذارى يتخيرهن من الحسان، جميلات القوام مشرقات الوجوه، وليس فى إحداهن ما يشين جمالها وحسنها، وقال له صراحة فى خطابه «وسأتخذ من هذه الهدية مقياساً لحسن ذوقك وخبرتك»، وطلب من «شوباندو» أمير سوريا أن يرسل إليه عشرين عذراء، وطلب من «عبدى خيبا» أمير أورشليم أن يرسل إليه إحدى وعشرين فتاة عذراء يتمتع بهن فى قصره، وأن يسلم هذه الهدية إلى عامله الأمين «شوتا» حتى تصل إليه الحسناوات عذارى لم يمسسهن بشر، وطلب من أحد أمراء سوريا أن يرسل إليه ابنته ليتزوجها لأنه معجب بها، وتزوج أيضاً من أميرة بابلية، وأهدى إليه «توشرتا» ملك متنى ثلاثين فتاة من الحسناوات البيض.

ويقدم لنا كل ذلك صورة واضحة عن الحياة التى عاشها «أمنحوتب الثالث» والتى تهيأت له منذ نشأته الأولى بعد أن حرمه المتآمرون من والده، ولم تكن والدته تملك له من أمرها شيئاً، ولا ننسى هنا البيئة الاجتماعية لهذه المرأة، فهى أيضاً قد حملت بذرة ابنها وهى بعد مراهقة لعوب جميلة، غررت بوالده الأمير، وكان غرامها هو طريقها إلى القصر، وتهيئة هذه الظروف

لأمنحوتب تنسب إلى «يويا» الذى نستطيع أن نقول أن الوصاية على العرش انتقلت إليه بعد أن أصبح صهراً للفرعون.

أما الملكة «تى» فقد هيأها والدها لقيادة الدولة، وجرى إعدادها إعداداً مختلفاً تماماً عن حياة زوجها، وبعد أن كبرت كانت تملك إمكانياتها لإحكام سيطرتها، ووقت أن كان زوجها الملك غارقاً فى ملذاته، تمكنت هى بذكائها وقوة شخصيتها ومعاونة شقيقيها من إحكام قبضتها على مقاليد الحكم وقيادة التآمر لتحقيق أهداف بنى إسرائيل.


الفرعون أمنحوتب الثالث مع الملكة تى

ولم يخرج الملك أمنحوتب الثالث خلال حكمه فى أى حملة إلى آسيا، واكتفى لتخليد ذكراه بالأعمال المعمارية والفنية الرائعة التى أقامها فى أنحاء مصر، ووضع بها اسمه ضمن قائمة الفراعنة العظام فى مجال التشييد والبناء، فقد اشتهر عصره بالمعمار، وبنيت على شواطئ النيل معابد عظيمة تميزت بالضخامة والفخامة، يرجع الفضل الأكبر فى إقامة معظمها وأجملها للحكيم ورجل الدولة المهندس «أمنحوتب بن حابو» ذلك الرجل الذى قدسه المصريون بعد ذلك فى عصر الرعامسة وفى المعابد البطلمية مع «إيمحوتب» (مهندس وحكيم من الأسرة الثالثة) ونسبت إليهما المعجزات والكرامات.


صورة تخيلية للفرعون أمنحوتب الثالث والملكة تى
رسم فنان المصريات وينفريد برونتون

وطبقاً للظروف والدلائل التى سقناها فإن افتراضاً جديداً يتكون؛ وهو أن إنجاز هذه المنشآت كان بتشجيع المتآمرين حول الملك وحيلة منهم وهم الذين يحتلون المناصب المهمة المختلفة فى الدولة، فيخدعون رجال الدين وكهنة المعابد غير الموالين لهم بأن الملك ينفذ المشاريع لأجل آلهتها فيأمنون غدرهم ويتجنبون حقدهم ودسائسهم تحيناً لفرصتهم المنتظرة، ولكن السبب الحقيقى والأكثر وجاهة هو أن هذه المشاريع كانت الوسيلة التى مكنتهم من التدليس والتحايل لإيجاد منافذ شرعية لتوزيع الأموال والثروات، ومع ازدياد اتساع المؤسسات انهالت الأوقاف الملكية عليها من ذهب وحلى ومجوهرات إلى أخشاب للبناء وحقول ومزارع ومواش وعمال للأعمال وعبيد وإتاوات سنوية من الداخل وجزى من الخارج، وهبات الآلهة التى كان يحصل «آمون أو آمون رع» على

نصيب الأسد منها باعتباره إله الإمبراطورية. وقد حافظ هؤلاء الموظفون الأشراف الجدد الملتفون حول الفرعون على الصورة اللاهوتية القديمة التى تعتبر إله الإمبراطورية هو ملك مصر الحقيقى والفرعون ابنه المطيع المنفذ لإرادته بغرض أن يتحقق لهم الإغداق عليه بغير حساب، وتحقيق مشيئته، وتنفيذ إرادته، بحسبان أنهم بعد أن اقتحموا السلك الكهنوتى فى هذه المعابد الكبرى فقد أصبح رخاؤها المادى مرتبطاً بهم مباشرة، وأيضاً أتباعهم ومواليهم الذين أثروا فى الفرعون لاختيارهم فى مناصبهم بعد إقناعه بأنهم من أهل الثقة الذين لا يشك فى إخلاصهم وولائهم للفرعون بصرف النظر عن ثقافتهم الدينية، وأيضاً بذلوا جهدهم من أجل إخراج آمون عن دائرة الانفراد بالسيطرة والاستئثار بالثروات، فقاموا بحث الفرعون ومساعدته على إضفاء أهمية أكبر على كبار الآلهة المصرية الأخرى مثل «بتاح» إله منف و«رع» إله هليوبوليس.

ومن ثم كانت مظاهر العظمة الإمبراطورية تخفى وراءها عوامل الصراع الحقيقى لتركيز الثروات فى المعابد المختلفة التى سيطر عليها قادة التآمر وخططوا للاستئثار والاستيلاء على الجانب الأكبر منها، وهو الأمر الذى أسهم مع ثروات مناصبهم وإدارتهم لأموال القصر والدولة فى تحقيق ثراء كبير لهم ولقبائلهم، استمر لهم الكثير منه بعد ذلك حتى فى عصر الاضطهاد والتعذيب، ولم تنكره نصوص التوراة عندما حان أوان خروجهم من مصر مع موسى، وفى إحدى مراحل الصراع المتأخرة بين موسى وفرعون وبعد اشتداد الكوارث على مصر، تذكر التوراة أن فرعون وافق على خروج بنى إسرائيل بدون ثرواتهم، ولكن موسى رفض وقال لفرعون: «تذهب مواشينا أيضاً معنا لا يبقى ظلف» (الخروج : ١٠ - ٢٦)، وأنهم عند رحيلهم «صعد معهم لفيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواش وافرة جداً» (الخروج : ١٢ - ٢٨).

● وعلى صعيد سياسة مصر الخارجية تكشف وثائق تل العمارنة عن بداية تدهور نفوذ مصر فى سوريا وفلسطين فى عهد «أمنحوتب الثالث»، فقد بدأت الممالك والإمارات المجاورة تغير على الأمراء الخاضعين للسيادة المصرية، وأيضاً لم تسلم الممتلكات المصرية من هجمات البدو وقبائل الخابيرو، كما بدأ فى عهده زحف الآراميين، وباكورة اعتداء الحيثيين والميتانيين على الأملاك المصرية، ولم يقابل ذلك رد فعل من مصر لوقف هذا التدهور.

ويلفت النظر أن الحاكم المصرى فى سوريا مندوب فرعون الذى يرأس الجند والحاميات المصرية فى هذا العهد كان يحمل اسماً سامياً هو «يانخام» أو «إيان - حام» وكان هو المسئول عن أموال وخزائن الفرعون فى سوريا، ورغم أن هذا القائد كان موضع ثقة الفرعون فى الأراضى السورية فإن قيادته للجيش المصرى فى تلك البلاد لم تأت بنتيجة حاسمة فى إعادة الأمن إلى نصابه، كما أن هذا الحاكم لم يكن يتجاوب مع ما يرى، وقد توسل إليه «ريبادى» حاكم جبيل ليحفِّزه على إرسال طلب نجدة من مصر على جناح السرعة لحماية المدينة التى كانت تحيط بها الأخطار، إلا أن كل توسلاته ذهبت أدراج الرياح، ولما أعيت «ريبادى» الحيل

واستولى عليه اليأس انسحب من المدينة.

كما نعلم من خطابات تل العمارنة التى كانت ترد إلى الفرعون من فلسطين أن الأمراء هناك كان يشكون من سحب جنود الحاميات منها.

● وفضلاً عن يويا وعائلته فإن كثيراً من وظائف البلاط فى طيبة والمناصب المهمة فى الدولة تولاها أهل الحظوة من الأقارب والموالين لعائلة يويا وكهنة عين شمس.

والملاحظة الغريبة والجديدة التى نستطيع أن نستدل عليها من مصادر هذا العصر، أنه أصبح للكثيرين من غير المصريين أو الذين لم يكونوا من دم مصرى خالص وظائف مهمة ورأى مسموع فى البلاط الملكى ودواوين الحكومة، وأن الكثير من كبار رجال الدولة خرجوا من عامة الشعب أو ولدوا من أبوين فقيرين، ثم دخلوا فى خدمة الفرعون، أى أنهم لا ينتمون إلى الجيل السابق من كبار الموظفين والكهنة فى تلك الأسرة ـ على خلاف المعتاد من توارث الوظائف المهمة فى مصر القديمة ـ ويلفت النظر أيضاً أن أغلب هؤلاء ينتمى إلى الشمال ومنهم من يحمل أسماء سامية ونرصد من ذلك على سبيل المثال:

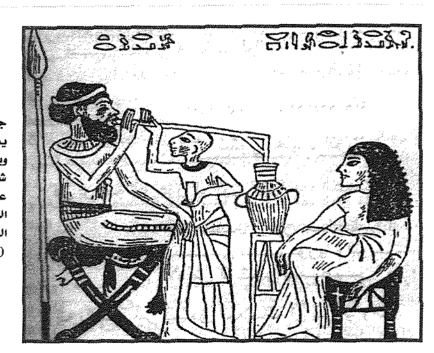
ـ يانخام «إيان ـ حام» الحاكم المصرى للمستعمرات المصرية فى سوريا وفلسطين فى عهد أمنحوتب الثالث وإخناتون.

ـ عبريا أحد وزراء إخناتون فى منف، وقد خدم هذا الرجل فى بادئ الأمر تحت إمرة الملك أمنحوتب الثالث، وحصل على لقب الكاهن الأعلى لآتون، وعثر على مقبرته فى سقارة.

ثم وضحت هذه الملاحظة بقوة فى عهد إخناتون ضمن رجال الحرس الخاص للملك الذين استعان بهم «آى».

وقد أدرك بعض المؤرخين تلك الصورة وكان رأيهم فى وصفها أن الملكة «تى» هى صاحبة الرأى فى ذلك، وأنها فيما يبدو كانت واقعة تحت تأثير كهنة «رع» ولذلك فإنها اهتمت ومعها معظم رجال البلاط بعقيدة جديدة هى عقيدة آتون بتغييرات جديدة ومتطورة لديانة الشمس القديمة فى هليوبوليس، ويضيف المؤرخون أن هذا الاتجاه الجديد قوبل بالمقاومة الشديدة من جانب كهنة آمون الذين رأوا أن الديانة الجديدة تصور لاتجاهات جديدة نتجت عن الاندماج والاختلاط بالأجانب، ولذلك فإنهم عارضوها بشدة.

وهذه الأمور جميعاً تلقى الضوء على حقيقة ما كان يجرى من صراع بين الدين الوافد والنظام الدينى القديم، وأن هذا الدين لم تنشق الأرض عنه فجأة بإعلان إخناتون، وإنما الحقيقة أنه بدأ يتسلل ومعه رجاله فى عهد والده، وبدأوا يتخذون أماكنهم فعلاً داخل البلاط ومؤسسات الدولة استعداداً لليوم المنتظر، وتدلنا هذه الصور على وجود علاقة بين اختيار رجال البلاط وكبار الموظفين فى مناصبهم وبين عقيدتهم، وأن ثمة يداً لأسرة يويا فى ذلك عن طريق الملكة «تى» التى كانت تدير أمور القصر والدولة.



جندى بملامح أسيوية يسمى تيرورا وزوجته، ويقوم على خدمتهما شخص مصرى يساعده على أن يمسك بالأنبوبة التى يشرب من خلالها النبيذ من القدر
(من لوحات تل العمارنة)



رؤساء كنعانيون يبتهلون إلى الإله فى المعبد الذى أقامه إخناتون للإله آتون فى طيبة



حراب «رامى حربة» كنعانى عضو الحرس الخاص المكلف بحراسة إخناتون
(فى المعبد الذى أقامه إخناتون فى طيبة)

تصفية الخصوم

إن من طالت أياديهم الملوك وأفراد العائلة الحاكمة، فلا شك أنهم اصطدموا بالطبقات التالية لهم من كبار رجال الدولة وكهنة المعابد المنافسين. فمنذ أجيال ومع بداية هذه الأسرة ومناصب الدولة العليا وكهنوت المعابد غالباً ما تتوارث للأبناء والأحفاد، وكثيراً ما نجد بعض العائلات قد احتكرت وظيفة من الوظائف لعدة أجيال متتالية، ونشأت من الوظائف المدنية، وكذلك من الوظائف العسكرية والدينية طبقة راقية من أشراف الدولة توارثت هذه المناصب فى عائلاتها.

فإذا دلت المصادر بعد ذلك أن طبقة جديدة من الفقراء والعامة والمجهولين وذوى الأصول الأجنبية أخذت طريقها إلى البلاط الملكى، ودواوين الحكومة، ووظائف الجيش، وأيضاً توزع

كهنة عين شمس والقادمون من الشمال على معابد مصر الغنية والوظائف المدنية والعسكرية المهمة، فإن الطريق إلى ذلك ـ أبداً ـ لم يكن مفروشاً بالورود ولم يأت نتيجة حتمية سلمية مترتبة على سيطرة أصهار القصر الجدد ومواليهم على أجهزة الدولة، وإنما صاحب هذا الإحلال والاحتلال، واستمر خلال تلك الفترة وجود الرفض والاحتجاج والمقاومة من الطبقة الأرستقراطية الوراثية القديمة، خصوصاً وأن مقدمات التغيير ارتبطت منذ عهد «تحوتمس الرابع» بظهور أفق الإحلال الدينى الجديد لعبادة آتون، وأيضاً كان هذا الفرعون أول من ثار على سلطة كهنة آمون وانتزع من يدهم وظيفة رئيس كهنة القطرين، وقلدها لأحد قواده الذين يثق فيهم، وفى عهد أمنحوتب خطا الميل إلى عبادة آتون خطوة ثانية واسعة، وانتشر أتباعه فى أرجاء الدولة فى انتظار الإشارة والبشارة التى حملها وأعلنها إخناتون، ومن ثم فإن هذه السيطرة جاءت على حساب المساحات المعتادة لإله الدولة الأكبر «آمون» وسحب البساط تدريجياً عن أتباعه الحقيقيين الذين اعتادوا فى السابق على خطب ودهم وإرضائهم ومنحهم المزايا، وقد أحل الجدد أنفسهم محلهم. ونستخلص فعلاً من المصادر وجود نزاع دينى فى عهد «أمنحوتب الثالث» أصبح مصدراً لانزعاج البلاط، وكان الإله آتون محسوباً فى البداية على «رع» معبود الشمس فى «هليوبوليس» فقد خرج من معبده، ولهذا صور كهنته النزاع على أنه بين المعبودين الكبيرين «آمون» و«رع». وطبقاً للنظرية المصرية القديمة فى تجنب الصراع بين الآلهة تحقيقاً للمصالح الشخصية المتبادلة، فقد جرت محاولات التوفيق بينهما، ونجح كهنة الجانبين فى الجمع بين المعبودين تحت اسم «آمون رع»، ولكن استمرت المحاولات الدائبة لإفساح الساحة وتهيئة الأجواء لعقيدة آتون، وفى البداية قدموها باعتبارها مذهباً جديداً متطوراً لديانة الشمس القديمة فى هليوبوليس، وأدرك بعض كهنة آمون هذه الحيلة، وقابلوا هذا الاتجاه الجديد بالرفض والمقاومة الشديدة، ورأوا فيها ديانة دخيلة على مصر نتجت عن الاختلاط بالأجانب، ويأتى على رأس هؤلاء رجل الدولة الحكيم «أمنحوتب بن حابو» وقد كان من المقربين للملك «أمنحوتب الثالث» وطبقاً لتاريخ مانيتون نعرف أن هذا الرجل نصح الملك بأن يخلص البلاد من بعض الأشخاص «غير الطاهرين» الذين كان ينتشر بينهم أعوان «آتون» وتذكر الرواية أنه يبدو أنه انتحر عندما تبين أن آراءه لم يؤخذ بها.

أمنحوتب بن حابو

وعموماً فإن «أمنحوتب بن حابو» عمر طويلاً، فقد عاش حتى بلغ الثمانين عاماً وتدل الوثائق أنه توفى فى بداية العام الخامس والثلاثين من حكم الملك، وفى تقديرى أن استمرار هذا الرجل

وعدم إزاحته عن مناصبه المهمة من عائلة «يويا» والآتونيين رغم عقيدته المخلصة لعبادة آمون، يرجع لسببين، أولهما: أنه أيضاً نشأ من عامة الشعب وعاش عصامياً؛ فقد تدرج فى المناصب المهمة بجده وكفاحه معتمداً على حكمته وذكائه، ولهذا ظل حريصاً على الاحتفاظ بثمرة اجتهاده وعاش سعيداً مغتبطاً بقربه من الفرعون وتمجيد القوم له بسبب علمه، وعبقريته، يقول عن نفسه فى ترجمته: «وكنت قد تفقهت قبلها فى كتاب الإله، ورأيت قوة «تحوت» (إله العلم) فكنت بذلك ماهراً فى أسرار كتابه، حتى أنى كنت أحل كل معضلاتها، وكان كل إنسان يسألنى النصيحة (المشورة)» ورجل يجمع هذه الصفات يستطيع تقدير الظروف المحيطة ووزن الأمور بحكمة تمكنه من تجنب الصراعات وتفادى أعدائه والمحافظة على وجوده.

وأما السبب الثانى، فيرجع إلى عبقريته المعمارية والفنية، فهو المهندس الذى وضع تصميم الأعمال المعمارية العظيمة لأمنحوتب الثالث وأشرف على تنفيذها، وقد ظل مقرباً من الملكة «تى» ومخلصاً للفرعون الذى منحه لقب «مدير كل المبانى الملكية»، وأيضاً لقب «مدير المحاجر للجبل الأحمر»، وهو الذى أقام المعابد الضخمة والتماثيل الملكية العظيمة للفرعون والملكة «تى»، والمعبد الجنائزى للملك وتمثالى ممنون الشهيرين أمام المعبد فى الأقصر، وبعد اعتزال «أمنحوتب بن حابو» وتقاعده عن أعمال الحكومة ظل مرتبطاً بالبيت المالك وأسندت إليه وظيفة «مدير أملاك» كبرى الأميرات، «سات آمون» ابنة الفرعون.

وأعتقد أن رواية مانيتون ربما تجد لها صدى فى أن هذا الرجل الذى اشتهر بحكمته وأصالة رأيه، كان قد استشعر خطورة المد الآتونى وسيطرة أتباعه وتوطيد أركانهم فى أرجاء الدولة، وعرف بما له من علم ودراية غاية الحقائق التى يقوم عليها هذا الدين وجذوره الأصيلة التى تستند على عقيدة التوحيد ورفض الأديان الأخرى، وهى الأفكار التى كان أتباعه يحاولون إخفاءها فى هذا الوقت، ومن ثم أدرك بنافذ بصره أنه لا بد وأن يصطدم بالعقائد المصرية السائدة، وبعد أن بلغ من العمر عتياً وجد أنه واجباً عليه قبل أن تنتهى حياته أن ينبه الفرعون إلى هذه الفتنة القادمة، فحذره من هذا الدين الوافد، ونصحه بأن ينقذ مصر من هذه الاتجاهات الأجنبية الدخيلة ويخلص البلاد منها ومن أتباعها قبل أن تضرب أرجاء وحدتها واستقرارها، وهو الأمر الذى تحقق فعلاً بعد وفاته بسنوات قليلة، ولكن هذه النصيحة لم تعجب أتباع آتون فاصطدموا بالرجل فى شيخوخته، ويحتمل أن وفاته قد صاحبتها ظروف غير عادية أو تم التعجيل بها من أتباع آتون وصورت على أنها انتحار.
ونستطيع أن نستدل من المصادر أن هذا الحكيم العجوز الموالى لكهنة آمون كان قد أصبح مكروهاً جداً فى أخريات أيامه من الكثير من رجال الدولة، ذلك أن الملك أقام له مقصورة بقيت أجزاؤها حتى الآن، وبعد وفاته كان يخشى على مقصورته من السلب والنهب، فقام الملك بعمل تحذير عن طريق الكتابة يتوعد فيها بالعقاب الشديد كل من يهدم هذا المكان أو ينهب الهبات التى خصصت له.
عموماً نستطيع أن نستخلص أن زحف الآتونيين وحتى تولى إخناتون عرش البلاد اقتضى أحياناً

التخلص من الخصوم أو تصفية أتباع العقائد الأخرى المعارضين لوجودهم أو المحذرين من أفكارهم، وأن ذلك كان يتم بحرص وحذر شديدين.

اغتيال الأمير تحوتمس

الأمير تحوتمس هو الابن الأكبر للملك «أمنحوتب الثالث»، نصبه أبوه ولياً للعهد، وعينه أيضاً فى منصب كبير كهنة الإله القديم «بتاح» إله منف وإله الخلق، كما أضفى على الأمير لقباً شرفياً ضخماً هو «رئيس جميع كهنة كل الآلهة فى الجنوب والشمال» وبذلك آلت إليه الرئاسة الشرفية لكل الكهنة. ولكن بعد فترة مات هذا الأمير فى صدر شبابه، فى ظروف ما زالت غامضة، وآلت ولاية العهد بعد ذلك إلى الأمير «أمنحوتب الرابع» (إخناتون فيما بعد)، الذى نعرف أنه عاش طفولته وصباه بين أخواله فى عين شمس، وتربى وتعلم فى معبدها على يد كهنة الآتونية الأصوليين المخلصين، وسوف نلاحظ أنه لم يرتبط مع تعيين إخناتون ولياً للعهد إسناد أية مناصب كهنوتية إليه، ولم يحصل على منصب رئيس مجمع الكهنة كما كان لأخيه ولى العهد المتوفى.

وإذا كنا نعلم أن إخناتون هو قطعاً ابن الملكة «تى» من مصادر كثيرة مؤكدة، فإنه لم تتوافر أية وثائق يمكن أن يستدل منها على أن الأمير تحوتمس الابن البكر للملك هو أيضاً ابن للملكة «تى»، وإذا كان قد وجد من المؤرخين من نسبه إليها، فإن مبعث هذا الاعتقاد - فى تقديرى - ربما يجد سببه فى تعيينه ولياً للعهد، الأمر الذى جعله جديراً فى رأيهم - كما هو المعتاد غالباً - بأن ينسب إلى الزوجة الرئيسية وصاحبة الحظوة والنفوذ لدى الملك. وهذا ليس بسبب قاطع أو كاف ولا يشكل يقيناً فى إثبات هذا النسب، ولو صح لكانت أى من المصادر قد حملت إشارات أو دلالات عليه مثلما نسبت إليها «أمنحوتب الرابع» والبنات، ثم «سمنخ كارع» والذى تجلت لنا صلتها به من حرصها واهتمامها عندما نصحت إخناتون بالتنازل له عن العرش أو مشاركته الحكم حلاً للخلافات مع كهنة آمون.

والذى أراه فى هذا الأمر أن الأمير «تحوتمس» كان ابناً للملك «أمنحوتب الثالث» من زوجة أخرى ثانوية، وفى الغالب أنها «جيلوخيبا» أخت «شوتارنا الثانى» ملك دولة الميتانى التى تزوجها فى العام الحادى عشر من حكمه، وقد أنجبت له هذا الابن فى الوقت الذى لم يكن للملكة «تى» سوى عدد من البنات، ومرت سنوات طويلة دون أن تنجب ذكراً، ولهذا حتم الأمر إسناد ولاية العهد للأمير تحوتمس، ثم بعد أكثر من عشرين عاماً على زواج «تى» أنجبت ابنها «أمنحوتب» (إخناتون)، وبحسب عمره عند ولايته الحكم فإنه يمكن أن تكون ولادته قد حدثت فى السنة الرابعة والعشرين من حكم والده (تزوجت «تى» وهى طفلة عمرها لا يزيد على أحد عشر عاماً).

وكأن ميلاد هذا الابن كان لقوم أمه الأمل المبتغى والرجاء الذى طال انتظاره، فقد التهفه أخواله وكهنة الآتونية من حضن أمه فى السنوات المبكرة من عمره، واصطحبوه إلى هليوبوليس؛ ليتربى تحت بصرهم، ويدرس فى معبدهم، حيث تلقن أسس عقيدة التوحيد،

ودرس أركانها القديمة الصحيحة كما نزلت على الأجداد ودعا بها يوسف فى مصر، فعرفها خالية مجردة من أية شوائب أو عقائد وثنية، وتربى على رفض وبغض الآلهة المتعددة، وغرسوا فى يقينه وعقيدته ثقافة التوحيد، وأصبح مثلهم يعتز بقوميته وبانتمائه إلى أجداده أنبياء إسرائيل وحفظ عن ظهر قلب صحفهم ليرددها بعد سنوات قليلة فى أرجاء مصر، ومن بعده رددها التاريخ من خلاله ومنسوبة إليه ومعتقداً أنه رائدها.

وبعد أن حمل إخناتون عقيدة التوحيد ديانة الأجداد وتهيأ لإعلانها ونشرها فى أرجاء مصر، وتحقيق أهدافهم التى انتظروها سنوات طويلة، لم يكن باقياً لتحقيق حلمهم سوى خطوة واحدة بعدها يصبح هذا الأمير، حفيد يعقوب وسليل إسرائيل، ملكاً على مصر وأيضاً فلسطين أرض الميعاد.

وكما كان تنصيب «تحوتمس الرابع» على العرش اغتصاباً بعد تصفية إخوته هو الخطوة الأولى التى قادت بنى إسرائيل إلى قصر الحكم، والتبشير بالآتونية، وإعلاء شأن كهنة عين شمس.

وكما كان إزاحة «تحوتمس الرابع» عن العرش فى ريعان شبابه وأوج مجده هو الخطوة التالية التى مكنتهم من فرض وصايتهم على خليفته الملك الفتى «أمنحوتب الثالث» ومد نفوذهم وسيطرتهم على شئون القصر والدولة، وتوسيع محيطهم، وامتلاك الجاه والمال، ثم تربية إخناتون وإعداده وتشكيله لتحقيق أهدافهم.

فإنه أيضاً جاءت وفاة الأمير الشاب ولى العهد «تحوتمس» لتكون الخطوة الأخيرة التى قادت إخناتون إلى عرش مصر وإعلان الآتونية وتحقيق طموحات بنى إسرائيل.

وإذا لم تكن قد حدثت وفاة ولى العهد الأمير تحوتمس كبير كهنة «بتاح» ورئيس كهنة مصر لترتب على ذلك صعوده إلى الحكم وتنحية إخناتون، وربما قضى بقية عمره كبيراً للرائين ورئيساً لكهنة هليوبوليس، وقطعاً لم تكن لتحدث ثورة التوحيد مهما كان تأثيرهم على الملك. ونستطيع أن ندرك أنها لم تكن فقط مجرد ديانة جديدة ولو كانت كذلك لاستوعبها المجتمع المصرى الذى يؤمن منذ القدم بحرية الاعتقاد، وكان لكل إقليم إلهه القومى، وسمح للسوريين بإقامة معابد لآلهتهم على أرضه، واستقرت فى ثقافته فلسفة تعدد الأديان والآلهة، وإنما الحقيقة أن هذه العقيدة كانت تحمل قوة عالمية ملهمة لم توجد من قبل فى الفكر المصرى القديم، إنها دين عالمى يحل محل القومية المصرية العنصرية التى سبقته وسارت عليها البلاد خلال عشرين قرناً مضت، إنها خطوة لم يكن من الممكن تحقيقها بدون إعداد إخناتون ثقافياً لها، ومنذ مرحلة مبكرة قبل أن يتلوث عقله بأية أفكار أو معتقدات سائدة أخرى، ثم تهيئته نفسياً لإعلانها، ولهذا حتمت الأمور بعد تحقيق ميلاد «أمنحوتب» (إخناتون) وخلال مرحلة إعداده المبكرة ضرورة إزاحة تحوتمس من طريقه لتمكينه من الوصول إلى عرش الدولة.

ومما تقدم ومن مجمل الأحداث نستطيع أن نستخلص أن الوفاة المبكرة لولى العهد الأمير تحوتمس لا يمكن أن تكون قد تهيأت مصادفة، فالمؤامرات التى سبقتها والأحداث التى تلتها تؤكد أنه كان وراء اختفائه فى «منف» مؤامرة أخرى تكرر فيها مع هذا الأمير ما حدث لولى العهد «آمن إم إبت» وإخوته الأمراء أبناء الملك «أمنحوتب الثانى»، لقد طالته يد الاغتيال، ومرة أخرى توارى صحراء «منف» ترابها على أمير من الأسرة الثامنة عشرة مات مسلوباً عن عرشه.

وقبل أن نختم مبررات هذه المؤامرة يجدر بنا أن نشير إلى أن استخلاصنا سوف يكون مؤيداً وقوياً لو ثبت افتراض أن الأمير تحوتمس لم يكن ابناً للملكة «تى» باعتبار أن هذه الحالة سوف تحقق اتفاق رأى كهنة عين شمس وشيوخ إسرائيل على التخلص من «تحوتمس» وتنصيب «إخناتون» كما حدث مع «تحوتمس الرابع» من قبل.

ومع هذا فإنه فى حالة لو ثبت أن أيدت المصادر فعلاً أن الأمير تحوتمس كان ابناً للملكة «تى» فإنى أيضاً لا أبرئ جناحاً متشدداً من قبائل إسرائيل من كهنة عين شمس الآتونيين من التحرك سراً وبدوافع ذاتية إلى تنفيذ هذه الجريمة رغماً عن إرادة الملكة «تى» وأخوال الأمير، وسوف تجد بواعثها لديهم فى أسباب عديدة، منها: صالح إسرائيل، وتبرير فعلهم بما حدث لهم فى الماضى من الاضطهاد والتنكيل الذى تعرضوا له فى عهد حتشبسوت، وخوفهم أن يجد طريقه إليهم مرة أخرى مع أى من ملوك مصر الذين قد يخضعون لتأثيرات كهنة آمون وغيره من الآلهة المصرية. ومن ثم تأتى أهمية تنصيب إخناتون الذى تم إعداده على أفكارهم وعقيدتهم، ولا يمنع أن يكون من أسبابهم أيضاً رفضهم لسياسة الملكة «تى» وأسرة «يويا»، وربما رأوا فيهم أنهم سلموا أنفسهم لأحضان المعابد الوثنية، وأصبحوا يخدمون آلهتها لتحقيق مزايا شخصية لهم، لم يجن منها شعب إسرائيل منافع حقيقية تؤدى إلى تأمين حياتهم القادمة أو تحقيق آمالهم، ومن ثم فإن أصحاب هذا التيار رفضوا الاقتناع بمبرراتهم وحججهم لاستمرار هذا الأسلوب المخادع، واختاروا الاتجاه مباشرة نحو اتخاذ خطوات تنفيذية تقودهم إلى أهدافهم، وأخيراً فإن عوامل المقارنة والترجيح بين الأمير «تحوتمس» كاهن «بتاح» ورئيس مجمع الكهنة وبين الأمير«أمنحوتب» (إخناتون) المؤمن الرافض للديانات الوثنية تؤيد حتمية تصعيد إخناتون مهما كان الثمن غالياً أو مؤلماً على الملكة «تى» وعليهم أيضاً. وأغلب الظن أنهم وقتها رفعوا شعار أنهم يعلون راية الإيمان وأن حياة شعب وحريته أهم من حياة فرد واحد؛ خصوصاً وأنه اتجه إلى طريق العقائد القديمة، ولم يعد ينتظر أن يقدم لهم فى سنوات حكمة أية خطوات إضافية، بل يحتمل أن يأخذهم إلى اتجاه عكسى.



جاء إخناتون يحمل الآتونية
من معبد عين شمس بعد وفاة
شقيقه الأمير تحوتمس



.. وتم زفافه إلى نفرتيتى
فى سن مبكرة

الأهداف الإسرائيلية فى عهد إخناتون

بعد عودته من هليوبوليس اعتلى «أمنحوتب الرابع» عرش مصر شريكاً لأبيه فى الحكم، وكان فى نحو منتصف العقد الثانى من عمره، وبمساندة وتشجيع أخواله وأساتذته فى عين شمس اتجه تفكيره منذ بدايات حكمه إلى الإله الواحد «آتون»، وبنى الملك الصغير معبداً ضخماً لعبادة «آتون» داخل معقل «آمون» فى معبده الكبير بالكرنك فى طيبة، وبعدها ببضع سنوات حان موعد إسرائيل مع جنى الأهداف المنتظرة من مؤامرات شيوخها التى بدأت منذ أكثر من خمسين عاماً عندما اغتصبوا العرش لتحوتمس الرابع واغتالوا أشقاءه، فقد أعلن فرعون مصر أخيراً أن عقيدة التوحيد ديانة الأجداد أنبياء إسرائيل هى عقيدة الدولة الوحيدة، وعند هذه النقطة، ومنذ عهد يوسف، تحقق لهم أقصى اقتراب من قمة طموحاتهم، فقد كان ذلك الإعلان يمثل هدفاً رئيسياً لهم ويؤدى إلى تحقيق باقى الأهداف، ويحلهم محل

كهنة مصر القديمة فى جميع أنحاء البلاد، وكان متوقعاً أن تؤدى هذه الخطوة إلى تحطم الكهنوت الدينى الراسخ منذ القدم، وأن تزيل نفوذ كهنة المعابد إلى الأبد، الأمر الذى يعنى بالإضافة إلى سيطرتهم على البيت الحاكم وقيادتهم لمؤسسات الدولة المهمة أن تقودهم الظروف مجتمعة نحو تحقيق أهدافهم: السيادة الدينية، أموال المعابد، فلسطين.

١ـ السيادة الدينية

فى السنة الخامسة أو السادسة من حكمه - وفى الغالب أنه آنذاك كان قد انفرد بالحكم - أعلن فرعون مصر حفيد «يويا» كاهن إسرائيل عقيدة التوحيد الديانة الرسمية والوحيدة للدولة، واعترف فقط بسيادة الإله «آتون» - إله الشمس العالمية الشاملة جميع أراضى العالم - إلهاً واحداً لمصر وجميع المصريين، كما هو إله لكل الناس فى أرجاء الكون، وهو رب السماء والأرض الذى خلق نفسه بيده، وهو سبب حياة جميع البشر، وغير الفرعون اسمه من «أمنحوتب» (آمون راض) إلى اسم جديد يؤكد صلته بمعبوده هو «إخناتون» (الفعال من أجل آتون)، وهجر العاصمة الجنوبية طيبة، عاقداً العزم على عدم العودة، وأنشأ عاصمة جديدة لملكه أسماها «آخت آتون» (أفق آتون) تقع فى مصر الوسطى ـ محافظة المنيا فى موقع «تل العمارنة» حالياً، وشيّد فيها معبدين لأداء الشعائر للإله الواحد، ثم أخذ يقيم له المعابد الأخرى فى كل أنحاء القطر وبخاصة فى هرموبوليس (الأشمونيين) و«منف» و«عين شمس» وأقام له أيضاً مدينتين أخريين فى أقصى شمال وجنوب البلاد، تقع الجنوبية فى شمال السودان حالياً.

وفى بادئ الأمر يبدو أنه كان يوجد بين أعوان إخناتون رأى يذهب إلى أنه من الممكن غض الطرف مؤقتاً عن عبادة الإله «آتوم رع» إله عين شمس مع الإله «آتون» الذى ظهر فى بدايته موحداً معه، ظناً منهم أن الديانة الآتونية فى صورتها الحقة سوف يكون فى استطاعتها أن تفرض وجودها تدريجى، وتضع شعائرها فى إطارها الصحيح وتقضى على الديانة القديمة، ولكن إخناتون لم يطق صبراً على هذه الحال خصوصاً وأن الجم الغفير من الكهنة والشعب كانوا متمسكين بدياناتهم القديمة، ولهذا فإنه بعد نصيحة المقربين إليه من المخلصين لعقيدة التوحيد، رفض هذه الصورة من التسلل وفطن إلى أنها على العكس سوف تؤدى إلى القضاء على الديانة الجديدة، ولجأ ـ على نحو ما سنرى ـ إلى اتخاذ قرارات حاسمة تهدف إلى إلغاء العبادات القديمة والقضاء على الآلهة الوثنية، ولكن هذا لم يمنع أن المصادر قد حملت إلينا عدداً من المظاهر التى تدل على تأثر هذه الديانة بالثقافة الهليوبوليسية التى عاشت فى أحضانها سنوات طويلة، ومن ذلك أن المعابد شيدت على نفس النموذج القديم لمعبد الشمس «رع» فى أيونو، فكانت الطقوس تؤدى فى قاعات مكشوفة للهواء الطلق والشمس فى الأفق،

غير أن الديانة الجديدة لم تمثل أو تصور الإله الواحد على أية هيئة أو صورة من الصور، فهو إله خفى لا يمكن لمسه أو رؤيته، فهو معنى روحى، تكمن فيه العدالة والخير، وكل ما على الأرض صدى لطبيعته، وهو وإن كان يتجلى لنا عن طريق ضوء الشمس الذى يتغلغل فى كل مكان ولكنه ليس كوكب الشمس، إنه القوة الخفية التى خلف الشمس مصدر النشاط والحيوية، التى تبعث الحياة وتقوى كل شىء وتنمِّيه.

ومن مظاهر التأثر الثقافى أيضاً أن «مرى رع» الذى كان من أعظم رجال إخناتون شهرة حمل نفسه اللقب الخاص برئاسة الكهنوت بالعبادة الموجودة فى هليوبوليس، وهو «كبير الرائين» وليس الكاهن الأكبر مثل المعابد الأخرى، ويجدر بالذكر أنه لم يعرف أحد غيره شغل هذه الوظيفة فى معبد الإله «آتون» فى «آخت آتون» ذلك أنه عند بداية حركة الانقلاب الدينى كان إخناتون نفسه هو الذى يشغل هذا المنصب الرفيع ثم عهد به إلى هذا الكاهن، الذى يحتمل أنه بقى يشغله حتى وفاة إخناتون قبل أن يفر أو يهلك فى مرحلة الانتقام من المؤمنين، وتدل حجرة دفنه فى مقبرته على أنه لم يدفن فيها.

وتجدر الإشارة إلى أنه بعد خروج بنى إسرائيل من مصر فإنهم ظلوا يطلقون على أنبيائهم صفة «الرائى» وفى هذا تقول التوراة فى سفر صموئيل الأول ـ الإصحاح التاسع ـ آية (٩) «إن النبى اليوم كان يدعى سابقاً الرائى»، وهو عندهم أيضاً رجل الله.

وأيضاً فإن أصحاب الديانة الجديدة، لم يكرهوا اسم «رع» واتخذوه فى أسمائهم ورفضوا أسماء غيره من الآلهة.

لم يكن إخناتون قد تجاوز سنوات عقده الثانى عندما هاجر من طيبة، وفيما بعد أعلن كهنة آمون أنهم طردوه من طيبة هو وبلاطه ومعاونيه، وكانوا حوالى ثمانين ألف شخص، ويقدر بعض الدارسين أن هذا العدد بوجه عام كان حقيقياً، كما قدرت دراسات أخرى عدد سكان «آخت آتون» بنحو أربعين ألف نسمة، بخلاف الأعداد الأخرى من المؤمنين الذين انتشروا فى المدن والقرى المصرية المختلفة.

وغنى عن القول، أنه باعتبار أن تلك العقيدة هى ديانة بنى إسرائيل الذين يعيشون فى مصر، فيكون طبيعياً استنتاج انتشار شيوخهم فى المعابد الجديدة فى أنحاء البلاد لرئاسة الشعائر ونشر الدين والدعوة.

٢ـ أموال المعابد

لم يكتف إخناتون بما حققه أو بالأحرى دفعه أخواله، كهنة الآتونية شيوخ إسرائيل، إلى استغلال منصبه على عرش مصر لخدمة دعوته الدينية، ذلك أنه بعد فترة وجيزة من إعلانه عقيدته حمل على مجمع الآلهة المصرية كلها وعلى رأسها آمون، وأصدر أوامره بإغلاق معابد

الآلهة وسرح كهنتها، وصادر كل أراضيها ومخصصاتها وأوقافها، وحول ذلك كله إلى معابد الدين الجديد وأموال الدولة، وبدأ حربه للقضاء على الآلهة الأخرى فأرسل حملات كثيرة فى طول البلاد وعرضها تقوم بتنفيذ أوامر المصادرة والغلق ومحو أسماء الآلهة من النصوص الموجودة على جدران القبور أو المعابد، حتى آثار والده وأجداده من ملوك أسرته لم تسلم من ذلك، وكانت أعنف الحملات وأقساها تلك التى وجهت لمعابد آمون.

ولكى ندرك حجم الكارثة التى أصابت المعابد، وحولت الخير كله لكهنة الآتونية، وفى محاولة لاستيعاب الحجم الهائل والثروات والأراضى التى أوقفت على معابد الآلهة منذ القدم، وخصوصاً بعد أن نسب الفضل إليها فى تحرير مصر من الهكسوس، وتحقيق الانتصارات العظيمة التى أقامت صرح الإمبراطورية الممتدة فى آسيا، نشير إلى أنه بالإضافة إلى نقوش المعابد التى كثيراً ما حوت قوائم بالهبات الملكية الممنوحة لها من الداخل ومن غنائم الحروب وجزى الخارج، فإنه عثر أيضاً على عدد من البرديات، والتى يمكن منها عن طريق المقارنة والقياس إدراك حجم الثروات المصادرة، وتحديد مدى خطورة ما أقدم عليه إخناتون، ونذكر من ذلك أنه عثر على بردية من عصر «رمسيس الثالث» أمكن منها تقدير ممتلكات المعابد من الأراضى بحوالى ٣٠٪ من جملة الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر، وفى رسالة من عهد «رمسيس الثانى» كتبها «بانحسى» الكاتب الملكى ومدير الخزانة إلى كاهن آمون فى طيبة يبلغه فيها (بحالة أملاك) آمون فى المنطقة الشمالية الواقعة تحت نفوذه (حددها فى رسالته بأنها تقع على فروع النيل وتصل إلى آخر أطراف الدلتا) وكانت خاصة بتسوية حساباته عن العام الذى وافق سنة ٢٤ من حكم الملك (١٢٥٦ ق . م) ونستخلص منها أنه كان يعمل بأراضى ومزارع ومراعى آمون أعداد هائلة من الفلاحين والرعاة والصيادين والعمال، وأن إنتاج الحبوب والثروة الحيوانية لدى آمون كان شيئاً مهولاً يفوق كل الحدود، ومن ضمن ما ذكره الكاتب أنه بعد تسوية حسابات هذا العام، اختار رجالاً جعلهم يبنون صومعة حبوب ضخمة لمعسكر العمال بمنف مساحتها ١٠ قراريط، وعلى جوانبها الأربعة أجراناً لتشوين ودرس الغلة (١٦٠ جرناً)، وقام بجباية السلع (الضريبة العينية) المستحقة للخزانة، وهى الثروات من الفضة والذهب والنحاس والقماش، وقدر إنتاج الشعير السنوى بحوالى مليون وثلاثة أرباع مليون جوال، وقدرت الملكية من الثروة الحيوانية بحوالى ستة ملايين رأس أو أكثر من البقر، ومثلها من الماعز، وملايين أخرى من الطيور البرية إنتاج مواقع الدلتا ومستنقعات وادى النيل والبحيرات الشمالية، وحوالى ١١,٢٥ مليون حمار، و ٧,٢٥ مليون بغل، ويذكر الدارسون أنه بعد مقارنة هذه الإحصائية بمصادر أخرى من عصور مختلفة فى مصر القديمة، وبعضها عن مخصصات لمعابد أقل شأناً، خلصوا إلى أن البيانات التى وردت فى إحصائية «بانحسى» فى مجملها صحيحة وليست من نسج الخيال أو مبالغاً فيها بأية حال.

ومن خلال هذه الإحصائيات وكثير غيرها من المصادر نستطيع أن نعرف الحجم الهائل من الأراضى والثروات التى كانت تملكها جميع المعابد فى مصر، والتى آلت إلى كهنة الآتونية، وكان فى تقديرهم أن تستمر تلك الثروات تحت تصرفهم، ولكن العوامل التاريخية كانت أقوى من حساباتهم، ومن ثم ندرك أن هذا الإجراء الذى قام به إخناتون بتحريض ودفع من كهنة الآتونية كان جد خطير، ويعد انقلاباً حقيقياً كاملاً على النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية الراسخة والمستقرة منذ عشرين قرناً، وما كان يمكن أن يحفزهم ويشجعهم على الإقدام على هذا الأمر سوى احتلالهم وأعوانهم لمناصب الدولة القيادية، وعلى الأخص سيطرتهم منذ عهد «أمنحوتب الثالث» على الجيش والشرطة والخزانة، وأيضاً تسللهم السابق فى الكثير من المعابد الكبرى فى مصر وإدارة أموالها، كان منها معابد آمون نفسه والتى بدأت معهم منذ ولاية «تحوتمس الرابع» واتسعت ووضحت فى عهد أمنحوتب الثالث وإخناتون.

وتؤدى المظاهر التى توافرت إلى أنه كان مقدراً فى حسابات كهنة الآتونية رؤساء إسرائيل أن عقيدة التوحيد سوف تستمر وتفرض وجودها بديلاً عن الديانات القائمة، ويستمر إغلاق المعابد الوثنية فى أنحاء البلاد، ويستمر لهم بالتالى إدارة أراضيها وثرواتها وأوقافها بفضل أوامر الفرعون التى تحمى نفوذهم وقيادتهم لمؤسسات الدولة، وهو الأمر الذى يؤدى إلى تركيز مصادر الدخل القومى فى يدهم واستئثارهم بمعظم ثروات البلاد باعتبارهم القائمين أيضاً على إدارة خزائن القصر والحكومة المصرية.

٣. فلسطين

ونأتى إلى ثالث أهداف بنى إسرائيل ليس فى الأهمية وإنما فى ترتيب التحقيق الزمنى، إنه إقامة وطن لهم فى فلسطين أرض الميعاد. ونستطيع أن ندرك من المصادر أنها كانت فى بالهم وخاطرهم منذ بداية سيطرتهم على البيت الحاكم فى عهد أمنحوتب الثالث، بل لعلها كانت أحد دوافعهم إلى سرعة التخلص من والده «تحوتمس الرابع» بعد أن قادوه إلى العرش؛ لأنه بعد حين شرع يوطد نفوذه فى الخارج، ويسلك نفس الطريق العسكرى لأبيه وجده.

فلم يتخل بنو إسرائيل أبداً خلال سنوات حياتهم فى مصر عن وعد الله لأجدادهم أنبياء إسرائيل الذى يحفظه تراثهم، وهو أن نسلهم سيعودون إلى فلسطين بعد سنوات غربتهم فى مصر، وكان هذا الوعد المنتظر مع إيمانهم بعقيدة التوحيد التى تخالف عقائد المصريين هو السبب فى احتفاظهم بقوميتهم وعدم اندماجهم وانصهارهم فى المجتمع المصرى الأقوى، والأعظم، والأغنى والحلم بين كل شعوب العالم القديم.

نستخلص من جملة وثائق أن خطوتهم التالية القادمة كان مخططاً أن تكون انتقال قبائلهم

لإقامة وطن دائم لهم فى فلسطين، يساندهم فى ذلك استغلال الوضع القائم فى مصر مفترضين استمراره على هذا النحو الذى هيأوه لصالحهم.

ونرصد من المصادر فعلاً قيادتهم لمؤامرة كبيرة ضمت أطرافاً خارجية ذات مصلحة، كان هدفهم منها ترتيب الظروف فى غرب آسيا لصالحهم، وتأمين الأوضاع فى مناطق المستعمرات المصرية هناك شمالاً وجنوباً لتمكين انتقال شعبهم وشعوب أخرى ارتبطت بهم تاريخياً وعرقياً ودينياً للاستقرار فى فلسطين والأراضى الجنوبية والشرقية لها لإتاحة قيام دولة بقيادتهم على هذه الأراضى، مستغلين سيطرتهم على الفرعون وهيمنتهم على البلاط ووظائف القصر، وقيادتهم لمؤسسات الدولة وإدارتهم لشئون المستعمرات، وتوجيه كل هذه الظروف لخدمة أغراضهم، وكان قوام المؤامرة العمل على انهيار نفوذ مصر وتقسيم ممتلكاتها بين عدة أطراف كانت تموج بها المنطقة فى هذا الوقت وتطمع جميعها فى أن يكون لها مكان على حساب الوجود المصرى فى هذه المرحلة التاريخية.

ولم يكن من الممكن استقلال فلسطين التى تشغل المنطقة الجنوبية للمستعمرات المصرية وقيام الدولة العبرية عليها، بينما تظل المنطقة الشمالية فى سوريا والساحل الفينيقى (لبنان) خاضعة لمصر؛ لأن هذا يعنى قطعاً أن يظل وجود دولتهم مهدداً فى المستقبل بل محكوماً عليه بالفناء إن عاجلاً وإن آجلاً، فإذا كانت الظروف فى مصر مهيأة لصالحهم فى هذه المرحلة، فمن المحال استمرار هذه الحال بعد رحيلهم.

إذاً تحتم لزوماً أن يكون أحد جوانب المؤامرة لتأمين قيام دولة العبرانيين ضرورة إنهاء النفوذ المصرى فى المنطقة الشمالية فى «قادش ومملكة أمورو» (سوريا) والساحل الفينيقى، بل خضوعها لدولة قوية لضمان خروجها إلى الأبد من السيطرة المصرية، وهذا يحقق أيضاً - فى حالة نجاحه - قطع الاتصال بين مصر ومملكة ميتانى فى شمال العراق الحليف القوى لمصر واللتين تربطهما منذ زمن صلات من الود والمصاهرة.

ولم تكن القبائل الإسرائيلية فى مصر، أبناء وأحفاد يعقوب الذين استوطنوا شرق الدلتا فى عهد الهكسوس منذ ثلاثة قرون يملكون الإمكانات البشرية التى تؤهلهم لفرض سيطرتهم، وتمكنهم من تحقيق الوضع الآمن والمستقر لهم، وتثبيت وجودهم فى وسط الإمارات والشعوب التى كانت تعيش آنذاك على أرض كنعان (فلسطين)، فكان لا بد من تحقيق اتصال واتفاق مع أبناء عمومتهم أحفاد إبراهيم ولوط - عليهما السلام - ليبدأوا جميعاً تحت القيادة الإسرائيلية فى مصر رحلة البحث عن الأرض الموعودة للأجداد، وكانوا آنذاك يعيشون فى قبائل متفرقة فى المنطقة، وما زالوا يحملون لقب جدهم إبراهيم «العبرانى»، وقد سجلتهم النصوص المصرية فى حروب تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى، وعرفوا باسم «العابيرو»، وفى النصوص الآسيوية عرفوا باسم «الخابيرو»، وكان هؤلاء البدو هم الجانب الآخر من المؤامرة.

وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن التوراة فى صياغتها التى تعرضت للتغيير والتحريف من كهنة إسرائيل فى العصور اللاحقة لموسى، ورغم تكريسها للنزعة العنصرية فى القومية الإسرائيلية، ومبدأ أسرلة دين الرب، فإنها لم تنكر حق نسل إبراهيم ولوط فى الأراضى التى اغتصبوها لأنفسهم وأقاموا دويلات وإمارات لهم عليها، ويمكن أن نستخلص ذلك من النصوص التى سجلت رحلة خروجهم من مصر مع موسى، حقاً فى هذا الوقت لم تكن العلاقات طيبة، ولم ترحب هذه الشعوب بقدوم بنى إسرائيل، بل إن منهم من لم يسمحوا لهم بالمرور فى أراضيهم، ولكن التوراة كانت تعلم أن أراضيهم حق إلهى لهم، على نحو ما سوف نوضحه فى إثبات قيام كيانات هذه الشعوب فى مرحلة ما بعد المؤامرة.

ولهذا فإن استنتاج اتصال رؤساء إسرائيل فى مصر بهؤلاء الشعوب هو أمر لا يخالف منطق التفكير الإسرائيلى فى هذه المرحلة (بحسب القرآن فإن الله أرسل جميع الأنبياء بعقيدة الإسلام والدعوة إلى توحيد الله تعالى)، فيكون أنهم يشاركونهم الانتماء العرقى والتراث الدينى والوعد الإلهى، والذى أتصوره أن التراث الدينى الإسرائيلى فى ذلك الوقت لم يكن ينكر حق جميع أحفاد إبراهيم بل أيضاً من ارتبط معهم بعقيدة الإسلام فى الحياة على أرض فلسطين؛ استناداً إلى أن تفكيرهم فى مرحلة ما قبل العنصرية كان يقوم على أساس دينى وليس عرقى، بمعنى أنهم يعلمون أن الله جعل هذه الأرض لقوم إبراهيم الذين آمنوا بدعوته، وليست قصراً على نسله فقط التى أضيفت بمعيار الانتساب العرقى العنصرى؛ لأن قصر هذا الوعد فى التوراة على بنى إسرائيل وجعل فلسطين حقاً خاصاً لهم وحدهم لم يأت إلا فى عصور لاحقة بعد قيام كهنة إسرائيل بجمع التوراة وتحريفها وهم يعيدون كتابتها فى مرحلة السبى البابلى - على نحو ما أوضحناه سابقاً - ومع هذا نلاحظ أيضاً أن التوراة الحالية فى سفر التكوين تدرجت فى منح هذا الحق، فهو فى حياة إبراهيم كان لجميع نسله، ثم يتكرر هذا الوعد لإسحاق ويكون لنسله فقط، حتى نصل إلى يعقوب وبنيه أسباط إسرائيل - الذين جمع أحفادهم التوراة بعد السبى - فاقتصر هذا الحق عليهم فقط، فالتوراة تقول إن هذا الوعد الإلهى قديم منذ تاريخ هجرة إبراهيم إلى فلسطين. ولأنه لم يكن متصوراً من كهنة إسرائيل - وهم يعيدون كتابة التوراة بعد عصر موسى - أن ينسبوا إلى الحق سبحانه أنه قال لإبراهيم: سوف يأتى لك ابن اسمه إسحاق، وسيكون لإسحاق يعقوب ولنسل يعقوب فقط أعطيهم هذه الأرض، فمثل هذا القول فى هذه الحالة سوف يعتبر هراء غير مقبول؛ وإجحافاً بغير سبب، وتفرقة من الرب تفتقد وجود تفسير منطقى يقدمه لإبراهيم يبرر به تمييزه بين أبنائه وأحفاده ليكون محلاً لقبوله ورضاه، ولهذا تدرج الكهنة تاريخياً مع الآباء فى منح الوعد الإلهى فى رواية التوراة، حتى اقتصر الحق فى فلسطين فى النهاية على أبناء يعقوب (بنى إسرائيل)، ولكنهم لم يجدوا ما يمنع فى أن تكون الأراضى المجاورة حقاً لأبناء لوط وأبناء

عيسو ـ شقيق إسحاق ـ وباقى أحفاد إبراهيم الآخرين، حتى لا يناقضوا قولهم فى وعد سبق أن قطعه الله لإبراهيم وجميع نسله. وفى إثبات هذا الحق لنسل إبراهيم تأتى الآيات التالية فى سفر التكوين ـ الإصحاح الثانى عشر:

«وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة».

«وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان».

«وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض».

وفى سفر التكوين الإصحاح الثالث عشر:

«وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه. ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاًوجنوباً وشرقاً وغرباً لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (١٤ ـ ١٥).

ولهذا يكون متفقاً مع التصور الطبيعى للأمور والتفسير الدينى الذى يستند على أصل الرسالة الدينية وبداياتها قبل أن تقيدها العنصرية الإسرائيلية وتقصر فلسطين عليهم، أن يحدث اتصال بنى إسرائيل فى مصر بأبناء عمومتهم لتكوين تحالف عبرانى كبير يؤهل لقيام دولة تضمهم جميعاً فى أرض هجرة إبراهيم عليه السلام، وهذا فعلاً ما رصدته الوثائق المصرية لما حدث فى فلسطين فى عهدى أمنحوتب الثالث وإخناتون، فقد زحفت أقوام «العابيرو» فى جماعات منظمة للاستيلاء على الممتلكات المصرية فى فلسطين، دون حراك من مصر.

وعودة إلى المنطقة الشمالية وما تم من تخطيط بشأنها، فإنه فى هذه المرحلة التاريخية كان قد حدث فى آسيا الصغرى حدث كبير مهم، ففى هذا الجزء ـ تركيا الحالية ـ ظهرت مملكة الحيثيين القوية ـ مملكة خيتا الكبرى ـ وبدأت عصراً جديداً تحت حكم ملكها «شوبيلوليوما الأول» وكان ذا نشاط وطموح لا حد لهما، وقد دخل فى حرب ضد مملكة ميتانى فى شمال العراق، الصديقة والحليفة القوية لمصر، فاستغاث «تشراتا» ملك ميتانى، بصهره «أمنحوتب الثالث» ملك مصر، فأرسل إليه نجدة ساعدته فى صد الحيثيين، ومنذ هذا التاريخ أدركت مملكة الحيثيين أنها لن تستطيع أن تحقق أطماعها فى ممتلكات مصر الشمالية «سوريا» - والتى كانت هدفاً إستراتيجياً مهماً لها، وأيضاً مملكة الميتانى - إذا ما تصدت لها مصر بقوتها العسكرية وسيطرتها ونفوذها ووجود الحكام الموالين لها فى المنطقة. وقد تلاقت هذه القوة الصاعدة فى آسيا مع أطماع إسرائيل وحلفائها من قبائل «العابيرو» فى أن يكون لهم وطن فى المنطقة الجنوبية «فلسطين»، وإذا كنا لا نعلم التفاصيل الكاملة أو طبيعة الاتفاق الذى حدث بين الطرفين، وهل تم بينهما بصورة مباشرة أم من خلال الأمراء أعوان الحيثيين

فى سوريا، إلا أن الوثائق تؤكد أن الأحداث التى فرضت على المنطقة كانت موجهة بحيث تؤدى حتماً إلى تحقيق نتيجة هى أن تكون سوريا للحيثيين وفلسطين للعبرانيين.

وقبل أن نعرض أدلة المؤامرة الإسرائيلية على ضياع النفوذ المصرى فى آسيا وتقسيم الملتكات المصرية من خلال وثائق الخارجية المصرية التى أدارها الموظفون التابعون لهم فى القصر ومندوبو الفرعون فى المستعمرات، نتساءل فى ذهول، كما تساءل تماماً الأمراء الموالون لمصر عن سبب امتناع مصر عن نجدتهم وتقديم المساعدة ويد العون لهم، وترك ممتلكاتها تسقط حتى دون أن تكلف نفسها عناء الرد على رسائلهم، فى تأكيد على أن ما يجرى كان مقصوداً، ومن فعل أشخاص كان يعنيهم فعلاً سقوط النفوذ المصرى.

فمن ذا الذى يتصور أن مصر كانت لا تملك دفعاً لقبائل من البدو تزحف على ممتلكاتها؟

ومن ذا الذى يتصور أن مصر عاجزة عن نجدة أصدقائها وحلفائها؟

ومن ذا الذى يتصور أن المخابرات المصرية وأجهزة الاستطلاع لديها لم تعد قادرة على تبين حقيقة ما يجرى فى المستعمرات وتحديد الخائن والكاذب من المخلص والصادق الذى يعمل لمصلحتها؟

ماذا كانت تفعل المراكز العسكرية المصرية فى آسيا؟

كان الأمر غريباً على مصر من كل الوجوه، ولكن الغريب أيضاً أن يقبل رؤساء إسرائيل الذين آلت إليهم قيادة مصر فى المرحلة الآتونية (عهدى أمنحوتب الثالث وإخناتون) التنازل عن الممتلكات المصرية الخارجية باعتبارها مصدراً مهماً من مصادر الثروة التى تصب فى نهاية الأمر لصالحهم، ولكن الأمر يصبح واضحاً إذا عرفنا أن المقابل كان أكبر وأعظم بكثير من هذا الاعتبار؛ إنه إقامة وطن دائم لهم فى الأرض الموعودة فلسطين، والتى كانت آنذاك الجزء الأكثر أهمية من الملتكات المصرية باعتبارها الامتداد الطبيعى لحماية حدودها الشمالية بعد طرد فلول الهكسوس والقضاء على الدويلات التى تتصل بهم، وما كان يمكن لمصر أن تتنازل بهذا الأسلوب المتخاذل المهين عن الإمبراطورية العظمى التى أقامتها بجهود ملوكها الفاتحين العظام، وبعد سنوات من الكفاح المرير والحروب الطويلة والتى أريقت فى سبيلها دماء جنودها البواسل، ولقد كان النظام الإدارى والعسكرى الذى وضعه الملوك الفاتحون لحماية المستعمرات قوياً محكماً منظماً يصعب اختراقه، ولولا المؤامرات التى دبرت واتفاق الغدر والخيانة لبقيت مصر تملك مستعمراتها وتسود العالم القديم، ونترك وثائق الخارجية المصرية تقدم الأدلة على أسباب الانهيار والنتائج التى ترتبت عليه.

المؤامرات الخارجية والآثار التى ترتبت عليها

ذكرنا سابقاً أن وثائق تل العمارنة كشفت أن بدايات تدهور النفوذ المصرى فى سوريا وفلسطين واكبت فترة حكم «أمنحوتب الثالث» وأن الحاكم المصرى فى سوريا مندوب فرعون

ورئيس الجنود والحاميات المصرية كان يحمل اسماً سامياً وهو «يانخام» أو «إيان ـ حام»، وقد كان هذا القائد موضع ثقة الفرعون، ولاحظنا من رسائل الحكام الموالين لمصر إلى الفرعون أن هذا الحاكم هو المسئول الأساسى عن زحف الأعداء والأمراء الخائنين واستيلائهم على الممتلكات المصرية والإمارات الموالية لها، بسبب موقفه السلبى وعدم تحركه للدفاع عنها، وإهماله طلب النجدة من مصر لدفع الأخطار المحيطة، بل الأدهى سحب الجنود من الحاميات المصرية.

وقد استمر وجود هذا الرجل واحتلاله لنفس المنصب فى عهد إخناتون.

وداخل البلاط المصرى فى «آخت آتون» كان الموظف المسئول عن الشئون الخارجية، وتلقى اتصالات المستعمرات رجلاً يحمل هو الآخر اسماً سامياً يفصح عن انتمائه إلى أصل إسرائيلى، إنه «دودو» السند العظيم للملك بين رجال البلاط، والذى كان يلقب بالفم الأعلى للملك إخناتون وخادم حجرته الخاص. ويعتقد المؤرخون أن هذا الرجل من أصل سورى، ولتأصيل هذا الاسم وإثبات انتمائه إلى القومية السامية الإسرائيلية ندلل على ذلك من أنه ورد مذكوراً في التوراة (سفر صموئيل الثانى: ٢٣) ضمن أشخاص ينتمون لإسرائيل «العازار بن دودو بن أخوخى، أحد الثلاثة الأبطال الذين كانوا مع داود» (آية ٩)، واسم «والحانان بن دودو من بيت لحم» (آية: ٢٤).

وقد صور «دودو» فى مقبرته التى أهداها إليه الملك فى «آخت آتون» ـ بدون أسرته ـ وألقابه فى قبره هى: تشريفاتى سيد الأرضين، الخادم الأول للفرعون، المشرف على أعمال الملك، مدير أعمال كل جلالته، والمشرف على كل الفضة والذهب، والمشرف على الخزانة فى معبد آتون فى «آخت آتون»، الفم الأعلى لكل الأرضين، والخادم الأعظم لفرعون، والتابع الأول، وفى نقش على جدران قاعة الدفن وصف نفسه بأنه كبير حجاب الفرعون، «المسئول الأول عن شئون المستعمرات. وصور وهو يتلقى آيات التشريف والمكافآت التى منحت له من الملك، ونجد أيضاً صوراً لأفراد يحملون ملامح سامية ويحتفلون بتكريم «دودو».

وكان أمراء سوريا وفلسطين يرون أنه هو الذى يفصل فى رسائلهم، كتب إليه «عزيرو» حاكم أراضى «الآموريين» التابعة لمصر يطلب إليه إرجاء سفره إلى البلاط المصرى؛ لأنه كان مضطراً لاستقبال ملك خيتا، وكان دودو قد أصدر إليه الأمر بالحضور، ونلاحظ أن عزيرو فى هذا الكتاب لم يجد حرجاً من إبلاغ «دودو» بأمر استقباله أحد خصوم مصر، رغم أننا نعلم من خطاب سابق أن الفرعون سبق أن وبّخه لأنه استقبل رسل «ملك خيتا». وقد كان أول هجوم قامت به خيتا على شمالى سوريا فى عهد ملكهم «شوبيليوليوما» وهو ما جاء ذكره فى وثائق «بوغازكوى» عاصمة الحيثيين، وقد حدث هذا فى عهد «أمنحوتب الثالث»، بيد أن هذا

لم يمنع ملك خيتا من أن يرسل خطاباً ودياً لأمنحوتب الرابع (إخناتون) يهنئه بتولى الحكم.

ونستطيع أن نستخلص من خطابات «تل العمارنة» أن «دودو» - هذا الشخص الذى شارك «إيان ـ حام» (ينخام) فى أصله السامى - قد اشترك معه أيضاً فى لعب الدور المشين الذى كشفته الخطابات المتبادلة بين الفرعون وأمراء آسيا مما أدى إلى سقوط الإمبراطورية المصرية، وكان «دودو» هو الذى يتلقى الرسائل باسمه نيابة عن الملك، بل إن بعض رسائل «تل العمارنة» أرسلت إليه شخصياً وحملت اسمه، وكثير من الرسائل يوضح قوته الخفية فى السيطرة على مكتب إدارة المستعمرات المصرية، ومن نص رسالة كتبها «عزيرو» حاكم آمورو إليه يقول فيها: «إلى دودو مولاى وأبى، هكذا يكتب إليك عزيرو، ابنك وخادمك، أنحنى تحت أقدام أبى متمنياً أن يكون على ما يرام، تعلم أنك بمصر بمثابة الأب لى. ومهما كانت رغبات دودو أبى، اكتب إلى وسأقوم بتنفيذ كل ما تأمر به، تعلمون أنك أبى ومولاى، وأنى ابنكم وكل أرض آمورى هى أرضكم وأن منزلى منزلكم، وأية رغبة تراها اكتب إلى عنها وتعلمون أنى لا بد وأن أحقق رغبتكم، وتعلمون أنكم تقابلون مولاى الملك، وأن المعادين لى قد تحدثوا حديثاً مغرضاً عنى أمام مولاى الملك وأن بإمكانكم تصحيح كل الأحاديث المحرّفة ضدى، ولكن إن كان مولاى لا يتقبلنى ويكنُّ لى الكراهية، فما الذى يمكننى قوله حينئذ؟»

ومن هذه الرسالة وكثير غيرها سوف يتضح أن «دودو» كان الموظف المسئول فى البلاط الفرعونى عن تلقى رسائل المستعمرات، وهو من قصد إخفاءها عن الفرعون وضرب حجاباً كثيفاً بينه وبين الحقائق المؤلمة التى كانت تواجهها إمبراطوريته العظيمة، ولهذا لم تحظ هذه الرسائل بأية عناية من الفرعون ولا باستجابته. وفى إحدى الرسائل وصلت الحال بالكاتب إلى حالة من اليأس بعد إدراكه أن رسائله لا تبلغ إلى مسامع الفرعون، ويصف حالته بأنه يخشى من أنه ربما أصبح يتحدث مع نفسه بلا مجيب، فاختتم رسالته برجاء مرير يقول فيه: «وإننى فى وحدتى أدافع عن حقوقى .. فماذا على أن أفعل؟ اسمعنى وأرجو ألا ترفض .. هناك أناس فى حاشية الملك أليس كذلك؟ استمع إلى .. ترون أننى كتبت إلى القصر ورغم ذلك لم يصغ إلى أحد».

وبعد سلسلة متعاقبة من الهجمات دفعت السكان إلى النزوح من بلادهم وهجر ديارهم تقول إحدى الرسائل: «ولكن مما لا شك فيه أن أبناء عبدو ـ عشرتا، العبد الكلب استولوا على مدن الملك وعلى مدن نوابه وبالطريقة التى تروق لهم .. وتحت وطأة تلك الأحوال فإن قلبى يحترق .. إنهم يبذلون كل طاقتهم فى الإجرام وانتهاك الحرمات».

وعبدو عشرتا الذى تشير إليه الرسالة السابقة، هو والد «عزيرو» صديق «دودو» أو عميله فى سوريا، وقد نجح بمسلكه المخادع والمنافق لمصر فى الاستيلاء على كثير من المدن فى حوض العاصى وأواسط سوريا، وكان يبعث الرسائل إلى مصر يكذب كل ما يتهم به ويسرف فى إظهار الخضوع، وبعد وفاته سلك ابنه «عزيرو» مسلكه.

وقد كتب الحاكم «ريب أدى» أمير «بيبلوس» (جبيل) الموالى لمصر إلى إخناتون يطلب نجدته من «عزيرو» ويذكره بالماضى قائلاً: «كان حكام كنعان إذا رأوا جندياً مصرياً ولوّا الأدبار، أما الآن فإن أبناء عبدو ـ عشرتا يستخفُّون بالمصريين ويهددوننى بأسلحة فتاكة»، وكتب نفس الرجل مراراً إلى الفرعون المصرى دون أى اهتمام أو تحرك.

وكتب حاكم «تونيب» يردد نفس الشكوى مما يرتكبه عزيرو قائلاً: «مولاى ملك مصر، نحن أهالى تونيب أتباعك ندعو لك بالحياة ونقبل قدميك، إن أمتك مدينة تونيب تقول: من ذا الذى كان يستطيع أن ينهب تونيب دون أن ينتقم منه منخبريا (تحوتمس الثالث) ويفعل بالناهب ما فعل بها»، ثم يقول: «وليسأل مولانا شيوخ رجاله ليعرف إذا ما كنا نقول الحقيقة أم غيرها، إذا لم يدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن «عزيرو» سيصنع معنا ما صنعه فى مدينة «نى»، وحينئذ لن نبكى وحدنا بل سيبكى معنا أيضاً ملك مصر مما يرتكبه عزيرو من أعمال، لأنه سيرفع يده حينذاك ضد مولانا».

وتوالت الرسائل من تونيب دون أى اهتمام، وأخيراً كتب يقول: «إن مدينتك تونيب تبكى ودموعها تجرى، ولا ناصر لنا، أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نتلق رداً منه».

إن دراسة هذه الرسائل مع وثائق آسيوية أخرى، ومن النتيجة التى انتهى إليها أمر الممتلكات المصرية فى سوريا يتضح وجود اتفاق، فى جانب منه حكام آمورو: عبده ـ عشرتا ثم من بعده ابنه عزيرو وإخوته، وعدد من الأمراء الآخرين الموالين لهم، وأمير «قادش»، وخلفهم جميعاً يدفعهم ويساندهم ملوك خيتا، وفى الجانب الآخر قادة التآمر فى مصر يمثلهم «دودو» فى قصر الفرعون والقائد «ينخام» (إيان ـ حام) الحاكم المصرى من قبل الفرعون فى آسيا، ونستخلص من الأحداث الواقعة أن مضمون الاتفاق تمثل فى سحب النفوذ المصرى لصالح تدعيم الوجود الموالى للحيثيين فى سوريا، وهو الأمر الذى شجع «عزيرو» على المضى فى زحفه، وضم إليه أمير صيدا واستولى على الممتلكات المصرية فى أواسط سوريا وفى منطقة الساحل، وظل يرسل خطاباته المخادعة إلى إخناتون يدعى ولاءه فيها، وأنه يستولى على المدن ليحميها من الحيثيين، بل إنه ذهب فى زيارة إلى الملك فى مصر وعاد آمناً ليواصل أطماعه التى تبين فيما بعد أنها كانت تتم بتحريض من الحيثيين، فقد توسعت مملكة آمورو من وسط سوريا، وبسطت سيادتها على الساحل الفينيقى من جبيل حتى أوجاريت، ثم تحالفت مع أوجاريت التى كانت قد استسلمت بالفعل لسيطرة الحيثيين.

وعلى الرغم من كل خطابات النجدة لم يتحرك إخناتون، وعندما أرسل حملة إلى سوريا فى العام الحادى عشر من حكمه بقيادة «خانى» بن «مرى رع» كاهن آتون لاستطلاع الأمر، تصرف هذا القائد بطريقة غريبة جداً، ولكنها تؤكد جوانب المؤامرة، ذلك أنه ثبت «عزيرو» ملك آمورو فى الأراضى ومناطق النفوذ التى انتزعها من مصر، الأمر الذى يعنى اعترافاً منه بالأمر الواقع، وعادت هذه الحملة فى العام الثانى عشر من حكم الفرعون ومعه بعض الساميين ادعى أنهم أسرى، ولم يكن من بينهم

أسير واحد من «الحيثيين» كما حملوا بعض الغنائم غير العظيمة، ولم تحدث هذه الحملة أى أثر وما كادت تعود حتى عادت رسائل الأمراء الشاكية أكثر من ذى قبل.

وبدون الخوض فى التفاصيل الكثيرة فى محتوى رسائل تل العمارنة فإن الأوضاع فى المنطقة الشمالية أسفرت أخيراً عن سقوط دولة ميتانى - حليفة مصر - تحت ضربات الحيثيين والآشوريين المتوالية، وأصبح ملك خيتا فى أوج قوته، ثم تقدم لاجتياح مناطق النفوذ المصرى، وسيطر على غرب سوريا كله حتى وصل إلى مدينة قادش الحيوية التى كانت حصناً للقوات المصرية الميتانية، والتى ظل الملك تحوتمس الثالث فى حياته يفخر دائماً بأنه غزاها.

وبلغت الأزمة السورية ذروتها عندما أفصح شوبيلو ليوما - ملك الحيثيين - عن أطماعه فى مملكة آمورو، وبعد أن استغل عزيرو كثيراً فى تنفيذ خططه وتأليب الأمراء ضد مصر، ودفعه إلى الاستيلاء وضم المناطق الساحلية، أرسل إليه حملتين عسكريتين وأجبر مملكة آمورو على الخضوع له، وولى ابناً له ملكاً على «حلب» وابناً آخر ملكاً على «قرقميش»، وأجبر «عزيرو» حاكم آمورو على التحالف معه، فقدم له فروض الطاعة، ووضع نفسه مرغماً تحت سلطانه وبقى على هذه الحالة حتى وفاته.

وبعد استيلاء الحيثيين على آمورو وقادش وفينيقيا انفصمت عرى الصداقة الظاهرية التى حاول ملك خيتا أن يحافظ على وجودها مع مصر، وأصبحت البلدان فى حالة حرب، وجاءت آخر الرسائل من كاتب بالجبهة الأمامية السورية إلى مصر تقول:

«كل الأراضى من جبيل (بيبلوس) إلى أوجاريت انتزعت من يدى سيدها - ملك مصر» والتهمتها الإمبراطورية الحيثية التى أصبحت القوة العظمى الجديدة فى الشرق الأدنى القديم.

وبضياع آمورو وقادش فقدت مصر ولاية سوريا بكاملها بعد أن خضعت لمصر فترة طويلة من الزمن، ولم تتمكن مصر بعدها أبداً من السيطرة عليها بصفة دائمة أو كاملة، وقد لخص «توت عنخ آمون» الموقف بعد إخناتون فى المنشور الذى أصدره بعد ولايته العرش وقال فيه:

«عندما أرسلت الجنود إلى بلاد فينيقيا لأجل مد حدود البلاد المصرية لم يكن فى استطاعتهم الوصول إلى نتيجة».

وأيضاً رغم صراع سيتى الأول وابنه رمسيس الثانى والحروب المريرة التى خاضاها لاستعادة قادش وآمورو فى عصر الأسرة ١٩، فإنهما لم يتمكنا من ذلك أبداً.

وأما على صعيد المنطقة الجنوبية من المستعمرات حيث أرض كنعان (فلسطين) فإنها كانت تتكون من عدد من الإمارات، جميعها موالية وخاضعة لمصر، وشكلت هذه المنطقة الجانب الآخر من المؤامرة التى انعقدت بين الموظفين الساميين الذين يمثلون إسرائيل فى مصر، وبين قادة الحيثيين القوة الصاعدة الجديدة والمؤثرة فى الشرق، تلك المؤامرة التى تنازل فيها رؤساء إسرائيل عن الولايات الشمالية من مناطق النفوذ المصرى: سوريا والساحل الفينيقى لدولة خيتا الكبرى مقابل اعترافها وتعهدها بعدم الاعتداء أو التعرض واحترام قيام وطن فى فلسطين وشرق فلسطين (الأردن) يضم

القبائل البدوية العبرانية التى كانت تعيش متفرقة فى شرق الأردن وجنوب فلسطين فى الشمال الغربى لبلاد العرب (أرض مدين)، بالإضافة إلى بنى إسرائيل فى مصر، وربما عقد الإسرائيليون والحيثيون تحالفاً سرياً بينهما على أن يعاون كل منهما الآخر فى رد أى اعتداء أو محاولة من مصر مستقبلاً لاستعادة مناطق نفوذها فى آسيا. وبينما كانت جيوش خيتا -سواء بنفسها أم بمعاونة الأمراء التابعين لها - تفرض سيطرتها على الولايات الشمالية فى سوريا وفينيقيا، كانت جموع قبائل «العابيرو» باتفاق وتحريض ومساعدة قبائل إسرائيل فى مصر تزحف وتهاجم وتحتل الأراضى الفلسطينية وشرق الأردن لإقامة وطن دائم ومستقر لهم عليها.

وتأتى باكورة الأخبار التى وصلت إلينا عن زحف الخابيرو (العبرانيين) فى خطابات تل العمارنة التى أرسلها «ريب آدى» أمير جبيل (بيبلوس) إلى الفرعون، وفى تأكيد على أن ذلك التحرك كانت بدايته منذ عهد «تحوتمس الرابع» الذى ذكرنا أنه وصل إلى العرش نتيجة مؤامرة إسرائيلية، فقد كتب أمير جبيل يقول للفرعون أمنحوتب الثالث: «منذ ذلك اليوم الذى غادر فيه والدكم «صيدا» وأظهر فيه عطفه على بلاد «خبيرى» لم يعد فى استطاعتى أن أحصل على شىء».

ثم تواصلت الرسائل المفعمة بالشكوى عن هجوم هذه القبائل على البلاد وما تحدثه من أضرار جسيمة واستيلاء على الأراضى، استمرت طوال عهدى أمنحوتب الثالث وإخناتون، الأمر الذى اضطر الأمراء الموالين لمصر إلى طلب المعونة والمدد، ووصلت فى آخر الأمر إلى الاستغاثة فى طلب النجدة بعد أن أصبحت كل الإمارات على وشك الإفلات من سيطرة الفرعون.

وتكشف الرسائل أن قبائل البدو الخابيرو المقيمون فى شرق الأردن قد أغاروا على فلسطين من كل جانب، وتم لهم الاستيلاء على حصن «مجدو» القاعدة العسكرية المصرية القوية منذ عهد تحوتمس الثالث، والذى كانت حملته العسكرية وانتصاره فيها من أبرز إنجازاته، ثم أخذ الخابيرو يهددون أورشليم حتى سقطت بدورها، وتواطأ حاكم مدينة «شكيم» ويدعى «لابآيو» هو وأولاده مع قبائل الخابيرو وسمح لهم بدخول مدينته، وهاجم معهم مدينة «جازر» وغيرها من المدن الفلسطينية حتى وصل إلى الجنوب واستولى على غزة، وجأر الحكام بالشكوى منه إلى أمنحوتب الثالث، ثم إخناتون ولكن «لابآيو» كتب إلى الفرعون مخادعاً: «إلى الملك مولاى وشمسى يقول لابآيو خادمك والتراب الذى تطأ عليه، أجثو على قدميك سبعاً وسبعاً» ثم تنصل فى رسالته من كل ما نسب إليه وادعى أنه كان يدافع عن مدينته، وختم رسالته بعبارات الخداع والنفاق للملك، وبعد وفاة هذا الأمير مقتولاً من أعدائه انتقاماً منه، خلفه فى نفس الأسلوب ولداه اللذان تحفزا للأخذ له بالثأر وتعاونا مع قبائل الخابيرو التى كانت تدين لوالدهما بالطاعة، فتوغلت هذه القبائل فى البلاد ناهبين الأماكن وفارضين الجزية على مدن الساحل من غزة حتى عسقلان، وكان الحاكم المصرى فى فلسطين آنذاك هو القائد السامى «يانخام» (إيان ـ حام) الذى اتخذ تصرفاً غريباً، فقد سحب جنود بعض المعاقل إلى غزة عند الحدود المصرية وقت أن كان الخابيرو يتوغلون فى البلاد بقضهم وقضيضهم، وترك أمراء المدن التابعة لمصر

يدافعون عن كيانهم بأنفسهم، ففى أورشليم جاهد حاكم المدينة «عبدو خيبا» ذا الأصل الحورى أن يصد هجوم قبائل الخابيرو، وفعلت ذلك أيضاً مدن أخرى.

ومن أجل التباس المواقف على الملك إخناتون فيما يحدث فى فلسطين توالت رسائل النفاق المتناقضة بحيث لا يمكنه أن يعرف منها المخلص من المخادع.

فكتب إليه أحد الحكام يشكو حاكم أورشليم «عبدو خيبا» ويقول له: «إذا كان «لابآيو» قد مات فقد ظهر بدله عبدو خيبا».

وبعث عبدو خيبا برسائل تفيض بالولاء للملك والشكوى من جيرانه ومن الخابيرو، ويخبره بأنه عمل كل ما فى وسعه، ولكن تخلى الكل عنه، وكرر فى رسائله قوله: «إذا توانى الملك سيدى فى إرسال قوات فإن كل ممتلكاته ستقع فريسة فى يد قبائل الخابيرو»، وفى أحد الخطابات كتب ملاحظة إلى سكرتير إخناتون قائلاً: «اشرح هذا إلى الملك بوضوح: البلاد كلها عرضة للفناء».

ولكن فى النهاية تبين أن «عبدو خيبا» ظل تابعاً موالياً لمصر ومخلصاً فى الدفاع عن أورشليم قدر جهده، فبعد أن توالى سقوط المدن الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى تحت هجوم جحافل قبائل الخابيرو، انتهى الأمر إلى أن أصبح عبدو خيبا محصوراً فى أورشليم وساءت حالته، وكتب إلى الفرعون يرجوه إذا لم يكن فى استطاعته إرسال جيش لإنقاذه أن يرسل فى طلبه هو وأسرته حتى يموت بجوار سيده الفرعون.

فتلت قبائل العبرانيين الأمراء بدرجة عظيمة حتى صارت مدن الولايات الفرعونية لا ولاة لها، واكتظت المدن الفلسطينية بقبائل الخابيرو وأصبحت معادية لمصر، وعجز القائد يانخام عن القيام بأى عمل، أو الحقيقة أنه تعمد ذلك وربما سعى إلى حدوثه، ولا أستبعد أن تكون المؤامرة قد استكملت أركانها بقيام شيوخ إسرائيل بتزويد تلك القبائل بالسلاح والعتاد والمال من مصر لإنجاح مهمتهم.

وقبل أن ينتهى حكم إخناتون كانت السيادة المصرية قد تفككت عراها، واستمرت السياسة الخارجية المتدهورة خلال عهود خلفاء إخناتون الأقربين: سمنخ كارع، وتوت عنخ آمون، وآى ولم يجد جديد عليها إلا بعد ولاية حورمحب.

وقبل رصد الآثار التى ترتبت على هجرات قبائل العبرانيين إلى فلسطين، يجدر أن نذكر أن قادة التآمر وهم بنو إسرائيل فى مصر الذين خططوا ونفذوا لوقوعه، فإنهم خرجوا منه خاليى الوفاض، دون أن يجنوا أية ثمار، فقد سقطت الآتونية، وبعدها بسنوات قليلة سقط الملك «آى» زعيم بنى إسرائيل فى مصر، وانكشفت مؤامراتهم وسقطوا جميعاً فريسة للاضطهاد والتعذيب، وظلوا كذلك حتى جاء لهم الخلاص فى رحلة الخروج مع موسى عليه السلام.

أما الآثار التى ترتبت على هجرات العبرانيين فقد ظهرت فى العصور التالية اللاحقة بقيام ممالك عبرانية مستقلة ومتفرقة؛ ذلك أن العقد قد انفرط بعد سقوط القيادة المتمثلة فى شيوخ إسرائيل فى مصر إثر سقوط الآتونية، فأقام كل شعب إمارته أو مملكته على الجزء الذى استطاع أن ينتزعه وكان

محلاً لهجرته، ونستطيع من المصادر أن نرصدها فى المظاهر التالية:

١ـ قيام مملكة الآدوميين الذين ينسبون إلى «آدوم» وهو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم، ويقع وطن الآدوميين فى أقصى جنوب شرق الأردن وجنوب وادى الحسا إلى الطرف الجنوبى من البحر الميت، وتطلق التوراة على هذا الإقليم اسم سعير، وتذكر أن الآدوميين قد طردوا الحوريين وسكنوا مكانهم [التثنية ـ الإصحاح الثانى: ـ ٢٢]، وكانت «سالع» عاصمة «آدوم» وقد تم تغيير اسمها إلى «البتراء» والاسم العربى للبتراء هو «الرقيم».

وقد رصدت حروب رمسيس الثانى فى حملة السنة السابعة من حكمه وجود مملكة آدوم كإحدى الممالك الفتية التى بدأت فى الظهور، ورفضت السيادة المصرية فغزاها فى حملته مع ممالك أخرى وأخضعها للنفوذ المصرى.

كما رصدت التوراة فى رحلة خروج بنى إسرائيل من مصر وجود مملكة «آدوم» ومرورهم عليها، واعترفت بها، وذكرت أن الرب حرم عليهم أرضها، يقول لهم موسى: «كلمنى الرب قائلاً: كفاكم دوران بهذا الجبل، تحولوا نحو الشمال. وأوصى الشعب قائلاً: أنتم مارون بتخم إخوتكم بنى عيسو الساكنين فى سعير فيخافون منكم فاحترزوا جداً. لا تهجموا عليهم. لأنى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأنى لعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثاً» (التثنية ـ الإصحاح الثانى: من ٢ ، ٥).

٢ـ قيام مملكة المؤابيين، وينسبون طبقاً لرواية التوراة إلى مؤاب بن لوط عليه السلام وهم من الشعوب التى تتصل بالعبرانيين عن طريق لوط ابن أخى إبراهيم عليه السلام، وكانت راعوث جدة داود امرأة مؤابية، [سفر راعوث].

ويقع إقليم المؤاب شمال وادى الحسا، الذى يفصله عن آدوم، ويمتد شرق البحر الميت حتى الصحراء، وإلى الشمال منها يقع نهر أرنون، ولغتهم شبيهة فى رسمها وقواعدها باللغة العبرية، وعاصمتهم «ديبون».

وقد سجلت الحملة العسكرية لرمسيس الثانى إلى فلسطين فى العام السابع من حكمه، وجود مملكة مؤاب التى تلى البحر الميت مع مملكة «آدوم» من الممالك التى بدأت فى الظهور ورفضت أيضاً السيادة المصرية، فغزاها الفرعون وأخضعها لمصر.

كما رصدت التوراة فى رحلة الخروج وجود مملكة مؤاب واعترفت بحقها فى أرضها التى طردوا منها «الإيميين» «فقال لى الرب لا تعاد مؤاب ولا تثر عليهم حرباً لأنى لا أعطيك من أرضهم ميراثاً لأنى لبنى لوط قد أعطيت ميراثا. الإيميون سكنوا فيها قبلاً» (التثنية ـ الإصحاح الثانى ٩ ، ١٠).

٣ـ قيام مملكة العمونيين، وينسبون بحسب التوراة إلى «بنى عمى» بن لوط، وتقع أرضهم فى الشمال الشرقى من مؤاب فى الإقليم الأعلى من «يبوق»، وعاصمتهم «ربة عمون» فى موقع تشغله حالياً «عمان» عاصمة الأردن التى ما زالت تحمل اسماً قريباً من الاسم القديم، وقد أقاموا دولتهم بعد طرد الرفائيين منها.

ورصدت التوراة فى رحلة الخروج وجودهم واعترفت أيضاً بحقهم الإلهى فى أرضهم، وقال موسى لبنى إسرائيل كلمنى الرب قائلاً: «فمتى قربت إلى تجاه بنى عمون لا تعادهم ولا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيك من أرض بنى عمون ميراثاً» «سكن الرفائيون فيها قبلاً» (التثنية ـ الإصحاح الثانى: ١٩ ، ٢٠).

٤ـ مملكة المديانيون: وهم أهل مدين وتحدث عنها القرآن الكريم، وتنسب إلى مديان أحد أولاد إبراهيم عليه السلام من زوجه قطورة الكنعانية، ولم يحسب المديانيون على العبرانيين، وإنما اعتبروا قوماً عرباً، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة استقرارهم القديم السابق على الهجرات العبرانية فى أرضهم التى تقع شمال بلاد العرب فى أطراف الشام، وتمتد من خليج العقبة إلى مؤاب، ويبدو أنهم توغلوا فى المناطق الجنوبية لفلسطين، وقد أرسل الله تعالى إليهم شعيباً نبياً، وذهب إليها موسى فى رحلة خروجه الأولى بعد الهروب من مصر وتزوج هناك، حيث عاش فترة من حياته قبل أن يأمره الله بالعودة إلى مصر.

سقوط الآتونية

توفى إخناتون أو اختفى فى السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من حكمه، وكان فى نحو الثلاثين من عمره، أى بعد ثلاث عشرة سنة كاملة من إعلان ثورته الدينية، ولا نعلم عنه أى شىء بعد ذلك. هل تعمد الهرب بعد أن أشرك أخاه سمنخ كارع معه فى الحكم تاركاً له استقرار أمور الدولة والعرش، وعاش فى مكان خفى بعيد عن أعين كهنة آمون المتربصين له والراغبين فى الانتقام منه ومحوه وكل أثر لديانته من الوجود؟

هل دفن فى المقبرة التى أعدها لنفسه فى الصحراء شرق تل العمارنة؟ لا توجد معلومات تدل على شىء، ولكن عثر على التابوت الذى أعده لنفسه ونقش عليه ألقابه ودعوات قصيرة إلى آتون، وأيضاً لا نعرف ماذا لحق بزوجته الطيبة الجميلة نفرتيتى؟ يرى بعض العلماء أنها ظلت وحيدة فى تل العمارنة، ويرى البعض أنها رجعت إلى طيبة وعاشت بجانب أبيها «آى».

وبعد سقوط إخناتون انتهت الآتونية، عقيدة التوحيد كديانة رسمية لمصر، وأغلقت معابدها ثم هدمت بعد ذلك، واستردت المعابد الوثنية أموالها كاملة، وقدم لها الملك الجديد «توت عنخ آمون» كل آيات التبجيل وخالص عبارات الاعتذار عما فعله بها الملك «المارق» إخناتون.

ولم تكن الآتونية فى حاجة إلى اختفاء إخناتون لكى تسقط رسمياً، والغالب أن العكس كان هو الصحيح، وأن التيارات المعادية الجارفة من كهنة المعابد والتى قادها كهنة آمون هى التى وضعت نهاية إخناتون وعجلت بسقوطه، وربما أنه نفسه حاول التراجع بعد أن عجز عن مواجهة المد المعادى، ولم يكن إشراك «سمنخ كارع» معه فى الحكم سوى عزل له أو اعتزال عن العرش، بعد أن أصبح وجوده غير مقبول من الكهنة.

وفى تقديرى أن السبب الرئيسى لسرعة سقوط دعوة إخناتون الدينية كان راجعاً إلى إغلاقه لمعابد

الآلهة ومصادرة أموالها والذى دفعه إليه أخواله كهنة هليوبوليس رؤساء بنى إسرائيل، فقد أغراهم وشجعهم النجاح المتلاحق وسيطرتهم على مناصب الدولة العليا وقيادات الجيش والشرطة، واعتقدوا أن مصر جميعاً خضعت لهم، ولكن هذه الخطوة بالذات جاءت غير محسوبة، فقد ترتب على ضم ممتلكات الكهنوت إلى أملاك التاج تزايد المركزية الإدارية وسلطتها التنفيذية المتمثلة فى أجهزة الدولة العسكرية والإدارية، التى عينوا أقاربهم وأعوانهم على قيادتها، وقد جاء الاستغلال والاستيلاء والاستحواذ على أموال الدولة والمعابد من جانب هذه القيادات الجديدة التى خرجت من أسرات عصامية غير عريقة، أو ذات أصول أجنبية أو تنتمى إلى مجتمعات أصبحت فقيرة أو متواضعة المستوى منذ حملة حتشبسوت الانتقامية على أعوان الهكسوس وتشريدهم. وترتب هذا الإحلال والتغيير فى قيادات المناصب الكبرى والوظائف المهمة فى مؤسسات الدولة على حساب مناطق نفوذ العائلات الإقطاعية القديمة، وسلباً من الوضع الاجتماعى الذى كان محتكراً لطبقة النبلاء والأشراف وتتوارثه أجيالهم منذ سنوات طويلة، وقد أدى هذا الأسلوب الجديد فى الاختيار إلى تفشى الفساد والمحسوبية، وبسبب دوافع قديمة مختزنة، وخوف من المستقبل، وأيضاً تحسباً لأمل الهجرة القادم كان طبيعياً أن يندفع هؤلاء الجدد إلى الاستحواذ واكتناز الثروات بكل الطرق، وهو الأمر الذى دفع حورمحب إلى التصدى لكل هذه الأوضاع - بحزم - فى وقت لاحق.

هذا إلى جانب تشييد العاصمة والمعابد الجديدة على حساب الاقتصاد بصفة عامة.

كما أن التخلى عن نظام الأملاك الإلهية قضى على شبكة متكاملة من الإنتاج وإعادة التوزيع فى ظل غياب هياكل جديدة بديلة، وأيضاً لم يكن الهدف صادقاً فى رد هذه الثروات إلى الشعب.

لقد اتضح أن تراكمات الماضى السحيق كانت أقوى من سطوة ونفوذ طبقة المسيطرين الجدد، وتغافلت عقولهم عن إدراك قوة ارتباط الدولة بموروثاتها وتقيدها بثقافاتها المستقرة وعقائدها القديمة الراسخة والمنتشرة. ومع اتساع وتشابك دائرة نفوذ الكهنة خرج عن حسابات المسيطرين الجدد وتقديرهم الآثار التى يمكن أن تترتب على مصادرة مساحة واسعة من النظام الاقتصادى فى الدولة، استمرت قروناً مرتبطة بتلك العقائد والإدارات الكهنوتية بالمعابد الكبرى والمحلية، أو أنهم حسبوا أن سيطرتهم على مؤسسات الدولة الإدارية والعسكرية يمكن أن تحتوى كل هذا القديم وتحتل مكانه؛ خاصة وأنهم اعتمدوا فى المقام الأول على أنه يساندهم ربيبهم وصنيعتهم ملك مصر الذى علموه وشكلوه منذ نعومة أظافره، فعاش معزولاً عن ثقافات المصريين ودياناتهم ولم يتعلم إلا ما أرادوا له أن يتعلمه.

إن النجاح الذى تحقق لهم وامتلاكهم الجاه والمال والنفوذ واتجاه آمالهم إلى فلسطين - وعد الله للأجداد وحلم الأحفاد - أعمى عقولهم عن استيعاب حقائق التراث المصرى القديم الضاربة بجذورها فى أركان الدولة وبالذات فى الجنوب الذى لم يعرف أى تغيير مؤثر منذ القدم، ومنه - وبالتحديد من معابد آمون - بدأ التحرك الذى قاد إلى سقوط الدين الوافد، ولم يتنبه كهنة الآتونية وشيوخ إسرائيل

إلى هذه الحقائق المصرية الظاهرة إلا بعد سقوطهم المريع والسريع أيضاً.

وكان يمكن لهذه الدعوة أن تستمر إذا استعمل إخناتون قدراً من المواءمة والملاءمة وأحاط بكل عناصر المجتمع، ولو أخلص أتباعه وفقهاؤه له النصيحة لاقتدى بحكمة يوسف – عليه السلام – وتريث حتى تنتشر رسالته ويكثر المؤمنون بدعوته، ويهجر القوم من ذاتهم المعابد الوثنية لتغلق أبوابها وتتهاوى صروحها، ولكنه تعجل مدفوعاً من كهنة الآتونية، فأحاطت بهم ظروف عظيمة موغلة القدم أسقطتهم جميعاً، فى حين أن هذه الظروف ذاتها كانت واضحة لنبى الله يوسف الذى تعلم فى معابد الكهنة وعرف تاريخ مصر وعقائدها، وآتاه الله حكماً وعلماً، وعندما بعثه ـ تعالى ـ قبل نحو ثلاثة قرون سابقة على إخناتون تمكن بعلمه وحكمته أن ينفذ بين الكهنة والشعب داعياً لرسالته دون انقلاب على النظم المستقرة، أو تغيير فى التقاليد الراسخة، وترك لانتشار عقيدته القيام بهذا الدور مع مرور الزمن، وليس أدل على حكمته فى الإدارة مما تحكيه التوراة من أنه بعد اشتداد الجفاف فى أرض مصر اشترى من الشعب أرضهم وصارت ملكاً لفرعون مقابل منحهم الطعام الذى كان قد خزَّنه فى سنوات الرخاء، ووضع لهم نظاماً أن يزرعوا الأرض وعند الغلة يعطون خمساً لفرعون والأربعة أجزاء تكون لبذار حقولهم وطعاماً لهم ولأولادهم (نظام المزارعة الحالى الذى يتبعه الفلاحون فى ريف مصر؛ يحسب بذار الحقل وجهد وتكاليف الزراعة على زارع الأرض، ثم توزع الغلة مناصفة بين المالك والزارع). إلا أن أرض الكهنة لم يشترها يوسف؛ إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون فأكلوا فريضتهم التى أعطاهم فرعون ولم يبيعوا أرضهم ولم تصر لفرعون [سفر التكوين ـ ٤٧ : ٢٠:٢٦].

بهذا الأسلوب فى التعامل الذى اتبعه يوسف – الرحمة والعدل مع الشعب والحكمة مع الكهنة، وعدم استغلال منصبه السياسى فى خدمة دعوته الدينية، وفصله بين الدين والدولة – حكم فى مصر، وأيضاً استطاع الدعوة إلى رسالته، ولهذا تحقق لها الاستمرار والانتشار بعد وفاته فى شرق وشمال مصر، وامتدت حتى مصر الوسطى، ونجحت رسالته، ومن حملوا لواء نشرها بعده فى غلق كثير من المعابد الوثنية، وإهمال شعائرها وأعيادها حتى اختفت فى هذه المناطق تدريجياً، أو تحول بعض هذه المعابد إلى معابد للتوحيد كان أهمها معبد «رع» إله الشمس فى هليوبوليس، واستمر وجود وانتشار عقيدة يوسف حتى جاءت حتشبسوت وشنت حملة انتقامية واسعة ضد القائمين عليها، وأصلحت المعابد المخربة وأعادت الآلهة الوثنية وكهنتها إليها وإلى المعابد التى كانت قد تحولت إلى التوحيد، وأمرت بإحياء الأعياد والطقوس القديمة التى كانت قد اندثرت.

ولكن للأسف فإن إخناتون الشاب الصغير الحالم، الموجه فى تربيته وتعليمه إلى هدف واحد بذاته، كان قليل الخبرة ودفعته مشاعره الغامرة لعقيدته نحو فرضها وإلغاء ما سواها، وأمكن استغلاله من هؤلاء المتدينين كهنة عين شمس، شيوخ إسرائيل الطامحين إلى عرش مصر ليحققوا من خلاله أهدافهم، والطامعين فى أموال المعابد لتدعيم قبائلهم ونفوذهم، والمتطلعين إلى إقامة وطن لهم فى فلسطين أهم المستعمرات المصرية والحصن الحامى لحدودها الشمالية، فأفقدتهم هذه العوامل إدراك

الحقائق المستقرة والظروف المحيطة. وفى الجانب الآخر ومنذ بدايات الهجرة إلى العمارنة وخلال سنوات الآتونية، تحركت قوى الكهنة المنبوذين، المخلوعين عن عروشهم يساندهم تحالف النبلاء والأشراف رجال الدولة والقصر السابقين أو أبناؤهم الذين يعتقدون بحقهم فى وراثة مناصب ونفوذ آبائهم، ومن خلال دائرة واسعة من العلاقات الاجتماعية المتوارثة والمتصلة ببعضها، (سليلى العائلات الكهنوتية والأسر العريقة من أقصى شمال مصر إلى النوبة فى الجنوب)، تشكلت بقيادة كهنة آمون الجبهة المضادة والمعادية للآتونية يجمعهم هدف واحد هو التخلص من إخناتون، الفرعون الكافر والقضاء على دينه وهدم عاصمته وتشريد حاشيته وأتباعه، واسترداد أموالهم ونفوذهم المسلوبين.

ومن الصعب أن نعين بالضبط مقدار ما أحدثه هذا الاتصال والتحرك من تعبئة واستنفار، ولكن نستطيع أن ندرك من خلال الأحداث أن الأوضاع انقلبت بشدة ضد إخناتون، وبلغ سيل الرافضين الزُّبى، واستدعت الأمور أن تأتى الملكة «تى» مهرولة من مقر إقامتها فى طيبة إلى ابنها فى عاصمة التوحيد. وبعد استعراض التطورات وجميع الظروف كان واضحاً أن الأمور أصبحت تحتم الانسحاب بعقيدة التوحيد إرضاء للكهنة، ومن الطبيعى أن يرتبط بقرار الانسحاب ضرورة وضع تدابير عاجلة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المغانم التى تحققت لشعبهم من نفوذ وثروات فى الداخل، وترتيب أوضاع المستعمرات فى الخارج التى تمهد لإقامة دولتهم فى فلسطين، وفى هذه الآونة وفى ظل وجود الملكة «تى» وقيادتها لشيوخ إسرائيل لم يكن من الممكن التضحية بابنها إخناتون، لذلك فقد حاولوا فى البداية أن يتراجعوا معه بسلام، وهو الأمر الذى أغضب بشدة نفرتيتى التى عاشت مخلصة لعقيدتها، وجعلها تهجر الملك والقصر الملكى، وفشلت محاولة الانسحاب تحت قيادة إخناتون لأنه كان مرفوضاً من الكهنة، ولم يعد موضعاً لثقتهم، فتقدموا بشقيقه الأصغر «سمنخ كارع» ليشاركه الحكم ويقوم بهذا الدور.

وأثناء هذه الظروف بالغة السوء لعقيدة التوحيد والآتونيين ماتت الملكة «تى» فى العمارنة، وقد كانت الحصن الأخير الذى يحمى إخناتون بسبب ما تتمتع به من احترام وتبجيل على صعيد الجبهتين: لدى كهنة آمون وأعوانهم منذ عهد زوجها «أمنحوتب الثالث»، ولدى كهنة آتون لقيادتها لبنى إسرائيل بعد «يويا». وبعدها انقلبت الأمور سريعاً وسقط عرش فرعون التوحيد وتهاوت دعوته، واختفى ومعه أعوانه كهنة الآتونية، وكبار موظفى القصر، وسواء أكان قتل أم هرب فإنه مات فى النهاية مغدوراً به، متخلياً عنه، وتحطمت حياته وهو بعد ما زال شاباً كان يرجو الكثير لدعوته، وبعده انتقم خصومه من جميع أسرته، وساعدهم جناح من قادة الجيش الطامعين الجدد فى السلطة، وقد كانوا من قبل حلفاء لإخناتون، والغريب أن «آى» خال الملك وصهره وقائد حرسه وذراعه الأيمن ورأس قادته، واليد الخفية والقوية وراء الحركة الآتونية، استطاع أن ينجو بنفسه من الكارثة مستخدماً أساليب من الغدر والتآمر ما زالت تفاصيلها غامضة. ويعتقد المؤرخون أنه عاون «سمنخ كارع» وحاول مساعدته على تجاوز الأزمة مع الكهنة هنا، لكن هذا الملك مات بعد سنوات قليلة فى ريعان شبابه، فى ظروف لم يكشف التاريخ بعد

عنها، وكانت الكهنة ضده ما زالت مستعرة للقضاء على الآتونية، وتكرر الأمر مع «توت عنخ آمون» آخر الورثة الشرعيين للحكم، وكان طفلاً فى الثامنة أو التاسعة من عمره، عندما رفعه «آى» على العرش بعد وفاة «سمنخ كارع»، وأصبح وصياً عليه، وحكم فى طيبة عاصمة الدولة ومقر آمون، وساعده «آى» على إنهاء الخلافات والتصالح بعد أن استسلم ورضخ لجميع مطالب الكهنة، وما أن اشتد عود الملك وتهيأ للحكم منفرداً وافته المنية فى ظروف غامضة وهو فى نحو التاسعة عشرة من عمره، وارتبطت وفاته بحادث سقوط من على مركبته، حسبما انتهت أحدث الأبحاث العلمية التى أجريت على مومياته، ووضعت وفاته أو بالأحرى اغتياله التى جاءت بعد عقد ونيف على سقوط إخناتون نهاية لهذه العائلة، واختفى جميع أفرادها حتى بنات إخناتون ولم يعد يعرف عنهم شيئ، وسجل التاريخ نهاية درامية حزينة لأعظم أسرات التاريخ المصرى التى قادت حروب التحرير والفتح، وأعلنت التوحيد وإلغاء الوثنية والذى كان السبب الرئيسى وراء سقوطها وإبادتها. وتكتمل الصورة الدرامية لنهاية الأسرة الثامنة عشرة عندما قام العجوز «آى بن يويا» حفيد إسرائيل وآخر الباقين من قادة التوحيد بإجراء طقوس التحنيط والدفن للفرعون الشاب المتوفى مؤكداً بذلك للشعب والكهنة - طبقاً للعقائد المصرية - أحقيته فى خلافته واستطاع أن يرث عرش مصر، ولكن لأسباب لا تزال تفاصيلها غامضة - وسوف نحاول التحرى عنها وإماطة اللثام عن الأحداث المصاحبة لها فى عرض مؤامرات ما بعد إخناتون - تمكن قائد الجيش حور محب من اكتشاف أمره وإسقاطه عن العرش، وخلفه فى حكم مصر، ووضعه ضمن قائمة «مجرمى آخت آتون» وفى عهده بدأت مرحلة الانتقام والاضطهاد من المؤمنين أتباع ديانة التوحيد ومعهم جميع بنى إسرائيل، وفى جميع القوائم الملكية فى العهود التالية لم يُعترف بملوك العمارنة من إخناتون إلى آى كملوك لمصر وأسقطت أسماؤهم منها، وإذا اقتضى الأمر الإشارة إليهم فى النصوص المصرية فإنهم اعتبروا مارقين وكفاراً ملعونين.

شهادة إلهية لإخناتون

وقبل أن نستكمل مؤامرات شيوخ إسرائيل بعد سقوط الآتونية، نحسب لإخناتون أنه كان صاحب رسالة صادقة، ومخلصاً فى دعوته إلى التوحيد، وحريصاً على الوصول بعقيدته إلى الشعب ونشرها فى أنحاء مصر، وأن هذه الدعوة - رغم أية ظروف غير واضحة - كانت حقاً وصدقاً تستند إلى جذور سماوية، قوامها أن إله الكون واحد وأنه يحاسب الناس على أعمالهم وضمائرهم، وترفض كل أشكال الوثنية، وقد حاولت فعلاً اقتلاعها من الأرض ولكن جذورها المتشعبة كانت عميقة وراسخة.

وإذا كان العلماء قد استغلوا وجود بعض مظاهر من التأثر

بالثقافات الدينية السائدة الموغلة القدم فى بعض آثار أنصار العقيدة الجديدة، أو كشفوا عن ابتهالات للآلهة المصرية القديمة فى قرية العمال بتل العمارنة فوصموا أتباعها إما بالتأثر بالديانات الوثنية، أو حكموا عليهم بأنهم ليسوا مخلصين، وأغلبهم منافقين ممالئون للملك، فهذا ليس تعبيراً عن واقع حقيقى، وإنما نتاج عدة عوامل تضافرت وأدت إلى هذا الاعتقاد الخاطئ، كان منها أن الفرصة التى أتيحت للآتونية فى عهد إخناتون لم تسنح ليقف الشعب على الطقوس الجديدة ويتخلص من العادات والتكوينات الهيكلية للمجتمع التى تعارض العقيدة الجديدة، وأيضاً فإن حقائق كثيرة عن هذه الديانة قد طمست مع وثائق العمارنة، وصحف العقيدة الآتونية التى تحمل مصادرها الأصيلة وبداياتها الأولى فى معبد عين شمس، والتى تعرضت جميعها للإبادة والتدمير بقسوة وعنف فى كل أماكن وجودها فى عهد حور محب ثم ملوك الأسرة الـ ١٩.

وعموماً، فإنه رغم الظروف السيئة التى تعرضت لها عقيدة التوحيد وأدت إلى سقوطها سريعاً كديانة رسمية لمصر، ورغم حملات الاضطهاد والتعذيب بل القتل التى تعرض لها أتباع هذه الديانة بعد إخناتون، فإن هذا لم يمنع أو يحول دون استمرار هذه العقيدة فى قلوب كثير من الناس الذين آمنوا بها بصدق؛ خصوصاً وأنها ذات جذور فى مصر بدأت مع دعوة يوسف، وكان لها أتباع كثيرون فى موقع نشأتها شرق الدلتا وفى الشمال وحتى وسط مصر، فإخناتون لم يبدأ من فراغ أو عدم، وعندما أنشأ مدينته وهاجر إلى تل العمارنة، وأقام المعابد لديانته فى أنحاء مصر كان معه أتباع يعدون بعشرات الألوف، ومن المؤكد أن عقيدة التوحيد لم يقض عليها وإنما استمرت فى وجدان المؤمنين بها من المصريين وبنى إسرائيل يمارسون عبادتهم فى الخفاء؛ خوفاً من بطش الفرعون وجنده بعد أن أصبحوا مضطهدين مطاردين لا حول لهم ولا قوة.

ونستخلص الدليل على استمرار وجود عقيدة التوحيد بعد إخناتون، وعلى إيمان أتباعها الصادق من آيات القرآن الكريم فى أول سورة القصص التى رصدت صورة عن أحوال مصر فى الفترة المعاصرة لميلاد موسى، وهى المرحلة التاريخية التى تأتى مباشرة بعد انتهاء عهد إخناتون، وآنذاك كان أتباعه قد دخلوا مرحلة الاضطهاد والتعذيب والانتقام منهم، بسبب دينهم، وقد جاءت الصورة القرآنية مؤيدة للمصادر التاريخية، فيخبرنا الله تعالى أن فرعون الذى حكم مصر فى تلك الفترة جعل أهلها شيعاً، استضعف طائفة منهم وأنزل عليهم شتى صنوف التعذيب والهوان، ونعلم من آيات قرآنية أخرى - على النحو الذى فصلناه فى موضع سابق - أن بنى إسرائيل الذين كانوا يعيشون فى مصر قد شملهم انتقام فرعون ضمن طائفة المصريين المستضعفين، ويقدم لنا الحق سبحانه شهادة إلهية واضحة لا لبس فيها ولا غموض على نقاء هذه العقيدة وصدق الإيمان بها فى قلوب أصحابها، نستخلصها جلية من رغبته فى نصرتهم والتمكين لهم، وذلك فى قوله تعالى: «**وَنرِيد أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ**

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)» [القصص].

المؤامرات الإسرائيلية بعد إخناتون

لا يمكن الجزم على وجه اليقين بتفاصيل أحداث الصراع التى عاشتها مصر سواء فى فترة حكم إخناتون والمؤامرات المتصاعدة التى أدت إلى سقوطه، أم التالية له والتى واكبت انتقال الحكم إلى خلفائه التاليين حتى استقر العرش لحور محب، وذلك لعدة أسباب:

١ـ أن آثار عصر إخناتون - ويأتى على رأسها المدينة التى أقامها فى العمارنة - قد تعرضت للتدمير والإبادة بوحشية وغيظ شديدين.

٢ـ أن الفترة التالية لعهده كانت فترة حساسة وحرجة فى حق ملوك جلسوا على العرش على التوالى سبق أنهم كفروا بالآلهة، واعتنقوا عبادة «آتون» الإله الواحد، ثم عادوا مقهورين من تل العمارنة راضخين للكهنة ومرغمين على الاعتذار للآلهة المصرية وتقديسها، وإذا كانوا ينتمون عائلياً للفرعون المارق، وشاركوه حياته فى سنوات الهجرة فإنهم وبعد أن أصبحوا ملوكاً للدولة لم يملكوا حريتهم فى التعبير عما حدث، وظلت صدورهم تخفى الحقيقة التى لا تملك ألسنتهم أن تنطق بها، وفى الاتجاه الآخر فإن الأمر لدى كهنة الوثنية لم يخل من حرص فى التعبير حتى يتم اجتياز تلك المرحلة الحرجة، فقد كفاهم نصراً أن هؤلاء الملوك عادوا ورضخوا واستسلموا، ولذا حتم الموقف الراهن عليهم، عند استخدام عبارات الرفض لما حدث، أن يحملوا المسئولية كاملة على المارق «إخناتون» لخروجه على عقائد الآباء والأجداد دون تجاوز عن هذا الحد، ولكن ما أن سقط ملوك العمارنة وانتهى عهدهم حتى نطق الناطقون من الملوك التاليين والكهنة، وزيفاً أنكروا جلوسهم على العرش ومحوا بجرة قلم فترة حكمهم ونعتوهم بالإلحاد وأبشع الصفات، وتلك أيضاً معلومات مضللة وغير محايدة؛ لأنها صادرة من أعداء حاقدين وتحمل تزويراً للتاريخ والحقائق، فلا يمكن الوثوق فيها أو الاعتماد عليها.

٣ـ أن صراع هذه الفترة كان صراع مؤامرات وتدبيرات خفية وليس سجالاً فى معارك حربية، لذلك فإنه لم يسجل على ألواح أو ينقش على جدران وصروح، وإنما دبرت المؤامرات فى الخفاء ونفذتها أيد تعمل فى الظلام خلسة وفى غدر وحرص على عدم كشفها، وتكشف طبيعة تلك الجرائم أن فاعليها اتجه قصدهم إلى قيدها حوادث عارضة كأنها من صنع القضاء والقدر أو نسبتها إلى مجهول، وقد يرجع ذلك إلى أن الفترة التالية لإخناتون افتقرت إلى وجود ملوك أقوياء فى أسرة الحكم، وكان الباقون منهم ينتمون إلى أسرة «يويا» الإسرائيلية أكثر من انتمائهم إلى تلك السلالة القوية المنحدرة من الملك أحمس، فكان طبيعياً أن يطمس على هويتهم الحقيقية، وأن تشهد تلك الفترة صراعاً خفياً بين الأب الإلهى «آى» ومعه أعوانه سواء الظاهرين أم المختفين، والذين قبضوا منذ عدة عقود على زمام النفوذ والثروة فى يدهم، وبين نفوذ الكهنة القديم ومعهم طبقة

النبلاء والأشراف والعائدين بقوة بقيادة كهنة آمون، وبين هؤلاء وهؤلاء كان قائد الجيش القوى الداهية حور محب الذى أوضحت الأحداث التالية أنه كان مستقلاً ومنفرداً بقيادة الجيش ووظف خدماته حسب الظروف لمصلحة أى من الطرفين، حتى استطاع فى النهاية بذكائه وعدة تدبيرات لا تزال مجهولة أن يخلص الأمور لصالحه وينفرد بعرش مصر.

ولكن كما قادتنا وثائق العمارنة وآثار دولة الحيثيين، والدويلات التى ظهرت - وعموماً النتيجة التى انتهت إليها الأوضاع فى آسيا - إلى كشف مؤامرة تقسيم الممتلكات المصرية بين الحيثيين والعبرانيين، أيضاً فإنه من خلال الأحداث التى شهدتها مصر فى الفترة التالية لعهد إخناتون وما صاحبها من تداول سريع ومريب للسلطة ثم إبادة الأسرة الحاكمة وانتقال السلطة فى النهاية إلى قادة الجيش يتكشف لنا من عدة مظاهر ومن النتائج التى تحققت أن الصراع الخفى على السلطة قاد إلى تنفيذ مؤامرات للتخلص من الخصوم والسيطرة على الحكم، ونستطيع أن نرصد عدداً من الدلائل التى تكشف ارتكاب جرائم بأساليب تآمرية غادرة كانت وراء اعتلاء «آى» ثم حور محب لعرش مصر، أما تفاصيل المخططات والتدابير وأساليب التنفيذ التى لجأ إليها كلاً - منهما فإنها - فى الغالب - سوف تظل فى غيبيات الزمن، لأن كليهما - كما قدمنا - حرص فى وقتها على عدم كشفها.

والآن يمكن أن نرصد سير الوقائع واستخلاص المؤامرات وترتيب الأحداث على النحو التالى:

أولاً: أحداث العام الثانى عشر

قبل أن تنتقل إلى رحاب ربها ذهبت الملكة «تى» إلى تل العمارنة فى العام الثانى عشر من حكم ابنها إخناتون، حاملة نذر النهاية للعصر الذهبى لبنى إسرائيل فى مصر، وفعلاً سوف تؤكد الأحداث التالية أن رحلتها كانت بداية النهاية لمرحلة السقوط، وإيذاناً بقرب انتهاء النفوذ الإسرائيلى وزوال سيطرة شيوخ إسرائيل على البيت الحاكم، فبعد أن أدركت «تى» الأخطاء التى وقعت من أعوانها والأخطار التى تجمعت فى طيبة، كان عليها محاولة إصلاح الموقف الآخذ فى التدهور وإنقاذ المكاسب التى تحققت، لقد آل إليها بعد يويا وبمشاركة شقيقيها «آى وعانن» قيادة بنى إسرائيل وحماية قبائلهم فى مصر وتدبير تحركهم نحو تحقيق أهدافهم والتى يأتى على رأسها إقامة وطن لهم فى فلسطين، وكانت «تى» قد بقيت فى طيبة بعد هجرة ابنها وأتباعه إلى تل العمارنة لمراقبة أعدائه وحماية ظهره، ويقينى الآن أنها عندما رحلت إلى العمارنة فى العام الثانى عشر لم يكن قصدها الأساسى تحقيق ذلك الهدف الذى يكاد يتفق عليه الدارسون، وهو إقناع إخناتون بالتراجع عن

الملكة تى.. سيطرة كاملة على مقاليد الحكم امتدت حتى عهد ابنها إخناتون

عقيدته؛ لأنها فعلاً كانت قد اتخذت هذا القرار فى طيبة، وربما أقسمت عليه لكهنة آمون قبل أن تشد رحالها إلى ابنها لإبلاغه وتنفيذه، لقد كان يشغل عقلها أمور كثيرة تقتضى التشاور مع شيوخ الأسباط لوضع تحرك سريع لمواجهة ثورة الكهنة التى اندلعت بقوة فى طيبة وامتدت إلى أنحاء الدولة، وصارت تشكل خطراً وشيكاً يفوق كثيراً ما فعلته بهم حتشبسوت فى الماضى، بل إنه هذه المرة ينذر بوضع نهاية لكيانهم وقوميتهم المستقلة وقد يؤدى إلى كشف أهدافهم ويقودهم إلى العبودية فى مصر، ويقضى على آمالهم فى فلسطين.

كان الهدف الأساسى الذى يشغل بال «تى» فى رحلتها وضع خطة سريعة لمواجهة الخطر الحالى، وإقرار إستراتيجية جديدة لبنى إسرائيل فى المرحلة القادمة، ولأن هذا الأمر يقتضى الإحاطة بكثير من التفاصيل، والوقوف على آخر المعلومات من جهات مختلفة ثم الاتفاق والتشاور، وتحديد خطوات التنفيذ فإنها وبعد أن علمت بكل الظروف التى تموج بها الدولة على المستوى الداخلى، فقدأرسلت فى دعوة وفود الدول والممالك الخاضعة للإمبراطورية المصرية للحضور إلى «آخت آتون» فى توقيت يتزامن مع وصولها لمقابلتهم بعيداً عن طيبة، قاصدة أن تعرف بنفسها آخر تطورات خطة إسرائيل فى سوريا وفلسطين، وإعطاء توصياتها العاجلة فى هذا الشأن، ومن أجل التمويه فقد تعمدت إضفاء الصبغة الرسمية على مقابلات الوفود، فاشتملت الدعوة بالإضافة إلى وفود الشمال - المعنيين أساساً - على وفود أخرى قدمت من النوبة وليبيا وكانوا جميعاً حاملين هدايا وأكداساً من الجزية.

وإذا كانت أجهزة إعلام العاصمة المتمثلة فى المناظر والنقوش قد حرصت على تسجيل استقبال البلاط الرسمى للوفود الأجنبية والاحتفال الصاخب والمزدحم بهم فى «آخت آتون»، كما سجلت زيارة الملكة «تى» وبصحبتها الأميرة «باكت آتون» شقيقة إخناتون، ومعها أيضاً كامل حاشيتها ووصيفاتها، فإنها بالطبع لم تسجل أعمال المؤتمر بالغ الخطورة الذى دعت «تى» فى حيطة وسرية إلى انعقاده فى «آخت آتون»، ولا الاجتماعات الجانبية المغلقة الأخرى التى عقدت مع أشخاص بذاتهم من وفود الشمال على هامش زيارتهم الرسمية، ولكن نستطيع أن نستخلص حدوث هذه اللقاءات من الأحداث الجارية وقتها، والتى تستدعى حتماً ضرورة التخطيط والتدبير، ومن النتائج التى تحققت التالية مباشرة لزيارة «تى» إلى العمارنة.

لقد سعت «تى» إلى لقاء شيوخ إسرائيل وتلك النخبة التى تمركز معظمها فى العاصمة الجديدة حول الفرعون، إنهم القوى الحقيقية التى تدير الحكم، تفكر للملك وتحرضه وتصنع سياسته وتقودها «تى» بنفسها ومن خلال شقيقها «آى»، ولم يكن الملك فى الحقيقة سوى الأداة التشريعية والتنفيذية فيما يوجهونه إليه من قرارات باعتباره الفرعون وريث العرش وسلطة الحكم الشرعية.

لقد فرضت حالة الغضب التى عمت المعابد المصرية وتصاعد الثورة ضد إخناتون والتى بلغت ذروتها هذا العام، استدعاء القيادات إلى عقد اجتماع مهم وحاسم فى «آخت آتون»، أعتقد أن «تى»

دعت إليه كبار كهنة آتون وشيوخ أسباط إسرائيل سواء الذين تجمعوا حول إخناتون فى العاصمة أو انتشروا للدعوة إلى التوحيد فى مختلف المدن المصرية والمعابد الجديدة، ورجالاً من الذين بقوا فى شرق الدلتا لإدارة الأراضى وثروات الماشية وللاتصال بآسيا.

ومن الطبيعى أن قيادات الآتونية ورؤساء القبائل الذين حضروا مؤتمر الملكة «تى» قد استعرضوا التطورات المعادية، وتم إحاطتهم بالأوضاع المتردية والمدى الذى وصلت إليه، وبحثوا النتائج المحتملة، ويلزم أن تكون «تى» قد أحاطتهم بنتائج اجتماعها مع فريق كهنة آمون، وقدمت لهم التبرير الكافى لقرارها بضرورة التراجع فى هذه المرحلة عن فرض عقيدة التوحيد كديانة رسمية للدولة، وأبانت الظروف التى فرضت عليها فى طيبة مهادنة الكهنة.

ويمكن استنتاج أنه بعد المناقشة والبحث ودراسة الآثار المترتبة على قرار التراجع وأهمها إعادة فتح المعابد المصرية، ورد أراضيها وأموالها، انتهى المؤتمرون إلى تحديد الخطوات العاجلة التى يقتضيها الموقف الراهن، وأيضاً إقرار الإستراتيجية القادمة لبنى إسرائيل على ضوء جميع الظروف القائمة داخلياً وخارجياً، وإن كانت تفاصيل المناقشات التى دارت والقرارات التى اتخذت فى اجتماع القيادات الذى عقد فى «آخت آتون» فى العام الثانى عشر برئاسة «تى»، غير متوافرة لدينا الآن، ولكن الأوضاع بلا شك كانت من الخطورة والتصاعد والاتصال بين جهات مختلفة فى الدولة، التى جعلت «تى» والحضور يدركون أنه ليس من الممكن مواجهتها، وغالباً أن جناحاً من الجيش وربما بقيادة حور محب، قد انضم إلى جبهة الكهنة، ونستطيع أن نستخلص من الظروف الداخلية المعاصرة ومن النتائج التى نتبينها من الأحداث التالية لهذا العام أن الموقف حتم أن يتفق الحاضرون على سرعة الاستجابة لطلبات الكهنة والخروج من الأزمة بأية وسائل متاحة، وتنفيذ القرارات الجديدة بأقل خسائر ممكنة فى المال والنفوذ، مع ضرورة إحكام السيطرة على مقاليد الحكم واستمرار العائلة الحاكمة باعتبارها السلطة الشرعية فى ظل وصاية ومتابعة أسرة «يويا» متمثلة فى وجود الأب الإلهى «آى» والذى تعين مساعدته بكل الطرق على خداع الكهنة والوجود فى البلاط الملكى، ولا شك أنه وضع فى الحسبان أيضاً أن الظروف سوف تقتضى التضحية بكثير من رجال إخناتون خصوصاً كهنة التوحيد، ولا محيص عن ذلك لحبك التدبير وإرضاء الجبهة المعادية واحتواء غضب الكهنة، واستدعى هذا الأمر تدبير شأن هروبهم واختفائهم. تلك كانت الخطوط العريضة التى يقتضيها التحرك الداخلى فى المرحلة القادمة لخديعة التيار المعادى وكبح جماح ثورته لحين إعادة الانطلاق فى وقت آخر بتخطيط جديد.

وطبقاً للظروف والأحوال التى قدمناها سابقاً عن شأن الممتلكات المصرية فى آسيا والمستمدة من رسائل العمارنة ووثائق خارجية معاصرة، فإن افتراضاً أساسياً يتكون؛ وهو أن «تى» والحاضرين لم يغفلوا فى اجتماعهم سرعة ترتيب الأوضاع فى فلسطين لصالحهم، ولم تكن زيارة وفود الممالك الأجنبية لآخت آتون فى توقيت يتزامن مع وصول «تى» محض مصادفة، وإنما

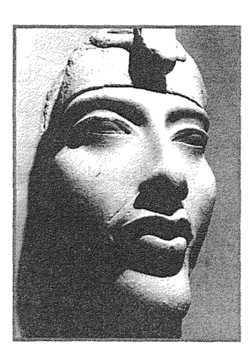
ترتيب مدبر، وفعلاً تعكس الأحداث السريعة التالية تنفيذ تلك الإستراتيجية العاجلة، فنلاحظ أنه جاء تالياً لهذا العام:

● استيلاء الحيثيين الكامل والواضح على المستعمرات المصرية فى قادش وآمورو والساحل الفينيقى، وتولية ملك الحيثيين ولديه أحدهما ملك على حلب والآخر على قرقميش، ووضع دولته فى حالة الاستعداد للحرب على مصر.

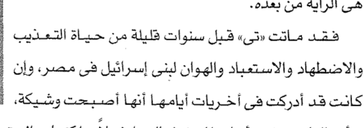
● انسحاب الجيش المصرى من عديد من المعاقل العسكرية فى المدن الفلسطينية إلى غزة بأوامر من القائد السامى يانخام (إيان - حام)، ووقوع معظم المدن الفلسطينية تحت سيطرة قبائل العابيرو بعد قتلهم لأمراء الولايات الموالية لمصر.

وعلى الصعيد الداخلى ظهر فى الصورة الأمير «سمنخ كارع» الأخ الأصغر لإخناتون، القادم من طيبة، وتزوج من «مريت آتون» البنت الكبرى للفرعون، وأعلن رسمياً مشاركته لإخناتون فى الحكم، ليستقر بعد ذلك فى طيبة، ويبدأ تنفيذ خطة التراجع تحت رعاية «آى» الذى كان مفروضاً طبقة لخطة «تى» واجتماع تل العمارنة أن يناصره فى تثبيت أركان ملكه.

ثانياً: اختفاء إخناتون وقيادة «آى» لخطة التراجع



انتقلت الملكة «تى» إلى العالم الآخر فى حياة ابنها الفرعون إخناتون بعد حياة حافلة من المجد والعز والجاه والسلطان، ولاقت كل التكريم فى مراسم دفنها، وكانت الأقدار كريمة بها. فلم تمهلها لتشهد زوال مجد بنى إسرائيل وانتهاء سنوات عزهم وسلطانهم، والذى جاهد والدها «يويا» مع شيوخ إسرائيل فى سبيل الوصول إليها وتحقيقها، وحملت هى الراية من بعده.



فقد ماتت «تى» قبل سنوات قليلة من حياة التعذيب والاضطهاد والاستعباد والهوان لبنى إسرائيل فى مصر، وإن كانت قد أدركت فى أخريات أيامها أنها أصبحت وشيكة، ورأت التاريخ يفتح أبوابه للدخول إليها فعلاً، ولكنها - والحق يقال - قرعت لقومها ناقوس الخطر، ووضعت الخطوط الفاصلة لإنقاذهم، وفاوضت كهنة مصر، ولم تعر انتباهاً إلى صراخ «نفرتيتى» ابنة أخيها وزوجة ابنها الملك وهى تهاجمها وتعترض عليها، وتترك منزل الزوجية غاضبة من زوجها ورافضة أفكارها، ومهدت «تى» الطريق أمام «آى» للنجاة وقيادة شعب إسرائيل إلى فلسطين أرض الميعاد، ولكن بعد وفاتها أصبح تنفيذ الخطة إلى النهاية صعباً أمام العجوز «آى» بعد أن تجرد من الكثير من أسلحته ومن أعوانه المخلصين الذين كانوا أنصاراً للآتونية، ولم يعد لهم وجود فى المرحلة

الجديدة، كما أنه غير فى خطة «تى» فلم يكتف بوجوده فى الصف الخلفى راعياً ووصياً على القيادات الضعيفة التى خلفت إخناتون، ولكن استغل الظروف التى سنحت وهيَّأت له ـ واقعاً ـ أن يكون الحاكم الفعلى للبلاد، وأتاحت له أن يقوم ـ نيابة عن الفرعون ـ بمفاوضة الكهنة ومصالحتهم وتنفيذ طلباتهم، ووظف هذه العوامل لمصلحته الشخصية، وقدم لهم التنازلات الكافية التى جعلتهم يرضون عنه ويغفرون له زلته مع إخناتون وأصبح محلاً لثقتهم، فضلَّ طريقه وهو فى نهايات عمره، وزين له شيطانه أن يحكم مصر بنفسه، ولم يدرك العواقب التى تنتظره، وربما أن قائد الجيش الداهية حور محب ساعده على تحقيق أطماعه، فخدع الرجل العجوز الذى كان مجرداً من الأعوان، ولكنه كان راضخاً مستسلماً لرغبات الكهنة، فلم يعترض أيهما عليه، واتفق الجيش والكهنة على وجوده، ووثق «آى» فى حور محب وقد كان أحد رجاله فى الجيش ومن أعوانه السابقين فى العمارنة، والذين أظهروا فى الماضى ولاءهم وإخلاصهم لإخناتون، ومن ثم تبين لآى أنه إذا استطاع أن يدبر أمر وصوله إلى الحكم فلن يكون محلاً لاعتراض المؤسستين الدينية والعسكرية، فدبر مؤامراته حتى استطاع أن يصل إلى حكم مصر، لكن حور محب الذى ربما يكون قد عاونه أو على الأقل أيَّد ولايته للحكم كشف فى النهاية أمره وعرف انتماءه الحقيقى وأهداف قومه، فأسقطه عن عرشه وصعد عن طريقه إلى عرش الفراعنة، وبدأت معه رحلة بنى إسرائيل إلى العذاب والعبودية.

أما كيف سارت الأمور إلى تحقيق ذلك فإن الظواهر وأحداث الصراع المتتالي تؤدى إلى استخلاص أن إخناتون الذى كان مرفوضاً من الكهنة فقد بعد وفاة «تى» أهم أسباب حمايته؛ فهو من ناحية كهنة آمون وأعوانهم مطلوب إبادته والتخلص منه بل محو جميع آثاره وتراثه وذكرياته وأيامه السوداء من ذاكرة مصر، ومن ناحية «آى» قائد الحركة الإسرائيلية والذى أصبح الآن منفرداً يحمل أعباءها ويمهد طريقها إلى الخروج والخلاص، فإنه على المستوى الشخصى لم يكن يتمنى ذلك لإخناتون، فهو ابن أخته وزوج ابنته والأهم من هذا وذاك أن إخناتون ابن إسرائيل المخلص، وقدم من أجلها الكثير، وبذل حياته من أجل عقيدة إسرائيل واعتبرها رسالته، وهو الملك ابن الملوك ضحى بحياة الهناء والاستقرار واختار الصراع ومواجهة أساطين الوثنية الراسخة من أجل أن ينشر عقيدة السماء ورسالة أجداده الأنبياء، ولكن للأسف فإن الأحداث التى فُرضت تُزيح الأخلاق والقيم جانباً، فالوقت لم يعد وقت المبادئ والمثل العليا، وغير هذا فإن قوى الشر زاحفة طاغية فارضة نفسها شاء أم أبى، ولن تعطى مجالاً لرغباته الشخصية أو لمبادئ الوفاء والإخلاص، وإخناتون الآن هو العقبة الكؤود بينه وبين الكهنة، ومن ثم كان القرار الأخير لآى أن يتنصل من إخناتون ويضحى به لإرضاء أعدائه، وإزاحة العائق الذى يفصلهما، بعد أن أصبح ذلك هو الحل الوحيد الذى يمكن أن تقبله تلك القوى العائدة لكى يثبت لهم أنه خارج دائرة الآتونية، ويجعلهم يثقون به، ويقتنعون بصدق أكاذيبه، ويتصورون بغضه وحقده عليهم مودة وإخلاصاً، وهكذا تهيأ لآى أن ذلك التصرف هو وسيلته للنجاة بنفسه من أجل قيادة شعب إسرائيل إلى أرض الميعاد.

أما كيف تمت التضحية بإخناتون، فلا يمكن الجزم بما حدث، نعرف فقط أن إخناتون وهو فى الثلاثين من عمره قد اختفى إلى الأبد، هل أغمض «آى» قائد حرس الملك عينه وترك للمتآمرين تصفيته واغتياله؟ ونعلم من آثار تل العمارنة سابقة تعرّض إخناتون لمحاولة اغتيال، ولولا يقظة رئيس الشرطة «ماحو» لنجحت المؤامرة، ولقضى على إخناتون وقتها على أبشع صورة.

أم أن «آى» ساعده على الهرب مع كهنة الآتونية ورجال «آخت آتون» المطلوب تصفيتهم من أعدائهم أتباع آمون؟

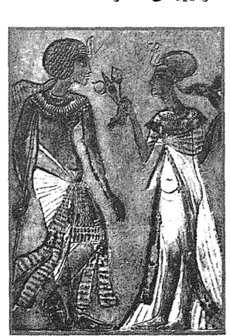
عموماً انتهت قصة إخناتون، وعلى المستوى الرسمى فى الدولة تجرد من ألقابه ومن أى احترام أو توقير وأصبح مسموحاً بنعته بكل ألفاظ السب والقذف والإهانة. ووصمة بالإلحاد وكل عبارات الانحلال والهرطقة.

وتقدم سمنخ كارع تحت رعاية «آى» لمفاوضة الكهنة، وإن كان لا يمكن لنا من خلال المصادر الوقوف على طبيعة الاتفاق الذى تم بين المهاجرين إلى تل العمارنة وبين قيادات طيبة بزعامة كهنة آمون، إلا أننا نستطيع أن ندرك بيقين أن «آى» نجح فى أن يخدع الكهنة، واستغل علاقته القديمة بهم أيام كان يعمل معهم هو وأسرته فى وظائف الكهنوت، وصور هذا العجوز المخادع نفسه - إبان الآتونية - فى صورة المغلوب على أمره الخاضع رغماً عن أنفه لأوامر سيده الفرعون، والمنفذ لرغباته دون إرادته، وأنه وهو ربيب الكهنوت السابق فى معابد الآلهة الكبرى لم يكن راضياً عن أفعال الملك المهرطق المدعو إخناتون، واستطاع بدهائه أن يقنع الكهنة بأنه بذل جهده لأجل أن يرفع هذه الغمة عن مصر، لكن الملك العنيد رفض نصحه وظل مصراً على أفكاره، وأنه لم يملك بعد أن يئس منه سوى أن يظل مترقباً له خلال تلك الفترة العصيبة، متحيناً الوقت والفرصة المناسبين لعودة الأمور إلى مجراها الطبيعى وإعادة توقير الآلهة واحترامها ووضعها فى مكانتها السامية والأزلية.

وتدل شواهد الأحوال أن سمنخ كارع لم يكن هو الآخر مرضياً عنه من الكهنة، وأنه تم قبوله على مضض باعتباره الوريث الشرعى للعرش، ومن الطبيعى أن يكون متعاطفاً مع إخناتون ورافضاً لما حدث له، ومستنكراً للحملة المستعرة لتكفيره وإهانته، ولهذا فإن الواضح أن العلاقات استمرت سيئة بين الطرفين، وأن «آى» بنفسه هو الذى قام بإجراء المفاوضات والاتفاق مع الكهنة، الأمر الذى ساعده على كسب ثقتهم، وفتح له المجال ليكون صاحب الكلمة العليا فى طيبة خلال فترة حكم سمنخ كارع التى لم تدم طويلاً، ثم استمرت أهمية «آى» من خلال وصايته على الملك الفتى توت عنخ آمون، ولكن هذا لم يمنع أن «آى» عاد من تل العمارنة مجرداً من كل أو معظم أعوانه المخلصين؛ لأنه لم يمكنه أن يصطحب أو يقدم هؤلاء الأشخاص المحسوبين على إخناتون، فكان هو الموظف الوحيد من كبار الموظفين أصحاب النفوذ الذى بقى فى عمله من بين كل رجال إخناتون عندما تولى توت عنخ آمون عرش الملك، فتكشف آثار عهده أنه لم يكن بينهم رجال من الذين اشتركوا مع إخناتون فى نشر مذهبه الدينى، فقد اختفوا جملة من على الساحة السياسية.

ثالثاً: اغتيال سمنخ كارع

كان المفروض أن يتم تنفيذ خطة التراجع القهرية عن الآتونية بقيادة سمنخ كارع، الشقيق الأصغر لإخناتون وزوج ابنته «مريت آتون»، والذى تؤكد الآثار أنه كان قريباً من إخناتون ومقتنعاً بأفكاره ومؤمناً برسالته، وهذا طبيعى أيضاً لأنه ابن «تى» المصدر الذى ألهم إخناتون فى البداية ودفعه إلى هذه العقيدة، وقد حكم سمنخ كارع لمدة ثلاث سنوات تقريباً، كان فى معظمها مشاركاً للحكم مع إخناتون، ثم فرضت عليه الظروف أن ينضم إلى عبادة وتأييد عقيدة آمون، وغيرت زوجته ابنة إخناتون «مريت آتون» اسمها إلى مريت آمون، وقطعاً أن هذا كان جزءاً من الاتفاق الذى تم بين «آى» والكهنة، ولم يكن سمنخ كارع ولا زوجته راضيين عنه، وكان المنتظر أن يصدر المرسوم الملكى بإصلاح الأوضاع وفتح المعابد ورد أموالها المصادرة، ولكنه لأسباب غير واضحة تأخر قليلاً ولم يصدر إلا فى عهد توت عنخ آمون، ولهذا يبدو أن إصلاحات سمنخ كارع لم تكن تسير فى الطريق الذى يرضى الكهنة، وربما تعمد «آى» إحداث وقيعة بينه وبين الكهنة، إما بتحريض سمنخ كارع ضدهم أو دفعه إلى إهمال جانب من طلباتهم، أو الإيعاز إليهم بمعلومات مضللة ضده، قاصداً من ذلك تأليبهم عليه ووضعه فى خندق واحد مع إخناتون، وفعلاً أثبتت الأيام القادمة أن «آى» كان صاحب مصلحة فى التخلص من سمنخ كارع، فقد قفز بعدها خطوة واسعة نحو عرش مصر، وأصبح فوراً المتصرف فى أمور الدولة والحكم باعتباره الوصى على الملك القاصر «توت عنخ آمون» آخر الورثة الشرعيين فى الأسرة.


سمنخ كارع ومريت آتون

عموماً لم يقم سمنخ كارع بخطوات جدية وسريعة نحو التراجع والتصالح مع الكهنة، ولم يرض عنه الكهنة وسواء أكان ذلك راجعاً إلى فترة حكمه القصيرة والتى كان فى معظمها مشاركاً لإخناتون أم بسبب عدم إخلاص «آى» فى معاونته، فإن الظواهر تؤكد وجود مؤامرة أدت إلى التخلص سريعاً من سمنخ كارع، ذلك أنه توفى عن عمر يناهز العشرين عاماً، وكانت وفاته فى وقت واحد تقريباً مع إخناتون أو تالية له بوقت قصير، واللفائف التى تضم جثمانه تؤكد أنه قد أعيد دفنه فى المقبرة التى عثر عليه فيها فى وادى الملوك، وربما كان ذلك بعد نقله من تل العمارنة إلى طيبة فى عهد توت عنخ آمون، الأمر الذى يشير إلى عدم دفنه مباشرة فى الجبانة الملكية وعدم معاملته المعاملة اللائقة به كملك لمصر، وأن الطقوس الجنائزية لم تتم له فى تاريخ وفاته، وأيضاً فإن كثيراً من الحلى والجواهر التى وجدت مع توت عنخ آمون كانت فى الأصل قد صنعت للملك سمنخ كارع، وحلِّيت باسمه، ثم نرى أثر التغيير بادياً عليها، فمحى اسم سمنخ كارع ونقش مكانه اسم توت عنخ آمون، والنتيجة التى تفرض نفسها أن سمنخ كارع مات مغضوباً عليه فى ظروف غير عادية، محروماً

من حقوقه الملكية، مسلوباً منه أثاثه وجواهره؛ فقد حرموه من إقامة الشعائر الدينية التى تليق بملك مثله، كما حرموه أثاثه الجنائزى، ويدعم دلائل وجود مؤامرة وراء إنهاء حياة سمنخ كارع؛ أن زوجته مريت آتون اختفت هى الأخرى ولم نسمع عنها شيئاً قط بعد وفاة زوجها، كما عثر على آثار تحمل اسمها فى مقبرة توت عنخ آمون، الأمر الذى يكشف أنها أيضاً حرمت منها ولهذا فإن الغالب أنها شاركت زوجها مصيره المؤلم، وليس بخاف علينا أن توت عنخ آمون ـ ذلك الصبى الصغير الذى لم يتجاوز التاسعة من عمره يقصر عقله وتفكيره عن تدبير مثل هذه المكائد، أما الرأس المفكر والعقل المدبر فهو بالقطع «آى» ذو الأطماع الواسعة والأهداف البعيدة برضاء الكهنة ومباركتهم.

رابعاً: اغتيال توت عنخ آمون


توت عنخ آمون

أسندت السلطة بعد «سمنخ كارع» إلى «توت عنخ آمون» الذى كان صبياً صغيراً، وأصبح «آى» وصياً على عرشه، وكان قد تغير اسمه قبل توليه العرش من توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون، كما أصبح اسم زوجته ابنة إخناتون ونفرتيتى «عنخ أس أن با آمون» (**يلاحظ أنه قبل التنظيم التوراتى لم يكن هناك محارم من جهة الأب، فكان يجوز الزواج بالعمة وابنة الأخ، بل الأخت لأب، ولقد تم تأثيم هذه الحالات من زواج المحارم فيما بعد فى سفر اللاويين: الإصحاح ١٨**)، ومنذ بداية عهده انتقل البلاط الملكى من العمارنة التى هُجرت، واتخذ الملك وزوجته مقرهما فى العاصمتين التقليديتين طيبة ومنف، وحدث تغيير جذرى فى الأمور لصالح معابد الآلهة، وانتهت تلك الفترة الانتقالية غير الواضحة التى صاحبت ولاية سمنخ كارع سواء مشاركاً مع إخناتون أم منفرداً بالحكم، فقد صدر المرسوم الملكى بإصلاح الأحوال وفتح المعابد ورد ممتلكاتها مضاعفة، وتقدم لوحة إصلاح توت عنخ آمون صورة صادقة عن حالة البلاد وما كانت عليه المعابد الوثنية فى طول البلاد وعرضها فى فترة إخناتون، ثم حدوث الإصلاحات التى قدمها الملك الصغير برعاية ووصاية «آى»، ونقدم للقارئ بعض مقتطفات من ترجمة لتلك اللوحة وهى تصف لنا أحوال البلاد التى كانت عليها قبل توليه الملك، والأعمال التى قام بها. وتجدر الإشارة أن «حور محب» قد اغتصب هذه اللوحة عند توليته العرش؛ محاولاً بذلك أن ينسب لنفسه القيام بكل ما جاء عليها من أعمال عظيمة، وإنكار نسبتها إلى ابن إخناتون وأحد ملوك العمارنة.

تبدأ اللوحة بالتاريخ وألقاب الملك محبوب آمون، رب عروش الأرضين وسيد الكرنك وآتوم رب الأرضين، وبتاح وتحوت، الذى يظهر على عرش حور الأحياء مثل والده رع، والإله الطيب ابن آمون، والبذرة الفاخرة، والنسل الجليل وسليل آمون «الحاكم الطيب الذى يعمل أشياء نافعة لوالده، ولكل

الآلهة، وهو الذى جعل ما كان قد خرب صالحاً، بمثابة أثر خالد، مدى الدهر، وقضى على الأعمال الخاطئة فى كل الأرضين، ووطد الحق، وجعل الكذب ممقوتاً فى البلاد كما كان فى بادئ أمرها، وعندما أشرق جلالته الآن ملكاً كانت معابد الآلهة والإلهات من بداية إلفنتين (أسوان) حتى مناقع الدلتا.. قد أهمل شأنها، إذ قد أصبحت محاريبها خاوية، وصارت أراضى تغشاها أعشاب (كاث) ومعابدهم أصبحت كأنها لم تغن بالأمس، وحجراتهم كانت طرقاً معبدة، والبلاد كانت فى ارتباك، وهجرت الآلهة هذه الأرض، وإذا أرسل جيش إلى زاهى (سوريا) ليمد من حدود مصر لم ينل أى نجاح قط، وإذا دعا الله إنسان ليطلب إليه حاجة، فإنه لا يأتى إليه بأية حال، وإذا تضرع إنسان لإلهه فإنها كذلك لا تجيب تضرعه بأية حال، لأن قلوبهم كانت ضعيفة من نفسها بالغضب، فخربوا ما كان قد عمل».

«وبعد ذلك استشار الملك قلبه منقباً عن كل فرصة ممتازة، باحثاً وراء ما يفيد والده آمون فصنع تمثاله الفاخر من الذهب الخالص الجميل، وأضاف إلى ما كان قد عمل له فيما سلف من الأزمان، إذ نحت تمثال والده آمون ليحمل على ثلاثة عشر قضيباً، أما تمثاله المقدس فصنع من الذهب الخالص الجميل، واللازورد، والفيروز ومن كل ما ندر وما غلا ثمنه من الأحجار، فى حين أنه فى الأزمان السالفة كان تمثال جلالة إلهه الفاخر يحمل على أحد عشر قضيباً، وكذلك صنع تمثالاً للإله بتاح رب عنخ تاوى، وكان تمثاله الفخم من الذهب الجميل، وتمثاله المقدس صنع من الذهب الخالص، واللازورد والفيروز».

«وكذلك صنع جلالته آثاراً للآلهة من الذهب الخالص من أحسن ما فى الأراضى الأجنبية، وأعاد بناء معابدهم لتكون آثاراً خالدة على الأرض، ومنحها أملاكاً إلى الأبد .. وأضاف إلى ما كان لهم فى سالف الأزمان، ففاق فى ذلك ما كان قد عمل منذ عهد أجداده، وعين كهاناً وسدنة وخدام الإله من أبناء أشراف البلاد، وكان كل ابن رجل مشهوراً واسمه معروفاً، وقد ضاعف ثرواتهم بالذهب والفضة والشبة والنحاس، ومقادير لا حصر لها من كل الأشياء، وملأ مخازنهم بالعبيد رجالاً ونساء، وتضاعفت كل ممتلكات المعابد». «مما لا يدخل تحت حصر من كل الأشياء الطيبة»، «وقد خصص جلالته، له الحياة والصحة والعافية، لها عبيد وإماء ومغنون وراقصات ممن كانوا خدماً فى بيت الفرعون، وكانت أجورهم تدفع من من قصر الملك»».

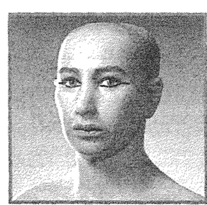
«وأصبحت الآلهة والإلهات التى فى هذه الأرض قلوبهم فرحة وأصحاب المحاريب مبتهجين، والأراضي فى أعياد تقيم الأفراح، والسرور ينتشر فى كل الأرض بعد أن أصبحت حالة البلاد مرضية. وتاسوع الآلهة فى معابدهم كانوا يرفعون أيديهم تعبداً، وهى مفعمة بالأعياد الأبدية الخالدة».

ويمثل ما سجل على تلك اللوحة الأعمال التى تمت فى مستهل حكم توت عنخ آمون للمعابد والكهنة، ولا يمكن للتاريخ أن يحكم على سياسته واتجاهاته من واقع ما تضمنه ذلك البيان؛ لأنه بداهة غير مسئول عن كل ما حدث؛ إذ كان قاصراً ولم يكن له من الأمر شىء، وغير ذلك فهو ابن إخناتون ولا

يمكن له – لو كان الأمر بإرادته – أن يصمه بتلك الاتهامات ويتنكر له على هذه الصورة، بل تنسب هذه الأعمال إلى الكاهن «آى».

لقد تمت صياغة هذا المنشور التراجعى الإصلاحى بالاتفاق بين «آى» والكهنة، وليس بخاف علينا أيضاً أنه لا يعبر عن حقيقة مكنون صدر «آى» ربيب الآتونية، وأحد الرواد الذين دفعوا إخناتون إليها، ولكنه يعرض صورة مثلى لأحد أساليب النفاق والخداع والتآمر التى انتهجها «آى» فى بداية رحلة التراجع ليثبت بها للكهنة صدقه فى التعاون، وحسن نيته واستعداده لتنفيذ جميع رغباتهم، كما يكشف المنشور عن عودة طبقة أبناء الأشراف إلى مناصبهم القديمة فى المعابد، وقطعاً كما حدث هذا فى المؤسسة الدينية فإنه حدث أيضاً فى مؤسسات الدولة الأخرى.

أما «توت عنخ آمون» فلم يكن سوى مجرد رمز يجلس على كرسى الحكم يمثل الشرعية، وعاش بعيداً عن شئون الدولة مع زوجته المحبوبة، ونستطيع أن نستخلص من آثاره أنه قضى أغلب فترات حكمه فى منف العاصمة الشمالية لإشباع رغبته فى الصيد فى صحراوات منف والجيزة وعين شمس، واقتصر حضوره إلى طيبة على الاحتفالات الدينية الكبرى والمناسبات الرسمية، وترك الفرعون أمور الحكم وشئون الدولة للثالوث: «آى» الوصى على العرش، وحور محب قائد الجيوش، وكهنة آمون المتلهفين على استعادة نفوذهم وأموالهم.


صورة تخيلية للملك توت عنخ آمون مستوحاة من شكل التماثيل والمومياء

ولكن المتتبع لآثار توت عنخ آمون يستطيع أن يعرف أيضاً أن صغر سنه وحياة الرفاهية لم تمنعه من أن ينشأ قوياً نشيطاً، فقد تلقى تدريبات عسكرية فى صحراء منف، وكان محباً لرياضة الصيد الشاقة فى الصحراوات الرملية الحارة، وتعلم ركوب الخيل وقيادة العربات الحربية، والتى دفنت معه فى مقبرته، واستخدم العديد من الاستراحات بطول البلاد من أجل رحلات الصيد، وقاده هذا الغرام بصيد الحيوان ومطاردته إلى أن يكون شجاعاً وجريئاً، كما تظهر له جوانب أخرى تدل على رقة القلب ودماثة الطبع وحسن الأخلاق، ويكشف الفحص الطبى لجسمه على أنه كان نحيل القوام عظيم الرأس سليم الجسم، وتلك المظاهر قد تدل على أن هذا الفتى الصغير كان يمكن أن يصبح واحداً من الفراعنة العظام مثل أجداده من ملوك تلك الأسرة.

ولا شك أن «آى» الذى عاش سنوات طويلة منذ عهد إخناتون يمارس القيادة الفعلية وإدارة الحكم فى الدولة، كان ينتظر ما تخبئه له السنوات القادمة ويترقب خطوات الفرعون الشاب الذى كبر واشتد عوده، وعندما قارب الثامنة عشرة من عمره وجده قوياً ناضجاً، لا تثريب عليه اليوم فى أن يتولى بنفسه أمور الدولة والحكم. ونعلم أيضاً أن الملكة أصبحت حاملاً مرتين على الأقل، ولكن جنينها الأول أجهض وكانت بنتاً وماتت فى الشهر السابع من الحمل، والجنين الآخر توفى عند مولده، ودفن هذان

الجنينان بمقبرة والدهما، وهذا قد يعنى أيضاً لدى العجوز «آى» - الوصى على الحكم والطامع فيه - أن الفرعون الشاب آخر ورثة العرش الباقين على قيد الحياة قارب على أن ينجب ولياً للعهد، ويعيد الاستقرار فى توارث العرش إلى أسرة الحكم. وكان لا يزال أمام «آى» الكثير من الأمور التى لم تتحقق، فالرحلة التى بدأها «يويا» توقفت بل إنها تراجعت كثيراً بعد نهاية إخناتون، ولم يتحقق لبنى إسرائيل أهدافهم، وما زالت فلسطين بعيدة المنال، وها هو حور محب يقوم بحملة عسكرية إلى آسيا محاولاً إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه فى الماضى، وأصبح «آى» محاصراً بين الجيش والكهنة، ولا يملك منفرداً اتخاذ القرارات أو وضع أعوانه فى المناصب القيادية كما كان فى السابق، وبعد أن كان قومه بالأمس القريب قاب قوسين أو أدنى من إقامة دولتهم فى فلسطين، فإن أحلامهم تبددت واستفاد غيرهم من الأوضاع التى تهيأت بسببهم فى آسيا، فقد نزح واستقر العبرانيون البدو أبناء عمومتهم وشرعوا فى تكوين ممالك لهم، فى حين أنهم ما زالوا محاصرين فى مصر وأضحى مستقبلهم ملبداً بالغيوم تكتنفه المخاوف.

وقد كان «آى» يدرك بعد وفاة «تى»، وسقوط إخناتون، وإبعاد جميع أعوانه المخلصين عن المناصب المهمة فى الدولة، أنه أصبح يمثل الأمل الباقى لقومه، وأن تنحيته فى هذه الظروف عن إدارة الحكم ومتابعة شئون العرش سوف تحول تماماً بينه وبين توجيه سياسة الدولة، وتقطع آخر خطوط الاتصال بين بنى إسرائيل وبين أعوانهم فى آسيا، وتضع نهاية مؤسفة لسنوات الكفاح ورحلة تحقيق الأهداف، وتقضى على خطة إقامة الوطن، بل إن هذه الحالة تعتبر ردة إلى نقطة البداية المظلمة التى بدأ منها كفاحهم بعد تشريد حتشبسوت لهم، ولا يعرف ما يمكن أن تأتى به الأحداث لقومه من بعده.

ولا شك أن «آى» كان مثقلاً بتلك الهموم وغارقاً فى التفكير عما يمكن أن تكون عليه الأمور فى المرحلة القادمة.

إن توت عنخ آمون القادم إلى عرشه لن يكون مثل إخناتون؛ لأنه لم يتعلم لدى كهنة إسرائيل، وهو عائد الآن فى قوة وشباب، مفعماً بالنشاط والحيوية يغمره الطموح والرغبة فى استعادة الأمجاد العظيمة السابقة، نشأ رياضياً عسكرياً لا تشغله الشئون الدينية، ونفض عن نفسه جميع مشكلات الماضى التى لا تعدو معلوماته عنها سوى النذر القليل الذى تحتفظ به ذاكرة طفل صغير، فقد كان ميلاده فى المرحلة الأخيرة من حكم والده، ولم يدرك فى سنوات طفولته جميع ما يدور حوله، ولم يشغله والده بهموم الحكم التى تفوق عقله وتكدر سعادته، وأيضاً فإن السنوات الأخيرة السابقة التى قضاها فى منف ملأها مع زوجته بالرحلات الجميلة وممارسة هواياته المحببة، وكانت كفيلة بأن تمحو من ذاكرته رغبات الانتقام والثأر، هذا إضافة إلى أن «آى» مراعاة لحسابات مصلحته المباشرة وصغر سن الملك، وانتمائه لإخناتون المذموم لدى الكهنة ورجال الدولة، فقد حرص على أن يبعده عن إدارات العرش وشئون الحكم، وحجب عنه المشاكل الناجمة عن إزالة آثار العدوان على الآلهة والمعابد وهجوم الكهنة على إخناتون ووصفهم له بالكفر والهرطقة، ولكل هذه العوامل كان «آى» يدرك أنه بعد انتهاء

سنوات الوصاية فإن توت عنخ آمون لن يكون أداة فى يده يحركها كيفما شاء، ولن يملك توجيهه حسب رغباته أو لتحقيق آمال بنى إسرائيل؛ فقد نشأ مصرياً خالصاً يعشق أرض بلاده التى شهدت طفولته وصباه وأيام سعادته، ينتمى إلى أجداده المباشرين من الفراعنة العظام ويعرف تاريخهم ويفخر بأمجادهم، فى حين أن معلوماته عن أجداده الآخرين من أنبياء إسرائيل باهتة وقد تكون معدومة. ومن المتصور جداً أن تكون إقامة الملك فى منف وتدريبه على الرماية والعسكرية أوجدت نوعاً من التفاهم بينه وبين حور محب قائد الجيوش خاصة، وقد رافقه فى حملة عسكرية إلى فلسطين كان من نتائجها إخماد سيطرة العابيرو ودعم النفوذ المصرى.

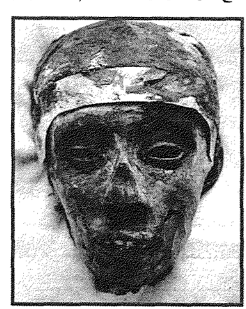


القائد الأعلى للجيش حور محب يتم تكريمه بأمر من الملك توت عنخ آمون (مقبرة حور محب. سقارة)

بات «آى» واثقاً أن انفراد توت عنخ آمون بأمور الحكم سوف يطوى معه إلى الأبد قضية بنى إسرائيل، وسوف تنتهى قوميتهم ويتحولون إلى مصريين خالصين، مثلما يحدث مع كل القبائل المهاجرة، ولن يتحقق حلم العودة لأرض الأجداد، فأصبح يتعين عليه فى هذه الظروف سرعة اتخاذ القرار، الذى ربما أنه راوده فى الماضى وأجّل تنفيذه، وأغلب الظن أنه كان يدفعه ويؤيده نخبة من أعوانه السابقين الهاربين المختفين، وأسباط إسرائيل الذين يعيشون فى شرق الدلتا ويؤازرونه فى الخفاء، ولأن «آى» كان فى نهاية عمره، ولم يعد يبدو فى الأفق أمل غيره، ومن ثم تعين أن يكون القرار المنتظر حاسماً وباتراً ومبدداً لشعور الخوف، وأيضاً مجدداً لأمل مواصلة المسيرة، وأن يأمن قومه بنى إسرائيل من الشتات والضياع، وأن يقودهم إلى فلسطين لإقامة وطنهم، وإذا كان «آى» قد تردد فى الماضى طوال سنوات وصايته على الملك فى تنفيذ خطته لاعتلاء العرش سواء بسبب الروابط والذكريات القديمة مع عائلة الحكم أم خوفاً من كشف جريمته وافتضاح أمره فى زمن عزّ فيه أعوانه، لكنه هذه المرة حسم أمره، وأكاد أخاله فى هذا اليوم الذى عقد فيه عزمه، واقفاً فى قصره فى طيبة يرنو ببصره فى جنح ظلام ليل بهيم مترقباً قدوم نفر حضروا إليه من أرض جاسان فى شرق الدلتا، وفور وصولهم اجتمع بهم فى سرية وحرص واضحين، وربما بادرهم أو أنهم الذين ذكروه بما كان من انتقام حتشبسوت منهم فى الماضى، وما وصل إليه أمرهم فى الوقت الراهن، وبأن الفرعون الشاب أعد نفسه للرحيل إلى طيبة قادماً من منف ليس لحضور إحدى المناسبات الدينية أو الاحتفال بأحد الأعياد الكبرى، ولكن لأجل أن يستلم عرش أجداده وعصا الصولجان كاملة، وسوف يبلغك أيها الكهل الذى كنت تدير له عرشه أنه قد آن لك الآوان بعد كل هذه السنوات أن تستريح ولن يستعين بك بعد اليوم، ولسوف يمنحك

العطايا المالية جزاء لخدماتك، ويقدم لك خالص عبارات الشكر والامتنان، ويأمر النحاتين والفنانين بإعداد بيت الأبدية الذى يليق بك على الأرض التى منحها لك فى مقبرة وادى الملوك، ومرة أخرى لم يكن أمام «آى» بد سوى أن يتخلص من الفرعون الشاب توت عنخ آمون لكى يستطيع أن يصل إلى عرش مصر، ولكن الأسلوب هذه المرة يختلف عما حدث مع سمنخ كارع؛ لأن التخلص من سمنخ كارع تم برضاء الكهنة ومباركتهم، وربما كان لحورمحب قائد الجيش دور فيه أيضاً. ولا يمنع أن يكون «آى» قد أقنعهم أو أدخل فى روعهم أن هذا الملك ما زال يعوق فتح المعابد والرجوع إلى الآلهة، وحسبه أمامهم على إخناتون، أما توت عنخ آمون الملك الشاب الجالس على العرش، فلم يصدر عنه شىء ضد رغباتهم، والمفروض أنه هو الذى أصدر المراسيم التى فتحت المعابد واستعادوا بها أموالهم ونفوذهم، وأعاد النبلاء والأشراف إلى مناصبهم الرفيعة، ولهذا تشير الدلائل والظروف إلى أن «آى» قائد سلاح المركبات القديم حرص على أن يدبر مؤامرة اغتيال الفرعون بحيث يجرى تنفيذها بعيداً عنه، وألا يتطرق إليه الشك فيها من قريب أو بعيد، ولعله استجمع فى تنفيذها خبراته وخبرات عائلته السابقة منذ اغتيال الأمراء أبناء الملك أمنحوتب الثانى.

وتكشف الأدلة الأثرية التى عثر عليها الفارق بين تنفيذ جريمة قتل سمنخ كارع وجريمة قتل توت عنخ آمون، فقد مات سمنخ كارع مسلوباً منه أثاثه وحقوقه الجنائزية ومحروماً من الطقوس الملكية المعتادة لأمثاله من الملوك، الأمر الذى يدل على أن اغتياله كان مستهدفاً ورأسه مطلوباً من الجميع، أما توت عنخ آمون فقد نال حقوقه الجنائزية كاملة من أثاث وطقوس، وعثر على الأثاث الجنائزى الرائع الذى دفن معه بمقبرته ليكون دليلاً على ذلك التكريم، وتولى «آى» مسئولية الإشراف على دفن الملك، وإجراء طقوس الدفن التى تستغرق مدة سبعين يوماً هى فترة التحنيط، ثم نقل جثمانه إلى المقبرة الصغيرة المحفورة فى الصخر والتى أعدت وزخرفت فى عجل وتكدس فيها أثاثه الجنازى مما يدل أيضاً على وفاته المفاجئة. ويكشف هذا التكريم للملك توت عنخ آمون عن أن اغتياله تم مدبراً وفى حرص وخفاء، وقد كان صاحب المصلحة الوحيدة من وفاته هو «آى» الذى حرص على إجراء طقسة فتح الفم للملك المتوفى ليؤكد للجميع ـ حسب التقاليد المقدسة ـ أحقيته فى وراثة عرشه، وفعلاً أصبح ملكاً على مصر دون معارضة.



رأس مومياء توت عنخ آمون

أدلة الاغتيال

أما أدلة اغتيال توت عنخ آمون فنستمدها من وفاته المبكرة والمفاجئة إثر حادث تعرض له وأصيب فيه بكسور، ومن توقيت حدوثها فى سن كان يهم فيه بالانفراد بأمور الحكم بعد انتهاء وصاية «آى» عليه، وربما أنه كان قد شرع

فعلاً فى مباشرة مسئوليات الحكم، واختيار رجال البلاط المعاونين له، واستلام أجهزة الدولة من «آى» تمهيداً لتنحيته، بعد أن كان قد وصل إلى سن تقتضى تقاعده وتكريمه.

وإذ نستند إلى التقرير العلمى الذى أعلنه الدكتور زاهى حواس، الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار فى مؤتمر صحفى فى ٨ مارس ٢٠٠٥، بنتائج أعمال البحث والدراسة العلمية لصور الأشعة المقطعية التى أجريت على مومياء الملك توت عنخ آمون بالأقصر، تحت إشراف مجلس الآثار، وكذا إلى النتائج التى أعلنها أيضا الدكتور حواس فى المؤتمر الصحفى الذى عقد بالقاهرة فى ١٧ فبراير ٢٠١٠ بشأن الدراسات التى أجراها علماء مصريون وأمريكيون، نشير إلى أن نتائج تقرير مارس ٢٠٠٥ قد أفادت أن الملك مات وعمره ١٩ سنة، وكان يتمتع بصحة جيدة، ولم يكن يعانى من أية أمراض أثناء طفولته، أما عن سبب وفاته فقد أرجعها فريق البحث المصرى بعد المشاورات العلمية مع فريق من المتخصصين من إيطاليا وسويسرا إلى ما تبين من وجود أثر لكسر بالساق اليسرى للملك، وأن ذلك الكسر لم يكن من نتائج التحنيط أو من خلال التدمير الذى تعرضت له المومياء عندما قام «كارتر» ـ مكتشف المقبرة ـ بفحص المومياء فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٥، ولكن اتضح أن هذا الكسر حدث قبل وفاة الملك الصغير بحوالى يوم واحد، وهو ما أدى إلى حدوث تلوث أودى بحياة الملك.

بيد أن نتائج الأبحاث التى أعلنت فى فبراير ٢٠١٠ تضمنت بالإضافة إلى نتيجة تحليل الحمض النووى DNA الذى أثبت بنوته إلى إخناتون، وجود اختلاف عن التقرير السابق تمثل فى أن الملك توت عنخ آمون كان شاباً ضعيف البنية، عانى فى حياته مثل أبيه من شق فى سقف الحلق، كما أنه ورث عن جده أمنحوتب الثالث تشوهاً فى قدمه اليسرى، بالإضافة إلى إصابته بمرض «كولر» الذى يدمر الخلايا العظمية ببطء ويمنع وصول الدم إلى عظام القدم، مما يسبب آلاماً شديدة.

وأضافت هذه الأبحاث إلى أسباب وفاة الملك نتيجة حادث سقوطه الذى أصابه بكسر فى عظمة الفخذ اليسرى، ووجود جرح قطعى تلوث مساهمة حالته الصحية الضعيفة، وربما أيضاً تصادف إصابته بمرض الملاريا، فأصبحت كلها أعراض تجمعت فى وقت واحد لتقضى على الملك وتنهى سلالة الأسرة ١٨.

وفى مجال مناقشة النتيجة التى انتهت إليها الأبحاث السابقة فإنه تجدر الإشارة إلى الملاحظات الآتية:

١ـ أن الدراسات والفحوص التى تمت على المومياء سواء السابقة أم التى اشتمل عليها أيضاً تقرير ٢٠٠٥، أظهرت أن المومياء فى حالة سيئة بسبب وجود كسور فى عدد من العظام مثل الجزء العلوى من عظمة الفخذ وعظام الحوض والعظام الخلفية للجمجمة، وانفصال الرأس والرقبة، وانقسام الجذع عرضياً إلى قسمين، والأطراف العليا والسفلى للمومياء مفصولة، كما وجدت بعض قطع عظام مكسورة من المومياء المهشمة مدفونة فى الرمل أسفل المومياء، وقد أرجع التقرير الأخير هذه الكسور إلى التعامل السيئ والتدمير الذى أحدثه هيوارد كارتر مكتشف المقبرة وفريقه عندما اضطر إلى

استخدام أدوات وسكاكين ساخنة لانتزاع القناع الذهبى للملك الذى كان ملتصقاً بالوجه بسبب الزيوت الراتنجية التى سكبت على المومياء بالتابوت، ولاستخراج حوالى ١٥٠ قطعة ذهبية، عبارة عن مجموعة من التمائم كانت حول وداخل المومياء، فيما عدا كسر الساق اليسرى الذى أرجعه فريق فى الدراسة إلى الحادث الذى تعرض له الملك قبل وفاته بيوم.

٢. أشار تقرير ٢٠٠٥ إلى الدراسات السابقة التى أثارت احتمال وفاة الملك توت عنخ آمون مقتولاً نتيجة تعرضه لصدمة باستخدام بلطة على مؤخرة رأسه نتج عنها الكسر الموجود بالعظام الخلفية للجمجمة، وأورد بشأنها أن فريق الدراسة اتفق على أنه لا توجد أدلة على وفاة الملك بسبب تعرضه لضربة رأس؛ لأن القطعة العظمية المتحركة داخل الجمجمة لا يمكن أن تكون نتيجة لأية حادثة قبل الوفاة؛ حيث إنها فى هذه الحالة كانت لا بد أن تكون ملتصقة بسوائل التحنيط، ومن شبه المؤكد أن تكون هذه القطعة العظمية هى جزء من القوس الخلفى للفقرة العنقية الأولى. ويجب أن نلاحظ هنا أن أعضاء فريق الدراسة بعد هذا لم يتفقوا على سبب واحد لإصابة الرأس، فهى فى رأى بعضهم يمكن أن تكون قد كسرت أثناء عملية التحنيط لإدخال سوائل التحنيط داخل الجمجمة (١٣٢٤ ق.م)، ورأى البعض الآخر أن الكسر ربما يكون بسبب تخليص الرأس الملتصقة بأرضية التابوت أو القناع على يد فريق كارتر (١٩٢٥م).

وفى مجال التعليق على هذا الاختلاف بين أعضاء فريق البحث فى تحديد سبب كسر العظام الخلفية للجمجمة، فإننا نرى أن الرأى الذى استبعد حدوث هذا الكسر بضربة آلة حادة قبل الوفاة على سند من أن القطعة العظمية المتحركة داخل الجمجمة فى هذه الحالة لا بد أن تكون ملتصقة بسوائل التحنيط، فإن وجهة النظر تلك لا تستقيم مع إعادة قبول بعض منهم لاحتمال أن يكون ذلك الكسر قد حدث أثناء إدخال سوائل التحنيط داخل الجمجمة؛ لأن نفس ظروف الحالة المستبعدة متوافرة، فقد كان يتعين أيضاً أن تكون القطعة العظمية ملتصقة بسوائل التحنيط طالما أن عملية التحنيط ما زالت مستمرة، ومن ثم فإن القول باتفاق فريق العمل على عدم وجود أدلة على وفاة الملك نتيجة تعرضه لضربه على رأسه استاداً على هذا السبب، أضحى اتفاقاً غير حقيقى، ولا يقوم على سند من الواقع، ويشكك فى قبول هذا الرأى اختلافهم فى تفسير سبب حدوث كسر الجمجمة.

٣. أورد التقرير أنه بشأن تفسير فقدان بعض الأضلاع، وعظمة القفص فى الجدار الأمامى للقفص الصدرى، ووجود كسور فى معظمها بآلة حادة، فإن الفريق كله اتفق على أن الشكل الحالى لا يمكن أن يكون بسبب إصابته قبل الوفاة. ولم يذكر التقرير مبررات لهذا الاستبعاد يمكن مناقشتها، فى حين أن أعضاء الفريق اختلفوا مرة أخرى فى تفسيرها، فقد رأى البعض أنها من أعمال فريق كارتر، ورأى البعض الآخر أن تلك الكسور حدثت أثناء عملية التحنيط، وانتهى التقرير فى هذه الجزئية إلى أنه للوصول إلى السبب الحقيقى سوف يخضع هذا الجزء من الجسم للبحث الأثرى.

٤. اختلف أعضاء الفريق أيضاً فى تفسير سبب الكسر فى الجزء السفلى لعظمة الفخذ الأيسر،

فيرى البعض أن هذا الكسر يدخل ضمن التعامل السيئ فى المومياء بواسطة فريق كارتر: خصوصاً أنه لا يوجد فى هذا الكسر علامات التآم أو آثار نزف دموى، ويرى البعض الآخر أن هذا الكسر مختلف عن الكسور الأخرى بجسم توت عنخ آمون، وذلك لدخول مواد التحنيط داخل الكسر، وهذا يؤدى إلى الاعتقاد بأنه حدث أثناء حياة الملك وقبل عملية التحنيط.

وعلى أية حال، رأى أعضاء الفريق أن هذا الكسر البسيط لم يتسبب فى الغالب فى وفاة الملك؛ حيث لا توجد أية آثار لالتهابات أو تجمعات دموية مجاورة.

ورغم هذا الاختلاف الذى أثبته التقرير العلمى فإن البيان الصحفى الصادر عن المجلس الأعلى للآثار عام ٢٠٠٥، أورد أنه بعد المشاورات العلمية التى تمت بين الفريق المصرى والفريق الأجنبى اتضح أن ذلك الكسر لم يكن من نتائج التحنيط أو من خلال التدمير الذى قام به «كارتر» ولكن حدث هذا الكسر قبل وفاة الملك الصغير بحوالى يوم واحد، وهو ما أدى إلى حدوث تلوث أودى بحياته، (وأضافت أبحاث بيان فبراير ٢٠١٠ تصادف إصابة الملك بالملاريا).

ولم يوضح التقرير ما هو رأى الأعضاء الذين ارتأوا أن سبب هذا الكسر التعامل السيئ مع المومياء الذى حدث من فريق كارتر فى هذا التفسير الذى انتهى إلى اعتباره السبب المباشر الذى نتج عنه التسمم الذى أدى إلى حدوث الوفاة.

٥ـ اختلف أعضاء فريق البحث فى تحديد طريقة تحنيط الرأس، رغم أهمية هذا التحديد فى بيان السبب المباشر لكسر الجمجمة، وكان يمكن فى ذلك المقارنة بالرجوع إلى أسلوب التحنيط السائد لمومياوات من نفس الفترة الزمنية.

٦ـ أورد البيان الصحفى الصادر بشأن تقرير مارس ٢٠٠٥ أنه اتضح للعلماء المصريين أنه لا توجد أى أدلة على قتل الملك، مستندين فى ذلك إلى عدم وجود دليل لوقوع ضربة على مؤخر رأسه، وهذا الاستناد فى تقديرى يعد خروجاً على قواعد اختصاص البحث العلمى الذى يجب أن يقتصر على نتائج الفحص ومظاهره دون إقحام رأيه فى مجال الاستدلال على ما تؤدى إليه تلك النتائج، مع العلم بأنه أصبحت توجد ثلاثة افتراضات مقدمة من العلماء لتفسير سبب كسر العظام الخلفية لجمجمة الملك:

- رأى قديم أنه تعرض لصدمة باستخدام بلطة على مؤخر رأسه.
- رأى أن الكسر ربما حدث أثناء عملية التحنيط.
- رأى أن الكسر حدث ربما بسبب تخليص الرأس الملتصقة بأرضية التابوت على يد فريق كارتر.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن استبعاد قتل الملك عمداً استناداً إلى تلك التقارير الفنية التى يشوب بعض نتائجها الشك لاختلاف العلماء الذين قاموا بالفحص فى تفسير أسباب الحالات التى بدت عليها المومياء الملكية فى وضعها الحالى، فإنه حتى مع التسليم بصحة النتيجة النهائية لسبب الوفاة، فيجب الأخذ فى الاعتبار أن جوهر تدبير فاعل الجريمة والمجموعة التى قامت بالتنفيذ كان الحرص أشد الحرص على إخفاء أية معالم يمكن أن يستدل منها على توافر ركن العمد فى ارتكاب

الحادث الذى أدى إلى وفاة الملك، ليخدع الكهنة والجيش والشعب بأن الوفاة نتجت عن حادث عارض وقع قضاء وقدراً لا توجد فيه أية شبهة جنائية على وجود جريمة؛ لأن حتى مجرد الشك ـ فى هذه الحالة ـ عواقبه غير مأمونة، بل يمكن أن تكون وخيمة على «آى» باعتبار ما هو معلوم أنه المستفيد الأول من وفاته، والأقرب من دائرة الاتهام، وقد لا ينجح فى نفيه عن نفسه وإلصاقه بخصوم للنظام، ومنهم مثلاً أنصار الآتونية، ومن ثم فإن أى أخطاء فى التنفيذ كان يمكن أن تنقلب على «آى» فى ظل هذه الظروف التى ينعدم فيها وجود أعوان مخلصين ظاهرين حوله، وفعلاً استطاع «آى» أن يفلت من جريمته كما أفلت من الآتونية ومن جرائم أخرى سابقة، ويبدو أن خديعته لم تقف عند حد عصره بل إنها ما زالت مستمرة وتؤتى ثمارها، وقد انطلت على العلماء والمؤرخين فى العصر الحديث، والتبس كشف الحقيقة عليهم، فاعتمدوا على ظاهر الفحص فقط كما دبر وأراد «آى» حين ارتكب جريمته، وبعدها أغلق ملف التحقيق سريعاً، وأعلن للشعب والكهنة أن الملك مات نتيجة حادث عارض، ومرة أخرى استند المجلس الأعلى للآثار فى مصر فى تقريره عام ٢٠٠٥م إلى ذات النتائج الظاهرة القديمة لغلق نفس الملف الخاص بأسباب وفاة الملك توت عنخ آمون، مؤكداً انتهاء أية أسباب لإعادة الفحص فى المستقبل، بعد أن خلص إلى أن النتيجة التى انتهت إليها الدراسة محمولة على أسبابها كافية لنفى جريمة القتل العمدى. وعلى حد عبارات التقرير فإنه قد آن للفرعون أخيراً أن يرقد فى مقبرته بسلام وأمان كما أراد لنفسه، وكما أرادت العقيدة المصرية القديمة، ولكن الحقيقة أنه رقد كما أراد له «آى» وفريق جريمته.

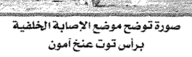


مومياء توت عنخ آمون

وعموماً، فإننا إذ نعول على نتائج الفحص الأخيرة، ولا نستبعد أيضاً الدراسات السابقة، نرى أنه طبقاً للقدر المتيقن من الفحوص التى أجريت على مومياء توت عنخ آمون، أن وفاته قد ارتبطت مع وقوع حادث تعرض له، وسواء كان هناك من أجهز عليه ضرباً بآلة حادة على مؤخر جمجمته وتكسيراً فى عظامه أم أنه تعرض لحادث سقوط ـ فى الغالب ـ من على مركبته الحربية، فإن وفاة الملك جاءت تالية مباشرة للحادث الذى تعرض له، الأمر الذى يكشف بداية أن وفاته جاءت فى ظروف غير عادية ونتيجة حادث.

وعلى الرغم مما أوردناه من ملاحظات قد تنال من تقرير الفحص الأخير فإننا مع ذلك نسلم بصحة النتيجة التى انتهت إلى أن الملك تعرض لحادث لم يكن هو السبب المباشر فى حدوث الوفاة، وإنما نتجت الوفاة بسبب مؤثرات خارجية أخرى تعرض لها الجرح تالية للحادث بفاصل يوم أو أكثر، مما يرجح معه أن الجرح تعرض للتلوث؛ وأصيب الملك بتسمم أدى إلى هلاكه، ولكن أيضاً نرى أن تلك

النتيجة لا تنفى وقوع جريمة القتل العمدى، بل إنها تعكس بصورة واضحة ومباشرة دليل وجود المؤامرة وراء الجريمة التى تم تدبيرها وتنفيذها بتخطيط متقن على خطوات متعمدة ومرتبة ومتفق عليها بين المتآمرين؛ بحيث تؤدى إلى الوفاة وأن يبدو الحادث عارضاً، بل قد ينسب إلى خطأ الملك وسرعته وعدم احترازه أثناء قيادة مركبته، ويمكن أن يكون التفسير المنطقى لترتب تحقيق هذه النتيجة أن تكون الأيدى العابثة المتآمرة قد امتدت وأحدثت تخريباً متعمداً فى أجزاء من المركبة الملكية فى وقت مواكب رتب فيه للفرعون أيضاً أن يضل طريقه عن الركب فى رحلة صيد فى صحراوات منف أو الجيزة على نحو مقصود، وفى الوقت المناسب آتى التخريب أثره، وانفصلت المركبة عن الجياد وسقط عنها الفرعون وأصيب إصابات بالغة.



صورة توضح موضع الإصابة الخلفية برأس توت عنخ آمون

والاحتمال الذى يفرض نفسه أن الخطوة التالية لذلك تمثلت فى تعريض الملك للإهمال أو التراخى المتعمد فى العثور عليه وإنقاذه وإسعافه، أو أنه تعرض لمؤثرات خارجية متعمدة أثناء علاجه أدت إلى حدوث التلوث الذى سرعان ما تسبب له فى تسمم أودى بحياته، وفى هذا يقول التقرير العلمى إن الكسر الذى وقع قبل وفاة الملك بيوم أدى إلى التهاب أودى بحياته.

وعموماً، فهذه صورة من عدة صور أخرى محتملة يمكن أن يكون قد تعرض لها الملك أثناء قيادة مركبته، ولا تتعارض مع نتائج الفحص العلمى للمومياء، منها مثلاً أن يكون أحد جوادى المركبة قد أصابه سهم غادر أثناء سيرها فى منطقة وعرة، فترتب عليه الحادث، أو يكون السهم الغادر قد أصاب الجمجمة الخلفية للملك فاخترق تلك القطعة العظمية المنفصلة من القوس الخلفى للفقرة العنقية الأولى واستقر دون خروج، ثم تبعه سقوط الملك وحدوث كسر الساق أو كسور أخرى.

إذن بصورة واضحة نستطيع أن نستخلص من ذلك الحادث الذى وقع لتوت عنخ آمون الأسلوب الأكثر احتمالاً فى تنفيذ الاغتيالات فى المؤامرات السابقة التى ارتبطت جميعها بأسرة «يويا» الذى كان مشرفاً على الخيول الملكية ورئيس سلاح المركبات الحربية، وأورث وظيفته وخبراته إلى ابنه «آى»، وسوف نعود تفصيلاً لإيضاح هذه النقطة فى الملاحظات التى سوف نبديها بوجه عام على المؤامرات الإسرائيلية التى قدمناها فى هذا الفصل.

وفى مجال استكمال أدلتنا على اغتيال توت عنخ آمون نضيف؛ أن وجود طفلتين ماتتا فى المهد سبقتا الملك الشاب إلى مقبرته، وإن كانت ظروف وفاتهما ما زالت فى علم الغيب فإنها عندما ترتبط مع الوفاة المبكرة للملك فإنها تلقى أضواء كثيفة على أن حياة الملك وأسرته كانت محاطة بالمؤامرات والسعى الدائم للقضاء على وراثة أسرة الحكم التى يحركها الصراع الخفى على السلطة؛ خصوصاً وأن


مومياوان لطفلتين لتوت عنخ آمون وعنخ إس إن با آمون وجدتا بمقبرته

وفاة توت عنخ آمون فى ريعان شبابه هى تكرار لما حدث مع سلفه سمنخ كارع، وفى ظل ظروف ارتبطت بوجود مصالح متباينة، وصراع لم يحسم نهائياً بين طبقة أعوان إخناتون التى هربت واختفت ومعها ثروات طائلة وما زالت مرتبطة مع «آى» بروابط وثيقة وحميمة وبين طبقة الكهنة والأشراف العائدين، وإن كان قد أمكن لآى امتصاص غضبهم ضده، بيد أنه كان يستمد شرعية وجوده من كونه الراعى والوصى على العرش فى ظل قيام مؤسسة دينية قوية وأخرى عسكرية مستقلة لا يملك عليهما أمراً أو رأياً، ومن ثم كان المستفيد الأكبر من وفاة الملكين على التوالى هو «آى» ذلك الرجل الذى أثبتت الأحداث أنه مخادع بلا شك، فهو الذى قاد إخناتون إلى الآتونية وسانده، ثم تنصل منه وتركه لمصيره المظلم المجهول عندما كان ذلك هو الحل، وعاش الصراعات التى تهدد أسرة الحكم وكان ضالعاً فى تأييدها منسوباً إليها، واعتبر الأب الروحى لهم وعاصر سقوطهم على التوالى فى زهرة شبابهم وبقى هو، ودون أى سند شرعى اعتلى عرش الفراعنة وسط ترحيب وتأييد الجيش والكهنة.

وأخيراً يمكن أن نختتم أدلة اغتيال توت عنخ آمون من ظروف تالية حدثت بعد وفاته أصابت أرملته الصغيرة، بنت إخناتون، فقد أجبرت على الزواج من جدها «آى» - فى الغالب أنه كان زواجاً صورياً - من أجل أن تمنحه صك الشرعية فى ولاية العرش باعتبارها الوحيدة الباقية من سلالة عائلة الحكم وأرملة الملك السابق، وبعدها اختفت تلك الزوجة فى ظروف ما زالت غامضة بعد أن نسب إليها المتآمرون ارتكاب جريمة خيانة عظمى، كانت هى آخر شىء معلوم تاريخياً لآخر شخص بقى فى عائلة إخناتون، وفى تقديرى كانت أيضاً المؤامرة الأخيرة التى كشفت مخططات بنى إسرائيل وأهدافهم ووضعت نهاية لعصرهم الذهبى فى مصر وقادتهم إلى العبودية والتعذيب.

المؤامرة الأخيرة

تولى «آى» حكم مصر عام (١٣٢٤ ق . م) محاطاً بالظروف الآتية:

أولاً: كان عمر الملك يناهز السبعين عاماً، ولم يثبت وجود أبناء ذكور له لوراثة العرش.

ثانياً: كان مجرداً من أعوانه المخلصين الذين اختفوا جملة من على الساحة السياسية بعد انتهاء عهد إخناتون، وأعتقد أن كثيراً منهم كان هارباً وعلى اتصال سرى به.

ثالثاً: كانت المؤسسة الدينية وعلى رأسها معابد الإله آمون على أقوى ما يكون من السيطرة والثراء، فقد استعادت بالكامل نفوذها وثرواتها بل أكثر مما كانت تمتلكه فى الماضى، وذلك بفضل خضوع «آى» واستسلامه لرغبات الكهنة وأوامرهم منذ أن بدأ وصايته على العرش، كسباً لرضاهم عليه، وضماناً لعدم معارضتهم ولايته للحكم.

رابعاً: كانت المؤسسة العسكرية مستقلة تماماً تحت قيادة قائد الجيش حور محب وبالتبعية أصبحت السياسة الخارجية تحت إدارته، وكان رجلاً عاقلاً متزناً عمل على إعادة تنظيم الجيش وتعبئته، وكان يعرف قدرات جيشه جيداً، وليس لدينا شك فى أن حور محب - حسبما اتضح فى فترة حكمه بعد ذلك - اتجهت أنظاره إلى جبهة سوريا التى عانت كثيراً من الخسائر تحت حكم إخناتون، وكان حريصاً على استعادة الممتلكات التى سلبها الحيثيون فى الشمال السورى، ولكنه آثر التريث فى إرسال حملات إلى هذه الجبهة لعدم الدخول فى معارك غير مأمونة العواقب. وعلى الجانب الآخر، فإن الحيثيين لم تكن لهم أطماع فى مصر أو فلسطين، ولذلك فقد ساد السلام جو الدولتين «خيتا ومصر» فى هذه الفترة، وبفضل هذه السياسة الحكيمة تمكن حور محب من توطيد حكم مصر لفلسطين وإخماد سيطرة «العابيرو»، وشن غارة رائعة على فلسطين رافقه فيها الملك «توت عنخ آمون»، وانتصر على تلك القبائل انتصاراً كبيراً سجله على جدران قبره فى سقارة.

خامساً: كان نتاج العوامل السابقة أن الملك «آى» تولى الحكم مقيد الحرية مغلول الحركة مسلوباً منه إدارة أجهزة الدولة الكبرى، خاصة المؤسستين الدينية والعسكرية. فلم يكن يملك أى نفوذ عليهما أو توجيه لهما.

ومنذ بداية حكمه كان «آى» واضعاً فى تقديره كل هذه القيود والظروف السلبية المحيطة بعرشه؛ لأنها فى الواقع لم تطرأ بعد ولايته، وإنما بدأت وجاءت نتيجة لسقوط إخناتون، واستمرت معه خلال فترة وصايته على حكم توت عنخ آمون، ومن ثم فإنه كان مدركاً أن استمرار هذا الوضع قائماً خلال حكمه سوف يغل يده ويجعله فاقداً الإمكانات والقدرات التى يمكن أن تساعده على تحقيق الأهداف التى سعى للحكم فى هذه المرحلة من عمره لأجلها، ويأتى على رأسها خروج بنى إسرائيل إلى فلسطين ومعهم أموالهم التى جمعوها خلال حياتهم الرغيدة فى مصر لإقامة وطنهم الآمن، السعيد والموعود، ذلك الهدف الذى حفظه تراثهم واجتمعت عليه عقيدتهم، وجعلهم يتمسكون بقوميتهم وعنصرهم لأكثر من ثلاثة قرون من الزمان مرت منذ دخول أجدادهم مصر، وأيضاً من الصعب أن نسلم بأن أهداف «آى» فى هذه المرحلة قد انحسرت مع ظروف سقوط الآتونية والأعوان وتقدمه فى العمر، وأصبحت تقتصر على ترحيل قومه وتهيئة عوامل الاستقرار لهم فى فلسطين وكفى؛ لأنه قطعاً يعلم أن مصر عاجلاً أو آجلاً لن تقبل هذا الوضع، وسوف تنتقم منهم وتسترد أهم مستعمراتها، وسيكون مستقبل دولتهم عندئذ الهزيمة والإبادة أمام جحافل المصريين القادمة لا ريب، ولهذا فإنى أعتقد مؤيداً بعدد من المظاهر التى سوف تتضح لنا مع تفاصيل تلك المؤامرة، أن أهداف «آى» وطموحه بعد حكم

الإمبراطورية التى كانت لا تزال تحتفظ بنفوذها على فلسطين تمثلت فى أن يحكم الدولتين تحت سيادته الكاملة، ثم ترتيب القيادة التى تخلفه على العرش، وربما فى ظل حكم الآتونية التى كانت كامنة فى صدور أتباعها تنتظر الفرصة المناسبة للانطلاق.

وإذا كانت تلك أهداف «آى»، فإنه ورغم إدراكه أن اعتلاءه كرسى الحكم فى ظل هذه الظروف ليس كافياً لتحقيقها، إلا أنه كان واثقاً أن سلاح دهائه يمكن أن يقوده هذه المرة أيضاً إلى التخلص من أعدائه، وتحطيم قيوده، وفى الأيام الأولى لدخوله القصر الملكى فور نجاح المؤامرة التى قادته إلى العرش، وحين كان جثمان الملك الشاب ما زال راقداً تجرى له عملية التحنيط، والجميع فى انتظار إتمام طقوس الدفن، شرع الكهل الصاعد إلى العرش فى حبك مؤامرة جديدة، قاده فيها شيطانه إلى أن يوظف فى تدبيرها الأرملة الصغيرة الحزينة على زوجها الملك المتوفى، فاستغل يأسها وحزنها محوّراً فى الأحداث، وسواء أكان أقنعها أم دبر من نفسه، فإنه أرسل باسمها كتاباً إلى ملك الحيثيين تبلغه أن زوجها قد مات وليس لها أبناء وتستنجد به ليرسل أحد أبنائه ليكون زوجاً لها، بزعم أنها تشمئز من الزواج بأحد رعاياها، ومن أجل إقناعه واستدراجه زيّن له كتابها أن الزوج القادم لها سوف يصبح ملكاً على مصر، وأرسل الملك المندهش رسولاً ليستوثق، وعاد بكتاب آخر يؤكد صدق النبأ والبشرى فأرسل أحد أبنائه، ولكن الأمر كان مدبراً واغتيل الأمير الحيثى قبل أن يصل إلى مصر، وتوقع «آى» أن تؤدى جريمته إلى إشعال نار الحرب بين مصر ودولة خيتا القوية، وتنتهى بهزيمة الجيش المصرى، وتقضى على أعدائه فى الداخل، وبعدها يستطيع أن يستغل الظروف لصالحه ويتفاوض مع حلفائه السابقين ويقتسما الثروات، وكادت المؤامرة أن تنجح فعلاً لولا أن ظروفاً طرأت لم تكن فى الحسبان.

ونعرض للقارئ أدلتنا على ارتكاب المؤامرة، وتصورنا لمراحل تنفيذها ونسبتها إلى الملك «آى»، وحتى لا نتهم بأن وجهة نظرنا وأدلتنا تعتمد على مجرد التخمين والحدس أو أنها تنطوى على تحميل للوقائع أكثر مما يحتمله الواقع الذى تحمله المصادر، فإننا سوف نستند فى تدرج سير الأحداث على قراءة المصادر التاريخية والوثائق التى عثر عليها سواء المصرية أم الحيثية، وتفسيرها، واستخراج الأدلة منها على ضوء الظروف السياسية المصرية، والعلاقات المصرية الحيثية، واضعين فى الاعتبار التصور الذى قدمناه عن حياة بنى إسرائيل ودورهم فى الأحداث السياسية المصرية، والتى اضطلع «آى» بقيادتها فى تلك الفترة، ونتدرَّج فى عرض الظروف وتصورنا لمراحل الأحداث على النحو التالى:

١- سبق أن بينا أن فلسطين - آنذاك - كانت مستعمرة مصرية مهمة، وقد تسببت السياسة المصرية فى عهد إخناتون فى إضعاف الوجود المصرى بها، وزحفت إليها الهجرات البدوية العبرانية من الجنوب والشرق، وقتلوا أمراء الأقاليم الموالين لمصر فى ظل وجود - بل حماية - الحاكم المصرى فى فلسطين فى ذلك الوقت وهو القائد السامى «يانخام» (إيان - حام)، ولكن بعد استقلال حور محب بإدارة السياسة الخارجية وقيادة الجيش، فإنه وطد دعائم مصر على فلسطين وتغير الوضع

السابق نسبياً لصالح مصر.

٢ـ حدث فى آسيا الصغرى أن مملكة خيتا الكبرى (الحيثيين) وموطنها الأصلى الأناضول ـ تركيا الحالية ـ بدأت عصراً جديداً تحت حكم ملكها (شوبيلو ليوما الأول) القوى الطموح، وقد استطاع أن يحقق هدف دولته الإستراتيجى من التوسع فى البلاد التى تقع إلى الجنوب من مملكته على حساب الوجود المصرى المتخاذل والمتهاون ـ وغير المبرر ـ فقد اجتاح دولة الميتانى ـ شمال بلاد النهرين ـ الموالية لمصر. وفرض سيطرته على مدينة قرقميش، وأجبر الميتانيين على الانسحاب والتراجع، ثم اجتاح غرب سوريا كله، واستمر حتى وصل إلى مدينة قادش الحيوية التى كانت حصناً للقوات المصرية الميتانية، وفى خضم الأحوال الداخلية السيئة فى مصر بعد وفاة إخناتون، وظروف انتقال العرش بلغت الأزمة السورية ذروتها عندما اجتاحت جيوش خيتا مقاطعة آمورو فى وسط سوريا، والتى كانت فى الأصل مملكة آمورو المستقلة قبل أن تتحول إلى مقاطعة مصرية، وأجبر ملك خيتا مملكة آمورو على الخضوع له، وكان قد سبق هذا الغزو أنه استغل ملك آمورو التابع لمصر وخدعه وساعده على التوسع ببسط سيادته على الساحل الفينيقى (اللبنانى) من جبيل حتى أوجاريت، ومن ثم فقد استسلمت جميع هذه الإمارات للحيثيين نتيجة لسقوط آمورو فى يدهم، وجاءت إلى مصر فى عهد توت عنخ آمون آخر رسائل سوريا تقول: «كل الأراضى من جبيل (بيبلوس) إلى أوجاريت انتزعت من يدى سيدها ملك مصر والتهمتها الإمبراطورية الحيثية».

حدث كل هذا فى سوريا تحت سمع وبصر الحاكم المصرى للمستعمرات القائد السامى «يانخام» وبعلم «دودو» المسئول عن السياسة الخارجية فى العاصمة المصرية «آخت آتون»، ودون أى حراك لإنقاذ الموقف، وعلى النحو الذى فصلناه وفسرناه سابقاً.

٣ـ بعد أن آلت قيادة الجيش المصرى إلى حور محب بعد سقوط إخناتون، فإنه اكتفى خارجياً بتحسين الوضع وإثبات الوجود المصرى فى فلسطين التى لم يكن للحيثيين أطماع فيها، ثم عمد إلى توطيد دعائم جيشه وإعادة بنائه دون أية محاولة أو تفكير فى هذه المرحلة لاسترداد السيطرة المصرية المسلوبة على الأراضى السورية، وبأية حال فإن مصر لم تكن تقوى على مواجهة الحيثيين فى ذلك الوقت بسبب ظروف الضعف والانحلال والتفكك التى مر بها الجيش المصرى منذ بداية حكم أمنحوتب الثالث وحتى آلت إليه قيادته، ولهذا فضل حورمحب سياسة المهادنة مع الحيثيين حتى يحين الوقت المناسب، خشية أن يدفع جيشه إلى مغامرات غير محسوبة فى سوريا ضد عدو قوى.

٤ـ فى ظل هذه الظروف أصبح «آى» ملكاً على مصر، ونعرف أنه كان محاطاً بقيود وأغلال داخلية تمنعه من الاستقلال بالحكم وتحقيق أهدافه، وبسبب وجوده قبلها وصياً على عرش توت عنخ آمون، ومن قبل أدار السياسة الخارجية لمصر فى عهد إخناتون ووظف أعوانه لتنفيذها، فإنه كان على بيّنة كاملة أن الحيثيين حلفاؤه والطرف الثانى فى مؤامرة تقسيم المستعمرات قد حققوا ـ بفضله ـ هدفهم الإستراتيجى بالتوسع فى أراضى سوريا والميتانى التى تقع إلى الجنوب من دولتهم، وليست لهم أطماع

فى مصر أو فلسطين، ولكن أيضاً لا شأن لهم بفشل العبرانيين فى فرض سيطرتهم على فلسطين وإقامة دولتهم، ومن خبراته كان «آى» واثقاً أن حور محب القائد الحصيف الذى صقلته التجارب لن يندفع فى هذه المرحلة إلى محاربة الحيثيين، وأنه يفضل التريث فى استعادة سوريا حتى يعد جيشه، ويتحقق الاستقرار الداخلى، ومن ثم كان المحور الرئيسى فى تخطيط «آى» أن يفرض الحرب على الطرفين، وعمد فى تدبيره أن يجعل من حور محب العدو الرئيسى لملك خيتا، والسبب المباشر لقيام الحرب، والهدف المقصود، مُبيتاً أن يجر مصر إلى حرب غير متكافئة تنتهى بانتصار الحيثيين وسحق الجيش المصرى وتخلصه من حور محب إلى الأبد، وفى الوقت المناسب يقدم مساعدته لحلفائه السابقين مرة أخرى ويهيئ لهم دخول مصر ويعترف بسيادتهم مؤقتاً، ويستعين بقوتهم على الكهنة، ويستطيع أن ينفذ اتفاقه القديم معهم بإقامة وطن لبنى إسرائيل والعبرانيين فى فلسطين، ويصبح ملكاً على مصر وفلسطين موالياً لإمبراطورية خيتا، وربما ينسحب الحيثيون بعد الانتقام وحصولهم على الغنائم تاركين له ترتيب الأمور.


خاتم آى وعنخ إس إن با آمون
(أرملة توت عنخ آمون)

٥ـ بدأ «آى» خطوات مؤامرته فور وفاة الملك توت عنخ آمون، وفى البداية استلزم الأمر لشرعية ولايته العرش أن يتزوج من أرملة الملك المتوفى، الملكة «عنخ إس إن با آمون» آخر الباقين على قيد الحياة من سلالة العائلة المالكة. وفى تقديرى أن هذا الزواج تم ظاهرياً ولكنه كان صورياً لتحقيق هذا الغرض فقط، فالملكة الشابة حفيدته فهى بنت نفرتيتى، ونعلم أن «آى» فى حقيقته التى يخفيها كان على عقيدة التوحيد، ديانة أنبياء إسرائيل التى تحرم هذا الزواج، ويؤكد الصورية أنه لم يثبت تحقق هذا الزواج سوى على أثر واحد وهو خاتم جمع بين اسم الملك «آى» والملكة الشابة، وخلاف ذلك فى جميع الآثار التى صور عليها «آى» كملك، وفى مقبرته نجده فى صحبة زوجته تى الثانية (أم نفرتيتى وجدة الأرملة) بوصفها ملكة دون أى وجود لزوجة أخرى، الأمر الذى يعنى أن إثبات هذا الزواج فى حينه اقتصر على الناحية الرسمية التى تحقق شرعية اعتلاء الملك الجديد العرش وكفى، دون اعتراف حقيقى من «آى» بوجودها كزوجة فى حياته. وقطعاً فإن الملكة الأرملة التى صورت آثار عديدة حبها وحنانها ومداعبتها ومرافقتها دائماً لزوجها توت عنخ آمون فى رحلاته بل فى كل رحلة حياته منذ سنوات الصبا فى «آخت آتون» وفى صحارى مصر وحدائقها وفى الاستراحات وقصور الشمال والجنوب العامرة فإنها كانت حزينة ويائسة، وحفظ لنا التاريخ صورة جسدت حبها وحزنها تمثل فى باقة الزهر الرقيقة التى وضعتها فوق صندوق المومياء تحية وداع لزوجها ورفيق صباها الذى رحل عنها إلى العالم الآخر، وبكل هذا قدمت لنا الملكة الصغيرة الدليل الدامغ على أنها كانت نافرة مشمئزة من مجرد الارتباط أمام


صورة تخيلية للملكة الأرملة عنخ إس إن با آمون
(رسم فنان المصريات وينفريد برونتون)

شعبها بهذا الملك الكهل حتى ولو كان ارتباطاً تعرف فى داخلها أنه صورى، ولكن «آى» الأب الروحى للعائلة المالكة والجد الطيب استطاع أن يستغل هذه العواطف الجياشة والحزن العميق اللذين اختلجا فى صدر الملكة على توت عنخ آمون، وغالباً نجح فى أن يقنعها أنه بإعلان زواجه منها وتولى العرش يحميها من كهنة آمون وغيرهم أعداء أبيها الذين لم تتخلص قلوبهم الحاقدة بعد من بغضه وعداوته، وربما ألقى فى روعها أنهم كانوا وراء التخلص من زوجها، وأنه آثر عدم الإعلان عن ذلك وكشف أمرهم لعدم إثارة الفتنة والاضطراب فى الدولة تحيناً للوقت المناسب للانتقام منهم، وأكاد أخال جدتها «تى» وهى تضمها فى أحضانها وتطيِّب خاطرها، والعجوز «آى» قائماً أمامها يعتصره الحزن والألم وهو يكمل خطته ويوضح لها كيف أن الكهنة ومعهم حور محب يحاصرونه، وأنه لا يأمن جانبهم ويخاف من سطوتهم وجبروتهم، ويحكى لها ما فعلوه سابقاً بوالدها وعمها سمنخ كارع وشقيقاتها اللاتى اختفين جميعاً، وأكاد أراه يتلفت يميناً ويساراً راصداً أرجاء القصر الملكى قبل أن يكشف لها عن التدبير الذى انتواه للانتقام من هؤلاء الأعداء الطغاة، وهو أن يستعين بصديقه ملك الحيثيين ليخلصه منهم، واصطنع التردد كثيراً قبل أن يقترح عليها رأيه فى أن يكتب إليه طالباً منه أن يرسل لأجلها أحد أبنائه الكثيرين ليصبح زوَجاً لها، وأنه سوف يرتب أمره مع هؤلاء الأصدقاء الأقوياء ليصبح الأمير القادم ملكاً على مصر، وربما فى البداية يشركه معه فى الحكم ليكون مؤهلاً لخلافته أو يمكن أن يتنازل له فى مرحلة قادمة ليطمئن قلبه عليها وهو فى هذه السن المتقدمة، قبل أن يرحل إلى العالم الآخر، ولأن الملكة الصغيرة الحزينة لا تعرف الكثير عن أمور الدولة والسياسة، فقد عاشت حياتها بعيدة عنها، ولأنها تثق فى هذا الجد الطيب الذى كان وصياً على عرش زوجها، وأقرب الرجال المخلصين لوالدها إخناتون، فلم يكن أمامها طريق سوى أن تقبل الزواج من هذا الأمير الأجنبى، واثقة من صدق «آى» وإخلاصه، ووافقت على إرسال الكتاب الذى عرض عليها «آى» مضمونه وكان مكتوباً بلغة الأجانب التى لا تعرفها.

٦ـ بالقطع كان «آى» يعلم أن زواج الملكة المصرية من أجنبى هو سابقة لم تحدث من قبل لأميرات البيت الحاكم، ثم أن يصبح هذا الأجنبى ملكاً على مصر هو ضرب من المستحيل لا يفرضه سوى هزيمة عسكرية ساحقة ماحقة، ولهذا كان غريباً أن يعثر على هذه الخطابات ضمن الوثائق الحيثية التى اكتشفت فى عاصمتهم بأناطوليا، ومن الطبيعى أنه لم يعثر على أية مصادر مصرية تحمل أو تشير إلى أية معلومات عن خروج مثل هذه المكاتبات من مصر، وكان المعتقد أحياناً بين بعض الدارسين أن تلك الخطابات قد كتبت من نفرتيتى بعد وفاة إخناتون، ولكن بعد مقارنة تواريخ لأحداث حيثية تبين

أن الوقت الذى حدثت فيه تلك الحوادث كان بعد موت إخناتون بعشر سنوات على الأقل، وبهذا انحصر الرأى العلمى فى أن أرملة توت عنخ آمون هى صاحبة هذا الطلب الغريب.

ونعرف من الوثائق الحيثية التى عثر عليها أن أرملة الملك المصرى المتوفى أرسلت خطاباً إلى «شوبيلو ليوما» ملك الحيثيين تقول فيه: «مات زوجى وليس لى ابن، ويقولون عنك إنك لك أبناء كثيرون، فإذا أرسلت لى ابناً لك فإنه يمكن أن يصبح زوجى فأنا لن أقبل بأية حال من الأحوال أن أتزوج واحداً من رعاياى فإن ذلك شىء أمقته».

وكان طبيعياً أن يدهش ملك الحيثيين من هذا الطلب لدرجة وصلت إلى حد الصدمة، وأدرك أن فى الأمر خدعة، فهو يعلم أن شيئاً من ذلك لم يحدث من قبل، فقد كان ملوك الفراعنة هم الذين يتزوجون من أميرات أجنبيات، ولكن لم يحدث من قبل أن تتزوج ملكة مصرية من أمير أجنبى، لذلك قام بإرسال مبعوث إلى بلاط مصر ليتأكد من هذا الطلب الغريب، وعاد الرسول ومعه رسالة أخرى من الملكة قالت فيها: «لماذا تقول إنهم يريدون خديعتى؟ فإذا كان لى ابن فهل كان فى وسعى أن أكتب إلى أجنبى كاشفة عن مصيبتى ومصيبة بلادى؟ إنك أهنتنى بقولك هذا، إن من كان زوجاً لى قد مات وليس لى ابن فهل يتحتم على أن أتزوج من أحد رعاياى؟ إنى لم أكتب لأحد سواك، الكل يقولون إنك لك أبناء كثيرون فأرسل لى واحد منهم ليصبح زوجى وسوف يكون ملكاً على مصر».

ولما تأكد «شوبيلو ليوما» من صدق الرغبة، أرسل ابنه الأمير «زنا نزاخ» معتقداً أن مصر قدمت له على طبق من ذهب، وأن الفرصة قد سنحت ليحقق وحدة إمبراطورية خيتا والإمبراطورية المصرية، ولكن الأمير لم يصل أبداً إلى مصر، ونعرف من المصادر الحيثية أنه قتل فى طريق رحلته بعد أن هاجمه «رجال وخيل مصر»، وفشل الحلم ولم تتحقق الوحدة بل نشبت الحرب بين الدولتين.

لم تكتب هذه الخطابات باللغة المصرية القديمة وإنما بالخط المسمارى لغة دولة خيتا، الأمر الذى قد يوضح أنها كتبت فى البلاط الملكى الذى اعتاد مثل هذا الإجراء فى مخاطبة الدول الأجنبية، وأرسلت مع أحد المبعوثين الذين يمكنهم القيام بهذه المهمات السرية وتفتح لهم الأبواب الملكية. واستحالة تصور مضمون ما تحمله هذه الخطابات وانعدام الوسيلة لتحقيق تلك الرغبة، هو الذى يؤكد طبيعة وجود المؤامرة، والتى لا بد أن يكون وراءها قصد أو غرض آخر خفى غير ذلك الذى تحمله الرسائل، وقد جاء اغتيال الأمير الحيثى كاشفاً عن الخيوط التى قادت إلى وجود شخصية كبيرة وذات إمكانيات خلف الرسائل وطلب الأرملة، فالملكة الصغيرة بعد وفاة ملكها لم يعد لها حول ولا قوة ولا تملك النفوذ أو الإمكانات أو الوسائل إلى تحقيق تلك الرغبة، ولا يقوى عقلها على التفكير فى إتيان هذا التصرف الغريب الذى لم يسبق حدوثه فى مصر، أما وقد ثبت أنه حدث، وعلى نحو، حسبما يظهر، يفيد تكرار الطلب وتأكيد مضمونه فى الرسالة التالية التى حملها الرسول إلى ملك الحيثيين والتى اتجهت إلى إزالة ما اعتمل فى صدره من شك - فى الحقيقة أنه كان يصادف الواقع - بأن فى الأمر خدعة كبيرة، ومن ثم فإن الواقعة فى حقيقتها تحمل ترتيباً مغايراً للظاهر وخلفيات يستلزم الأمر

استخراجها من تفاصيل الصراع والأحداث، ولا يمكن لنا أن نسلم كما سلم معظم المؤرخين بنسبة تلك الخطابات للملكة الصغيرة البائسة والوحيدة من كل شئ، ومع استبعاد نسبتها إلى الأرملة وحدها، فهى بالقطع لم تصدر من حور حب أو يشارك فيها؛ لأنه ليست له مصلحة فى ذلك، بل إن مضمونها يسير فى اتجاه معاد ومعاكس لسياسته ومصريته ووطنيته القوية والواضحة، فلا يتبقى إذن سوى الملك «آى» ذو الجذور غير الوطنية، والذى كان يخطط للإطاحة بحور محب والقضاء على سيطرة الكهنة.

وقد يثار هنا أنه كان الأيسر والأجدر «لآى» أن يرتب لاغتيال حور محب ويتخلص منه كما تخلص من غيره فى السابق، دون الحاجة إلى إقحام مصر فى مغامرة عسكرية لا يضمن أن تصب نتائجها فى محيط مصلحته ورغباته. وهذا القول مردود بأن حورمحب بعد أن أصبح القائد الأعلى للجيوش المصرية أعاد ترتيب وتنظيم صفوف الجيش ووحداته واختيار قادته ورجاله بموضوعية واستقلال تام بعيداً عن رغبات البلاط الملكى وأهوائه، واستطاع أن يخرج المؤسسة العسكرية برمتها عن سيطرة الفرعون بعد وفاة إخناتون، ومن ثم فقد كان «آى» يعلم أن اغتيال حور محب بمفرده لن يطلق يده فى التصرف ولن يتغير من الأمر شئ ولن تمنحه الحق فى تغيير القيادات أو تسريح الضباط والجنود، ولم يكن نائب حور محب والذى أصبح فيما بعد رمسيس الأول يقل عنه قوة وصرامة وعسكرية، ولهذا فقد اتجهت رغبة «آى» إلى قهر المؤسسة العسكرية وإعادة زمامها إليه كاملاً لإعادة ترتيبها كما كانت أيام إخناتون، ولن يتحقق ذلك إلا بعد هزيمتها عسكرياً من الحيثيين، والذين سوف يساندونه بعد ذلك فى تحقيق أهدافه.

٧. نستطيع إذن أن نستخلص أن الملك «آى» رتب لاغتيال الأمير الحيثى فى رحلته قبل أن يصل إلى مصر، قاصداً أن يؤدى ذلك إلى انتقام ملك الحيثيين وإشعال نار الحرب بين الدولتين، وربما أنه أوعز بطريق أو بآخر برسائل الملكة ونقلت إلى حور محب، فدفع إلى الأمير القادم مَنْ قتله، وهذا ما أستبعد حدوثه استناداً إلى أن صفات حورمحب تؤكد أنه أعقل من أن يتهور فى تصرف أحمق يؤدى إلى حرب ضد الحيثيين، ولو كان قد علم لعالج الأمر بأسلوب يتسم بالحكمة ودون تشهير بمصر وسمعة أسرة الحكم، والاحتمال الآخر الذى أرجحه أن «آى» الذى كان على علم بخروج الأمير الحيثى ويترقب حضوره أرسل أتباعه الذين قاموا باغتياله قبل دخوله مصر، ورتب أمره بحيث يشاع وينقل إلى ملك الحيثيين أن رجال حور محب هم الذين ارتكبوا هذا الفعل.

٨ اندلعت الحرب بين المصريين والحيثيين فى نهاية عهد ملكهم «شوبيلوليوماش» وتذكر مصادر خيتا أنهم البادئون بشن الحرب على مصر، وزعم حور محب أنه انتصر على خيتا فى هذه الحرب، ولكن نستطيع أن نستخلص حقيقة الأحداث من مصادر خيتا المسمارية التى تكشف أن الملك «شوبيلوليوماش» أقدم على الانتقام من مصر لقتلها ابنه، ولكنه توفى والحرب مشتعلة، وتولى بعده خليفته ابنه الملك «مورسيل الثانى»، وسار فى طريق الانتقام والأخذ بالثأر، وتذكر تلك النصوص أن الحيثيين انتصروا على الجيش المصرى ورجالته وفرسانه وأسروا منهم خلقاً كثيراً، ثم حدث ما لم يكن

فى الحسبان ذلك أنه لسوء الحظ كان من بين الأسرى فرقة انضمت من أحد المعسكرات المصرية فى سوريا، وكان بينهم مرضى مصابون بالطاعون فنقلوا هذا الوباء الفتاك وانتشر انتشاراً عظيماً فى بلادهم وجيوشهم، والغالب أنه كان لهذا الحادث أثره فى أن تضع الحرب أوزارها، فقد أهمتهم مصيبتهم، واضطر ملكهم إلى وقف القتال، ولم يستطع مواصلة المسيرة إلى مصر، وفُرض على الطرفين الاستسلام والانسحاب، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى صار الطاعون من الأمراض المستوطنة فى مملكة الحيثيين ونكبهم نحو عشرين عاماً، وشغلهم عن متابعة انتصارهم على المصريين، وادعى كل طرف أنه المنتصر.

٩- خابت إذاً مؤامرة «آى» ولم تستكمل جريمته أركانها لسبب لم يتوقع حدوثه ولا تملك إرادته تغييره، وهو نكبة الحيثيين بوباء الطاعون واضطرارهم إلى الوقوف عند هذا الحد والانسحاب، وبعد أن عاد حور محب بجيشه فإنه قطعاً لم يترك الأمور تمر دون معرفة الأسباب التى فرضت عليه الحرب، ويلزم منطق الأشياء ويستفاد من أحداث تالية أنه أمر بإجراء تحقيق تحت إشرافه المباشر للوصول إلى قصة الأمير الحيثى وسبب حضوره إلى مصر، ومن كانوا وراء اغتياله، ونستخلص من الظواهر التالية أن نتيجة هذا التحقيق - الذى استغرق وقتاً بسبب إجراءات السرية وتشعب الأحداث - قد أسفرت عن معلومات خطيرة تمس الملك نفسه وكشفت تورطه فى المؤامرة ولم يستطع حجبها أو التحكم فى نتائجها، وربما أن حور محب أخفاها عنه، وفرضت النتائج أن تمتد التحقيقات إلى وقائع أخرى كانت خافية وشملت مستويات أوسع، واستمرت فى سرية تحت إشراف قائد الجيش، وسوف يتضح أن نتائج تلك التحقيقات لم تقف عند حد كشف الأسرار الخفية وراء رسائل الملكة والمتورطين فى قتل الأمير الحيثى وتحديد الأسباب التى أدت إلى اندلاع الحرب، وإنما انبلجت معها حقائق أخرى كثيرة وفجرت طوفاناً من الأسرار اختفت طويلاً داخل نطاق عائلة يويا وأعوانهم، وكانت تحرك الأحداث التى تموج بها مصر، لقد كشفت التحقيقات الشاملة أيضاً حقيقة الملك «آى» وانتماءه الأجنبى الذى لم يتخلص منه، وحددت الأهداف الإسرائيلية وفضحت حلم الهجرة إلى فلسطين، وعلاقة هذا الشعب بعقيدة التوحيد، وحددت أعوان الآتونية وقيادتها الإسرائيلية وأماكن انتشارها وخطرها الكامن الذى ما زال قائماً ومستمراً، ولم ينته بسقوط إخناتون، كما ادعى «آى» للكهنة وظل طوال الثلاث عشرة سنة الماضية يوهم بذلك. ولا أستبعد أيضاً أن تكون التحقيقات قد كشفت عن المؤامرات الإسرائيلية السابقة وعلاقة «آى» الوثيقة مع الحيثيين، وأثر خيانته وأتباعه على سقوط الممتلكات المصرية فى سوريا. لقد انكشفت إذاً مؤامرات «آى» وأهدافه، وانتهت التحقيقات إلى تحديد مسئوليته، ونسبت إليه ارتكاب جريمة خيانة عظمى، وزعامته لمجموعة كبيرة من الأفراد تعمل ضد مصر.

وتؤكد لنا صحة افتراضية تحقيقات حورمحب والاستخلاصات والنتائج التى ترتبت عليها، المظاهر التاريخية التالية:

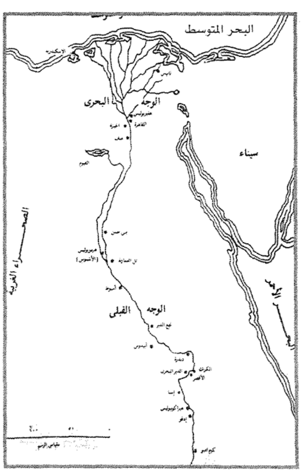
أولاً: اختفاء الملكة «عنخ إس إن با آمون» قبل أن ينتهى حكم الملك «آى» الذى استمر ثلاث سنوات،

وكان آخر شىء معلوم لها هى تلك الرسائل المنسوبة إليها إلى ملك الحيثيين، وبعد ذلك لم يعرف لها خبر أو قبر، الأمر الذى قد يوضح أنها حوكمت وعوقبت.

ثانياً: بعد أن كان موضوع الآتونية قد انتهى بصدور مرسوم توت عنخ آمون الذى رد ممتلكات المعابد، وأعاد الأوضاع السابقة للكهنة وأشراف القوم إلى ما كانت عليه وأكثر، إذا بنا نفاجأ بعد ثلاثة عشر عاماً بملف الآتونية يعاد فتحه من جديد فى بداية حكم حورمحب وبصورة أكثر عنفاً وشراسة، فقد أصدر أوامره بالقبض على جميع أتباع إخناتون وحوَّل حصن منطقة ثارو العسكرية إلى سجن حربى وضعهم فيه، وجعل المسئول عنه وزيره «بارع مس» (رمسيس الأول فيما بعد) الذى استخدم المساجين أتباع إخناتون وكثير من السكان الذين يسكنون فى المنطقة القريبة من ثارو كعبيد للقيام بأعمال البناء الشاقة على الحدود المصرية وفى الأشغال الملكية، وبدأ ضدهم حملة الانتقام والتعذيب.

والجدير بالملاحظة أن مدينة ثارو المحصنة، والتى عثرت بعثة الآثار المصرية على بقاياها عند موقع «تل الحبوة» بالقنطرة شرق تقع قريبة جداً من أرض جاسان التى عاش فيها بنو إسرائيل، وقد اعتبرها البعض عاصمة أرض جاسان، وكانت تقع عند بداية طريق حورس الحربى الذى يربط مصر بفلسطين فى شمال سيناء.

ولم يكتف حور محب بذلك فقط بل إنه فور تتويجه أصدر أوامره بتطهير جميع أنحاء البلاد من أتباع إخناتون، وأمر بهدم معابد ومقاصير آتون التى كانت مقامة شرق الكرنك، واستخدم أحجارها فى حشو الصروح الثلاثة التى أقيمت فى عهده فى معابد الكرنك، وهى الصرح الثانى غرباً والصرحان التاسع والعاشر جنوباً، وبهذا العمل الانتقامى حفظ لنا حور محب - دون أن يقصد - أحجار معبد آتون الذى أقامه إخناتون فى الكرنك فى بداية عهده، وبلغ المكتَشف نحو (٤٠٠٠٠ حجر) يطلق عليها الدارسون معمارياً اسم «التلاتات» وقد تم تصوير هذه الأحجار فوتوجرافيا كما تم تصنيفها ورقمت ترقيماً كودياً، وأجريت عليها دراسات أثرية دقيقة باستخدام الكمبيوتر بمعرفة جامعة بنسلفانيا بالاشتراك مع هيئة الآثار المصرية، وأحدثت النتائج التى تم الوصول إليها فى هذه الدراسات ثورة فى معلوماتنا عن السنوات الأولى من حكم إخناتون ونفرتيتى،



دمر حور محب عاصمة إخناتون فى تل العمارنة ونقل أحجارها لبناء معابد ومنشآت فى الأشمونيين على الضفة الغربية للنهر وهدم معبد آتون فى الكرنك

كما تمكن الأثريون من تركيب مجموعة من هذه الأحجار في ضوء تصور الترتيب الذى كانت عليه وهى مركبة فى جدران المعبد.

وأيضاً بدأ فى عهد حور محب هدم مدينة «آخت آتون» (العمارنة) ذلك العمل الذى استكمله الرعامسة بعده، وقد دمرت هذه المدينة تدميراً حتى سوِّيت بالأرض، ونقلت أحجار مبانيها ومنشآتها إلى الضفة الغربية للنيل فى الجهة المقابلة، حيث توجد مدينة «هرموبوليس» (الأشمونيين حالياً) واستخدمها رمسيس الثانى وخلفاؤه فى بناء معابد ومنشآت جديدة فى تلك المدينة. وقد عثرت البعثة الأثرية التابعة للمتحف البريطانى على العديد من تلك الأحجار فى الحفائر التى أجرتها فى الأشمونيين.

ويمكن القول فى هذا الشأن إن حورمحب كان همه الأكبر خلال مدة حكمه الإصلاح الداخلى وإزالة كل آثار السنوات التى خلفها حكم إخناتون وعقيدته.

ثالثاً: نعلم أن «آى» تولى الحكم بتأييد حور محب والكهنة ومباركتهم، ولا يوجد ثمة ما يدل على أن حور محب كان مناهضاً لآى فى بداية الأمر، بل على العكس فإن لدينا من المبررات التاريخية ما يدل على أنه هو الذى رفعه بنفسه إلى أسمى مناصب الدولة، وقد صور الاثنين معاً فى جنازة توت عنخ آمون، وكان «آى» يتقدم الجنازة بملابس الفرعون وحور محب بوصفه قائد الجيوش وصور فى مرتبة أعلى من مرتبة الوزير، كما زار «آى» منف فى السنة الأولى من حكمه، وكانت وقتئذ مقر الجيش ومقر حور محب، أما ما حدث بعد ذلك فعلاً من سلوك حورمحب تجاه «آى» فقد كان شيئاً غريباً يصعب تفسيره سوى فى ضوء المبررات التى سقناها واستخلاصنا لمؤامرة «آى» الأخيرة فقد أظهره بمظهر المغتصب للعرش الذى كان من حقه هو لما كان لديه من الأسباب القوية التى تخول له هذا الحق.

وفى هذا الشأن فقد استرعى انتباه الدكتور سليم حسن - فى الجزء الخامس من موسوعته مصر القديمة - وكان محلاً لدهشته، أن حور محب قبل توليته العرش وفى عهد توت عنخ آمون لم يظهر اهتماماً كبيراً لاستعمال لقب «ربعت» فلم يذكر بين ألقابه إلا نادراً، وكان هذا لقباً يحتل به صاحبه المكانة الأولى فى البلاط ويخوله وظيفة المدير العظيم للبيت، وقد استعمل فى آخر الأسرة الثامنة عشرة ليدل على الوصى على العرش الذى يقوم بإدارة البلاد فى المدة التى يكون فيها الملك قاصراً، أما لقب القائد الأعلى فكان دائماً فى هذه الفترة يذكر بكثرة فى طليعة ألقاب حور محب، وأضيف هنا أن ذلك يجد تبريره فى أن «آى» هو الذى كان يقوم بهذه الوظيفة فعلاً وتصريف مهام الدولة، وكان هذا مانعاً لحور محب من انتزاع هذا الحق لنفسه. أياً ما كان، فإنه عندما تولى «آى» الحكم لم يصبح فى يد حور محب من السلطة إلا القيادة العامة للجيش، ويكمل الدكتور سليم حسن ملاحظته - التى يرى بسببها أن حورمحب ثار على «آى» فيما بعد وخلعه عن العرش - بأنه قد حدث تحول مفاجئ فيما دونه لنا على تمثاله المزدوج مع زوجته، والمحفوظ الآن بمتحف تورين والذى نحته بعد تولى الملك وسجل عليه تاريخ حياته الرسمى وولايته الحكم، حيث تعمد أن يسقط حكم «آى» وصور نفسه على أنه تولى العرش

مباشرة بعد الفرعون، وإن كان اسمه لم يذكر إلا أنه يستخلص من روايته أن هذا الملك لا يمكن أن يكون إلا توت عنخ آمون، وأصبح فى مقدوره وقتها أن يأتى من الأسباب ما يبرر شرعيته لتولى العرش فقد استغل لتبرير استيلائه على العرش وظيفته بوصفه وصياً على عرش الملك فى عهد توت عنخ آمون، وذكرها مراراً وتكراراً ليبرر فى البلاد كلها للعيان أنه «الوصى على العرش» والواقع أنه لم يحمل هذا اللقب قط فى صورته هذه قبل توليه العرش، فلم يعثر عليه أبداً فى الآثار التى تركها قبل تنصيبه ملكاً، وعلى العكس نجده هذه المرة يتجاهل لقب «القيادة العامة للجيش» لقد كان إذاً يريد أن يثبت أن لقب الوصى على العرش للملك القاصر توت عنخ آمون يجعله يصبح بطبيعة الحال أول مستحق للعرش بعد موته.

ويأتى مؤيداً لاضطهاد حورمحب لآى وإنكاره له أنه محا اسمه من على آثاره أينما عثر عليه، واستولى على معبده الجنائزى بمدينة هابو، وأجرى توسعات فيه لحسابه، وهدم قبره.

وعموماً فإنه للأسباب السابقة فقد لاحظ كثير من الدارسين وجود غموض فى انتهاء حكم «آى»، ورجحوا أنه لا بد من حدوث أمر ما بينه وبين حورمحب أدى إلى قيامه بثورة عليه وخلعه عن العرش، ويرى الدكتور سليم حسن أن ملابسات الأحوال تدل أن «آى» مات حتف أنفه، وأعلن عليه القائد الأعلى للجيوش «حورمحب» العصيان وقتله، ويستند فى ذلك إلى أنه تجاهل عهد سلفه «آى» فى نقوشه التى تركها لنا عن كيفية توليه عرش مصر. ورغم ملاحظته الصائبة فى أن اضطهاد آثار «آى» ليس له دخل بمناهضته الإصلاح الدينى الذى حدث بعد إخناتون لأن ذلك قد انتهى فى السنة الأولى من عهد توت عنخ آمون، فإنه مع ذلك يعتقد بوجود علاقة ما بين هذه الاضطهادات وثورة إخناتون، وإذ يقر بأنه ليست لدينا حقائق ثابتة عما حدث، وأن قصة خلع «آى» لا تزال مجهولة، وأن كل ما قيل عن كيفية تولى «حورمحب» الملك وشرعيته لا يخرج عن الحدس والاستنباط فإنه فى موضع آخر فى دراسته يحاول أن يبحث عن حل، ويرى أنه من المحتمل أن «حور محب» قد اعترف بشرعية «آى» على عرش الملك عندما تم الزواج بينه وبين «عنخ إس إن با آمون»، وأن ثورته التى خلع بها «آى» لم تحدث إلا بعد موتها، فبموتهات قطعت الرابطة التى كانت تربط «آى» بالأسرة المالكة. أما لقبه والد الإله الذى يبدو أنه قد اعتمد عليه أيضاً فى اعتلاء العرش فكان لا يعترف به، وأنه بموت الملكة أصبح فى مقدور حورمحب أن يدعى لنفسه الملك، ولكنه يضيف فى النهاية أن هذه النظرية ينقصها بكل أسف البراهين.

(يراجع فى ذلك دراسته حول حورمحب قبل توليته العرش، وحورمحب على عرش الملك).

وبالقطع فإن هذا التفسير الأخير أمر لا يقبله العقل، فإذا كان اعتلاء «آى» العرش قد ارتبط مع زواجه بالملكة التى تنتمى إلى عائلة الحكم فإنه لا يمكن أن يستمر هذا الارتباط قائماً، لاستمرار الملك على عرشه، ويصعب أن ننسبه إلى حورمحب صاحب الرأى الصائب والفطنة السديدة والذى كان يعتز بثقافته الأدبية وتحصيل العلم واحترام القوانين والعدل.

إن الانتقام الذى حدث لآى لا شك يرتبط ويتزامن مع اختفاء الملكة «عنخ إس إن با آمون» ويجد

تفسيره فى اكتشاف حور محب للمؤامرة التى جمعتهما وكشفت خيانتهما للوطن وبررت إعدامهما، خصوصاً وأنه قد ارتبط مع ذلك أيضاً كشف أمور أخرى اقتضت - كما سلف - إعادة فتح ملف الآتونية الذى كان قد أغلق، والتنكيل والانتقام من أتباعها، وتدمير آثارها، والذى بدأ فور انتهاء حكم «آى».

رابعاً: نستند فى أن نتائج تحقيقات حورمحب قد أسفرت عن أمور كثيرة أخرى تتعلق بالآتونية وارتباطها ببنى إسرائيل أصحاب عقيدة التوحيد فى مصر، أنه كان من المظاهر التاريخية التى صاحبت حكم حورمحب رد فعله العنيف ضد عائلة أمنحوتب الثالث، والذى تمثل فى إنكار وجودهم وحكمهم، وأرخ بداية حكمه ابتداء من وفاة أمنحوتب الثالث، رافضاً ومنكراً لحكم «أمنحوتب الرابع، سمنخ كارع، توت عنخ آمون وآى» كما لو أنهم لم يكن لهم أى دور أو وجود فى التاريخ المصرى القديم، وأعلن أن السنوات التى مضت حتى تاريخ توليه العرش يجب محوها من الحوليات والقوائم الرسمية. وعلى الرغم من أنه حكم سبعة وعشرين عاماً، فإن بعض العلماء يرى أنه حكم تسعة وخمسين عاماً اعتماداً على هذا الإنكار والتجاهل لأعوام ملوك الآتونية الذين سبقوه. وعلينا أن نلاحظ أن هذا الموقف من حورمحب هو نتيجة أمر طارئ وظروف استجدت خلال فترة حكم «آى» جعلته يأخذ هذا الاتجاه الجديد. لأننا نعلم بيقين أن جميع مؤسسات الدولة - خصوصاً الدينية والعسكرية وحكام الأقاليم - قبلت حكم «توت عنخ آمون وآى» وساندته، وكان موضوع الآتونية قد انتهى واستقر الموقف فى جميع الأقاليم المصرية على عبادة الآلهة القديمة.

وعلى هذا الإنكار سار الملوك فى العصور التالية، فعلى جدران أحد معابد الملك سيتى الأول فى أبيدوس صُوِّر الملك رمسيس الثانى يقدم القرابين لملوك مصر وعددهم ستة وسبعون ملكاً ابتداء من الأسرة الأولى وأسقط من القائمة ملوك الآتونية، فبعد أن وصل إلى أمنحوتب الثالث أتبعه مباشرة بحورمحب؛ لأنهم فى رأيه ملوك مارقون وخارجون على الديانات المصرية، ناظراً إليهم نفس نظرته إلى ملوك الهكسوس المغتصبين الذين أسقطهم أيضاً من القائمة، وكذلك الأمر فى قائمة سقارة التى عثر عليها فى مقبرة أحد الكهنة الذى عاش فى أيام رمسيس الثانى.

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الإنكار حدث على المستوى الرسمى أو الحكومى فقط، أما على المستوى الشعبى والأفراد فقد ظلوا يعترفون بهؤلاء الملوك كفراعنة لمصر خلال عهود حكمهم، فهذا الكاهن «عنخف - إن - سخمت» كاهن الإله بتاح، الذى عاش فى الأسرة الثانية والعشرين، حوالى عام (٧٥٠ ق . م) كتب نسباً طويلاً لعائلته ذكر عليه ستين جداً له، كتب أمام الكثيرين منهم أسماء الملوك الذين عاشوا أيامهم (حوالى ١٣٥٠ سنة) وذكر بعض أسماء ملوك الهكسوس ولم يحذف عصر العمارنة، ولكنه عبر عن عدم رضاه عن الملك «آى» بكتابة اسمه دون وضعه فى خانة ملكية. وهذا أيضاً الكاهن «مانيتون السمنودى» الذى كتب تاريخ مصر للملك بطليموس الثانى (حوالى ٢٨٠ ق . م) وضع ضمن جداول الأسرات وأسماء الملوك فترة الهكسوس وملوك العمارنة.

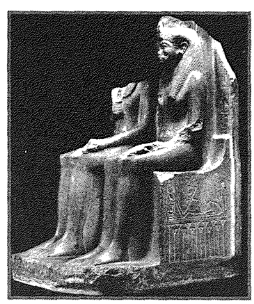
خامساً: يستفاد من عدة مصادر أن حور محب بعد أن تولى الحكم أقام فترات طويلة فى شرق

الدلتا، إن لم يكن قد نقل إقامته إليها فعلاً، رغم أن عاصمة الدولة الرسمية هى طيبة، والعاصمة التقليدية القديمة منف، وهذا يؤكد أن منطقة شرق الدلتا موطن بنى إسرائيل ومنبع عقيدة التوحيد فى مصر كانت فى اعتقاده مكمن الخطر الذى يهدد مصر، والذى كرس جهوده لإزالته واقتلاعه من البلاد، وقد ارتبط بذلك وجود السجن ومعسكر التعذيب لأتباع تلك العقيدة فى منطقة حصن «ثارو» العسكرية والقريبة من تلك المواقع، وارتبط أيضاً مع بداية عهده، واستمر خلال حكم سيتى الأول ورمسيس الثانى تسخير فئة «العابيرو» فى العمل المضنى فى أعمال البناء والمشاريع العمرانية، وخصوصاً فى منطقة شرق الدلتا والحدود الشرقية.

١٠ـ وعودة إلى تسلسل الوقائع، فإنه يأتى فى ختام الظروف التاريخية ومراحل أحداث تلك المؤامرة، أنه رغم خطورة هذه الجريمة وجسامتها والتى وصلت ـ لأول مرة فى تاريخ مصر ـ لدرجة محاكمة الفرعون وزوجته الملكية التى رفعته للعرش وإعدامهما، فإننا نعتقد لأسباب عديدة أن حور محب حاول قدر جهده – على الأقل لحين ولايته العرش – أن يحيط إجراءات التحقيق والمحاكمة وتنفيذ الحكم بسرية شديدة، وإن كان تبريره لذلك وقتها كان لا شك مصلحة الدولة وكرامتها وهيبتها فى العالم الخارجى وسمعة أسرة الحكم، ودواعى الأمن الداخلى للقبض على المجرمين والأعوان، وأن يحول بينهم وبين الهرب، بيد أن القصد الحقيقى والأكيد الذى دفع حورمحب إلى الحرص على ذلك هو رغبته فى أن يحافظ على الوضع الملكى لأى كفرعون للبلاد حتى يجد هو طريقه الشرعى إلى الحكم. لقد كانت التقاليد المصرية تحتم أن الملكة التى تلد ولى العهد يجب أن تكون هى الوريثة الشرعية، أى الابنة البكر للملك السابق، ويمكن أن تؤدى مخالفة تلك التقاليد التى تعتبر دستوراً غير مكتوب إلى معارضة الكهنة لاعتلاء الملك للعرش، فقد كان المصريون القدماء يعتقدون بالميلاد المقدس للفراعنة، وقبل دخول الملك على زوجته كان يذهب أولاً إلى المعبد حيث يتم تطهيره بالماء المقدس، ثم دهان جسمه بالزيوت والعطور، وأثناء ذلك يرتل الكهنة بعض الأناشيد المقدسة الهدف منها دعوة روح آمون للحلول فى جسد الفرعون، وبعد أن يتم ذلك الحلول، يدخل الملك على زوجته، وبذلك يصبح الابن الذى يولد من هذه العلاقة ابناً لآمون.

وبحسب الاعتقادات المصرية، فإن آمون يرفض الحلول فى جسد الملك إذا لم تكن زوجته هى الوريثة الشرعية الابنة البكر للملك السابق، وفى الحالات النادرة التى وقعت فيها مخالفة لهذه التقاليد فإنه تم التحايل على ذلك باختلاق قصة تخرج من معبد الإله تجعل الملك ابناً مباشراً لآمون بعد اجتماعه مع أمه التى ليست وريثة شرعية.

وعلى ذلك فإن حور محب كان يعرف أن الطريق الشرعى الذى يرفعه إلى العرش هو ضرورة أن يتزوج من «موت نجمت» بنت الملك «آى»، وهى الباقية الوحيدة التى تمنحه الحق فى خلافته على العرش، وكان ذلك هو الإجراء المعتاد والمتبع الذى فعله قبله «آى وتوت عنخ آمون وسمنخ كارع» للوصول إلى الحكم، وهذا يعنى أن تجريد «آى» من ألقابه الملكية فى هذه الظروف يمكن أن يترتب عليه خلق



التمثال الجرانيتى للملكة موت نجمت
مع الفرعون حور محب

مشكلة فى وراثة العرش، حرص حورمحب على تجنبها، وغالباً أن «موت نجمت» نفسها لم تعلم بحقيقة ما حدث لوالدها فى حينه، وتم تصوير ما حدث على أنه موت طبيعى. وإذا أردنا أن نضع تصوراً لسير الأحداث بعد اكتشاف مؤامرة «آى» فيكون أنه غالباً استدعى إلى منف من قيادة الجيش فى العام الأخير من حكمه لأمر مهم، وعاد إلى طيبة جثة هامدة ملفوفة فى أكفانها، وفى نفس التوقيت خرج حور محب من منف قادماً إلى طيبة فى موكب حافل وأجرى مراسم الدفن للملك السابق، وفى قصة تتويجه على تمثاله الجرانيتى مع زوجته الملكية حرص على إبراز التأصيل الشرعى لولايته، فبعد أن خرج من منف قادماً مع إلهه المحلى «حور» سار به إلى الكرنك ليقدمه أمام «آمون» ليقلده وظيفة الملك «وتوجه آمون به نحو القصر وأتى به (آى الملك) أمامه إلى محراب كبرى بناته (موت نجمت) فقدمت له الخضوع وقبلت جماله وقعدت أمامه» وفى اجتماع الآلهة وكل تاسوع الآلهة الذين يشرفون على العرش العظيم أحضر آمون ابنه أمام القصر ليضع تاجه على رأسه وسط ابتهاج جميع آلهة مصر.

وبعد انتهاء الطقوس الدينية والشرعية طبقاً للتقاليد أطلق حور محب يده فى الانتقام وإقرار النظام وتصفية الخائنين، وإزالة آثار السنوات الماضية. وأميل إلى الاعتقاد بأنه حرص على علاقته مع زوجته فلم يأخذها بذنب أبيها وعاملها المعاملة اللائقة بها، وأيضاً فإن الزوجة استسلمت لقدرها راضية مرغمة بعد أن فقدت جميع الأهل والأحباب.

وهناك احتمال كبير فى أن يكون حور محب قد أطلع مورسيل ملك خيتا على محاكمة الخائنين والإجراءات التى اتخذت ضدهم، واعتبر ذلك من قبيل الترضية والاعتذار، واتجه إلى استقرار الأمور فى آسيا وعقد معه معاهدة ضمنت استقرار الحدود للطرفين..

تلك إذاً كانت المؤامرة الأخيرة لبنى إسرائيل فى مصر، وإذا كانت المؤامرة الأولى قد قادتهم إلى القصر الملكى وعرش الفراعنة فإن المؤامرة الأخيرة فضحت جميع مؤامراتهم وقادتهم إلى العبودية والهوان.

فى المؤامرة الأولى فتحت لهم «موت إم أويا» البوابة الملكية، وبعد ستة وسبعين عاماً أخرجتهم فى آخر المؤامرات «عنخ إس إن با آمون» إلى معسكرات التعذيب والاعتقال، وشاءت الأقدار أن تبقى فى القصر الملكى واحدة فقط منهم هى بنت الفرعون «آى». لتصبح امرأة الفرعون حور محب، المؤمنة بالتوحيد، بقيت رغماً عنهم، وفرض وجودها طقوسهم وتقاليدهم القديمة التى حتمت على فرعون أن يتوجه إلى محرابها لتقبله زوجاً وتؤهله ليضع التاج ويحكم مصر، إنها حكمة الله تعالى التى أبقتها

تعيش بين أعدائها لأنه - سبحانه - أراد لها أن تربى نبى الله موسى عليه السلام القادم لخلاصهم، وتحقيق ما فشلوا فى تحقيقه عن طريق مؤامراتهم.

ويأتى مدعماً ومؤكداً وسيداً لجميع أدلتنا فى افتضاح أمر بنى إسرائيل وكشف أهدافهم فى نهاية مؤامراتهم مع بداية حكم حورمحب ما نزل به القرآن الكريم من أن فرعون مصر المعاصر لميلاد موسى كان يعذب طائفة ضعيفة من المصريين يَدخل ضمنهم بنو إسرائيل الذين كانوا يعيشون فى مصر، وكان يقتل أطفالهم ويستبيح نساءهم، وأن ذلك بسبب إيمانهم بالله والذى يظهره الله تعالى فى أول سورة القصص من رغبته فى أن يمن عليهم وينصرهم، وسوف تثبت أدلتنا معاصرة ميلاد موسى لحكم حور محب على النحو الذى يتفق ويؤكد المظاهر والأحداث التى حملتها المصادر التاريخية.

■ ■ ■

ملاحظات على المؤامرات

بصفة عامة فإن المؤامرات الإسرائيلية يمكن أن تثير بعض الملاحظات نحاول أن نحصرها فى الآتى:

أولاً: أسلوب تنفيذ الاغتيالات

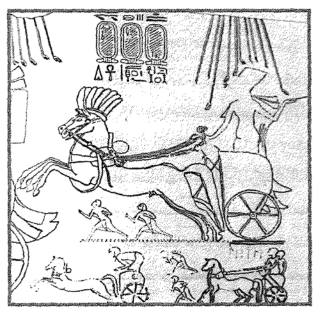
إذا كان تنفيذ المؤامرات - حسبما أوضحنا - قد ارتبط بعائلة «يويا» ومع بداية ظهورها فى النصف الثانى من الأسرة الـ ١٨، فإن عائلة يويا ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بسلاح المركبات الحربية، وسوف نحاول من هذه الملاحظة أن نجد العلاقة بين صناعتهم وتنفيذ مؤامراتهم.

لقد كان «يويا» ضابطاً مهماً بسلاح المركبات الحربية، وكان مشرفاً على الخيول الملكية، وبعد أن أصبح له نفوذ كبير ومناصب متعددة فى عهد أمنحوتب الثالث ظل محتفظاً برئاسة هذا القطاع، واستمر معه هذا المنصب أيضاً حتى بعد أن انتقل كاهناً لمعبد الإله «مين» فى أخميم، ولم يتركه إلا بعد أن أورثه لابنه «آى» الذى شغل هذه الوظيفة فى عهد إخناتون، وقد حصل «يويا» فى عهد أمنحوتب الثالث على وظيفة قائد الفرسان، وكانت هذه الرتبة أعلى درجات هذا السلاح، وهى نفس الوظيفة التى رقى إليها «آى» فى عهد إخناتون، ويبدو أن ارتباطهم بهذا السلاح وفنونه ارتباط قديم ومتأصل منذ زمن وتتوارثه أجيالهم.

ويجدر أن نذكر أن هذا السلاح دخل مصر فى بداية الأسرة الثامنة عشرة، وعرفه المصريون من الهكسوس الذين أدخلوا عربة القتال والخيل وجلبوها معهم من أقوام الشمال، واستعملها كامس وأحمس فى حروب التحرير، ثم استمرت فى مصر وأصبحت لها صناعة خاصة بها، وكان من الأمور الشاقة تربية الخيول، وكانت تربى فى ضياع الفرعون وضياع معابد الآلهة الكبرى، وبدأ فى عهد تحوتمس الثالث تكوين جنود لعربات القتال وتنظيم وظائف هذا السلاح، وارتفعت مكانة هؤلاء الجنود على كل أنواع الجنود الآخرين المقاتلين بسبب أهمية هذا السلاح وقوته الرادعة، وكان يوجد بداخله

وظائف لتدريب الفرسان والجياد، ومن الوظائف الخطيرة بهذا السلاح سائق عربة جلالة الملك، فكانت ذات مرتبة عالية، حيث كان الفرعون يكلف سائق عربته الأول بالقيام ببعثات خاصة لجلالته فى الخارج. وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت مراكز معسكرات الفرسان فى منف وطيبة، وفى عهد إخناتون أقيمت ثكنات للفرسان فى تل العمارنة مجهزة بساحات عظيمة للتمرين.

وإذ نحاول أن نستقصى علاقة أسرة يويا بهذا السلاح، فمن المناسب أن نتذكر أن ملك الهكسوس الذى يحكم مصر طلب من يوسف أن يتخير من إخوته ذوى القدرة ويجعلهم رؤساء لمواشى الملك، وقد كان للهكسوس المقاتلين اهتمام خاص بالمركبات والجياد. وانتقل هذا الاهتمام ليوسف. وذكر سفر التكوين استعماله لها فى عدة مواضع، ولهذا أعتقد أن البدايات الأولى لارتباط هذه العائلة بالخيل والمركبات ترجع إلى إسناد هذه الأعمال إليهم منذ زمن يوسف، واستمرت فنونها وخبراتها تتناقل فى أجيالهم حتى فرضت خبرتهم نفسها مع ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذين كانوا فى حاجة شديدة فى حروبهم إلى من يتقنون صناعتها وفنونها والعناية بالجياد وتدريبها. ولعل هذا التفسير يقودنا أيضاً إلى بداية ارتباط عائلة «يويا» واقترابها من الملوك والأمراء والذى نتبينه منذ عهد أمنحوتب الثانى ثم فرض نفسه بوضوح فى عهد تحوتمس الرابع، والغالب أنه بدأ سابقاً لأجيالهم الأولى مع الملوك الأوائل لهذه الأسرة.



الملكة نفرتيتى تقود عربتها الخاصة وفى أسفل المنظر ترى الأميرات يقدن عربتين أخريين، ونلاحظ التحكم والمهارة فى القيادة من الملكة والأميرات والقفزات الهائلة للجياد

وتوضح لنا مناظر تل العمارنة غرام وإتقان أفراد هذه العائلة لرياضة الفروسية وقيادة المركبات، والتى انتقلت خبراتها إلى نساء تلك العائلة بحكم ما توفر لهن، وقد صورت نفرتيتى وبناتها وهن يمارسن تلك الرياضة بمتعة كبيرة وفنيات رائعة، وفى أحد المناظر صورت نفرتيتى تقود مركبة وتمسك بيدها اليمنى اللجام بطريقة تنم عن خبرة جيدة فى قيادة الحصانين وينطلقان بها فى قفزة هائلة تعطينا إحساساً بالسرعة الهائلة التى كان يجرى بها الحصانان، وفى يدها اليسرى تمسك كرباجاً وفى مؤخرة العربة نرى الجراب الذى تحفظ فيه الأسهم، وقد حرصت على توفير هذه المتعة لبناتها اللاتى يظهرن فى بعض المناظر وهن يقدن عرباتهن الخاصة، وحرص الفنان على



إحدى بنات نفرتيتى وقفزة هائلة بالجياد

إظهار التقنيات والخبرات التى يتميزن بها فى قيادة المركبة والتعامل مع الخيل لتزيد من سرعتها، والذى لاشك فيه أن وجود «آى» كقائد للخيول الملكية قد وفر للملكة وللأميرات خير وسائل التعليم والتدريب وأفضل الخيول وأحسن العربات.

فإذا كانت هذه القوة العسكرية الرادعة قد توافرت لهذه العائلة وارتبط بها طاقم كبير من الفرسان والجنود المخلصين الذين يتم اختيارهم من قادة هذا السلاح، والذى يرتبط بالقصر الملكى ارتباطاً مباشراً، وبصورة تكاد تكون يومية بسبب أهميته العسكرية والمدنية، فإن هذا الأمر لا شك منحهم قدرات واسعة فى استغلال إخلاص وولاء معاونيهم، واستخدام إمكانات سلاحهم سواء فى أغراضه المشروعة أم إساءة استخدامه فى أغراض أخرى.

وتكشف الإصابات المبينة بمومياء الملك توت عنخ آمون حسبما أوردت تقارير الفحص أنها جاءت نتيجة مباشرة لحادث تعرض له قبيل وفاته ربما بنحو يوم، ومع ما أظهرته مصادر عديدة من غرام هذا الملك برحلات الصيد والتنقل فى أرجاء مصر وصحاريها لممارسة هواياته باستخدام المركبات الحربية فإن الاحتمال الذى يفرض نفسه والأكثر ترجيحاً أن الحادث الذى تعرض له الملك وقع أثناء استخدام مركبته، وأياً ما كانت الطريقة التى تم بها تنفيذ قتل الملك، فإن طاقم القيادة والخدمة الذى يصاحب الملك وكوكبة المركبات التى تتبعه تنتمى إلى سلاح المركبات والفرسان والذين تختارهم القيادة بعناية وحرص.

رحلة صيد لتوت عنخ آمون

وقد جاء هذا الحادث ليؤكد صحة احتمالات كانت تطرح نفسها وترفع شكوكاً كانت تساورنا إلى درجة تقرب من اليقين عن كيفية التمكن والقدرة على تنفيذ اغتيالات لشخصيات على قدر عال من الأهمية والحرص على حياتها، ويتم اختيار معاونيهم ومرافقيهم وحرّاسهم بمعرفة السلاح الملكى الخاص، وتتجلى الصورة واضحة فى أن الجريمة أو الجرائم التى استهدفت ولى العهد ابن الملك أمنحوتب الثانى وجمع من أشقائه الأمراء تمت بنجاح ودون أن تجر البلاد إلى فتنة أو حالة من الفوضى، الأمر الذى يقطع بوقوع حادث أو حوادث وراء تصفيتهم، وانتهت التحقيقات بشأنها إلى اعتبارها قضاء وقدراً، وليست مؤامرة على أسرة الحكم، وتكرر نفس الأسلوب فى المؤامرات التالية فى صور مختلفة وأماكن متغايرة حسب الظروف، وأيضاً لم تحمل النتائج شكوكاً أو اتهامات ضد فاعلين أو متآمرين. ولما كنا قد نسبنا هذه المؤامرات إلى عائلة «يويا» على توالى أفرادها ومعهم أعوانهم المخلصين للأسباب

التى أوضحناها فى حينه لكل مؤامرة، فإننا أيضاً نسير فى طريق صحيح إذا انتهينا إلى استغلالهم لصناعتهم ذات الخبرات الخاصة والتقنيات الصعبة، سلاح المركبات الحربية، بالاشتراك مع أعوانهم المدربين والمختارين لشغل وظائفه المختلفة لتحقيق أغراضهم وتنفيذ جرائمهم.

ثانياً: قد يرى البعض أن نتائج دراسة المؤامرات تحمل تناقضات، وأنه نسب إلى أصحابها صفات لا تستقيم مع أفعال التآمر والاغتيال، أو أنهم سعوا إلى تحقيق أهداف متباينة لا تجتمع.

فكيف يتأتى لمن يتحلوّن بالإيمان ويسعوْن لنشر رسالات الأنبياء ارتكاب الاغتيالات وتدبير الحروب؟ وكيف لمن يقتلون ويسعون لأجل المال والنفوذ أن ينسب إليهم فى الوقت ذاته السعى إلى نشر عقيدة التوحيد ورسالة السماء التى تحض على مكارم الأخلاق والإصلاح فى الأرض؟ وقد رأينا أنهم الذين علموا إخناتون العقيدة التى حملها إلى المصريين، وأنها نفسها عقيدة أنبياء إسرائيل، وكان نتيجة ذلك أننا انتهينا إلى أن المؤمنين المستضعفين الذين أخبرنا القرآن الكريم عن وجودهم فى مصر فى عهد ميلاد موسى هم هؤلاء أتباع إخناتون ومعهم المؤمنون من بنى إسرائيل بعد سقوط قائدهم «آى بن يويا» واكتشاف خطر عقيدتهم على الدولة، ولكن هذا التناقض والتباين والاختلاف مردود عليه بالآتى:

● أن هؤلاء الناس كانوا أفراداً عاديين وليسوا أنبياء يوحى إليهم من السماء، فنبعت أفعالهم من وحى عقولهم التى قد تصيب وقد تخطئ.

● وأنه يمكن اعتبارهم فى حالة دفاع شرعى عن عقيدتهم وعن أنفسهم وعن أموالهم بعد الذى أصابهم من اعتداء حتشبسوت وجنودها عليهم بسبب إيمانهم بعقيدة التوحيد ورفضهم للآلهة الوثنية، فقد شردتهم من ديارهم وطردتهم من معابد التوحيد وسلبت أموالهم، وصنفتهم كأذناب للهكسوس، وبهذا فإنهم بأفعالهم يسعون لاستعادة أموالهم المسلوبة، وتحصين وجودهم.

● ويمكن استنتاج أنهم اعتبروا أن مؤامراتهم وأهدافهم جهاد فى سبيل الله لنشر رسالة السماء، ودحر الكفر والوثنية وتخليص البلاد من عقائدها الفاسدة الراسخة منذ آلاف السنين وملوكها وكهنتها الكافرين، وأيضاً تحقيق وعد الله لأجدادهم بالعودة إلى فلسطين وإقامة وطن لهم على عقيدة التوحيد، ديانة أنبياء إسرائيل، وأن هذه الأهداف السامية تبرر لهم حرب الكفار والأعداء وخديعتهم بكل الطرق والوسائل، ويمكن أن تبرر أيضاً لو اقتضى الأمر أو لم يكن هناك بد من التضحية بأبرياء.

● وأيضاً فإن الدين وقد اجتمع مع العمل بالسياسة فإن السياسة دائماً لها أهدافها وأساليبها الخاصة والتى تحتم أموراً معينة وتصطدم مع المبادئ والأخلاق أحياناً أو تغلب

المصلحة على أى شىء آخر يعوق تحقيق أهدافها، وفى السياسة غالباً تبرر الغايات الوسائل، وهكذا كان الأمر دائماً على مر العصور عندما تجتمع فى يد أفراد ممارسة الدين مع السياسة.

● وأخيراً يمكن أن تكون الرؤية صحيحة وأن المؤامرات فعلاً حملت تناقضات، وأن أصحابها الذين يتحلون بصفات الإيمان أخطأوا فى أفعالهم، وأنهم فى سعيهم إلى تحقيق الأهداف الدينية سعوا أيضاً إلى تحقيق أهداف أخرى سياسية أو شخصية، ولعل تلك كانت هى الخطيئة التى قادت مؤامراتهم فى النهاية إلى الفشل، وفتحت لهم الباب لدخول أسوأ مراحل حياتهم فى مصر وهى مرحلة التعذيب والاضطهاد، والتى استمرت نحو مائة وعشر سنوات حتى خروجهم من مصر.

وعموماً، فإنه أياً ما كان الرأى بشأن المؤامرات الإسرائيلية، فإن العقيدة التى حملها إخناتون كانت صادقة، وإيمان أتباعها كان مخلصاً، وقد شهد الله تعالى لهم بالإيمان فى سورة القصص.

ثالثاً: أن نتيجة الدراسة تؤدى إلى أن عدداً من ملوك مصر ينتمون عرقياً إلى بنى إسرائيل من ناحية الأم، أما «آى» فإن انتماءه كامل إليهم، وذلك على النحو التالى:

١- أمنحوتب الثالث بن موت إم أويا الإسرائيلية.

٢- أمنحوتب الرابع (إخناتون) بن الملكة «تى» الإسرائيلية.

٣- سمنخ كارع بن الملكة «تى».

٤- توت عنخ آمون بن كيا، وغالباً أنها أيضاً تنتمى إلى بنى إسرائيل، وجدّته الملكة «تى».

٥- آى بن يويا ينتمى إلى بنى إسرائيل.

وأيضاً بالإضافة إلى موت أم أويا فإنه أيضاً تنتمى إلى بنى إسرائيل الزوجات:

● الملكة تى بنت يويا زوجة أمنحوتب الثالث.

● نفرتيتى بنت «آى» زوجة إخناتون.

● موت نجمت بنت «آى» زوجة حور محب.

وبالتالى فإن جميع أبنائهم وبناتهم من الأمراء والأميرات يحملون جذوراً إسرائيلية.

وقد حرص يويا . رأس هذه الأسرة - على أن يخفى أصله، ولهذا اعتقد كثير من المؤرخين أنه من أصل أجنبى، وتحديداً ذكر كثير أنه من أصل سورى، وبالتالى الملكة «تى» ونفرتيتى فقد اعتقد أحياناً أنهما من أصل سورى أو ميتانى، وموت إم أويا ما زال يعتقد كثير من الدارسين أنها من أصل ميتانى.

وإذا كان الرأى العلمى أو الأكثر واقعية انتهى إلى أن الأرجح أنهم مصريون بيد أنه لم يمكن تبرير حرصهم على إخفاء أصولهم، سوى أن يويا فى الغالب كان من عامة الشعب فلم

يملك أن يفخر بأسرته، وهذا ليس وحده بالسبب الكافى؛ لأن حور محب كان هكذا، ومع ذلك على الأقل فقد أشار إلى أصل موطنه، وكثير من كهنة ورجال هذا العصر افتخروا بعصاميتهم وأصولهم الفقيرة. إذاً فإن حجب أصول موت إم أويا ويويا وآى - إجمالاً - فى الغالب أنه كان متعمداً ومرتبطاً بعقيدتهم وعنصرهم وأهدافهم، وقد أوضحنا أنهم حرصوا على إخفاء قوميتهم وإظهار تمصرهم بعد حملة حتشبسوت للحصول على المناصب الدينية والسياسية والعسكرية، ومن أجل المال والإعداد للهجرة إلى فلسطين، وذلك على النحو الذى شرحناه تفصيلاً سابقاً.

وعموماً، فإنهم نجحوا فى إثبات مصريتهم، وكان قد مرت قرون منذ دخلوا مصر وتعامل معهم الشعب والكهنة على أنهم قوم مصريون مثلهم كغيرهم من الأقوام المهاجرين الذين استقروا واتخذوا مصر وطناً لهم من قبل ومن بعد فى تاريخ مصر القديمة، وعلى هذا فإن تقلدهم الوظائف واعتلاءهم المناصب ومنحها لأعوانهم الكثيرين بل حتى وصولهم إلى القصر جميعها أمور ارتبطت باعتبارهم مصريين، ومعاملتهم على هذا الأساس، ولكن بعد أن اكتشف حور محب جميع الحقائق الخافية والتى ارتبطت فى أساسها بعقيدتهم وعنصرهم وهدف الهجرة إلى فلسطين واتخاذها وطناً لهم، فإنه لم يتردد فى اقتلاعهم من الأرض وقتل ملك مصر الإسرائيلى وأعوانه، وبدأ حملة لاستئصالهم بقتل أطفالهم الذكور. ومع بداية عهده بدأ استعباد العبرانيين فى الأعمال والإنشاءات واستحياء النساء ليكن جاريات وخادمات فى القصور وبيوت الأشراف وكبار القوم، والأهم أنه بجرة قلم محى وجود ملوك إسرائيل والذين انتموا إليهم عنصرياً أو عقائدياً، وشمل حكمه فى ذلك أمنحوتب الرابع، سمنخ كارع، توت عنخ آمون، آى، وإذا كان أمنحوتب الثالث بن موت إم أويا، قد خرج من القائمة فذلك لأنه فى حينه خرجت له شهادة رسمية من معبد الإله الأكبر تفيد أنه ابن الإله آمون وسجلت على جدران المعبد، فلم يملك الملك أو الكهنة إنكارها أو نفيها، أما خلال عهد أمنحوتب الثالث فإن نفوذ القوم قد امتد وسيطر على أركان الدولة فأرادوا أن يفرضوا ثقافتهم استعداداً لعصر الآتونية القادم، فتعمدوا إغفال الطقوس الشرعية أو استخراج موافقة ومباركة الإله لولاية أمنحوتب الرابع بن تى ذات الأصول الشعبية ،وزوج نفرتيتى التى تنتمى إلى نفس طبقتها، ولكن بعد سقوط الآتونية عادت التقاليد القديمة وفرضت نفسها متمثلة فى ضرورة زواج الملك من الابنة الكبرى للفرعون المتوفى.

خلاصة القول فى هذا الوضع، إن هؤلاء الملوك وإن كانت لهم جذور إسرائيلية من ناحية أمهاتهم إلا أن المصريين كانوا يعلمون أنهم سليلو عائلة الحكم وورثته، ونظروا إلى الملكات أمهاتهم باعتبارهن مصريات خالصات، وعموماً فإن زواج الملوك من أجنبيات أو من خارج

القصر كان أمراً شائعاً، ولكن وراثة العرش هى التى كانت تقتضى الالتزام بالتقاليد، وأما «آى» فقد أوضحنا ظروف ولايته، وقد كان من نتيجة كشف الحقيقة سحب الألقاب الملكية منهم وإنكار جلوسهم على العرش.

رابعاً: الأمر المثير والمفاجأة فى تلك الدراسة، هو أن الله سبحانه وتعالى قد أخبر فى القرآن الكريم بوجود ملوك لإسرائيل حكموا مصر، فى قوله تعالى فى سورة المائدة:

« **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)** » [المائدة].

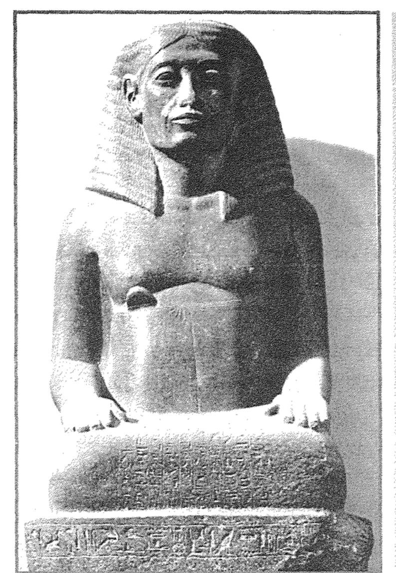
ولقد كان حديث موسى لقومه فى هذه الآيات بعد خروجهم من مصر مباشرة وهو يستحثهم لدخول فلسطين ويذكِّرهم بنعم الله عليهم ومنها أنه سبحانه جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكاً.

ولقد كان فيهم من الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون حتى تاريخ حديث موسى معهم.

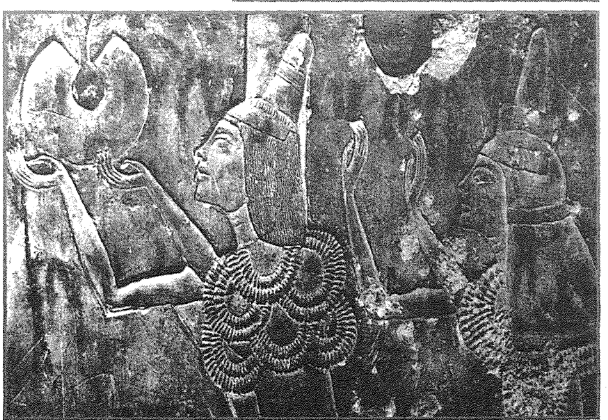
أما الملوك الذين كانوا فمن يكون المقصود بهم؟ إن هذا الحديث لموسى مع بنى إسرائيل كان سابقاً على قيام الملكية الإسرائيلية (طالوت - داود - سليمان) بنحو قرنين ونصف قرن من الزمان، فلا يمكن أن يكونوا هم المقصودين، لأن زمنهم لم يأت، وطبيعة الحديث لا تتفق مع أمور مستقبلية؛ لأن موسى كان يذكِّرهم بنعم أعطاها الله لهم فعلاً سبقت حديثه معهم الذى كان فى سيناء بعد أن تم لهم الخروج، وهو يدفعهم لدخول فلسطين التى كانوا خائفين من دخولها لأن فيها قوماً جبارين، وباعتبار أنه لم تكن لبنى إسرائيل (يعقوب) حياة سابقة على حديث موسى قبل حياتهم فى مصر باستثناء فترة فلسطين التى عاشوا فيها كبدو، ومن ثم فإن الفترة التى يقصدها الله تعالى فى حديث موسى والتى جعل لهم ملوكاً فيها لا يمكن أن يكون المقصود بها غير فترة حياتهم فى مصر، وأيضاً لا ينصرف تفسير المقصود بها إلى أنه نبى الله يوسف؛ لأن يوسف كان نائباً لملك مصر فهو حاكم ونبى، وقصده الله تعالى مع أنبياء إسرائيل، أما حديث القرآن عن جمع من الملوك كانوا لبنى إسرائيل سابق على خروجهم من مصر، فيأتى متفقاً مع دراستنا أن يكون هؤلاء ملوك تل العمارنة المؤمنون أحفاد سيدنا يعقوب، آل بيت النبوة: إخناتون، سمنخ كارع، توت عنخ آتون، آى، الذين تعمّد حور محب ومن خلفوه أن يمحوهم من تاريخ مصر بسبب هذا الانتماء.

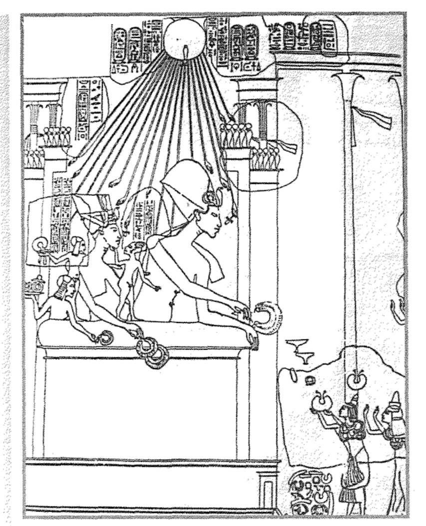


أمنحوتب بن حابو كاهن آمون فى عهد أمنحوتب الثالث نبّه إلى خطر الآتونية القادم



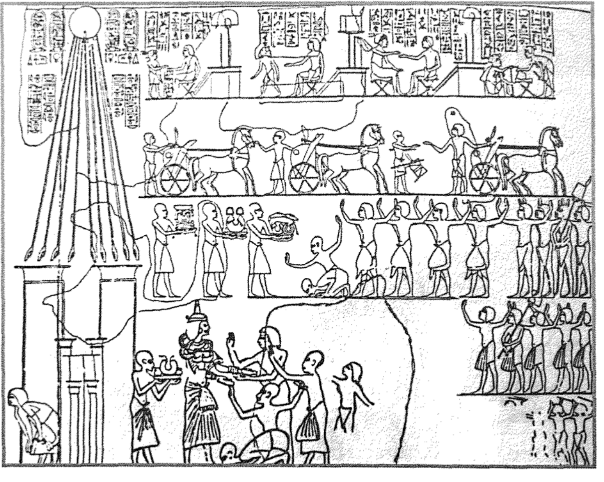
آى وزوجته تى الثانية فى العمارنة فى عهد إخناتون





منظر لم يكتمل نقشه نرى فيه إخناتون ونفرتيتى وهما يمنحان القلادات الذهبية للنبيل آى وزوجته تى الثانية، ونرى الأميرات الصغيرات وهن يحاولن مساعدة والديهما

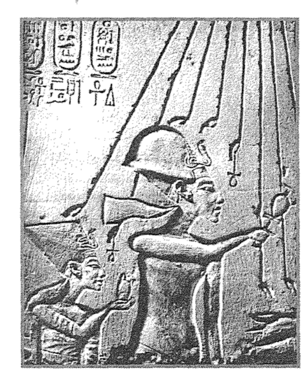
النبيل آى بعد خروجه من القصر الملكى وعليه كل القلادات والأوسمة الذهبية التى أهديت إليه



إخناتون ونفرتيتى يبتهلون إلى الإله الواحد ويرى فى الصورة رمز الآتونية



إخناتون ونفرتيتى فى معبد آتون



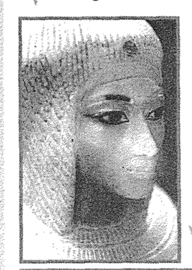


إخناتون ونفرتيتى يداعبان الأميرات

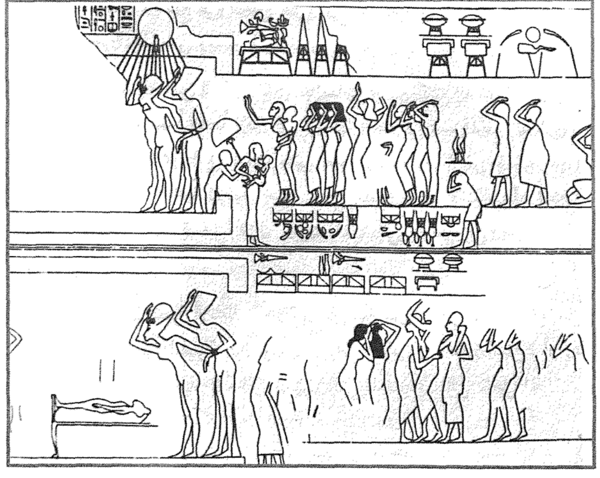
قبلة بين إخناتون ونفرتيتى قبل الخصام والفراق

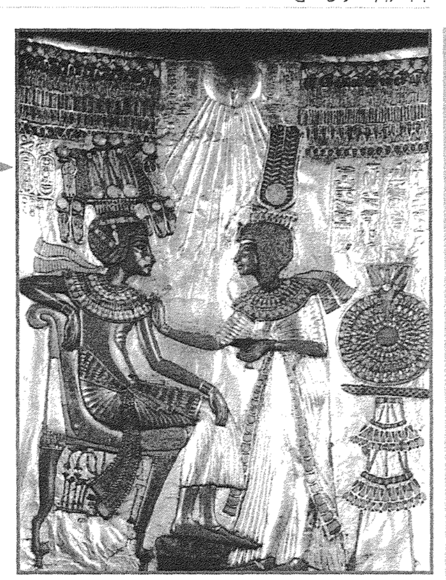


كيا الزوجة الأخرى لإخناتون وأم توت عنخ ماتت وطفلها رضيع

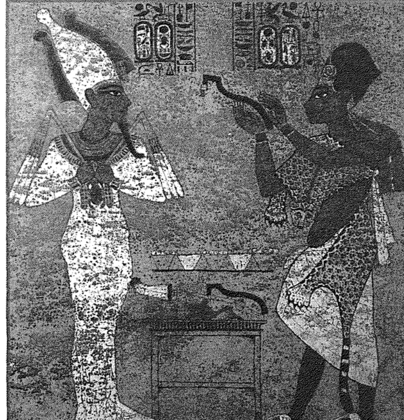


اللوعة والحزن والنواح على موت الأميرة «ماكت آتون» آتون فى العام ١٢ من حكم إخناتون ويلاحظ فى المنظر العلوى خلف الملكين سيدة واقفة تحمل طفلاً بين ذراعيها.. وأقرب الاحتمالات أن هذا الطفل هو توت عنخ الذى أنجبه إخناتون من كيا، وأن السيدة التى تحمله هى موت نجمت أخت نفرتيتى





توت عنخ آمون وعنخ إس إن با آمون آخر سلالة الملك أحمس.. سنوات حب وسعادة اغتالتها يد التآمر





الملك آى فى تأكيد لوراثته للعرش يرتدى الملابس الملكية «جلد الفهد» ويجرى طقسة فتح الفم للملك المتوفى توت عنخ آمون فى هيئته الأوزيرية

الفصل الثالث

المرحلة الأخيرة: عصر الانتقام والاستعباد

أدى اكتشاف حورمحب لمؤامرات شيوخ إسرائيل إلى فضح حقيقة ما يسعون إليه من أهداف وتحديد دورهم الأساسى فى النكبات التى أصابت مصر داخلياً وخارجياً، وهو الأمر الذى وضع نهاية للمرحلة السابقة وقاد إلى التحول الثالث والأخير فى حياتهم فى مصر، وخلال حكم هذا الفرعون فرض عليهم مواجهة الانتقام والتعذيب، وتمثلت أخطر مظاهره فى قتل الأطفال الذكور، وفى هذه الآونة كان ميلاد موسى، وقد خافت أمه عليه من جنود فرعون، ودفعها هلعها إلى وضعه فى سفط وإلقائه فى النهر الذى حمله إلى بيت هذا الفرعون، فكان هو الملك الجديد الذى قام على مصر، ووصفته التوراة بأنه لم يكن يعرف يوسف. وبعد حورمحب اقتصرت مظاهر التعذيب على استعباد بنى إسرائيل وتسخيرهم فى صناعة الطوب وأعمال البناء التى كانت منتشرة بشكل كثيف فى أنحاء مصر، ويدفع إليها بأسرى الحروب والعبيد، واستمرت هذه المرحلة مصاحبة لوجودهم حتى تاريخ الخروج.

وبداية نُذَكِّر بما سبق أن أشرنا إليه من أن الفترة التاريخية ما بين رسالة يوسف وميلاد موسى من زمن الوجود الإسرائيلى فى مصر لم تتحدث عنها رواية القرآن الكريم الذى هو فى الأصل ليس كتاباً فى تاريخ الأمم وقصص حياة الشعوب، وإنما هو كتاب للعظة والعبرة والهداية والإرشاد إلى طريق الله، وقد احتوى على قصص لبعض الأنبياء، ومن خلالها حكى الله - تعالى - موقف شعوبهم من الدعوة، وكان الهدف الرئيسى من هذه الإشارات المتفرقة من القرآن لتلك الأحداث التاريخية فى حياة الأنبياء هو التأكيد على الرسائل الإرشادية والمغزى والدروس التى تكمن خلف هذه الأحداث، ومن هذا المنطلق فإن الرواية القرآنية فى سردها الدينى لقصة يوسف وموسى جاءت بأسلوب واختصار يتفقان مع تحقيق الغاية المرجوة، ودونما تحديد للزمن التاريخى أو ذكر لأسماء الشخصيات المحورية المعاصرة والمشاركة فى أحداث القصة، وارتبطت قصة الشعب بحياة النبى وانتهت بنهايته.

وعلى صعيد العهد القديم، وبغض الطرف عن مدى صحة وصدق الرواية التوراتية والاعتماد عليها كمصدر تاريخى؛ ذلك أنها حُرِّفت وغُيِّرت فى عصور تالية لموسى وكتبت بأيادى الكهنة بأساليب متعددة وفى ظروف مختلفة، فإنها وعلى الرغم من أن صياغتها

قصدت أن تكون كتاباً لتاريخ بنى إسرائيل وحوت تفاصيل تاريخية لأزمان متتالية من حياتهم فقد كان غريباً أن تأتى الفترة ما بين وفاة يوسف وميلاد موسى منقطعة من المعلومات عن حياتهم بين المصريين. وتفسير هذا الأمر فى تقديرى يمكن أن نستخلصه من التفاصيل التى أمكن تحقيقها لحياتهم فى تلك الفترة التى تبينت من خلال عرض المرحلتين السابقتين، ذلك أن المرحلة الأولى حدثت فيها دعوة يوسف للمصريين ونشر الأسباط لعقيدة أنبياء إسرائيل فى مصر الشمالية والوسطى، والمرحلة الثانية حدثت فيها التدبيرات الإسرائيلية التى قادت إخناتون إلى إعلان عقيدة التوحيد - وهى عقيدة إسرائيل - ديانة رسمية لمصر، وجوهر هذه الأحداث ونتائجها يتنافى ويتناقض مع الاستحداثات العنصرية اللاحقة التى - للأسف - نجح كهنة إسرائيل فى إرسائها وترسيخها زوراً فى العقيدة الإسرائيلية السماوية، وحدث ذلك فى العصور التالية لموسى بنحو سبعة قرون بعد أن تحولت إلى مسمى الديانة اليهودية، وأدخلت مبدأ أسرلة الدين باعتبارهم شعب الله المختار، وتصوير الله على أنه رب بنى إسرائيل فحسب، وليس رب المصريين أو الشعوب الأخرى، ووفقاً لهذا الاعتقاد الدخيل يكون طبيعياً أن تتجاهل توراة الكهنة - أهم مصادر التراث الإسرائيلى - بعد أن ارتدت ثوبها العنصرى، العلاقات المصرية - الإسرائيلية خلال عهد يوسف والأسباط وفترة الانتشار والمد الدينى مع شيوخ إسرائيل حتى ميلاد موسى، وكما تجاهلت التوراة حقيقة أن بعث يوسف وموسى ورسالتهما كانت لدعوة المصريين، فإنها تجاهلت حقائق أخرى كثيرة غيرها تدور فى هذا الإطار.

عموماً، فإنه من خلال الربط بين القصة القرآنية والأحداث التاريخية المعاصرة لوجود بنى إسرائيل فى مصر، أمكن تحقيق التصور المنطقى والطبيعى الذى يمكن ترتيبه على تلك الحقائق الدينية الثابتة يقيناً، ومن ثم قدم ذلك الربط تفسيراً واضحاً لأحداث التحول الدينى وما ترتب عليه من تغييرات سياسية واقتصادية والتى كانت فى نظر المؤرخين جديدة وغريبة وتخرج عن المألوف والمتوارث من العقائد والتقاليد المصرية القديمة والراسخة، وقد فندنا فى دراستنا كل محاولات تفسيرها بأسباب داخلية أو اعتبارها تطوراً من العقائد المصرية، وأيضاً تحقق من هذا الربط تاريخ بنى إسرائيل خلال تلك الحقبة الغامضة من حياتهم فى مصر، وتحدثنا عنها باستفاضة اقتضاها إثبات وجهة نظرنا فى ترتيب متتالية هذه الأحداث خلال المدة الزمنية التى شملت المرحلتين السابقتين.

وباعتبار أن المرحلة التى نحن بصددها الآن، وهى مرحلة الانتقام والتعذيب والاستعباد قد ورد الحديث عنها فى الرواية الدينية، فى التوراة وفى القرآن وسبق لنا الحديث عنها فى قصة ميلاد موسى فى التاريخ الدينى لبنى إسرائيل، فإننا سوف نقصر حديثنا فى هذا الجزء على تحقيق الزمان التاريخى لتلك المرحلة، وتطور الأحداث فيها مع الأخذ فى

الاعتبار أن الجزء التالى من الدراسة سوف نقدم فيه الأدلة على الفرعون المعاصر لحياة موسى، وهذا أيضاً يتداخل ويشترك فى الإثبات الزمنى لتلك المرحلة.

وطبقاً لما انتهينا إليه فى المرحلة السابقة تكون بداية حكم الفرعون حورمحب (١٣٢١ ق . م) هو تاريخ بدء تعذيب بنى إسرائيل بعد أن كشف مؤامرتهم وحقيقة أهدافهم، وقد استمرت هذه المرحلة - بحسب الرواية الدينية - حتى تاريخ خروج بنى إسرائيل مع موسى من مصر، واستناداً إلى الركائز الأساسية فى البحث - التى سبق تحديدها - فقد اعتبرنا أن رمسيس الثانى الذى انتهى حكمه فى العام (١٢١٣ ق .م) هو أول الفراعنة المرشحين لحدوث الخروج عند نهاية عهده، بعد استبعاد إمكانية حدوثه قبل ذلك سواء خلال سنوات حكمه أم فى عهد أى من الملوك السابقين عليه، وإنما يظل محتملاً طبقاً لمعطيات النطاق الزمنى للبحث - السالف تحديدها - ولا يتعارض مع الركائز، ومن ثم يمكن أن يطرح على بساط البحث، أن يكون الخروج حدث بعد عهده بفترة قريبة جداً، لن تتعدى بحال ملوك الأسرة التاسعة عشرة التالين، بحسبان أنه يشترط فى تقديرها - بالإضافة للثوابت - حساب مرور فترة زمنية تناسب الزمان التاريخى لانقضاء مجموع سنوات التيه وعصور يشوع والقضاة والمملكة الموحدة، حتى حدوث اللقاء بين القصة الدينية والأحداث التاريخية والذى ذكرنا أنه وقع فى العام (٩٢٥ ق .م،) والذى وافق العام قبل الأخير لانتهاء حكم فرعون مصر شاشانق الأول - مؤسس الأسرة الـ ٢٢ - عندما قام بحملته العسكرية الموثقة والمسجلة تفصيلياً على آثاره فى الكرنك، وكانت - بحسب التوراة - توافق مرور خمس سنوات على انتهاء حكم الملك سليمان وتقسيم المملكة إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا.

الفرعون حور محب أمام الإله آمون بعد القضاء على ملوك الآتونية.. وبداية سنوات التعذيب والاضطهاد للمؤمنين

وتعنى الاعتبارات المتقدمة أن مرحلة التعذيب والسخرة استمرت لما يزيد عن قرن من ١٣٢١ ق .م (حكم حورمحب) إلى (١٢١٣ ق . م) (وفاة رمسيس الثانى)، أى نحو مائة وثمانية أعوام، وتظل احتمالات الزيادة قيد الدراسة والبحث.

واستخلاصاً من القصة الدينية وتأييد الأحداث التاريخية نستطيع أن نقسم هذه المرحلة

طبقاً لطبيعة الانتقام والتعذيب إلى فترتين:

الفترة الأولى: بدأت فور القضاء على حكم «آى» واعتلاء حور محب العرش، وباعتبارها الفترة التالية مباشرة لكشف مؤامرات «آى» وأتباعه، فقد قام الفرعون بمعاونة قادة الجيش بالقبض على الجناة المتآمرين وشركائهم من زعماء المؤمنين بعقيدة التوحيد (الآتونيين) وفيهم قادة هذه العقيدة وكهنتها من شيوخ بنى إسرائيل بعد اكتشاف أنهم المحرضون والمسئولون الذين حملوا ذلك الدين إلى القيادة والشعب وروجوا لنشره، وتسببوا فى إشعال الفتنة فى المجتمع المصرى. قد كشفت تحقيقات حور محب أن سقوط إخناتون لم يقض على الموحدين بالله الرافضين للوثنية وأن خطرهم استمر كامناً يتحرك وينتشر فى الخفاء بعيداً عن أعين الكهنة وأعداء عقيدتهم بدعم من «آى» وتوجيهاته، ومن ثم كان طبيعياً أن يأتى كرد فعل للأحداث ونتيجة للمحاكمات أن تتمثل مظاهر الانتقام فى توقيع جملة من أحكام الإعدام شملت قادة التآمر أو الذين كانت لهم أدوار تنفيذية فى المؤامرات أو هؤلاء المحرضين والمشجعين على الثورة وجميع من لم يرضخ لإرادتهم أو يقاوم انتقامهم، وعلى صعيد آخر وفى ذات الفترة وكاتجاه وقائى لحماية الدولة اتجهت القيادة (الفرعون والكهنة وقادة الجيش) إلى ضرورة القضاء على هذه العقيدة، ومحو كل ما ينتمى إليها من الوجود ومن ذاكرة الأمة، والتخلص من أتباعها الذين ألقى القبض على الكثير منهم سواء من المصريين أم من بنى إسرائيل، ووضعهم حور محب فى الحصن العسكرى القائم فى مدينة ثارو فى شمال سيناء بعد أن حوّله إلى سجن حربى، وجعل وزيره «بارع مس» الذى خلفه فى قيادة الجيش مسئولاً عن هذا المعتقل، لتنفيذ مهمته فى القضاء على عقيدة التوحيد والتخلص من أتباعها سواء بقتلهم أم الضغط عليهم بشتى الوسائل لإجبارهم على الارتداد والرضوخ لعبادة الآلهة المصرية وكان أكثر عوامل الإذلال تسخيرهم فى أعمال البناء الشاقة.

وعلى صعيد خاص ببنى إسرائيل فى تلك الفترة، فبعد أن تبين أن أهدافهم ترتبط بعنصرهم وتستمد من عقيدتهم، ومن ثم أصبح وجودهم فى مصر كقومية مستقلة يشكل خطراً تجب إزالته سواء بإبادتهم أم تصفية كيانهم داخل المجتمع، وقد كان أبشع مظاهر الانتقام والإخضاع، ولأجل تنفيذ خطة إضعاف عنصرهم وتصفيتهم صدور أمر من الفرعون لزبانيته من أدوات التنفيذ بقتل من يولد من الأطفال الذكور من العبرانيين لنشر الرعب والخوف فى حياتهم، والقضاء على آمالهم فى النمو أو نشر عقيدتهم أو انتظار ظهور البطل العبرانى الذى يتحدث عنه تراثهم القادم لتحقيق حلم هجرتهم إلى فلسطين المستعمرة الشمالية لمصر، وأيضاً صارت معاملتهم كأسرى الحروب باستعباد رجالهم واستباحة نسائهم، فبعد أن تم اغتيال قادة التآمر استمر تسخير رجالهم فى أعمال البناء الشاقة للملك والمعابد،

والحاق المليحات والجميلات من نسائهم كوصيفات وجوار فى القصور الملكية، أو منح بعضهن كمحظيات وجوار للأمراء وكبار رجال الدولة والجيش، واستغلال الأخريات القادرات كخادمات فى البيوت المصرية، وفى عهد سيتى الأول ورمسيس الثانى تكرر فى عدد من المناسبات عبارات تفيد امتلاء القصور بالجوارى والمحظيات، وقد ذكر رمسيس الثانى شاكراً صنيع والده؛ لأنه جهزه بطاقم كامل من الحريم الملكى يلقبن «بجمال القصر»، وغير الزوجات أحضر له محظيات لتنضم إلى الحريم.

وقد استمرت هذه الفترة التى كانت تهدف إلى الإبادة والتصفية مع السخرة والإذلال خلال عهد حور محب ثم وزيره وقائد جيشه الذى أصبح فرعون مصر رمسيس الأول مؤسس الأسرة الـ ١٩.

الفترة الثانية: كانت أهم النتائج التى ترتبت على مظاهر الانتقام التى اتصفت بها مرحلة بدايات كشف التآمر، والتى شملت المؤمنين بالتوحيد من المصريين وبنى إسرائيل أن الإيمان توارى فى قلوب أصحابه. وانزوى ليمارس فى الخفاء بعيداً عن أية مظاهر علانية، تفادياً للاضطهاد والتعذيب والتصفية الجسدية. وفى الغالب أن جموع المؤمنين من المصريين اختفوا داخل قراهم وبين أعمالهم ونجحوا فى إخفاء عقيدتهم، أما شعب إسرائيل الذى كان قد تم استعباده وأصبحوا يعاملون كأسرى الحروب فإن مظاهر التعذيب اقتصرت فى الفترة التالية على تسخيرهم فى صناعة الطوب وأعمال البناء للملك والمعابد. واستمرت هذه المرحلة فى عصرى سيتى الأول ورمسيس الثانى.

ونستدل على هذا التقسيم لفترتى التعذيب من الأدلة الآتية:

١. أن قصة التوراة عندما تحدثت عن أمر فرعون بقتل الأبناء الذكور من بنى إسرائيل، فقد كان ذلك بمناسبة الحديث عن الظروف المعاصرة لميلاد موسى، وخوف أمه عليه من أن يناله تنفيذ هذا الأمر، وإلى آخر ما جاء فى قصة التوراة فى سفر الخروج، الإصحاحين الأول والثانى، وقد أشارت رواية التوراة أيضاً إلى تسخير رجالهم وإذلالهم بالأشغال والعبودية القاسية فى الطين واللبن وأعمال الحقل.

أما الفترة التالية من حياة موسى عندما بعثه الله تعالى وهو فى سنوات هجرته فى مدين، وطلب منه سبحانه العودة لمصر، فنجد أن حديث الله تعالى لموسى وهو يذكره بما يتعرض له قومه من اضطهاد قد اقتصر على عبودية بنى إسرائيل وأنينهم وصراخهم وأوجاعهم من السخرة القاسية وبعد عودة موسى إلى مصر ظل حديث التوراة مستمراً أيضاً عن أعمال السخرة فى صناعة اللبن وجمع التبن والقش، دون أية إشارة عن أعمال قتل أو تصفية كما انتهى الحديث تماماً عن قتل الأبناء الذكور.

٢. وأيضاً فى القرآن الكريم فى أول سورة القصص، وبمناسبة الحديث عن قصة ميلاد

موسى ذكر الله تعالى أمر استضعاف فرعون لطائفة من المصريين «**يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم**» دون تمييز بين المصريين أو بنى إسرائيل، الأمر الذى يؤكد أن مراد الآية اتجه إلى طائفة المؤمنين بالله بدليل رغبته تعالى فى أن يمن عليهم وينصرهم ويمكن لهم فى الأرض «**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)**» [**القصص**] ونستخلص من هذه الآيات أن السبب المباشر للانتقام والتعذيب يرجع إلى إيمان تلك الطائفة بالله الواحد، وأن هذا القتل كان معاصراً لميلاد موسى، الأمر الذى يوضح ارتباط بنى إسرائيل بتلك الطائفة، ثم يتأكد لنا هذا الارتباط فى آيات آخرى خاصة بهم مثل قوله تعالى: «**وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)**» [**الأعراف**]. وأيضاً قوله تعالى عن حديث موسى مع قومه «**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)**» [**إبراهيم**].

وإذا كنا عرفنا من القرآن الكريم قتل فرعون لأبناء إسرائيل فى الفترة المعاصرة لميلاد موسى فإننا نستطيع أن نستخلص من القرآن أن تلك الحالة كانت قد اختفت فى تاريخ بعث موسى بعد عودته من مدين، وأن الحالة السائدة القائمة فى تلك الفترة هى استعباد بنى إسرائيل وتسخيرهم فى الأعمال الشاقة، وذلك من قوله تعالى فى أمر تكليف موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون ودعوته: «**فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧)**» [**طه**]. وأيضاً فى رد موسى على فرعون وهو يمتن عليه بنعمة التربية والإحسان فى قوله تعالى: «**وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)**» [**الشعراء**]. وبلا شك فإن الصورة التى توضحها تلك الآيات أن حالة بنى إسرائيل السائدة فى تاريخ عودة موسى هى الاستعباد والسخرة، وقد انتهت حالة القتل؛ لأنها لو كانت ما زالت موجودة لذكرها الله تعالى ضمن أفعال فرعون، وما كان موسى يمكن أن يتركها فى حواره مع فرعون دون أن يذكرها له ويواجهه بها، وهى جريمة أبشع وأشد وحشية وقسوة من الاستعباد.

٣. من المستحيل قبول استمرار تنفيذ جريمة قتل أبناء إسرائيل خلال السنوات الممتدة من تاريخ ميلاد موسى مروراً بسنوات مدين ثم فترة بعثته ودعوته وحتى الخروج؛ لأن النتيجة الحتمية لذلك ليست سوى الإبادة لهذا الشعب أو الفرار من أرض مصر، وهو أمر لم يحصل، فقد استمر وجود بنى إسرائيل حتى الخروج مع موسى بعد أكثر من ثمانين سنة على تاريخ ميلاده، الأمر الذى يؤكد أن هذه الجريمة استمرت فترة معينة ولظروف خاصة، ثم انقطعت، بل إنه حتى فى ظل الحالة التى فرضت فيها أو بتعبير أدق سمح فيها بقتل الأطفال فإنه قد

أمكن التحايل والتغلب على تنفيذه، ولكن ذلك أشاع حالة من الرعب والخوف بين بنى إسرائيل، وتذكر التوراة نفسها كيف أن القابلتين المصريتين - شفرة وفوعة - اللتين عهد إليهما بقتل الأبناء وهما تولدان النساء العبرانيات قد أحجمتا عن تنفيذ هذا الفعل لأنهما خافتا الله، وبررتا لفرعون فشلهما «بأن النساء العبرانيات لسن كالمصريات فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة». ولعل مضمون هذا التبرير يفسر نجاة هارون شقيق موسى الأكبر وربما كثير غيره مثله، كما يوضح أن حقيقة ما اعتبرته التوراة أمراً مباشراً من الفرعون للقابلتين، لا يعدو أن يكون توجيهاً لهما من جنود فرعون وأدوات تنفيذه بارتكاب هذه الجريمة وهما تمارسان عملهما، وذلك ضمن خطة واسعة وسلسلة من الأفعال الأخرى تهدف إلى الانتقام وبث الذعر والرعب فى حياتهم، ولهذا تضيف التوراة فى حديثها عن هذه الحالة أنه نتيجة لموقف القابلتين المتخاذل، صدر أمر فرعون لجميع شعبه بأن كل ابن يولد لهذه الطائفة يطرحونه فى النهر، وتفسير هذا الأمر يتجه إلى المعنى الأكثر احتمالاً وهو أن فرعون وكبار قادته كانوا يحثون جنودهم على البطش بكل الوسائل ببنى إسرائيل حتى وإن وصل الأمر إلى قتل أطفالهم بل استحسان ذلك والتشجيع على ارتكابه، بجعل هذا الفعل مباحاً وإخراجه من دائرة الجرائم التى يعاقب عليها القانون، وربما أن جنود فرعون قد اتخذوا من هذا التوجيه وسيلة للإرهاب والابتزاز. وهذا فى تقديرى كان من وسائل الترويع والحرب النفسية أكثر من أن يكون قراراً حتمياً واجب التنفيذ مقصوداً لذاته، وإلا لصدر به أمر ملكى صريح من الفرعون، ولعهد به إلى جهازى الشرطة والجيش، ولأحيط بشروط صارمة تكفل شموليته، وعدم خروج أى من أسرات بنى إسرائيل فى مصر من نطاق تنفيذه، ولكن هذا لا يمنع أنه قد تم تنفيذ العديد من حالات قتل الأبناء لنيل المكافآت، وكسب رضاء الملك وقادته، وغالباً حدث ذلك فى صورة انتقام عشوائى، ودونما التزام بمعايير وكيفما أمكن أو تأتّى، الأمر الذى بث فيهم الذعر والرعب وأشاع فى حياتهم حالة من الخوف والهلع.

وتزداد الصورة وضوحاً فى تأكيد اختفاء جريمة قتل الأطفال فى الفترة الثانية من حياة موسى من القرآن الكريم فى قول الله تعالى: «**وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)**» [**الأعراف**].

وأيضاً فى قوله تعالى «**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥)**» [**غافر**].

فهذا التهديد الذى ينسب الله تعالى صدوره من فرعون ضد موسى وقومه وأبناء الذين آمنوا فى مرحلة الدعوة بعد عودة موسى من مدين يدل على أن المرحلة الزمنية فى هذه الفترة أصبحت تختلف عن فترة ميلاده؛ لأنه لو كانت نفس ظروف القتل ما زالت قائمة فما كان

الأمر يستلزم التهديد والوعيد بأمر موجود ومستمر منذ زمن، أما وأن فرعون يتوعد به فالتفسير المنطقى لذلك؛ أنه يعنى استحداث انتقام ليس له وجود حالى.

٤. على صعيد الأحداث التاريخية فقد صاحبت بداية عهد حورمحب مظاهر واضحة تؤكد أنه تم التخلص من الملك «آى» وإزاحته عنوة عن العرش، وأن ذلك لا بد وأن يكون بسبب ارتكاب فعل أو جرم خطير يرتبط بملوك الآتونية (التوحيد) السابقين عليه، فقد تم إنكارهم جميعاً وإسقاطهم من التاريخ المصرى، وحدث ذلك بعد أن كانت السنوات منذ سقوط «إخناتون» وحتى «آى» تؤكد أن موضوع الآتونية قد انتهى بمرسوم توت عنخ آمون الذى رد فيه ممتلكات المعابد وأعاد سيادة الآلهة المصرية واحترامها، ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن «آى» مات مقتولاً، ثم أفادت المصادر أن حور محب أقام فترات طويلة فى شرق الدلتا وربما نقل إقامته إليها رغم أن عاصمة الدولة كانت ما زالت فى طيبة جنوب مصر، وأنه جمع أتباع إخناتون أصحاب عقيدة التوحيد ووضعهم فى معتقل داخل معسكر حصن ثارو القريب من مواقع إقامة بنى إسرائيل فى جاسان، وينسب إلى حور محب أنه كان اليد القوية التى بطشت بأصحاب ديانة إخناتون، وأيضاً نسب إليه تسخير العبرانيين فى أعمال البناء، أما فى عهد سيتى الأول ورمسيس الثانى فى الأسرة الـ ١٩فتدل المصادر على تسخير العبرانيين فى أعمال البناء الشاقة للملك والمعابد، والتى انتشرت بشكل واسع فى أنحاء البلاد، وفى هذا النطاق من المعلومات تتفق المصادر التاريخية مع الرواية الدينية فى إثبات المرحلة الزمنية لفترة التعذيب والاضطهاد والتقسيم الزمنى لها، باعتبار أن فترة حور محب قد اكتشفت فيها مؤامرات الملك السابق وأعوانه، فكان طبيعياً أن تلازمها محاكمة المتآمرين والتخلص منهم ثم التنكيل بأتباعهم وقهرهم وإذلالهم بأبشع الصور وكل الطرق، أما فى المرحلة الثانية بعد الانتقام والإضعاف والإذلال فقد تقرر الاستفادة منهم مثل أسرى الحروب فى تسخيرهم فى أعمال البناء للملك والمعابد.

والآن بعد أن انتهينا من مراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر منذ دخولهم فى عهد الهكسوس، وحتى تاريخ خروجهم فى عهد الأسرة الـ ١٩، نقدم فى الجزء القادم من الدراسة الأدلة الدينية والتاريخية على فرعون المعاصر لحياة نبى الله موسى عليه السلام، وبيان الشخصيات المحورية التاريخية التى أشارت إليهم القصة الدينية وتفسير قضية ميراث الأرض وأرض الميعاد التى عرضها القرآن الكريم.

الباب الخامس

فرعون موسى .. الأدلة وشخصيات القصة الدينية

الفصل الأول:

أهم الآراء فى تحديد تاريخ الخروج

الفصل الثانى:

فرعون موسى واحد أم أكثر

الفصل الثالث:

فرعون الميلاد

الفصل الرابع:

فرعون الخروج

الفصل الخامس:

شخصيات فى القصة

١ـ هامان ٢ـ امرأة فرعون ٣ـ مؤمن آل فرعون

تقديم:

بعد أن حددنا الثوابت الأساسية التى تقيد قواعد البحث فى تحديد الزمان التاريخى لوقائع القصة الدينية لحياة بنى إسرائيل فى مصر منذ الدخول فى عهد يوسف وحتى الخروج مع موسى، والتى تلزم أيضاً فى تحديد شخصية فرعون المعاصر لموسى، وبعد أن حصرنا النطاق الزمنى لمجال البحث فى تاريخ تلك الوقائع، ثم على ضوء هذا الالتزام وداخل ذلك النطاق استعرضنا مراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر، فإننا نقدم فى هذا الجزء من الدراسة أدلتنا على تحديد الفترة التاريخية لحياة موسى عليه السلام فى مصر، وشخصية فرعون المعاصر، وأيضاً تحديد الشخصيات المحورية الأخرى التى وردت فى القصة الدينية:

- هامان.
- امرأة فرعون.
- مؤمن آل فرعون.

ونذكّر أننا سوف نستند فى استخلاص أدلتنا على فرعون موسى والوصول إلى تحديد شخصيات القصة الدينية على الربط بين الحقائق الدينية وبين الأحداث المعاصرة لها كما سجلتها المصادر التاريخية، وتحديداً سوف نرتكز - كما قدمنا فى مصادر الدراسة - على الأساسيات الآتية:

١- معلومات القرآن الكريم وخصائص الحياة والمجتمع، وصفات فرعون المعاصرين كما عرضها الله تعالى ومقارنتها بمعلومات المصادر التاريخية المعاصرة لها، وسوف نرى التطابق التام بين تلك الحقائق الدينية والمصادر التاريخية.

٢- رواية التوراة التى تتفق مع القرآن أو تتواءم مع مصادر التاريخ.

٣- معلومات المصادر التاريخية المستمدة من الآثار المصرية أو الفلسطينية المعاصرة للأحداث.

وحيث إنه فى جميع الدراسات السابقة ارتبط دائماً تحديد فرعون موسى بتاريخ خروج بنى إسرائيل؛ ومن ثم يكون مناسباً قبل أن نسوق أدلتنا ونطرح رؤيتنا فى إثبات زمان موسى وأشخاص القصة، استعراض أهم الآراء التى اختلف بينها المؤرخون فى تحديد تاريخ الخروج وأسانيدهم بشأنها، ثم مناقشتها على ضوء من الثوابت وحصر نطاق البحث الذى انتهينا إليه.

الفصل الأول
أهم الآراء فى تحديد تاريخ الخروج

أولا: آراء تجعل الخروج فى عصر الأسرة الثامنة عشرة

الرأى الأول: زعمه المؤرخ اليهودى يوسف بن متى، الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ونسبه إلى المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى، ويرجع الهكسوس إلى أصول إسرائيلية والخروج فى نظره هو الرواية المصرية لطرد الهكسوس من مصر بقيادة أحمس الأول (١٥٥٠ - ١٥٢٥ق.م)، والذى حدد مانيتون حكمه بحوالى ٢٥ سنة، وقد انتهج هذا الرأى بعض المؤرخين الذين يرون أن الخروج قد حدث فى عصر مبكر للأسرة الثامنة عشرة، وأنه لم يكن إلا صدى لطرد الهكسوس من مصر، وأن الملك أحمس الأول هو فرعون الخروج الذى ذكرت التوراة «أنه لم يكن يعرف يوسف»، واستندوا فى تدعيم وجهة نظرهم إلى ظهور القبائل البدوية التى تسمى الخابيرو، والتى ترادف الكلمة المصرية القديمة «العابيرو»، وهى عبرى الحالية، وقدمت تلك القبائل إلى الجنوب الشرقى لفلسطين، وذلك فى مرحلة تالية لأحمس ابتداء من عهد أمنحوتب الثانى، ثم فى موجات متتالية حملتها رسائل العمارنة خلال عصرى أمنحوتب الثالث، وأمنحوتب الرابع (إخناتون).

واستند آخرون أيضاً إلى ما أسفرت عنه الأبحاث الحديثة من أن الهكسوس ذوو أصول سامية تكشف عنها أسماؤهم، وأن لهم علاقة بفلسطين، مما يدل على أنهم كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى العبرانيين.

الرأى الثانى: يرى أن الملكة حتشبسوت (١٤٧٩-١٤٥٨ق.م) هى الفرعون الذى سعى وراء بنى إسرائيل استناداً إلى النص المنسوب إليها فى منطقة إصطبل عنتر، والذى ترجمه عالم الآثار جاردنر، ويتحدث عن قبائل البدو الآسيويين فى «أواريس» شرق الدلتا - التى كانت عاصمة للهكسوس - الذين كان من بينهم المفسدون والمخربون ويحكمون دون رغبة الإله رع، ولم يعملوا حسب رغبة الإله، فجاءت إليهم وقذفت النار عليهم وانتصرت عليهم ومحتهم من الأرض.

وذهب أصحاب هذا الرأى إلى أنها بعد المطاردة أخرجت من الماء فى حالة سيئة، وتكتم تحوتمس الثالث خبر مرضها، وبعد وفاتها دفنها خلسة دون تحنيط أو مراسم، ولم يشأ إذاعة خبرها أصلاً، وهذا ما يفسر اختفاء أخبارها تماماً فى نهاية حكمها وانفراد تحوتمس الثالث بالحكم.

الرأى الثالث: أن الخروج كان فى عهد تحوتمس الثالث الذى تولى الحكم منفرداً فى

الفترة من (١٤٥٨ -١٤٢٥ق.م) أو فى عهد ابنه أمنحوتب الثانى (١٤٢٥ - ١٣٩٧ق.م).

وقد استند هذا الرأى إلى حساب التواريخ القديمة المرتفعة التى كانت تضع ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فى فترة أعلى قد تزيد على عشر سنوات أو أكثر من ذلك أحياناً، بل تجعل فترة حكم رمسيس الثانى من (١٣٠٤ - ١٢٣٨ق.م)، وقد أصبحت هذه التواريخ غير صحيحة تبعاً لتواريخ بابلية عثر عليها حديثاً أمكن منها تحديد تاريخ انتهاء الأسرة العشرين حوالى (سنة ١٠٧٠ق.م)، مع شواهد مقارنة أخرى، كما أمكن تحديد أقرب التواريخ لفترة حكم رمسيس الثانى من (١٢٧٩ - ١٢١٣ق.م).

واستند أصحاب هذا الرأى وفقا للتواريخ السابقة مع ما جاء فى نص التوراة فى سفر الملوك الأول- الإصحاح السادس - الآية الأولى من بناء الملك سليمان لبيت الرب فى السنة الرابعة لملكه على إسرائيل، وأن ذلك وافق السنة الأربعمائة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر، وبحساب الفترة المقدرة حتى حكم سليمان فإن تاريخ الخروج يعود إلى نهاية حكم تحوتمس الثالث أو عهد الملك أمنحوتب الثانى، وعلى سند من هذا الحساب انتهى فريق إلى أن تحوتمس الثالث هو فرعون الخروج، فى حين رأى آخرون أن الخروج حدث فى عهد أمنحوتب الثانى، وساندوا رأيهم أيضاً بأنه بإضافة فترة التيه الأربعين عاماً يكون الإسرائيليون قد وصلوا إلى كنعان، بما يفسر الإشارة إلى قبائل «الخابيرو» التى كانت تضغط على البلاد والتى أشير إليها فى رسائل العمارنة فى عهد أمنحوتب الثالث وإخناتون.

وطبقاً لرأيهم فإن ميلاد موسى كان فى عهد تحوتمس الأول، وأن الأميرة المصرية حتشبسوت هى ابنة الفرعون- التى روت عنها التوراة - أنها انتشلت موسى من النهر، وتربى فى بلاطها، ثم اضطر إلى الفرار من مصر حين جلس عدوها «تحوتمس الثالث» على عرش مصر.

الرأى الرابع: يعتقد بأستاذية إخناتون لموسى عليه السلام. وأن دعوة إخناتون كانت إرهاصاً لدعوة موسى، وتمهيداً لدعوة التوحيد بين أقوام ألفوا تعدد الآلهة، ولهذا فإن خروج بنى إسرائيل من مصر كان فى أعقاب موت إخناتون.

وأبرز من انتهج هذا الرأى العالم اليهودى «سيجموند فرويد» فى كتابه «موسى والتوحيد» الذى انتهى فيه إلى أن موسى كان مصرياً، و أنه تعرض لمؤامرة اغتيال من اتحاد القبائل الخارجة من مصر فى الصحراء الواقعة بين مصر وكنعان. ويحدد فترة الخروج خلال السنوات الثمانى التى تلت وفاة إخناتون.

وآخرون ممن يرون أن الخروج فى تلك الفترة يحددونه فى عصر حورمحب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

والرد القاطع الحاسم على جميع الآراء التى تضع الخروج فى عصر الأسرة الثامنة

عشرة هو استحالة ذلك تاريخياً فى ظل ما تؤكده المصادر المصرية والفلسطينية من خضوع فلسطين بالكامل مع مناطق أخرى فى غرب آسيا للسيطرة المصرية منذ بداية تكوين الإمبراطورية فى عصر الأسرة الثامنة عشرة، وإن كان النفوذ المصرى قد توارى وضعف فى سوريا وفلسطين فى فترة الثورة الدينية لإخناتون، إلا أن غزوات سيتى الأول فى بداية الأسرة التاسعة عشرة قد استعادت السيطرة المصرية على فلسطين، وامتدت حملاته إلى أنحاء سوريا والساحل الفينيقى، وفى معاهدته مع الحيثيين لاقتسام مناطق النفوذ فى غرب آسيا، خضعت فلسطين لمصر.

ثم أكدت غزوات رمسيس الثانى السيطرة المصرية على مناطق نفوذها وصورت نقوش عهده، على آثاره العديدة المنتشرة فى مصر، الممالك القائمة فى كنعان، التى حاربها وانتصر عليها وأخضعها، مع شرح تفصيلى لمعاركه، وتوضيح للمدن التى وقعت ضمن خط سير حملاته، وقد أنهى حروبه بمعاهدة سلام مع الحيثيين أقر فيها كل طرف بممتلكات الآخر على مناطق نفوذه، وتعهدا بعدم الاعتداء، بل أن يساعد كل منهما الآخر إذا وقع اعتداء عليه.

واستمر النفوذ المصرى والسيادة المصرية على فلسطين حتى نهاية الأسرة التاسعة عشرة، ثم جاءت حروب رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين ومواجهته شعوب البحر فى فلسطين مؤكدة عدم وجود أى كيان لإسرائيل على أرضها حتى العام الثامن من فترة حكمه، ويدعم ويؤكد المصادر المصرية، الحفائر الأثرية التى أجريت فى فلسطين، والتى تكشف عن انتشار الوجود المصرى حتى عهد رمسيس الثالث.. ونعرف من البرديات المصرية أن النظام الضريبى المفروض على السكان الكنعانيين استمر قائماً حتى عهد رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين، وتثبت سجلات هذه الفترة أن معبد آمون كان يمتلك فى كنعان ٥٦ مدينة ومعبداً، ومعبد رع يمتلك «١٠٣» مدينة كنعانية. وقد فرض المصريون السخرة على أهالى كنعان لزراعة الحقول كواجب يلتزمون بأدائه للدولة. كما توضح السجلات قوائم المعادن الثمينة والأحجار الكريمة التى فرضت على مدن كنعانية مثل جازر وأورشليم.

وذلك يجعل دخول الإسرائيليين إلى فلسطين وانتشارهم بها على النحو الذى تصوره القصة الدينية فى ظل النفوذ المصرى القوى المسيطر أمراً مستحيل الوقوع، لكن ذلك يصبح ممكناً فى تاريخ تال لانتهاء حروب رمسيس الثالث بعد أن دخلت مصر نفقاً مظلماً من الهوان والضعف والفساد، وأيضاً جفاف النهر والأرض.

وقد يكون مناسباً فى هذا المجال إبداء الرأى الذى أثاره الكاتب «إيمانويل فلايكونسكى» عالم الطبيعة اليهودى المولود فى روسيا عام ١٨٩٥م، والذى اشترك مع ألبرت أينشتاين فى تحرير مجلة الجامعة العبرية التى تحمل اسم «المخطوطة الجامعية» واعتبرت إحدى الركائز العلمية التى قامت عليها الجامعة العبرية بالقدس. وقد هاجر إلى أمريكا عام ١٩٣٩، ومات

بها عام ١٩٨٠. وقد ألف موسوعة أسماها «عصور فى فوضى» حاول فيها إثبات تاريخ قديم للإسرائيليين انتهى فيه إلى أن إقامتهم بمصر كانت فى فترة قديمة، ويجعل خروجهم سابقاً على غزو الهكسوس لمصر.

وفى مجال رده على ما يثيره الباحثون بشأن الاستحالة التاريخية لوجود الإسرائيليين فى فلسطين خلال الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، طرح تساؤله الاستنكارى: عما إذا كان من المستحيل على الإسرائيليين دخول فلسطين فى عهد فراعنة أقوياء، فكيف كان من الممكن أن يتخلصوا من نير العبودية فى عهود حكام آخرين كانت لهم القوة نفسها؟ وإجابتنا عن تساؤله نقدمها من الحقائق الدينية اليقينية ومن المصادر التاريخية المعاصرة، وهى أن خلاص بنى إسرائيل من عذاب العبودية كان بمعجزة إلهية قدمها الله لكليمه ونبيه موسى عليه السلام، وعندما جاء دور شعب إسرائيل لتنفيذ أمر الله وأخذ ميراثهم الذى وعدهم به تخاذلوا وآثروا الاستكانة والذل، فعاقبهم الله بالتيه مدة القضاء على جيل كامل منهم، حتى يغير الله أمرهم من حال الهوان إلى حال آخر يحمله جيل جديد، ولكى يقضى الله أمراً كان مقدوراً، ذلك أن مصر الدولة العظمى والإمبراطورية الممتدة، وبسرعة لم تكن لها مقدمات تاريخية تبررها، وقبيل انتهاء سنوات تيه بنى إسرائيل كانت هى الأخرى قد دخلت فى حال آخر معاكسة تماماً انتهت بها إلى نفق الضعف والهوان، ولم تعد لها حيلة فى الدفاع عن ممتلكاتها خارج أرضها، وقبلها بسنوات قليلة كانت حليفتها الشمالية دولة الحيثيين هى الأخرى قد أصبحت أثراً بعد عين، وخلفت وراءها شتاتاً من أقوام متناثرين داخل مملكتها التى كانت.

وأعتقد أن السبب الرئيسى الذى اعتمد عليه المؤرخون فى تحديد الخروج فى عصر الأسرة الثامنة عشرة هو استنادهم إلى تقرير التوراة من أن بناء الملك سليمان لبيت الرب فى السنة الرابعة من حكمه كان موافقاً لمرور أربعمائة وثمانين عاماً على خروجهم من مصر، فى محاولة منهم لتوفيق التواريخ من الخروج حتى عهد سليمان الذى يوافق نهاية الأسرة الحادية والعشرين وبداية الأسرة الثانية والعشرين فى مصر.

وهذه الفترة الزمنية التى تحددها التوراة لا يمكن أن تكون صحيحة؛ لأنها لا تتفق مع الظروف التاريخية التى مرت بها المنطقة فى تلك المرحلة التاريخية، وأغلب الظن أنها كانت افتراضاً خاطئاً من كاتب التوراة حينما سجل تلك الأحداث فى فترة زمنية متأخرة عنها، فأخطأ فى حساب فترة حكم قضاة بنى إسرائيل بجمع سنوات حكمهم واعتبارها فترات متتالية على الرغم من التعاصر الزمنى فى وجود بعضهم مع قبائل بنى إسرائيل. ويؤكد ذلك الخطأ أن التوراة تحدد أيضاً فى سفر الخروج أن إقامة بنى إسرائيل فى مصر قبل الخروج كانت أربعمائة وثلاثين سنة (الخروج - ١٢ - ٤٠)، ومع افتراض صحة التاريخين ومجموع

سنواتها ٩١٠ سنوات، فإذا عدنا إلى الماضى من السنة الرابعة لحكم سليمان بمقدار تلك السنوات لأصبحنا فى عصر الأسرة الثانية عشرة، وفى مرحلة سابقة على دخول الهكسوس لمصر بنحو مائتى عام، ونكون بذلك أمام افتراض يتناقض مع الأحداث التاريخية فى المنطقة، بل مع نصوص التوراة أيضاً التى ربطت بين وجود الإسرائيليين فى مصر وتسخيرهم فى بناء مدينتى فيثوم ورعمسيس، وتجعل رحيلهم من مصر يبدأ من مدينة رعمسيس، وهذه لم تنشأ إلا فى عهد رمسيس الثانى فى الأسرة التاسعة عشرة.

هذا فضلاً عن أن الخروج المبكر لا يتفق والحفائر الأثرية فى مناطق عبر الأردن التى مر بها الإسرائيليون، إذ كان المفروض ألا يلتقوا مع الملوك الأدوميين والعمونيين والمؤابيين الذين ذكرتهم التوراة؛ لأنهم لم يكن لهم وجود، وكان يعيش بها فى تلك الفترة بدو متفرقون تسميهم النصوص المصرية «الشاسو».

أما بشأن استنادهم إلى ظهور قبائل العابيرو أو الخابيرو - فى فترة تالية - وربط ذلك ببنى إسرائيل الذين دخلوا مصر، فإن هذا الربط تاريخياً لا يقوم على سند أو دليل صحيح، فقد سبق أن أشرنا إلى أن قبائل العابيرو أو الخابيرو التى سجلت نصوص الأسرة الثامنة عشرة ورسائل العمارنة وجودهم لا تعنى شعب إسرائيل؛ لأن تلك التسمية قد اكتسبها كل أبناء إبراهيم عليه السلام ومن اتبعهم، فهى ميراث لفظى لكل الأبناء والأحفاد الذين جمعتهم صفات وخصائص واحدة، وقد علمنا أنهم انتشروا فى مناطق الشرق القديم فى الأردن وفلسطين ومدين وسعير، ولم تكن قبيلة إسرائيل (يعقوب) التى جاءت إلى مصر سوى فرع منهم، وكان طبيعياً من الناحية الاجتماعية والتاريخية أن يتحرك هؤلاء الأقوام بحثاً عن القوت والاستقرار وأن يثيروا القلاقل والصراع فى المناطق التى يذهبون إليها. ونعرف من سفر التكوين أن الآراميين من سلالة «ناحور» (أخى إبراهيم الخليل)، وأن الأدوميين نسبة إلى آدوم وهو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وأن المؤابيين نسبة إلى مؤاب بن لوط بن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام، والعمونيين أيضاً ينسبون إلى «بن عمى» بن لوط، والمديانيين نسبة إلى مدين، أحد أولاد إبراهيم من زوجه قطورة.

وقد تزوج إبراهيم - عليه السلام - من أربعة، وكان له أبناء كثيرون عاشوا واختلطوا بأمم غيرهم، وتناسلوا وانتشروا فى أرض الشرق القديم، وظل لهم جميعاً لقب أو صفة جدهم «العبرانى» والتى جاء منها لفظ العابيرو، وفيما بعد صار هذا اللقب يطلق على الأمم البدوية الصحراوية التى لا تستقر فى مكان وظهر فى النصوص المصرية وأيضاً فى الوثائق المسمارية الآسيوية، لهذا فإن العابيرو أو الخابيرو الذين سجلتهم نصوص أمنحوتب الثانى ورسائل العمارنة كمعتدين على أراضى فلسطين لا يمكن تاريخياً أن يكونوا هم بنى يعقوب (إسرائيل) الذين أقاموا فى مصر، وقد تأيد ذلك بالأحداث التاريخية التالية والتى كشفت أن

الإسرائيليين كانوا ما زالوا يعيشون فى مصر فى عصر الأسرة الثامنة عشرة، فضلا عن أن دخولهم فلسطين ترتب عليه لهم مراحل زمنية بدأت باستيطان وتوسع ثم الاتحاد وقيام المملكة، ثم الانقسام إلى مملكتين، وهذا ما لم يتبين حدوثه فى المرحلة التالية لعصر العمارنة التى كانت أحداثها مجرد غارات وقتية أو أحداث شد وجذب، وانتهت آثارها بإخمادها ولم يحدث خروج فلسطين من دائرة النفوذ المصرى وقتها أو بعدها وحتى الأسرة العشرين.

ويدعم ذلك أيضاً اختلاف التفاصيل التى قدمها سفر يشوع عن المعلومات الواردة فى رسائل العمارنة، وأهمها أن أسماء الملوك الكنعانيين وردت فى سفر يشوع كالآتى:

«فأرسل أدونى صادق ملك أورشليم إلى هوهام ملك حبرون وفرام ملك يرموث ويافيع ملك لخيش ودبير ملك عجلون» [الإصحاح العاشر آية ٣].

فى حين أن أسماء الملوك المعتدين التى وردت فى رسائل العمارنة هم «عبدى خيبا»، و«عبدو عشرتا»، ثم ولده «عزيرو»، «بياخو» بما يعنى أننا أمام مرحلتين زمنيتين مختلفتين.

ثانيا: آراء تجعل الخروج فى عصر الأسرة التاسعة عشرة

الرأى الأول: الخروج فى عهد رمسيس الثانى

يرى كتشن أن وقائع الخروج حدثت خلال الثلاثين سنة الأولى من حكم رمسيس الثانى، وربما كانت فى السنة الخامسة عشرة، وأن الكتابات اليهودية تتوافق مع هذا التاريخ. ولعل السند فى هذا التحديد هو ما ورد على لوحة إسرائيل التى سجلت انتصار مرنبتاح على قوم إسرائيل فى حملته على فلسطين فى السنة الخامسة من حكمه. باعتبار أن ذلك يجعل تاريخ الخروج متفقاً مع مرور فترة تيه أربعين سنة، وتكون حملة مرنبتاح بعد سنوات قليلة من دخولهم فلسطين.

وهذا الرأى مستبعد تماماً لعدم اتفاقه مع الحقيقة الدينية وأحد ثوابت البحث المستمد من نصوص التوراة والقرآن من أن فرعون مصر غرق وانتهت حياته فى رحلة الخروج، واستبعدنا أى محاولة لتفسير المقصود بالغرق على غير ذلك. هذا فضلاً عن المصادر التاريخية التى أكدت استمرار نفوذ مصر فى فلسطين طوال عهد رمسيس الثانى وبعد هذا التاريخ.

الرأى الثانى: أن رمسيس الثانى هو الفرعون الذى عاصر ميلاد موسى، وهو الذى سخر بنى إسرائيل واستعبدهم، وهو أيضاً فرعون الخروج الذى غرق مع جيشه وهو يطارد موسى وبنى إسرائيل، وأن فترة سنوات حكمه الطويلة التى ناهزت السبعة والستين عاماً كانت كافية لذلك. واستندوا فى شأن معاصرة موسى لفرعون واحد وليس لفرعونين إلى أن النص القرآنى واضح - فى رأيهم - فى أنه يروى قصة موسى مع فرعون واحد، وذلك فى تفصيل مراحل

حياته الشريرة من قبل ولادة موسى وحتى حدوث غرقه وهو يطارد بنى إسرائيل، فها هو فرعون بعد عودة موسى من مدين يقول له: « **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)**» [**الشعراء**].

وأن هذا يدل على أن هذا الفرعون نفسه هو الذى ربى موسى فى صغره، وهكذا - فى رأيهم - استمرت آيات القرآن تتحدث عن فرعون واحد للاضطهاد ثم الخروج، وانتهوا إلى أن القول بغير ذلك يمثل سوء فهم للنص القرآنى، وقالوا إن المفسرين القدامى للقرآن الكريم مثل ابن كثير وآخرين غيره قد فهموا تفسير الآيات على هذا النحو؛ ذلك أنهم لم يجدوا أمامهم هذا التدخل التاريخى فى الأحداث، ومن ثم لم يكن لديهم سبب يضطرهم إلى تقديم تفسير اعتباطى للنص القرآنى، كما هو حال بعض المحدثين، مثل الدكتور عبدالوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء» الذى نشر لأول مرة فى ثلاثينيات القرن العشرين، والذى حاول فيه إمكانية توفيق الرواية القرآنية لقصة موسى مع ادعاء العهد القديم بأن فرعون الاضطهاد غير فرعون الخروج، وفى هذا الاتجاه أيضاً يأتى رأى الكاتب الفرنسى موريس بوكاى فى كتابه «العهد القديم والقرآن والعلم» الذى نشر لأول مرة فى أواخر سبعينيات القرن العشرين، وغير ذلك من الكتاب الذين تبنوا معاصرة موسى لفرعونين.

وفى شأن تحديد هذا الفرعون الذى عاصر الميلاد والخروج بأنه رمسيس الثانى استندوا إلى الربط بين رواية التوراة من تسخير فرعون لبنى إسرائيل فى بناء مدينتى فيثوم ورعمسيس، وبين ما دلت عليه الحفائر التى أجريت فى «تل الرطابة» (فيثوم) و«قنتير» (بى رعمسيس) من أن الأولى أعيد بناؤها وأن الثانية أنشئت فى عهد رمسيس الثانى، وأن هذا الأمر يتطابق مع ما نعرفه عن التوراة من أن إقامة بنى إسرائيل فى مصر كانت فى مكان قريب من تلك المدينتين فى أرض جاسان.

الرأى الثالث: الخروج فى عهد مرنبتاح

أصحاب هذا الرأى يرون أن رمسيس الثانى هو فرعون الاضطهاد والتعذيب والتسخير، بينما كان الخروج فى عهد ولده وخليفته مرنبتاح، ويأخذ بهذا الرأى جمهور كبير من المؤرخين منهم إدوارد نافيل وسير فلندرز بترى فى كتابه «تاريخ مصر» وكتاب «مصر وإسرائيل»، و«أ.هـ. سايس»، و«ريتشارد ليبسيوس»، والدكتور عبدالحميد زايد والكاتب الفرنسى موريس بوكاى فى كتابه «العهد القديم والقرآن والعلم»، وفيليب حتى.

والسند الرئيسى فى هذا الرأى هو ما ورد فى التوراة والخاص بتسخير الإسرائيليين فى بناء مدينتى «فيثوم، ورعمسيس» الذى حدث فى عهد رمسيس الثانى، ثم ما جاء على لوح إسرائيل المصور فى السنة الخامسة من عهد مرنبتاح من انتصاره على الإسرائيليين والقضاء عليهم.

وقد أخذ مؤيدو هذا الرأى وجهتين، فمنهم من رأى أن الخروج كان خلال عهد مرنبتاح وعلى الأرجح فى تاريخ تسجيل لوحة إسرائيل فى العام الخامس من حكمه، ومنهم من رأى أن الخروج كان فى العام الأخير من حكم مرنبتاح، باعتبار أن التسليم بأن الخروج حدث خلال مدة الحكم يتناقض مع روايات الكتب المقدسة؛ لأن ذلك يعنى أن الفرعون بقى على قيد الحياة بعد خروج الإسرائيليين من مصر. لهذا فإنه بسبب تسجيل مرنبتاح انتصاره على الإسرائيليين رأوا أنه فرعون الخروج، وأن تحديده بالعام الأخير من حكمه هو الذى يتفق مع روايتى التوراة والقرآن. وبذلك يكون مرنبتاح - فى رأيهم - هو فرعون الذى نجاه الله ببدنه ليكون لمن خلفه آية، بسبب تحنيط جثته التى يحتفظ بها المتحف المصرى الآن. ومن أنصار هذا الرأى الدكتور محمد بيومى مهران فى كتابه دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم - الجزء السابع - إسرائيل - والذى انتهج فيه الرأى بأن الفرعون الذى التقطت امرأته موسى هو «رمسيس الثانى»، وهو ذاته فرعون التسخير، وأن الفرعون الذى جابهه موسى هو مرنبتاح، وهو الذى ذكر موسى بتربيتهم له وتنشئتهم إياه، ثم قتله واحداً من رعاياهم وهروبه إلى مدين. وفسر سبب تصوير لوحة إسرائيل فى العام الخامس من حكمه أنها فى حقيقتها لم تكن سوى تسجيل وتخليد لذكرى انتصاره العظيم على الليبيين وعدد من شعوب البحر، وأنها نقشت بعد موته المفاجئ، ولعل هذا ما يفسر فى رأيه تسجيلها على لوحة ليست له، وإنما لسلفه البعيد أمنحوتب الثالث.

ومن نفس الرأى موريس بوكاى الذى رأى لاعتبارات تتعلق بورود كلمة رمسيس وكتابتها عدة مرات بطريقة صحيحة فى التوراة والأسفار، وهى اسم إحدى المدينتين المذكورتين على أنهما اللتين بناهما اليهود سُخرة شرق دلتا النيل، واتخذها رمسيس الثانى عاصمته، وأن هذه مع معطيات أخرى تثبت:

أ- أن الخروج لا يمكن تصوره أياً كان قبل تسلّم رمسيس الثانى السلطة فى مصر.

ب- أن موسى قد ولد فى عهد بانى المدينتين «رمسيس وبيتوم»، وهذا يعنى عهد رمسيس الثانى.

جـ - أن رمسيس الثانى قد مات عندما كان موسى فى مدين، وعلى ذلك فإن القسم الثانى من تاريخ موسى تتابع فى عهد خلفه مرنبتاح، ولقد قاد موسى الخروج فى آخر حكم مرنبتاح الذى فقد حياته وهو يلاحق اليهود كما يذكر القرآن والتوراة. واقترح موريس بوكاى تفسيراً آخر لتصوير لوحة إسرائيل فى السنة الخامسة من حكم هذا الملك، وهو أن بنى إسرائيل لم يكونوا يعيشون فى مصر فقط، وأن إعلان مرنبتاح تدميرهم يشير إلى وجود استيطان لبعض مجموعات أخرى فى كنعان خرجت من مصر فى فترة سابقة على خروج جماعة موسى، وحاربهم الفرعون هناك.

الرأى الرابع: الخروج فى عهود تالية لعهد مرنبتاح

ذهبت بعض الآراء إلى أن الخروج كان فى عهود تالية لعهد مرنبتاح، غير أن هذه الآراء ليست مدعمة بأدلة أو قرائن يمكن أن تؤيدها ولا تقوم على أركان ثابتة، ومن بينها من يرى أن سيتى الثانى (سيتى مرنبتاح) هو فرعون الخروج بدعوى أن مرنبتاح كان طاعناً فى السن تقدمت به الأيام، كما يظهر من فحص مومياءه، بما لا يقوى معه أن يخرج مطارداً لموسى وبنى إسرائيل، فى حين أن سيتى الثانى كان شاباً مكتمل الصحة موفور النشاط، كما يتبين من جثته بمتحف القاهرة بما قد يعنى أن موته كان مفاجئاً بغرق، وهذا فى رأيهم أقرب إلى الاقتناع.

وقد ذهبت آراء أخرى إلى أن الخروج حدث بعد نهاية الأسرة التاسعة عشرة، وهناك من رأى أنه كان بعد عهد رمسيس الثالث.

ولن نناقش آراء تذهب إلى أن قصة الخروج ليست سوى أسطورة لا ترتكز على حقائق تاريخية ثابتة، وأنها يجب أن تبقى هكذا، حتى تظهر فى الأفق براهين جديدة، ويندرج مع هذه الآراء أيضاً من اعتبر أنه لا يمثل سوى فرار مجموعة من العبيد من سادتهم، ولا يمثل حدثاً يثير الاهتمام الفكرى لدى المصريين؛ لأن هذه الاتجاهات تناقض وتخالف الحقائق الدينية الثابتة يقيناً.

■ ■ ■

تلك هى مجمل الآراء التى أثيرت بشأن تاريخ الخروج وتحديد شخصية فرعون موسى، وقد استبعدنا جميع الآراء التى ذهبت إلى أن فرعون الخروج كان فى عصر الأسرة الثامنة عشرة للأسباب التى أوضحناها، والتى تتمثل فى السيطرة المصرية الكاملة على فلسطين. وأيضاً استناداً إلى الحقيقة الدينية التى تؤكد غرق فرعون الخروج، والتى اعتمدنا عليها ضمن ركائز البحث وتحديد نطاقه، فإننا نستبعد الآراء التى انتهت إلى أن الخروج حدث خلال مدة قيام رمسيس الثانى على عرشه، ونفس الأمر لخليفته مرنبتاح لحتمية حدوث الخروج فى نهاية حكم فرعون، الذى لا بد أن يكون حكمه قد انتهى بموته غرقاً.

وعلى ذلك تظل أقوى الآراء القائمة هى أن الخروج كان فى نهاية حكم رمسيس الثانى، أو نهاية حكم مرنبتاح ولده وخليفته، وهى آراء سوف تخضع للدراسة وتدخل فى النطاق الزمنى للبحث ولا تناقض الثوابت.

ويكون الأمر ما زال مطروحاً فى شأن زمان ميلاد موسى وفرعون السخرة والتعذيب، وهل الرواية الدينية قصدت فرعوناً واحداً أم فرعونين؟ ونحاول الإجابة عن ذلك ثم نعرض أدلتنا على تاريخ ميلاد موسى وتاريخ الخروج.

الفصل الثانى
فرعون موسى واحد أم أكثر

ونحن بصدد تحديد زمان حياة موسى وفرعون المعاصر له، فإن أولى القضايا المثارة فى شأن هذا النطاق الزمنى هى ضرورة تحديد ما إذا كانت حياته عليه السلام بداية من ميلاده ثم بعثته وحتى خروجه مع قومه عاصرت فرعوناً واحداً أم أكثر من فرعون؟ وإذ نجيب عن هذا التساؤل من القصة الدينية فى الكتب المقدسة يتبين لنا:

فى التوراة:

القصة التوراتية واضحة فى أن فرعون الميلاد ليس هو فرعون الخروج، حيث:

١- تقول التوراة بعد الحديث عن حياة موسى فى مدين: «وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات. وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا. فصعد صراخهم إلى الله مَن أجل العبودية. فسمع الله أنينهم، فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ونظر الله بنى إسرائيل وعلم الله» [سفر الخروج - الإصحاح الثانى : ٢٣ - ٣٥].

وتقول أيضاً: «وقال الرب لموسى فى مديان اذهب ارجع إلى مصر. لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» [الخروج - الإصحاح الرابع: ١٩].

٢- ذكرت التوراة فى مواضع عدة أن موسى كان ابن ثمانين سنة حين عاد من مدين وخرج ببنى إسرائيل من مصر، ولما كانت - طبقاً للمصادر التاريخية - أقصى مدة لحكم فرعون فى مصر خلال الحقبة الزمنية موضوع البحث، هى فترة حكم رمسيس الثانى التى بلغت زهاء ٦٦ عاماً، وبالتالى فإن فترة حياة موسى من الميلاد وحتى الخروج تتجاوز مدة حكم فرعون واحد.

وفى القرآن الكريم:

تتحدث القصة القرآنية فى مختلف مراحل حياة موسى عن فرعون مصر دون تحديد لشخص بعينه، وتستمر الصفة الملازمة له أنه ظالم كافر، فى ميلاد موسى كان يكره المؤمنين ويعذبهم، وبعد بعث موسى رفض دعوته، ووصمه بالسحر وسخر منه، وامتن عليه بسابق فضل مصر وتربيته فى بيت الفرعون؛ مذكراً إياه بهروبه بعد جريمته ثم عودته منكراً آلهتهم جاحداً إحسانهم: «**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾**» [**الشعراء**]، وهذا ما دعا معظم كتب التفسير إلى الاعتقاد باستمرار وجود نفس الفرعون الذى تبنى موسى وليداً قائماً على عرشه حتى عاد موسى من مدين ودعاه إلى الإيمان بالله الواحد.

لكن الحقيقة أن دراسة القصة القرآنية من زاوية تاريخية، وإعمال التفسير الدقيق لآياتها

على ضوء هذا الاعتبار الجديد سوف يؤدى إلى نتيجة تسير فى ذات اتجاه الرواية التوراتية، وتؤكد معاصرة حياة موسى لأكثر من فرعون. ونستند فى ذلك إلى عدة ملاحظات نستدل عليها من الوصف القرآنى لمجمل حياة موسى، وما حملته الآيات من اختلاف الظروف التاريخية فى مصر فى فترة ميلاده عن فترة الدعوة، وباستثناء الظلم والكفر فإن بعضاً من صفات وخصائص فرعون الميلاد التى نستخلصها من القرآن اختلفت عن فرعون الخروج، وأيضاً فإن بعض التعبيرات التى استخدمها القرآن تساعد على استخراج دلالات معينة تؤدى إلى هذه النتيجة، ونقدم تلك الأدلة على النحو التالى:

أولا: إن الوصف القرآنى لرحلة حياة موسى يؤيد استنتاج صحة الرواية التوراتية فى تجاوز موسى الثمانين عاماً فى تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر، وذلك على النحو الذى يتضح من استعراض مراحل حياته الآتية:

فى مصر قبل خروجه إلى مدين

قبل مغادرته مصر إلى مدين تصف الآية التالية موسى: «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾**» [**القصص**]. وقد اختلف المفسرون فى تعيين العمر الذى يشير إليه التعبير القرآنى «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**»، والذى ورد بصيغ مختلفة فى ثمانى آيات قرآنية، واقترح البعض أن هذا التعبير يشير إلى سن البلوغ. ورأى آخرون أنه يشير إلى عمر أكبر بكثير؛ استناداً إلى التعبير القرآنى: «**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿١٥﴾**» [**الأحقاف**]، والذى يتضح من مجمل آيات القرآن التى استخدمت هذا التعبير أن معناه ينصرف إلى أنه العمر بعد سن البلوغ الذى يصبح المرء فيه قادراً على اتخاذ قرارات سليمة ومسئولة بشأن أموره، ثم إن استخدام القرآن لفظ «استوى» مع «بلغ أشده». يشير إلى أنها مرحلة لاحقة لبلوغ الأشد، وأيضاً تعبير «آتيناه حكماً وعلماً»، يشير إلى أن موسى قد أكمل فى مصر تعليمه العالى فى مدارس المعابد، وأنه بعد ذلك حصل على وظيفة مرموقة هيأت له «حكماً» فى الجهاز الإدارى أو العسكرى للدولة.

يحكى لنا يوسيفوس - المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى - نقلاً عن مانيتون المؤرخ المصرى، أن المصريين كانوا يعظمون موسى ويعتبرونه واحداً منهم، ويقولون إنه درس فى مدينة عين شمس، وأيضاً تقول قصة التلمود - وهو كتاب التفسير عند اليهود - إن موسى قبل سفره إلى مدين أصبح قائداً للجيوش المصرية، وأنه قاد المعارك منتصراً ضد أعداء مصر فى المنطقة الجنوبية، وحكم فترة فى هذه المنطقة بالعدل والقسطاس. وربما أن المقصود بذلك أنه قاد أحد فصائل الجيش فى حملة بتلك المنطقة، وعموماً فإن هذه إشارات لا يجب إغفالها تماماً فى مجال البحث مع وجود التعبير القرآنى: «آتيناه حكماً

وعلماً». وعن هذه المرحلة أيضاً يحكى القرآن الكريم أن فرعون مذكراً موسى بسابق عهده، وممتناً عليه فى الحديث بينهما بعد عودته «**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)**» [**الشعراء**]، وهذا التعبير لا ينصرف فقط وبالضرورة إلى المعنى الذى ساد عصوراً طويلة فى كتب التفسير، وهو أن يكون الفرعون صاحب هذا السؤال الاستنكارى هو نفسه صاحب الفضل والإحسان على موسى فى طفولته، بل إنه تعبير يمكن أن يحمل عدة أوجه. وأقوى دلالاته أن موسى فى بداية حياته عاش فى مصر سنين طويلة كانت كافية لأن تجعله - من وجهة نظر فرعون - مصرياً وفياً مخلصاً للبلد الذى أنشأه ولبيت الفرعون الذى رباه وعلمه.

فى مدين

والمرحلة التالية من حياة موسى فى مدين قضى فيها عشر سنوات أجيراً لدى حماه مقابل أن يزوِّجه ابنته.

وذلك من سورة القصص:

«**قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ... (٢٧)**» .

وأيضاً: «**فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ... (٢٩)**» .

وبعد هذه السنوات سار موسى بأهله مستقلاً فى حياته وعمل فى الرعى متنقلاً من مكان لآخر، فقد كان رحيله إلى مدين هجرة، وحياته هناك استقراراً، ولم يكن فى نيته العودة إلى مصر؛ يؤكد ذلك قوله لله تعالى فى أسباب خوفه من الرجوع إلى مصر: «**وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤)**» [**الشعراء**]، فهذا التبرير يعنى أن موسى لم يكن ليعود إلى مصر لولا تكليف الله تعالى له بالرسالة وأمره بأن يذهب إلى فرعون، ويتضح ذلك من أنه - تعالى - أتبع حديث موسى فى الآيتين التاليتين بإلغاء مضمون هذا التبرير ومصادرة أسباب تخوف موسى بتأييد من عند الله «**قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)**» [**الشعراء**]، وفى قوله تعالى:«**اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣)**» [**طه**].

ومن ثم، فإن ما يقوله المفسرون من أن موسى بعد أن قضى عشر سنوات أجيراً لدى حماه خرج عائداً إلى مصر - هو قول بغير سند، ولا يستقيم مع سبب خوفه الذى أبداه إلى الله تعالى، بل إن هذاالقول يؤدى إلى اعتبار التبرير الذى قدمه موسى لربه - حاش لله - محاولة للتنصل أو الاعتذار عن أداء الرسالة، وهذا ما قطعت الآيات بعدم اتجاه قصد موسى إليه فى قوله: «**كلا**» التى تعنى أن أمر الله لموسى هو الذى أزال ما اعتمل فى قلبه من خوف وغيَّر من

اتجاه نية عدم العودة إلى مصر الذى كان قائماً فى تخطيط حياته.

وتصل التقاليد اليهودية إلى أن حياة موسى فى مدين بلغت أربعين عاماً، وبإضافة مدة حياته السابقة التى قضاها فى مصر إليها يكون موسى قد أصبح شيخاً. ونستهدى فى تأييد هذا الرأى بحديث موسى مع ربه فى ليلة البعث فى جبل الطور فى سيناء، وهو يتلقى تكليف الرسالة والعودة إلى مصر، عندما سأله تعالى: «**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا . . . (١٨)**» [**طه**]، وهو ما يستنتج منه أن موسى كان قد وصل إلى مرحلة من العمر يحتاج فيها إلى عصا يستند إليها، ولم يعرف عنه أنه فى شبابه كان مريضاً أو ضعيفاً، بل على العكس فقد جاء إلى مدين قوياً: «**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)**» [**القصص**]، وقطعاً لأن حديثه مع ربه لن يكون من لغو الكلام، فيكون أنه خرج من مدين شيخاً يتوكؤ على عصا.

فى مصر بعد العودة من مدين

فى مرحلة الدعوة فى مصر يذكر الله تعالى أن موسى لبث داعياً لرسالته سنين، فى سورة الأعراف: «**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)**».

«**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ . . . (١٣٣)**».

ويقول تعالى فى سورة الإسراء: «**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . (١٠١)**».

ويتضح من تلك الآيات استمرار حياة موسى فى مصر مساحة زمنية مناسبة تكفى لحدوث جميع الآيات البينات والتى شملت الطوفان والجفاف ونقص الثمرات والحشرات ودمار الطبيعة، وتراوحت ما بين الابتلاء ثم التحسن والاستقرار ثم معاودة البلاء فى صورة أخرى، وهكذا، وهو الأمر الذى يحتاج إلى آجال متتابعة يستغرق حدوثها سنوات، لتتحقق غاية الله من إحداثها، «**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)**» [**الأعراف**].

ومن صور الامتداد الزمنى لسنوات الدعوة فى مصر وحى الله إلى موسى وهارون أن يتخذا لقومهما بيوتاً للعبادة وإقامة شعائر الدين فى ربوع مصر، الأمر الذى يحمل معنى الإقامة المستمرة والمستقرة والطويلة: «**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)**» [**يونس**].

هذه المراحل التى اجتازتها حياة موسى، كما فصلها القرآن الكريم، تجعلنا نتفق مع رواية التوراة بشأن تجاوز موسى الثمانين فى تاريخ الخروج، غير أننا لا نتفق معها فى أن موسى عاد من مدين وخرج ببنى إسرائيل فى ذات العام وذات العمر؛ لأن القرآن كان واضحاً فى أمر إقامة موسى فى مصر، واستمرار الدعوة عدة سنين قبل الخروج «**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين**».

والذى يبنى على هذه النتيجة، هو أن حياة موسى منذ ميلاده وحتى خروجه والتى جاوزت الثمانين عاماً قد عاصرت أكثر من فرعون.

ثانيا: يميز القرآن بين حالة مصر السياسية فى فترة ميلاد موسى عنها فى فترة الدعوة، وأيضاً بين سياسة فرعون الحاكم لكل فترة، فتبين سورة القصص أنه فى عام ميلاد موسى كان فرعون الذى يحكم يفرق بين طوائف أهل مصر، فهو قد اضطهد طائفة منهم فصار يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم «**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾**».

ثم يوضح القرآن أن سبب اضطهاد تلك الطائفة أنهم من المؤمنين بالله، وأن إيمانهم هو الذى أوصلهم إلى هذه الحال من الهوان والضعف والتعذيب والقتل، ويؤكد هذا الاستنتاج قوله تعالى فى الآيتين التاليتين: «**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾**»، فالله سبحانه تعالى يريد أن ينصر تلك الطائفة ويمكن لها فى الأرض بسبب إيمانها. وقد كان بنو إسرائيل أو معظمهم يدخلون ضمن تلك الطائفة المؤمنة المستضعفة من أهل مصر؛ بدليل قوله تعالى فى الآية التالية: «**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾**».

تلك كانت الحالة التى تمر بها مصر فى تاريخ ميلاد موسى، أما فى تاريخ عودته إليها قادماً من مدين – بعد بعثته عليه السلام – فيقدم القرآن ظروفاً أخرى مختلفة نعرف منها أن حالة القتل والإبادة التى كان القصد منها التخلص من المؤمنين أو إجبارهم على الارتداد، قد انتهت بانتصار قوى الشر وقمع المؤمنين واضطرارهم إلى إخفاء إيمانهم فى صدورهم نجاة بأنفسهم وانتظارا لخلاص الله، وأصبحت الحالة السائدة الجديدة هى استعباد بنى إسرائيل وتسخيرهم فى الأعمال الشاقة بعد قهرهم ومصادرة الأراضى الخصبة التى منحها لهم يوسف وكانوا يعيشون عليها، انتقاماً منهم بعد اكتشاف أنهم مصدر عقيدة التوحيد فى مصر.

ويكشف الله تعالى عن الحالة الجديدة فى عدة مواضع فى القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى فى أمر تكليف موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون ودعوته: «**فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ... ﴿٤٧﴾**» [**سورة طه**]، وأيضا فى سورة الشعراء يحكى الله تعالى الحوار الذى دار بين موسى وفرعون حينما ذهب النبيان إليه لإبلاغه برسالة رب العالمين، ويطلبان منه إطلاق بنى إسرائيل، فنجد أن فرعون يمن على موسى بتربيته صغيراً فى مصر، ثم يذكّره بهروبه بعد قتل المصرى: «**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾**»، فكان فرعون يقصد بقوله التكبر على موسى وازدرائه والانتقاص منه بوصفه بنكران الجميل وجحود النعمة، فكان رد موسى

عليه: «قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١)»، ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)»، ويتضح لنا من هذه الإجابة أن موسى يستند فى استنكاره لانتقاص فرعون له وما يمتن به عليه من نعمة إلى منطق مؤداه أنه ليس إلا رجلاً واحداً من بنى إسرائيل، وأن النعمة التى يمن بها الفرعون عليه ليست بالشىء الذى يقابل استخدامه لشعب إسرائيل بكامله واستعباده له فى أعماله وأشغاله، ونستنتج من ذلك أن أفعال الاستعباد والسخرة تشكل حالة بنى إسرائيل التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، وانتهت حالة القتل؛ إذ لو كان هذا الفرعون هو نفسه الفرعون الذى عاصر ميلاد موسى، والذى يحكى القرآن عنه أنه يذبح الأبناء لوضعها الله تعالى فى أسباب الخلاص فى أمر تكليف موسى وهارون، وأيضاً ما كان موسى فى حواره مع فرعون يمكن أن يتركها تمر دون أن يواجهه بها، وهى جريمة أبشع وأشد قسوة من جريمة الاستعباد؛ خصوصاً أن هذا الفرعون كان قد أخذ موقف ازدراء موسى، وصار يبحث له عن كل ما ينتقص من شأنه، ولم يتوان فى أن يذكره بأنه قاتل وهارب، فكان منطق الأمور يلزم موسى إذا كان الفرعون الذى يجابهه هو ذاته فرعون الميلاد أن يجيبه النبى الكريم: بأنى يا فرعون إذا كنت قد قتلت نفساً خطأ فإنك قتلت نفوساً كثيرة عمداً وبدون ذنب اقترفته. أما وأن موسى لم يفعل، واكتفى فى إجابته بوصمه باستعباد القوم فمؤدى ذلك أن يكون هذا التعذيب هو ما يمكن أن ينسب ضد هذا الفرعون تجاه بنى إسرائيل، ولعل هذا ما يفسر إشارة التوراة إذ ربطت بين وفاة ملك مصر وتنهد بنى إسرائيل من العبودية «إن ملك مصر مات وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية فسمع أنينهم»، وهذا يعنى أن الحالة الجديدة التى دخلوا إليها هى مرحلة العبودية القاسية، واستغلالهم فى أعمال فوق طاقة البشر، هذا فضلاً عن استحالة تنفيذ جريمة قتل الأطفال طوال هذه المدة؛ لأن نتيجتها الحتمية لن تكون سوى الإبادة أو الفرار من أرض مصر.

ومؤدى ما تقدم، أن يكون فرعون الخروج هو فرعون آخر غير فرعون الميلاد، ولم يكن لموسى النبى الكريم أن يدعى ضد هذا الفرعون الذى حاوره بعد أن عاد إلى مصر بجرائم القتل والإبادة التى ارتكبها ملك آخر سابق، حتى لا يسلك نفس مسلك هذا الفرعون الذى امتن عليه بنعمة التربية والإحسان رغم أنها لا تحسب له وإنما لفرعون سالف.

ثالثا: وفى مواضع أخرى فى القرآن تزداد تلك النتيجة وضوحاً، وذلك فى قوله تعالى: «وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)» [سورة الأعراف]، وأيضاً فى قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ

إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴿٢٥﴾«[غافر].

فهذا التهديد الذى ينسب الله تعالى صدوره من فرعون يدل على أن المرحلة الزمنية بعد عودة موسى إلى مصر أصبحت تختلف عن فترة ميلاده، وأن الفرعون الذى بعث إليه ليس هو الذى كان يقتل الغلمان ويستحيى النساء؛ لأنه لو كان نفس الفرعون وذات الظروف ما زالت قائمة، فما كان الأمر يستلزم إصدار أمر جديد من الملك، والتهديد باستصداره يعنى أنه يريد أن يستحدث انتقاماً لم يعد له وجود حالى، ومع ذلك فقد رد الله كيدهم وحال بينهم وبين تنفيذ تهديدهم بدليل قوله تعالى: «**وما كيد الكافرين إلا فى ضلال**» ، وللأسباب التفصيلية الأخرى التى ذكرناها فى قصة موسى.

رابعاً: يقول الله تعالى عن فرعون الذى عاصر ميلاد موسى - فى أول سورة القصص - إنه كان من المفسدين، وإنه عدو لله بسبب محاربته للمؤمنين بعقيدة التوحيد وانتقامه منهم وتصفيتهم، وقد أوضح الله تعالى هذا الجانب السلبى فى حياة فرعون؛ لأنه الذى كان مهماً فى بيان قصة نجاة الطفل موسى من القتل من فرعون الذى عاصر ولادته، والذى كان يذبح أطفال بنى إسرائيل، لكن هذا لم يمنع من اختيار الله لهذا الفرعون نفسه لصناعة موسى وتربيته، لهذا لزم أن يزوده - سبحانه - بالأسباب التى تجعله قادراً وصالحاً لأداء هذه المهمة، فكان فى ظل صفات فرعون السلبية التى جعلته عدواً لله والمؤمنين، أن جعله الله يحب موسى منذ أن رآه طفلاً فى المهد، ويثبت ذلك من قوله تعالى: «**يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾**«[طه].

وإذ نلاحظ هنا قصد الله تعالى فى الآية الكريمة، نجده يربط مباشرة بين العداوة وإلقاء المحبة، وتلك هى المعجزة التى أرادها سبحانه بغرض تحقيق حسن صناعة موسى تحت الرعاية الإلهية المباشرة، فقد وضع سبحانه فى قلب فرعون حب موسى استثناء من طائفة المؤمنين أعدائه، ورغما عنه جعله الله سبباً فى تربية موسى وفرض عليه حسن رعايته والمحافظة عليه، وهذه المهمة التى أوكلها الله إلى فرعون بعد أن زوده بهذه الطاقة الإيجابية التى تجعله قادراً عليها تقودنا إلى استنتاج أنه - سبحانه - قد زوده بصفات أخرى إيجابية تجعله حسناً صالحاً لأداء مهمته، ولا تناقض بين سلوكه فى نصرة الآلهة الوثنية وانتقامه من الأشخاص الذين يعدهم أعداءه، وبين أن يكون أحد ملوك مصر الصالحين لها والمصلحين فيها، شأنه فى ذلك شأن أسلافه من الفراعنة العظام الذين خرجوا فاتحين تحت راية تلك الآلهة وأقاموا لمصر مجدها الإمبراطورى، وفرضوا الجزى وجلبوا لها الغنائم والأسرى وسخروهم عبيداً لإنشاء القصور والمعابد الوثنية وخدمة الآلهة، لكنهم حققوا العدل لمواطنيهم، ونشروا الأمن فى ربوع الوطن، وشقوا الترع، وزرعوا الأرض، وأقاموا الصناعات، وجعلوا الخير يعم شعوبهم. شأنهم فى ذلك أيضاً شأن حكام الدول الاستعمارية فى العصر الحديث،

يستغلون الدول المستعمرة وينهبون خيراتها، ويستبيحون فيها القتل والتدمير وقهر شعوبها لأجل مستقبل شعوبهم ورخاء وأمن أوطانهم وازدهارها الاقتصادى والاجتماعى، يظلمون وينهبون ويقتلون فى الدول المغلوبة، ويقيمون العدل والأمن ويحترمون القانون فى أوطانهم. وعلى هذا لا يكون مستغرباً أن يتبين لنا بعد ذلك أن هذا الفرعون - الذى جعلته أفعاله المذمومة قاتلاً ظالماً وعدواً لله والمؤمنين - وصفه المؤرخون والدارسون بأنه المصلح الذى أعاد النظام إلى نصابه، وحافظ على أمن وسلامة الوطن، وقضى على الفتنة التى اجتاحت المجتمع، ووضع التشريعات التى أعادت الاستقرار ونشر العدل وكفل حقوق التقاضى.

هذا عن فرعون، وإذا ما تذكرنا أن امرأته كانت سيدة مؤمنة صالحة رافضة لسلوك زوجها الآثم ضد المؤمنين لعلمنا أى بيئة مناسبة اختارها الله لنشأة موسى، وأدركنا التفسير المقصود لقوله تعالى: «**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)**» [**الشعراء**].

وسوف يتأكد لنا أثر الشعور بالمحبة الذى ألقاه الله على موسى لدى فرعون عندما نعلم أن فرعون لم يكن يجهل انتماء الطفل موسى إلى طائفة أعدائه، ويتضح لنا ذلك عندما طلبت منه امرأته أن يجعله قرة عين لها وله وألا يقتله، فاستجاب لها، ولن يكون ذلك إلا بسبب شعوره بالمحبة له«**وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)**»[**القصص**]. فعبارة القرآن «لاتقتلوه» تدل على علمهما: فرعون وامرأته بانتماء الطفل إلى تلك الطائفة التى يقتل الفرعون أبناءها، وفى هذا تقول التوراة: إن ابنة فرعون التى التقطته فور أن فتحت «السفط» قالت هذا من أولاد العبرانيين.

ورداً على كثير من كتب التفسير التى تقصر الشعور بالمحبة على المرأة دون فرعون، فإن الله تعالى لم يذكر أنه نزع أو منع محبة فرعون لموسى، فهذا التفسير رأى من عند أصحابه لحرمان فرعون الطاغية من هذا الشعور النبيل، لكن الحقيقة أن ظاهر الآية لا يؤيد هذا الرأى، بل إن قوله تعالى يؤكد أنها محبة إلهية لكل من يرى موسى، وفى هذه الظروف فإن فرعون تحديداً هو المقصود بها، فهى معجزة ربانية، ولن تتجلى حكمة الله فى وجودها من غير أن تنفذ فى قلب فرعون، ولم يوردها - سبحانه وتعالى - إلا لأنها آية من آياته، وكانت كذلك لأنها وقعت أيضاً عند فرعون الكافر، واستمرت حتى تحقق غرضها باكتمال صناعة الله لموسى، وهى المرحلة التى واكبت تربيته طفلاً والتى سبقت ذهابه إلى مدين. وسير الأمور التالية مع ملاحظات أخرى - سوف نشير إليها - يقطع بأن هذا الفرعون قد انتهت حياته على حب موسى ورعايته.

هذا عن الصورة التى قدمها الله تعالى لفرعون الميلاد أو التى يؤدى إليها تفسير آيات المرحلة الأولى من حياة موسى، وتستخرج من الألفاظ والعبارات التى استخدمها القرآن للدلالة على أحداث القصة،، أما فرعون الذى بعث إليه فقد وصفه الله تعالى بأنه طاغية

متكبر جبار، وأيضاً صاحب رأى غير رشيد، «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧)»[هود].

ويكفى أنه لم يفهم الحقيقة يوم آمن السحرة، ولم يستوعب تسع آيات بينات، وتصل أقصى درجات حماقته أنه طلب من هامان - سواء قاصداً أم ساخراً - أن يبنى له صرحاً لعله يطَّلع إلى إله موسى، ومثل هذا الطاغية الأحمق لا يتفق مع اختياره ليكون مربى موسى، ولا يجوز مقارنته مع فرعون الميلاد؛ لأنه كان معاصراً لموسى النبى، وشاهد بنفسه معجزاته، أما فرعون الميلاد فكان على دين آبائه وأجداده الأولين.

كما يلاحظ أن هذا الفرعون الذى حاوره موسى رسول الله، كان - منذ اللقاء الأول الذى جمعهما بعد عودة موسى، وحتى رحلة الخروج - يكره موسى ويزدريه، ولم يحمل له سوى مشاعر الحقد والتعالى والغيظ والرغبة فى الانتقام، ولم تتحرك فى قلبه ناحيته أو يذكر له أى معان قديمة يمكن أن تشير من قريب أو بعيد إلى أنه ذلك الشخص الذى أحبه ورباه فى مهده، وحمل له يوماً ما مشاعر دافئة وظل يعتبره لعدة سنين قرة عين له واتخذه ابناً بديلاً عن الولد الذى حرم منه، وعبارته لموسى: «**ألم نربك فينا وليداً**» لا تحمل أى معنى إنسانى، بل إنها توضح معانى التكبر والحقد والمن عليه بتربيته فى بيت الفرعون، وفضل مصر التى اعتبر نفسه مسئولاً عنها، كما عاير موسى بعقدة لسانه « **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)**» [**الزخرف**]، ووصل به الأمر إلى درجة أنه كان يريد أن يقتل موسى لولا أن الله نجاه «**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)** » [**غافر**]، وفى رحلة الخروج يكشف الله مشاعره تجاه موسى وقومه، فى قوله تعالى: «**وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥)**»[**الشعراء**]. آيات بينات توضح - بلا شك - اختلاف مشاعر الفرعونين تجاه موسى.

خامساً: تؤدى بعض العبارات فى آيات القرآن الكريم التى تحكى قصة هروب موسى من مصر إلى مدين بعد قتله الرجل المصرى، إلى تأييد استنتاج وفاة فرعون الميلاد قبل حدوث تلك الرحلة.

ونستدل على ذلك من قوله تعالى فى سورة القصص: «**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ... (١٥)**» .

وأيضاً: « **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ....(١٩)**» .

ثم من تحذير المصرى لموسى بالهرب: «**وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠)**» .

فنجد أن الله تعالى فى الوصف القرآنى استعمل عبارات وألفاظاً بعينها اتجهت نحو إثبات انتهاء قصة موسى ابن الفرعون، وتوضح علم طرفى القتال وأهل المدينة أنه أصبح موسى

العبرانى، فاستخدامُ ألفاظ «شيعته»، و«عدوه» تبين إعادة تصنيف موسى اجتماعياً وعرقياً وسياسياً، وخروجه عن دائرة القصر الملكى، وانتمائه إلى أسرته الإسرائيلية الذين هم عمال بالسخرة بسبب انتمائهم العرقى وعداوتهم للسلطة السياسية، وقد جاءت استغاثة الإسرائيلى به، وهذه لا تكون إلا بسبب علمه أن هذا الرجل أهلاً لثقته، وينتمى إليه اجتماعياً، وليس ابن الفرعون، ثم يأتى تالياً فى تأكيد هذا المعنى تحذير الرجل المصرى المخلص ونصيحته لموسى بالهرب، وذلك لا يكون إلا بسبب علمه بانتهاء علاقته بالملك، وأنه لم يعد له سند أو قوة تحميه، ولا حيلة له فى طلب النجاة من القوم المتآمرين، وليس أمامه سوى الهرب من مصر.

وكل هذه المعانى تقودنا إلى استنتاج وفاة فرعون الميلاد وامرأته اللذين تبنيا موسى وأحباه وربياه، واتخذاه ولداً وقرة عين لهما، وكان ذلك قبل هروبه إلى مدين، وإلا كان قد لجأ إليهما لحمايته، وتدبير وسيلة لإنقاذه. ثم تأتى آيات أخرى فى القرآن نستدل منها أن موسى قبل خروجه متوجهاً إلى مدين كان قد عرف أسرته وعاد إليها، فبعد سنوات عندما بعثه الله إلى فرعون، طلب منه موسى أن يشد أزره بأخيه هارون.

سادساً: العبارة التى يحكى الله تعالى أن امرأة فرعون قالتها لزوجها بعد التقاط موسى من النهر: «**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** (٩)»[**القصص**] تحمل بين طياتها معانى انقطاع الرجاء واستنفاد الأمل واليأس من تحقق وجود الولد بعد طول انتظار، بما يعنى أن الزمن قد مر على الزوجين، وقارب العمر على نهايته، فمثل هذا القول من امرأة فرعون لا يليق أن يصدر إلى ملك شاب يحكم دولة كبيرة وعظيمة ما زال ينتظر ولى عهده الذى يخرج من صلبه ويخلفه على عرش مصر، بل إنه حتى لا يليق مع شخص عادى فى مقتبل عمره مستقبلاً لحياته، وكلمة «**لا يشعرون**» لا تحمل فى معناها وتفسيرها سوى خديعة الناس، وهذا يدل أن الملكة قصدت فى حديثها فى المقام الأول خديعة مجمع الكهنة ورجال الدولة، وهذه العبارة تعنى أن الملك الذى انقطع أمله فى أن يكون له وريث يخلفه على العرش قد وصل إلى مرحلة أصبح معها مقبولاً طرح وسيلة التبنى والخديعة كأسلوب لتحقيق غايته، فنحن بأية حال لسنا أمام فرعون شاب ما زال ينتظر الابن الذى يخلفه، بل أمام ملك وملكة مرت عليهما سنوات فى انتظار تحقق هذا الأمل الذى لم يتحقق.

وعلى ضوء هذا التفسير الذى يستفاد من عبارات الآية القرآنية، فإنه لا يتفق بل يكاد يكون مستحيلاً مرور هذه المراحل الزمنية من حياة موسى منذ ميلاده وسنواته فى مصر ومدين، وبعد عودته وحتى الخروج بينما يظل هذا الفرعون جالساً على العرش.

إذاً فإن النتيجة التى تستخلص من هذا التفسير المنطقى لحديث امرأة فرعون أن هذا الملك المعاصر لميلاد موسى كان قد وصل إلى مرحلة متقدمة من العمر واستنفد مرحلة انتظار

ولى العهد الذى يخلفه على العرش، وهذا يجعل قول امرأته إليه مقبولاً ولائقاً ومحققاً لمعانى ومشاعر متبادلة بينهما يحسها كل منهما تجاه الآخر، ويشعر كلاهما بها، والجهر بها لم يعد عيباً أو سابقاً لأوانه، وكشفها الله تعالى لنا، وتمثلت فى حاجة كل منهما إلى قرة عين، ورغبتهما فى ولد ينفعهما، ومن ثم يكون منطقياً بعد مرور هذه المساحة الزمنية فى حياة موسى أن يكون فرعون الذى بعثه الله إليه وخرج مطارداً لموسى وبنى إسرائيل هو شخص آخر، وإلا لكان قول امرأة فرعون هراء غير لائق فى حضرة ملك شاب ما زال أمامه سنوات عمره لإنجاب ولى العهد الذى يخلفه، فكيف لهما أن يتخذا ولداً ويخدعا شعبهما ويخفيا حقيقة أمره، إنه تصرف فى غير محله فى هذه المرحلة الزمنية، ويؤكد اختلاف الملكين.

سابعاً: فرعون الخروج وصفه الله تعالى كثيراً بأنه طاغية متكبر جبار جعل من ذاته إلهاً يقول لقومه: أنا ربكم الأعلى، ويا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى، أما فرعون الميلاد - رغم فساده الذى تمثل فى قتال المؤمنين - لم تجد امرأته حرجاً فى أن تواجهه بحقيقة مشاعره وحاجته التى تعلم أنها مثل مشاعرها، وحاجتها فى أن يبقى هذا الطفل الذى ساقته الأقدار إليهما ليكون قرة عين لها وله لينفعهما أو يتخذاه ولداً ويخدعا به قومهما لعله يحقق رجاءهما فى وجود وريث للعرش بعد طول يأس.. وشتان بين الشخصين.

ثامناً: فرعون الخروج الذى كذب موسى وصفه الله تعالى بأنه «**ذو الأوتاد**»، وهذه العبارة تحمل معانى كثيرة أهمها أنه صاحب القصور والعمارة الضخمة الفخمة، والمبانى الكبيرة العالية، والكثير البنيان، أما فرعون الميلاد فكان يسكن فى بيت دون حرس أو أسوار، قريب من الشعب ومفتوح لهم، فقد طلبت أم موسى من أخته أن تذهب لتتقصى عنه «**وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⦗١١⦘**» [القصص].

وقد استطاعت أخت موسى أن تصل بسهولة إلى بيت الفرعون، وتحدثت مع أهله وعلمت بمشكلة الطفل مع الرضاعة، واقترحت أن تحلها لهم، ثم عادت وهى تصطحب أمه معها إلى البيت «**فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ⦗١٢⦘ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ... ⦗١٣⦘**» [القصص].

وشتان بين الوصفين.

الفصل الثالث

فرعون الميلاد



الفرعون حور محب

يثبت من الرواية الدينية سواء فى التوراة أم فى القرآن أن ميلاد موسى وقع فى مصر فى عصر كان قومه بنو إسرائيل يعيشون حالة من التعذيب والاضطهاد، استمرت آلامها حتى الخروج، وقد أوضحنا فى عرض مراحل وجودهم فى مصر، أنهم دخلوا فى تلك المرحلة القاسية من حياتهم فور انتهاء حكم الفرعون «آى»، الذى نسبته دراستنا إلى أسرة ذات أصول إسرائيلية من أحفاد الأسباط، وكان وصوله إلى الحكم حصاد سلسلة طويلة من المؤامرات بدأت تحت قيادة والده «يويا»، الذى ظهر على مسرح الأحداث فى عهد تحوتمس الرابع، واستطاع بعد فترة وجيزة أن يصل إلى مصافٍّ رجال الأمر والحكم فى الدولة. وقبل وفاته كان قد دعم نفوذ أولاده «تى وعانن وآى» فى البلاط المصرى، فأكملوا مسيرته فى طريق تحقيق أهداف بنى إسرائيل لكن «آى» وصل إلى العرش كهلاً، وبعد سقوط إخناتون كان قد فقد الأهل فى أسرة الحكم، واختفى أقاربه وأعوانه المحسوبون على الآتونية والمطاردين من الكهنة ورجال الدولة والجيش، فحتمت الظروف عليه أن يستمر فى طريق التآمر للتخلص من خصومه الأقوياء من الكهنة وقيادة الجيش للانفراد بحكم مصر وفلسطين وتحقيق أهداف بنى إسرائيل. وعلى ضوء المعلومات الدينية فقد تكشف استنتاجاً من دراسة المصادر التاريخية أنه وهو على رأس الدولة تحرك - ساعياً - للإطاحة بخصومه السياسيين، وتسبب -متعمداً - فى استعداء دولة خيتا الكبرى التى أصبحت القوة العظمى الجديدة فى الشرق الأدنى القديم، الأمر الذى أدى إلى نشوب الحرب بين الدولتين فى ذلك الوقت، الذى كانت فيه مصر خارجة لتوها من سنوات الفتنة الطائفية والانقسام الداخلى، وضعف قوتها العسكرية، وهى العوامل التى أدت وقت الفتنة إلى تقويض مستعمراتها فى الشمال السورى لصالح تلك القوة الجديدة، وكادت هذه

الحرب التى فرضت على قيادة الجيش أن تتسبب فى احتلال مصر وتدمير جيشها- الذى كان ما زال فى مرحلة إعادة البناء - لولا ظروف طارئة تعرض لها الجيش المعادى لم تكن فى حسبان أو توقع المتآمرين، حالت دون تحقيق هذه النتيجة المدمرة، ويتضح من تحليل الأحداث للفترة التاريخية التى واكبت سقوط «آى» وانتقال الحكم إلى حور محب، أنه قد أسفر عن فشل هذه المؤامرة الكشف عن تفاصيلها كاملة، وأن التحقيقات التى أجريت بشأنها فضحت علاقة الملك بالأحداث، ثم تتابعت المعلومات لتكشف أيضاً تفاصيل كثيرة عن سلسلة المؤامرات السابقة ضد الدولة والتى تمت بتخطيط شيوخ إسرائيل وظلت نتائجها تصب فى مصلحة طائفة بنى إسرائيل فترة من الزمن. وحسبما أوضحنا تفصيلاً فى مرحلة المؤامرات الإسرائيلية، فإن النتائج الخطيرة التى تكشفت بعد انتهاء التحقيقات دفعت قيادة الجيش، وبتأييد من الكهنة إلى خلع الملك «آى» عن عرشه الذى مكث فيه نحو ثلاث سنوات، وأجريت محاكمة المتآمرين وإعدام الخائنين، ولقى الملك نفس المصير. وقد حتمت الظروف الداخلية للدولة والأخطار الخارجية التى لم تحسم بعد، أن يصعد قائد الجيش حورمحب إلى عرش مصر ليوجه كل اهتمامه إلى الإصلاح الداخلى، والقضاء على العوامل التى أدت إلى انهيار أجهزة الدولة، وتسببت فى ضعف قوتها فى المرحلة السابقة، وهادفاً إلى تحقيق الاستقرار بعد سنوات الفتنة والتمزق، ووضع على رأس أولوياته القضاء على جميع المتورطين وأعداء النظام القائم والذى تشكل من اتحاد بنى إسرائيل والمصريين الآتونيين (أصحاب عقيدة التوحيد)، وصدرت الأوامر بالبحث عنهم واعتقالهم داخل حصون عسكرية تحولت إلى معسكرات للتعذيب، وبذل الملك الجديد جهوده لتصفية جميع جيوبهم داخل مصر وإبادة عناصرهم، وبشكل خاص سعى إلى إضعاف الطائفة الإسرائيلية التى كان واثقاً أنها رأس الأفعى وسبب كل ما أصاب البلاد من دمار، فأمر جنوده باتخاذ كل وسائل الانتقام المتاحة ضدهم والتى تؤدى إلى تحقيق هذه النتيجة.

يستفاد مما تقدم أن حورمحب هو الفرعون الذى دخل بنو إسرائيل فى عهده عصر التعذيب والاضطهاد، والذى شمل جميع أتباع إخناتون والمؤمنين بعقيدة التوحيد، فقد حدث بعد إعدام الملك «آى» والقيادات الخائنة المتآمرة، أن بات متعيناً على باقى الشعب الإسرائيلى ومعهم الآتونيين مواجهة مصيرهم المحتوم المترتب على أفعال قياداتهم، ومنذ هذا العهد أصبحت معاملة بنى إسرائيل تتم مثل أسرى الحروب المهزومين بتسخيرهم فى الأعمال الشاقة، كما تعرضوا خلال حكم حورمحب لخطر الإبادة والتصفية الذى كان الهدف منه القضاء على قوميتهم واجتثاث عقيدتهم وإضعاف وجودهم وتأثيرهم بين الناس.

وتقدم القصة القرآنية الحقائق المؤكدة التى تتفق مع معلومات المصادر التاريخية فى إثبات تحديد ميلاد موسى فى هذه الفترة من عهد الفرعون حورمحب.

ونعرض تلك الأدلة لفرعون الميلاد على النحو التالى:

الدليل الأول: نستخلصه من الاتفاق التام بين القصة القرآنية فى وصف الحالة السياسية فى مصر فى الفترة المعاصرة لميلاد موسى، وبين الأحداث التاريخية المعاصرة لفترة حكم حورمحب.

سبق أن عرضنا فى قصة موسى فى تاريخ بنى إسرائيل الظروف السياسية التى كانت تسود مصر فى زمن ميلاده عليه السلام، حسبما وصفتها الرواية الدينية فى كل من التوراة والقرآن، وفى شأن استنادنا إلى هذه الحالة ضمن أدلة إثبات فرعون المعاصر لميلاد موسى، فإننا استخلاصاً من الروايتين يجب - بداية - أن نلاحظ أن عرض رواية التوراة ووصفها لها وتأصيل أسبابها يختلف عن جوهر قصة القرآن الكريم فى وصفها وتحديد أسبابها، ولا تنهض الرواية التوراتية بذاتها دليلاً فى إثبات المعاصرة مع الفترة الزمنية، لكنها مع هذا تلقى أضواء على الحقيقة الغائبة.

بيد أن كتب التراث وشراح القرآن الكريم، سواء فقهاء التفسير القدامى أم الدارسين المعاصرين - للأسف! - خضعوا لتأثير الوصف التوراتى، وطوال تلك القرون السابقة ظل الفقه الدينى والتاريخى يقصر وقوع حالة التعذيب والاضطهاد على بنى إسرائيل، ويرده إلى أسباب قوامها العنصرية المصرية الموجهة ضد طائفة عرقية أجنبية بغرض استخدامهم كعمال سخرة، أو خشية مما تردده حكاياتهم عن الملك أو النبى القادم فيهم لخلاصهم والخروج بهم من مصر، وهى تبريرات تنفيها حياتهم السعيدة الرغيدة قبل هذه الفترة، وأيضاً تنفيها رواية القرآن الكريم.

ولإيضاح ذلك فإن رواية التوراة تقول: إن يوسف أسكن أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً فى أفضل أرض مصر، فى أرض جاسان، وأنهم تملكوا وأثمروا وكثروا جداً، وعاش يوسف حتى رأى أولاد الجيل الثالث لابنه أفرايم، وأولاد ماكير ابن ابنه منسى أيضاً، ولدوا على ركبتى يوسف. (يراجع سفر التكوين من الإصحاح السابع والأربعين إلى الخمسين).

وفى الإصحاح الأول من سفر الخروج تقول رواية التوراة: إنه بعد أن مات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل عاش بنو إسرائيل وأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً وامتلأت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، خشى من شعب إسرائيل بسبب كثرتهم لاحتمال إذا حدثت حرب أن ينضموا إلى أعداء مصر ويحاربوا المصريين ويصعدوا من الأرض، وفى عهد هذا الملك تحولت الحال بهم إلى الإذلال والتسخير فى الأعمال الشاقة والعبودية القاسية فى صناعة الطين واللبن وأعمال الحقل، كما أمر فرعون جميع شعبه بقتل الأطفال الذكور من بنى إسرائيل، وفى هذا العهد كان ميلاد موسى.

ولما كانت رواية التوراة تذكر أن إقامة بنى إسرائيل فى مصر كانت أربعمائة وثلاثين سنة،

وأن سنوات عمر موسى يوم الخروج بلغت ثمانين سنة، فإن ذلك يعنى - حسب روايتهم - أنهم عاشوا ثلاثة قرون ونصف القرن فى هناء ونماء وامتلاء دون أن يحدث ما يكدِّر صفو حياتهم، حتى جاء ذلك الملك الذى عاصر ميلاد موسى.

ومع استبعاد الافتراض الذى تقدمه الرواية كمبرر لحدوث هذا التحول وهو أن ملك مصر خشى لأن شعب إسرائيل أصبحوا شعباً أكثر وأعظم من المصريين؛ فذلك قول مبالغة لا يستقيم ولا يتفق مع أى معطيات أو فروض، وحتى من غير المقبول أن يطرح للمناقشة، وقد حسم القرآن الكريم نظرة المصريين إليهم فيما ورد على لسان فرعون فى رحلة الخروج « **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾** » [**الشعراء**]، وعليه فإن أهم ما نلاحظه على رواية التوراة أنها لم ترصد السبب الحقيقى والكافى للإقناع بحدوث ذلك التحول فى حياتهم بعد تلك القرون المستقرة، الأمر الذى يجعله - على غير الحقيقة والمنطق - تحولاً فجائياً هوائياً لا يتفق مع طبيعة الأمور والأحداث، وأيضاً خصائص التقاليد والأخلاق المصرية التى اعتادت استقبال الأجانب والتبادل التجارى واحترام عقائد الجاليات الأجنبية، وأيضاً استقرار كثير من الهجرات على أرضها، بل حدث كثيراً توطين لأسرى الحروب.

بيد أن الرواية التوراتية، وإن كانت لم ترصد السبب الحقيقى للتحول المفاجئ، فإنها رصدت حدوث ظاهرة الانتقال من حالة رخاء واستقرار إلى حالة استعباد وسخرة وقتل بقسوة شديدة وبلا رحمة، وفى سبيلها لمحاولة توضيح الأسباب حملت إشارات تلقى أضواء قوية على وجود أحداث خفية غائبة قادت إلى هذا التحول، وهى ملاحظات لا يمكن إغفالها على ضوء النتائج التى انتهينا إليها فى تحديد أسباب دخول بنى إسرائيل إلى تلك المرحلة القاسية من حياتهم، ونوضح ذلك فى الآتى:

١- حسب التوراة: فإن التحول لم يحدث إلا بعد قرون عدة من الاستقرار والنماء لبنى إسرائيل فى مصر، ومن ثم فإنه إذا حدث فجائياً ومن النقيض إلى النقيض، فإن ذلك لا يمكن أن يعنى سوى أنه كان عقاباً وانتقاماً أقدم عليه ملك مصر الجديد جزاء أفعال وصلت خطورتها إلى اقتضاء ذلك التصرف نحوهم، وهذا ما يتفق تاريخياً مع بداية عقاب أصحاب عقيدة التوحيد (الآتونيين) بعد سقوط الملك «آى» الذى اقتيد من العرش إلى غرفة الإعدام.

٢- أن الأعداد الكثيرة جداً التى تتحدث عنها رواية التوراة، والتى كان يخشاها الملك لا تتفق وتكاثر أسباط بنى إسرائيل خلال تلك السنوات، وإنما ذلك قد يشير إلى جموع المؤمنين بعقيدة التوحيد والذين يضمون معهم المصريين من أتباع إخناتون - حسبما أوضحنا.

٣- أن الخوف من الانضمام إلى أعداء مصر فى حرب تحمل إشارات على استنتاج تعاون بنى إسرائيل مع الحيثيين ضد مصر، ومساندتهم لتحالف العبرانيين فى فلسطين، الأمر الذى أدى إلى ضياع المستعمرات المصرية فى سوريا وإضعافها فى فلسطين فى تلك الفترة، حسبما

شرحنا فى مرحلة المؤامرات.

٤- أن الربط فى الرواية التوراتية بين الانضمام للأعداء وصعود بنى إسرائيل من مصر يلقى بظلاله على الهدف الرئيسى لبنى إسرائيل وهو الصعود إلى فلسطين، الأرض التى حلف الله لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يصعدهم إليها، إنه الهدف الذى ألح عليه دائماً تراثهم وظل فى ذاكرتهم منذ أن وطئوا أرض مصر، واختاروا لإقامتهم فيها أقصى بقعة شرقية خصبة فى أقرب موقع إلى الحدود؛ كى لاينفصلوا عن الاتصال بمقصدهم، وأوصاهم به يعقوب قبل أن يلقى ربه. وتؤكد دراستنا أن هدف الرحيل هو الذى حافظ على جمعهم من الانفراط، وأنه مع عقيدتهم يفسران سبب احتفاظهم لعدة قرون - حتى بعث موسى - بوحدتهم وقوميتهم فى وسط المجتمع المصرى الممتد والراقى والمتحضر، وأيضاً العريق فى وثنيته، وقد سعوا دائماً إلى هدفهم واتخذوا فى سبيله كل الوسائل، وكان هو الحلم الذى أسقط «آى» من عرشه فى آخر المؤامرات، مؤامرة استعداء الحيثيين ومحاربتهم التى قادت بنى إسرائيل إلى العبودية.

ومن جملة تلك الإشارات التوراتية يمكن أن نستخلص نتيجة تؤيد ما انتهت إليه دراستنا من أن شعب إسرائيل فى الفترة الزمنية المعاصرة لميلاد موسى كان يتعرض لعقاب وانتقام من ملك مصر، بسبب ارتكاب أفعال ضد الدولة، تدور فى إطار التعاون مع أعداء مصر فى الخارج، أو أن الأفعال التى ارتكبوها كشفت عن العوامل التى تبرر هذا التخوف فعلاً، وأن غرضهم من ذلك التعاون السعى إلى الصعود من مصر إلى فلسطين، أهم المستعمرات المصرية وخط الدفاع الشمالى عنها، واتخاذها وطناً ومستقراً لإقامة مملكة لهم عليها منفصلة عن مصر، بمساعدة تلك القوة الخارجية، هذا بالإضافة إلى تسببهم فى إحداث فتنة فى الداخل بين عقائد المصريين، أدت إلى زعزعة الاستقرار وتحالف جموع من المصريين معهم جعلت منهم كثرة عددية تهدد الدولة.

ولكن أبداً لم تحمل التوراة أية عبارات صريحة عن اتحاد المصريين معهم أو انضمامهم إلى عقيدتهم، أو أن عقاب ملك مصر قد طال آخرين من الشعب المصرى غير طائفتهم؛ لأن هذا الاتجاه يناقض العنصرية اليهودية الدخيلة على التوراة التى تقصر الدين عليهم وتعاليم الرب فيهم وحدهم (أسرلة الدين والرب)، ولهذا لم يجد المؤرخون أى مبرر للربط بين الأحداث التاريخية لانتقام حورمحب من أتباع إخناتون وإنكاره لملوك الآتونية وبين الرواية الدينية عن انتقام فرعون المعاصر لميلاد موسى من بنى إسرائيل، حتى هؤلاء الذين اعتقدوا بأن حورمحب قد يكون هو فرعون موسى، فإن ذلك كان لأسباب أخرى غير هذا الربط، ودائماً ظل هناك اعتقاد بأن إخناتون كان رائداً فى أفكاره وإرهاصاً سابقاً على موسى الذى تأثر به ونقل عنه، ولم تحدث محاولات لربطه بطائفة وعقيدة بنى إسرائيل فى مصر.

هذا عن رواية التوراة فى شأن فترة ميلاد موسى، أما رواية القرآن الكريم فإنها فى سطور

قليلة أوضحت وحددت تماماً ارتباط بنى إسرائيل مع طائفة من المصريين واشتراكهم معاً فى التعرض لنفس التعذيب فى تلك الفترة، وحددت أسبابه.

يقول الله تعالى عن ظروف مصر السياسية فى فترة ميلاد موسى فى أول سورة القصص:
«طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)».

ونستنتج من هذه الآيات ملاحظتين مهمتين:

الأولى: أن الله تعالى يتحدث عن طائفة مستضعفة تتعرض للتعذيب والقتل من قبل فرعون، والضمائر فى الآيات تنصرف إلى أهل تلك الأرض، فيكون المقصود بها مصر وأهلها، وتحديداً فى هذه الآيات يُحسم أمر الطائفة المقصودة من إرادته تعالى بأن يمكن لتلك الطائفة فى الأرض ويجعلهم الوارثين. فالتمكين والتوريث فى أرض مصر لن يكون إلا للمصريين المؤمنين، ولم يقصد به الحق غيرهم، وهم الأعم والأشمل فى سياق حديث هذه الآيات؛ لأن بنى إسرائيل خرجوا مع موسى ومكن الله لهم فى أرض أخرى كانت تخضع لحكم فرعون أيضاً، وقد كان القرآن الكريم واضحاً فى أن الشق الثانى من رسالة موسى - بعد دعوة فرعون - هو الخروج ببنى إسرائيل من مصر: « **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ... (٤٧)**»[**طه**]، وآيات أخرى غيرها، والخروج من هذه الأرض لا يتفق مع نية التمكين والتوريث فيها، إنما يؤكد أن المقصود به غيرهم وهم أصحابها المؤمنون، أما الأرض التى ورثها بنو إسرائيل فهى فلسطين بعد أن خرجت من حكم آل فرعون، وفى هذا يقول الله تعالى:

« **فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)**»[**الشعراء**].

ولا يقبل بعد هذا الوضوح أن يستمر التفسير التراثى التاريخى القديم، وهو أن قصد الله تعالى بالطائفة المستضعفة ينصرف إلى بنى إسرائيل فقط، فكثير من آيات القرآن اختص بها الله تعالى بنى إسرائيل وحدهم، وتحدث عنهم بهذا التحديد، ولسبب أو لآخر كان يخصهم بعينهم، أما هذه الحالة التى كانت فى زمن ميلاد موسى فإن الحق سبحانه يوضح فى آياته البينات حقيقة الوضع السياسى فى مصر فى تلك الفترة، وهو أن فرعون جعل أهلها شيعاً، واستضعف طائفة منهم يعذبهم وينتقم منهم بشتى صنوف العذاب، ثم نفهم ابتداء من الآية

السابعة أن بنى إسرائيل أو كثيراً منهم كانوا يدخلون ضمن تلك الطائفة؛ بدليل وحى الله تعالى إلى أم موسى التى كانت تخاف على طفلها من القتل بأن تلقيه فى اليم، ولعل الله تعالى لم يجد مانعاً فى أن يشملهم ضمن طائفة المصريين المؤمنين لإقامتهم الطويلة والمستقرة السابقة فى مصر، ولاشتراكهم معاً فى التعذيب والاضطهاد، ثم جاءت آيات أخرى فى مواضع مختلفة من القرآن هم فيها المعنيون بحديث الله تعالى وتؤكد تعذيب بنى إسرائيل بصفة خاصة ودخولهم ضمن تلك الطائفة مع المصريين، يقول تعالى:

«وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)»[الأعراف].

وأيضا:

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)»[إبراهيم].

والملاحظة الثانية: أن سبب التعذيب الذى تتعرض له تلك الطائفة من فرعون هو إيمانهم بالله. ونستدل على ذلك من رغبته سبحانه فى أن يمن عليهم وينصرهم ويجعلهم الوارثين للأرض ويمكن لهم فيها.

وبالقطع فوجود طائفة مؤمنة بالله فى ذلك الوقت فى مصر وقبل بعث موسى يجد مصدره فى دعوة يوسف ورسالته بين المصريين التى قامت منذ بضعة قرون وظلت مستمرة، وتجددت فى عهد إخناتون، وهذا أيضاً يؤيد تفسيرنا فى أن طائفة المؤمنين المقصودة هى طائفة تجمع بين أفرادها مصريين وإسرائيليين على حد سواء، باعتبار أن دعوة يوسف اتجهت فى الأساس إلى المصريين، أما بنو إسرائيل - وهم أبناء يعقوب - فكانوا من المؤمنين وتاب الله عليهم، وأكد القرآن صلاحهم.

فإذا كنا قد انتهينا فى تفسير آيات الله تعالى فى سورة القصص أن قصده سبحانه اتجه إلى تحديد الطائفة المستضعفة بأنهم المؤمنين من أهل مصر دون أن يقصر ذلك على بنى إسرائيل الذين كثيراً ما ذكرهم سبحانه فى آيات متفرقة فى القرآن الكريم فى مواقف تخصهم بعينهم، أما فى هذه الحالة فإن الله تعالى يقول: إن المؤمنين المضطهدين كانوا من المصريين والإسرائيليين، وأيضاً أوضحنا أن هذا أمر لم تذكره الرواية التوراتية التى تقصر الأحداث على بنى إسرائيل وترده إلى أسباب سياسية أو عنصرية لا علاقة لها بالدين أو العقيدة من قريب أو بعيد.

وعليه، فإننا إزاء هذا التفسير الواضح للآيات القرآنية السابقة نقف أمام حالة جديدة وغريبة على خصائص المجتمع المصرى القديم، الذى لم يكن يعرف اضطهاد العقائد والأديان، أو الصراع بين الآلهة أو تعذيب الأفراد واحتقارهم بسبب دينهم، وقد أقامت الجاليات الأجنبية

معابد لآلهتها فى كبرى المدن المصرية. وقد يكون غريباً فى عرف وتقاليد الشعوب الأجنبية فى التاريخ القديم، وأيضاً فى دراسة سيرة الأنبياء وتاريخهم أن نعرف أن موسى - عليه السلام - فى عهد فرعون الجبار المتكبر الذى رفض دعوته وأنكر رسالته، ورغم ما حدث بينهما من محاورات ومساجلات وصلت إلى حد التهديد بقتل موسى، فإن موسى عاش فى مصر سنين يمارس مع أخيه هارون دعوتهما ويقيمان مع قومهما شعائر الدين وسط فرعون والمصريين، وعن ذلك يقول الله تعالى: « **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾**»[يونس].

ولكن هذا الأمر الذى يخبرنا به الله تعالى، عن موقف موسى وهارون ودعوتهما فى مصر بعد الذى كان من أمرهما مع فرعون ليس غريباً أو جديداً على التقاليد المستقرة وحرية العقيدة وإقامة الشعائر، وعن خصائص المجتمع المصرى التى سرعان ما عادت إلى سيرتها الأولى فى عهد دعوة موسى بعد أن كان قد مر نحو ثمانين عاماً ونيف على المخاوف التى نشأت نتيجة دعوة إخناتون وما تكشف بعدها من مؤامرات ضد الدولة اقتضت فرض إجراءات استثنائية، وهذا ما سجله القرآن الكريم، ولو وقف أمامه المفسرون لترك فى أذهانهم علامات استفهام لأمور غير واضحة، فكيف لموسى - بشهادة القرآن - أن يمكث فى مصر سنين ويمارس دعوته بين قومه فى عهد هذا الطاغية؟ إنها ببساطة التقاليد المصرية القديمة، أما جوهر الصراع وحقيقته فيكمن فى أمور سياسية أو اقتصادية أخرى.

ولكن الاستثناء الوحيد الذى عاشه التاريخ المصرى فى مقاومة عقيدة ورفضها وإيذاء أتباعها، فكان دعوة إخناتون التى رفضها الكهنة وتمت مقاومتها حتى سقطت، وذكرنا أن السبب الحقيقى لذلك لم يكن راجعاً إلى العقيدة ذاتها، وإنما للإجراءات الإدارية والنتائج الاقتصادية التى ترتبت على إعلان الآتونية ديانة رسمية للدولة، وما تبعه من سقوط دولة الكهنة وإلغاء عقائدهم وإغلاق معابد الآلهة ومصادرة أموالها وأراضيها، ولولا تلك الإجراءات لما وجد الكهنة أو غيرهم غضاضة فى فتح معابد هذا الدين وممارسة شعائره جنباً إلى جنب مع معابد عشرات الآلهة، التى كانت تموج بها مصر وتنتشر فى أقاليمها المختلفة. وتضاف إلى ذلك الأسباب السياسية التى تكشفت بعد ذلك وتمثلت فى تعاون أتباع هذه العقيدة مع أعداء مصر فى الخارج.

وإذا ما لوحظ أيضاً أن حالة الاضطهاد والتعذيب لأنصار هذا الدين لم تبدأ إلا مع بداية حكم حورمحب واستمرت خلال عهده وتواصلت فى عصر الرعامسة، أما الملوك الذين حكموا مباشرة بعد إخناتون وقبل حورمحب فهؤلاء قد فُرض عليهم من الكهنة والجيش إنكار الآتونية وفتح المعابد ورد أموالها، لكن لم يحدث فى عهدهم اضطهاد لأتباع إخناتون، وكانوا جميعاً من المحسوبين على الآتونية، وفى عصر الاضطهاد نالهم الهجوم والنكران وأُلحقوا بالفرعون المارق

إخناتون.

وإذا ما أضيف إلى الملاحظات السابقة أن عهد حورمحب اختص دون عهد الرعامسة بممارسة القتل والتصفية ضمن أفعال الاضطهاد والتعذيب ضد أفراد هذه الطائفة، والذى اتخذ ذريعته فى اعتباره جزاءً وعقاباً، وقد كان الانتقام من تلك الطائفة والقضاء عليهم أحد الأسباب الرئيسية التى رفعته إلى كرسى العرش، وبعد عهده انتهى هذا العقاب، واقتصر الأمر مع الرعامسة على استغلال تلك الطائفة بتسخيرهم فى أعمال البناء الشاقة والزراعة بعد أن ضعفت شوكتهم وقلت حيلتهم وانعدم خطرهم.

فإننا ننتهى استناداً إلى جميع تلك الظروف إلى أن الحالة السياسية التى بينها الله سبحانه وتعالى فى سورة القصص للفترة المعاصرة لميلاد موسى، من الصعب أن تجد تطبيقاً أو وجوداً لها خلال الفترة التى تقع ضمن نطاق البحث أو حتى فى التاريخ المصرى القديم فى مراحل عصوره، سوى فى عهد حورمحب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، الذى حكم فى الفترة من (١٣٢١ - ١٢٩٥ق.م).

والدليل الثانى: نستخلصه من اتفاق الصفات الشخصية والسيرة الذاتية لفرعون الميلاد كما يقدمها القرآن الكريم مع حالة حورمحب.

وذلك من عدة وجوه سواء عرضها القرآن بعبارات مباشرة أم تستخلص من الآيات، ونوضحها فى الصور التالية:

الأولى: أن فرعون الميلاد لم يكن ينجب وكانت لديه مشكلة فى وراثة العرش، ويثبت ذلك من قوله تعالى: «**وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑨**»[**القصص**].

عبارة إلهية واضحة الدلالة على افتقاد الملكين للولد الذى يملأ حياتهما ويجعلهما قريرى العين، وتكشف عن شعور متبادل بين الزوجين، يحسه كل منهما تجاه الآخر، ولا ينكره أيهما، وقولها: «**لِّي وَلَكَ**» يدل على أن الفرعون لم يكن له ولد من زوجة أخرى، وإلا كانت المرأة اكتفت بالتعبير عن نفسها وحاجتها للولد دون الملك، وتأتى باقى الألفاظ المستخدمة مؤيدة هذا الاتجاه: «**يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**»، فهى قد جمعت نفسها مع الملك فى هذا الشعور الذى تعلم أنه يلبى حاجة كليهما، ثم يأتى قولها: «**وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**» ليكشف تماما عن مشكلة وراثة العرش لدى فرعون. ويرى ابن كثير فى تفسيره وغيره من كتب التفسير التى وقفت عند هذا التعبير أنه بعد أن أجاب فرعون طلب امرأته وتبنيا الطفل لأنهما لم يكن لهما ولد، قال الله تعالى هذه العبارة التى قصد بها - سبحانه - أنهم لا يدرون ماذا يريد الله بهم - أن قيضهم لالتقاطه - من النقمة العظيمة التى سوف تحدث لفرعون وجنوده، لكن الحقيقة الواضحة تماماً من ظاهر نص الآية أن قول الله تعالى ما زال مستمراً فى سرد حديث امرأة فرعون لزوجها، أى أنها هى

التى طلبت من فرعون أن يتبنيا الطفل دون أن يشعر القوم، والتفسير المتصور أنها قصدت بعبارتها أن تنصرف إلى آخرين من المفترض فيهم ألا يعلموا أن هذا الولد ابنا بالتبنى، وإنما يجب الحرص على خداعهم بأنه ابن من صلب الفرعون مؤهل لوراثة عرش أبيه، وقطعاً ليس هؤلاء سوى الكهنة ورجال الدولة والشعب؛ ذلك أن المصريين عرفوا نظام التبنى، وكان الابن بالتبنِّى يرث أموال أبيه ويؤهل لتولى وظيفته، أما فى هذه الحالة فإن الأمر يختلف عما يحدث مع باقى طوائف الشعب؛ لأن هذا المنصب هو عرش الفراعنة، ومن يتولاه يجب أن يكون من صلب الفرعون ومن الزوجة الرئيسية، ولأن هذا الولد لقيط ولا يتوافر فيه هذا الشرط، استوجب الأمر أن «**لا يشعرون**»، ونستدل من قول امرأة فرعون أن هذه المشكلة قد أهمَّت الملك، وأنه قارب على اليأس من تحقيقها بعد طول انتظار، وأن عرضها يلبى رغبة حقيقية وملحة تعلم تماماً أنها تؤرق بال الفرعون ويبحث لها عن حل، وإلا ما كانت تجرؤ على عرض هذا الاقتراح لأقوى ملوك الأرض فى أعظم دول هذا العصر.

وهذه الظروف تنطبق على الفرعون حورمحب، الذى حكم مصر فترة طويلة بلغت نحو ٢٧ عاماً، وتدل ظروف الأحوال أن هذا الرجل كان حائزاً لمقومات الفرعون الناجح، وكانت المشكلة الوحيدة التى أهمَّته بعد أن امتد به العمر أنه لم يكن له ولد، وفى سنواته الأخيرة بدأت مشكلة وراثة العرش تطل برأسها وتهدد الدولة من جديد، وكان متزوجاً من الأميرة «موت نجمت» ، بنت الملك «آى» لتؤهله لتولى العرش الذى لم يكن من حقه، وكانت تقاربه فى العمر، وعندما جاوز حورمحب الستين من عمره دون ولد يرثه رأى أنه من الأوفق أن يؤمن أمر مستقبل الدولة واستقرار العرش، وفكر فى تعيين نائب له ليعده لاعتلاء العرش بعده، واختار لذلك رفيق سلاحه ووزيره «بارعمس»، وأعلن أنه نائب للملك فى الجنوب والشمال، وهى وظيفة واضح من مسماها أن شاغلها هو ممثل الملك، ثم أعلن بعد ذلك أن هذا النائب هو «الأمير الوراثى على كل البلاد»، وبهذا المنصب يتضح أنه جعله المرشح الوحيد لوراثة العرش. وبعد حورمحب اعتلى بارعمس العرش بهدوء تحت اسم «رمسيس الأول».

والصورة الثانية هى شخصية حورمحب، ذلك الرجل الذى اختاره الله تعالى لتربية موسى، ووصف - تعالى - هذه المرحلة فى قوله : «**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)**» [**طه**]، فإن هذا الفرعون الذى سلف وأن أوضحنا أنه شمله أيضاً شعور المحبة الذى ألقاه الله على موسى، ولأجل أن تتفق صفاته وخصائصه مع حسن صناعة الله لنبيه، فإن حورمحب وبصرف النظر عن محاربته لأتباع إخناتون المؤمنين بعقيدة التوحيد، فإنه كان مغرماً منذ صدر شبابه بالأدب، وتحصيل العلم، وقد خرج من عامة الشعب وصنع نفسه بجده واجتهاده وكفاحه، وكان حريصاً خلال فترة حكمه على إرساء العدل لشعبه، والقضاء على ما تفشى بين الموظفين من فساد ورشوة، ورفع الظلم الذى يقع على الفلاحين، وأصدر مرسوماً بقوانين

لإصلاح أحوال مصر، واهتم بالإصلاحات الإدارية وإصلاح المحاكم واختيار القضاة ورفع شأنهم، ونظم أمور الجيش وأعاد له قوته، ولم يجر مصر إلى حروب مستعرة كيلا تقوض إصلاحاته الداخلية.

وغير ذلك فإنه من الناحية الدينية كان على بينة من عقيدة التوحيد، ومن الصعب أن نسلم بأنه كان مخلصاً لكهنة آمون والآلهة المصرية، رغم اهتمامه الظاهر بإعلاء شأن آمون وآثاره وهدم آثار إخناتون ومبانيه فى الكرنك، ذلك أنه فى يوم ما خدم إخناتون وأظهر أيضاً إخلاصه له، بل تعبد إلى إله التوحيد آتون، وأقام لنفسه مقبرة فى تل العمارنة، لكنه لم يتقدم فى بنائها كثيراً بسبب الظروف السريعة التى لاحت فى الأفق، وقد كان أحد قواد إخناتون واتخذ له اسماً ينتسب إلى الإله آتون وسجله على مقبرته فى العمارنة «با آتون إم حب»، وذلك وفقاً لرأى «برستد» وكثير من المؤرخين، وجاء تحول حورمحب من عقيدة التوحيد إلى ديانة آمون مع سيل التحول الجارف بعد سقوط إخناتون تماشياً مع الأحوال السياسية، وقد كان منهم الكثير الذين لم يفعلوا ذلك عن طيب خاطر، وقطعاً لم يكن حورمحب واحداً منهم، فليس هناك شك فى أنه لم يكن مخلصاً للآتونية، لكن أيضاً تاريخه مع الآتونية ينفى إخلاصه الصادق لآمون، أو حتى حور إلهه المحلى الذى نسب إليه قيادته إلى عرش مصر.

ومن السهل أن نستنتج أن حورمحب كان يعلم يقيناً أن زوجته «موت نجمت» سيدة مسلمة، فهى ابنة الأسرة التى أدخلت عقيدة التوحيد إلى بلاط الفراعنة، وهى أخت نفرتيتى التى ظلت متمسكة بعقيدتها وإيمانها القوى حتى الرمق الأخير من حياتها، وهى ابنة الرجل الذى كشفت تحقيقاته أنه كان يخفى عقيدته الحقيقية ويعمل من أجلها وقومه المؤمنين بها، ويكشف حديث الزوجة إلى فرعون الذى ذكره الله تعالى فى سورة القصص، واستجابته لها بشأن موسى وهو يعلم أنه من طائفة أعدائه عن وجود قدر من المودة وتبادل المشاعر، واعتياد احترام رغبات زوجته، توافرت رغم رفض المرأة لأفعال فرعون الآثمة وانتقامه وبطشه بقومها المؤمنين.

وثالث الصور التى تقدمها آيات الله البينات فى سورة القصص وتتفق مع السيرة الذاتية لحكم حورمحب، هى أن الملك الذى ولد موسى فى عهده كان شيخاً فى سن متقدمة، وهذا ما نستخلصه من حديث امرأة فرعون معه بشأن اتخاذ موسى ابناً له لينفعه ويخلفه، فهذا القول لا يستقيم ولا يصح إلا فى مرحلة اليأس واستنفاد الرجاء، كما سبق أن أوضحنا فى حديثنا عن صفات فرعون الميلاد، ولم يكن فرعون يقبله وهو فى بداية عهده آملاً مستبشراً فى الولد الذى يخرج من صلبه ويخلفه على عرش مصر، ونعرف من سيرة حورمحب أنه قبل أن يحكم مصر كان وصل إلى منصب قائد الجيوش ثم حكم ٢٧ عاماً، ومات فى العقد السابع من عمره.

ونستخلص أيضاً من تلك الصورة القرآنية أن ميلاد موسى كان فى السنوات الأخيرة من

حكم حورمحب، وهذا ما يتفق تماماً مع التاريخ الزمنى الذى سوف تثبته أدلتنا لتاريخ الخروج، ومع سابق حديثنا عن عمر موسى فى هذا التاريخ.

والدليل الثالث: لإثبات فرعون الميلاد يتمثل فى تحقق الاتفاق بين ما ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم من أن امرأة فرعون كانت سيدة مؤمنة وبين ما كشفت عنه المصادر التاريخية من أن امرأة حورمحب كانت من المؤمنات بعقيدة التوحيد أتباع إخناتون ومن المهاجرات إلى عاصمة التوحيد فى تل العمارنة.



حور محب وموت نجمت (متحف القاهرة)

فيتضح - بجلاء - من آيات القرآن الكريم أن امرأة فرعون كانت من المؤمنات بالله قبل ميلاد موسى، وعلى هذا يدل حديث القرآن عنها، فى تعاملها مع الطفل موسى منذ لحظة أن رأته، لكن أيضاً تأتى آية صريحة فى تأييد إيمانها فى قوله تعالى:

«**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)**»[**التحريم**].

ويبدو أنه كان غريباً على المفسرين وجود امرأة مؤمنة فى وسط مجتمع وثنى عريق فى عبادة الأصنام، والأشد غرابة أن تصل تلك المرأة إلى البلاط الفرعونى، وتكون زوجة لهذا الفرعون الكافر الظالم الفاسد الفاجر، الذى يذبح غلمان إسرائيل ويتخذ نساءهم جوارى، ولعدم قبولهم لهذا التصور أو تبريره فإنهم ذهبوا فى تفسيرهم إلى أن الله وضع الإيمان فى قلب المرأة بعد أن التقط موسى من النهر، وفتحت الباب وكشفت الحجاب ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية، وأن فى هذا تفسير لقولها: «**عسى أن ينفعنا**»، فقد أنالها الله به ما رجت من النفع فهداها فى الدنيا، وفى الآخرة أسكنها جنته بسببه. ولا أتفق مع هذا التفسير، وأضعه ضمن دائرة الافتراضات الشخصية؛ لأن ظاهر الآيات لا يدل عليه، فالله تعالى يقول إنه ألقى على موسى محبة من عنده شاملاً بها المرأة وفرعون وكل من يرى موسى منذ لحظة التقاطه من النهر رضيعاً، أما الإيمان فهو أمر خاص بامرأة فرعون توافر لديها بقول الله تعالى قبل أن يولد موسى، وجعلها ترفض أفعال فرعون ودعت الله أن ينجيها منه ومن القوم الظالمين، هذه الأفعال التى بسببها خافت أم موسى عليه،

وألقته فى النهر لعل الله ينجيه، وقد اختار الله لموسى هذه السيدة المؤمنة لتربيه.

ونؤيد تفسيرنا بأن إيمان امرأة فرعون كان سابقاً على ميلاد موسى، أن الله تعالى فى سورة التحريم كان يضرب بها مثلاً فى الإيمان، رغم اقترانها برجل كافر عاشت معه متمسكة بدينها، ورافضة لأفعاله الظالمة، ليقدم - سبحانه - بذلك صورتين متناقضتين تخالفان طبائع الأمور، ولا تستقيمان مع المعتاد، ففى الآية السابقة عليها ضرب مثلاً آخر للذين كفروا بامرأتى نبيى الله نوح ولوط، وفى ذلك يقول تعالى:

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)» [التحريم].

وتلك هى الإرادة الإلهية، وقد كانت امرأتا النبيين تعيشان تحت ظلال وكنف الأنوار النبوية، ولم يكشف لهما الحجاب ولم تتلألأ لهما الأنوار، ولم يشفع لهما النبيان، ولم يغنيا عنهما من الله شيئاً، أما العكس فكان مع امرأة فرعون المؤمنة، وعلى هذا فإن التفسير الذى يربط بين الهداية وأنوار النبوة يخالف الحكمة والقصد والغاية التى أرادها الله تعالى فى ضرب هذين المثلين المتناقضين لعباده.

وقد جاءت مصادر التاريخ وكشفت فى العصر الحديث عن ملك مصر إخناتون الذى أعلن عقيدة التوحيد ديانة للدولة، وتبعه كثير من الناس. ودلت الدراسات أن زوجته نفرتيتى كانت من أشد المؤمنات بتلك العقيدة، وأنها التى دفعته وشجعته ووقفت بجانبه تسانده ضد قوى البغى والعدوان، ورفضت كل المحاولات التى سعت إلى إقناع إخناتون بالتراجع أو مهادنة الكهنة.

وقد أثبتت دراستنا أن نفرتيتى كانت ابنة الأسرة التى قادت إخناتون إلى إعلان ديانته، وأنها حفيدة يويا، ذلك الرجل الذى بدأت البواكير الأولى لتلك الديانة تطل مع بدء إطلالته على التاريخ المصرى قبل ميلاد إخناتون وموسى.

وأيضاً كانت «موت نجمت» ابنة هذه الأسرة وهى أخت نفرتيتى، وهاجرت معها إلى مدينة التوحيد الجديدة فى تل العمارنة، وعاشت فى القصر الملكى ترعى الأميرات بنات أختها، وصورت مع العائلة المالكة فى معابد آتون، وهى تتعبد إلى الإله الواحد الحى إله الكون، وبعد سقوط إخناتون ووفاة نفرتيتى وعودة السيادة إلى كهنة امون عادت مع والدها «آى» وجموع المؤمنين المقهورين إلى طيبة، وإثر وفاة والدها فرضت عليها كل الظروف المحيطة أن تتزوج حورمحب؛ فقد كانت وفقاً لما تقضى به التقاليد الكهنوتية طريقه الوحيد للحصول على شرعية الجلوس على عرش مصر، وعاشت معه مرحلة جديدة فى حياتها كان فيها ينتقم من

أهلها وجميع القوم المؤمنين الذين كانت تعيش بينهم وتحبهم، ولم تملك لهم حماية أو إنقاذاً من بطش زوجها وجنوده الظالمين، وسجل الله تعالى استمرارها على التمسك بدينها، الذى قصرت عن تقديمه المصادر التاريخية: «**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)**» [**التحريم**].

وبذلك أراد الله تعالى أن تكتمل الصورة الإلهية عن طريق المصادر التاريخية، ونعرف سر وجود المرأة المؤمنة فى البلاط الفرعونى، وكيف أصبحت زوجة لهذا الفرعون الظالم، وأيضاً عرفنا من القصة القرآنية أن موت نجمت حفيدة أسرة يويا استمرت على إيمانها بعد سقوط إخناتون وديانة التوحيد، رغم وجودها فى بلاط الكفر ومقر الإدارة التى أسقطت تلك العقيدة وقادت المؤمنين بها إلى معسكرات التعذيب والاضطهاد، وكانت مثلاً للإيمان شاركها فيه آخرون وأخريات غيرها.

والدليل الرابع: فى إثبات فرعون الميلاد، يمثله وجود اختلاف جوهرى بين روايتى التوراة والقرآن فى تحديد صفة شخصية محورية فى القصة، ثم أثبتت المصادر التاريخية أن كلتا الروايتين حق من وجه نظر القائل فى كل منهما.

فتقول رواية التوراة: إن ابنة الفرعون هى التى أخذت موسى من النهر، وصار لها ابناً ودعت اسمه موسى.

أما رواية القرآن فتقول: إن امرأة الفرعون «هى» التى احتضنت موسى بعد التقاطه من النهر، واتخذته ولداً لها ولفرعون؛ لأنه لم يكن لهما أولاد.

وقد تبين من دراسة المصادر التاريخية فى العصر الحديث أن كلتا الروايتين صحيح بشأن موت نجمت التى كانت زوجة الفرعون حورمحب، الذى تقدمه أدلتنا باعتباره فرعون المعاصر لميلاد موسى، وأيضاً كانت هذه السيدة ابنة الفرعون آى الذى تثبت دراستنا انتماءه إلى أصول إسرائيلية.

ويمكن تفسير وجهة نظر التوراة فى هذا التحديد أنه قد شاع بين العبرانيين بعد التقاط موسى الطفل الإسرائيلى من النهر أن التى أخذته واهتمت به هى بنت الفرعون «آى» التى تمتُّ لهم - هى والملك الراحل والدها - بصلة القربى ووحدة العقيدة، ويجد هذا الاهتمام بكونها الابنة وليست المرأة سببه أيضاً فى أنه يبدد عندهم حالة الخوف على الطفل، فليطمئن إذاً قلب أمه؛ لأن طفلها فى يد أمينة فى بيت فرعون الجبار الذى يقتل أطفالهم، وها هى أخت موسى تذهب إلى بيت الفرعون وتقول لابنته: هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد، فتقول لها ابنة فرعون: اذهبى، فذهبت ودعت لها أم الولد.

وهذه الرواية من التوراة كان المفروض فى طبائع الأمور أن تكون غريبة؛ لأن التى تتبنى طفلاً هى الزوجة العقيم التى يئست من الإنجاب، أما بنت الملك فهى ما زالت تنتظر الزواج

الميمون وتحلم بالبنات والبنين، لكن الغرابة تزول فى حالة موت نجمت إذا ما نسبت لوالدها بين أهله وقومه الذين يعرفونه ويذكرونه بكل خير، وليس لزوجها الذى يرفضون أفعاله ضدهم، وتفسير نقل هذه الرواية إلى التوراة أنها قد ظلت هى السائدة فى التراث الإسرائيلى حتى إعادة كتابة التوراة فى عصور تالية لموسى أثناء السبى البابلى بعد ضياع نسختها الأصلية، وجمع كثير من المعلومات من التراث وأفواه شيوخ إسرائيل.

أما رواية القرآن الكريم فقد أنزلها الحق سبحانه وأعطى المرأة صفتها التى كانت عليها وقت ميلاد موسى، وسجل حوارها مع زوجها فرعون بشأنه، كما سجل دعاءها لربها وهى فى بيت فرعون ليضرب بها مثلاً للمؤمنين فى قوة الإيمان والصبر فى وسط مجتمع كافر ظالم لم يستطع أن ينل من عقيدتها أو يزعزع إيمانها.

والدليل الخامس: نستخرجه من اتفاق البيئة المكانية التى صورها القرآن الكريم فى أحداث قصة ميلاد موسى مع الظروف المكانية التى تبينها دراسة المصادر التاريخية لموقع الأحداث فى زمن حورمحب.

ويجدر فى هذا الدليل أن نعاود التذكير بأن تماسك وتناسق نص القرآن العظيم هو إحدى مظاهر إعجازه، وقد تبين فى بعض حالات هذه الدراسة أن المعلومات التاريخية التى لم تعرف إلا حديثاً جاءت لتوضح حقائق تاريخية دينية ذكرها القرآن الكريم، وكان يمكن أن تبدو متناقضة مع حقائق قرآنية أخرى أو معلومات تاريخية، ومن ذلك هذا الدليل.

فقد ذكر الله تعالى فى مواضع عدة فى القرآن الكريم أن آل فرعون كانوا من الطغاة الفاسدين يتفاخرون بقوتهم وثراء أرضهم والأنهار التى تجرى من تحتهم، ويرون أنها جعلتهم خير الأقوام، وقد أقاموا الصروح والعروش فى أنحاء مصر، ووصفهم الله تعالى بأنهم ذوو أوتاد بسبب كثرة بنيانهم وضخامة عمارتهم وإحكام بنائها، وكل هذا القول تأيد تماماً من المصادر التاريخية والمظاهر الأثرية الشامخة.

ثم تقدم آيات الله البينات فى قصة ميلاد موسى فى سورة القصص صورة مختلفة تماماً عن كل هذه المظاهر المعلومة لحياة الفراعنة وثرائهم وعظم عمارتهم، ورغم أن أحداث القصة تبدأ بالتأكيد على أن فرعون هذا عال فى الأرض وفاسد وظالم، لأنه استضعف طائفة من قومه يعذبهم ويقتل أبناءهم، إلا أنه مع هذا يسكن فى بيت متواضع مفتوح مطروق بين أبناء شعبه دون أسوار أو حراس، لا يميزه سوى أنه يقع على ضفاف أحد فروع نهر النيل الشرقية، وحتى تلك يشاركه فيها أحط طبقات شعبه، ومنهم تلك الطائفة المستضعفة البائسة، فعلى بعد أمتار وعلى نفس الفرع تقع مساكن العبرانيين؛ فها هى أم موسى بعد أن وضعت طفلها فى سفط وألقته فى النهر تقول لأخته: «**قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** (١١)»[**القصص**]. إلى هذا الحد أخت موسى تخرج من بيتها المتواضع وتتبع الطفل فى النهر

وتصل إلى بيت فرعون مصر، وتستطلع ما يجرى من أحداث دون أن يشعر القوم أو ينهرها حرس أو خدم، وبعد أن تتبين أخت موسى الأمر كله وتعرف من أهل القصر أن الطفل يرفض المراضع، تتقدم غير خاشية إلى الواقفين وتعرض مساعدتها لهم بأنها يمكن أن تحضر للطفل من يكفله ويقوم بهذه المهمة خير أداء، ويستجيب لها قوم فرعون، فتذهب وتستدعى أمه وتحضرها لهم فى بيت فرعون «**وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)**»[القصص].

لم تكن إذاً هناك فى تلك المدينة – حيث يقيم فرعون – قصور ملكية ولا أبواب مغلقة، ولا حراس، فإذا ما كنا نتحدث عن ملك يحكم مصر فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، ذلك العهد الذى امتد فيه حكم الإمبراطورية المصرية ووصل فى عهد تحوتمس الثالث من أقصى شمال سوريا وبلاد النهرين إلى وسط السودان، فإن الأمر يصبح فى حاجة إلى تفسير، وللتدليل على ذلك فإن كتَّاب التراث قد هالهم عظمة الفراعنة التى ذكرها القرآن الكريم، وأفرطوا فى تخيل طغيانهم، فيذكر ابن كثير فى تفسيره أنه قد ذكر السدى وغيره أن موسى لما قدم من مدين وأخذ معه هارون وقاما يقصدان باب فرعون، فإذا هو مغلق، فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول الله بالباب، فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به، ويذكر أنه قد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل، وقال محمد بن إسحاق، أذن لهما بعد سنتين، لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما.

وبالقطع فإننا على يقين من أن مثل تلك الأقوال التراثية افتراضات من اختراع أصحابها ولا تستند إلى مصادر، لكن نوردها من باب تخيل الناس لما ينبغى أن تكون عليه حياة ملوك مصر فى عهدها الفرعونى، والذى بالضرورة تناقضه وتخالفه صورة القرآن للبيئة المكانية التى كان عليها بيت فرعون الميلاد؛ ذلك البيت المفتوح والمطروق والقائم دون أسور أو حراس والقريب من بيوت فقراء الشعب. وقد جاءت المصادر التاريخية لتوضح كيف كانت تلك الصورة القرآنية، فنحن نعلم أن بنى إسرائيل كانوا يعيشون فى شرق الدلتا فى الموقع الذى اختاره لهم يوسف قريباً من مدينة أفاريس عاصمة الهكسوس الذين لم يعرف عنهم التطاول فى البنيان مثل ملوك الفراعنة، ومع ذلك فإنه بعد تحرير مصر منهم فقد نكل ملوك التحرير بعاصمتهم وقوَّضوا بنيانها، ولم يحدث اهتمام بها بعد ذلك، وظلت موطناً لبنى إسرائيل والمدنيين من المهاجرين الآسيويين الذين قدموا مصر فى عصر الهكسوس، وإلى الشرق منها أقيمت الحاميات العسكرية على امتداد سيناء، المدخل الشرقى لمصر. وقد ذكرنا أن من هذه المنطقة وضواحيها خرجت عقيدة التوحيد وانتشرت فى مصر تحت قيادة بنى إسرائيل، وبعد أن كشفت تحقيقات حورمحب علاقتهم الوطيدة بما حدث فى مصر قفز هذا الموقع ليصبح أهم الأماكن إستراتيجية لدى حورمحب فى

إدارة الصراع والحفاظ على وحدة البلاد، فقد اكتشف إثر محاكمة «آى» وأتباعه أنه مقر القيادة والبؤرة التى خرج منها الشر الذى أصاب البلاد، فقرر أن ينقل إقامته إليه لإحكام السيطرة وإدارة الأمور ومواجهة أعداء الدولة فى الداخل، وعلى مقربة منهم تحول حصن ثارو العسكرى إلى معتقل كبير، جمع فيه أتباع إخناتون ووضعهم فيه إلى جانب بنى إسرائيل الذين كانوا يقيمون هناك منذ زمن، وعين وزيره وقائد جيشه «بارعمس» حاكماً عسكرياً على تلك المنطقة، ولأن انتقال حورمحب كان سريعاً وفجائياً، ومثل فى البداية إقامة مؤقتة فإنه ترك القصور الفخمة والاستراحات الملكية والعمارة الحصينة فى العاصمتين طيبة ومنف، وركز اهتمامه فى تنظيم الأوضاع والقضاء على الأخطار، وآثار الفتنة والثورة. ولم يكن فى هذه المنطقة منذ عهد الهكسوس قصور ملكية على غرار المدن المصرية العريقة، فاتخذ لنفسه بيتاً فى المدينة على ضفاف النهر، وكان طبيعياً أن يأتى على تلك الصورة التى قدمها القرآن ولو كان الأمر حدث فى طيبة أو منف لوجدنا صورة أخرى تختلف كلية.

وقد كان على هوى الزوجة موت نجمت أن تفضل الإقامة فى أفاريس لتكون قريبة من أهلها الذين تحبهم، فهو أدعى إلى إحساسها بالراحة والأمان، وأفضل لديها من قصور طيبة فى أقصى الجنوب بين سطوة كهنة آمون وذكريات الأيام التى عاشتها بين الأهل والأحباب الذين افتقدتهم، وأفضل من قصور منف التى استدعى إليها والدها فى عامه الأخير، وعاد منها جثة هامدة لتنتقل بعده إلى أحضان هذا الفرعون الذى اغتال والدها وأحلام أهلها، ولعل موت نجمت هى التى أرادت بيتاً بلا أسوار أو حراس لتعلم ما يدور بين أهلها وقومها الباقين.

وهناك احتمال بأن الملكة «تى» عمة موت نجمت قد أحبت هى أيضاً قبلها هذا المكان وأقام لها أمنحوتب الثالث مقراً صيفياً للعائلة هناك، وربما يكون فرعون وموت نجمت اتخذا نفس البيت القديم مقراً لهما.

وبعد حورمحب بسنوات قليلة استمر الرعامسة فى هذا الموقع وأقام رمسيس الثانى عاصمته الجديدة التى جعل نواتها مدينة أفاريس القديمة ودعاها «بى رمسيس عانختو» أى مدينة رمسيس الأكبر الظافر، وتقع على أحد الأفرع الشرقية للنيل (تمتد بين صان الحجر وبين قنتير الحاليتين فى شرق الدلتا)، وجعلها تنافس فى روعتها الحاضرتين العتيدتين طيبة ومنف، وبعد وفاته بسنوات قليلة هدمت مدينته ودمرت معابدها وصارت مبانيها أنقاضاً واستخدمت أحجارها فى المبانى لكل من يريد، وفى نفس التوقيت كان بنو إسرائيل يدخلون فلسطين، وعن ذلك يقول الله تعالى: «**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)**»[**الأعراف**].

وبعد، فإننا من خلال هذا العرض التاريخى نعرف أن مدينة أفاريس موقع ميلاد موسى

كانت فى الماضى عاصمة للهكسوس، وبعد حورمحب أصبحت عاصمة عالمية للشرق فى عصر رمسيس الثانى، أما الصورة القرآنية لهذا المكان فى تاريخ ميلاد موسى، فكانت تماماً طبقاً لهذا الوصف ولا تزيد على هذا الوضع فى عصر حورمحب، مدينة صغيرة أكبر بيوتها بيت فرعون لا تفصله أية حواجز عن الشعب وقريب من بيوت العامة والفقراء.

وأخيراً نأتى إلى الدليل السادس وآخر أدلتنا فى إثبات ضرورة أن يكون ميلاد موسى فى السنوات الأخيرة من حكم حورمحب، ونستند فيه إلى أن هذا التاريخ يأتى فى نقطة زمنية مناسبة تتلاءم مع مراحل النطاق الزمنى للبحث، وتحقق الملاءمة والتوافق الزمنى لمراحل الوجود الإسرائيلى فى مصر، وتخضع تاريخ الخروج وفترة التيه ثم دخول فلسطين لركائز البحث، وذلك على النحو الذى سوف نوضحه فى أدلتنا على فرعون الخروج. ويكفى فى هذا المجال الآن أن نوضح أن الفترة الزمنية ما بين انتهاء حكم حورمحب فى العام (١٢٩٥ق.م،) وانتهاء حكم رمسيس الثانى فى العام (١٢١٣ق.م تبلغ) ٨٢ عاماً.

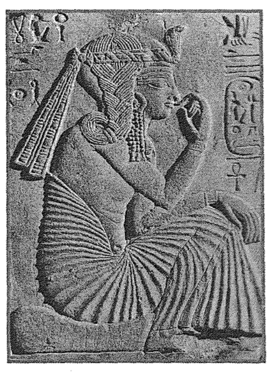
فإذا كان رمسيس الثانى هو أول الفراعنة الذى يصبح ممكناً زمنياً - طبقاً لركائز البحث ومتلائماً مع مراحل النطاق الزمنى - حدوث الخروج فى عهده، وسوف تؤكد أدلتنا فى الفصل المقبل أنه فرعون الخروج. وعلى هذا الاعتبار فإنه متى ثبت أن ميلاد موسى وقع قبل سنوات قليلة من انتهاء حكم حورمحب، فإنه فى نهاية حكم رمسيس الثانى يكون فى منتصف الثمانينيات من عمره، وقد ذكرت التوراة فى مواضع عدة أن موسى كان ابن ثمانين سنة حين عاد من مدين وخرج ببنى إسرائيل، وقد انتهينا سابقاً إلى أن الوصف القرآنى فى عرض مراحل حياة موسى يؤيد استنتاج صحة رواية التوراة فى تقدير سنوات عمر موسى فى تلك الفترة، بيد أن رواية القرآن تزيد على رواية التوراة بأن موسى مكث فى مصر سنوات عدة يمارس دعوته ومحاوراته مع فرعون قبل الخروج «**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين**».

وصحة هذا التقدير ما بين الميلاد فى عهد حورمحب والخروج فى نهاية عهد رمسيس الثانى سوف تؤدى إلى تحقيق التوافق الزمنى فى قضاء سنوات التيه أربعين سنة بعد الخروج، ويكون دخول فلسطين فى الموعد الملائم تاريخياً بعد خروج المصريين منها فى النصف الثانى من حكم رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين، وأيضاً يحقق توافر المدة الزمنية المناسبة لانقضاء سنوات التيه وعهود يشوع والقضاة والمملكة الإسرائيلية المتحدة حتى وفاة سليمان فى العام (٩٣٠ق.م)، الذى تحقق فيه لقاء القصة الدينية مع الأحداث التاريخية فى عهد شاشانق الأول، أول ملوك الأسرة الـ ٢٢ المصرية، والذى وضعناه كنهاية لنطاق البحث، وهذه النتيجة أيضاً سوف تحقق صحة تقدير التوراة لسنوات حياة بنى إسرائيل فى مصر بأنها ٤٣٠ سنة، وتؤكد دخولهم فى عهد ملوك الهكسوس.

الأمير المجهول فى الكرنك

وفى نهاية عرض الأدلة على فرعون الميلاد يثار تساؤل مهم وهو لماذا لم ينفذ حورمحب اقتراح امرأته بأن يخدع القوم ويعلن أنه أنجب ابناً من صلبه، دعاه موسى، ويجعله وريثه على العرش، ونرد على ذلك بأن عوامل كثيرة يمكن أن تكون قد حالت دون تنفيذ ذلك، منها: أن يكون الأمر قد شاع فى مدينة أفاريس التى وقعت فيها ولادة موسى، وأقام فيها حورمحب فترات كثيرة من حكمه، ومنها أن يكون الملك قد رأى أن هذا الاقتراح من زوجته مبعثه رغبة عاطفية، لكنه لا يلبى مصلحة الدولة، وأخيراً فإنه يستدل من أحداث القصة وعوامل أخرى أن ظهور الطفل موسى العبرانى فى حياة الفرعون وامرأته جاء بعد أن تقدم بهما العمر، وربما شعر حورمحب أنه ليس مقبولاً تنفيذ هذا الأمر، ومن الأوفق أن ينأى بنفسه عن إتيان أمور قد تشين شيخوخته الموقرة فى وقت كان يعتقد ويعتقد الناس أنه حقق للبلاد ما لم يحققه ملك آخر منذ عهود، بعد أن ضلت السبيل فترة من الزمن، فخشى أن يعيد البلاد إلى سنوات الانقسام والفتنة وآثر اختيار قائد جيشه القوى الذى يثق فيه لقيادة الدولة بعده.

بيد أنه وعلى الرغم من جميع الاحتمالات السابقة فإنه تأتى بعض المظاهر التاريخية المهمة تؤكد وجود أمير صغير مجهول غالباً من نهاية الأسرة الثامنة عشرة، أبعده الرعامسة عن العرش وحرصوا على إخفاء وجوده وتقديم رمسيس الثانى - الذى كان معاصراً ومقارباً له فى العمر - ليحل مكانه ويستولى على العرش بدلاً منه، ونستطيع أن نلمس بكل وضوح من مصادر بداية عهد رمسيس الثانى من خلال بعض الإلماحات إلحاحه فى تصوير تنصيبه على العرش وهو طفلاً فى عهد والده فى شىء من المغالاة والمبالغة فى استخدام التعبيرات، وكأنه إثبات وإقرار منذ النشأة الأولى باعتباره الأمير الوريث للعرش، وأعلن لشعبه أن والده قد نصبه ملكاً بجواره وشريكاً معه فى الحكم وهو مازال طفلاً يافعاً، ولقد استمر هذا الإصرار من جانب رمسيس لكى يبرر شرعية توليه الملك حتى العام الثالث من حكمه، فيقول عن نفسه على لسان حاشيته: «وأنت ما زلت فى داخل البيضة كنت تضع المشاريع بصفتك الأمير الوريث. وكنت تحاط علماً بمشاكل القطرين وأنت طفل غض صغير، وقد تدلت على جانب وجهك خصلة شعر الطفولة، وأصبحت قائداً للجيش، وأنت صبى فى العاشرة



رمسيس الثانى فى صباه توج شريكاً فى الحكم مع أبيه

من عمره» وترى عالمة الآثار الفرنسية كريستيان ديروش نوبلكور أن هذا الموقف المبالغ فى أمره من جانب رمسيس الثانى يثير الشك فى الموضوع.

وفى إطار تأكيد هذا الشك، فقد تكشف لعالم المصريات الأمريكى جيمس هنرى برستد - منذ وقت بعيد - نظرية فى هذاالصدد اعتمد من خلالها على بعض النقوش البارزة فوق الحائط الخارجى لقاعة الأساطين بالكرنك، فقد تلاحظ له أنه بإمعان النظر بها يتراءى خلف سيتى شكل أمير صغير كُحت وطُرق لتحل مكانه صورة للأمير رمسيس.. ويرى العالم برستد أن هذا الإحلال ربما كان هو الدليل على اغتيال رمسيس لأخيه الأكبر حتى يستولى هو على العرش بدلاً منه. ولكن كريستيان نوبلكور ترى أن هذه الفرضية تبدو واهية وغير مقنعة، خصوصاً إذا رجعنا إلى مشهد تتويج رمسيس بيد الإله آمون بحضور الملك سيتى الأول بمعبده الجنائزى بالقرنة، حيث يبدو التفاهم والتوافق كاملاً بين الأب وابنه فى هذا الشأن.

وتنتهى نوبلكور فى تفسير هذا الشأن إلى أنه ربما كانت الملاحظات آنفة الذكر موجهة أصلاً لأحد المشرئبين لاعتلاء العرش؛ الذى لا ينتمى أساساً إلى عائلة رمسيس، ولا يعدو أن يكون سوى حفيد مغمور لأواخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة.. وترى أنه أياً ما كان الأمر فإن تطريق وكحت صورة هذا الأمير مجهول الشأن بعد أن نقشت بالفعل فوق جدران الكرنك يبين قطعاً الانتصار والفوز النهائى لعائلة الرعامسة.

والذى أراه فى هذا الشأن على ضوء قصة القرآن الكريم، ومع ما انتهينا إليه من أدلة على أن حور محب هو فرعون الذى عاصر ميلاد موسى واتخذه هو وامرأته ابناً لهما، ومع الأخذ فى الاعتبار فترة حكمه فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة التى بدأت بعد حكم الملك «آى» وامتدت نحو ٢٧ عاماً، ولم يكن كلاهما من السلالة الملكية المنحدرة من الملك أحمس مؤسس تلك الأسرة، فقد ثبت لنا من المصادر انقطاع ذرية ملوكها بعد وفاة توت عنخ آمون، وعلى ذلك فإن التفسير الذى يفرض نفسه أنه وبعد مرور نحو ثلاثين عاماً منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية الأسرة، فإن هذا الأمير الذى كُحتت صورته ونقوشه لا بد أنه كان ينتسب إلى الفرعون حورمحب آخر ملوك تلك الأسرة، وأن ظهوره فى حياة هذا الملك حدث فى أخريات سنوات عمره ومات وتركه طفلاً، والغالب أن الزوجة الملكية لاقت نفس المصير أيضاً، ومن ثم أصبح هذا الأمير الصغير تحت وصاية نائب الملك وقائد جيشه المخلص «بارعمس»، ولكن لم تتكرر قصة توت عنخ آمون؛ لأن هذا الأمير لم يكن سوى موسى لقيط النهر الذى تبناه الفرعون حورمحب وأحبه - بشهادة القرآن - ومن المحتمل جداً أنه أعده فعلاً ليخلفه على العرش، ولم يكن تولى بارعمس (رمسيس الأول) الحكم سوى مرحلة لانتقال السلطة إلى موسى الملك الشرعى الذى أعلن عنه فى أنحاء البلاد ابناً للملك والزوجة الرئيسية. ولكن حدث أن مات رمسيس الأول سريعاً وما زال موسى طفلاً صغيراً، فتولى الحكم سيتى الأول وكان رجلاً قوياً

نشيطاً طموحاً، والغالب أنه كان على علم سابق بسر تبنى حورمحب لذلك الطفل بحكم الصلة القوية التى ربطت بين والده وبين الملك، ومن الممكن أن يكون الأمر قد تسرب فى منطقة أفاريس موقع ميلاد موسى، والتى ينتشر بها نفوذ الرعامسة ثم تحقق منه سيتى بنفسه، فدبر أمره لاغتصاب العرش وانتقل السر إلى كهنة آمون فى طيبة جنوب مصر، وتغيرت الأمور ومحيت نقوش الأمير المنتظر، ولم يكن هناك بد من قبول الكهنة لحكم تلك الأسرة العسكرية القوية لحماية الدولة واستقرار الأوضاع داخلياً وخارجياً ثم اتخذت الإجراءات لتبرير شرعية انتقال السلطة (تصوير الزوجات مقترنات بالإله وتحمل الزوجة لقب زوجة الإله وحدوث الولادة الإلهية)، وأشرك سيتى ابنه رمسيس معه فى الحكم لتأكيد وتثبيت خلافته له على العرش، وتم تصوير انتقال السلطة إلى أسرة الرعامسة على أنه حدث برغبة واختيار الفرعون حورمحب.

وإذا قام هذا الافتراض فإن هناك احتمال نغلبه، وهو أن الرعامسة لم ينتقموا من موسى، وإنما فقط سلبوا منه العرش لأنه لم يكن حقاً شرعياً له، وقد تم معاملته على أنه ابن بالتبنى للفرعون حورمحب، الذى كانوا يدينون له بالولاء والفضل، فتلقى موسى التعليم الذي يليق بالأمراء من أمثاله، وبعد أن كبر تهيأ له منصباً مرموقاً فى الدولة، وفى هذه الحالة فإنه غالباً ظل بعد ذلك على حذر من رمسيس الثانى بسبب الظروف التى شابت سلب العرش منه، لذلك هرب إلى مدين بعد قتله المصرى؛ لأنه وجد أن الالتجاء إلى الفرعون لن يحقق له الحماية، بل ربما اعتبر هذا الأمر فرصة مناسبة للانتقام والخلاص منه، وفى ظل هذا الافتراض يصبح من السهل تفسير مسلك هذا الفرعون عندما امتن على موسى بنعمة التربية والإحسان.

الفصل الرابع

فرعون الخروج


رمسيس الثانى

طبقاً للتسلسل التاريخى الذى عرضناه لمراحل الوجود الإسرائيلى فى مصر، وتحديد دخولهم مرحلة الاستعباد والاضطهاد مع بداية حكم حورمحب، الذى توافرت الأدلة وتضافرت على إثبات أنه الملك الجديد الذى قالت عنه رواية التوراة إنه لم يكن يعرف يوسف، واستعبد بنى إسرائيل وعذبهم، وأمر شعبه بقتل أولادهم، والذى وصمه القرآن بالفساد لأنه استضعف طائفة المؤمنين الموحدين بالله وعذبهم وقتل أولادهم، وأنه نفسه الفرعون الذى ولد موسى فى عهده، ورآه رضيعاً مع امرأته فأحبه معها واحتضناه، وتبنياه وربياه فى بلاطهما. واستناداً إلى المراحل العمرية التى مر بها موسى منذ ميلاده، وحتى تاريخ خروجه ببنى إسرائيل، والتى تبلغ فى تقدير التوراة ثمانين عاماً. وقد استخلصنا من مجمل عرض القرآن لمراحل حياة موسى أن التقدير التوراتى على وجه عام يقارب الحقيقة باستثناء أن موسى فى تاريخ الخروج كان قد تجاوز هذا العمر ببضع سنين؛ ذلك أن التوراة تجعل عودة موسى من مدين ثم خروجه مع قومه من مصر فى ذات العام، أما رواية القرآن فتقول: إن موسى بعد عودته من مدين يحمل رسالة الله تعالى مكث فى مصر سنين قبل الخروج داعياً لرسالته، وشهدت هذه الفترة تسع آيات بينات استغرقت مرحلة زمنية تناسب تحقق الحكمة والغاية من وقوعها.

وعلى ضوء الاستخلاصات السابقة، ومع تقدير سنوات حكم ملوك مصر ابتداء من حورمحب باعتباره فرعون الميلاد ثم الملوك التاليين بالقدر الذى يغطى الفترة الزمنية المقدرة لعمر موسى فى تاريخ الخروج، فإن سنوات حكمهم سارت كالتالى:

حورمحب: حكم ستة وعشرين أو سبعة وعشرين عاماً فى الفترة من (١٣٢١ : ١٢٩٥ق.م).

رمسيس الأول: حكم أقل من عامين - ذكر مانيتون أنه حكم سنة واحدة وأربعة أشهر -

فى الفترة من ١٢٩٥ : ١٢٩٤ق.م.

سيتى الأول: حكم نحو أربعة عشر عاماً فى الفترة من (١٢٩٤ : ١٢٧٩ق.م).

رمسيس الثانى: حكم ستة وستين عاماً وشهرين فى الفترة من (١٢٧٩:١٢١٣ق.م).

ويصل مجموع سنوات حكمهم نحو ١٠٨ أعوام. والفترة من نهاية حكم حورمحب إلى نهاية حكم رمسيس الثانى تبلغ ٨٢ عاماً. ومن ثم فإن رمسيس الثانى هو أقصى حاكم من الحكام التالين لميلاد موسى يمكن أن يكون الخروج حدث فى نهاية عهده، وفى هذه الحالة يأتى مترتباً بالضرورة أن يكون ميلاد موسى وقع قبل وفاة حورمحب بسنوات قليلة جداً، إلا إذا كان موسى فى تاريخ الخروج قد جاوز التسعين أو قارب هذه السن، وفى هذه الحالة فإن ميلاده يكون فى أول سنوات العقد الأخير من حكم حورمحب، وهذا احتمال غير مستبعد، خصوصاً مع وجود رواية التوراة التى تقول: إن موسى عاد من مدين فى سن الثمانين، لكن يلزم لصحة هذا الفرض أن نستبعد الجزء الثانى من رواية التوراة التى تقول: إن الخروج حدث أيضاً فى ذات العام، ونضيف بدلاً منه رواية القرآن - وهى الحق - التى تقول: إن موسى مكث فى مصر سنين قبل الخروج، وهى سنين يمكن أن نقدرها لأسباب جوهرية جداً بأنها بلغت، بل غالباً زادت على عشر سنوات، ذلك أن التسع آيات البينات التى شهدتها تلك السنوات كان من بينها آيات تستغرق موسماً نيلياً كاملاً وربما أكثر، وهى فيضان النهر ثم الجفاف أو العكس، وقال عنها الله تعالى:«**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)**»[**الأعراف**]، ولقد فاض الكيل بموسى من فرعون وقومه خلال تلك المدة، ووصلت به الحال أن يدعو ربه: «**رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)**»[**يونس**]، ولن يكون هذا الدعاء إلا بعد سنوات انتظار نفد فيها صبره. تلتها سنوات أخرى حقق الله فيها دعاءه، وأيضاً توجد عدة مظاهر خلاف ذلك سبق الحديث عنها. هذا فضلاً عن وجود أسباب واضحة تجعلنا نقدم الأمير خعمواس ابن رمسيس الثانى باعتباره مؤمن آل فرعون الذى كتم إيمانه، وأشار إليه القرآن الكريم فى سورة غافر، وهذا الرجل وقعت وفاته فى العام ٥٥ من حكم والده، وربما فى فترة أقرب قد تصل إلى العام ٥٨، وسوف نتعرض تفصيلا للأدلة التى تؤيد ذلك فى فصل خاص مقبل. وعلى هذا فإن القول بمعاصرة خعمواس لرسالة موسى وبداية دعوته يجعل عودة موسى من مدين سابقة على عام وفاته، ويرشدنا فى تقدير الفاصل الزمنى بين العودة والخروج، الذى نعلم أنه لا بد وأن يحدث فى نهاية مدة حكم الفرعون التى بلغت ٦٦ عاماً.

عموماً، يستفاد من العرض المتقدم أنه إذا ما ثبت أن حورمحب هو الفرعون المعاصر لميلاد موسى فإنه يستتبع ذلك - بالمقياس الزمنى - أن يكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج؛ لأن الفترة من حكم حورمحب أو خلال عهده وحتى نهاية حكم سيتى الأول لا تستوعب مراحل

حياة موسى كما صورتها الرواية الدينية منذ ميلاده وحتى عودته من مدين. وأيضاً فإن القول بعبور موسى كل مرحلة فترة حكم رمسيس الثانى وحدوث الخروج فى نهاية عهد ابنه مرنبتاح (٩سنوات)، فإن هذا يجعل عمر موسى فى تاريخ الخروج - على أقل تقدير - فى منتصف التسعينيات، وربما قارب القرن من الزمان، وهذا افتراض لن نستبعده تماماً من مجال البحث وحتى تكتمل الأدلة على تحديد فرعون الخروج، وعندها سوف يتبين أنه كما توافرت الأدلة وتضافرت على إثبات فرعون الميلاد، فقد تكاملت الأدلة المستمدة من الرواية الدينية مع الوقائع التى تقدمها المصادر التاريخية، واجتمعت على تأكيد تلك النتيجة على فرعون الخروج، على النحو الذى سوف نعرضه تفصيلاً فى هذا الجزء من الدراسة.

ونجد أنه سيكون مهماً أن نسبق هذا العرض بتقديم بعض من ظروف الحالتين السياسية والاجتماعية ذات الصلة فى الفترة المعاصرة لنشأة موسى فى مصر، والاستنتاجات التى يمكن توقعها للاحتمالات التى سارت عليها حياة موسى فى الفترة التى لم تتحدث عنها الرواية الدينية والتى تقع بعد ميلاده وحتى رحيله إلى مدين، وتحديد الملك الذى حدثت فى عهده تلك الواقعة، وذلك على ضوء حقائق الرواية الدينية لمراحل حياة موسى والمعلومات المتوافرة عن ملوك الأسرة الـ ١٩ التالين مباشرة لفرعون الميلاد حورمحب، وهو ما قد يكون مهمًّا فى مجال البحث.

وأيضاً من المناسب قبل عرض الأدلة أن نحل المشكلة التاريخية الوحيدة - فى تقديرنا - التى يمكن أن تنال أو تعترض الطريق فى أن يكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج؛ ألا وهى سنوات عمره المتقدمة، الأمر الذى جعل البعض يرفض خروج هذا الملك الكهل على رأس جيشه مطارداً موسى وقومه.

جوانب من الظروف السياسية والاجتماعية المعاصرة لنشأة موسى

إذ نحاول أن ننقل صورة عن جوانب الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر فى الفترة التالية لميلاد موسى، فإننا نعلم أنه بعد وفاة حورمحب انتقلت السلطة إلى رفيق سلاحه ووزيره قائد الجيش الذى أصبح فرعون مصر - رمسيس الأول- وقد خرج هذا الرجل من أسرة عسكرية من شرق الدلتا، وكانت استقامته فى خدمة حورمحب وطاعته، وإخلاصه له، وقدراته العسكرية هى مؤهلاته للوصول إلى ترشيحه لخلافته، وكان هذا الفرعون الجديد مدركاً تماماً أن عهده هو بداية حقبة جديدة فى تاريخ مصر، ولم تكن له أى روابط شخصية بالأسرة المالكة القديمة، فصار هو مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، واعتبر نفسه مثل أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة - قاهر الهكسوس وبطل التحرير - فتشبَّه بصورته واتخذ لنفسه ألقاباً مستوحاه من ألقابه، وكان إلى جواره ابنه الأمير سيتى ساعد الملك الأيمن، أشركه

معه فى الحكم ليطمئن على وراثة العرش واستقراره فى أسرته، وسرعان ما مات رمسيس الأول بعد أن حكم أقل من عامين تاركاً الملك لابنه سيتى الأول، وكان هذا الفرعون الجديد رجلاً عسكرياً شديد الخبرة ذا حيوية متدفقة ناهز الأربعين من عمره، أثبت فى فترة حكمه نجاحاً كبيراً على الصعيدين الداخلى والخارجى، فقد استقرت فى عهده أمور الدولة، واهتم بالإنشاءات المعمارية العظيمة ومعابد الآلهة، واستخراج الذهب والمعادن. وخارجياً قام بحملات عسكرية رائعة حقق فيها انتصارات كبيرة، فأعاد سيطرة مصر كاملة على مستعمراتها السابقة فى كنعان وأوبى، ودعم حقوق مصر فى نصف الساحل الجنوبى لفينيقيا (لبنان)، وأصبحت مستعمرات سيتى ملاصقة للأراضى الخاضعة لنفوذ الحيثيين، واصطدم معهم فعلاً فى معركة عسكرية فى قادش، لكن الإمبراطور الحيثى الجديد كان أيضاً رجلاً قوياً، وأصر على الاحتفاظ بقادش وآمورو فى سوريا، فجرت بين الجانبين مفاوضات وآثر سيتى السلامة والأخذ بسياسة الأمر الواقع وصادق الطرفان على معاهدة اعترفت فيها خيتا بحقوق مصر المشروعة وسيادتها على كنعان كاملة ومرافئ جنوب فينيقيا، وتركت مصر قادش وآمورو للحيثيين.

وقد حرص سيتى الأول أيضاً على استقرار الحكم فى الأسرة الجديدة دون منازع، وصار رمسيس الصغير وريثه على العرش، وهو بعد فى نحو الثامنة من عمره، ولما بلغ العاشرة منحه لقب القائد العام للقوات المسلحة، وبعد أن اشتد عوده منحه لقب «ابن الملك الأكبر ونائبه على عرش جب»، وهو لقب يؤكد صراحة أنه الوريث الملكى، وسمح للأمير وهو فى الرابعة عشرة من عمره أن يرافقه فى حملة عسكرية لتأمين أقصى الحدود الشمالية للدلتا ناحية ليبيا، وينال شرف الحرب والنصر. وللمرة الثانية رافقه فى الحملة العسكرية التى حاول فيها الملك استعادة عرش قادش، ولم يستسغ ما فعله أبوه بالتنازل عنها، فأسرَّها فى نفسه، وظلت فى عقله وقلبه حتى تولى الحكم، وقد أخذه والده بالحزم والجدية والتربية العسكرية الصارمة ليصبح صالحاً لتولى الحكم بعده. وفى سن صغيرة شرع الأمير رمسيس فى تكوين أسرة، فقد كان فى نحو الخامسة عشرة من عمره عندما زوَّده والده بطاقم كامل من الحريم من كل نوع، وكان من بينهن الزوجتان الشهيرتان نفرتارى وإيزيس - نفرت، ولم تذكر المصادر شيئاً عن أصولهما الاجتماعية أو انتسابهما العائلى، وقد حملت الفتاتان سريعاً، وأنجبتا للأمير الكثير من الذرية بنين وبنات، وعندما أتم العشرين من عمره كان له من هاتين الزوجتين عدد وافر من الأبناء، خمسة من البنين وأربع من البنات، بخلاف أبناء الجوارى، والمحظيات اللائى منحن له أيضاً، فقد أنجبن منه فى نفس الفترة عشرة بنين، وعدداً غير محدد من البنات. وقبل أن يموت سيتى الأول أصبح جداً لهؤلاء المواليد أبناء رمسيس الذين كان يعج بهم القصر.


سيتى الأول

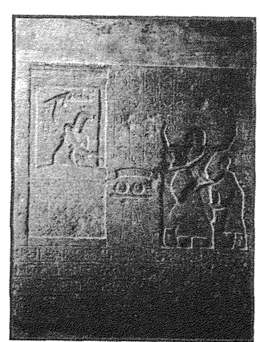
وتوفى سيتى الأول فى الخمسينيات من عمره، وتولى رمسيس الثانى الحكم فى العام (١٢٧٩ق.م) فى العشرينيات من عمره.

ورغم أن هذه الأسرة الملكية الجديدة كانت منبتة الصلة عن الأسرة السابقة، فإنه كان من الصعب أن تضرب عرض الحائط بالتقاليد الكهنوتية القديمة التى تقضى بضرورة استدعاء روح الإله فى جسد الفرعون بعد زواجه من وريثة العرش، الابنة البكر للملك السابق ليتحقق الميلاد المقدس لولى العهد، ونستطيع أن نعرف من عدة مصادر أنه تم التحايل على هذا الوضع - الذى لم يكن متصوراً تحقيقه فى حالة هذه الأسرة - عن طريق تصوير الزوجات مقترنات بالإله، وتحمل الزوجة لقب «زوجة الإله»، وبذلك يصبح الابن الذى تنجبه ابناً مباشراً منتسباً إلى الإله أو ما يسمى بالولادة الإلهية التى تكررت فى التاريخ المصرى فى عدة حالات مشابهة استدعت ذلك، وفى المعبد الجنائزى لرمسيس صورت ولادته الإلهية بواسطة أمه تويا، وولادة ابنه البكر «آمون حر خبش إن» بواسطة أمه نفرتارى، كما عثر فى مدينة هابو على مشاهد من قران «آمون» بـ «تويا» وصارت فى هذه المناسبة «زوجة الإله»، وحملت نفرتارى أيضاً نفس اللقب، وقد صورت نفرتارى بصفتها الزوجة الإلهية فى معبد الرامسيوم بجوار الإله «مين» بهيئته الذكورية التى تعبر عن أنه الإله الخالق.

ونقف قليلاً فى هذا البحث عند حريم رمسيس الثانى اللائى نعرف من المصادر أنهن تربين فى مؤسسة الحريم التابعة للقصر الملكى، فقد اهتم رمسيس بذكرهن على لوحته التذكارية التى أقامها فى أبيدوس بعد سنوات من انفراده بالحكم، وهو يتحدث عن مآثر والده عليه، ويشكر صنيعه على المواقف والأشياء التى فعلها لأجله؛ لأنه كان يحبه من صميم قلبه، وكان من بينها أنه جهزه بطاقم من الحريم يلقبن بـ «جمال القصر»، واختار له زوجات وأحضر له محظيات لتتضم إلى الحريم، كما كان رمسيس يقول عن زوجته نفرتارى: «إنها لا تضارع فى جمالها من بين جميلات القصر»، وإزاء صمت المصادر عن ذكر أى معلومات سابقة عن الزوجتين نفرتارى وإيزيس - نفرت، أو ألقاب يمكن أن تنسبهما إلى أى من السلالات العائلية أو تحديد والدى كل منهما، فإن الأنباء التاريخية عن أصولهما غير معلومة، وقد ظن البعض أن إيزيس- نفرت ربما يكون لها أصول سورية، لكن ومع اعتبارنا لما ذكرته المصادر من أنهما مع غيرهن من حريم رمسيس أحضرن من مؤسسة حريم القصر اللائى تربين فيها، فإنه يجب لاكتمال البحث ربط هذه المعلومات التاريخية مع الحقيقة الدينية التى تذكر أن فرعون المعاصر لميلاد موسى كان يذبح أبناء الطائفة المؤمنة ويستحيى نساءهم، ومع قول الله تعالى لبنى إسرائيل: «وَإِذْ

نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ... ﴿٤٩﴾»[البقرة]، وقد كان استحياء النساء لجعلهن وصيفات ومحظيات وجوارى فى القصور الملكية ولإهدائهن للأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة، أو تشغيلهن فى أعمال المعابد والشعائر الدينية أو كخادمات لكبار القوم، حسب تصنيفهن وإعدادهن من القائمين على أمرهن. والذى لا شك فيه أن مؤسسة الحريم التابعة للبلاط الملكى قد استحوذت على خيارهن، وانتقت الحسناوات من بينهن والقادرات على الأعمال وتربية الأمراء والأميرات، ثم يتم توزيع الأخريات على المعابد وتقديم الإهداءات لكبار القوم، ويمكن أن نضيف هنا سبباً جديداً لقتل الأطفال الذكور، فالرجال العبرانيون يساقون للعمل كعبيد فى الإنشاءات والمزارع الملكية أو أشغال المعابد، والنساء يؤخذن من بيوتهن لاستغلالهن، ومن ثم يصبح لزاماً أن يتم التخلص من الرضع الذكور لهذه الأسر المستعبد رجالها والمسلوب نساؤها كيلا يصبحوا عائقاً يحول دون استغلالهم وأدائهم لأشغالهم، ويقضى على احتمالات هروبهم. ويجب ألا ننسى أن الأمر فى أساسه كان عقاباً شاملاً ضد هذه الطائفة، والذى ارتبط بأحداث الفتنة الدينية وما سبقها وتلاها من مؤامرات ضد الدولة أدت إلى سقوط الملك «آى».

وإذا كانت الحقائق الدينية قد كشفت عن استحياء الفرعون لنساء تلك الطائفة المؤمنة بغرض استغلالهن، فإن المصادر التاريخية جاءت لتؤكد المصير الذى آل إليه أمرهن، فقد كشفت أعمال التنقيب عن مؤسسة الحريم التى كانت قائمة فى ذلك العصر فى منف، وتقع داخل مكان مسوَّر مغلق، يضم مجموعة من المبانى يتقدمها معبد صغير، وبداخله قصر ملكى وسلسلة من الأجنحة مخصصة للزوجات، بالإضافة إلى الأبناء الملكيين، فقد كانت هذه المؤسسة أيضاً مكاناً لتنشئة وتربية الأبناء الملكيين الذين كانوا يقيمون فى بيت خاص. وكانت المربيات والمعلمون يشرفون على تنشئة صغار الأمراء والأميرات، وكانت هذه المؤسسة تستقبل العديد من النساء بما فى ذلك النساء الأجنبيات. وقد وضع تحت تصرف هذه المؤسسة التى تعتبر وقفا ملكياً موارد عقارية مهمة، وألحقت بها الأملاك والضياع والورش؛ خصوصاً ورش الغزل والنسيج لحياكة الثياب التى كانت ترسل إلى البلاط الملكى، وكانت المؤسسة تضم مبانى إدارية ومخازن وملحقات، وكانت تشرف عليها الزوجة العظيمة، وأحياناً والدة الملك المتربع على العرش، يعاونها جهاز من الموظفين والحُجَّاب والكتبة والخدم.



لوحة حجرية للمشرف العام على الحريم الملكى: حور مين - متحف اللوفر

وكان يدير هذه المؤسسة فى منف فى عصر سيتى الأول شخص يدعى «حور مين»، حمل لقب المشرف

العام على الحريم الملكى، وحامل خاتم الحريم الملكى.

وفى هذه المؤسسة تربت وصيفات الشرف وفتيات البلاط الملكى، وقد جاءت منها زوجتا رمسيس الأوليان والجميلات الأخريات. ولا شك أن تربية نفرتارى وإيزيس نفرت فى مؤسسة الحريم الملكية تكشف عن السبب فى أن المصادر لم تقدم شيئاً عن أصولهما، ولم تشر إلى والد أى منهما، ثم غابت عنهما ألقاب الأصالة والنبل. وإذا كان المؤرخون اعتقدوا أنهما من عامة الشعب، فإن إشارة رمسيس إلى أنهما خرجتا من حريم القصر تجعلنا فى الحقيقة أمام وضع ليس طبيعياً، ويمكن وصفه بأنه غير لائق وغير مسبوق فى اختيار الزوجات الرئيسيات للملوك، فإذا كان قد ثبت - بلا جدال - أنهما فتاتان مصريتان، ويقيناً ليستا من الأسيرات الأجنبيات فى البلاط، وعلى ذلك فإن اختيارهما كزوجتين للأمير ولى العهد من هذا المكان الذى أعد لاستقبال الجوارى والأسيرات والوضيعات الأصل مع تجهيل أصولهما المصرية، يصبح أمراً يكتنفه غموض يحتاج إلى تفسير؛ خصوصاً أن رمسيس - فى عهد والده سيتى - لم يجد حرجاً فى الاختيار من هذا المصدر، بل إن والده كان هو من اختارهما له، وكان رمسيس مغتبطاً به وشاكراً صنيع والده عليه، وبعد ذلك لم يحاول إخفاء هذا الوضع، وأعلن الحقائق كاملة عنهما فى منشور وضعه فى معابد مصر، ورفع قدر الزوجتين - خصوصاً نفرتارى - إلى أعلى المستويات التى لم تتكرر إلا نادراً فى التاريخ المصرى، وأقيمت لها المعابد والقصور والتماثيل.

وإذ نحاول أن نفك طلاسم هذا الغموض فإنه يجب أن نربط هذا الوضع بالتصور الذى قدمناه فى سير المؤامرات الإسرائيلية، وما ترتب من نتائج إثر سقوط حكم الملك «آى»، وعلى سند من المعاصرة الزمنية يصبح ممكناً أن تكون هذه الصورة التاريخية أحد آثار الوضع الذى ساد مصر فى عصر فرعون المعاصر لميلاد موسى، والذى استمر قائماً حتى خروج بنى إسرائيل - كما صورته الرواية الدينية - ويمكن بذلك تفسير وجود هاتين الفتاتين فى هذا المكان بأنه من نتائج عصر الاضطهاد الدينى الذى شمل المؤمنات المصريات ونساء بنى إسرائيل اللائى أبقى الفرعون على حياتهن لاستغلالهن بمختلف الصور. وهنا يجدر أن نذكر أن المصريين قبل عصر الاضطهاد اعتبروا دائماً بنى إسرائيل من المصريين، وظل هذا الوضع حتى سقوط «آى»، وتغير الأمر فى عصر التعذيب بعد كشف الحقائق التى كانت خافية، وأهدافهم التى تسير فى اتجاه معادٍ لمصلحة مصر، أما عن سر تميز نفرتارى وإيزيس - نفرت، عن غيرهما من محظيات رمسيس، وتصعيدهما إلى مرتبة الزوجات العظيمات وإحاطتهما بأجمل العبارات، واستئثارهما بحب رمسيس واهتمامه - خصوصاً نفرتارى - فإن ذلك غالباً يجد سببه فى أن هاتين الزوجتين كانت لهما علاقة وأواصر قرابة بالبيت الملكى السابق، أو أنهما تنتسبان إلى أشراف القوم من عهد ملوك

الآتونية قبل أن ينكل بأسرتيهما فى عهد حورمحب ضمن الذين انتقم منهم لعلاقتهم بثورة التوحيد أو مؤامرات الملك «آى»، ونذكر أن حورمحب نفسه رائد ملوك الاضطهاد قد تزوج من ابنة زعيم القوم الذى انتقم منه ومن أتباعه، وقد عثر على قرينة واحدة، لكنها تلقى ضوءاً ساطعاً على علاقة نفرتارى بالملك «آى»، فعند الكشف عن مقبرة نفرتارى عام (١٩٠٤ق.م) فى وادى الملكات عثر علماء الآثار الإيطاليون وسط الذخائر الجنائزية التى بعثرها لصوص العصور القديمة على قطعة خزفية كانت على الأرجح مقبض صندوق صغير، ومن المثير أن نقرأ على هذه القطعة خرطوش الفرعون «آى»، والغريب أن رمسيس الثانى الذى كان يشرف على المراسم الجنائزية لزوجته المحبوبة، لم يجد من الملائم فى هذه المناسبة أن يستبعد هذا الصندوق الصغير من بين الأثاث الجنائزى المرافق لزوجته الراحلة، وقد كان يعرف بالتأكيد مم يتكون هذا الأثاث. ومما لا شك فيه أن نفرتارى احتفظت بهذا الصندوق فى حياتها كتذكار عائلى، وبسبب أهميته لديها أرادت أن يكون معها فى العالم الآخر، وكان يحتفظ باسم التتويج للفرعون آى «خبر - خبرو - رع - إير - ماعت»، وقد ذهب عالم الآثار كريستيان ليبلان إلى أن هذا الكشف يحملنا على افتراض قيام روابط بين نفرتارى وعائلة «آى»، وأنه إذا صح ذلك فإنها فى هذه الحالة تنسب إلى الجيل الثانى وربما الجيل الثالث من نسل «آى»، أو أى من أفراد عائلته. ويمكن أن نضيف هنا أن مرحلة الاضطهاد استمرت بعد حورمحب فى عصر ملوك الأسرة الـ ١٩ حتى خروج بنى إسرائيل. وأيضاً يستنتج «ليبلان» من مدونات تذكارية نقشت فى عصر الرعامسة فى معبد أقامه حورمحب فى جيل السلسلة على مقربة من محاجر البر الغربى احتمال ارتباط إيزيس - نفرت وعائلتها بصلة قرابة مع حورمحب، ونعلم أن هذا الملك كان مرتبطاً بموت نجمت بنت الملك «آى».

ومما تقدم يمكن أن نعتبر أن سبب تجهيل أصول نفرتارى وإيزيس نفرت، زوجتى رمسيس الثانى يرجع إلى أنهما - وربما كثير من المحظيات اللائى منحن له - كن من بنات إسرائيل من أبناء الجيل الذين بدأ الانتقام منهم فى عصر الاضطهاد مع بداية حكم حورمحب، واستمر مع ملوك الأسرة الـ ١٩، وأن سر تميز الزوجتين وإحاطتهما بمظاهر التبجيل والتقدير كان بسبب علاقتهما بالبيت المالك القديم أو أشراف العهد السابق، أى أنهما فى الأصل من النبيلات، وتنتسبان إلى عائلات رفيعة الشأن، لكن بسبب التبرؤ منها، فلم تنسبهما المصادر إليها.

حياة موسى فى البلاط الفرعونى

أما بشأن حياة موسى فى البلاط الملكى، فإنه وقد ثبت يقيناً من الحقائق الدينية أن موسى صار ابناً بالتبنى للفرعون الذى ساندت الأدلة والوقائع أنه حورمحب، فإن هذا يعنى

أنه حظى بالمعاملة اللائقة بأمثاله من النبلاء والأمراء فى مصر، وتلقى الرعاية الكاملة، وصعد درجات السلم التعليمى فى معاهد التعليم (بيت الحياة) التابعة للمعابد الكبرى، خصوصاً معبد عين شمس ذا المجد العريق والسمعة الكبيرة فى مختلف المعارف والعلوم الدينية والعلمية والأدبية. ويمكن أن نستنتج أن موسى خصصت له أجزاء من ثروة والديه (الفرعون وزوجته)، ولن يغير من الأمر شيئاً أن يكونا قد توفيا فى طفولة موسى أو صباه، فقد ثبت من عدة مصادر أن المصريين عرفوا نظام التبنى، وأن الابن بالتبنى يصبح مؤهلاً لوراثة حقوق أبيه، لكن هذا لم يمنع أيضاً أن موسى عند مرحلة معينة كان قد عرف أسرته وبنى قومه، والأغلب أنها كانت مرحلة مبكرة، ونستدل على ذلك من قصة استعانة الرجل الإسرائيلى به على عدوه المصرى وقتل موسى للرجل المصرى، وهروبه إثر اكتشاف أمره إلى مدين دون محاولة اللجوء إلى البلاط الملكى، وأيضاً طلبه من ربه فى جبل الطور أن يرسل معه أخاه هارون طبقاً لما سبق أن أوضحناه فى قصة موسى فى تاريخ بنى إسرائيل.

وإن كان يصعب أن نعرف تحديداً السن أو الظروف التى علم فيها موسى بأسرته الحقيقية وقومه الأصليين، وما الآثار التى ترتبت عقب ذلك؟ هل انتقل إلى الإقامة بينهم أم استمر ينعم فى مخصصاته الملكية وظل قريباً يتردد على أهله؟ فى الغالب أنه فعل ذلك وواصل حياته التى نشأ فيها حتى آتاه الله علماً وحكماً، لكن يمكن أن نستنتج أن الطريق اليقين فى وصول موسى إلى معرفة أهله بدأ منذ اليوم الأول لوجوده فى بيت الفرعون؛ من خلال استدعاء أم موسى الحقيقية إليه لإرضاعه، فقد أقام هذا الحضور والوجود علاقة بينها وبين امرأة فرعون التى فهمت - بلا ريب - معنى هدوء الطفل واستسلامه لحضنها بعد صراخه ورفضه لغيرها من المراضع، ولم يكن الأمر يحتاج جهداً كبيراً أو فراسة لكى تعرف الزوجة المؤمنة ذات الأصول العبرانية أن تلك الأم العبرانية التى أحضرتها البنت العبرانية التى كانت تقف تراقب الطفل العبرانى هى أم موسى الحقيقية، وتقف على الدوافع التى جعلتها تتخلى عن ابنها وتلقيه فى النهر.

ومما تقدم فإننا نستخلص من القصة الدينية أن موسى ابن إسرائيل، وإن كان قد نشأ فى بيت فرعون مصر إلا أنه عرف قومه، وكان قريباً منهم ورأى استعبادهم واضطهادهم، وأهمه ما يتعرضون له من ظلم وهوان. وتدخله لنصرة الرجل الإسرائيلى على المصرى فور أن استغاث به دون بحث أو تحقق من أمر الخلاف يدل على الخلفية التى تكونت لديه عن مدى الظلم الذى يستشعره فى داخله جراء ما يتعرض له قومه بنو إسرائيل، فلم يكن فى حاجة لاستجلاء أو استبيان المواقف؛ لأنه يعرف من الظالم ومن المظلوم.

ومن عرض مراحل حياة موسى يمكن استنتاج أن عمره كان يقارب عمر رمسيس الثانى، وعلى أقصى احتمال كان موسى يصغره ببضع سنوات، وأيضاً نعلم أن موطن الرعامسة يقع فى «أرض رع» الممتدة بين هليوبوليس وأفاريس، وهى نفس الموطن الذى استقر فيه بنو

إسرائيل فى شرق الدلتا، وقد اختار رمسيس الثانى أن يبنى مدينة بر رعمسيس عاصمة ملكه فى هذا الموقع، وجعل نواتها مدينة أفاريس التى كانت عاصمة للهكسوس، وقد كان لأبيه قصر فى هذه المدينة (تمتد بين صان الحجر وبين قنتير فى محافظة الشرقية شرق الدلتا)، وفى نفس هذه المدينة ولد موسى وعاش حياته قبل أن يرحل إلى مدين، ولأن موسى كان ابناً لحورمحب فرعون مصر السابق الذى يدين له ملوك الأسرة الـ١٩ الجدد بملكهم ومجدهم، بعد أن رفع صديقه وقائد جيشه رمسيس الأول - أول ملوكهم - إلى عرش مصر، فيأتى طبيعياً ولاء هؤلاء الملوك له واحترامهم لذكراه وكل ما ينتمى إليه، ومن كل هذه الفروض السابقة المحتملة:

- التقارب العمرى بين موسى ورمسيس،
- وحدة الموطن والمدينة التى نشأ وعاش عليها كل منهما،
- الوضع الطبقى والاجتماعى المتميز لموسى بحكم انتمائه للبيت الملكى السابق، والتقارب الاجتماعى وروابط الولاء والتقدير التى تربطه بأسرة الحكم الجديدة،

يمكن أن نستخلص من ذلك اهتمام أسرة الحكم الجديدة بشئون بيت حورمحب وإحاطة أهله برعايتهم، كما تتزايد احتمالات اشتراك موسى ورمسيس فى مرحلة الإعداد والتعليم الأولى فى معاهد المعابد التعليمية، وربما بسبب ابتعاد موسى عن اختيار طريق كهنوت المعابد أن يكون قد سلك طريق الجندية والتربية العسكرية، وهو نفس الطريق الذى سلكه رمسيس بحكم النشأة والتاريخ العسكرى لأسرته، وقد كان من الثقافة الضرورية التى لا بد للضابط أن يتعلمها الأدب القديم المشهور، وأدب تحرير الرسائل، ومسائل الحساب، وطريقة تقدير أنصبة الجنود من المؤن وكيفية توزيعها، ولا بد أن يعلم جغرافية البلاد وأسماء المدن الداخلية، وما تشتهر به، وأن يعرف جغرافية البلاد الخارجية التى من المحتمل أن يذهب إليها كرسول أو يكلف بمهام رسمية فى أراضيها، ويذكر الله تعالى أنه آتى موسى حكماً وعلماً فى مصر قبل رحيله إلى مدين التى كان يعلم جيداً الطريق إليها، ويمكن أن نشير أيضاً إلى قصة التلمود - كتاب التفسير عند اليهود - أن موسى كان قائداً فى الجيوش المصرية وحارب فى جنوب مصر.

عموماً، فإن هذه الاستخلاصات والفروض السابقة تعنى حتماً أن موسى ورمسيس عرف كلاهما الآخر عن قرب قبل أن يرحل موسى إلى مدين، مع احتمال نغلبه وهو أن موسى كان ينفر من رمسيس سواء لسلوكه المغرور والمتعجرف أو بسبب الشعور النفسى لموسى أن قوم فرعون لا يتقون لسوء معاملتهم وإهانتهم لقومه بنى إسرائيل، ولعل فى هذه الصلة القديمة يكمن تفسير قول فرعون لموسى الذى ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم:« **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾** »[الشعراء].

تاريخ رحيل موسى إلى مدين

استناداً إلى تحديد ميلاد موسى فى السنوات الأخيرة من حكم الفرعون حورمحب، وتحديد المرحلة العمرية من حياة موسى السابقة على رحيله إلى مدين والتى ذكرها الله تعالى فى قوله: «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)**»[**القصص**]. وقد حدث فى هذه المرحلة من حياته واقعة قتله للرجل المصرى، والتى أعقبها هروبه إلى مدين حسبما ذكرها الله تعالى فى الآيات التالية، وعلى ضوء آراء المفسرين استهداءً بآيات القرآن الكريم الأخرى التى استخدمت تعبير «بَلَغَ أَشُدَّهُ»، فقد انتهينا سابقاً إلى أنها السن التى يصبح المرء فيها قادراً على اتخاذ قرارات سليمة ومسئولة بشأن أموره، ثم استخدام القرآن لفظ استوى يشير إلى أنها مرحلة لاحقة على تلك أيضاً، وأن تعبير «آتيناه حكماً وعلماً» يشير إلى أن موسى قد أتم مرحلة تعليمه العالى وتولى إحدى الوظائف المرموقة فى الدولة، ونصل بهذا التحديد إلى أن ذلك لا بد وأن يكون فى خلال العقود الأولى من حكم رمسيس الثانى، والقول خلاف هذا الفرض بأن هذه الواقعة حدثت فى تاريخ سابق على حكم رمسيس الثانى لا يستقيم مع تفسير الآية السابقة- مع افتراض ميلاد موسى فى السنوات الأخيرة من حكم حورمحب والخروج فى نهاية عهد رمسيس الثانى - لأنه فى هذه الحالة سوف يكون عمر موسى فى بداية حكم رمسيس الثانى - فى الغالب جداً - أقل من عشرين عاماً، وهذا دون المرحلة العمرية التى ذكرها الله تعالى لموسى والتى سبقت رحيله إلى مدين، ويمكن أن نصل بذلك إلى أن رحيل موسى إلى مدين- غالباً - كان فى سنوات العقد الثانى أو بداية العقد الثالث من حكم رمسيس الثانى، وسوف يصبح ذلك واضحاً بعد الانتهاء من أدلة إثبات أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج.

وقد يرى البعض أن وجهة النظر السابقة تخالف رواية التوراة فى أن فرعون المعاصر لميلاد موسى والذى لم يكن يعرف يوسف، مات أثناء حياة موسى فى مدين، لكن الحقيقة أن رواية التوراة وإن كانت واضحة فى تأكيد وفاة هذا الفرعون قبل بعث موسى إلا أنها كانت مضطربة فى تحديد بعض الوقائع؛ ذلك أنها تنسب بدايات التعذيب والتسخير فى عهد الفرعون الذى بنى مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس، ولما كان هذا الفرعون - البانى - هو رمسيس الثانى، فإن هذا الفرض - لو صح - وكان ميلاد موسى فى هذه الفترة لكانت عودته إلى مصر فى سن الثمانين - حسبما تقول التوراة - فى مرحلة تالية لعصر مرنبتاح ابن رمسيس، وهذا قول لا يتفق مع وقائع التاريخ والأدلة الكثيرة الأخرى، وأيضاً ثوابت الدراسة، ومن ثم تكون الحقيقة أن الرواية التوراتية خلطت بين أفعال الفرعونين، أو أنها تعاملت مع تسخير حورمحب لبنى إسرائيل فى أعمال البناء فى مخازن ومعابد أفاريس باسمها الذى استجد فى عهد رمسيس «مدينة رعمسيس».

أما بشأن رواية التوراة فى وفاة فرعون الميلاد، فإنها بعد أن سردت جزءاً من حياة موسى فى مدين عادت إلى الحديث عن وضع بنى إسرائيل فى مصر، وقالت: إنه «حدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات، وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا فصعد صراخهم

إلى الله من أجل العبودية، فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب ونظر الله بنى إسرائيل وعلم الله» (سفر الخروج - الإصحاح الثانى: ٢٣-٢٥).

وجاءت هذه الآيات فى التوراة سابقة مباشرة على كلام الرب مع موسى فى جبل حوريب فى الإصحاح الثالث، والذى تركز أساساً فى طلبه تعالى من موسى العودة إلى مصر لإنقاذ شعبه بنى إسرائيل من مذلتهم من أيدى المصريين مسخريهم، والحديث التوراتى يعنى أن الفرعون التالى كان أشد عنفاً من الأول - الذى كان يقتل الأطفال - بسبب قسوته فى تسخير بنى إسرائيل التى وصلت إلى درجة التنهد والصراخ والأنين من العبودية، ومن ثم فإن تتابع القصة التوراتية لا يؤدى بالضرورة إلى حدوث وفاة الفرعون الأول أثناء وجود موسى فى مدين؛ لأن الحديث هنا من الكاتب للقارئ وليس إخباراً مباشراً ورد ضمن حوار الله تعالى مع موسى، وإنما جاء بسبب الربط بين ما يحدث فى مصر لبنى إسرائيل من هذا الفرعون وبين بعث موسى لإنقاذهم، لقد جاءت المناسبة إذاً فأخبرت التوراة أنه كان قد حدث أن فرعون الذى لا يعرف يوسف وسبق الحديث عنه قد مات، وأن الجديد الذى قام فى تاريخ بعث موسى أشد عنفاً وقسوة، ومن ثم لا يعنى الأمر أن الوفاة حدثت بالضرورة أثناء وجود موسى فى مدين، وإنما هو أمر حدث خلال تلك الأيام الكثيرة التى مرت ما بين ميلاد موسى وبعثه.

لكن عندما تعلق الأمر بإخبار من الرب لموسى بشأن ما استجد من أمور فى جريمته التى رحل من مصر هارباً بسببها تقول التوراة: «وقال الرب لموسى فى مديان اذهب ارجع إلى مصر، لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» (الخروج - الإصحاح الرابع:١٩).

وهذا الإخبار من الرب لموسى من الواضح أنه عن أمور حدثت بعد رحيل موسى وأثناء وجوده فى مدين، وأن المقصود بالقوم هم أهل القتيل وعشيرته، ولا يتعلق الأمر بفرعون فى هذه الحالة.

وخلافاً لكل كتب التفسير نرى أن فرعون لم يكن طرفاً فى هذه الواقعة الجنائية التى اتهم فيها موسى، وليس له علاقة بالأسباب التى دفعته إلى الهرب، فالقول الذى ذهب إليه المفسرون أن موسى هرب خوفاً من بطش الفرعون وانتقامه منه استنتاج غير دقيق، ويأتى ذلك عندهم قياساً على الشعوب القبلية والمجتمعات والقوميات الصغيرة التى كانت سائدة فى التاريخ القديم، أما فى مصر فإن هذا التفسير لا يتفق مع نظام الدولة المتكامل الذى عرفته منذ عهودها القديمة داخل حدودها الممتدة وأقاليمها المتعددة، لقد عاش المصريون القدماء فى ظل قوانين موحدة فرضت على مسلكهم العام سمة إطاعة القوانين، وكانت توجد قوات للشرطة متخصصة وتنقسم إلى ستة أقسام أكثرها عدداً الشرطة المحلية، ويحمل أفرادها علامة مميزة، ومن أهم اختصاصها المحافظة على الأمن العام وتوفير الأمن والأمان للمواطنين، وتطبيق القوانين، وتلقى البلاغات والتحقيق فى الحوادث وتنفيذ الأحكام، وعرفت مصر أساليب مختلفة للبحث الجنائى، ووسائل التحقيق الجنائى، واستقرت النظم القضائية فى مصر. وكان يحكم البلاد مجموعة من القوانين والتشريعات التى تنظم المجتمع، وأشار ديودور الصقلى الذى

زار مصر فى القرن الأول (ق.م) إلى وجود قانون مصرى كان مدوناً فى ثمانية كتب (سجلات) كانت توضع بجانب القضاة أثناء عقد المحاكمة. وكانت القوانين التى يصدرها الملك تنشر فى صورة مراسيم، وقد أصدر الملك حورمحب مجموعة مهمة من القوانين والتشريعات التى أرست النظام وقضت على الفوضى، وتضمنت عقوبات صارمة ورادعة ضد المعتدين، وعرفت مصر المحاكم المتخصصة، وخضع اختيار القضاة لشروط وإجراءات، ونظم القانون إجراءات التقاضى ووظائف معاونى القضاء، وتدرجت أنواع العقوبات حسب جسامة الجرائم.

ومن هذا التنظيم ندرك تماماً أن السبب الذى دفع موسى إلى الهرب إلى أرض مدين بعد قتله المصرى لم يكن تحديداً بسبب الخوف من الفرعون الذى لم يكن من الممكن وسط مشاغله ومعاركه فى الشمال والجنوب أن يهتم بنفسه بتحقيق القضايا المثارة بين مواطنيه وجرائم الأفراد؛ لأن هذا التنظيم موكول لأجهزة الدولة: الشرطة المحلية والقضاء، ويخضع للقوانين، وقد كان القرآن الكريم واضحاً فى عدم وجود علاقة شخصية لفرعون بهذا الأمر، وفى ذلك يقول الله تعالى: « **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠)** » [**القصص**].

لقد هرب موسى لأن صلته بالبيت الحاكم قد انتهت، وكان واثقاً أنه سوف يزج به إلى ساحة القضاء، ولن تسرى فى حقه أية إجراءات استثنائية، وكان يعلم جيداً أن الحكم بالإعدام هو عقوبة كل من يقتل إنساناً، حراً كان أم عبداً.

قدرة رمسيس الثانى على مطاردة بنى إسرائيل

والآن نأتى إلى المرحلة الأخيرة قبل عرض أدلة إثبات فرعون الخروج، ونحاول أن نقف على مدى قدرة رمسيس الثانى واستعداده البدنى والنفسى فى أن يخرج مطارداً لموسى وقومه، وقد شارف عمره على التسعين.

من المهم فى هذا الشأن أن نعرف أن من أهم الجوانب التى شكلت شخصية رمسيس الثانى أنه كان رجلاً عسكرياً فخوراً بقوته وعسكريته، وتميز بالصلف والغرور وجنون العظمة، وكان صلباً عنيداً طموحاً، لا يعترف بالهزيمة، وكان أيضاً متعجرفاً، وهو ولى للعهد رفض فى قرارة نفسه معاهدة السلام التى أقرها والده سيتى مع الحيثيين، ولم يفهم أن الذى دفع والده إلى توقيعها أنه أدرك سريعاً أنهم أصبحوا قوة عظيمة لا قبل له بدحرها فعمل على مسالمتهم، وآثر مصالح بلاده العليا على الأمجاد الشخصية، لكن رمسيس الثانى الذى اختزن فى عقله موقفه الرافض من هذه المعاهدة، ما أن تولى الحكم حتى سارع واستعد وخرج بنفسه يقود جيشه لاسترداد قادش واستعادة المستعمرات السورية من الحيثيين لإقامة إمبراطورية تحوتمس الثالث كاملة، وصمم على المضى فى المشروع الذى عجز أبوه عن تحقيقه واستمر فى عناده وإصراره عشرين عاماً، ولم يحقق نجاحاً، وأهدر الأعوام والرجال والأموال قبل أن تتكسر حدة صلفه وغروره، ويدرك أنه من المستحيل تغيير

مجرى التاريخ، وأن الوقت قد حان لمهادنة الحيثيين، فتوقف مرغماً عن عناده ووقع معاهدة الصلح والسلام بنفس الشروط القديمة التى كان والده قد وافق عليها منذ ثلاثين عاماً ونيف.

لقد حكم رمسيس الثانى مصر حكماً انفرادياً مطلقاً ومتواصلاً لمدة ستة وستين عاماً وشهرين، وخلال مدة حكمه ظل دائماً رجلاً نشيطاً متحركاً يجوب أنحاء مملكته، ويملأ البلاد بإنشاءاته الضخمة العظيمة بغرض تخليد ذكراه والدعاية والإعلان عن نفسه، وكان دائماً متعجلاً نافد الصبر حتى تنتهى مبانيه فى أسرع وقت، ولم يتغير عنده أسلوب العجلة فى التنفيذ حتى فى أيامه الأخيرة وفى المناطق البعيدة التى كان يستخدم فيها عمالة محلية، فى الأربعينيات من عمره عقد الصلح مع الحيثيين سنة ٢١ من حكمه، وتزوج من الأميرتين الحيثيتين بين سنتى ٣٤ إلى ٤٤، من حكمه، فى الأولى كان فى الخمسينيات، وفى الثانية كان فى منتصف الستينيات من عمره، وعندما جاوز السبعين كان قد رحل معظم من شهدوا سنوات حكمه الأولى.

وفى الثلاثين سنة الأخيرة من حكمه حكم مصر كإله متوج، وبكل مظاهر العظمة والجلال، وساوى نفسه بالآلهة المصرية، وكان رمسيس قد أخذ منذ العام الثلاثين من حكمه فى الاحتفال بالعيد الثلاثينى، والذى يسمى «حب سد» على حد تعبير المصريين، وهو عبارة عن إقامة شعائر يوبيلية كان من الشائع أن يحتفل الفرعون بها بعد ثلاثين عاماً من بداية حكمه أو من بداية اختياره لولاية العهد، ويقيم فيه مراسيم وطقوساً يشكر أربابه بها على ما وهبوه من طول العمر وطول الحكم، وكان يعتقد بأن الملك يستطيع عن طريق هذه الطقوس والمراسيم أن يجدد بأسه ويستزيد من القدرة على مواصلة الحكم. ولم يكن الفراعنة يلتزمون بفترة الثلاثين عاماً دائماً، إنما كانوا يتحينون لإقامة هذا العيد كل فرصة تهيأ لهم فيها نصر عظيم، أو خرجوا فيها من مأزق شديد، وربما أعادوه أكثر من مرة طالما توافر لهم امتداد الحكم وسعة الإمكانات، أما رمسيس الثانى فقد دأب وبدون أى مناسبة على تكرار إقامة هذا العيد، وكانت تجرى استعدادات ضخمة للإعلان عن الاحتفال به فى كل أنحاء مصر، ثم تقام احتفالات صاخبة كثيرة فى مناطق الشمال لم تشهد البلاد مثيلاً لها منذ زمن أمنحوتب الثالث الذى مرت عليه مائة عام.

وكان المفروض أن يحدث أن الفرعون بعد أن شاخ وكبرت سنه أن يهدأ ويستقر فى قصره وينأى بنفسه عن الصخب، خصوصاً مثل هذا الاحتفال الذى كان يضم أساليب سحرية ومجموعة إجراءات طقسية طويلة وبطيئة ومعقدة، بزعم أنها تهدف فى النهاية إلى تجديد شباب الملك، لكن رمسيس لم يستكن ولم يتراجع عن احتفالاته التى لم يكن لها أية مناسبة، حتى العام الأخير من حكمه.

فى السنة الثلاثين من حكمه احتفل بأول عيد ثلاثينى من سلسلة أعياده، ومراعاة للتقاليد تم الإعلان عنه والاحتفال به فى منف أولاً ثم نقلت الاحتفالات إلى عاصمته «بى رمسيس»، وفى كل مرة كان يعلن نبأ قرار الاحتفال اليوبيلى فى منف أولاً، وبعد ذلك يحمل النبأ إلى عواصم مصر لجنة برئاسة الأمير خعمواس، ومن أعضاء اللجنة وزير الجنوب، وقد ذكر خط سير هذه اللجنة فى

أكثر من مصدر فى معابد رمسيس، وقد تتابعت الاحتفالات بمعدل كل ثلاث سنوات مرة، واستمر الأمير يترأس اللجنة فى اليوبيلات الخمسة الأولى (بين سنتى ٣٠:٤٢ من حكم رمسيس)، لكنه اعتباراً من اليوبيل السادس (سنة ٤٥) تخلى عن هذه المهمة إلى وزير الجنوب مع غيره، ولم يمتد العمر بهذا الأمير ليشهد اليوبيلات الأخيرة للملك، لكن رمسيس استمر يحتفل بهذا العيد، وبعد السنة الستين من حكمه توالت الاحتفالات، وأصبحت تجرى سنوياً وشهدت هذه الفترة اليوبيلات الخمسة الأخيرة (١٠-١٤)، وبعد الاحتفال باليوبيل الرابع عشر فى بى رمسيس فى السنة السادسة والستين من الحكم فى صيف سنة (١٢١٤ق.م)، ربما يكون الملك قد انتقل فى الشتاء إلى منف أو إلى قصره فى «مى ور» بالفيوم، ومكث إلى الربيع التالى- سنة (١٢١٣ق.م) - وعاد إلى مقره الصيفى فى العاصمة، وفى الصيف ومع بداية السنة السابعة والستين من حكمه بدأت الاستعدادات للعيد اليوبيلى الخامس عشر، لكن الظروف شاءت ألا يتحقق ذلك، فقد جاءت النهاية المحتومة، لكن هذه النهاية لا نجد عنها شيئاً فى وثائق القصر الملكى، وتكشف مومياء الفرعون رمسيس الثانى عن شخص رياضى البنيان، رشيق ممشوق طويل، عريض المنكبين، فى ملامحه أنفة وشموخ، ولم تؤثر الشيخوخة فى تشويه هذه الملامح، أو القضاء على مظهره البطولى.

تلك كانت حياة رمسيس الثانى وصورته التى نستطيع أن نستخلص منها حيويته ونشاطه وتحركه فى أنحاء مملكته، وتمسكه بالمظاهر والطقوس وإقامة الأعياد والاحتفالات والبحث عن المناسبات لتمجيد ذاته والدعاية لنفسه مدفوعاً بحب العظمة والثقة الزائدة والإعجاب بالنفس وعشق الحياة حتى الرمق الأخير من حياته، ولم يكن هذا الرجل العنيد المتعجرف المغرور بذلك الشخص الذى يمكن أن يستكين أو يرضخ لتصرف موسى وقومه وخروجهم على إرادته أو يسمح بإقامتهم رغماً عنه فى الجزء الشمالى من مملكته فى كنعان واتخاذها وطناً لهم، لهذا ما أن وصله الخبر حتى اعتمل الغيظ فى قلبه وأرسل فى استدعاء جميع ضباطه وجنوده من أنحاء مصر، واستعد بكل مركبات الجيش ومعداته وأسلحته، واستقل مركبته وخرج بنفسه على رأس جيشه مطارداً موسى وقومه، آملاً أنه بهذه المأمورية السهلة سوف يستعيد ماضيه العسكرى وذكرى انتصاراته القديمة، كان واثقاً أن الأمر لا يعدو أن يكون نزهة يفرض بعدها إرادته على هؤلاء الشرذمة العزل من السلاح والعتاد، وإذا كان قد استعد لهم بكل هذا الجمع الهائل من جنوده وسلاحه، فذلك لأنه أراد أن ينتقم شر انتقام من موسى الذى قهر عظمته وتسبب فى إحراجه وأذل غروره وكسر صلفه أمام شعبه طيلة هذه الأعوام التى انقضت منذ أن حضر من مدين، وأن يشهد بنفسه نهايته هو وقومه ومعهم المصريون الذين اتبعوه وخرجوا معه يناصرونه على ملكهم، كان فرعون آسفاً على السنوات التى مرت دون أن يتخلص منهم، نادماً على استجابته للأصوات التى نصحته بمهادنة موسى والتريث على هذا الساحر الذى أصاب البلاد بالدمار، حتى وصل الأمر إلى أن يتجرأ عليه هؤلاء القوم ويستخفوا به، لقد تجمعت فى قلبه كل عوامل

الغيظ فأعد لهم كل وسائل الانتقام، وعقد عزمه أن يضع هذه المرة نهاية موسى وبنى إسرائيل وجميع المؤمنين بدعوته. وبالإضافة إلى العوامل النفسية التى داهمت فرعون وسببت غيظه وجعلت الدماء تغلى فى عروقه، فإنه لم يعدم الحيوية والنشاط الذى يمكنه من مطاردة موسى وقومه رغم سنوات عمره التى قاربت التسعين، وحسب اعتقاده والمحيطين به فإن الأمر لم يكن يزيد فى شىء على رحلة من رحلاته التى اعتادها بين مدن مملكته، وكان فرعون مصراً أن يشهد النهاية بنفسه، لكن شاء الله أن يجعلها نهايته ومعه جميع جنده.

وقد أوضح الله تعالى نظرة فرعون إلى موسى، والغيظ الذى اعتمل فى نفسه منهم، وحذره واستعداده التام لهم، كما أخبر- سبحانه - عن علم فرعون بوجود جمع آخر غير قوم موسى يؤازرونه، وفى ذلك يقول تعالى:

«فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾». [الشعراء].

■ ■ ■

الأدلة على إثبات فرعون الخروج



مومياء رمسيس الثانى - فرعون الخروج

والآن نقدم الأدلة وجميع المعلومات والقرائن التى توافرت واجتمعت على إثبات أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج الذى تحدثت عنه الرواية الدينية فى التوراة وفى القرآن.

وقد جمعنا أدلتنا من خلال الربط بين حقائق الرواية الدينية الثابتة والمؤكدة وبين المعلومات والأحداث التى قدمتها المصادر التاريخية وتزامنت أو اتفقت مع القصة الدينية أو فسرت أحداثها.

ويجدر أن نؤكد أن هذه الأدلة سوف تخضع:

أولا: لحيز النطاق الزمنى الذى حصرنا داخله وقائع هذا البحث والذى يبدأ من منتصف القرن السابع عشر ق.م، خلال حكم الهكسوس، ويمتد تنازلياً إلى القرن (العاشر ق.م)، وتحديداً العام ٩٣٠ تاريخ وفاة الملك سليمان، وانقسام المملكة الموحدة إلى دولتى إسرائيل ويهوذا.

ونعلم أنه يجب أن ينطوى داخل هذا النطاق الزمنى جميع المراحل الآتية من تاريخ بنى

إسرائيل:

- حياة بنى إسرائيل فى مصر منذ الدخول فى عهد يوسف وحتى الخروج مع موسى.
- قضاء فترة التيه أربعين سنة.
- عصر يشوع فى فلسطين.
- عصر حكم قضاة بنى إسرائيل.
- عصر المملكة الموحَّدة (طالوت - داود - سليمان).

ثانيا: سوف تخضع أيضاً أدلتنا للركائز الأساسية السابق تحديدها كثوابت تحكم هذا البحث، ونذكر القارئ أنها:

١- حقيقة دخول بنى إسرائيل مصر وإقامتهم بها حتى الخروج مع موسى.

٢-- حقيقة غرق فرعون وإبادة جميع الجيش المصرى.

٣- حقيقة قضاء فترة التيه أربعين سنة.

٤- حقيقة دخول بنى إسرائيل إلى فلسطين بعد قضاء سنوات التيه.

٥- الحقبة التاريخية لوجود وانتهاء الحكم المصرى لفلسطين، والذى امتد من القرن الخامس عشر ق.م فى عهد الأسرة الثامنة عشرة حتى القرن (الثانى عشر ق.م) فى الفترة الأولى من حكم الأسرة العشرين.

ونعرض أدلتنا على النحو التالى:

أولاً: الحساب الزمنى للمراحل التاريخية

فى العام ٩٢٥ق.م سجلت نصوص شاشانق الأول - مؤسس الأسرة الثانية والعشرين المصرية - على آثار عهده انتصاره فى فلسطين، وقدمت سجلاً كاملاً بأسماء البلاد التى خضعت له، وعن ذات هذه الواقعة قصت علينا رواية التوراة تلك الحملة العسكرية مع إيضاح زمنى ومنسوبة تحديداً إلى قائدها المصرى، «وفى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شىء وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان». (سفر الملوك الأول - الإصحاح الرابع عشر: ٢٥، ٢٦).

وقد اتخذنا من هذا الحدث التاريخى نقطة ارتكاز لتحديد الزمن التاريخى لوقائع الرواية الدينية، وترجع أهميته إلى اعتباره أول لقاء تحقق - حتى الآن - يجمع بين أحداث الرواية الدينية وبين الأحداث التاريخية، فطالما حاول الأثريون وتتبع المؤرخون - بشغف شديد - أن يعثروا على آثار أو يجدوا فى المصادر التاريخية المكتشفة ما يؤيد حدوث وقائع القصة الدينية لتاريخ بنى إسرائيل؛ خصوصاً فى بدايتها الأولى عندما صدر القرار الملكى بتعيين يوسف وزيراً على خزائن مصر، ثم فى مناطق استقرار عائلته فى شرق الدلتا وخلال رحلة خروجهم

وما تلاها فى سنوات التيه، ثم أحداث استقرارهم فى فلسطين، وقد حاولت البعثات الأثرية جاهدة فى مصر وفلسطين منذ القرن التاسع عشر، وأعملت حفائرها فى المواقع التى كانت يوماً مسرحاً للأحداث، دون الوصول إلى تحديد يقينى قاطع على أحداث الرواية الدينية أو تزامنها مع الأحداث المستمدة من المصادر التاريخية.

ولهذا فإننا إذ نتخذ من حملة شاشانق عام (٩٢٥ق.م) ركيزة توافرت من المصادر التاريخية المصرية، وأيضاً من قصة التوراة، فذلك لأن هذا الحدث يؤسس ويحقق أول لقاء يكشف عن التزامن التاريخى - المفقود - بين تاريخ بنى إسرائيل وتواريخ ممالك العالم القديم المعاصرة، وإذا كانت المصادر قد كشفت عن تحقق التزامن بين تلك النقطة من تاريخ مصر القديم مع الوقت المعاصر لها من ضمن مراحل تاريخ بنى إسرائيل بعد الخروج من مصر، فإن هذا الحدث المشترك كان البداية، ثم توالت بعد هذا اللقاء التاريخى أحداث مشتركة بين تاريخ إسرائيل وأخرى معاصرة من تواريخ الممالك الآشورية والبابلية والعصر المتأخر لحكم الأسرات المصرية، سبق تفصيلها فى عرض تاريخ بنى إسرائيل، ونذكر بإيجاز الآن تسلسل أهمها فى الآتى:

● سقوط السامرة عاصمة إسرائيل فى العام (٧٢٢/٧٢١ ق.م)، بعد أسر ملكها هوشع فى عهد الملك الآشورى شالمناصر الخامس، وسبى آلاف الإسرائيليين وترحيلهم إلى الشمال الأقصى لبلاد النهرين. وكانت هذه الأحداث معاصرة للملك أوسركون الرابع آخر ملوك الأسرة الـ ٢٢ المصرية.

● التحالف بين مصر فى عهد الملك شبتاكا بن بعنخى فى الأسرة ٢٣، وبين حزقيا ملك يهوذا ضد الآشوريين.

● سجلت حوليات سنخريب الملك الآشورى الذى تولى الحكم عام (٧٠٤ق.م)، أنه استولى على جميع مدن يهوذا وسجن حزقيا فى أورشليم.

● نخاو الثانى، أحد ملوك الأسرة الـ ٢٦ المصرية يوجه حملة للاستيلاء على فلسطين عام (٦٠٨ق.م)، وألحق هزيمة بيوشيا ملك يهوذا وقتله، واقتاد جنوده يهو أحاز بن يوشيا أسيراً إلى مصر ومات فيها.

● نخاو الملك المصرى يعين يهويا قيم بن يوشيا ملكاً ليهوذا بعد أن قبل الخضوع ودفع الجزية لمصر.

● نبوخذ نصر الثانى، ملك بابل الذى ارتقى العرش سنة (٦٠٥ق.م)، يهاجم دولة يهوذا فى عهد ملكها يهويا كين بن يهويا، وتستسلم يهوذا دون مقاومة فى مارس سنة (٥٩٧ق.م)، ويتم نفى عدد كبير من رجال الحكم والدولة مع ملكهم إلى بابل (السبى البابلى الأولى).

● نبوخذ نصر قبل أن يعود إلى بابل يعين صدقيا ملكاً على أورشليم خاضعاً للدولة

البابلية، لكنه يتمرد عليها بتحريض من مصر، ويتحالف مع الملك المصرى «واح إب رع» (إبريس عند الإغريق) من الأسرة ٢٦ المصرية، فتعود جيوش نبوخذ نصر وتسقط أورشليم نهائياً عام (٥٨٧ق.م)، ويقبض على صدقيا قرب أريحا، وهو يحاول الفرار، ويتم اقتياده إلى مقر قيادة نبوخذ نصر فى «ربلة» على نهر العاصى، وأجبر على مشاهدة تنفيذ الإعدام فى أولاده، وبعد هذا المشهد المؤلم فقأ نبوخذ نصر عينه بخنجره، ثم اقتيد مسلسلاً فى الأغلال ليموت فى بابل. ونهب الغزاة أورشليم نهباً، وأشعلوا فيها النيران وأحرقوا قصر الملك وقصور المدينة ومعبد سليمان بكل محتوياته بما فى ذلك التابوت الذى يحفظ توراة موسى وكتب إسرائيل المقدسة، وسبى آلافاً من الإسرائيليين مرة أخرى إلى بابل (السبى البابلى الثانى).

● قام عدد من قادة جيش يهوذا السابقين يتزعمهم شخص من النسل الملكى السابق بقتل الحاكم الذى ينتمى إلى أهل يهوذا وأقامه الملك البابلى على السكان المزارعين والفقراء من أهل يهوذا الذين أبقى عليهم فى موطنهم، وقتلوا معه أعوانه من اليهود والبابليين الذين وجدوا معه، وبعد هذا الحادث خافت هذه المجموعة من انتقام البابليين، فقاموا ومعهم عدد كبير من اليهود الذين بقوا فى فلسطين بالفرار، ولجأوا إلى مصر لتحميهم، ونشأت منهم جالية يهودية كبيرة فى مصر كان أهم مراكزها جزيرة إلفنتين فى أسوان، وللأسف فإنهم رغم استقبال مصر وحمايتها لهم فقد رحبوا بملك الفرس قمبيز الثانى عندما جاء لاحتلال مصر، واستمر تأييدهم وتعاونهم مع خلفائه دارا الأول ودارا الثانى وقوادهم فى مصر، الأمر الذى استفز التيارات الوطنية المصرية فدمرت معبد الطائفة اليهودية في إلفنتين أثناء حكم دارا الثانى، وبعد طرد الفرس فى عهد الملك آمون حر، مؤسس الأسرة الـ ٢٨ رفق المصريون بمن بقى من اليهود وتركوهم يعيشون حيث كانوا، وأغلب هذه المعلومات مستمدة من أوراق الجالية اليهودية التى عاشت فى إلفنتين.

وعودة إلى العام (٩٢٥ق.م) تاريخ حملة شاشانق الأول إلى فلسطين الذى تزامن مع السنة الخامسة من حكم رحبعام بن سليمان لمملكة يهوذا ويربعام الأول لمملكة إسرائيل، فإنه تجدر هنا الإشارة إلى أن تواريخ النصف الأول من الفترة المتأخرة (١٠٦٩ - ٦٥٦ق.م)، مأخوذة عن كيتشن - العصر الوسيط الثالث فى مصر، وهى أوثق التواريخ فيما عدا حالتين أو ثلاث لا تتعدى فيها نسبة الخطأ فى حدود من (٥-١٠) سنوات على أكثر تقدير، وحالياً تعتبر هذه الفترة التاريخية محل اتفاق بين الباحثين فى التاريخ المصرى تبعاً لتواريخ بابلية مع شواهد مقارنة أخرى.

وعلى هذا الاعتبار تكون حملة شاشانق الأول قد جاءت بعد خمس سنوات من انقسام مملكة إسرائيل الموحدة إلى دولتين عقب وفاة نبى الله الملك سليمان، ووفقاً لذلك الحساب الزمنى يكون العام (٩٣٠ق.م) هو تاريخ وفاة الملك سليمان وانتهاء فترة المملكة الموحدة، لهذا

اعتبرنا هذا العام - المعتمدة صحته من اتفاق المصدرين الدينى والتاريخى - هو نهاية النطاق الزمنى فى موضوع البحث واستناداً إلى صحته واتفاق الباحثين على تواريخ تلك الفترة من تاريخ مصر، فإنه يصبح من الممكن أن نرتكز عليه أيضاً فى تحديد تاريخ خروج بنى إسرائيل، بإجراء الحساب الزمنى للمراحل التاريخية التالية لرحلة الخروج، وصولاً إلى وفاة الملك سليمان، وذلك بعرض جميع الافتراضات وإخضاعها للبحث والتحليل التاريخى المنطقى على ضوء الثوابت الدينية والحقبة التاريخية للحكم المصرى فى فلسطين والمعتمدين كركائز أساسية لموضوع البحث، وجميع هذه المراحل تحقق حدوثها من المصادر الدينية، والتقت المصادر الدينية والتاريخية على تقدير نهايتها فى العام (٩٣٠ق.م)، وهى كالتالى:

١- فترة التيه ومدتها ٤٠ عاماً.

٢- عصر يشوع بن نون ويقدر لها ٢٧ عاماً، وفى بعض الآراء ٤٠ عاماً.

٣- حكم القضاة ثلاثة قرون ونصف القرن تقريباً فى رواية التوراة، وقرنان ونصف القرن فى بعض الآراء، وقرابة القرن ونصف القرن فى أرجح الآراء.

٤- شاؤل (طالوت) ٢٠ سنة.

٥- داود ٤٠ سنة فى التوراة.

٦- سليمان ٣٨ سنة (٤٠ سنة فى التوراة، وتوفى سنة ٩٣٠ق.م)

الحساب وفقاً لرواية التوراة والتقدير المرتفع لعصر القضاة

تذكر التوراة: «وكان فى سنة الأربعمائة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل فى شهر زيو، وهو الشهر الثانى أنه بنى البيت للرب». (الملوك الأول - الإصحاح السادس : الآية الأولى).

ووفقاً لذلك التقدير، ولما كانت وفاة سليمان - عليه السلام - فى العام (٩٣٠ق.م)، وكانت مدة حكمه وفقاً لرواية التوراة ٤٠ عاماً، فإن السنة الرابعة من حكمه تكون فى العام (٩٦٦ق.م)، وبإضافة ٤٨٠ سنة سابقة على هذا التاريخ يكون الخروج فى العام (١٤٤٦ ق.م)، وهو ما يوافق العام الحادى عشر من انفراد الملك تحوتمس الثالث بالحكم فى الأسرة الثامنة عشرة، وهذا التقدير مستبعد تماماً؛ لخروجه على الثوابت الدينية والتاريخية، وذلك على النحو التالى:

١- أن الخروج قد أعقبه حتماً موت أحد الفراعين غرقاً فكان نهاية حكم ملك وبداية حكم ملك جديد، وقد كانت نهاية فترة حكم تحوتمس الثالث فى العام (١٤٢٥ق.م)، أى بعد هذا التاريخ الذى يضعه تقدير التوراة للخروج بأكثر من عشرين عاماً.

٢- أن هذا التاريخ يعنى أن دخول بنى إسرائيل إلى فلسطين الذى يحدث بعد أربعين عاماً من تاريخ الخروج يكون وفقاً لهذا الافتراض فى عهد البطل المغوار الفرعون أمنحرتب الثانى

الذى ورث عن أبيه الإمبراطورية الممتدة فى فلسطين وسوريا وخرج إليها فى حملات عسكرية ناقلاً إلى مصر عشرات الألوف من الأسرى، وهو الأمر الذى يمثل استحالة تاريخية سواء أكان دخول بنى إسرائيل إلى فلسطين فى هذا التاريخ أم بعد ذلك خلال حكم الأسرة الـ ١٩، فلم تسجل حروب سيتى الأول ورمسيس الثانى وجود أى كيان للدولة العبرية فى فلسطين، والاكتشافات الأثرية فى مصر وفلسطين - كما أوضحنا سابقاً - تؤكد استمرار السيادة المصرية على فلسطين حتى انتهاء حروب رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين فى فلسطين التى استمرت حتى العام (١١٧٨ق.م) بما يقطع بعدم دخول الإسرائيليين إلى فلسطين حتى ذلك العام من حكم رمسيس الثالث.

٣- أن التوراة ذاتها تذكر أيضاً أن إقامة بنى إسرائيل استمرت فى مصر ٤٣٠ سنة قبل الخروج (سفر الخروج - ١٢ : ٤٠)، وعلى هذا فإنه وفقاً لتقدير بناء سليمان لبيت الرب بعد ٤٨٠ سنة من الخروج تكون مجموع السنوات ٩١٠ سنين، وهذا الافتراض يجعل دخول بنى إسرائيل مصر فى عصر الأسرة الثانية عشرة، وبالتحديد فى عهد الملك سنوسرت الثالث (١٨٧٨-١٨٤٢ق.م)، وهو تاريخ سابق على دخول الهكسوس لمصر بنحو قرنين من الزمان، وهذا الافتراض يتناقض تماماً مع الأحداث التاريخية التى مرت بها المنطقة فى العصور التالية، وأيضاً مع النصوص الأخرى للتوراة التى ربطت بين وجود الإسرائيليين فى مصر، وبين تسخيرهم فى بناء مدينتى فيثوم ورعمسيس، بل إنها جعلت رحيلهم من مصر يبدأ من مدينة رعمسيس، وهذه لم تنشأ إلا فى عصر رمسيس الثانى فى الأسرة الـ١٩، والذى كان بداية حكمه فى العام (١٢٧٩ق.م.)، أى تالياً للعام المفترض للدخول وفقاً لحساب التوراة بنحو ستمائة عام، وهذا لا يتفق مع رواية التوراة التى تقول إن إقامتهم استمرت ٤٣٠ سنة، وأيضاً فإن التواريخ المرتفعة لتقدير عصر القضاة سواء التقدير الذى يجعلها قرنين ونصف القرن أم قرنين من الزمان، فإنه يجعل الخروج فى فترة مستحيلة تاريخياً، سواء فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة أم بداية الأسرة التاسعة عشرة، وذلك للأسباب السابقة.

ويمكن تفسير هذا الخطأ الذى وقعت فيه التوراة أن الكهنة الذين دونوا نصوصها فى عصور متأخرة بعد ضياع نسختها الأصلية أجروا حساب مدة حكم كل من قضاة بنى إسرائيل على أنها سنوات متتالية، وذلك لم يكن صحيحاً؛ لأنه غالباً ما كانت سلطتهم محدودة وأشبه بسلطة زعماء النظام البدوى، ولم يستطع أى واحد منهم أن يبسط سلطانه على جميع بنى إسرائيل فكل واحد منهم كان يتسلم قيادة مجموعة واحدة، وقد تزامن منهم أكثر من واحد فى الوقت نفسه.

الحساب التاريخى على أقل تقدير محتمل لعصر القضاة:

وإذا أجرينا الحساب على أقل تقدير محتمل فإنه يكون كالتالى:

١- فترة التيه ٤٠ سنة.

٢- عصر يشوع بن نون ٢٧ سنة.

٣- عصر القضاة ١٥٠سنة.

٤- شاؤل (طالوت) ٢٠ سنة.

٥- داود ٤٠ سنة.

٦- سليمان ٣٨ سنة.

فيكون مجموع السنوات المقدرة ٣١٥ سنة، ولما كانت وفاة سليمان - عليه السلام - فى العام (٩٣٠ق.م)، فإذا ما رجعنا بالسنوات المقدرة السابقة إلى العام الذى يوافقها قبل الميلاد:

٩٣٠ق.م + ٣١٥ سنة = ١٢٤٥ق.م.

أى نكون فى عصر الفرعون رمسيس الثانى (١٢٧٩ إلى ١٢١٣ق.م) وقبل انتهاء حكمه بنحو ٣٢ سنة.

ولأنه لزوماً وفقاً للحقيقة الدينية الثابتة من موت فرعون غرقاً وانتهاء حكمه وبداية حكم ملك جديد، فإنه يستتبع ذلك أن يكون خروج بنى إسرائيل من مصر فى نهاية حكم رمسيس الثانى عام (١٢١٣ ق.م)، وبذلك تبلغ مدة عصر قضاة بنى إسرائيل ١١٨ عاماً، ويكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج.

وتبعاً لهذه النتيجة يمكن أن نضع على وجه قريب جداً من الدقة تاريخ تتابع المراحل الإسرائيلية منذ الخروج سنة (١٢١٣ ق.م) حتى وفاة سليمان سنة (٩٣٠ق.م)، مع ملاحظة أن أى احتمالات للاختلاف الطفيف داخل الفترة مجتمعة التى تبلغ ٢٨٣ عاماً فإنها - وفقاً لهذا الدليل - لن تمس نقطتى البداية وهو تاريخ الخروج والنهاية، وهو وفاة الملك سليمان وانتهاء عصر المملكة الموحدة، ويكون تقدير تواريخ الأحداث كالتالى:

١- خروج بنى إسرائيل من مصر فى نهاية حكم الفرعون رمسيس الثانى سنة (١٢١٣ق.م).

٢- فترة التيه أربعين سنة من (١٢١٣-١١٧٣ق.م).

٣- دخول بنى إسرائيل فلسطين وحكم يشوع بن نون لمدة ٢٧ عاماً من (١١٧٣-١١٤٦ق.م).

٤- عصر القضاة ١١٨ عاماً من (١١٤٦-١٠٢٨ق.م).

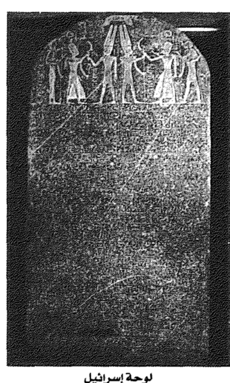
٥- حكم شاؤل (طالوت) ٢٠ عاماً من (١٠٢٨-١٠٠٨ق.م).

٦- حكم داود ٤٠ عاماً من (١٠٠٨-٩٦٨ق.م).

٧- حكم سليمان ٣٨ عاماً من (٩٦٨-٩٣٠ق.م).

لكن يجب أن نلاحظ أن هذا الدليل وإن كان يرتب استحالة أى تقدير أعلى لتاريخ الخروج سابق على حكم رمسيس الثانى - كما سلف بيانه - إلا أنه لا يحول دون اعتقاد البعض، طالما أن الاختلاف قائم فى هذا الدليل على تقدير المدة الزمنية لعصر القضاة، فليس ثمة ما يمنع

أن تكون هذه المدة أقل بنحو عشر سنوات أخرى، ونصل بذلك إلى نهاية عهد مرنبتاح، خصوصاً أن آراء كثيرة - لأسباب سبق إيضاحها - تجعله فرعون الخروج، إلا أن هذا الافتراض سوف ترد عليه أدلتنا التالية، والتى تؤكد أن الإسرائيليين خرجوا من مصر قبل أن يحكم مرنبتاح.


لوحة إسرائيل

ثانياً: لوحة إسرائيل

هذه اللوحة واحدة من المصادر التاريخية المهمة، وتحمل الدليل على أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر قبل أن يحكم مرنبتاح بن رمسيس الثانى، وسوف يقودنا هذا التزاماً بثوابت البحث إلى أن يكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج، فهذه اللوحة تسجل مع عدة مصادر أخرى كفاح وحروب مرنبتاح من أجل الحفاظ على استقلال مصر. وإذا كان شأن مصر قد انتهى فى قصة موسى وفرعون فى الرواية الدينية بعد غرق فرعون وجيشه، واستمرت أحداث الرحلة شرقاً مع موسى وقومه فى صحراء سيناء، فإن هذه اللوحة النادرة تستكمل أحداث قصة مصر بعد رحيل موسى، وتقدم وصفاً للحالة السياسية التى دخلت إليها البلاد وترتبت على إبادة جيش فرعون وانهيار المؤسسة العسكرية المصرية.

وبداية سوف نشير بإيجاز إلى مصادر مرنبتاح الأخرى لأهمية ذلك فى المقارنة بينها وبين مصدرنا الأساسى، ثم نتحدث بالتفصيل عن لوحة إسرائيل، مع تحليل الأحداث والمعلومات المدونة واستخلاص النتائج المنطقية النهائية عن حقيقة حروب مرنبتاح، حسبما سوف يتضح من هذا العرض، وهذه المصادر هى:

١- نقوش الكرنك الكبيرة:

من أطول الوثائق المحفوظة على جدران المعابد المصرية، كانت تشمل ثمانين سطراً، تعرضت للتشويه فى بدايتها وبعض أجزائها، نقشت على داخل الجدار الشرقى من جهة الغرب الذى يربط معبد الكرنك الأصلى بالبوابة السابعة، والنص مؤرخ بالعام الخامس، الشهر الثالث من فصل الصيف، اليوم الثالث، ويسجل وصفاً تاماً ودقيقاً لانتصار مرنبتاح على الليبيين وحلفائهم من أقوام البحر، وطول النص يدل على أنه كان الأصل الذى نسخت منه النسخ الأخرى.

٢- لوحة عمدا:

مؤرخة بالعام الرابع، الشهر الثانى من فصل الصيف اليوم الأول، وتحتوى على ١٣ سطراً،

وتتحدث عن هجوم الليبيين وشعوب البحر على الحدود الغربية، والتمرد فى الجنوب. وصف مرنبتاح على هذه اللوحة بلقب «قاهر جازر» (إحدى المدن المهمة فى فلسطين)، وأنه «الأسد ضد خارو» (جنوب سوريا وجزء من فلسطين).

٣- لوحة أتريب بالمتحف المصرى:

مؤرخة بالعام الخامس، الشهر الثالث من الفصل الثالث (الصيف)، اليوم الثالث، عثر عليها عام ١٨٨٢ فى الكوم الأحمر التابع لقرية «شبرا زنجى» شرق منوف، من الجرانيت الوردى، كسرت وضاع جزء طولى منها، يبلغ ارتفاعها ٣,٥٠ متر، منقوشة فى ٤١ سطراً على الوجهين، تركت بعد اكتشافها فى مكانها نحو عشر سنوات، وأثناء نقلها إلى المتحف المصرى بطريق ترعة الباجورية غرقت وبقيت فى قاع الترعة مدة خمسة وثلاثين عاماً، ورفعت بعدها ووصلت إلى المتحف المصرى فى بداية عام ١٩٢٧م، تسجل تفاصيل انتصار مرنبتاح على الليبيين وأقوام البحر.

٤- عمود القاهرة:

جزء من عمود من الجرانيت، محفوظ بمتحف القاهرة مؤرخ بالعام الخامس، الشهر الثانى من فصل الصيف «الشهر العاشر»، وعليه بقايا نص مهشم، يسجل بداية معركة مرنبتاح مع ليبيا.

٥- منظر الواجهة الداخلية للجدار الشرقى لفناء الخبيئة بالكرنك:

مؤرخ بالعام الخامس، الشهر الثالث، ويصور مرنبتاح واقفاً يضرب الأعداء ويقدم الأسرى لآمون.

٦- عمود المطرية:

مؤرخ بالعام الخامس، الشهر الثانى من فصل الصيف عليه نص من أربعة أسطر.

٧- نقش على جدران معبد العمارة بالقرب من عمدا:

مؤرخ بالعام السادس، الشهر الأول من فصل الفيضان، اليوم الأول، يتحدث عن انتصارات مرنبتاح على الليبيين فى العام الخامس، الشهر الثالث من فصل الصيف اليوم الأول، ويتضمن ثمانية أسطر.

٨- برديتا (أنسطاسى٢، ٣):

الأولى تشير إلى انتصارات الملك دون تفاصيل، والثانية تشير إلى البدو سكان الجبال.

ثم نأتى إلى مصدرنا الأساسى، وأحد أدلتنا القوية على تحديد فرعون الخروج، وهى لوحة إسرائيل، عثر عليها الأثرى فليندرز بترى، وتوجد حالياً بالمتحف المصرى، وهى لوحة تذكارية من الجرانيت الأسود طولها ٢,٢٥ متر، وتقع فى ثمانية وعشرين سطراً، مؤرخة بالعام الخامس من حكم مرنبتاح، كانت فى الأصل لوحة للملك أمنحوتب الثالث أقامها فى معبده الجنائزى القريب من معبد مرنبتاح فى البر الغربى فى طيبة، وسجل على وجهها الأمامى نصاً عن أعماله المعمارية فى معابد طيبة، ثم سلب مرنبتاح هذه اللوحة وسجل على ظهرها نشاطه

الحربى، ووضعها فى معبده الجنائزى. ولم يحاول الكاتب الذى نقشها أن يمحو أو يطمس النص الأصلى لأمنحوتب الثالث، ولم تكن هذه اللوحة هى الشىء الوحيد الذى سلبه مرنبتاح، فقد سلب أحجاراً متعددة من معبد أمنحوتب الثالث لتكملة معبده الجنائزى، ونص مرنبتاح؛ عبارة عن قصيدة أدبية تمجد بلغة شعرية انتصاراته التى أحرزها ضد الليبيين على الحدود الغربية، وقد أسهب الشاعر فى وصف حالة مصر، وأظهر خطر الليبيين وهجومهم على البلاد ثم استغرق فى وصف هزيمة الأعداء وانتصارات الملك عليهم مستخدماً الاستعارات والتشبيهات والصور البديعة فى جمال أدبى يدعو إلى الإعجاب، وفى نهاية القصيدة وفى رسائل «تلغرافية» سريعة دون أى وصف أو تفصيل سجل الكاتب انتصارات الملك ضد بعض المدن الفلسطينية، وجاء من بينها شعب إسرائيل، وكان هذا هو أهم ما لفت نظر المؤرخين فى هذه الأنشودة، فقد كانت تلك المرة الأولى التى يأتى فيها اسم إسرائيل ليس فى الآثار المصرية فحسب، بل فى التاريخ القديم، لهذا سميت لوحة إسرائيل، وما زالت تعتبر المثل الوحيد الذى عثر عليه حتى الآن فى الآثار المصرية، ولم يذكروا بعد ذلك على مصادر تاريخية إلا بعد انقضاء ثلاثة قرون ونصف القرن على عصر مرنبتاح، وذلك فى الكتابات المسمارية على لوحة يرجع تاريخها إلى ما بعد (٨٤٩ق.م) من عهد «ميشا» ملك موآب حينما قيل إنه حارب مع إسرائيل المملكة.

تفصيل النقش

تحدد اللوحة الزمن والعصر الملكى «السنة الخامسة، الشهر الثالث من الفصل الثالث (الصيف)، اليوم الثالث من عهد حور، الثور القوى، المسرور فى الحق، ملك مصر العليا والسفلى، با إن رع، مرى آمون، ابن رع، مرنبتاح، حوتب حر ماعت».

ثم تصف القصيدة مرنبتاح بأنه «صاحب الانتصارات فى جميع أرجاء الأرض، وكل الأراضى تشهد بذلك، وشاهدت جمال أعمال فروسيته، الثور القوى الذى يذبح أعداءه، جميل الطلعة فى ميدان الشجاعة حينما يهاجم، الشمس التى بددت الغيوم التى كانت تخيم على مصر، الذى جعل تامرى (الأرض المحبوبة ويقصد مصر) تشاهد أشعة الشمس، الذى أزاح جبلاً من النحاس كان فوق ظهور الشعب، ومنح من كانوا فى الأسر الهواء (فأعطى بذلك نسمة الحياة للشعب الذى كبت وظلم) وغسل قلب «حت كابتاح» (منف) من أعدائها (يرى البعض أن القصد أنه خلصها من أعدائها)، وجعل الإله «بتاح تانن» يبتهج، ويشمت بخصومه، وهو الذى فتح أبواب منف بعد أن كانت قد أغلقت وجعل معابدها تتسلم ممتلكاتها، وبعث الملك القوة فى قلوب مئات الألوف، ومنحهم نفس الحياة».

وبعد هذا الوصف تتحدث القصيدة عن انتصار الملك على الليبيين وتصف هزيمة الأعداء، فتذكر «أن بلاد التمحو» (من القبائل الليبية) كسرت فى مدة حياته، وأنه أدخل الرعب أبد

الدهر فى قلب «مشوش» (من قبائل ليبيا) وجعل «الليبيين» الذين وطئوا أرض مصر ينكصون على أعقابهم، والخوف العظيم فى قلوبهم من مصر، فتوقف زحفهم، ولم تعد أقدامهم تقوى على الوقوف فولوا هاربين. والمحاربون منهم بالسهام ألقوا أقواسهم، وقلبُ المسرعين أعياه المشى، وفكوا قرب مائهم وألقوا بها على الأرض، وحقائبهم مزقت وألقوا بها (صور جمالية فى القصيدة للتعبير عن هروب الأعداء). ورئيس الليبيين الخسيس، المهزوم هرب فى جنح الظلام وحيداً والريشة (علامة السلطان عند الليبيين) ليست فوق رأسه وقدماه بدون حذاء، وقبض على أزواجه أمام عينيه، ومأكولات وجُبته قد استولى عليها، ولم يكن لديه ماء فى قربته ليحفظه حياً، وبدت وجوه إخوانه متوحشة تريد قتله، وقد تحارب ضباطه فيما بينهم وحرقت خيامهم وصارت رماداً، وطعامه كله صار طعاماً للجنود، وقد وصل إلى بلاده محزوناً، وكل فرد تخلف فى أرضه كان غاضباً.. الذى عاقبه القدر هو الذى يحمل الريشة الحقيرة، وتتحدث كل مدينة عنه بعد أن صار تحت سلطان كل آلهة منف، ورب مصر قد لعن اسمه وأصبح «مر يى» (اسم رئيس ليبيا) لعنة منف تتناقلها الأجيال إلى الأبد، وابن رع محبوب آمون مرنبتاح منشرحاً بالصدق بعد أن أصبح أسطورة الليبيين ليتحدث بها جيل عن جيل ويذكروا انتصاراته، ويقول كل شيخ لابنه: واآسفاه على «ليبيا» لقد أصبح أهلها لا يعيشون بحالتهم الطيبة يمرحون فى الحقول، ففى يوم واحد قضى على تحركهم، وفى عام واحد قضى على التحنو، وقد حوّل الإله «سوتخ» (اسم للإله ست فى مظهره الحربى) ظهره عن رئيسهم وخربت مساكنهم بسلطانه وأنه لحسن أن يخبئ الإنسان نفسه، ففى الكهف سلامته، إنه رب مصر العظيم والقوة والشجاعة متاع له، فمن يجسر على الحرب الآن وهو يعلم أين يخطو قدمه، إن من ينتظر هجومه لغبى أحمق، ومن يتعد على حدوده لا يعلم ما يخبئه له الغد».

وأيضاً من الوصف فى عبارات النص: «ويقول الناس منذ زمن الآلهة: إن مصر هى الابنة الوحيدة لرع، وابنه هو الذى يجلس على عرش «شو» ولن يشرع أحد فى التعدى على سكانها، وعين كل إله سترقب كل من ينهبها».

وأيضاً «مريى الخبيث الفعل، ولعنة كل إله فى منف هو الذى قد حوكم فى «عين شمس» ووجده التاسوع مجرماً».

ومن العبارات المهمة فى الاستدلال فى وصف النص، «وقد قال رب العالمين: أعط السيف ابنى المستقيم القلب، الشفيق مرنبتاح محبوب آمون، الذى عنى بمنف ودافع عن عين شمس، وفتح البلاد التى أغلقت ليطلق سراح الجم الغفير من المعتقلين فى كل إقليم، وليتمكن من تقديم قرابين للمعابد، وليجعل البخور يدخل أمام الآلهة، وليتمكن من السماح للعظماء ليحفظوا ممتلكاتهم، ولصغار القوم ليعودوا إلى مدنهم».

وأيضاً فى ذات الإطار تضيف القصيدة «وهذا ما يقوله أرباب عين شمس، خاصاً بابنهم

مرنبتاح محبوب آمون، سيكون له عمر كرع ليدافع عن الضعيف أمام كل أرض أجنبية، وجعل مصر فوق.. للذى نصبه ليكون ممثله الدائم ليتمكن من تقوية سكانها، انظر إن الإنسان يعيش فى أمان فى عصر (الملك) الشجاع، ونفس الحياة يأتى من يد الواحد القوى، والثروة تتدفق على الرجل الصالح، ولن يمتع مجرم بغنيمته، والثروة التى يحرزها الإنسان عن طريق غير مشروع تقع فى يد غيره لا فى يد أطفاله».

ونختار أيضاً من عبارات القصيدة «حينما أتى التعس الساقط «مريى» الليبى ليغزو أسوار تانن (يقصد منف مدينة الإله بتاح تانن) الذى جعل ابنه الملك مرنبتاح يعتلى عرشه عندئذ قال بتاح عن خاسئ ليبيا: لتنقلب كل ذنوبه جميعاً على رأسه، وليسلم إلى يد بتاح ليجعله يتقيأ ما ابتلعه كالتمساح».

وفى وصف فرح مصر تقول القصيدة «أشرق السرور العظيم على مصر، وامتدت الأفراح فى قرى تامرى، وتحدث الناس عن الانتصارات التى أحرزها مرنبتاح على التحنو (الليبيين)، ما أعظم حبهم للحاكم الظافر، وما أكثر تعظيمهم له بين الآلهة، ما أسعده حظاً رب القيادة، إنه لحسن أن يجلس الإنسان ويتسامر والناس تسير فى حرية على الطريق بدون أى خوف فى قلوبهم».

وتسترسل القصيدة فى تقديم صور أدبية للتدليل على حالة الأمن والسلام التى أصبحت تسود البلاد، فتصف «قد تركت المعاقل وشأنها، وأصبحت الآبار مفتحة، ومسالكها سهلة، ومعاقل الحوائط أصبحت هادئة، ولا يوقظ حراسها إلا الشمس، وجنود «المازوى» ينامون راقدون بلا حركة، أما «النياو»، و«التكتن» فإنهم يطوفون بالحقول على حسب رغبتهم، وماشية الحقول قد تركت تذهب جائلة بدون راع، وتعبر ماء النهر، وليس هناك نداء لليل: قف قف بلغة الأجانب، والناس يروحون ويغدون مغنين، وليس هناك صياح قوم يتوجعون، والمدن أصبحت مرة أخرى معمورة، وذلك الذى زرع غلة سيأكل منها. لقد وجهه رع إلى مصر ثانية، وقد ولد مقدراً له حمايتها. هو الملك مرنبتاح.

وانبطح الرؤساء أرضاً يقولون السلام لم يعد يرفع واحد رأسه من بين قبائل البدو الأقواس التسعة ـ(جيران مصر المعادون)، وهدمت بلاد التحنو».

وقبل أن تضع القصيدة نهايتها نجد الكاتب يتجه بها فجأة إلى آسيا شرق مصر، منهياً الوصف التفصيلى للكفاح والجرأة والوضوح فى عرض صور الانتصار، وقال فى رسائل سريعة مختصرة استعار عباراتها من التراث الحربى المصرى:

«بلاد خاتى (الحيثيون) أصبحت مسالمة.

وكنعان قد استلبت فى قسوة.

وأزيلت عسقلان.

واستولى على جازر.

وأصبحت «ينو عام» كأن لم يكن لها وجود.

وإسرائيل قد محى وبذرته لا وجود لها.

وخارو (سوريا) أصبحت أرملة لمصر.

وكل الأراضى قد وجدت فى سلام.

وكل قاطع طريق أخضعه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى «بن رع» محبوب آمون ابن الشمس مرنبتاح منشرح بالصدق. معطى الحياة مثل رع كل يوم».

ملاحظات وتحليل ونتائج:

١- يجب أن يسترعى الانتباه - ليس فى هذا النص فحسب - لكن أيضاً فى مصادر مرنبتاح الأخرى التى سجلت حروبه فى الجبهة الغربية أن الكاتب كان جريئاً وواضحاً فى تصوير المعارك، واستفاض فى عرض مظاهر وصور تتابع الأحداث ومراحل الكفاح، بل زمن تلك الحروب بدقة، ونجد أن الكاتب فى هذا النص حرص على إبراز جهود الملك فى رفع البلاء والغمة التى كانت تعم أرجاء الشمال، وطرد الغزاة الليبيين مدحورين إلى بلادهم، فى حين أن الحديث عن حملة فلسطين جاء فى إشارات سريعة واقتضاب غير معهود دون مناقشة أو تفسير لسبب هذه الحملة التى جاءت بعد سنوات طويلة من الاستقرار وتوقف الحملات العسكرية إلى آسيا منذ معاهدة السلام مع الحيثيين فى زمن والده رمسيس الثانى، وهذا ما دعا عدداً من المؤرخين إلى الشك فى حملة مرنبتاح إلى فلسطين، لكن الغالب أن مرنبتاح أرسل فعلاً حملة عسكرية إلى فلسطين لمجرد إثبات الذات، وإظهار أن هذه المناطق ما زالت تخضع لسلطان مصر، وأن الأمور هناك ما زالت تجرى كما كانت فى عهد والده وأجداده، وسوف نلاحظ أن الكاتب استخدم العبارات التقليدية التى اعتاد ملوك مصر السابقون تسجيلها فى حملاتهم العسكرية، باستثناء اختلاف واحد طارئ جديد لم تعرفه نصوص الملوك فى العهود السابقة، وهو تسجيل إبادة «إسرائيل» واختفاء بذرته، وقد وضعها الكاتب ضمن حديثه عن مناطق ومدن كنعان، والغريب أن هذا الاسم لم يتكرر بعد ذلك فى النصوص المصرية فى العهود التالية، وهو الأمر الذى يشكل غموضاً تاريخياً لجميع الوجوه السابقة ويحتاج إلى توضيح واستنتاج الحقائق التى أفرزت هذه الملاحظة.

٢- إن اسم إسرائيل من الناحية التاريخية وتحديداً فى هذا التوقيت فى عصر مرنبتاح لا ينصرف إلا لأبناء يعقوب الذين دخلوا مصر فى زمن يوسف - عليهما السلام - إذ إن المصادر المصرية منذ عهد تحوتمس الثالث وإلى فترة حكم رمسيس الثانى درجت على استخدام وصف العابيرو للدلالة على هؤلاء القوم من العبرانيين، والذين عرفوا عند البابليين «بالخابيرو»، وهم كما ناقشنا سابقاً طائفة من القوم اختصوا بتلك التسمية وكانوا فى الأصل من الأمم البدوية

الصحراوية، ثم صار هذا اللفظ مرادفاً لكلمة بدوى، وتدل على ساكن الصحراء، وقد أحضر منهم تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى آلافاً من الأسرى من فلسطين للعمل كعبيد فى المعابد والمزارع الملكية، وسخرهم حورمحب بذات التسمية - العابيرو - فى أعمال البناء فى شرق الدلتا عندما قام بتوسيع معبد ست بأفاريس، وبذات الاسم سخرهم سيتى الأول فى مشاريع البناء العديدة، وتذكر نصوص رمسيس الثانى «الجنود والعابيرو الذين ينقلون الحجارة لعمل الصرح.. من أجل رمسيس الثانى».

أما هذه المرة فى نص مرنبتاح فإن الأمر قد اختلف، وكاتب النص يوجه رسالة من فرعون إلى كل الشعب فى أنحاء مصر، ليس المقصود العابيرو: العبيد وعمال السخرة الذى تعلمون، وإنما تلك الطائفة منهم التى تطلق على نفسها شعب إسرائيل، رسالة مقصودة ومحددة وواضحة، بدون أى لبس أو خلط أو تمييز إلى هؤلاء الموجهة إليهم تلك الرسالة، إنها فى حقيقتها بيان عسكرى يحمل خبراً مهماً قادماً من مستعمرات مصر فى سوريا وفلسطين: لقد ذهب جيش جلالة الفرعون وتفقد أنحاء الإمبراطورية، وكالعادة انبطح لجلالته جميع الأمراء يطلبون السلام، ومازال عهد مصر بإمارات ودويلات مستعمراتها كما كان، جميع بلاد الأقواس التسعة خاضعين لمصر لا أحد منهم يرفع رأسه ضدها، وأيضاً جميع البلاد التى ورد ذكرها بالنص فى آسيا: خاتى، كنعان، عسقلان، جازر، ينوعام، خارو، مازالت تخضع للحكم المصرى كما هو العهد منذ الأسرة الثامنة عشرة، وفترة حكم والده رمسيس الثانى، لكن الجديد هذه المرة فى هذا النص هو أن إسرائيل - الذى يذكر لأول مرة فى تاريخ مصر - قد محى ولم يعد لبذرته وجود ضمن بلاد أو شعوب فلسطين، وكأن الكاتب والقارئ كليهما على علم تام بأن هذا موقعها.

وبلا شك فإن التفسير الذى ترتبه تلك العبارة أن بنى إسرائيل فى هذا التوقيت من عهد مرنبتاح كانوا قد خرجوا من مصر قاصدين تلك البقعة مبتغين اتخاذها مستقراً لهم، وأن شعب مصر كان على علم وبينة من هذه الحقيقة، وأن ذلك حدث منذ وقت قريب استدعى أن يأتى بيان مرنبتاح ليوضح الأمر والموقف الحالى، لقد محى هؤلاء القوم وليس لهم أثر فى فلسطين.

وسوف نجد أنه بسبب إشارة نص مرنبتاح إلى اسم إسرائيل ضمن البلاد والمدن التى مر بها جيشه فى حملته إلى فلسطين، فقد اتفق المؤرخون أن ذلك بالضرورة لا بد وأن يكون تالياً أو مرتبطاً بخروجهم من مصر، لكنهم اختلفوا فى أمر نشأة الكيان الإسرائيلى فى هذا التوقيت (العام الخامس من حكم مرنبتاح) على أرض فلسطين، فذهب بعض المؤرخين إلى أن كيانهم قد نشأ أو على الأقل أصبح لهم وجود على أرض فلسطين فى مرحلة زمنية سابقة على مرنبتاح، بل رمسيس الثانى أيضاً، لا مكان استغراق فترة التيه، وحروب الاستقرار التى أشارت

إليها التوراة، فى حين ذهبت طائفة أخرى إلى أن ذكر مرنبتاح لشعب إسرائيل يعنى أن صراعاً قد دار بينهما، وأن هذا يؤكد فى رأيهم أنه فرعون الخروج، وقد أراد فى نصه أن يدعى لشعبه انتصاره عليهم، وكان لازماً لتمرير هذا الرأى أن يغض أصحابه الطرف عن رواية الكتب المقدسة من أن فرعون غرق ومات ومعه جميع جيشه؛ لأن نص مرنبتاح مؤرخ بالعام الخامس من حكمه الذى دام عشر سنوات، والتسليم بحقائق الدين يستلزم لاعتباره فرعون الخروج أن تكون فترة حكمه قد انتهت، ومن اهتم بالرواية الدينية من أصحاب هذا الرأى ذهب اتجاه منهم إلى أن هذا النص قد تم تسجيله بعد غرق مرنبتاح بغرض تخليد ذكرى انتصاره على الليبيين، لهذا رد كاتبه تاريخه إلى العام الخامس من حكمه، وهو تاريخ انتصاره وطرد الليبيين من مصر. وذهب اتجاه آخر إلى أن موضوع غرق فرعون قد فهم خطأً على أنه موت ونهاية له، فى حين أن الحقيقة أن تعبير القرآن «**فاليوم ننجيك ببدنك**»، يؤكد نجاة فرعون من الموت، فهو غرق معنوى، بما يرادف التعبير العامى «خلص بجلده». وذهب اتجاه ثالث إلى وجود فرع آخر من بنى إسرائيل كان يعيش فى فلسطين فى تاريخ سابق على خروج بنى إسرائيل الذين كانوا يعيشون فى مصر. وقد قمنا بالرد على جميع هذه الآراء فى مواضع سابقة. وأكدنا الاستحالة التاريخية على نشأة الكيان الإسرائيلى فى فلسطين سواء قبل حكم رمسيس الثانى أم خلال فترة حكمه، واستمرار هذه الاستحالة حتى انتهاء حروب رمسيس الثالث فى فلسطين والمقدر لها كحد أقصى العام (١١٧٨ق.م)، أى فى تاريخ تال لانتهاء حكم مرنبتاح بنحو ٢٧ عاماً. وأيضاً رفضنا أى رأى يخالف الحقيقة الدينية وهى غرق فرعون وموته، الأمر الذى يعنى تاريخياً أن يوم خروج شعب إسرائيل من مصر كان نهاية لحكم ملك وبداية لحكم ملك جديد، إلا أن ما يجعلنا نلتمس العذر للمؤرخين فى آرائهم السابقة هو أن ذكر مرنبتاح لإسرائيل ضمن شعوب منطقة فلسطين جاء فى توقيت غير متوقع، الأمر الذى وضع عدة تناقضات، وجعل العلماء يضطربون فى تفسير هذه العبارة ويتخذون اتجاهاتهم التى سارت فى جميع افتراضات النص عكس أحداث التاريخ وأيضاً حقائق الدين:

- إذ لو صدق النص وكان مرنبتاح حارب شعب إسرائيل فى فلسطين، فهذا يعنى أن خروجهم من مصر كان سابقاً لعصر رمسيس الثانى لا مكان استغراق سنوات التيه ثم قيام دويلاتهم، وهذا الاحتمال مستبعد تاريخياً بسبب حروب رمسيس الثانى فى فلسطين، بالإضافة إلى حروب رمسيس الثالث بعد تاريخ النص، ويلاحظ أيضاً أن نص مرنبتاح يتحدث عن الاصطدام بالحيثيين رغم وجود معاهدة تقسيم وتحالف بينهم وبين مصر تحول دون ذلك، وقد وجد نص آخر لمرنبتاح يسجل تعاونه ومساعدته لهم بالغذاء.

- وإذا كان خروج بنى إسرائيل قد حدث فى نهاية حكم رمسيس الثانى عام (١٢١٣ق.م)، فكيف يمكن تفسير وجودهم فى فلسطين بعد أقل من خمس سنوات مع الحقيقة الدينية التى

تؤكد قضاءهم فترة التيه أربعين سنة قبل دخول فلسطين؟

- وإذا كان مرنبتاح الذى حكم عشر سنوات هو فرعون الخروج، وكانت هذه اللوحة تسجيلاً لصراعه مع شعب إسرائيل، وزعماً بتحقيقه النصر عليهم؛ فكيف يمكن تفسير تاريخها بالعام الخامس من حكمه مع الحقيقة الدينية التى تؤكد غرق فرعون وموته حتماً وهو يطاردهم؟

وعلى ضوء ما أوضحناه من أن وجود اسم إسرائيل فى هذا التوقيت وعلى هذه الصورة مخالف بذلك الاستخدام التاريخى الشائع السابق «العابيرو»، فإن ذلك لا يعنى سوى أنهم أبناء يعقوب الذين كانوا فى مصر، ولا يحتمل اللقب تاريخياً انصرافه إلى طائفة أخرى، وهذا يؤكد أنهم فى تاريخ تسجيل هذا النص على لوحة مرنبتاح كانوا قد خرجوا فعلاً من مصر.

ومن ثم يصبح الأمر غامضاً ويحتاج إلى تفسير يقدم حلاً لجميع هذه التناقضات.

٣- جاء استخدام اسم إسرائيل فى نص مرنبتاح بما يدل على أنهم قوم وليس منطقة أو مدينة.

ولإيضاح ذلك نعرف أن الكتابة الهيروغليفية تحتوى على علامات صامتة تضاف إلى نهاية الرموز الصوتية لكى تدل على نوع الكلمة التى تمثلها، تسمى المخصصات أو المحددات (determinatives) ولا ينطق المخصص، وإنما تكون له قيمة بصرية، فمثلاً كلمة «رع» فى اللغة المصرية، إذا أخذت فى نهاية الكلمة المخصص الذى يرمز إلى شكل قرص الشمس فيكون معناها الشمس، وإذ أضيف المخصص الذى يرمز إلى شكل الإله (ntr) فيكون معناها إله الشمس رع.

والبلاد والمدن الأجنبية تأخذ مخصصات تدل على المكان: رمز المدينة أو رمز الجبل أو الصحراء، مع مخصص العصا المعقوفة الذى يستخدم فى أسماء الشعوب الأجنبية.

والمخصص الذى كتبت به إسرائيل فى النص يختلف عن المخصصات التى كتبت بها بقية الجماعات أو الأمم التى انتصر عليها مرنبتاح، فجميع تلك الأسماء قد وضع لها المخصص الذى يدل على البلاد الأجنبية (الجبل أو المدينة) فنجده فى أسماء المدن الفلسطينية، مثل كنعان وعسقلان وجازر وينوعام، فجميع هذه الأسماء أخذت مخصص الجبل والعصا المعقوفة مما يعنى أنها تخص ممالك أو دولاً وشعوبها أو مدناً وسكانها، أما اسم إسرائيل فقد غاب عنه المخصص الذى يدل على المكان، ووضع كاتب النص له مخصص العصا المعقوفة الذى يستخدم فى أسماء الشعوب الأجنبية، وأضاف فى نهاية الاسم مخصص الرجل الجالس والمرأة مع ثلاثة خطوط رأسية كان المصرى القديم يعبر بها عن الجمع، وهذا المخصص على هذه الصورة يدل على أن الكاتب قد تعمد ألا يربطهم النص بمدينة أو منطقة جبلية داخل فلسطين، مما يؤكد أنهم قوم أجانب أو مجموعة من القبائل أو الأشخاص بلا وطن، ولا سبيل

إلى التشكيك - كما ذهب رأى - إلى احتمال خطأ أو سهو كاتب النص، فقد كان دقيقاً وواعياً إلى أقصى درجة، وكتب أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية فى ذلك النص تسع عشرة مرة، ولم يغفل وضع مخصص الأرض الأجنبية فى واحدة منها؛ سواء السابقة على إسرائيل أم اللاحقة، بل بلغت دقة الكاتب أنه عندما ذكر جنود المازوى وهم رجال شرطة يتم تجنيدهم من أهل النوبة، فإنه اتخذ لهم مخصص رمز الناس مع رمز يدل على الأجنبى دون رسم الأرض للتعبير عن أنهم فى غير أرض لهم، والمثير أيضاً أنه رغم أن أسماء البلاد والمدن الأجنبية تعتبر إعرابياً مؤنثة إلا أنه قد تلاحظ أن كاتب النص استخدم الضمير المتصل للشخص الغائب المذكر المفرد مع اسم «إسرائيل» للدلالة على الملكية «له»، ولم يكتب «لهم» مع أنه سبق أن وضع للاسم مخصص الجمع، مما يبين معرفته بحقيقة أن إسرائيل هو اسم لجد سمى القوم على اسمه. وكل هذه المعطيات من صياغة كاتب النص تؤكد أنه على علم تام بأن إسرائيل هم قوم من الأجانب لا وطن لهم، وأنهم فى هذا التاريخ من عهد مرنبتاح لم يكونوا قد استقروا أو كانت لهم أرض أو وطن.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن تفسير لقاء جيش مرنبتاح لهم ومحو بذرتهم؟ ولماذا وضعهم الكاتب ضمن شعوب فلسطين أو داخل النطاق المكانى لأراضى فلسطين رغم أنهم - كما عبر النص - قوم بلا وطن أو أرض. غموض ما زال يحتاج إلى توضيح.

٤- من قراءة نصوص حروب مرنبتاح لإجراء مقارنة بين حربه وانتصاراته على الليبيين فى الجبهة الغربية، وبين الانتصارات التى سجلها عن حملته إلى سوريا وفلسطين فى الجبهة الشرقية، سوف يتضح - بداية - أن حملته إلى آسيا كانت سابقة على محاربته لليبيين وحلفائهم من شعوب البحر؛ ذلك أنه نقش على لوحة «عمداً»، المؤرخة بالعام الرابع من حكمه، بأنه قاهر جازر (إحدى المدن المهمة فى فلسطين)، وأنه الأسد ضد خارو (جنوب سوريا وجزء من فلسطين)، فى حين أن حروبه ضد الليبيين - كما ثبت من مصادر حروبه السالف بيانها - كانت فى أواخر العام الخامس من حكمه، هذا فضلاً عن أن لوحة إسرائيل التى حملت أنشودة انتصاراته على الليبيين، وشعوب سوريا وفلسطين مؤرخة بالعام الخامس، الشهر الثالث من فصل الصيف، اليوم الثالث، وهذا التاريخ نفسه هو تاريخ نص الجدار الشرقى بمعبد الكرنك، وأيضاً لوحة أتريب (المتحف المصرى)، ولا يمكن أن تكون جيوش مرنبتاح قد قامت بالحملتين فى تاريخ واحد، ويتفق معظم الدارسين على أن حملة مرنبتاح إلى آسيا كانت سابقة على محاربته الليبيين وأنها ربما كانت فى العام الثالث أو الرابع من حكمه، ويوجد من يرى أن هذه الحملة غير مؤكدة، وأن ذكرها فقط كان للفخر والمباهاة.

أياً ما كان الأمر، فإنه بحسب اعتبارات القياس التاريخى للمؤرخ الذى خبر المتون الفرعونية من النواحى التاريخية والسياسية والإعلامية، كان المقتضى بافتراض قيام مرنبتاح

بإرسال حملة إلى آسيا أن ننتظر منه الكثير وفقاً للتقاليد المعتادة، وأن ينتهج خطى والده رمسيس وجده سيتى الأول والقادة العظام من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، ويخلد انتصاراته وفتوحاته فى آسيا – السابقة – على قدم المساواة، إن لم يكن أكثر من إبراز انتصاراته على الليبيين – اللاحقة – على تلك المصادر التى سجلت وقائعها الحربية. أما وأنه لم يفعل واكتفى بعبارات عامة، سريعة، مقتضبة، مبتورة من التفاصيل واستخدم فيها ألفاظاً دارجة مستوحاة من نصوص وانتصارات الملوك السابقين، وعلى واحدة فقط من تلك المصادر التى صيغت لتكون نشيداً وطنياً لتمجيد الملك، فإنه بذلك يضعنا أمام غموض تاريخى، ويثير تساؤلات منطقية عن حقيقة انتصاراته فى آسيا؛ خصوصاً إذا علمنا أن نقوش الكرنك الكبيرة لم تذكر لنا أى نشاط للملك فى فلسطين، ومع ذلك فإنها فى غمرة تصوير المعركة الكبيرة ضد الليبيين لم تغفل أن تشير إلى مجرد انتصار صغير للملك، فاهتمت أن تسجل بأنه قضى على قبائل «البديوشو» التى كانت تعيش فى شمال الجزيرة العربية، وسخرهم فى حمل حبوب فى السفن للإبقاء على حياة بلاد «خيتا» (الحيثيين)، وقد كانت ترتبط بمعاهدة سياسية مع مصر منذ عهد رمسيس الثانى. ومن الغريب أيضاً أن خيتا – التى ذكر فى هذا النص الأخير أنه يساعدها ويزودها بالحبوب – هى ذاتها خيتا التى ذكرها فى لوحة إسرائيل ضمن البلاد التى قهرها فى آسيا «وبلاد خاتى أصبحت مسالمة»، ومما يزيد الأمر تعقيداً، اتفاق اللوحتين فى التاريخ – كما أوضحنا – بما لا يسمح بوجود مساحة للتفسير باحتمالات حدوث تغيير فى السياسة المصرية تجاه دولة خيتا.

وبشأن ما يمكن أن يثار لتبرير اقتضاب حملة مرنبتاح إلى آسيا بأن غياب المصدر لا ينفى حدوث واقعة أو يقلل من أهميتها لاحتمال أن تكون تفاصيل النصر قد سجلتها نصوص آخرى لم تصل إلينا، فإن هذا التفسير مردود بأن الأمر فى هذه الحالة مختلف؛ ذلك أننا أمام مصادر قائمة (نقوش الكرنك – لوحة عمدا – لوحة أتريب – لوحة إسرائيل)، وصلت إلينا فعلاً تسجل حرباً باستفاضة وتفصيل، والمعروف أنها تالية لحرب وانتصار آخر وقعت أحداث كلاهما سواء الشرقية أم الغربية خلال فترات زمنية متقاربة ومتلاحقة دونما ذكر لتلك السابقة، وإذا أشير إليها على واحدة منها فإنه دون تفاصيل الكفاح، ومراحل تحقيق الفخار والمجد فى موقع المستعمرات التقليدية والتى تشكل المجال الأول لجبهة الحروب الإستراتيجية للغزاة الفاتحين من قادة مصر العظام، والمفروض لو صحت أن تضع قائدها فى مصاف هؤلاء المحاربين العظماء من الآباء والأجداد سواء الذين قامت على أكتافهم الإمبراطورية، أم الذين حافظوا عليها وسجلوها نقشاً وحفراً على آثار عظيمة، وفى أنحاء متعددة من المعابد المصرية، أمثال التحامسة وسيتى الأول ورمسيس الثانى، وفى المقابل فإن الحرب ضد الليبيين، والتى نالت القدر العظيم من اهتمام نصوص مرنبتاح العسكرية لم تكن تعتبر حتى عهود سابقة

قريبة سوى صد لمحاولات تسلل من القبائل على الحدود الغربية لمصر، والتى كانت تمتاز بالهدوء منذ الدولة القديمة، ولم تكن تحتاج سوى لتجريدة عسكرية صغيرة تؤدبها وتمنع أطماعها التى تتمثل فى الحاجة إلى الطعام وأماكن الرعى أو البحث عن أماكن استقرار فى أرض مصر الخصبة؛ خصوصاً أن أرض الواحات فى الصحراء الغربية كانت معروفة منذ القدم بوفرة مراعيها وأنعامها، حقاً إن حجم اعتداءات الليبيين وحلفائهم فى عهد مرنبتاح كان مختلفاً عما سبق، فقد استفحل شرهم بعد أن نمت تلك القبائل الآرية التى كانت تنتشر فى أوروبا الجنوبية، وتمكنت فى زمن سيتى الأول من عبور البحر المتوسط والاستقرار فى ليبيا، وحاولوا فى عهده التسلل إلى مصر إلا أنه نجح فى محاصرتهم وصدهم وطردهم بسهولة كبيرة ودون أية مقاومة، ولم يستدع الأمر، بالنسبة له تتبعهم فى وطنهم والقضاء عليهم، فبقيت جذورهم واستطاعوا فى بداية عصر مرنبتاح، لأسباب تتعلق بضعف مصر فى تلك الفترة، أن يتمكنوا من المنطقة الغربية ويسببوا لمصر أخطاراً كبيرة. بيد أنه مهما كانت قوة وأهمية الحرب التى قادها مرنبتاح ضد الليبيين وأعوانهم، فإنها لم تكن أبداً تلك التى يمكن أن تغطى أو تتضاءل بجانبها حروبه فى آسيا لتقدمها لنا نصوصه على هذا النحو المبتور فى لمحة سريعة فى نشيد وطنى دون أى تفصيل لما حدث. وباستعراض الموقف الذى وضعتنا فيه نصوص مصادر عهد مرنبتاح سوف يتضح الآتى:

فى حربه ضد الليبيين تسجل النصوص التفاصيل الكاملة للجيوش المعادية، والاستعداد للحرب، والمعارك التى دارت وأعداد الأسرى والغنائم المسلوبة، فنستطيع أن نعرف أن الهجوم الليبى المشترك مع قبائل شعوب البحر قد تمكن من المنطقة الغربية لمصر فى العام الرابع من حكم مرنبتاح -تاريخ لوحة عمدا- وربما كان دخولهم إلى مصر سابقاً على ذلك التاريخ فى شكل موجات متسللة تحاول أن تجد لها طريقاً للاستيطان وتكرر كارثة الهكسوس، وكان مواكباً لها تمرد فى كوش جنوب مصر. وسواء كانت مواجهة مرنبتاح لتمرد الجنوب سابقاً على حربه ضد ليبيا أم كان عقب ذلك، فإن نصوص نقوش الكرنك الكبيرة التى سجلت تفاصيل المعركة ضد الليبيين توضح أن مرنبتاح واجه تحالفهم فى نهاية العام الخامس من حكمه، وكان زعيمهم «مريى بن دد» قد اجتاز بهم حصون الحدود الغربية، ونجح فى التقدم إلى حدود الدلتا الغربية حتى وصلوا إلى النهر الكبير أو النهر الغربى - كما أسماه المصريون- وكان هذا الفرع يصب فى البحر المتوسط عند بلدة كانوب غرب مدينة الإسكندرية الحالية، وتذكر النصوص سبب الهجوم الليبى بأن هؤلاء القوم «قد أتوا إلى مصر ليبحثوا عن طعام بطونهم»، أى أن الغرض من زحفهم هو البحث عن وطن جديد يزخر بنعم العيش والأرض الخصبة ووسائل الحياة التى يفتقرون إليها. ثم تسرد النصوص تفاصيل المعركة التى وقعت عند مكان يسمى «بر - إيرو» ومواجهة جيش مصر لتحالف جنود العدو من أقوام الليبيين وقبائل

الصحراء الغربية (التحنو - التمحو - المشاوش - القهق) وشعوب البحرمن (الأقواش - التورشا - الشكلش - الشردانا - لوكا) فى معركة استمرت ست ساعات انتهت بانتصار المصريين وفرار زعيم الأعداء (مريى) بالصورة التى صورتها أنشودة نصر مرنبتاح، وتذكر نقوش الكرنك الكبيرة ولوحة أتريب قائمة الأسرى والقتلى من كل من هؤلاء الأقوام، وتحصر المتاع والغنائم التى استولى عليها الجيش المصرى، فتعد أولاد رئيس الأعداء الذين قتلوا ثم عدد تحالف الليبيين الذين قتلوا وأحضرت أياديهم وأعضاؤهم التناسلية لتأكيد حصر القتلى، وتذكر النصوص عدد الأعضاء التناسلية وعدد الأيدى لتصل إلى ٦٢٠٠ قتيل من الليبيين، ٢٣٧٠ رجلاً من أقوام البحر، ومجموع عدد الأسرى ٩٣٦٧ رجلاً وامرأة، ثم تحصر القائمة الغنائم من أسلحة الحرب والسيوف والخيل والماشية والماعز والأوانى، فى عرض تفصيلى وتصوير واضح يؤكد أننا فعلاً وواقعاً أمام معركة حقيقية، ربما تكون النصوص قد حملت بعض المبالغة فى أعداد القتلى (باحتمال جمع الأيدى مع أعضاء الذكورة لزيادة العدد)، إلا أن الدارس مع ذلك يستطيع أن يقف على التفاصيل الأساسية من حيث سبب الحرب وأطراف القتال وموقعها وتاريخها وسير الوقائع والنتائج التى انتهت إليها. وعلى النقيض من ذلك فإن حملة آسيا لم تحملها سوى أنشودة وطنية تمجد انتصارات الملك باستخدام صور أدبية وعبارات فخر درجت النصوص المصرية على استخدامها فى عصر أسلافه، باستثناء المعلومات الجديدة عن إسرائيل الذى أبيد وانتهت بذرته.

وهو الأمرالذى يحتم ضرورة تقديم توضيح يتفق مع أحداث التاريخ لحقيقة حملة مرنبتاح إلى آسيا ومواجهة شعب إسرائيل.

٥- أن صياغة نص لوحة إسرائيل جاءت لتكون قصيدة تمجيد وفخار بأعمال الملك مرنبتاح، وقد تم نقشها بمناسبة انتصاره العظيم على تحالف الليبيين فى نهاية العام الخامس أو بداية العام السادس من حكمه، ومن ثم أخذ هذا الانتصار الجانب الأعظم والأهم من القصيدة وهو الذى نال اهتمام الدارسين فى النص، بالإضافة إلى حروبه فى آسيا التى أنهى بها قصيدته؛ خصوصاً ذكر إسرائيل فيها لأول مرة فى التاريخ، ولم يجدوا فى باقى عبارات قصيدة النصر سوى صور أدبية لمشاعر فياضة من المدائح والفخار درج الفراعنة على وصف أنفسهم بها. وظن بعض المؤرخين أن ما جاء من وصف الأحوال المضطربة والحوادث التى ذكرت فى القصيدة فى تاريخ قبل زمن اللوحة، ووصف حالة البلاد المقهورة فإنه لا يخرج عن كونه مجرد تفاخر اعتاده الفراعنة لإبراز دورهم فى تحقيق النصر والاستقرار.

لكن بالفحص والتدقيق والدراسة المتأنية للنص سوف نلاحظ أنه يتحدث عن عمل جليل مهم قام به مرنبتاح فى مصر قبل أن يبدأ حربه ضد ليبيا، فيذكر كاتب النص فى بداية قصيدته أن الفرعون أزاح الهموم من فوق ظهر الشعب، وأخلى سبيل العديد من الأسرى من

المعتقلات، وخلص منف من أعدائها، وأعاد فتح أبوابها المغلقة، ورد ممتلكات المعابد إليها، وأنه أسعد الإله بتاح (إله منف) وخلصه من خصومه، تقول القصيدة:

«إنه الشمس التى بددت الغيوم التى كانت تخيم على مصر، وجعل تامرى تشاهد أشعة الشمس، هو الذى أزاح جبلاً من النحاس كان يرزخ فوق ظهر الشعب، ومنح من كانوا فى الأسر الهواء، وغسل قلب «حت كابتاح» (منف) وخلصها من أعدائها وجعل الإله «بتاح تانن» يبتهج ويشمت بخصومه، هو الذى فتح أبواب منف بعد أن كانت قد أغلقت وجعل معابدها تتسلم ممتلكاتها، إنه الملك الذى بعث القوة فى قلوب مئات الألوف ومنحهم نفس الحياة». ثم بعد هذه المقدمة من القصيدة يدخل الكاتب فى تفاصيل الانتصار على التمحو.

وسوف نلاحظ أن كثيراً من الظواهر والنصوص الأخرى تؤكد خطأ تفسير أن يكون المقصود بتلك المقدمة أن المتسبب فى هموم البلاد وأسرى المعتقلات وغلق المعابد هم الليبيين؛ ذلك أنهم لم يصلوا أبداً إلى منف أو عين شمس، وكانت أقصى حدود لهم هى الجانب الغربى لفرع النيل الكانوبى غرب مصر، وقد هزمهم جيش مرنبتاح فى المعركة التى دارت، حيث كان معسكرهم فى مكان يسمى (بر - إير) على شاطئ فرع النيل الكانوبى، ومنه بدأت رحلة طردهم خارج البلاد، وذلك يؤكد أن جيوش ليبيا لم تقتحم قط أراضى الدلتا.

وإذا كان الأمر على هذا النحو الذى نستخلصه من النص، فإن هذه الأعمال الجليلة التى قام بها الملك وسبقت حرب ليبيا، من الواضح أنها كانت تصدياً لاضطرابات عظيمة، وتمثل مشكلة خطيرة أشعلت ثورة وسببت كوارث فى المنطقة الشمالية، وشكلت تحدياً لإرادة الدولة وكهنوت المعابد، كانت تعيش فيها مصر فى السنوات الأولى من ولاية مرنبتاح، ويظهر أن منف كانت أحد معاقل تلك المشكلة التى على ما يبدو كان تأثيرها قوياً على المعابد وممتلكات الآلهة، وأن ذلك التأثير اقتصر على شمال مصر ولم يمتد إلى الوجه القبلى، ويمكن أن نحصر من النص بعضاً من نتائج تلك الاضطرابات تمثلت فى:

- استيلاء الثوار على منف وعين شمس.
- غلق المعابد ومنع أداء الشعائر.
- اعتقال جم غفير من الناس فى مختلف الأقاليم.
- الاستيلاء على ممتلكات المعابد وثروات عظماء القوم.
- هروب كثير من الناس من مدنهم.

ويتضح من النص أن هذه الاضطرابات كانت سابقة على حرب ليبيا ولم تكن أحد تأثيراتها، وغالباً أن العكس كان هو الصحيح، وأن قبائل الليبيين المتحالفة مع شعوب البحر انتهزت حدوث هذه الثورة التى عمت أرجاء الشمال وزحفت جموعهم فى موجات متتالية بقصد الاستقرار فى مصر تحت قيادة زعيمهم «مريى» وقد عجزت أجهزة الدولة وجيوش

فرعون فى سنوات حكمه الأولى عن التصدى لهم ووقف زحفهم، فاضطر إلى تأجيل مواجهتهم حتى تمكن من إزاحة الغمة التى أصابت الشمال، عندها فقط منح الإله سيف الحرب للملك ليبدأ معركته ضد الأعداء، يقول النص:

«وقد قال رب العالمين: اعط السيف ابنى المستقيم القلب، الشفيق مرنبتاح محبوب آمون الذى عنى بمنف ودافع عن عين شمس، وفتح البلاد التى أغلقت ليطلق سراح الجم الغفير من المعتقلين فى كل إقليم، وليتمكن من تقديم قرابين للمعابد، وليجعل البخور يدخل أمام الآلهة، وليتمكن من السماح للعظماء ليحفظوا ممتلكاتهم، ولصغار القوم ليعودوا إلى مدنهم».

ونلاحظ هنا ما يقوله الكاتب إن الإله منح مرنبتاح سيف الحرب بعد أن أصلح أحوال البلاد وأطلق المعتقلين فى كل إقليم، ومن الصعب أن نتصور أن هؤلاء الليبيين كانوا هم الذين سجنوا المصريين فى المعتقلات وسلبوا ممتلكات الآلهة وعظماء القوم وأغلقوا معابد منف وعين شمس؛ لأن تصوير جغرافية المعركة وأماكن سيرها وتفاصيل أحداثها فى نصوص مرنبتاح الأخرى يجعل هذه الفرضية غير مقبولة بل مستحيلة، والتسليم بهذا الاحتمال يجعل دخولهم مصر احتلالاً كاملاً للشمال لا يختلف فى شىء عن احتلال الهكسوس، وهو ما لم يحدث وفقاً لتصوير مصادر حرب مرنبتاح وتفصيل نجاحه فى طردهم.

إذاً ما يقصده النص كان أمراً داخلياً بمصر، وتسجيلاً لظروف مرت بها البلاد فى بداية عهد مرنبتاح أدت إلى حدوث فتنة كبرى فى المدن الشمالية ترتب عليها انقسام بين طوائف الشعب، وتمكن طائفة منهم من الاستيلاء على المدن، وفرض إرادتها على الدولة وغلق المعابد وسلب ممتلكاتها ونهب أموال العظماء، واعتقال كثير من المواطنين فى أقاليم مختلفة، وفرار آخرين من مدنهم، وكان تأثير هذه الفتنة متركزاً فى العاصمتين العتيدتين منف وعين شمس ومعابدهما التى أغلقت وذهبت ممتلكاتها إلى يد أناس آخرين، وفى هذا تقول القصيدة:

«لن يمتع مجرم بغنيمته، والثروة التى يحرزها الإنسان من طريق غير مشروع تقع فى يد غيره لا فى يد أطفاله».

وبذلك تضعنا قصيدة مرنبتاح مرة أخرى أمام غموض جديد - يضاف إلى سلسلة الظواهر الغامضة السابقة - ونحتاج إلى إيضاح لتحديد الأسباب وإزاحة الغيوم عن الظروف التى أدت إلى هذه المشكلة والاضطرابات التى أصابت مصر فى بداية حكم هذا الملك وريث عرش الفرعون رمسيس الثانى، وتحديد سبب الضعف والهوان الذى كانت عليه مصر فى هذه الفترة، وأدى إلى عجزها ووقوفها مكتوفة الأيدى عن وقف زحف قبائل الليبيين وحلفائهم الذين اقتحموا مصر من الغرب، واستمر عجزها عن مواجهتهم عدداً من السنوات، فكان ضرورياً للملك شحذ الهمة وتعبئة الشعب والجيش ووضع الخطوات واتخاذ السبل بسرعة للقضاء على أسباب الفتنة لمواجهة الخطر القادم من الغرب، ولم يكتمل للفرعون هذا

الاستعداد إلا فى نهاية العام الخامس من حكمه، والآن ما تلك المشكلة تحديداً وما أسبابها؟

٦- النتيجة المنطقية:

انتهينا فى ملاحظاتنا السابقة على لوحة أنشودة مرنبتاح أن وجود اسم إسرائيل مع وضعه ضمن شعوب منطقة كنعان «فلسطين» فى هذا التاريخ يعنى أن هؤلاء القوم والذى قصد الكاتب بهم تحديداً قبائل بنى يعقوب كانوا قد خرجوا من مصر متوجهين إلى تلك الأرض قبل أن يحكم مرنبتاح.

وطبقاً لركائز البحث التى تُلزم - تاريخياً - استحالة قبول أن يكون دخولهم فلسطين فى عهد الأسرة الثامنة عشرة أو خلال حكم رمسيس الثانى، وتُلزم - دينياً - بأن يكون خروجهم فى نهاية حكم ملك وبداية حكم ملك جديد، فإن ذلك لا يعنى سوى حتمية أن الخروج حدث فى نهاية حكم الفرعون رمسيس الثانى الذى يتحتم أيضاً أن يكون قد غرق ومعه جيشه وماتوا جميعاً وهم يطاردون بنى إسرائيل.

لكن ظل غريباً وأثار تساؤل المؤرخين دون تفسير مقنع إشارة نص مرنبتاح إلى قبائل أو شعب بنى إسرائيل داخل الحيز المكانى لفلسطين وضمن البلاد والمدن التى رصد انتصار جيشه عليها وإخضاعه لها فى حملته العسكرية التى أرسلها إلى المستعمرات المصرية فى آسيا، وسجلها مع انتصاراته على الليبيين فى العام الخامس من حكمه، ووجه الغرابة فى هذا الوجود أنه كان يجب إذا كان الخروج فى نهاية حكم رمسيس الثانى أن يكون بنو إسرائيل فى هذا التوقيت - وفقاً للحقيقة الدينية - فى مرحلة سنوات التيه التى استمرت أربعين سنة دون دخول فلسطين، وبعدها خاضوا حروباً استمرت سنوات لحين الاستقرار وتوزيع الأراضى، هذا مع الاستحالة التاريخية فى أن يكون خروجهم قبل ذلك بسنوات قليلة أو كثيرة، والاستحالة الدينية فى أن يكون خروجهم فى منتصف حكم مرنبتاح.

إن التحليل والملاحظات والتساؤلات السابقة التى قدمناها - بما أثارته من غرابة وغموض وغيوم، والمستخلصة من قراءة الأحداث التى تحويها سطور لوحة إسرائيل بعد مقارنتها بجميع مصادر مرنبتاح العسكرية - إذا ما أخضعناها لتحليل مقارن آخر مع الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية والعسكرية التى عاشتها مصر فى الحقبة التاريخية السابقة عليها؛ وتحديداً المواكبة لنهاية الأسرة الثامنة عشرة منذ سقوط عقيدة التوحيد التى نادى بها إخناتون وحتى ولاية مرنبتاح، فسوف نستخلص من تلك المقارنة النتائج المنطقية التى تزيل الغموض وتوضح سبب الحالة التى كانت عليها مصر فى بداية ولاية مرنبتاح وسبب إشارة لوحته إلى اسم إسرائيل ضمن مناطق فلسطين.

ومرة أخرى فى هذا التحليل أجد لزاماً أن أذكِّر القارئ بغياب المصادر التاريخية المصرية التى تسجل قصة صراع موسى - عليه السلام - مع فرعون بأسلوب صريح أو مباشر

للأسباب العديدة التى ذكرناها سابقاً، لذا اعتمدنا على تصوير القرآن وأحداث الرواية التوراتية التى تتفق معها، بعد أن استبعدنا منها الصبغة العنصرية التى دخلت عليها، فكان ذلك هو الطريق أو السياج الذى قاد إلى فحص المصادر التاريخية واستخراج الأدلة والوصول إلى الحقيقة فى هذا الموضوع.

وقد كان طبيعياً ونحن نسعى لتحديد تاريخ الخروج ضمن النطاق الزمنى الذى حصرنا داخله قصة حياة بنى إسرائيل فى مصر، أن نقف كثيراً أمام هذه المرحلة المهمة فى هذا النطاق وهى فترة حكم مرنبتاح لنتفحص وندقق فى نصوص عهده محاولين أن نلتمس بين عباراتها طريقاً يدعم أدلتنا ونتائج الدراسة ونعيد مراراً قراءة جميع الترجمات التى وضعها الدارسون لنصوصه؛ خصوصاً لوحة إسرائيل، وقد يشعر القارئ بأهمية المبررات التى استدعت استغراقها مساحة واضحة من البحث؛ ذلك أن هذه هى المرة الأولى التى تسجل فيها المصادر ويظهر اسم إسرائيل - حتى الآن - فى تاريخ مصر القديم، فضلاً عن أن هذا الملك وسلفه رمسيس الثانى حامت حولهما الشبهات كثيراً، وأشارت أصابع الاتهام بقوة إلى أن أحدهما هو فرعون الخروج، وهو أمر سوف تحسمه النتيجة النهائية لدراسة تلك اللوحة، التى أرى أنها تقدم دليلاً يقينياً كافياً بذاته على أن رمسيس الثانى هو ذلك الفرعون الذى خرج مطارداً لموسى وعاد بدناً بلا روح.

وعودة إلى تاريخ مصر داخل نطاق البحث فإننا نعرف مما سجلته مصادر التاريخ أنه منذ زمن يزيد على مائة وعشر سنوات سبقت ولاية مرنبتاح كانت مصر لتوها خارجة من الدعوة الدينية التى قادها إخناتون، وقامت أركانها على عقيدة التوحيد، وقوامها الإيمان بالله الواحد الخالق للكون، ورب كل الشعوب والأراضى، وترفض أى وجود للعبادات الوثنية، أو الشرك بالله الواحد، وكان طبيعياً أن يحدث صراع دينى وسياسى بين قيادات الدين الجديد وبين نفوذ الكهنة فى معابد الآلهة المصرية وعلى رأسهم كهنة آمون إله طيبة عاصمة الدولة، وحفلت نهاية هذه الدعوة بالمكائد والمؤامرات من الطرفين، انتهت بانتصار الكهنة وسقوط إخناتون، وانتقال الحكم على التوالى إلى ملوك من أسرته، وكانوا على عقيدته، لكنهم استسلموا ورضخوا لإرادة الكهنة، ولم تستمر تلك الفترة الانتقالية سوى ما يزيد قليلاً على عشر سنوات، حاول فى نهايتها آخر ملوكها «آى» أن يدبر مؤامرة ليخلص الحكم لنفسه من الجيش والكهنة، معرضاً الدولة لخطر الغزو الخارجى، لكن القائد حورمحب اكتشف أمره وأسقطه عن عرشه، ثم استطاع بمساعدة الجيش والكهنة أن يصعد إلى حكم مصر، رغم أنه لم يكن ينتمى إلى السلالة الملكية المنحدرة من الملك أحمس، وبدأ هذا الرجل القوى - الذى خرج من صفوف الشعب - عهده بالقضاء على الفتنة ورءوس التآمر، ثم استطاع خلال فترة حكمه أن يقضى بيد من حديد على أتباع ديانة التوحيد وأن يعيد الأوضاع الدينية إلى ما كانت عليه قبل

إخناتون، وعالج الأمور الداخلية بحزم شديد، ونجح سياسياً وإدارياً فى إعادة القوة والاستقرار لسلطة الحكم فى الدولة، وساعده فى ذلك صديقه ورفيق نضاله وزيره بارعمس. وعندما جاوز حور محب الستين من عمره دون ولد يرث عرشه جعل هذا الوزير «الأمير الوراثى على كل البلاد» ليخلفه بعد وفاته على عرش مصر، ويصبح رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، وكان عهد هذا الملك الجديد الذى خرج هو أيضاً من صفوف الشعب بداية حقبة جديدة فى تاريخ مصر، كان إلى جواره حين جلس على العرش الابن سيتى رجلاً ناضجاً شاركه الحكم، والحفيد رمسيس صبياً متطلعاً، وضع ثلاثتهم على التوالى نصب أعينهم خلال فترات حكمهم، استعادة أمجاد الإمبراطورية، وترك لهم حورمحب البيت المصرى مرتباً من الداخل، فانطلقت تلك الأسرة العسكرية لاسترداد ممتلكات مصر فى آسيا، وكان مثلهم الأعلى ملوك الإمبراطورية العظام فى الأسرة الثامنة عشرة، وقد استطاعت حروب سيتى الأول ورمسيس الثانى أن تعيد لمصر ممتلكاتها فى فلسطين وفينيقيا، ووقع كل من الملكين معاهدة سلام مع إمبراطورية خيتا القوية ووزعا فيما بينهما الممتلكات فى سوريا وفلسطين، واستقرت الأوضاع بين المملكتين العظيمتين.

ولقد استطاع رمسيس الثانى أن يجعل من عهده فترة مغايرة ومختلفة عن حكم جميع ملوك مصر سواء السابقين أم اللاحقين، وكانت سنوات حكمه الطويل حلقة انتقال فى تاريخ مصر بين فترة سابقة حلقت فيه حضارتها وأمجادها طويلاً فى عنان السماء وأخرى لاحقة ظلت تتهاوى فيها تدريجياً حتى سقطت فريسة للغزاة وانتهت حضارتها.

تولى رمسيس الثانى الحكم شاباً صغيراً، وكان لنشأته وتربيته العسكرية ومعاصرته لبداية حكم أسرته ومشاركته مع والده فى بدايات الحروب لاستعادة الأمجاد أثر كبير فى تكوين شخصيته، كما تزود بخليط من مظاهر العزة والكرامة والفخر والجاه والسلطان التى غرسها فيه والده، فاكتسب سلوكيات ذاتية خاصة واهتمامات بجوانب دعائية فجة أهّلته مع طول فترة حكمه ليكون بدون شك أشهر فراعنة مصر وأكثرهم تفاخراً، ورغم نجاح دعايته فى أن تجعله من أبرز رموز حضارتها، فإنه لم يكن واحداً من أكثر الملوك المصريين عطاء أو حكمه أو أميزهم إدارة أو خبرة عسكرية. اهتم بالبناء فأنشأ عاصمة جديدة رائعة وجميلة ومدينة أخرى، وزخرت مصر فى عهده بالعمائر العملاقة والتماثيل الضخمة التى أقامها تخليدا لذكراه وتسجيل حروبه وأعمال أسرته، ولا يوجد موضع فى ربوع الوادى بل أنحاء الصحراء إلا وترك أثراً به، وما نعرفه عن عصره لا تضاهيه معارفنا عن غيره من عصور مصر القديمة.

تميز النصف الأول من فترة حكمه بالحروب والانتصارات ثم العلاقات الدولية والدبلوماسية وإقامة الاحتفالات الملكية وأعياد الآلهة الصاخبة ومشاريع البناء العظيمة وازدهار الفن والعمارة وتزايد التجارة وحملات استخراج الذهب والمعادن من الصحراء،

وغمرت البلاد بأسباب الترف، وتيسرت أحوال الشعب، وساد الاستقرار فى ربوع مصر. وعلى العكس من ذلك تماماً نجد فى النصف الثانى من حكم رمسيس الثانى أو على وجه الدقة فى العقدين الأخيرين من حكمه أن سادت البلاد ظروف سيئة له لم تسجل المصادر التاريخية طبيعتها، لكن نستطيع أن نستدل عليها من عدة مظاهر مثل ضعف الحركة العمرانية بدرجة واضحة، فقلت إقامة الآثار وانحط الفن والعمارة فى سنينه الأخيرة، وهو أمر لم نعهده فى طبيعة رمسيس الثانى، فكان ذلك من الأسباب التى جعلته، وهو الفرعون الذى عشق حب الذات وجنون العظمة، أن يغتصب آثار غيره وينسبها لنفسه. ويلاحظ أن آثاره الحقيقية فى تلك الفترة قليلة بدرجة تلفت النظر، وفى أخريات أيامه حصد الموت عدداً من بناته وكثيراً من أبنائه، ولم يبق منهم إلا القليل ليعيش فى عصر مرنبتاح، وباختصار يعتبر المؤرخون بحق أن الفترة الأخيرة من حكم رمسيس الثانى كانت بداية التقلص للحضارة المصرية، وبانتهاء حياته انقضى العصر الذهبى للدولة الحديثة، وراحت حضارة مصر تترنح نحو الهاوية السحيقة، وإن كانت تلك النهاية قد استغرقت زمناً طويلاً، لكن الذى لا شك فيه أن نهاية هذا الملك كانت حدثاً عظيماً وخبراً مدوياً لمعاصريه.

إذا كان هذا ما سجلته مصادر التاريخ ودراسات المؤرخين عن فترة الصراع الدينى الذى مرت به البلاد، والآثار التى ترتبت على سقوط عقيدة إخناتون وما تبعها من تغيير وانتقال وأحداث سياسية فى الداخل والخارج، إلا أنه بلا شك كان هناك تاريخ مجيد آخر، لم يكتب لعامة الشعب من البسطاء والفقراء، الفلاحين والصناع الذين عاشوا وماتوا ولم يخلفوا آثارا أو ينقشوا مقابرهم، لقد عاش بين هؤلاء عدد غير قليل آمن بالله الواحد، ونبذ عبادة الآلهة، وامتنع عن المعابد الوثنية، وتأيد لنا ذلك من المصادر الدينية (القرآن) واستخلصنا من الأحداث التى سبقت إخناتون أن ديانته لم تكن سوى صدى لحقيقة قائمة على أرض مصر، وإعلان عن قوم يؤمنون بالله الواحد، وكانت أيضاً إرهاصة لرسالة موسى عليه السلام، التى أوشكت واقترب موعدها. ذهب الدارسون والمؤرخون إلى أن إخناتون كان الرائد والمفكر والفيلسوف الذى صاغ عقيدة التوحيد ووضع أصولها وأحكامها فى السنوات الأولى من حكمه، ثم جهر بها وقدمها لأتباعه وشعبه ابتداء من العام الرابع حين وضع أساس عاصمته الجديدة، ثم وصل به الأمر أنه أعلنها ديانة الدولة الرسمية والوحيدة. وقد ناقشنا هذا الرأى واستبعدنا نسبة هذا الفكر الدينى المتقد بالغ السمو والرقى إلى الملك الصبى إخناتون ذى الأربعة عشر ربيعاً فى تاريخ حكمه، وأيضاً لم نتقبل فكرة أن يتحمل بمفرده - حتى ولو كان ملك البلاد - بعد أن بلغ مرحلة الشباب أن يعلن وهو فى الثامنة عشرة من عمره ثورته الكبرى على الوثنية، ويقلب أوضاع الدولة رأساً على عقب ضارباً عرض الحائط بتاريخها العقائدى الذى صاغ أساسها الفكرى والفلسفى، وارتبط تمام الارتباط بحضارتها وطقوسها وعمارتها ونظامها

الإدارى والاقتصادى، فيغلق المعابد ويصادر أموالها، ويبدأ مشروعاً جباراً لهدم معابد الوثنية المتوارثة القائمة منذ آلاف السنين السابقة على وجوده، ويقيم معابد للإله الواحد فقط.

وإذ استبعدنا الحماقة عن إخناتون ونزَّهناه عن الجنون، ذكرنا أن هذا التحول الفجائى الذى حدث فى عهد لا يتصور إلا فى حالتين، الأولى أن يكون نبياً يبلغ رسالة السماء، وهذا ما نستبعده أيضاً؛ لأن هذه الحالة بدأت عند إخناتون وهو صبى فى الرابعة عشرة من عمره، كما سبقت عهده تباشير تعلن عن قرب دعوته، فتكون إذن الحالة الثانية وهى أنه حين دخل فى عقيدته كان يقف على أرض صلبة استمدها من قوة عقيدته التى تلقنها فى صباه من أخواله فى عين شمس، وكان يعلم أن خلفه قوة أخرى تسانده هى جموع من الشعب المؤمن الذى كان يعيش منذ زمن فى الشمال، وهم على استعداد لمؤازرته فى دعوته ونشرها، وكان لهذه الجموع قيادة تعمل فى الخفاء، كانت السبب فى استمرار هذه العقيدة، وهى من دفعت إخناتون إلى ثورته.

وفيما بعد أعلن كهنة آمون أنهم حين طردوا إخناتون من طيبة هو وبلاطه ومعاونيه كانوا حوالى ثمانين ألف شخص، وإذا كان ذلك يعنى أن هؤلاء هم من رحلوا مع إخناتون إلى العمارنة، فإنه كان يوجد آلاف غيرهم وأسرهم فى مناطق أخرى كثيرة من مصر خصوصاً الشمال، لهذا اختار عاصمة دولته فى منطقة وسط؛ لتكون قريبة من هؤلاء المؤمنين الذين يناصرونه فى شمال مصر، وهؤلاء الذين يسعى لدعوتهم فى الجنوب.

إن خصائص الدين الذى اعتنقه إخناتون وأتباعه والذى نعرفه من ذلك القدر اليسير من آثاره التى نجت من التدمير والتخريب يكفى لتحديد أن أركانه قامت على الإيمان بوجود إله واحد خالق للكون كله، وأنه لا شريك له، وتحريم عبادة آلهة أخرى مع الله الواحد، وتحريم تصويره أو تمثيله على أية صورة من الصور، فقط عبَّر عنه إخناتون بقرص الشمس الذى تعطى أشعته الحياة للناس أجمعين، وهذه الخصائص بهذا القدر تنطق بأنها من الديانات السماوية، بما أكدنا معه فى دراستنا أن هذه العقيدة مستمدة من عقيدة الإسلام دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف - عليهم السلام - تلك العقيدة التى دخلت مصر بدعوة يوسف نبى الله الذى كانت بعثته فى الأساس لهداية المصريين وسبقت دخول آل إسرائيل مصر. وقد ذكرنا فى دراستنا أن من أهم شروط قبول هذا الرأى أن ننفض عن عقولنا الجوانب العنصرية، وأسرلة الدين التى تعرضت لها صياغة التوراة فى عصورها اللاحقة وتأثر بها التراث الفكرى الدينى فى العصور المختلفة، واستشهدنا لتأييد رأينا بجميع الآيات القرآنية التى تؤكد أن يوسف عليه السلام مارس دعوته فى مصر، وفسرنا من القرآن إيمان ملك مصر وكثير من الكهنة والشعب.

إن حياة يوسف لم تصل إلينا عن طريق أية مصادر تاريخية، لكن تأكيد دعوته للمصريين

جاء فى الآية ٣٤ فى سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون فى عهد موسى حين قال لقومه: **«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤)» [غافر].**

وقد عاش يوسف فى مصر عمراً مديداً تصل به التوراة إلى مائة وعشر سنين، وكانت سنوات دعوته التى يحتمل أن تكون قاربت السبعين عاماً سابقة على إخناتون بنحو مائتى عام، وإذا كانت قصة يوسف قد انتهت فى المصادر الدينية بوفاته، فإن مظاهر تاريخية ليست بالقليلة تؤكد استمرار وجود هذه العقيدة بعد سقوط حكم الهكسوس، وقدمنا تفصيل تلك المظاهر فى مراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر، وقد قال بعض الدارسين: إن الثورة الدينية لإخناتون وظهور عقيدة آتون بدأت فى الحقيقة عندما أبعدت الملكة «تى» زوجها أمنحوتب الثالث إلى الصفوف الخلفية، وبدأت تحكم بمفردها، لكننا قدمنا ما يثبت وجود عقيدة التوحيد فى مصر على آثار من عهد حتشبسوت، ورأينا أن الآتونية بدأت فى الظهور تاريخياً على يد كهنة عين شمس الذين اغتالوا زمرة من أبناء الملك أمنحوتب الثانى ليرفعوا الأمير الصغير تحوتمس الرابع إلى عرش مصر، وقد ارتبط ذلك بظهور عائلة يويا التى قادت الآتونية، وتسللت بها قبل أن تعلنها ثورة إخناتون، ونسبت دراستنا انتماء هذه العائلة إلى بنى إسرائيل الذين يعيشون فى مصر، والذين بفضلهم استمر هذا الدين حياً منتشراً، وعن طريق مصاهرة عائلة يويا لأسرة الحكم وصلوا بهذا الدين إلى الحفيد إخناتون الذى أعلن - وخلفه أخواله - أنه الدين الرسمى للدولة.

إذاً لم تكن عقيدة إخناتون سوى صورة صادقة من عقيدة أنبياء إسرائيل التى دخلت مصر فى عهد يوسف، ولم يكن إخناتون رائداً ولا مفكراً ولا فيلسوفاً، وإنما هو ابن للملكة «تى» بنت يويا حفيد إسرائيل، كان الملك إخناتون هو رمز الشرعية الذى يستمده من جلوسه على العرش باعتباره من سلالة الملك المؤسس أحمس، لكنه نشأ فى عين شمس وتربى فى بيت أخواله فى أحضان عقيدة التوحيد، ونقلت إليه منذ طفولته، وعندما دفع لإعلانها لم يكن وحيداً أو مستحدثاً لأفكار جديدة، وإنما كانت خلفه جموع من آلاف المؤمنين ورجال دين منتشرون. وقد أقام عدداً من المعابد فى أنحاء مصر، وبعث إليها من يعرفون هذه العقيدة وأصولها لنشرها بين الناس.

وبعد سقوط إخناتون هدم حورمحب عاصمته آخت آتون، وأخذ على عاتقه قتل وتشتيت أتباعه وإذلال المؤمنين ليرتدوا عن دينهم، فحول مدينة ثارو شمال شرق مصر - والقريبة من معقل بنى إسرائيل - إلى سجن كبير وجمع أتباع إخناتون وبنى إسرائيل المؤمنين فى هذا المعسكر، وعين وزيره بارعمس حاكماً عسكرياً عليه، ونكل بهم وعذبهم بكل أنواع العذاب، فكان عصر حورمحب هو الحقبة التاريخية التى قصدها القرآن الكريم فى قوله تعالى:

« إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي

نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾» [القصص].

وبهذا تجيب دراسة المصادر التاريخية عن السؤال الذى حار فيه المؤرخون وهو: لماذا كان المصير الأليم لبنى إسرائيل الذى تحدث عنه القرآن والتوراة؟ ولماذا أذاقهم الفرعون هذا العذاب المهين بعد حياتهم السعيدة والمستقرة فى مصر؟ فلم يكن الإسرائيليون أول الشعوب الأجنبية التى استضافتها مصر ولا آخرها، فقد كانت العاصمة المصرية ومدن مصر الكبرى فى عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وبعد ذلك تعج بالأجانب، ويتردد فيها كثير من الأسماء الآسيوية، وكان يخالط المصريين الليبيون والزنوج والآسيويون، وقد استقدم الملوك الفاتحون فى حروب آسيا مئات الألوف من الأسرى وعاشوا واستوطنوا مصر، وكان يوجد فى مدينة منف أقدم وأعرق العواصم المصرية، وكذلك فى مدينة بر رعمسيس أحياء للأجانب ومعابد للآلهة الأجنبية، وجاء فى بردية من هذا العصر عن إحدى مناسبات منف أن «الآسيويين بمنف مستريحون ومطمئنون».

إذاً لقد كان سقوط دعوة إخناتون وما تكشف بعدها من علاقة بنى إسرائيل بكل ما حدث فى مصر هو السبب الحقيقى لبداية مرحلة تعذيب بنى إسرائيل والتى استمرت حتى الخروج من مصر.

وبالتأكيد فإن بطش حورمحب بالمؤمنين قد أتى ثماره التى كان يرجوها هو وكهنة المعابد، فاختفت ظاهرياً ديانة التوحيد، وتوارى المؤمنون عن الأنظار المتربصة لهم، وعن خناجر الطغاة المسنونة والباحثة عنهم، واستقرت العقيدة فى قلوب أصحابها فى صمت فى مختلف أماكن وجودهم فى مصر.

ومرت سنوات حورمحب وسجل له التاريخ أنه المصلح الذى أعاد النظام إلى نصابه، ولم يلتفت التاريخ - كعهدنا به - إلى المهزومين والمقهورين واكتفى فى شأنهم بما سجله الملوك والكهنة عنهم بأنهم المارقون أتباع «مجرم أخيتاتون»، لكن الله - سبحانه وتعالى وهو خير الشاهدين - كشف جريمة هذا الفرعون ووصفه بأنه كان من المفسدين، وأخبرنا بإيمان هذه الطائفة المستضعفة واتجاه إرادته - سبحانه - لأن يمن عليهم وينصرهم ويجعل لهم السيادة فى أرض مصر.

وبعد أن انتهت فترة حكم حورمحب كانت سنوات حكمه الانتقالية وما صاحبها من قتل وبطش وتشريد كافية لأن تؤكد لحكام الأسرة التاسعة عشرة أن عقيدة إخناتون قد أصبحت أثراً بعد عين، وأن أتباعه قد انتهوا، وانفضت هذه السيرة بكل أحداثها، وإذا كان المؤمنون المصريون قد اختفوا إلا أن بنى إسرائيل بعد كشف أمرهم سحبت منهم جميع ميزاتهم القديمة التى كانت معهم منذ عهد يوسف، واستمر تسخير رجالهم فى أعمال البناء وصناعة الطوب. واستغلال نسائهم محظيات وجوارى ومتاع فى قصور الملوك وكبار الموظفين، وكان هذا

هو الوضع القائم حتى حان موعد مصر مع نبى الله موسى وعاد إليها قبل انتهاء عهد الفرعون رمسيس الثانى حاملاً ومعه شقيقه هارون رسالة السماء، وكان الغرور قد أوصل هذا الفرعون إلى حد تأليه ذاته، فأنكر دعوة موسى وسخر منه، لكن موسى أتى بمعجزاته فى بلاطه، ثم كان انتصار موسى على سحرة مصر فى يوم النزال السحرى الذى أعده له الفرعون فى يوم العيد، وصور القرآن الكريم ذلك المشهد العظيم لإيمان السحرة وسجودهم لرب موسى وهارون، وانتقل الخبر العظيم مدوياً فى أنحاء العاصمة، ومنه إلى مدن وقرى مصر، واهتزت من جديد قلوب المؤمنين التى توارت منذ زمن.

وكما شهد القرآن الكريم بإيمان أصحاب إخناتون الذين كان يعذبهم حورمحب، فقد قدم الله تعالى لنا أيضاً فى سورة الكهف عدداً من النماذج الصالحة، الأمر الذى يشهد أنه كان فى مصر جماعات من المؤمنين قبل أن يأتى إليها موسى:

- فذلك العبد المؤمن الذى قابله موسى عند مجمع البحرين.
- وهؤلاء المساكين الذين يعملون فى البحر وأراد الله تعالى أن يشملهم برحمته ورعايته.
- والغلام الذى كان أبواه مؤمنين.
- والغلامان اليتيمان اللذان أحبهما الله وحفظ كنزهما لأن أباهما كان صالحاً.

وبعد عودة موسى ودعوته دخل الإيمان إلى قلب عدد آخر من المصريين كان السحرة أولهم، وذلك المؤمن من آل فرعون الذى تحدث عنه القرآن الكريم فى سورة غافر، وأزعم أن الأمير خعمواس بن رمسيس الثانى وولى عهده كان هذا المؤمن، وذلك لعدد من المظاهر والدلائل سوف نتحدث عنها فى فصل لاحق.

ومع استمرار سنوات موسى فى مصر، وتوالى معجزاته دخل الإيمان فى قلوب الناس، لكن الكثير منهم كتموا إيمانهم بسبب الخوف من فرعون وجنوده، ووحد الإيمان بين المصريين المؤمنين وبين آل إسرائيل المؤمنين فانصهروا وجدانياً، وجمعتهم العقيدة والمناسك وشاركوهم قضيتهم ومحنتهم التى كانت تشكل الجزء الثانى من رسالة موسى، وهى إنقاذ شعب إسرائيل من الاستعباد والسخرة والهجرة بهم إلى الأرض التى وعدهم الله «فلسطين».

ونجد التوراة رغم عنصريتها فى قضية الدين فإنها لا تنكر حب المصريين لشعب إسرائيل ولموسى نبى الله «وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين، وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً فى أرض مصر فى عيون عبيد فرعون وعيون الشعب» [الخروج - الإصحاح الحادى عشر-٣].

وتذكر التوراة أن إحصاء موسى عند الخروج لشعب إسرائيل من الذكور القادرين على الحرب من ابن عشرين سنة فصاعداً بلغ (٦٠٣٥٥٠) ستمائة وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين رجلاً، وقد أجمع الدارسون والمؤرخون - بحق - على استحالة التفسير الحرفى لرواية العهد

القديم لعدد بنى إسرائيل، ذلك أنه بإضافة النساء والأطفال فإن العدد قد يصل إلى ثلاثة ملايين، فإذا كان عددهم عند دخولهم مصر بلغ سبعين فرداً، ومع إقامتهم المقدرة بـ ٤٣٠ سنة، فلا يمكن أن يكون تعدادهم قد بلغ تلك النسبة، واختلفت تفسيرات المؤرخين، لكنها اجتمعت على رفض ذلك العدد لبنى إسرائيل.

وفى تقديرى أن هذا التعداد الذى تحدثت عنه التوراة كان صحيحاً، لكنه إحصاء خاص بعدد المؤمنين من الرجال القادرين على الحرب مع موسى من الذين آمنوا بدعوته سواء كانوا من المصريين أم الإسرائيليين، وقد خرجوا جميعاً معه عند خروج بنى إسرائيل لمناصرته وحمايته ومؤازرة إخوانهم المؤمنين من بنى إسرائيل على الهجرة والفرار بدينهم من سخرة فرعون إلى فلسطين تنفيذاً لوعد الله لهم، وبعد المعجزة الإلهية التى أجراها الله على يد موسى من انشقاق البحر وغرق فرعون وجنوده، عاد المصريون المؤمنون إلى بلادهم حاملين لواء الدعوة والإيمان، ولم يذكر الكهنة الذين أعادوا كتابة التوراة شيئاً عن إيمان المصريين بسبب عنصريتهم التى تقصر الدين والدعوة على بنى إسرائيل فاختصوا أنفسهم دون سواهم بدعوة موسى.

أحدثت النهاية المدوية لرمسيس الثانى وفناء جميع الجيش الذى خرج معه زلزالاً عنيفاً اجتاح المصريين، فلقد عاش رمسيس ملء السمع والبصر، حولته الدعاية إلى أسطورة فى حياة الشرق القديم، تعتبر فترة حكمه أطول مدة قضاها ملك على عرش مصر - إذا استثنينا ببى الثانى من الأسرة السادسة - وسبقتها سنوات ولايته للعهد ومشاركته والده فى حكمه وحروبه، يمكن القول إن جميع شعبه فى تاريخ تلك النهاية لم يعرفوا فرعوناً قبله، كان مهدهم وصباهم ونشأتهم وحياتهم فى سنوات حكمه، شيوخهم عاصروا حروبه، وشاركوا فى احتفالات النصر، وكبارهم عاشوا أيام المجد والرخاء والأعياد، وجميعهم ومعهم شباب مصر شاهدوا صراعه مع نبى الله موسى وتأثروا بمعجزات وآيات النبى التى كانت تحدث تحت بصرهم فى البلاد، كانت الدعوة ومعجزات الله لنبيه وحلقات الصراع تدور فى السنوات الأخيرة بين النبى الشيخ وبين الفرعون الطاغية، وفى ظل جبروت مؤسسة الحكم لم يعد الشعب قادراً على التمييز بين دعوة النبى وبين دعاية الفرعون، وحاشية القصر وكهنة المعابد، فاختلط الواقع بالخيال والحقيقة بالشائعة والمعجزة بالسحر، كانت آيات الله المفصلات، الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم تضرب كل أرض مصر، ولا ترفع إلا بدعوة موسى، فاهتزت صورة الفرعون الإله أمام الشعب، وأيقن البعض بدعوة موسى وتسرب الشك إلى قلوب آخرين، وصدق البعض أقوال دعاية القصر بأنه ساحر لا يبارى، وكثيرون لم يعلنوا إيمانهم لموسى خوفاً من بطش فرعون وجنوده «**فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)**»[يونس].

ثم كان أن خرج موسى وآل إسرائيل يحملون أموالهم المنقولة وماشيتهم وكثيراً من هدايا وذهب المصريين الذى قدموه لهم عن حب وطيب خاطر، وخرج معهم يناصرهم ويدفعهم ويؤازرهم جمع من الرجال المصريين المؤمنين القادرين على الحرب، لكن فور أن وصل الخبر فرعون امتلأ قلبه بالغيظ الشديد واستشاط غضباً، ولأن الأمر لم يكن متوقعاً وكانت مصر قد وضعت أوزار الحرب منذ زمن، فقد أعلن فرعون حالة التعبئة العامة وأرسل فى مختلف مدائن مصر لاستدعاء أفراد الجيش، وخرج بكامل عدده وعتاده عاقداً عزمه على إبادتهم جميعاً؛ واضعاً فى حسبانه أنه سوف يواجه أيضاً المصريين الذين خرجوا معه، وعن ذلك يقول الله تعالى: «**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)**» [**الشعراء**].

لكن الله تعالى بمعجزته الكبرى نجّا موسى وقومه وأغرق فرعون وجنوده، وفى تلك الليلة الكاحلة المظلمة انتهى الفرعون أسطورة مصر وملك ملوك الشرق، وتحطمت القوة العسكرية المصرية، فقد أبيد جيش الإمبراطورية العظمى ومعه أسلحته ومعداته وخيوله المدربة وفرسانه وعجلاته الحربية، لم يعد لمصر جيش يدافع عنها، وهو أمر لم يحدث من قبل فى تاريخ البلاد، أصبحت المؤسسة المصرية لا حول لها ولا قوة، وتحدث المؤمنون المصريون العائدون عن نجاح خروج إخوانهم المؤمنين من بنى إسرائيل، وعن المعجزة الكبرى التى حدثت عندما تراءى الجمعان أمام بحر سوف، واضطراب المؤمنين أصحاب موسى العزل من السلاح اضطراباً عظيماً، وقالوا إنا لمدركون!! فطمأنهم نبى الله: كلا إن معى ربى سيهدينى، ثم ضرب بعصاه البحر فانفلق أمامهم فكان كل فرق كالطود العظيم ليعبر نبى الله ومن معه من المؤمنين، وعندما تبعهم فرعون وجنوده عاد البحر إلى سيرته الأولى وغرق فرعون ومن معه جميعاً، وسرى الخبر سرياناً عظيماً بين الناس. وكان حتمياً وأمراً يفرضه واقع الظروف التى طرأت على مصر أن تحدث ثورة المؤمنين على المؤسسة الدينية فى شرق الدلتا وشمال مصر، حيث كان يعيش بنو إسرائيل ونبى الله موسى بعد عودته من مدين، وهناك انتشرت دعوته، وشاهد وسمع الناس قصص صراعه مع فرعون، وحدثت آياته، والآن تحول الناس من الشك إلى اليقين، وجاء اليوم لهؤلاء الذين كانوا يخافون فرعون ليؤمنوا بأنه لا إله إلا الذى أخبرهم عنه موسى ودعاهم إليه، واجتاحت ثورة المؤمنين شمال مصر، وضربت المعابد الوثنية فى مدنها الكبرى، بر رعمسيس وعين شمس ومنف، لا نعرف أبعاد ما حدث تحديداً، لكن نستدل على حدوث الثورة من لوحة مرنبتاح، ونستطيع أن نستخلص منها أن أبواب المعابد فى مدن الشمال قد أغلقت وسلبت ممتلكاتها، وتعطلت إقامة الشعائر الدينية، ولم تعد تقدم القرابين أو تقام طقوس الآلهة، وأن عظماء القوم وهؤلاء قد يكونون رجال إدارة أو رجال دين قد سلبت منهم

ممتلكاتهم. وتصف اللوحة هؤلاء الثائرين بأنهم أعداء منف وخصوم الآلهة، ولا نستطيع أن نستدل على موقف مرنبتاح من ثورة المؤمنين فى ظل غياب المؤسسة العسكرية وافتقاره إلى جيش وسلاح، يقودنا الاستنتاج ونستخلص من نصوص مرنبتاح أن هذا الهوان استغرق سنوات غالباً امتدت حتى العام الرابع من حكمه، وأنه ربما فى هذه الأثناء أقام فى إحدى الاستراحات الملكية البعيدة عن شمال مصر، أو يكون قد لجأ إلى العاصمة الرسمية طيبة فى الجنوب، والتى لم تصل إليها الثورة واستعان بكهنة آمون الأقوياء والأغنياء، وأيضا باقى معابد وسط وجنوب مصر، وبدأ يجمع شتاته وتمكن بأموال المعابد من إعادة تكوين جيش من المصريين والمرتزقة واستطاع به أن يواجه ثورة الشمال الدينية، ويحتمل أن تكون تلك القوات قد تمكنت من السيطرة على المدن الشمالية واعتقال عدد من المؤمنين الثائرين ووضعهم فى المعتقلات، وظلوا بها إلى حين أرسل حملة عسكرية إلى فلسطين وعادت لتعلن للمصريين أن مصر ما زالت تسيطر على مملكتها هناك، وأن قوم إسرائيل الذين خرجوا من مصر إلى فلسطين قد أبيدوا وليس لهم أى وجود على تلك الأرض التى خرجوا متجهين إليها، فصور الأمر على أنه انتصار عليهم، وهنا أجرى الملك مصالحة مع الشعب وأخلى سبيل من كانوا فى المعتقلات فى كل إقليم لكى يستعد لمواجهة الأعداء الليبيين الذين احتلوا غرب مصر.

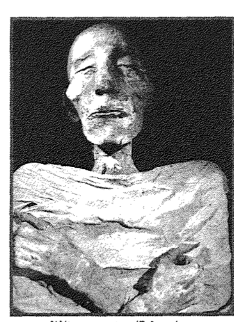
وهناك افتراض آخر غير مستبعد لتوضيح شأن المعتقلين الذين يتحدث النص بأن مرنبتاح أخلى سبيلهم، وهو أن يكون المؤمنون الثائرون فى ثورتهم قد تمكنوا من اعتقال الكهنة وعظماء القوم الذين حاولوا أن يدافعوا عن المعابد ويقاوموا سلب ممتلكاتهم وأموالهم ووضعوهم فى السجون، وظلوا هكذا حتى وصل جيش مرنبتاح وتمكن من إطلاق سراحهم بعد الانتصار على المتمردين.

خلاصة القول فى أمر تلك الثورة، تسجله القصيدة بأن الغيوم كانت تخيم على مصر، وأن جبلاً من النحاس كان يرزخ فوق ظهر الشعب.

أما بشأن حملة مرنبتاح إلى فلسطين والتى سبقت حرب الليبيين، فإنه لتبريرها يلزم أن نذكر عدداً من الحقائق المؤكدة وليست من قبيل الفروض الاستنتاجية، ذلك أنها مستخلصة من المصادر الدينية. وهى أنه فى الفترة الأخيرة من حكم فرعون الخروج والذى نقدم الأدلة على أنه رمسيس الثانى، كان موسى يدعو إلى الإسلام فى مصر، وصاحب دعوته وصراعه مع الفرعون حدوث كوارث أصابت البلاد أرادها الله لتكون آيات ضد عناد الفرعون وطغيانه، وإثبات نبوة موسى واتصاله بإلهه الواحد، وقد مست تلك الأحداث كل الناس على أرض مصر، وكان الله يرفع البلاء بدعوة نبيه موسى، وكأن الله تعالى أراد لآياته أن تقوم بدور الإعلام فى نشر الدعوى، حتى كانت فى النهاية معجزة الخروج التى جعلت مصرع فرعون الطاغية وإبادة جيشه وتحطم قوته العسكرية آية كبرى أذهلت العقول، وهذا يؤكد دون أى شك أن وقائع قصة

موسى وفرعون منذ بداية الصراع فى مرحلة الدعوة وحتى معجزة الخروج ونهاية فرعون قد شاعت وانتشرت واعتبرت وقتها أحداثاً عظيمة ظلت تتردد فى أرجاء مصر، ولم تكن أبداً أمراً هامشياً صغيراً، كما يحاول أن يبرر كثير من المؤرخين عدم الإشارة إلى قصة موسى وفرعون فى المصادر المصرية. وأيضاً فى ظل هذه العوامل القوية نستطيع أن ندرك أن الكثير من المصريين وصلت إليهم دعوة موسى وآمن به بعضهم كما أشرنا سابقاً. وكل هذا يؤكد أن مصر كلها - رجال الدولة والشعب - كانوا على علم تام بأن آل إسرائيل خرجوا من مصر قاصدين فلسطين لإقامة دولتهم.

إذاً عندما تولى مرنبتاح حكم مصر يمكن تصوير الوضع الداخلى بأنه كان فى حالة ضعف وهوان، وأصبحت مصر بلا جيش يحميها، وأدى ذلك إلى حدوث ثورة دينية فى الشمال تمكنت من السيطرة على المدن الكبرى وإغلاق المعابد والاستيلاء على أموالها وأموال كبار القوم، وبعد أن انتصر العبيد (عمال السخرة الإسرائيليون) وخرجوا من مصر بمعجزة إلهية قضت على الفرعون وجيشه، فقد أصبح موسى فى نظر المصريين البطل الذى أنقذ شعبه وقهر فرعون أسطورة مصر والشرق، وصار للمؤمنين رسولاً متصلاً بالله يمده بالنصر والحماية، وأطلعهم على حقيقة الإله الواحد بعد آلاف السنين من الوثنية الراسخة، أما غير المؤمنين فقد اعتقدوا أنه ساحر أسطورة لا يبارى، وقد خرج مع قومه متوجهاً إلى فلسطين الخاضعة للسيادة المصرية متحدياً الفرعون لإقامة دولة لهم عليها، وزاد الطين بلة والموقف خراباً أن الليبيين مع تحالف من شعوب البحر استغلوا هوان مصر وفقدانها جيشها وزحفوا عليها فى جماعات تمكنت من السيطرة على المناطق الغربية، قادمين بغرض استيطان أرض الكنانة، واستعدوا للهجوم على أراضى الدلتا، وأصبح على مرنبتاح، الذى كان شيخاً فى أواخر الستينيات من عمره، مواجهة كل هذه الأوضاع، وكان لازماً لجمع الشمل والسيطرة على زمام الأمور أن تكون أهم أولوياته على الإطلاق هى القضاء على هذا البطل الأسطورة الذى استحوذ على عقول الشعب وزلزل كيان مصر وفعل بها ما لم تستطعه أقوى الإمبراطوريات العسكرية فى الشرق القديم، ولا بد أنه قد بذل الجهد الجهيد لإعداد جيش يصلح للقيام بحملة إلى فلسطين وأرسله إلى المستعمرات المصرية لأول مرة منذ خمسين عاماً (منذ سنة ٢١ من حكم رمسيس الثانى)، ووجد هذا الجيش الأحوال على ما هى عليه، بلاد خاتى (الحيثيين) مسالمة لأنها مرتبطة بمعاهدة سياسية مع مصر، وكانت فى تلك



مومياء مرنبتاح بن رمسيس الثانى

الفترة فى حالة من الضعف السياسى وغارقة فى مشاكل ونزاعات لا تساعدها على تحقيق أية أطماع، وكنعان ما زالت خاضعة لمصر ومدن عسقلان وجازر وينوعام على ولائها، وخارو فى المنطقة الجنوبية لسوريا وشمال فلسطين فى سلام، ومستعمرات مصر فى الشمال بوجه عام سليمة لم تمس، لم يبق إذاً إلا ذلك البطل موسى الذى جاء خصيصاً لأجله، لكن لا أثر له فى فلسطين الذى خرج مع قومه قادماً إليها، ولا بد أن حملة مرنبتاح قد أجرت عملية تمشيط للبحث عن الشعب الإسرائيلى الجديد فى المنطقة الحدودية الجنوبية من المرتفعات الفلسطينية، لكن دون جدوى لأنهم فى تلك الفترة كانوا فى سنوات التيه.

وعاد جيش مرنبتاح بنتائج حملته التى تم تصويرها للشعب جملة على أنها انتصار، مستخدماً فى ذلك عبارات مأثورة، ولم يكن كاذباً عندما أعلن أن شعب إسرائيل لم يعد له وجود؛ لأن المصادر الدينية تقول: إن موسى فى طريقه إلى فلسطين سلك طريقاً آخر من جنوب شبه جزيرة سيناء مختلفاً عن طريق الشمال المعتاد، ولم تستطع حملة مرنبتاح العسكرية المستحدثة على عجل وذات الإمكانات الاستخباراتية الضعيفة أن تهتدى إلى مكان شعب إسرائيل، وكان طبيعياً إزاء ذلك - ويتفق مع منطق الدعاية والسياسة - أن يبلغ قادة الحملة جلالة الفرعون وحاشيته ورجال بلاطه أن شعب إسرائيل قد محى وبذرته لا وجود لها، وصادق ذلك رغبة وهوى الفرعون الذى يريد أن يتخلص من ذلك الكابوس الجاثم على البلاد وتسبب فى فتنة طائفية، فأعلن ذلك لكل الشعب داخل الدولة، وهو أمر يؤكد واقع الحال صحته وقبوله لدى الناس لأحد سببين، الأول: أن الفناء أيضاً كان نهاية فرعون وجيشه، والثانى: احتمال هلاك موسى وقومه وفنائهم بعد سنوات من خروجهم فى صحراء سيناء. المهم أن الفرعون قد وجد أخيرا المبرر ليقنع شعبه أنه ليس فى الأمر معجزة كما يتوهمون، وأن موسى ليس بطلاً أو أسطورة، وأن الذى جرى على رمسيس وجيشه جرى على موسى وقومه، فوأد بذلك الفتنة وأعاد مصر إلى أحوالها السابقة، وبعدها تفرغ لمحاربة الليبيين، وبعد أن حقق الانتصار عليهم، وضع له كاتبه هذه القصيدة الوطنية، وسجلها على ألواح متعددة ووزعها فى المعابد فى أنحاء مصر ليتغنى فيها بنصر حقيقى استغرقت تفاصيله معظم سطور اللوحة، لكن أيضاً كان لدى شاعر مرنبتاح المبرر ليضع إسرائيل فى سطر فى الجزء الأخير من أنشودة النصر، ولم يكن غارقاً فى المبالغة أو الضلال عندما ذكر بوجه عام أحوال المستعمرات المصرية فى آسيا، وأن قبائل إسرائيل ليس لها وجود فى فلسطين، وقد اكتفى باستعارة ألفاظ تقليدية من تراث السلف لتصوير النصر على الشعوب والمدن، وعندما جاء الدور على الشعب الجديد إسرائيل استخدم لفظاً مصرياً دارجاً فى عبارات النصر التقليدية بأنه قد محى، وبذرته لا وجود لها، وهذا ما يفسر أنه استخدم لهم مخصص الشعب وليس الدولة أو المنطقة، وكذلك السرعة والعبارات المقتضبة على نحو يخالف تصوير المعركة ضد

الليبيين وشعوب البحر التى شهدت حرباً حقيقية وانتصاراً يستحق الفخر.

والآن يتضح من تفسير نصوص لوحة إسرائيل أن شعب إسرائيل كان قد خرج من مصر فعلاً قبل تاريخ تسجيل اللوحة المؤرخة فى العام الخامس من حكم مرنبتاح، وأنه لم يكن قد دخل فلسطين بعد وكانت مصر لا تزال تحتفظ بممتلكاتها هناك.

وحيث إن الحقائق الدينية تشهد بغرق فرعون الخروج وفنائه مع جيشه، وتشهد أيضاً بدخول شعب إسرائيل فى سنوات التيه التى استمرت أربعين سنة بعد الخروج.

فإنه من هذا المصدر التاريخى، إلى جانب الحقائق الدينية يتأكد لنا بما لا يدع مجالاً لأية شك أن رمسيس الثانى هو فرعون الذى خرج بنو إسرائيل فى نهاية حكمه، وقد تدعمت تلك النتيجة وتساندت من مظاهر الضعف والدمار اللذين أصابا مصر فى بدايات عصر مرنبتاح واستمرا عدة سنوات بسبب إبادة جيشها على نحو ما أوضحنا.

وإذا أعدنا قراءة نص لوحة إسرائيل بعد هذا الإيضاح فسوف يتأكد لنا جميع المظاهر التى تدعم تلك النتيجة.

ثالثاً: وثائق عصر مرنبتاح

ومن عصر مرنبتاح أيضاً تأتى وثائق من شرق الدلتا لتؤكد أن بنى إسرائيل فى عهده كانوا قد رحلوا من أرض إقامتهم.

فقد عرفنا أن دخول بنى إسرائيل إلى مصر فى زمن يوسف قد حدث فى فترة حكم الهكسوس، وهذا ما أكدته كثير من الأدلة الدينية والتاريخية، وكانت العاصمة المصرية للهكسوس «أواريس» (حت وعرت - صان الحجر الحالية) فى شرق الدلتا، وقد اختار يوسف لإقامة قومه أرضاً خصبة قريبة من مركز حكمه فى العاصمة وهى أرض جوشن (جاسان). (سفر التكوين - الإصحاح السابع والأربعون).

وتذكر التوراة أن رحيل بنى إسرائيل بدأ من مدينة رعمسيس إلى سكوت، ثم ارتحلوا من سكوت ونزلوا فى إيثام فى طرف البرية..

(سفر الخروج - الإصحاح ١٢-٢٧،الإصحاح ١٣-٢٠)، وأيضاً فى سفر العدد «فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس ونزلوا فى سكوت، ثم ارتحلوا من سكوت ونزلوا فى إيثام التى فى طرف البرية» (الإصحاح ١٣-٥، ٦).

أما عن مدينة رعمسيس فهى المدينة التى أقامها رمسيس الثانى فى شرق الدلتا، حيث منطقة وادى طميلات التى تضم أرض جوشن، وكانت تجرى بين جانبى هذا الوادى الضيق قناة متفرعة من النيل شرقاً حتى البحيرات المرة وهى التى حملت موسى رضيعاً إلى بيت الفرعون، وقد اهتم رمسيس الثانى بهذا الموقع، وهو موطن نشأة أسرته، ولعل هذا كان أحد

الأسباب التى دعته إلى تأسيس عاصمة ملكه فى هذه المنطقة بعد أن ضم إليها عاصمة الهكسوس القديمة، بالإضافة إلى الأسباب الإستراتيجية والسياسية الأخرى وأهمها قرب هذا المكان من الحدود الشرقية لمصر، حيث مستعمراتها فى آسيا، ووجود الحصون العسكرية المهمة، وأن هذه المنطقة كانت مبعث الخطر الذى هدد مصر زمن إخناتون وانطلقت منه العقيدة الآتونية، ويؤكد ذلك أن الاهتمام بهذه المنطقة بدأ منذ عهد حورمحب الذى ترك العاصمة طيبة وأقام فيها ليمارس بضراوة حرب الإبادة ضد المارقين أتباع إخناتون، واهتم بأعمال البناء فى هذه المنطقة الشرقية، وتذكر مصادره أنه قام بتوسيع معبد ست بأفاريس، وذكر من بين مجموعات العمل التى سخرها «العابيرو»، وهؤلاء قطعاً هم العشائر الإسرائيلية التى كانت تعيش فى هذه المنطقة، وتحولت حياتهم إلى السخرة فى عهده.

كما أقام رمسيس الثانى فى هذا الوادى عدة حصون جميلة؛ فقد عثر فى وسط أنقاض مبان فى «تل رطابة» الحالية وعلى مقربة منه شرقاً بقايا مدينة «بر آتوم» (بيت أتوم) وهى المعروفة باسم «بتوم»، وهى أيتام التى تذكرها التوراة، وعلى مسافة منها شرقاً نجد أنقاض تل المسخوطة المعروفة باسم سكوت، وبالمصرية القديمة «سكو».

ومن بين الأوراق البردية المحفوظة فى المتحف البريطانى وثيقة تعرف بورقة «إنسطاسى السادسة»، وهى من السجلات الرسمية لوثائق عصر مرنبتاح، وتشمل خطاباً من أحد الموظفين الرسميين، وهو خطاب حكومى كتب فى السنة الثامنة من حكم مرنبتاح، يذكر الموظف أنه كتب لرئيسه: «أن بعض بدو (الشاسو) التابعين لأدوم قد سمح لهم على حسب التعليمات التى لديه أن يجتازوا حصن «مرنبتاح حتب حر ماعت» له الحياة والفلاح والصحة الذى فى إقليم «سكوت» (تل المسخوطة) فى وادى طميلات ليتاح لهم رعى ماشيتهم بالقرب من برك «بتوم» (بيت آتوم) لأجل أن يطعموهم ويطعموا قطعانهم فى ضياع الفرعون العظيم له الحياة والفلاح والصحة، وهو الشمس الطيبة لكل أرض.. ولقد جعلتهم يحضرون....».

ومن ثم يتضح من هذا الخطاب أن هؤلاء الشاسو قد سمح لهم بدخول بعض أرض التاج فى «جوشن» (وادى طميلات)، وأنه كان لا يسمح بمرور القبائل أو الأجانب إلا بإذن الملك وتعليماته، وهذه الحالة لا يمكن أن تحدث إذا كان الإسرائيليون لا يزالون يقيمون فى أرض جوشن فى السنة الثامنة من حكم مرنبتاح، الأمر الذى يؤكد أن حادثة خروجهم وقعت قبل هذا العام، وأنه تمت مصادرة أراضيهم لتدخل ضمن ضياع الفرعون، وأن ذلك غالباً حدث فى وقت قريب من تاريخ تحرير ذلك الكتاب، مما استدعى أن تُقرر حماية خاصة لتلك الأراضى، وبالذات تقييد دخول الأجانب وقبائل البدو إليها إلا بإذن ملكى مع تسجيل وحفظ الوثائق الرسمية لهذه المنطقة التى يبدو أن الوضع الخاص لها أصبح يقتضى أن تخضع للمراقبة والحماية والاستطلاع الأمنى ومتابعة المعلومات من أجهزة الاستخبارات، وربما يكون قد وجد

من حاول العودة من بنى إسرائيل إلى مصر. خصوصاً أن التوراة تذكر أنه حدث أحياناً أن كثيراً منهم ضجروا من حياتهم فى صحراء سيناء، وندموا على خروجهم من مصر، وقد اشتد عليهم الأمر جداً عندما طلب منهم موسى دخول أرض كنعان ومحاربة الجبابرة طوال القامة بنى عناق، فصرخوا وبكوا وتذمروا ورفضوا وقالوا: «أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر، وقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر» (الخروج - ١٤ : ٣، ٤).

وتؤكد وثائق أخرى من عصر مرنبتاح أن الحراسة فى هذا الوادى كانت شديدة إلى حد بعيد، وكذلك كانت المراقبة عظيمة على الطرق الرئيسية إلى آسيا فى قلعة ثارو الفرعونية بداية طريق حورس الحربى القديم بين مصر وفلسطين، إذ وصلت إلينا يوميات موظف من عهد مرنبتاح كان يقيم فى حصن ثارو، وكان يختص بقيد أسماء المبعوثين والخارجين والداخلين والأعمال التى كلفوا بأدائها ممن يجتازون هذا الحصن فى طريقهم إلى كنعان وسوريا لعرضها على السلطات، وربما كان ذلك لقطع أى منافذ اتصال بين أتباع موسى فى مصر، وبين بنى إسرائيل سواء أثناء فترة مقاومة الثورة التى ضربت المدن الشمالية أم بعد القضاء عليها.

وأيضاً يتضح من هذه اليوميات والملاحظات المدونة عليها؛ كثرة عدد الموظفين الذين كانوا يقيمون - حينئذ - فى كنعان وسوريا، والذين كانوا يصعدون إليها من مصر، وأيضاً كثرة الضباط الذين كانوا يقودون الحاميات المصرية فى مستعمراتها فى المدن المهمة بتلك المناطق.

وبذلك تقدم تلك المدونات دليلاً أيضاً على استمرار السيادة المصرية على فلسطين فى ذلك العهد، واستمرار الاتصال بين القادة فى مصر وحامياتها فى المستعمرات.

ومما تقدم يتبين أن المعلومات التى تقدمها تلك المصادر تضيف إثباتاً على أن خروج الإسرائيليين من مصر كان سابقاً على حكم مرنبتاح، وأن السيادة المصرية كانت قائمة على فلسطين فى عهده، واستناداً إلى ثوابت البحث التى تقتضى غرق فرعون الخروج وانتهاء حكمه، ومراعاة الاعتبارات التاريخية للحكم المصرى فى فلسطين، والفترة المقدرة لسنوات التيه قبل أن يصبح ممكناً لبنى إسرائيل دخول فلسطين بعد هذا التاريخ من عهد مرنبتاح، يكون فى ذلك إثبات جديد أن فرعون الخروج هو رمسيس الثانى الذى كان حكمه سابقاً مباشرة على حكم مرنبتاح، ويكون بنو إسرائيل فى هذا التاريخ فى مرحلة سنوات التيه.

رابعاً: تسخير بنى إسرائيل فى بناء مدينتى فيثوم ورعمسيس

تذكر التوراة أن فرعون مصر سخر بنى إسرائيل وأذلهم فى أثقل الأعمال وأنهم «بنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس» (سفر الخروج - الإصحاح الأول :١١).

ومدينة بى رعمسيس التى تقصدها التوراة هى العاصمة الجديدة الزاهرة التى أقامها

رمسيس الثانى فى بداية حكمه وجعل نواتها أفاريس بشرق الدلتا، حيث مقر أسرته. ولإعادة تصور هذه المدينة من خلال أجزاء غير متكاملة من الآثار، ومن أوصافها فى الكتابات القديمة نعرف أن رمسيس الثانى صممها منذ البداية لتنافس أمجاد منف وطيبة، واختار اسماً للمدينة هو «بى رمسيس عاننختو» (مدينة رمسيس الأكبر الظافر)، يتكون مركز المدينة من القصر الصيفى الذى بناه أبوه سيتى الأول وملحقاته التى تضم مصنع الزجاج والثكنات العسكرية، وقد وسع رمسيس الثانى وأثرى هذا القصر بشكل كبير، وتضم المدينة منشأة عسكرية، ومركز قيادة العربات ورئاسة المشاة، ومرفأ الأسطول، وترتفع داخلها المبانى العامة الأخرى المدنية والدينية، حول نواة القصر، وقريباً منه تقع مكاتب وبيوت كبار المسئولين بالحكومة والمقر الشمالى لحاكم الجنوب، وفى جنوب المدينة تقع مدينة أفاريس الأصلية وفيها معبد ست والمبانى القديمة، وشمال حى القصر يقع معبد رع العظيم المقام على الجانب الشرقى وواجهته تطل على الغرب، وترتفع أمامه عدة أزواج من المسلات، وداخل ساحة المعبد مقصورتان من الأحجار الصلبة وسلسلة من تماثيل الملك وعدد من اللوحات التذكارية تشيد بجبروت الفرعون، وفى مواجهة هذا المعبد يقع معبد آمون غرباً وتطل واجهته على الشرق، وعلى الحافة الشمالية الشرقية للمدينة الجديدة يوجد معبدان بمستوى أقل للإله بتاح والربة سخمت، وقرب هذين المعبدين بنى رمسيس الثانى فى الثلاثينيات من حكمه أبهاء الاحتفالات اليوبيلية، ليجرى فيها شعائر عيد «الحب سد» التى تعيد تجديد شباب الحكم، وفى مدخله بوابة جرانيتية ضخمة يصل ارتفاعها إلى حوالى ٤٠ قدماً، تؤدى إلى بهو معمد أعمدته الأربعة المركزية ترتفع إلى ٣٥ قدماً تحيط بها عشرة أعمدة بارتفاع ٢٢ قدماً، واختلاف ارتفاعى مجموعة الأعمدة ينشئ منوراً يضىء بين مستوى السطحين، وهو تصميم موجود مثله فى معبد الكرنك وفى البهو الغربى بمنف، وبعد هذا البهو نجد بهواً معمداً آخر به ستة أعمدة ارتفاعها ٢٠ قدماً يؤدى إلى حجرات أخرى، وأمام هذه الأبهاء اليوبيلية الجبارة كانت ترتفع ثلاثة أزواج من المسلات، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة أزواج أخرى عند البوابات الأخرى، وزينت الممرات بالتماثيل العملاقة.

وكانت المدينة محصنة تحصيناً طبيعياً وصناعياً بالمجارى المائية، وتضم مرافئ داخلية يسهل الدخول إليها من البحر المتوسط، وكانت الطبقة العاملة الفقيرة تسكن فى بيوت متواضعة.

وأقيم فى بى رعمسيس مجموعة صوامع ضخمة لتخزين الحاصلات الزراعية والضرائب العينية ومواد الجزية، ولاتساعها وضخامتها أطلق عليها بنو إسرائيل مدينة الصوامع.

وتقع بى رعمسيس من جهة الشرق قرب الصحراء وخلفها توجد منطقة زراعية بها قنوات ملأى بالسمك والطيور.

وقد تغنى الكتاب والشعراء بجمال وروعة وثراء «بى رعمسيس»، فوصفها أحدهم بأنها «جميلة الشرفات، باهرة القاعات اللازوردية والفيروزية»، وقال عنها آخر: تشرق الشمس فى سمائها وتغرب فى أفقها، والكل هجر مدينته واستقر فى جوارها»، ومن ضمن وصف كاتب عنها قال: «مخازن حبوبها مملوءة جداً بالشعير وحنطة العلف إلى مستوى يصل قريباً من السماء».

وقد تم تحديد موقع هذه المدينة حالياً، ويقع مركزها فى قنتير شمال شرق مدينة الزقازيق بحوالى ٥٠كم، وإلى الشمال من مدينة فاقوس بحوالى ١٢كم، وإلى الجنوب منها بحوالى كيلومتر تقع تل الضبعة، وهذه تقع على طريق تانيس (صان الحجر بمحافظة الشرقية)، وتشكل أجزاء كبيرة من أواريس عاصمة الهكسوس، وعثر فيها على أجزاء من قصور وقلعة من عصر الأسرة الثانية عشرة، وتبين استعمالاً للموقع مكثفاً فى نهاية عصر الهكسوس، وقديماً كانت تقع مدينة بى رعمسيس ضمن حدود المقاطعة التاسعة عشرة من مقاطعات الوجه البحرى على الضفة الشرقية للفرع البيلوزى للنيل (مصب الفرما شرق بورسعيد)، والموقع حالياً يضم القرى قنتير وتل الضبعة وعزبة رشدى والختاعنة، وعزبة حلمى التى تمثل أجزاء من مدينتى بى رعمسيس وأواريس.

وتلك المدينة أخذت اسمها فى عهد مؤسسها رمسيس الثانى، وتحدثت التوراة عن تسخير بنى إسرائيل فى العمل بها، وقد اتفق وصف العهد القديم لها بأنها مدينة مخازن مع الكتابات القديمة التى وصفتها. وإن كانت الصياغة البشرية التى تعرض لها العهد القديم بعد قرون لاحقة على عهد موسى قد ركزت على هذا الجانب فقط سواء لمدينتى بى رعمسيس أم فيثوم دون باقى صفات المدينة الأخرى، فإن ذلك فى اعتقادى قد يرجع إلى أسباب:

أولا: أن امتلاء المخازن بالطعام والحبوب هو الذى يعنيهم من الناحية الإنسانية باعتبارهم - آنذاك - من طبقة العبيد الذين يعملون بالسخرة دائماً، فقد اهتم العهد القديم فى أكثر من موضع أن يسجل أنه عند خروج بنى إسرائيل من مصر «حمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم» (الخروج -١٢:٢٤)، وعندما تذمروا من موسى وهارون فى برية سيناء بعد الخروج قالوا لهما: «ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع» (الخروج -١٦:٣)، وفى القرآن الكريم يقول عنهم الله تعالى: «**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴿٦١﴾**»، [البقرة].

وثانياً: أن العمل الأكثر لبنى إسرائيل فى المدينة غالباً كان استخدامهم فى بناء الصوامع والمخازن، ثم نقل الحبوب من الحقول إليها خلف أسوار المدينة الجديدة، وقد كان يستخدم فى

بنائها الطين واللبن الذى كانوا يصنعونه، ويباشرهم فى أعمال السخرة مدبرو بنى إسرائيل ورؤساء التسخير المعينون عليهم، أما بناء القصور والمعابد بما تحويه من صروح ومقاصير وأعمدة وتماثيل ومسلات ولوحات وتصميمات إضاءة وتعامد لأشعة الشمس، وتصوير ونقش وغيرها من الأعمال الفنية الرائعة والدقيقة فلم تكن تناسب هذه العمالة الرخيصة والوضيعة الخبرات إلا فى أضيق نطاق (ربما لا يتعدى نقل الأحجار)، وإنما هذه الأعمال الهندسية والفنية تحتاج إلى خبرات المهندسين والمثَّالين والفنانين المصريين والعمالة الفنية المدربة التى توارثت خبراتها جيلاً عن جيل.

وثالثاً: أن منطقة المخازن والمصانع كانت تقع جنوب القصر الملكى وتقف حداً فاصلاً بين المدينة الجديدة الرائعة وبين مدينة أفاريس القديمة التى كانت يوماً عاصمة للهكسوس ومقراً لإقامة بنى إسرائيل، حينما كان يوسف وزيراً فى المدينة وعيَّن إخوته فيها رؤساء على مواشى الملك، وأسكنهم فى أرض جاسان القريبة والممتدة ضمن منطقة وادى الطميلات حتى البحيرات المرة فى الإسماعيلية الحالية، واستمرت إقامة أبنائهم وأحفادهم بها حتى حدث التحول الكبير ضدهم فى عهد حورمحب بعد أن انتبه لدورهم فى ثورة إخناتون الدينية، فاضطهدهم وعذبهم، وربما سلب ممتلكاتهم، وعرف أصلهم القديم وحولهم إلى طبقة الأسرى والعبيد، وعاد لهم لقب «العابيرو»، واستخدموا فى أعمال السخرة، وهؤلاء كانوا يسكنون جنوباً فى بيوت الطبقة العاملة الفقيرة المتواضعة والتى شهدت ميلاد موسى قبل بناء المدينة الجديدة، وعندما بنى رمسيس الثانى «بى رعمسيس» كان أمامهم منها صوامعها الضخمة ومخازنها الكبيرة والتى كانوا يستخدمون كعمال فيها، فانحصر اهتمامهم بها دون أى شىء آخر.

ومع تسليمنا بصحة وصف العهد القديم لمدينة «بى رعمسيس»، ذلك أنها فعلاً كانت تحوى صوامع ومخازن حبوب ضخمة، وباعتبار أن رمسيس الثانى هو مؤسس تلك المدينة، والذى منحها اسمها، فإن ذلك يعنى يقيناً أن بنى إسرائيل كانوا يعيشون فى مصر فى عهد رمسيس الثانى، وقد سخرهم فى أعمال البناء بها، بعد أن أخذت اسمها الجديد، وإذا كان قد ثبت لنا من الأدلة السابقة أنهم كانوا قد خرجوا من مصر قبل أن يحكم مرنبتاح، فإن ذلك يؤدى إلى نتيجة حتمية أن رمسيس الثانى هو فرعون الذى خرج بنو إسرائيل فى نهاية عهده، استناداً إلى الحقيقة الدينية اليقينية من نهاية فرعون غرقاً وهو يطارد بنى إسرائيل، ويكون صحيحاً تماماً أن تذكر التوراة أن رحيلهم من مصر بدأ من رعمسيس، فذلك يتفق مع تاريخ وجود وتسمية تلك المدينة فى عهد رمسيس الثانى واعتباره بذلك فرعون الخروج، إلا أن ثمة مشكلة قد تثار، وهى أن النتيجة التى انتهينا إليها لا تتطبق مع الموضع الذى أشار فيه العهد القديم إلى تسخير بنى إسرائيل فى العمل فى مدينتى فيثوم ورعمسيس، فقد وردت فى سفر الخروج

الإصحاح الأول الآية (١١)، وربط الكاتب بين الإذلال والتسخير فى هذا العمل، وبين بداية التحول الذى نشأ ضد بنى إسرائيل فى مصر، والذى عبرت عنه التوراة بأن ذلك حدث عندما «قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف»، وهو الذى بدأ فى عهده استعبادهم بعنف ومرر حياتهم وأمر بقتل أولادهم، وأن تلك الظروف القاسية هى التى كانت سائدة ضدهم وقت ميلاد موسى، ثم توالت بعد ذلك أحداث قصة التوراة لتذكر تربية موسى فى بيت الفرعون ثم قتله للمصرى وهروبه إلى مدين، والإخبار عن موت ملك مصر الذى وصف بأنه لم يكن يعرف يوسف، وقيام ملك جديد استمرت فى عهده عبودية بنى إسرائيل، حتى بعث الله موسى نبياً وأمره بالعودة إلى مصر لخلاص شعبه. وتتابع الأحداث فى التوراة على هذا النحو يمكن أن يحمل على الاعتقاد بأن «بى رعمسيس» كانت قائمة قبل ميلاد موسى، أو أن ميلاده وقع أثناء فترة استعباد بنى إسرائيل فى أعمال بنائها، وإذا صح هذا الافتراض فإنه يؤدى إلى نتيجة لا تستقيم مع التتابع التاريخى وتنفيها الأدلة الأخرى الكثيرة التى استندنا إليها وسبق أن أشرنا إلى هذا الخلط بين أفعال فرعونى الميلاد والخروج أثناء الحديث عن تاريخ رحيل موسى إلى مدين، وهو خلط يمكن أن يكون متوقعاً؛ لأن موسى - حسب تقديرنا - رحل إلى مدين بعد أكثر من عقدين على قيام حكم رمسيس الثانى، أى أنه شهد فى هذه الفترة من حياته بناء المدينة الجديدة واستعباد قومه فى أعمال البناء فيها، وكان يعيش فى أفاريس - التى ضمت إليها - قبل هروبه من مصر (بدأ العمل فى إنشاء المدينة فى العام الأول من حكم رمسيس الثانى)، لكن يمكن أن يوضح الموقف الذى صاغته رواية العهد القديم أنها فى (سفر التكوين- الإصحاح ٤٧ الآية ١١) قد ذكرت أيضاً أن يوسف، الذى يكاد يتفق المؤرخون أن دخوله كان فى زمن الهكسوس، قد أسكن أباه وإخوته «فى أفضل الأرض فى أرض رعمسيس»، فكيف يجتمع أن تكون إقامتهم عند دخولهم مصر فى أرض رعمسيس ثم تسخيرهم بعد ذلك بعدة أجيال فى بناء ذات المدينة.

إن التفسير الصحيح والمنطقى لهذا الأمر أن الكهنة وهم يعيدون جمع وتسجيل التوراة بعد موسى وبعد عهود طويلة من أزمان الحوادث التى تصفها، إما اختلط عليهم الأمر وهم يجمعون مظاهر الانتقام والتعذيب التى حلت بهم فوضعوها أينما كانت دون تحقيق الترتيب الزمنى؛ لأن المهم هو ما جرى عليهم قبل أن يبعث موسى لأجل خروجهم، أو أنهم - كما سبق أن فعلوا فى قصة يوسف - استعملوا الاسم الأخير للمدينة «رعمسيس» باعتباره الاسم الذى عرفوها به قبل خروجهم من مصر، وكان مؤسسها رمسيس الثانى قد ضم إليها مدينة أفاريس القديمة التى سكنها الإسرائيليون عند دخولهم مصر، وهى المقصودة فى التوراة على أنها رعمسيس، وهى ذاتها المدينة التى سخرهم حورمحب - الملك الجديد الذى لم يكن يعرف يوسف - فى أعمال البناء بها عندما قام بتوسيع معبد ست بأفاريس، والذى أصبح مكانه فى

جنوب مدينة «بى رعمسيس» بعد إقامتها، ثم استمرت تلك السخرة فى عهد سيتى الأول لتنفيذ مشاريع البناء العديدة التى أقامها، وكان منها فى أفاريس قبل أن تأخذ اسمها الجديد إنشاء قصره الصيفى وثكنات عسكرية ومصنع للزجاج، ثم جاء رمسيس الثانى ليؤسس مدينة رعمسيس، ويضم إليها أفاريس، ويوسع كثيراً فى قصر والده، وبدأ حركة عمرانية هائلة فى كل مصر، سخر فيها الأسرى والعبيد، فكان هو الملك الذى قصدته التوراة بقولها: «وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية، فسمع الله أنينهم» (الخروج-٢:٢٣، ٢٤).

وبذلك نستخلص أن الكهنة الذين أعادوا كتابة التوراة بعد ضياع نسختها الأصلية قد استخدموا اسم رعمسيس عند الحديث عن مدينة أفاريس فى شرق الدلتا باعتبار أن الأخيرة هى النواة التى تأسست عليها المدينة الجديدة، ثم توسعت كثيراً إلى الشمال منها، وتوجد فى ذات المكان الذى أقام فيه بنو إسرائيل عند دخولهم مصر. وشهدت بعد ذلك - ابتداء من عصر حورمحب ثم رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى - تسخيرهم وإذلالهم فى أعمال البناء، وهو الاسم الذى عرفوها به قبل رحيلهم.

أما عن مدينة فيثوم التى تقصدها التوراة فهى «بتوم» أو «بر آتوم» وعثر عليها وسط أنقاض مبانى «تل الرطابى» الحالية، وتقع على بعد ٢٥كم غرب الإسماعيلية فى وسط وادى الطميلات، وعثر فيها على بقايا معبد للإله آتوم، أقامه رمسيس الثانى، وعلى مقربة منه شرقاً نجد بقايا مدينة «بر آتوم»، ثم على مسافة منه شرقاً نجد أنقاض تل المسخوطة التى وردت فى نصوص العهد القديم وفى المصرية القديمة «سكو».

وقد أكدت الحفائر أن هذه المدينة كانت أحد معاقل الدفاع عن مصر ومحطة تجارية مهمة، وأكدت صحة نص التوراة بشأن أعمال البناء الكثيرة فى تلك المدينة المنسوبة إلى عصر رمسيس الثانى، مما يدل على أنه أعيد بناؤها فى عصره.

ونخلص من هذا الدليل، أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج الذى أشارت التوراة إلى أنه سخر بنى إسرائيل فى بناء مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس.

خامساً: رواية العهد القديم عن مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر

تقول التوراة: «وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة. وكان عند نهاية أربعمائة وثلاثين سنة فى ذلك اليوم عينه أن جميع أجناد الرب خرجت من مصر» [سفر الخروج - الإصحاح الثانى عشر : ٤٠، ٤١].

وقد ذكرنا سابقاً عند حديثنا عن التوراة كأحد مصادر البحث، أنه مع التسليم بأن كثيراً من التواريخ والأعداد والوقائع التى اشتملت عليها رواياتها إما غير صحيحة أو أهملت عن

عمد أحداثاً بعينها بسبب الاتجاه العنصرى العرقى الذى دخل عليها من الكهنة الذين أعادوا جمعها وكتابتها، فجعلتهم يقصرون الدعوة والرسالات عليهم ويحصرون أنبياءهم فيهم باعتبارهم شعب الله المختار والموعود، أو حدث ذلك فى بعض المواضع بسبب ضياع المصادر الدينية الرئيسية (توراة موسى وصحف إبراهيم)، فوقعت منهم أخطاء واتسمت روايتهم بعدم الدقة التى ترجع إلى تفكير وصياغة بشرية اضطرت أن تعتمد كثيراً على الذاكرة، ومصادر متعددة مختلفة تعرضت هى الأخرى فى عصور تالية لتأثيرات شتى. بيد أنه رغم ما تقدم، انتهينا إلى أنه إذا انتبهنا لتلك الملابسات خصوصا الأيديولوجية العنصرية وقصد الكهنة منها، ومع المقارنة بالمصادر التاريخية التى فكت رموزها حديثاً يمكن أن نميز الصحة والصدق من الخطأ والتضليل فى مواضع ليست قليلة، وقد رأينا كيف أن القرآن الكريم صحح أو فسر كثيراً من وقائع العهد القديم أو أضاف معلومات إليها إما تعمدت العنصرية إغفالها، أو سقطت من ذاكرتهم وعقولهم.

والأسفار المنسوبة إلى موسى - عليه السلام - وهى الخمسة الأولى: التكوين، الخروج، اللاويين، الأعداد، التثنية، جاءت وقائع أحداثها إجمالاً وبشكل عام متفقة مع المضمون والخط العام لقصص القرآن الكريم؛ خصوصا قصتى يوسف وموسى - عليهما السلام - فى مصر والانتقال الجغرافى فى أحداث حياتهما، ويأتى الاختلاف فى التفاصيل الداخلية فى الروايات والتى يرجع سببها - كما قدمنا - إلى العنصرية العرقية التى دخلت عليها وصياغتها البشرية التى فقدت كثيراً من المعلومات الأصيلة، وتأثرت بثقافات وأهواء شتى بعد مرور مساحة زمنية طويلة على ضياع توراة موسى.

وعموماً، فإن كثيراً من المؤرخين لا يقبلون بصحة تقدير التوراة لمدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر؛ لأنها تصطدم بتاريخين آخرين وردا بالتوراة أيضاً وارتبطا بتلك المدة، ولا يتفق هذا التقدير معهما لا منطقياً ولا تاريخياً، الأول: خاص بمجموعة أعمار سلالة موسى حتى لاوى بن يعقوب، والثانى: خاص بتاريخ بناء الملك سليمان لبيت الرب فى القدس، ويرون أن الحسابات الزمنية لتلك التواريخ مجتمعة تجعلها متعارضة أو غير منطقية وتجافى أحداث التاريخ.

لكن نعلم من المصادر أنه منذ عهود سابقة على ولاية يوسف كانت مصر قد عرفت الكتابة والحساب وتسجيل أحداثها التاريخية المهمة وأعمال ملوكها وسنوات حكمهم، وأيضاً الحياة اليومية لأشراف القوم على جدران المقابر، والسيرة الذاتية والعائلية لبعض كبار الكهنة، ومن هذه المصادر سجل الكاهن مانيتون السمنودى فى عصر البطالمة كتابه الشهير عن تاريخ مصر بداية من الأسرة الأولى حتى سقوط الأسرة الثلاثين وانتهاء عصر الأسرات.

وقد تعلم يوسف ومن بعده موسى فى مدارس المعابد وتدل ظروف حياتهما ونشأتهما فى

قصور أشراف القوم أنهما نهلا من علمها الغزير، وحصلا على أرفع الدرجات العلمية فى تلك العهود، وقد أخبر الله تعالى أنه آتاهما علماً وحكمة وحكماً، وقال سبحانه إنه مكن ليوسف فى مصر وأتاه ملكاً؛ وصفه القرآن بأنه كان عزيز مصر، وفى التوراة الرجل الثانى بعد الملك.

ونلاحظ من رواية التوراة عن حياة يوسف فى مصر أنها فى بعض الأحيان تستمد أو تنقل معلومات دقيقة من مصادر مسجلة تحتوى على تلك التفاصيل، ومن ذلك عدد وأسماء بنى يعقوب الذين دخلوا مصر وحصلوا على امتيازات عينية فى أراضى الدولة، ووظيفية فى دوائر القصر الملكى، وهذه أمور نستبعد تماماً أن تكون قد حملتها توراة موسى الأصلية التى نزلت عليه من الله سبحانه وتعالى، وأيضاً فإن وقائع قصة يوسف وحياته مع إخوته فى أرض جاسان فى شرق الدلتا جاءت متفقة مع الأحداث الزمانية والمكانية لتلك الفترة المعاصرة لغزو الهكسوس لمصر، واتخاذهم أواريس فى شرق الدلتا عاصمة لملكهم، وسبق أن عرضنا الأدلة المؤيدة لذلك التعاصر.

وقد كان لازماً أن تقودنا دراستنا إلى ضرورة فحص وتدقيق التقدير التوراتى لمدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر، خصوصاً أن حياة يوسف فى مصر باعتباره الرجل الثانى فى الدولة كانت بلا شك مسجلة وموثقة ومؤرخة فى السجلات الرسمية للدولة، وعلى ضوء هذا الاعتبار والتزاماً بثوابت البحث الدينية، غرق فرعون وانتهاء حكمه، قضاء فترة التيه، قيام دويلات إسرائيل فى فلسطين بعد سنوات التيه، وأيضاً الركيزة التاريخية الأساسية فى تحديد الحقبة الزمنية لوجود واستمرار الحكم المصرى فى فلسطين، وإذ كانت جميع هذه الثوابت تضع رمسيس الثانى كأول الفراعنة المرشحين والمتاح تاريخياً إمكان حدوث الخروج فى نهاية حكمه، واستحالته قبل ذلك باعتبار أنه متى كان قد حدث فى رحلة الخروج غرق فرعون وموته وانتهت سنوات حكمه فى العام (١٢١٣ق.م)، وتلى ذلك قضاء أربعين سنة فترة تيه، فإننا بذلك نصل إلى العام (١١٧٣ق.م)، الذى يعاصر فترة حكم رمسيس الثالث، ويتلوا ببضع سنوات انتهاء حروب هذا الملك، بل حروب مصر ولفترة زمنية طويلة قادمة سواء فى فلسطين أم غيرها، وبذلك انسحب الوجود المصرى تماماً، وتهيأ مسرح التاريخ فى هذه الفترة من كل الوجوه لدخول بنى إسرائيل إلى فلسطين، وتوزيع أجزاء من أراضيها على أسباطهم.

بيد أنه لكى يستقيم تقدير التوراة لمدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر مع تلك النتائج التى تحققت بعد الخروج وتطابقت مع الثوابت، فإنه يستلزم أن يكون دخولهم مصر قد حدث فى فترة مناسبة من عهد ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر فى الفترة من (١٦٧٥ ١٥٥٠ق.م)، وكافية لامتداد حكم ورسالة يوسف نحو سبعين عاماً فى ظلهم. وذلك تأسيساً على الأدلة المستمدة من المصادر الدينية والتاريخية التى تؤكد هذا التعاصر، وأصبح متفقاً عليها بين الدارسين. وسبق أن رفضنا الآراء التى ترى أن طرد الهكسوس من مصر لم يكن سوى صدى

لخروج بنى إسرائيل، وكذلك الآراء التى تجعل دخولهم فى عصر الدولة الوسطى وخروجهم فى عصر الأسرة الثامنة عشرة، وأوضحنا استحالة ذلك لأسباب تاريخية ذكرناها فى عرض الآراء على تحديد تاريخ الخروج.

وإذا استندنا إلى تقدير التوراة لمدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر، وبإضافة تلك المدة السابقة على الخروج المقدر بانتهاء حكم رمسيس الثانى فى العام (١٢١٣ق.م + ٤٣٠سنة = ١٦٤٣ق.م)، وهذا العام يقع بعد بضعة عقود من بداية حكم الهكسوس، ذلك الغزو الذى يعتبره المؤرخون حادثاً غريباً وغامضاً فى تلك الفترة من تاريخ مصر، بما يجعله فى تقديرنا تدبيراً إلهياً مخططاً لقدر شرع الله الغالب على أمره أولى خطواته مع بداية زحف الهكسوس تدريجياً على مصر فى فترة ضعف استغرقت قرابة خمسين سنة حتى توج هذا الزحف فى العام (١٦٧٥ق.م) بالسيطرة على مصر - عدا الجنوب - فى عهد أول ملوكهم ساليتس مؤسس أسرة الهكسوس والذى أعلن أواريس عاصمة لهم ليستمر حكمهم إلى العام (١٥٥٠ق.م) بداية حكم أحمس الأول محرر البلاد ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة. ووفقاً لتقدير التوراة ومع اعتبار رمسيس الثانى فرعون الخروج، يكون دخول بنى إسرائيل مصر بعد استقرار الهكسوس وحكم أول ملوكهم بأكثر من ثلاثة عقود وسابقاً على انتهاء حكمهم بتسعين عاماً ونيف، وهى مدة تناسب تماماً حكم يوسف ورسالته التى يمكن أن تصل إلى نحو سبعين عاماً، ويغلب أنه بذلك قد عاصر من ملوك الهكسوس يعقوب حار وخيان، وربما بدايات حكم أبوفيس الأول.

وبشأن مناقشة مدى قوة هذا الدليل والاستناد إليه فى تحديد أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج فإنه يمكن أن يوجه إليه أن ذلك يتوقف على دقة تحديد تاريخ دخول بنى إسرائيل، مع التسليم بأنه فى عهد الهكسوس باعتبار أنه لا يوجد ما يمنع أن يكون دخولهم سابقاً أو لاحقاً على العام (١٦٤٣ق.م) خلال مدة حكمهم التى استمرت إلى العام (١٥٥٠ق.م)، وردنا على ذلك:

- أنه بشأن فرضية دخولهم فى وقت سابق على العام (١٦٤٣ق.م) خلال حكم الهكسوس فإنه لن يستقيم مع الثوابت الدينية والتاريخية؛ لأنه سوف يجعل تاريخ الخروج أثناء فترة حكم رمسيس الثانى التى امتدت ٦٦ عاماً. بحسبان ضرورة انتهاء حكم الفرعون بعد غرقه. وأيضاً فرضية أن يكون الدخول سابقاً على حكم الهكسوس تتناقض مع الأدلة التى تؤكد المعاصرة التى قدمناها.

- وأن فرضية دخولهم فى وقت لاحق على العام (١٦٤٣ق.م)، فإن هذا الافتراض يؤدى إلى إمكان أن يكون مرنبتاح أو أى من خلفاء رمسيس الثانى التالين هو فرعون الخروج، وهذا فى تقديرى يصطدم بدليل لوحة إسرائيل المسجلة فى العام الخامس من حكم مرنبتاح ووثائق أخرى من عصر هذا الملك تؤكد جميعها أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر قبل أن يحكم مرنبتاح.

وبذلك يأتى تقدير التوراة لمدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر متساندا ومنسجماً مع البناء التاريخى لعناصر البحث ومراحله، ويضيف دليلاً مكملاً لباقى أدلتنا على إثبات فرعون الخروج.

ويبقى أخيراً أنه يجب أن نحسم أمر التاريخين الآخرين المتعارضين مع تقدير مدة إقامة بنى إسرائيل فى التوراة وهما:

- أعمار سلالة موسى.
- تاريخ بناء سليمان لبيت الرب.

وفى هذا الصدد فإنه مع التسليم بصحة معلومة التوراة فى تحديد مدة الإقامة، بل دقتها تاريخياً، الأمر الذى يبرر استنادنا إليها كأحد الأدلة على تحديد فرعون الخروج، فإننا لا نسلم بصحة التاريخين الأخيرين:

● بالنسبة لأعمار والد موسى وأجداده بحسب مواليدهم وردت فى الإصحاح السادس فى سفر الخروج، وجعلت سنى حياتهم كالآتى:

لاوى: ١٣٧ سنة.

قهات: ١٣٣ سنة.

عمرام: ١٣٧ سنة.

فيكون مجموع سنوات حياتهم ٤٠٧ سنوات.

ونرى بشأن المقارنة بين مدة الإقامة وسنوات حياة الأجداد، أن موسى والمعاصرين له من بنى إسرائيل كانوا يعلمون التاريخ المدون والمسجل فى الوثائق المصرية عن ولاية يوسف والمرتبط بدخول الأجداد، والتى كان مصدرها سجلات العاصمة ومخطوطات ووثائق معبد عين شمس، وقد كان يوسف على اتصال وثيق بهذا المعبد بحكم مصاهرته كبير كهنته، حيث كل التاريخ مسجل، ويضم جامعة هليوبوليس العريقة، ودون شك فإن هذه الجامعة هى ذاتها التى تعلم فيها موسى ونهل منها علمه وحكمته، وما كانت تخفى تلك المعلومات عنه، وهو الذى قال عنه ربه: «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴿١٤﴾»[**القصص**]، الأمر الذى يعنى أن موسى عرف التاريخ القديم لقومه فى مصر، وتاريخ حكم يوسف وربما قرأ الفرمان الملكى بمنح جزء من أراضى الدولة لأجداده فى جاسان أو تعيينهم فى وظائف فى القصر، لذلك شاع بين بنى إسرائيل المعاصرين لموسى زمن دخولهم مصر لارتباطه بحياة يعقوب ويوسف.

وفى هذا الإطار أيضاً يخبرنا الله تعالى عن مؤمن آل فرعون والذى توضح معلومات القرآن عنه أنه كان مثقفاً وعلى علم بالتاريخ القديم، فيقول فى حديثه إلى قومه: «**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ** ﴿٣٤﴾»[**غافر**]، فهذا الرجل من آل فرعون كان يعلم تاريخ يوسف فى مصر وسنين حياته وسيرته مع قومه وهلاكه، الأمر الذى يعنى أن هذا التاريخ كان من العلم العام والمتاح للدارسين فى مصر. أما بشأن سنوات حياة أجداد موسى

وتأصيل نسبه فإنه لم يكن لدى بنى إسرائيل فى زمن موسى أية أسباب - شأنهم شأن كل المصريين العاديين - تجعلهم يهتمون بتأصيل أنسابهم، وطبيعياً ألا يعرفون من أجدادهم أكثر من الجد الثالث أو الرابع على أقصى تقدير، وعندما أراد الكهنة - ذوو الفكر العنصرى - الذى أعادوا كتابة التوراة فى العصور التالية لموسى أن يصلوا نسب نبى بنى إسرائيل بسلالته دون انقطاع حتى يعقوب تأكيداً ومنعاً لأى لبس أو تشكيك فى أن موسى الذى تربى وعاش فى البلاط الفرعونى ويحمل اسماً مصرياً صميماً، إنما هو إسرائيلى خالص متصل بسلالته، فأعطوا لوالده وجده المعلومين لديهم أعماراً تصل بهم إلى ذلك التاريخ المسجل إلى زمن لاوى بن يعقوب فى تاريخ الدخول، وهذا الأمر قطعاً لم ينزل الله به من سلطان حين أنزل توراته على موسى، فكان يكفى - كمنهج القرآن الكريم - أن يقول تعالى عنه إنه من آل يعقوب، ولم يكن لموسى أن يهتم بتحقيق نسبة، فتلك فى تقديرى بدعة عنصرية - ننزه الرسول الكريم عنها - وأضيفت فى الأزمان اللاحقة إلى التوراة، وأخطأ كاتبها حين وضع أربعة أجيال تستغرق حياتهم قرناً ونصف القرن ليغطى بها أربعة قرون وثلث قرن من الزمن، واعتمد على تاريخ صحيح معلوم مستمد من تسجيل رسمى مرتبط بوثائق ولاية يوسف، وحاول بفكره العنصرى - مع افتقاده العلم والحكمة - أن يوفق بين المعلومة التاريخية الصحيحة وبين المعلومات الشخصية المتوافرة لديه والتى لا تتعدى والد وجد موسى فأوصلهما إلى لاوى بن يعقوب، فوقع فى ذلك الخطأ؛ حيث لا يمكن بحال أن يتفق حساب حياة تلك الأجيال أن تعيش على مدار أكثر من أربعة قرون، بل إن كاتبها كان من السذاجة بحيث تصور بأن حياة كل منهم تبدأ مع انتهاء اليوم الأخير من حياة سابقة غافلاً تماماً تداخل الأجيال وتعاصرها.

أما نسبة موسى إلى قبيلة لاوى تحديداً، فغالباً أن مرجعه وجود تقسيم وضعه يوسف لأسباط بنى إسرائيل، أو أنهم اتفقوا عليه فيما بينهم عند توزيع أراضى جاسان عليهم - تماماً كما فعلوا عند قيام دويلاتهم بعد دخول فلسطين - منعاً لأية خلافات يمكن أن تثار فى تقسيم الثروات سواء بينهم فى حياتهم أم بين أولادهم بعد ذلك،، ثم استقر هذا الوضع على مدار السنوات بحيث صار معلوماً الانتماء القبلى بين الأحفاد، وتذكر التوراة ما يؤيد وجود هذا التقسيم «وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد» (سفر التكوين - الإصحاح :٤٧-١٢).

● وكذلك أيضاً فإننا لا نسلم بصحة التاريخ الذى ذكرته التوراة فى سفر الملوك الأول الإصحاح السادس الآية الأولى لبناء سليمان لبيت الرب «وكان فى سنة الأربعمائة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى السنة الرابعة للملك سليمان على إسرائيل فى شهر زيو، وهو الشهر الثانى، أنه بنى بيت الرب».

وذلك للأسباب التى سبق أن ناقشناها فى الدليل الأول: الحساب الزمنى للوقائع

التاريخية، والتى تخلص فى أن مدة هذا التقدير إذا أضيفت إلى مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر، فإنها تجعل زمن دخولهم فى عصر الدولة الوسطى، وهو أمر يستحيل ويناقض ثوابت البحث والنطاق الزمنى لأحداث الرواية الدينية. وقد بررنا ذلك التقدير الخاطئ بأخطاء فى حساب فترة حكم قضاة بنى إسرائيل.

سادساً: عبادة الفرعون

نستخلص هذا الدليل على إثبات شخصية فرعون الخروج من الحقائق التى نزل بها القرآن الكريم، فقد أراد الخالق سبحانه، العالم بالغيب أن يثبت لكل زمان ومكان أن كتابه الخالد معجزة مستمرة، وأن له فى كل دهر دليلاً من الدهر، وكل ما ورد به صحيح ودقيق «**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)**»[**فصلت**].

سوف يتبين لنا فى هذا الدليل أن القرآن العظيم عرض الخصائص الدينية للحياة المصرية فى عصر فرعون موسى كاملة، وإذا ما قورنت هذه الخصائص بالشعوب القديمة الأخرى ودعوة أنبياء الله فيهم، يتضح انفراد مصر بمظاهر خاصة قد يبدو ظاهرياً تناقضها، إلا أنه جاء مؤيداً لها وداحضاً لأى متشكك ما ثبت من الدراسات الأثرية الحديثة التى لم تُكشف معالمها إلا بعد كشف رموز الهيروغليفية لغة مصر القديمة وقراءة تاريخها، وهذه الخصائص مجتمعة لم يكن يعلمها محمد صلى الله عليه وسلم والذين معه، كما أن العهد القديم لم يتعرض لها من قريب أو بعيد، فلا يملك أى مجادل أن يقول إنه مصدره، وصدق الله العظيم فى قوله: « **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)**» [**هود**].

مرة أخرى تجتمع الحقائق الدينية مع الدراسات الأثرية الحديثة لإضافة دليل جديد يؤكد أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج.

وتتمثل الخصائص الدينية التى عرضها القرآن لعصر فرعون الخروج فى اجتماع مايلى:

١- عبادة الفرعون:

فى سابقة جديدة اقتصرت على رسالة موسى فى قومه، نجد القرآن الكريم يصم فرعون عصره بتأليه ذاته، ويخبرنا أنه طلب من قومه عبادته. ولم يحدث من قبل أن كان هذا الأمر فى رسالات غير موسى من الأنبياء، وأيضاً لم نعرف له مثيلاً بعد ذلك. فلم يخبر القرآن فى رسالات الأنبياء عن أقوام غير عصر موسى، عرفوا تأليه البشر وعبادتهم، فقد كانت شعوبهم تتخذ أصناماً سواء لعبادتها بذاتها أم لتقربهم إلى إلههم، أو يعبدون النجوم والكواكب أو المظاهر الطبيعية أوالنار أو أشكال الحيوانات.

وإذا تتبعنا ما يخبرنا به الله تعالى عن أنبياء الله وعبادات الأقوام الذين بعثوا إليهم

ستتضح هذه الحقيقة:

- فى قصة نبى الله نوح: يذكر الله تعالى موقف قومه من دعوته وأسماء آلهتهم:

«قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)» [نوح].

- وفى قصة نبى الله هود: **«وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠)» [هود].**

« قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)» [هود].

وبين هود وقومه فى سورة الأعراف: **«قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)» [الأعراف].**

وينهرهم قائلا: **« أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ...(٧١)» [الأعراف].**

- وفى قصة نبى الله صالح: **« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)» [هود].**

- وفى قصة نبى الله إبراهيم: **«وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤)» [الأنبياء].**

- وعن نبى الله إلياس يقول تعالى: **«وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦)» [الصافات].**

- وفى قصة نبى الله يوسف: وفى مصر نفسها وقبل بعث موسى بثلاثة قرون ونصف القرن، يخبرنا الله تعالى عن دعوة يوسف إلى عبادة الله تعالى وهو فى سجنه: **« يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ (٤٠)» [يوسف].**

- وكان آخر أنبياء الله ورسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أرسله الله إلى قومه وكانوا يعبدون الأصنام ودعاهم إلى عبادة الله الواحد وترك أصنامهم التى لا تضر ولا تنفع، وقال عنها الله تعالى: **« أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠)» [النجم]**، ثم يقول تعالى: **« إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)» [النجم].**

أما فى قصة موسى عليه السلام، فقد اختلف الأمر، وانفردت دعوته فى القرآن بوجود فرعون المؤله، أو عبادة فرعون مصر، صورة خاصة لم نعرفها فى دعوات أى من الأنبياء الآخرين، بل إن مصر نفسها لم تكن فى عصور أخرى مستثناة من ذلك، وكانت كغيرها تتخذ على امتداد عصورها القديمة آلهة وثنية متعددة.

إنها صورة مغايرة لما اعتدناه سواء فى تاريخ الأنبياء فى القرآن الكريم، أم لما نعرفه عن ديانات مصر فى تاريخها القديم يقول عنها الله تعالى: «**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦)**» [**النازعات**].

ويقول تعالى: «**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي... (٣٨)**» [**القصص**].

وعندما هدد فرعون موسى يخبرنا الله تعالى أنه قال له: «**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)**» [**الشعراء**].

تلك صورة عرضها القرآن الكريم ولم تأت فى أية مصادر غيره، وعرض معها أيضاً المظاهر الأخرى التالية التى قد يبدو ظاهرياً تناقضها معها.

٢- تعدد الآلهة فى مصر مع عبادة الفرعون:

رغم ما يخبرنا به الله تعالى فى القرآن الكريم عن تأليه فرعون لذاته، فإنه يذكر أيضاً أنه لم يكن الإله الأوحد للدولة، وإلى جانب عبادة الفرعون كانت توجد آلهة أخرى يعبدها فرعون وقومه، وفى ذلك يقول الله تعالى: «**وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)**» [**الأعراف**].

وبعد عبور بنى إسرائيل البحر فى رحلة الخروج، وعلى أرض سيناء المصرية يتحدث القرآن الكريم عن القوم الذين يعبدون الأصنام: «**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)**» [**الأعراف**].

وإذا كان فرعون قد قال فى لحظة غضب ناكراً الآلهة الأخرى: «**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي... (٣٨)**» [**القصص**]. فذلك لم يكن صحيحا - فى رأيه - ولم يكن فرعون يقصده، وإنما دفعه إليه رد فعل غاضب بعد أن جاء موسى بآياته وانتصر على السحرة الذين خذلوه بإيمانهم برب موسى فى حضور جمع غفير من القوم، فجعله الموقف مضطرباً ومتهاتراً، يؤكد حالته أنه بعدها قال لهامان ابن لى صرحاً لأطلع إلى إله موسى وأُثبت كذبه.

٣- الحرية الدينية فى المجتمع المصرى تسمح لموسى بنشر الدعوة وممارسة الشعائر جنباً

إلى جنب مع جبروت فرعون وطغيانه، ورغم تهديده لموسى وقومه بقتل أبنائهم واستباحة نسائهم، ورغم كفره وتأليه ذاته، ورفضه دين موسى، واستمراره مع قومه فى غيِّهم وتمسكهم بآلهتهم المتعددة، إلا أن القرآن الكريم من بين جميع تلك المظاهر المستبدة والعدوانية والرافضة يقدم لنا ما نستطيع أن نستخلص منه وجود مظهر حضارى مغاير ومناقض لهذا السلوك السابق كان سائداً أيضاً فى المجتمع المصرى، وفرض تقاليده على فرعون وحاشيته، فنعرف من القرآن أن موسى بعد أن واجه الفرعون بدعوته ورفضها لم تمنعه عدوانية هذا الملك وتهديده الذى قابله به من أن يدعو لدينه فى وسط الشعب المصرى. ورغم خوف الكثيرين من فرعون فإن فئة من المجتمع آمنوا بالله واتبعوا موسى، وفى قلب هذا المجتمع وداخل العاصمة المصرية وعلى محيط قريب منها ومن قصر الفرعون، كان يعيش نبى الله وجمع من المسلمين، ولم يخفوا إيمانهم وتوكلوا على الله، وكانت الثقافة والتراث الحضارى والحياة الاجتماعية السائدة فى المجتمع المصرى. آنذاك - مهيأة لأن يأمر الله تعالى موسى وهارون نبى الله أن يتخذا من بيوت المسلمين أماكن للعبادة وقبلة لله سبحانه يقيمون فيها صلاتهم، وعن ذلك يقول الله تعالى: « **فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)**»[يونس].

وتوحى عبارات النص أن اتخاذ المسلمين بيوتاً للعبادة قد استمر مدة طويلة فى مصر قبل خروج بنى إسرائيل، وفى آية ضرب مصر بالأضرار، يعيد القرآن الكريم تأكيد استمرار إقامة موسى عدة سنوات فى مصر قبل الخروج: «**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)**»[الأعراف].

بذلك يقدم القرآن صورة واضحة مفادها أنه لعدة سنوات استمر موسى فى مصر داعياً لرسالته قائماً بين قومه والمؤمنين، مقيماً معهم شعائر الله فى بيوتهم التى جعلوها كأمر الله لهم قبلة لدينهم، وأماكن للعبادة يجتمعون فيها ويتعلمون أمور عقيدتهم من نبى الله موسى وهارون، ولا يمكن المجادلة بأن دعوة موسى لقومه وشعائر العبادة كانت تتم فى سرية وخفاء، بل إن استنتاج العكس هو الصحيح، فقد ذاع أمر موسى بعد أن واجه فرعون بآياته، ثم جاء انتصاره على السحرة فى يوم الزينة، الذين آمنوا من فورهم وخروا ساجدين لرب موسى، وبعدها جاءت آيات ضرب مصر بالأضرار واحتياج فرعون بشكل دائم ومتكرر إلى تدخل موسى ليرفع الرجز عن البلاد الذى استمر سنين عدة، إذاً لقد انتشر أمر نبى بنى إسرائيل ولم يعد فى استطاعته أن يمارس دعوته أو اجتماعه مع قومه سراً، وفى هذا تذكر التوراة -

عن حق - أن «الرجل موسى كان عظيماً جداً فى أرض مصر فى عيون عبيد فرعون وعيون الشعب» (الخروج :١١-٣).

ويمكن أن ينبنى على ذلك استنتاجاً منطقياً مؤداه أن خروج موسى ببنى إسرائيل من مصر لم يكن فراراً بدينهم أو بسبب مشكلة فى نشر الدعوة والدين، وإنما كان لإنقاذ شعب إسرائيل من عذاب السخرة فى أعمال فرعون الذى كان قد وصل إلى حد أليم فاق احتمال البشر، وأيضا ليحقق الله وعده لأنبيائه فى أرض الميعاد، لهذا لم يطلب الله تعالى من المؤمنين المصريين الخروج والهجرة مع موسى وقومه.

وبذلك يكون خروج بنى إسرائيل أمراً مختلفاً عن هجرة المسلمين مع النبى محمد عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة، الذى كان فراراً بدينهم من الكفار، ومن أجل الدعوة ونشر الدين.

٤- عبادة العجل:

لم يتحدث القرآن الكريم بأسلوب مباشر عن عبادة العجل كمظهر مصرى، وإنما جاء ذلك الأمر فى شأن خاص ببنى إسرائيل وهم فى رحلة الخروج بعد عبور البحر، إذ ذهب موسى للقاء ربه فأضلهم رجل دعاه القرآن السامرى، منتهزاً غياب موسى وأخذ من بنى إسرائيل حليهم التى خرجوا بها من مصر وألقاها فى النار، وسبك منها عجلاً، وجعله بحيث إنه كان له خوار، أى صوت الثور، وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى. وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى فى تفسير أمر هذا الخوار، والتفسير المناسب لذلك أن يكون هذا الرجل له علم بالهندسة أو الحيل، فجعل تمثاله يخور كما يخور الثور، أو أنه كان صائغاً أثناء إقامته فى مصر، ودبر تمثاله بطريقة خاصة تجعل الريح إذا مرت من دبره وخرجت من فمه تحدث صوتاً كخوار البقر، وهذا التفسير يناسب جداً خروج هؤلاء القوم من مصر، التى انتشرت فيها صناعة الحلى والتماثيل المعدنية وسبك المعادن، وهذا أيضاً موسى نبى الله الذى تعلم فى مصر كان يعلم كيف يتخلص من المشغولات الذهبية، فأخذ العجل من قومه وحرقه ثم نسفه فى الماء.

ويعرض الله تعالى علينا تلك القصة فى عدد من آياته منها:

« وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) »[البقرة].

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) » [الأعراف].

«وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا

قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾» [طه].

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾» [البقرة].

ولما كنا بصدد عرض الخصائص الدينية فى المجتمع المصرى كما قدمها القرآن الكريم فى عصر موسى، لمقارنتها بما كشفت عنه الدراسات الأثرية الحديثة، وإذا كان القرآن قد تحدث عن عبادة العجل كشأن إسرائيلى وليس مصرياً، فإننا نرى أن نسبة هذا الفعل للثقافة الدينية المصرية لا تحتاج إلى مجهود كبير، باعتبار أن هذا الجيل من بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى قد ولدوا فى مصر، وعاشوا حياتهم بها، وتمتد جذورهم إلى أكثر من أربعمائة عام على أرضها، ويمكن اعتبارهم مصريين بحكم الواقع، وبحكم الثقافة التى اعتادوها وعايشوها، ومثل هذا النوع من العبادات لا يوجد فى تاريخهم أو تراثهم، ومن السهل أن نستنتج أن الثقافة المصرية المعاصرة التى تأثروا بها هى مصدر تلك العبادة حتى قبل أن تؤكدها الدراسات الأثرية الحديثة.

تلك هى خصائص الحياة الدينية فى مصر التى عرضها القرآن الكريم للفترة المعاصرة لدعوة موسى، **أما ما كشفت عنه الدراسات الأثرية الحديثة فنقدمه فى الآتى:**

١- تعدد المعبودات فى مصر القديمة

إن دراسة تاريخ العبادات المصرية أمر غاية فى التعقيد ويشوبه كثير من الغموض، والبحث فى ظروف نشأتها يعتمد فى أغلبه على الحدس والاستنتاج أكثر مما يعتمد على نصوص مبكرة محددة. حتى فى مصر القديمة كان الكهنة يحجبون عن الناس معظم التفاصيل ويحتفظون بها كأسرار لأنفسهم، ولم يفرجوا للناس إلا على النذر اليسير الذى قصدوا أن يشيع بين الجماهير. إلا أنه يكفينا فى هذا المقام أن نقرر أنه نتيجة لعوامل تاريخية متعددة ترتبت على مدار عصور متعاقبة صيغت

خصائص الديانة المصرية، والتى ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بقيام الحضارة واستمرارها، وكان من نتائجها المعابد والتماثيل والأهرامات والمقابر والمسلات والتحنيط والنصوص الدينية التى خلفتها الحضارة المصرية. ولا شك أن أبرز ظواهر الديانة المصرية هى كثرة الآلهة، فعرف المصريون مئات من الآلهة والربات. وتعددت أشكال تلك الآلهة شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة، فقد جسد المصريون ما حولهم من مظاهر الطبيعة وكائناتها، فاتخذت آلهتهم صور الأبقار والتماسيح والكباش والكلاب الوحشية واللبؤات والعجول وأبى قردان والقردة والثيران والطيور الجارحة كالصقور، إلا أنهم لم يقدسوا حيواناً لذاته، وإنما استهدفوا من ذلك الرمز إلى صفات إله خفى، فجسدوا تلك المخلوقات باعتبارها تحمل صفة من صفات الإله الخفى أو آية من آياته رغبة فى التقرب إليه عن طريق الرعاية التى يقدمونها ضمناً لما رمزوا إليه من مخلوقاته، ولم يقدس المصريون معبوداتهم بأسمائها الحيوانية، لكن باسم ربانى آخر، ومن أسماء الآلهة المصرية: آتوم، وبتاح، وعنجتى، ونبت حت، وجب، ونوت، وأوزير، وأيسة، وحور، ومين، وسشات، وخونسو... إلخ».

ويوجد فى تاريخ العبادات المصرية ما يؤكد استنتاج أن مصدرها الأصلى ديانات سماوية، ومع البعد الزمنى عن المصدر خلال المراحل الزمنية المتعاقبة والعجز البشرى وجهل الإنسان القديم، الذى لم يمكنه تحكيم المنطق والعقل، ضل الإنسان طريقه وجسد معانى الإله الخفى فى عدة أشكال مادية ملموسة، ورمز إليها بمعانيها الربانية وليس بأسمائها الحيوانية أو الطبيعية ليمكنه أن يتجه إلى هذا المحسوس أو الملموس بعبادته، ويستند هذا الاستنتاج إلى ما لاحظه الدارسون من أنه رغم اختلاف الآلهة فى الشكل والاسم وفى السلوك، فإنها تشترك فى شعارها المتمثل فى كلمة «نثر» أو «الألوهية»، وهو الاسم الذى يصف أى واحد من تلك الآلهة مهما كان اسمه، وأيضاً اعتقاد المصريين فى وجود «قوة إلهية» غير شخصية ولا نهائية موجودة فى كل إله على حدة تمتد وتنتشر فى حيز واسع وراء أشكالها المرئية المختلفة، وكان ذلك عنصراً أساسياً فى الفكر الدينى المصرى، الذى كان يؤمن بالبعث والخلود والحساب فى العالم الآخر. ويمكن أن نقول إلى حد ما: إن فكر التوحيد ظل موجوداً دائماً مع تعدد الآلهة الواضح فى العبادات المادية، وكثيراً ما كان يذكر الإله فى أدب الحكمة دون أية مواصفات:

«ليست إرادة الإنسان هى التى تحقق بل تدبير الإله» (بتاح حوتب الدولة القديمة).

«يعرف الإله من يعمل من أجله» (مير يكارع، الأسرة الحادية عشرة).

«كل من يفعل هكذا، سيمجد الإله اسمه» (آنى، الأسرة الثامنة عشرة).

«الإنسان طين وقش، وصانعه هو الإله» (أمينيموبى، نهاية الدولة الحديثة).

«سعيد من يسير فى طريق الرب» (بيتو سسيرس، القرن الرابع ق.م).

إلا أنه أياً ما كان الأمر فلا سبيل إلى إنكار أن مصر قد عرفت فى مختلف عصورها عقائد تدعو لعبادة آلهة متعددة نشأت عن الديانات المحلية المختلفة بأقاليم الدولة منذ ما قبل التاريخ،

وامتزجت الروايات الدينية والأساطير المصرية القديمة بنشأة الآلهة واتحاد الوجهين القبلى والبحرى، وتكوين المملكة المصرية، وكان الفريق الحاكم يكفل سيادة معبوده على بقية معبودات الدولة، فقبل الأسرات كانت السيادة للمعبودين «أوزير ورع»، وتغير اسم الإله الأكبر للدولة مرات قليلة خلال عصورها التاريخية، وترتب هذا التغيير فى معظم مراته على تغيير العواصم وأربابها، وتغير الأسرات الحاكمة، وتعصب بعضها لمعبود مسقط رأسها، والاتجاه الشخصى والفكرى للفرعون أحياناً، وكان يترتب على هذا التغيير ازدياد نفوذ كهنة معبود معين على من سواهم، فانعقدت الهيمنة للإله «حور» فى بداية الأسرات، وكان هو المعبود الرسمى للدولة، ومنذ أواسط الدولة القديمة انعقدت الأولوية للإله «رع»، وفى عصر الدولة الوسطى انتقلت الرئاسة إلى«آمون»، وفى بداية الدولة الحديثة أصبح آمون رع هو رئيس الآلهة، ثم لفترة قصيرة أصبح «آتون» الإله الأوحد فى عهد إخناتون، ثم عادت «لآمون رع» حتى نهاية العصور الفرعونية.

وقد كانوا جميعاً يرتبطون بألوهية الشمس بسبب صريح أو ضمنى وإن تغيرت أسماؤهم من عصر إلى عصر.

وفى خلال فترة حكم رمسيس الثانى لم يتغير من الأمر شىء بالنسبة لعبادة الآلهة المتعددة فى مختلف أنحاء مصر، مع وجود اهتمام خاص بالإله ست؛ إله شرق الدلتا موطن الأسرة التاسعة عشرة التى ينتمى إليها رمسيس.

وقد تجلى اهتمام رمسيس الثانى بالآلهة المصرية بإقامة المعابد الضخمة والهياكل الكبرى والمقاصير والأعمدة والتماثيل للآلهة المختلفة، فى جميع أنحاء القطر المصرى، وأيضاً البذخ فى تقديم العطايا والمخصصات للمعابد وإقامة الأعياد للآلهة.

٢- عبادة رمسيس الثانى

منذ بداية التاريخ المصرى ومنصب الفرعون يعتبر مركزاً مقدساً، من يشغله يصبح بموجب وظيفته - لا شخصه - الصورة البشرية للإله حورس - الإله الصقر - لذلك كان اسم الفرعون هو «تجسيد حورس»، وكان المصريون ينظرون إلى الفرعون كملك بشر يجرى عليه ما يجرى على غيره من تقلبات الدهر من حزن وسرور ومرض وموت. لكن مقامه كملك يجعله فوق الرجال وينصبه وسيطاً بين الناس والآلهة.

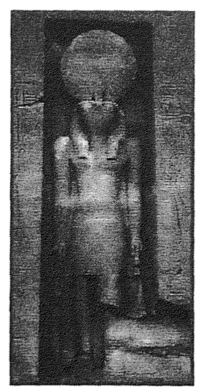
وفى عصر بناة الأهرام عندما أصبح لإله الشمس «رع» مركز الصدارة بين الآلهة، أصبح الملك منذ ذلك العصر هو «ابن رع» مخلوقاً فوق بشرى، ليس بالإله الكامل، لكن ذاته مقدسة. فإذا مات فرعون تزول منه الطبيعة البشرية، ويتحد مع إلهه ويصبح أوزيريس «أو قرينه».

وباستثناء رمسيس الثانى، فإن مصر لم تعرف خلال عصورها المختلفة عبادة شخص الفرعون حال حياته، بمظهر إلهى سوى محاولة من الفرعون أمنحوتب الثالث «نب ماعت رع»،

وربما كانت من بعض معاصريه فى الأسرة الثامنة عشرة فى معابد صولب بالنوبة لعبادة المظهر الإلهى لأمنحوتب الثالث ملك النوبة، كما أقيمت بضعة تماثيل عملاقة له أمام المعابد المختلفة، وجعل كل تمثال منها تجسيداً لأحد المظاهر الإلهية للفرعون، منها تمثاله العملاق بالكرنك عند مدخل حرم آمون الشمالى وسماه «نب ماعت رع - منتو» (أى مظهره كإله حرب)، وتمثالان آخران على نفس النمط. وبعد رحيل أمنحوتب الثالث انتهت تلك الفكرة ولم تقبل فى الثقافة الدينية، بل لم يكتب لها الانتشار خلال حياته، ولم يكن لها صدى فى آثار معاصريه.

أما فى عهد رمسيس الثانى، فقد حفظ الزمن العديد من الآثار فى أنحاء مختلفة من مصر تؤكد أنه فى الثلاثين سنة الأخيرة حكم مصر كإله متوج، بكل ما فى هذه الكلمة من معان، وبكل مظاهر العظمة والجبروت، ففى الخمسينيات من حكمه كان قد فرغ من مساواة نفسه أو ربطها بإله الشمس، وأضاف لألقابه الرسمية لقب «الإله» حاكم هليوبوليس (مدينة رع)، كذلك اعتبر نفسه «الروح العظيمة لرع - حر آختى»، وأضاف هذا اللقب إلى اسم عاصمته بالدلتا بى رمسيس، بدلاً من لقب «الانتصارات العظيمة»، وهذا التعديل يعنى أنه أصبح يحكم باعتبار أنه الشمس؛ لأنه اعتبر نفسه أحد مظاهرها، وتجسيداً بشرياً لإله الشمس.

وقد ظهرت عدة أشكال لعبادة الفرعون منها إقامة عدد من التماثيل الضخمة العملاقة لنفسه أمام معابد بى رمسيس الكبرى خارج الأسوار وظاهرة للجمهور لتكون قبلة لأتباع العبادة الملكية فى شخص الملك الإله رمسيس الثانى، وأقيم مثلها فى طيبة وأبى سمبل لأشكال الملك بصفته إلهاً.


رمسيس الثانى فى شكل إلهى «رمسيس حور آختى» (معبد أبوسمبل الكبير)

وقد تحول معبد أبى سمبل الكبير فى النوبة الذى وصف بأنه «قصر ملايين السنين المنحوت فى الجبل» أثناء التنفيذ ليصبح معبداً لرمسيس الثانى بصفته أحد مظاهر الإله رع - إله الشمس، حيث نراه فى هيئة إله برأس صقر ويسمى «رعمسيس الإله الأكبر»، وكذلك يظهر فى صورة إنسان وعلى رأسه قرص الشمس ويسمى نفسه «رعمسيس الإله الأكبر»، وكذلك يظهر فى صورة إنسان وعلى رأسه قرص الشمس ويسمى نفسه «رعمسيس الإله الأكبر رب السماء».

وهذا التحول، وهو الثانى أثناء تنفيذ المعبد (كان الأول لصالح الإله رع) يقدم دلالة على أن فكرة الألوهية قد طرأت لاحقاً لدى الفرعون بعد سنوات من حكمه، وأصبح أبوسمبل أكبر معابد رمسيس الثانى التذكارية بالنوبة بعد تصعيده ليصبح أحد مظاهر الإله رع، إله الشمس.

ولقد انتشرت عبادة الفرعون فى مدينة بى رمسيس؛ خصوصاً بين فئة الحرس، وكذلك فى معبد «أكشة» بالنوبة، حيث أقيم له تمثال وعليه إهداء إلى «رمسيس الإله الأكبر إله النوبة».

ومن أهم الآثار التى عثر عليها فى هذا الخصوص لوحة محفوظة الآن بمتحف ميونيخ للوزير «رع حتب»، وكان مقر وظيفته فى منف، ثم انتقل إلى «بر رعمسيس» فى شرق الدلتا، وتكشف هذه اللوحة عن عبادة قطاع من الشعب لرمسيس الثانى وهو لا يزال على قيد الحياة، ونشاهد فيها الوزير مُهدى اللوحة يقف متضرعاً أمام تمثال للفرعون على هيئة إله، يُفهم مما تبقى من دعواته «الصلاة لروحك (أى تمثال الملك رمسيس)، الإله الأكبر الذى يسمع.... الرجال، ليته يعطى الحياة والفلاح والصحة والفطنة والمديح، و... إلى الأمير الوراثى، وحامل المروحة على يمين الفرعون وعمدة المدينة الوزير «رع حتب»... فى بر رعمسيس، محبوب آمون»، ونجد منقوشاً على التمثال الذى فى القسم الأعلى ما يأتى:

«رمسيس حاكم الحكام والإله الأكبر، وسيد السماء مخلداً»، ونشاهد على اللوحة أيضاً الفرعون رمسيس الثانى وهو يقدم البخور ويصب الماء لتمثاله ونقش «الإله الأكبر»؛ مقلداً ما كان يفعله الفراعنة مع الآلهة الأخرى، وما جاء على هذه اللوحة برهان على عبادة رمسيس الثانى بوصفه إلهاً خلال حياته، والحث على هذه العبادة فى صورة تمثاله كالتماثيل التى كانت تنحت للآلهة.

وتوجد أشكال أخرى لعبادة رمسيس الثانى فى معابد أقيمت فى جنوب مصر، لرع شمال أبى سمبل، وفى وادى السباع لآمون، وفى جرف حسين لبتاح، حيث كانت تعبد آلهة الإمبراطورية الثلاث «آمون ورع وبتاح»، وضع فى محاريبها الزورق الرمزى للإله رمسيس الثانى كشكل أو مظهر لـ «الإله رع» أو لـ «الإله آمون الرمسيسى» أو لـ «الإله بتاح الرمسيسى»، وحدث نفس الشىء مع آلهة أخرى مثل «ست» و«حرى شف»، فقد اعتبرها آلهة رمسيسية.

وبوفاة رمسيس الثانى انتهى هذا النوع من العبادة البشرية ولم تعرفه مصر فى تاريخها لاحقاً، كما لم تعرفه قبل عهده، ومن الصعب أن نعتبر تلك المحاولات المحدودة لأمنحوتب الثالث التى قام بها له بعض معاصريه تجربة سابقة.

٣- عبادة العجل

قدس المصريون الثيران باسم «أبيس» واستمر ذلك طول تاريخ الحضارة المصرية، ولم ينته إلا بدخول المسيحية. وبدأت الفكرة الأصلية باعتباره رمز الإخصاب، وبمرور القرون اتخذ عدة مظاهر أخرى؛ فى منف اقترن بإله هذه المدينة «بتاح» وصار رمزه وروحه المباركة، ثم استعار أبيس قرص الشمس من رع وحمله بين قرنيه، ثم اندمج أبيس فى أوزيريس وتكون منهما إله

جنائزى، ومنذ ذلك الوقت اتخذ موت العجل أبيس أهمية بالغة، وأصبح يدفن فى جنازة رسمية وسط جمع من العُبَّاد، الذين كانوا يحضرون له الهدايا من جميع أرجاء المملكة، وقد سجل عهد رمسيس الثانى تلك الظاهرة الجديدة وهى تتابع الآلهة الحيوانية الحية كل منها يعقب سلفه، فكان يتم البحث عن عجل حى، فى كل أنحاء مصر، بمواصفات معينة يحل محل العجل الميت، ويعين أبيساً، أشهرها عجل أبيس المرتبط بعبادة الإله بتاح بمنف، وكان يرعاها الأمير الشهير خعمواس ابن الملك، والذى شغل منصب كبير كهنة «بتاح»، وكان صنو أبيس فى هليوبوليس هو عجل منفيس. وساد الاعتقاد بأن تلك العجول صور حية، يحل فيها الإله نفسه إذا شاء، وأنها مهبط وحيه الذى ينقل نبوءاته، وفى السنة ١٦ من حكم رمسيس الثانى دفن أول عجل مقدس من بين مجموعة عجول أبيس فى قبور السيرابيوم تحت سطح الأرض فى سقارة بالجيزة، واكتشفها ماربيت سنة ١٨٥٠م، ووجد بها ٢٤ تابوتاً من الجرانيت والبازلت، وقد حفر فى معبد أبيس نقش خاص يتحدث فيه الأمير خعمواس إلى الأجيال القادمة معدداً طبيعة أعماله، ومن ضمن ما جاء فى هذا النقش عبارة «إن الآلهة الموجودة بالمعبد... (صنعت صورهم) فى «دار الذهب» (المسابك) ورصعت بأثمن الجواهر الكريمة».

٤- حرية العقيدة

ارتبطت حرية العقيدة فى مصر بتعدد المعبودات، التى بلغت مئات من الآلهة والربات، ومع انتماء معظمها إلى أقاليم الدولة المختلفة وغموضها حتى بالنسبة لعصرهم، اعتاد المصريون ومنذ بداية حضارتهم احترام وتوقير جميع الآلهة، ولم تعرف مصر خلال عصور حضارتها صراعاً بين الآلهة، حتى فى حالات انتقال الزعامة من إله لآخر تبعاً لتغير الأسرات الحاكمة واختلاف العواصم، كان هذا الأمر يتم بشكل سلمى دون صراع، قد يزيد نفوذ وممتلكات آلهة السيادة، لكن بدون أى انتقاص من مخصصات أو ممتلكات الآلهة الأخرى، وكان ذلك هو ما يهم كهنة المعابد، أما الانصراف عن إله معين إلى آخر أو إقامة معابد لآلهة أخرى فى مدن الدولة فلم يكن يشكل أى نوع من الحساسية لتلك المدينة، واعتاد المصريون ذلك فى سلوكهم.

ولم يكن الصراع الدينى الذى عاشته مصر فى عهد إخناتون وتوابعه الذى امتد حتى حكم حورمحب بسبب الديانة الآتونية، وإنما بسبب فرض عقيدة التوحيد وإلغاء الآلهة الأخرى، ومصادرة ممتلكاتهم، ولو كان إخناتون والكهنة الذين دفعوه وعائلته اتخذوا لهم إلهاً واحداً وانصرفوا عن باقى الآلهة دون أن يمسوا ممتلكات المعابد وحقوق كهنتها، لكان الأمر قد مر بسلام وكان الكهنة قد احترموا حريته فى اختيار عقيدته ولم يطلقوا عليه المارق أو مجرم أخيتاتون.

لقد شهدت مصر ابتداء من عصر الإمبراطورية فى الأسرة الثامنة عشرة استقبال

الأجانب من كل الأقطار الآسيوية، بالإضافة إلى الآلاف من الأسرى وأبناء حكام الولايات المستسلمين الذين أحضرهم الملوك المحاربون، وخلال الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة عاش كثير من الأجانب واستوطنوا مصر، وفى منف أقدم وأعرق عواصم المملكة، وفى أحد أهم أحيائها كان يقع حى الأجانب، الذى يموج بخليط من الجنسيات الأجنبية: كنعانيين، وحوريين، وسكان جزر بحر إيجه وغيرهم. وفى هذا الحى كانت هناك مقاصير ومعابد للإلهين الأجنبيين بعل وعشتارت، وهما من أرباب سوريا، وفى عهد رمسيس الثانى اكتظت عاصمة الملك الجديدة «بر رعمسيس» بسفراء الدول وعظماء الأجانب، واتخذوا منها سكناً لهم، وأصبحت الآلهة الأجنبية تعبد فى مصر، كما كانت الآلهة المصرية تعبد فى الولايات الآسيوية، وأصبحت «بر رعمسيس» ملتقى كل حضارات الشرق والعالم المعروف وقتئذ، فنقرأ فى المصادر التاريخية عن المعابد التى أقيمت للآلهة الأجنبية فيها، والتماثيل التى صنعت لهم فى كل أنحاء القطر، وكان منها أيضاً عاصمة الملك الدينية تانيس، وأقيمت المحاريب للآلهة الآسيوية. ولم يكن غريباً وسط هذا الانتشار أن يسمى رمسيس الثانى إحدى بناته «بنت عنات» (وتعنى فى الكنعانية بنت الربة عنات) إحدى ربات آسيا، وقد كان من نتائج هذا الاختلاط والانفتاح الثقافى والاجتماعى أن فتحت أبواب الجيش المصرى والوظائف الحكومية للأجانب المهاجرين، كما أخذت الألفاظ السامية تشق طريقها إلى اللغة المصرية.

■■■

من العرض المتقدم يتضح أن القرآن الكريم قدم أربع خصائص دينية لعصر فرعون الذى بعث موسى لدعوته وغرق فى رحلة الخروج، وقد تطابقت فى تفصيلاتها مع ما كشفت عنه الدراسات الأثرية الحديثة: عبادة الفرعون - تعدد الآلهة - عبادة العجل - حرية العقيدة.

ومع تنزيه القرآن الكريم عن الاختلاف أو التناقض، فإن الصور التى قدمها، وقياساً على ما هو مألوف من الدراسات المقارنة لتاريخ الشعوب القديمة وطبائع الحكام المستبدين، كان من الممكن أن تُعجز المفسرين، وأن تظل بدون الدراسات التاريخية فى حاجة إلى تفسير ما قد يبدو غموضاً أو تناقضاً بين تلك الصور المختلفة، باعتبار أنه من الصعب قبول صورة الفرعون المؤله الذى يطلب من شعبه عبادته مع سماحه بتعدد الآلهة، وصورة استبداد هذا الفرعون الإله وجبروته وتهديده لموسى وقومه بالقتل مع الصورة القرآنية الأخرى لدعوة موسى لرسالته فى مصر سنوات عديدة، واتخاذ المؤمنين بيوتهم دوراً للعبادة وقبلة للدعوة وأداء الشعائر على مقربة من مقر الفرعون وداخل عاصمة الدولة وفى وضوح وعلانية، كيف يستقيم الاستبداد وتأليه الذات مع حرية الدعوة والعقيدة؟

لقد أزالت المصادر التاريخية هذا الغموض، وثبت من دراستها اشتمال المجتمع المصرى فى الحقبة الأخيرة من عصر رمسيس الثانى على تلك الخصائص مجتمعة، وقدمت المصادر

تفسيراً لأسباب نشأتها والجذور التاريخية لوجود الخصائص المتناقضة مع تأليه الفرعون والتى تراكمت واستقرت كثقافة دينية مصرية، بحيث بات من المستحيل زحزحتها من وجدان المجتمع، بل ثبت أيضاً أن فكرة تأليه الفرعون لم تكن منبته الصلة تماماً عن ثقافة المجتمع باعتبار أنه فى السابق كان الفرعون يندمج مع الإله بعد وفاته، وقد حولها رمسيس الثانى إلى عباة لنفسه خلال حياته، لقد عرض القرآن الكريم الصور مكتملة دون تفاصيل نشأتها، فليس ذلك مجاله ولا هو الهدف من العرض، ثم جاءت المصادر التاريخية لتؤكد إعجاز هذا الكتاب الإلهى، وأبانت للجميع أنه كان صحيحاً ودقيقاً ظهور الفرعون المؤله فى ظل عبادة الآلهة الوثنية الراسخة منذ القدم، وكان الاستبداد مع حرية العقيدة، ومن ثم فإنه كما انتشرت فى العاصمة والمدن الكبرى معابد للآلهة الأجنبية، وكان وجودها من الصور الشائعة والمعتادة دون أية حساسية أو ثمة اعتراض أو قيود، فإنه يكون مقبولاً وسائغاً دون تناقض أن يسمح لموسى وقومه أيضاً بأن يتخذوا لهم معابد لعبادة إلههم.

وإذا كانت تلك هى الصورة القرآنية لخصائص المجتمع المصرى فى هذا العصر، والتى اتفقت وتطابقت مع دراسة المصادر التاريخية للحياة الدينية والاجتماعية فى عهد رمسيس الثانى، فإن أهمية الاستناد إلى هذا الوصف القرآنى فى تحديد أن هذا الملك هو فرعون الخروج، يرجع إلى اختصاص القرآن لعهد موسى بتلك المظاهر، والاختلاف البين والواضح بين مظاهر هذا العهد، وما حدث فى صور قرآنية أخرى كانت تتفق مع ظروف مجتمعاتها المغايرة للثقافة المصرية، مثل:

- هجرة سيدنا إبراهيم من العراق إلى الشام بعد إيذائه من قومه: «**وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)**»[**سورة العنكبوت**].

- وأيضا فى قوله تعالى:«**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)**» [**الأنبياء**].

- فرار سيدنا يونس من قومه: «**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ (٨٧)**» [**الأنبياء**].

- فرار أهل الكهف بدينهم؛ لأن الحياة فى المدينة التى خرجوا منها لم تكن مهيأة لعبادة الله: «**فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)**» [**الكهف**].

- هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة فى عصر النبى محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن الدعوة إلى الدين فى مكة لم تكن مهيأة للمسلمين بسبب طغيان المجتمع المكى ورفضه ممارسة الدعوة إلى الإسلام بينهم.

أما ما قد يجادل به البعض من تهديدات فرعون لموسى وقومه: « **وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ**

أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)» [الأعراف].

وأيضاً: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)» [غافر].

وأيضا: «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)» [الشعراء].

فإن تلك التهديدات جميعها ثبت أنها كانت عبارات جوفاء لم ينفذ فرعون أيا منها لسبب أو لآخر، وكان يردد أغلبها لحفظ ماء الوجه أمام حاشيته لانتصار موسى دائماً عليه وإحراجه له أمام قومه، ولم تغير تلك التهديدات من مبدأ حرية العقيدة السائد فى مصر، والذى استغله موسى وقومه فى نشر دعوته وإقامة شعائرها، أما حقيقة موقف فرعون وقومه مع موسى أثناء دعوته فى مصر، فقد تمثل فى الاستكبار والإصرار على رفض الإيمان له مع حاجتهم دائماً إلى مساعدته لرفع الأضرار عنهم، وفى ذلك يقول الله تعالى: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)» [الأعراف].

ذلك أقصى ما كان من فرعون ضد موسى، واستمر هذا الموقف حتى جاء الهلاك فى يوم الخروج.

وفى هذا المجال ينبغى مناقشة موقف فرعون من السحرة بعد إيمانهم؛ ذلك أن جميع آراء فقه التفسير تذهب إلى أن فرعون قتل السحرة وسندهم فى ذلك قول الله تعالى: «قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠)» [الشعراء].

وسبق أن رأينا فى هذا الأمر أن فرعون لم يقتل السحرة، وأن هذا التهديد لهم كان أيضاً مثل تهديداته لموسى لم ينفذ هو الآخر، ولم يتجاوز الوعيد، وقد عرضنا أدلتنا على ذلك فى قصة موسى ضمن تاريخ بنى إسرائيل، غير أن هذا الوعيد من فرعون ضد السحرة لا يتناقض أو ينال من حرية العقيدة التى هى إحدى خصائص ممارسة العبادات فى مصر، ذلك أن فرعون عندما غضب وسارع بتهديد السحرة لم يكن بسبب إيمانهم لموسى وإنكارهم لألوهيته أو الآلهة الأخرى، وإنما لأنهم خذلوه أمام موسى وقومه ووضعوه فى موقف ضعيف مخز اعتبره الفرعون هزيمة له داخل قصره وأمام حاشيته وحراسه فى يوم أعد له واستعد وجمع جمعاً غفيراً لمشاهدته، وإذا به ينقلب عليه، فكان لازماً أن يكون رد فعله التهديد

والوعيد ليرد هزيمته واندحاره ويحفظ ماء وجهه، ويُذكر جميع الحاضرين أنه ما زال الأقوى والقادر على الانتقام والبطش.

وإذا كنا فى مجال المقارنة لإثبات التطابق بين المظاهر الدينية والاجتماعية التى حملها إلينا القرآن الكريم عن مصر فى قصة موسى وفرعون وبين المظاهر المصرية فى عصورها القديمة كما حملتها إلينا المصادر التاريخية، خصوصاً فى عصر رمسيس الثانى الذى نسوق أدلتنا لإثبات أنه فرعون الخروج، فإنه يجدر أن نشير قبل أن ننتهى من هذا الشأن إلى تلك الصورة السريعة والعارضة التى سجلها القرآن لبنى إسرائيل بعد عبور البحر فى رحلة الخروج فى تلك المنطقة النائية لجنوب سيناء شبه الجزيرة الصحراوية، فيقول الله تعالى: «**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)**» [**الأعراف**].

وقد عثر فى منطقة جنوب سيناء على آثار الحملات والبعثات المصرية لاستغلال مناجمها، حيث كانت توجد مناجم النحاس والفيروز، وبدأ هذا الاستغلال منذ عصر الدولة القديمة فى منطقة وادى المغارة حتى نفدت عروق ذلك المعدن فى الدولة الوسطى، فاستمرت الحملات فى منطقة سرابيط الخادم حتى عصر الرعامسة، وتوجد نقوش هيروغليفية كثيرة من عصر الدولتين الوسطى والحديثة، وعثر فى هذه المنطقة على معبد صخرى مهم للربة حتحور «سيدة الفيروز» أقيم منذ عصر الدولة الوسطى إقراراً بفضلها والتسهيل على العمال ليقوموا بأداء طقوس العبادة والقرابين فى هذه المنطقة النائية، وأضيفت بعض المبانى إلى هذا المعبد فى عصر الأسرة الـ ١٩، وعثر على أسماء سيتى الأول ورمسيس الثانى، وقد أقيم فى هذا المعبد تماثيل ونقشت ابتهالات للآلهة: حتحور وسبد وبتاح وتحوت. والذى يلفت الانتباه أن القرآن العظيم سجل تلك الصورة فور مجاوزة بنى إسرائيل البحر فى بداية الطريق فى جنوب سيناء، وهذا هو تحديداً موقع مناجم سرابيط الخادم فى شرق خليج السويس على مسافة قريبة بعد عبور البحيرات المرة.

وبعد، إذا كان قد ثبت لنا من هذا الدليل التطابق الواضح بين الخصائص الدينية التى عرضها القرآن الكريم للفترة المعاصرة لفرعون الذى بعث إليه موسى بعد عودته من مدين وبين تلك التى كشفت عنها الدراسات الحديثة للمصادر التاريخية للفترة المعاصرة لرمسيس الثانى، الأمر الذى ينهض دليلاً قوياً على أن هذا الملك هو فرعون الخروج الذى تحدثت عنه الرواية الدينية، ولكنا بسبب اعتبارات انفراد رمسيس الثانى بتأليه ذاته وفرض عبادته – حال حياته –

فى تاريخ ملوك مصر، حسبما ثبت من المصادر التاريخية، والتى اتفقت مع الصورة الفريدة التى عرضها القرآن فى قصة موسى مع الفرعون المؤله لذاته، والتى لم يحدث أن كان يوجد مثيل لها فى قصص الأنبياء وتاريخ الرسالات السماوية، ولأن الخصائص الدينية الأخرى للمجتمع المصرى (تعدد المعبودات، حرية العقيدة) ظلت ملازمة لتاريخ الحضارة المصرية ولم تقتصر على رمسيس الثانى، لهذا جاء اختيارنا لعبادة الفرعون ليكون عنواناً لهذا الدليل.

بيد أنه إذا كان رمسيس الثانى قد حمل هذا الانفراد الخارج عن المألوف فى تاريخ العبادات فى مصر وسير الأنبياء مع أقوامهم، الأمر الذى أكد أن صاحبه هو عينه فرعون موسى المقصود، فإن أيضاً اجتماع هذه الصورة الفريدة مع خصائص أخرى كانت تبدو متناقضة معها لم يكن يقل غرابة؛ لأنه يخرج عن مألوف الشعوب وطبائع الاستبداد، فلا يستقيم وجود هذه الصورة من العبادة البشرية الفاسدة المستبدة التى تكشف عن الجبروت والطغيان فى ظل أن يسمح معها بتعدد العبادات، بل أكثر من ذلك الحرية فى اختيار العقائد وممارسة الشعائر الأخرى دون أى منع أو حجب من هذا الفرعون الإله، وعلى هذا فإذا كان القرآن قد عرض هذه المظاهر دون تفصيل لأن ذلك لم يكن مجاله، ثم كشفت الدراسات الأثرية تطابق هذه الخصائص مع واقع مصر فى عصر رمسيس الثانى، واكتشفت الجذور التاريخية والتراكمات الثقافية التى أرست الأساس العقائدى والخصائص الدينية والاجتماعية للحياة المصرية، الأمر الذى فسر سبب اجتماع هذه الظواهر المتناقضة ورسوخها، بحيث فرضت نفسها على رمسيس الثانى واستمرت رغم إعلانه تأليه ذاته فى العقود الأخيرة من حكمه، فإنه بلا شك إزاء كل ما تقدم تقودنا جميع هذه العوامل بعد أن اتضحت إلى أن هذا الملك هو فرعون الخروج.

سابعاً: ظهور فلسطين

سجلت المصادر التاريخية أول ظهور للفلسطينيين فى عهد رمسيس الثالث، وسجلت التوراة أنه عندما دخل بنو إسرائيل أرض كنعان بعد سنوات التيه كان الفلسطينيون هناك، وهذا يؤكد أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج، ونوضح ذلك على النحو التالى:

● **فى المصادر التاريخية**

تولى رمسيس الثالث عرش مصر عام (١١٨٦ ق.م) وهو ثانى ملوك الأسرة العشرين، أى أنه فى تاريخ حكمه كان قد مر على وفاة رمسيس الثانى ٢٧ عاماً، وفى عهده كانت آخر حملات مصر إلى مناطق نفوذها فى آسيا.

فى العام الخامس من حكمه واجه هجوماً ليبياً على مصر من الغرب، وهو الخطر نفسه الذى تعرض له مرنبتاح فى بداية حكمه، ولم يتمكن من القضاء عليه إلا فى مطلع العام السادس، ويرى المؤرخون أن هذا الهجوم مثل سابقه كان يضم بالإضافة إلى الليبيين تحالفاً

من الشعوب الهندو أوروبية (شعوب البحر) فى تكرار لمحاولاتهم القديمة لاستيطان الشرق، وكانت هزيمتهم أمام مرنبتاح قد نجحت فى إيقاف هجومهم للاستيلاء على مصر لوقت من الزمن، إلى أن انتهزوا فترة ضعف جديدة بعد مرنبتاح نتيجة صراع الأسرة الحاكمة على السلطة فى نهاية الأسرة الـ ١٩، واستأنفوا محاولاتهم السابقة بمحالفة الليبيين أيضاً، وبعد أن أعدوا أنفسهم وجمعوا شملهم لم يتنبهوا إلى أن فترة الضعف قد انتهت، ووصل إلى الحكم فرعون نشيط قوى طموح استطاع أن يدافع عن مصر، لكن هذا لا يمنع أن الزمن كان قد تبدل وتغيرت الحال بمصر، وحتمت الأحوال عليها فى هذه الآونة أن تغير موقفها من الهجوم إلى الدفاع ومن المبادرة إلى المحاذرة، وفى وسط هذه الظروف استطاع رمسيس الثالث أن يقود الجيش المصرى إلى هزيمة التحالف المعتدى ووقف هجومهم وردهم، وباءت محاولتهم بالفشل، وسمح لبعض القبائل الليبية أن يعيشوا على الحدود الغربية، كما أخذ من بينهم أسرى كثيرين وزعهم على الحصون المختلفة لاستخدامهم فى الجيش المصرى.

غير أنه فى وقت معاصر لبداية حكم رمسيس الثالث كان الشرق القديم قد أصبح مسرحاً لتغييرات جذرية مهمة، فقد كانت هجرات شعوب البحر قد أخذت عدة اتجاهات فى دول الشرق فاجتاحت بلاد خيتا (دولة الحيثيين) وبلاد قدى (بين آسيا الصغرى وشمال سوريا)، واحتلت كيلكيا وقبرص واستولت على مدينة قرقميش على الفرات، وتمكنت من القضاء على دولة الحيثيين حليفة مصر، منذ عهد رمسيس الثانى ونزلوا فى شمال سوريا (من مناطق نفوذ الحيثيين وفقاً للمعاهدة المبرمة مع رمسيس الثانى)، ووصلت تلك الشعوب حتى حدود كنعان، التى كانت ما زالت حتى هذا التاريخ مستعمرة مصرية، وفى إصرار من شعوب البحر على دخول مصر اتجهت القوات المهزومة فى حملة العام الخامس بعد أن فشلت فى دخول مصر من ناحية الغرب، واتحدوا مع باقى حلفائهم من شعوب البحر الذين اجتاحوا آسيا، وتكونت قوة كبيرة هاجمت مصر فى العام الثامن من حكم رمسيس الثالث كانت قادمة هذه المرة من ناحية الشرق فى موجات من الهجرات العظيمة بعضهم بطريق البر ومعهم نساؤهم وأطفالهم على عربات تجرها الثيران، والبعض الآخر على السفن الحربية، وقد استطاعت حاميات مصر فى آسيا أن تحمى المستعمرات المصرية، وأن توقف زحف الكثير منهم إلى مصر ، إلا أنهم تسللوا من البحر إلى الدلتا عبر مصبات النيل الشرقية فى توقيت تزامن مع هجوم برى قادم من كنعان، فأعد رمسيس الثالث جيشه والتقى بهم، وخاض معركة برية بحرية سرد وقائعها على جدران معبده الجنائزى فى مدينة هابو (غرب الأقصر)، وتحطم أسطول الغزاة أمام شواطئ الدلتا، ونجح الجيش المصرى فى تمزيق جيوش المعتدين البرية الكبيرة فى معارك امتدت إلى داخل كنعان، وكان من أهم نتائج هذا الانتصار هو إنقاذ مصر من خطر مؤكد لم يكن يقل عن الخطر الذى تعرضت له مصر فى غزو الهكسوس، كما استمرت السيطرة

المصرية على مستعمراتها الآسيوية.

وفى العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث، واجه هجوماً ليبياً آخر كان قادماً إلى مصر بعد اتحاد قبائلهم مع قبائل من شعوب البحر، لكن الملك المصرى انتصر عليهم، وبعد هذه المعركة عاشت قبائل شعوب البحر بطريقة غير منظمة وسط الشعوب الأخرى، ولم تحاول غزو مصر بالقوة مرة أخرى، وربما بعد هذه الحملة حاول رمسيس تأكيد السيطرة التقليدية لمصر فى آسيا، فاضطر إلى القيام بحملة تصدى فيها لجماعات من البدو فى الصحراء جنوب فلسطين، لكنه صور هذه الحملة بطريقة مبالغ فيها، ومما يشكك فى صحة هذا التصوير أن بعضاً من نصوصها منقول من الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وسجل فى قائمة البلاد التى فتحها أقواماً اختفت فى زمن سابق على عهده.

عموماً، فهذا التاريخ كان آخر عهد لمصر فى آسيا، فلم تسجل النصوص المصرية بعد هذا التاريخ أى وجود لها فى مناطق نفوذها السابقة، وانتهت السيطرة المصرية على الإمارات الآسيوية.

والملاحظة المهمة التى نتوقف عندها وتشكل فى تقديرنا حجر الزاوية فى تحديد الفترة التاريخية لخروج بنى إسرائيل، هو أن تحالف شعوب البحر المنضمين إلى ليبيا الذين هاجموا مصر وواجههم مرنبتاح فى نهاية العام الخامس من حكمه (١٢٠٧ق.م) كان يضم (الأقواش والتورشا والشكلش والشردانا ولوكا)، أما شعوب البحر الذين واجههم رمسيس الثالث فى حملة العام الثامن من حكمه عام (١١٧٨ ق.م)، فقد انضم إليهم فى غزوتهم البلستى (أو الفلسطينيون) فى أول ظهور لهم على مسرح التاريخ، وقد صورتهم المناظر المصرية مع قوم «ثيكر» الذين كانوا يماثلونهم فى المظهر والأسلحة، رؤسائهم ملتحين وجنودهم بغير لحى وبأغطية رأس ذات ريش، وبسيوف طويلة عريضة، ومسلحين بالحراب والتروس المستديرة والخناجر المثلثة.

وقد قام جدل طويل حول الموطن الأصلى للفلسطينيين، التوراة تقول إنهم قدموا من كفتور وهى كريت الحالية، لكن بعض الآراء انتهت إلى أنهم مختلفون فى المظهر عن أصل سكان جزيرة كريت، وبعد دراسة لغوية لاسمهم، انتهت آراء أخرى إلى أنهم شعب هندو أوروبى أتى من كريت، لكنه لم ينشأ بها أصلاً، أما جيمس هنرى برستد وسير آلن جاردنر، فالرأى عندهما أن الفلسطينيين أصلهم من جزيرة كريت.

وكان من نتائج حروب رمسيس الثالث أن تفرقت شعوب البحر، واستقر بعضها كسكان مسالمين فى كثير من نواحى البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت أسماء هذه الشعوب علماً على البلاد التى سكنتها حتى الآن، فالشردان فى جزيرة سردينيا، وثكر وشكلش يربط بينهم وبين جزيرة صقلية، واستقر بعض من هذه الشعوب على بلاد الساحل فى آسيا الصغرى، واحتلت

شعوب البلست (الفلسطينيون) الساحل الفلسطيني الذى كان يخضع للنفوذ المصرى، وتوسعوا بعد ذلك واستولوا على معظم الأراضى السهلية الواقعة بين الساحل والجبل، وأصبح اسمهم يطلق على فلسطين منذ ذلك العهد، ربما لأنهم كانوا آخر الشعوب التى استوطنوها أو لأنهم كانوا ذوى قوة وبأس بفضل تقدمهم فى صناعة الحديد والدروع التى احتفظوا بسرها لأنفسهم، ومع مرور الزمن اندمج هؤلاء البلستيون أو الفلسطينيون فى سكان كنعان الساميين، وشيئاً فشيئاً أصبحوا قومية واحدة خلال العصور التالية، ونسوا لغتهم الكريتية وتعلموا اللغة الكنعانية وعبدوا آلهتهم.

هذا أمر فلسطين كما سجلته المصادر التاريخية المصرية و الفلسطينية، حيث كان أول ظهور لهم فى حملة العام الثامن من حكم رمسيس الثالث الذى يوافق العام (١١٧٨ق.م)، ولم يسبق أن كان لهؤلاء القوم أى وجود على مسرح الشرق قبل ذلك وحتى عهد مرنبتاح فى الماضى القريب، وقد استقر هؤلاء على ساحل فلسطين بعد انتهاء حروب رمسيس الثالث.

● فى التوراة

بعد انقضاء سنوات التيه وعبور شعب إسرائيل نهر الأردن مع يشوع بن نون إلى فلسطين سجلت التوراة وجود الفلسطينيين هناك يعيشون على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وبعد دخول فلسطين تحكى التوراة عن الممالك والشعوب التى حاربوها، وترصد نحو ٣١ ملكاً. ثم فى الإصحاح الثالث عشر فى سفر يشوع تقول التوراة:

«وشاخ يشوع، تقدم فى الأيام فقال له الرب، أنت قد شخت تقدمت فى الأيام. وقد بقيت أراض كثيرة جداً للامتلاك. هذه هى الأراضى الباقية كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين من الشيحور الذى هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالاً تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة الغزى والأشدودى والأشقلونى والجتى والعقرونى والعويين» (الآيات من١ :٣).

ثم تحكى التوراة بداية الحروب والصراع ضد الفلسطينيين خلال عصر القضاة ثم الحرب الفلسطينية - الإسرائيلية فى عصر صموئيل الأول طبقاً للتفصيلات الواردة فى سفر صموئيل الأول، ثم حرب داود ضد فلسطين فى سفر صموئيل الثانى.

● النتيجة:

من عرض معلومات المصادر التاريخية والدينية (التوراة) لظهور الفلسطينيين على مسرح التاريخ واستقرارهم فى فلسطين يتضح الآتى:

١- كان أول ظهور للفلسطينيين فى الشرق فى العام (١١٧٨ق.م) ضمن تحالف شعوب البحر الذين هاجموا مصر فى العام الثامن من حكم رمسيس الثالث، وفى هذا التاريخ كان قد مر ٣٥ سنة على وفاة رمسيس الثانى، وقد انتهت هذه الحرب بهزيمتهم، وبدأ بعد ذلك

استقرارهم سلمياً على الساحل الفلسطينى، وكان هذا أيضاً آخر عهد لمصر بمستعمراتها، وانتهى نفوذها فى آسيا.

٢- بعد انتهاء سنوات التيه ٤٠ سنة، وعبور بنى إسرائيل إلى كنعان (فلسطين) كان الفلسطينيون هناك، وذكرت التوراة أنهم كانوا يعيشون فى المنطقة الساحلية، وتجنبوا مواجهتهم فى عهد يشوع بن نون، ولم يبدأ الصراع ضدهم إلا فى مرحلة متأخرة فى عصر القضاة، واستمر حتى عهد داود؛ لأنهم كانوا ذوى بأس شديد.

وإذا خلصنا من ذلك أن الفلسطينيين لم يكن لهم وجود داخل فلسطين إلا بعد مرور ٣٥ سنة على وفاة رمسيس الثانى، وقد رصدت التوراة وجودهم هناك بعد ٤٠ سنة من خروجهم من مصر، الأمر الذى تترتب معه الأحداث تاريخياً وطبقاً لثوابت البحث يكون خروج بنى إسرائيل من مصر فى العام الأخير من حكم رمسيس الثانى عام (١٢١٣ ق.م)، ثم جاء استقرار الفلسطينيين على الساحل - فى الأرض التى أخذت اسمهم - فى الفترة الأخيرة من سنوات التيه الإسرائيلى سابقين دخولهم بسنوات قليلة بعد حروب رمسيس الثالث أو خلال الفترة المواكبة لها، وهذا يفسر عدم اصطدام الفلسطينيين بشعب إسرائيل النازح؛ لأنهم - رغم بأسهم - كانوا فى مرحلة ضعف نتيجة هزيمتهم من رمسيس الثالث فلم يتصدوا لدخولهم ولم يتحالفوا أو يساعدوا الملوك الذين قضت إسرائيل عليهم. وقد يرجع ذلك إلى أن الإسرائيليين فى البداية استقروا فى المناطق الشرقية بعيداً عن مناطق نفوذ الفلسطينيين على الساحل، ولكن كان من المفترض أن الخطر الإسرائيلى القادم جاء للاستيطان والانتشار وسوف يواجه جميع الممالك والدويلات فى فلسطين، وأنه - لا محال - قادم عليهم، وربما أيضاً لأنهم مثلهم ومثل غيرهم من الشعوب القادمة إلى الشرق فى هذا الوقت كانوا جميعاً أقواماً من النازحين الباحثين عن الاستقرار.

وأى افتراض آخر لخروج بنى إسرائيل فى غير نهاية حكم رمسيس الثانى لن يتفق مع سير الأحداث التاريخية، التى واكبت وتلت ظهور الفلسطينيين؛ لأن افتراض أى تاريخ سابق على رمسيس الثانى الذى حكم ٦٦ عاماً، سوف يتعارض مع تاريخ ظهور الفلسطينيين؛ ووجودهم على أرضهم فى تاريخ دخول بنى إسرائيل، بعد سنوات التيه، وهذا أيضاً يتفق مع الثابت من لوحة مرنبتاح ووثائق عصره أنهم خرجوا من مصر قبل أن يحكم لإمكان أن يتحقق لقاؤهم مع الفلسطينيين فى فلسطين.

ونضيف إلى ما تقدم أنه فى هذه الفترة تحديداً كانت الظروف فى فلسطين قد أصبحت مهيأة لدخول بنى إسرائيل، فكان آخر عهد للوجود المصرى فى هذا العام الذى وافق حملة العام الثامن لرمسيس الثالث، وأيضاً كانت دولة الحيثيين حليفة مصر قد سقطت على يد الغزاة من شعوب البحر، وكانت الظروف فى فلسطين عبارة عن دويلات أو ممالك صغيرة ممزقة ضعيفة غير متحالفة يسهل على أى هجوم مسلح دخولها وهزيمتها.

ثامناً: قيام ممالك الآدوميين والمؤابيين والعمونيين

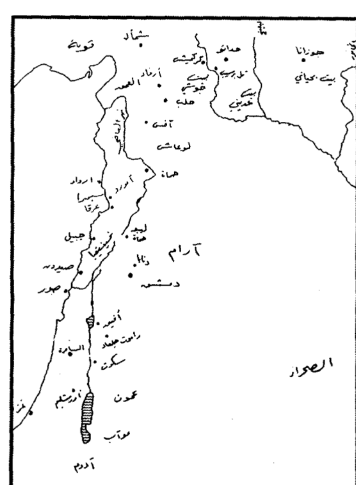
هؤلاء الشعوب هم أبناء عمومة بنى إسرائيل فهم أحفاد إبراهيم ولوط، وثبوت قيام ممالكهم تاريخياً يدل على معاصرة بنى إسرائيل لذات الفترة التاريخية لوجودهم.

ويثبت من الحفائر والتقيبات الأثرية أن هذه الممالك بدأت نشأتها التاريخية خلال القرن الثالث عشر ق.م، والذى بدأ فى السنوات الأخيرة من حكم حورمحب ثم خلال حكم الأسرة التاسعة عشرة.

والآدوميون ينسبون إلى «آدوم» وهو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم، ويقع موطن الآدوميين فى أقصى جنوب شرق الأردن فى الطرف الجنوبى من البحر الميت وتطلق التوراة على هذا الإقليم اسم سعير، وتذكر أن الآدوميين قد طردوا الحوريين وسكنوا مكانهم، وكانت «سالع» عاصمة آدوم تم تغيير اسمها إلى البتراء، والاسم العربى لها «الرقيم».

والمؤابيون طبقاً لرواية التوراة ينسبون إلى مؤاب بن لوط، وهم من الشعوب العبرانية عن طريق لوط ابن أخى إبراهيم، ويقع إقليم مؤاب شمال وادى الحسا، الذى يفصله عن آدوم، ويمتد من شرق البحر الميت حتى الصحراء، وفى الشمال يقع نهر أرنون وعاصمتهم ديبون، وبحسب التوراة فإنهم طردوا منها الإيميين، ولغتهم شبيهة فى رسمها وقواعدها باللغة العبرية.

والعمونيون ينسبون إلى «بن عمى» بن لوط وتقع أرضهم فى الشمال الشرقى من مؤاب وعاصمتهم «ربة عمون» وموقعها حالياً عمان عاصمة الأردن، وما زالت تحمل اسماً قريباً من الاسم القديم، وقد أقاموا دولتهم - حسب التوراة - بعد طرد الرفائيين منها.



خريطة تبين موقع ممالك الآدوميين والمؤابيين والعمونيين فى تاريخ الخروج

وقد رصدت حملة رمسيس الثانى إلى فلسطين فى السنة السابعة من حكمه وجود مملكتى آدوم ومؤاب كممالك فتية بدأت فى الظهور ورفضت السيادة المصرية فغزاها وأخضعها لمصر مع عدد من المناطق الأخرى، وقد كان هذا العهد هو أول ظهور لهما فى التاريخ.

وقد أثبتنا فى دراستنا فى مراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر أن ظهور هذه الممالك كان أحد الآثار التى ترتبت على التحالف السرى الذى تم بين الحيثيين وبين أسرة يويا

الإسرائيلية، والتى مثلها - آنذاك - «آى»، وكان القصد قيام مملكة عبرانية كبيرة جنوب مملكة الحيثيين على فلسطين وجنوب سوريا مستقلة عن مصر، لكن بعد اكتشاف المؤامرة وسقوط الملك «آى» انفرط العقد واستقل كل شعب بإمارته على الجزء الذى استطاع أن ينتزعه، وكان موضعاً لهجرته.

وقد رصدت التوراة فى رحلة خروج بنى إسرائيل من مصر، وهم فى سنوات التيه وجود هذه الممالك الثلاث، واعترفت بحقهم على أراضيهم، وقد حذرهم موسى من الهجوم عليهم؛ لأن الرب أورثهم هذه الأراضى، وحرم على بنى إسرائيل وطأة قدم فيها (سفر التثنية- الإصحاح الثانى) وبداية قيام هذه الممالك فى القرن الثالث عشر، وتسجيل رمسيس الثانى لبداية قيام مملكتى آدوم ومؤاب فى العقد الأول من حكمه - بحسب المصادر التاريخية - ثم رصد التوراة لوجود هذه الممالك فى سنوات التيه، يؤكد ترتيب الأحداث تاريخياً على النحو الذى يؤكد حدوث الخروج فى نهاية عهد رمسيس الثانى ليبدأ بنو إسرائيل بعدها فى سنوات التيه، وتسجيل قيام دويلات بنو عمومتهم فى اتفاق مع المصادر التاريخية المعاصرة لفترة حكم رمسيس الثانى والتالية لعهده.

تاسعاً: دلائل وشواهد أخرى من القرآن الكريم

يوجد عدد من الدلائل والقرائن والصفات ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم لفرعون الخروج، حقيقة لم ينفرد بأى منها فرعون واحد داخل النطاق الزمنى للبحث، لكنها عندما تجتمع كلها فى الفرعون رمسيس الثانى تصبح - بلا شك - دليلاً عليه، ونعرضها فى الآتى:

١- بداية البناء بالآجر الأحمر المحروق

يقول الله تعالى إن فرعون قال لهامان: «**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)** » [**القصص**].

ولقد كان المصريون القدماء يستعملون كتل الأحجار بالغة الضخامة، كما استعملوا الحجر الجيرى والجرانيت بكثرة، غير أنهم لم يستعملوا تلك الأحجار إلا للآلهة والموتى، ولم يستعملوا للأحياء سوى اللبن، سواء فى بناء قصور الملوك أم بيوت القرى، واستطعنا أن نعلم من الرسوم المنقوشة على القبور كيف كانوا يصنعون هذا اللبن، وهى نفس الطريقة التى لا تزال تستعمل فى الريف حتى اليوم، بخلط الطين بماء الترع ويقلَّب جيداً حتى يصير عجينة ثم يخلط بالتبن ويوضع فى قوالب خشبية فتأخذ اللبنة شكل القالب وتترك بعد ذلك فى الشمس لتجف، واختلف حجم اللبنة باختلاف العصور، واستعملوا اللبن المضغوط لبناء سياج حول فناء، ومن كلمة طوب المصرية اشتق اللفظ (adobe) الدال على طريقة رص

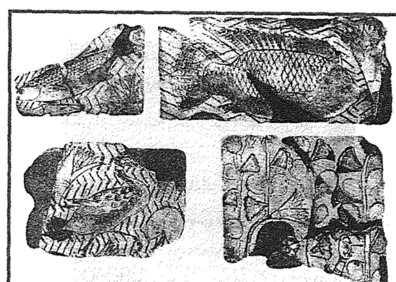
الآجر فى بناء الحوائط.

وتذكر التوراة تسخير بنى إسرائيل فى صناعة الطوب:

«فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن» (سفر الخروج - الإصحاح الأول: ١٣، ١٤).

وبعد مواجهة موسى وهارون لفرعون وطلبهما منه أن يطلق شعب إسرائيل ليعبدوا الله فى البرية رفض وقال: «لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه»، وأضاف لهما مستنكراً: «لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب عن أعماله، اذهبا إلى أثقالكما»، ثم أمر مسخرى الشعب ومدبريه قائلاً:«لا تعودوا تعطون الشعب تبناً لصنع اللبن كأمس وأول من أمس. ليذهبوا هم ويجمعوا تبناً لأنفسهم ومقدار اللبن الذى كانوا يصنعونه أمس وأول من أمس تجعلون عليهم. لا تنقصوا منه، فإنهم متكاسلون، لذلك يصرخون قائلين نذهب ونذبح لإلهنا. ليثقل العمل على القوم حتى يشتغلوا به ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب» (سفر الخروج - الإصحاح الخامس: من ١-٩)، وباقى آيات هذا الإصحاح تدور فى موضوع السخرة فى صناعة اللبن.

هذا ما كان فى التاريخ المصرى وما ورد فى التوراة من تسخير بنى إسرائيل فى تلك الصناعة، ويلاحظ أنه رغم حديث التوراة عن تسخير بناء إسرائيل فى صناعة الطوب، وتكرار ذلك عدة مرات وفى مواضع مختلفة، فإنه لم يأت بها ثمة إشارة يمكن أن نستدل منها على أن المصريين فى ذلك الوقت عرفوا حرق الطوب المصنوع من الطين أو أنهم كانوا يسخّرون فى هذا العمل، بيد أن إشارة القرآن إلى أمر فرعون لهامان بأن يوقد على الطين لبناء صرح، يقطع بأن المصريين فى عهد فرعون موسى كانوا قد عرفوا البناء بالآجر الأحمر المحروق، وأنه غالباً فى هذه المنطقة فى شرق الدلتا كان الأسلوب الأكثر شيوعاً فى مبانى الفرعون بسبب بعدها عن مناطق قطع الأحجار الضخمة، لهذا غلب على تفكير فرعون عن أى أسلوب آخر.



بعض البلاطات عليها رسوم عثر عليها فى بر رعمسيس
من الطين المحروق الملون

ولقد كان الاعتقاد فى مراحل دراسة التاريخ المصرى فيما خلفوه من

آثارهم أنهم لم يتخذوا الآجر المحروق فى البناء قبل العصر الرومانى، حتى تبين وجوده فى آثار ترجع إلى حوالى سنة (٦٠٠ق.م) فى الكرنك إبان حكم نخاو من الأسرة ٢٦ المصرية، ثم عثر «السير فلندرز بترى» على الآجر المحروق بنيت به قبور، كما أقيمت به بعض من أساسات المنشآت، ترجع إلى عصور رمسيس الثانى ومرنبتاح وسيتى الثانى من الأسرة الـ ١٩، فى أماكن قريبة من عاصمة ملكهم فى شرق الدلتا.

وهكذا تأتى التنقيبات والحفائر الأثرية فى العصر الحديث لتضيف دليلاً على الإعجاز الغيبى فيما يخبرنا به القرآن الكريم من قصص الأولين.

٢- نجاة فرعون ببدنه بعد الغرق

يقول الله تعالى فى سورة يونس: «**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)**».

صورة واضحة تامة على إنقاذ جثة فرعون ليراها الناس ليس فى عصره فقط، لكن لمن يأتى بعده فى العصور التالية.

لم تستوعب كتب التراث وفقه التفسير القديم حقيقة المقصود بقول الله تعالى عن نجاة فرعون ببدنه ليكون آية لمن خلفه، وذهبوا مذاهب شتى فى تفسير هذا الأمر، كان منها أن بعض بنى إسرائيل شك فى موت فرعون وقالوا إنه لا يموت، فرفعه الله أمامهم على وجه الماء أو اليابسة وعليه درعه وملابسه التى يعرفونها فتحققوا بذلك من هلاكه وعلموا قدرة الله عليه، واعتقدوا بأن تعبير «لمن خلفك» ينصرف إلى بنى إسرائيل الذين تركوا فرعون خلفهم. لكن مثل هذه التفسيرات لم ينزل الله بها من سلطان، وقد كانت اجتهاداً شخصياً من أصحابها فى التفسير لعدم إدراك الأبعاد الحقيقية للمعجزة الإلهية، ولم تكن تحقق المعنى المقصود؛ لأن هلاك فرعون كان سوف يتحقق حتى لو اختفت جثته إلى الأبد مع الهالكين فى البحر، عندما يجلس ملك جديد على عرش مصر.

وأيضاً فإن عبارة «**لمن خلفك**» لا يمكن حملها على أى وجه من الوجوه إلا للذين يأتون فى العصور التالية، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى سورة مريم: «**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)**» .

عموماً لم يعد لمثل هذه التفسيرات التراثية محل فى العصر الحديث بعد العثور على عشرات من مومياوات الملوك الفراعنة فى الدير البحرى غرب الأقصر قبل سنوات من بداية القرن العشرين، وقبلها بسنوات كان فك رموز اللغة الهيروغليفية وقراءة تاريخ مصر القديم، فعلمنا من يكون هؤلاء المحنطون وتاريخهم.

ومن بين المومياوات الملكية التى عثر عليها مومياء الفرعون رمسيس الثانى الذى تقدمه الأدلة الدامغة على أنه فرعون الخروج، ويستطيع كل من يريد الآن أن يذهب ويراها فى المتحف المصرى راقدة ساجية محنطة واضحة فيها صورته وهيئته، وسمات ما زالت باقية من شموخه وجبروته وغروره، ومجسدة ملامحه فى لحظات ندمه وهو يغرق بعد أن فات الأوان.

ويجدر أن نذكر أن علماء الآثار عندما قاموا بفك اللفائف الكتانية عن بدن الفرعون لفحص المومياء ارتفعت اليد اليسرى فجأة إلى أعلى بصورة واضحة، وهو أمر لم يحدث لغيره من المومياوات، فكانت الصورة تجسيداً لشخص مات وهو يدفع خطراً، والتفسير الذى يفرض نفسه أنه لحظة مواجهة خطر الغرق رفع يده اليسرى التى تمسك درعه، ليقى نفسه موجات المياه المتدفقة، وخطر تدافع العربات والجياد الهائجة، فقبض على درعه بقوة، وتقلصت عضلات ذراعه الأيسر وثبتت يده على هذا الوضع عندما فارق الحياة، وعثر عليه بعد مرور فترة من الوقت كان بدنه قد وصل إلى مرحلة التيبس عندما بدأت أعمال تجهيزه للتحنيط فلم تستقر اليد على الصدر حسب وضع دفن الملوك.

إنها صورة رائعة للإعجاز الغيبى ادخرها الله للعصر الحديث لمن يريد أن يفهم، لم يكن يعلمها محمد صلى الله عليه وسلم أو الذين معه، ولم تذكرها التوراة أو أية مصادر تراثية أخرى، كما أن الله تعالى قص علينا فى القرآن صوراً عديدة لأقوام غابرة هلكوا نتيجة انتقام الله منهم لكفرهم، لكن نجاة فرعون ببدنه كان أمراً خاصاً بمصر التى تحنط فيها المومياوات.

لقد أصبح الآن قصد الله تعالى واضحاً جلياً أن الآية القرآنية دليل على نجاة فرعون موسى ببدنه وحفظه وتحنيطه ليظل باقياً حتى عصرنا الحديث وإلى أن يشاء الله، آية على قدرة الله وعلى إعجاز القرآن.

ومن الغريب أن الأقدار شاءت - حديثاً - أن يسافر الفرعون، رمسيس الثانى، إلى باريس فى عام ١٩٧٦، لفحص وعلاج عدوى فطرية، واستقبله الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان، وأجريت لاستقباله فى المطار مراسم الملوك والرؤساء، وتناقلت وكالات الأنباء وأجهزة الإعلام الدولية صوره وأخباره، وبذلك تكون الآية التى أخبرنا عنها الله تعالى قد ترددت وانتشرت فى أنحاء العالم كله.

مومياء الفرعون رمسيس الثانى



يلاحظ وضع اليد اليسرى للفرعون غير مستقرة على الصدر، فى وضع شخص يدرأ خطراً عن نفسه



رأس مومياء
رمسيس الثانى



تصوير ضوئى
لبروفيل
رمسيس الثانى

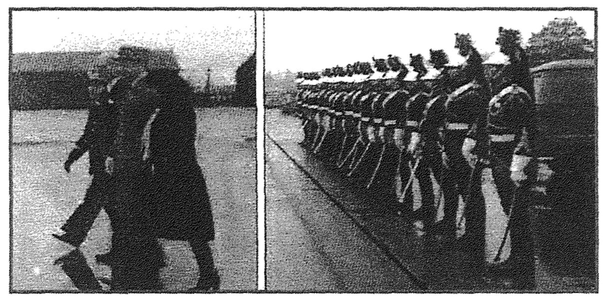
رمسيس الثانى تكشف
موميته أنه كان طويل
القامة ممشوق القوام



صورة واضحة للواجهة الأمامية لرأس
رمسيس الثانى تظهر الفم والأسنان



صورة تخيلية لرمسيس الثانى مقتبسة من شكل
موميانه- رسم فنان المصريات وينفريد برونتون



الاستقبال الرسمى فى فرنسا لمومياء الفرعون رمسيس الثانى عند وصوله إلى مطار «بورجيه تونى» العسكرى

٣- فرعون ذو الأوتاد

وصف الله تعالى فرعون موسى فى آيتين فى القرآن الكريم بأنه ذو الأوتاد:

« **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢)**[ص].

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣)»[الفجر].

وقد اختلف المفسرون حول معنى «**ذو الأوتاد**» ما بين القوة والبطش أو أنها أدوات تعذيب، لكن التفسير الأقوى والأكثر وضوحاً من سياق الآيات أنه كثير البنيان وصاحب المبانى الكبيرة والعالية، فقد جاءت آية فرعون بعد قوم ثمود الذين كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهة، وأيضاً وصف القرآن الجبال فى آيات أخرى بأنها أوتاد فى الأرض: « **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)**» [النبأ].

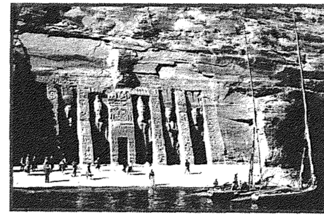
فإذا كانت الجبال أوتاداً لتدعيم الأرض، أيضاً كان الملوك الفراعنة يقيمون مبانيهم الفارعة والضخمة والعظيمة أوتاداً تضاهى الجبال الشاهقة لتدعيم ملكهم وتخليدهم على الأرض بعد موتهم.

وعلى هذا الوصف إذا كان الفراعنة ملوك مصر ذوى أوتاد، فإن رمسيس الثانى كان زعيم ذوى الأوتاد، وعلى الرغم من أن خوفو شيد الهرم الأكبر أعلى بناء فى الآثار المصرية، فإن إنجازات رمسيس الثانى فى مجال المعمار امتدت إلى حدود غير معهودة من قبل شملت طول البلاد وعرضها وتجاوزت حدود مصر إلى المستعمرات المصرية بنهضة إنشائية عظيمة، وامتد حكمه ستة وستين عاماً ليرسخ أقدامه، ويرسى أوتاده فى كل مكان خضع لإرادته.

فى بداية حكمه أنشأ العاصمة الجديدة «بر رعمسيس»، وجعل فيها القصور العظيمة

والمعابد الضخمة والتماثيل العملاقة والمسلات الفارهة، وأقام معابد وقصوراً فى مختلف مدن مصر.

وأضاف الكثير من الإنشاءات فى معبدى الأقصر والكرنك، فأنشأ فناء كبيراً فى معبد الأقصر، ووضع فيه تماثيل كبيرة من حجر الجرانيت، وأمام الفناء صرح عظيم فى مدخله ستة تماثيل ضخمة له من الجرانيت الأسود والوردى، وأمام الصرح مسلتان شاهقتان إحداهما ترتفع الآن فى أعظم ميادين باريس طولها يرتفع ٢٥ متراً، والثانية فى مكانها طولها ٢٣ متراً، وله فى الكرنك بهو الأساطين العظيم وعلى جانبى الطريق المؤدى إلى البهو صفان من تماثيل الكباش الضخمة، وفى الفناء الأول له تمثال ضخم مع زوجته، وشيد لنفسه فى البر الغربى فى طيبة معبد الرامسيوم، أحد الأبنية الأكثر ضخامة فى البلاد، وأمام مدخله تماثيل ضخمة للملك جالساً ارتفاعها ١٨ متراً تقريباً منحوتة فى كتلة واحدة من الجرانيت وزنها أكثر من ألف طن. وشيد سبعة معابد فى بلاد النوبة أشهرها معبد أبى سمبل على النيل وأمامه أربعة تماثيل ضخمة للملك جالساً، وفى داخل المعبد تماثيل أخرى والمعبد بأكمله، بتماثيله ومناظره، منحوت فى الصخر نفسه ومن كتلة واحدة بعمق ٤٧ متراً ابتداء من مدخله حتى قدس الأقداس فى نهايته، وزينت جدرانه بنقوش لمعارك الملك، وعبادته والآلهة، وإلى جوار معبد أبى سمبل الكبير شيد مقصورة للإله تحوت، وفى الشمال شيد معبداً آخر للآلهة حتحور والملكة نفرتارى، وأمام واجهته ستة تماثيل كبيرة، وله معبد رائع فى أبيدوس، وأنشأ مقبرة رائعة بوادى الملوك، هذا غير آثار أخرى كثيرة: معابد وتماثيل ضخمة ومسلات فى منف وعين شمس وتانيس، وصلت مبانيه إلى الصحراوات والواحات، وفى سوريا وفلسطين وفى السودان حتى بلاد كوش وتمتد إلى الجندل الخامس.



معبد أبى سمبل المنحوت فى الصخر

غير أن مدينة بر رعمسيس قد دمرت بعد انتهاء عهد الرعامسة وكثير من معابده وتماثيله هدمت وتكسرت، لكن الكثير أيضاً ما زال قائماً شاهداً على إنجازاته المعمارية الهائلة.

٤- فرعون غير رشيد

يقول الله تعالى فى سورة هود: «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾**» .

وإذا كان الله تعالى وصف فرعون موسى بأنه صاحب أمر غير رشيد، فقد كان ذلك لأنه لم يعقل ولم يستوعب آية موسى يوم حضر إليه يدعوه للإيمان بالله الواحد، ولم يفهم حقيقة ما حدث يوم آمن السحرة وخروا ساجدين لرب موسى، ولم يقتنع بعد تسع آيات بينات واضحات جاء بها موسى، وظل يقول للناس: أنا ربكم الأعلى، ويظن أن موسى ساحر رغم أن كبار سحرة مصر قالوا له كلمتهم صريحة قوية دون تردد أو خوف بأن موسى ليس ساحراً يا فرعون، وأن ما جاء به ليس السحر الذى تعلمناه والذى هو صناعتنا، إنه معجزة إلهية وليس فعل بشر. لكنه استكبر وتوعدهم بالقتل، بل وصلت به الحماقة إلى أن يطلب من هامان أن يبنى له صرحاً عالياً لعله يطلع إلى إله موسى، معتقداً أنه بهذا السخف والسخرية يكشف للقوم كذب موسى، ولقد فاض الكيل بموسى منه ومن كهنته ورجال بلاطه الذين اتبعوه ولم يعد ينتظر منهم رجاء فدعا ربه: «**رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)**»[يونس]، وهذا لن يكون إلا بعد إدراك تام من موسى أن هذا العقل غير الرشيد لن يفهم بعد ذلك الحقيقة أبداً، وهذا ما قد كان فلم يقتنع إلا وهو يغرق. ويخبرنا الله تعالى عن النتيجة التى تنتظر فرعون ومن اتبعوا أمره غير الرشيد فى الآية التالية لهذا الوصف: «**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)**»[هود].

وإذا كان هذا ما كان من أمر فرعون مع موسى والنتيجة التى انتهى إليها، فإنه أيضاً على صعيد المصادر التاريخية إذا ألقينا ضوءاً ساطعاً على تاريخ مصر القديم جملة، سوف ندرك تماماً أن الفرعون رمسيس الثانى الذى حكم مصر ستاً وستين سنة كان عهده الحد الفاصل بين الحضارة والمجد والانتصارات وبين الاندحار والفشل والهزائم، وبعد أن أبيد جيش مصر كاملاً لم يستطع أى من خلفائه إقامة جيش قوى بعد ذلك أبداً، وإنما مجموعات تعد لمواجهة حالات الطوارئ القصوى وأغلبها شراذم من المرتزقة وأسرى الحروب السابقة، وبعد أن ضاعت مستعمرات الإمبراطورية قادت هذه الشراذم العسكرية مصر إلى ويلات الاحتلال ثم وصلت بها إلى نهاية طريق حضارتها.

كانت مصر قبل رمسيس الثانى بقرنين قد حلقت فى آفاق عالية من المجد وبلغت ذروة القوة والمكانة. فأصبحت القوة السياسية الكبرى فى عالمها المعاصر، وكانت إنجازاتها الحضارية والعلمية والثقافية والمعمارية تحلق فى الآفاق، وعندما تولى رمسيس الثانى الحكم كانت مصر على أقل تقدير تقف على قدم المساواة مع أعظم المدنيات الأخرى فى ذلك العصر، وكانت تملك إمكانات ضخمة من الثراء والرخاء والرجال الأفذاذ.

فى النصف الأول من حكمه استطاع أن يحقق إنجازات عسكرية قوية مكنت مصر من فرض سيادتها على ممتلكاتها لفترة قادمة، وتدل إنجازاته المعمارية الهائلة أنه اعتلى عرش دولة عظيمة غنية بالموارد الاقتصادية والمواهب الفنية، وكان المفروض بعد أن وضعت الحرب

أوزارها وعقدت مصر معاهدة صلح مع دولة خيتا، ودخلت مرحلة طويلة من السلم أن تنمى مواردها وتزيد من ثرواتها، لكن التاريخ القادم لم يثبت ذلك أبداً، وفجأة تغير كل شىء وحدث العكس تماماً، وأخذت كل أحوال مصر الاقتصادية والسياسية والعسكرية فى التدهور، وكان ذلك واضحاً فى نهاية أسرته وحكم الأسرات التالية، ويتساءل المؤرخون فى ذهول، ما الذى حدث بعد القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وما دور رمسيس الثانى فى هذا المصير؟

والحقيقة أن هذا التدهور الذى أصاب مصر لم يبدأ - كما يعتقد المؤرخون - بعد رمسيس الثانى، وإنما بدأ الانحطاط فى النصف الثانى من حكمه ووضح بشدة فى نهايات عهده، وتؤكد شواهد كثيرة أن الموارد قد نضبت ووصلت الحال إلى أن الفرعون لم يعد يجد وسيلة لإشباع غريزته فى الدعاية لنفسه سوى أن يسرق آثار أسلافه وينسبها لنفسه، كأنه لم يكن يكفيه ما أقامه. لكن الدليل الأكثر تأكيداً على مسئولية رمسيس الثانى عن التدهور الذى أصاب مصر هى أحوال البلاد فى السنوات الأولى من حكم خليفته، فإذا كان رمسيس الثانى قد ورث حكم دولة قوية غنية عظيمة، فإنه أورث مرنبتاح دولة ضعيفة وصل بها الوهن إلى أن يستغل ضعفها القبائل الليبية ويحتلوا أجزاء منها ويسيطروا على المنطقة الغربية، ويصلوا إلى غرب الدلتا، وتقوم ثورات أخرى فى شمال البلاد ومشرقها والفرعون لا حول له ولا قوة لمدة خمس سنوات من حكمه، حتى تمكن فى بداية العام السادس من طردهم واعتبر ذلك إنجازاً عسكرياً هائلاً يضاهى فتوحات تحوتمس الثالث، نقشه الفنانون وتغنى به الشعراء فى طول البلاد وعرضها.

إن الأحوال التى سادت مصر والتى كانت بدايتها فى عهد رمسيس الثانى تكشف بحق أن هذا الملك، بعد حكم انفرادى مطلق ومتواصل لمدة ثلثى قرن من الزمان قاد البلاد إلى انحدار سريع، وهو المسئول عن الهاوية السحيقة التى دخلت فيها مصر بعد عهده مباشرة، وذلك لن يكون إلا من مستبد أحمق ينفرد بأمره الذى هو كما وصفه الله تعالى أمر غير رشيد.

وإذا كنا لا نملك تماماً الوسائل التى نستطيع أن نعرف منها سياسته وأسلوب حكمه مع معاصريه؛ لأنه لم يسجل لنفسه إلا كل ما هو عظيم ورائع وموضع فخر، لكن بالإضافة إلى المظاهر التى آلت إليها البلاد فى نهاية حكمه وبعد عصره مباشرة، فإنه يمكن من بين مصادره، أن نستدل على وجود صفات العناد والتشبث بالرأى لديه، وهما أبرز صفات الحاكم المستبد، وأيضاً توافرت فى تصرفاته الحماقة والتفاهة والشذوذ عن المألوف، وجميعها من صفات عدم الرشد فى التفكير، ومن ذلك: فى بداية عهده لم تكن الأمور، تستدعى أن يحارب دولة خيتا العظيمة والقوية - آنذاك - وكان حاضراً مع والده الذى ضيع قبله سبع سنوات فى حربهم لاسترداد كل إمبراطورية تحوتمس الثالث، إلى أن اضطر إلى إيقاف النزيف وعقد صلحاً معها، واقتسما الممتلكات. أما رمسيس - فى تصميم لا يستند على أساس - مضى

ساعياً إلى تحقيق ما عجز أبوه عن تحقيقه واستنزف ثلاثة أمثال الوقت الذى ضيعه والده، وخاض ضدهم حروباً استمرت فى إصرار شديد لمدة عشرين عاماً أهدر فيها الأموال وأفنى الرجال، وفشل فى استرداد قادش وآمورو فى سوريا. وفى عناد غير مبرر رفض عروض الصلح التى تقدم بها ملك الحيثيين، رغم نصيحة مستشاريه له بالصلح، وفى ذلك يقول الملك: إنهم «قالوا فى نفس واحد السلام شىء عظيم يعلو على كل شىء، يا مولانا الملك، ولا يوجد من يعارض التسوية إذا أبرمتها أنت، فمن ذا الذى يجرؤ على الوقوف فى طريقك يوم غضبك؟»، لكن الملك لم يسمع غير رأيه وظل يعاود الكرَّة دون نتيجة، وأخيراً فى العام ٢١ من حكمه يئس وخلص إلى أنه من المستحيل تغيير مجرى التاريخ، ووصل إلى نفس النتيجة التى وصل إليها أبوه منذ حوالى ثلاثين سنة، وتوقف رمسيس عن عناده ووقَّع معاهدة الصلح والسلام بنفس الشروط السابقة فى تقسيم الممتلكات بين الدولتين التى تمت فى عهد والده.

وأيضاً من يدرس حروب رمسيس الثانى بالمقارنة مثلاً مع حروب تحوتمس الثالث سوف يتبين أنه يقود مؤسسة عسكرية قوية دون تخطيط محكم، مع اندفاع غير مدروس ونقص فى المعلومات، وفى معركة قادش الشهيرة فُرض عليه الالتحام قبل اكتمال صفوف الجيش وكادت تحدث كارثة، وقد لعبت معه الظروف دوراً كبيراً فى المحافظة على حياته وجيشه، وكان للمصادفات دور فى الحصول على المعلومات المهمة، ولم ينكرها أحياناً فى تسجيل المعارك، وإن كان ذلك قد جاء بقصد أن يبرز أن شجاعته المنفردة وحدها هى التى قادت إلى تحقيق النصر، عموماً كانت عسكريته دائماً تفتقر إلى البعد السياسى وتخطيط ما بعد النصر أو الانسحاب بالجيش، فيلاحظ دائماً فى حروبه، أنه ما يكاد يترك ساحة المعارك حتى يرتد السوريون الذين خضعوا له ببساطة إلى الحظيرة الحيثية، وضاعت سنوات فى هذا الأخذ والرد، وهو يكرر ما يفعله، ولم يتمكن رمسيس المكابر من السيطرة على الأحداث، وبعد خمس حملات عسكرية أوقف حملاته على سوريا وقنع بمستعمرات مصر التقليدية فى فلسطين والساحل الفينيقى.

هذا غير التفاهة والسطحية فى التعبير عن القتال والانتصار، كتب نصاً ثقيلاً مملاً لا يحوى شيئاً سوى أنه ظل ساعتين يقاتل أمام الفيالق بدون أن يلبس درعه.

وفى مراسلاته مع حكام الدول الأجنبية كانت تنقصه الديبلوماسية والكياسة فى التعبير، وتوجد أمثلة كثيرة على ذلك، فى أحدها أنه بعد الصلح مع الحيثيين طلب منه الملك هاتوسيل إرسال طبيب من مصر لتحضير أدوية تساعد أخته على الإنجاب، فرد عليه رمسيس: «انتبه لى يا أخى، ففيما يخص ماتاتازى أخت أخى، فأنا أخوك الملك أعرفها، أليست فى الخمسين؟ أبداً إنها قطعاً فى الستين من العمر... ولا يستطيع أحد أن يحضر لها دواء يجعلها قادرة على الإنجاب، لكن إذا شاء إله الشمس وإله العواصف لها أن تنجب فستنجب... ومع ذلك فسوف

أرسل لك طبيباً بارعاً وساحراً عظيماً، قد يمكنهما تحضير بعض أدوية الحمل لها».

وقد طلب رمسيس الزواج من أميرة حيثية وكان قد تجاوز الخمسين من عمره، وظل يلح بفظاظة وأسلوب غير لائق فى طلب هدية قيمة وكبيرة تأتى مع العروس، فأرسلت له الملكة أم العروس مستنكرة تصرفه وتتساءل فى عجب: هل أخى خالى الوفاض؟ هل ابن إله الشمس مفلس؟ ووبَّخت الملكة الفرعون لانتقاده تعطيل إرسال العروس والأشياء الأخرى (الهدية)، وأشارت فى رسالتها إلى الشائعات الدولية الذائعة فى القصور الملكية حول السلام المربح، فى إشارة بذلك إلى زوجة بابلية أخرى كان قد ضمها رمسيس إلى حريمه، وقالت له الملكة صراحة فى كتابها: «إن سعيك يا أخى للإثراء على حسابى لا هو ودى ولا هو كريم».

والغريب أن رمسيس بعد وصول العروس والهدية الكبيرة، فى تنافر واضح مع الرسائل التى تبادلها الطرفان قبل الزواج، نظم الشعراء له قصائد تصوّر الزواج والهدية على أنه انتصار وقهر للحيثيين، ويبدو أنه كان يشعر بعقدة نقص شديدة لعدم الانتصار عليهم، فحاول بذلك أو ربما أراد من حوله أن يرضوا غروره ويخدعوا سذاجته بتصوير حدث الزواج على أنه انتصار له، تتغنى القصيدة كيف أن ملك الحيثيين «سمح لابنته الكبرى وبين يديها تقدمة جزيلة ذهب وفضة وكثير من البرونز وعبيد وخيول بلا عدد وماشية وماعز وكباش بعشرات الآلاف - لا حصر لها - هذه الرسوم من أجل رمسيس»، ويصف الشعر كيف تحملت العروس المشاق واجتازت الجبال من أجل الوصول إليه، وتنتهى القصيدة إلى أنه بذلك صارت مملكة الحيثيين له، كما أن مصر له بسبب انتصارات جلالته، غير انتصاره فى الزواج.

أى تفاهة وسطحية ونقص يكشف عنها هذا الأسلوب الرخيص من فرعون، كان قد مر على جلوسه على العرش أكثر من ثلاثين سنة.

ونذكر أيضاً لرمسيس الثانى إصراره الزائد على الاحتفالات اليوبيلية المتكررة فى نهاية عهده بدون ما يستدعى ذلك، ووصلت إلى حد الاحتفال بها كل سنة، وكان الفراعنة فى الماضى يحتفلون بها إذا حكموا ثلاثين عاماً أو فى المناسبات شديدة الأهمية، حتى بعد وفاة ابنه الأمير العظيم خعمواس ولى العهد الذى كان ينظم له تلك الاحتفالات استمر رمسيس يحتفل بها دون اكتراث.

ومن أكثر الأمور شذوذاً فى تفكير رمسيس الثانى أن يعلن نفسه إلهاً، ويطلب من شعبه عبادته، وهو أمر لم يسبق أن حدث فى حياة ملوك مصر أو بعد ذلك.

وأيضاً زواجه من عدد من بناته قد يصل إلى أربعة وإنجابه منهن، وهذا أمر لم يسبق أن حدث فى مصر ولم يتكرر.

عموماً هذا هو رمسيس الثانى، وتلك صفاته التى وضعت مصر على أول طريق الهاوية، والذى استمر دون انقطاع حتى انتهت حضارتها القديمة.

الفصل الخامس
شخصيات فى القصة

فى قصة موسى وفرعون يذكر الله تعالى فى القرآن الكريم ثلاث شخصيات مصرية كان لكل منها دور فى أحداث القصة، ونلقى الضوء فى هذا الفصل من الدراسة على تلك الشخصيات، ومن خلال ما عرضناه من أحداث سابقاً، واستهداء بالوصف القرآنى وما قدمه من معلومات وصفات وخصائص، سوف نحاول تحديد هذه الشخصيات ونتناولها على النحو التالى:

١- **هامان:** وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم، وتحدث العهد القديم عن شخص يدعى هامان، عاش فى بلاد فارس وفى غير زمان موسى وفرعون.

٢- **امرأة فرعون:** ذكرها القرآن الكريم، وقالت عنها التوراة إنها ابنة فرعون.

٣- **مؤمن آل فرعون:** ذكره القرآن الكريم فى سورة غافر، ولم تتحدث عنه الرواية التوراتية.

١- هامان

ورد ذكر هامان فى القرآن ست مرات، وتؤدى تلك الآيات مجتمعة إلى أنه كان أهم الشخصيات المؤثرة فى البلاط أو واحداً من الذين يثق فيهم الفرعون ويعتمد عليهم، ويغلب من السياق أنه إما نائب الملك أو أحد وزرائه أو عظيم كهنة مصر. وقد تحدث القرآن عن هامان فى مختلف المراحل الزمنية للقصة الدينية، فكان موجوداً إلى جانب الفرعون زمن ميلاد موسى، وكان موجوداً أيضاً فى خدمة فرعون، وحاضراً لقاءاته مع نبى الله موسى بعد بعثه ورجوعه إلى مصر قادماً من مدين، ونفصل هذه الآيات على النحو التالى:

أولا: زمن ميلاد موسى

ذكر الله تعالى هامان فى سورة القصص ثلاث مرات، منها اثنتان فى زمن ميلاد موسى، والثالثة بعد بعثه، وهذه السورة هى الوحيدة فى القرآن التى تحكى قصة ميلاد موسى وتصف الأحوال فى مصر - آنذاك - باستثناء آيات أخرى فى سورة طه كان الله تعالى يُذكر فيها موسى فى ليلة البعث على جبل الطور بفضله عليه وعلى أمه إذ نجّاه طفلاً وأعاده إليها.

وعن فترة الميلاد يقول الله تعالى عن هامان فى سورة القصص:

«تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)».

ثانياً: بعد بعث موسى

ورد ذكر هامان أربع مرات على النحو التالى:

- **«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)» [غافر].**

- **«وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)» [العنكبوت].**

- **«وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧)» [غافر].**

- وفى سورة القصص بعد البعث يقول الله تعالى عن هامان:

«وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)» .

ومن الأهمية فى تحديد شخصية هامان - مبدئياً - ملاحظة الآيتين التاليتين مباشرة للآية السابقة من سورة القصص، فيقول الله تعالى:

«وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)» .

وبمقارنة هذه الآيات من سورة القصص التى تتحدث عن هامان بعد البعث بالآيات التى تتحدث عنه وقت الميلاد، سوف نلاحظ أن الله تعالى فى آيات الميلاد جمع بين موقف فرعون وهامان ومعهما جنودهما مرتين فى الآيتين: «**وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)**» ثم «**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)**»، أما فى آيات ما بعد البعث، فنلاحظ أنه بعد أن قال فرعون لهامان أوقد لى على الطين واجعل لى صرحاً، انتهى دور هامان، وجاءت الآيتان التاليتان لتتحدثا عن فرعون وجنوده دون أن تجمعه فيهما مع هامان، «**واستكبر هو وجنوده**» وبعدها «**فأخذناه وجنوده**»، ولم يقل الله تعالى «**وجنودهما**» كما فى آيات الميلاد.

دقة متناهية لم تتنبه إليها كتب التفسير ولكنها تضع فارقاً جوهرياً بين الموقف فى الحالتين، تصوير مقصود تماماً من الله سبحانه الذى يعلم حقيقة الأدوار، وما كان من سير الأحداث، وما انتهت إليه الأمور فيها، وسوف يقودنا هذا الاختلاف فى الوصف فى تصوير الله تعالى للأحداث على ضوء المعلومات التى توافرت من المصادر التاريخية إلى تحديد شخصية هامان فى التاريخين.

ونسبق رؤيتنا فى تفسير سبب هذا الاختلاف والوصول إلى التحديد بإيضاح المعنى المقصود لكلمة هامان، وفى ذلك تجدر الإشارة إلى أن تاريخ مصر فى عصر الأسرات فى الدولة الحديثة، وهى الفترة التى تقع داخل النطاق الزمنى لموضوع البحث، لم يعرف وزيراً أو شخصية مصرية مهمة من رجال الدولة بهذا الاسم، وقد كان دأب القرآن مع فرعون أنه لم يذكر اسمه فى أى مرة، وإنما صفته أو وظيفته التى يستمد منها سلطانه وجبروته وبطشه، «**وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١)**»[**الزخرف**].

إن فرعون هو لقب حاكم مصر، وبدأ يستعمل للدلالة على شخص الملك منذ عصر الدولة الحديثة لتاريخ الأسرات، وهذا اللقب يجد أصله فى اللغة المصرية القديمة من كلمة (بر- عا) بمعنى لفظى «البيت العالى»، والذى يطلق على مقر الملك ومنه استمد الملك لقبه، وبالمثل فإن علينا ألا نتوقع أن يذكر القرآن اسم نائب الملك أو أى موظفيه، وأيضاً من غير المعقول أن يتبادر إلى الذهن أو يعتقد المفسرون أن الفترة قد مرت منذ ميلاد موسى وحتى خرج من مصر متجاوزاً الثمانين من عمره، وما زال هذا المدعو «هامان» يشغل منصب الوزير، وعلى ذلك فإن هامان الذى ذكر فى القرآن ليس اسم شخص وإنما لقب وظيفى لنائب الملك أو وزيره أو كبير الكهنة، وكما هو

واضح من التحليل اللغوى لكلمة هامان أنها تستمد أصلها من الإله المصرى آمون، وكان فى هذا الوقت زعيم الآلهة والإله الإمبراطورى واهب النصر للفرعون وجنوده، وغالباً أن هذا اللقب كان يحمله كبير كهنة آمون، وأنه قد أصبح لقباً عاماً لكبار الكهنة عند تمثيلهم لمعابد آمون، وحمله هؤلاء الذين كانت لهم صلة أو انتساب للإله آمون أو الكهنوت الآمونى. ونلاحظ بوضوح فى عصر الدولة الحديثة التبادل الوظيفى فى وظائف الدولة الكبرى، ونظراً لثراء المعابد الفاحش، فإن كبار الموظفين فى الدولة كانوا يكافأون بالوظائف الكهنوتية؛ خصوصاً فى المعابد الكبرى - كل حسب قدره - وقد لاحظنا ذلك فى ظل سيادة عائلة يويا خلال حكم الأسرة الـ ١٨، وتبين لنا مدى حرصها على وظائف المعابد، رغم ما ثبت أنهم رواد الآتونية، ويقص علينا حورمحب على تمثاله الموجود بتورين «أنه جهز المعابد بكهنة مطهرين وكهنة مرتلين من خيرة رجال الجيش»، وقد كافأ رمسيس الثانى وزير الجنوب الوفى فى خدمته منذ عهد والده سيتى، وكان يدعى باسر، ويقيم فى طيبة، فعينه فى السنة ٢٧ من حكمه فى منصب كبير كهنة آمون فى الكرنك بعد أن قضى أكثر من ربع قرن فى منصب الوزير، وظل باسر يحتفظ بالمنصب الجديد عشر سنوات أخرى حتى مات فى السنة ٣٨ من الحكم.

وإذا انتهينا إلى أن لقب هامان ليس اسماً لشخص وإنما وظيفة رسمية مهمة فى الدولة تستمد أصلها من الانتساب إلى الإله آمون - زعيم الآلهة - فإنه يستتبع ذلك أنه قد كان يوجد هامان لفرعون الميلاد وآخر لفرعون الخروج، وفى هذا الإطار جاء الفارق الجوهرى فى تصوير القرآن للشخصيتين، وهذا ما نوضحه فى تحديد الشخصين على النحو التالى:

هامان فرعون الميلاد:

قدمنا الأدلة الدينية والتاريخية التى أكدت أن حورمحب هو فرعون الميلاد، وقد علمنا الظروف التاريخية التى رفعته إلى عرش مصر وهو القادم من عوام الناس، وكان آخر منصب تقلده قبل حكمه هو قيادة الجيش، وبعد أن حكم وجَّه همه الأول إلى القضاء على فتنة إخناتون، ورغم أنه استمر جندياً مخلصاً للبلاط الملكى منذ عهد إخناتون وحتى حكم آى، فإنه انقلب فى فترة حكمه وأخذ عكس اتجاهه السابق تماماً، وأنكر



بارعمس الوزير والقائد الأعلى للجيش فى عهد حورمحب.. ترأس معسكرات التعذيب والانتقام من المؤمنين أتباع إخناتون

حكم هؤلاء الملوك المنتمين للآتونية السابقين عليه، وأصدر أوامره بمحو فترة حكمهم من الحوليات والقوائم الرسمية، وأعلن أنهم ملحدين وأعداء لمصر، وأرخ بداية عهده بعد أمنحوتب الثالث مباشرة، وقاد مع وزيره وقائد جيشه الجديد «بارعمس» حملة مستعرة فى أنحاء مصر للانتقام، وتعذيب جميع أتباع ديانة إخناتون لإجبارهم على الارتداد أو قتلهم، واستعان الفرعون وقائده الوفى فى هذا الانتقام بجنودهما المخلصين من رجال الجيش الذين كان لهم الفضل فى مناصرة قائدهم ورفعه إلى العرش.

وإذا كنا قد انتهينا فى دراستنا إلى أن المصريين المؤمنين بالإله الواحد من أتباع إخناتون ومعهم بنى إسرائيل رواد الإيمان والتوحيد فى مصر، يشكلون معاً الطائفة المستضعفة من أهل مصر الذين قصدهم الله تعالى وقت ميلاد موسى، وقال فى سورة القصص عنهم إنهم كانوا يعذبون من فرعون وهامان وجنودهما، فإنه على هذا الأساس، واعتباراً لهذه المعطيات القرآنية يمكن تشخيص هامان الفرعون حورمحب.

وبحسب الوصف القرآنى الذى حدد دوره فى اضطهاد المؤمنين ونسبه وحسبه على الجيش، فإن الأدلة تجتمع وتجمع على أنه ليس سوى قائد جيش الفرعون الذى أحله مكانه «بارعمس» وأعده ليخلفه على عرش مصر. وأصبح بعد ذلك الفرعون رمسيس الأول مؤسس الأسرة الـ ١٩.

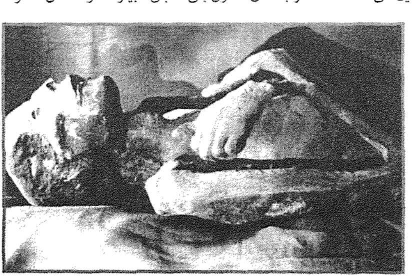

رمسيس الأول

وإذ نقدم نبذة عن تاريخ هذا القائد والأسباب التى أهلته لذلك الدور، فقد عرفنا أنه نشأ فى موطن أسرته فى شرق الدلتا التى نعلم أنها كانت معقل الهكسوس، ومقر إقامة بنى إسرائيل فى مصر، والتحق بالسلك العسكرى مثل والده المدعو سيتى الذى كان ضابطاً بالجيش فى عهد أمنحوتب الثالث وإخناتون، وهو - كما سلف بيانه - عهد تواضع وتدهور العسكرية المصرية، لكن الابن بارعمس فاق أباه واستطاع عندما كان حورمحب قائداً للجيش ثم خلال مدة حكمه، أن يتدرج فى المناصب العسكرية باقتدار، فترقى من قائد فصائل إلى قائد خيول فى سلاح العربات الحربية، أرقى أسلحة الجيش، ثم حامل حقيبة ديبلوماسية للفرعون، وأتاحت له تلك الوظيفة الفرصة لحمل رسائل القصر والتنقل بين العواصم، فوطد صلته بالبلاط، واكتسب ثقة الفرعون حتى نال أعلى رتب الجيش، فقد عينه

حورمحب قائداً للجيش ليحمل لقبه العسكرى السابق. وفى مرحلة تالية عينه وزيراً تالياً فى رتبته للملك مباشرة وجعله وزيراً للجنوب لضمان ولاء طيبة مدينة آمون. ثم تدرج إلى ما هو أكبر من منصب الوزير، فعندما جاوز حورمحب الستين من عمره دون أن ينجب وريثاً للعرش لم يتردد فى اختيار رفيق سلاحه ووزيره الخبير. وأعلن أن «بارعمس» (نائباً للملك فى الشمال والجنوب)، ثم أعلن بعد ذلك أنه (الأمير الوراثى على كل البلاد)، محدداً أنه المرشح الوحيد لوراثة العرش.

وقد حمل هذا الرجل ألقاباً كثيرة على آثاره، ومن بينها اللقب الدينى الشرفى الكبير «رئيس كهنة مصر كلها»، والمشرف على كهنة الآلهة، وكاهن الإلهة ماعت، والمشرف على قاعات العدل الست. ومن ثم يتضح من هذه الألقاب أنه كان جديراً بلقب «هامان» باعتباره رئيساً لمجمع كل الكهنة. ومما يوضح صلته القوية بالإله آمون، أنه بعد أن تولى العرش، ورغم فترة حكمه القصيرة، شرع فى إقامة أضخم قاعة عمد فى مصر لهذا الإله فى معبده بالكرنك، وفاء لدينه بمساعدته له لنيل عرش مصر.

أما عن دوره فى اضطهاد المؤمنين، فقد اختاره حورمحب ليكون مسئولاً عن معسكر ثارو وجعله مقراً للقيادة. وتم جمع المؤمنين فى هذا المعسكر بعد أن تحول إلى سجن كبير لممارسة كل صنوف التعذيب والاضطهاد. وكان هذا الرجل باعتباره قائداً للجيش مسئولاً عن القضاء على جميع أتباع إخناتون، وتصفية المؤمنين فى أنحاء الدولة، وبلا شك فإن بنى إسرائيل كان قد تم تصنيفهم على أنهم رأس الأفعى التى أحلت الفتنة بالبلاد.



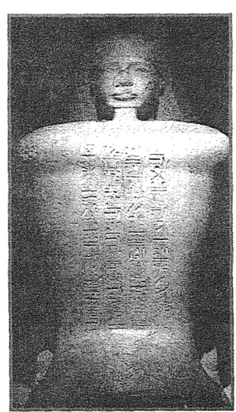
مومياء الفرعون رمسيس الأول

ولا توجد أية صلة قرابة بين بارعمس وبين حورمحب، فالأول من مدينة «ستريت» فى شرق الدلتا والثانى من بلدة «حات نسوت» مكانها الآن فى محافظة المنيا، ووالدة بارعمس كانت تدعى «تيو»، وتلقب بربة البيت، وزوجته تدعى «ساترع»، والتى أخذت لقب ملكة بعد أن تولى العرش وهى أم سيتى الأول، وأخيرا فإن هذا الرجل الذى قادته الأدلة باقتدار إلى منصب هامان فى عهد الفرعون حورمحب، هو جد رمسيس الثانى الذى أكدت الأدلة أنه فرعون الخروج.

ومما تقدم من تاريخ هذا الرجل والمناصب التى تقلدها وارتبطت به سواء العسكرية منها أم الدينية ومن إخلاصه لسيده الفرعون، وتنفيذه المتفانى لأوامره الذى أهَّله بجدارة لثقته واختياره لخلافته لعرش مصر، يتضح لنا معنى قول الله تعالى فى وصفه، ويثبت أنه حقاً وصدقاً أن يجمع - سبحانه - بين فرعون وهامان فى خندق واحد لاشتراكهما فى قتل وتعذيب المؤمنين باستخدام جنودهما المخلصين من رجال الجيش، حتى هؤلاء الجند يثبت لنا إخلاصهم من جمعه سبحانه لهم مع قائديهما وإدانتهم جميعاً «**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾**» [**القصص**]، أما هامان فرعون الخروج فكان له شأن آخر.

هامان فرعون الخروج:

يتضح من الوصف القرآنى لهذا الرجل أنه كان بناء الفرعون الأول، ومهندس الإنشاءات العظيمة والمشرف على تنفيذ أعمال المعمار الضخمة التى تمت فى عهد هذا الفرعون الذى وصفه الله تعالى بأنه «ذو الأوتاد»، وقد جعلته أعماله محلاً لثقة الجميع، وأهلاً لتنفيذ التكليفات المتعلقة بهذا الشأن، وسواء أكان الفرعون جاداً أم ساخراً من موسى، فإنه قد اختص بحديثه هذا الرجل «هامان» دون الآخرين الحاضرين محفله، والذين بلا شك كانوا يعلمون خبراته، عندما طلب منه تحديداً صناعة الطوب الأحمر، وإقامة الصرح العالى الذى كان فرعون متعالياً على عجزه أمام القوم بعد خذلانه أمام معجزات موسى يطمع - بحسب قول الله تعالى - أن يبلغ به السماوات ليطَّلع إلى إله موسى ليثبت لهم كذب ادعاءاته. ولأنه يحمل لقب هامان فلا بد أيضاً أن تكون له صلة ذات شأن بالإله آمون.



باكن خنسو كبير كهنة آمون، سجل على تمثاله تفاصيل سجله الوظيفى وتدرجه فى السلك الكهنوتى بمعبد آمون حتى منصب الكهانة العظمى - ميونيخ

وحيث أكدت أدلتنا أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج، ومن ثم نبحث عن الرجل الذى يحمل هذه الصفات وعاش فى أخريات عهد هذا الفرعون.

وعلى ضوء ما تقدم من تحديد لإطار البحث، وأوصاف للرجل تتجه الأدلة الدامغة المستمدة من دراسة مصادر عهد رمسيس الثانى على الفور إلى «باكن خنسو» الذى عُين كبيراً لكهنة آمون فى العام ٣٩، من حكم رمسيس، واستمر يشغل هذا المنصب لمدة ٢٧ سنة حتى انتهت سنوات حكم الفرعون، ولقد شغل هذا الرجل أيضاً منصب كبير المعماريين فى نفس

الوقت، ومعلوماتنا عنه مصدرها نقوش تمثالين صنعهما لنفسه، أحدهما محفوظ الآن بمتحف ميونيخ والآخر تمثاله الذى عثر عليه فى معبد الكرنك والموجود الآن بمتحف القاهرة وسجل عليهما المناصب الكهنوتية التى تقلدها حتى وصل إلى منصب كبير الكهنة وكبير المعماريين، ونستخلص من المعلومات المسجلة تطورات حياة هذا الكاهن وألقابه وأعماله كما دونها، ونعرف منها أنه طيبى المنبت، كان والده من كهنة آمون بالكرنك، وقد بدأ «باكن خنسو» حياته التعليمية ثم الوظيفية فى عهد الملك سيتى الأول، وتدرج فى عهد رمسيس الثانى فى المناصب الكهنوتية فى معبد آمون، فكان كاهناً مطهراً لمدة أربع سنوات، ثم رُقِّى إلى وظيفة كاهن، وبقى فيها ١٢ سنة، ثم انتقل بعدها إلى مرتبة كاهن ثالث ومكث فيها ١٥ سنة، ثم رقِّى إلى كاهن ثان وشغلها ١٢ سنة، وعندما عين كاهناً أول للإله آمون كان فى نحو السنة الرابعة والستين من عمره، وتربع على هذه الوظيفة لمدة ٢٧ سنة إلى العام الحادى والتسعين من عمره، وهى السنة التى نصب فيها تمثاله فى معبد الكرنك كما يقول فى تمثاله الذى تمنى فيه من إلهه؛ أن يتمم له حياة سعيدة مداها مائة وعشر سنوات. وتؤكد بعض الدراسات أن حياته قاربت هذا العمر، ومن المحتمل أنه عاش حتى بلغ السابعة بعد المائة.

وقد أمضى نحو سبعين سنة فى سلك الكهانة، وفى العام الأخير من حكم رمسيس الثانى طلب إحالته إلى المعاش، بسبب تقدمه فى السن، ومما لا شك فيه أن هذا الرجل كان محل تقدير رمسيس الثانى وقد رقاه إلى وظيفة كاهن أول بسبب مهارته فى فن العمارة، فقد شيد المبانى العظيمة الرائعة التى نالت إعجاب الفرعون ولفتت الأنظار إليه، فهو المهندس الذى صمم وأشرف على بناء الردهة العظيمة التى أقامها رمسيس الثانى المحاطة بالعمد التى يبلغ عددها ٧٤ عموداً بردية الشكل، وجدرانها المغطاة بالمناظر والنقوش الدينية والحربية فى معبد الأقصر، وأقام البوابة الرئيسية العظيمة ذات الستة تماثيل الضخمة للملك، وأمام هذه التماثيل نصب للفرعون مسلتين من الجرانيت الوردى، توجد إحداهما الآن فى ميدان الكونكورد بباريس، والثانية لا تزال مكانها، ونقوش هذه المسلات تحوى نعوتاً وألقاباً للملك.

يقول هذا الكاهن فى وصف أعماله:

(لقد عملت أشياء نافعة فى بيت آمون؛ لأنى كنت المشرف على أعمال سيدى الملك، ولقد أقمت له معبداً يدعى «رمسيس محبوب آمون» الذى يسمع الصلوات، عند البوابة العليا لبيت آمون، وأقمت فيه مسلات جرانيتية بلغ بهاؤها عنان السماء، أمامها بنيت بهواً معمداً فى مواجهة مدينة طيبة، مع أحواض وحدائق زرعتها بالأشجار، وصنعت أبواباً غاية فى العظم غطيتها بكسوتين عظيمتين بطنتهما بالألكتروم (سبيكة طبيعية من الذهب والفضة) تعكس ما فى السماء، وصنعت صاريتين كبيرتين للأعلام، وأقمتها فى الحوش الأمامى أمام معبده. وبنيت مراكب نهرية عظيمة لآمون وموت وخنسو - بوساطة الأمير الوراثى الكاهن الأول لآمون

باكن خنسو).

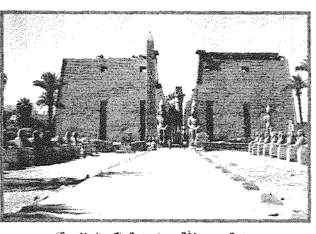
ويقول أيضاً:

(إنى المدير فى طيبة لكل الأشغال الممتازة، وإنى رجل حاز ثقة سيده تماماً فى إدارة طوائف كل الحرف فى كل الآثار التى عملها لوالده آمون).

وألقابه الدينية:

(الأمير الوراثى، ووالد الإله، ومحبوب الإله، رئيس الأسرار فى السماء وفى الأرض وفى العالم السفلى، والكاهن أعظم الرائين للإله «رع» فى طيبة، والكاهن «سم»، والرئيس الأعظم لمصنع «بتاح»، والمشرف على كهنة كل الآلهة، والكاهن الأعظم للإله آمون).

وإذ تبين المصادر السابقة، أن هذا الرجل قد عاصر سنوات حياة رمسيس الثانى، حيث قضاها كاهناً لآمون وكان آخر من حاز حتى العام الأخير من حكمه أعلى رتبة كهنوتية فى معبد الإله آمون فى طيبة، كما منحه الفرعون أيضاً منصب المشرف على كهنة كل الآلهة، وبالإضافة إلى ذلك كان مدير الإشغالات الملكية والدينية، وهو الذى نفذ الأعمال المعمارية العملاقة التى مازالت قائمة إلى اليوم لبوابات معابد آمون وصاريات الأعلام الشامخة وقاعات الأعمدة والمسلات المرتفعة والتماثيل الضخمة فى معابد الأقصر. وفى الجيل التالى اشتهرت بوابة المعبد باسم «بوابة باكى العظيمة» – على سبيل الاختصار أو التدليل – وقد كان مركز «باكن خنسو» من الوجهة الرسمية ومجالات عمله، منبتة الصلة تماماً عن الأعمال العسكرية فى الدولة.


بوابة معبد الأقصر (بوابة باكى العظيمة)

وقضى حياته داخل المعابد، ومن ثم لا ينتظر من رجل تلك صفاته وأشغاله أن يصحب الفرعون فى حملاته العسكرية، أو أن يكون مسئولاً عن إعداد الجند أو قيادتهم. وهذا هو عين ما سجله القرآن الكريم عنه، لقد شاهد مع فرعون معجزات موسى البينات ولم يدرك حقيقة ما يجرى أمامه، فمن الواضح أنه لم يكن متخصصاً بمجال السحر فى الدراسات الكهنوتية، وإنما استغرقته فقط بالإضافة إلى الأمور الدينية، الدراسات الفنية والإنشائية التى برع فيها، فكان رجل دين وهندسة ومعمار ولم يفهم حقيقة معجزات موسى فى مجلس فرعون مثل سحرة المعابد القادمين معه العالمين بأمور السحر، وسرعان ما أيقنوا أن ما أتاه موسى ليس سحراً من فعل بشر وإنما معجزة إلهية تؤكد صدق دعوته، فآمنوا وخروا لها ساجدين، أما هامان هذا الكاهن المهندس فكان مثله مثل فرعون وقارون لم يفهموا وأيضاً لم يعقلوا موقف السحرة واستكبروا، وقالوا عن موسى ساحر كذاب، وعلى هذا يثبت حقاً وصدقاً قول الله تعالى فى سورة القصص عندما أتبع جنود الحملة العسكرية

المطاردة لموسى فى رحلة الخروج إلى فرعون، وحصر الطغيان والاستكبار ثم الهزيمة والإبادة فى فرعون وجنوده، حاسراً هذه المرة عن هامانه المشاركة فى هذا المجال؛ لأنه لم يكن مختصاً بهذه الأعمال ولم يخرج بالتالى مع فرعون فى حملته، فيقول سبحانه: «**واستكبر هو وجنوده**» ثم يقول سبحانه «**فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم**»، وعلى العكس من ذلك موقف هامان المعاصر لميلاد موسى الذى كان قائداً للجيش ومشاركاً أساسياً ومنفذاً لأوامر فرعون فى أعمال التعذيب. فقال الله تعالى عنهما: «**ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**»، وأيضاً: «**إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين**».

أما عن تفسير سبب وجود هامان، زعيم كهنة آمون، فى مجلس فرعون فى مقر العاصمة الشمالية «بى رعمسيس»، رغم أن اختصاصه الوظيفى الرئيسى يقع فى معبد آمون فى طيبة العاصمة الجنوبية، فقد كان ذلك شيئاً معتاداً، حيث إن الفرعون جعل مدينته الجديدة المقر الرسمى للحكم، وكانت تضم قريباً من القصر الملكى مكاتب وبيوت كبار المسئولين بالحكومة ومقار شمالية لوزير الجنوب ومسئولى الحكومة القادمين من طيبة. هذا غير أن فرعون كان قد جمع كبار الكهنة والسحرة لمواجهة موسى؛ لأنه كان يعتقد أن ما يأتى به سحراً، وكان طبيعياً أن يكون دور هامان بارزاً فى تلك الأحداث بالذات بسبب طبيعتها وكونها مواجهة دينية، وبصفته كبير كهنة آمون والمشرف على كهنة مصر، والمختص بتنفيذ أمر جمع السحرة من المعابد، فكان لا بد من حضوره واستشارته بشأن التهديد الذى يشكله موسى، ولكشف حقيقته ووضع حد لأكاذيبه ضد الآلهة.

أما يوم خرج فرعون وجنده خلف موسى وقومه، فأغلب الظن أن «باكن خنسو» كانت إقامته قد استقرت فى طيبة موطنه بعد أن جاوز التسعين من عمره، وقبل الفرعون فى السنة الأخيرة من حكمه استقالته وكافأه خير مكافأة يمكن أن يختم بها حياته التى قضاها فى خدمة معابد آمون، حيث كان ضمن المراسيم الملكية الأخيرة مرسوم تعيين روما - روى بن باكن خنسو - خلفاً لأبيه فى رئاسة كهنة آمون.

وبذلك يتضح لنا مما تقدم تفسير قول الله تعالى فى سبب اختلاف شأن هامان فى المرحلتين الزمنيتين: مرحلة الميلاد ومرحلة الخروج.

ويبقى أمر فى شأن فرعون وهامان قد يحتاج إلى إيضاح خاص بسياق آيات الله تعالى فى سورة القصص التى توضح ظروف مصر فى تاريخ ميلاد موسى، فبعد أن أظهرت ما كان عليه قوم فرعون من علو فى الأرض وفساد فى الحكم واستضعاف طائفة ذليلة مقهورة، جاء قوله تعالى: « **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥**»، بما يعنى سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادراً والذليل عزيزاً، ونرى هؤلاء الجبارين تحقيق وعد الله بنصر المؤمنين. وهذا الوعيد والتهديد فى قول الله تعالى قد يدفع البعض إلى اعتقاد خاطئ بأن مؤدى ذلك تفسير المقصود من

قوله سبحانه بأن فرعون وهامان وجنودهما المفسدين الخاطئين الذين استضعفوا الطائفة المؤمنة، وذبحوا أبناءهم واستحيوا نساءهم هم ذوات الأشخاص الذين نالهم عقاب الله وأغرقهم فى اليم.

لكن قبل أن نندفع فى هذا الاتجاه علينا أن نلاحظ هنا أيضاً أن الله تعالى يقول عن المؤمنين: «**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**»، وقد تحقق وعد الله بالنصر والفوز للمؤمنين، والانتقام من فرعون وجنده الكافرين، فى رحلة الخروج، وكانت قد مرت نحو ثمانين سنة ما بين ميلاد موسى، وهذا اليوم، ولم يتحقق ميراث بنى إسرائيل المؤمنين للأرض إلا بعد الإبراء من سنوات التيه -٤٠ سنة - التى استغرقت حياة الجيل منهم الذين عصوا موسى بعد الخروج بما يقدر بنحو مائة وعشرين سنة ما بين الميلاد ودخول فلسطين، أى أن وعد الله كان لأجيالهم التالية ولم يكن للمستضعفين الأذلة المعاصرين لميلاد موسى.

إن الحقيقة إذن أن المقصود من قول الله تعالى هو تصوير الصراع الأزلى بين الخير والشر والمؤمنين والكافرين، بغض النظر عن شخصيات الأفراد الذين يمثلونها فى كل عصر، ويذكر الله تعالى للعبرة والعظة المصير المحتوم الذى سوف يكون والذى قدر - سبحانه - أن يئول إليه أمر هذا الصراع، وما سوف تناله كل طائفة من جزاء عن أفعالها، سواء ما يكون فى الآخرة عند حساب الله تعالى، أم ما سوف يوقعه - سبحانه - من جزاء فى الدنيا موعود وقادم يمن به على المؤمنين عندما ينصرهم ويمكنهم فى الأرض ويجعلهم الوارثين لها، وينتقم من الكافرين ويزيل عنهم ملكهم، ويجعلهم بذلك عبرة لمن يخلفونهم فى الأرض، إنها حالة يسجلها سبحانه عن رسالته السماوية وأتباعها من المؤمنين الضعفاء المقهورين فى هذا الزمن فى مصر، وما سوف يكون إليه مصيرها طالما استمرت قوى الشر فى عدوانهم وقهرهم للضعفاء عبرة وعظة للناس فى كل زمان ومكان.

هامان فى العهد القديم

ورد ذكر هامان فى العهد القديم فى غير زمانه ومكانه، وذلك فى قصة فى سفر أستير دارت أحداثها فى بلاد فارس بعد السبى البابلى الذى وقع لمملكة يهوذا فى عهد الملك البابلى نبوخذ نصر الثانى عند بداية القرن السادس قبل الميلاد، عندما سبى وأخذ معه من أورشليم ملكهم «يهوياكين» وأهل بيته ونحو عشرة آلاف من الجنود والحرفيين والكهنة وأفراد الطبقة العليا، وتم تهجيرهم إلى بابل فيما عرف بالسبى البابلى الأول، ولم يبق - حسب الرواية الدينية - إلا مساكين شعب الأرض، ثم عندما تمرد صدقيا الملك الذى عينه نبوخذ نصر على يهوذا عادت جيوشه لمهاجمة أورشليم، ووضعت نهاية لدولة يهوذا، وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها وسبى الذين بقوا من القتل إلى بابل، وقدر الباحثون عددهم ما بين أربعين ألفاً إلى خمسين ألفاً فيما عرف بالسبى البابلى الثانى، وكان غرض ملك بابل من ذلك تغيير التركيبة السكانية للمناطق الخاضعة له، وقد كان لهذا السبى أثر عميق فى نفوس أهل يهوذا (سبطى يهوذا وبنيامين)، ذلك أنهم بدأوا يرون نبوءة الأنبياء فى عقاب بنى

إسرائيل على سوء أفعالهم تتحقق بعد أن سقطت دولتهم وسُبى شعبها، وكان قد سبقها سقوط دولة إسرائيل التى تضم باقى أسباط إسرائيل.

ولم تدم الإمبراطورية البابلية طويلاً، فقد أخذت طريقها إلى الانهيار بعد موت نبوخذ نصر الثانى عام (٥٦٢ق.م)، حتى سقطت على يد قورش ملك الفرس فى نهاية عام (٥٣٩ق.م)، ليصبح الفرس فى عهده سادة آسيا الصغرى، ثم ضموا مصر سنة (٥٢٥ق.م)، وفى هذه الأثناء بعد سيادة الفرس فى عهد الملك قورش دارت أحداث قصة أستير، التى ذكر فيها اسم هامان كوزير للملك فى عاصمة الفرس، أى فى غير المكان الذى ذكره القرآن الكريم لوجوده وفى زمن تال للزمن المقدر لهامان المعاصر لميلاد موسى بأكثر من سبعة قرون ونصف القرن، ولهامان عصر الخروج بنحو سبعة قرون، وعلى ذلك فإن قصة أستير تخرج عن مجال البحث الذى نحن بصدده الآن فى تحديد الزمان والمكان لقصة موسى وفرعون والشخصيات التاريخية المعاصرة لها، لكن الذى يجعلنا نهتم بأن نوردها ونحن بصدد تحديد المقصود بشخصية هامان: أن هذا الاختلاف والتغاير المكانى والزمانى فى هذه الشخصية بين القرآن والعهد القديم قد اُستهدف من المستشرقين والباحثين الغربيين، وبسبب نظرتهم الشائعة فى الغرب بوجه عام بأن القرآن ترديد لروايات العهد القديم، فقد اقترح عدد من الباحثين الغربيين - استمراراً فى اتهامهم للقرآن الكريم - بأن هذا الاختلاف نتج بسبب قراءة خاطئة للعهد القديم جعلت القرآن يضع هامان فى غير عصره، ونجد فى موسوعة الإسلام (The Encyclopedia of Islam) فى سياق اتهام الغرب للنبى محمد صلى الله عليه وسلم باقتباس القرآن من العهد القديم نص تحت فقرة هامان يقول: «إنه اسم شخص يربطه القرآن بفرعون، بسبب من خلط لم يفسر إلى الآن مع وزير أحشو يروش فى سفر أستير فى العهد القديم».

وبالقطع فإن هذا الفرض قائم على أن أية إشارة إلى هامان لا بد وأن تكون قد جاءت من رواية العهد القديم، ونجد ضرورياً قبل أن نفند هذا الاتهام أن نعرض أحداث قصة أستير كما وردت فى السفر الذى يحمل اسمها.

يروى العهد القديم فى قصة صيغت أحداثها بطريقة تماثل الأساطير وحكايات التراث الشعبى التى يتناقلها الرواة، أنه حدث فى أيام أحشويروش (المقصود الملك قورش)، الذى ملك من الهند إلى كوش على مائة وسبع وعشرين كورة (إقليم)، أنه فى تلك الأيام حين جلس الملك على كرسى ملكه الذى فى شوشن القصر، فى السنة الثالثة من ملكه أنه عمل وليمة لقواده ورؤساء الأقاليم وشرفاء البلدان التابعة له وأظهر غنى مجد ملكه ووقار وجلال عظمته استمرت أياماً كثيرة بلغت مائة وثمانين يوماً، وعند انقضاء هذه الأيام عمل الملك لجميع الشعب الموجودين فى شوشن القصر وليمة سبعة أيام، وفى اليوم الأخير لما طاب قلب الملك بالخمر طلب من خدمه أن يأتوا بزوجته الملكة «وشتى» إلى أمام الملك بتاج الملك ليرى الشعوب والرؤساء جمالها، لكن الملكة أبت أن تأتى حسب أمر

الملك عن يد الخصيان، فاغتاظ الملك جداً واشتعل الغضب فيه، وعندما استشار الحكماء العارفين المقربين إليه ماذا يعمل بالملكة التى عصت أمره، فقال له أحدهم إن الملكة لم تذنب إلى الملك وحده بل إلى جميع الرؤساء وجميع الشعوب الذين فى كل بلدان الملك؛ لأنه سوف يبلغ خبر الملكة إلى جميع النساء حتى يحتقرن أزواجهن فى أعينهن عندما يقال إن الملك أحشويروش أمر بأن يؤتى بوشتى الملكة أمامه فلم تأت فإذا حسن عند الملك فليخرج أمر ملكى وليكتب فى بلاد فارس ومادى، وليعط الملك ملكها لمن هى أحسن منها، فيسمع أمر الملك جميع من فى مملكته فتعطى جميع النساء الوقار لأزواجهن من الكبير إلى الصغير، فحسن هذا الكلام فى عين الملك وأرسل كتباً إلى كل بلدانه حسب كتابتها، وإلى كل شعب حسب لسانه ليكون كل رجل متسلطاً فى بيته.

وبعد هذا الأمر، لما خمد غضب الملك «أحشو يروش» نصحه غلمانه الذين يخدمونه بأن يطلب فتيات عذارى حسنات المظهر، وليوكل الملك وكلاء فى كل بلاد مملكته ليجمعوا كل الفتيات العذارى الحسان المظهر إلى شوشن القصر، والفتاة التى تحسن فى عينى الملك فلتملك مكان وشتى، فحسن الكلام فى عينى الملك فعمل هكذا.

وكان يعيش فى شوشن القصر رجل يهودى اسمه «مردخاى بن يائير بن شمعى بن قيس» قد سبى من أورشليم مع السبى الذى سبى مع ملك يهوذا الذى سباه نبوخذ نصر ملك بابل، وكان هذا الرجل مربياً للفتاة أستير بنت عمه؛ لأنه لم يكن لها أب ولا أم.

وكانت الفتاة جميلة الصورة وحسنة المظهر وعند موت أبيها اتخذها مردخاى لنفسه ابنة، فلما سمع كلام الملك وأمره بجمع الفتيات أخذ أستير إلى بيت الملك وسلمها إلى يد حارس النساء، وحسنت الفتاة فى عينيه ونالت نعمة بين يديه فدهنها بالعطور ليعطيها للملك مع السبع فتيات المختارات، ونقلها إلى أحسن مكان فى بيت النساء، ولم تخبر أستير عن شعبها وجنسها؛ لأن مردخاى أوصاها بألا تخبر، وكان مردخاى يتمشى يوماً فيوماً أمام دار بيت النساء ليستعلم عن سلامة أستير وعما يصنع بها.

وأخذت أستير إلى الملك، وكان ذلك فى السنة السابعة لملكه فأحبها أكثر من جميع النساء ووجدت نعمة وإحساناً أمامه أكثر من جميع العذارى، فوضع تاج الملك على رأسها وملّكها مكان «وشتى» وأقام على شرفها وليمة عظيمة ودعا إليها جميع رؤسائه وعبيده، وكان أن حدث أن تعدى حارسان على مردخاى فاضطرت أستير أن تخبر باسم مردخاى وحقيقة أمره بالنسبة لها، فعاقب الملك الحارسين.

وحدث فى هذه الفترة أن الملك عظم «هامان بن همداثا الأجاجى» ورقاه وجعل كرسيه فوق جميع الرؤساء الذين معه. فكان كل عبيد الملك الذين بباب الملك يجثون ويسجدون لهامان؛ لأنه هكذا أوصى به الملك، أما مردخاى فلم يجثُ ولم يسجد وأصر على ذلك رغم نصيحة عبيد الملك له بألا يتعدى أمر الملك وكانوا يكلمونه يوماً فيوماً، ولم يكن يسمع لهم فأخبروا هامان ليرى هل يقوم

كلام مردخاى لأنه أخبرهم أنه يهودى. ولما رأى هامان أن مردخاى لا يجثو ولا يسجد له، امتلأ غضباً وطلب هامان أن يهلك جميع اليهود الذين فى كل المملكة بسبب فعل مردخاى.

وفى السنة الثانية عشرة للملك أحشو يروش قال هامان للملك إنه موجود شعب ما مشتت ومتفرق بين الشعوب فى كل بلاد مملكتك، وسننهم مغايرة لجميع الشعوب وهم لا يعملون سنن الملك فلا يليق بالملك تركهم، فأقر الملك ما طلبه منه هامان وقال لتفعل فى هذا الشعب ما يحسن فى عينيك.

فكتب هامان إلى كل ولاة البلاد ورؤساء الشعب باسم الملك وختم بخاتم الملك لإهلاك وقتل وإبادة جميع اليهود من الغلام إلى الشيخ والأطفال والنساء فى يوم واحد هو الثالث عشر من الشهر الثانى عشر ، أى شهر آذار، وأن تسلب غنيمتهم، وأشهر هذا الأمر بين جميع الشعوب ليكونوا مستعدين لهذا اليوم.

ولما علم مردخاى شق ثيابه ولبس مسحاً برماد وخرج إلى وسط المدينة وصرخ صرخة عظيمة وجاء إلى باب الملك وكانت مناحة عظيمة عند اليهود وصوماً وبكاءً ونحيباً، وعلمت أستير بما حدث لشعبها وقررت أن تستغل مكانتها لدى الملك لتغير المواقف وتنقذ شعبها، فدبرت أمرها ليغضب الملك على هامان، وفعلاً نجحت مكائدها وتطورت الأحداث سريعاً فى اتجاه معاكس ضد هامان، وانقلب تخطيطه عليه، ووصل الغضب بالملك إلى أنه أمر بصلبه فصلبوه على الخشبة التى أعدها لمردخاى، وأعطى الملك لأستير بيت هامان عدو اليهود، ونزع خاتمه الذى سبق أن أخذه من هامان وأعطاه لمردخاى، وكتب الملك لكى ترد كتابات تدبير هامان التى كتبها لإبادة اليهود، وأرسل رسائل عاجلة بأيدى بريد الخيل ركاب الجياد والبغال، وكان لليهود نوراً وفرحاً وبهجة وولائم ويوماً طيباً فى كل البلاد والمدن التى وصل إليها كلام الملك.

وتقول القصة: إن كثيرين من شعوب الأرض تهودوا لأن رعب اليهود وقع عليهم، فقد حدث أن مردخاى أصبح عظيماً فى بيت الملك وسار خبره فى كل البلدان، وصار يتزايد عظمة، وفى اليوم الذى انتظر فيه أعداء اليهود أن يتسلطوا عليهم، تحول هذا اليوم عليهم، حتى إن اليهود هم الذين تسلطوا على مبغضيهم، واجتمع اليهود فى مدنهم فى كل بلاد الملك ليمدوا أيديهم إلى طالبى أذيتهم فلم يقف أحد أمامهم لأن رعبهم سقط على جميع الشعوب، وكل رؤساء البلدان والولاة وعمال الملك ساعدوا اليهود لأن رعب مردخاى سقط عليهم وسار خبره فى كل البلدان، فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك، وعملوا بمبغضيهم كل ما أرادوا، فقتلوا وأهلكوا فى شوشن القصر خمسمائة رجل، وقتلوا بنى هامان العشرة وصلبوهم على الخشبة، لكنهم لم يمدوا أيديهم إلى النهب، وأقر الملك ما فعله اليهود وطلبت أستير من الملك أن يعطى يوماً آخر لليهود ليعملوا ما عملوا فى هذا اليوم، فأمر لها الملك بذلك فقتلوا فى شوشن ثلاثمائة رجل، وفعل ذلك أيضاً باقى اليهود فى بلدان الملك واستراحوا من أعدائهم وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفاً، لكنهم لم

يمدوا أيديهم إلى النهب، وكتبت الملكة أستير ومردخاى اليهودى إلى جميع اليهود فى كور المملكة ليجعلوا هذين اليومين اللذين استراحوا فيهما من أعدائهم عيداً عندهم، ليذكر اليهود دائماً هذين اليومين، ويُحفظا عندهم حسب أوقاتهما كل سنة.

وهذه القصة التى حرصنا على سرد أحداثها كما وردت بحسب رواية العهد القديم نرى أنها تحمل كثيراً من المغالطات والمبالغات والخيالات التى لا يمكن تصورها، ورغم وجودها ضمن أسفار الكتاب المقدس، فإنه لا يمكن قبول نسبتها إلى وحى السماء أو إلى أى من أنبياء إسرائيل، وإنما هى من تراث الكهنة المتأخرين الذين خضعوا لتأثيرات ثقافات الشعوب التى خالطوها وعاشوا بينها، فحمل فكرهم البشرى كثيراً من المبادئ الدنيئة والوضيعة التى أرستها تلك الثقافات الدخيلة، وعند إعادة جمعهم للتوراة كتاب الله إلى موسى - بعد ضياع نسخته الأصلية - أعادوا صياغتها بذلك الفكر البشرى المتأثر المتدنى وأضافوا إليها تاريخهم وتراثهم المستجد بعد موسى، فكانت هذه الأسفار التى بين يدينا الآن.

نلاحظ منذ بداية الأحداث فى قصة أستير أن الكاتب عمد إلى اختلاق وقيعة بين الملك وزوجته، ثم تصوير قبول الملك لمحاكمتها من حاشيته الحاضرين مجلسه، لا لشىء إلا بسبب كبريائها واعتزازها بمكانتها، وهذه الصورة التى قصد منها الكاتب وضيع الأخلاق أن تكون مهينة للملكة، فهى على العكس مبتذلة ومهينة للملك الذى تقدمه الرواية منذ البداية كإمبراطور عظيم تخضع لسيادته جميع دول الشرق القديم. لكن من الواضح أن الكاتب أراد أن يستثمر هذا الخلاف؛ لأن الجزاء الذى أوقعه حكم الحاشية على الملكة ونصيحة أتباعه المقربين له بعد ذلك باختيار ملكة أحسن منها، هو الذى انبنى عليه مسار الرواية إلى أن انتهت إلى النتائج التى تحققت حتى وإن كانت غير محمولة على الوقائع وتخالف الحبكة القصصية المنطقية والواقعية، ولا يتفق أن يكون ذلك مسارها الطبيعى، فحسب النص فإن الوقائع توالت خلال بضع سنين كانت كافية لأن يهدأ الملك وينسى فعلة الملكة معه (كانت فى السنة الثالثة من حكمه)، وكان المفروض أن يتلاشى غضبه وانفعاله أمام عظائم الأمور فى مملكته، لكن ذلك لم يكن وتصاعدت الأحداث واستمرت لتضع أستير بعد أربع سنوات (فى السنة السابعة لحكم الملك) على مرتبة الزوجة الملكية العظيمة، وبعد خمس سنوات أخرى (فى السنة الثانية عشرة للملك) تبدأ قصة هامان مع اليهود، وتستمر إلى السنة الثالثة عشرة، وما زال الملك مولعاً بأستير إلى الدرجة التى يسمح لها ولابن عمها مردخاى بإبادة عشرات الألوف من شعبه فى يومين، ليس ذلك فقط بل إن مردخاى اليهودى استطاع أن يجعل من اليهود طائفة أعلى من باقى الشعب لا يقف أحد أمامهم؛ لأن رعبهم ورعب قائدهم مردخاى سقط على جميع الشعب، وأصبح لهذا القائد سطوة ورأى على رؤساء البلدان وحكام الأقاليم والولاة وعمال الملك وقدموا لليهود المساعدة فى قتل أعدائهم.

عموماً، رغم الخيالات والمبالغات التى تحملها تفاصيل القصة، أرى ألا نكذب الوقائع جملة أو

ننكر وجود أستير ومردخاى على الإطلاق، وإنما نعتبر أن كاتبها استغل حدثاً ما وملأ روايته بالكثير من الأوهام التى فرضتها مشاعر القهر والضعف والهزيمة نتاج آلام المعاناة فى مرحلة الشتات فى فترة السبى، مضافاً إليها ذكريات مريرة سابقة مختزنة من سنوات الألم والعذاب فى مصر، والتيه فى الصحراء ما بين مصر وفلسطين ثم الحروب المضنية لتكوين دولتهم الموعودة التى ضاعت واستلبت منهم بسبب أفعالهم، فالقصة بذلك تكشف عن أمنياتهم وحقيقة الرغبات المكبوتة لديهم فى السيادة والقوة لإرهاب أعدائهم والانتقام من مبغضيهم الذين يزدرونهم وينكرون عاداتهم، ومن ثم فإنهم استغلوا قصة أستير وصبوا فيها غضبهم على كل آلامهم ليس فى شتات السبى فقط، وإنما كل سنوات القهر فى كل الأزمنة والعصور التى عانوا فيها الاضطهاد والإذلال.

وإذا كنا لا نعتقد تماماً أن هذه القصة محض خيال، وإنما الغالب أن لها صدى من الحقيقة، فإنه يمكن افتراض تمثله فى وجود أشخاص القصة، وأن أستير هذه ربما كانت حسناء من بنات اليهود فى بلاد فارس، أعجب الملك بجمالها واتخذها جارية له أو زوجة ثانوية وأغدق على قريبها مردخاى بسببها، وحقق لهما طلبهما فى حمايته وحماية الجالية اليهودية المسبية من سوء معاملة وزيره الذى دعاه اليهود باسم هامان، وغالباً أن هذا الوزير كان حانقاً على اليهود ورافضاً لعاداتهم وتصرفاتهم فى الأراضى الخاضعة للدولة الفارسية، ونالهم بسبب ذلك أذى منه، إلى أن تسببت أستير فى حمايتهم وكف أذاه عنهم، ولا يستبعد أيضاً أن تكون قد استغلت جمالها وأنوثتها فى الكيد له حتى قتله الملك؛ خصوصاً أن القصة تحمل إشارات على ذلك، فتقول: إنه عندما حدث تحول الملك عن هامان أنه شعر بذلك وارتاع «وعندما قام الملك إلى جنة القصر وقف هامان ليتوسل عن نفسه إلى أستير؛ لأنه رأى الشر قد أعد عليه من قبل الملك، ولما رجع الملك من جنة القصر إلى بيت شرب الخمر وهامان متواقع على السرير الذى كانت أستير عليه، قال الملك: هل أيضاً يكبس الملكة معى فى البيت، ولما خرجت الكلمة من فم الملك غطوا وجه هامان» وبعدها اقتيد إلى الخشبة التى صلب عليها. (سفر أستير- الإصحاح السابع - ٧: ١٠).

ومن الثقافات الوضيعة الدخيلة على رواية العهد القديم يتجه مؤلف قصة أستير إلى تكرار وتأكيد حق إمكانية استغلال النساء لخدمة قضايا الشعب الوطنية، أو لتدعيم المصالح الاقتصادية للفرد أو الشعب، ووضع هذه الصورة فى شكل إيجابى دون أن نجد فيها ما يخالف الشريعة أو وصايا موسى فى التوراة.

وهذا الأسلوب ليس جديداً، فقد سمحت تلك الثقافة خلال عهد الآباء الأوائل بأن تنسب جهلاً وكذباً إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه استغل جمال وحسن امرأته سارة، وطلب منها أن تخدع المصريين وفرعون فتُخفى أنها امرأته وتقول إنها أخته ليصنع له خير بسببها، وسمح بأن تؤخذ إلى بيت فرعون مقابل أن يصير له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال، ولم

يجد الكاتب فى ذلك ما يشين النبى الكريم أو يخالف شريعته. وتتكرر هذه الصورة مرة أخرى فى هذه القصة عندما يأخذ مردخاى اليهودى الفتاة العذراء أستير التى كان مؤتمناً بحسب شريعته برعايتها والمحافظة عليها بعد أن فقدت والديها، وسلمها بيده طواعية لحارس النساء راغباً متلهفاً أن تكون إحدى الفتيات الحسناوات المختارات اللائى يرغبهن الملك فيتزوجها أو يضمها إلى جواريه، ضارباً عرض الحائط بشريعته التى تمنع عليهم مصاهرة الشعوب الأخرى الوثنية التى تعيش بينهم أو يعيشون بينها، لكن لأجل الغرض الوطنى الذى رتبه كاتب القصة فى أن هذه الفتاة سوف يتحقق لهم بسبب جمالها وأنوثتها قوة لشعبهم يرعبون بها أعداءهم، وتحقق لهم الانتقام من مبغضيهم ويأتى لهم بسببها خير كثير، فإنه لم يجد مانعاً شرعياً أو أخلاقياً فى اختيار هذا الأسلوب، متصوراً فى قرارة نفسه وحسب ثقافته أن أحداً لن يلوم هذا الفعل، وأشبه بالحكايات التى يضع مؤلفوها نهايتها منذ بدايتها، كان مردخاى عالماً بما سوف تنتهى إليه فعلته من خير لشعبهم فلم يتردد وهو يسلك طريقه متأبطاً أستير إلى قصر الملك، تماماً كما فعل هذا الكاتب أو كاتب آخر نهل من ذات مستنقع الذل والهوان عندما وجد أن المبرر الكافى لفعل إبراهيم مع سارة أن يرتب لها إنقاذاً إلهياً فجعل الرب يضرب فرعون وبيته فيرد سارة إلى إبراهيم دون أن يقربها معاتباً إبراهيم؛ لأنه لم يخبره بأنها امرأته، لكن ذلك كان بعد أن فاز إبراهيم بالأموال بسبب خدعته، ونتساءل ما الأمر إذا لم تكن أستير قد حققت الأهداف التى سعت إليها القصة، وكان الملك مثلاً قد أخذها ووضعها ضمن جواريه الحسناوات اللائى يستمتع بهن دون حظوة أو تمييز عن غيرها أو أهداها لأحد المقربين أو رؤساء أقاليمه، أو ربما لهذا الوزير الحاقد عليهم الذى دعوه هامان؟! قطعاً لم يكن ذلك ليحدث؛ لأن القصة صيغت فى قالب أسطورى، وغلب عليها وحى خيال الكاتب المقهور ونفسه المتأثرة الغاضبة من كثرة الذل والشتات فى الأرض، وضياع الوطن الذى أعطاهم إياه الرب بعد الإذلال والكفاح واستُلب منهم بسبب أفعالهم، فوضع الكاتب النهاية التى ترضيه وتحقق لشعبه الانتصار والانتقام من أعدائهم، ولم تذكر الرواية أسباب هذه العداوة ووجود هذا العدد الكثير من الناس الذين يبغضونهم، وجعلتهم هكذا يندفعون بكل قسوة ووحشية إلى إبادة عشرات الآلاف من أهل فارس، لقد بدأت مشكلتهم مع الوزير الذى دعوه هامان وانتهى الأمر بإعدامه، فما هو ذنب الآخرين؟ لم تقدم القصة إجابة عن هذا.

عموماً، فقد ثبت تاريخياً أن العهد الفارسى شهد انفراجاً فى حياة اليهود بعد السبى إلى بابل، وسمح الملك قورش لمن يرغب منهم بالعودة إلى أورشليم، غير أن الكثير منهم كانوا قد تأقلموا وامتدت جذورهم فى البلاد التى عاشوا فيها وفضلوا البقاء، حيث الحقول الخصبة والتجارة الرابحة، لكن على الرغم من ذلك فإنه من الصعب أن نسلم بأن الأمر وصل إلى تلك الدرجة من خيال الكاتب فى رواية أستير، بحيث يمكن تصور أن الملك سمح لهم بأن يعملوا

سيوفهم قتلاً وإهلاكاً فى شعبه، بل يعاونهم فى ذلك حكام الأقاليم والولاة رعباً من مردخاى دون أى ذنب جنوه سوى أنهم يبغضون اليهود، فذلك قول لا يمكن حدوثه سواء على هذه الصورة أم على صورة أخرى، والأمر لا يعدو أن يكون ضرباً من الأمنيات والأوهام حققها الكاتب فى خياله، ووضعها فى قالب أسطورى ونسبها زوراً وبهتاناً إلى أسفار العهد القديم.

ومن خلال هذه المعطيات السابقة والظروف والبيئة التى صيغت فيها القصة يمكن تفسير ظهور شخصية هامان المصرية فى الرواية اليهودية ضمن بلاط الملك الفارسى، وفى نفس وظيفته فى البلاط المصري «الوزير أو نائب الملك أو مساعده»، وأيضاً نجد المبرر للانتقام منه تاريخياً فى ظروف موائمة لتحقيق هذا الانتقام، ويمكن من ذلك الرد على تصريحات المستشرقين والباحثين الغربيين وتفنيد تصورهم الذى ابتنى على سوء عرض وسوء فهم، ليس لقصة أستير وحدها، وإنما بوجه عام نظرتهم الشائعة فى الغرب بأن القرآن مشتق من العهد القديم، وقد أثبتت فصول هذا الكتاب خطأ ذلك الاتهام تماماً، بل وجدنا أن القرآن الكريم قد انفرد بمعلومات دقيقة وصياغة فى تصوير الأحداث قادت إلى النتائج الكثيرة السابقة التى اتفقت معها معلومات المصادر التاريخية.

أما فى مجال تفنيد تصورهم بأن إشارة القرآن إلى شخصية هامان فى عصر موسى نتجت عن قراءة خاطئة للعهد القديم، فقد ذكرنا سابقاً أن تحليل كلمة هامان لغوياً تنسبه إلى البلاط الفرعونى وإلى الإله المصرى آمون، والذى كان خلال الفترة المعاصرة لوجود موسى فى مصر الإله الرئيسى للدولة وزعيم الآلهة، ويمكن أن نستنتج أن ذكر الكهنة لاسم هامان فى البلاط الفارسى فى رواية العهد القديم، ورد لأنه كان كمثله المصرى نائباً للملك أو وزيره، وكان أيضاً كارهاً لبنى جنسهم وحانقاً عليهم وعلى تصرفاتهم وراغباً فى الانتقام منهم وإبادتهم، ويبدو أن صفاته المشتركة مع نظيره المصرى جعلتهم فى عهده يتذكرون آلامهم القديمة مع هامان المصرى الذى كان يقتل أطفالهم ويعذبهم، فخلعوا على هذا الجديد فى فارس نفس اللقب الوظيفى لعدوهم القديم «هامان» الوزير المصرى وانتشر بينهم بهذا اللقب، بيد أنهم فى هذه الرواية انتقموا هم منه أو استغلوا قتل الملك له وحققوا لأنفسهم إسقاطاً عقلياً لرغبة مكبوتة قديمة فى الانتقام من جميع مبغضيهم، ويأتى على رأسهم هذا العدو القديم، الذى بلا شك كان يمثل فى تراثهم - بعد فرعون - أهم رموز التعذيب.

وتأكيداً لهذا الرأى فقد لاحظ كثير من الدارسين أن العديد من قصص التوراة والعهد القديم بصفة عامة، قد تأثرت بخلفيات تاريخية من قصص وتراث الشعوب السابقة التى عاصروها، ونقلت عن تاريخهم المعاصر لبنى إسرائيل والآباء الأوائل وقدموا أمثلة كثيرة على ذلك، وإذا كنا قد لاحظنا جنوح الراوى إلى الخيال فى قصة أستير وعدم تمتعها بسند تاريخى، ومن ثم يكون متاحاً فيها أيضاً الاقتباس والنقل والإرجاع إلى فترات تاريخية مشابهة، وكان على المستشرقين

أن يتنبهوا أنه إذا كانت شخصية هامان نقلت خطأ إلى القرآن كما ادعوا، فما كان أيسر من إدراك المكان والزمان والأشخاص فى رواية أستير، فقد جاءت واضحة جلية دون أى لبس أو غموض فى تحديد زمانها ومكانها، ومنبتة الصلة تماماً عن عصر موسى والأشخاص المعاصرين لقصته.

إن اتهام الخلط بين القصص وبين القديم والحديث والنقل الخاطئ لا يمكن نسبته إلى القرآن الكريم، لأنه من وحى السماء وتعهد الله تعالى بحفظه من أى تغيير أو تحريف فلا توجد فيه معلومات خاطئة أو مختلطة، وإنما هذا الاتهام وللأسف الشديد تكرر مع كتبة التوراة كثيراً، وقد لاحظنا ذلك فى جميع قصص أنبياء إسرائيل، وفى مواضع ليست قليلة جمعوا قصصاً متعددة النشأة والأصول، وقاموا بربطها إلى بعض ربطاً غير محكم أبقى على التناقض بين أحداثها. ونورد على سبيل المثال قصة إبراهيم وسارة مع ملك مدينة جرار، عندما قال إبراهيم عن سارة إنها أخته، تتكرر القصة مع إسحاق ورفقة عندما وفد إسحاق على ملك جرار وقال عن رفقة إنها أخته، والغريب فى القصتين أن اسم ملك جرار هو أبيمالك واسم رئيس جيشه هو فيكول، وذلك رغم الفارق الزمنى بين الحدثين والذى يزيد على الستين عاماً، هذا فضلاً عن التكرار الحرفى لبعض التفاصيل فى القصتين. ويمكن المراجعة والمقارنة بين القصتين فى سفر التكوين بالنسبة لإبراهيم فى (الإصحاحين ٢٠، ٢١) وبالنسبة لإسحاق فى(الإصحاح ٢٦ من ٢٦:٣٠).

وفى قصة يوسف سوف نلاحظ وجود روايتين مختلفتين لانتشال يوسف من البئر وبيعه إلى الإسماعيليين، ومن ناحية أخرى فإن ذكر الإسماعيليين والمديانيين فى هذا الجزء من قصة يوسف لا يتناسب ومعطيات سلسلة الأنساب التى رسمها سفر التكوين لإبراهيم وأولاده، فمن المفروض أن الإسماعيليين هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم من هاجر المصرية، والمديانيين هم أولاد مديان بن إبراهيم من زوجته قطورة، وإذا اعتبرنا الفاصل الزمنى المنطقى فإن الإسماعيليين والمديانيين لم يكونوا قد تشكلوا كشعبين بعد خلال عصر يعقوب ويوسف.

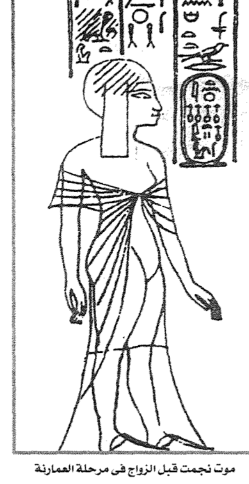
وفى قصة يوسف فى مصر تقول التوراة إن يوسف أسكن أباه وإخوته فى أرض رعمسيس (التكوين ٤٧ : ١١)، رغم أن مدينة رعمسيس لم تنشأ إلا بعد هذا التاريخ بنحو ثلاثة قرون فى عصر رمسيس الثانى، وعن ذلك قالت التوراة فى موضع آخر مناسب زمنياً إن ملك مصر جعل على بنى إسرائيل رؤساء تسخير أذلوهم فى بناء مدينة رعمسيس (الخروج ١ : ١١).

ونستخلص من هذه الأمثلة أن الخطأ فى تحديد شخصية هامان فى العهد القديم أمر وارد، وتكرر مثل هذا الخطأ وخلط الأحداث فى مواضع أخرى وبصور واضح منها النقل الخاطئ أو اعتماد الكاتب على ذاكرته كثيراً أو على معلومات نقلت إليه مختلطة التفاصيل دون تدقيق.

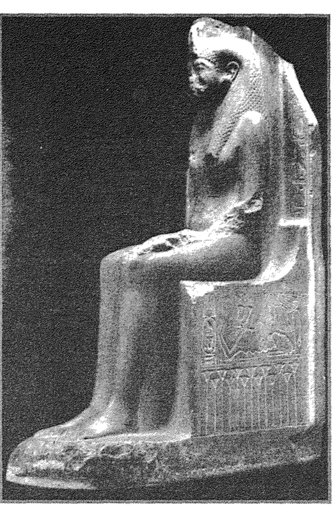
٢- امرأة فرعون

ورد ذكر امرأة فرعون فى القرآن الكريم فى سورة التحريم، وقصد الله تعالى فى آياته البينات أن يقارن بينها وبين امرأتى نبيى الله نوح ولوط ليقدم لنا مثلين متناقضين - شاءتهما إرادته - الصورة فى كل منهما تخالف طبائع الأمور والمعتاد من ثقافات التأثر والتوارث بين الناس، فأظهر سبحانه أن امرأة فرعون الكافر، والتى تعيش فى مجتمع يتوارث الوثنية منذ أجيال قديمة كانت من المؤمنين بالله، فى حين أن امرأتى نبيى الله - نوح ولوط - كانتا كافرتين، وفى ذلك يقول تعالى: «**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)**»[التحريم].

ومن هاتين الصورتين المتناقضتين علمنا أن امرأة فرعون المؤمنة عاشت فى هذا البيت الكافر و المجتمع الوثنى غير راضية عما يدور حولها ورافضة لأفعال زوجها، ودعت الله أن ينجيها منه ومن عمله ومن قومه الظالمين، وقد سبق فى مواضع أخرى من هذه الدراسة أن رفضنا تفسير السلف ومن جاراهم من المحدثين الذين يعتقدون أن الله وضع الإيمان فى قلب المرأة بعد أن التُقط موسى من النهر، ورأت الأنوار النبوية تتلألأ فى وجهه فهداها الله به وآمنت بسببه، وذكرنا فى ذلك أن التفسير الذى يربط بين الهداية وأنوار النبوة يرد القصد ويخالف الحكمة التى ابتغاها الله سبحانه من ضربه لهذين المثلين المتناقضين لعباده، وأيدنا رأينا من مصادر التاريخ التى كشفت عن شخصية «موت نجمت» بنت الملك «آى» زوجة الفرعون حورمحب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، والذى أكدت الأدلة الدينية والتاريخية أنه فرعون المعاصر لميلاد نبى الله موسى، ونعلم أن هذه السيدة كانت شقيقة نفرتيتى زوجة إخناتون الملك الذى أعلن عقيدة التوحيد ديانة رسمية لمصر، وكانت موت نجمت من المهاجرين مع جموع المؤمنين إلى عاصمة التوحيد فى تل العمارنة، وبعد سقوط إخناتون وانتصار كهنة الوثنية عادت إلى طيبة مع النازحين العائدين المرغمين والمقهورين، وعاشت مع والدها الذى آل إليه عرش مصر بعد توت عنخ آمون، وحكم تحت سيادة كهنة آمون، وإثر وفاته فُرض عليها - باعتبارها ابنة الملك السابق - الاقتران بالملك الجديد حورمحب لتمنحه شرعية الحكم طبقاً للتقاليد الدينية القديمة، وفى ظل حياتها مع الفرعون حورمحب قاد حملة ظالمة فى أنحاء مصر للانتقام من المؤمنين الذين تنتمى إليهم، ولم تملك لهم دفعاً أو حماية، وبذلك فسر لنا التاريخ سر وجود هذه المرأة المؤمنة التى تحدث عنها الله تعالى فى بلاط فرعون الكافر، وفى وسط مجتمع وثنى عريق فى عبادة الأصنام وسبب دعائها إلى ربها، كما تتضح لنا حكمته -



موت نجمت قبل الزواج فى مرحلة العمارنة



الملكة موت نجمت إمرأة الفرعون حور محب

سبحانه – من اختياره لهذه السيدة الفاضلة لتكون سبباً فى نجدة موسى وحياته، وتربيته فى وسط هذا المجتمع المعتدى الظالم، وعن ذلك قال سبحانه عنها فى سورة القصص: «**وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** (٩)».

كما نلاحظ أيضاً أن هذا الاختيار الإلهى يأتى محققاً لقوله – تعالى – لموسى فى سورة طه: «**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** (٣٩)».

أما التوراة وهى تحكى هذه القصة فقد قالت عنها إنها ابنة فرعون، وبذلك تكون قد نسبتها إلى أبيها الملك «آى» وليس زوجها، وقد سبق أن قدمنا أدلتنا على انتمائه إلى أصول إسرائيلية.

بيد أننا على الرغم من إقرارنا لأدلة إيمان «موت نجمت» ومحنتها – لا شك – بالزواج من الفرعون حورمحب الذى قامت الأدلة اليقينية على أنه ملك مصر المعاصر لميلاد موسى وأنهما المعنيان فى آيات الله تعالى فى سورة القصص من التقاط موسى من النهر وتربيته فى البلاط الملكى، نذكر أيضاً للأمانة واكتمال دائرة البحث ونحن بصدد تحديد شخصية امرأة فرعون أنه وقد تبين أن القرآن الكريم تحدث عن امرأة فرعون مرتين، الأولى فى سورة القصص فى

شأن تربيتها لموسى، والثانية فى سورة التحريم بشأن إيمانها ومحنتها مع فرعون وقومه، فإنه يمكن للمؤرخ الفاحص أن يستدل من المصادر التاريخية - على ضوء ما تقدم من ربط مع الحقائق الدينية - أن ثلاث ملكات مصريات - على الأقل - كن زوجات لثلاثة من ملوك مصر فى الفترة التاريخية موضوع البحث، قد اشتركن فى نعمة الإيمان بالله الواحد، ويمكن جداً أن تكون أى منهن قد تعرضت لظروف قهر فى حياتها استدعت الوصف الإلهى للحالة التى ذكرها الله تعالى فى سورة التحريم، وسوف نلاحظ أن القرآن الكريم لم يربط تماماً وبشكل قاطع بين امرأة فرعون المؤمنة التى كانت موضعاً للمقارنة مع امرأتى نوح ولوط الكافرتين فى سورة التحريم، وامرأة فرعون، تلك التى التقطت موسى رضيعاً من النهر وربته فى البلاط الفرعونى التى تحكى عنها سورة القصص، فهل يمكن أن نكون بصدد شخصيتين مختلفتين، أو أن تكون ذات الصورة قد تكررت فى تلك الحقبة موضوع الدراسة فى التاريخ المصرى؟

وإذ نعرض الموقف التاريخى لهؤلاء السيدات فإنهن التاليات:

الأولى كانت الملكة نفرتيتى زوجة إخناتون التى ثبت أنها كانت ابنة العائلة التى قادت إخناتون إلى التوحيد، وكانت من أشد المؤمنات المدافعات عن تلك العقيدة، وهى التى دفعته وآزرته وساندته فى دعوته، ورفضت كل المحاولات التى سعت لإقناعه بالتراجع أو مهادنة الكهنة. لكن ثبت أيضاً أن نفرتيتى انفصلت عن إخناتون فى سنواته الأخيرة دون سبب واضح قاطع الدلالة فى تفسير جميع أبعاد موقف إخناتون من الدعوة، فهل يمكن أن يكون إخناتون قد وصل إلى مرحلة التراجع التام، وهذا ما جعل نفرتيتى تترك القصر الملكى وتهجره ولم تملك بعدها سوى أن تتوجه بدعائها إلى ربها أن ينجيها من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين؟

أستبعد تماماً ارتداد إخناتون، فهو مثل نفرتيتى نشأ وتربى فى طفولته على عقيدة التوحيد فى معبد أون، وظروف الأحوال فى الفترة الأخيرة من حياته تدل على أنه كان مصراً ألا يترك دعوته، وقد مات أو اختفى حتف أنفه وتعرض أتباعه بعد سقوطه للاضطهاد والقتل والتعذيب، وعلى هذا فإن نفرتيتى الملكة المؤمنة بالله تعالى ليست هى امرأة فرعون المعنية فى قول الله تعالى فى سورة التحريم.

أما الملكة **الثانية** المؤمنة فهى «موت نجمت» زوجة الملك حورمحب - الذى أثبتت الأدلة الدينية والتاريخية أنه الفرعون الذى قاد حملات الاضطهاد والتعذيب ضد طائفة المؤمنين المستضعفين فى مصر - المعاصر لميلاد موسى الذى قصده الله تعالى فى سورة القصص بتربية موسى فى بلاطه، وقد خرجت «موت نجمت» مثل شقيقتها نفرتيتى من عائلة التوحيد، وانتزعت من بيت والدها الملك «آى» إثر وفاته وقبل دفنه، وتزوجت إما مرغمة أو غافلة عن الحقيقة من قاتله الملك الجديد حورمحب، وعلى ذلك فإن هذه الملكة تحديداً هى امرأة فرعون المعنية بتربية موسى فى سورة القصص فى القرآن الكريم، وهى المرشحة بقوة أيضاً لتكون

امـرأة فـرعـون المؤمنة التى قـصـدهـا الله - تعـالى - فى مـوضـع المقـارنة بينهـا وبين امـرأتى نبـيى الله - نوح ولوط - فى سورة التحريم.

ومن السـهل أن نسـتنتج أن مـوت نجـمت قـد كـرهـت البـقـاء فى طيـبـة العـاصـمـة - آنذاك - والمقـر الرئيـسى لآمون وكهنتـه الذين كـانت تبـغـضهم وفضلت الحـيـاة فى الشـمـال، ونسـتدل من القصـة الدينية أنهـا كانت تعيش فى شرق الدلتا فى البيت الملكى فى أفاريس العـاصمة القديمة للهكسـوس والموقع القـريب من اسـتيطان بنى إسـرائيل قـبل أن تنشـأ فى هذا الموقع عـاصـمـة رمـسيس الثـانى بى رعمسـيس، وربمـا منحـهـا هذا المكان الشـعور ببـعض من الأمـان والاطمئنان اللذين افتقـدتهمـا بعـد رحيل الأهل والأحـباب وتشـريد المؤمنين، وفـى الغـالب أنهـا عثـرت هنـاك على من يشـاركونها عقيـدتها ويخفونها عن الفرعون وجنوده، وقد تركها الفـرعون لتعيش الحياة التى تريدهـا فى هذه الفتـرة، فقـد كـان مـهـتمـاً بإعـادة بناء الدولة بعـد أحـداث الفـتنة وسنوات الانقسـام، لكن الأكيـد أن احـتـضـانهـا للطفل مـوسـى وحـبـهـا لـه كـان المنحـة الإلهيـة التى بددت سـحابة الحـزن من حياتهـا وأعادت لها البسـمة الجميلة والشـعور بالرضـا والسـعادة فى نهـايات حياتها.

ويؤكد الحيـاة الشـمـالية «لموت نجـمت» بمـا يتفق مع القصـة الدينية أن حـور محـب اهتم كثيراً بالمنطقة الشرقية للدلتا وبدأ منهـا إصـلاحاته للقضـاء على أتبـاع الآتونية والاهتمام بالجيش بمـا يؤيد حيـاته فى هذه المنطقـة فتـرات طويلة من حكمـه، وأيضـاً فإن «مـوت نجـمت» لم تدفن فى وادى الملكات غـرب طيبـة كمـا هـو المعتـاد للأسـرة المالكة فى هذه الفتـرة، لكنهـا دفنت فى جبانة منف فى سـقـارة شـمـال مصـر، حيث عـثـر الأثرى «مـارتان» على بقـايا جـثـمـان امـرأة فى القبـر الشـمـالى الذى كـان حـورمحـب قـد أعـده لنفسـه وهـو قـائد للجـيش قبل أن يصـبح ملك مصـر، ويتخذ قـبـراً فى وادى الملوك، واسـتطاع الأثـرى «سـتـروهـال» أن يتـحـقق من أن «موت نجمت» هى صاحبة هذه البقايا.



الملكة إيزيس نفرت

أمـا امـرأة فـرعـون **الثـالثـة** التى تـرشـحـهـا دراسـتنا للإيمان والمحنة فى حيـاتهـا فى القـصـر، فـهـى تلك الملكة ذات الأصـول الغـامـضـة «إيزيس نفـرت»، زوجـة رمـسـيس الثـانى، وينطق اسـمـهـا باللغـة المصرية القـديمة «أيسـة نفـرت» وتعنـى: أيسـة الجميلة. ونسـتمد أدلتنا على ذلك من ظروف نشـأتهـا وزواجـهـا من الفـرعـون وحـيـاتهـا الغـامـضـة فى القـصـر، ثم نهـاية حـيـاتهـا المجـهـولة والسـريعـة، وأيضـاً ممـا حـمله التـراث الإسـلامى من أن

امرأة فرعون كانت تدعى آسية، وهو ما يمكن تقريبه باسم أيسة.

وفى هذا الخصوص نعاود التذكير بما أوردناه سابقاً فى حديثنا عن الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر رمسيس الثانى التى عرضناها تدليلاً على تواؤمها مع القصة الدينية باعتباره فرعون الخروج، وبينّا أن الزوجتين نفرتارى وإيزيس نفرت - مجهولتا الأصل، وقد غاب عن كل منهما فى المصادر التى تحدثت عنهما لقبا «السيدة النبيلة»، و«ابنة الملك» من بين ألقابهما الكثيرة، وهذا الأمر حمل المؤرخين على الاعتقاد بأنهما من عامة الشعب، ولم يكن يجرى فى عروقهما الدم الملكى، وظن البعض أن «إيزيس نفرت» تحديداً ربما تكون لها أصول سورية؛ لأن ابنتها الكبرى التى تسمى «بنت عنات» تنتسب باسمها إلى «عنات» إلهة الخصوبة السورية، ولم نؤيد هذا الاتجاه مستندين فى ذلك على أن افتخار رمسيس الثانى بالزواج منهما وتمجيدهما على آثاره ورفع قدرهما؛ خصوصاً نفرتارى إلى مستويات عالية لم تتكرر إلا نادراً، وتخليدهما على المعابد وإقامة التماثيل والقصور لهما ينفى عنهما الأصل الوضيع ويقودنا إلى أنهما حتماً ارتبطتا بالبيت الملكى السابق أو تنتسبان إلى أشراف القوم من عهد ملوك التوحيد قبل أن ينكل بأسرتيهما وتساق نساؤها إلى الحريم الملكى.

وتؤكد المصادر أن «إيزيس نفرت» حملت لقب الزوجة الملكية العظيمة، ومثل نفرتارى فقد ظهرت بهذه الصفة فى وقت مبكر جداً وكانتا ضمن الحريم اللائى وضعهن سيتى الأول تحت تصرف ابنه حسبما تشير اللوحة التذكارية المقامة فى معبد أبيدوس. والغالب أن رمسيس الثانى منح الزوجتين الملكتين هذه الصفة فى وقت واحد، ولقد خرجت الفتاتان من مؤسسة وصيفات الشرف وفتيات البلاط الملكى، وهو المكان المغلق لمؤسسة الحريم التى كانت قائمة فى منف. وقد ربطت دراستنا بين وجود هذه المؤسسة وحديث القصة الدينية عن استحياء النساء المؤمنات لاستغلالهن فى القصور والمعابد الذى حدث فى عصر الاضطهاد والتعذيب للطائفة المؤمنة المستضعفة فى مصر.

أما لماذا «إيزيس نفرت» وليست نفرتارى التى يمكن أن تكون هى المقصودة بامرأة فرعون التى يحكى القرآن الكريم عن دعائها إلى الله لنجاتها، رغم وحدة ظروف النشأة لهما؟

فذلك لأن الأمر اختلف بينهما بفارق شاسع بعد الزواج؛ فقد كانت نفرتارى حبيبة رمسيس، وصفها بأنها لا تضارع فى جمالها من بين جميلات القصر، ويصعب أن نجد ملكة مصرية - باستثناء تى - خلفت وراءها هذا القدر من الآثار بين تماثيل ونقوش تحمل اسمها مثل نفرتارى، وآثار أبو سمبل فى النوبة خير تجسيد على ذلك، وبلا نزاع، فإن أجمل تكريم حظيت به يظهر فى معبد أبو سمبل الصغير الذى قدمه رمسيس لزوجته المحبوبة، وسجل لها عليه «بنى رمسيس الثانى معبدا نحت فى الجبل، ليبقى راسخاً إلى الأبد، من أجل نفرتارى محبوبة موت فى النوبة، دائماً وأبداً، نفرتارى التى تشرق الشمس نفسها من أجلها».

وبالإضافة إلى ألقابها المعتادة حملت صفات أخرى إعلاء من شأن صورها «صاحبة الحظوة الكبرى»، و«الشديدة الجاذبية»، و«الرقيقة المفعمة حباً»، و«محبوبة الملك»، و«رفيقة العاهل الملكى»، و«المتحدة مع العاهل الملكى»، و«ذات الوجه المشرق»، و«الأنيقة بريشتها المزدوجة»، وعلى واجهة المعبد نلاحظ خراطيش الملكة المرتبة بجوار التماثيل الضخمة التى تظهرها على قدم المساواة مع زوجها الملك. وفى وادى الملكات نُحت لنفرتارى مقبرة من نوعية فريدة هى واحدة من أجمل المقابر فى البر الغربى لطيبة بما تحويه من نقوش تعد بحق رائعة من روائع فن التصوير الرسمى فى الدولة الحديثة. هذا فى حين أن رفيقة دربها إلى القصر الملكى «إيزيس نفرت» لم تحظ أبداً بمثل ما كان لنفرتارى على الرغم من أنها مثلها حملت لقبى «زوجة الملك»، و«زوجة الملك العظيمة»، وأنجبت له العديد من البنين والبنات الذين احتلوا مراكز مرموقة وكان منهم ولاة العهد وابنها مرنبتاح حكم مصر بعد والده، وقد جادت منطقة منف ببعض الآثار لها تعلن أنها «ملكة الجنوب والشمال»، أو أنها «سيدة الأرضين»، إلا أنها لم تظهر أبداً خلال العقدين الأولين من حكم الملك - وهى معظم فترة حياتها معه - فى مقدمة أى من المشاهد، وعن قصد ترك هذا المكان لنفرتارى التى كانت لها الأولوية على رفيقتها، وكان غياب «إيزيس نفرت» واضحاً للعيان فى كبرى الاحتفالات ذات الطابع السياسى أو الدينى التى كانت تقام سنوياً فى طيبة وشهدتها هذه الفترة من حياتها مع رمسيس، وقد كان على الملك أن يؤم هذه الاحتفالات محاطاً بأفراد عائلته وخلّدها على جدران معابده بدون أى ذكر لإيزيس نفرت، ولم يثبت مشاركتها فى مفاوضات معاهدة السلام والصداقة مع الحيثيين، وعموماً فإن آثارها نادرة، ويخيم صمت مطبق على حياة هذه الملكة وأنشطتها فى القصر، وأيضاً صارت نسياً منسياً فى قائمة الذرية الشرعية المصورة للعائلة الملكية التى أبرزها رمسيس على واجهة معبد أبو سمبل الكبير وداخله، والمحفوظات الوثائقية المعروفة حتى اليوم لا تخصها بأى لقب كهنوتى، فقط يوجد تمثال لها فى نيويورك حالياً مجهول المصدر دوَّن عليه أن هذه الملكة «زوجة الإله»، وهذا التمثال فقد رأسه، وربما كان سيتعذر التحقق من اسمها لو لم يبرز على الجانب الأيسر من التمثال صورة وألقاب واسم ابنها «خع إم واست». وقد دعا هذا الاختفاء أو الغياب للملكة إيزيس نفرت؛ خصوصاً فى معبد أبو سمبل، وفى المراسلات المتبادلة بين مصر والحيثيين عند توقيع معاهدة السلام إلى أن يستنتج العلماء أنها توفيت فى غضون العامين (٢١، ٢٢) من حكم الملك، غير أن ظهورها على لوحة فى معبد حور محب المحفور فى صخر جبل السلسلة بجانب ابنتها بنت عنات ولوحة أخرى فى أسوان تسجلان احتفالات لرمسيس فى الأعوام ما بين (٢٤- ٣٤) دعا آخرين إلى القول بأنها كانت ما زالت على قيد الحياة حتى هذا التاريخ، إلا أنه قد تلاحظ أن «إيزيس نفرت» صورت فى هذه الاحتفالات وهى تمسك علامة الحياة بيدها، الأمر الذى قد يبرز أنها فى هذا التوقيت كانت

قد اتحدت بالعالم الإلهى، بما يمكن تفسيره على أنها كانت متوفاة فعلاً عند نحت هاتين اللوحتين.

ويضاف إلى عوامل الغموض السابقة أن «إيزيس نفرت» لم يعثر على مسكن الأبدية الخاص بها إلى الآن، ولا يعرف أين دفنت هذه الملكة. ورغم أعمال التنقيب القديمة والحديثة فى جبانة وادى الملكات ووادى الملوك، فإنه لم يعثر على أى أثر مهما كان ضئيلاً يمكن أن يستدل منه على أنها دفنت مثل مثيلاتها من أفراد العائلة المالكة فى هذا المكان، وفى وادى الملكات خصص رمسيس الثانى حيزاً جميلاً عند سفح المنحدر الشمالى للجبل لسيدات العرش الملكى وهن: تويا ونفرتارى وبنت عنات ومريت آمون وبنت تاوى وحنوت تاوى وحنوت مى رع، وبالفعل دفنت هؤلاء الملكات وهؤلاء الأميرات فى مواكب مهيبة فى سنوات حكم العاهل الملكى ومن خلفوه، وكان من المنطقى أن نتوقع الكشف عن مقبرة الملكة إيزيس نفرت فى هذا الموقع، لكن هذا الغياب وضع علماء الآثار فى موقف محير، وأيقنوا أنها غالباً لم تدفن فى وادى الملكات. ومجمل القول من هذه الملاحظات المختلفة أن الإقرار بغياب إيزيس نفرت - التى حملت لقب الزوجة الملكية العظيمة لرمسيس الثانى - فى جنوب المملكة أمر واضح وثابت، فلم يعثر على أبسط الشواهد لصالحها أو تكريماً لها فى معابد الكرنك والأقصر، كما لم يرد أى ذكر لها فى الرامسيوم، ولا أثر لمراسم دفنها فى وادى الملكات أو فى وادى الملوك، حتى ولا دليل واحد يشير إلى اسمها فى معبد ملايين السنين لابنها مرنبتاح على البر الغربى لمدينة طيبة، وأعتقد أن التفسير المقبول الذى يبرر هذا الغياب الملاحظ فى الجنوب، هو أن هذه الزوجة لأسباب دينية كانت على عداء مع كهنة طيبة، وذات سلوك عقائدى ذاع صيته فى البلاط مرفوض لديهم ويخالف شعائرهم؛ بدليل أن الأمر لم يتغير بعد رمسيس الثانى، واستمر رفضهم لوجود أسمها فى عهد ابنها مرنبتاح، ويؤيد رأينا أنه على عكس ما تقدم فإن الانطباع الذى تتركه منطقة منف مختلف اختلافاً بيناً؛ لأن وجود الملكة فيها واضح لا يعوزه دليل، فقد أخرجت الحفائر المصرية فى سقارة إلى النور بعض الكتل الحجرية التى كانت جزءاً من أحد الآثار، وهى تحتفظ باسمها وألقابها بل صورتها، ولولا هذه الآثار لكانت هذه الملكة فى طى النسيان، ومن هذه الآثار قطعة يحتفظ بها حالياً متحف اللوفر نشاهد فيها الملكة وقد صورت برفقة اثنين من أبنائها البكر «الكاتب الملكى والقائد العام وابن الملك رعمسسو البار»، و«ابن الملك، الكاهن سم للإله بتاح خع إم واست البار». وهذه المدونة من النمط المستوحى من العالم الجنائزى، وهى دعاء من الملك لصالح زوجته للسماح لها بالدخول إلى عالم النجوم أو العالم الإلهى، وجاء فيها أنه قربان يقدمه الملك إلى سوكر - أوزيريس رب منف فى جبانة الغرب، الجبانة التى تخفى الجثمان المسجى بعد الحياة فيجمع الجسد للأبدية «ليتك تحيين بصفتك النجم «سوتيس» أيتها الزوجة العظيمة للملك، أيا إيزيس نفرت ليتك تصعدين إلى السماء مع النجوم». وفى هذا الوضع لا يتطرق أدنى شك فى أن هذا

النص موجه إلى الراحلة إيزيس نفرت، وقد وضعت بذلك فى مرتبة مساوية لنفرتارى التى كانت هى أيضاً مندمجة فى الإلهة التى تشخص النجم «سوتيس» فى معبد أبو سمبل الصغير، كما يكشف هذا النص بجلاء أن علينا أن نبحث عن مقبرة إيزيس نفرت فى جبانة منف التى جادت أيضاً بعدد من التماثيل الشوابتى تحمل ألقابها واسمها، فضلاً عن كرتين من الذهب كانتا غالباً عنصرين من قلادة تفككت، وحفر على الكرتين الاسمان المقترنان لرمسيس الثانى وإيزيس نفرت داخل خرطوش، وفى وسعنا أن نتصور أن هذا التكريم الذى حظيت به إيزيس نفرت فى منف - بعيداً عن كهنة آمون فى طيبة - والذى حدث بعد رحيلها إلى العالم الآخر، بأن المسئول عنه فى هذه الفترة من عام (٢٦ - ٣٤) من حكم الملك لن يكون سوى ابنيها البارين الأميرين «رعمسيس» الابن البكر للملك، وكان وريث العرش وخع إم واست، الحبر الأعظم للإله بتاح فى منف، وكان فى هذه المناسبة على رأس الكهنة الذين يقيمون الشعائر، وأيضاً ابنتها الأميرة «بنت عنات»، التى كانت فى هذه الفترة على قدر كبير من الأهمية فى البلاط الملكى.

هذا ما كان من شأن إيزيس نفرت مجهولة الأبوين والأصل، وتدل الشواهد والمظاهر أنها ذات أصل طيب عريق، تخرجت وحضرت إلى القصر الملكى من مؤسسة الحريم الملكى، وهو المكان الذى أعد للجوارى والأسيرات، الأمر الذى جعلنا بيقين نربط بينه وبين حديث القرآن والتوراة عن استحياء نساء المؤمنين وبنات إسرائيل.

بعد ذلك تؤكد الظواهر والأدلة التاريخية الواضحة أنها عاشت فى محنة خلال سنوات حياتها فى البلاط الملكى، ولم تكن على وفاق مع الفرعون وكهنته. وإذا كانت قد لاقت فى الشمال بعض مظاهر التكريم وحملت ألقابها الملكية على الآثار التى عثر عليها لها، فذلك أمر يجد تفسيره فى اهتمام أولادها أصحاب النفوذ - آنذاك - بتخليد ذكرى رحيلها، وإذا كان الملك قد ارتضاه، فذلك لاعتبارات الضرورة والتقاليد ولا مفر من إثباته رسمياً باعتبارها أماً للأمراء والأميرات الذين كان منهم الأمراء ولاة العهد على التوالى: رعمسيس وخع إم واست، الكاهن الأكبر للإله بتاح ومرنبتاح الذى آل إليه العرش وأصبح فرعون مصر بعد رمسيس، والأميرة بنت عنات التى تزوجها رمسيس وأصبحت بعد أمها الزوجة الملكية العظيمة فى القصر.

تلك هى المظاهر التى تجعلنا نعتقد أن إيزيس نفرت قد تعرضت لقهر فى حياتها الزوجية بما يناسبه أنه يمكن أن تكون هى المقصودة بامرأة فرعون التى يذكر القرآن أنها توجهت بالدعاء إلى ربها كى ينجيها من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين.

وأكاد أجزم بأنه لو صح هذا الافتراض فإن اللحظة الحاسمة التى تولد عندها الانفجار فى حياتها، وأنهى علاقتها بالفرعون تماماً، حدثت عندما قرر الزواج من «بنت عنات» ابنتها وابنته، ويمكن استنتاج أنها بكل تأكيد كانت نافرة مشمئزة ورافضة بكل كيانها إتمام هذا الزواج الذى يخالف أحكام شريعتها، وأيضاً السلوك السوى لأخلاق البشر، وربما وقعت بسببه

المواجهة التى اختفت بعدها وظهرت بنت عنات كزوجة للملك.

والغريب فى الأمر أن نفرتارى نفسها التى لاقت فى حياتها الزوجية كل تقدير وتكريم، ولأجلها نحت معبد رائع فى أبى سمبل إلى جوار معبد رمسيس الكبير، فإنه عند افتتاح المعبدين فى العام ٢٤ من حكم الملك لا توجد وثيقة واحدة تشير إلى حقيقة أنها شاركت بشخصها فى حفل الافتتاح، لكن الحقيقة الوحيدة التى نلاحظها على اللوحة التى تسجل وقائع هذا الحفل هى أن رمسيس الثانى ومعه «مريت آمون» ابنته وبنت نفرتارى التى تزوجها أبوها الفرعون أيضاً يقفان معاً لإقامة الشعائر أمام آلهة المعبد الكبير، ومن العجيب ألا تُرى نفرتارى وهى تقيم شعائر مماثلة من أجل معبدها الصغير فى هذا الحفل، وكان ينبغى أن تصور الملكة فى صحبة زوجها فى الصف العلوى بدلاً من ابنتها فى مثل هذه الاحتفالية المهيبة، ولا ينبغى استنتاج أنها كانت قد توفيت؛ لأن جميع المدونات فى المعبد الصغير التى تخص نفرتارى تشير إلى أنها كانت على قيد الحياة، وأيضاً فإن «حقانخت» نائب الملك فى الجنوب حتى العام ٢٥ من حكم الفرعون خلف لنا آخر شاهد معروف يشير إلى الزوجة الملكية العظيمة نفرتارى قبل انتقال سلطته فى الرقابة على الإقليم الجنوبى إلى «باسر»؛ فقد أقام نصباً تذكارياً صخرياً فى مكان قريب من المعبد الكبير، وتشير مشاهد اللوحة ونصوصها إلى حدث الافتتاح، وعلى هذا النصب صور رمسيس الثانى والأميرة مريت آمون يتعبدان لآلهة المعبد الكبير: آمون، ورع، ورمسيس الثانى نفسه. وأسفل هذا المشهد نجد نائب الملك «حقا نخت» يتقدم بالهبات إلى الملكة نفرتارى، الأمر الذى يشير إلى أنها فى تاريخ هذا الحدث كانت على قيد الحياة، ويمكن أن يستنتج من نصوص تمثال صغير لنفرتارى وآخر لابنها البكر مرى آتوم - قبل وفاته - أنها كانت لا تزال على قيد الحياة فى العام ٢٦ من حكم الفرعون.

نفرتارى

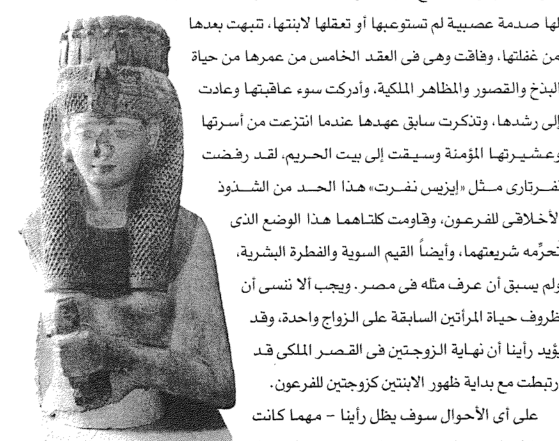
وإزاء ذلك يتساءل العلماء - بحق - هل كان الهدف الرئيسى من ظهور «مريت آمون» ومن لوحة «حقا نخت» هو إعلان تنصيب مريت آمون بصفتها الزوجة الملكية العظيمة، أو أن هناك احتمالاً بأن تكون أمها قد أوفدتها نيابة عنها لتمثيلها فى شعائر حفل افتتاح المعبدين.

يرى عالم الآثار كتشن أن التفسير المعقول لذلك أن تكون الملكة قد تأثرت بالرحلة الشاقة إلى قلب النوبة، وربما أصبحت مريضة فلم تتمكن من مغادرة السفينة الملكية وظلت فى رعاية أطبائها، لذلك ظهرت صورة البنت بدلاً من الملكة عند تقديم قرابين الآلهة أثناء إقامة الطقوس المعبدية، لكن ما نؤيده

أن هذا الافتراض محض خيال ولا أساس له فى المصادر، وإذا كان قد بنى على احتمال أن لوحة «حقا نخت» تعنى أن الأم كانت فى المعية الملكية، فإن ذلك لو كان صحيحاً فإنه كان ينبغى أن تصوَّر نفرتارى فى هذا الاحتفال فى الوضع الذى يليق بمكانتها التى لازمتها طوال حياتها الزوجية؛ خصوصاً فى معبدها الصغير، عموماً افترض العلماء ضرورة وجود عذر قهرى ما زال مجهولاً هو الذى دفع نفرتارى إلى عدم الذهاب إلى أبى سمبل بمناسبة احتفالات الافتتاح؛ ذلك لأنها قامت مع زوجها بزيارات موقعى العمل أكثر من مرة سابقة.

على أى الاحتمالات كان هذا التاريخ آخر العهد بنفرتارى، فلم تُشاهد بعد ذلك أبداً، وربما تكون قد توفيت بالفعل بعد ذلك بفترة وجيزة، لكن إزاء هذا الوضع غير المتوقع لنهايتها افترض رأى أن وفاتها لم تكن طبيعية، وأنها ربما حل بها عقاب وكانت ضحية عملية تشهير.

والذى أتصوره فى تفسير هذا الوضع الغامض غير المبرر فى حرمان نفرتارى من حضور احتفالات افتتاح معبدى أبو سمبل - وقد كان أحدهما مخصصاً لها ومشيداً لأجلها - هو أن ذلك يرتبط لا بد بزواج الفرعون من ابنتهما مريت آمون، وسوف نلاحظ أن تسجيل هذه المظاهر قد أعقبه مباشرة انتهاء عهد نفرتارى، تلك التى عاشت حياتها معززة مكرمة منتشرة، ذائعة الصيت، فإذا بها تختفى من الساحة وتحجب عن الجمهور دون خبر أو حديث، وقد تزامن ذلك تماماً مع بداية ظهور مريت آمون كزوجة للفرعون. أستنتج من ذلك واثقاً أن هذا الأمر الشاذ قد سبب لها صدمة عصبية لم تستوعبها أو تعقلها لابنتها، تنبهت بعدها من غفلتها، وفاقت وهى فى العقد الخامس من عمرها من حياة البذخ والقصور والمظاهر الملكية، وأدركت سوء عاقبتها وعادت إلى رشدها، وتذكرت سابق عهدها عندما انتزعت من أسرتها وعشيرتها المؤمنة وسيقت إلى بيت الحريم، لقد رفضت نفرتارى مثل «إيزيس نفرت» هذا الحد من الشذوذ الأخلاقى للفرعون، وقاومت كلتاهما هذا الوضع الذى تُحرِّمه شريعتهما، وأيضاً القيم السوية والفطرة البشرية، ولم يسبق أن عرف مثله فى مصر. ويجب ألا ننسى أن ظروف حياة المرأتين السابقة على الزواج واحدة، وقد يؤيد رأينا أن نهاية الزوجتين فى القصر الملكى قد ارتبطت مع بداية ظهور الابنتين كزوجتين للفرعون.



مريت آمون بنت رمسيس الثانى ونفرتارى ـ الرامسيوم ـ متحف القاهرة

على أى الأحوال سوف يظل رأينا - مهما كانت درجة ثقتنا به - بالنسبة لنفرتارى من قبيل الاحتمال الذى تدعمه ظروف حياتها وغموض أصولها

ونشأتها الأولى السابقة على الزواج وتربيتها فى مؤسسة الحريم، وأيضاً القرائن والمظاهر المرتبطة بنهايتها، والتى لا يمكن إغفالها أو تنحيتها فى تقصى أسباب غموض وغرابة تلك النهاية.

وعودة إلى «إيزيس نفرت» واحتمالات أن تكون هى امرأة فرعون المؤمنة المقصودة فى سورة التحريم من القرآن الكريم، فإننا نضيف فى هذا الشأن ما حمله لنا التراث الإسلامى من تحديد اسم امرأة فرعون، فقد جاء فى تفسير ابن كثير نقلاً عن غيره من المفسرين وكتب التراث، وأيضاً يقول الإمام الألوسى أن اسمها: آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذى كان حاكم مصر فى زمن يوسف. ويضيف ابن كثير؛ أن السهيلى قال: إنها كانت من بنى إسرائيل من نفس سبط موسى، والله أعلم. وعلى أية حال فإن هذه الروايات وإن كانت مجهولة المصدر، وغير متصلة السند فى كتب التراث، فإنه يمكن تقريب اسم آسية باسم أيسة، وأيضاً فإن القول بأنها ربما كانت من بنى إسرائيل أو تنتمى بأصلها إلى ملوك الهكسوس قد يأتى متفقاً مع الاحتمال الذى قدمناه لظروف نشأتها هى ونفرتارى.

ويجب أن نذكر فى هذا الصدد أننا قد استبعدنا الاستناد إلى الأحاديث المنسوبة إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم التى تحمل أن اسم امرأة فرعون آسية، فقد ذكر ابن كثير أنها ضعيفة الإسناد، ودخل فى روايتها أشخاص غير موثوق بهم، وأنها يمكن أن تكون من الإسرائيليات المكذوبة والمفتعلة، لذا اكتفينا بنسبة ذلك إلى كتب التراث.

لكن، أيا ما كان الأمر - بعد ما تقدم - بالنسبة للملكة إيزيس نفرت زوجة رمسيس الثانى فرعون الخروج بشأن عقيدتها وإيمانها بالله الواحد، واحتمالات تعرضها لظروف قهر ومحنة فى حياتها الزوجية مما قد يجعلها امرأة فرعون التى قصدها الله تعالى فى سورة التحريم، وقارن بينها وبين امرأتى نبيى الله نوح ولوط، فإن هذا الافتراض لا يغير ولا يبدل من كون أن «موت نجمت» زوجة حورمحب الفرعون المعاصر لميلاد موسى؛ هى المعنية بالتقاط موسى من النهر وتربيته وهى التى تحدثت عنها سورة القصص، وأيضاً يظل الاحتمال قائماً فى أن كلاً منهما مرت بنفس الظروف وناجت ربها بصورة أو بأخرى، وفى هذا المجال لا ننكر أننا يمكن أن نستنتج من قول الله تعالى فى سورة القصص بأنه كان يوجد قدر ما من المودة بين هذا الفرعون وزوجته، أو على الأقل احترام لرغباتها وأنها كانت تدرك ذلك، لكن هذا لا يخل على الإطلاق بأن أفعاله كانت ظالمة متعدية على حقوق الله وعباده المستضعفين، حتى وإن اعتبرها الفرعون من وجهة نظره - وأيضاً المؤرخون - فى صالح استقرار الدولة.

بنت عنات بنت رمسيس الثانى وايزيس نفرت

٣- مؤمن آل فرعون



الأمير خعمواس بن رمسيس الثانى اجتمعت فيه كل الصفات والدلائل التى تؤكد أنه مؤمن آل فرعون فى سورة غافر فى القرآن الكريم

يحكى الله تعالى فى آيات بينات فى سورة غافر فى القرآن الكريم قصة رجل مؤمن من آل فرعون، قال - تعالى- عنه فى بداية القصة إنه «يكتم إيمانه»، ومن هذا الوصف قد يتبادر إلى الذهن أن ذلك ربما كان بسبب خوفه من بطش فرعون وجنوده، وقال بهذا فعلاً كثير من كتب التفسير، فيذكر ابن كثير أن هذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه، وإذا أخذنا بهذا الاعتبار فإنه يجعل الرجل فى درجة أدنى من إيمان السحرة؛ لأن السحرة لم يكتموا إيمانهم، بل خروا ساجدين لرب العالمين فى مجلس فرعون فور إدراكهم لآية الله الكبرى، وأعلنوا أمام جميع الملأ جهاراً نهاراً أنهم آمنوا برب موسى وهارون غير عابئين بما ينتظرهم من عقاب أو انتقام، عندما هددهم فرعون بالقتل، بل التمثيل بهم أحياء «**فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ** (٧١)» [طه]، يخبرنا الله تعالى أن إجابتهم الفورية عليه دون تردد أو خوف «**قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** (٧٢)» [طه]، إلى آخر ما سجلته الآيات التالية فى سورة طه التى تبين الموقف الواضح الذى أقدم عليه السحرة فى إعلان إيمانهم القوى وأيضاً فى غير ذلك من آيات سور أخرى سبق أن عرضناها فى قصة موسى والمغايرة - بلا شك - لموقف هذا الرجل. لكن رغم هذه المقارنة فإنه ينفى عن مؤمن آل فرعون وضعه فى درجة أدنى من السحرة؛ أن الله - عز وجل - وهو يعرض لنا قصته جعله فى درجة عالية تدل على أنه - سبحانه - لم يعتبر كتمه إيمانه فى بداية حديثه إلى قومه شيئاً مستهجناً أو موقفاً سلبياً، ولم يضعه مع هؤلاء الآخرين الذين يخبرنا عنهم فى قوله تعالى: «**فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ**... (٨٣)» [**يونس**]، وهذا يقودنا - بثقة - إلى استخلاص أن كتم الرجل لإيمانه لم يكن أبداً بسبب خوف أو ضعف، وإنما لحكمة وقصد لا ينتقص - بحال - من قدر الرجل ودرجة إيمانه ومكانته التى أشاد بها الله - تعالى - ووقاه بسببها من سيئات آل فرعون.

إذاً لماذا أخفى هذا الرجل إيمانه فى حين أن السحرة أعلنوا إيمانهم؟

على عكس ما ترى كتب التفسير ويعتقد الكثير أن موقف الرجل المؤمن يجد باعثه فى خوفه على نفسه من فرعون وجنوده، نرى أن إدراك الآيات القرآنية التى تروى القصة مجتمعة يخلص إلى أن هذا الرجل كان له شأن مهم وصاحب كلمة ونفوذ فى البلاط الملكى، فلم يكن يخشى فرعون أو ينافقه، وحدوده فى المناقشة وإبداء الرأى إليه تتجاوز بكثير جميع رجال بلاطه وحاشيته، وأيضاً لا يملك هؤلاء الآخرون الحضور فى مجلس الملك رد رأيه أو تسفيه قوله، إن الرجل الذى تتحدث عنه الآيات فى سورة غافر ذو نفوذ إدارى وصاحب حظوة وسلطة، ويملك خلفية ثقافية هائلة، وقد أهَّلته تلك الظروف جميعها لأن يكون له دور فاعل فى توجيه الصراع الذى قاده فرعون وبلاطه ضد موسى والمؤمنين، فقد حدث بعد أن أتى موسى معجزته أمام الحشد الغفير من قوم فرعون فى يوم الزينة، أن احتدم الجدل حول طبيعتها بين السحرة الذين عرفوا الحقيقة وآمنوا، وبين فرعون ورجال بلاطه الذين ظلوا على اعتقادهم بأن فعل موسى سحر مبين، واتهموه بالفساد فى الأرض، وإذ انطلقت تهديداتهم الغاضبة التى تطالب بقتل موسى والانتقام من الذين آمنوا معه، أدرك مؤمن آل فرعون مسئوليته واستطاع بحكمة وحنكة ورجاحة عقل أن يواجه انفعالاتهم المتعصبة المنهزمة، فجعله الله سبباً لإحباط تدبيرهم.

نستطيع أن نستنتج من تصوير الله تعالى للقصة أن حديث المؤمن فى المناقشات التى سجلها القرآن للوقائع التى دارت بينه وبين فرعون وقومه لم تستغرق مجلساً واحداً، وإنما استمرت على مراحل زمنية تدرج خلالها حديث الرجل وأسلوب كلامه ما بين الترغيب والترهيب والتحذير والنصيحة، واللوم والتذكير والإنذار حتى وصل فى النهاية إلى مرحلة الإيمان الصريح المعلن، بل الدعوة لدين موسى، ونقسم هذه المراحل حسب ترتيب العرض القرآنى إلى ثلاث مراحل على النحو التالى:

- كان مجلس الحوار الأول فى حضور موسى وفرعون وهامان وقارون وحاشية فرعون، وذلك فى بداية دعوة موسى فى مصر، ومن الواضح جداً أن مجلس هذا الحوار حدث فى يوم الزينة، يوم وقعت مباراة السحر بين موسى والسحرة، وإذ جاء موسى بمعجزته حسم الأمر لصالحه بانتصار مبين أكد فيه أن ما يحمله هو آيات بينات من عند الله وليس عصا ساحر، وبسببها أدرك هذا الرجل الحكيم العالم حقيقة ما فعله موسى واقتنع بأنه يحمل رسالة سماوية، فآمن لكنه كتم إيمانه. ونفهم من الآيات القرآنية أن حديثه قد جاء بعد ذروة غضب الفرعون ورد فعله المعادى لموسى نتيجة لإيمان السحرة، لهذا أخذ أسلوب المؤمن صيغة التحذير والنصيحة المجردة المرتابة من احتمال صدق موسى، وعرضها فى تعبيرات تتفق مع ما يبطنه من إيمان، وكان من اللازم لحفظ ماء الوجه أن ينتهى المجلس برأى فرعون، لكن بعد أن تم تجريده من التهديد بالقتل والإفراط فى الانفعال، فقد أثمرت نصيحة الرجل المؤمن، ونلاحظ ما قدمناه فى قول الله تعالى:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)» [غافر].

هذا ما كان من شأن المشهد الأول الذى سجل بداية دخول الإيمان لقلب مؤمن آل فرعون ونلاحظ فيه ربط الله تعالى بين آيات تهديد موسى والمؤمنين التى انتهت باستعاذة موسى بالله من المتكبرين الكافرين فى الآية ٢٧ ثم بداية قصة الرجل المؤمن التى جاءت تالية لتلك الآية مباشرة ليبين سبحانه لنا دوره الذى كان سبباً فى حماية موسى ووقف الانتقام عن المؤمنين.

- أما فى المرحلة الثانية فكان الرجل المؤمن قد استزاد بالمعلومات عن رسالة موسى ورسالات الأنبياء السابقين وموقف أقوامهم منهم، ويتضح من حديثه أنه كان يحاول إقناع قومه بما رآه حقاً، ويرد فيه على من يجادلون فى آيات الله الأخرى التالية لمعجزة يوم الزينة والتى منحها لموسى فى مصر، لهذا أخذ حديثه هذه المرة أسلوب التذكير واللوم والنصيحة التى تستند على اقتناع تام بحقيقة أفعال موسى وبراهينه وأدلة رسالته، وأن هؤلاء الذين يجادلون فيها بلا حجة فإن أمرهم ممقوت غاية المقت، وأيضاً انتهى الحوار بترهات جوفاء من الفرعون تعمد فيها السخرية من موسى باستهزاء خاو يعلم استحالته، قصد به الاستعلاء والتظاهر أمام قومه بأنه الذى يقبض على زمام القوى وليس أكاذيب موسى، ونلاحظ ذلك فى الآيات التالية:

«وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)»[غافر].

- وفى المرحلة الثالثة والأخيرة من المراحل الزمنية لقصة مؤمن آل فرعون وصل إلى درجة الإيمان الكامل الصريح الذى لا عدول عنه ولا رجعة فيه، وصار الرجل داعية لدين موسى،

وجاء خطابه إلى قومه أشبه ما يكون بلغة الرسل والأنبياء فى منهاجهم ورسالاتهم، وتكاد العبارات تفضى إلينا بأن الرجل كان يختم حياته ويودع الدنيا فأخذ أسلوب النصيحة المخلصة والملحة لقومه لعلهم يدركون الحقيقة التى أدركها، ودارت ما بين الترغيب والتحذير، وفى نهاية قصة المؤمن يخبرنا المولى - عز وجل - أنه قد وقاه سيئات قومه؛ بما يعنى أن حياته انتهت على الإيمان، ولم يصبه ما أصاب الكافرين من سوء العذاب، وعن ذلك يقول تعالى:

«وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)» [غافر] .

تلك هى قصة مؤمن آل فرعون التى يحكيها لنا الله تعالى، ومن العرض المتقدم نستطيع أن نستخلص من الآيات القرآنية الأوصاف والشروط والأدلة الواضحة التى سوف تقودنا إلى معرفة شخصية هذا الرجل فى التاريخ المصرى فى الفترة التى شهدت وقائع رسالة موسى فى مصر بعد عودته من مدين وحتى تاريخ الخروج، والتى أثبتت دراستنا أنها فى العقدين الأخيرين من حكم الفرعون رمسيس الثانى.

تضع القصة القرآنية لمؤمن آل فرعون الأوصاف والأدلة التالية:

أولاً: أنه من آل فرعون

يقول الله تعالى: «**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ... (٢٨)**» [غافر]، و«آل» فى أصل اللغة تكون لأهل الرجل وعياله، ومن باب التجاوز تستخدم لأتباعه وأنصاره، «آل» إليه - إيالاً، وأيلولة، ومآلاً، تعنى: رجع وصار وارتد، ومما تقدم فإن التفسير اللفظى المجرد لاستعمال «آل» يعنى أن الرجل المؤمن يرتد أصله ويرجع إلى فرعون، فهو لفظياً من الأبناء: ابن أو حفيد.

وسوف نجد أنه كثيراً ما استعمل القرآن الكريم «آل» بهذا المعنى اللفظى سواء للابن المباشر أم البعيد، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها:

- « **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)**» [آل عمران].

- وعن سيدنا يوسف يقول الله تعالى: «**وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ**

حَكِيمٌ ﴿٦﴾» [يوسف].

- «إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾» [الحجر].

- وفى دعاء سيدنا زكريا يقول الله تعالى: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾» [مريم].

وفى أحيان أخرى استخدم القرآن «آل» بمعنى أهل:

- «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ... ﴿٨﴾» [القصص].

وفى مواقف أخرى استخدم القرآن «آل» لتدل على الأنصار أو الأتباع:

- «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾» [الأنفال].

- «فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾» [غافر].

- «وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ... ﴿٦﴾» [إبراهيم].

ولكن أيضاً نلاحظ أنه فى معظم الحالات للتدليل على الأنصار والأتباع أو المجتمع المحيط فإن القرآن يستعمل لفظ «قوم»، ومع فرعون الخروج استعمل القرآن كثيراً لفظ (ملئه): «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾» [هود].

«فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ... ﴿٨٣﴾» [يونس].

«وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴿٨٨﴾» [يونس].

بيد أنه من السهل إدراك أن القرآن الكريم عندما يستعمل «آل» لتدل على الأنصار والأتباع، فإن المعنى فى هذه الحالات يتجه إلى تفسير المقصود بأنهم هؤلاء الذين ينتمون إلى فرعون قلباً وقالباً، فكأن الله تعالى يجعلهم فى حكم أهله؛ لأنهم يرجعون ويرتدون إليه فى عقيدته وتفكيره ويناصرون ظلمه، فصاروا جزءاً لا يتجزأ من كيانه، مثلهم مثل أهله، فاستحقوا جميعاً معه سوء العذاب، ولأن مؤمن آل فرعون لم يكن واحداً من هؤلاء؛ لأنه بإيمانه خرج من عقيدتهم ورفض ظلمهم، فيكون بذلك منشقاً عن ملتهم ولا يناصرهم ولا يتبع رغباتهم، لكن هذا لا ينفى أنهم قومه الذين ينتمى إليهم بأصله، وعلى ذلك لا بد هنا أن نرجع إلى المعنى الحرفى فى أصل اللغة للفظ «آل»، وإذ قال الله تعالى عنه إنه من «آل فرعون»، فإن القصد فى هذه الحالة ينصرف إلى أنه من ذرية فرعون أو أهل بيته؛ لأنه ليس من أنصاره أو أعوانه فى مجال قصة موسى وفرعون.

ووفقاً لهذا التفسير مع قوة حديث الرجل مع فرعون وعدم خوفه وجرأته المتزايدة والمتصاعدة، نصل إلى أنه كان واحداً من أبنائه أصحاب النفوذ فى الدولة آنذاك، وفى ذلك سوف نستبعد أى

درجات القرابة الأخرى التى تقول بها بعض كتب التراث دون سند كأن يكون ابن عم للفرعون، وفى هذا تجدر الإشارة إلى قول الله تعالى فى سورة يوسف: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا... (٢٦)». ليدل على قرابة الشاهد لامرأة العزيز، فقد يوضح ذلك أن استخدام القرآن للمؤمن لفظ «آل» دون أى تعبير آخر فى هذا الموقف ينصرف تحديداً إلى حصره فى أهل بيت فرعون وعياله.

وإذا أضفنا إلى التفسير السابق المرحلة العمرية لفرعون الخروج رمسيس الثانى والذى كان آنذاك شيخاً مسناً مع أسلوب حوار الرجل المؤمن إليه، لأدركنا بالفعل أنه كان ابناً قوياً مهما ذا شأن ونفوذ فى البلاط، وصاحب كلمة مسموعة ومحترمة، يثق الفرعون فى رأيه ويحبه، والرجل أيضاً يثق فى وضعه لدى الفرعون ولا يخشى أن يفسر قوله على أنه تجاوز فى الحديث إلى الملك، كان مطمئناً إلى حكم الملك عليه.

ويصبح الآن الأمر واضحاً فى أن الرجل كتم إيمانه فى بداية الأمر؛ لأن صلته بالفرعون والموقف الراهن حتَّما عليه ذلك بعد إيمان السحرة وحرج موقف الفرعون - والده - أمام حاشيته وحشد من شعبه، وكان ما زال يرجو خيراً فى هداية والده وفهمه للحقيقة مستقبلاً، وأيضاً كان الرجل يدبر لحماية موسى والسحرة الذين آمنوا وباقى المؤمنين من قوم موسى، وعلينا أن نتدبر الآيات فى سورة غافر فى شأن هذا الرجل لندرك من هذا الذى كان يجرؤ من بين جموع الحاضرين أن يقول لفرعون الذى طغى فى البلاد ويدعى الألوهية مثل الذى قاله، وسجله الله - تعالى - له:

- «أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ».
- «يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا».
- «وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».
- «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ».
- «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ».
- «أَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ».

إن هذا الرجل حتماً لم يكن يخاف من فرعون ولا حاشيته، ويعلم أن أياً منهم لا يجرؤ على التشكيك فى موقفه أو المزايدة عليه لدى الفرعون؛ لأنه بوضوح شديد ومن قول الله - تعالى - كان أقرب الأقربين إلى الملك، لهذا لم يتخذ أى منهم موقفاً اعتراضياً أو مقاوماً، ولم يحرضوا فرعون ضده، بالرغم من الوعيد والتحذير والتسفيه الشديد الذى تجرأ به على فرعون وعليهم.

ثانياً: من العلماء بالسحر

ونصل إلى ذلك من قول الله - تعالى - بأن الرجل قد أدرك وفهم منذ بداية دعوة موسى

للفرعون أن ما أتاه ليس سحراً، وإنما آيات بينات من الله: « **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ (٢٨)** » [غافر].

ثالثاً: مثقفاً، دارساً، محباً لتاريخ القدماء

ونتبين ذلك من سرعة إدراكه وارتفاع وعيه وقوة حجته وسلامة عرضه لقضيته، وفصاحة لسانه، وحسن دراسته أمر الدعوة من جميع جوانبها وسلاسة حيثياته فى الدفاع عنها، فأصبح فى عباراته أشبه ما يكون بالرسل والأنبياء فى دعوة قومهم.

وأيضاً كان الرجل مُلمًّا بتاريخ الأمم الماضية التى تحزّبت على الأنبياء، وعرف تاريخ نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، ودعوة يوسف فى مصر وشأن قومه فى حياته وبعد هلاكه، بما ندرك معه اهتمامه بصفة عامة بدراسة التاريخ وسير القدماء.

رابعاً: رجلاً ذو شأن عظيم ونفوذ فى الدولة

يستدل بصفة عامة من حديث الرجل المؤمن أنه لم يكن يستمد قوته فقط من قرابته الشديدة للفرعون، وإنما من نفوذه وسلطانه وارتفاع شأنه بين الحاشية وقوم فرعون، فالله - سبحانه وتعالى - قبل أن يبدأ فى عرض قصة الرجل المؤمن بداية من الآية (٢٨) فى سورة غافر، سبقها مباشرة بمقدمة عن موقف موسى إثر دعوته لفرعون وقومه وإتيان معجزته أمامهم شملت الآيات من (٢٣ : ٢٧) ويخبرنا فيها الله تعالى أن أمر موسى انتهى إلى اتهامه بالسحر والكذب، وطالب القوم بالانتقام من الذين آمنوا معه، وأراد الفرعون قتل موسى، فاستعاذ موسى بالله عليهم، وعندئذ أتبع الله تلك المقدمة بقصة الرجل المؤمن؛ فقد أراد سبحانه بذلك أن يضع علاقة سببية بين تلك المقدمة والقصة:

- فإذا كان الفرعون لم يقتل موسى وهارون.
- وسبق أن انتهينا فى قصة موسى إلى أن فرعون لم يقتل السحرة وذكرنا الأسباب والدلالات على ذلك.
- وأيضاً لم يقتل أبناء الذين آمنوا، كما سبق أن أوضحنا أن تلك مرحلة كانت فى عهد ميلاد موسى، وانتهت فى تاريخ الدعوة.
- وقد مارس موسى دعوته فى مصر سنين عدداً، واتخذ - كوحى الله له وهارون - لقومهما بمصر بيوتاً وجعلوها دوراً للعبادة وقبلة للصلاة.

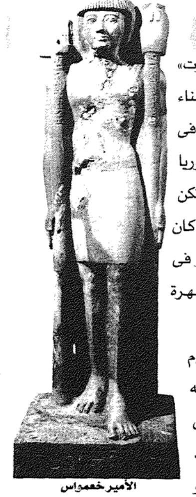
- إذاً فإن الله تعالى جعل هذا الرجل المؤمن سبباً فى أن يوقف الغضب الهادر المندفع من فرعون وحاشيته ضد موسى وقومه، لقد كان إذاً رجلاً قوياً وصاحب سلطان فى الدولة فى تنفيذ أوامر الفرعون، بل هو أقوى من أى رجل آخر فى مجلس الفرعون، وإلا لكان الآخر

أعطى لنفسه الحق فى تنفيذ الأوامر الصادرة بالقتل والصلب، لقد أوقف الرجل تنفيذ أوامر الفرعون واستطاع أن يقنعه بذلك، ربما مع غرور الفرعون وصلفه وعدم إدراكه أضاف الرجل إلى أسبابه الدينية - التى يقتنع بها - وهو بصدد حديثه إلى الملك أسباباً أخرى تمكنه من التأثير عليه، والسيطرة على قراره يمكن أن يكون منها تجنيب البلاد فتنة وانقسام إذا قتل السحرة الذين هم فى الأساس من كبار كهنة مصر، أو إيهامه بأنه إذا كان يعتقد أن موسى ساحراً عليماً وأقوى من سحرة مصر، فإن من الحكمة مهادنته وأخيه، وإيجاد أسلوب آخر للتعامل معه خوفاً من أذاه على الفرعون والبلاد، وربما كان وراءه آخرون لم يكشف عنهم. وأيضاً لعل فى قول الرجل لقومه: «**اتبعون أهدكم سبيل الرشاد**»، ما قد يوضح أنه عهد فيه أنه صاحب أمر وقيادة وشأن فى هداية الناس إلى الحق والصواب.

وبعد، إذا كانت تلك هى الصفات والدلائل على الرجل المؤمن من آل فرعون حسبما يمكن أن نستنتجها من قصة القرآن الكريم فإنها تؤدى سريعاً إلى تحديد شخصيته، وتشير بأصابع قوية إلى أنه ابن الملك وولى عهده «خع إم واست» (خعمواس)، والمثير فعلاً أنه لا يوجد أى شخص آخر عاش فى عهد رمسيس الثانى يمكن أن تجتمع فيه جميع هذه الصفات والدلائل غير خعمواس، ونوضح ذلك على النحو التالى:

خع إم واست (المشرق فى طيبة)

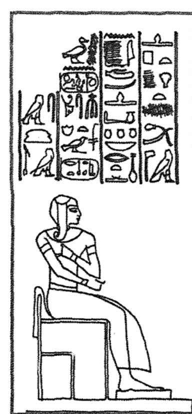
قبل أن يتولى رمسيس الثانى العرش أنجبت له «إيزيس نفرت» الأمير خعمواس، وهو رابع الأبناء الذكور لرمسيس، وثانى أبناء «إيزيس نفرت»، صحب أباه وهو صبى فى نحو الخامسة من عمره فى حملة إلى النوبة، وشارك بعد انفراد أبيه بالحكم فى حملات سوريا المسجلة على جدران المعابد. لكن الجيش والجندية والحرب لم تكن المهنة التى جذبت خع إم واست، واختار لنفسه طريقاً آخر، فقد كان متفوقاً فى مواهبه العقلية، فأتقن فنون القراءة والكتابة، وتبحر فى الأمور الدينية والعقائدية والسحر والتاريخ، وحاز هذا الأمير شهرة كبيرة فاقت شهرة كل معاصريه، واستمرت بعد وفاته دهوراً طويلة.


الأمير خعمواس

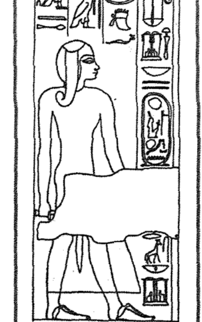
وبسبب وجود البلاط الرئيسى فى الشمال دخل «خع إم واست» فى خدمة الإله بتاح بمنف القريبة، وبتاح المنفى هو إله الصناعة والفنون، وكانت هيئة كهنته مشهورة بالعلم والثقافة، وفى العام الـ ١٦ من سنوات الحكم، عين فى مركز «كاهن سم» بمعبد بتاح، وهو المركز التالى مباشرة لكاهن بتاح الأكبر، وكان فى نحو

العشرينيات من عمره، ثم أصبح بعد وفاة هذا الأخير كبير كهنة بتاح، واستمر يشغل هذا المنصب حتى بعد ولايته للعهد.

كان خعمواس أحب أولاد الفرعون إليه، وكان على اتصال وثيق بوالده، وأسند إليه مهام الأمور، وقد اختاره للإشراف على احتفالاته اليوبيلية، وأسند إليه الإعلان عنها، وقد طاف الأمير بالبلاد يصاحبه الرسل، وأخذ على عاتقه إبلاغ حكام الأقاليم بالاحتفالات الخمسة الأولى التى وقعت فى الأعوام من الثلاثين حتى الحادى والأربعين، وكان الإبلاغ عن هذه الاحتفالات يستغرق وقتاً طويلاً قد يصل إلى عام، لذلك كانت هذه الرحلات وسيلة للأمير لتفقد أحوال الأقاليم، وعقد لقاءات مع المسئولين فيها، وزيارة مؤسسات الدولة. وبصفة عامة يمكن أن نقول إن هذا الأمير كان من بين الأبناء المعروفين لرمسيس الثانى الأقوى شخصية والأكثر شهرة والأعلى نبوغاً وكفاءة.



خعمواس .. نقش من جبل السلسلة



خعمواس فى رحلة الإعلان عن اليوبيل الأول لرمسيس الثانى فى العام ٣٠ من سنوات الحكم

بنى معبداً يسمى معبد أبيس، وترأس المراسم الجنائزية لدفن العجول المقدسة، ونفذ مشروعاً بشق سرداب طويل تحت الأرض وحفر غرف دفن العجول على جانبيه فى حائطى السرداب.

كان له شأن كبير فى إدارة حكم البلاد حتى قبل ولايته للعهد، فقد وصلنا تقرير وجَّه إليه بوصفه حاكم منف، وقد اكتسب خبرات عملية طويلة ومتنوعة بالأعمال الإدارية



خعمواس يبلغ عن الاحتفال باليوبيل الخامس فى العام ٤١ من سنوات الحكم

العليا، خصوصاً ما يتعلق بالمعبد وأوقاف الإله بتاح الذى كان يعد أغنى الآلهة بعد الإله آمون.

عين خعمواس ولياً للعهد بعد العام ٥٠ من حكم رمسيس الثانى، وربما كان ذلك فى العام ٥٢، فأصبح بذلك الوريث المرتقب لعرش البلاد، وذلك بعد وفاة شقيقه الأمير رمسيس أكبر أبناء «إيزيس نفرت» الذى استمر ولياً للعهد قبله فترة طويلة بلغت نحو خمسة وعشرين عاماً ، وكان خعمواس فى تاريخ ولايته لهذا المنصب فى العقد السادس من عمره، وعلى أقل تقدير فإنه كان قد تجاوز الخامسة والخمسين.

وتدل شواهد الأحوال على أن رمسيس الثانى الذى كان قد تقدمت به السن، قد خلَّص نفسه من أعباء الحكم عندما سلم مقاليد الأمور لابنه خعمواس الذى قام بمسئوليات كبيرة فى أنحاء المملكة.

ولم يشغل خعمواس هذا المنصب إلا لفترة قصيرة؛ إذ توفى فى نحو السنة الـ ٥٥ من حكم الملك، ولم يدفن فى الجبانة الملكية فى وادى الملوك أو مقابر النبلاء فى غرب طيبة، وإنما دفن فى سقارة بمنف، واستقرت ولاية العهد بعده إلى الأمير مرنبتاح - خامس من تولوا هذا المنصب - وكان رمسيس الثانى وقتئذ فى نحو الثمانين من عمره، وقدر لهذا الأمير أن يصبح فرعون مصر بعد أبيه.

خعمواس عالم التاريخ والآثار

أولى خعمواس اهتماماً كبيراً بتاريخ مدينة منف العريقة، فقام بدراسة أهرامات سقارة وشمال الجيزة، وأعجب بروعتها إعجاباً شديداً، وقرر إزالة الرمال الكثيفة عنها، وترميم معابدها إحياء لذكرى الملوك القدماء، ووضع لذلك مشاريع وخططاً تم عرضها على رمسيس الثانى، وصدر مرسوم ملكى يقر تنفيذ مشاريع خعمواس الذى ترأس بمقتضى المرسوم لجنة ثقافية قامت بتحقيق أسماء الملوك، وأشرفت على نقشها على أسطح الأهرامات والمعابد تعريفاً بصاحب الأثر، وكان يضيف اسم الملك رمسيس الثانى صاحب الفضل فى ذلك العمل، مع نص المرسوم الصادر لخعمواس بالترميم، فأجرى الترميم فى سقارة على مجموعة زوسر من الأسرة الثالثة، وأهرامات ومعابد ملوك الأسرة الرابعة والخامسة.

خعمواس الساحر

كان لهذا الأمير شهرة عظيمة فى المسائل اللاهوتية الخفية، وتبحر فى دراسة علم السحر. وقد نسبت إليه التقاليد فى العصور المتأخرة تأليف عدة كتب عن السحر تحوى إرشادات لاستدعاء الأرواح والعفاريت الخاصة بهذا العالم وبعالم الآخرة.

وقد وجدت ضمن البرديات التى تشيد بهذا الأمير فى فترة العصور المتأخرة قصتان ضمن أساطير مطلع العصر الميلادى تتحدثان عن صلته بأعمال السحر.

تنسب إليه القصة الأولى أنه توغل داخل مقبرة قديمة فى صحراء منف ينشد البحث عن

كتاب سحرى ألَّفه «تحوت» إله الحكمة بنفسه، وكانت أرواح ثلاث تحرس هذا الكتاب أخذت تتوسل إليه كى يدع الكتاب مكانه، وأنبأنه أن الكتاب كلفهن حياتهن، لكنه أصر على الاقتراع بلعب «الضاما» من أجل الحصول على الكتاب الثمين، فلما خسر استعان بطلاسم سحرية مكّنته من الاستيلاء عليه، وخرج ليتمتع بما يحويه من مأثورات. لكن لعنة الأرواح الثلاثة طاردته واستشار والده فنصحه بإعادة الكتاب إلى مكانه فأخذ بنصيحته وأعاد الكتاب إلى المقبرة وأصلحها وأكرم موتاها بأن أعاد دفنهم على الوجه الصحيح.

وفى القصة الثانية يلعب دور كبير السحرة العليم بأسرار التراث القديم الخالدة، ودور الحامى للفرعون بمنازلته للساحر النوبى الخبيث، الذى أرسله أمير النوبة ليتحدى سحرة مصر.

وقد استمرت ذكرى الأمير المبجل «خع إم واست» بعد وفاته قروناً طويلة فى أذهان الناس من خلال القصص والتراث الشعبى والدينى بسبب ما اكتسبه من صيت حسن؛ لثقافته الرفيعة وشهرته كعالم وكاهن وإدارى وساحر، وظلت ذكراه حية بعد أكثر من ألف سنة على عصره، لدرجة أن اسمه كان مازال يسجل فى برديات القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعده فى فترة تحول حكم مصر من اليونانيين إلى الرومان.

وبداية من حيث التوافق الزمنى، ثم من خلال المقارنة بين الصفات والدلائل المستخلصة من سورة غافر لمؤمن آل فرعون، وبين الصفات والسيرة الذاتية لشخصية الأمير «خع إم واست» بن رمسيس الثانى، يمكن أن ندرك أن هذا الأمير المثقف الساحر هو ذاته مؤمن آل فرعون الذى تحدث عنه القرآن العظيم.

فقد عين «خع إم واست» ولياً للعهد خلال الأعوام من (٥٢ - ٥٥) من حكم رمسيس الثانى، وهذا يعنى أن بداية ولايته للعهد كانت سابقة على خروج بنى إسرائيل بنحو خمسة عشر عاماً، وهذه الفترة تناسب جداً الدراسة الزمنية السابق تفصيلها لتاريخ عودة موسى من مدين وبدء نشر رسالته فى مصر والسنوات التى مكثها داعياً قبل الخروج.

ووفقاً لهذا الرأى فإن استخلاص التطابق الواضح بين الشخصية القرآنية وشخصية خعمواس التاريخية يؤدى إلى تفسير الصورة القرآنية، وتتجلى الحقيقة فى تصور وقائع هذا الموقف وتتكشف المقومات الذاتية التى دفعت الرجل المؤمن للإقدام على هذا الأسلوب من الحوار الجرىء المسترسل أمام فرعون دون تهديد أو تسفيه مثلما حدث للسحرة ، بل على العكس فإن حديثه وضع حدوداً لاندفاع فرعون والكافرين، وهو ما كان ليمكن أن يعقل أو يكون مع ما وضعه القرآن من صفات للفرعون فى مواضع أخرى: طاغية، مستبد، فاسد، مدع للألوهية، لكن فى حالة أن يكون طرفا الحوار رمسيس الثانى العجوز المستبد مع الابن المطيع الطيب المحبوب الأمير خعمواس - ولى العهد - واسع الخبرات متنوع الثقافات، يكون الأمر مقبولاً سواء من حيث الشكل: فى حضرة الملك، أو الموضوع: الثقافة العالية لحديث المؤمن.

واستناداً إلى وجهة نظرنا فى وحدة الشخصية القرآنية (مؤمن آل فرعون) والتاريخية «خع إم واست» يكون تصوير القرآن للسلوك المباشر للرجل المؤمن فى التعبير عن ذاته، وقوة شخصيته وجرأته الواضحة فى حضرة الملك الطاغية مع حرصه على إخفاء عقيدته التى طرأت فى التو واللحظة - مع السحرة - إثر إتيان موسى معجزة يوم الزينة، إنما يأتى انطلاقاً من العوامل الشخصية والصفات التى اجتمعت وكشفت عنها المصادر التاريخية لدى خعمواس بن رمسيس الثانى.

فقد كان هذا الأمير أحب أولاد رمسيس الثانى إليه، وأكثر من اعتمد عليهم فى إدارته لشئون الحكم، ووثق فى رجاحة عقله وحسن إدارته، وهذا يجعله الشخصية المناسبة لإدارة الحوار القرآنى دون رد فعل معاد.

وكان عالماً بالسحر، بل من كبار سحرة مصر، وهذا يرشحه بجدارة لأن يكون واحداً من السحرة الذين اعتمد عليهم فرعون لمنازلة موسى.

وكان مثقفاً دارساً شغوفاً بالتاريخ والآثار وتحقيق أسماء وسير الملوك القدماء وترميم آثارهم، بما يتفق وحديث القرآن عنه فى وصف علمه ودراسته وتحقيقه لتاريخ الأديان، فمن يملك هذه الصفات، وتجذبه تلك الاهتمامات نتوقع منه - بلا شك - أن يتجه بعد إيمانه لدراسة تاريخ الأنبياء السابقين وسيرتهم مع قومهم، وأن يعرف تاريخ يوسف فى مصر، وموقف المصريين معه فى حياته وبعد وفاته.

ويجدر أن نتذكر هنا أن «خع إم واست» هو ابن «إيزيس نفرت» الزوجة الملكية مجهولة الأصل التى ترشحها دراستنا لأن تكون واحدة من بنات إسرائيل من الضحايا اللائى انتُزعن من بيوت ملوك وعائلات عقيدة التوحيد فى عصر الاستعباد، وقدمنا مظاهر أن تكون قد تعرضت للاضطهاد والانتقام من رمسيس الثانى بسبب مواقفها الرافضة لأفعاله.

ونضيف أيضاً أن أسطورة منازلة «خع إم واست» للساحر النوبى الذى حضر ليتحدى سحرة مصر، وربط ذلك بحماية الفرعون قد ينبئ أننا أمام معلومة قديمة تراثية تناقلتها الحكايات الشعبية عبر الأجيال فى أقاليم ومعابد مصر، تشعبت وتحورت وصُنع لها بطل قومى واكتسبت الصيغة الأسطورية بمرور الأزمان وتضخمت أنباؤها وتخلدت على النحو الذى حملته المصادر، وكثير من الأساطير المصرية كانت لها دلالات قديمة على وجود صراعات وحروب، وأيضاً أعمال المشاهير والشجعان كانت تتضخم مع الزمن حتى تشبه الأساطير، وقد ذكر مانيتون السمنودى وديودور الصقلى قصصاً أسطورية لأشخاص تاريخية حقيقية، ويمكن أن نلاحظ أيضاً أن القصة السحرية الأخرى لـ «خع إم واست» قد ربطت بينه وبين مقبرة قديمة فى منف، ثم جعلت له دوراً فى إصلاح المقبرة، وقد كان ذلك فعلاً من مجالات اهتمامه، وأيضاً فإن وصف الساحر بأنه نوبى ربما يحمل البدايات الأولى لتطور الأسطورة إذا صحت

رواية التلمود - كتاب التفسير عند اليهود - بأن موسى كانت له علاقة ما بالنوبة؛ إذ تذكر أنه قبل سفره إلى مدين كان قائداً للجيوش المصرية، وقاد المعارك فى جنوب مصر، وأصبح حاكماً على منطقة هناك، وتزوج من الملكة «أدونيت» النوبية. وتذكر التوراة أيضاً أن موسى كان قد اتخذ زوجة كوشية (نوبية) وكانت معه فى رحلة الخروج.

وعموماً، فهذه قصص مجهولة المصدر ولا نثق فيها، ولا يمكن أن نعتمد عليها بمفردها؛ خصوصاً أن سياق التوراة فى روايتها غامض، وبدون أساس سابق فى حياة موسى (يراجع سفر العدد - الإصحاح الثانى عشر)، وإنما جذب الانتباه إليها ما قدمناه من أوصاف ودلائل على تحديد «خع إم واست»، ليكون مؤمن آل فرعون الذى تحدث عنه القرآن الكريم، فإذا وجدت أسطورة على منازلته لساحر نوبى حضر إلى مصر ليتحدى سحرتها، وفى ذات الوقت توجد معلومة تراثية غير مؤكدة على وجود علاقة ما لموسى بالنوبة خلال حياته فى مصر قبل الهروب إلى مدين، فلا يستبعد أن نكون أمام معلومة تشير إلى المصادر الأولى للأسطورة عندما واجه موسى سحرة مصر الذين كان بينهم الأمير «خع إم واست»، الذى كان محل إعجاب المصريين على مدار العصور، فتدخلت العوامل الوطنية وأخذت القصة رد فعل معاكس للحدث الحقيقى بعد خروج بنى إسرائيل، وصورت انتصار بطل قومى مصرى، وتشعبت وتحورت حتى أصبحت على هذه الصورة.

وأيضاً فإن عدم اهتمام «خعمواس» بإعداد بيت الأبدية طبقاً للعقائد المصرية وتصويره بالنقوش الدينية المقدسة فى جبانة الملوك أو النبلاء فى غرب الأقصر، رغم إمكاناته العالية وارتفاع شأنه إلى الدرجة التالية مباشرة بعد الملك ودفنه فى جبانة منف، وربما فى مقبرة نقل إليها بعد فترة من وفاته وكانت مخصصة للعجول المقدسة، قد يكشف عن تغيير عقيدته فى نهايات حياته، وعدم اقتناعه بجدوى تلك الطقوس والنصوص، فترك شأن دفنه دون إعداد لمن يتولون أمره، وهو أمر مستغرب أن يحدث لمن كان رئيساً لكهنة أحد أكبر معابد مصر.

وفى النهاية نذكر أن وفاة «خع إم واست» بعد بضع سنين من بداية دعوة موسى، وبعد أن أدى مهمته وقبل أن يشهد مأساة المواجهة فى رحلة الخروج كانت هى وقاية الله له من سيئات قومه الذين أصروا على الكفر، فقد توفاه الله فى وقت كان فيه الموت خيراً له وحماية له من فتنة ومكر قومه الكافرين.

وبعد، إذا انتهينا إلى توحيد شخصية مؤمن آل فرعون فى «خع إم واست»، ابن رمسيس الثانى، فإن هذا يجعلنا نضع تاريخ عودة موسى من مدين إلى مصر ومواجهة فرعون والسنوات الأولى لنشر دعوته وبداية معجزاته خلال سنوات ولاية «خع إم واست» لمنصب ولى العهد فى الأعوام من (٥٢ - ٥٥) من حكم الملك، وكان قد وضع الأساس الإستراتيجى فى التعامل مع موسى وقومه، والذى كفل لهم حماية حياتهم وتأمين عباداتهم حتى تاريخ الخروج، وربما أن الله هدى بسببه من يكون قد أمَّن لهم هذا بعد وفاته، فقد كان خعمواس أستاذاً لأجيال من الكتبة العلماء تأثروا بنبوغه وثقافته.

خاتمة
قضية الميراث وأرض الميعاد

فى خاتمة هذه الدراسة يقتضى الأمر لتغطية جوانب موضوع البحث، حسبما اشتملت عليه القصة الدينية، أن نقدم فى هذا المبحث الأخير إيضاحاً لقضية ميراث الأرض وأرض الميعاد، وقد ورد الحديث عنهما فى الرواية الدينية فى كل من التوراة والقرآن.

ومرة أخيرة أجد لزاماً أن أذكِّر القارئ بأننا يجب أن نبعد عن عقيدتنا تماماً جميع صور العنصرية الإسرائيلية التى فرضت علينا، وحصرتنا فيها قروناً طويلة رواية التوراة التى بدأ الكهنة إعادة جمعها وكتابتها فى بابل بعد سقوط مملكة يهوذا، تلك العنصرية المستندة إلى القومية الطائفية المتميزة لبنى إسرائيل واعتبارهم شعب الله المختار، التى أجهد كهنة يهوذا أنفسهم لوضع أساسها وتأصيلها ونسبتها زوراً إلى موسى والآباء الأوائل، وجعلت وعد الله بميراث الأرض ومنحهم أرض الميعاد، تنصرف إلى بنى إسرائيل وحدهم، وهى مستحقة لهم فقط باعتبارات هذا التميز الذى يستمد سنده من الانتماء إلى يعقوب - عليه السلام - ونعلم أنه قد ارتبطت بهذا القصر والتحديد الطائفى أشكال عنصرية أخرى سبق الحديث عنها فى فصول هذا الكتاب، وبهذا أصبحت التوراة بقولهم وليس قول الله تحوى - زيفاً وبهتاناً - عدة أشكال من العنصرية الطائفية لبنى إسرائيل:

- فالرب هو إله إسرائيل دون غيرهم «أسرلة الرب».

- ودين الرب وتعاليم السماء التى يحملها أنبياء إسرائيل تقتصر على شعبهم ولا يشاركهم فيها غيرهم «أسرلة الدين».

- والأرض الموعودة ميراث لبنى إسرائيل وهى لهم بهذه الصفة، لا يشاركهم فيها أى من شعوب الأرض، سواء التى استقرت قبلهم أو تأتى بعدهم بكل ما يترتب على ذلك من آثار أو أفعال تؤدى إلى تحقيق هذا الهدف «أسرلة الأرض».

وقد كان القصد من فرض هذه العنصرية الإسرائيلية - التى جاءت بعد موسى بنحو من ستة إلى سبعة قرون - الحفاظ على قوميتهم من الشتات الذى كان قد بدأ فعلاً بعد سقوط دولة إسرائيل على يد الآشوريين سنة (٧٢٢ق. م) وقيامهم بإجلاء سكانها عن مدنهم وتسكينهم فى الشمال الأقصى لبلاد النهرين، وإحلال عاصمتها السامرة بمواطنين جدد من بلدان أخرى، ودخل من بقى من سكان إسرائيل تحت طاعة ملوك يهوذا، إلى أن سقطت مملكة يهوذا هى الأخرى على يد الكلدانيين البابليين عام (٥٨٧ ق . م) فى عهد نبوخذ نصر الثانى، فقتل مختاريهم واستولى على خزائن بيت الرب وخزائن الملك، وخربت مملكتهم ودمرت أورشليم

تدميراً هائلاً، وهدموا أسوارها، وأحرقوا جميع قصورها بالنار، وأحرقوا بيت الله بما فيه من توراة موسى الأصلية والتابوت الذى يحفظها، وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا للملك وبنيه عبيداً إلى أن ملكت مملكة فارس (سفر أخبار الأيام الثانى: الإصحاح ٣٦ - ٢٠:١٧).

وكان من نتائج سقوط مملكة يهوذا وخضوعها لبابل أن فلسطين خلت تقريباً من شعب إسرائيل؛ ذلك أن من بقى منهم فيها من الضعفاء والشيوخ والمزارعين ورجال الجيش السابقين الهاربين فروا إلى مصر خوفاً من القتل والإبادة وأقاموا فيها جالية يهودية.

وبعد أن مات نبوخذ نصر انهارت الإمبراطورية البابلية وتفككت ولم تعش بعده طويلاً، وقضى عليها الملك قورش الفارسى الذى تزعم دولة الماديون (قبائل إيرانية من أصل سامى كانت تعيش فى الجبال الواقعة شرقى دجلة، وأسسوا مملكة واسعة الأطراف)، وفور أن آلت الزعامة إلى قورش راح يفتح البلاد بسرعة مذهلة، ودخل العاصمة بابل واستولى عليها فى نهاية عام (٥٣٩ ق . م).

وفى ظروف تاريخية غير واضحة بنسبة كافية - بيد أنه توجد مظاهر عديدة تؤكدها فى العهد القديم -نجح اليهود بدرجة كبيرة فى أن يصلوا إلى قلب الملك قورش وربما يكون قد آمن بعقيدة التوحيد، أو أن كهنة إسرائيل استطاعوا أن يقنعوه بأن الرب إلههم هو الذى منحه مملكته الواسعة فتقول التوراة: إنه «بفم إرميا نبه الرب روح قورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته وكذا بالكتابة قائلاً هكذا قال قورش ملك فارس: إن الرب إله السماء قد أعطانى جميع ممالك الأرض، وهو أوصانى أن أبنى له بيتاً فى أورشليم التى فى يهوذا»، وأطلق نداء لكل حكام المقاطعات التابعة للفرس ليسمحوا لأسرى إسرائيل بأن يصعدوا إلى أورشليم، وفتح باب التبرع لهم، وطلب ممن بقى منهم أن يتبرعوا لبيت الرب، وأعاد إليهم الأوانى المقدسة الثمينة التى أخرجها نبوخذ نصر من أورشليم، وحمل كل هذا رءوس آباء يهوذا وبنيامين والكهنة اللاويون مع كل من نبه الله روحه ليصعدوا معهم إلى أورشليم. (نهاية سفر أخبار الأيام الثانى الإصحاح: ٣٦، وسفر عزرا: الإصحاح الأول).

ومن الصعب أن نُرجع سبب هذا التحول الذى حدث لصالح بنى السبى الإسرائيليين فى بابل إلى أستير حسناء يهوذا التى عشقها الملك الفارسى وتزوجها، ووردت قصتها فى سفر أستير، وقد سبق الحديث عنها ضمن شخصية هامان. والذى رأيناه أن تلك الفتاة عاشت فى مرحلة الفتح الفارسى بعد تحسن أحوالهم، أما أن سياسة الدولة تغيرت فقط من أجل عيونها فهذا قول اقتضته الحبكة الدرامية التى دخلت على الأحداث الأصلية، وجعلت القصة أقرب إلى الأسطورة من الواقع.

وتذكر التوراة أن أعداداً كبيرة من بنى إسرائيل من سبطى يهوذا وبنيامين والكهنة اللاويين

عادوا إلى أورشليم، ولكن جالية كبيرة أخرى فضلت البقاء حيث كانوا؛ خصوصاً فى بابل وما حولها بعد أن أصبحت لهم ممتلكات وارتبطوا بمصالحهم وأعمالهم التجارية، وأيضاً فإن من عادوا يحملون الأمر الملكى الفارسى والوعد بالمساعدة فى بناء بيت الرب فى أورشليم فإنهم لم يجدوا ترحيباً فى وطنهم السابق، ورفضهم الأقوام الآخرون السابقون الذين استقروا مكانهم. ومن الغريب أن رواية التوراة فى سفر عزرا - بداية الإصحاح الرابع تقول: إنه لما سمع أعداء يهوذا وبنيامين أن بنى السبى يبنون هيكلاً للرب إله إسرائيل تقدموا إلى رءوس الآباء، وقالوا لهم نبنى معكم لأننا نظيركم نطلب إلهكم، وله قد ذبحنا من أيام أسر حدون - ملك آشور - الذى أصعدنا إلى هنا، فقال لهم هؤلاء الرؤساء ليس لكم ولنا أن نبنى بيتاً لإلهنا ولكننا وحدنا نبنى للرب إله إسرائيل كما أمرنا الملك قورش ملك فارس.

تلك إذاً كانت البداية فى دخول العنصرية إلى عقيدة بنى إسرائيل وتحولها من الإسلام - الدين الذى أنزله الله على جميع أنبيائه - إلى عقيدة جديدة أخذت اسم اليهودية أسسها كهنة مملكة يهوذا فى بابل، وكانت بدايتها على يد عزرا. وفى السفر الذى يحمل اسمه ظهر اسم اليهود لأول مرة، ليحمله من بقى من شعب إسرائيل، فبعد أن سُبى من بقى من القتل من شعب مملكة يهوذا إلى بابل عرفوا حينئذ ببنى يهوذا أو اليهوذيين، وعادوا من السبى بهذا الاسم، وعرفت اليهودية فى تلك الفترة وأخذت اسمها منهم ومن اسم دولتهم، ثم اتسعت وصارت تشمل فى العصور التالية جميع من بقى من بنى إسرائيل ومن دخل فى اليهودية من الأجناس، الأخرى.

إذاً نستنتج من إشارة التوراة أن كثيراً من شعوب المنطقة كانوا من المؤمنين بعقيدة التوحيد، وأنهم فى البداية لم يكونوا رافضين لعودة بنى السبى أو بناء هيكل الرب، بل إنهم تقدموا لرءوس الآباء، وسلموا بزعامتهم الدينية، وقالوا لهم: نبنى معكم لأننا مثلكم نؤمن بالله وإلهكم هو إلهنا ونحن نذبح له منذ أن صعد أجدادنا إلى هنا، ولكن تلك الزعامات رفضت هذا المبدأ ووصفوا هؤلاء السكان بأنهم أعداء لهم، وردوا عليهم بأن ليس لكم أن تبنوا لإلهنا ولكن نحن وحدنا نبنى للرب إله إسرائيل، تلك إذاً العنصرية البغيضة التى تقصر الدين فيهم والرب عليهم والأرض لهم وحدهم. وقد كان هؤلاء الكهنة العائدون من بابل بقيادة عزرا هم الذين أعادوا كتابة التوراة التى ضاعت، وبدأوا عملهم منذ أن كانوا فى بابل، واستطاعوا بسبب الحقد والكراهية وعوامل القهر والذل التى استقرت فى نفوسهم فى مرحلة السبى أو توارثت فى ثقافتهم من أيام مصر وسنوات التيه وحروب الاستقرار فى الأرض ثم الطرد منها شر طرد أن يحولوا السكان المستقرين إلى أعداء لهم، وبعد أن كانوا على استعداد لبناء الهيكل المقدس معهم، وجاءوا يمدون لهم أيديهم بالسلام والتعاون تغيروا ووقفوا ضدهم، وقاموا بمحاولات كثيرة - تذكرها التوراة - لوقف بناء الهيكل وأسوار مدينة أورشليم، واستعانوا بحكام سوريا

وفينيقيا وبقية الأقوام، فكتبوا لملك الفرس يحذرونه أشد التحذير بأن اليهود الذين صعدوا من عنده يشيِّدون أسواراً ضخمة ويبنون الهيكل بأحجار ضخمة على شكل الحصون والقلاع، وأنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لن يكون للملك عند ذلك نصيب عبر النهر ولن يؤدوا جزية ولا خراجاً، وأنهم سبق وأن عملوا عصياناً فى وسطها منذ الأيام القديمة، ولذلك أُخربت هذه المدينة، وقد آتت هذه المحاولات ثمارها، وأصدر الملك أمراً بتوقيف أولئك الرجال، فلا تبنى هذه المدينة حتى يصدر أمراً بذلك، بيد أن أمر السماح بالعودة ظل قائماً لمن يرغب، وقد أعادوا المحاولة فى عهد الملك داريوس وكان البلاط الملكى الفارسى يحوى عدداً كبيراً من اليهود الذين نصحوا الملك بالموافقة على بناء المعبد ووافق لهم على ذلك، وكانت الخطوة التالية هى بناء أسوار المدينة لتكون خاصة بهم ويمنعوا الآخرين من دخولها. وقد استطاع نحميا اليهودى، الذى كان ساقياً للملك الفارسى، أن يحصل على فرمان ملكى وقوة من الجيش وفرسان لبناء أسوار أورشليم وأبوابها، وبفضل هذه القوة والتأييد الفارسى تمكن من إكمال العمل رغم اعتراض أهل المنطقة، وتولى الكاهن عزرا القادم من بابل تنظيم العبادة اليهودية فى المدينة الجديدة، التى كانت تقوم على محور أساسى جديد يستند على أن شعب إسرائيل هم شعب الله المختار الذى يجب أن ينفصل عن باقى الشعوب ويتعالى عليها.

وتصف التوراة الكاهن عزرا بأنه «كاتب شريعة إله السماء إلى آخره» وهو كبير الكهنة عند اليهود، وترجع التوراة نسبه إلى نبى الله هارون، وقد سبق أثناء قيام مملكة يهوذا بعد سقوط دولة إسرائيل أن أحضر ملك يهوذا المتدين حزقيا بن أحاز الكهنة اللاويين للقيام بأعمال القداسة فى بيت الرب، وهذا يفسر وجود عزرا فى يهوذا التى كانت تضم سبطى يهوذا وبنيامين، وقد استجمع عزرا التوراة من أفواه الكهنة والمتدينين، وما كانوا يحفظونه من تعاليم العهد القديم، ومن المغنين والمنشدين الذين يحفظون ترانيم وأناشيد سليمان وداود، ثم أضافوا مجموعة شرائع وقوانين دينية ونسبوها إلى موسى، ولكنها لم تكن أبداً التوراة التى أُنزلت على موسى بأسفارها الخمسة، ولا مزامير داود وترانيم سليمان، فقد حُرِّفت وشوِّهت وأضافوا إليها تعاليم جديدة تصوروا بعقولهم أنها تحفظ كيانهم وقوميتهم وعقيدتهم، وخرجت تحمل أفكار تلك الجماعات وذاكرتهم البشرية التى أطلقت لخيالها العنان؛ خصوصاً من استكملوا بعد عزرا وأدخلوا فيها قصصاً وأساطير وحكايات زعموا أنها مأخوذة من خطب أنبيائهم وأقوالهم، وكلها تدعو إلى تكريس العنصرية وحقهم المنفرد فى أرض الميعاد.

ومن بعض المواضع فى سفرى عزرا ونحميا نستطيع أن نتبين بعضاً من الأفكار التى حكمت عقول هؤلاء الكهنة الذين جمعوا التوراة وأعادوا كتابتها، ونقف على البدايات الأولى لإرساء فكرة الشعب المختار، وتحميل عقيدتهم زوراً بالعنصرية العرقية والنظرة المتعالية على الشعوب الأخرى من أجل حل مشكلة الاختلاط والتمازج بهم، وقد تصوروا أنه يهدد قوميتهم

وعقيدتهم بالفناء فجاء استنكارهم للاختلاط بهم والزواج منهم والتحذير من العواقب الوخيمة لذلك الفعل، فنقرأ فى الإصحاح التاسع فى سفر عزرا «لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأراضى حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والمؤابيين والمصريين والآموريين؛ لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم، واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى، وكانت يد الرؤساء والولاة فى هذه الخيانة أولاً، فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابى وردائى ونتفت شعر رأسى وذقنى وجلست متحيراً».

وعلينا أن نلاحظ أن العمونيين والمؤابيين لم يستثنوا من الرجاسات، وهم من العبرانيين أحفاد لوط عليه السلام.

وتضيف التوراة على لسان عزرا، أنه لأجل تلك الذنوب دفعهم الله مع ملوكهم وكهنتهم ليد ملوك الأرض للسيف والسبى والنهب وخزى الوجوه، ويقول: «الآن فماذا نقول يا إلهنا بعد هذا لأننا قد تركنا وصاياك التى أوصيت بها عن يد عبيدك الأنبياء قائلاً إن الأرض التى تدخلون لتمتلكوها هى أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضى برجاساتهم التى ملأوها بها من جهة إلى جهة بنجاساتهم. والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد لكى تتشددوا وتأكلوا خير الأرض وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد» [عزرا ـ الإصحاح التاسع].

كان هذا جزءاً من صلاة عزرا واعترافه وهو باك أمام بيت الله بعد أن رجع إلى أورشليم من السبى، واجتمع إليه من إسرائيل جماعة كثيرة جداً وبكوا بكاء عظيماً، وقام أحدهم وقال لعزرا: إننا خنا إلهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض، واقترح أن يقطعوا عهداً مع إلههم بأن يُخرجوا كل النساء والذين ولدوا منهن، فقام عزرا واستحلف كل إسرائيل أن يعملوا حسب هذا الأمر فحلفوا، وأطلقوا نداء فى يهوذا وأورشليم إلى جميع بنى السبى لكى يجتمعوا فى أورشليم لمرضاة الرب والانفصال عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة، فأجابت كل الجماعة وقالوا بصوت عظيم كما كلمتنا كذلك نعمل، وفعل هكذا بنو السبى وانتهوا من كل الرجال الذين اتخذوا نساء غريبة، وكان بين الكهنة من اتخذوا نساء غريبة ومنهن نساء قد وضعن بنين. [سفر عزرا ـ الإصحاح العاشر].

وفى سفر نحميا تتردد نفس التحذيرات العنصرية من اتخاذ نساء أجنبيات، وتتهم سليمان بالخطأ؛ لأنه فعل ذلك قبلهم «أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك إسرائيل ولم يكن فى الأمم الكثيرة ملك مثله، وكان محبوباً إلى إلهه فجعله الله ملكاً على كل إسرائيل، هو أيضاً جعلته النساء الأجنبيات يخطئ فهل نسكت لكم أن تعملوا كل هذا الشر العظيم بالخيانة ضد إلهنا بمساكنة نساء أجنبيات» [نحميا ـ الإصحاح الثالث عشر ٢٦:٢٧].

كانت تلك جزءاً من الثقافة التى أعادت جمع التوراة وكتابتها ونسبتها زوراً وبهتاناً إلى

أنبياء إسرائيل، وبعد أن كانت دعوة موسى موجهة إلى كل الشعوب، وخاطب فرعون والمصريين إلى جانب بنى إسرائيل، ظهرت اليهودية على أيدى عزرا ونحميا وكهنة السبى وعادوا بها من بابل إلى فلسطين فى القرن السادس قبل الميلاد، وقد أصبحت ديانة عنصرية قومية سلالية تقصر دعوتها على أهل يهوذا ومن انضم إليهم من بقايا قبائل بنى إسرائيل الأخرى.

وحيث سبق أن ناقشنا ورفضنا أشكال العنصرية التى تقصر الدين على بنى إسرائيل وتجعل الرب إلهاً لإسرائيل دون شعوب الأرض، أيضاً فإن الحقيقة فى قضية الأرض المقدسة التى كتب الله لإسرائيل أنها تخضع لقانون إلهى سبق الإنسان على الأرض، فقد وضع الله سبحانه وتعالى القاعدة العامة التى تحكم هذه المنحة الإلهية، ونص عليها فى صحف الأنبياء السابقين، فيقول تعالى فى القرآن الكريم: «**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** (١٠٥)» [**الأنبياء**]، فيخبرنا بذلك الله تعالى أنه وضع فى الكتب السماوية المنزلة من بعد أن سجل فى اللوح المحفوظ أن الأرض تكون ميراثاً لعباد الله الصالحين، وهؤلاء هم الذين ينصرف إليهم وعد الله تعالى ويقصدهم بتلك الصفة، وليس بأى معنى عرقى أو أى صفة عنصرية أخرى، حتى وإن حمل الوعد الإلهى حقاً لطائفة بنى إسرائيل فإنه لا يجب أن ينعزل عن تلك القاعدة العامة التى يذكر الحق أنه سجلها فى اللوح وأنزلها إلى عباده، ووفقاً لهذا القانون الإلهى فإن تلك الطائفة ليست استثناء من القاعدة، وأيضاً لن يكون هذا الحق مقصوراً عليهم وإنما يشمل غيرهم ممن استوطنوا أو ينزلوا بأرض الله طالما كان فى الأرض متسع لهجرتهم دون اغتصاب أو سلب لحقوق الآخرين، والانتقال فى الأرض للتعمير ونشر الخير من الأمور التى حث الله تعالى عباده فى كل الرسالات عليها.

ومن ذلك نستخلص أن الوعد الإلهى يحمل شرطين:

- أنه مقيد بالصلاح فى الأرض.
- أنه ليس قصراً على طائفة أو سلباً لحقوق آخرين.

وليس أدل على تأكيد تلك القاعدة من اتفاق - التوراة والقرآن - على أن الله تعالى عاقب بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر عندما عصوا الله تعالى بأن فرض عليهم سنوات التيه، وحرم عليهم دخول أرض الميعاد أربعين سنة حتى يفنى ذلك الجيل الذى خالف الشرط الأول من شروط القاعدة الإلهية، ولم يشفع لهم أنه كان لا يزال يعيش بينهم نبيا الله موسى وهارون؛ لأنه القانون الإلهى الذى يعم على السلوك العام للمجتمع دون استثناء أو وساطة ولكن توبة وغفراناً، وعودة إلى الالتزام.

وتقول التوراة فى الإصحاح الرابع عشر فى سفر العدد: إن عقاب الله كان أكبر من ذلك وهو ضرب جميع الشعب بالوباء وإبادتهم جميعاً، وانتهاء الحق فى دخول الأرض، لكن موسى توسل لكى يعدل الرب عن عقابه، وقال له سيسمع المصريون الذين أصعدت بقوتك هذا

الشعب من وسطهم، وسيقولون لجميع شعوب الأرض الذين سمعوا بخبر المعجزة الإلهية، وسيعرف الجميع أن الرب خذلهم ولم يدخلهم الأرض التى حلف لهم، وقتلهم فى القفر، وطلب موسى غفر الذنب والإحسان إليهم «اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى هنا، فقال الرب قد صفحت حسب قولك، ولكن حى أنا فتملأ كل الأرض من مجد الرب إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم وجميع الذين أهانوننى لا يرونها» [سفر العدد ـ الإصحاح الرابع عشر ١٦:٢٣].

وتضيف التوراة:

«وكلم الرب موسى وهارون قائلاً: حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة علىّ ـ قد سمعت تذمر بنى إسرائيل الذى يتذمرونه علىَّ ـ قل لهم حى أنا يقول الرب لأفعلن بكم كما تكلمتم. فى هذا القفر تسقط جثثكم».

«لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكنكم فيها».

«فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر. وبنوكم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم فى القفر».

«تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادى. أنا الرب قد تكلمت لأفعلن بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة علىَّ. فى هذا القفر يفنون وفيه يموتون»

[سفر العدد: الإصحاح ١٤ـ ٢٦:٣٥].

كان هذا هو أقصى ما استطاع أن يحققه موسى لهم بعد شفاعته وطلب الصفح والمغفرة، وعندما أبلغ جميع بنى إسرائيل بما استقر عليه عقاب الرب بكى الشعب جداً، ثم بكروا فى الصباح وصعدوا إلى رأس الجبل واعترفوا بخطئهم وطلبوا أن يكفروا عن ذنبهم ويدخلوا أرض كنعان، فقال لهم موسى: «لماذا تتجاوزون قول الرب. فهذا لا ينجح. لا تصعدوا لأن الرب ليس فى وسطكم لئلا تنهزموا أمام أعدائكم، لأن العمالقة والكنعانيين هناك قدامكم تسقطون بالسيف، إنكم قد ارتددتم عن الرب فالرب لا يكون معكم» [العدد: الإصحاح ١٤ ـ ٤١:٤٣]. وتقول التوراة إن بعضاً منهم لم يسمعوا لقول موسى وتجرأوا وتجبروا وصعدوا لدخول كنعان ولم يذهب معهم موسى فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون فى ذلك الجبل وضربوهم وكسروهم وردوهم من حيث أتوا. [سفر العدد: الإصحاح ١٤ ـ ٤٤ : ٤٥].

يصبح واضحاً الآن ارتباط الوعد الإلهى بالقاعدة الإلهية المسجلة فى اللوح المحفوظ وهى الصلاح فى الأرض دون استثناء لطائفة أو مجاملة فى حدود الله.

ومن هذا المنطلق – إذ نناقش آيات الله التى وردت فى التوراة وفى القرآن بشأن قضية ميراث الأرض، وأرض الميعاد التى كتب الله لبنى إسرائيل فى فلسطين – يجب أن نكون

مدركين وواعين أنه بعد أن انقضت سنوات العقاب واستحقت لهم الأرض وسكنوها، فإن الله لم يكن أن يغير من الأمر شيئاً فى حالة الخروج عن القاعدة ومخالفة الشرط الإلهى، ومن يبادر ويجادل بالقول: وهل كل الشعوب المستقرة فى أراضيها تنفذ شرط الصلاح فى الأرض حتى نحاسب عليه بنى إسرائيل فقط ونحرمهم من حقهم الذى كتب الله لهم فى فلسطين إذا هم خالفوا دون غيرهم. فهذا القول مردود بأن بنى إسرائيل - بصفة خاصة - يربطون بين وعد الله لهم فى الكتاب المقدس وبين حق الإقامة فى فلسطين ويتصورون ذلك حقاً خالصاً استناداً إلى أنها أرض الميعاد التى كتب الله لهم، ومتى كان هذا الحق مشروطاً بقول الله تعالى، ومن ثم فإن الحق الإلهى يكون قد سقط ولم يعد له وجود منذ أن خرجوا عن شرع الله، وسوف نثبت من التوراة نفسها، ورغم تزويرهم لها، ومنحهم لأنفسهم الحقوق والميزات بصفة قومية عنصرية متجردة من أى اعتبار آخر، فإنهم لم يمكنهم أن يجردوها تماماً من شروط الحق الإلهى لاستحقاق هذا الوطن وأنهم وبأدلة من كتابهم يستحقون الشتات فى الأرض.

ولاكتمال الإيضاح يقتضى الأمر أن نذكر فى هذا المجال، أن رسالة الأنبياء جميعاً منذ بدء الخليقة واحدة فى أصولها وجوهرها ومقاصدها، وتستند إلى عقيدة الإسلام بمعناه فى كل الأديان الذى ينصرف إلى أن كلمة مسلم تعنى الذى أسلم وجهه لله، فالإسلام هو التسليم بالله الواحد، وهذا شرع الله الذى جاء به الأنبياء منذ عهد نوح إلى رسالة محمد صلى الله وسلم «**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** (٢٥)» [**الأنبياء**]، بكل ما يتطلبه ذلك من الإيمان بكتب الله المنزلة ورسله واليوم الآخر.

والأمثلة على ذلك كثيرة من القرآن الكريم:

● يقول الله تعالى إن نوحاً قال لقومه:

«**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٧٢)» [**يونس**].

● ويقول الله تعالى عن إبراهيم وأبنائه وأحفاده:

«**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٣١) **وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٣٢) **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (١٣٣)» [**البقرة**].

● ويوسف دعا ربه «**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** (١٠١)» [**يوسف**].

● وعن لوط يقول تعالى: «**فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** (٣٦)» [**الذاريات**].

● وموسى قال لقومه: «**يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** (٨٤)» [**يونس**].

● وفرعون عندما أدركه الغرق: «**قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)**» [يونس].

● وملكة سبأ بعد أن وصلتها دعوة سليمان: «**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)**» [النمل].

● وبعد أن استجابت قالت: «**وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)**» [النمل].

● وعيسى عليه السلام عندما قال: من أنصارى إلى الله: «**قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)**» [آل عمران].

● وتأتى آيات كثيرة فى القرآن الكريم تبين أن الإسلام هو دين النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وتصف أتباعه بأنهم «مسلمون»، ويقول الله تعالى: «**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)**» [آل عمران].

وعلى ضوء من هذه المعطيات الدينية نعرض قضية ميراث الأرض وأرض الميعاد كما وردت فى التوراة وفى القرآن، والنتائج المستخلصة منها.

قضية ميراث الأرض

فى التوراة:

تبدأ قضية ميراث الأرض فى التوراة منذ عهد إبراهيم عليه السلام بعد هجرته من العراق إلى أرض كنعان، فقد وعده الرب بأن يجعله ونسله أمة عظيمة ويعطيهم تلك الأرض [سفر التكوين ـ الإصحاح الثانى عشر] وبعد اعتزال لوط عنه قال الرب لإبرام: «ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» [التكوين ـ الإصحاح الثالث عشر].

«وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها».

«فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً. لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» [سفر التكوين ـ الإصحاح الخامس عشر].

وتقول التوراة: إن الرب ظهر لإبرام وقال له: «فهو ذا عهدى معك وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم. لأنى أجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً. وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك. وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً. وأكون إلههم» [التكوين ـ الإصحاح السابع عشر].

ثم ينتقل عهد الرب من نسل إبراهيم وينحصر فى نسل إسحاق فقط، ومن إسحاق ينتقل

إلى يعقوب، ويدعو له إسحاق «والله القدير يباركك ويجعلك مثمراً ويكثرك فتكون جمهوراً من الشعوب ويعطيك بركة إبراهيم ولنسلك معك. لترث أرض غربتك التى أعطاها الله لإبراهيم».

وجاء الرب ليعقوب فى حلمه، وقال له: «أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق. الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك». وبعد أن استيقظ دعا اسم ذلك المكان بيت إيل (تعنى بيت الله وتقع شمال القدس) [التكوين ـ الإصحاح الثامن والعشرون].

وقال الرب لبنى إسرائيل بعد الخروج من مصر:

«فتحفظون جميع فرائضى وجميع أحكامى وتعملونها لكى لا تقذفكم الأرض التى أنا آت بكم إليها لتسكنوا فيها. ولا تسلكون فى رسوم الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم. لأنهم قد فعلوا كل هذا فكرهتهم. وقلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيكم إياها لترثوها أرضاً تفيض لبناً وعسلاً. أنا الرب إلهكم الذى ميّزكم من الشعوب» [سفر اللاويين ـ الإصحاح العشرون ـ ٢٢:٢٤].

ومما تقدم نستطيع أن نتصور أنه إذا ما جردنا رواية التوراة من العنصرية الطائفية فإنه يمكن أن تستقيم الرواية، ويكون وعد الله لإبراهيم قد تحقق، ذلك أن إبراهيم كان رسولاً من الله يحمل تكليفاً ورسالة بدعوة قومه إلى الإسلام أى عبادة الله الواحد، وهاجر من العراق إلى فلسطين لأداء رسالته، وكانت زيارته لمصر واتخاذه زوجة منها وتوطينها فى مكة مع ابنها إسماعيل؛ فى حين استقرت زوجته الأولى سارة فى فلسطين مع ابنها إسحاق، كما اتخذ إبراهيم زوجتين أخريين، وكان له العديد من الأبناء تنقلوا فى مناطق الشرق القديم، ومن هذه الفروض يمكن أن نستخلص أن ميثاق الله الحقيقى لإبراهيم بميراث الأرض شمل الأراضى التى تنقل فى أرجائها من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات، فكان الله ـ تعالى ـ يبشره بمستقبل الإسلام فى تلك المنطقة من العالم، الذى تحقق فعلاً وواقعاً فى كل الأراضى محل رسالته، والتى رحل بينها إبراهيم ـ عليه السلام ـ : العراق والشام ومصر والجزيرة العربية وأصبحت بعده مهبط الرسالات، وموطن المسلمين، فكانت رسالة موسى ثم رسالة عيسى ـ عليهما السلام ـ إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد استندت جميعها فى جوهرها على عقيدة واحدة. وعلى ذلك فإن قول التوراة بأن الله وعد إبراهيم بميراث الأرض من النيل إلى الفرات ـ فى تقديرنا ـ له أصل ولكنه فى حقيقته ينصرف إلى المسلمين على مدار الأزمان التالية لدعوة إبراهيم، وقد وعده الله بأنها سوف تثمر وتعم أرجاء الشرق وتشمل جمهوراً من الأمم على مر العصور. وبعد أن أدخلت العنصرية جاء تزوير الكهنة لتوراة موسى ليحصر هذا الحق فى نسل إبراهيم ثم اتجه به إلى نسل إسحاق ثم نسل يعقوب ليستقر فى بنى إسرائيل.

ويؤكد هذا التفسير تناقض التوراة فى تدرج منح الحق، ذلك أنه على الرغم من أن التوراة جعلت حق ميراث الأرض لنسل إبراهيم فى إحدى المراحل من النيل إلى الفرات، فإنها لم تعط

أبداً أى حق لبنى إسرائيل فى أراض خارج نطاق كنعان، «وكلم الرب موسى قائلاً أوصى بنى إسرائيل وقل لهم إنكم داخلون إلى أرض كنعان. هذه هى الأرض التى تقع لكم نصيباً. أرض كنعان بتخومها» ويحدد النص حدود الأرض من بحر الملح (البحر الميت) شرقاً إلى البحر الكبير غرباً ومن برية صين جنوباً إلى مدخل حماة شمالاً ويضع تفصيل المواقع حول تلك التخوم، وعلى هذا أمر موسى بنى إسرائيل بأنهم عند الدخول تكون هذه هى الأرض التى يقتسمونها بين الأسباط بالقرعة. [سفر العدد ـ الإصحاح الرابع والثلاثون ١ : ١٣].

وأيضاً ـ كما سبق أن قدمنا فى مراحل حياة بنى إسرائيل فى مصر. فإن التوراة قد أقرّت بحدود أرض مدين وتنسب إلى مديان بن إبراهيم عليه السلام، وتقع فى المناطق الجنوبية لفلسطين، وتمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء، وفى رحلة الخروج أقرت التوراة بحق بنى عيسو بن إسحاق بن إبراهيم فى مملكة آدوم التى تقع جنوب بلاد شرق الأردن فى الطرف الجنوبى من البحر الميت. وحق المؤابيين وينسبون إلى مؤاب بن لوط فى مملكتهم التى تقع شرق البحر الميت، وحق العمونيين وينسبون إلى بن عمى بن لوط فى مملكتهم فى الشمال الشرقى من مؤاب (عمان عاصمة الأردن حالياً). وفى سفر التثنية ـ الإصحاح الثانى تقول التوراة صراحة: إن موسى قال لبنى إسرائيل إن الرب كلمه وحذر أن يعتدى بنو إسرائيل على تلك الأراضى أو يهجموا على إخوانهم الساكنين فيها لأنه أعطاهم إياها ميراثاً، ولن يعطى لبنى إسرائيل من أرضهم ولا وطأة قدم، وقد التزموا بهذا التحذير طوال رحلتهم فى سنوات التيه.

ميراث الأرض فى القرآن:

يقول الله تعالى فى قصة ميلاد موسى فى سورة القصص: «**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)**» .

وفى سورة الأعراف: «**قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)**» .

وعن خروج قوم موسى وهلاك فرعون وجنده يقول الله تعالى فى سورة الدخان: «**فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)**» .

وبعد هلاك فرعون يقول الله تعالى فى سورة الأعراف: «**فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**

بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١٣٦) وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون (١٣٧)».

ويقول تعالى فى سورة الشعراء: «**فأخرجناهم من جنات وعيون (٥٧) وكنوز ومقام كريم (٥٨) كذلك وأورثناها بني إسرائيل (٥٩)** » .

ويقول الله تعالى عن فرعون فى سورة الإسراء: «**فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا (١٠٣) وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا (١٠٤)**» .

إن القراءة الواعية الشاملة للآيات القرآنية التى تتحدث عن ميراث الأرض التى عرضناها تظهر بشكل واضح أن الله - تعالى - يقصد فى بعضها أرض مصر، وفى بعضها الآخر أرض فلسطين التى أورثت لبنى إسرائيل بعد الخروج.

ولقد أخطأ المفسرون فى فهم كلمة الأرض فى الآيات التى يظهر منها أن الحديث عن مصر، وذهبت بعض آراء السلف فى تفسيرها إلى عرض خرافات ما أنزل الله بها من سلطان، وأتصور أن السبب فى ذلك يرجع إلى تأثر فقه التفسير بالتراث الإسرائيلى الذى فرض العنصرية على رواية العهد القديم وحصر رسالة موسى وقضيته فى خلاص بنى إسرائيل من عذابهم والخروج بهم إلى أرض ميراثهم الموعودة لأنبيائهم، ولكن الحقيقة التى قدمها القرآن الكريم أن رسالة موسى كانت إلى جميع القوم الذين يعيشون على أرض مصر من المصريين والإسرائيليين والمهاجرين والأسرى المجلوبين، وهؤلاء جميعاً كانوا قوم موسى الذين يتحدث عنهم القرآن، وقد أوضحنا ذلك فى فصول هذا الكتاب، وأثبتنا فى دراستنا أن المستضعفين فى الأرض ـ الذين ذكر الله تعالى عنهم أنهم كانوا يعذبون من فرعون وقت ميلاد موسى ـ هم طائفة من المؤمنين عاشت فى مصر فى هذا الوقت، وشملت بينهم بنى إسرائيل، ولكن لم تكن قصراً عليهم، وسندنا رأينا بأنهم من المؤمنين، وبأن أغلبهم من المصريين وأن اضطهادهم من فرعون كان بسبب عقيدتهم استنتاجاً من قول الله تعالى: «**إن فرعون جعل أهلها شيعاً**»، ومن رغبته سبحانه فى أن يورثهم الأرض ويمكّن لهم فيها وهذه لم تحدث فى مصر إلا للمصريين، ولا يوجد أى شأن لبنى إسرائيل فى ميراث أو تمكين فى أرض مصر، بل إن القرآن والتوراة كانا واضحين فى أن موسى جاء يريد الخروج ببنى إسرائيل إلى فلسطين، وأما اشتمال بنى إسرائيل ضمن طائفة المستضعفين فيؤكده باقى آيات ميلاد موسى فى سورة القصص من خوف أم موسى عليه وآيات أخرى فى قصة موسى فى القرآن عن تعذيب بنى إسرائيل فى مصر، وقد ربطت دراستنا بين اضطهاد هذه الطائفة وبين انتقام الفرعون «حورمحب» من المؤمنين بعقيدة التوحيد أتباع إخناتون، وقدمنا أدلتنا على ذلك وعلى قيادة بنى إسرائيل

للتدبيرات والأعمال التى مهدت وأعلنت تلك الثورة الدينية فى مصر، ولذلك كان الانتقام منهم أشد قسوة، واستمر لفترة أطول بعد حورمحب.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن آيات القرآن الكريم تؤكد أن الشق الأول من رسالة موسى كانت دعوة فرعون والمصريين إلى الإيمان بالله، وقد دخل فعلاً فى تلك العقيدة أعداد من المصريين، وأوحى الله إلى موسى وهارون أن يتخذا لقومهما المؤمنين فى مصر بيوتاً ويجعلوها دوراً للعبادة، وقد جاهد هؤلاء المؤمنون مع موسى وبنى إسرائيل بالنفس والمال فخرجوا معهم لمؤازرتهم على فرعون وجنده فى رحلة الخروج وقدموا لهم المال والذهب والماشية قبل الرحيل، وإذا كان الكثير من المصريين لم يؤمنوا لموسى وهو فى مصر بسبب الخوف من فرعون، فإنه بعد هلاك فرعون وجنده بمعجزة إلهية كبرى عاد المؤمنون المصريون الذين خرجوا لمؤازرة نبيهم، وتحدثوا لجموع المصريين بقصة المعجزة، وكيف جاء لهم نصر الله والفتح المبين، وعندها دخل الناس فى دين الله أفواجاً، فقد جاء الحق وزهق الباطل وحسم اليقين مرحلة الشك، وأيقنوا أن موسى رسولا نصره ربه وليس ساحراً. إذاً لقد انتهى الخوف والشك، من قلوبهم وعم الإيمان فى القلوب وانتشرت عقيدة التوحيد فى شمال وشرق مصر حيث عاش موسى ونشر دعوته، وتوضح مصادر عهد مرنبتاح ملك مصر الذى حكم بعد الفرعون رمسيس الثانى - الذى تؤكد الأدلة أنه فرعون الخروج - حجم الدمار الهائل الذى أصاب المعابد الوثنية فى مدن شمال مصر واستيلاء الثوار على أراضى وأموال المعابد والكهنة وقصور وأموال النبلاء ورجال البلاط والجنود الذين هلكوا، كما تؤكد المصادر التاريخية أن عاصمة رمسيس الثانى «بى - رمسيس عانختو» (مدينة رمسيس الأكبرالظافر) التى صممها وشيدها لتكون حاضرة شامخة تنافس أمجاد منف وطيبة، فإنها قد دمرت وهجرت بعد عصره بأعوام قليلة، ونقلت أحجارها وأعيد استخدامها لبناء مواقع فى مدن أخرى.

وأيضاً فإن رمسيس الثانى - الذى حكم ٦٦ عاماً وأنجب ذرية هائلة من البنين والبنات - يؤكد العالم الفرنسى كريستيان ليبلان فى كتابه عن زوجات وأبناء رمسيس الثانى أن العمل التجميعى الذى قام به وأحدث أعمال التنقيب ودراسة الوثائق أتاح إثبات أن هذا الملك رزق بمائة وثمانين ولداً شرعياً من الأمراء والأميرات على أقل تقدير، ورغم هذه الذرية الهائلة فإنه بعد وفاته حكم ابنه مرنبتاح عشر سنوات، وبعده مباشرة واجهت مصر أزمة غير متوقعة حول من يتولى العرش، وسيطر على الملوك السطحيين التافهين الذين حكموا فى تلك الفترة رجل سورى كان يعمل حامل أختام فى البلاط الملكى، وبعد أقل من جيل على وفاة رمسيس الثانى انقطعت ذريته وتوقف الخط الملكى الحاكم وآل الحكم إلى أسرة جديدة.

ويضاف إلى ما تقدم أنه قبل أن تنقضى أربعون سنة على وفاة رمسيس الثانى كانت

السيادة المصرية على فلسطين قد انتهت، وكان آخر عهد لمصر هناك حرب رمسيس الثالث ضد شعوب البحر فى العام الثامن من حكمه (١١٧٨ ق . م) أى بعد وفاة رمسيس الثانى بـ ٣٥ سنة، وبعد هذا التاريخ دخل البلاط الملكى فى مشاكل داخلية، وانتهت حروب مصر الخارجية، وأصبحت ساحة فلسطين مهيأة لدخول بنى إسرائيل فور انتهاء سنوات التيه.

من جميع هذه النتائج السابقة . التى قدمتها المصادر التاريخية . نستخلص أن ميراث الأرض الذى يقصده الله تعالى للطائفة المؤمنة المستضعفة اتجه إلى تمكين المصريين منهم فى أرض مصر وبنى إسرائيل فى أرض فلسطين، وعلى ذلك اتجهت إرادته التى يذكرها - تعالى - فى الآيات الأولى من سورة القصص التى تحكى قصة ميلاد موسى «**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** (٥) **وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** (٦)»، وتحققت بعد هلاك فرعون، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الأعراف: «**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** (١٣٧)»، ذلك أن الواضح أن مشارق الأرض ومغاربها تنصرف إلى جهتين متباعدتين، ومما تقدم يصبح ممكناً أن تنطبق مشارق الأرض على فلسطين، ومغاربها على مصر، وليس معنى وصف الله . تعالى . للأرض بقوله «التى باركنا فيها» أن نخرج منها مصر ويكون المقصود بالتعبير كاملاً «فلسطين» فقط، لأن ذلك الوصف . بحسب التعبير القرآنى . ينطبق فى هذه الحالة ليس لأن الأرض مقدسة (لوجود بيت المقدس)، وإنما لأن الأرض ميراث من الله لعباده الصالحين المؤمنين الذين كانوا يستضعفون، فجعله الله ميراثاً مباركاً لهم فى مصر وفى فلسطين، والدليل على هذا المقصود أنه فى ذات الآية استمر حديث الله عن ذات الموقعين من الأرض «**وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا**» فاستحقوا فلسطين التى فى مشارق الأرض، ثم «**ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**» فى الأجزاء من أرض مصر فى مغارب الأرض. وقد ثبت تاريخياً تدمير مدينة «بى رعمسيس» العاصمة الشامخة التى شيدها رمسيس الثانى، ودارت على أرضها أحداث الصراع بين موسى وفرعون، ونقلت أحجارها واستخدمت فى مواقع أخرى، وهجرت وأصبحت بعد عصره بسنوات قليلة أطلالاً منتشرة فى مساحة واسعة، ولم تصمد مثل مدن مصرية كثيرة أخرى، كما تؤكد مصادر عهد مرنبتاح خليفة رمسيس الثانى أن الثوار فى المناطق الشمالية والشرقية دمروا وخربوا المعابد واستولوا على ممتلكاتها.

ولتأكيد هذا الرأى فى ميراث فلسطين لبنى إسرائيل، ولأنها كانت مستعمرة مصرية منذ قرون سابقة على الخروج، ولم يخرج المصريون منها إلا بعد وفاة رمسيس الثانى وقبيل نهاية

مرحلة التيه، فقد جاء قول الله تعالى فى سورة الشعراء «**فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** (٥٧) **وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ** (٥٨) **كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** (٥٩)»، ولأن بنى إسرائيل لم يرثوا أى أرض فى مصر، فلن يكون المقصود بتعبير «فأخرجناهم» سوى خروج المصريين من فلسطين الذى حققه الله تعالى بعد هلاك فرعون لصالح ميراث بنى إسرائيل الذى جاء موعده، ولأن هذه الأحداث التاريخية لم تكن معلومة لمفسرى القرآن الكريم فى كتب التراث فقد اختلط عليهم الأمر واقترحوا تفسيرات خاطئة.

والآيات فى سورة الأعراف عن استخلاف المؤمنين فى الأرض، وفى سورة الدخان عن ترك الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والنعم، وذهاب الله بميراثها لقوم آخرين يمكن أن تنطبق سواء على المؤمنين فى مصر أم الذين ذهبوا إلى فلسطين.

وأما فى سورة الإسراء فإن قول الله تعالى عن فرعون «**فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا** (١٠٣)»، فإن المقصود أرض مصر التى كان يعيش عليها بنو إسرائيل، وجاءت الآية التالية لها «**وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا** (١٠٤)»، وبدون أى شك فإن الأرض المقصودة هنا هى أرض فلسطين التى سكنها بنو إسرائيل بعد الخروج من مصر، ومن المثير للانتباه والذى يدل على إعجاز القرآن العظيم استخدام الله تعالى لفظ «**لفيفاً**» فى هذه الآية وتعنى «جميعاً مختلطين» أى ناس من أنواع شتى ومن كل مكان، وهذا يدل بوضوح تام على قصد الله ـ تعالى ـ فى ميراث فلسطين لبنى إسرائيل، وهو أن هذه الأرض ليست لهم وحدهم، وأن يسكنوها مختلطين ومشتركين مع سكانها المستقرين، وهم الآخرون من أجناس شتى، وعلى هذا الأساس صدر وعد الله، ولا يمكن لأى عاقل أن يقبل فكرة أن الوعد الإلهى يعطيهم حق إبادة الأجناس المستقرة أو المهاجرة وإخلاء الأرض لصالحهم فقط، وهذا فعلاً ما رصد من واقع الحال الذى ثبت على مر العصور سواء من توراتهم التى كتبوها بأيديهم أم من مصادر التاريخ، والتى جاءت فى جميعها مؤكدة أن خرافة نقاء العنصر الإسرائيلى الذى ينتهى إلى يعقوب واستمراريته وانفرادهم بأرض الميعاد أمراً لم يتحقق لهم أبداً، وهم أنفسهم لم يتنبهوا إلى البحث عنه وتأصيله إلا فى عهد عزرا بعد أن قصف بهم الشتات قصفاً، وبعد أن مر أكثر من ألف سنة على وفاة يعقوب وكانوا قد مروا بأحداث جسام كثيرة فى مراحل حياتهم، وفرضت عليهم السنون حروباً وغزوات وانفصالاً وسبياً وهجرات وهروباً وارتداداً عن العقيدة واختلاطاً بالشعوب، كما دخل فى عقيدتهم شعوب أخرى. حسبما أوضحنا فى فصول هذا الكتاب. وسوف نحاول أن نجمع بعضاً من تسلسل هذه الأحداث فى شرح أرض الميعاد وتؤدى جميعها إلى تفسير قول الله ـ تعالى ـ بأن يسكن بنو إسرائيل على هذا الوضع حتى يحين وعد الآخرة ويأتوا لفيفاً.

أرض الميعاد

يتفق القرآن الكريم مع العهد القديم فى أن الله ـ تعالى ـ كتب لبنى إسرائيل أن يسكنوا فى الأرض المقدسة، وهى تلك التى دخلوها بعد أربعين عاماً من الخروج من مصر، وعلى ذلك فإن أرض الميعاد فى التوراة وفى القرآن هى فلسطين.

وبالإضافة إلى الآيات السابقة لميراث الأرض بوجه عام تأتى الأدلة الدينية من القرآن والتوراة فى تأكيد أرض الميعاد ووضعت شروط وحقيقة الوعد الإلهى فى استحقاق الأرض.

فى القرآن:

يقول الله تعالى:

«يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)» [المائدة].

«وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)» [البقرة].

«وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)» [الأعراف].

وبعد الإبراء من سنوات التيه ودخول فلسطين نعلم من آيات القرآن الكريم أنهم بعد الاستقرار بعث الله لهم طالوت ملكاً، ثم قامت مملكة داود وسليمان.

وقد سبق أن أوضحنا من القرآن الكريم شروط الله ـ تعالى ـ لاستحقاق الأرض التى يمنحها لعباده ميراثاً، وهى الصلاح فى الأرض وعدم سلب حقوق السكان المستقرين المسالمين، وبغض الطرف الآن عن انتهاك بنى إسرائيل لشروط الله منذ المرحلة الأولى لدخولهم أرض الميعاد واستمرار ذلك حتى الشتات فى الأرض فيما عدا فترات قليلة من حياتهم كان أبرزها عصر المملكة الموحدة، وسنوات من فترة حكم بعض ملوك الدولتين ـ حسب قولهم بأنفسهم فى توراتهم التى كتبوها ـ فإن أمر حق بنى إسرائيل فى أرض فلسطين باعتبارها ميراثاً من الله اعتبر منتهياً لهم بإنكارهم شريعة عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ ثم محمد عليه الصلاة والسلام، أو بالأحرى فإن ميراث الله فى الأرض المقدسة انتقل لمن يتبعون شرع الله.

يقول الله تعالى:

«وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ

وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾» [**الصف**]، إذاً لم يعد هناك مجال بعد غير مجال الله وشريعته، فإذا كان الحق فى أرض الميعاد فى التوراة وفى القرآن يستند إلى وعد الله، فإنه يجب أن يستمد استمراره الزمنى من شريعة الله، إنه القانون الإلهى المسجل فى اللوح المحفوظ أن الأرض لعباد الله الصالحين.

فى التوراة

- «وقال يعقوب ليوسف الله القادر على كل شىء ظهر لى فى لوز فى أرض كنعان وباركنى. وقال لى ها أنا أجعلك مثمراً وأكثرك وأجعلك جمهوراً من الأمم وأعطى نسلك هذه الأرض من بعدك ملكاً أبدياً» [سفر التكوين ـ الإصحاح ٤٨ ـ ٣ و ٤].

- «وقال يوسف لإخوته أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحاق ويعقوب» [التكوين ـ الإصحاح ٥٠ ـ ٢٤].

- وقال الرب لموسى: «إنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. إنى علمت أوجاعهم فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة. إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والآموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين» [سفر الخروج ـ الإصحاح الثالث ـ ٧ و ٨].

- وكلم الله موسى: «قل لبنى إسرائيل أنا الرب وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة. وأتخذكم لى شعباً وأكون لكم إلهاً فتعلمون أنى أنا الرب إلهكم الذى يخرجكم من تحت أثقال المصريين. وأدخلكم إلى الأرض التى رفعت يدى أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب. وأعطيكم إياها ميراثاً» [الخروج ـ الإصحاح السادس ـ ٦ : ٨].

- «ثم كلم الرب موسى قائلاً أرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا معطيها لبنى إسرائيل».

«فصعدوا وتجسسوا الأرض من برية صين إلى رحوب فى مدخل حماة» [سفر العدد ـ الإصحاح ١٣ ـ ١ و ٢١].

- وفى الإصحاح الرابع والثلاثون فى سفر العدد يضع الرب لموسى حدود أرض كنعان.

- وفى سفر يشوع يتحقق وعد الله ويدخل بنو إسرائيل فلسطين بقيادة يشوع بن نون، ويقسم يشوع الأراضى بين الأسباط.

- وابتداء من سفر يشوع ثم فى الأسفار التالية يستمر الصراع والحروب بين الأسباط وبين السكان المقيمين منذ الدخول مع يشوع وفى عصر القضاة، ثم تتحقق وحدة الأسباط وفى

عهد داود وسليمان تنشأ مملكة موحدة مستقرة على أرض فلسطين، تنقسم بعد وفاة سليمان إلى مملكتين إسرائيل ويهوذا ثم يحدث السبى والشتات فى الأرض.

وعن حقيقة أرض الميعاد لبنى إسرائيل فى فلسطين نستخلص من أسفار التوراة الأدلة على إثبات أمرين:

الأول: أن هذا الحق - مثلما قال الله تعالى فى القرآن الكريم - مشروط بالصلاح فى الأرض، وقد انتفى فى حقهم واستحقوا الشتات جزاءً على أفعالهم.

الثانى: خرافة استمرار الكيان القومى لبنى إسرائيل، فقد دخل فيهم سواء بالاستقرار بينهم أم الزواج منهم أم الإيمان بعقيدتهم أقوام آخرون، وقضى السبى والشتات على عشرة أسباط منهم ولم يتتبع العهد القديم أخبار معظمهم، وتفرقوا بين شعوب الشرق إلى الآن، والذين أُسروا من سبطى يهوذا وبنيامين إلى بابل أقل من الذين تشتتوا فى الشام وهاجروا إلى مصر، والذين عادوا من بنى السبى أقل كثيراً من الذين بقوا فى بابل والمدن الكبرى ويسرى عليهم ما حصل لإخوانهم السابقين فى الشتات.

ونستقصى الأدلة على ذلك من التوراة:

أولاً: مخالفة شرط الصلاح فى الأرض، والشتات بين الشعوب

- فى سفر التثنية تقول وصايا موسى: اسمع يا إسرائيل، أنت اليوم عابر الأردن لكى تدخل وتمتلك شعوباً أكبر وأعظم منك ومدناً عظيمة ومحصنة، قوماً عظاماً وطوالاً فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك، ولا تقل فى قلبك حين ينفيهم الرب إلهك من أمامك إنه: لأجل برِّى أدخلنى الرب لأمتلك هذه الأرض؛ لأنه لأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الرب من أمامك ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم، بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب من أمامك ولكى يفى بالكلام الذى أقسم عليه لآبائك.

ثم يذكرهم موسى بسخط الرب عليهم فى البرية بسبب عبادة العجل المسبوك، وعصيانهم لقول الرب بالصعود إلى الأرض، وأنه لولا صلاته للرب لهلك الشعب وتبدد الميراث. [التثنية - الإصحاح التاسع].

ويقول موسى: فالآن يا إسرائيل ماذا يطلب منك الرب إلهك إلا أن تتقى الرب إلهك لتسلك فى كل طرقه وتحبه وتعبد الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك، وتحفظ وصايا الرب وفرائضه التى أنا أوصيك بها اليوم لخيرك.

ويقول: الإله العظيم الجبار الذى لا يأخذ بالوجوه ولا يقبل رشوة، الصانع حق اليتيم والأرملة والمحب الغريب ليعطيه طعاماً ولباساً، فأحبوا الغريب لأنكم كنتم غرباء فى أرض

مصر. الرب إلهك تتقى. إياه تعبد وبه تلتصق وباسمه تحلف. [التثنية - الإصحاح العاشر].

وحذر موسى كثيراً من عبادة آلهة أخرى مثل القوم الذين هم ذاهبون إليهم ليسكنوا أرضهم أو يفعلوا مثل رجس أولئك الأمم؛ لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب، وبسبب هذه الأرجاس يطردهم الرب.

وأوصاهم أنهم حين يقربوا مدينة لكى يحاربوها يستدعوها إلى الصلح أولاً، ولكن الأمر الشائن الذى نستبعده عن موسى أنه يدعوهم بعد ذلك إلى تسخير الشعب واستعباده، وإذا حاربوهم وانتصروا عليهم يضربون جميع الذكور بحد السيف ويأخذون النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة غنيمة.

وقال لهم موسى: لا تكره آدومياً لأنه أخوك ولا تكره مصرياً لأنك كنت نزيلاً فى أرضه.

وإذا خرجت فى جيش على أعدائك فاحترز من كل شىء ردىء.

وحذرهم موسى أنهم إن لم يسمعوا لصوت الرب ويعملوا بجميع وصاياه وفرائضه التى أوصاهم بها تأتى عليهم اللعنات، ويرسل الرب عليهم اللعن والاضطرابات والرجز فى كل ما تمتد إليه أياديهم لتعمله، حتى يهلكوا أو يفنوا سريعاً، ويلصق بهم الرب الوباء ويبيدهم عن الأرض الداخلين إليها.

وقال لهم: إذا لم تسمع لصوت الرب إلهك. فإنه كما فرح الرب لكم ليحسن إليكم ويكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم فستُأصلوا من الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها. ويبددك الرب فى جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها، وتعبد هناك آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من خشب وحجر، وفى تلك الأمم لا تطمئن ولا يكون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلباً مرتجفاً وكلال العينين وذبول النفس، وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك. وفى الصباح تقول يا ليته المساء، وفى المساء تقول ياليته الصباح من ارتعاب قلبك الذى ترتعب ومن منظر عينيك الذى تنظر. ويردك الرب إلى مصر فى سفن فى الطريق الذى قلت لك لا تعد تراها فتباعون هناك لأعدائك عبيداً وإماء وليس من يشترى. [التثنية - الإصحاح ٢٨].

كانت تلك وصايا موسى التى كتبها فى التوراة وسلمها للكهنة بنى لاوى حاملى تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم أن يقرأوا هذه التوراة أمام كل إسرائيل وأن يجمعوا لذلك الشعب الرجال والنساء والأطفال «والغريب الذى فى أبوابك» لكى يسمعوا ويتعلموا أن يتقوا الرب ويحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة [التثنية - الإصحاح ٢٩].

ويسترعى الانتباه هنا أن وصايا موسى تقضى بسريان أحكامها على الغرباء، وقد جاء ذلك مناقضاً للمبادىء العنصرية التى حكمت صياغة الكهنة للتوراة، ويبدو أنهم غفلوا عن رفعها أو غاب تفسيرها عن إدراكهم، وعموماً فقد تكرر مثل ذلك فى مواضع ليست قليلة.

وفى سفر يشوع يتجدد التحذير من مخالفة وصايا الرب حتى لا يبيدهم عن الأرض الصالحة التى أعطاهم «حينا تتعدون عهد الرب إلهكم الذى أمركم وتسيرون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها يحمى غضب الرب عليكم فتبيدون سريعاً عن الأرض الصالحة التى أعطاكم» [يشوع - الإصحاح: ٢٣ - ١٦].

ولم يتبع بنو إسرائيل تلك الوصايا، وفى نهاية المطاف سقطت المملكتين إسرائيل ويهوذا وأسر الغزاة سكانها وطردوهم من الأرض وشتتوهم فى أرجاء الشرق القديم.

- وعن سقوط إسرائيل التى كانت تضم عشرة أسباط من بنى إسرائيل يقول العهد القديم:

«وكان أن بنى إسرائيل أخطأوا إلى الرب إلههم الذى أصعدهم من أرض مصر من تحت يد فرعون ملك مصر واتقوا آلهة أخرى وسلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل وملوك إسرائيل الذين أقاموهم وعمل بنو إسرائيل سراً ضد الرب إلههم أموراً ليست بمستقيمة ... مثل الأمم الذين ساقهم الرب من أمامهم وعملوا أموراً قبيحة لإغاظة الرب وعبدوا الأصنام التى قال الرب عنها لا تعملوا هذا الأمر».

«وتركوا جميع وصايا الرب إلههم وعملوا لأنفسهم مسبوكات وعبدوا البعل .. وباعوا أنفسهم لعمل الشر فى عينى الرب لإغاظته .. فغضب الرب جداً على إسرائيل ونحاهم من أمامه ولم يبق إلا سبط يهوذا وحده. ويهوذا أيضاً لم يحفظوا وصايا الرب إلههم بل سلكوا فى فرائض إسرائيل التى عملوها، فرذل الرب كل نسل إسرائيل وأذلهم ودفعهم ليد ناهبين حتى طرحهم من أمامه».

«نحّى الرب إسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء فسبى إسرائيل من أرضه إلى آشور إلى هذا اليوم»، [سفر الملوك الثانى - الإصحاح السابع عشر من: ٧ : ٢٣].

- وعن سقوط مملكة يهوذا يقول العهد القديم:

«جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذى قدسه فى أورشليم. فأرسل الرب إله آبائهم إليهم عن يد رسله مبكراً ومرسلاً لأنه شفق على شعبه وعلى مسكنه. فكانوا يهزأون برسل الله ورذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء. فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم. ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده. وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعاً إلى بابل. وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة. وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيداً» [سفر أخبار الأيام الثانى - الإصحاح ٣٦ ، ١٤: ٢٠].

ومما تقدم يثبت أن الحق الدينى لبنى إسرائيل فى ميراث أرض الميعاد لا يستند إلى

أساس عنصرى قومى مجرد من أى اعتبارات أخرى، ولكنه مشروط بالقاعدة الإلهية التى حملتها لهم وصايا الرب وتعاليم موسى، وهى عبادة الله الواحد والصلاح فى الأرض، وقد أقروا أن استحقاقهم للشتات فى الأرض كان جزاءً لمخالفتهم تلك القاعدة.

ثانياً: الأدلة من التوراة على خرافة استمرار القومية الإسرائيلية

نتتبع ذلك بقدر الإمكان على النحو التالى:

١ـ تقول التوراة: إن جميع النفوس من بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون نفساً، وأنهم خرجوا مع موسى مئات الألوف. وهذا لن يحدث إلا فى حالة أن يكون قد حدث اختلاط وتزاوج بينهم وبين المصريين، وانضمام فئات من أقاربهم العابيرو الذين دخلوا مصر كأسرى حرب إليهم، ويوسف نفسه تزوج من امرأة مصرية هى بنت كاهن أون، ولم تستنكر التوراة تصرفه، وعلى هذا فإن تكرار هذا النهج من بنيه وإخوته وأجيالهم التالية يكون سلوكاً طبيعياً ومتوقعاً ولا يناقض شريعتهم، بل إن الغريب والمناقض هى مبادئ عزرا ونحميا التى دخلت على التوراة بعد موسى بقرون عديدة.

٢ـ موسى نفسه تزوج امرأة من مدين وأنجب منها ولدين. ويوجد احتمال كبير أن يكون قد اتخذ أيضاً زوجة كوشية من جنوب مصر.

٣ـ «استحى يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل مالها، وسكنت فى وسط إسرائيل إلى هذا اليوم؛ لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكى يتجسسا أريحا» [سفر يشوع ـ الإصحاح السادس ـ ٢٥].

٤ـ تذكر التوراة فى سفر يشوع وسفر القضاة أن الأسباط بعد تقسيم أراضى فلسطين بينهم أقاموا فى وسط سكانها الذين كان يعيشون عليها، وفى عصر القضاة تزوجوا منهم «فسكن بنو إسرائيل فى وسط الكنعانيين والحيثيين والآموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم» [سفر القضاة ـ الإصحاح الثالث، ٥ ، ٦].

٥ـ وجدَّة داود كانت امرأة مؤابية اسمها راعوث.

٦ـ وتزوج داود من «بشثبع بنت إليعام» التى كانت زوجة أوريا الحيثى، وأنجب منها نبى الله سليمان.

٧ـ تذكر التوراة أن سليمان تزوج من بنت فرعون مصر، وأنه أحب نساء غريبة كثيرة موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات، وكانت له سبعمائة من النساء والسيدات وثلاثمائة من السرارى [الملوك الأول، الإصحاح ١١ ـ ١:٣].

وإذا كان هذا العدد يحمل مبالغة غير متصورة، فإن الذى نراه صحيحاً أن سليمان قد

ارتبط بعلاقات المصاهرة مع جيرانه من شعوب الأمم المعاصرة لنشر روح التسامح والمحبة والتقارب والامتزاج مع هؤلاء الشعوب عن طريق هذا الارتباط، والطبيعى أن هذا النهج لا يخالف الشريعة وإلا ما أقدم عليه سليمان. ولكن الكهنة كتبة التوراة لم يغفروا لسليمان زواجه من الأجنبيات، رغم إقرارهم أن المملكة فى عهده وصلت إلى ذروة فائقة من المجد والأبهة وبلغت مستوى هائلاً من الترف فى المعيشة وأنهم أصبحوا كثيرين كالرمل الذى على البحر [الملوك الأول، الإصحاح الرابع - ٢٠].

٨. رحبعام بن سليمان مؤسس مملكة يهوذا كانت أمه عربية عمونية اسمها «نعمة».

٩. فى عصر المملكتين شاع الزواج من الأجانب والممالك المجاورة وعبادة الأوثان.

وقد تزوج أخاب بن عمرى - ملك إسرائيل - من إيزابيل ابنة ملك صور الفينيقية وكانت ذات شخصية قوية ودفعته إلى عبادة الأوثان، وعقد صلحاً ومصاهرة مع دولة يهوذا وزوج ابنته «عثليا» من يهورام ولى عهد يهوذا، وبعد أن حكم أثبتت عثليا أنها مثل أمها إيزابيل ذات تأثير قوى، فأدخل الملك عبادة «البعل» الفينيقى فى يهوذا، وجعل منه ديانة رسمية. وبعد وفاته حكم ابنه أخزيا وقد قتله رجال من البيت الحاكم فانتقمت له أمه عثليا ذات الأصل الفينيقى وأبادت جميع النسل الملكى من بيت يهوذا وأعلنت نفسها ملكة على يهوذا، وحكمت ست سنوات وعبدت البعل وجعلت منه ديانة رسمية فى يهوذا، وحكم بعدها يهوآش بن أخزيا، وارتد عن طريق الصواب، وقتل روح الله زكريا؛ لأنه طالبه بألا يتعدى وصايا الرب.

١٠. سقطت مملكة إسرائيل على يد الآشوريين سنة (٧٢٢ ق.م)، وكانت تضم عشرة أسباط كاملة من بنى إسرائيل، وكانت تلك نهاية شعب هذه المملكة إلى الأبد، فقد سبيت إسرائيل من أرضها إلى آشور، وأزيلت من فلسطين، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك، وتشتت أقوام هؤلاء الأسباط وتفرقوا بين شعوب الشرق القديم، وبحسب تعبير العهد القديم «نحى الرب إسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء، فسبى إسرائيل من أرضه إلى آشور إلى هذا اليوم» [الملوك الثانى: الإصحاح ١٧ - ٢٢].

١١. سقطت مملكة يهوذا على يد البابليين وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها، وسبى الذين بقوا من القتل إلى بابل، وهكذا انتهت مملكة يهوذا وكانت تضم سبطى يهوذا وبنيامين وبعضاً من الكهنة اللاويين، وأدمجت فى التنظيم الإدارى للدولة البابلية، وقد أبقى الملك البابلى على السكان المزارعين فى أعمالهم ومعهم أسرهم وعدداً آخر من السكان الفقراء، وعين وكيلاً عليهم من أهل يهوذا فى مدينة المصفاة وليس فى أورشليم، ولكن رجال الجيش الهاربين ومعهم شخص من النسل الملكى السابق جاءوا للحاكم البابلى وقتلوه مع كل اليهود والكلدانيين ورجال الحرب الذين كانوا معه، وتقول

التوراة: إنه بعد هذا الحادث «قام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيش وجاءوا إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين» [الملوك الثانى: الإصحاح ٢٥ . وأيضاً إرميا الإصحاحين: ٤٠ ، ٤٣].

وبعد أن أسقط الفرس الدولة البابلية، سمح الملك قورش الفارسى لبنى السبى من يهوذا بالعودة إلى وطنهم فعاد عدد كبير، ولكن كثيرون آخرون فضلوا البقاء فى بابل والمدن الأخرى حيث أعمالهم وتجارتهم.

١٢. فى عهد الحاكم الفارسى لبابل، وبعد أن اقتصر بنو إسرائيل على بنى السبى من مملكة يهوذا والشتات القليل الذى انضم إليهم وأخذوا اسم اليهود ودينهم اليهودية، يأتى نص نادر فى العهد القديم يناقض المبادئ العنصرية الدخيلة التى تقصر الدين على بنى إسرائيل، يقول النص: «إن كثيراً من شعوب الأرض تهوّدوا لأن رعب اليهود وقع عليهم» [سفر أستير . الإصحاح الثامن . ١٧].

وعموماً، فإن هذا النص الذى بقى ونجا من كهنة العنصرية . ورغم تبريره المتعجرف الذى قد يكون سر نجاته . يكشف عن الاعتراف بحق الدخول فى اليهودية من خارج بنى إسرائيل، فإذا ما أضيف إلى ذلك ما ورد فى سفر عزرا . الإصحاح الرابع من أنه بعد عودة بنى السبى تقدم إلى رؤسائهم عدد من السكان المقيمين فى فلسطين يطلبون بناء بيت الرب معهم؛ لأنهم مثلهم يعبدون إله إسرائيل. وما جاء فى وصايا موسى بشأن سريان أحكامها على الغرباء يصبح واضحاً أن عبادة الله الواحد ودين موسى لم تكن حكراً على بنى إسرائيل . الأمر الذى حاولت توراة الكهنة أن تخفيه وتقصره عليهم وحدهم . ونحن نعلم هذا حق العلم من القرآن الكريم، ولكننا الآن نحاول إثباته استخلاصاً من نصوص العهد القديم التى بين أيدينا فى هذا الزمن لعلها تكون حجة عليهم فيما يدّعونه.

ونستخلص مما تقدم من تتبع الأحداث فى العهد القديم أن بنى إسرائيل بعد الخروج من مصر ودخول فلسطين قد جرى عليهم ما جرى على جميع شعوب الشرق القديم، وفرضت عليهم سياسة الأمر الواقع وموازين القوى أن يعيشوا بين شعوب الأرض، وخلال مراحل حياتهم سواء قبل الشتات أم بعده. خرج من دينهم الكثير جداً، ودخل فى دينهم الكثير أيضاً من الشعوب الأخرى، وقد جاءت محاولات تشريع عزلهم واستعلائهم على شعوب العالم بعد يعقوب بأكثر من ألف سنة، وكان الأمر فعلاً قد فات أوانه، وتفرقت الغالبية العظمى من أحفاد الأسباط بين شعوب الشرق وكانت الأقلية الباقية من اليهود تضم بعضاً من الباقين من سبطى يهوذا وبنيامين والكهنة اللاويين وشتاتاً قليلاً من أحفاد أسباط دولة إسرائيل مع هؤلاء الذين دخلوا فى ديانة إسرائيل من الشعوب، ولم يكن مجدياً لكهنة يهوذا لطم الخدود ونتّف الشعور لأجل إعادة قومية إسرائيل بعد أن أصبح

من المستحيل البحث عن الأحفاد وجمع سلالة يعقوب، ولم يمكنهم أن يخفوا حقيقة حجم شتاتهم وتفرقهم فى الأرض، حتى إخوانهم المعلومين بينهم ميسورى الحال فى بابل رفضوا العودة وفضلوا تجارتهم وأعمالهم. وقد كان الذين أُسروا لبابل قلة من بنى إسرائيل، والذين عادوا بعضاً منهم وأيضاً مختلطين منذ سنوات ما قبل الأسر أو فى سنى الأسر. ومن السذاجة أن نصدق أنهم بعد بابل استجابوا لصراخ عزرا والكهنة ورقّت قلوبهم لبكائهم وتمزيق ثيابهم ونتف شعورهم وأخرجوا من بينهم الزوجات الأجنبيات وبنيهم الذين ولدوا منهن، فذلك وهم لم يتحقق إلا فى خيال وأمانى الكهنة وهم يجمعون الكتاب المقدس من ذاكرتهم وعقولهم المقهورة والذليلة فى سنوات السبى بعد الشتات وضياع الوطن ميراث الأجداد. وعندما لاح فى الأفق أمل العودة واستعادة الوطن كان معظم بنى إسرائيل قد تفرقوا بين شعوب الشرق فى العراق والشام ومصر، فأجهدت الفئة القليلة التى لملمت نفسها من الشتات عقولها فى وضع ما تصورت أنه التشريعات التى تكفل حماية قوميتهم فتأسست العنصرية بكل صورها سالفة البيان فى هذا الكتاب.

وفى هذا العصر الحديث وبعد هذه القرون الكثيرة من عمر الزمان لم يتغير من الأمر شىء، وما زالت سلالة الفئة القليلة المختلطة التى تلملمت من بين الفئة القليلة التى بقت فى الماضى من يهوذا وبعض من شتات إسرائيل تستند إلى العنصرية التى وضعها كهنة الماضى فى معاداة شعوب الشرق الحديث التى من المؤكد أنها تضم ضمن نسيجها الغالبية الأعظم جداً من أحفاد أسباط إسرائيل، ليحق قول الله تعالى: «**وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا** (١٠٤)» [الإسراء].

◁◁ جدول يوضح المراحل الزمنية للقصة الدينية لحياة بنى إسرائيل والملوك المصريين المعاصرين داخل النطاق الزمنى للفترة موضوع البحث، الممتدة منذ الهجرة إلى مصر وحتى نهاية عصر المملكة الموحَّدة، طبقاً لمنهج الدراسة فى هذا البحث.

الفترة التاريخية	مصر	فلسطين
حكم الهكسوس لمصر الأسرتان ١٥ و ١٦ من (١٦٧٥ ـ ١٥٥٠ ق . م) ● بدأ دخول الهكسوس بزحف شعوب أجنبية على مصر فى موجات استغرقت قرابة خمسين سنة، وتركزت إقامتهم فى شرق الدلتا وشمال هليوبوليس، وفى العام (١٦٧٥ ق . م) أسس أول ملوكهم «ساليتس» الأسرة ١٥، وأعلن أواريس عاصمة لهم. ● ومن أشهر ملوكهم: ـ يعقوب حار: ١٨ عاماً ـ خيان: ٥٠ عاماً ـ أبوفيس الأول: ٤٠ عاماً (جدول تورين)	ـ أصبحت مصر فى هذه الفترة مقسمة إلى ثلاثة أقسام: ● الدلتا ومصر الوسطى: تحت حكم الهكسوس. ● مصر العليا: مستقلة تحت حكم الأسرة ١٧، الوطنية التى بدأت حروب التحرير فى عهد «سقنن رع». ● بلاد النوبة وكوش: حررت نفسها وحكمت بواسطة ملك كوش. ـ دخل بنو إسرائيل مصر فى العام (١٦٤٣ ق . م) وسكنوا فى شرق الدلتا، وفى الأرجح أن حياة يوسف عاصرت نهاية حكم يعقوب حار، ثم الملك خيان، وربما تكون وفاته فى عهد أبوفيس الأول، وشهدت هذه الفترة بداية مرحلة الدعوة والانتشار الدينى فى مناطق حكم الهكسوس.	ـ كانت تسمى أرض كنعان، وتتكون من مدن وأقاليم زراعية أو رعوية كثيرة متفرقة ومستقلة تسكنها قبائل مهاجرة من الجزيرة العربية منذ زمن قديم، أهمها: العموريون والآموريون والكنعانيون والفينيقيون، وقد خرج من هؤلاء القبائل بطون وأفخاذ أخرى كثيرة انتشرت فى فلسطين وبلاد الشام، وكان قوم سيدنا إبراهيم من الأقوام المهاجرة من بلاد النهرين إلى فلسطين. ـ وقد هاجر يعقوب (إسرائيل) وأبناؤه الأسباط، وعائلاتهم إلى مصر أثناء حكم الهكسوس.

الفترة التاريخية	مصر	فلسطين
الأسرة ١٨ (١٥٥٠ ـ ١٢٩٥ ق.م) . أحمس: (١٥٥٠ ـ ١٥٢٥ق.م) . أمنحوتب الأول: (١٥٢٥ ـ ١٥٠٤ق.م) . تحوتمس الأول: (١٥٠٤ ـ ١٤٩٢ق.م) . تحوتمس الثانى: (١٤٩٢ ـ ١٤٧٩ق.م) . حتشبسوت: (١٤٧٩ ـ ١٤٥٨ق.م) . تحوتمس الثالث: (١٤٥٨ ـ ١٤٢٥ق.م) . أمنحوتب الثانى: (١٤٢٥ ـ ١٣٩٧ق.م) . تحوتمس الرابع: (١٣٩٧ ـ ١٣٨٧ق.م) . أمنحوتب الثالث: (١٣٨٧ ـ ١٣٤٩ق.م) . أمنحوتب الرابع (إخناتون): (١٣٤٩ ـ ١٣٣٣ق.م) . سمنخ كارع: (١٣٣٥ ـ ١٣٣٣ق.م) . توت عنخ آمون: (١٣٣٣ ـ ١٣٢٤ق.م) . آى: (١٣٢٤ ـ ١٣٢١ق.م) . حورمحب: (١٣٢١ ـ ١٢٩٥ق.م)	. طرد الهكسوس تحت قيادة أحمس. . بدء تكوين الإمبراطورية، وصلت إلى أقصى مداها فى عهد تحوتمس الثالث، تمتد من الفرات شمالاً إلى نبتا جنوباً. . استمرار حياة بنى إسرائيل فى مصر طبقاً للمراحل التالية: ١. مرحلة الدعوة والمد الدينى، التى بدأت فى عهد الهكسوس، واستمرت حتى مواجهة حتشبسوت لهم، واعتبرتهم من فلول الهكسوس وشتت قيادتهم الدينية. ٢. مرحلة المؤامرات الإسرائيلية للحصول على النفوذ والأموال وإعداد فلسطين لهجرتهم. امتدت من عهد تحوتمس الرابع إلى نهاية عهد آى، وتمكنوا من السيطرة على البلاط الملكى ومؤسسات الدولة وإضعاف النفوذ المصرى فى آسيا. ٣. بداية مرحلة التعذيب فى عهد «حور محب». . ميلاد موسى فى أواخر عهد «حورمحب» فى مدينة أفاريس.	. سيادة مصرية كاملة على فلسطين ابتداء من عهد «تحوتمس الأول»، وتدعيم النفوذ والقبضة العسكرية وإدارة المستعمرات فى عهد «تحوتمس الثالث» تحت سيطرة المراكز العسكرية والحاميات المصرية فى المدن الرئيسية. . ضعف النفوذ المصرى على المستعمرات الآسيوية، ابتداء من عهد «أمنحوتب الثالث» دون خروج فلسطين عن قبضة مصر. . لا يوجد أى كيان لبنى إسرائيل فى فلسطين.

الفترة التاريخية	مصر	فلسطين
الأسرة ١٩ (١٢٩٥ ـ ١١٨٨ ق . م) . رمسيس الأول: (١٢٩٥ ـ ١٢٩٤ق . م) . سيتى الأول: (١٢٩٤ ـ ١٢٧٩ق . م) . رمسيس الثانى: (١٢٧٩ ـ ١٢١٣ق . م) . مرنبتاح: (١٢١٣ ـ ١٢٠٤ق . م) . آمون مس: . سيتى الثانى: . مرنبتاح سى بتاح: . تا وسرت: من (١٢٠٤ إلى ١١٨٨ق . م)	. حروب «سيتى الأول ورمسيس الثانى» لاستعادة النفوذ المصرى فى آسيا. . معاهدة سياسية بين مصر وخيتا (الحيثيين) تنازلت فيها مصر عن قادش وآمورو فى سوريا، واحتفظت بجنوب سوريا والساحل الفينيقى وكل أرض فلسطين تحت السيادة المصرية. . استمرار مرحلة التعذيب والاضطهاد لبنى إسرائيل إلى نهاية حكم رمسيس الثانى. . هروب سيدنا موسى إلى مدين فى عهد رمسيس الثانى، وعودته نبياً مبعوثاً إلى مصر فى العقد قبل الأخير من حكم رمسيس الثانى. . خروج موسى وبنى إسرائيل من مصر فى نهاية حكم رمسيس الثانى عام (١٢١٣ ق . م) وبداية سنوات التيه.	. سيادة مصرية كاملة على فلسطين حتى نهاية عهد هذه الأسرة. . حملة لمرنبتاح إلى آسيا، تسجل خضوع مناطق فلسطين لسيطرة مصر، وسجلت الحملة اسم إسرائيل لأول مرة فى التاريخ، على نحو يؤكد عدم وجود أى كيان (بذرة) لهم فى هذه المناطق، بما يتفق تاريخياً ووجودهم فى هذا التوقيت فى فترة التيه التى بدأت فى العام (١٢١٣ ق . م).

الفترة التاريخية	مصر	فلسطين
الأسرة ٢٠ (١١٨٨ - ١٠٧٦ ق . م) - ست نخت: (١١٨٨ - ١١٨٦ق . م) - رمسيس الثالث: (١١٨٦ - ١١٥٤ ق . م) - من رمسيس الرابع إلى رمسيس الحادى عشر: من (١١٥٤ إلى ١٠٧٦ق . م)	- تقلص النفوذ المصرى تدريجياً حتى زال من سوريا وفلسطين. - رمسيس الثالث آخر الفراعنة المحاربين فى الدولة الحديثة، واجه شعوب البحر من ناحية ليبيا فى الغرب فى العام الخامس من حكمه، ثم من الشرق ومن البحر فى شمال مصر فى العام الثامن من حكمه، وكانت تلك الحملة فى العام (١١٧٨ ق . م) آخر عهد لمصر فى آسيا، وبعد هذا التاريخ دخلت مصر مرحلة ضعف وفساد وجفاف للنهر، وتهيأت الأوضاع تماماً لدخول بنى إسرائيل فلسطين.	- كانت حملة رمسيس الثالث فى العام (١١٧٨ ق . م) لمواجهة شعوب البحر، آخر عهد لمصر فى فلسطين. - ظهور أقوام البلست (الفلسطينيين) مع شعوب البحر لأول مرة فى التاريخ واستيطانهم المناطق الساحلية فى فلسطين. - وفاة موسى وهارون فى سنوات التيه قبل دخول فلسطين. - انتهاء سنوات التيه لبنى إسرائيل ودخول فلسطين فى عهد «يشوع بن نون» عام (١١٧٣ ق . م). - وفاة «يشوع» وبداية حكم القضاة فى العام (١١٤٦ ق . م).

الفترة التاريخية	مصر	فلسطين
الأسرة ٢١ (١٠٧٦ ـ ٩٤٥ ق ـ م) ـ سمندس ـ آمون إم نسوت ـ بسوسينس الأول ـ آمون إم أوبى ـ أوسركون القديم ـ سى آمون ـ بسوسينس الثانى	لم تسجل المصادر التاريخية وجود أى نفوذ مصرى على فلسطين.	ـ معاصرة فترة حكم القضاة التى امتدت غالباً فى الفترة من (١١٤٦ إلى ١٠٢٨ ق ـ م). ـ معاصرة «صموئيل» فى آخر فترة حكم القضاة ثم «شاؤل» أول ملوك المملكة المتحدة لفترة حكم «بسوسينس الأول». ـ تسجل التوراة علاقات مصرية فلسطينية فى عهد الملك داود والملك سليمان، تشير الدراسات إلى تزامنها مع الفترة الممتدة من نهاية عهد «بسوسينس الأول» حتى منتصف عهد الفرعون «سى آمون» وأن هذا الفرعون هو الملك الذى تزوج سليمان ابنته.

الفترة التاريخية	مصر	فلسطين
الأسرة ٢٢ (٩٤٥ ـ ٧٥٤ ق . م) شاشانق الأول، من قبيلة «الماشواش» ذات الأصول الليبية يؤسس تلك الأسرة ويحكم فى الفترة من (٩٤٥ إلى ٩٢٤ ق . م) ويحكم بعده عدد من الملوك الضعاف.	ـ سجلت التوراة ترحيب «شاشانق الأول» ملك مصر بيربعام من سبط أفرايم عدو سليمان، واستضافته فى مصر حتى وفاة سليمان. ـ سجلت المصادر الدينية والمصرية حرب «شاشانق الأول» فى فلسطين وانتصاره وعودته بغنائم كثيرة، وقد استغل هذه الثروة العظيمة هو وخلفاؤه من بعده فى إقامة مبان كثيرة.	ـ وفاة الملك سليمان فى العام (٩٣٠ ق . م) وتكوين المملكتين: إسرائيل بزعامة «يربعام بن نباط الأفرايمى»، ويهوذا بزعامة «رحبعام بن سليمان». ـ «شاشانق الأول» يصعد إلى فلسطين عام (٩٢٥ ق . م)، ويهزم المملكتين إسرائيل ويهوذا ويستولى من أورشليم على كل أموال داود وسليمان، وخزائن بيت الرب، وقد اعتبرنا فى دراستنا هذا العام أول لقاء تحقق حتى الآن بين المصادر الدينية والمصادر التاريخية.

المراجع

أولاً: المصادر الرئيسية

١. القرآن الكريم.

٢. العهد القديم «التوراة».

ثانياً: مراجع القصة الدينية

١. قصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق أحمد إبراهيم زهوة - دار الكتاب العربى - بيروت.

٢. قصص الأنبياء - عبدالوهاب النجار، أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين.

٣. قصص الأنبياء والمرسلين، لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى - مكتبة التراث الإسلامى.

٤. بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر - دار الشروق.

٥. أنبياء الله، أحمد بهجت - دار الشروق.

٦. التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم - تاريخ بنى إسرائيل المبكر، تأليف الدكتور لؤى فتحى والدكتورة شذى الدركزلى - دار الحكمة - لندن.

٧. تاريخ اليهود، أحمد عثمان - جزأين - مكتبة الشروق.

٨. اليهود، د. جمال حمدان - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٩. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، للكاتب الفرنسى موريس بوكاى - ترجمة الشيخ حسن خالد مفتى الجمهورية اللبنانية - المكتب الإسلامى.

١٠. ما بين موسى وعزرا كيف نشأت اليهودية؟ - عبدالمجيد همو - الأوائل للنشر والتوزيع - دمشق.

١١- التاريخ الحقيقى لليهود، نجيب زبيب - دار الهادى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
١٢. آرام دمشق وإسرائيل فى التاريخ والتاريخ التوراتى، فراس السواح ـ دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة ـ دمشق.
١٣. المعجزة والإعجاز فى القرآن الكريم، دكتور سعد الدين السيد صالح ـ دار المعارف .
١٤. معجزة القرآن الكريم، دكتور شوقى ضيف ـ دار المعارف ـ القاهرة.

ثالثاً: مراجع الأحداث التاريخية

١. أجزاء موسوعة مصر القديمة، دكتور سليم حسن ـ مكتبة الأسرة.
٢. مصر الفرعونية، دكتور أحمد فخرى ـ مكتبة الأنجلو المصرية.
٣. الشرق الأدنى القديم ـ الجزء الأول، دكتور عبدالعزيز صالح ـ مكتبة الأنجلو المصرية.
٤. مصر الخالدة، دكتور عبدالحميد زايد ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٥. فجر الضمير، تأليف: جيمس هنرى برستد ـ ترجمة الدكتور سليم حسن ـ مكتبة مصر.
٦. دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ الجزآن السابع والثامن: إسرائيل، د. محمد بيومى مهران.
٧. تاريخ مصر القديمة، دكتور رمضان السيد ـ مطابع هيئة الآثار المصرية.
٨. تاريخ مصر القديمة، نيقولا جريمال ـ ترجمة: ماهر جويجانى، مراجعة د. زكية طبو زادة ـ دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ باريس.
٩. رمسيس الثانى فرعون المجد والانتصار، تأليف: كنت أ. كتشن، ترجمة: د. أحمد زهير أمين ـ مراجعة د. محمود ماهر طه.
١٠. رمسيس الثانى، فرعون المعجزات، تأليف: كريستيان ديروش نوبلكور ـ ترجمة: فاطمة عبدالله محمود ـ مراجعة: محمود ماهر طه المجلس الأعلى للثقافة.
١١. زوجات رمسيس الثانى وبناته وأبناؤه، تأليف كريستيان ليبلان ـ ترجمة: ماهر جويجانى ـ دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ـ القاهرة.
١٢. إخناتون ذلك الفرعون المارق، تأليف: دونالد ريدفورد ـ ترجمة: بيومى قنديل ـ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ـ الإسكندرية.
١٣. نفرتيتى الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد، تأليف: جوليا سامسون ـ ترجمة: مختار السويفى مراجعة د. محمد جمال الدين مختار ـ الدار المصرية اللبنانية.

١٤ـ الملك الذهبى عالم توت عنخ آمون، دكتور زاهى حواس ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة.

١٥ـ أهم آثار الأقصر الفرعونية، دكتور سيد توفيق.

١٦ـ عصور فى فوضى من الخروج إلى الملك إخناتون ـ تأليف: إيمانويل فلايكونسكى ـ ترجمة: د. رفعت السعيد، جماعة حور الثقافية.

١٧ـ حضارة مصر القديمة منذ أقدم العصور حتى نهاية عصور الأسرات الوطنية ـ جزآن، تأليف الدكتور رمضان عبده على ـ مطابع المجلس الأعلى للآثار.

١٨ـ السحر والسحرة عند الفراعنة، تأليف: إيفان كونج ـ ترجمة: فاطمة عبدالله محمود ـ مراجعة: د. محمود ماهر طه ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٩ـ مصر وكنعان وإسرائيل فى العصور القديمة، تأليف: دونالد ريدفورد ـ ترجمة: بيومى قنديل ـ المشروع القومى للترجمة ـ المجلس الأعلى للثقافة.

٢٠ـ ديانة مصر الفرعونية الوحدانية والتعدد، تأليف: إريك هورنونج ـ ترجمة: دكتور محمود ماهر طه ـ مصطفى أبوالخير.

٢١ـ مصر أصل الشجرة ـ جزآن، تأليف: سيمسون نايوفتس ـ ترجمة: أحمد محمود ـ المشروع القومى للترجمة.

٢٢ـ تاريخ شبه جزيرة سيناء، بحث للدكتور أحمد فخرى ضمن محتويات موسوعة سيناء ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٣ـ المدخل الشرقى لمصر ـ دراسة موقع آثار شمال سيناء، يسرية عبدالعزيز حسنى ـ هلا للنشر والتوزيع ـ الجيزة.

٢٤ـ معجم الحضارة المصرية القديم، جورج بوزنر ـ سيرج سونرون ـ جان يويوت ـ أ.أ.س.إدواردز ـ ف. ل. ليونيه ـ ترجمة: أمين سلامة ـ مراجعة: د. سيد توفيق ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

رابعاً: المراجع الأجنبية

1- Tombs. Treasures. Mumies. Dennis C. Forbes-The United states of America .

2- Egypt-The World of the Pharaohs - Edited by Regine Schulz and Matthias Seidel.

3- Akhenaten - Egypt's False Prophet - Nicholas Reeves .

4- Valley of the Kings - John Romer .

أحدث إصدارات مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع

م	اسم الكتاب	المؤلف
١)	الفلسطينيون – سقوط المحرمات	عماد سيد أحمد
٢)	سفر العشاق	عزت السعدنى
٣)	حكايات وراء الأغانى – زمن الفن الجميل	مصطفى الضمرانى
٤)	أفريقيا تتحول – كلام فى الديمقراطية	د/ عبد الملك عودة
٥)	المثقفون وثورة يوليو	د/ مصطفى عبد الغنى
٦)	مدخل إلى احتراف الترجمة	إبراهيم الخضرى
٧)	رحلات بن عطوطة	محمود السعدنى
٨)	مسافر على الرصيف	محمود السعدنى
٩)	تقرير النمو استراتيجيات النمو المطرد والتنمية الشاملة	
١٠)	مأزق الحركة الشيوعية المصرية	طلعت رميح
١١)	كنتم عايشين أزاى؟	د/ شريف قنديل
١٢)	الدبلوماسية المصرية والهموم العربية	هانى خلاف
١٣)	من بوش إلى أوباما	د/ وليد محمد عبد الناصر
١٤)	مجلس الأمن فشل مزمن وإصلاح ممكن	أحمد سيد أحمد
١٥)	مقتنيات الأهرام (شعبى – بورترية – مناظر)	
١٦)	شخصيات بين الأسطورة والواقع	ممدوح عبد المنعم
١٧)	المرأة من السياسة إلى الرئاسة	محمد عبد المجيد الفقى
١٨)	صحيفة الاتحاد وموقعها فى الصحافة العربية	مجموعة من المؤلفين
١٩)	ثورة المرأة	شريف الشوباشى
٢٠)	إيران جمهورية إسلامية أم سلطنة خمينيه؟	مجموعة من المؤلفين
٢١)	الفتنة الكبرى الجديدة	محمد الأنور

منافذ توزيع إصدارات مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع

■ القاهرة

• ١٦٥ شارع محمد فريد	ت : ٢٣٩٠٤٤٩٩
• مكتبة الأوبرا – ميدان الأوبرا – العتبة	ت : ٢٥٩٠٦٢٧٢
• مكتبة الأهرام – أركاديا مول	ت : ٢٥٧٧٥٤٤٨

■ الفنادق السياحية

• شيراتون القاهرة ٨٨	ت : ٢٧٧٠٤٥٧٤ – ٣٣٣٦٩٨٠٠
• جراند حياة القاهرة – داخلى ٦٣١٥	ت : ٢٣٦٢١٧١٧ – ٢٣٦٤٨٢٣٠
• هيلتون رمسيس (السوق التجارى)	ت : ٢٧٧٠٤٦٤٦ – ٢٥٧٧٧٤٤٤
• سميراميس انتركونتيننتال	ت : ٢٧٩٢٢٥٣٧
• إنتركونتيننتال هليوبوليس مدينة نصر	ت : ٢٤٨٠٠١٠٠

■ بنها

• شارع الشهيد فريد ندى	ت : ٠١٣/٣٢٢٣٨٤٨

■ الإسكندرية

• طريق الزعيم جمال عبد الناصر	ت : ٠٣/٤٨٤٨٥٦٣

■ الزقازيق

• شارع ٢٣ يوليو – عمارة الأوقاف	ت : ٠٥٥/٢٣٠٦٦٥٧

■ أسيوط

• مبنى جامعة أسيوط	ت : ٠٨٨/٢٣٣١٠٦٥

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

•• قديمة جديدة، غائبة حاضرة، شغلت المؤرخين، والجغرافيين، وعلماء الأديان. إنها قصة بنى إسرائيل، نشأة وموطنا وحضارة وأديانا. تناولها الباحثون دراسة وتحليلا ، منهم من يبحث عن حقيقة، ومنهم من يبحث عن ذريعة، ولكل أدلة وأهداف متباينة.

وهكذا اشتد الخلاف، نظرا لتباين الاتجاهات وتعدد المشارب. ومن هذه النقطة بدأ المستشار هشام سرايا فى إعداد أطروحته ساعيا إلى تحديد الزمن الذى دارت فيه أحداث قصة بنى إسرائيل فى مصر مقدما رؤية جديدة يناقش خلالها تفاصيل هذه القصة وأشخاصها والطريقة التى رويت بها فى القرآن والتوراة منتقداً روايات أخرى ، ومحللا شخصية فرعون موسى، وهل هو فرعون واحد أم أكثر، وينتهى إلى تفسير ما يسمى بقضية ميراث الأرض وأرض الميعاد.

مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع
توزيع الأهرام
مطابع الأهرام التجارية - قليوب



